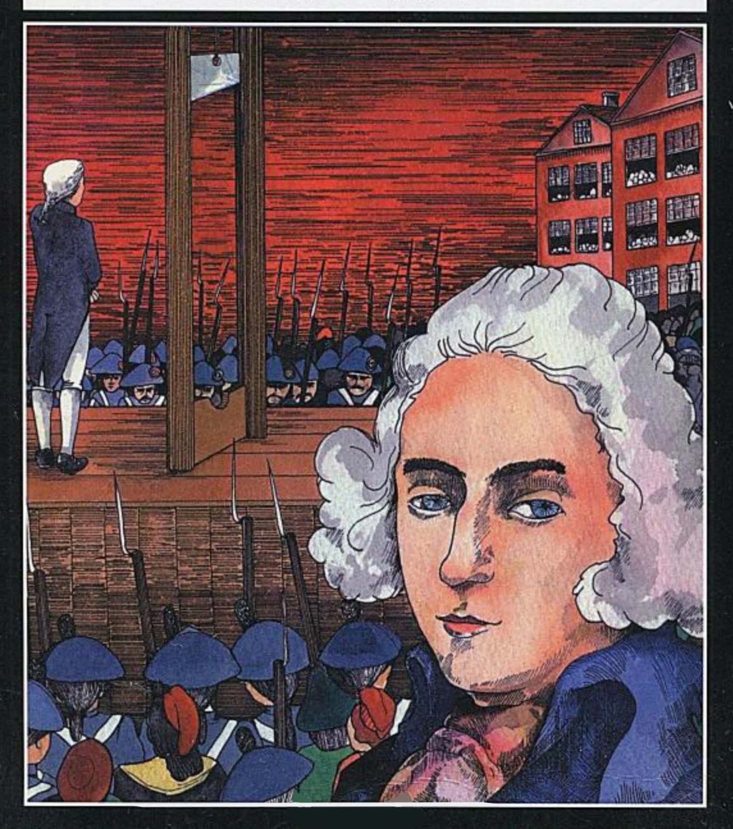
16

روائع الأدب العالمي

إعترافات جان جاك روسو

تأليف الكاتب الفرنسي

جان جاك روسو



إعترافات جان جاك روسو

إعترافات جان جاك روسو

تاليف
جان جاك روسو

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب

LES CONFESSIONS DE J.J. ROUSSEAU

إسم المؤلف

Jean Jacques ROUSSEAU

حلم .. طالما تمنيت تحقيقه!

عزيزي القارئ ..

- بصُدور هذه الترجمة الكاملة (لاعترافات) "جان جاك روسو" يتحقق حلم من اضخم الأحلام الأدبية التي راوَدتني منذ عَشِقت الأدبَ، وأدركتني حرفَته!.. ويتجسَّم هدف من اعز الأهداف التي اغرتني بإصدار سِلْسِلة (مطبوعات كتابي) منذ زمن قريب.

ولئنْ كانت هذه المطبوعاتُ قد تمكنَت من ان تبلُغ هذا الهدفَ في مثْلِ هذا الزمن القصير، بعد ان ظلت (اعترافات) "روســـو" منيعة "مُستعصية" على النَّشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين، تُرجِمت خلالهما إلى جميع اللغات الحيَّة، ما عدا لغتَنا العربية!.. فإن هذه السِّلْسلةَ ما كانت لتُحقِّقَ هذا الهدف من اهدافها لو لم تَتلقها انت وتتعهَّدها منذ وُلِدَتْ برعايتك وإعْزَازِك اللذيْن مَكنّاها من تذليل جميع الصِّعاب التي تعترض طريقها، والسير قُدُما نحو غايتها.

وإذا أردت ان تعرف قيمة هذا الكَنْز الأدبي الخالد الذي تُوافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم فإليك ما كتبه عنه المفكر المطَّلع الاستاذ "سلامه موسى" في عدد ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٥٥ من جريدة "اخبار اليوم".. إذ قال: "واعترافات "جان جاك روسو" من الكتب التي كان يجب ان تُترجَم إلى لغتنا قبل ١٠٠ او ١٥٠ سنة.. فلقد تغيرت "أوروبـــا" بتأثير افكار هذا الأديب، ونستطيع ان نَعْزوُ أهمَّ التطورات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه التي يتلخص مَغْزاها في كلمات معدودة، هي:

" ان الطبيعة حسنة، والإنسان طيب ولكنهما يَفْسُدان بالمجتمع السيء.. فما أحْوجَنا في البلاد العربية إلى هذه الخَمائر"!

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الاستاذ "عبد الرحمن صدقي" في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ شباط (فبراير) عام ١٩٣٩ يقول: "انقضى نَيِّفٌ ومائة وستون سنة على وفاة "روســـو"، وانصرف الأدباء وجَمْهَرة القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعي) و(إميل) و(هيلويز الجديدة)، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته)؛ ذلك ان الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتَّبْديل، اما نَجوْى النفس البشرية فهي لاتتغير ولاتتبدل، فنحن نتعرَّف فيما نحسه في اعماقنا على غرائز رجل الكهوف.. فكم بالحري إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب (الاعترافات)، اقرب إلى عصرنا بثقافته، وإن كان اشبه باهل الفطرة في صراحته، وجُرْأته؟!".

والواقع ان هذه (الاعترافات) التي تقدم "مطبوعات كتابي" إليك اليوم اول ترجمة امينة كاملة لها باللغة العربية، والتي تعتبر من اعظم الشوامخ الخالدة في الأدب "الكلاسيكي"، هي أدقُّ واصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري "جان جاك روسو"، في الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل.. ولقد كان من اهم الميزات التي كَتَبتْ الخلود لهذه (الاعترافات) انها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه، فيُظْهرها على حقيقتها الكاملة دون اي زَيْف او تَستُّر.. فقد سجل "روســـو" في هذا الكتاب ادقَّ احداث حياته - خيرها وشرها، طيبها وخبيثها - دون ان يَحْفُلَ من مواجهة الحقيقة، وكانه مؤمن صادق التوبة يُصارِحُ إلهه باخطائه بُرْهانا على صدق توبته، والتماسا

لصفحه.

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذي ابْتَغَاه "جان جاك روسو"، من وراء تسجيل اعترافاته؟

قد نجد الجواب عن هذا السؤال في مُؤلفاته التي سبقت (الاعترافات) وفي كتاب (إميل) بالذات.. فلقد اورد "روسو" في هذا الكتاب، وفي بعض مؤلفاته السابقة، صُوَراً من حياته، ومن الشخصيات التي صادفته واثَّرتْ فيه .. ولكنه كان يَسْدُل عليها ستْراً من الزَّيف و"الرتوش"، شان كل كاتب واديب، حين تُوحي إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تَنْساب على طرف قلمه اثناء الكتابة فيحاول ان يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التي تُباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية في نظر القارئ!

ولكن "روسو" كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى اكثر من مجرد رسم شخصيات، او افتعال احداث . كان يسعى إلى ان يُقدِّم تَجاربه للناس، سيما في ميدان التربية ورعاية النشء. فلما وَاتَتْه الجُرْاة، نزع سِتْر الزيف والتضليل، وساق الحديث صريحا واضحا، واعترف بالسرقة والانحراف – مثلا– لِيُنبِّه الآباء إلى العوامل التي قد تدفع بالابناء بعيدا عن جَادَّة الصواب .. ولِيُنَبِّه المجتمع إلى الاشياء التي تنكبه بالمنحرفين من الاعضاء.

وهذا ما نلمسه واضحا في بعض مواضع من (الاعترافات): فهو يقول تعليقا على معاملة ابيه لاخيه الاكبر: "كان من جرَّاء الحنان الضَّافي الذي أسْبغهُ أبي عليَّ ان اهمل هذا الاخ.. وتاثرت تربية اخي بهذا الإهمال، فسلك مسالك السوء قبل ان يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور!" .... إلخ

.. ويُبيِّن– في سِيَاق حديثه عن المدة التي قضاها في تعلم حِرْفَة الحفر على المعادن– كيف ان مُخَالطةَ الصغار لزملاء يَكْبُرونهم سنا، ويختلفون عنهم بيئة ونشاة يدفعهم إلى الخضوع لما يوحي به إليهم هؤلاء الكبار. إذ تَعوَّد "جان" الصغير السرقةبإيعَاز من زميل له!

كل هذه الصور توحي بان (الاعترافات) لم تكن– في غايتها – سوى دروس اجتماعية وتربوية.

الاضطهادات تلاحقه في

كل مكان!

– ولقد تناولت (الاعترافات) حياة "روسو" حتى سنة ١٧٦٥ . ومن الطَّريف انه بدا في وضعها عندما هاجر إلى "إنجلترا" . فإن بعض كتبه السابقة–(**إميل**)و(**العقد الاجتماع**) و(**هيلويز الجديدة**)–تضمنت من الآراء والمُهَاجَمَات ما اثار غضب حكومة "**فرنسا**"، ورجال الكنيسة،وانصار المدارس الفلسفية في "**فرنسا**" و"**هولندا**" و"**جنيف**"، حتى لقد أُحْرقَتْ كتبه عَلَناً في بعض البلدان، واضْطرَّ إلى ان يهرب من "فرنسا" إلى جمهورية "بيرن"، ولكن مجلس شيوخها امره بمبارحتها،،رحل إلى "موتييه" بمقاطعة "نيوشاتل" – وكانت تحت حكم "**فردريك الثاني البروسي**"..

على ان "روسو" ما لبث ان اصدر كتاب (**خطابات الجبل**)، فإذا الضجة التي احدثها هذا الكتاب تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة "**سان بيير**" في بحيرة "**بيين**" .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية "**بيرن**" عاد فامره بمُبَارحة هذه الجزيرة التي كانت تابعة للجمهورية!

وكـان "روسـو" قد تَلَقَّى دعوة من صديق إنجليزي، فسافر إلى "إنجلترا" .. ووصل إلى هناك في كانون الثاني (يناير) سنة١٧٦٦، فمكث شهرين في "لندن" ، ثم انتقل إلى الريف في "ووتون" بـ"ستراد فورد شاير" حيث وضع الكراسات الست الأولى من (الاعترافات) ، وتصادف أن نشرت الصحف في تلك الأثناء خطابا بتوقيع ملك "بروسيا" ، يَطعنُ في اخلاق "روسو" ، فَظَنَّ هذا بمضيفيه وأصدقائه في "إنجلترا" الظنون ، ونَزَح في أيار (مايو) سنة ١٧٦٧ إلى "أميين" ، حيث نزل بقلعة "تراي" التي كانت ملكا للأمير "دي كونتي" ، فاقام بها رَدَحاً تحت اسم "رينو" ! ..

وهناك استأنف كتابة(الاعترافات) . ثم رحل إلى "جرينوبل"،فما لبث أن ملها وسئم أهلها، من ثم رحل إلى "بورجوان" ، بيد أن جوها لم يلائم صحته؛ فانتقل في سنة ١٧٦٩ إلى "مونكان" ، حيث أتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..

وما لبث "روسو" أن عاد إلى "باريس" ، حيث سُمِحَ له بالإقامة ، على شريطة ألا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين.

فانصرف إلى نقل "النوتات" الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعِلْيَةِالقوم. حتى إذا كان شهر أيار(مايو) سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف- الذي كان قد بلغ السادسة والستين من عمره- إلى كوخ في "أرمنونفيل" يملكه الكونت "جيراردان" .. وهناك، تُوُفِّيَ فجأة في ٣ تموز (يوليو) من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس – ومنهم مدام "دي ستايل" – إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات في نَوْبَة صَرَع.

الطبعة التي ترجمنا منها

الاعترافات

– ولقد كان من عادة "روسو" أن يُشْرِف بنفسه على إصْدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل في الطبعات التي تصدر بعد ذلك فَيُضيفُ إليها بعض الملاحظات ، دون أن يحذف أو يغير شيئا من موادها.

ولقد تولى ثلاثة من أقرب خُلَصَائِه – هم "دوبيرو" و"مولتون" الجنيفي ومركيز "جيراردان" – فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم بِصَدَد(الاعترافات) إلى إصدار طبعة منها في "جنيف" في سنة ١٧٨٢ على أن "دوبيرو" لم يَرْضَ عن التعديلات التي أُدْخِلَتْ على الكراسات الست؛ فأصدر بنفسه طبعة أخرى، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق ، لاسيما رسائل "روسو" .

وفي سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من (الاعترافات) أُخِذَتْ عن أصول قدمتها مدام "روسو" ، ولاتزال محفوظة في البرلمان الفرنسي .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الأخرى ، لايَعْدو مجرد تعديلات بسيطة في بعض العبارات ، وليس في الوقائع.

والترجمة التي تُقَدِّمها لك "مطبوعات كتابي" اليوم أُخِذَتْ عن طبعة أصدرتها دار "لوليفر" في سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها؛ ومن ثم فهي تُعْتَبر أدق طبعة صدرت من "اعترافات جان جاك روسو" .. وقد بُذِل في نقلها إلى العربية كل جَهْد ممكن للمحافظة على النص

والروح بأمانة تامة ، لم يَشُبْها اي اختصار ، او حذف، او تحوير . . بل لقد بُذلتْ عناية فائقة لجعل التعبير والأسلوب اقرب ما يكونان إلى النص الذي كتبه الأديب العبقري ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية . .

واخيرا ، فاملي ان تكون "مطبوعات كتابي" بنقلها هذاالتُراثِ الإنساني الخالد إلى لغتنا قد ساهمت في تَزْويد المكتبة العربية بأثر شامخ من شوامخ الاعمال الأدبية الباقية على الزمن . .

وبهذه المناسبة ؛ أحْسبُك تُقرُني على انه لم يكن من الممكن نشر كتاب بلغ الالف صفحة تقريبا، في جزء واحد من "مطبوعات كتابي" ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هذه (الاعترافات) في خمسة اجزاء متتابعة، اولها هذا الجزء الذي بين يديك . .

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثاني من هذه الاعترافات .

والله ولي التوفيق

حلمي مراد

الكراسة الأولى

١ - من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إنني مُقْدِم على مشروع لم يَسبقْهُ مَثيل، ولن يكون له نَظير ؛ إذ إنني أبْغي ان اعْرِضَ على اقراني إنسانا في اصدق صُوَرِ طبيعته.. وهذا الإنسان هو : انا !.. انا وحدي..! فإنني اعرف مشاعر قلبي، كذلك اعرف البشر ! ولست اراني قد خُلِقْتُ على شَاكِلة غيري ممن رايت، بل إنني لاجرؤ على ان اعتقد بانني لم اخلق على غِرار احد ممن في الوجود!.. وإذا لم اكن افضل منهم فإنني - على الأقل- اختلف عنهم!.. ولن يَتسنَّى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد اصابت او اخطات إذ اتلَفَتْ القَالَب الذي صَاغَتْني فيه إلا بعد قراءة هذه الاعترافات!

فإذا ما انطلقت آخر صيحات بُوقَ البعث، عندما يُقَدَّر له ان يُدَوِّي، فلسوف أمْثُلُ امام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يَدَيْ، ولسوف اقول في رباطة جَاش: " هذا ما فعلت، وما فكرت، وما كنت.. لقد رَوَيْتُ في كتابي الطَّيبَ والخَبيثَ على السواء، بصراحة، فلم امح اي رديء، ولا أنتحلت زورا ايَّ طيب، وإذا كنت قد استخدمت بعض التَزْويق الفارغ - بين وقت وآخر - فما ذلك إلا لأملأ فراغا نشا عن نقص في الذاكرة. ولربما قطعت بصدق امرا اعرف انه "قد" يكون صحيحا ولكنني قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا.. لقد صورت نفسي على حقيقتها : في ضِعَتِها وزرايَتِها.. وفي صلاحها، وحَصَافَة عقلها، وسُمُوِّها.. تبعا للحال التي كنت فيها!.. لقد كشفت عن اعمق اغوار نفسي، كما كنتَ انت تراها، ايها الخالد السَرْمَدي.. فاجْمع حولي الحَشْدَ الذي لاحَصْرَ له من ابناء جنسي، ودعهم يُصغُون إلى اعترافاتي، فَيَرْثُون لخِسَّتي، وَيخجَلُون لمثَالبي. ثم ادْعُ كلا منهم إلى ان يكشف بدوره - وبعين الصراحة- اسرار فؤاده، عند قوائم عرشك، ولِيَقُل إن جَرُؤ: " لقد كنت خيرا من ذلك الرجل"!

*****

ولدت في "جنيف"، في عام ١٧١٢ للمواطنين "إيزاك روسو" و"سوزان برنار"، وكان تقسيم ميراث اسرة ابي - على قلته- بين خمسة عشر ابنا وابنة، قد هبط بنصيب ابي إلى نَذْرٍ لايكاد يذكر، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ"ساعاتي" - وكان في الحق جِدُّ بارع فيها - اما امي فكانت احسن منه حالا. كانت ابنة القس البروتستانتي "برنار"، وكانت ماهرة، جميلة، وقد وجد والدي عناء في الظفر بيدها، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا ان يتمشيا كل مساء في طريق "تريي"، ابدع طرق "جنيف" فلما صارا في العاشرة، لم يعودا يفترقان.

وعزز التَّعَاطُفُ والائتلافُ الروحي ذلك الإحساس الذي خلقته الألفَةُ بينهما.. ولم يكن كل منهما - وقد خُلِقَ مُرْهَفَ الحس رقيق الشعور - ليرجو سوى تلك اللحظة التي يتاح له فيها ان يكتشف عند الآخر نفس ما كان يُخَالِجُهُ من إحساس.. او - على الاصح- كانت تلك اللحظة ترتقبهما، فاسلم كل منهما قلبه للآخر في اول فرصة.. وكانني بالقدر - حين لاح انه يُعَارِضَهُما- قد زادهما وجدا.. وإذا بالعاشق الشاب الذي عجز عن الظفر بحبيبته - إذ ابى اهلها ان يُزَوِّجُوه

إياها- يذوب اسى وحزنا، فنصحته فتاته بالتَّرحال ، وبأن يسعى لنسيانها ، فسافر ، ولكن .. دون جدوى !إذ عاد مُدلَّهاً أكثر من ذي قبل ! ووجد تلك التي احبها لاتزال وفية ، صادقة الحب ، فلم يبق لهما - بعد تلك التجربة التي اختبرا بها عاطفتهما - إلا ان يظلا متحابين طيلةَ عمريهما .. فاقسما ان يفعلا ذلك، وباركت السماء تعاهدهما!

وحدث ان وقع "جابرييل برنار" - شقيق امي- في حب إحدى شقيقات ابي . فلم تُوافقْ على خطبته إلا على شريطة ان يتزوج اخوها من اخته ، وهكذا دبر الحب كل شيء، وعُقدتْ الزيجتَان في يوم واحد ، فاصبح خالي زوج عمتي، وقُدِّرَ لاولادهما ان يكونوا اولاد عمومة وخُؤُولة لي .. وفي نهاية العام الأول للزواج رزقَ كل من الفريقين بطفل، ثم تَشتّتَ شملهما . فقد كان خالي مهندسا ، فَعُينَ في خدمة الإمبراطورية- في "المجر" - تحت إمرة الأمير - "يوجين" ، واستطاع أن يُبْلي بلاء حسنا في معركة "بلجراد" . اما ابي فقد رحل- بعد مولد اخي الأوحد - إلى "القسطنطينية" ، حيث استُدعِيَ ليتولى منصب "ساعاتي السلطان" واستطاعت امي - في غيابه - ان تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من اشد هؤلاء المعجبين تَهَافُتاً مسيو "دىلاكلوزير" ، المندوب الفرنسي المقيم ، ولابد ان شغفه بها كان عارما ؛ فقد رايته شديد التأثر وهو يحدثني عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما! على ان امي كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو اكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حبا مُبَرِّحاً . وقد راحت تُلحفُ عليه في العودة؛ فترك كل شيء ورجع . وكُنْتُ الثمرة التَّعِسَةُ لهذه العودة؛ إذ وُلِدتُ بعد عشرة أشهر، ضعيفا سقيما . وقد كبدت امي حياتها ، وكان مولدي أول ما حاق بي من نحس وتعاسة ! ولم يقص على احد قط كيف احتمل ابي هذا المصاب ، ولكني اعرف انه لم يَتَعَزَّ ابدا ، وكان يَخَال أنه يرى زوجته في شخصي، دون ان يقوى على ان ينسى انني الذي حرمته إياها ! .. ابدا لم يحتضني دون أن الاحظ - من تنهداته والاختلاجات التي كانت تعتريه وهو يضمني إلى صدره- أن حسرة مريرة كانت تُخَالِطُ قبلاته ، فلا تزيدها إلا حنانا. وكان إذا قال لي : "لنتحدث عن امك يا "جان جاك" اجيب : "حسناً ، لسوف نبكي إذن يا ابت!"

وكانت هذه العبارة وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف مُتَأوها: "آه! .. الا رُدَّها إلي! .. كُنْ عزائي عن فقدها ، واملأ الفراغ الذي خلفته في نفسي ! .. افتراني كنت احبك هذا الحب كله لو انك كنت مجرد ابن لي؟" .. وبعد اربعين عاما من مُصَابه فيها مات بين ذراعي زوجة ثانية .. ولكن اسم الأولى كان على شفتيه ، وصُوَرتُها في قَرَارة فؤاده!

وهكذا كان الاثنان اللذان أو جداني ، ولم يورثاني - من كل النعم التي اسبغتها عليهما السماء- سوى قلب رقيق مرهف الحس .. ولقد كان قلباهما مَنْبَعي سعادتهما ، اما قلبي فقد كان منبع كل شِقْوَة في حياتي!

*****

ولقد هبطت إلى الدنيا في حال تَقرُبُ من الموت، فلم يكن ثمة امل يذكر في إنقاذ حياتي . وكنت احمل في كياني بُذُور عِلَّة اخذت تقوى على مر الزمن ، ولا تبارحني في بعض الأوقات ، إلا

---

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فإن اباها القس كان يحبها إلى درجة العشق ، ولقد بذل في تعليمها وتربيتها عناية فائقة؛ ومن ثم فإنها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود .. كما كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم اشعارا لا بأس بها وقد حدث- اثناء غياب زوجها واخيها - ان خرجت للنزهة مع زوجة أخيها، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين، وإذا هي تقول على الفور شعرا هذا معناه:

لتقسو في تعذيبي بشكل آخر . وقد أولتني إحدى عماتي – وكانت شابة لطيفة فاضلة – من الرعاية ما انقذ حياتي . وهي لاتزال حتى كتابة هذه السطور على قيد الحياة ، ولقد بلغت الثمانين من عمرها، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سنا ولكن الإفراط في الشراب أنهك قُواهُ . إنني لاغفر لك، يا عمتي العزيزة ان ابقيت على حياتي، وما اعمق أسفي إذ اراني عاجزا عن ان أرد إليك – في أواخر ايامك – تلك الرعاية السابغة التي أوليتنيها في أوائل ايامي! (١) .. كذلك لاتزال مرضعتي العزيزة العجوز "جاكلين" على قيد الحياة، موفورة الصحة والقوة ، وكأني باليدين اللتين فتحتا عَيْنيّ عند مولدي ستُغمضانهما عند وفاتي !

ولقد تَنبهَ إحساسي قبل ان يتنبه فكري .. وهو شيء يحدث لجميع البشر، ولكنني كنت اكثر من سواي خبرة به وتجربة له .. ولست ادري ماذا كنت افعل قبل ان ابلغ الخامسة او السادسة ، ولا اعرف كيف تعلمت القراءة.. وكل ما اذكره، اول مرة قرات فيها ، وما كان لها من تاثير ، فقد اتخذتها تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات ..وكانت امي قد خلّفت بعض قصص غرامية، شَرَعْتُ في قراءتها مع ابي، عقب العشاء ، في كل ليلة ، وكان القصد من ذلك – في البداية– مجرد تدريبي على القراءة، بالاستعانة بالكتب المشوقة. وكان الشغف لم يلبث أن دب فينا، فكنا نَتَناوَبُ القراءة دون توقف ، وننْفقُ ليالي باكملها في هذا العمل ، وكنا نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نَفْرُغَ منه ، وكان ابي يقول احيانا في استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع في الشقشقة مع مطلع النهار: " هيا بنا إلى الفراش .. كأني انا الطفل ولست أنت ! " .

وبفضل هذا الأسلوب الخطر استطعت في أمد قصير ان اكتسب حذْقاً بالغا للقراءة والفهم.. ليس هذا فحسب بل إنني احرزت أيضا دراية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل في سني ، فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مالوفة لدي، وإن لم اكن ادرك كُنهَهَا .. كنت احس بكل شيء ، دون ان افقه كنه احاسيسي. فمن المؤكد ان هذه المشاعر المُهَوَّشَةَ المبهمة التي كنت اشعر بها واحدة بعد اخرى – لم تُؤلف نسيجا قوي الإدراك لدي؛ لانني لم اكن احظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنها ساعدت على تشكيلها في اعماقي على نسق خاص ، واوحت إلي بافكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تُبرئني تماما منها طيلة حياتي !

٢- من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٣

وفرغنا من الروايات في صيف سنة ١٧١٩ ، فإذا الشتاء التالي يوافينا بمادة تختلف عنها؛ إذ إننا لم نكد نُستَنْفدُ مكتبة أمي حتى تحولنا إلى نصيبها – الذي آل إلينا – من مكتبة ابيها . وكان بها بعض كتب دسمة ، لحسن الحظ. وما كان من المنتظر ان تكون غير ذلك إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان – في الوقت ذاته – عالما ، على غرار ما كان مالوفا في ايامه. كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء! وكان من هذه الكتب التي آلت إلينا : " **تاريخ الإمبراطورية والكنيسة**" لـ"**لوسيور**" ، "**ورسالة في تاريخ العالم**" لـ"**بوسويه**" و"**حياة مشاهير الرجال**" لـ"**بلوتارك**" و"**تاريخ البندقية**" لـ"**نافي**" و"**التطورات**" و"**الأصول**" لـ"**أوفيد**" و"**العوالم**" و"**حوار الموتى**" لـ"**فونتنيل**" ، وبعض مؤلفات "**موليير**" ..

---

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام "جونسيرو" . وقد رتب لها "روسو" – منذ مارس سنة ١٧٦٧ – معاشا قدره مائة جنيه، كان يدفعه إليها دائما ، وفي مواظبة دقيقة حتى في أشد أوقات ضيقه اوهذان السيدان الفاليان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحبيبانا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلنا!

فنقلت كل هذه إلى غرفة ابي، واخذت اقرؤها عليه وهو عاكف على عمله ، وكنت استوعبها في استساغة نادرة، بل لعلها كانت لُذة بالنسبة لعمري ، واصبح "بلوتارك" - بوجه خاص- هو احب المؤلفين إلى نفسي، فابرائي الاستمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذي كان قد تملكني نحو الروايات ، وسرعان ما شُغلتُ بابطاله، وبدات أفَضّلُ "إجيسلاوس" و"بروتس" و"ارستيدس" على "أورونداتيس" و"إرتاميس" و"جوبا" ، وقد ادى هذا الاطلاع المشرق والمحادثات التي كان يثيرها بيني وبين ابي إلى تَولّد روح الحرية في نفسي .. تلك الروح الأبيّة، المنيعة ، التي لاتُطيقُ العبودية او الاسترقاق ، والتي عذبتني طوال حياتي ، في مواقف كانت بعيدة عن ان تُتيحَ لها مجالاً.. وهكذا اصبحت افكاري في شُغُل لاينقطع بـ"روما" و"أثينا" ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد اذكى حماسي انني وُلِدت مواطنا في جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هي اشد عواطفه اتقادا ، فكنت إخَالُ نفسي إغريقيا او رومانيا- حسب شخصية العظيم الذي اقرأ سيرته - وكنت أذيبُ شخصيتي في شخصيته ، كما كان الإسْهَابُ في ذكر صفات الجلد والبسالة - التي كانت تستهويني - بجعل عيني تُومضان ، وصوتي يقوى وقد حدث ذات يوم ان انطلقت أروي سيرة "سيكفولا" للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا فإذا بالجزع يتولاهم إذ رأوني في غمرة التحمّس اتقدم فاضم قبضتي على "المِشْوَاة" .. "الشواية" - الساخنة ،لاصور عملا من اعمال البطل! وكان لي شقيق يكبرني بسبع سنوات ، يتلقى عن ابي حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضّافي الذي اسبغه ابي علي، ان اهمل هذا الآخر ، وهي معاملة لااقرها ولا أحَبِّذُهَا ! .. وتاثرت تربية اخي بهذا الإهمال؛ فسلك مسالك السوء قبل ان يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور. وقد عهد به ابي إلى معلم آخر ، فكان لاينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى إنني نادرا ما رايته واكاد اقول إنني لم اكن اعرفه ! على انني لم اكف عن ان احبه في شغف . اما هو فقد احبني كما يحب الشريد اي شيء! .. واذكر ان ابي عاقبه - في إحدى المناسبات بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسي بينهما، واحتضنته.

وبذلك حجبت جسمه بجسمي ، فتلقيت عنه الضربات التي كانت موجهة إليه! .. وظللت متشبثا بهذا الوضع في عناد، حتى اضطُر ابي في النهاية إلى ان يتخلى عن العقاب ،إما لان صرخاتي ودموعي الانت قلبه ، او لانه خشي ان يُؤذِيني اكثر مما كان يؤذي اخي. على ان حال هذا الاخ ما لبث ان ازدادت سوءا، ففر واختفى كل اثر له ، وسمعنا بعد ذلك بزمن انه كان في "المانيا" ، بيد انه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الإطلاق ؛ ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبي!

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالإهمال إلا ان هذه لم تكن حال اخيه .. انا ! فما كان ابناء الملوك ليَحْظَوْا باكثرمن الرعاية التي حَظيتُ بها في سني حياتي الأولى .. كنت احظى بحب كل المحيطين بي.. على ان هذا الحب لم يجعل مني طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المالوف في الاطفال الذين يحظون بحب اهلهم، ولم يتح لي قط- إلى ان غادرت دار ابي- ان اجري في الطرقات مع سواي من الاطفال ، ولا احتاج احدا إلى ان يشجع او يَكْبَحَ في نفسي تلك النزوات الخيالية التي تعترض حياة الاطفال ، والتي تُعْزَى- خطأ- إلى الطبيعة، وهي في الواقع من ثمار التربية.. ولقد كنت ارتكب المآخذ المالوفة لدى اقراني في السن: فكنت ثرثارا ، نَهِماً، كذوبا في بعض الاحيان .. وربما كنت اسرق بعض الفاكهة ، او الحلوى ، او الماكولات.. ولكني لم انشد قط متعة في إيذاء الغير ، او الإضرار بهم ، او اتهامهم، او في تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة ، وإن كنت اذكر انني تبولت مرة في قدر او وعاء لجارة لنا- تدعى مدام "كلو" - بينما كانت في الكنيسة. وإني لأجهر ، حتى بعد ان بلغت هذه السن، بان ذكرى هذا

الحادث تثير ضحكي . . فقد كانت مدام "كلو" أكثر الذين عرفتهم إمعانا في الشكوى والجاجة في التذمُّر ، وبرغم أنها كانت طيبة عدا ذلك . . وهذه - بإيجاز وصدق- كبرى إساءاتي في الطفولة!

✽✽✽✽✽

وكيف كان من الممكن ان أغدُو شريرا ، وقد كانت عيناي لاتقعان إلا على امثلة للطف والدماثة، ولم يكن يحيط بي سوى خير ناس في الدنيا؟ . . والحق ان ابي وعمتي ومربيتي واقاربي وأصدقائي وجيراني ، لم يكونوا يخضعون لرغباتي ولكنهم كانوا يحبونني ، وكنت انا الآخر احبهم ، وقليلا ما كانت رغباتي تُثير - او تستحق- معارضة ، حتى لَيَخطُر لي انني لم تكن لي اية رغبات على الإطلاق! . . وبوسعي ان اقسم على أنني ما عرفت كنه النَّزَوات او الشَّطط في الهوى ، إلى ان قُدِّر لي ان اعمل في خدمة معلم . وما عدا الأوقات التي كنت اقضيها في القراءة أو الكتابة- بصحبة أبي- او التي كانت مربيتي تصْحَبني فيها للنزهة . . ما عدا هذه الأوقات كنت دائما مع عمتي ، اجلس او اقف إلى جوارها ، ارقبها وهي تطرز ، او أصْغِي إليها وهي تغني . . وكنت أغْتَبِطُ بهذا ، ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح أثرا عميقا، بهيجا في ذهني، حتى إنني لاأزال اتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا ازال اذكر لهجتها الحنون . . وبوسعي ان أصف ما كانت ترتديه من ثياب، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تَتَدلَّيان على صَدْغَيْهَا ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائعا في ذلك العهد .

وإني لاعتقد بأنني مدين لها بميلي - بل ولعي - بالموسيقى، وهو الولع الذي لم يستكمل نموه في نفسي إلا بعد ذلك بزمن طويل، وكانت تعرف عددا من الالحان والاغاني الممتازة،التي اعتادت ان تُرَدِّدَها بصوت جد رفيع رخيم! . . وقد كان الطرب الذي فُطِرَتْ عليه نفس هذه المراة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب، وكان السحر الذي يفرضه غناؤها على نفسي عظيما ، حتى إن بعض اغانيها بقيت على الدوام في ذاكرتي . . بل إن كثيرا من اغانيها التي كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتي تَرِنُّدّ اليوم إلى ذهني - بعد ان فقدت هذه العمة ، وبعد ان تقدم بي العمر-مصحوبة بسحر لاقبل لي بوصفه ! أَيُصَدِّق احد أنني وقد غدوْتُ شيخا مُخرِفا تَنْتَهِبُهُ الهموم والمتاعب أجد نفسي- في بعض الأوقات - منخرطا في البكاء كالطفل عندما اترنم بإحدى هذه الاغاني بصوت مُتحَشْرِج مهدم؟ . . بل إن إحدى هذه الأغاني عاودتني بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت علي بعض كلماتها ، برغم كل جهد ابذله لاستعادتها . . وها هو ذا مطلعها ، وكل ما استطيع ان اذكره من بقيتها:

" لست أجرؤ يا "تيرسيس" على سماع مزمارك تحت شجرة الدّرْدار.

"فقد بدأ القوم يتحدثون عنا في قريتنا!

" . . راع، . . . من خطر، فالشوك دائما تحت الورد" (١)

وإني لاتساءل : أين السحر المؤثر الذي يجده فؤادي في هذه الأغنية؟ . . إنها نزوة واهمة لاأستطيع ان افهمها ومع ذلك فمن المستحيل تماما ان اردد هذه الاغنية دون ان تقطع علي دموعي الاسْتِرْسَالُ فيها! ولقد اعتزمت مرارا لاحصر لها ان اكتب إلى "باريس" متحريا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها ، على أنني أكاد أكون موقنا من ان قسطا من الطرب الذي أشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى إذا تبينت ان هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتي "سوسن" المسكينة!

✽✽✽✽✽

---

(١) لا تزال هذه الاغنية معروفة في "باريس" وشائعة بين طبقات العمال فيها وهذه هي تتمة الكلام الناقص :
" القلب إذا ما إنشغل بحب راع، لا ينجو من خطر" . "فالشوك دائماً تحت الورد" .

وهكذا كانت مشاعري الأولى في بداية عهدي بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون وينكشف في صدري ذلك القلب الأبي الشفوق، وتلك الشخصية التي لاتلين ولاتنثني برغم رقتها القريبة من الأنوثة ، والتي استطاعت خلال حياتي - بتذبذبها بين الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس - أن تجعلني مُتقلِّبا ، والتي تسببت في أن أصبحت التقوى والمتعة، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتي على السواء !

ثم تطلع على المضي في الحُظوة بهذه التربية حادث كان لتَبِعَاته تأثير على كل ما تبع ذلك في حياتي : فقد اشتجر أبي مع "يوزباشي" في الجيش الفرنسي يدعى "جوتييه" ، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبي ، ولقد نزف أنف ذلك "الجوتييه" - الذي كان جبانا ، وقحا - أثناء الشجار، فأراد أن يثأر لنفسه ، واتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تَشَبَّثَ أبي - الذي أرادوا أن يلقوا به في السجن - بأن لابد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقا للقانون ، فلما عجز عن أن يحقق هذا آثر أن يهجر "جنيف" ، وأن يَنْفي نفسه من وطنه بقية حياته على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !

وبقيت أنا في كنف خالي "برنار" ، الذي كان في تلك الحقْبة يعمل في إنشاءاستحكامات "جنيف" ، وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقي له ابن في مثل سني ، فأوفدنا معا إلى "بوسي" لنقيم في رعاية القس البروتستانتي "لامبرسييه" ، كي نتلقى - إلى جانب اللغة اللاتينية - كل تلك السفاسف الداعية للأسف ، والتي يزج بها تحت اسم التربية والتعليم. وقد الانت السنتان اللتان قضيتهما في القرية من خشونتي الرومانية بعض الشيء ، وردتاني طفلا من جديد ، ففي "جنيف" كنت أهوى المطالعة والاطلاع، إذ لم تكن ثمة مَهَام مفروضة علي .. أما في "بوسي" فإن واجباتي جعلتني أحب الألعاب التي كانت تُتيحُ لي الفرار من تلك الواجبات، وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلي ، فلم يَهُنْ استمتاعي به ، وقد تملكتني عاطفة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التي قضيتها هناك تملأ نفسي حنينا محسورا إلى بهجتها ، في كل فترات حياتي، حتى اليوم الذي قدر لي فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم!

ولقد كان مسيو "لامبرسييه" لبيبا ، ذكيا ، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات ، ولم يهمل في تعليمنا . ويكفي دليلا على أن أسلوبه في التعليم كان جيدا ، إنني برغم كراهيتي للقيود ، لم أذكر مرة سُوَيعات دراستي بامتعاض.. وإنني ، حتى إذاكنت لم أتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت في غير عناءما تلقيته عنه ، فلم أنسه أبدا . وكانت بساطة الحياة الريفية لاتُقدَّر بقيمة في اعتباري ، فقد فتحت قلبي للصداقة. إذ إنني لم أكن قد عرفت حتى ذلك الحين سوى بعض المشاعر ، التي كانت - على سموها - خيالية متعلقة بأوهام!. على أن تعود العيش في وئام مع ابن خالي- وابن عمتي في الوقت ذاته- شَدَّ كلا منا إلى الآخر بروابط من التعاطف ، وسرعان ما أصبحت عواطفي نحوه أكثر مودة من تلك التي كنت أوثِرُ بها أخي ، ولم يقدر لها قط أن تُهَن أو تضعف ، وكان ابن خالي طويلا ، نحيفا ، ضعيفا .. رقيقا في مسلكه بقدر ما كان رقيقا في بنيانه، لم يحاول مطلقا أن يسيء استغلال الإيثار الذي كان يلقاه في البيت بوصفه ابن الرجل الذي كان يَكْفُلني ! .. وكانت واجباتنا ، وميولنا ، وأذواقنا واحدة ، وكنا وحيدين، وفي سن واحدة ، وكل منا بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق - في نظرنا - نوعا من الهلاك! .. ومع أنه لم تُتَحْ لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلق المتبادل إلا أنه كان تعلقا قويا شديدا ، فلم يكن من العسير علينا - فحسب- أن نعيش لحظة متباعدين ، بل إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق!

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يَجْنَح إلى اللُطف والدَّعة مع الآخر - في الأحوال التي لم

يكن فيها اي قَسْر- فإننا كنا دواما على اتفاق في كل شيء . وإذا كان ابن خالي قد اعتاد ان يحظى بشيء من الامتياز دوني ، عندما كنا نجتمع باللّذين كانا يرعياننا - نظرا لمكانته في اعتبارهما - فإنني كنت احظى ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت - ونحن نستذكر دروسنا- اؤنبه إذا ما ابطأ ، كما كنت اساعده إذا ما فرغت من واجباتي الدراسية .. اما في تسليتنا والعابنا ، فقد كان عقلي اكثر نشاطا من عقله دائما ؛ مما كان يكفل لي الزعامة . وقصارى القول إن شخصيتينا انْسَجَمَتَا تمام الانسجام ، كما ان الصداقة التي توثقت بيننا كانت من الإخلاص الصادق بحيث إننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التي قضيناها معا ، سواء في "بوسي" او في "جنيف" .. ومع اننا كنا نشتجر احيانا ، إلا ان الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لاكثر من ربع ساعة ولا كان اي منا يشكو الآخر او يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية - إن شئت ان تراها كذلك - ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا في نوعه ، مذ وُجِدَ اطفال على الارض!

*****

ولقد راقت لي الحياة التي مارستها في "بوسي" حتى إنها لو دامت اطول مما قُدِّرَ لها لكانت خليقة بان تُشَكِّلَ شخصيتي .. فقد كان اساسها الحنان ، والعطف ، والرقة.. وكنت اومن بان احدا من ابناء نوعنا لم يكن يبزني فيما فُطِرْتُ عليه من تحرر من الغرور، وكنت اسمو بنفسي فاحلق عاليا ، ثم لا البث سراعا ان اهوي إلى ضعفي الطبيعي واسْتِخْذَائي ..

كانت اكثر رغباتي إلحاحا ، هي ان اكون محبوبا لدى كل من يتصل بي عن كَثَب ،وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالي ، والشخصان اللذان وُكِلَتْ إليهما رعايتنا ؛ ومن ثم فإنني لم اشهد ، ولا خبرت - خلال عامين كاملين- اي شعور اهْوج عنيفا بل كان كل شيء يغذي في قلبي تلك الميول التي اودعته الطبيعة إياها ، ولم اكن اعرف سعادة تسمو على ان ارى كل الدنيا راضية عني ، وعن كل شيء ! ولن انسى ما حَيِيتُ ان شيئا لم يكن يَقُضُّ راحة بالي قدر مشاهدتي امارات القلق والاستياء على محيا الآنسة "لامبرسييه" - اخت القس - عندما كان يُقَدَّرُ لي ان اتردد او أتَلَعْثَمُ ، وانا اتلو الدرس الديني من الذاكرة في الكنيسة . كان هذا - في حد ذاته - أكثر إزعاجا لي من ان اكشف عن عجز في امام الملا ، على ما كان في هذا من إيلام لنفسي؛ ذلك لانه وإن لم يَسْتَخِفَّنِي الإطراء إلا انني كنت شديد التاثر بما يخجل ، وإني لاذهب هنا إلى القول بان التفكير في تانيبات الآنسة "لامبرسييه" كان اقل إزعاجا لي من الخوف من ان اجرح شعورها!

على ان الشدة لم تكن تُعْوِزُ الآنسة وشقيقها -إذا دعا إليها الامر- ولكن هذه الشدة كانت عادلة في الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال او مَوْجِدَة ؛ ومن ثم فإنها كانت تؤلمني دون ان تثير تمردي .. كان الإخفاق في الإرضاء أقْسَى وقعا على نفسي من العقاب، وكانت امارات الاستياء اكثر إيذاء لي من العقاب البدني .. وقد يكون من المُحْرِج ان امضي في الحديث عن نفسي باكثر من هذا ، ولكنني لااجد بدا .. فما اشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قُدِّرَ له ان يرى بجلاء مدى آثار اسلوب المعاملة المالوف الذي يُنْتَهَجُ دائما دون ما تَبَصُّر ولاحكمة !.. وان الدرس الهام الذي قد يستمد من مثال واحد - شائع بقدر ما هو خطير العواقب - ليحملني على ان اروي هذا المثال:

كانت الآنسة "لامبرسييه" تُكِنُّ لنا حنان الامومة ، ولكنها كانت كذلك تفرضُ علينا سُلْطان الام، وكانت احيانا تذهب في ذلك إلى حد معاقبتنا - كما يعاقب الأطفال - عندما نستحق ذلك. ولقد اكتفت - بعض الوقت - بالتهديدات؛ فكان الإنذار بالعقاب يبدو لي رهيبا ؛ إذ كان جديدا علي .. على انني تبينت - بعد تنفيذه - ان الواقع كان اقل رهبة من الترقب ..والاغرب من ذلك ، ان العقاب جعلني اكثر تعلقا بتلك التي أنْفَذَتْهُ في ! ووجدتني بحاجة إلى ان أتَذَرَّعُ بقوة هذا التَّعَلُّق، وبكل ما اُوتِيتُ من وداعة فطرية؛ لأكْبَحَ نفسي عن إتيان ما قد يجعلني اهلا لتكرار العقاب؛ إذ إنني كنت اشعر بالألم - على ما فيه من خزي - بلذة تجعلني اقل خوفا، واكثر رغبة في ان احظى به مرة اخرى، من نفس اليد!

ولاريب في ان غريزة جنسية ما -ذات نضوج مبكر سبق اوانها - كانت تخالط هذا الشعور ؛لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما اوقفه بي شقيق الآنسة! .. على انه لم يكن ثمة خوف من ان يَحِلُّ القس محل اخته في معاقبتي ، نظرا لرقة مشاعره. وإذا كنت قد نأيت بنفسي عن ان استحق العقاب، فما كان ذلك إلا عن خوف من ان اتسبب في استياء الآنسة "لامبرسييه" . ذلك لان كرم الخلق كان اقوى تاثيرا على نفسي من كل لذة حسية؛ ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة في اعماقي!

ولقد نَجَمَ تَكْرَارُ العقاب - الذي تفاديته دون ان اخشاه- عن غير ذنب مني .. ولي ان اقول إنني افَدت منه ، دون اي تَبْكِيت من ضميري.. ولكن هذه المرة الثانية كانت هي الاخيرة كذلك؛ لان الآنسة "لامبرسييه" - التي لاحظت ولاشك شيئا اقنعها بان العقاب لم يؤثر الاثر المنشود- اعلنت ان هذا العقاب يُضْنِيهَا، وانها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام في غرفتها، بل وفي سريرها احيانا ، اثناء الشتاء . ولكنا - بعد يومين - نقلنا للنوم في غرفة اخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير، وهو شرف كنت على استعداد لان اتخلى عنه مغتبطا!

*****

وهل يصدق احد ان هذا العقاب الصبياني الذي كانت تُنْزِلُهُ بي- وانا لم اتجاوز الثامنة من عمري - شابة في الثلاثين ، قد اثر على ميولي ، ورغباتي ، ونزواتي ، وعلى نفسي ذاتها ، طوال بقية حياتي، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التي كان ينبغي ان يؤدي إليها؟.. فما إن اتَّقَدَتْ مشاعري مرة حتى انطلقت شهواتي ، وإن لم تَحْفُلْ بان تتطلع إلى اكثر من الإرضاء المحدود الذي شعرت به بالفعل في ذلك العقاب! .. على انني برغم دمي الحار- الذي كان يتقد بالشهوة منذ مولدي تقريبا- صنت نفسي عن كل شائبة، حتى السن التي تستيقظ فيها ابرد الطباع واكثرها فتورا وبطئا ! .. فقضيت زمنا طويلا التهم كل الحسان اللائي كنت اقابلهن بنظرات مُتَّقِدَة ، وانا اتعذب دون ان ادري لذلك سببا ! .. وكان خيالي لا يفتا يُذَكِّرني بهن لالشيء إلا لاستغل اطيافهن على طريقتي الخاصة، فاجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة "لامبرسييه" ! .. بل إن هذا الذوق الغريب- الذي ظل كامنا في نفسي على الدوام و الذي ذهب سلطانه علي إلى حد ان فرض علي الحرمان واستبد بي إلى درجة تثير الغيظ - لم يؤثر على اخلاقي ، حتى بعد ان بلغت سني النُّضُوج، برغم انه كان خليقا - بطبيعته - بان يُقَوِّض من هذه الأخلاق!

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة،فهذه هي تربيتي بغينا . فإن عماتي الثلاث لم يكن امثلة للتقوى فحسب بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل.

وكان ابي محبا للهو ولكنه كان في لهوه من اتباع المدرسة القديمة في الكياسة، فما نطق يوماً بكلمة يمكن ان تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذارى ، ولو في حضرة نساء يُؤثرهُنّ بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب.. ولم يكن الوقار- الخليق بأن يُلتَزم في حضور الصغار - موضوع مراعاة في اسرة ما قدر ما كان مرعيا في اسرتي ، وفي حضوري ..

وقد وجدت من السيد "لامبرسييه" نفس الحرص في هذه الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة، لمجرد انها استعملت في حضورنا تعبيرا كان يعتبر مُستَهجَناً غير لائق!. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة واضحة عن ممارسة الحب بين الجنسين.. ليس هذا فحسب ، بل إن الصورة المُبهَمَة ، غير الواضحة المعالم عن ممارسة الحب ، لم تكن لتخطر ببالي إلا في اقبح الاشكال وازرأها . وكنت اشعر نحو البغايا بازدراء عَارِمٍ لم تَخِف حدته يوما ، وظل اي مشهد للفجور يملأ نفسي بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما .. وهكذا وُلِدَ استبشاعي للفسق منذ اليوم الذي سرت فيه إلى تلال "بيتي ساكونيكس" - على غير قصد واضح مني - فشهدت على الجانبين حفرا في الأرض ، قيل لي إن تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاءهن. وقد ظل مجرد التفكير في اي بَغِيٍّ ، يبعث في ذهني صورة جماع الكلاب، فكانت الذكرى وحدها كافية لان تثير اشمئزازي!

هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه تربيتي ، والذي ادى - في حد ذاته - إلى تاخير الاندلاعات الاولى لطباع قابلة للالتهاب .. اقول إن هذا الاتجاه وجد - كما ذكرت - ما يُعَزِّزُهُ في الاتجاه الذي اتخذته اولى بَوَادِرِ الحس الشهواني في حالتي.

فإن اقتصاري في شغل خيالي على ما احسست به بالفعل- برغم ما كان فوران دمي يُسببه لي من متاعب - علمني كيف احول شهواتي نحو هذا النوع من اللهو الذي كنت آلفه ، دون ان اتمادى إلى ذلك النوع الذي وجدت نفسي تبغضه ، والذي كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر ! .. فكنت في تصوراتي الطائشة ، وفي فوراتي الجنسية المكبوتة. وفي التصرفات الهَوْجَاء التي كانت تدفعني هذه وتلك إليها احيانا .. كنت في كل هذه ، الجا في "خيالي" إلى الاستعانة بالجنس الآخر، دون ان يخطر قط ببالي ان هذا الجنس يصلح لخدمة اي غرض سوى ذلك الغرض الذي كنت اتحرق شوقا إلى ان استخدمه فيه ، وعلى هذا النحو استطعت - برغم ما جُبِلْتُ عليه من طبيعة شهوانية هَوْجَاء تسبق أوانها في النضوج- ان اجتاز فترة البلوغ دون شهوات بل دون ما إدراك لاية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التي نبهت الآنسة "لامبرسييه" حسي إليها في براءة تامة، ودون ان تفطن!

فلما بلغت - مع الزمن - مبلغ الرجال إذا بالاحاسيس التي كانت خليقة بان تقضي علي ، هي ذاتها التي صانتني من الدمار.. وبدلا من ان يختفي شعوري الصبياني القديم إذا به يَقْتَرِنُ بالشعور الآخر- المتسامي- بدرجة تَعذَّر علي معها ان اقصيه عن الرغبات التي اخذت شهواتي تُذكيها في نفسي.. وكان هذا الجنون ، إلى جانب ما جُبِلْتُ عليه من خجل فطري يجعلني دائما أبعد ما أكون عن ان أروق في نظر النساء،إذ كانت تُعْوِزُنِي الجُرأة على ان اقول كل ما ينبغي ان يقال ، كما كانت تعوزني القدرة على ان افعل كل ما ينبغي ان يفعل .. ذلك لان النوع الذي كان يروق لي من المتعة - والذي كانت اللذة الاخرى هي الحلقة النهائية المكملة له - لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المراة التي تجد من نفسها استعدادا لان تمنح اللذة!

وهكذا قضيت عمري في شوق مُتَقَاعِس دون ان انبس ببِنْتِ شفة في حضرة أولئك النساء اللواتي احببتهن كل الحب .. على انني ارضيت ذوقي اخيرا - وانا اشد ما اكون استحياء من المجاهرة به- في مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت في نفسي بالفكرة! .. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمي سيدة جليلة ، وإطاعة اوامرها ، واستغفاري إياها احلى متعة في رأيي! ..

وكلما اذكى خيالي النشيط وَقْدَةَ دمائي ازداد ظهوري بمظهر العاشق الخجول . ومن السهل ان يتصور اي امرئ ان هذا النَّهْجَ في الهوى لايقود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة اولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن اجل هذا ، ندر ان ضاجعت امراة ، لكنني - مع ذلك- متعت نفسي بطريقتي الخاصة .. اعني ، في خيالي فقط !. وهكذا تسنى لأحاسيسي المنسجمة مع "طبعي" الخجول وروحي الخيالية الشاعرية، ان تصون مشاعري نقية ، واخلاقي خالصة مما يعاب، وذلك بفضل نفس النزوات التي كانت خليقة- إذا ما اقترنت بقليل من النزق- بأن تَزُجَّ بي إلى ابشع مسلك شهوي حيواني !

بهذا اكون اجتزت اصعب الخطوات في اظلم واقذر الدروب في اعترافاتي . وإنه لايسر على المرء ان يعترف بالذنب منه بان يقر بالنَّزَق الذي يدعو إلى الخِزْي. ومن ثم فإنني واثق من انني - بعد ان جرؤت على ان اقول ما قلت - لن اجْفُلَ من شيء . وفي وسع اي إنسان ان يقدر مدى ما كبدتني هذه الاعترافات ، إذا علم انني خلال حياتي كلها لم اجسر قط على ان افضي بشيء من ضلالاتي لأولئك الذين احببتهم بعاطفة هوجاء حرمتني البصر والسمع ، وسلبتني مداركي ، وجعلتني ارتجف في اختلاجات عنيفة .. فما استطعت يوما ان احمل نفسي على ان اسال امراة ان تمنحني النعمة المُشْتَهَاةُ دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها! .. اجل لم يحدث لي هذا سوى مرة احدة، وكان ذلك في حداثتي ، ومع فتاة من سني .. وحتى في تلك المرة، كانت الأنثى هي السباقة إلى العرض!

وإذ ارجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى في حياتي الداخلية اعثر على عوامل قد تبدو- في بعض الأحيان - غير ذات بال ولكنها مع ذلك اتحدت لتُنْتِجَ في قوة اثرا بسيطا مهذبا .. كما اعثر على عوامل اخرى قد تبدو- في ظاهرها - كسابقتها ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون ان يتصور المرء مطلقا انها كانت مترابطة! .. فمثلا، من ذا الذي يعتقد ان نزعة من اقوى نزعات نفسي قد هَذَبَتْ وذَلَّتْ في اعماقي النبع الذي فاض منه في دمي سيل من الشهوة ومن التَّخَنُّث؟ .. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع - دون ان اخرج عن نطاقه- صورة اخرى مختلفة:

فقد حدث ذات يوم ان كنت استذكر دروسي في عزلة في الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت امشاط الآنسة "لامبرسييه" امام المدفاة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها وجدت مشطا قد تحطمت جميع أسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم؟

لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواي ! فلما سئلت أنكرت انني مسست الامشاط، فشرع السيد والآنسة "لامبرسييه" في أخذي بالرفق، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ولكنني اصررت على إنكاري في عناد ، على ان القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتي- برغم أنها كانت المرة الأولى التي ظُنَّ فيها انني اكْذِبُ بمثل هذه الجراة! - فاعْتُبِرَتْ المسالة خطيرة، وكانت في الواقع جديرة بذلك . وبدا الذنب ، والكذب ، والعناد، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب ، ولكن العقوبة لم تنفذ

بيد الآنسة "لامبرسييه" في هذه المرة، وإنما أُرْسِلَ خطاب إلى خالي "برنار" ، فحضر واتهم ابن خالي المسكين بذنب آخر خطير ، لا يقل عن ذنبي ، فحق عليه نفس العقاب وما كان افظعه !.. فلو انهم شاءوا ان يستخلصوا العلاج من الداء، وان يقتلوا إلى الابد احاسيسي المكبوتة لما فعلو اكثر مما فعلوا في هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعري الشهوية عن إزعاجي امدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطيعوا ان ينتزعوا مني الاعتراف المنشود. ومع أنني مثلت بين ايديهم عدة مرات، تعرضت لمحاولات ارهقتني إلى درجة خليقة بالرثاء ، إلا انني لم اتزعزع عن موقفي . وكنت على استعداد لان أصْمُدَ حتى الموت، وقد عقدت عزمي بالفعل على ذلك ! واضطُرَّتْ القوة إلى ان تتراجع امام "العناد الشيطاني" الذي كان صادرا عن غلام صغير- كما وصفوا ثباتي - وأخيرا نجوت بجلدي من هذه المحاكمة القاسية وانا محطم .. ولكنني كنتُ منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث - فلست اخشى ان اعاقب ثانية من اجله - ومن ثم فإنني أعلن على مشهد من السماء انني كنت بريئا من الذنب ، وانني لم اكسر المشط او امسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت في ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالي عن كيفية حدوث ما حدث ، فإنني لا ادري ولا أستطيع ان ادري .. كل الذي اعلمه عن يقين ، هو أنني لا شأن لي به !

*****

ولكم ان تتصوروا شعور غلام خجول ، ومُطيع في حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مُفْرِطُ الكبرياء ، جامح العواطف.. غلام لم ينْقَدْ قط إلا إلى صوت العقل ، ولم يعامل إلا بالرفق ، والإنصاف، والتقدير ، فليست لديه أية فكرة عن الظلم .. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم، وعلى ايدي اولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم اكثر من غيرهم !.. فيالها من صدمة خيبت آراءه ! وياله من حادث أخَلَّ باتزان مشاعره ! وياله من انقلاب ألمَّ بقلبه وعقله وكل كيانه الذهني والمعنوي على صغره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. اما انا فإنني اعجزعن تبين او تتبع اي اثر من الآثار التي خالجتني من جرَّائه!..

ذلك انه لم يكن لي من الإدراك يومئذ ما يمكنني من ان ارى إلى اي مدى كانت الظواهر تقف ضدي ، ومن ان اضع نفسي في موقف الآخرين. لقد صمدت في موقفي ، فكان كل ما شعرت به يتمثل في قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه ..ولم احس بالالم الجسدي- برغم شدته - إلا قليلا ، وإنما كان كل شعوري ينحصر في السخط ، الغضب ، والقنوط .. وكذلك كان ابن خالي - الذي كانت حاله مشابهة لحالي ، والذي عوقب لخطا صدر عن غير إرادته وكانه كان عملا مُدبَّرا مُتَعَمدا - فقد لاذ بِسُخْط مثل سخطي ، وانساق إلى عين الانفعال الذي انسقت إليه. وإذ كنا ننام في سرير واحد فقد احتضن كل منا الآخر في ضمات تَشنُّجية،حتى شعرنا باننا نوشك ان نختنق . وعندما سري عن قلبنا الصغيرين بعض الشيء- في النهاية- بدا القلبان يَنْفُثان غِلَّهُما ، فاستوينا جالسين في سريرنا ، رحنا نصرخ بأعلى صوتنا، مرات لا عداد لها " أيها الجلاد!".. الجلاد!.. الجلاد!" .

إنني لاشعر- إذ أكتب هذه الكلمات- بان خفقات قلبي تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة امامي ابدا،ولو عشت مائة الف سنة!.. لقد ظل اول شعور لي بالعنف والظلم محفورا في نفسي إلى درجة ان كل الافكار المتصلة به تَرُدُّني دائما إلى الانفعالات الاولى التي

خالجتني .. وقد اشتد هذا الشعور ، الذي لاقيمة له في جوهره إلا لدي أنا وحدي، اشتد في حد ذاته، واستقل عن كل تأثر أو ميل شخصي ، حتى إن قلبي ليكتوي حَنَقًا كلما سمعت أو رأيت أي عمل من أعمال الظلم - مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب - وكأنما ينصب تأثيره علي أنا .. وعندما أقرأ عن فظائع أي جبار طاغية ، أو منكرات أي قس نئيم ، فإنني لا أتردد في أن أغمد خنجرا في قلب شقيين كهذين ، وأنا مسرور .. ولو قُضِيَ علي بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك !.. وكثيرا ما انهكت نفسي - حتى يَتَفَصَّدُ العرق مني - وأنا أطارد ، أو أرمي بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا، أو أي حيوان آكون قد رأيته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى!.. وقد تكون هذه الرغبة طبيعية بالنسبة لي- وإني لاعتقد أنها كذلك!-ولكن الأثر الذي خلفه الظلم الأول في نفسي ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها ألا يقوى ويشتد!

وبوقوع الحادث الذي رويته ولت طمأنينة طفولتي ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولاأزال أشعر - إلى اليوم - بأن ذكرى مفاتن طفولتي وقفت عند ذلك الحد! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور في "بوسي" ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا في جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح أن حالنا ظلت في ظاهرها على ما كانت عليه ولكنها كانت قد تغيرت في جوهرها تغيرا تاما . فإن التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم نعد تَرْبِطُ التلميذين بِرَائديهما !ومن ثم فإنا لم نعد نعتبرهما من "الملائكة" لم نعد نعتبرهما ملكين قادرين على استطلاع قلبينا ؛ ولهذا أصبحنا أقل من ذي قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، وأكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام.. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب.. وقَوَّضَتْ كلُّ رذائل السن التي كنا نجتازها بَراءَتَنا ، وألفت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد في نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان في القلب، وأصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قِنَاع حَجَبَ جماله عن أعيننا ، فكففنا عن فلاحة حوضينا في الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض في رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التي غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض. أصبحنا نكره الحياة، وأصبح الغير يكرهوننا؛ ومن ثم اصطحبنا خالي معه فافترقنا عن السيد والآنسة "لامبرسييه" وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلا !.. بل لقد مكثت حوالي ثلاثين عاما بعد مغادرة "بوسي" دون أن استعيد فترة إقامتي بها مصحوبة بأي سرور أو ذكريات!

أما الآن- وقد تجاوزت شرخ العمر، وأخذت أدنو من الشيخوخة - فإنني أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالي بينما يتوارى سواها .. إنها لتنطبع على صفحة ذاكرتي بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، وكأنني - إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل مني - أحاول أن أمسك بناصيتها، فأغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد لا لشيء إلا لأنها تنتمي إلى تلك الفترة من حياتي! .. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا في تنسيق الغرفة، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدي وأنا أتلو ما استذكرت من دروسي .. بل إنني لأتمثل الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها، بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد "لامبرسييه" . ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات و"باروميتر"وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلق على الجدار ، وأشجار الخداش(١) الكثيفة- التي كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة- تواجه مؤخرة الدار؛ ومن ثم فإنها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها أحيانا! .. وإني لأدرك أن القارئ غير راغب في الإلمام

---

(١) الخداش نبات متسلق ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق.

بكل هذا ولكني مسوق إلى ان انصه عليه ، فلماذا لاتوانيني الجرأة على ان اروي له كذلك كل الحكايات التافهة التي وقعت في ذلك العهد السعيد، والتي تهزني نشوة حين اتذكرها ؟

إنني لا توق إلى ان اروي خمسا او ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا! سأتنزل عن خمس منها، بيد انني راغب في ان اروي لك السادسة ، على شريطة ان تسمح لي بان ارويها بكل تفصيل ممكن؛ لكي اطيل في اغتباطي ! ..

ولو انني اقتصرت على ما فيه فكاهة لك لاخترت لك قصة سقوط الآنسة "لامبرسيه" في المرج، وانكشاف ظهرها- او عجزها على الاصح - لسوء حظها ، حتى لقد بان باكمله للملك "سردينيا" الذي تصادف مروره في تلك الفترة! .. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، اكثر إمتاعا لي! إذفمت فيها بدور - في حين كنت مجرد متفرج في قصة السقوط في المرج!- كما اعترف بانني لااجد ما يدعو قط إلى الضحك في حادث اثار- برغم طرافته - خوفي على سلامة شخص كنت احبه، فقد كنت احب الآنسة "لامبرسيه" كام ، بل اكثر من ام!

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .، انصتوا إلى المأساة الرهيبة ، حاولو ان تتفادوا الارتجاف إن استطعتم! .. ففي خارج باب فناء البيت كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا ان نجلس فيها فيما بين الظهيرة والاصيل. ولما كانت في غير وقاء من الشمس مطلقا فقد امر السيد "لامبرسيه" بإقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها في اكثر مظاهر الاحتفال جلالا، إذ اختير نزيلا الدار- انا وابن خالي- إشبينين للشجرة! وبينما كان التراب ينهال في الثغرة التي اقيمت فيها الشجرة، أمسك كل منا الشجرة بإحدى يديه، ورحنا نردد اناشيد الانتصار والفوز! .. ولري الشجرة انشئ حول اسفل جذعها ما يشبه الحوض ، وإذ رحت وابن خالي نرقب ريها كل يوم بشغف اشتد بنا الاقتناع- بطبيعة الحال- بان من المستحسن غرس شجرة اخرى في الشرفة ذاتها ، فإن هذا افضل من ان ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على ان نستاثر بما في هذا العمل من فضل، فلا نشرك معنا احدا .. ولهذا بادرنا فقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه في الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة اقدام من شجرة الجوز الضخمة ، ولم ننس ان نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التي حفرت حول الشجرة الاخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت في ابتكار طريقة لملء القناة بالماء، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا ان نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا ، وقضينا بضعة ايام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة في الشجرة ، فنبتت عليها اوراق صغيرة. واقنعنا نموها- الذي كنا نحسبه ونقيسه في كل ساعة - بانها لن تلبث ان تفيء علينا ظلالا ، برغم ان طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة! .. وإذ استاثرت شجرتنا بكل اهتمامنا -حتى إننا لم نعد قادرين على تلقي او استذكار اي درس- واصبحنا في غشية حجبت عن عقولنا كل شيء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لايدريان ما الم بنا ،راينا ان اللحظة الحاسمة التي لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير في رؤية الشجرة تذوي من العطش .. واخيرا ، اوحت لنا الحاجة- وهي ام الاختراع - وبطريقة تجنبنا الاسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بان نحفر قناة تحت سطح الارض، تسرب إلى صفصافتنا - خفية- قسطا من الماء الموجه إلى شجرة الجوز! .. على ان المشروع فشل في البداية ، برغم الحماس الذي اكتنف تنفيذه ، فقد حفر النفق بطريقة بدائية فلم يجر

الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شيء! لكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا، فإن الداب يقهر الصعاب جميعا ؛ ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع- شريحة إثر شريحة- واقيمت الباقية على الجانبين بميل اقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت اشبه بحاجز أو مصفاة تصد الوحل والأحجار دون ان تمنع انسياب الماء.. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسناه في حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الارض . وإذ انتهى كل شيء ، شرعنا ننتظر- ونحن في اشد الانفعال من جراء الامل والخوف- موعد الري..
وحانت الساعة اخيرا، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد "لامبرسييه" نيماون في العملية كالمعتاد بينما حرصنا نحن على ان نكون خلفه لكي نحجب شجرتنا، التي كان - لحسن الحظ - يوليها ظهره! وما إن سكب اول دلو من الماء حتى رأينا بعضه يجري إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد "لامبرسييه" على ان يلتفت، وكانت هذه هي الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة، وكيف ابتلعت الماء بشراهة ، وإذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! إذ ذاك امر بإحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين او ثلاثا من خشبنا، ثم صرخ بصوت جهوري: "قناة! قناة!" وراح يكيل الضربات في كل اتجاه ، دون ما رحمة، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها، والمصفاة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون ان ينبس القس خلال هذا العمل التدميري بكلمة، اللهم إلا ذلك التعجب الذي راح يكرره دون توقف" قناة! " .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء" قناة ! قناة! " . ومن الطبيعي ان يخطر بالبال ان المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطئ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم، لم ينبس السيد "لامبرسييه" قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا في استياء ، كما انه لمن يشر إليها بشيء مطلقا ، بل إننا لم نلبث ان سمعناه بعد قليل يقهقه مع اخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على ان الاكثر مدعاة للدهشة هو اننا - بعد ان زايلنا الخوف الأول - لم نشعر بأي انزعاج أو ضيق ، بل إننا غرسنا شجرة ثانية في بقعة اخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التي انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد في لهجة ذات معنى : " قناة ! قناة! " .. وكانت تواتيني - حتى ذلك الوقت - نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، إذ إخال نفسي مثل "اريستيديس" او " بروتس" او غيرهما من ابطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث ان زايلتني إذ شعرت باول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لي أن إنشاءنا قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد ! .. وهكذا كنت - أنا في العاشرة من عمري - أقدر على تمييز المجد من "قيصر" حين كان في الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها حيتين في ذاكرتي ، او انهما عادتا إليها بعد حين، حتى لقد كان من المشروعات التي وفرت لي سرورا عظيما- خلال رحلتي إلى "جنيف" في سنة ١٧٥٤- أن قررت الذهاب إلى "بوسي" وزيارة مراتع صباي ، وفي مقدمتها جميعا "شجرة الجوز" التي كان عمرها في ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن!..

ولكني شغلت طيلة فترة وجودي هناك ، ولم يكن لي كثير سلطان على نفسي ، فلم اجد لحظة

أرضي فيها هذه الرغبة.

وليس ثمة احتمال يذكر في ان تسنح لي هذه الفرصة مرة اخرى ، ومع ذلك فإن الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل في تحقيقها ، بل أكاد أوقن من أنني إذا قدر لي ان أعود إلى تلك البقاع الحبيبة ، وان أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة، فلن احجم عن ان ارويها بدموعي!

❁❁❁❁❁

وبعد عودتي إلى "جنيف" أقمت مع خالي عامين أو ثلاثة، ريثما يقرر اصدقائي ما ينبغي أن يتم بشأني . ولما كان خالي قد أراد ابنه ان يكون مهندسا ، فقد حمله على ان يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادئ "بوكليد"(١) فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولاني ميل إليها وإلى الرسم بوجه خاص .

وفي تلك الاثناء ، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بي أن اصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، او قسا واعظا ! . وكان ميلي يتجه إلى تفضيل الاحتمال الاخير منها؛ إذ كان الوعظ يبدو لي امرا بديعا ، بيد ان الدخل الضئيل الذي كان يدره عقار امي - والذي كان يجب أن يقسم بيني وبين اخي - لم يكن كافيا لان يمكنني من متابعة دراساتي . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار، نظرا لسني في تلك الفترة؛ ولذلك مكثت مؤقتا مع خالي ، دون ان أفيد كثيرا من وقتي ودون ان ادفع مبلغا يذكر لقاء نفقات إقامتي ، كما كان الإنصاف يقتضي .. اما خالي ، فمع انه كان محبا للهو مثل ابي، إلا انه كان عاجزا عن ان يكون مثله في تقيده بالواجب ، كما انه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكانت عمتي تعتبر من المنصرفات للتقوى - بحيث كانت تؤثر ان تنشد المزامير على أن تعنى بتعليمنا!. ومن ثم فقد أتيحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة ، ولكنا لم نسئ استغلالها قط، فكنا دائما قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر ، إذ لم نكن نفترق قط كما اننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من ابناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التي كان التبطل خليقا بأن يقودنا إليها.. بل إنني لا أخطئ إذ أقول: إننا كنا متبطلين ، فإننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك في حياتنا ، وكان من اعظم ما حبانا به الحظ ان كل الطرق التي كنا ننتهجها لتسلية نفسينا ، والتي شغفنا بها على التوالي، كانت تشغلنا معا في البيت، دون ان ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق .. فكنا نصنع اقفاصا ، وصافرات "الناي"،وخذاريف(النحلات التي يلعب بها الاطفال)، وطبولا، وبيوتا، وقاذفات للحصى ، أو مقاليع) ، واقواسا للرماية، ولقد أتلفنا أدوات جدنا في محاولاتنا أن نصنع ساعات ، كما كان يصنع هو! .. وكان لنا مزاج خاص في الإسراف في نماذج الورق، وفي الرسم، واستخدام الالوان المائية، وتوزيع الاضواء، وإفساد الالوان . لقد وفد على "جنيف" صاحب مسرح إيطالي يدعى "جامبا - كرتا" فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة ، لم نرغب بعدها في الذهاب مرة أخرى! .. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى(على غرار خيال الظل) ، فشرعنا نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل فكاهات ، فقد عكفنا على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا الأداة التي تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ، لكي نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة ، التي تذرع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كي يجلسوا وينصتوا إليها! ولكن خالي "برنار" قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من

---

(١) كان "بوكليد" عالما عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وضع اصولا - أو مبادئ - للعلوم الرياضية في ١٣ مجلدا، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات

تاليفه ، فإذابنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ!

إني لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا،ولكنها تبين كيف ان تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه، كما يبدو من أننا ندَر ان انسقنا إلى إساءة استغلال الفرص التي كانت متاحة لنا ، برغم اننا كنا سيدي نفسينا وصاحبي السيطرة على وقتنا ، في تلك السن المبكرة! . . ذلك لاننا لم نكن بحاجة تذكر إلى ان ننشد رفاقا وزملاء ، حتى إننا كنا نهمل الفرص التي تقود إلى ذلك ، فكنا إذا خرجنا للتريض، نظرنا ، ونحن نمر بأندادنا في السن ، إلى وسائل لهوهم،دون ما ادنى رغبة، بل دون مجرد التفكير في ان نشاركهم إياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفينا ان نجتمع معا ، كي نجعل من ابسط أسباب التسليةملهاة سارة ! . . وما لبثنا ان استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا، وعدم افتراقنا ، سيما وان ابن خالي كان فارع الطول ، بينما كنت انا جد قصير، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين! . . كان قوام ابن خالي الطويل النحيل، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة، وأخلاقه الرقيقة، ومشيته الهينةالمتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى في ساحة الحي "بارنا بريدانا" ! وكنا حين نغادر البيت لانسمع سوى صيحة "بارنا بريدانا" ! تحف بنا، وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئي ، إذ كنت افقد جلدي، وابدي الرغبة في العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الاوغاد الصغار، وقدر لي ان اتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة. وحاول ابن خالي المسكين ان يساعدني ما استطاع، ولكنه كان ضعيفا، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجي. على انني وإن تلقيت لكمات وافرة – لم اكن الهدف الحقيقي للعدوان، وإنما كان "بارنا بريدانا" هو الهدف. . وما لبث غيظي المستعر ان زاد من استفحال الموقف، حتى إننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار – فيما بعد– إلا في اويقات المدرسة خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا!

الا ترون إذن انني اقمت من نفسي ماحيا للمظالم! . . ولكي أصبح "بالادين" (١) حقا ، كنت في حاجة إلى سيدة، ولكنني اوتيت اثنتين! فلقد اعتدت أن اذهب – بين وقت وآخر – لزيارة ابي في "نيون" ، هي بلدة صغيرة في إقليم "فود"، استقر به المقام فيها ، وقد حظي بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففي الفترة القصيرة التي كنت امكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون في الاحتفاء بي ، وقد آثرتني سيدة منهم – كانت تدعى السيدة "دي فيلسون"– بالف قبلة، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها حبيبا لها! . . ومن الميسور أن تفهموا معنى الحب هنا إذا تذكرتم انني كنت في الحادية عشرة من عمري ، في حين أن الفتاة كانت في الثانية والعشرين! . . ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات– جميعا!– لم يكن يتورعن قط عن ان يلعبن امام الملا بدمى صغيرة– مثلي – لكي يسترن وراءها احبابا كبارا، او لكي يغوين بها هؤلاء الكبار! . . اما انا، فلم ار شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد، وانغمست بكل قلبي– او بالاحرى بكل راسي – إذ إنني لم اقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسي ، فتماديت إلى درجةالجنون، وكان طربي وانفعالي وخبالي يؤدي إلى مناظر كافية لأن تجعل اي فرد لايتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه!

ولقد الفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما اي تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما انهما يختلفان– كلاهما– عن الصداقة العاطفية. . بل إن عمري كله موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهري ، فاعتدت ان اشعر بهما معا ، وفي آن واحد . . مثال ذلك انني في الفترة التي اتحدث عنها ، وفي

---

(١) رمز للبطل الذي يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين.

ان يقترب منها اي رجل!- في تلك الاثناء بالذات حظيت عدة مرات قصيرة لكنها حافلة ، مع فتاة معينة - تدعى الآنسة "جوتون" - فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة! وكان هذا غاية الامر ، ولكن "غاية الامر" هذه - وكانت هي الغاية فعلا، بالنسبة لي- بدت في نظري منتهى السعادة.. وإذ شعرت بقيمة الغموض، وإن لم اكن ادري كيف استغله اللهم إلا في نطاق حيل الطفولة ، رحت اكيل بنفس الكيل للآنسة "دي فيلسون"- التي لم ترتب في الأمر- جزاء دابها على استغلالي كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد ان سري لم يلبث ان تكشف - وبالعظم اسفي!- او انه لم يحظ من معلمتي الصغيرة بمثل ما كنت احيطه به من كتمان ، من ثم فسرعان ما افترقنا ..

وحدث بينما كنت اجتاز "كوتانس" في طريقي إلى "جنيف"- بعد ذلك بوقت قصير - ان سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات: "جوتون تيك - تاك روسو" !

ولقد كانت هذه الآنسة "جوتون" الصغيرة فتاة فذة .. فمع انها لم تكن جميلة ، إلا انها اوتيت وجها لا يسهل نسيانه .. ولاازال اتمثله في مخيلتي في كثير من الاحيان، في حنان لا يليق بشيخ ارعن! .. وما كان شكلها ، ولا اخلاقها ، ولا عيناها -قبل كل شيء - بالتي تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر اشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذي اوحى إلي - في الواقع- بأول تفكير في هذا الدور .. ولكن اغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهيّن إدراك ماتاه .. كانت تتصرف معي بكل حريتها ، ولكنها ابدا لم تسمح لي بان اعاملها باي تحرر. كانت تعاملني كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحي إلي بان اعتقد احد امرين: إما انها لم تعد - إذ ذاك- طفلة ، وإما انها كانت - على العكس- من الطفولة بحيث إنها لم تر في الخطر الذي كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو!

وكنت اهب نفسي تماما - كما ينبغي ان يقال - لكل من هاتين الفتاتين ، فإذا ما كنت مع إحداهما ، لم افكر مطلقا في الاخرى ، وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة اي شبه - مهما يكن ضئيلا - بين المشاعر التي كانت كل منهما تبعثها في نفسي !

كان بوسعي ان انفق كل حياتي مع الآنسة "دي فيلسون" دون ان يخطر لي ان افارقها ، ولكن اغتباطي بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال ، وكنت احبها اكثر مما احببت اية فتاة من فتيات المجتمع الراقي ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهويني وتستاثر بشغفي . وكنت اشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه عني من مظاهر الإيثار امام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم في ازدراء! .. وكنت اتعذب ، ولكنني احببت العذاب ! .. وكان التصفيق ، والتشجيع، والضحك ، يبعث الثقة ،والإلهام في نفسي ..وكانت تنتابني نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثئ في فكاهات جريئة .. كان الحب يحيلني شخصا آخر ، في المجتمعات .. اما في الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلني كنت ضيق الصدر. ومع ذلك فإنني كنت اشعر بعاطفة صادقة نحوها، وكنت أتألم إذا هي مرضت ، بل إنني كنت اتمنى لو اهبها صحتي كي تستعيد عافيتها - برغم انني كنت اعرف ، بالتجربة معنى المرض ومعنى العافية!- وكنت أفكر فيها وافتقدها حين اغيب عنها .. اما حين أكون بالقرب منها فإن عناقها كان يهز قلبي ، دون ان يهز حواسي ! كنت متعلقا بها دون ما طمع يشوب حبي، فكان خيالي لا يطلب اكثر مما كانت هي تنعم علي به ، ومع ذلك فإنني لم اكن أطيق ان اراها تفعل مثل ذلك للغير . كنت احبها حب الاخ لاخته ، ولكنني كنت اغار عليها غيرة العاشق على معشوقته! .. وكنت خليقا بان اغار على الآنسة "جوتون" غيرة التركي ، او

المجنون او النمر، لو انني توهمت مرة انها قادرة على أن تبدي لغيري ما كانت تبديه لي من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت ان اسألها إياه وانا جاث امامها!

كنت اسعى إلى الآنسة "دي فيلسون" بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعال، في حين انني كنت لا اكاد أرى الآنسة "جوتون" حتى تنبهر حواسي ، فلا أعود أرى سواها ! .. كنت آلف الأولى دون ما كلفة، بينما كنت في حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى في اقصى درجات الفتنا ، واعتقد انني كنت خليقا بان اموت لو انني مكثت معها طويلا ، فإن خفقات قلبي كانت كفيلة بان تخنق انفاسي! ..

وكنت اخشى ان تستاء مني الاثنتان على السواء ، ولكني كنت اغمر الأولى بمزيد من حفاوتي ، وابدي للثانية مزيدا من خضوعي ، فما كان لأي شيء في الدنيا ان يحملني على ان اغضب الآنسة "دي فيلسون" ، اما إذا امرتني الآنسة "جوتون" بان القي بنفسي في اللهب ، فاعتقد انني كنت قمينا بان اطيعها في الحال ! .. ولم يستمر حبي - أو بالأ حرى لقاءاتي - للأخيرة سوى وقت قصير. قصير بالنسبة لسعادة كل منا! ومع ان علاقاتي بالآنسة "دي فيلسون" لم تكن في خطورة علاقاتي بالأخرى ، إلا انها لم تخل من الخطر ، بعد ان استمرت امدا اطول . وجدير بجميع العلاقات التي على هذه الشاكلة ان تنتهي دائما بطريقة شاعرية، وان تصبح مادة لزفرات الأسى . ومع ان صلتي بالآنسة "دي فيلسون" كانت اقل شدة واضطراما من علاقتي بالآنسة "جوتون" إلا انها كانت اكثر توثقا ومتانة،فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقا،ذلك الفراغ المحير الذي كنت اشعر بانني اتردى فيه بمجرد ان كنت افارقها! .. فما كنت اتحدث او افكر في سواها، وكان أساي صادقا ومحتدما ولكني اعتقد ان هذا الأسى المنطوي على البطولة لم يكن- في قراره- من اجل الفتاة نفسها ، وإنما كان للمتع التي اعتدت ان انعم بها في قرب الفتاة، دور في خلقه ، وإن لم افطن إذ ذاك! .. ولقد اعتدنا- لتخفيف لوعات البعاد- ان نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر!

وظفرت في النهاية، إذ إن الفتاة لم تستطع ان تمضي في التجلد فجاءت إلى "جنيف" لتراني . وفي هذه المرة فقدت حجاي تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، اثناء اليومين اللذين مكثتهما . فلما رحلت رغبت في أن القي بنفسي في الماء وراءها ، وتردد صراخي في الهواء! .. وبعد ثمانية أيام ارسلت لي بعض الحلوى وقفازين ، وكنت خليقا بان اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا انني علمت - في الوقت ذاته - انها تزوجت ، وان الزيارة التي راق لها ان تشرفني بها إنما دبرت في الواقع من اجل شراء ثوب الزفاف ! .. ولن احاول ان اصف حنقي ، ففي الوسع تصوره! .. واقسمت - في غضبي السامي - الا ارى "الغادرة" مرة اخرى ، إذ لم اكن لا تصور عقابا اكثر قسوة عليها من هذا ! .. ولكنها لم تمت من قسوتي ، إذ حدث - بعد عشرين عاما - بينما كنت اتنزه مع ابي في النهر ، اثناء إحدى زياراتي له ، ان سألته عن سيدتين كانتا في قارب على غير مبعدة منا ، فهتف ابي مبتسما :

"عجبا! الا ينبئك قلبك؟ .. إنها حبيبتك القديمة، التي كانت الآنسة "دي فيلسون" واصبحت السيدة "كريستان"! ..

واجفلت إذ سمعت الاسم الذي كاد يصبح منسيا ، سألت النوتيين أن يحولا اتجاه قاربنا ، فمع ان الفرصة كانت سانحة - في تلك اللحظة- لكي اثار لنفسي ، إلا انني لم ار اية قيمة لان اعاتب امرأة في الاربعين ، وان اجدد خصاما مضى عليه عشرون عاما !

٢- من سنة ١٧٢٢ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت اغلى فترات صباي في الحماقات ، قبل ان يستقر الرأي على مهنتي المقبلة ، وبعد جدل طويل بشأن ميولي الطبيعية انعقد العزم على مهنة لم اكن لها سوى اقل ميل ، فقد عهد بي إلى السيد "**ماسيرون**" - كاتب البلدة - لاتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة!.. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة- "مغتصب الاجر" -بغيضا لدي غاية البغض ، ولم يستهوني الامل في كسب عدد من "الكراونات" (١) من مهنة "وضيعة" كهذه !.. بل إن العمل ذاته بدا لي مملا لايطاق، فإن المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية اتما كراهيتي ، فما ولجت المكتب مرة دون ان اشعر بنفور اخذ يزداد حدة يوما بعد يوم! كذلك كان السيد "**ماسيرون**" من ناحيته ضيقا بي، فكان يعاملني بازدراء، ولا يفتأ يرميني بالغباء والبلادة، ويردد على اذني كل يوم ان خالي انباه بانني على قسط من المعرفة، في حين انني كنت - في الواقع- لا اعرف شيئا !.. وانه بشره بانني فتى ذكي، في حين انه ابتلاه بجحش !.. وفصلت اخيرا من المكتب موصوما بانني غير كفء مطلقا، وصرح معاونو السيد "**ماسيرون**" بانني لم اكن اصلح لشيء سوى نقل الملفات!

وإذ انتهى الامر في تقرير مهنتي على هذه الصورة ، ارسلت لاتعلم حرفة.. لا لدى "ساعاتي" ، وإنما لدى احد الناقشين على المعادن.(٢) وكان الصَّغار الذي عاملني به السيد "**ماسيرون**" قد اذل نفسي كثيرا ، فاطعت بدون تذمر ، وكان معلمي الجديد- السيد "**ديكومين**"- شابا فظا ، قاسيا افلح في امد وجيز في إطفاء كل ما كان لي في طفولتي من ذكاء ، وفي تخدير طبيعتي الودود النشيطة، وفي الهبوط بي إلى مرتبة "صبي الصانع" فعلا ، سواء في العقل او في المركز!.. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ، ولما عرفته عن الاقدمين وآثارهم ،ان ينسى امدا طويلا.. بل إنني لم اعد اذكر ان قد كان في الدنيا اي من الرومان ! ولم يعد ابي يرى في - حين ذهبت لزيارته - محبوبه القديم.. كما انني لم أعد في نظر السيدات ، "**جان جاك**" الكيس المقرب إلى قلوبهن ، وايقنت انا نفسي ، من ان الاخوين "**لامبرسييه**" ما كانا ليعرفا في شخصي تلميذهما القديم، حتى إنني خجلت من ان ازورهما، فلم ارهما منذ ذلك الحين. وحلت ارذل الميول واحط مفاسد السوقة محل اسباب التسلية الساذجة ، بل إنها محت كل ذكرى لها! ولابد انني كنت قد اوتيت استعدادا عظيما للانحدار - برغم انني حظيت بنشأة اعظم ما تكون استقامة- ذلك لان الانقلاب اصابني بسرعة عظيمة ، دون اتفه عسر، فما قدر قط "**القيصر**" مبكر النضوج ان اصبح "**لاريدون**" بمثل هذه السرعة(٣)

ولم تكن الحرفة- في حد ذاتها - هي التي لم تصادف هوى من نفسي ، إذ كان لدي ميل اكيد للرسم، وقد لذ لي العمل بآلة الحفر، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به في صناعة الساعات فقد ساورني الامل في ان ابلغ الكمال في هذه الحرفة ، ولعلني كنت بالغا هذه الدرجة لولا ان فظاظة معلمي الوحشية ، وإفراطه في فرض القيود علي، حملاني على ان اكره عملي! وكنت استرق بعض ساعات العمل لاوفر على بعض اعمال مشابهة- ولكنها كانت تفتنني بما كنت احسه في ممارستها من حرية- فكنت احفر الاوسمة التي ترمز إلى طبقة من الاشراف ابتكرتها لنفسي ولزملائي . وفاجأني معلمي مرة وأنا في هذا العمل المحظور، فضربني ضربا مبرحا ، معلنا أنني كنت

(١) "الكراون" عملة تعادل ثلاثة فرنكات. (٢) حفار يصنع الاختام و"ميداليات" بالحفر على المعادن. (٣) استعير هذا الاسم من "لافونتين" الذي اطلقه على الكلاب المنحطة في اسطورة بعنوان: "التربية" ، إذ قال : "أواه ! كم من قياصرة اصبحوا لاريدونات؟"

أتدرب لأغدو مزيفا للنقود، إذ إن الأوسمة التي صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية.. واقسم إنني لم اوت- إذ ذاك - أية فكرة عن النقود الزائفة ، بل إنني لم اوت إلا اتفه فكرة عن النقودالطيبة!.. وكان إلمامي بعملات الرومان- التي قرات عنها في الكتب - يفوق معرفتي بنقودنا المستعملة!

واخيرا ادت ربقة معلمي إلى ان صار العمل - الذي كنت مهيا لان اشغف به- شيئا لايطاق ، وافعمتني برذائل كنت خليقا بان اكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة!.. ولقد علمتني ذكرى التبدل الذي اصابني في هذه الفترة من حياتي - اكثر من اي شيء آخر - الفرق بين تبعية الابن للاب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافي خصالي الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على انني كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث ان تعرضت للقمع تدريجيا - بعد ابتعادي عن ابي- حتى تلاشت تماما. وكنت جريئا مع ابي ، غير مكبوت مع السيد "لامبرسييه" معتدلا مع خالي، فصرت جبانا مع معلمي ! ومنذ تلك اللحظة اصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد الفت ان اكون على قدم المساواة التامة في اتصالاتي بمن يكبرونني، ولم اعرف ملهاة بعيدة عن متناولي ، ولا رايت صحفة طعام لايحق لي ان انال منها نصيبا ، ولا رغبة لا املك ان اعبر عنها جهارا.. لما كنت قد الفت كل هذا ، واعتدت ان يكون كل ما في قلبي على طرف لساني ، فإن من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى ان اتحول في بيت لم اكن اجسر فيه على ان افتح فمي ، وكنت مضطرا فيه إلى ان اغادر المائدة قبل ان افرغ من نصف الوجبة ، وان ابرح الغرفة بمجرد ان افرغ من شاني بها.. في بيت كنت فيه مغلولا إلى عملي باستمرار، ولم اكن ارى فيه سوى أسباب المتعة لسواي والحرمان لنفسي .. حيث كانت رؤيتي الحرية التي يستمتع بها معلمي وزملائي تضاعف من وطأة الخضوع على نفسي ، وحيث لم اكن أجرؤ على أن افتح فمي إذا ما ثار الجدل حول امور كنت على خير دراية بها!.. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصري يغدو هدفا لشوقي ، لمجرد انني كنت محروما من كل شيء!

منذ ذلك الحين فارقتني وداعتي ولطفي وخفة روحي ، وتلك البشاشة التي كانت - فيما مضى - تقيني العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا ، كل هذه تبددت . ولا اتمالك ان اضحك كلما تذكرت كيف انني- ذات مساء- أرسلت إلى الفراش ، في بيت ابي،دون عشاء ، لذنب اتيته.. وفيما كنت اجتاز المطبخ وفي يدي كسرة خبز تدعو إلى الاسى رأيت قطعة لحم تقلب على السفود- "الشواية" - فاخذت اتنسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت وقوفا حول النار ، فاضطررت إلى ان القي على كل منهم تحية المساء ، أثناء مروري ، حتى إذا فرغت من تحيتهم غمزت بعيني لقطعة اللحم التي بدت بديعة المنظر ، والتي كانت زكية الرائحة ، ولم اتمالك ان انحنيت لها - كما انحنيت للآخرين - وقلت بلهجة حزينة: "عمي مساء يا قطعة الشواء !".

واطربتهم هذه الملحة الساذجة إلى درجة جعلتهم يستبقونني للعشاء . ولعلها كانت كفيلة بان تتخذ نفس الوقع من نفس معلمي ، ولكني واثق بانها لم تخطر ببالي قط ، ومن انني ما كنت لاجد الشجاعة على ان اقولها في حضوره!

وبهذا النهج تعلمت كيف اكتم ما اشتهي، وكيف انافق، واكذب، و- اخيرا- اسرق!.. وهو امر لم يخطر - حتى ذلك الوقت - ببالي مطلقا ، ولم استطع منذ ذلك الحين أن ابرئ نفسي منه تماما . ذلك لان الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه ، الامر الذي يفسر السر في أن

جميع الخدم نصابون ، وفي أن جميع الصبيان لدى اصحاب الحرف مسوقون إلى ان يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون - بتقدمهم في مدارج العمر- هذه الرذيلة المشينة، إذا اتيحت لهم المساواة في جو وادع مامون ، يالفون فيه ان يكون كل ما يرونه في متناولهم . ولما لم تتح لي هذه الميزات فإنني لم أملك أن اجتني نفس الفوائد ! .. وأكاد اقول إن الذي يدفع الطفل إلى ان يخطو اولى خطواته نحو الشر هو دائما المبادئ ،الطيبة التي يساء توجيهها ، فلقد مكثت مع معلمي عاما دون ان افكر في الإقدام على اخذ اي شيء - حتى من الماكولات - برغم ما لاقيت من حرمان وإغراء مستمرين ، وكانت اولى سرقاتي من اجل شخص سواي ، ولكنها فتحت الباب لسرقات اخرى ، لم يكن الباعث إليها امرا محمودا ! ..

فلقد كان لدى معلمي عامل باليومية - يدعى السيد "فيرا" - يقيم في دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعا راقيا من "الاسفاناخ" ، وخطر للسيد "فيرا" الذي لم يكن يحصل على حاجته من المال - ان يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التي كانت امه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفي لإمداده بفطور طيب ليومين او ثلاثة ، ولما لم يكن راغبا في ان يقدم بنفسه على المغامرة ، كما انه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارني لهذه المهمة ، وبعد محاولات أولية وتملقات- زاد من سهولة نجاحها في التاثير علي ، أنني لم اكن ادرك هدفها- عرض علي الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة ، فعارضتها بشدة ، ولكنه الح ، وليس بوسعي قط ان أقاوم التملق ، ومن ثم فقلد انصعت له، واخذت اذهب في كل صباح فاجمع ابدع نبتات الاسفاناخ واحملها إلى سوق (مولار) حيث أدركت امراة طيبة أني كنت اسرقها لتوي، فكانت ترميني بهذا الاتهام لتبخسني الثمن ، وكنت في ذعري اقبل اي ثمن تقدمه ، ثم احمله إلى "فيرا" فسرعان ما يتحول المبلغ إلى فطور كنت اتكفل بإحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع أنا ببضع لقيمات .. ولم اتذوق قط النبيذ الذي كانا يتناولانه مع هذا الفطور!

واستمرت هذه الخطة عدة أيام، دون ان يخطر لي قط ان أسرق - بدوري، من الباطن- السارق الاصلي ، وان افرض "عوائد" على ما كانت تدره اسفاناخ السيد "فيرا" بل كنت اؤدي دوري في المهمة بمنتهى الإخلاص ، وليس لي من حافز سوى رغبتي في إرضاء ذاك الذي كان يحرضني. مع ذلك، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بان اتلقاها- لو ان امري انفضح- بينما كان من المؤكد ان يبادر الوغد إلى انتحال أكذوبة تقابل بالتصديق - ومن ثم يتضاعف عقابي إذ يعتبر اتهامي إياه - وهو العامل وأنا الصبي - وقاحة! ..

وهكذا نرى انه - في كافة ظروف الحياة-كثيرا ما يحدث ان المذنب القوي ينجي نفسه على حساب البريء الضعيف! ..

وبهذه الطريقة تعلمت ان السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذي كنت اتصورها عليه ، وانه ليس من شيء اشتهيه يعز علي ، مادام في متناول يدي. ولم أكن سيئ التغذية على طول الخط ، ولكن العفة اصبحت امرا متعذرا علي وانا ارى معلمي ينظر إليها كشيء منكر! .. يبدو لي ان اعتياد إقصاء الصغار عن المائدة ، في الوقت الذي تحمل إليها فيه اشهى الاطعمة ، هو اروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا! .. وسرعان ما اصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن امضي موفقا - بوجه عام - فلم يفتضح أمري إلا في مرات نادرة كنت افاجأ فيها!

إنني لأرتجف – واضحك في الوقت ذاته – إذ اتذكر ان سرقة بعض التفاح كادت تكبدني غاليا! فقد كانت تلك التفاحات في قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية ، وفي ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا مني ، صعدت على المعجن– حوض العجين – لألقي نظرة على الثمار الغالية في حديقة "هيسبريد" (١) . ولما كانت بعيدة عن متناولي فقد احضرت سيخا لاحاول ان اتبين ما إذا كان بوسعي ان امس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير ولكي ازيده طولا ربطت إليه سيخا صغيرا كان يستخدم في شي الخبوانات الصغيرة، إذ كان معلمي مغرما بالصيد .

ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن اوفق ، واخيرا شعرت لعظم اغتباطي انني اصبت تفاحة ، فتاهبت لان استحوذ عليها ، ولكن .. من ذا الذي يستطيع ان يصف أساي حين وجدتها أكبر من ان تمر خلال قضبان الكوة! وكم من حيل بذلتها لانفذها خلال القضبان! .. وكان لابد لي من العثور على ما يبقي السيخ في مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعين بها على إبقاء التفاحة عاليا، وتمكنت اخيرا من ان اشطرها ، يحدوني الأمل في ان استطيع ان اجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر، ولكنهما ما إن انفصلا حتى هويا إلى ارض المخزن!– الا فلتشاركني أساي ، ايها القارئ الشفوق !– ومع ذلك فإنني لم افقد جلدي مطلقا ، لكنني كنت قد ضيعت وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن افاجأ ، وارجات القيام بمحاولة اخرى – تكون موفقة– إلى اليوم التالي، وعدت إلى عملي في سكينة ، وكانني لم آت امرا ، دون ان افكر في الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان في المخزن!

وفي اليوم التالي ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة ، فصعدت على مقعدي ، وربطت السيخين وهياتهما، وهممت بان ادفعهما ، ولكن "الغول" لم يكن نائما ، لسوء الحظ ، فقد فتح باب المخزن بغتة، وخرج منه معلمي ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلي ، وقال : "تشجع!" .

إن القلم يسقط من يدي! .. على ان حساسيتي إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت، من جراء سوء المعاملة المستمر فكنت انظر إلى السرقة على انها نوع من التعويض يخول لي الاستمرار فيها! وبدلا من ان استعرض ما فات و اقدر ما كنت القى من عقاب ، رحت اتطلع إلى الأمام وافكر في الانتقام! .. ورحت ارى انني إذا كنت اضرب بزعم أنني لص، فإن هذا الضرب يخولني ان اتصرف كلص ، وتبينت أن السرقةوالضرب امران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين في صفقة عادلة .. فإذا قمت بدوري كان علي ان ادع معلمي يؤدي دوره! وبهذا التفكير شرعت امارس السرقة بنفس أكثر طمانينة من ذي قبل ، وكنت اقول لنفسي:" ما هي النتيجة ؟.. ساضرب؟ لا بأس، لقد تعودت الضرب!"

إنني مشغوف بالاكل ، ولكني لست شرها .. وانا مغرم بإرضاء نزواتي البدنية ، ولكني لست نهما ، فإن لي ميولا كثيرة أخرى تحول دون ذلك ، وما جشمت نفسي يوما اية متاعب بشان الطعام، اللهم إلا حين يكون قلبي خاليا مما يشغله، و هذه حال كانت من القلة في حياتي بحيث إنني

---

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن في اساطير الإغريق على انهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية.

نادرا ما وجدت وقتا للتفكير في الأطايب اللذيذة ؛ ولهذا السبب لم اقصر اتجاهاتي في اللصوصية على المواد الغذائية- لأمد طويل- بل سرعان ما بسطتها إلى كل شيء كان يغريني ! وإذا كنت لم اصبح لصا محترفا فإنما ذلك لأنني لم اجد قط في النقود إغراء شديدا ، وكانت في الطريق إلى خارج "الورشة" العامة حجرة خاصة لمعلمي ، وجدت وسيلة لان افتح بابها واغلقه دون ان يفطن احد إلى ذلك ، وهناك ، رحت اشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شيء كان يجتذب ميولي ، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدا عني لهذا السبب! .. وكانت هذه السرقات - في قرارها - بريئة تماما ، إذ ما كنت استغلها إلا في خدمة معلمي . على انني انتشيت إذ جدت هذه التوافه في متناولي ، وخيل إلي انني كنت اسلبه مواهبه و ما كان ينتج عنها! وإلى جانب ذلك، وجدت صناديق تحوي مبارد واساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين اجد في جيبي اربع او خمس قطع من فئة "السو" (١) اعتبر نفسي غنيا ، ومع ذلك ففضلا عن انني لم امس شيئا مما وجدته هناك فإنني لا اذكر قط انني رمقتها يوما بعينين مشوقتين ، وإنما كنت انظر إليها في جزع اكثر مني في ابتهاج! واعتقد ان هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعا - إلى حد كبير - إلى تربيتي ، وإلى ما كان يقترن بها من افكار دفينة عن العار، والسجن ، والعقاب، والمشانق ، مما كان كفيلا بان يجعلني ارتجف فرقا لو انني تاثرت بالإغراء .. هذا في حين ان احابيلي كانت تبدو في نظري كمجرد اعمال خبيثة- او "شقاوة"- لا اكثر، وانها لايمكن ان تفضي إلى اكثر من "علقة" طيبة من معلمي .. وكنت اعد نفسي مقدما لذلك! .. واكرر انني لم اشعر قط برغبة كافية في ان اكبح نفسي ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميري . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع اكثر إغراء لي من نقود تكفي لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط بإحدى ميزات خلقي وشخصيتي ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكي ما يجعلها اهلا للشرح!

*****

إنني إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بي سورتها، فلن يعدل اندفاعي شيء : إذ انسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فإذا انا اغدو شرسا، متهورا، عنيفا ، غير هياب ،، لا يصدني اي إحساس بالعار، ولايرهبني اي خطر .. بل إنني لا احفل من الكون كله إلا بالغاية التي تشغل بالي فحسب ! على ان هذا كله لا يستمر إلا لحظة، ثم إذا بي في اللحظة التالية انغمس في سكون تام. اما لحظات هدوئي ، فانا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفني ويثبط همتي كل شيء : فالذبابة التي تمر بي و هي تطن تفزعني .. واضطراري إلى ان اقول كلمة او ابدي حركة يقض خمولي.. وهكذا يتسلط علي الخوف والخجل إلى درجة يسرني معها ان استخفي عن بصر زملائي من الآدميين! .. وإذا كان علي ان آتي تصرفا فإنني لاادري ماذا ينبغي ان افعل ، وإذا قدر علي ان اتكلم فإنني لا ادري ما ينبغي ان اقول . وإذا نظر احد إلي تولاني الارتباك! .. ولقد اوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكني - في الحديث العادي - لا اعثر البتة

---

(١) "السو" عملة فرنسية صغيرة تعادل ٥ سنتيمات، أو جزء من عشرين من الفرنك.

على شيء بفال ، واغدو في حال لاتطاق، لمجرد ان اجدني مضطرا إلى الكلام! .. أضف إلى ذلك ان ليس بين رغباتي المتسلطة ما يتجه إلى اشياء يمكن ان تشترى ، فلست اشتهي سوى المتع البريئة غير الزائفة ، وكنها مما يسممه المال ويفسده ، من ذلك انني مشغوف بمتع الطعام ، ولكنني - إذ لااحتمل عبء الجلوس في جماعة، أو الشراب في حانة- لااملك أن احظى بها إلا برفقة صديق اما إذا كنت وحيدا ، فإن خيالي يشغل إذ ذاك بامور اخرى ، فلا يعود للاكل حظوة لدي، وبرغم ان دمي الحار يهفو إلى النساء فإن قلبي المشبوب اشد حنينا إلى العاطفة الصادقة ومن ثم تفقد النساء - اللاتي يشترين بالمال - كل مفاتنهن في نظري.. بل إني أرتاب في ان اجد من نفسي قابلية للإفادة منهن ، كذلك شاني مع كل المتع التي في متناول يدي ، فانا اجدها غثةطالما كانت لاتكبدني شيئا ! .. وإنما احب من المتع واسباب اللذة ما لايكون ملكاً لاول إنسان يعرف كيف يستمرئها!

و المال .. ابدا ما تراءى لي نفيسا كما يقدر عادة بل إنه لم يبد لي قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة في حدذاته إذ لابد من استبداله لكي يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى ان يشتري ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين انشد شيئا جيدالصنف اوقن من أنني لن احصل بالمال إلا على صنف رديء ! .. فإذا ما دفعت نقودا من اجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من اجل ثمرة طيبة من الفاكهة الفيتها فجة .. وقد ادفع من اجل فتاة ، فإذا بها مفسودة ! .. وانا مولع بالشراب الجيد، ولكن أين اظفر به؟ الدى تاجر المشروبات؟ مهما افعل فإنه لن يتحرج عن ان يسممني ! ولو شئت ان احظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وياللحيرة ! لابد لي من اصدقاء، ورسل ، ومن امنح عمولات ، واكتب ، واروح واجيء، وانتظر .. وغالبا ما أكون في النهاية ضحية للغش ! .. اي عناء القاه من مالي. إن خوفي منه لاشد من شغفي بالشراب الجيد!

كم من مرات يخطئها الحصر خرجت فيها - أثناء تعلمي الحرفة وبعد ذلك - وانا اعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت اقبل على حانوت صانع الحلوى فارى بعض النسوة عند طاولة البيع، وإخال انني ابصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير! .. فاذهب إلى الفاكهي ، وارمق الكمثرى فيغويني شذاها ، ويرمقني شابان او ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفني ، يقف امام حانوته .. وارى فتاة مقبلة من بعد ، افتراها خادم الدار؟ إن قصر نظري يهيئ لي كافة الرؤى الوهمية، فإخال المارة جميعا من المعارف، وهكذا اجد في كل مكان من العراقيل ما يفزعني ويصدني .. وتتضاعف رغبتي بازدياد خجلي واستحيائي ، ثم أعود - في النهاية - إلى البيت كالمغفل ، والشوق يضنيني ، وفي جيبي الوسيلة لإشباعه ولكني لم أوت الجراة على ان ابتاع شيئا!

ولقد انساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للملال إذا سمحت لنفسي- وانا أصف كيف كانت نقودي تنفق، عن طريقي او عن طريق سواي - بأن اشرح الارتباك ، والاستحياء، والإحجام ، والتململ ، والإزعاج، التي كنت أمر بها دائما .. على أن القارئ المتتبع لمجرى حياتي، لن يلبث - إذا ما عرف حقيقة طباعي وسجيتي - ان يفهم كل هذا دون أن اجشم عناء روايته عليه!

ولو تسنى له فهم هذا فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من ابرز ظواهر التناقض لدي : وهي اجتماع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود ! .. فما النقود سوى قطعة من اثاث لااجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى إنه لايخطر ببالي قط ان اصبو إليها عندما لاتتوفر لي .. وحتى إذا ظفرت بها، فإنني ابقيها طويلا دون ان انفقها . عجزا مني عن ان ادري كيف استخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسي . أما إذا سنحت لي فرصة ملائمة ومواتية ، فإنني اقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسي منها قبل ان افطن ! .. وإلى جانب ذلك، فلا داعي لان يتوقع احد ان يجد عندي تلك الخلة العجيبة التي تتوفر في البخلاء : الإنفاق ، لمجرد التظاهر بالإنفاق! بل إنني – على النقيض – انفق في السر من اجل الاستمتاع ، وبدلا من ان افخر بالإنفاق اخفيه! ويبلغ من شدة شعوري بان لانفع للمال لدي ، انني اكاد اخجل إذ اقتني اي قدر منه واكون اشد خجلا حين استخدمه! .. ولو قدر لي يوما من الدخل ما يكفي لان اعيش حياة مريحة ، فإنني اجزم بانني ما كنت لاكون بخيلا بل كنت انفقه عن آخره دون ان احاول زيادته ، ولكن ظروفي غير المستقرة تلزمني الحرص ، فانا اعشق الحرية ، وامقت الكبت والعناء ، وان اكون عالة على الغير! وطالما بقي المال في كيسي فإنه يطمئنني إلى استقلالي ، ويعفيني مؤونة البحث عن اعمال لتملأ الكيس من جديد ، وهي ضرورة تبعث الجزع في نفسي دائما .. ومن ثم فإن الخوف من ان ارى ما لدي من المال قد استنزف يجعلني اكتنزه في حرص .. فالمال الذي يمتلكه الشخص هو اداة حريته ، اما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون اداة العبودية .. ولهذا اتشبث بما لدي ، ولا ارغب في مزيد ! ومن ثم فإن عدم شغفي بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد ، فإن متعة الاقتناء لاتستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافي ، فهو ليس اكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الإنفاق النافع ، فإنني لا احسن استغلالها ..

فالمال اقل إغراء لي من الاشياء، إذ إن ثمة وسيطا – على الدوام – بين المال وبين اقتناء الاشياء المنشودة، في حين انه لايوجد اي وسيط بين الاشياء وبين الاستمتاع بها .. فإذا ما رايت الشيء فإنه يستهويني ، وما إن اتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه ! .. ولهذا السبب اعتدت ان ارتكب السرقات ، ولا ازال – حتى الآن – اختلس التوافه التي تستهويني ، والتي اوثر ان آخذها بهذه الطريقة على ان اطلبها .. ولكنني لااذكر انني – سواء في طفولتي او في كبري – قد سلبت اي امرئ درهما واحدا ، اللهم إلا في مناسبة واحدة – منذ خمس عشرة سنة – إذ سرقت سبعة "ليبرات" وعشر قطع من فئة "السو" ، هذا الحادث جدير بالذكر! لانه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ما كنت لأصدقه بسهولة لو انه كان يتعلق بشخص سواي!

ولقد وقع هذا الحادث في "باريس" ، إذ كنت اتمشى مع السيد "دي فرانسوي" في حدائق "الباليه رويال" حوالي الساعة الخامسة .. فإذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : "لنذهب إلى الأوبرا!" . ووافقت ، فذهبنا . واستاجر السيد مقعدين في "الصالة" واعطاني إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمني ، فتبعته . ودخل إلى "الصالة" ، فلما هممت بالدخول خلفه،

إذا بالناس يسدون الطريق. وتلفت فإذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد "دي فرانسوي" بأنني ظللت على أية حال ، ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالي أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغي الباب الخارجي. إن السيد "دي فرانسوي" قد تبين أنني لم أكن موجوداً!(١) .. وإذا لم يكن ثمة تصرف ينافي مسلكي العادي مثل هذا التصرف فإنني أذكره لأبين أن هناك لحظات ينبغي ألا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون في شبه ذهول أو شرود!.. ذلك لأنني لم أكن راغباً في اختلاس النقود ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ولكن هذا التصرف كان مشيناً بقدر ما كان بعيداً عن السرقة!

*****

ولن يقدر لي أن أفرغ من كل هذه التفصيلات لو أنني ألححت بكافة الدروب التي اتبعتها- أثناء تعلمي الحرفة- في هبوطي من ذرا البطولة النبيلة، إلى درك التفاهة! ومع ذلك، فإنني لم أستمرئ رذائل المركز الذي كنت فيه ، وإن مارستها . سئمت أسباب التسلية التي كان زملائي يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتي فجعل العمل في نظري أمراً لايطاق، سئمت كل شيء!.. وجدد هذا من شغفي بالقراءة بعد أن كنت قد فقدته زمناً . ولكن هذه القراءة - التي كنت أختلس لها فترة من وقت العمل - أصبحت عيباً جديداً استوجب عقابي.. وإذا الميل إليها يتحول - بالقمع- إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنوناً!.. وكانت "لاتريبو" - وهي امرأة اشتهرت بإعارة الكتب- تمدني بكتب كافة ألوان الأدب ، وكانت كلها- الغث منها والنفيس - سواء عندي ، إذ لم يكن لي في الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شيء بنفس النهم: رحت أقرأ وأنا أمام طاولة العمل، وأقرأ وأنا منطلق في بعض المهام، وأقرأ بجوار صوان الملابس، وأنسى نفسي ساعات طويلة حتى يدور رأسي لفرط القراءة .. فما كنت أملك سوى أن أقرأ ! كان معلمي يراقبني ، ويباغتني ، ويضربني، وينتزع الكتب مني.. وكم من مجلدات مزقت وأحرقت وطوح بها من النافذة !.. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجزاء - لهذا السبب- في مكتبة "لاتريبو" ! .. وكنت إذا عزت علي النقود أقدم للمرأة قمصتي ، وأربطة عنقي، وملابسي .. كما كانت تستولي مني في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع "السو" الثلاث التي كنت أتقاضاها لمصروفي الخاص!

سيقال لي هنا: إن النقود من الضرورات لي . وهذا حق لكنه لم ينطبق علي إلا عندما حرمني شغفي بالقراءة، من كل نشاط. فإن انصرافي بكل نفسي إلى هوايتي ، وعدم اكتراثي بغير القراءة ألهاني عن السرقة! وهذه ميزة أخرى من الميزات البارزة في شخصيتي ، ففي غمرة انغماسي في أي مسلك في الحياة، يستطيع أي أمر تافه أن يجتذبني ، وأن يحولني ، وأن يستأثر بانتباهي ، ثم يغدو شغفاً ، وإذ ذاك يصبح كل شيء منسياً ، فلا أعود أفكر في غير الشيء الجديد الذي يستحوذ على اهتمامي .. هكذا كان قلبي يخفق في صبر نافد إذا ما أحضرت كتاباً جديداً ودسسته في جيبي ، فلا

---

(١)ذكرت "جورج صاند" في كتابها "تاريخ حياتي" ، أن السيد "دي فرانسوي" - وكان جدها - اعتاد أن يتذكر دائماً صدق هذه القصة.

اكاد اخلو إلى نفسي حتى اخرج الكتاب ، ولا اعود افكر في التنقيب في حجرة معلمي بالورشة.. لا اكاد اصدق انني كنت اقدم على السرقة ، ولو كانت لي اهواء تكلفني نفقة ابهظ .. كنت في اقتصاري على الحاضر ، لا اجد اتجاها إلى ان ادبر امر المستقبل بهذه الطريقة، فقد كانت "لاتريبو" تعطيني الكتب بالنسيئة "تاجيل السداد مع زيادته"، وكانت الدفعات صغيرة، لكني كنت انسى كل شيء بمجرد ان اطمئن إلى وجود الكتاب في جيبي . وكانت النقود التي تاتيني بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدي هذه المراة! ولم يكن اهون علي - عندما تشتد في الضغط علي - من ان انزل عما امتلك. وكانت السرقة - قبل الحاجة إلى المسروق - تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم اكن اتعرض لإغراء يحملني على السرقة لكي ادفع ما كانت المراة تطلبه!..وكان من جراء المشاجرات، والضرب ، والأطلاع خفية على كتب اسيء اختيارها ، ان صرت شرسا، صموتا ، وشرد عقلي، واصبحت اعيش منطويا !.. على انه إذا كان إدراكي لم يعصمني من الكتب السخيفة والفاسدة ، فإن حظي الحسن صانني من الكتب الفاحشة والنابية .. لا لأن "لاتريبو" - التي كانت امراة لينة الجانب ، من كل اعتبار- كانت تثير اي اعتراض دون إعارتي هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لي في لهجة مشوبة بالغموض ، لكي تضاعف من قيمتها لدي ، فإذا بهذا الغموض ، يحملني على رفضها، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدني حظي على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى اكثر من ثلاثين عاما قبل ان تقع عيناي على احد هذه الكتب الخطرة، التي ما كانت اية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة؛ لأنها لاتقرأ إلا بيد واحدة فقط(١).

وفي اقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب، التي كانت لدى "لاتريبو" ، واصبح افتقاري إلى ما يشغلني - خلال فراغي - امرا مضنيا ، وكنت قد ابرات نفسي من نزواتي الصبيانية النابية، بفضل ولعي بالمطالعة. بل إني بفضل الكتب التي كنت اقرؤها- برغم انها كانت سيئةالاختيار، وكثيرا ما كانت رديئة- ملأت قلبي بمشاعر انبل من تلك التي كان محيط حياتي يوحي إلي بها ، وإذ امتلأت اشمئزازا من كل شيء كان في متناول يدي ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا بإغرائي قد اقصي عني تماما ، لم اعد ارى ثمة ما يمكن ان يهفو إليه فؤادي. وكانت حواسي المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن في وسعي ان ادرك كنهها ، ولو في الخيال!.. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكانني خال من الجنس.. وكنت - لاكتمال نموي وإرهاف مشاعري- افكر احيانا في نزواتي ، ولكني لم اكن ابصرهما وراءها اي شيء.. وفي هذه الحال العجيبة ، اقبل خيالي المضطرب على شاغل انقذني من نفسي وهدا من حساسيتي الشهوية النامية! وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسي بالحالات والمواقف التي استرعت انتباهي اثناء مطالعاتي ، وبفضل تذكرها، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور انها تمت لي حقيقة، اصبحت واحدا من الشخصيات التي كانت تملأ خيالي ، واصبحت ارى نفسي - دائما - في اكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقي .. واخيرا، جعلتني الحال الخيالية - التي وفقت إلى وضع نفسي فيها- انسى حالي الحقيقية التي لم اكن راضيا عنها! وقد افضى بي هذا الولع بالموضوعات الخيالية، والاستعداد الذي كنت اتوسل به إلى شغل نفسي بها، إلى

---

(١) يقصد "روسو" الكتب المثيرة ، التي كان يبلغ من هدف إثارتها للقارئ أن تغريه على ممارسة العادات السيئة.

الاشمئزاز من كل شيء حولي، وإلى إقرار ذلك الميل إلى الوحدة الذي لم يفارقني بعد ذلك . وسترى - أكثر من مرة في سياق الحديث ، الآثار العجيبة التي ترتبت على هذا السلوك الذي كان يبدو كئيبا، ومنطويا ، ولكنه - في الواقع- راجع إلى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب، ومفرط الحنان، اضطر إلى أن يغذي نفسه بالأوهام إذ عجز عن أن يجد في الوجود أي قلب آخر يشبهه ! على أنني اكتفي- في الوقت الحاضر- بأنني حددت أصل ومبعث هواية خففت كل نزواتي ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتني على الدوام بطيء التصرف، نظرا لفرط تأجج شهوتي!

*****

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمري ، وأنا قلق، غير راض عن نفسي ولا عن أي شيء ، خلو من شيء من الميول التي تتوفر في مثل الحال التي كنت أعيش فيها.. خلو من ملاهي السن التي كنت اجتازها ، يضنيني اشتهاء الغاية التي كنت أجهل كنهها .. فكنت أبكي دون ما داع للدموع، وأتنهد دون أن أدري لذلك سببا! وقصارى القول : كنت أداعب أطياف خيالي بحنان؛ لأنني لم أكن أرى حولي شيئا يرجحها.

وكان زملائي - الذين كانوا يتعلمون الحرفة معي - يغدون في أيام الآحاد يبحثون عني بعد الصلاة ، لأذهب فأنشد بعض اللهو معهم. كنت أشعر بأنني خليق بأن اغتبط لو استطعت أن أهرب منهم، ولكني لم أكد أشترك في ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه!..

هكذا كان مسلكي دائما ، يصعب حملي على الشيء، كما يصعب إيقافي عن المضي فيه إذا ما بدأت !.. فكنت - خلال نزهاتنا خارج المدينة- أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أي واحد منهم ، دون ما تفكير في العودة، ما لم يذكرها لي الآخرون!.. ولقد تورطت في هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت - في اليوم التالي - أقابل من معلمي بما يمكن تصوره! بل إنني أنذرت في المرة الثانية بأن أقابل - إذا ما تكرر التأخر - استقبالا جعلني أعقد العزم على ألا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية!.. مع ذلك، فقد قدر للمرة الثالثة أن تأتي ، برغم بشاعتها : فقد أفسد علي حرصي ضابط لعين من الحرس - كان يدعى الكابتن "مينوتولي" - اعتاد دائما أن يغلق "البوابة" التي كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة! وكنت في تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ سمعت البوق الذي يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاي.. وعدت أسمع البوق، فهرعت بكل قواي .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا في العرق ، وقد راح قلبي يخفق بعنف .. ورأيت الجنود- من بعد- يتخذون مراكزهم، فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج.. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما إن أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الأمامي ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان في الهواء ، كنذير شؤم بغيض بالمصير الذي كان في تلك

اللحظة يفغر فاه ليبتلعني !

وفي الفورة الأولى لأساي ، ألقيت بنفسي على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها ، وبادر زميلاي لنزهما - وهما يضحكان من نحسهما - إلى تقرير ما ينبغي عليهما عمله .

وقد حذوت حذوهما ، ولكن قراري كان يختلف عن قرارهما . فقد أقسمت - في تلك البقعة - ألا أعود إلى معلمي قط! فلما ولجا المدينة في الصباح التالي، بعد أن فتحت الأبواب، ودعتهما إلى الأبد ، ولم أسألهما سوى أن ينبئا ابن خالي "برنارد" بقراري ، سرا ، وبالمكان الذي يستطيع أن يراني فيه مرة أخرى ! .. ولم أكن- منذ تتلمذت في الحرفة- قد رأيته إلا لماما، فقد ظللنا وقتا نلتقي في يوم الأحد من كل أسبوع ، ولكن كلا منا أخذ يتجه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . واعتقد أن لأمه يدا في هذا التحول ، فقد كان من أبناء الحي الراقي بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبناء "سان جيرفيه" - حي الفقراء بالمدينة - فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ؛ ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معي! .. ومع ذلك ، فإن الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فإن ابن خالي - بما أوتي من فطرة طيبة- كان يتبع في بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه، وليس ما كانت تمليه عليه أمه ! .. فلما أنبئ بما عقدت عليه العزم، أسرع إلي ، لا ليحاول أن يثنيني عنه أو يشاطرنيه ، وإنما ليخفف متاعب فراري ببعض المنح البسيطة، إذ كانت مواردي لاتساعدني على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التي وهبنيها سيف صغير استهواني كثيرا ، وظللت أحمله حتى بلغت "تورين" ، حيث اضطرتني الضرورة إلى أن أنزل عنه ، إنني كلما فكرت - منذ ذلك الحين- في التصرف الذي انتهجه ابن خالي نحوي في تلك اللحظة الحرجة ، ازددت اقتناعا بأنه إنما اتبع تعليمات أمه وربما أبيه أيضا، إذ إنه من الأمور التي لاسبيل إلى تصديقها أنه كان يقعد عن بذل أي مجهود لاستبقائي ، أو يحجم عن أن يتبعني ، لو أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه.. ولكنه - على العكس - كان في مسلكه أقرب إلى تشجيعي على أن أمضي في خطتي ، منه إلى إثنائي عنها!.. وعندما تبين أنني كنت مصمما تركني دون أن يذرف كثير دمع ، ولم يقدر لنا أن نتبادل الرسائل أو أن يرى أحدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لأمر يدعو للأسف، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكي يحب كل منا الآخر !

قبل أن استغرق في الحديث عن حظي وقدري ، اسمحوا لي أن أحول عيني لحظة إلى الحظ الذي كان خليقا بأن ينتظرني - بحكم طبيعة الأمور- لو أنني وقعت بين يدي معلم أفضل من معلمي هذا.. فما كان ثمة ما هو أنسب لميولي ، ولا ما هو أصلح لإسعادي ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التي يحظى بها أي صاحب حرفة محترم ، لاسيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن في "جنيف" .. إذ إن مثل هذا المركز - الذي يدر من الكسب ما يكفي لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفي لتكوين ثروة - كان كفيلا بأن يحد من طموحي ما تبقى لي من العمر ، وبأن يفسح لي فراغا شريفا لكي أرعى ميولي المتواضعة ، وبأن يستبقيني في المحيط المناسب لي ، دون أن يتيح لي أسباب تجاوزه ! .. فقد كانت موارد خيالي من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والأعمال وما

يحيط بها من القوة بحيث تنقلني – إن صح هذا التعبير – من حال إلى حال، وفق إرادتي ، لذلك لم يكن للمركز الذي أجد نفسي فيه أي اعتبار مادي في الواقع ، وما كان أي مكان اوجد فيه ليبعد عن أولى قلاعي التي كنت اشيدها في الهواء بمسافة تقعدني عن أن ألوذ بقلعتي دون ما عناء! .. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التي تنطوي على أقل عناء، والتي تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية ، هي التي كانت تروق لي أكثر من سواها .. وهكذا كانت مهنتي تماما!.. وكان من الممكن ان اقضي حياة هادئة وادعة ، كتلك التي تتطلبها ميولي ، في أحضان عقيدتي ، ووطني ، وأسرتي ، واصدقائي وفي رتابة المهنة التي تلائم ذوقي ، وفي الرفقة المحببة إلى فؤادي .. كان من الممكن ان اكون مسيحيا طيبا، ومواطنا طيبا، وأبا طيبا لأسرة ، وصديقا طيبا، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبا في كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن ان احب مركزي في الحياة، بل ولعلني كنت امجده .. وكان من الممكن بعد ان أقضي حياة بسيطة وخاملة مغمورة في الواقع- أو فلاقل هادئة وقورا- أن أموت بسلام ، في أحضان أسرتي .. ومع انني كنت خليقا بان اغدو نسيا منسيا بعد قليل – دون ما ريب – إلا انني كنت خليقا إذ ذاك بان اجد من يحزن علي – على الأقل- ما بقي على قيد الحياة واحد ممن يذكرونني!

اية صورة أوشك ان ارسمها ، بدلا من هذه ؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف أشغل قرائي بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكراسة الثانية

٤- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة - التي أوحى إلي فيها الخوف بفكرة الفرار- حزينة فإن اللحظة التي أقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة . . فقد كنت اهجر بلدي ، وأهلي، واسباب عيشي ، ومواردي ، وأنا بعد صغيرا . . كنت انصرف عن حرفة- وأنا في منتصف دراستها - دون ما معرفة كافيتها،تمكنني من ان اكسب عيشي . . كنت اسلم نفسي لأهوال العوز دون أية وسيلة لإنقاذ نفسي منها ! . . كنت اعرض نفسي- وأنا بعد في سن البراءة والضعف - لكل غوايات الرذيلة والقنوط . . كنت انشد - في البعد - العذاب ،والخطا، والزلات، والعبودية، والموت تحت ربقة أشد طغيانا من تلك التي لم اطق احتمالها ! . . هذا ما كنت اوشك ان افعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذي كان يجب ان اقدره!. . فما ابعد هذا عن الخيال المزوق!. . كان الاستقلال الذي اعتقدت انني اكتسبته هو الشعور الوحيد الذي اخذ يحركني . . فقد اعتقدت ان بوسعي - وأنا حر، سيد نفسي- ان أفعل كل شيء، وان احقق كل شيء ، وليس علي سوى ان ادفع نفسي فإذا بي أرقى وأحلق في الهواء ! . . لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان، وبان هذه الدنيا لن تلبث ان تفعم بصيت اعمالي ، وانني ساجد في كل خطوة احتفالات ، وكنوزا، ومغامرات ، واصدقاء على استعداد لأن يخدموني ، وعشيقات تواقات إلى إرضائي! . .

فليس علي سوى أن اظهر، فاشغل بال الدنيا باسرها . . ومع ذلك فلم أكن راغبا في الدنيا كلها ، إذ كان بوسعي ان استغني عنها ، إلى حد ما ! . . كانت الرفقة اللطيفة تكفيني، دون ان اضني نفسي ببقية الدنيا . . كنت في تواضعي قد قصرت نفسي على مجال ضيق، مختار ، بهيج، يكون سلطاني عليه امرا محققا . . كان أقصى طموحي يتمثل في نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لي ان أكون اثيرا لدى السيد والسيدة وحبيبا للابنة، وصديقا للابن، وحاميا للجيرة ، لقنعت . . فما كنت راغبا في مزيد !

وفي ارتقاب هذا المستقبل المتواضع رحت أهيم حول المدينة لبضعة ايام ، متخذا مقامي لدى بعض فلاحين كنت اعرفهم ، وقد استقبلوني في كرم يفوق ما كان اي امرئ من سكان المدينة خليقا بان يبذل لي ، فقد رحبوا بي ، وآووني، وغذوني بكرم يفوق كل ما كنت استحق . . ولا سبيل إلى وصف عملهم بانه "إحسان" ، إذ إنهم لم يكونوا يخلعونه علي بترفع أو مَن . . وهكذا رحت انتقل واهيم على وجهي ، حتى بلغت "**كونفينيون**" ، بمنطقة "**سافوي**" ، على بعد فرسخين من "**جنيف**" . وكان مطرانها يدعى السيد "**دي بونفير**" وقد استرعى انتباهي هذا الاسم الذائع في تاريخ الجمهورية، وكنت تواقا لأن اشهد سلالة "فرسان الملعقة" (١)

---

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا "دوق سافوي" وكانوا يؤلفون عصبة في "جنيف" في عهد الإصلاح وقد اطلق عليهم لقب "فرسان الملعقة" ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم "أكلوا اعداءهم بالملعقة" ! . . ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من اشرطة حول اعناقهم، وكانوا برأسهم فارس من آل "دي بونفير" .

وسعيت إلى السيد "دي بونفيير" فتلقاني في رفق وتحدث عن زندقة "جنيف" ، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة، ثم دعاني إلى العشاء، ولم اجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة، بل إنني خرجت براي اوحى إلي بان المطارنةالذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لايقلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت -يقينا - اكثر معرفة من السيد "دي بونفيير" ولكني كنت لا اقل صلاحية كضيف عني كمتبحر في علوم اللاهوت، كما ان نبيذ "فرانجي" الذي قدم على المائدة ، والذي لاح لي بديعا كان موفقا في كسب كل حجة إلى صف المطران،فقد كان خليقا بي ان استحيي من ان اوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام . . ومن ثم فقد رحت أسلم بحججه أو - على الاقل- احجم عن ان ابدي مقاومة صريحة . ولو ان احدا راى ما كنت ابدي من حذر لخالني مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق أنني إنما كنت اصدر في تصرفي عن ملاطفة عامة ، إذ إن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل إنهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ،لا سيما لدى الشبان. ذلك لان الكرم الذي يعاملنا به اي شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فإذا ما جاريناه في آرائه فلن يكون ذلك عن تملق، بغية استغلال كرمه ، وإنما هو تجنب لإغضابه، او لمقابلة حسنته بسيئة . . إذ ما الصالح الذي كان السيد "دي بونفيير" يبتغيه من وراء استقبالي ، او إكرامي ، أو محاولة إقناعي؟ . . لاشيء سوى مصلحتي انا. هكذا انباني قلبي الشاب ، فهزني عرفان الجميل وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب . وكنت اشعر بتفوقي عليه في المعرفة ، فلم اشا ان اجازيه عن ضيافته بان اذهله بهذا التفوق ، ومن ثم لم يكن في مسلكي شيء من النفاق ، فما فكرت قط في ان اغير ديني ، بل إنني كنت ابعد ما اكون عن ان أروض نفسي سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا في استنكار ساعد على ان يقصيها عني أمدا طويلا . إنما كانت كل رغبتي هي ان اتفادى إغضاب اولئك الذين كانوا يحسنون معاملتي سعيا منهم إلى تحويلي عن عقيدتي ، كنت ابغي ان انمي حسن نواياهم ، وان ادع لهم الأمل في النجاح ، وذلك بان ابدي لهم انني اقل مناعة مما كنت في الواقع ، وكان مسلكي في ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائي يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن ان يحققنه احيانا في سبيل بلوغ مآربهن ، دون ان يجدن بشيء ، أو يتقيدن بوعد!

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام تتطلب من الناس ان ينقذوني من الدمار الذي كنت اهرع لملاقاته ، وإعادتي إلى اسرتي، بدلا من معاونتي على طيشي ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بان يفعله ، او يحاول فعله ولكن السيد "دي بونفيير" وإن كان رجلا طيبا ، إلا انه لم يكن- قطعا- بالرجل التقي . . بل إنه كان - على النقيض- متعصبا، لايعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور، ترديد التسابيح . . كان من ذلك النوع من المبشرين الذين لايملك الواحد منهم ان يفكر في شيء لمصلحة عقيدته ، افضل من كتابة الاتهامات ضد قساوسة "جنيف" ! . . وبدلا من ان يردني إلى موطني ، استغل الرغبة التي كنت احس بها في الفرار من هذا الموطن ، وعمل على ان يجعل العودة متعذرةعلي ولو شئتها! . . ومن المحتمل ان الطريق التي وجهني إليها كانت كفيلة بان توردني موارد التعاسة ، او ان تجعلني إمعة لا وزن له . . ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك او يحسب حسابه ،

فما كان يرى أمامه سوى نفس انقذت من الكفر وردت إلى الكنيسة. سواء أكنت شريفا أم وغدا ، فما قيمة ذلك مادمت أذهب إلى القداس؟.. علي أن المرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك بل إنه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة التي يعتبر الإيمان هو الشيء الرئيسي فيها ، وليس الأعمال !

وقال لي السيد "دي بونفير" : "إن الله يدعوك ، فاذهب إلى "أنيسي" ، وهناك ستجد سيدة طيبة، محسنة ، جعلها كرم الملك في مركز يمكنها من إنقاذ الأرواح من الخطأ الذي تحت هي نفسها منه!" .

وكانت السيدة المقصودة هي "مدام دي فاران"، التي اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتي اضطرها القساوسة- في الواقع- إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء معاشا قدره ألف فرنك كانت تتلقاه من ملك "سردينيا" . وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة طيبة محسنة؛ فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي بحاجاتي وليس إلى أن أحظى بصدقات !..

كما أن التفرغ للدين لم يكن يستهويني ، ومع ذلك فقد حملت نفسي - في شيء من العناء- على أن أسعى إلى "أنيسي" مدفوعا بإلحاح السيد "دي بونفير"، وبضغط الجوع، وبمتعة الرحيل في سبيل غاية محددة ، وكان بوسعي أن أبلغ وجهتي في يوم واحد ولكنني استغرقت في سفري ثلاثة أيام؛ إذ لم أكن في عجلة من أمري .،ولم أجرؤ- في تلك الأثناء- على أن ألج قصرا ، أو أقرع بابا؛ فقد كنت بطبعي شديد الخجل ولكني كنت أغني تحت النوافذ التي يراودني الأمل في أن يكون خلفها من يسمعني ، وكنت أصدم عندما أنهك رئتي بالجهد المتواصل ثم لا أرى سيدات ولا عذارى ينجذبن إلى صوتي أو معاني أغاني ، لاسيما وأنني كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها زملائي، وكنت أغنيها في إلقاء لايقل عن معانيها روعة!

ووصلت أخيرا ، فرأيت مدام" دي فاران" . ولقد حددت هذه الفترة من عمري شخصيتي ، فلست أقوى على أن أحمل نفسي على المرور بها مرا سريعا .. كنت في منتصف العام السادس عشر من عمري ، وكنت بديع التكوين ، دون أن أكون ما يسمونه "فتى مليحا" .. كنت صغير القدم ، مستوي الساق ، رضي الخلق ، ذا قسمات معبرة، وفم صغير بديع، وشعر فاحم ، وحاجبين أسودين، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ولكنهما - مع ذلك- كانتا ترسلان بقوة تلك النار التي كانت تتأجج في دمي! .. على أنني - لسوء الحظ - لم أكن أعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لي قط - خلال حياتي - أن أفكر في مظهري الشخصي اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه ! .. وكان الجبن المألوف في مثل سني هذه يرتبط بوجل ناشئ عن شخصية جبلت على الحب، فهي دائما في هم من خشية الإساءة إلى أحد . هذا إلى جانب أنني وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشأ على التسامح ، إلا أنني لم أكن قد رأيت الدنيا ، وكانت تعوزني "آداب" السلوك .. وبدلا من أن تسد معرفتي هذا النقص فإنها لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلي وجبني ؛ إذ أظهرتني على مدى حاجتي الماسة إلى هذه الآداب! ومن ثم فإن خوفي من أن يخفق مظهري - في أول لقاء مع مدام "دي فاران" في أن يكسب عطفها دفعني إلى تجشم متاعب أخرى - فنظمت رسالة بديعة، في أسلوب خطابي ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال، وكشفت عن كل بلاغتي؛ لكي أكسب رضاء السيدة ، وأرفقت برسالتي خطاب السيد "دي بونفير" ، ثم سعيت إلى المقابلة التي كنت أرهبها !.. ولم تكن مدام "دي فاران" في البيت بل قيل لي إنها بارحته لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم أحد السعف من عام ١٧٢٨ ، فهرعت في أثرها ، ورأيتها ، فلحقت بها وخاطبتها ، وخليق بي

ان اذكر البقعة التي التقينا فيها ، فكم رويتها بدمعي وغطيتها بقبلاتي منذ ذلك الحين ! وكم اتمنى ان احيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود ان اجتلب إليها تمجيد العالم وخشوعه.. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات خلاص النفوس البشرية الا يقترب منها إلا وهو راكع على ركبتيه!

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصل بين جدول - إلى اليمين - يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفناء - إلى اليسار - ويؤدي إلى باب خلفي لكنيسة الفرنسيسكان "(١) وفي اللحظة التي همت فيها مدام "**دي فاران**" باجتياز هذا الباب سمعت صوتي ، فالتفتت خلفها ، وكم اذهلني منظرها !.. كنت قد تمثلتها عجوزا ، عابسة، متعصبة في تدينها- فما كانت السيدة التقية التي تعرف السيد "**دي بونفير**" لتعدو هذه الصورة ، في رأيي!- بيد انني رأيت بدلا من هذه الصورة وجها يفيض بالسحر، وعينين زرقاوين جميلتين - مفعمتين رقة- وبشرة تبهر البصر، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شيء من النظرة السريعة التي القاها المريد الفتي- فقد غدوت منذ تلك اللحظةمريدا تلميذا متعلقا بها- وقد داخلني اقتناع بان دينا يبشر به حواريون من قبيل هذه السيدة، لابد ان يقود إلى الفردوس! وتناولت مني المرأة مبتسمة ، الرسالة التي قدمتها إليها بيد مرتجفة ، ففضتها ، والقت نظرة على ما كتب السيد "**دي بونفير**" ، ثم ارتدت إلى ما كتبته انا فقرأته كله، وهمت بأن تعيد قراءته لولا أن نبهها خادمها إلى ان الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لي بلهجة هزت كياني :

"حسنا ياصغيري .. إذن فانت تهيم في البلاد ، في مثل هذه السن؟ .. إنه لامر يستحق الرثاء حقا!" .. ولم تنتظر حتى اجيب ، بل اردفت: " اذهب فانتظرني ، وسلهم ان يقدموا لك فطورا.. ولسوف آتي بعد الصلاة لاتحدث إليك".

كانت "**لويز اليونور دي فاران**" شابة تنتمي إلى آل "**لاتوردي بيل**"، وهي اسرة عريقة ونبيلة من اسرات "**فيفاي**" إحدى مدن مقاطعة "**فودن**" ، وكانت قد تزوجت وهي جد صغيرة من السيد "**دي فاران**"- من آل "**لويس**"- وكان الابن الاكبر للسيد "**دي فيلاردان**" ، من "**لوزان**" ، ولم يكن هذا الزواج - الذي لم يعقب ولدا- زواجا هنيئا، فلم تلبث السيدة "**دي فاران**" - تحت تاثير حزن عائلي - ان انتهزت فرصة وجود الملك "**فيكتور اماديو**" في "**إيفيان**" فعبرت البحيرة ، والقت بنفسها عند قدمي هذا الامير.. ومن ثم هجرت زوجها واسرتها وبلادها ، في فورة حمقاء تشبه فورتي!- وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت انا - وإذ كان الملك مشغوفا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور ، فإنه اخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بييمونتي(٢).. وهو مبلغ كبير يعد إسرافا من امير كان بطبعه غير ميال للسخاء.. على أنه علم بعد ذلك بما قيل - بسبب استقباله إياها - من انه احبها، فما كان منه إلا ان ارسلها إلى "**أنيسي**" في حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية في دير "الزيارة"، تحت إرشاد روحي من "**مشيل جابرييل دي برنيكس**"، الاسقف الاسمى لـ "**جنيف**" .

وكانت قد قضت ست سنوات في "**أنيسي**" عندما قدر لي ان اصل إليها ، وكانت وقتئذ في الثامنة العشرين من عمرها؛ إذ ولدت في بداية القرن ، ولقد كان جمالها من النوع الذي يبقى مع الزمن؛ إذ إنه يقترن بالمحيّا أكثر منه بالملامح والقسمات.. كما أنه كان - لديها في باكورة تالقه. فكان لها طابع لطيف

---

(١) اصحاب الحبال: وهم افراد طائفة دينية انشأها القديس "فرانسيس الاسيسي" في سنة١٢٢٣ وقد اطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة انشأها "دانتون" و"مارا" و"ديمولان" - زعماء الثورة الفرنسية - في سنة ١٧٩٠ كانت تعقد اجتماعاتها في دير الفرنسيسكان المعتيق بـ"باريس".

(٢) نسبة إلى ولاية "بييمونتي" - تكتب بالحروف اللاتينية "بييد مونت" ولكن التاء تغفل في النطق- وتقع على حدود "فرنسا" و"سويسرا"، في الشمال الغربي لـ"إيطاليا".

، حنون ، وشكل رقيق وابتسامة ملائكية، وفم يشبه فمي، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله في إهمال كان يكسبها مظهرا أخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل إنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها. على أنها أوتيت رأسا وصدرا ويدين وذراعين لاتملك العين أن تقع على أجمل منها.. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمها عند مولدها - مثلي- وتلقت العلم في غير انتظام ، كلما عنّ لها أو صادفتها الفرصة.. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها، وقليلا من أبيها، وقليلا من مدرسيها ، وحظا وافرا من عاشقيها لاسيما من شخص منهم يدعى السيد "دي تافيل" كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التي تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته، ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة- بهذه الكثرة - جعل كلا منها يعرقل الآخر! ولما كانت السيدة قدواصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فإن إدراكها السليم- بطبعه- لم يصب أي تحسن . ومن ثم فإنها - برغم إلمامها بشيء من أصول الفلسفةوعلم الطبيعة - ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبي(١) والكيمياء ، وكانت تحضر أنواع :"الإكسير" والأصباغ ، والبلاسم (المراهم) والمساحيق السامية(٢) . وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها، فتسلطوا عليها، وأعنتوها ، وأفلسوها.. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها، ومواهبها، ومفاتنها التي كانت خليقة بأن تبهر بها أرقى مجتمع!.. ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاءأساءوا استغلال تربيتها التي لم تلق التوجيه الصالح -لكي يطفئوا ضياء عقلها- إلا أن قلبها السامي صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه.. ما تغيرت شخصيتها الودود اللطيفة، ولا عطفها على التعساء ، ولا طيبتها التي لم يكن لها حد ،ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم.. بل إنها حين عدا عليها الكبر، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت سجيتها الوادعة الجميلة، محتفظة- حتى نهاية عمرها - بكل ما كان بها من بهجة في أهنأ الأيام!

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لاينضب من النشاط الذي كان في حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغي شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغي مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم في الشئون المهمة، ، ولو أن مدام "دي لونجفيل" كانت في مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات.. أما هي، فلو أنها كانت في مكان مدام"دي لونجفيل" لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها أن تتوفر في غير المجال الصالح لها، فإذا هذه المواهب التي كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة- لو أنها كانت في مركز أسمى-، تؤدي إلى دمارها وهي في المركز الذي عاشت فيه!.. ذلك أنها كانت - في كل ما يقع في مجال طاقتها العقلية- ترسم خطتها مبكرة في رأسها فترى غايتها مضخمة، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها.. ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، أفلست ولما يكدسواها يخسر شيئا !.. على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية - الذي أضر بها أبلغ الضرر- كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى في عزلتها الرهبانية، إذ حال بينها وبين البقاء في هذه العزلة ما بقي من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل بعقل كان في حركة مستمرة ، وكان يبتكر في كل يوم نظما جديدة، ويحتاج إلى الحركة ليكرس ذاته لهذه النظم!

وكان أسقف "برنيكس" الطيب يشبه "فرانسوا دي سال"(٣) في كثير من النواحي ، وإن لم يعد له مهارة.. كما أن مدام "دي فاران" - التي كان يدعوها بابنته - كانت تشبه مدام"دي شانتال" (٤) في

---

(١) الطب التجريبي هنا يقصد به ذلك الطب الذي تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب "البركة". (٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى إليها ميزات عالية. (٣) أسقف "جنيف" (١٥٦٧-١٦٢٢) (٤) سيدة لمتازت بتقواها ، وهي التي أسست نظام راهبات "الزيارة" وقد أقر رهبنتها البابا "كليمنت الثالث عشر".

كثير من النواحي ، وكانت خليقة بان تشبهها ايضا في اعتزالها الناس لولا ان حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها . ولم يكن عن نقص في حمية هذه السيدة الطيبة ان عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التي تتطلبها الرهبنة ، والتي كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد اسقف .. فمهما يكن الباعث الذي اغراها على ان تبدل عقيدتها ، فإنها كانت صادقة الإخلاص– عن يقين – للعقيدة الجديدة التي اعتنقتها . ومن المحتمل ان تكون قد ندمت على إقدامها على ذلك إلا ان من الاكيد انها لم ترغب قط في النكوص ، فهي لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب ، بل إنها برهنت خلال حياتها على انها كانت كاثوليكية صالحة ، وإني لاجرؤ – وانا الذي يعتقد انه قد اطلع على سريرتها– على ان اؤكد ان عزوفها عن ان تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع .

كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها ان تظهرها للملأ . . على ان هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها ،فلسوف تسنح لي فرص اخرى للخوض فيها .

على الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا – إذ استطاعوا – كيف ان مدام "**دي فاران**" اوحت إلي منذ اللقاء الاول ، بل منذ الكلمة الاولى ، والنظرة الاولى بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما اوحت إلي به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بان احاسيسي نحوها كانت حبا حقيقيا– وهو ما سيبدو موضع شك، على الأقل ، لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا– فكيف تسنى ان يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل ان اوحى بها الهوى – واعنى بذلك طمانينة القلب ، والسكينة ، والسرور، والثقة ، والاعتداد؟– كيف تنسى انني عندما سعيت لاول مرة إلى امراة لطيفة ، مهذبة،ذات جمال باهر . . إلى سيدة أرفع مني مقاما – وما كنت قد خاطبت يوما منيلة لها – وكان مصيري ، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للاخذ بيدي..اقول : "كيف تسنّي – رغم كل هذا– ان اشعر لفوري بانطلاق، وبارتياح تام ، وكانني كنت واثقا كل الثقة بانني سأروق لها؟ . . كيف تسنى انني لم احس– ولو للحظة واحدة – باية حيرة ، او ارتباك ، او تحرج؟ . . لقد كنت بطبيعتي خجولا، سهل الاضطراب ، لا اعرف شيئا من الدنيا، فكيف تسنى لي منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الاولى ، ان اتخذ معها المسلك السهل، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليفة التي سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عندما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية؟ . . فهل من المحتمل ان يحب المرء بدون غيرة– ولست اقول بدون رغبات ، فإن هذه كانت متوفرة لدي!– افلا يرغب المرء في ان يعرف على الاقل– من هدف عواطفه – ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله ام لا ؟ . . الواقع انه ما خطر لي في حياتي ان أوجه إليها هذا السؤال ، ولا ان اسال نفسي ما إذا كنت قد احببتها! . . كما انها لم تبد فضولا نحوي من هذا القبيل . كان ثمة شيء فذ في مشاعري نحو هذه المراة الساحرة ، ولسوف يصادف القارئ – في سياق حكايتي – عجائب غير مرتقبة!

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه امري ، وقد استبقتني السيدة للغداء كي نتحدث بشان مستقبلي . وكانت تلك أول مرة في حياتي تخلت عني فيها شهيتي ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة– التي قامت بخدمتها على المائدة– إنني كنت أول قادم من سفر ، في مثل سني وطبقتي ، رأته في مثل هذه الحال ، ومع ان هذه الملاحظة لم تنل مني في نظر سيدتها إلا انها اصابت مرمى في نفس طفيلي كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفي ستة أفراد! اما انا، فقد كنت في حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لي سبيلا إلى الاكل . كان قلبي يتغذى من شعور

جديد عليّ كل الجدة،وقد ملأ كل كياني ، ولم يدع بنفسي ميلا إلى أي شيء آخر !

ورغبت مدام "دي فاران" في ان تعرف دقائق تاريخ حياتي القصيرة ، فاستعدت وانا أرويها كل ما فقدت خلال تتلمذي في الحرفة من حماسة ومرح. وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية، ازدادت هي إشفاقا علي مما اعتزمت ان اعرض حياتي له. ولم تجرؤ على ان تنصحني بالعودة إلى "جنيف" ، فقد كان ذلك - بالنسبة لموقفي - عملا ينطوي على خيانة للعقيدة الكاثوليكية، كما انها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة، وكيف ان كلماتها كانت توزن بميزان دقيق. على انها حدثتني بلهجة مؤثرة عن اسى ابي ، حتى لقد كان من السهل ان يرى المرء انها كانت تحبذ عودتي كي اواسيه، ولم تكن تدري كيف انها كانت تترافع بقوة ضد نفسها ، دون ان تدري ، إذ اظنني قد قلت من قبل إن عقلي كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة وإقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا في فؤادي ازددت عجزا عن ان افكر في الانفصال عنها! كنت اشعر بان العودة إلى "جنيف" بمثابة إقامة عوائق لاسبيل إلى تذليلها بيني وبين هذه السيدة ، ما لم اتشبث بهذه الخطوة التي اتخذتها ؛ومن ثم ظللت صامدا في موقفي ، وإذ رأت مدام "دي فاران" ان جهودها غير مجدية لم تمعن في الإلحاح ، حتى تتفادى إحراج نفسها ، بيد أنها قالت لي وهي ترمقني في إشفاق : " ايها الصغير البائس ، يجب ان تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثي عندما تكبر! "

واعتقد انها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التي قدر لهذه النبوءة ان تتحقق بها!

وكانت المشكلة عسيرة، وكيف كان بوسعي - وانا في مثل تلك السن الصغيرة- ان اجد موارد للعيش بعيدا عن وطني؟.. كنت جد بعيد عن ان اتقن حرفتي وانا لم اكد اتم نصف فترة التعلم والمران .. حتى لو انني كنت اتقنها ، فقد كنت خليقا بان اعجز عن كسب قوتي منها في إقليم "سافوي" ؛ لان الإقليم كان افقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون .. على ان الطفيلي الذي كان يلتهم الاكل - نيابة عن السيدة وعني - وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كي يريح فكيه ، فانتهز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا - إذ حكمنا عليه بنتائجه- بان يكون مستلهما من مكان آخرمضاد للسماء. وكان الاقتراح يوحي بان اذهب إلى "تورين" حيث أجد عونا روحيا وبدنيا في دار للضيافة أقيمت للوعظ والتعليم الديني، إلى ان يتاح لي ان انضوي تحت لواءالكنيسة ، فاستطيع ان احصل على عمل بفضل اريحية المحسنين. واستطرد صاحبي قائلا: "اما نفقات رحلته، فإن سيادة الاسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيري عليه. ولا مراء كذلك في ان السيدة "البارونة" وتابع قوله وهو ينحني على طبقه: " وهي جد محسنة ، ستتوق هي الاخرى إلى المساهمة. "

ووجدت فكرة الإحسان بهذا الشكل جد بغيضة فاثقل الالم قلبي ولم انبس ببنت شفة. اما مدام "دي فاران" ، فقد اكتفت بان قالت- دون ان تتحمس في قبول الاقتراح- إن كل إنسان جدير بان يصنع الخير بقدر ما في وسعه ، وانها على استعداد لان تتحدث إلى الاسقف بهذا الصدد ولكن صاحبنا اللعين الذي لم يكن له في الامر شان يذكر ، والذي كان يخشى الا تتحدث السيدة إلى الاسقف بالطريقة التي كان يرجوها ، سارع إلى دعوة المحسنين ، وبذل جهده في إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام "دي فاران" -التي كانت تخشى علي من الرحلة- في الحديث إلى الاسقف عنها وجدت أن كل شيء قد دبر. وأسلمها الرجل لفوره النقود التي خصصت لنفقات رحلتي

المتواضعة ، فلم تجسر على الإلحاح في بقائي ، إذ كنت اقترب من السن التي لايليق عندها بامرأة في عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها في استبقاء شاب معها!

واضطررت – بعد إذ دبرت رحلتي بهذا الشكل– إلى الانصياع ، بل إنني اقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع ان "تورين" كانت ابعد من "جنيف" – كما قدرت – إلا أنها ، كعاصمة للإقليم، كانت اوثق اتصالا بـ"أنيسي" من اية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفي أرض اجنبية ، وإلى جانب انني كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام "دي فاران" فإنني اعتبرت نفسي باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا اهم عندي من ان اقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق في رحلة طويلة اثارت شغفي بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه،وبدا لي ان من التجارب البديعة أن اعبر الجبال– وانا في تلك السن– وان ارفع نفسي عن كل رفاقي بقدر ارتفاع جبال "الألب" .. إن في مشاهدة مختلف الاقطار لسحرا لايكاد اي امرئ من ابناء "جنيف" يقوي على مقاومته. ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذاك الطفيلي مزمعا ان يسافر مع زوجته خلال يومين، فعهدوا بي إلى رعايته ، كما عهدوا بنقودي – التي ضاعفتها مدام "دي فاران" – إليه. على انها منحتني كذلك مبلغا بسيطا لمصروفي الخاص، وزودتني بنصحها.. وفي يوم الاربعاء من "اسبوع الآلام" ، بدأنا سفرنا .

*****

وفي اليوم التالي لرحيلي ، وصل ابي إلى "أنيسي" – متعقبا اثري – مع صديقه السيد "ريفال" ، وهو ساعاتي مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم اشعارا تفوق اشعار "لاموت" ولم يكن يقل إبداعا للكلام عنه بالشعر ، فضلا عن انه كان طيبا في كل ناحية ، بيد ان ميله للأدب– في غير مجاله– لم يجد عليه من الثمار سوى دفع احد ابنائه إلى اعتلاء المسرح! .. ولقد قابل السيدان – ابي وصاحبه – مدام "دي فاران" واكتفيا بان رثيا لحظي ، بدلا من ان يتبعاني ويستردانى، وهو امر كان من اليسير عليهما اداؤه ، إذ إنهما كانا يمتطيان جوادين ، في حين انني كنت أسير على قدمي اولقد حذا خالي "برنار" حذوهما ، فوصل إلى "كونفينيون" ثم ارتد إلى "جنيف" بعد ان سمع انني كنت في "أنيسي" ..وكأنما كان اهلي متحالفين مع نجمي المنحوس على أن يسلموني إلى المصير الذي كان يرتقبني ، ولقد ضاع اخي بفضل إهمال شبيه بهذا ، وكان ضياعه شبه نهائي ، حتى إن احدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان ابي رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد اوتي نفسا من تلك النفوس القوية القادرة على جليل الفضائل، وكان فضلا عن ذلك ابا صالحا لاسيما بالنسبة لي ، فقد كان يحبني ويخصني بحنان فياض ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب – مذ اصبحت اعيش بعيدا عنه – ميولا اخرى احالت عاطفته الابوية فاترة بعض الشيء. وكان قد تزوج مرة اخرى في "نيون" ، ومع ان زوجته لم تكن في سن تمكنها من ان تمنحني إخوة ، إلا أنها كانت ذات اقارب واهل ، مما خلق لابي اسرة جديدة، واهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكثر من استعادةذكراي .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكني واخي كنا قد ورثنا عن امنا ثروة بسيطة ، كان من حق ابي ان يحصل على ريعها في غيابنا، ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هي حالت بينه وبين اداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية في نفسه، دون ان يفطن إليها! قد خففت – في بعض الاحيان – من تحمسه الذي كان خليقا بان يدفعه إلى الانطلاق في تعقب اثري ،

كما حدث عقب رحيلي عن "أنيسي" . وهذا – فيما اعتقد – هو السر في أنه ، وإن كان قد سعى إلى "أنيسي" للبحث عني في الواقع ، فإنه لم يتبعني إلى "شامبيري" ، حيث كان حريابان يعثر علي ولابد .

وكان هذا هو السر كذلك في انه كان يستقبلني عندما ازوره– كما صرت أفعل كثيرا بعد فراري – بعناقات الأب وقبلاته، ولكن .. دون ان يبذل اي جهد صادق لاستبقائي معه!

على أن هذا التصرف من جانب ابي– الذي كنت اعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة– قادني إلى تأملات في حالي، ساهمت بدرجة غير طفيفة في استبقاء قلبي سليما ، فمنها استنتجت الدرس الأخلاقي العظيم الذي قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادي تلك المواقف التي تعترض الحياة ، والتي تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا، والتي تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع في مصائب الغير . فمن المؤكد – في مثل هذه المواقف – انه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقا فلابد من انه سيأخذ في الضعف ، دون أن نتنبه إلى ذلك – إن عاجلا أو آجلا – حتى يصبح ظالما شديدا في تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفا طيبا في أعماق قلوبنا !

هذا المبدأ الذي انطبع في قرارة فؤادي ، والذي هداني – وإن جاءت هدايته متأخرة– في كل مسلكي في الواقع ، هو احد المبادئ التي جعلتني ابدو مخلوقا شديد الغرابة والحماقة في نظر العالم ، وفي نظر معارفي قبل سواهم ! ولقد عيب علي انني احاول ان اظهر فذا ، مغايرا لكل من عداي، والحقيقة هي أنني لم اجشم نفسي قط عناء التصرف على شاكلة غيري من الناس، أو على نقيضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى ان افعل ما كنت أراه صوابا. فكنت ابتعد– بقدر ما في وسعي– عن المواقف التي تجعل مصالحي متعارضة مع مصالح الغير، والتي قد توحي إلي– من جراء ذلك– برغبة خفية في إيذاء الغير ، ولو دون إرادة مني! .. ولقد اراد سيدي اللورد "مارشال" أن يثبت اسمي في وصيته– منذ عامين– فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له : إنني لاابغض شيئا في الدنيا، قدر أن أعلم أن اسمي مثبت في وصية احد، وفي وصيته هو بالذات. ولقد نزل اخيرا عن رغبته ولكنه اصر على أن يمنحني معاشا مدى الحياة، فلم اعارض. ولسوف يقال إنني كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. أواه أيها الأب وأيها المحسن! .. إنني لأوقن بأنه إذا قدر لي – لتعاستي– ان اعيش بعدك، فإنني سأفقد بفقدانك كل شيء ، ولن أكسب شيئا!

هذه– في رأيي – هي الفلسفة الحقة، بل الفلسفة الوحيدة التي تناسب القلب البشري في الواقع ، وإني لأزداد في كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى إنني عرضتها– تحت اضواء متعددة– في كتاباتي الحديثة ، ولكن الجمهور سطحي الإدراك، لا يعني إلا بالقشور، فلم يدر كيف يستوعبها. ولو قدر لي ان اعيش ، بعد أن أفرغ من مهمتي الحاضرة، حتى اضطلع بمهمة جديدة، فإنني أعتزم ان اقدم– على غرار ما فعلت في "إميل" (١) – مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة، يضطر القارئ إلى أن يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر، فقد آن لنا ان نواصل الرحلة!

*****

وجدت الرحلة ابدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقي الطفيلي من السماجة بالقدر الذي كان يلوح عليه : كان رجلا في أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب في حوافه، وقد بدا كجندي من قاذفي القنابل ، وأوتي صوتا جهوريا .. وكان عارم البشاشة ، يغذ (يسرع) في سيره ، ويسرف في

(١) يقصد بهذه الإشارة ما أورده في الخطاب العشرين، بالجزء الثالث من قصته الطويلة "هيلويز الجديدة".

أكله، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شيئا منها.

واعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما في "أنيسي" ، ولم تتخل مدام "دي فاران" عن تحبيذ فكرته، وكان لابد له - كي يقدم على المحاولة - من الحصول على موافقة الوزير؛ ولهذا كان في طريقه إلى "تورين" ، مزودا بالمال . وكان صديقنا هذا ذا براعة في الدس والتآمر ، حريصا دائما على أن يتقرب إلى رجال الدين، وبينما كان يبدي تلهفا عظيما على أداء الخدمات لهم استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لايفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير.. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية، كان لايكف عن ترديدها ألف مرة في اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف ألفا منها ! .. ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا.. كان بارعا أكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد "كابوشينياته"(١) بلهجة ضابط تدريب المجندين ، يشبه الراهب "بطرس"(٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينية وهو ممسك بسيف! .. أما زوجته السيدة "سابران" - فكانت امرأة طيبة ، أهدأ بالنهار منها بالليل. ولما كنت أنام في حجرتهما فإن نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظني ، وكان خليقا بأن يستبقيني ساهرا لو أنني علمت سببه، ولكني لم أشعر بأتفه ريب، وقد أدى غبائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها!

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقي وزميلته الصاخبة، دون أن تعكر صفو سفري أية بادرة . كنت أسعد، بدنياوذهنيا ، مما كنت طيلة عمري . كنت فتى قويا ، موفور الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة في نفسي وفي الغير . كنت أستمتع بتلك الفترة الغالية - برغم قصرها - من الحياة..

اللحظة التي تنبسط فيها الحياة على سعتها فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيسنا ، وتجعل الطبيعة في أبصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا ! .. وكان قلقي البهيج يخضع لهدف يقيد من حدته ، ويسكن من خيالي . كنت أنظر إلى نفسي كصنيعة وتلميذ وصديق ، بل وحبيب- تقريبا- لمدام "دي فاران" كانت الأمور المؤدبة التي حدثتني بها ، واللطف البسيط الذي خصتني به ، والاهتمام الحنون الذي لاح أنها أولتنيه ، ونظراتها الودية التي بدت لي وكأنها مليئة بالحب- إذ إنها كانت تلهمني هذا الشعور!- كل هذه الأمور شغلت أفكاري خلال الرحلة ، وأغرقتني في أحلام لذيذة لم يكن يعكرها أي خوف أو شك بشأن مستقبلي . فقد رأيت أنهم - إذ أوفدوني إلى "تورين" قد تكفلوا بأن يعولوني هناك، وأن يحصلوا لي على مركز مناسب. لذلك شعرت بأنني في غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسي بعد ذلك ، فقد حمله عني سواي، ومن ثم مضيت في سفري بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء . كان كل شيء يلوح لي وكأنه يعزز سعادتي المبكرة، وكنت بين الجدران أصور لنفسي المآدب والحفاوات الريفية .. وفي المرج أصور لنفسي الألعاب الخشنة.. وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد السمك .. وفوق الشجر : الفواكه الشهية.. وتحت ظلالها: الخلوات العاشقة.. وعلى الجبال: دلاء مترعة باللبن والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق دون ما غاية!... وقصارى القول إنه لم يكن ثمة ما يصادف بصري دون أن يبعث في فؤادي شيئا من الافتتان الممتع ! .. كانت فخامة المناظر المحيطة بي، وتنوعها. وجمالها الحقيقي تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل ، بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب في ذلك ، فقد لاح لي شرفا يفوق ما يؤهلني له عمري أن أزور "إيطاليا" - وأنا لاأزال صغيرا- وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا، وأن أقفو أثر "هانيبال" عبر الجبال! .. وكنا - إلى جانب

---

(١) خطب وعظات دينية عنيفة، كتلك التي كان يلقيها الرهبان "الكبوشيين" (٢) يعتبر بطرس الراهب أهم محرض على شن الحملة الصليبية الأولى وكان يطوف بقرى أوروبا على ظهر بغلة، ويخطب في الناس ممسكا سيفا ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد.

ذلك - كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتي منفتحة للأكل ، كما كان إرضاؤها متوفرا بكثرة ، والواقع انني لم أجد داعيا لان احرم نفسي شيئا ، لاسيما وان وجباتي لم تكن بالشيء الذي يذكر إذا قورنت بوجبات السيد "سابران"!

ولست اذكر خلال حياتي كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت في الأيام السبعة أو الثمانية التي استغرقتها رحلتنا ! فإن مقدرة السيدة "سابران" على السير - وهي المعدل الذي كنا مضطرين إلى ان ننظم خطانا وفقا له - جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام!

ولقد خلفت لي ذكرى هذه المناسبة ميلا شديدا إلى كل شيء كان مرتبطا بها لاسيما الجبال والسير على الاقدام ، فما سبق لي في الأيام السالفةمن عمري، أن سافرت على قدمي . . فضلا عن أن سفري هذا كان مقترنا باعظم المسرات ، ذلك لان الواجبات والاعمال وكثرة الامتعة ، اضطرتني فيما بعد إلى ان اتخذ دور السيد الراقي، وأن استقل عربة في اسفاري. كما ان الهموم ،والارتباكات والشواغل الممضة لم تلبث ان تسربت إلي ، فغدا كل همي في رحلاتي متجها إلى بلوغ غايتي ، بعد ان كنت لااكترث بشيء سوى الاستمتاع بالسفر! . . ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول ان اعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولي بحيث يقبلان أن ينفقا خمسين "لوي" (١) من مالهما ، وعاما من وقتهما في الترحال معي على الاقدام ، لنجوس خلال "إيطاليا" ، دون ان نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ولكنهم لم يكونوا يرونها - في الواقع- اكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون اي تفكير في تنفيذه! وإنني لاذكر ان"ديديرو" و"جريم" - اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة - قد تحمسا لها في النهاية ، فخيل إلي ان الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق، لم يجد فيها "جريم من السرور أكثر من أن يجعل "ديديروا" يرتكب عددا من الأخطاءالإلحادية، ثم يسلمني إلى التحقيق بدلا منه! (٢)

*****

لم يخفف من أسفي لسرعة الوصول إلى "تورين" سوى سروري برؤية مدينة كبيرة ، والأمل في ان يقدر لي أن اقوم بدور يليق بشخصي ، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد في مخي ، واصبحت أرى أنني قد سموت - إلى ما لا نهاية - فوق حالتي السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة . . وكنت ابعد من ان اظن - مجرد ظن - انه قد كتب لي ان أهوي ، في أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحال! . . على ان من واجبي ان أسأل القارئ الصفح، او أن ابرر له - قبل ان امضي في قصتي - تلك التفصيلات التافهة التي خضتها ، او التي ساخوضها في سياق القصة، والتي قد تبدو في نظره عديمةالقيمة . . فإن المهمة التي آليتها على نفسي - إذ وعدت بان اكشف نفسي للملا على حقيقتها، دون ما تحفظ - تتطلب عدم إبقاء شيء يتعلق بي في طي الإبهام أو الخفاء، وان ادع نفسي تحت ابصار الملا باستمرار ، حتى يصحبوني في كل هفوات قلبي ، وفي كل الاركان الخفية في حياتي، فلا أغيب عن اعينهم لحظة واحدة ، خشية ان يتساءلوا لو انهم عثروا في روايتي على اضال ثغرة، أو أتفه فراغ: " ما الذي كان يفعله خلال ذلك؟. . فلا يلبثوا أن يتهموني بأنني غير راغب في أن أفضي بكل شيء . وإن ما اكتبه ليعرضني لغضب الجنس البشري بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن اعرض نفسي - بصمتي- لمزيد!

---

(١) "اللوي" عملة فرنسية قديمة كانت تساوي عشرين فرنكا. (٢) يقصد "روسو" ان الرحلة لم تخرج من نطاق الورق والقلم والانطلاق في الخيال، بحيث غدت قصة وهمية.

وكان مصروفي الخاص الضئيل قد نفد ، إذ كنت في ثرثرتي قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداي عن استغلال عدم حرصي ، واستطاعت مدام "سابران" ان تحصل مني على كل ما كان معي .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام "دي فاران" قد منحتنيها لازين بها سيفي الصغير. وكانت حسرتي عليها اشد منها على اي شيء آخر بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى في حوزتهما لو انني تهاونت في مقاومتي ، لقد تكفلا بنفقاتي – في أثناء الرحلة . – بامانة، ولكنهما لم يدعا لي في الوقت ذاته شيئا .. فبلغت "تورين" بلا ثياب ولا مال ولا متاع، وغدوت مضطرا إلى ان ادع لمواهبي وحدها شرف الحظ الذي كنت ارجو ان احظى به!

ان احظى به وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدات أتعلم الدين الذي كان علي أن اكسب به عيشي! .. ورايت عند وصولي بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، اغلق خلفي – واحكم رتاجه – بمجرد ان اجتزته. وبدت لي هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة.

وكانت قد بدات تغذيني بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب ، كان كل اثاثها عبارة عن هيكل خشبي يعلوه صليب كبير – في نهاية الحجرة – وقد قامت امامه اربعة او خمسة مقاعد صنعت هي الأخرى من الخشب ، ولاحت كانها مصقولة خصيصا، في حين انها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك. وفي هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة اربعة او خمسة من الاشرار الرهيبين .. اولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لي وكانهم من الزبانية وليسوا من الطامعين في شرف ان يصبحوا ابناء للرب ، كان اثنان من هؤلاء الأوغاد من "السلافيين" الذين يزعمون انهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لي بانهما قضيا عمريهما في التجوال في ربوع "إسبانيا" و"إيطاليا"، وانهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كي يعمدا اينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت!

وما لبث ان فتح باب حديدي آخر فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء ، واقبلت خلال هذا الباب اخواتنا . كن من التلميذات اللاتي قدر لهن – كما قدر لي – ان يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا اعظم افاقات وابشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب ، على أن واحدة منهن فقط لاحت لي جميلة وجذابة، وكانت في حوالي عمري، أو ربما كانت تكبرني بعامين أو ثلاثة . وقد اوتيت عينين جريئتين اخذتا تلتقيان بعيني احيانا، فالهمني هذا برغبة في التعرف بها ، ولكنني وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما في النزل بعد وصولي – وكانت قد مكثت ثلاثة اشهر قبلهما– ان من المستحيل إطلاقا ان اتحدث إليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجوز مامورة بان تشدد في رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشرالديني الذي كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها ، ولابد انها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ؛ إذ إن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متاهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة. على انها مالبثت ان ملت عزلتها عن العالم ، فاعلنت عن رغبتها في ترك النزل، ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر ، واضطروا إلى ان يكتفوا بإعلان انضوائها للكثلكة– دون ان تعي تعاليمها–خشية ان يتولاها العناد فترفض!

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة في حظيرة الدين، والقي علينا خطاب قصير، وجه إلي فيه الحض على ان استجيب لفضل الله الذي اتيح لي ، بينما دعي الآخرون إلى ان

يصلوا من أجلي ، وأن يشجعوني بأن يكونوا قدوة لي . وعادت عذارانا- بعد ذلك- إلى معزلهن، وانفسح أمامي الوقت كي أفكر جديا في الخطوة التي كنت مزمعا اتخاذها ، مذهولا في موقفي على ضوء هوى قلبي . ثم اجتمعنا في الصباح التالي مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذ ذاك بدأت - للمرة الأولى -أفكر في الظروف التي قادتني إلى ذلك!

ولقد قلت - ولا أزال أقول ، ولعلني سأظل أردد وأنا أزداد كل يوم اقتناعا - بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا! فقد كنت أنتمي إلى أسرة امتازت بأخلاقها عن عامة الناس، فما تعلمت من أقاربي سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عيني أمثلة مشرقة ، فلقد كان أبي - برغم ولعه باللهو - رجلا شديد الاستقامة، ليس هذا فحسب ، بل إنه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الديني .

كان رجلا ذا شهامة في شؤون الدنيا ، ومسيحيا في قرارة فؤاده ، ولقد بث في قلبي منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس ، وكذلك أفدت من عماتي الثلاث ، اللائي كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين ، أما الصغرى - وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق- فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدي تقواها إلا لماما. ومن حضانة هذه الأسرة انتقلت إلى السيد "لامبرسييه" الذي كان واعظا ومن رجال الدين، ومع ذلك فإنه كان مؤمنا في قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ! ولقد عمل وأخته - بالرفق والتعليم الحكيم المتئد - على تنمية ما وجدا في فؤادي من مبادئ التقوى ، ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان في سبيل غايتهما هذه وسائل صادقة ، حكيمة، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم، وكنت دائما أتأثر بهذا الجهد منهما ، أتخذ قرارات طيبة، نادرا ما كنت أغفل تنفيذها عندما أذكرها ، أما في حالة عمتي "برنار" فإن تقواها كانت منفرة لي بعض الشيء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصنعة . على أنني نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبي الحرفي دون أن أغير الرأي. . كذلك لم أتصل قط بأي شخص في باكورة العمر يمكن أن يفسدني ، ومع أنني غدوت شريدا إلا أنني لم أكن قط منحلا!

وكنت- من جراء هذا - أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل في سني أن يعرفه بل إنني كنت أعرف أكثر من ذلك - إذ لاجدوى من أن أكتم خاطري !- فإن طفولتي لم تكن شبيهة بطفولة أندادي ، بل إنني كنت دائما أشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكني لم أكن في طفولتي عاديا! ولسوف يضحك القارئ إذ يجدني أصف نفسي - متواضعا - كشخص ممتاز ، فليكن ! ولكن ليتصور - إذا ما فرغ من الضحك- طفلا في السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها ! . . إذا استطاع القارئ أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غروري كان سخفا ، وسأعترف بأنني مخطئ ! وإذا كنت أقول إننا جديرون بألا نحدث الأطفال عن الدين - إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أي دين - بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله، ولو وفقا لآرائنا فيه فإنما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتي ، وليس من خبرتي الخاصة ؛ إذ إنني أدرك أن ليس بين النتائج التي تستمد من خبرتي ما يصلح لغيري من الأطفال ، وإلا فاصنعوا منهم "جان جاك روسو" كذلك الذي كنته في السادسة من عمري ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذ ذاك أطمئنكم إلى أنكم لن تتعرضوا لأية مجازفة!

وأعتقد أن من المسلم به أن التدين لدى الطفل - بل ولدى الرجل - يعني اتباع الدين الذي ولد

عليه . ولكن هذا الإيمان قد يتضاءل احيانا ، ونادرا ما يقوى .. فالإيمان الاعمى من ثمار التربية، وإلى جانب هذا المبدأ العام الذي ربطني بعقيدة آبائي الدينية فإنني اوتيت ذلك النفور الذي امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية، والذي كان يصورها على انها وثنية رهيبة،وبلطخ قساوستها باشد الألوان قتامة! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور في نفسي، انني- في البداية- لم اشهد قط جوف اية كنيسة ، ولا قابلت قسا في زي الكهنوت، ولا انصت إطلاقا إلى جرس جنائزي إلا وسرت في جسدي قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث ان زايلتني في المدن ولكنها كانت كثيرا ما تعاودني في "ابرشيات" (١) الريف لانها اكثر شبها بتلك التي واتاني فيها هذا الشعور في البداية. ومن الصحيح ان هذا الاثر يتناقض - بشكل بارز - مع ذكريات العطف الذي كان قساوسة ضواحي "جنيف" مولعين بإسباغه على اطفال المدينة .

وبينما كان الجرس الذي يعلن الراحة الكبرى - الموت- يفزعني كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرني بالفطور ، واللقاء حول المائدة، والزبد الطازجة ، والفاكهة، والغذاء المخلوط باللبن! .. ولايزال عشاء السيد "بونفير" الشهي يحدث في نفسي اثرا عظيما!

*****

على انني اقصيت كل تلك الخواطر من ذهني ، واقبلت - وانا انظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب الحياة فقط- على ترويض نفسي على فكرة العيش في غمرة الكثلكة، بيد ان فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة "روما" كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالي إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد ، اما الفترة التي انا بصددها، فلم يعد بوسعي ان اغرر بنفسي ، بل تبينت في جزع نوع القبول الذي قطعته على نفسي ، وما يترتب عليه من نتائج لامحيد عنها.

ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين-الذين كانوا حولي- حساب في تعزيز شجاعتي ، ولا كان في طوقي ان اخفي عن نفسي ان العمل المقدس الذي اعتزمت الاضطلاع به كان في الحقيقة نوعا من السرقة! ذلك لانني شعرت برغم صغر سني إذ ذاك ، بانه ايا كان الدين الحق بين العقائد فإنني كنت مقدما على بيع عقيدتي.. وانني وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة إلا انني كنت- في قرارة فؤادي- أكذب على الروح القدس واستحق ازدراء البشر .. ولقد كنت ازداد سخطا على نفسي كلما ازددت تفكيرا في ذلك، وكنت ازفر حسرة على المصير الذي ساقني إلى هذه الطريق ، وكانما لم يكن المصير من صنعي انا! وكانت تمر بي لحظات تشتد فيها هذه الخواطر، إلى الدرجة التي كانت خليقة بأن تجعلني افر بكل تاكيد ، لو انني كنت قد الفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا، كما ان عزمي لم يكن بالقوة الكافية. فكم من رغبات خفية صارعتها لئلاتتغلب علي .. ثم إن تصميمي الثابت على عدم العودة إلى "جنيف"، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التي انتابتني إذ وجدت نفسي نائيا عن بلدي ، بلا اصدقاء ولا موارد .. كل هذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلني أرى في وخزات ضميري ندما جد متاخر، لقد كنت اتعمد ان الوم نفسي على ما فعلت ؛ لكي اجد العذر في إتيان ما اوشك ان افعله ! وبينما كنت اضخم اخطاء الماضي ، رحت اعتبر اخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من أن اقول لنفسي "إنك لم تات الفعل بعد ،وفي وسعك ان تظل بريئا، إذا شئت"، رحت أقول : "اندم على الجرم الذي ادانتك نفسك به، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه"!

---

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية.

اية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، في مثل سني تلك،لاذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من اجل تحطيم الاغلال التي فرضتها على نفسي، ولكي اعلن في جراة انني كنت راغبا ، مهما يبلغ ما اتكبده ، في ان اظل معتنقا دين آبائي!.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرئ في سني، وما كان من المحتمل تماما ان تنجح ، إذ إن الامور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعد معه إخفاق هذه القوة امرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازددت مقاومة، حتى عز علي ان اقرها !

وكانت السفسطة التي قضت علي هي ذلك المنطق الفلسفي المالوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد ان يكون اوان الانتفاع بهذه القوة قد فات ، فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل اخطائنا ، ولو اننا استطعنا ان نتمسك دائما بالحكمة والروية لندرت حاجتنا إلى الجري وراء الفضائل.

ولكن الميول المنحرفة التي يسهل قهرها تستعجل انحدارنا لاننا لانقاومها . نحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدراء منا لخطرها ، كما اننا نقع - دون ان نفطن - في مآزق خطيرة كان من اليسير علينا ان نتوقاها، ولكنا - متى وقعنا فيها- لانستطيع ان ننتزع انفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا.. في النهاية نهوي إلى الدرك الاسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا في عتاب :" لماذا خلقتني ضعيفا بهذا الشكل؟" .. ولكنا- على الرغم من انفسنا - نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه . "إنما خلقتك اضعف من ان تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة؛ لانني خلقتك اقوى من ان تسقط فيها" !

والواقع انني لم اكن قد عقدت العزم تماما على ان اصبح كاثوليكيا، ولكنني استغللت الفرصة ، وانا ارى الوقت امامي متسعا ، لكي اروض نفسي على هذه الفكرة تدريجيا، وكنت اتمنى في الوقت ذاته ان تحدث ظروف غير منتظرة تنزعني من هذا المازق ، ولكي اكسب الوقت ، قررت ان اتخذ خير ما كان في طوقي من اساليب الدفاع ، ولكن غروري سرعان ما اعفاني من التفكير في قراري هذا ، فما إن تبينت انني كنت احيانا احيّر اولئك الذين كانوا راغبين في ان يعلموني حتى وجدت في هذا ما يكفي لان اسعى إلى ان اضاعف من حيرتهم حتى اعجزهم جميعا ! بل إنني اخذت ابدي شوقا اهوج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التاثير عني ، رحت بدوري احاول التاثير عليهم اوكنت اوقن حقا بان الامر لن يكبدني اكثر من ان اوفق إلى إقناعهم ، فإذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين!.. وكان من جراء ذلك ، انهم لم يجدوا في من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتي او من حيث استعدادي ورغبتي ، والبروتستانت- عادة- افضل تعليما من الكاثوليك. وهو امر طبيعي ، لان عقيدة الاولين تدعو إلى النقاش ، في حين ان عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع ، فالكاثوليكي مضطر إلى ان يعتنق الراي الذي يقدم إليه ، اما البروتستانتي فلابد من ان يتعلم كيف يقرر بنفسه الراي الذي يعتنقه !.. وقد كان هذا امرا معروفا، ولكن احدا لم يكن يتوقع ان يثير فتى في مثل سني وموقفي مصاعب لافراد ذوي خبرة وتجارب . فضلا عن انني لم اكن قد تلقيت اول "مناولة" (١) ولا لقنت التعاليم الخاصة بها.

وكان هذا امرا معروفا كذلك ، ولكن الشيء الذي لم يعرفوه هو انني تعلمت على يدي السيد "لامبرسييه" واخته ، وانني - فضلا عن ذلك - كنت اختزن ثروة لاتروق لاولئك السادة، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والامبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب اثناء مقامي مع ابي ، ثم نسيته تقريبا بعد ذلك، ولكنه اخذ يعود إلى ذاكرتي كلما اشتد وطيس الجدال!

وراس الاجتماع الاول- الذي ضمنا جميعا- قس كبير السن، صغير الجسم، على شيء من الوقار

---

(١) فريضة "المناولة" او فريضة "الاشتراك في العشاء الرباني" هي من اهم الفرائض والاسرار المقدسة التي تركها المسيح لتلاميذه واتباعه، لكي يذكروه بها كلما مارسوها ، وهي تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا إلى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس "المناولة إلى وقتنا الحاضر.

والمهابة. وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائي درسا في الدين، وليس مجالا للمناقشة؛ ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لا بمحو اعتراضاتهم. على أن الوضع تغير في حالة واحدة: فعندما حان دوري رحت استوقف القس عند كل نقطة، ولم اعفه من اية عقبة كان بوسعي ان القيها في طريقه، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين. واسهب قسي الشيخ في الكلام، وبدا انفعاله يزداد، واخذ يشرد عن موضوعه، ويخرج من المازق بادعاء انه لم يكن يجيد الفرنسية! فلما كان اليوم التالي، رؤي ان اعتراضاتي الرعناء قد تؤذي رفاقي، فوضعت في حجرة أخرى، مع قس آخر كان اصغر سنا من قس الامس، واكثر ذلاقة لسان- اعني انه كان يجيد التلاعب بالعبارات – واعظم رضا عن نفسه مما يجوز لأي مدرس!..

على انني لم ادع نفسي تنصاع لمسلكه المتسلط، وما إن اطمأننت إلى ان بوسعي – برغم كل شيء- ان احتفظ بموقفي حتى شرعت أجيبه في ثقة وطيدة، واضغط عليه من كل جانب بغاية جهدي! .. وخيل إليه ان بوسعه ان يحيرني بذكر القديس اوغسطين، والقديس "جريجوري"، وغيرهما من الآباء الروحيين، ولكنه لدهشته التي فاقت كل تصور، وجد انني اجيد الجدال بشأن الآباء جميعا بإسهاب لا يقل عن إسهابه، لا لانني كنت قد قرات عنهم من قبل - كما قرأ هو- وإنما لانني كنت اتذكر فقرات عديدة من كتاب ديني عن مجاهدة النفس، فما إن كان القس يذكر فقرة منه دون ان يتوقف لمناقشتها حتى كنت أجيبه بفقرة اخرى من اقوال الاب نفسه الذي نقل عنه، مما سبب له ارتباكا غير قليل، في كثير من الاحيان! ومع ذلك فقد انتهى الامر إلى فوزه، وذلك لسببين: اولهما: انه كان الاقوى جانبا، ولما كنت اشعر بانني تحت رحمته، فقد حكمت عن صواب – برغم صغر سني- بانه ليس من الصواب أن أحرجه، إذ إن هذا قد يدفعه إلى التطرف، لاسيما بعد ان رأيت بجلاء ان القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف علي أو على تعليمي! .. والسبب الثاني: هو ان القس الشاب كان متعلما، في حين انني لم أكن متعلما، الامر الذي جعله يستخدم في نقاشه اسلوبا عز علي أن اجاريه فيه، فكان إذا احس بنفسه محرجا تحت ضغط اعتراض غير ظاهر يرجئ الاجتماع إلى اليوم التالي، متعللا بانني كنت اشرد عن الموضوع. وكان في بعض الاحيان يابى ان يصدق ما كنت اذكره من اقوال مقتبسة، زاعما انها مصطنعة زائفة، ثم يتحداني ان ارشده إلى مواقع هذه المقتبسات من الكتب، وهو مطمئن إلى انه لن يتعرض لكثير من الحرج؛ لانني برغم علمي المستعار لم أكن ذا خبرة كافية للبحث في الكتب، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التي تمكنني من البحث عن فقرة في مجلد كبير. مهما أكن متأكدا من وجودها فيه! .. وكنت من ناحيتي اذهب إلى الشك في ان القس الشاب كان يعمد إلى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم امانة، وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا من مازق أكون قد اوقعته فيه!

*****

وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوافه مستمرة، والوقت يمضي في نقاش، وتمتمة وصلوات، دون ما عمل، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة، أوشكت تماما أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لي! ذلك انه ما من نفس خبيثة، ولا قلب همجي، إلا ولصاحبهما ميل ما، وقد ساورت احد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحوي، فكان مشغوفا بمتابعتي، لا يفتأ يكلمني بلكنته الغريبة، ويؤدي لي بعض الخدمات البسيطة، ويمنحني في بعض الاحيان شطرا من

غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلني في حرارة كانت تغبطني ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعي الذي كان يتملكني من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التي كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف فإنني كنت احتمل قبلاته قائلا لنفسي : "لقد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوي فمن الخطأ ان أصده!" . ولكنه اخذ - بالتدريج يستبيح لنفسه حرية متزايدة معي، وكان أحيانا يعرض علي اقتراحات غريبة ، جعلتني أظنه مجنونا . . وأراد في إحدى الليالي ان يبيت معي ، فرفضت قائلا إن سريري صغير جدا، وإذا به يلح علي ان اصحبه إلى سريره ، ولكني رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذي كان يمضغه ، بحيث كانت نفسي تغثى منه!

وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي كنا وحيدين في قاعةالاجتماع، فشرع يعانقني ويقبلني في حركات عنيفة لم تلبث ان اثارت خوفي . واخيرا شاء ان يستبيح لنفسه أبشع تحرر معي، وامسك بيدي محاولا ان يحملني على ان استبيح نفس التحرر معه! فارسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مفلتا منه ، وبدون ان ابدي غضبا او حنقا - إذ لم تكن لدي ادنى فكرة عما كان يسعى إليه- اعربت له عن دهشتي وازدرائي بشكل جعله يتركني حيث كنت .، ولكني رايت - بينما كان ماضيا في إتمام الحركات التي كان قد بداها - شيئا ابيض لزجا ينبثق منه مندفعا في اتجاه المدفاة ، ثم سقط على الأرض، فاثار مظهره معدتي ، واندفعت إلى الشرفة وانا اشد تاثرا، واشد انزعاجا، واشد خوفا مما كنت في أي يوم في حياتي ، حتى لقد شعرت انني أوشك ان اقع مريضا!

ولم يكن بوسعي ان افقه ما أصاب التعس ، بل اعتقدت انه اصيب بنوبة من الصرع ، أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق انني لااعرف ما هو ابشع لدى اي شخص هادئ الاعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر، ولا مثل تلك الملامح التي الهبتها الشهوة البهيمية! . . وما رايت قط رجلا آخر في مثل هذه الحال، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلابد ان نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشمازن منا!

وهرعت لانبئ كل امرئ بما جرى لي ، ولكن المشرفة العجوز امرتني بان اعقل لساني ! على انني رايت ان قصتي قد اثرت عليها بدرجة كبيرة، وسمعتها تتمتم: "ياله من كلب لعين! . . وحش كاسر!" . . ولما كنت لم ادرك الحكمة في ان امسك لساني ، فقد مضيت في إخبار كل شخص بما حدث، برغم امرها ، فإذا باحد المشرفين يفد في ساعة مبكرة من اليوم التالي فيوجه إلي تقريعا مقذعا، ويتهمني بالإساءة إلى شرف دار دينية وبإثارة ضجة حول حادث تافه! . . ونسج محاضرته بحيث شرح لي اشياء كثيرة كنت اجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق انه كان يعرفني بها لأول مرة ، إذ إنه كان مقتنعا بانني مادافعت عن نفسي إلا لانني كنت غير راغب ، وليس لانني لم أكن افقه ما ابتغاه المراكشي مني ! . . ثم انباني- برصانة- بان ذلك العمل محرم ، وبانه جد بعيد عن الأخلاق، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذي يكون هدفا له، ومن ثم لم يكن ثمة داع لان اغضب من شخص اعتبرني جديرا بالمحبة! وانباني بوضوح انه - هو نفسه- قد تقبل في صغره هذا الشرف حين عرض له! وأنه عندما فوجئ به وهو في حال لا تمكنه من المقاومة . لم يجد الأمر مؤلما في حد ذاته! . .

وكان من عدم الحياء بحيث انه راح يستعمل الفاظا صريحة، واخذ- وهو يتصور أن مقاومتي كانت ناشئة عن خوف من الألم- يطمئنني إلى انه ليس ثمة داع للخوف ، وانه ما كان لي ان انزعج دون ما مبرر للانزعاج!

ورحت اصغي إلى ذلك التعس في ذهول ضاعف منه انه لم يكن يروي أمرا يخصه ، وإنما بدا انه

كان ينصحني بما فيه الخير لي ، كان الموضوع يتراءاى له بسيطا إلى الدرجة انه لم يحاول ان يستر أو يتكتم، بل إن حديثنا انساب إلى اذني طرف ثالث تمثل في رجل من رجال الكنيسة ، لاح انه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! واثرت علي هذه الروح المتساهلة التي أبدت الأمر عاديا ، إلى درجة انني اقتنعت بانه - ولابد - عادة معترف بها في العالم ، وإن لم تتح لي فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين! . .

وكان من جراء ذلك انني رحت اصغي بدون غضب، ولكن إصغائي لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لي- وما رايته- بوجه خاص - منطبعة في ذاكرتي إلى درجة انني لا ازال اشعر بالتقزز كلما تمثلتها !.. وبدون ان افطن ، امتد نفوري من الشيء إلى الشخص الذي كان يبرره ، إذ لم يكن بوسعي ، أن اتمالك نفسي إلى الدرجة التي تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيئ لدرسه في نفسي ؛ ومن ثم رماني بنظرة كانت بعيدة عن أي ودا ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا في ان يجعل إقامتي في النزل مكروهة ، ولقد وفق في ذلك إلى درجة إنني لم ار سوى وسيلة واحدة للفرار، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذي كنت اتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها!

ولقد امدتني هذه المغامرة بمناعة في المستقبل ضد محاولات "فرسان الكم" ، فكانت رؤية اولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرني بمنظر وحركات المراكشي الرهيب ، فتوحي إلي دائما بجزع يعز علي إخفاؤه! ومن ناحية اخرى، يبدو لي ان النساء ظفرن بكسب نسبي من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى انني مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن ابناء جنسي من إهانات . .

وكانت ابشع مومس تصبح في نظري أهلا للعبادة، إذا ما تذكرت ذلك الإفريقي الزائف ! .. أما هو ، فلم ادر ما قيل له ، ولم يظهر لي ان احدا -ما عدا السيدة "لورينزا"- بدل من شعوره السابق نحوه ! على انه لم يعد يلاحقني او يتحدث إلي ، وبعد ثمانية ايام ، تم تعميده في جلال عظيم، وسربل بالبياض من راسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة! وفي اليوم التالي غادر النزل ، فلم اره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دوري بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لاتيح لمرشدي شرف الفوز بهداية "كافر" صعب المراس ، واضطررت إلى ان اجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمي الجديد!

أما وقد تعلمت اخيرا- ما فيه الكفاية- وتم إعدادي بالدرجة التي ترضي اساتذتي ، فقد اقتدت في موكب مهيب إلي كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لاعلن خروجي على عقيدتي امام الملا، ولاتلقى شهادات التعميد- وإن كنت لم أعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدي - ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع في إيهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين في شيء ! .. وارتديت يومذاك معطفا رمادي اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم في مثل هذه المناسبات. وحف بي رجلان - من أمام ومن خلف - يحملان وعاءين من النحاس، اخذا يضربان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرئ يلقي في هذين الوعاءين بما يتصدق به، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد ، وقصارى القول إن شيئا من مظاهر عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة في نظر الناس، وإمعانا في إذلال نفسي . ولم يكن ينقصني سوى الرداء الابيض، الذي كان يليق بي،والذي لم يسمح به لي كما سمح به للمراكشي ؛ لانني لم احظ بان اكون يهوديا قبل انضمامي للكنيسة!

على ان هذا لم يكن كل ما في الاحتفال ، إذ اضطررت بعد ذلك إلى ان اذهب إلى ديوان التحقيق، لاتلقى قرار توبتي من جريمة الزندقة ، ودخولي إلى حظيرة الكنيسة في احتفال كان الملك

"هنري" الرابع ممثلا فيه في شخص سفيره ! ولم يكن في مسلك قداسة الأب المحقق، ولا في مظهره ، ما يمحو الرعب الخفي الذي تملكني وأنا ألج الدار .، وبعد عدة أسئلة عن عقيدتي ، ومركزي ، وأسرتي ، سألني فجأة عما إذا كانت أمي ملعونة؟ .. وحملني الذعر على ان اكبت أول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بان اجبت بانني اجرؤ على ان أرجو الا تكون ملعونة. وان يكون الله قد انار بصيرتها في ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لي انها من امارات الرضا في شيء! وعندما انتهى كل شيء، وفي اللحظة التي توقعت فيها ان يمدوني بالمال الذي يلائم آمالي، إذا بهم يشيعونني إلى خارج الأبواب وفي يدي ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهي نتيجة الصدقات التي جمعت لي . وزودت بالنصح بان اعيش مسيحيا صالحا، وان أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لي حظا حسنا، واغلقوا الباب دوني ، فلم أرهم بعد ذلك!

*****

وهكذا تلاشت كل آمالي العظام في لحظة، وكانت النتيجة الوحيدة التي خرجت بها من الخطوة التي اتخذتها ، وهي الشعور بانني كنت مرتدا عن ديني ، وغرا مغفلا ، في آن واحد! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة اصابت آرائي عندما رايت نفسي مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع! وبعد ان كنت- في الصباح- أطيل التفكير في انتقاء القصر الذي اقيم فيه الغيتني في المساء مضطرا إلى ان انام على قارعة الطريق! .. وقد يخطر بالبال انني بدات استسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابني من حسرة رحت معها الوم نفسي لأن نحسي إنما كان من صنع يدي ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجينا- لأول مرة في حياتي - أكثر من شهرين، فكان أول ما انتابني هو شعور بالفرح لاسترداد حريتي . ووجدتني سيد نفسي وتصرفاتي من جديد - بعد فترة طويلة من الاستعباد - في مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوي المكانة الذين لايمكن ان اخفق في ان احظى بضيافتهم - حين أصبح معروفا - لما كان لي من خلال طيبة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامي ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة في جيبي تلوح لي كما لو كانت كنزا لاينضب معينه! كنت أملك ان أنفقها كما اشاء ، دون ان اقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هي المرة الأولى التي املك فيها مثل هذا المبلغ ؛ ومن ثم فبدلا من ان تثبط عزيمتي ، أو ينساب دمعي ، اكتفيت بان عدلت آمالي ، دون ان يفقد قلبي الطاهر شيئا من جراء هذا التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينةوثقة ، إذ اعتقدت ان حظي بات امرا مقررا ، ورايت ان من البديع حقا الا يكون لأحد - سواي - فضل في ذلك!

وكان أول ما فعلته هو ان سعيت لإرضاء فضولي إلى الطواف بالمدينة، ولو لاستمتع بملاذ الحرية! .. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس، وهناك راقت لي الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعت المواكب . فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التي كان يعزفها القساوسة. وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه في رهبة وخشوع، حتى إذا رايت غيري يلجونه حذوت حذوهم ، فلم يستوقفني احد ! ولعلي كنت مدينا بهذه الخطوة للفافة التي كنت احملها تحت إبطي- وكيفما يكن الأمر ، فإنني بدات اقيم وزنا كبيرا لنفسي عندما ألفيتني في القصر ، بل إنني بدات اتمثل نفسي مقيما فيه بالفعل ، وما لبثت في النهاية ان سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن "الجيونكا"(١) واللبن الرائب، وشريحتين من الخبز

---

(١) جبن "الجيونكا" نوع من الجبن الطازج الذي ينقل إلى السوق في حصير .. كالجبن المعروف في مصر باسم "القريش".

البيمونتي البديع الذي افضله على ما عداه ، وبخمس او ست قطع من فئة "السو" حظيت بوجبة من اشهى الوجبات التي تناولتها في حياتي !

وكنت مضطرا إلى البحث عن ماوى ، وكان من السهل ان اعثر على واحد ، إذ كنت قد الممت من اللغة البيمونتية بقدر يمكنني من ان اجعل حديثي مفهوما ، وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختياري ما يناسب مواردي وليس ما يلائم ذوقي ، فقد انبئت بان زوجة جندي في شارع "دوبو" تؤوي الخدم المتعطلين مقابل "سو" واحد في الليلة، وكان لديها سريرخال ، فاستاجرته ، وكانت المراة شابة حديثة العهد بالزواج، وإن كانت قد انجبت خمسة اطفال او ستة من قبل!.. ونمنا جميعا في غرفة واحدة :الأم والأطفال، والنزلاء.. "وقد ظللنا على هذه الحال طيلةإقامتي عندها!" .. وما عداذلك كانت امراة طيبة ، سريعة السباب كالحوذية، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا. على انها كانت شفوقة القلب ، بشوشا ، مالت إلي ، بل كانت ذات نفع لي!

وقضيت عدة أيام مسلما نفسي لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وحارجها ، متفحصا كل مكان ، متاملا كل ما كان يبدو لي جديدا او غريبا .، وهكذا كان الشان بالنسبة لكل شيء، لدى شاب غادر لفوره معتقله، ولم يسبق له ان رأى عاصمة . وكنت– قبل كل شيء – اتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على ان احضر القداس الملكي في كل صباح ، فقد رأيت من البديع ان اكون في كنيسة واحدة مع الامير وحاشيته، ولكن شغفي بالموسيقى كان قد بدا يغدو محسوسا ، وكان اكثر دفعا لي على الحضور المنتظم من الرواء الملكي الذي ما ان يرى بانتظام، وبنفس الشكل،حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملك؛ "سردينيا" في ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين في اوروبا. وكان "سومي" و"ديجارادنه" ،و"بيسوتزي" هم بالتتابع نجومها اللامعين.

وكان هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت اسوا آلة موسيقية إذا كان العزف عليها سليما . وبجانب ذلك، كان الإعجاب الذي احسست به نحو العظمة والفخفخة– اللتين بهرتا بصري – إعجابا خاليا من التعقل، ولا يستحق ان يغبطني احد عليه. وكان الشيء الوحيد الذي اثار اهتمامي في كل رواء البلاط الملكي هو ان ارى ما إذا كانت ثمة اميرة شابة،جديرة بتكريمي، وبان اتصل بها في مغامرة غرامية؟!..

وكنت قد أوشكت ان ابدا مغامرة من هذا النوع، في وسط اقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بان أجد فيها – لو أنني مضيت قدما – متعا تفوق متع الغرام بالاميرات الف مرة!

*****

ومع انني كنت اعيش باقصى درجات التقتير ، إلا ان كيسي بدا ينضب رويدا. ولم يكن اقتصادي في النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة في ذوق لم يبدلها– إلى يومنا هذا – تعودي على ان اجلس إلى موائد علية القوم. فما عرفت– بل لا ازال بعيدا عن ان اعرف– ما هو ابهج من الطعام الريفي. وفي وسع اي امرئ أن يطمئن إلى إكرامه لي إذا هو قدم لي بعض منتجات اللبن ، والبيض والخضر، والجبن، والخبز الاسمر ، وبعض النبيذ المقبول.. إذ إن شهيتي تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا في الوقت الذي لا ارتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولي ، يحيطونني بتكلفهم المزعج! وقد كنت في ذلك العهد احظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة "سو" ، ونفضل ما

اعتدت بعد ذلك ان احظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات!.. كنت معتدلا؛ لانني لم اتعرض لإغراء يبعدني عن الاعتدال، ومع ذلك فإنني اخطئ حين اقول إنني كنت معتدلا ، إذ إنني كنت احظى في الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة ، كانت الكمثرى ، والجيونكا ، وشرائح الخبز، وبضعة اقداح من نبيذ "مونفيرا" الكثيف الذي يستطيع المرء ان يقطعه إلى شرائح، تجعلني اسعد آكول! ومع ذلك، فقد دنت نهاية فرنكاتي العشرين، كنت أزداد شعورا بهذا يوما بعد يوم، ومع ما كانت تتسم به سني من خلو البال فإن قلقي من المستقبل سرعان ما أصبح جزءا حقيقيا! ولم يبق لي من كل القصور التي كنت اشيدها في الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا ، وفكرت في حرفتي القديمة ، ولكني لم اكن اعرف منها ما يكفيني لان يغري اي معلم على ان يستخدمني، فضلا عن انه لم يكن ثمة كثير من المعلمين في "تورين" ، واخذت انتقل من حانوت إلى آخر، عارضا خدماتي لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا ان اغري بعض العملاء برخص أجري - ريثما يتاح لي عمل افضل - بل إنني تركت لهم تقدير الاجر . ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت اطرد عادة ، فكان العمل الذي اظفر به من القلة بحيث إنني نادرا ما كسبت ما يكفي لثمن وجبتين او ثلاث ! على انني لمحت ذات يوم ، وانا اسير في "كونترادا نوفا" في ساعة مبكرة ، امراة شابة بدت لي- خلال نافذة احد الحوانيت- موفورة اللطف ، جذابة المنظر إلى درجة انني - برغم حيائي من النساء- دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبي المتواضعة رهن إشارتها ! ولم تصدني في جفاء ، بل اجلستني وسالتني ان أروي لها سيرتي القصيرة ، فلما فعلت اشفقت علي، وسالتني الا ابتئس؛ لان المسيحيين الصالحين ما كانوا ليتخلوا عني بالتاكيد ، وبعد ان ارسلت إلى صائغ يجاورها في طلب الادوات التي انباتها بانها تعوزني ذهبت إلى المطبخ فاعدت لي بيديها فطورا.

ولاح لي ان البداية تبشر بالخير، فلم تكذب النتيجة حدسي، إذ بدا على المراة انها رضيت عن العمل الذي انجزته، وكانت اكثر رضاء عن ثرثرتي المتواضعة ، عندما اطمانت قليلا إليها ، فقد كانت ذكية، انيقة الملبس ، وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فإن مظهرها اوحى لي بالهيبةوالوقار.. على ان كرم حفاوتها، وصوتها الشفوق ، واخلاقها اللطيفة الدمثة، لم تلبث ان سرت عني كل تحفظ، فتبينت مدى توفيقي ، مما ضاعف من هذا التوفيق !.. وكانت المراة إيطالية، ذات إغراء ودلال إلى حد ما ، لكنها كانت في الوقت نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتي خجولا، حتى إنه كان من العسير ان يؤدي الموقف إلى اي شيء أبعد مما جرى بيننا! كما ان الوقت لم يتح لنا كي نمضي في المغامرة . وإني لاذكرفي اقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التي قضيتها إلى جوارها ، وبوسعي ان اقول:

- إنني - في بدايتها - تذوقت احلى وانقى مباهج الحب!

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة ، بالغة الفتنة، يزيد من تاثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس . وكان اسمها مدام "بازيل"، تركها زوجها- الذي كان اكبر منها سنا، وكان غيورا بعض الشيء- في رعاية كاتب(١) بدا أبغض من ان يكون ذا غاية أو إغراء، ومع ذلك فإنه لم يكن خلوا من خلال ميزة كان يبديها مقترنة بطبعه السيئ الذي آثرني به، برغم أنني كنت مولعا بان "إله الدمامة" الجديد يزمجر كلما رآني الج المكان، ويعاملني في ازدراء اخذت مخدومته ترده إليه كاملا! بل لقد بدا لي أنها كانت تستعذب التلطف في وجوده؛ لكي تثير غيظه، وكان هذا النوع من الانتقام- برغم مجافاته لذوقي- خليقا بان يكون اكثر استساغة، لو انه كان في خلوة، ولكنها لم تدفع الامور قط إلى هذا الحد، او - بالاحرى- دفعتها، ولكن بشكل آخرا وسواء

---

(١) "كاتب" هنا بمعنى موظف كتابي اي CLERK

كانت قد الفتني جد صغير ، أو أنها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة، أو كانت تعتزم حقا أن تظل عاقلة ، فإنها أخذت تبدي في ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدني عنها، ولكنه كان يجعلني أهابها دون أن أدري السر في ذلك! ومع أنني لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقي، العاطفي، الذي أحسست به نحو السيدة "دي فاران" إلا أنني كنت أشد خجلا وأقل ألفة مع مدام "بازيل" مني مع السيدة المذكورة ، كنت أجدني محرجا ، مرتبكا، لاأجرؤ على أن أتطلع إليها، أو أتنفس بالقرب منها، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها مني للموت ، كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلمحني أحد : من الزهور التي تزين ثوبها، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء، ملتفة، كنت أراها بين قفازها وكمها. . وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى!. . وكانت عيناي تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه- بل وما وراء ما كنت أراه- وبضيق صدري ، فتزداد أنفاسي تهدجا في كل لحظة ، حتى لاأكاد أقوى على التنفس، بل يغدو كل ما استطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة، كانت شديدة الإحراج لي في غمرة السكون الشامل الذي كثيرا ما كنا نلقى نفسينا فيه!. . على أن مدام "بازيل" لم تكن - لحسن الحظ - تلاحظ ذلك، على ما كان يبدو لي ، لانهماكها في عملها . ومع ذلك فإنني كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق علي. وكان هذا المنظر الخطر يفقدني رشدي تماما، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتي قالت لي - بصوت هادئ - عبارة ما، ترد إلي إدراكي في الحال!

*****

ولقد رأيتها عدة مرات في هذه الحال- ونحن وحيدان دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعاني أكثر مما ينبغي ، أو ما يوحي بأتفه تفاهم بيننا. وكان هذا الجو- على ما فيه من تعذيب لي- جد مستعذب ، حتى إنني كنت لاأكاد لسذاجة قلبي أجد سببا لما كنت أحس به من لوعة! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هي الأخرى، فإنها- على أية حال- كانت تتيح الفرص لها بكثرة!. . وإذا تساءلنا عن النفع الذي كان هذا المسلك يحققه لها، أو لي ، فمن المؤكد أنه كان على الأقل مسلكا خاليا من أي ضرر !

. . إلى أن كان ذات يوم ، سئمت فيه المرأة الحديث السخيف الذي انطلق فيه الكاتب الدميم، فصعدت إلى غرفتها ، وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التي كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالحانوت، ثم تبعتها . وكان باب حجرتها مواربا، فدخلت دون أن يراني أحد. وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن تراني ، ولا أن تسمعني -نظرا لجلبة العربات في الطريق - وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها ، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت في زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها- في انحناءته البسيطة- يكشف بياض عنقها. . وكان شعرها معقوصا إلى أعلى في رشاقة ، وقد ازدان بالزهور ، وبالاختصار ، كان يربن على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجني عن تجلدي، فإذا بي أجثو على ركبتي لدى الباب ، وأبسط ذراعي نحوها في حركات ملتاعة ، وأنا واثق بأنها لم تكن تسمعني ، ودون أن يخطر ببالي أن من المحتمل أن تراني. .

بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بي إليها!

ولست ادري اي اثر احدثته نوبة جنوني في نفسها، فإنها لم تنظر نحوي ، ولم تنبس بكلمة إنما لفتت رأسها لفتة صغيرة ، وبحركة بسيطة اشارت باصابعها إلى الحصيرة التي كانت عند قدميها ، وكانت اللحظة تتطلب ان ارتجف، او اصرخ او ارمي بنفسي حيث اشارت ، ولكن من العسير ان يصدق احد انني في ذلك الموقف لم اجسر على ان احاول اكثرمن الاستلقاء عند قدميها ، فلم انبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عيني إليها ، بل ولا مسستها في محاولتي المضنية كي استند إلى ركبتيها لحظة.. ومع انني عجزت عن الكلام او الحركة،إلا انني كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة ، بل كان كل شيء يشي بانفعالي ، وفرحي، وعرفاني، ورغباتي الجامحة التي لم يكن لها هدف معين، والتي كان يكبحها الخوف من استياءالسيدة ، وهو امر ما كان قلبي الشاب ليرتاح إليه!

وبدا انها لم تكن اقل تاثرا ولا اقل خجلا مني.. وازعجها ان تراني هناك ، وحيرها ان تكون قد اجتذبتني إلى ذلك المكان، وبدات تشعر بعواقب الإشارة التي صدرت عنها دون ان تفكر فيها التفكير الواجب!.. ولكنها لم تقربني إليها، ولا هي صدتني عنها ، فإنها لم ترفع راسها عن الرقعة التي تطرزها، بل حاولت ان تتصرف كما لو لم تكن تراني عند قدميها! على ان كل ما اوتيت من غباء ما كان ليمنعني من ان استنتج انها كانت تشاطرني ارتباكي ، وربما رغباتي ، وانها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذي كان يدفعني إلى ان اكبح عواطفي، وإن لم يساعدني ذلك على ان اتغلب على هذا الحياء!.. وإذ كانت تكبرني بخمس سنوات او ست ، فقد رايت انها كانت خليقة بان تكون اكثر جراة، وقلت لنفسي إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جراتي، فلابد انها غير راغبة في ان ابدي اية جراة من ناحيتي ! ولا ازال حتى اليوم ارى انني كنت مصيبا، وانها كانت- بالتاكيد- من الذكاء بحيث فطنت إلى ان ناشئا مثلي كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب ، وإنما إلى "تدريب" ايضا!

لست ادري كيف كان لينتهي هذا المشهد الحافل الصامت ولا إلى اي وقت كنت ساظل دون حراك في وضعي المستهجن المستعذب، لولا اننا فوجئنا بما قطع علينا الموقف ! ففي اللحظة التي بلغ فيها انفعالي عنفوانه سمعت باب المطبخ- الذي كان ملاصقا للحجرة التي كنا فيها- يفتح ، فاستولى على مدام "بازيل" ذعر جائح تجلى في كلماتها وإشاراتها وهي تقول: " انهض!.. ها هي ذي "روزينا" قادمة!" . واسرعت بالنهوض، ممسكا باليد التي بسطتها لي ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين، شعرت عند ثانيتهما ان هذه اليد الفاتنة تضغط شفتي ضغطا خفيفا!.. ولست اغالي إذا قلت إنني لم استمتع في حياتي بلحظة في مثل حلاوة تلك اللحظة، غير ان الفرصة التي فقدتها لم تسنح قط مرة اخرى، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد! ولعل هذا هو عين السبب في ان صورة تلك المراة اللطيفة ظلت مطبوعة في اعماق قلبي بهذا الشكل الفاتن ، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتي بالدنيا والنساء . ولو انها كانت قد اوتيت مجرد قدر بسيط من الخبرة ، لاقدمت على تصرف مخالف كي تشجع فتى مثل الذي كنته!.. ولكن ، لئن كان قلبها قد اوشك ان يضعف في تلك اللحظة، فإنه كان في الواقع مستقيما ، وما انساقت للميل الذي جرفها إلا على غير إرادة منها، فكانت هذه - على ضوء كل المظاهر- اول خيانة تفكر فيها، ولعلني كنت خليقا بان اجد في مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت القاه في مغالبةحيائي! على انني، دون ان اذهب إلى ذلك المدى ، كنت اجد في وجودها سعادة لا توصف، وما عادل شيء من المشاعر التي يخلقها نبل النساء ، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمي هذه المرأة دون ان اجسر على مجرد لمس ثوبها!.. لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التي تستطيع ان تتيحها امراة فاضلة يحبها المرء!.. إن كل شيء يغدو جميلا

في صحبتها . . ولقد كانت إشارة من أصبع، ويد التصقت خفيفا بفمي، وهما كل النعم التي حظيت بها من مدام "بازيل" ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتنني كلما فكرت فيهما!

وعبثا حاولت - في اليومين التاليين- ان انتهز فرصة لخلوة اخرى ، فقد استحال علي ان اجد هذه الفرصة، ولم الاحظ اي حرص من جانب مدام "بازيل" على ان تتيحها . ومع ان مسلكها لم يصبح اقل فتورا عن ذي قبل إلا انها صارت اكثر تحفظا من المعتاد ، واعتقد انها كانت تتفادى نظراتي خشية ان تعجز عن ان تسيطر على نفسها سيطرة كافية! وغدا كاتبها اللعين اثقل ظلا من اي وقت مضى، لاسيما وقد مضى يمزح ويداعبني قائلا: إنني خليق بان اجد حظا لدى السيدات! وكنت ارتجف كلما فكرت في انني ربما كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك اعتبر ان ثمة تفاهما بيني وبين مدام "بازيل" ، فقد رغبت الآن في ان اتكتم الميل الذي لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجعلني ذلك ازداد حذرا في تحيني الفرص لإرضاء هذا الميل ، ومن فرط حرصي على ان تكون هذه الفرص مامونة ، تعذر علي ان اعثر عليها إطلاقا!

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى، لم يقدر لي قط ان ابرا منها، وقد استطاعت باقترانها بحيائي الطبيعي ان تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب! . . فقد كنت من الصدق في حبي بدرجة اجرؤ معها على القول بانها لم تكن لتمكنني من ان اسعد بسهولة . فما كانت العواطف يوما اشد توثبا واطهر طبيعة مما كانت لدي، ولا كان الحب يوما ارق، واصدق ، وابعد عن المصلحة مما كان عندي ! . . كنت على استعداد لان اضحي بسعادتي الف مرة من اجل سعادة المراة التي احبها . كانت سمعتها اعز لدي من حياتي، وما كنت لارجو البتة ان اعرض طمانينتها لحظة واحدة لاي خطر ، في مقابل كل المباهج والمتع ! وقد حملني هذا الشعور على أن اسرف في الحذر والتكتم والحيطة في مغامراتي ، إلى الحد الذي لم يقدر عنده لاي منها ان تنجح! . . وما كانت حاجتي إلى ان اوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبي العارم لهن!

*****

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم، عازف القيثارة : كان الغريب في امر هذا الغادر انه كلما ازداد ثقل ظل بدا اكثر لطفا وإيناسا ! . . وكانت مخدومته - منذ اليوم الاول الذي مالت فيه إلي - قد فكرت في أن تجعلني نافعا في الحانوت. وكنت اجيد الحساب ، فاقترحت عليه أن يعلمني كيف امسك الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح في امتعاض لعل مبعثه انه خشي أن يزحزح عن عمله اومن ثم فقد كان كل عملي- إلى جانب حفر المعادن- يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية، وفجاة، عن لصاحبي ان يعود إلى الاقتراح الذي سبق له ان رفضه، فتطوع لتعليمي القيد المزدوج(١) ، وقال إنه بات راغبا في ان يجعلني كفئا لان اتقدم بخدماتي إلى السيد "بازيل" عند عودته. وكان في صوته ومسلكه شيء من الزيف والحقد والسخرية، لم يوح إلي بالطمانينة! ولم تنتظر مدام "بازيل" حتى اجيبه ، بل قالت له في برود إنها شاكرة له تطوعه ، وإنها تامل ان يجازيني القدر في النهاية عن طيب صفائي ، وإنه لامر جدير باعظم الرثاء لو انني لم اغد - برغم كل مواهبي - اكثر من "كاتب" مثله !

وكانت السيدة قد اخبرتني ، في عدة مناسبات ، بانها راغبة في ان تقدمني إلى شخص قد يستطيع أن يساعدني . وكانت من الحكمة بحيث ادركت ان الوقت قد حان كي نفترق، إذ إن

---

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية في الجانب الدائن والجانب المدين " منه " و"له".

اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت في يوم الخميس ، فلما كان يوم الأحد التالي أقامت مادبة عشاء كنت ممن حضرها ، وكان بين الضيوف راهب من المذهب "اليعقوبي" ، حسن الطلعة، قدمتني إليه السيدة، فعاملني بحفاوة بالغة، وهنأني بانضوائي تحت لواء الكثلكة، وحدثني عن حياتي بطريقة تمت لي عن ان السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها . ثم نصحني - وهو يربت خدي بظهر يده في ود- بأن أتصرف بما يليق بكرامتي ، وبأن أكون قوي الجلد شجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط في الحديث معا . وأدركت من الاحترام الذي كان كل امرئ يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة. كما أدركت من اللهجة الأبويةالتي كان يوجه بها حديثه إلى مدام "بازيل"، أنه الراهب الذي تفضي إليه باعترافاتها ! كذلك أذكر أن الألفة البالغة التي كان يبديها نحو تائبته(١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذي لم يدهشني إذ ذاك قدر ما يدهشني الآن ، ولو أنني كنت أذكى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن أتيه فخرا لمجرد التفكير في أنني استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذي كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤي إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظي أن جلست إليها ، مواجها للكاتب . .

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغي حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات، والرجال مرهفي الانتباه. وكانت مدام "بازيل" تدعو إلى الانخاب في مهابة فاتنة. وفي منتصف العشاء وقفت عربة بالباب ، وأقبل شخص يصعد السلم. . وكان القادم هو السيد "بازيل" . وإني لأتمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا أزرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه! وكان طويلا ، مليحا، حسن المظهر، وأقبل في جلبة ، شأن الرجل الذي يفاجئ ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . والقت زوجته ذراعيها حول عنقه، وراحت تضغط يديه ، وتضفي عليه ألوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام.

ولم يكد الضيوف يشرعون في الحديث عن رحلته حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل في صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذي رآه جالسا إليها ، فروت له مدام "بازيل" كل شيء في بساطة ساذجة ، فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار، فأجيبت بالنفي، وإذ ذاك قال بصوت أجش! : " ولم لا ؟. . مادام يقضي سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل" . وأمسك الراهب بزمام الحديث، وبعد أن تحدث عن مدام "بازيل" بعبارات الإطراء المخلص الصادق،ذكر بضع كلمات في امتداحي ، وأضاف قائلا للزوج: إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد "بازيل" في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء، احتراما لوجود الراهب، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أشعر بأنه تلقى أنباء عني ، وأن الكاتب قد دس لي لديه!

وما إن انتهت المادبة حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقد أوفده مخدومه ليدعوني -بأمره- إلى أن أبارح البيت فورا، فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة. فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة، ولكن بقلب طعين، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة

---

(١) تقضي التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص إلى قس الكنيسة التي يتبعها ، فيعظه القس ويصلي من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب.

اللطيفة ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش! .. ولا مراء في انه كان على حق في رغبته الاتخونه زوجته ولكنها كانت - برغم ذكائها وحسن تربيتها- إيطالية الاصل، اعني انها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثار . ويلوح لي انه كان مخطئا إذ عاملها باكثر الطرق قابلية لان تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس!

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى . ولم اغفل ان امر بالشارع مرتين او ثلاثا ، على امل ان ارى - على الاقل المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسرعليها . ولكني رايت - بدلا منها - الزوج والكاتب المتربص الذي لم يكد يلمحني حتى اشار نحوي بالشريط الخشبي الذي يستخدم لقياس البارده، إشارة كانت تنطوي على اكثر من مجرد التهديد ! وإذ تبينت ان الرقابة شديدة ، فترت عزيمتي، ولم امر بالحانوت مرة اخرى. ولقد رغبت في ان اسعى إلى الراهب الذي كانت مدام "بازيل" قد هدتني إليه، ولكنني لم اكن اعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا في ان اصادفه ، ولكن دون ما توفيق، واخيرا، عدت احداث اخرى على ذكريات مدام "بازيل" البهيجة ، فلم البث ان نسيتها تماما بعد وقت قصير .. بل إنني -لسذاجتي وحداثتي - لم أعد أحس بميل إلى الجميلات .

على ان كرم مدام "بازيل" زود صوان ثيابي إلى حد ما، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذي تتصف به المرأة العاقلة التي تفكر في نظافة الملبس اكثر مما تفكر في زينته ، مما نم عن انها كانت تبغي ان تصونني من الهوان، لا ان تزينني .

وكانت الثياب التي حملتها معي من "جنيف" لاتزال صالحة للارتداء ؛ومن ثم فإنها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية. ولم تكن عندي قفازات ولكنها ابت ان تمنحني شيئا منها، برغم أنني كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بان تجعلني في وضع يمكنني من أن احتفظ بنفسي نظيف الملبس والمظهر ، وهو امر لم تكن بحاجة إلى ان توصيني بالاهتمام به ، عندما كنت معها!

وبعد أيام قلائل من طردي من الحانوت انبأتني صاحبة البيت الذي كنت اقيم فيه- وقد ذكرت انها مالت إلي - بأن من المحتمل ان تكون قد وجدت لي عملا، فإن سيدة ذات مكانة قد رغبت في أن تراني ، وعند هذه الكلمات ، ظننت انني اصبحت فعلا وسط مغامرات راقية، إذ كان ذهني يدور دائما حول ذلك . على أن المغامرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسي ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذي حدثها عني ، فسألتني وامتحنتني ، ولم أخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمتها لفوري ، لا في مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدي الزي الخاص بخدمتها! وكان الفارق الوحيد بيني وبين هؤلاء انهم كانوا يلبسون انشوطات على اكتافهم(١)أما انا فلم اكن افعل .. ولما كانت ثياب خدمها لاتزدان بشيءمن الوشي فإنها كانت تبدو كالأزياء العادية.. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالي العظام!

وكانت "الكونتة دي فيرسيللي" - التي التحقت إذ ذاك بخدمتها - ارملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من ابناء "بييمونت" . وكنت دائما اخالها من إقليم "سافوا"، فماكنت لاصدق ان بين اهل "بييمونت" من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من اية لكنة ، وكانت في اواسط العمر، ذات منظر ممتاز ، وقد اوتيت ذهنا مثقفا . كانت مولعة بالادب الفرنسي الذي كانت على دراية واسعة به ، كما كانت تكثر من الكتابة، وبالفرنسية دائما ، وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل مدام "دي سيفينييه" ، حتى إن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة ، وكان عملي الرئيسي من نوع لم اكن اكرهه ، إذ كنت اكتب لها ما تمليه علي من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان في المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها ان تكتب بنفسها!

---

(١) حبال مجدولة (اسلايت) او شارات مما يوجد على أكتاف بعض الخدم.

لم تكن مدام "دي فيرسيللي" ذات ذكاء عظيم ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدي بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة، دون أن تبذل أقل جهد في السيطرة على نفسها أو تفعل شيئا لايليق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهي كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم.

وكانت قوة شخصيتها هذه تطغى في بعض الأحيان حتى تصبح برودا! .. كانت تبدو لي دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها ، وعندما كانت تبدي كرما لأي تعس ، فإنما تصدر في ذلك عن رغبة في إتيان الخير والعمل الصالح ، أكثر منها عن شعور حقيقي بالصدقة، لقد خبرت هذا القصور في شعورها - إلى حد ما - خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها معها ، ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فإذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت في أنه قد يصبح بعدها في حاجة إلي المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك، إما لأنها لم تعتبرني أهلا لرعاية خاصة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر في سواهم!

على أنني أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتي ، فكانت أحيانا توجه إلي أسئلة، وتحب أن أريها الخطابات التي كنت أكتبها إلى مدام "دي فاران" ، وأصف لها مشاعري ،. على أنها لم تسلك - بالتأكيد - الطريق الصحيحة للتعرف على هذه المشاعر ، إذ إنها لم تبح لي قط بشيء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبي يحب أن يكشف عن دخليته على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضي بسريرته إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التي لاتنطوي على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتي فلم تكن توحي إلي بشيء من الثقة . وعندما كنت لاأرى ما ينم عما إذا كان حديثي يرضيها أو يضايقها ، كنت أشعر دائما بجزع ! .. على أنني لاحظت، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة في توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصياتهم ، حيلة كثيرا ما تعمد إليها النساء اللواتي يرغبن في أن يبدون ذكيات بارعات ، فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا في الكشف عن مشاعرك أنت! ولكنهن يخفقن في أن يرين أنهن بهذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف! .. والرجل إذا ما سئل بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب ، دون أي اهتمام حقيقي بأمره ، فإنه إما أن يعمد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا أن يظن أنه أحمق عن أن يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب في قراءة قلوب الآخرين فإن من سوء السياسة أن يظهر أنه يخفي ما في قلبه!

ولم يحدث لمدام "دي فيرسيللي" أن باحت لي قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . إنما كانت توجه إلي أسئلة بلهجة باردة، فأجيب عليها بتحفظ ، ولابد أن إجاباتي كانت تبدو لها تافهة مضجرة . وما لبثت في النهاية أن كفت عن الأسئلة ، ولم تعد تكلمني إلا لتصدر لي أوامرها!كانت تحكم علي في ضوء ما دفعتني إليه بمسلكها ، وليس في ضوء ما كنته .. وما رأت في قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعني من أن أبدو في غير شخصية الخادم ! .. وأعتقد أنني منذ ذلك الوقت أعاني من خبث هواية التآمر في الخفاء التي تدفعني إلى الانحراف، والتي أوحت إلي بنفور طبيعي جدا من الأوضاع التي خلقت هذه الهواية ، وكان وريث مدام "دي فيرسيللي" - التي كانت

بلا ولد – هو ابن أخيها الكونت "ديلاروك" الذي كان مثابرا على التقرب إليها. وفضلا عن ذلك ، فإن رؤساء خدمها – الذين رأوا نهايتها تدنو – لم يغفلوا مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها أن تفكر في شخصي .وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السيد "لورنزي" استطاعت زوجته – التي كانت تفوقه ذكاء– أن تتملق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنةأخيها بمنصب وصيفة السيدة! وكانت ابنة الأخ مخلوقة ماكرة ، تدعى الآنسة "بونتال" تجيد الظهور بمظهر وصيفة الشرف، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتها في التقرب إلى السيدة ، فلم تعد هذه ترى إلا بعيون الاثنتين ، أو تعمل إلا بأيديهما! ولم يكن لي حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة–السيد "لورنزي" وزوجته وابنة أخيها– فقد كنت أطيعهم ولكني لم أخدمهم، إذ لم أفطن إلى أنني– بجانب خدمة مخدومتنا المشتركة– كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمها!..

فضلا عن أنني كنت من ذلك النوع من الخدم الذي يثير قلقهم، إذ رأوا بوضوح أنني كنت في غير المكان الذي استحقه ، فكانوا يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها، وأن تعمد – كي تضعني في المركز اللائق بي– إلى إجراء قد يقلل من حظهم من مالها!.. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم في العادة أشد جشعا من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص! ومن ثم فإنهم تآمروا على إقصائي عن بصر السيدة. ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها في ضعفها الصحي ، فإنهم أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضي فيها مستعينين بنصح طبيبها، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها! .. ثم صوروا لها أنني لم أكن أفهم واجبي ، وبذلك أقنعوها بأن تعين في مكاني خادمين لئيمين، كي يحملا مقعدها ! وبإيجاز، فإنهم تعمدوا – ببراعة– ألا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هي الفترة التي كانت أثناءها تعد وصيتها! ومن الصحيح أنني بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدي من قبل ، وأخذت أبدي لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أي شخص سواي ، إذ إن الآلام التي كانت تعانيها المسكينة أخذت تمزق قلبي، والجلد الذي كانت تتحملها به أوحى إلي بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة..

حتى إني كثيرا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقا في غرفتي دون أن يراني أحد!

وأخيرا فقدناها .. ورأيتها تجود بآخر أنفاسها، وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية ، فإنها ماتت ميتة الفلاسفة.

وبوسعي أن أقول إنها ألهمتني تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها، دون إهمال أو تصنع . كانت في الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدي– في نهاية مرضها– نوعا من الانشراح الذي كان انتظامه يوحي بأنه غير حقيقي ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل، مع أنها لم تلزم فراشها إلا في اليومين الأخيرين ، إلا أنها ظلت تتحدث في هدوء مع كل امرئ حتى النهاية ، وأخيرا، لم تعد تتكلم ، ولكنها في نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : " حسنا ! .. إن المرأة التي تستطيع أن تطلق الغازات من أمعائها ، لاتموت" .. وتقلبت في فراشها، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها!

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل، أما أنا فلم أتلق شيئا، لأنني لم أكن في قائمتهم!

على ان "الكونت ديلاروك" امر بإعطائي ثلاثين ليرة(١) ، كما ترك لي السترة الجديدة التي كنت ارتديها ، والتي اراد السيد "لورنزي" ان ياخذها مني ! بل إن الكونت تكرم فوعد بان يحاول إيجاد عمل لي، وأذن لي بان اذهب لاراه ، وقد ذهبت مرتين او ثلاثا ، دون ان اتمكن من التحدث إليه . ولما كنت سريع القنوط ، فإنني لم اذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى – بعد قليل –أنني كنت مخطئا .

وليتني كنت استطيع ان انهي، عند هذا القدر، كل ما لدي من قول عن فترة إقامتي لدى مدام "دي فيرسيللي" ! .. لكن الواقع انني لم ابرح الدار كما دخلتها، وإن ظلت حالي كما كانت . لقد حملت معي من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لايطاق من الندم، لا يزال يثقل ضميري برغم مرور اربعين عاما ! وبدلا من ان تزداد مرارته ضعفا ووهنا، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بي السنون: فمن ذا يصدق ان غلطةصبيانية تؤدي إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التي كانت افدح مما يخطر بالبال ، والتي لايجد قلبي عزاء من اجلها؟.. ذلك انني تسببت في دمار فتاة لطيفة ، شريفة، جديرة بالتقدير– بل كان من المؤكد أنها تفوقني جدارة– إذ دفعت بها إلى الخزي والتعاسة!

وإليك القصة : إن من الامور التي لامناص منها ، ان تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى في البيت ، فتضيع أشياء عديدة . ومع ذلك فإن الخدم في دار تلك السيدة كانوا من الأمانة – كما كان "لورنزي" من اليقظة– بحيث إن شيئا لم يفتقد من دار مدام "دي فيرسيللي" عندما احصي ما كان فيها . ولكن حدث ان الآنسة "بونتال" فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الاحمر والفضي، ولقد كانت تحت يدي أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة في القيمة ، غير ان هذه وحدها هي التي اغرتني، فسرقتها! ولما كنت لم اجشم نفسي عناء إخفائها فإنها سرعان ما وجدت .. وشاءوا ان يعرفوا كيف آلت إلى حوزتي ، فإذا بي ارتبك، واتلعثم ، وإذا بوجهي يتضرج .. ثم قلت– في النهاية: إن "ماريون" اعطتنيها! وكانت "ماريون" شابة من "مورين" اتخذتها مدام "دي فيرسيللي" طاهية لها عندما كفت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها واصبحت تكتفي بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية.

لم تكن "ماريون" هذه رشيقة فحسب بل كانت ذات لون حاضر، لايوجد إلا لدى اهل الجبال، كما كانت تتصف – فق كل شيء– بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها الايحبها ! .. ثم إنها كانت فتاة طيبة، ورعة، لاجدال في امانتها! لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة، لذلك كان من المهم أن يتبينوا من منا اللص الحقيقي ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم، بينهم الكونت" ديلا روك" وعندما قدمت، عرض عليها الشريط.. واتهمتها في جراة ، فبهتت ، ولم تقو على ان تنبس بنت شفة ، وإنما اكتفت بان رمقتني بنظرة كانت كفيلة بان تجرد "إبليس" ذاته من اسلحته، ولكن قلبي البهيمي كان منيعا دونها ! واخيرا، انكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة، ولكن دون غضب وخاطبتني فناشدتني ان افكر، والا اشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بي اي اذى لكني اصررت على قصتي ، في قحة شيطانية، واعلنت في وجهها أنها هي التي اعطتني الشريط!.. فشرعت المسكينة تبكي ، ولم تقل سوى :" آه ! كنت اظنك رجلا طيبا يا "روسو" . إنك تشقيني كل الشقاء، ولكني لا اتمنى ان اكون في موقفك!" ..

وكان هذا كل ما عندها لي ، فقد راحت تدافع عن نفسها في بساطة وحزم ، دون ان تسمح لنفسها بأن توجه إلي اقل تانيب او لوم! وادى هذا الاعتدال– بالقياس إلى لهجتي الجازمة– إلى ضررها ، فما كان من الطبيعي أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبي، بوداعة ملائكية من جانبها!

---

(١) الليرة: عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد اطلق الاسم على "الفرنك" في بعض الأوقات.

ومع ان المسألة لم تسو نهائيا، إلا انه بدا انهم جميعا مالوا إلى جانبي ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم في التعمق في المسألة، في غمرة الفوضى التي كانت تسود الدار، واكتفى الكونت "ديسلاروك" وهويفصلنا معا من الخدمة- بان قال : إن ضمير المذنب خليق بان يثأر للبريء!.. ولقد تحققت نبوءته، بل إنها لتتحقق في كل يوم!

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامي الزائف ، ولكن من غير المحتمل انها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحي.

لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ولكنها كانت - برغم ذلك- سرقة ! ومما زاد الطين بلة انها ارتكبت لإغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت في نفسه كل هذه الرذائل ! بل إنني لاأظن ان التعاسة والنبذ هما اعظم الأخطار التي تسببت بفعلتي في تعريض الفتاة لها، فإن المرء لايستطيع ان يدري مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة، فتاة في مثل سنها!.. أواه! إذا كان شعوري بالندم لايطاق ، لمجرد احتمال انني جعلتها تعسة، ففي وسع المرء ان يقدر ما يخالجني من شعور إذ أتصور انني قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير!

إن هذه الذكرى تقض راحتي وتمضني في بعض الأوقات، إلى درجة تجعلني إخال - في ساعات السهاد- ان الفتاة المسكينة مقبلة لتلومني على جرمي ، وكانني ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت اعيش في هدوء ودعة ، لكنها في غمرة الحياة الصاخبة تسلبني لذة العزاء ، وتجعلني احس بما اذكر انني قلته في احد كتبي من ان : "الندم يهجع عندما تكون حظوظنا في ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا في أوقات النوائب "!..

ومع ذلك فإنني لم اقو البتة على أن احمل نفسي على ان افضفض عن صدري بأن اعترف بالقصة لأحد من أصدقائي.. فإن أوثق الود لم يصل بي يوما إلى هذا الحد مع اي امرئ، حتى مع مدام "دي فاران" . كل ما استطعته هو ان اعترفت بان علي ان الوم نفسي على عمل فظيع ، ولكني لم افصح إطلاقا عن كنهه! ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميري إلى اليوم دون ان تخف وطأته ، وإني لاذهب إلى حد التأكيد بان الرغبة في الخلاص منه - إلى حد ما - ساهمت بدور كبير في إقدامي على كتابة هذه "الاعترافات"!

لقد كنت صريحا امينا في الاعتراف الذي ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد انني لم احاول ان اخفف قتامة جرمي . ولكني لا احقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا انا لم اعرض - في الوقت ذاته - أعمق مشاعري الدفينة ، وإذا انا ترددت في ان ابرز نفسي ، بحقائق محضة صادقة : فما كانت النية الخبيثة بمنأى عني في اية لحظة ، بقدر ما كانت في تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب - ولكن من الصحيح أيضا في الوقت نفسه- ان صداقتي للفتاة التعسة كانت هي السبب في انني اتهمتها !.. ذلك انها كانت ماثلة في خاطري ، فلم أر بدا من ان القي اللوم على أول شخص قفز إلى فكري، فاتهمتها بفعل ما كنت اعتزم فعله.. اتهمتها بانها أعطتني الشريط، لأني كنت اعتزم ان اعطيها إياه ! فلما رأيتها امامي - بعد ذلك- تمزق قلبي لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان أقوى تاثيرا على نفسي من التوبة!.. وما كنت خائفا من العقاب وإنما كنت خائفا من العار، فقد كنت أرهبه اكثر من الموت ، واكثر من الجريمة، واكثر من اي شيء آخر في الدنيا!.. وكم كنت اغتبط لو، أن الأرض انشقت فجأة فابتلعتني وخنقتني! وهكذا تغلب الخوف الطاغي من العار

على كل شيء ، فلم يزدني إلا قحة.. إذ إن ازدياد إجرامي ، وازدياد نفوري من الاعتراف أديا إلى انعدام خوفي من الافتراء فما عدت أرى أمامي– إذ ذاك – سوى بشاعة الفضيحة ، وهتك ستري للملأ، في حضوري ، باعتبار انني لص.. وكاذب.. ومفترا.. ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردني من كل شعور سواه ، ولو انهم أتاحوا لي فرصة استرد فيها رباطة جاشي لما كان ثمة ريب في انني كنت اعترف إذ ذاك بكل شيء!.. لو ان السيد "ديلا روك" انتحى بي جانبا، وقال لي : "لاتفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها .. إذا كنت مذنبا فاعترف لي" لالقيت بنفسي في الحال على قدميه.

إني لموقن تماما من ذلك! ولكني حين افتقدت التشجيع لم الق منهم سوى الإرهاب!

ثم إن الإنصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سني، فقد كنت يومئذ اقرب إلى الطفولة مني إلى الرجولة ، والجرائم الحقيقية تكون في الصغر اكثر اتصافا بالإجرام منها في الكبر، أما الجرائم التي لاتعدو ان تكون نزوات مبعثها الضعف فلا تكون في الواقع ناجمة – لدى الصغار– عن روح إجرامية.

ومن ثم فإن العمل الذي ارتكبته لم يكن – في جوهره – اكثر من "مخالفة" !.. وهكذا فإن ذكراها لا تكربني لما فيها من شر، بقدر ما تكربني بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة. على انها احسنت في الواقع ، إذ صانتني بقية عمري من كل عمل يميل إلى الإجرام.. واحسنت إلي بالاثر الرهيب الذي انطبع في نفسي من جراء الذنب الوحيد الذي ارتكبته، وإني لاومن بأن استبشاعي الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمي على انني استطعت أن اقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إنني لاجرؤ على القول بانني قد كفرت عنه بكل الشقاء الذي طغى على السنوات الاخيرة من حياتي.. باربعين عاما من الاستقامة في اوعر الظروف !.. وإن "ماريون" المسكينة لتجد في الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث إنني – مهما يكن عظم ذنبي ضدها– لم اعد اخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران!

وهذا كل ما اود ان اقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لي بالا اعود إلى الحديث قط في هذا الموضوع!

الكراسة الثالثة

٥- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام "دي فيرسيللي" في حال قريبة من تلك التي كنت فيها حين دخلتها عدت إلى صاحبة النزل التي كنت اقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة اسابيع أو ستة،عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب في طباعي ، فاصبحت قلقا ، شارد الفكر، حالما .. صرت ابكي ، واتنهد ، واتوق إلى سعادة لم تكن لدي عنها اية فكرة، ولكنني - مع ذلك- كنت اشعر بانني راغب فيها! ولاسبيل إلى وصف هذه الحال ، بل إن الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة في عنفوان الشوق ..وكان دمي الفائر يملأ مخي دائما بالنساء والفتيات ، ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية، فقد رحت استغل تلك الرؤى وفقا لافكاري المتخبطة، دون ان ادري طريقة اخرى للإفادة منها! .. وقد استبقت هذه الافكار مشاعري في حالة نشاط ممض، دون ان ترشدني- لحسن الحظ- إلى طريق الخلاص من هذه الحال .. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لان اجود بكل حياتي مقابل العثور على آنسة "دي جوتون" اخرى ، ولو لربع ساعة! ولكن الوقت الذي كان لهو الطفولة يتخذ فيه هذا الاتجاه - باعتباره الاتجاه الطبيعي- كان قد ولى! .. كان الشعور بالعار- وهو رفيق الضمير السيء - قد شرع يزداد ظهورا كلما تقدمت بي السنون، مما ضاعف من خجلي الفطري إلى الدرجة التي لم اعد عندها اقوى على مغالبة هذا الخجل .. فما عدت اقوى إذ ذاك- ولا فيما بعد- على ان احمل نفسي على محاولة غير بريئة ، اللهم إلا إذا كانت تلك التي احاولها معها ، هي التي تضطرني - بطريقة ما - إلى الإقدام . مهما اعرف انها متهتكة ، ومهما اشعر عن شبه يقين بانها ستتلقى محاولتي بالقبول!

ولقد اشتد اضطرابي حتى إنني - لعجزي عن إشباع رغباتي - اخذت استثير هذه الرغبات باكثر التصرفات شذوذا.. فكنت اهيم في الازقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل ان يتاح لي ان أعرض نفسي على النسوة بالشكل الذي كنت أرجو ان أكون عليه معهن! .. على أن ما كن يرينه مني لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالي قط مثل هذا ، وإنما كان ما يرينه سخفا ونزقا .، ولا سبيل إلي وصف السرور الأرعن الذي كنت استشعره من جراء عرضه عليهن ! .. ولم يكن باقيا امامي سوى خطوة ضرورية اخرى ، ثم أكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التي كنت اشتهيها . ولو انني اوتيت جلدا على الانتظار لما كان ثمة شك في ان يمر بي شخص لديه من الجراة ما يكفي لان ينيلني المتعة المنشودة! .. ولقد افضت بي حماقتي إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا انها لم تكن مما يلائمني!

ففي ذات يوم، اتخذت مكاني في مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار ان ينقلن منها الماء، وكان في تلك البقعة منحدر بسيط يقود إلي مخزن "كرار" خلال مداخل عدة ، ففحصت - في الظلام- هذه الدروب الممتدة تحت مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج، وان بوسعي ان اجد فيها مخبا امينا إذا انا شوهدت

وطوردت . وإذ اطمأننت ، اخذت اعرض على الفتيات – اللاتي كن يفدن إلى بئر – منظرا أدعى إلى الضحك منه إلى الإغواء فكان اكثرهن احتشاما يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات في الضحك، واستاءت اخريات فاحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئي ، وإذا بي اشعر بمن يتبعني ، سمعت صوت رجل – وهو امر لم اكن اتوقعه وقد افزعني – فاندفعت في المسارب الممتدة تحت الارض ، معرضا نفسي لان اضل السبيل ، ولكن الضجيج ، والاصوات ، وصوت الرجل بالذات ظلت تتبعني .. وكنت اعول باستمرار على الظلمة، وإذا بي أرى ضوءا، فارتجفت، وامعنت في الإيغال في الظلام ، وإذا بجدار يستوقفني ، حتى إذا عجزت عن التقدم اضطررت إلى ان اقبع في انتظار مصيري . وإن هي إلا لحظة حتى امسك بي رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طويل ، تحف به اربع أو خمس نسوة عجوزات تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعا تحت الشقية الصغيرة التي كشفت امري ، والتي كانت تبغي – دون ريب – ان تشفى في وجها لوجه!

وسالني الرجل ذو السيف بخشونة، وهو يمسك بذراعي ، عما كنت افعل في ذلك المكان . ومن اليسير تصور انني لم أجد جوابا حاضرا على انني ما لبثت ان تمالكت جاشي ، وفي غمرة البأس الذي الم بي في تلك اللحظة الحرجة، انتحلت عذرا خياليا لقي نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل في لهجة ضارعةان يرحم سني وحالي، وقلت إنني كنت شابا غريبا ، من اصل طيب ، وقد اصبت بلوثة، واضطررت إلى الفرار من اهلي لانهم ارادوا ان يحبسوني ، وانني ضائع لا محالة إذا هو وشى بي .. اما إذا تركني انصرف فقد استطيع يوما ان اجزيه لقاء كرمه . وعلى النقيض من كل ما توقعت احدثت كلماتي ولهجتي اثرها ، فإذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد ان وجه إلي توبيخا قصيرا تركني انصرف في سلام ، دون ان يمضي في سؤالي ! وادركت من مسلك الفتاة والعجوزات – حين رأينني انصرف – ان الرجل الذي خفت منه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لي، وانني ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم اكد القي إليه بالا ، فقد كنت اشعر – ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا في الامر – باعتداد، ونشاط ، وقوة تمكنني من الإفلات منهن ومن هراواتهن!

وبعد ايام قلائل ، بينما كنت اسير في إحدى الطرقات ، مع رئيس احد الاديرة المجاورة كدت اصطدم بالرجل ذي السيف !.. وعرفني الرجل ، فقال يقلدني بلهجة ساخرة: " إنني امير ، إنني امير، وإني لجبان .. ولكن ، حذار من ان يعود صاحب السمو مرة أخرى ! " ولم يزد على ذلك؛ بينما نكست انا راسي في طريقي دون أن اجسر على التطلع إليه، وانا احمد له في قرارة قلبي– حكمته وتسامحه ، وحدست ان العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدق روايتي ! وكيفما كان الامر فإنه كان رجلا طيبا، برغم انه من "بيمونت" ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه؛ لان قصتي كانت ساذجة ، وكان اي امرئ في مكانه خليقا بان يعيرني بها، ولو رغبة في إثارة الضحك.

ومع ان هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التي كنت اخشاها ، إلا انها جعلتني الزم الحذر وقتا طويلا!

وكانت إقامتي لدى مدام "**دي فيرسيللي**" قد اكسبتني بعض المعارف الذين وثقت صلاتي بهم املا في ان يستطيعوا لي نفعا.

وكان بين الذين اخذت ازورهم منهم راهب من ابناء "**سافوا**" يدعى السيد "**جايم**" كان معلما لابناء الكونت "**دي ميللاريد**" وكان لايزال شابا، وقد اعتاد ان يختلط قليلا بالمجتمع لكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والامانة ، والذكاء، كما كان من اشرف الرجال الذين عرفتهم. لم يكن ذا نفع لي

في الغرض الذي حملني على زيارته ، إذ لم يكن لديه أي اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لي عن منصب، بيد أنني اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك، إذ ظل نفعها يلازمني طيلة حياتي .. اكتسبت منه دروسا في الأخلاق القويمة ومبادئ الإدراك السليم ، فلقد كنت - في ميولي وأفكاري المتقلبة - أسرف في الارتفاع أو أسف في الانحدار.. فأنا إما "أخيل" أو "ثيرسايتز" (١) .. كنت بطلا في بعض الأحيان ، وتافها - إمعة - في أحيان أخرى، وقد آلى السيد "جايم" على نفسه أن يردني إلى مكاني اللائق بي، وأن يطلعني على نفسي في ألوانها الحقيقية، دون ما إسراف أو تثبيط. كان يحدثني عن مواهبي فيوليها ما كانت جديرة به من تقدير ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها تحول بيني وبين الإفادة منها على خير وجوه الإفادة ؛ ومن ثم فإنها خليقة بأن تكون أقل نفعا لي، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنيني عن هذا الحظ وهذه الثروة! .. وبسط الراهب أمامي صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التي لم تكن لدي عنها سوى أفكار زائفة، فأراني كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة- وسط تيارات القدر المعاكسة- وأن يدفع زورق حياته برغم الرياح المضادة، لكي يصل إليها ، وبين لي كيف أنه لاوجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هذه الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحياة. وبدد محدثي إعجابي بالعظمة والأبهة الظاهرتين، إذ أثبت لي أن أولئك الذين يتبوءون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك أنبأني بشيء كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين: لو أتيح لكل امرئ أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا لاتضح أن عدد الراغبين في الهبوط يفوق عدد الراغبين في الصعود في هذه الحياة! وهذا الخاطر- الذي يذهل صدقه العقل ، والذي لاينطوي على مغالاة - ظل ذا نفع كبير لي خلال مجرد حياتي ، إذ ساعدني على أن أعيش راضيا بمكاني في الحياة!.. لقد أطلعني هذا الراهب على أولى الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، مما لم يتح لذكائي المتضخم أن يلم به إلا في أكثر صوره مغالاة ومبالغة. فجعلني أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى في المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف في العلو، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الأجبات الضئيلة باستمرار ، وعلى خير جه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذي تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهناء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة.. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته في جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم في مناسبات عابرة!

وفي سبيل تحديد واجبات الإنسان ، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التي اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتي كانت حالي الراهنة من نتائجها أفضت بنا إلى الحديث في الدين : ومن الممكن أن يتصور القارئ عند هذا الحد أن السيد "جايم" الفاضل ، هو - إلى حد كبير على الأقل - الأصل الذي قبست عنه شخصية "أسقف سافوا" (٢) ولم يكن يقتصد في صراحته وانطلاقه في الحديث إلا في نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا في كلامه وما عدا ذلك كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هي هي لاتتبدل ، وكان كل شيء - حتى نصحه لي بالعودة إلى أهلي - يتسم بما صورته به للرأي العام منذ ذلك الحين.

---

(١) "أخيل" بطل إغريقي ، هو الشخصية الرئيسية في إلياذة "هوميروس" . كان من أشجع وأجمل أبطال الإغريق ، وقد اشترك في إلياذة "طروادة" ، أما "ثيرسايتز" مكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله "أخيل" .

والذي يقصده "روسو" من عبارته هنا أنه كان لايعرف اعتدالا في تلك الفترة من حياته، فهو إما مسرف في الشجاعة ونبل النفس ، وإما مسرف في بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة في الجدال عن حق أو عن باطل! (٢) أسقف "سافوا" هو إحدى شخصيات كتاب "روسو" المعروف "إميل" .

لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع في سرد محادثاتنا ، إذ إن مادتها في متناول كل امرئ وإنما اكتفي بأن أقول : إن دروسه ــ التي لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره في البداية ــ اصبحت من بذور الفضيلة والدين التي لم تذو قط في فؤادي ، والتي لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كي تثمر وتزدهر!

ومع أن تحولي إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن - في ذلك الحين - تحولا كاملا ، إلا أن هذا لم يحرجني في شيء . وبدلا من أن اشعر بالملل من احاديث السيد "جايم" وجدتني اشغف بها لوضوحها وبساطتها؛ ولذلك القدر من حرارة القلب التي كنت احس أنها تزخر بها.. ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقي بالناس دائما بسبب الخير الذي ادوه لي ، أقل من تعلقي بهم من جراء الخير الذي كانوا يرجونه لي ، ونادرا ما اخطأ شعوري تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل للسيد "جايم" . فكنت في الواقع تلميذه الثاني ، وكان لهذا الامر - في تلك الفترة - فائدة لاتقدر إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلي عن العمل يجتذبني إليها!

وفي ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت "ديلا روك" ، وكان هذا آخر ما اتوقعه ، فإن الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن اتمكن من الحديث إليه ايأستني منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت انه نسيني ، أو انه احتفظ بفكرة سيئة عني ولكنني كنت مخطئا ، فإنه كان قد شهد - أكثر من مرة - السرور الذي كنت أؤدي به واجباتي لعمته.. بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما انه تكلم معي بشأنه في وقت كنت قد نسيته فيه!... ولقد تلقاني في رفق وانبأني بأنه رأى أن يدبر لي بالفعل منصبا - بدلا من أن يمنيني بوعود لاتقترن بتنفيذ - وانه قد وفق في مسعاه ، وسيعينني في منصب يمكنني من أن أغدو إنسانا ذا قيمة ، وأن ما بقي بعد ذلك رهن باجتهادي . فإن الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن احتاج إلى وساطة أخرى لديها ثم اضاف انني - وإن كنت ساعامل في البداية كخادم ، كما كان شاني من قبل - إلا انني خليق بأن اطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن يستبقوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقي وسلوكي أن يحملاهم على أن يروا انني اصلح لعمل افضل ، وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت إلي به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسي : "ماذا؟.. اظل خادما دائما؟!" وخامرني إحساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقة أن محته ، فقد شعرت بأنني اقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن اخشى أن اظل فيه(١)

واصطحبني محدثي إلى الكونت "دي جوفون" رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت "سولار" الباذخ ، فإذا الروح الشماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته ، وسألني في اهتمام ، فاجبته في إخلاص صادق ، وقال للكونت "ديلا روك" : إن لي ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وإنه - في الواقع لايرى أنني تنقصني هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شيء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى . ثم التفت نحوي وقال : "إن البداية شاقة في كل الأمور تقريبا يا صغيري ، على أن مشقتها لن تذهب - في حالتك - إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر . وما عدا هذا ، كن مقداما تجد رعاية!" .. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة "دي بريي" - زوجة ابنه - فقدمني إليها ، ثم قدمني إلى الأب "دي جوفون" ، ابنه.. ولاحت لي هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث ادرك أن الخدم لايلقون كل هذه الحفاوة. والواقع انني لم اعامل كواحد

---

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بالا يتقن مهامه إتقانا يرضي مخدوميه ، وهذا يؤدي إلى إحدى نتيجتين : إما أن يسرحوه ، وإما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب ارقى .

من الخدم ، بل كنت اتناول وجباتي على مائدة وكيل اعمال الكونت ، ولم اكن أرتدي الزي المخصص للخدم. وعندما ارادني الكونت "دي فافريا" - وهو شاب أحمق خاوي الرأس- على ان اركب في مؤخرة عربته حرم جده ركوبي خلف عربة اي فرد، او قيامي بخدمة احد خارج الدار! على انني كنت - في الدار- اتكفل بالخدمة على المائدة، واُمارس كافة واجبات الخدم تقريبا، بيد أنني كنت أقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين ، وما عدا كتابة بعض الخطابات التي كانت تملى علي ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت "دي فافريا" فإنني كنت حر التصرف في وقتي طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا "الامتحان" الذي لم افطن إليه ، عظيم الخطورة في الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقا بان يقودني إلى رذائل ما كان لي ان اقارفها ، على ان هذا لم يحدث ، لحسن حظي ، إذ إن دروس السيد "جايم" كانت قد خلفت اثرا مطبوعا على قلبي ، وقد تولاني ميل إليها كان يدفعني - في بعض الاوقات - إلى ان اتسلل فاذهب للإصغاء إليها ثانية . واعتقد ان اولئك الذين كانوا يرونني ابارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم اقل فكرة عن المكان الذي كنت اذهب إليه، وما كان ثمة ما هو احكم من النصيحة التي أزجاها الراهب إلي بصدد مسلكي : فلقد بدات عملي بداية تدعو إلى الإعجاب ، ابديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرئ فنصحني الراهب - عن فطنة - بان اخفف من اندفاع الشباب، خشية ان يخف من تلقاء نفسه تدريجيا ، مما قد يسترعي الانتباه ، وقال : " إن القاعدة بان يقاس تصرفك بالقدر الذي بدات به، فحاول ان تدبر امرك بحيث يزداد جهدك بمضي الزمن ، ولكن حذار من ان يقل مجهودك يوما عنه في اليوم الذي سبقه!"

وإذ لم يتجشم احد عناء اكتشاف مواهبي المسكينة ، ولما لم اكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التي اضفتها علي الطبيعة؛ لذلك لم يبد لي ان احدا قد فكر في أن يفيد مني.

برغم ما كان السيد "جوفون" قد انباني به وما لبث أن جدت امور جعلتني منسيا تقريبا . . في ذلك الحين كان "المركيز "دي بريي" ، ابن الكونت "دي جوفون" سفيرا في "فيينا" وقد وقعت احداث في البلاط تركت آثارا محسوسة في الأسرة ، فإذا بكل فرد يظل في حالة انفعال لبضعة أسابيع، مما لم يدع لأحد وقتا في شأني. على انني لم اكن قد خففت من حميتي في العمل- حتى ذلك الحين- إلا قليلا. وكان ثمة أمر افادني واضر بي في آن واحد : افادني في انه حفظني من المغريات الخارجية . . واضر بي في انه جعلني اقل انتباها إلى واجباتي بعض الشيء!

كانت الآنسة "دي بريي" شابة في مثل سني، بديعة التكوين، مليحة المنظر إلى حد كبير، نضرة الحيا ، ذات شعر حالك السواد . . ومع أنها كانت سمراء إلا انها اوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة، ولم يكن قلبي يقوى على مقاومته إطلاقا! وكان الزي الذي ترتديه كعضو في البلاط الملكي يلائم الشباب تماما ، ويبدي قوامها الجميل في أبهى مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية ، ويجعل بشرتها اكثر فتنة ، نظرا للحداد الذي كانت تتسم به ثياب الحاشية في ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكني لاحظتها جميعا مع ذلك ، ولم أكن الوحيد الذي لاحظها ، فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة احيانا ، في لهجة خشنة كانت تؤذي شعوري بدرجة قاسية . ومع ذلك فإن عقلي لم يفقد اتزانه فيوقعني في الحب بكل سهولة ، بل إنني لم انس نفسي، ولم أنس مكاني ومركزي ، كما أن رغباتي لم تكن تلقى من الحرية اكثر مما ينبغي ! . . وإنما كنت احب ان ارى الآنسة

"دي بريي"، وان اسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحي على متعة القيام بخدمتها ، فلم اتجاوز حدودي . وكنت انتهز الفرص دائما - عندما تجتمع الأسرة حول المائدة- لتعزيز هذه الحدود ، فإذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة، بادرت لفوري إلى شغل مكانه ، وما عدا ذلك كنت اتخذ موقفي في مواجهتها ، واحدق في عينيها لأرى ما توشك ان تطلبه ، وارقب اللحظة المناسبة لإبدال طبقها .. واي شيء كنت احجم عن إتيانه لو أنها تنازلت فالقت علي امرا، أو نظرت إلي ، او وجهت إلي كلمة واحدة؟! .. لكن ، لا ! كان مقضيا علي بالا اكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودي ! ومع ذلك فقد حدث في إحدى المناسبات ان وجه اخوها - الذي اعتاد ان يكلمني احيانا وهو جالس إلى المائدة - عبارة غير مهذبة إلي، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحول بصرها نحوي . ومع ان هذه النظرة كانت خاطفة إلا انها سحرتني! .. وفي اليوم التالي، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية، فسارعت إلى استغلالها : فلقد اقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرايت اثناءها - لاول مرة - أن رئيس الخدم كان يرتدي قبعته على راسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما ادهشني ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التي كان بيت "سولار" يتخذها شعارا، والتي كانت منقوشة على الرسم الذي تالف منه رمز الأسرة هي عبارة:

Tel fiert qui ne tue pas

ولما كان "اهل "بيمونت" غير متفقهين في اللغة الفرنسية ، فقد اشار واحد من الحضور إلى جود غلطة هجائية في الشعار، واعلن انه يجب الا يكون ثمة(T) في كلمة **fiert**. وهم كونت "**دي جولفون**" الشيخ بان يجيب لولا ان لاحت منه نظرة نحوي ، فرآني ابتسم دون ان اجسر على ان اقول شيئا، فامرني بان اتكلم ، ومن ثم قلت: إنني لا اعتقد ان حرف (T) لم يكن ضروريا ،إذ إن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من **ferus**،" ومعناها متكبر او متوعد"، وإنما كانت مشتقة من "**ferit**"، "ومعناها يضرب او يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار - كما بدا لي - لم يكن: كم من رجال تواعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا!!

والتفت افراد الجماعة باسرهم نحوي ، ثم التفتوا إلى انفسهم ، دون ان ينبسوا ببنت شفة، ابدا ما رايت في حياتي مثل هذه الدهشة! ولكن اكثر ما استخف زهوي، هو أنني رأيت من اسارير الآنسة "**دي بريي**" انها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفعة فرمتني بنظرة ثانية كانت مساوية- على الأقل- للاولى ، ثم ادارت عينيها نحو جدها ، وبدا انها كانت تنتظر ، في شيء من عدم الصبر-المجاملة التي كنت استحقها، والتي قدمها الجد إلي - في الحق - كاملة وافية ، وفي مظهر من الرضا جعل الحضور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه. وكانت اللحظة وجيزة، ولكنها كانت من اعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التي لاتسنح إلا نادرا جدا ، والتي تضع الأمور في نصابها الطبيعي وتعوض إهانات القدر، وتثار للكفاءة التي لم تكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سالتني الآنسة"**دي بريي**" في صوت واهن مستح - وهي ترفع عينيها نحوي مرة أخرى- ان اناولها بعض الشراب .

ولست بحاجة إلى أن أقول إنني لم ادعها تنتظر ، ولكنني ارتجفت بعنف وانا اقترب منها ، حتى إنني أرقت بعض الماء على طبقها ، بل وعليها ، وسالتني شقيقها- في غباء - عن السر في ارتجافي. ولم يفلح هذا السؤال في ان يرد إلي جلدي،بينما تضرج وجه الآنسة "**دي بريي**" حتى طغى الاحمرار

على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التي يلاحظ منها - كما كان الأمر في حالة مدام "بازيل" خلال بقية حياتي - اني لم اكن سعيدا في ختام غرامياتي! . . وعبثا صرت ابدي اهتماما بالحجرة الملحقة بمخدع مدام "دي بريي" - الأم فإنني لم احظ بأية بادرة اخرى تنم عن انتباه ابنتها إلي! فقد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون ان تنظر إلي. . كما انني - من ناحيتي - كنت لااكاد اجسر على ان اتجه بعيني نحوها.

بل لقد بلغ من غبائي وارتباكي انني عندما وقع منها قفازها وهي تمر بي ذات يوم لم اجسر على مبارحة مكاني، بدلا من ان اندفع لالتقاط هذا القفاز الذي كنت اتمنى ان اكسوه بقبلاتي ، وتركت وصيفا فضوليا- كنت على استعداد لأن اخنقه بكل سرور - يلتقطه ! . . ومما ضاعف انفعالي ان تبينت انني لم احظ برضاء مدام "دي بريي" ، فلم تقتصر على عدم إصدار اوامر إلي ، بل إنها لم تعد تتقبل خدماتي البتة، وسألتني بلهجة فاترة إذ وجدتني في الحجرة الملحقة بمخدعها - في مناسبتين- عما إذا كنت لا اجد عملا آخر يشغلني؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة، وقد تحسرت على ذلك في البداية، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها!

وسرى عني برود مدام "دي بريي" كرم حميها، الذي انتبه اخيرا إلى وجودي : ففي ليلة المادبة التي ذكرتها تبادل معي حديثا عقب العشاء لنصف ساعة. بدا ان الحديث ارضاه، فطربت لذلك. كان هذا الشيخ الطيب ارق قلبا من مدام "دي فيرسيللي"- إن لم يكن موهوبا مثلها- وقد كنت معه احسن حالا مما كنت معها ، وقد طلب إلي ان اكون خادما خاصا للاب "دي جوفون"- الذي كان يوليني بعض الاعتبار- عسى أن يفيدني ذلك إذا انا احسنت استغلاله ، فيساعدني على اكتساب ما كان ينقصني حتى يهيئني لما كانوا يعتزمونه لي . ومن ثم اسرعت - في الصباح التالي - إلى الراهب، فلم يستقبلني كخادم ، وإنما حملني على الجلوس إلى جانب المدفأة، واخذ يسالني باعظم لطف ، فسرعان ما تبين أن تعلمي - الذي كنت قد بداته في كثير من الأمور - لم يكن مكتملا في اي شيء . وحين وجد انني كنت - بوجه خاص- على إلمام قليل باللغة اللاتينية، تكفل بتلقيني مزيدا منها .، واتفقنا على أن اذهب إليه في كل صباح ، فبدأت من الصباح التالي مباشرة وهكذا كنت - بإحدى تلك المصادفات الغريبة التي ستظهر كثيرا في مجرى حياتي فوق مكانتي وتحتها في آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا في بيت واحد! وبينما ظللت خادما حظيت بمدرس كان نبل محتده خليقا بان يجعله استاذا لابناء الملوك ، ولا اقل منهم ! كان الاب "دي جوفون" ابنا اصغر في اسرته ، اعده اهله ليكون اسقفا ، ولهذا السبب فإن دراساته لم تذهب إلى ابعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم. فقد أوفد إلى جامعة "سيينا" ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الالفاظ ومن ثم فإنه كان يؤدي في "تورين" نفس الدور الذي كان يؤديه الأب "دي دانجو" (١) في "باريس" . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب وهو امر جد مالوف في "إيطاليا" لدى اولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرا إنتاج الشعراء في اهتمام ووعي، وكتب اشعارا "لاتينية" و"إيطالية" مقبولة. وبإيجاز كان لديه ذوق كاف لان يشكل ذوقي ، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوش الذي كان راسي محشوا به . على انه -إما لان ثرثرتي اعطته فكرة زائفة عن درايتي ، او لانه لم يكن يطيق مبادئ اللاتينية المضجرة- قد جعلني ابدا بداية تفوق المستوى الذي كنت فيه بكثير وما إن جعلني أترجم بضع اساطير عن "فيدروس" حتى زج بي

---

(١) الأب "دي دانجو" كان من اعضاء المجمع اللغوي الفرنسي - الأكاديمي فرانسيز - في منتصف القرن السابق على تلك الفترة، وقد الف رسائل في قواعد اللغة الفرنسية.

في اشعار "فيرجيل" التي لم اكد افقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا علي دائما -كما سيتجلى فيما بعد- ان اشرع في تعلم اللاتينية من جديد ، اكثر من مرة ، دون ان اسير في الشوط إلى غايته . على انني ، في هذه المرة ، اجتهدت في حمية ، فاخذ الراهب يسبغ اهتمامه علي في عطف لا استطيع- حتى اليوم- ان اذكره دون ان يخفق قلبي تاثرا! . . صرت اقضي شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لاتلقى العلم ولأؤدي للسيد الخدمات،ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لي البتة بان اؤدي هذا النوع ، وإنما كنت اكتب ما يمليه علي وانسخ ما يعهد به إلي ، فكانت واجباتي كسكرتير اكثرنفعا لي من دراساتي كتلميذ! . . فإنني - بهذه الطريقة- لم اتعلم الإيطاليةفي ارقى اساليب بلاغتها فحسب وإنما اقتبست ذوقا ادبيا، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التي كان من المستحيل الحصول عليها من مكتبة "لاتريبو" والتي كانت عظيمة النفع لي فيما بعد عندما شرعت في الاعتماد على نفسي في التاليف!

تلك كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي كان من المعقول ان اطمع فيها في النجاح ، دون ما مشروعات خيالية! . . اخذ الراهب - الذي كان جد راض عني - يحدث كل شخص عن ذكائي . واولاني ابوه تقديرا خاصا، حتى لقد ذكر لي الكونت "دي فافريا" انه تحدث عني إلى الملك! . . حتى مدام "دي بريبي" تخلت عن مسلكها المهين نحوي ، وبإيجاز، اصبحت ذا حظوة في الدار ، مما اثار غيرة الخدم الآخرين،الذين ادركوا- إذ راوني اتشرف بتلقي الدروس على يدي ابن مولاهم - انه لم يعد مقدرا لي ان ابقى واحدا منهم!

وبقدر ما امكنني ان احدس عن وجهات النظر التي كانت تعالج امري- من بضع كلمات كانت تلقى إلي في عجلة ، ولم افكر فيها مليا إلا فيما بعد- يبدو لي ان آل "سولار" كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزاريةفي المستقبل! ومن ثم فقد كانوا على استعداد لان يتولوا - بكل سرور- تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد - لاعتماده المطلق على اسرتهم في معاشه - مستودع ثقتها ، ويستطيع ان يخدمها بإخلاص ،. وكان هذا المشروع من الكونت "دي جوفون" مشروعا نبيلا حكيما كريما، جديرا حقا بان يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغني عن الذكر انني - إذ ذاك - لم استطع ان احيط بكل نطاقه ، فقد كان فوق مستوى إدراكي ، كما انه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحي الارعن لايرى الحظ الحسن إلا في وسط المغامرات ! ولما لم يكن لاية امراة شان بهذا المشروع ، فقد بدت لي هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنيةً، وكئيبة. . في حين انه كان خليقا بي ان اعتبرها آمن واشرف من اية وسيلة اخرى ، لنفس السبب الذي ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها، فإن ذلك النوع من الجدارة الذي تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لايتسم بالطابع الشريف الرفيع الذي يتسم به النوع الذي كان مفترضا انني امتلكه!

ومضى كل شيء على ابدع حال، فاكتسبت احترام الجميع او بالاحرى انتزعته تقريبا! وانقضت فترة الاختبار ، واصبحت مرموقا في الدار- بوجه عام - كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له الا يشغل المركز الجدير به فإن كل امرئ كان يتوقع ان يرقى إلى هذا المركز. بيد ان مكاني لم يكن ذاك الذي قدره لي الجميع وقد كتب علي الا ابلغه إلا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضي بي إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التي امتزت بها، والتي لااحتاج إلى اكثر من ان ابسطها للقارئ دون مزيد من الإسهاب .

ذلك انه بالرغم من ان "تورين" كانت تضم كثيرين سواي ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا إلا انني لم اكن أميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء احد منهم ، على انني كنت قد عرفت - فيمن تعرفت إليهم- شخصا من اهل "جنيف" يدعى السيد "موسار" ، ويلقب بـ "ذي الفم الأعوج" وكان من رسامي التحف الدقيقة، وذا صلة بي. وقد تبين انني كنت اقيم لدى الكونت "دي جوفون" ، فجاء ليراني مع شخص آخر من "جنيف" يدعى "باكل" ، كنت زميلا له حين كنت اتدرب على الحرفة.

وكان "باكل" هذا مسليا ، شديد المرح، راوية للفكاهات النوادر التي كانت تبدو مستملحة لمن في مثل سنه، ومن ثم فإن لكم ان تتصوروا كيف افتتنت فجاة بالسيد "باكل" إلى درجة لم اعد معها اقوى على ان افارقه! .. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى "جنيف" بعد وقت قصير، فيا للخسارة التي خيل إلي أنني سامنى بها! .. وإذ تبينت مداها رايت ان افيد إلى اقصى حد- على الأقل - من الوقت الباقي قبل رحيله، فلم أكن افارق جواره إطلاقا ، او بالاحرى انه هو الذي لم يكن يفارقني ، لأنني- في البداية- لم ابلغ من الطيش الحد الذي كان يجعلني اقضي اليوم كله معه خارج القصر دون إذن. على انهم سرعان ما تبينوا انه كان يشغل كل وقتي ، فحرموا عليه ولوج الدار ، مما أثار حنقي فنسيت كل شيء عدا صديقي "باكل" ولم اعد اقترب من الراهب او الكونت ولم اعد اشاهد في الدار ! بل إنني لم اكترث للوم والتانيب، فانذرت بالطرد .. وكان في ذلك دماري.، إذ اغراني بان من الممكن الا يرحل "باكل" دون رفيق ! ومنذ تلك اللحظة لم اعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة! ومما ضاعف هناوتي المرتقبة ، ان مدام "دي فاران" لاحت لي في نهايتها ، ولكن .. على بعد سحيق ، إذ لم يكن ليخطر ببالي قط ان اعود إلى "جنيف" بالذات! .. واخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر امام ناظري في تتابع لا نهاية له ، قد تجددت مفاتنها! .. وبدا ان هذه الرحلة وقد ابتلعت كل حياتي ، فرحت اتذكر في ابتهاج كيف سحرتني هذه الرحلة وانا قادم إلى "تورين" ، فما بالك إذا ما استمتعت - إلى جانب كل سحر الاستقلال - ببهجة جديدة تتمثل في صحبة صديق في مثل سني وميولي ، أوتي روحا طروبا .. لاسيما وانه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات ، ولا رقابة ، ولا اضطرار إلى الذهاب او البقاء في اي مكان ، ما لم يرق لنا ذلك! .. وخيل إلي ان المرء يكون احمق ولاريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من اجل خطط طموح، بطيئة، شاقة، غير مؤكدة التحقق ! .. خطط لم تكن - حتى إذا سلمنا بانها قد تتحقق يوما ما ، وبرغم كل اشراقها وومبضها - لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقي ومن حرية الشباب !

وإذ تملكتني هذه الفكرة الحكيمة اقبلت على التصرف بطريقة افلحت في حمل القوم على فصلي من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم في الواقع دون كثير من العناء ، وهكذا ، ذات مساء ، اسلمني رئيس الخدم عند عودتي إلى الدار امرا من الكونت بفصلي ، وكان هذا هو عين ما رجوت ! .. غير انني كنت- بالرغم من نفسي - أدرك جموح مسلكي ، وقد اضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلي انني بحمل القوم على طردي استطيع ان القي اللوم على سواي ، وان انصف نفسي وأبرز مصيري ، وكانني كنت مضطرا- بالرغم مني - إلى انتهاج المسلك الذي كنت في الواقع المسؤول الوحيد عنه!

وقبل أن أرحل في الصباح التالي أرسل الكونت "دي فافريا" يدعوني لمقابلته ، ولما كانوا يرون انني فقدت كل تعقل ، وانني قد لا البي الدعوة فقد ذكر لي رئيس الخدم انه سيعطيني بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لي ، برغم انني كنت لاأستحقه بالتاكيد ، وذلك لانهم لم يكونوا قد

قرروا لي اجرا ، نظرا لانهم لم يكونوا يعتزمون استبقائي في منصب الخادم!

ومع ما كان عليه الكونت "دي فافوريا" من صغر السن وضآلة التفكير ، فإنه تحدث إلي في هذه المناسبة بما ينم عن وعي وعطف ، بل إنني لا اكاد اقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفي تلطف يهفو بالقلب ، فاطلعني على عطف عمه الراهب علي، وعلى نوايا جده بشاني ، واخيرا .. وبعد ان عرض علي باوضح ما كان في وسعه، كل الميزات التي كنت اضحي بها لاندفع نحو هلاكي ، عرض ان يتوسط لي في البقاء علي شريطة ان اتخلى عن ذلك الشاب الشقي الذي افسدني . وكان من الجلي انه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت -برغم حماقتي العمياء - شديد الشعور بكل ما كان مخدومي الشيخ يكنه لي من إشفاق ، وقد تاثرت به ، ولكن رحلتي الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالي ، فلم يكن في وسع اية مغريات ان تمحوها ! كنت قد فقدت رشدي تماما ، فاشتد عنادي وصلابة رايي، وتذرعت بكرامتي، واجبت - في صلف - بانني قد تلقيت امر فصلي من الخدمة، وانني تقبلته ، وان اوان سحبه قد فات ، وانني قد عقدت العزم على الا اسمح لنفسي بان اطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب !. وإذ ذاك رماني الشاب بما استحق من القباب ، وقد ثار عن حق، وامسك بكتفي فالقى بي خارج غرفته واوصد الباب خلفي!.. فانطلقت مزهوا كانني احرزت نصرا باهرا! وخوفا من ان اضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة ان تحملني على الرحيل بدون ان اشكر للراهب كرمه!

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنوني يسوقني إليه في تلك اللحظة يجدر بالمرء ان يعرف إلى اية درجة يثور فؤادي بسبب التفاهات البسيطة ، وباي عنف يندفع وراء الشيء الذي يستهويه ، مهما يكن هذا الشيء خلوا من اية قيمة!..

ذلك ان اغرب الخطط ، واكثرها طيشا صبيانيا ، واشدها حماقة، تتمشى مع الفكرة التي تحلو وتعززها ، حتى اقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها ! .. افهناك من يصدق ان إنسانا ما - لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره - يستطيع ان يشيد آماله في العيش، ما بقي من عمره -على زجاجة فارغة؟.. إذن فاسمعوا: كان الاب "دي جوفون" قد اهداني - قبل ذلك باسابيع قلائل- نافورة صغيرة من نافورات "هيرو" (١) اغتبطت بها ، وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه النافورة ، اثناء حديثنا عن رحلتنا خطر لـ"باكل" العاقل، ولي، ان في وسع النافورة ان تنفعنا في إطالة الرحلة، فاي شيء في الدنيا اغرب وادعى لإثارة الفضول من نافورة "هيرو"؟" .. وكانت هذه الفكرة هي الاساس الذي بنينا عليه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى ان نجمع فلاحي كل قرية حول نافورتنا، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات في وفرة عارمة- فقد كنا نوقن بان المؤن لاتكلف منتجيها شيئا،- ومن ثم رحلنا نتوقع أن نجد اعراسا ومهرجانات في كل مكان مما يمكننا - دون ان ننفق شيئا اللهم إلا انفاسنا ومياه نافورتنا- من ان نكسب نفقات رحلتنا خلال "بييمونت" و"سافوا" و"فرنسا" .. بل العالم كله في الواقع! .. وعلى اثر ذلك اخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم راينا ان نتجه اولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الالب!

٦- من سنة ١٧٣١ إلى ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطة التي شرعت فيها ، هاجرا - دون ما ندم- راعي واستاذي ، ودراساتي ،

---

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من ابناء الإسكندرية يدعى "هيرو".

وآمالي ومستقبلا كان شبه مؤكد ، لأبدأ حياة التشرد المنتظم!.. وودعت العاصمة(١) والقصر الملكي ، والطموح ، والزهو ، والحب، والنساء الحسان، وكل المغامرات المثيرة، التي حملني الأمل في العثور عليها إلى "تورين" قبل ذلك بعام .. وانطلقت مع نافورتي وصديقي "باكل" ، بكيس خفيف، ولكن بقلب مليء بالغبطة ، وبال لايفكر في شيء سوى استمرار سعادة التجوال التي قصرت عليها بغتة مشروعاتي البراقة. ولقد جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدرالذي كنت أتوقعه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقة التي اردتها تماما ، ذلك لأنه بالرغم من ان نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات، إلا انا كنا نضطر – مع ذلك– إلى ان ندفع نفقات إقامتنا إذا ما هممنا باستئناف الرحيل، بيد ان هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر في استغلال النافورة كمورد جدي للدخل إلا عندما بدات نقودنا تنفد . على ان ثمة حادثا اعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من "براماان" ، والواقع ان الوقت كان قد حان و إذ كنا قد شعرنا –دن ان نجرؤ على المصارحة – بأن التعب قد بدأ يدب فينا ، وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذي قبل، فضحكنا كثيرا من غبائنا، إذ نسينا ان ثيابنا واحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الأنظار! .. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن في مثل ما بدأناها فيه من حبور، و إن يممنا – في اتجاه مباشر أكثر من ذي قبل – شطر الغاية التي كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها.

وفي "شامبيري" بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذي اقدمت عليه– فليس من إنسان اقدر مني على تعزية نفسه سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضي– وإنما بسبب الاستقبال الذي كان يرتقبني لدى مدام "دي فاران" ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلي الخاص، وكنت قد كتبت إليها انبئها بالتحاقي بالخدمة في دار الكونت "دي جوفون" وقد عرفت مركزي هناك، وعندما، هنأتني أزجت إلي بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذي يجب ان انتهجه جزاء الكرم الذي أبدي نحوي . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلي بات مضمونا ، اللهم إلا إذا افسدته أنا بخطأ مني .. ترى ما الذي ستقوله حين تراني عند وصولي!.. أبدا لم يخطر ببالي احتمال انها قد توصد الباب دوني ، ولكني كنت أرهب الحزن الذي كنت موشكا على ان اسببه لها ، وكنت في خوف من تأنيباتها، التي كانت أقسى على نفسي من أعظم شقاء ! فاعتزمت ان أتحمل كل هذا في صمت ، وأن ابذل كل ما في وسعي لأهدئ من أساها ، فما كنت أرى لي في الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش في خزي منها أمرا مستحيلا !

على ان الشطر الأكبر من قلقي كان بسبب زميلي في السفر، فما كنت راغبا في ان اثقل كاهلها به إلى جانبي ، كما كنت أخشى ألا يسهل علي التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله – في اليوم الأخير – بشيء من الفتور ، ففهم الوغد أمري – فقد كان طائشا أكثر منه غبيا! وقد ظننت ان تقلبي سيحز قلبه ، فإذا بي مخطئ ، إذ كان اللعين لايسمح لشيء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما ارسينا أقدامنا علي ارض "أنيسي" ، حتى قال لي : " هانتذا في بلدك" ، وعانقني مودعا ، ثم نكص على قدميه، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر في مجموعهما لكن تبعاتهما ستبقى ما حييت!



---

(١)كانت "تورين" يومئذ عاصمة مارة "بيمونت".

ولشد ما يخفق قلبي وانا اقترب من دارها!.. لقد اخذت ساقاي ترتجفان تحتي، ورانت غشاوة على عيني، فلم ار شيئا، ولا سمعت شيئا، وما كان بوسعي ان اعرف شخصا!.. واضطررت إلى ان اتوقف عدة مرات لاتمالك انفاسي واسيطر على نفسي. افكان الخوف من الا احظى بالمعونة التي كنت بحاجة إليها هو الذي ازعجني بهذا القدر؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع في شخص في مثل سني؟.. لا! هذا ما اعلنه في صدق وكبرياء، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط- في اية لحظة من حياتي - ان يفتحا قلبي او يغلقاه!.. ففي مجرى حياتي - غير المستقيم، والذي تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته، وبكثرة ما كنت خلاله بلا ماوى ولا خبز - ظللت دائما انظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء! ولقد كان بوسعي في اوقات الحاجة ان اتسول او اسرق- كما يفعل اي امرئ ولكني لم اكرب نفسي قط من جراء انحداري إلى هذا الدرك. واعتقد ان قليلين هم الذين صعدوا من الزفرات قدر ما صعدت، وذرفوا من الدموع في حياتهم مقدار ما ذرفت، ولكن الفقر او خوف الانحطاط إليه لم يقويا قط على ان انفث زفرة، او اذرف دمعة!.. إن نفسي - التي خلقت في حصانة ضد الحظ، فهي لاتتاثر به- لم تعرف قط استكانة إلى نعمة.. وعندما لاافتقر إلى شيء يمكن ان تمس إليه الحاجة، فذاك هو الوقت الذي اشعر فيه بانني اشقى المخلوقات!.

*****

ما إن مثلت امام مدام "**دي فاران**" حتى طمانني مسلكها!

وقد ارتجفت لاول نبرة من صوتها، وارتميت على قدميها.

وفي اختلاجات تنم عن اقوى غبطة جياشة الصقت شفتي بيدها! ولست ادري هل كانت قد سمعت اي نبا عني، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة او استياء، بل قالت في صوت حنون: "ياصغيري المسكين! اهذا انت مرة اخرى؟ كنت اعرف انك اصغر من ان تقوم بهذه الرحلة. إنني مغتبطة على اية حال لانها لم تنته إلى ما كنت اخشاه!".. ثم حملتني على أن اروي لها قصتي، التي لم تكن طويلة، والتي رويتها بامانة، وإن كتمت بعض تفصيلات قليلة، دون ان اتستر على نفسي أو استميح لها الاعذار وكان تدبير المكان الذي أنام فيه مشكلة، فاستشارت وصيفتها. ولم اجسر على ان انبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكني لم اكد اسمع ان بوسعي ان أنام في الدار، حتى كدت اعجز عن تمالك نفسي!.. رايت متاعي القليل يحمل إلى الغرفة التي عينت لي، بمثل المشاعر التي راى بها "سان برو" محفته تنقل إلى ماوى عربات مدام "**دي ولمار**" (١). ومما ضاعف اغتباطي انني علمت أن هذه الخطوة لم تكن امراعابرا، ففي اللحظة التي كان يبدو علي فيها انني افكر في شيء آخر سمعت السيدة تقول: "دعيهم يقولون ما يشاءون"، فقد عقدت العزم - مذ ردته العناية الإلهية إلي - على الا افارقه!"

وهكذا استقر بي المقام اخيرا في دارها. على ان هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذي اتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة في حياتي ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم، فبالرغم من ان هذا الشعور المرهف في القلب - الذي يجعلنا نغتبط بانفسنا غبطة صادقة - هو من صنع الطبيعة، وربما كان من نتاج نظامها، فإنه يتطلب مواقف معينة تنميه. وبدون الاسباب التي تحدث هذه التنمية، فإن الرجل الذي ولد بحساسية قوية قد لايشعر او يحس بشيء، وربما مات دون ان يعرف

(١) "سان برو" و"مدام دي ولمار" من شخصيات قصة "روسو" الطويلة: "هيلويز الجديدة".

قط حقيقة نفسه! .. ولقد كان هذا هو الشأن معي - أو ما يقرب منه - حتى ذلك الحين، وربما كنت مسوقا إلى أن أبقى كذلك دائما لو لم يقدر لي أن أعرف مدام "دي فاران" أو لو أنني - بعد أن عرفتها - لم أقم معها وقتا كافيا لأن استمرئ حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التي ألهمتنيها بل إنني لأجرؤ على القول بأن ذلك الذي لايشعر بغير الحب وحده ، لايحس بأحلى ما في الحياة ، فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة! .. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه ، وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة، إنما هو أشد منها عنفا في غوايته، وأكثر حنانا في رقته. ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك.. وعلى كل حال ، فإنني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أي رجل آخر ، ومع ذلك فإنني لم أحس بهذا الشعور في حضور أي شخص من أصدقائي . وهو شعور غامض خفي إلى حد ما ولكنه لايلبث أن يتضح فيما بعد، وفيما ينجم عنه - فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام "دي فاران" تقيم في بيت عتيق بالغ الاتساع بحيث يحتوي على غرفة بديعة تزيد على حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس ، وفي هذه الحجرة أنزلتني، وكانت تفضي إلى الدرب الذي سبق أن تكلمت عنه والذي تم فيه أول لقاء بيننا وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين ، ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذي شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى- منذ كنت أقيم في "بوسي" - التي رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتي! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس أمام عيني سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة .. فبأي طرب شعرت بسحر التجديد الذي عزز ميلي إلى المشاعر الرقيقة الحانية! .. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من ألوان كرم ربة نعمتي العزيزة، ولاح لي أنها هي التي وضعت كل شيء هناك، خصيصا من أجلي ، فغرست نفسي هناك إلى جوارها، وقد امتلأت بهناءة وادعة .. وصرت أرى راعيتي في كل مكان ، وسط الزهور والخضرة. كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عيني بطريقة لا يلم بها إدراكي ! .. وانتفخ قلبي - الذي كان مكبوتا حتى ذلك الحين- وامتد في هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتي تجد متنفسا طليقا وسط البساتين!

ولم أجد لدى مدام "دي فاران" الأبهة التي رأيتها في "تورين"، ولكني وجدت نظافة ، وأناقة ، وخيرا فياضا ، لاتقترن بها الغطرسة والكبرياء قط! .. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صيني ولا خزف، ولا لحوم في مخزن المؤونة ، ولا خمور أجنبية في أقبية القصر! .. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزودين بما يكفي أي امرئ كانت السيدة تقدم في الأقداح الدلفية(١) قهوة رائعة. وكان كل من يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها ،. وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب ، وكان خدمها يتألفون من وصيفة - على قسط من الجمال - من بلدة "فريبور" تدعى "ميرسيريه" ، ووصيف من وطنها يدعى "كلود آنيه"- سأذكر عنه مزيدا فيما بعد- وطاهية ، واثنين من الحمالين كانا يستأجران لحمل المحفة"السيدان"(٢) في المناسبات النادرة التي كانت السيدة تؤدي فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوي قدره ألفا "ليرة"، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان - إذا أحسن تدبير إنفاقه- كافيا في بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت

---

(١) الأقداح الدلفية: الأقداح من خزف مصنوع في "هولندا" . (٢) "السيدان" هي محفة مؤلفة من مقعد ذي مظلة ، يحمله رجلان، وكانت من مركبات ذلك العصر.

تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع.

كانت النقود تذهب في كل ناحية ، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير!

وكانت الطريقة التي نظمت بها دارها هي ما كنت أوثره لو عهد إلي اختيار هذا التنظيم ،ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سروري بالحياة معها ، والإفادة منها ، اما الأمر الذي كان أقل مدعاة للسرور، فهو انني كنت مضطرا إلى ان ابقى جالسا إلى المائدة وقتا طويلا، فقد كانت السيدة لاتكاد تحتمل ان تشم العبير المتصاعد من الحساء واصناف الطعام الاخرى عندما تحمل إلى المائدة، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت، لكنها لم تلبث ان تمالكت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام ، دون ان تاكل شيئا ، فلم يكن ينقضي اقل من نصف ساعة قبل ان تتناول قطعة لحم! وكان بوسعي- في هذه الفترة- ان اتناول ثلاث وجبات ؛ ومن ثم فإنني كنت دائما افرغ من طعامي قبل أن تشرع هي في الأكل بوقت طويل. وقد اعتدت- لكي اؤنسها - ان اشرع في الاكل مرة اخرى !

وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك، وبعبارة موجزة: اسلمت نفسي للذة الشعور بالراحة ، التي كانت تخامرني عندما اكون معها ، لاسيما وان هذه اللذة التي كنت استمرئها كانت خلوا من أي قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها! .. ولما لم اكن قد أشركت بعد - بثقة تامة- في شؤون السيدة، فقد رحت اتصور ان الحال الراهنة قد تستمر على الدوام. ولقد وجدت نفسي هذه الرفاهية في دارها في أوقات أخرى بعد ذلك، ولكني كنت قد المت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل ان تتسلمه؛ ومن ثم فلم أكن اشعر بعين الغبطة التي شعرت بها في ذلك الوقت! .. إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هناءتي . فليس من المفيد لي في شيء ان أتنبأ بالمستقبل ، إذ إنني لم أعرف البتة كيف أتفاداه!

ولقد توطد بيني وبين مدام "دي فاران" - منذ اليوم الاول- أكمل ود والفة ، وقد داما خلال ما بقي من عمرها . كان اسمي لديها "الصغير"، وكان اسمها عندي "ماما"، وقد ظللنا دائما "الصغير" و"ماما" ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا. إني لأرى ان هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة احاديثنا ، وعن بساطة الأسلوب الذي كان مرعيا في سلوكنا ، وعن العلاقةالمتبادلة بين قلبيناقبل كل شيء آخرا .. كانت - بالنسبةلي - ارق ام ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائما إلى ما فيه الخير لي . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بي، فإنها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. اسكرتني ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة في ان الاطفها (١) "الاطفها" بادق ما في الكلمة من معنى ، فما خطر لها قط ان تقتصد في قبلات الام ، او في عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها، ومن المؤكد انه لم يخطر ببالي إطلاقا ان اسيء استغلال ذلك، وقد يقال إننا - في النهاية- ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإني لأقر بهذا ، ولكني ارى أن أتريث قليلا ، فليس في وسعي ان أروي كل شيء في التو!

كانت لحظة لقائنا الأول ، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني اشعر بها مليئة بالانفعال العاطفي الحقيقي. على ان هذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة.. ولم تجسر نظراتي قط على ان تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذي كان يحيط بعنق السيدة ، برغم ان سوء التستر على بدانة هذا العنق كان خليقا بان يجتذب النظر . ولم اكن اشعر في حضورها بأية نزوات او شهوات ، بل كنت في حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم أدر فيم كان هذا الاستمتاع ! .. وكان بوسعي ان اقضي في

---

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل.

هذه الحال كل حياتي الدنيوية، بل وحياتي الأخرى،دون ما لحظة من الملل والسأم ، فإن مدام "دي فاران" هي الشخص الوحيد الذي لم اشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضي فيه ضربا من التضحية والاستشهاد ! .. ولم يكن كلانا الهامس في خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لاينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى ان تدعوني للكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت علي أكثر لزوما وكانت كثيرا ما تستغرق في شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر في مشروعاتها ، فكنت اتركها لافكارها ، وامسك لساني ، وانظر إليها .. وإذ ذاك كنت اسعد الرجال! .. وكنت لاازال احتفظ بخيال فذ ، فكنت اسعى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت استمرئ هذه الخلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما إن يفد احد سواء كان رجلا امرأه- حتى اغادر الحجرة وانا ازمجر- عاجزا عن ان ابقى في حضور طرف ثالث ! وكنت اقبع في حجرتها الداخلية، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف- الذين يأبون الانصراف- الف مرة ، وانا لاأقوى على ان اتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدي ما يفوقه!

ولم أكن اشعر بقوة تعلقي بالسيدة إلا عندما كنت لا اراها .. ولا كنت هانئ البال إلا حين اراها، فإذا غابت كان قلقي يصبح اليما . كانت حاجتي إلى العيش معها تسبب لي نوبات عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع! ولن انسى مطلقا انني في يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة بينما كانت هي في قداس المساء .. وشعرت ان قلبي قد امتلأ بصورتها، وبرغبة متاججة في ان اقضي حياتي معها، وكنت من الإدراك والعقل بحيث ارى ان هذا كان مستحيلا في وقتي الراهن، وان السعادة التي كنت استمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا في خواطري مسحة من الأسى، لم يكن فيها -مع ذلك- اي اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس - الذي كان يهزني دائمابوجه خاص- وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار، والمناظر الطبيعية الساحرة، والمساكن القروية المتناثرة التي كان خيالي يتخذ منها مقاما لنا .. كل هذه كانت تخلق في نفسي تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا، يهز أوتار قلبي إلى درجة أرى معها انني انتقل في غيبوبة حالمة إلى ذلك الوقت والمكان السعيدين، اللذين كان قلبي فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها في انتشاء لاسبيل إلى وصفه، دون ادنى تفكير في لذة شهوية. وما اذكر البتة انني اوغلت يوما في التفكيرفي المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرني في تلك المناسبة.

وكان اعظم ما ادهشني من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له ان يتحقق ، هو أنني الفيت الامور تطابق تماما ما تصورته في الخيال. وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التي تراود ذهن إنسان ما ان يكون شبيها برؤى النبوة فهو حلمي هذا بالتأكيد . فما خدعني خيالي إلا في الأمد الذي تصورته ، فقد تمثلت في الحلم أن حياتنا معا امتدت اياما واعواما في سكينة صافية سامية لايعكرها شيء .. في حين أن هذه الحال لم تدم - في واقع الحياة سوى لحظة .. وياحسرتي ! .. فإن ابقى سعادة ظفرت بها إنما كانت حلما لم تلبث اليقظة أن اعقبت تحققه في الحال!

ولن افرغ من مهمتي إذا أنا خضت في تفصيلات كل الحماقات التي كان تذكري لهذه الأم العزيزة يحملني على ارتكابها عندما لاأكون في حضرتها : فكم كنت اقبل سريري لانها نامت فيه يوما ، وستائري وكل أثاث حجرتي لانها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها! .. حتى الأرض

كنت انقلب عليها مادامت هي قد خطرت فوقها! .. وكنت احيانا ارتكب- في وجودها- نزوات ما كان ليوحي بها سوى اعنف الوان الحب وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة ، وما إن وضعت قطعة من اللحم في فمها حتى هتفت قائلا: إنني لمحت شعرة فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها في لهفة وابتلعتها ! وبإيجاز : لم يكن بيني وبين اشد العشاق تدلها سوى فارق واحد- ولكنه جوهري- يجعل حالتي فوق كل تصور وإدراك!

وكنت قد عدت من "إيطاليا" على غير ما ذهبت إليها ، بل لعلني عدت منها كما لم يعد قط اي امرئ في سني ، فقد حملت معي - في عودتي - طهري الجسدي ، وإن لم احتفظ بطهري العقلي والخلقي! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعي القلقةغير المستقرة ان تغدو ملموسة محسوسة ، وقد سبب لي تجليها لاول مرة- على غير إرادة مني- انزعاجا بشأن صحتي ، بدرجة تبين اكثر من اي شيء آخر مدى البراءة التي كنت اعيش فيها حتى ذلك الحين. وما إن اطمأننت، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التي تعاون تلك الطباع ، والتي تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجي ، كثيرا من الاضطرابات والوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و.. حياتهم احيانا! ولهذه الرذيلة - التي يرتاح إليها الخجل والجبن- إغراء عظيم بجتذب التخيلات .

ذلك هو- كما ينبغي أن يقال - حشد الجنس باسره لإرضائها ، واستغلال الجمال لملذاتها ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته او رضاه! .. وتحت إغراء هذه الخلة المهلكة ، جهدت في تدمير البنية البديعة التي منحتنيها الطبيعة ، والتي اتحت لها الوقت لتتسق في تشكلها . اضف إلى هذه العادة ظروف مركزي الحالي، إذ كنت اقيم في دار امراة جميلة ، اداعب طيفها في قرارة قلبي ، واراها باستمرار طوال النهار، واحاط في الليل بأشياء تذكرني بها ، وانام في سرير عرفت انها كانت تنام فيه! .. فأية مثيرات هذه ! إن القارئ الذي يتمثلها لنفسه يرى لاريب انني كنت في منتصف الطريق إلى الموت بالفعل !ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تماما ، فإن الشيء الذي كان خليقا بان يقضي علي ، كان عين ما انقذني ، ولو إلى حين : ففي انتشائي بسحر الإقامة معها، وبالرغبة الجامحة في أن اقضي ايامي بقربها ، كنت أرى فيها دائما - سواء كانت غائبة أو حاضرة- أما حنونا ، واختا حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا اكثر من هذا ! .. هكذا كنت اراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم اكن ارى سواها قط!

وكانت صورتها الماثلة في قلبي دائما لاتدع مكانا لاحد البتة! ..

كانت لي المراة الوحيدة في العالم، وكانت العذوبة البالغةالتي اتسم بها ما كانت تلهمني من مشاعر ، لاتدع لحواسي وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمني منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول إنني كنت عفيفا ، لانني كنت احبها! ..

فليقل من يستطيع - على ضوء هذه النتائج التي لم احسن وصفها - اي نوع كان تعلقي بها؟ ..

اما انا ، فكل ما املك ان اقول عنه: هو انه إذا كان يبدو جد غريب، فإنه سيبدو في عواقبه اغرب!

وكنت اقضي وقتي على خير وجه ، وإن شغلت باقل ما كان يروق لي من أشياء . كانت ثمة مشروعات تدبر، ومذكرات تنسخ مصححة، ووصفات تنقل ، واعشاب تنتقى، وعقاقير تسحن وتسحق ، وانابيق " اجهزة للتقطير" تراقب .. وفي غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون- من كافة الطبقات - لايكفون عن الوفود زرافات، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديا وصيدليا وكاهنا وسيدة راقية وطالب ماوى .. في آن واحد! وكنت اسب ، وازمجر ، والعن، واتمنى

ان يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة. اما مدام "دي فاران" - التي كانت تتقبل ذلك بحسن نية- فكانت غضباتي تضحكها حتى تدمع عيناها ، وكان يضاعف من ضحكها ان تراني ازداد سخطا لانني لم اكن املك ان اصد نفسي عن الضحك!.. كانت الفترات القصار التي كنت احظى فيها بالزمجرة لحظات ساحرة!.. ولو ان قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء اقبل خلال الجدال فإن السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بان تطيل الزيارة في تخابث ، وهي ترميني بنظرات اود معها لو اضربها!

وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لاتنفجر مقهقهة ، إذ تراني اتجلد واكظم مشاعري تادبا ، وارمقها كشخص مسلوب النهى، في حين انني كنت في قرارة فؤادي - بل ورغما عن نفسي ارى الامر كله داعيا للضحك!

ولكن لم يكن كل هذا يسرني ؛ إلا انه كان يروق لي ، لانه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجني. ولم يكن في كل ما كان يجري حولي- ولا في كل ما كنت مضطرا إلى عمله - شيء يلائم ذوقي ، ومع ذلك فقد كان كل شيء يروق لفؤادي . اعتقد انني كنت قمينا بان اميل إلى الطب لولا ان نفوري منه سبب تلك المناظر المضحكة التي اطربتنا كثيرا.. ولعل هذه هي المرة الاولى التي يخلق فيها هذا الفن اثر كهذا . كنت ازعم ان بوسعي ان اعرف اي مركب طبي من رائحته ، وكان الطريف في الامر انني نادرا ما كنت اخطئ ! ولقد حملتني مدام "دي فاران" على ان اتذوق افظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار او محاولة الدفاع عن نفسي ، فبالرغم من مقاومتي ومن عبوسي، وبالرغم من اصطكاك اسناني، كنت اضطر اخيرا إلى ان افتح فمي عندما ارى اصابعها الجميلة - ملطخة بالعقار - بالقرب منه ، فامتصها !.. وعندما كان كل اهل دارها يجتمعون في حجرة واحدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان اي امرئ خليقا بان يظن اننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والاكاسير!

على ان وقتي لم يكن وقفا على هذه الحماقات ، . فقد وجدت في الغرفة التي كنت اشغلها بضعة كتب : "المتفرج" ،و "بيفندروف" ، "سانت إيفريموند" ، والقصيدة " الهنرية" . ومع انني لم اكن احتفظ بجنوني القديم بالقراءة إلا انني كنت اقرا قليلا عندما لااجد شيئا آخر افعله. كان كتاب "المتفرج" يلذ لي بوجه خاص ، وقد اثبت انه كان ذا نفع لي وكان الاب "دي جوفون" قد علمني ان اقرا في غير إسراع ، وبمزيد من التامل ، ولهذا اصبحت المطالعة اكثرفائدة لي وعودت نفسي ان افكر في اللغة والاسلوب وبلاغةتركيب العبارات ، كما دربت نفسي على ان اميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإقليمية ، وتعلمت كيف اصحح الكثير من الاخطاء الهجائية التي كان يشاركني في ارتكابها جميع اهل "جنيف"!

وكنت اتحدث إلى "ماما" احيانا عن مطالعاتي ، كما كنت اقرا لها احيانا ، فاحظى بسرور عظيم، واحاول ان اتقن القراءة ، وكان هذا - بدوره - مفيدا لي . ولقد ذكرت انها كانت ذات عقل مصقول، كان ذلك الوقت بالذات في عنفوانه.

وقد ابدى عدد من رجال الادب شوقا إلى الظفر بالحظوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التي تنم عن عبقرية. وكان لها ذوق "بروتستانتي" بعض الشيء - إذا جاز لي ان اقول هذا - فلم تكن تتكلم إلا عن "بايل" وكانت تقدر القديس "إيفريموند" الذي مات في "فرنسا" قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن ان تتعرف إلى اي ادب طيب،وان تناقشه في فطنة .

كانت قد نشأت في مجتمع رفيع ، ووفدت على "سافوا" وهي بعد صغيرة . وفي الوسط البهيج الذي يعيش فيه علية القوم في هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم "فود" في الحديث ، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية!

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكي إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة، وبالرغم من الأشياء الذي كان مسلكها وديونها تثيره ، إلا أنها لم تفقد قط معاشها ، ولقد أوتيت خبرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع في أحاديثها ، وكان هذا بالذات هو الموضوع الذي أجدني في حاجة ماسة إلى الإلمام به، بالنسبة إلى آرائي الخيالية.. ولقد قرأنا كتاب "لابرويير" ، فأعجبها أكثر من كتب "لارو شفوكو" الذي كان أديبا كئيبا ممضا ، لاسيما للشباب الذين لايكترثون لرؤية الناس على حقيقتهم ، وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانا في خطب طويلة ، ولكنني كنت أتزود لاحتمالها بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرني!

*****

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم ، وكنت أشعر بذلك ، فكان اغتمامي بالإشفاق من أن أراها تنتهي هو الشيء الوحيد الذي عكر استمتاعي بها ! وكانت "ماما" في وسط مداعباتها تدرسني ، وتراقبني ، وتسائلني ، وترسم – من أجل تقدمي – مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة. ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولي وأذواقي وإمكانياتي ، بل كان من الضروري البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع، أو "خلق" هذه الفرص ، ولم يكن هذا بالعمل الذي يتم في يوم واحد ، بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتي كانت المسكينة تتخذها إزاء مواهبي ، كانت – في الوقت ذاته– سببا في تأجيل لحظات تطبيقها بالذات، إذ كانت تجعلها تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل ، وبالإيجاز : سار كل شيء وفق رغباتي بفضل حسن رأيها في . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية، إن عاجلا أو آجلا .. وإذ ذاك، وداعا لكل أمل في الطمأنينة ! .. فقد جاء لزيارة مدام "دي فاران" قريب لها – يدعى السيد "دوبون" – كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس ، وذا عبقرية – مثل قريبته – في رسم المشروعات ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضي عليه كان من المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال "دي فليري" مشروعا لتنظيم "يانصيب" ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا . فجاء بعرضه على بلاط "تورين" ، حيث قبل ونفذ ، وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت في "أنيسي" ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلي ذوقي ، حتى إنها كانت الوحيدة التي كنت أسر برؤيتها في دار "ماما".

ولقد رآني السيد "دوبون" ، وحدثته قريبته عني ، فتكفل بامتحاني ليرى ما أصلح له ، فإذا وجدني أهلا لشيء ، بحث لي عن منصب!

وأرسلتني مدام "فاران" إليه في صباحين أو ثلاثة متعاقبة، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرني بشيء، . وافتتح الرجل في حملي على الكلام ، وأبدى لي الود، وتبسط معي إلى أقصى ما أمكنه ، وتحدث معي في مسائل غير ذات بال ، وفي كافةالموضوعات .. كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني ، ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجد في صحبتي مسرة فرغب في التسامر معي دون ما قيود.

واعجبت به . . وكانت نتيجة ملاحظاته انني – برغم مظهري الجذاب وملامحي الدالة على الفطنة – كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الافكار ، عديم المعرفة تقريبا ، إن لم اكن غبيا ! . . وبعبارة موجزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات، وكان ارفع منصب يحق لي ان اصبو إليه ، هو ان اصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى !

هكذا كانت النتيجة التي قدمها عني لمدام "دي فاران" وكانت هذه هي المرة الثانية او الثالثة التي يحكم علي فيها بمثل ذلك.

بل إنها لم تكن المرة الاخيرة . فكم من مرة عزز فيها راي السيد "ماسيرون".

وكانت اسباب هذه الاحكام ترتبط بخلقي ارتباطا وثيقا لاداعي معه إلى اي ريضاح هنا ، ذلك لانه من المفهوم– صراحة – انني لااستطيع ان اقر هذه الآراء دون تحفظ، وإنني – بكل حيدة وتجرد عن الهوى– لا استطيع ان اتقبل كل ما قاله السيدان "ماسيرون" و "دوبون" وغيرهما على علاته! . . فلقد اتحد في نفسي شيئان متنافران تقريبا، بطريقة لااملك إدراكها : طباع حادة، وعواطف محتدمة صاخبة . . وفي الوقت ذاته ، افكار بطيئة النمو، مهوشة، لاتكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان، ومن الممكن ان يقال إن قلبي وعقلي لايمتان إلى فرد واحد ، فإن الشعور يستحوذ على نفسي باسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكويني ويعشي بصري ، بدلا من ان ينيرني ، فإذا بي احس بكل شيء دون ان ارى شيئا ! إن العواطف تحرقني ، ولكني بطيء التفكير، لابد لي من أن اسري عن نفسي حدة الانفعالات لكي استطيع ان افكر.

والعجيب في الامر هو أنني– برغم ذلك– اوتيت رايا مؤكد الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة في الحكم، إذا ما اتيح لي الوقت الكافي . . وإنني لاصدر آراء عاجلة إذا تركت وشاني، ولكني لم افه يوما بشيء ذي قيمة في اللحظة التي طلب إلي فيها ذلك! وبوسعي ان اجيد النقاش عن طريق التراسل، بنفس النهج الذي يقال عن الاسبان إنهم ينتهجونه في لعب الشطرنج ، وعندما قرات عن احد دوقات "سافوا" انه قطع رحلته وعاد ليصيح : "سانقض على عنقك ايها التاجر الباريسي" ، لم اتمالك ان اقول : "هكذا انا" !

هذا البطءفي التفكير مع فورة الشعور ، لايلازماني في الحديث فحسب ، وإنما هما معي حتى في وحدتي ، وعندما اعمل! . . فإن افكاري تنسق نفسها في راسي بعناء لايكاد يصدق ، إذ إنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفور حتى تحركني وتبعث الحرارة في كياني ، فيتسارع خفقان قلبي. وفي غمرة هذا الانفعال، لااعود ارى اي شيء بوضوح، ولا اقوى على ان اكتب كلمة واحدة، واضطر إلى الانتظار والتريث . . ولا يلبث الانفعال العظيم ان يخف بطريقة لا افقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شيء في مكانه، ولكن في بطء ، وبعد انفعال طويل مربك . افما قدر لك يوما ان تشهد "الأوبرا" في "إيطاليا" ؟ . . ففي خلال تبديل المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف "الديكورات" بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب في كل ناحية بشكل مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شيء قد انقلب رأسا على عقب! ثم لايلبث كل شيء ان ينظم شيئا فشيئا، ولا يبقى اي نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعا عقب هذه الفوضى الطويلة! هذه العملية تقرب من تلك التي تجري في مخي عندما ارغب في الكتابة ،. ولو انني تعلمت ان اتريث اولا ، ثم اجتني الاشياء التي ارتسمت في ذهني ، صاقلا جمالها ، لما تفوق علي سوى قليل من الكتاب!

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التي أجدها في الكتابة . وإن مخطوطاتي بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة، وكتابة لاتكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذي تكبدنيه، فليس بينها ما لم اضطر إلى نسخه اربع أو خمس مرات قبل أن استطيع ان ادفع به إلى المطبعة! وما استطعت قط ان انتج وانا جالس إلى منضدتي واوراقي والقلم في يدي ، وإنما اعتدت ان اكتب على صفحة ذهني بينما اتمشى وسط الصخور والغابات ، أو في الليل وانا متسلق في فراشي مستيقظا . وفي وسع المرء ان يقدر ذلك البطء لاسيما إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له في حياته ان يحفظ ستة ابيات من الشعر عن ظهر قلب!.. بل إن من عباراتي وجملي ما ظللت اقلبه وادبره في راسي خمس أو ست ليال، قبل ان يغدو صالحا لان يسجل على الورق ! وهنا ابضال السر في انني اكثر توفيقا في اعمالي التي تتطلب جهدا مني في تلك التي تتطلب خفة اسلوب معين كالرسائل .. وهي خفة لم يقدر لي قط ان اتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فإن هذه المهمة ترهقني ، فلست اكتب رسالة في اتفه موضوع ، إلا وتكبدني ساعات من الضنى .. كما انني إذا حاولت ان اكتب فورا ما يعن لي ، لا ادري كيف ابدا ولا كيف انتهي؛ ومن ثم تكون رسالتي لغوا طويلا مهوشا ، يلقى المرء عناء في فهمه إذا ما قراها!ولاتكبدني الافكار عناء في تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدني العناء ذاته في تلقيها . لقد درست الناس ، واعتقد انني قوي الملاحظة ، ومع ذلك فإنني لااملك ان ارى بوضوح شيئا مما اشهده، وإنما اتمثل بوضوح ما اذكره ، ولا ابدي الفطنة إلا في ذكرياتي .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجري في حضوري ، لا اشعر بشيء ولا اتغلغل ببصيرتي في شيء . وإنما الذي يؤثر في هو الظاهر وحده !.. بيد ان كل شيء لايلبث ان يرتد إلى ذهني فيما بعد ، فاذكر المكان، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظروف.. لايفوتني منها شيء . وعندئذ، اتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطئ !.. ولو انني سيطرت على طاقتي الذهنية قليلا ، فيما بيني وبين نفسي،ففي وسع المرء ان يحدس ما كنت اصبح عليه من براعة في الحديث ، حيث يجب – من اجل الكلام في الموضوع – ان افكر في الف شيء في نفس الوقت والمكان. ولكن مجرد التفكير في التوفيق بين هذه الاشياء– التي أوقن من أنني لابد ان انسى شيئا واحدا منها على الأقل– يكفي لكي يبث الخوف في نفسي ! بل إنني لاافهم كيف يجد اي امرئ الجراة على الكلام في جماعة ، حيث لاغنى له عن ان يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين، مع كل كلمة.. وحيث لابد له من ان يلم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أي شيء قد يجرح شعور احد منهم .

ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون في الدنيا(١) بميزة كبرى ، هي أنهم يكونون اكثر من سواهم دراية بما لاينبغي أن يصمتوا عنه ، واشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات، وهنات ، فما بالك بمن يسقط في وسطهم من بين السحب؟(٢).. إنه ليستحيل عليه تقريبا ان يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة أخرى في المسارة – اي عندما اتحدث مع شخص ما في خلوة– اجدها انكى مما سبق: تلك هي ضرورة الكلام باستمرار. فإذا وجه إليك الحديث، كان عليك ان تجيب .. وإذا لم توجد كلمه تقال كان عليك ان تحيي الحديث من جديد .

هذا الاضطرار الذي لايطاق ، هو حده الذي ينفرني من المجتمع ، ولست اجد ضيقا افظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال. ولا ادري ما إذا كان لهذا اي شان من كراهيتي المميتة لكل قهر ، من اي نوع ، بيد انه يكفيني ان اكون مضطرا إلى الكلام ، لكي انطلق في لغو لامحيص منه .

---

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات. (٢) يقصد الذي يعيش بعيدا عن المجتمع ، في أحلامه الخاصة، ثم يقدر له ان يتكلم وسط الناس.

اما ما يفوق هذا شناعة فهو انني بدلا من ان استطيع ان امسك لساني عندما لااجد شيئا يقال ، إذا بي اجد نفسي- في هذا الوقت بالذات - اكاد اجن شوقا إلى الكلام ، لارد الدين بأسرع ما استطيع!.. فابادر إلى إطلاق عبارات متلعثمة خالية من اية فكرة، وتشتد سعادتي إذا كانت لاتعني شيئا على الإطلاق. وإذ احاول ان اغالب او ان اخفي غبائي ، فإنني نادرا ما اخفق في إظهاره! ومن الف مثال استطيع ذكرها ، اختار واحدا لايمت إلى ايام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقا بي ان اكون قد اكتسبت عنده يسرا في القول - إن كان هذا ممكنا - بعد ان عشت سنوات عديدة بين الناس ، ففي ذات مساء كنت اجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لي ان اذكر اسمه ، وهو السيد الدوق "دي جونتو" . ولم يكن ثمة سوانا في الحجرة، وقد رحت اجاهد في سبيل ذكر بضع كلمات - يعلم الله ماذا كانت - خلال حديث كان يدور بين أربعة اشخاص ، كان بينهم ثلاثة في غير حاجة - بالتاكيد- إلى تعقيبي .. وامرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعلاج معدتها . وإذ رات السيدة الأخرى وجهها يتغضن - اشمئزازا من الدواء - قالت ضاحكة: " اهذا الدواء من لدن السيد "ترونشان" ؟

فاجابتها الاولى بنفس اللهجة: " لا اظنه! " .. وهنا عقب "روسو" الذكي في تادب: "اظن انه لايفوقه في شيء!" (١).

وبقي الجميع واجمين، فلم يفه أحد ببنت شفة كلمة او باضال ابتسامة وبعد لحظة اتخذ الحديث اتجاها آخر.

وما كانت هذه الفلتة لتبدو- في اي مجلس آخر - سوى فكاهة ، اما وقد وجهت إلى امراة كانت من رقة الشعور بحيث لاتحب ان تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدي - بكل تاكيد - اية رغبة في مس شعورها، فقد بدت شنيعة، واعتقد أن الشاهدين- الرجل والمراة- عانيا كثيرا لكي يكبحا الضحك. هذا مثال لفلتات الذكاء التي تمنعني من الرغبة في الكلام عندما لااجد شيئا يقال .. ولن انسى بسهولة هذا الحادث ، لا لانه - في ذاته - مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لانه يجول بخاطري انه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتي كثيرا.

واعتقد ان هذا يكفي لبيان كيف انني وإن لم اكن غبيا إلا انني كثيرا ما ظن بي ذلك، حتى من جانب اناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . ومما يضاعف سوء حظي ان ملامحي وعيني توحي بفكرة افضل ، وان خيبة هذا الحدس تبدي هذا الغباء للغير بشكل ابشع!.. وهذا الإسهاب في شرح الفكرة، الذي تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سياتي فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلي غوامض كثير من الأمور الشاذة التي شوهدت مني، والتي تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدي في الواقع شيء منها! فلقد كنت خليقا بأن احب المجتمع كاي فرد آخر ، لو لم اكن متاكدا من ان ظهوري فيه ليس في صالحي ، فضلا عن انني ابدي نفسي شخصا آخر غير ما انا حقيقة! ومن ثم فإن الوضع الذي اتخذته وانا اكتب اعيش في عزلة، هو الوضع الذي يناسبني تماما ، وابينما اكون حاضرا لاسبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتي ، ولو تخمينا . وهذا ما جرى لمدام "دوبان"، برغم انها كانت امراة ذكية، وبرغم أنني كنت أعيش في دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتني - هي نفسها- بذلك كثيرا منذ ذلك الحين. رمع ذلك فإن لهذه القاعدة استثناءات، ساعود إليها فيما بعد(٢).

---

(١) كان الدواء حبوبا لتليين المعدة. ومن هنا ندرك انه لم يكن من اللباقة ان يتدخل رجل في حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى: مدام "دي لوكسمبورج" - وهي ربة البيت - ومدام "دي ميربوا" ، اللتين سيرد ذكرهما في الكراسة العاشرة. (٢) سنشهد إحدى هذه الاستثناءات فيما سيذكره "روسو" في الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ في "برن" مع كبير الاساقفة.

أما وقد استقر مجال مواهبي عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لي واتضح للمرة الثانية، ولم يبق من سؤال سوى: كيف املأ مكاني؟.. وكانت الصعوبة تتمثل في أنني لم استكمل دراستي، ولم اكن اعرف - كذلك- من اللاتينية ما يكفي لكي اصبح قسا . وكانت مدام **"دي فاران"** قد فكرت - في بعض الأوقات- في ان اتعلم في المعهد الديني ، وتحدثت إلى رئيسه، وكان راهبا لازاريا(١) يدعى السيد **"جرو"**- طيبا ، ضئيل الجسم ، اوشك ان يفقد إبصار إحدى عينيه، كما كان هزيلا ، اشيب الشعر. وكان اعظم لا زاري عرفته ذكاء ، واقلهم غطرسة .. وما هذا القول بكثير عليه في الحقيقة!

وكان يتردد احيانا على دار **"ماما"**، فكانت تحتفي به، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله احيانا على ان يربط لها مشداتها **"الكورسيه"** ، وهي مهمة كان يقبل عليها راضيا! وبينما يكون منهمكا فيها تاخذ في الجري- في الغرفة- من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هناك ، والسيد الرئيس يتبعها - مشدودا إلى الخيط -وهو يزمجر ولا ينفك يقول: " ولكن ، اثبتي ياسيدتي ! " .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير!

و تقبل السيد **"جرو"** مشروع **"ماما"** بتحمس قلبي ، فقنع باجر متواضع لإقامتي ، وتكفل بتعليمي ، ولم يشترط سوى موافقة الاسقف الذي لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما رغب في دفع نفقات إقامتي ، كما سمح بان اظل في زيي المدني إلى ان يقضى لي بالنجاح المنشود ، بعد امتحان!

*****

اي تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الديني وكانني ذاهب إلى عقوبة الموت! فيا للمعهد من ماوى حزين كئيب! لا سيما لمن بارح لتوه دار امراة حبيبة .. ولم أحمل معي سوى كتاب واحد ، رجوت **"ماما"** ان تعيرنيه، وكان مصدر عزاء كبير لي . ولن يتصور احد اي كتاب كان ذلك!.. لقد كان كتابا في الموسيقى ! .. فبين المواهب التي تعهدتها **"ماما"** في نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء. وتعزف - إلى حد ما - على **"البيانو"** ، وقد تفضلت بتلقيني بعض دروس في الغناء ، وكان لابد لها من ان تبدأ من الاصول الأولى ، إذ إنني كنت لااكاد ادري شيئا من موسيقى مزاميرنا.

وكانت ثمانية او عشرة دروس على يدي امراة- وهي دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها - اقل بكثير من ان تمكنني من السلم الموسيقي، او من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على انني كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت في أن أحاول المران بنفسي . ولم يكن الكتاب الذي اصطحبته من الكتب السهلة - في ذاته - فقد تضمن اغاني **"كليرامبو"** . ومن الممكن تصور مدى إقبالي وعنادي، وعندما اقول إنني وفقت - دون دراية ولاتبديل- إلى ان اترجم واغني ، دون خطا اللحن الاول من اغنية **"ألفية واريثيز"** وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن في الواقع - موزونا بحيث لايستلزم اكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكي يكتسب وقع اللحن!

وكان في المعهد **"لازاري"** لعين تمهدني ، فجعلني أكره اللغة اللاتينية التي اراد ان يلقنني إياها . وكان له شعر ناعم، اسود ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز **"الزنجبيل"**(٢)، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس! .. وكانت ابتسامته ساخرة ، واطرافه مخلخلة

---

(١) من اتباع مذهب القديس "لازار" في الرهبنة. (٢) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل.

كأطراف الدمية! .. ولقد نسيت اسمه البغيض، ولكن وجهه المخيف، ذا اللطف المتكلف، ظل باقيا في ذاكرتي، لا أكاد أذكره دون أن أرتجف. ولاأزال أتصور أنني ألقاه في الردهات، رافعا في جلال قلنسوته المربعة المتسخة، مشيرا لي بدخول حجرته، التي كانت أبغض لدي من غرفة السجن! .. فتصور – على سبيل المقارنة– أستاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمي إلى البلاط الملكي!

لو قدر لي أن أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش فإنني موقن من أن رأسي ما كان ليحتمل ذلك. ولكن السيد "جسرو" الطيب لاحظ أنني كنت حزينا، وأنني لم أكن أقبل على الأكل، بل كنت ممعنا في الهزال، فأدرك سر أساي – إذ لم يكن هذا بالأمر العسير– وأنقذني من براثن هذا الحيوان! وبتناقض آخر، شديد الغرابة هو الآخر، أسلمني إلى ألطف الرجال: وكان راهبا شابا من "فوسيني"(١)، يدعى السيد "جاتييه"، كان موشكا على الفراغ من الدراسة في المعهد، وقد شاء– بدافع من الرغبة في إرضاء السيد "جسرو" وبدافع من الإنسانية على ما أعتقد – أن يسلب دراساته الوقت الذي وهبه لتلقيني دروسي. والحق أنني أبدا ما رأيت أساريرأكثر تأثيرا في النفس من أسارير السيد "جاتييه"! .. فقد كان أشقر، تميل لحيته إلى الحمرة، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا. على أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة، رحيمة، مفعمة بالود.

وكان في عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى، تجعل من المستحيل على أي شخص أن يراه دون أن يميل إليه وكان من الممكن أن يقال– من نظرات هذا الشاب المسكين ومسلكه– إنه كان على علم بمصيره، وإنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا!

ولم تكذب شخصيته مظهره، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معي منه إلى التدريس لي! .. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفي لأن يحملني على حبه .. ومع ذلك، فعلى الرغم من كل الوقت الذي منحنيه، وعلى الرغم من كل التحمس القلبي الذي وجهه كل منا إلى دراساتنا، ومع أنه سار على خير نهج فإنني لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط! ومن الغريب أنني، بما أوتيت من إدراك واسع، لم أتعلم شيئا من الأساتذة– ما عدا أبي والسيد "لامبرسييه". أما القليل الذي عرفته فوق ما علمنيه هذان، فقد حصلته بنفسي، كما سيتجلى فيما بعد. فإن روحي التي لاتصبر بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن انتبه، كما أنني، خوفا من أن أجعل الشخص الذي يتحدث إلي يفقد صبره. أتظاهر بالفهم! ومن ثم يمضي قدما في حديثه، دون أن أعي شيئا! فلا بد لعقلي من أن يحدد الوقت الذي يروق له للعمل، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذي يحدده له الغير!

وحان وقت تنصيب معلمي "شماسا" حسب الطقوس الدينية المألوفة، فعاد إلى إقليمه، وحمل معه حسراتي،ومحبتي، وعرفاني. وقد قدمت من أجله نذورا لم تتقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التي قدمتها من أجل نفسي. ولقد علمت –بعد ذلك ببضع سنوات– أنه بينما كان نائبا لأبرشية، أنجب طفلا من فتاة كانت هي الوحيدة التي أحبها، برغم قلبه المسرف في الرقة. وكانت هذه فضيحة شنيعة في أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة. فإن القساوسة– نظرا لخضوعهم لنظم طيبة – ينبغي لهم ألا ينجبوا أطفالا إلا من نساء متزوجات!!

.. ومن ثم فإن القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفةهذا وفضح، وجرد من رتبته. ولست أدري ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على

---

(١) مقاطعة صغيرة في دولية (سافوا).

قلبي، وقد عاودتني قصته عندما كتبت "إميل" فمزجت شخصيتي السيد "جاتيه" والسيد "جايم"، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصية الأصلية لأسقف "سافوا"، وإني لأغبط نفسي لأن الشخصية التي خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين!

وفي أثناء وجودي في المعهد الديني كان السيد "دوبون" قد اضطر إلى مبارحة "أنيسي".. فقد خطر للسيد "كورفيزي" وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجته! وكان هذا أشبه بما جرى لكلب البستاني (١).. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام "كورفيزي" كانت ذات جمال يهفو بالقلوب إلا أن زوجها - الوكيل - كان يعيش معها على شقاق، إذ إن الأهواء التي ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما، وكان السيد "كورفيزي" رجلا شريرا، أسود كالفار الجبلي، خطافا كالحدأة، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طرده من منصبه، ويقال إن أهل الريف يتشفون في أعدائهم بالأغاني، أما السيد "دوبون" فقد تشفى بمسرحية هزيلة، وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام "دي فاران"، التي أطلعتني عليها فأعجبت بها، وتولدت لدي نزوة تأليف مسرحية أخرى، لأرى ما إذا كنت قد ظللت "بهيما" كما وصفني يوما! على أنني لم أحقق هذا المشروع إلا في "شامبيري"، حيث كتبت "عاشق نفسه"!

ومن ثم فإنني عندما قلت في مقدمة هذه المسرحية إنني كتبتها في الثامنة عشرة من عمري، إنما كنت أكذب، إذ إنني تجاوزت عن بضع سنوات!.

❁❁❁❁❁

وفي حوالي ذلك الوقت، وقع حادث كان قليل الأهمية في حد ذاته ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لي، كما أنه أحدث ضجة في العالم عندما نسيته، فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة في كل أسبوع، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك، وفي يوم من أيام الآحاد كنت لدى "ماما" عندما شب حريق فيإحدى بنايات "الرهبان السمر"، وكان ملاصقا لدار مدام "دي فاران". وكان هذا المبنى - الذي أقيم فيه فرن الرهبان - مليئا بالوقود الجاف،فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار، وأصبحت دار السيدة في خطر عظيم، وقد لفها اللهب الذي حملته إليها الريح.

وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار، وحمله إلى الحديقة التي كانت مواجهة لنوافذ حجرتي القديمة، حيث كان يجري خلفها الجدول الذي تحدثت عنه. وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقي من النافذة بدون وعي كل ما كان يقع تحت يدي، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت- في الأوقات الأخرى- لا أكاد أقوى على رفعه.. بل إنني أوشكت أن ألقي كذلك بمرآة كبيرة، لو لم يردني شخص ما عن ذلك! ولم يقبع الأسقف الطيب- الذي كان في زيارة "ماما" في ذلك اليوم - خاملا، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة، حيث شرع يصلي معها، ومع كل من كانوا هناك.. حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل، وجدت الجميع جاثين على ركبهم، فحذوت حذوهم. وفي أثناء صلاة الرجل التقي، تغير اتجاه الريح فجأة، وفي اللحظة المناسبة، فإذا ألسنة اللهب التي كانت تحوط الدار والتي أخذت تسعى إلى النوافذ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء، فلم يصب البيت بأي سوء!

---

(١) الظاهر أن "روسو" يشير بهذا إلى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره.

وبعد ذلك بعامين- وكان السيد "دي برنيكس" ، الاسقف، قد توفي- شرع الرهبان الأنطونيون ، وهم زملاؤه السابقون في جمع الانباء التي يمكن استغلالها في "تطويبه(١) . واستجابة لرجاء الاب "بوديه" اضفت إلى تلك الانباء شهادة بالواقعةالتي ذكرتها ، والتي كنت فيها على صواب ، ولكنني اخطات إذ قدمتها على معجزة! فلقد رايت الاسقف وهو يصلي ، ورايت الريح تتبدل اثناء صلاته ، وفي اللحظة المناسبة تماما . . وكان ينبغي ان اذكر هذا واشهد به ، اما اي الامرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغي لي ان اشهد به ،لانني لم اكن املك ان اعرفه، ومع ذلك فإنني- بقدر ما استطيع ان اذكر آرائي يومئذ- كنت كاثوليكيا مخلصا! ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان، ولكن حب الغرائب الخارقة- وهو طبيعي في فؤاد البشر- وتوقيري لهذا الراهب الوقور، والزهو المستتر بانني ربما كنت قد ساهمت بنفسي في المعجزة، ساعدت على تضليلي ، اما الشيء المؤكد فهو انه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقي ان اطالب لنفسي بنصيب فيها!

وعندما نشرت "رسائل الجبل" - بعد ذلك باكثر من ثلاثين عاما- نقب السيد "فريرون" بطريقة ما عن هذه الشهادة، واستغلها في تعليقاته ، وجدير بي أن اعترف بان هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لي إذ ذاك ان إعلانه في تلك المناسبة كان امرا سارا .

وكان مقدرا لي ان اكون طريد كل المهن . فمع ان السيد "دي جاتييه" رفع عن تقدمي في الدراسة تقريرا اعتبرته اقل ما كان بوسعه ان يقدمه، من حيث إساءته إلي إلا انه رؤي ان تقدمي لم يكن متناسبا مع مجهوداتي ، وان هذا لم يكن مشجعا على المضي في دراستي ؛ ومن ثم فإن الاسقف ورئيس المعهد فصلاني ورداني إلى مدام "دي فاران" كشخص لايصلح ولو لان يكون مجرد قس ، وإن كان - فيما عدا ذلك- فتى طيبا ، وخلوا من اية رذيلة، كما قالا . وكان هذا هو السبب في انها لم تنبذني ، برغم تعدد الاحكام المثبطة ضدي!

واعدت إليها - مزهوا -كتابها الموسيقى الذي اخذت منه ، . وكان لحن "ألفية وأريثيز" هو كل ما تعلمت -تقريبا- في المعهد الديني . ولقد اوحى إليها ميلي الملحوظ إلى هذا الفن ، بان تجعل مني موسيقيا! وكانت الفرصة مواتية، فقد كانت الموسيقى تعزف في دارها مرة في الاسبوع على الاقل. وكان رئيس فريق الكاندرائية الموسيقي يدير هذه الحفلات الصغيرة، وقد اعتاد ان يتردد كثيرا على الدار .

وكان باريسيا يدعى السيد "لوميتر" ، بارعا في التلحين، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لايزال شابا، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء .. لكنه كان - في مجموعه- طيبا . وقد عرفتني به "ماما" فملت إليه ، كما انه لم ينفر مني . وبحث امر الاجر، وتم الاتفاق ، وبإيجاز، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت احب شتاء لدي ، إذ إن الدار لم تكن تبعد اكثر من عشرين باردة عن منزل "ماما" فكان بوسعنا إن نكون إلى جانبها في اية لحظة وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها.

ولابد انكم ادركتم ان الحياة في دار "لوميتر" - بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والاطفال المنشدين"الكورس" - قد راقت لي اكثر من حياة المعهد الديني مع رهبان القديس "لازار" . على ان هذه الحياة، وإن كانت اكثر حرية إلا انها لم تكن اقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون ان انسى استغلاله البتة ، ففي ستة اشهر كاملة، لم اخرج مرة واحدة إلا لاذهب إلى بيت "ماما" او إلى الكنيسة ، ومع ذلك فإنني لم اشعر بشوق إلى الخروج ، كانت تلك إحدى فترات

---

(١) التطويب في المسيحية هو ان يعلن البابا- او البطريرك لدى الأرثوذكس - بان شخصا قد حظي بالسعيد في السماء ، فاصبح في عداد القديسين- إذا كان ميتا - او اقترب من القداسة ، إذا كان على قيد الحياة.

حياتي التي عشت خلالها في اعظم دعة ، والتي اذكرها باعظم اغتباط ، فمن بين الاوضاع المتباينة التي وجدت نفسي فيها - أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلني- حين اذكرها ، أتأثر بها وكأنني ما أزال فيها . فلست اذكر الأوقات والاماكن والاشخاص فحسب، وإنما اذكر كل الاشياء التي كانت تحيط بي ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، واي طابع محلي لايوجد إلا هناك ، بحيث تردني ذكراه الحية إلى هناك من جديد! .. مثال ذلك ان كل ما كان يتردد في دار رئيس الفريق الموسيقي ، وكل ما كان الفريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزي الشمامسة الجميل ، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين، ووجوه الموسيقيين، ونجار اعرج طاعن في السن كان يعزف على الكمان الكبير "الكونترباص" ، وراهب صغير اشقر يعزف على الكمان العادي ، والرداء الكنسي المهلهل الذي كان السيد "لوميتر" يرتديه فوق لباسه المدني بعد ان ينزع عنه سيفه والقميص الاكليروسي البديع ، الرقيق النسيج ، الذي كان يستر به الرداء البالي عندما يسعى إلى فرقة المرتلين، والزهو الذي كنت أسير به- وانا ممسك بصافرتي الصغيرة- لاتخذ مكاني مع العازفين على المنصة، لاشترك في ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيد "لوميتر" خصيصا من اجلي.. ثم الغداء الطيب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك، والشهية الملحوظة التي كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل، الذي أتمثله، قد فتنني- في ذكره- أكثر مما فتنني في الحقيقة مائة مرة!

ولقد احتفظت دائما بميل عاطفي للحن معين من "كونديتور آلمي سيدبرم" يرافق شعرا من بحر الغصب(١) ، لانني سمعته مرة - في يوم أحد الصوم الكبير- وانا مستلق في فراشي ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة. ولقد كانت الآنسة "ميرسيريه" - وصيفة "ماما"- على دراية بقسط من الموسيقى . ولن انسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد "لوميتر" يحملني على ان اغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغي إليها في طرب عظيم.

وقصارى القول إن الجميع ، حتى الخادم الطيبة "بيرين"-وهي فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون ان يثيروا غيظها- هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التي كثيرا ما تتراءى لي لتطربني وتحزنني!

وعشت في "انيسي" زهاء عام دون ما لوم ولاتثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عني ، فإنني - مذ غادرت "تورين" لم ارتكب حماقة ، وما كان لي ان ارتكب ما دمت تحت بصر "ماما" ، فقد كانت ترشدني ، وكانت دائما تحسن إرشادي، واصبح تعلقي بها هو عاطفتي المشبوبة الوحيدة، ومما يدل على انها لم تكن عاطفة رعناء، ان قلبي كان يكون عقلي وإدراكي ، ومن الصحيح ان ثمة إحساسا واحدا كان يبتلع - كما ينبغي ان يقال- كل مقدراتي وكفاءاتي ، فجعل في غير استطاعتي ان اتعلم شيئا،حتى الموسيقى، بالرغم من انني بذلت كل جهدي . على انه لم يكن ذنبي! .. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على اتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكني كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت اتنهد : ما الذي املك ان افعله ؟ لم يكن ينقص تقدمي شيء من الأشياء المتوقفة علي انا ، ولم اكن احتاج- لكي أرتكب حماقات جديدة- إلى غير موضوع او شخص "ملهم" يوحي إلي بهذه الحماقات!.. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسي الغبي كيف يستغل ذلك، كما سترى مما يلي :

ففي إحدى امسيات شهر شباط (فبراير) البارد، سمعنا طرقا على الباب الخارجي ، بينما كنا نحيط بالمدفأة،وحملت "بيرين" مصباحها ، وهبطت ففتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصعد

---

(١) بحر من الشعر الاعجمي تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين.

معها ، ويقدم نفسه في غير كلفة ، ويتوجه إلى السيد "لوميتر" تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقي فرنسي دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الابراشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق في طريقه .، وإزاء هذه الكلمات من "الموسيقي الفرنسي"، خفق قلب "لوميتر" الطيب، فقد كان يتدله في حب بلده وفنه.

واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو في أمس الحاجة إليه، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة ، وأخذت أتفحصه وهو يتدفأ ويسمر في انتظار العشاء.

كان قصير القامة ، عريض المنكبين، وكان ثمة عيب – لم أدر كنهه – في قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان – إذا صح التعبير- ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوحي الكتفين ، كما أظن أنه كان يعرج قليلا في مشيته ،. وكان في ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم، فتهلهل .. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشي تزين صدره ، وطماقين(١) كان بوسعه أن يدس ساقيه معا في أي منهما! .. كما كان يتقي الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه ! .. ومع هذا الزي المضحك فإنه كان على شيء من النبل لم تكن هيئته تكذبه ، كانت طلعته رقيقة بشوشة ، وكان يتكلم بطلاقة ولباقة ، ولكن في تواضع جم .. كان كل شيء فيه ينم عن شاب ماجن – وإن كان طيب التربية– لم يكن يستجدي كالمتسولين، وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى "فينتور دي فينيف" ، وقد وفد من باريس، وضل الطريق .. وأنه نسي إلى حد ما ، دوره كموسيقي . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى "جرينوبل" ليقابل قريبا له عضوا في البرلمان.

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقي ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعا، وكافة المؤلفين الذائعي الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا، والسادة العظماء بأسرهم! كان يبدو ملما بكل شيء يقال ، ولكن ما إن يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التي تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال! .. وكنا في يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف في الكاتدرائية في اليوم التالي، فاقترح عليه السيد "لوميتر" أن يشترك في الغناء هناك .. "عن طيب خاطر!" .. فسأله عن طبقة الصوت .. "**الطبقة العليا**"، ثم مضى يتحدث عن شيء آخر! .. وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة، وأذهل تصرفه هذا "لوميتر" فهمس في أذني : "لسوف ترى أنه لا يعرف علامة احدة من العلامات الموسيقية!" فأجبت: شد ما أخشى أن يكون كذلك" . رحت أرقبه في قلق ، حتى إذا بدئ الغناء ، خفق قلبي في قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به ، وسرعان ما تبينت ما طمأنني ، إذ إنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة! وبعد القداس، تلقى السيد "فينتور" التهاني ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها، ولكن في كثير من الكياسة دائما، وعانقه السيد "لوميتر" بحرارة، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أنني كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره!

وإني لواثق من أن القارئ سيقرني على أنني وقد أولعت بالسيد "باكل" – الذي لم يكن برغم كل شيء سوى قروي جلف– كنت حريا بأن أشغف بالسيد "فينتور" الذي أوتي ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا، والذي كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب! .. وكان هذا عين ما حدث لي ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأي شاب آخر في مكاني ، بل إن سهولة حدوثه كانت

---

(١) الطماق وقاء يعلو الحذاء ويغطي الساق ، وقد اشتهر باسمه الأعجمي "جيتر" أو "طرابك".

خليقة بان تزداد كلما كان المرء اسلم رأيا في إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها. فليس من شك في أن "فينتور" قد أوتي كفاءة نادرة في مثل سنه ، تلك هي عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح انه كان يتشدق باشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الاشياء التي كان على إلمام طيب بها ، التي كانت كثيرة العدد . . وإنما كانت ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فإذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع، فكان هذا يحدث اكبر الاثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه؛ لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذي يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه . . كان في حديثه مداعبا ، مرحا ، لاينضب له معين، ذا جاذبية خلابة . . يبتسم دائما ولايضحك ابدا ، ويتكلم بارق لهجة عن اشد الموضوعات جفافا ، فيجعلها مستساغة! . . حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه، وكم شعرن بان من الخليق بهن ان يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك! . .
ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات. ولست اعتقد انه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إيناسا ومرحا لا حد لهما في مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا في وسط الموسيقيين طويلا وهو الذي يملك مثل هذه المواهب المستحبة، في بلاد تقدرها وتحبها!

ولقد كان ميلي إلى السيد "فينتور" أكثر رشدا في أسبابه واقل انحرافا على الصواب في نتائجه ، بل واكثر حرارة واطول بقاء من حبي للسيد "باكل" . . فلقد احببت أن أراه ، وأن اسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لي رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لي آيات منزلة ، ولكن افتتاني به لم يذهب إلى الدرجة التي لاأطيق معها فراقه، فلقد كان لي في الحيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) وإلى جانب ذلك شعرت بان مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا انها لم تكن تصلح لي ، فلقد كنت اهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه اية فكرة عنه ، بل إنه كان حريا بان يسخر مني من اجله! ومع ذلك فلقد وددت أن اربط هذا الود، بذاك الذي كان يسيطر علي ، فتحدثت عنه إلى "ماما" في وجد وحرارة ، كما أن "لوميتر" حدثها عنه في إطناب ، فرضيت بان يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الإطلاق. إذ إنه وجد "ماما" متحذلقة، بينما وجدته هي ماجنا ، وخشيت علي من مثل هذه المعرفة السيئة، فلم تكتف بأن حرمت علي إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل انها راحت تبين لي - بوضوح قوي - الأخطار التي أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى إنني ازددت تحفظا في اندفاعي نحوه ، ولحسن حظ اخلاقي وإدراكي ،لم نلبث ان افترقنا بعد قليل!

*****

كان للسيد "لوميتر" ما لابناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ على انه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة ، اما اثناء عكوفه على العمل في مكتبه فقد كان لابد له من ان يشرب . وكانت خادمه تعرف ذلك تماما، فكان إذا ما اعد ورقه للتاليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكاس بعد لحظة! . . وكانت تستبدل بها قنينة اخرى مليئة بين آن وآخر، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل. وكان هذا في الحق شيئا يدعو للرثاء ، إذ إن "لوميتر" كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا، حتى إن "ماما" لم تكن تدعوه إلا بـ"قطي الصغير" ! . . وكان -لسوء الحظ- مشغوفا بموهبته الموسيقية، فكان

---

(١) يقصد مدام "دي فلران"، إذ كان بيتها مجاوراً لدار السيد "لوميتر".

يسرف في العمل ، وبالتالي في الشراب . وقد أثر هذا على صحته ، ثم علي طباعه في النهاية ، فكان في بعض الأوقات كثير الهواجس سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن ان يقصر في منح كل إنسان حقه من الاحترام، فما قال يوما سبة ، ولو لصبي من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر في احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا ! . ولكن سوء حظه تمثل في انه كان قليل الذكاء ، لايميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات؛ ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب !

ولقد فقد مجمع اساقفة "جنيف" القديم- الذي كان كثير من الامراء والأساقفة يتشرفون بدخوله- بهاءه القديم ،في مهجره، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلا بد دائما - للانضمام إليه - من ان يكون المرء من السادة، أو من حاملي درجة الدكتوراة من "السوربون" ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد ، هذا إلى جانب ان كل القساوسة الذين أوتوا رجالا مدنيين في خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالي .

وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون "لوميتر" المسكين في كثير من الأحيان، لاسيما المرتل الذي كان يدعى السيد الاب "دي فيدون" ، والذي كان في كافة النواحي الأخرى موفور الادب ولكنه شديد الزهو بنبل اصله ، فقد كان لايولي "لوميتر" دائما حقه من التقدير الذي تؤهله له مواهبه ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شانه .، ولقد وقع بينهما في "أسبوع الآلام" - من ذلك العام- نزاع اشد احتداما من ذي قبل ، بسبب ترتيب الحضور في مأدبة عشاء اعتاد الأسقف ان يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان "لوميتر" يدعى إليها دواما .

فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع ان يتحملها ؛ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على ان يفر في الليلة التالية، ولم يستطع شيء أن يثنيه ، برغم أن مدام "دي فاران" - التي ذهب إليها ليودعها - بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثار لنفسه من طغاته بان يوقعهم في مأزق في عيد الفصح، وهو الوقت الذي كانت تمس فيه الحاجة إليه . على ان الحانه كانت اشد بواعث حيرته ، فقد اراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة؛ لان الالحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لايمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت "ماما" ما كان ينبغي أن تفعله - وما كنت انا الآخر افعله لو انني كنت في مكانها- فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله علي البقاء ، رات انه قد صمم على الرحيل مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته في كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه، وإني لأجرؤ على القول بان هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان "لوميتر" قد وقف نفسه- كما ينبغي ان يقال - لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما، سواء فيما يتعلق بفنه، أو فيما يحتاج إلى عنايته، وكان التحمس القلبي الذي اعتاد ان يبديه في أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها ؛ ومن ثم فإنها - بما أبدته من رغبة في مساعدته - إنما كانت تؤدي لصديق ، في مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من اجلها في مناسبات كثيرة متفرقة- خلال ثلاث أو اربع سنوات - وإن كانت قد اوتيت نفسا لاتحتاج ، لكي تؤدي مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها . لذلك استدعتني ، وامرتني بان ارافق السيد "لوميتر" حتى "ليون" على الأقل ، وان اظل ملازما له اطول وقت يكون فيه بحاجة إلي .

ولقد اعترفت لي فيما بعد بان الرغبة في إقصائي عن "فينتور" كانت ذات شان كبير في هذا الإجراء .

وتشاورت مع "**كلود آنيه**" – خادمها الامين– بصدد نقل الصندوق ، فكان من رايه اننا بدلا من ان نستاجر دابة لحمله من "**أنيسي**"– مما يعرضنا للافتضاح– يجب ان نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستاجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى "**سيسل**" ، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأي خطر ، وقد اخذنا بهذه النصيحة، فرحلنا في الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخمت "**ماما**" كيس نقود "**القط الصغير**" المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتي .

وحمل "**كلود آنيه**" والبستاني وإياي الصندوق – بقدر ما استطعنا– حتى اول قرية ، حيث اعفانا منه حمار.. وبلغنا "**سيسل**" في الليلة ذاتها.

واعتقد انني اشرت من قبل إلى ان ثمة أوقاتا لااشبه فيها نفسي في شيء، حتي لأبدو شخصا آخر ذا شخصية مخالفة لشخصيتي . وها كم مثالا لذلك : فإن السيد "**ريديليه**"– راعي كنيسة "**سيسل**" – كان من قساوسة كنيسة القديس "**بطرس**" ؛ ومن ثم كان يعرف "**لوميتر**" ، كما كان من الذين ينبغي على هذا ان يتوارى عنهم ولكني رايت نقيض ذلك ، فنصحت بان نذهب فنقدم نفسينا إليه بحجة ما ، نساله ماوى لليلتنا ، وكاننا في "**سيسل**" بموافقة من "الجمع" !

واستساغ "**لوميتر**" هذه الفكرة التي تجعل ثاره ساخرا، لاذعا؛ ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيد "**ريديليه**" الذي احسن استقبالنا، وذكر له"**لوميتر**" انه كان في طريقه إلى "**بيلاي**" بناء علي طلب من الاسقف ، ليدير موسيقاها في عيد الفصح وانه يتوقع ان يعود بعد ايام قلائل. أما أنا فقد كان علي – لكي ادعم هذه الاكاذيب – ان اسكب مائة اكذوبة اخرى ، بشكل طبيعي ، حتى إن السيد "**ريديليه**" – إذ رآني فتى جميلا – ابدى لي الود وعانقني ألف مرة. وحظينا بحفاوة طيبة، وبمضجعين مريحين. ولم يدر السيد "**ريديليه**" إلى اي حد رفع قدرنا ، وافترقنا كاحسن اصدقاء في العالم، بعد ان وعدناه بان نمكث وقتا أطول في عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا.

واصارحكم اني ما ازال افعل الشيء ذاته كلما فكرت في تلك الحيلة ، فلست اتصور البتة حيلة ماكرة اكثر إحكاما ولا اسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا ان "**لوميتر**"– الذي لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف– اصيب مرتين او ثلاثا بنوبات كادت تقضي عليه ، وكانت شديدة الشبه بالصرع ، وقد زج بي هذا في مآزق افزعتني ، وحملتني على التفكير في الخروج من الامر كله بقدر استطاعتي!

وذهبنا إلى "**بيلاي**" لنقضي عيد الفصح ، كما قلنا للسيد"**ريديليه**" ، ومع ان احدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا اننا لقينا من رئيس موسيقى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ. فقد كان للسيد "**لوميتر**" صيت ذائع في فنه، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقى "**بيلاي**" فخرا بعرض ابدع الحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثله ، فقد كان "**لوميتر**" خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة، بعيدا عن الرياء. كان ارفع مكانة من كل رؤساء فريق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى إنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم اكثر منه كزميل!

وبعد ان قضينا اربعة أو خمسة ايام– على خير حال– في "**بيلاي**" استانفنا الرحيل ، ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا "**ليون**"، نزلنا في فندق "**نوترادام**

دي بيتييه" . وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق - الذي استطعنا بفضل أكذوبة أخرى أن نرسله على مركب في نهر "الرون" بمعونة راعينا الطيب : السيد "ويدبليه" - ذهب السيد "لوميتر" لزيارة معارفه، ومنهم الأب "كاتون"، (أحد الرهبان السمر، وسوف يرد ذكره فيما بعد)، والراهب "دورتان"، كونت "دي ليون" . وقد تلقاه الاثنان في إكرام ولكنهما غدرا به فيما بعد، كما سيتبين القارئ في الحال . فلقد نفد حسن حظه في دار السيد "ويدبليه" !

بعد يومين من وصولنا إلى "ليون" ، كنا نجتاز شارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، وإذا "لوميتر" يصاب بإحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أفزعتني ، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله إلى هناك . وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سقط في الطريق فاقد الوعي وقد أخذ الزبد يفور على فمه، وإذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذي كان من حقه أن يعتمد عليه . إذ إنني انتهزت اللحظة التي لم يكن فيها أحد يفكر في أمري ، وتسللت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت ، وإني لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث ، ولو كان لدي كثير من هذا النوع لهجرت هذا المؤلف الذي بدأته .

لقد بقيت آثار من كل الذي ذكرته حتى الآن، في الأماكن التي عشت فيها ، ولكن الذي سأورده في الكراسة التالية يكون مجهولا تماما . . إنها أعظم حماقات حياتي، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه .

ولكن رأسي كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته، وإذ ذاك كففت عن الحماقات ، أو أنني لم أعد أرتكب منها سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتي ! وهذه الفترة من شبابي هي إحدى الفترات التي تضطرب ذكراها في رأسي ، إذ إنه لم يمر بي خلالها من الأحداث شيء مشوق لقلبي بدرجة تكفي لأن أحتفظ له بذكرى واضحة؛ ومن ثم فمن العسير ألا أرتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفي خلال التطورات العديدة المتتابعة . . إنني أكتب معتمدا على ذاكرتي تماما، دون ما مذكرات ، ودون ما مواد تعينني على التذكر . . وفي حياتي أحداث لاتزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لاأملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها ؛ ومن ثم فإنني معرض للخطأ أحيانا، كما أنني قد أرتكب الخطأ ثانية - في مسائل غير مهمة- إلى أن يحين الوقت الذي أملك فيه عن نفسي معلومات أوثق . أما في كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات ، فإنني مطمئن إلى دقتي وأمانتي ، اللتين سأحرص عليهما دائما في كل شيء وللقارئ أن يثق بذلك .

*****

ما إن غادرت السيد "لوميتر" حتى استقر عزمي ، فكررت عائدا إلى "أنسي" . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة من أجل سلامة إقامتنا . وقد صرفني هذا الانشغال - الذي استغرق كل اهتمامي- أياما عن التفكير في العودة. على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفيني من القلق، حتى عاد وجدي إلى سيطرته وسلطانه ، فلم يهف بقلبي أو يغريني شيء سوى أن أعود إلى "ماما" . كان صدق تعلقي بها ورقته قد اجتثا من فؤادي كل حماقات الطموح، ولم أعد أرى سعادة إلا في العيش معها، ولاسرت خطوة دون أن أشعر بأنني كنت أبتعد عن هنائي ؛ ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنا .وكان سفري متعجلا ، وذهني شاردا ، إلى درجة أنني وإن كنت أذكر بكثير من

السرور رحلاتي الأخرى، فلست أملك أنفه ذكرى لهذه الرحلة، اللهم إلا مغادرتي "ليون" ووصولي إلى "أنيسي" .. ومن ذا الذي يتصور أن تخبو هذه الأخيرة من ذهني!.. فعند وصولي لم أجد مدام "دي فاران" .. كانت قد رحلت إلى "باريس"!

ولم يقدر لي قط أن أعرف سر هذه الرحلة.. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لي، لو أنني ألححت، فهذا ما أثق به كل الثقة. ولكن أحدا لم يكن قط أقل مني فضولا إزاء أسرار الأصدقاء إذ إن قلبي لاينعم بغير الحاضر، وهو يمتلئ به تماما، فلا يبقى فيه ركن خال لأي شيء من الماضي، ما عدا المتع السالفة، التي تؤلف بعد ذلك لذتي الوحيدة!.. على أن الذي أتخيله- من القليل الذي أنبأتني به "ماما"- هو أن الثورة التي قامت في "تورين" بسبب نزول ملك "سردينيا" عن عرشه جعلتها في خوف من أن تغدو منسية، فشاءت - بفضل حيل السيد "دوبون"- أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات، من بلاط "فرنسا" الذي كانت كثيرا ما تقول لي إنها تفضله على بلاط ملك "سردينيا"، لأن المرء- في غمرة الشؤون الهامة الكثيرة التي يشغل بها ذلك البلاط الفرنسي- لايظل تحت رقابة صارمة .. وإذا كان الأمر كذلك فمن الغريب حقا أنها لم تقابل- عند عودتها - بوجوه عابسة، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار، ودون انقطاع. ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية: إما من قبل الأسقف - الذي كانت له بعض شؤون في البلاط الفرنسي- وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة!. والمؤكد - إذا كان الأمر كذلك- أن اختيار مدام "دي فاران" كرسول، لم يكن بعيدا عن الصواب، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات لاسيما وأنها كانت لاتزال شابة.. وجميلة!

الكراسة الرابعة

٦- من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وصلت فلم اجدها ، فتصور مدى دهشتي وأساي!.. إذ ذاك ، بدا ندمي على التخلص من السيد "لوميتر" يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث ان ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فإن الصندوق الموسيقي الذي كان يحتوي على كل ثروته .. هذا الصندوق الثمين الذي أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى "ليون" ، بناء على امر الكونت "دورتان" الذي كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبثا طالب "لوميتر" بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمرا وكانت ملكية الصندوق تستحق ان تكون موضوع نزاع قضائي على الأقل ، بيد ان شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر في الحال- بحكم قانون الأقوى !- وبهذا فقد "لوميتر" المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته!

ولم يكن ينقص الضربة التي تلقيتها شيء كي تصبح مضنية ولكنني كنت في سن ليس للاحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسي أسباب العزاء.. فرحت اتوقع ان أتلقى عما قريب انباء من مدام "دي فاران" برغم انني لم اكن اعرف عنوانها، كما كانت هي تجهل انني رجعت .. اما بصدد التخلي عن السيد "لوميتر" فإنني بعد التامل في هذا الامر لم اجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له في فراره ، وهذه هي الخدمةالوحيدة التي كانت تتوقف علي. . ولو انني بقيت معه في "فرنسا" لما شفيته من علته ، ولما انقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى ان اضاعف نفقاته دون ان املك له نفعا .. هكذا رأيت الأمر، إذ ذاك ، وإن كنت اراه اليوم على النقيض. فإن التصرف الخسيس لايكربنا عند ارتكابه وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل؛ لان ذكراه لاتخمد قط!

وكان الدورالوحيد الذي استطعت ان اقوم به للحصول على أنباء "ماما" هو ان انتظر ، وإلا فاين كنت ابحث عنها في "باريس"، وباي نفقات كنت اقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان اكثر ضمانا من "أنيسي" لمعرفة مقرها ، إن عاجلا او آجلا .

ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكني اسات التصرف إلى حد كبير؛ إذ إنني لم اذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذي كفلني من قبل- والذي كان بوسعه ان يكفلني من جديد - فإن راعيتي لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب.

وكذلك لم اعد اذهب إلى المعهد الديني ، إذ إن السيد "جرو" لم يعد هناك.. ولم أر احدا من معارفي ، وإن كنت قد تمنيت ان اذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة، لولا انني لم اجرؤ قط!.. بل إنني ارتكبت ما هو اسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد "فينتور"، الذي لم افكر فيه البتة منذ رحيلي ، برغم شغفي به، فوجدته متالقا مكرما في "أنيسي" باسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد افقدني هذا التوفيق حجاي تماما ، فلم اعد ابصر سوى السيد "فينتور" ، بحيث اوشك ان ينسيني مدام "دي فاران" . ولكي افيد من دروسه بمزيد من اليسر عرضت عليه ان يشركني معه في مسكنه ، فوافق وكان يسكن لدى إسكافي لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته - بلهجته الريفية- سوى "العاهرة" ، وهو اسم كانت اهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد "فينتور" ان يسعى لإطالتها

وهو يتظاهر بالرغبة في ان يفعل العكس . إذ كان يوجه إليهما – بلهجة هادئة ، وبلكنته الإقليمية– كلمات تحدث اعظم اثر . . وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك! . . وهكذا كانت فترات الصباح تنقضي دون ان يفطن إليها المرء . فإذا كانت الساعة الثانية او الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب "فينتور" إلى الاوساط التي كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه . . اما انا فكنت اتمشى وحيدا ، مفكرا في براعته البالغة ، وانا اعجب بمواهبه الفذة واغبطه عليها ،لاعنا طالعي المنحوس الذي لم يكن يفضي بي إلى مثل هذه الحياة الهانئة ! إن حياتي بالذات كانت خليقة بان تكون اكثر بهجة مما كانت مائة مرة، لو انني كنت اقل غباء، لو عرفت كيف استمتع بهذه الحياة على نحو افضل !

ولم تكن مدام "دي فاران" قد صحبت معها سوى "أنيه"، بينما تركت "ميرسيريه" وصيفتها التي تحدثت عنها من قبل، والتي وجدتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة "ميرسيريه" فتاة تكبرني قليلا ، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل . . فتاة طيبة من بنات "فريبورجوا" بريئة من الخبث، ما عرفت لها من عيب سوى انها كانت–في بعض الاحيان– تعصى سيدتها ، فاخذت اكثر من زيارتها ، إذ إنها كانت من المعارف القدامى، وكان مرآها يذكرني بمن كانت اعز منها لدي ، وبمن احببتها من اجلها. وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى "جيرو" ، من بنات "جنيف" ، شاءت أن تهواني ، برغم نقائصي ، فكانت تلح دائما على "ميرسيريه" ان تصطحبني إلى دارها . وقد تركتها تفعل لانني كنت احبها – اعني "ميرسيريه"– ولانني كنت اجد هناك فتيات اخريات ارتاح إلى رؤيتهن ، اما عن الآنسة "جيرو" – التي كانت تبدي لي كل الوان المضايقات– فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذي كنت أحسه نحوها . . كنت أجد عناء – إذا ما قربت من وجهي انفها الأعجف الأسود الملوث بالسعوط – في ان اكبح نفسي عن البصق عليه ! بيد انني تشبثت بالصبر، إذ كنت إلى جوارها انعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللائي كن يتبارين في الاحتفاء بي، إما بدافع التملق للآنسة "جيرو" أو التقرب إلي شخصيا ، ولم اكن ارى في كل هذا صداقة . ، ولقد تراءى لي فيما بعد أنه كان في وسعي أن أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هذا لم يخطر ببالي، ولا انا اوليته اي تفكير !

وإلى جانب ذلك فإن الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهوينني البتة، إنما كنت اصبو إلى الآنسات الراقيات! . . إن لكل امرئ احلامه الخيالية ، وقد كانت تلك أحلامي دوما ، ولست ارى في ذلك ما رآه "هوراس" .على انه من المؤكد ان ابهة المكان والمنصب لم تكن هي التي تجتذبني ، وإنما كانت تفتنني بشرة مصونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص باكمله ، وذوق صاف في الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع، وحذاءان صغيران، واشرطة و"دانتيلا" ، وشعر انيق التصفيف . ، . وقد اعتقدت دائما ان افضل من اوتيت كل هذا ، ولو كانت اقل الفتيات جمالا . . والواقع أنني انا نفسي ارى في هذا التفضيل امرا يدعو إلى الضحك، ولكن قلبي يهفو إليه على الرغم مني!

*****

حسنا ! . . لقد سنحت لي هذه الميزات مرة اخرى، ولم يكن علي سوى ان استغلها . لكم احب ان اقع– من آن إلى آخر – على اللحظات البهيجة في شبابي! . . وما كان احلاها لي ، وما كان

اقصرها واندرها!.. ولقد استمتعت بها بابخس الأثمان!.. آه إن مجرد تذكرها يثير من جديد في قلبي نشوة طاهرة انا في مسيس الحاجة إليها لتجديد جراتي ولدرء الهجوم عن بقية سني حياتي!

ففي ذات صباح بدا لي الفجر من الجمال بحيث إنني ارتديت ثيابي في عجلة ، واسرعت إلى الخلاء لاشهد شروق الشمس ، واستمرات هذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس "يوحنا" ، والأرض في ابهى زينتها، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قد اوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا انها كانت تستعذب الإمعان في إطلاق اصواتها.. بل إن الطيور جميعها راحت تشدو مودعة الربيع، متغنية بمولد يوم بديع من ايام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سني هذه ، والتي لايراها المرء إطلاقا في هذه البلاد الكئيبة التي اقيم فيها اليوم(١).

وابتعدت عن المدينة دون ان اشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت اسير تحت ظلال اشجار واد صغير على ضفة غدير ، ثم سمعت خلفي وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا انهما كانتا في محنة، وإن راحتا تقهقهان من اعماقهما . التفت ، فإذا نداء باسمي ينبعث ، فاقتربت.. ووجدت فتاتين من معارفي ، هما الآنسة "دي جرافينرييه"و الآنسة "دي جالي" ، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لانهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة "دي جرافينرييه" شابة من "بيرن" ذات ملاحة طاغية، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سنها، فحذت حذو مدام "دي فاران"- التي كانت تتردد على دارها لماما- على انها لم تكن ذات مورد للعيش، فلم تملك سوى ان تغتبط بان تربط نفسها بالآنسة "دي جالي" التي شعرت بمودة نحوها، فاغرت امها على السماح لهذه الرفيقة بان تقيم معها ريثما تجد عملا. وكانت الآنسة "دي جالي" تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا. كانت على قدر من الرقة والترفه لاقبل لي بوصفه ، وكانت في الوقت ذاته دقيقة القسمات ،بديعة القوام، أوتيت من الفتنة اكبر قسط يمكن ان تحظى به فتاة!.. وكانت كل منهما مشغوفة بالاخرى حبا ، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملا على تمكين هذا الود من ان يبقى طويلا، دون ان يقوى اي عاشق على تعكيره!

وقالتا لي إنهما كانتا تقصدان "تون" ، القصر العتيق الذي كانت تمتلكه السيدة "جالي" -والدة الفتاة- ثم طلبتا مساعدتي في حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذي لم تقويا عليه . وهممت بأن اسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين اشفقتا عليّ من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع.. لذلك عمدت إلى حيلة اخرى ، فاخذت بمقود جواد الآنسة "دي جالي" ، ثم جررته خلفي، وخضت الجدول الذي وصل ماؤه إلى ركبتي .. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذ تم ذلك هممت بان احيي الآنستين ثم امضي في طريقي كاي احمق لكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتني الآنسة "دي جرافينرييه" قائلة: "لا، لا.. ما هكذا يفلت المرء منا! لقد اصابك البلل وانت تؤدي لنا خدمة ، فاصبح من واجبنا- نحو ضميرنا- ان نعنى بك حتى تجف.. فخليق بك - إذا تكرمت - ان تاتي معنا، إذ إنك اسيرنا!".

وخفق قلبي ، وتطلعت إلى الآنسة "جالي" ،فاضافت وهي تضحك لما بدا علي من ارتباك: "اجل، اجل.. اسير حرب! اركب خلفها ، فنحن مسؤولتان عنك!".. فقلت محتجا: "ولكن ، يا آنسة.. إنني لم احظ بشرف التعرف إلى امك، فماذا ترينها قائلة إذا ما راتني؟".. واجابت الآنسة "دي جرافينرييه": "إن امها ليست في "تون"، فقد جئنا وحدنا، وسنعود في المساء، وبوسعك ان تعود

---

(١) كان "روسو" وهو يكتب هذا الجزء من إعترافاته يعيش في "ووتون" بمقاطعة "سترافورد" بـ"إنجلترا".

معنا!".

وما كان للكهرباء أن تحدث في كياني تأثيرا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات.. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة "دي جرافينريه" وأنا أرتجف غبطة. وكنت كلما اضطررت إلى أن أحيط خصرها بذراعي لأحفظ توازني، خفق قلبي بعنف لم تلبث أن لاحظته، فقالت: إن قلبها - هو الآخر - كان يخفق، لأنها كانت في خوف من الوقوع!.. وكان قولها - في مثل هذا الموقف - بمثابة دعوة لي كي أتحرى بنفسي صدقه، ولكنني لم أجرؤ قط!.. ولقد ظلت ذراعاي - طيلة الرحلة - تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة!.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا، تحس من نفسها رغبة في أن تعرك أذني.. ولن تكون مخطئة في ذلك! وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لساني، فلم نسكت حتى المساء. بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا! ولقد استطاعتا أن تسريا عني الحرج، فإذا لساني لايقل نشاطا عن عيني، وإن اتخذ أسلوبا غير أسلوبهما، ولم يكن الحديث يتوتر قليلا إلا في بضع لحظات كنت أجد نفسي فيها على انفراد مع إحدى الشابتين، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود، دون أن تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا!

وما إن بلغنا "تون"، وجفت ثيابي حتى تناولنا الفطور. وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة المهمة: مسألة إعداد الغداء. فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر - وهما عاكفتان على الطهو - لتقبلا أبناء حارسة المزرعة..

بينما كان غاسل الأطباق المسكين - أنا - يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه! وأرسلنا إلى المدينة في طلب المؤن وكل ما يكفي لغداء شهي، ولا سيما الحلوى، ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لاتشربان الخمر قط، بيد أنني استأت إذ كنت أعول على معونته في استمداد الجرأة. ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك، ولعل استياءهما كان لنفس السبب، وإن كنت لاأظن ذلك. وكان مرجعهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بي فيما بينهما؟!.. ولقد أرسلنا في البحث عن نبيذ في كافة البقاع المجاورة، فلم يعثر على شيء منه البتة، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لايقربون الخمر، وإذ راحتا تعربان لي عن أسفهما قلت لهما إنه لاداعي لأن تتجشما هذا العناء وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكي تسكراني!..

وكانت هذه هي المجاملة الوحيدة التي جرؤت على قولها طيلة النهار، على أنني أعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة!

✽✽✽✽✽

وتناولنا غداءنا في مطبخ المزرعة، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين "دكتين" إلى جانبي المائدة، وضيفهما بينهما، على مقعد مخفض ذي ثلاث قوائم، ويا له من غداء!.. أية ذكرى طافحة بالمفاتن! ولماذا يسعى المرء وراء ملاذ أخرى إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات في طهر هذه وصدقها، بأبخس الأثمان!؟.. أبدا ما قدر للوجبات في منازل "باريس" الصغيرة أن تداني هذه الوجبة. ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب، ولا عن طربها فحسب، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك!

وعمدنا بعد الغداء إلى شيء من الاقتصاد، فبدلا من أن نحتسي القهوة التي تبقت من الإفطار، احتفظنا بها لنتناولها مع القشدة والفطائر التي أحضرتها الفتاتان معهما. ولكي نرضي شهيتنا،

ذهبنا إلى البستان لنتخذ من "الكريز" حلوى نختتم بها وجبتنا ، فتسلقت الشجرة ورحت القي للفتاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلي البذور "النوبات" خلال الاغصان ، وحدث في إحدى المرات ان بسطت الآنسة "جالي" مريلتها ، وطوحت براسها إلى الخلف ، وثبتت في مكانها فما كان مني إلا ان احكمت الرماية وانا القي بعنقود من الكريز، فهوى في صدرها! . . وانطلقت الضحكات! . .

وقلت لنفسي: " ليت شفتي كانتا من الكريز! . . لكم انا على استعداد لان أرمي بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر! " .

وهكذا انقضى النهار في مرح استرسلنا فيه باقصى تحرر، مع التزام اقصى حدود الاحتشام على الدوام ! . . فما من كلمة مبهمة تحتمل تاويلا، ولا ملحة "نكتة" شاردة . . ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر في افعالنا واقوالنا عن إيحاء قلوبنا! . . وقصارى القول إنه بلغ من حيائي- الذي قد يسميه الغير غباء!- ان اقصى مغازلة افلتت مني هي ان قبلت يد الآنسة "جالي" مرة واحدة ! والحق ان الظروف اسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، إذ كنا وحيدين، وكانت انفاسي تنبعث في تهدج، كما كانت عيناها منكستين. . وبدلا من ان يجد فمي قولا إذا به يلتصق بيدها التي لم تلبث الفتاة ان سحبتها في رفق - بعد ان انطبعت عليها القبلة - وهي ترمقني بنظرة لم تنم عن اي انفعال. . ولست ادري ما كنت خليقا بان اقوله للفتاة ، لولا ان اقبلت صديقتها على الغرفة، فلاحت لي - في تلك اللحظة - بالغة الدمامة!

واخيرا ، فطنت الفتاتان إلى انه لاينبغي التريث في العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل. ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذي يمكننا من العودة ، فاسرعنا بالرحيل بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء ، ولو انني وجدت جراة ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ إن نظرة الآنسة "جالي" كانت قد أثارت فؤادي. . بيد انني لم اجسر على ان اقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها ان تقترح هي هذا التغيير ا ورحنا نقول - خلال انطلاقنا- إن اليوم قد انقضى سراعا ، ولكنا بدلا من ان نشكو من قصره، اجمعنا على اننا اوتينا معجزة إطالته بفضل اسباب اللهو التي عرفنا بها كيف نملؤه!

وفارقتهما عند البقعة التي التقطتاني عندها ، تقريبا. . ولكن ، باية حسرة افترقنا! وباي سرور رسمنا الخطة للقاء آخر ! . . إن الاثنتي عشرة ساعة التي قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة! وإن الذكرى العذبة التي اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ولكن الوحدة الحنون التي ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل في قيمتها متعا اكثر بهجة واحتداما . . متعا لم يكن لها بقاء في ظلال تلك الرابطة. فلقد تحابينا في غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين في أن نتحاب دائما بهذا الشكل ، وإن لسذاجة الخلق لنشوتها التي تعادل تماما اية نشوة اخرى لانها لاتعرف راحة، ولاتفتأ تحتدم باستمرار!

اما بالنسبة لي فإني ادرك ان ذكرى مثل هذا اليوم اكثر تاثيرا في نفسي ، وفتنة لي، وترددا على فؤادي من ذكرى اية متعة تذوقتها في حياتي ! وما كنت ادري تماما ما الذي كنت ابتغيه من الفتاتين الساحرتين، ولكنهما اطربتاني معا كل الطرب . ، ولست اقول إن قلبي كان خليقا بان يقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لي أن اسيطر على اموري ، فقد احسست بشيء من الإيثار والتفضيل: كان يسعدني ان احظى بالآنسة "جوفينرييه" عشيقة ، ولكنني لو خيرت لآثرت - فيما اعتقد - ان اتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا او ذاك فقد بدا لي إذ فارقتهما انني لم اعد اقوى على الحياة

بدونهما معا ، فمن كان منبئي بانه لم يكن مكتوبا لي ان اراها في حياتي مرة اخرى ، وان هذه كانت نهاية حبنا الذي لم يعمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقرءون هذه السطور لن يتمالكوا انفسهم من الضحك من مغامراتي الغرامية ، وملاحظة ان اكثرها تطورا كانت تنتهي – بعد كثير من التمهيدات – بقبلة على اليد! . .

ولكن لاتغتروا بها قرائي ! فلعلني نعمت من تلك الغراميات – التي كانت تنتهي بهذه القبلة على اليد– بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم في غرامياتكم التي قد تبدأ بمثل هذه القبلة!

*****

وعاد "فينتور" إلى البيت بعد عودتي بقليل ، إذ كان قد تاخر كثيرا في الذهاب إلى مضجعه في الليلة السابقة .وفي هذه المرة، لم اشعر بسرور لرؤيته كمالوف عادتي ، كما انني كتمت عنه النهج الذي قضيت عليه يومي ، فإن الآنستين كانتا قد تحدثتا إلي عنه في شيء من الازدراء ، وبدا لي انهما استاءتا إذ علمتا انني كنت في مثل هذه الرعاية السيئة ، فنال هذا من مكانته لدي ، لاسيما وان كل ما كان يشغلني عن التفكير فيهما بدا لي غير مستحب ، على ان "فينتور" ما لبث ان ردني إلى نفسي وإليه، بان اخذ يتكلم عن موقفي إذ غدا احرج من ان يستمر. فمع انني لم اكن انفق غير القليل جدا إلا ان كيسي بدا يفرغ، ولم يكن لي مورد . . ولم يكن ثمة نبا عن "ماما" ، فلم ادر ماذا افعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الآنسة "جالي" يهبط إلى مستوى المتسولين!

وانباني "فينتور" بانه قد تحدث عني إلى الضابط القضائي(١) . وأنه اعتزم ان يصطحبني لتناول العشاء عنده في اليوم التالي،وان هذا الرجل كان في مركز يمكنه من ان يخدمني عن طريق أصدقائه . . فضلا عن انه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا واديبا، ذا طباع جد ملائمة . وكان موهوبا ، يقدر المواهب لدى الغير ، . ثم أطلعني – وهو يمزج التوافه بالخطير من الأمور، جريا على عادته– على مقطع بديع من الشعر، وصل من "باريس" ، وكان يردد في لحن بإحدى اوبرات "وريه" ، ذاع في ذلك العهد . ولقد اعجب السيد "سيمون"– وهو اسم الضابط القضائي – به فاراد ان ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة، ردا عليه . . طلب إلى "فينتور" ان ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحت إليه بان يحملني على ان أنظم بدوري واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا– حسب قوله – في اليوم التالي، كما كانت المحفات تتتابع في "القصة المضحكة"(٢) .

وإذ عز علي النوم –في تلك الليلة– نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكانت لاباس به، إذ قدرنا انه كان اول ما نظمت من الشعر ! بل إنه كان افضل – او على الاقل، ارق – مما كنت خليقا بان انظم في اليوم السابق ، إذ إن موضوعه دار حول موقف عاطفي كان قلبي قد تفتح له . اطلعت "فينتور" – في الصباح– على مقطعي الشعري، فرآه بديعا ، ودسه في جيبه دون ان ينبئني بما إذا كان هو قد نظم مقطعه . . وذهبنا نتناول العشاء في دار السيد "سيمون" الذي احسن استقبالنا. وكان الحديث طليا، وما كان من الممكن غير ذلك ، وقد دار بين رجلين ذكيين واسعي الاطلاع . . اما انا ، فقد قمت بدوري المعتاد إذ رحت اصغي وانا ممسك لساني . ولم يقل احد منهما شيئا عن اي مقطع شعري، وكذلك لم اقل انا شيئا . . ولم يرد ذكر– على قدر ما عرفت– للمقطع الذي نظمته !

وبدا على السيد "سيمون" انه ارتاح إلى مسلكي ، وكان هذا قصارى ما عرفه – تقريبا– عني في

---

(١) (OUGEMAGE) كان موظفاً ذا مركز مهم، يطبق العدالة بإسم الملك . (٢) منظر في الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) اروع مؤلفات "سكارون" .

هذا اللقاء . وكان قد رآني من قبل عدة مرات بدار السيدة "دي فاران" ، دون ان يوليني اهتماما يذكر؛ ومن ثم فإنني أحسب معرفتي به منذ ذلك العشاء .. المعرفةالتي لم تكن ذات نفع للموضوع الذي كان يشغل بالي ، ولكني افدت منها – فيما بعد– منافع اخرى ، تجعلني اذكر السيد "سيمون" بسرور . وما ينبغي ان ارجئ الحديث طويلا عن شكله الذي يستحيل على اي امرئ ان يكون فكرة عن الرجل ما لم اتحدث عنه لاسيما إذا راعينا ما كان للسيد "سيمون" من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها . .

لم يؤت السيد الضابط القضائي– بالتأكيد– من الطول قدمين(١) وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ،وطويلتين في نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بان تبداه طويلا، لو انهما كانتا راسيتين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقي فرجار(برجل) مفتوح على سعته ، ! اما جسمه فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لاسبيل إلى وصفها . ولابد انه كان يبدو– إذا ما تجرد من ثيابه– كالجرادة! اما رأسه– الذي كان عادي الحجم ، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان– فقد كان يبدو كراس زائف اقيم على أرومة نبتت من جذع شجرة! . . ولابد انه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء؛ إذ كانت قلنسوة الشعرالمستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه!

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معا باستمرار كلما تكلم، ويتباينان بشكل يبدو – في أول الامر– طريفا ، ولكنه لايلبث ان يغدو كريها! وكان احدهما جهوريا عميقا، وهو صوت رأسه إن جاز لي ان اقول هذا. اما الآخر فكان واضحا، حادا نفاذا، وكان صوت جسده ! وكان – إذا ما التزم الحذر – تكلم بتحفظ بالغ، ونظم تنفسه، فيستطيع ان يتكلم باستمرار بصوته العميق.. ولكنه لايكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة اكثر حدة ، حتى يشبه صوته صفيرا منبعثا من نغم عال . . وكان يجد عناء بالغا في العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت!

ومع هذا المظهر الذي وصفته ، والذي لا مغالاة فيه إطلاقا، كان السيد "سيمون" مؤدبا. راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذلقة . ولما كان راغبا في ان يبدو في اعظم مظاهره فقد كان يحلو له ان يعقد مقابلاته في الصباح وهو في السرير؛ لأن الذي كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور ان هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدي– في بعض الأوقات – إلى مناظر مضحكة، اعتقد ان "أنيسي" لاتزال تذكرها!

في ذات صباح بينما كان ينتظر في سريره –او بالأحرى، على سريره– اصحاب الشكايات، وقد ارتدى قَلَنْسُوة بيضاء بديعة، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردي اللون وصل أحدُ الريفيين وطرق الباب، وكانت الخادم قد خرجت، فما إن سمع السيد "سيمون" الطرقات، حتى صاح مجيبا: "ادخل!" .. وهو إذا لَفظَ الكلمة بشيء من القُوَّة انبعثت بصوته الحاد. ودخل الرجل فبحث عن مصدر هذا الصوتِ النِّسْوي، وما إن رأى في السرير قلنسوة وشريطا حتى هم بالخروج ثانية، وهو يقدم "للسيدة" اعتذارات بالغة! فغضب السيد "سيمون"، ولم يزدد إلا صُراخا فتاكد الريفي من فكرته، ورأى أنه قد اهين، فاغرقه بالشتائم، وقال له حلها: "لستِ سوى فاجرة"، وإن السيد الضابط القضائي لا يَضْربُ بحياته المنزلية مثلا طيبا! . . واشتد بالسيد "سيمون" الغضب، فلم يجد في متناول يده سوى الوعاء الذي يقضي فيه حاجته في المخدع، فأوشك ان يلقي به على رأس الرجل المسكين لولا ان وصلت مدبرة بيته!

---

(١) كتب "روسو" في مخطوطات الطبعة الاولى انّ طول "سيمون" كان قدمين ثم ضرب عليها بالقلم وكتب "ثلاث مخطوطات" ؟ . . . ولكنه لم يثبت هذا التعديل في النسخة الثانية من المخطوطات، وهي التي استخدمت في طبعة "جنيف".

وإذا كان هذا القَزَم الضئيل قد شوهتْ الطبيعةُ جسمه فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة، والتي كان يُعْنىَ بتحسينها. ومع انه كان يُقَالُ عنه: إنه كان مستشارا قضائيا موفقا إلا انه لم يكن يحب مهنته. فالقى بنفسه في غِمَارِ الأدب، واستطاع ان يوفق. ولقد اكتسب -فوق كل شيء- تلك اللباقة السطحية، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة، لاسيما مع النساء!.. كان يعرف عن ظهر قلب دَقَائقَ المأثورات (١) وما إليها، وقد أُوتي فن إبرازها، وربطها بالمناسبات، وإحاطتها بجو غريب، وكَأَنَّ الذي حدث مثلا منذ ستين عاما حكاية وقعت بالأمس! وكان ملما بالموسيقى، يُحسن الغناء -بدرجة مقبولة- بصوته الآدمي. وقُصَارىَ القول إنه اوتي مواهب اجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائي. وكان بحكم مجاملته لنساء "أنهسي" قد اصبح "موضة" بينهن، فكنَّ دائما يَسْحَبنه وراءهن وكانه "نسناس" صغيرا.. حتى لقد راح يزعم انه كان محظوظا لدى النساء، فكان ذلك يُطربهن كثيرا. وكانت سيدة منهن -تدعى "مدام ديباني"- تقول: إن اقصى ما يشتهيه هو ان يقبل امراة في ركبتها (٢)!

ولما كان مُطَّلعا على كتب الأدب الراقي، ومشغوفا بالحديث عنها فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب، وإنما كان مفيدا ايضا، وعندما اكتسبت -فيما بعد- ميلا إلى الدروس التي انمَّتْ معرفتي به، فافدت من ذلك نفعا عظيما. وكنت اسعى في بعض الأحيان من "شامبيري" -حيث كنت إذ ذاك- لكي ازوره. وقد أذْكَى هو في هذا الميل وشجعه، وكان يقدم لي بعض الإرشادات في مطالعاتي، فكنت كثيرا ما انتفع بها. ولسوء الحظ، كانت تَغْمُر هذا الجسد الواهن نفس مرهفةُ الحس، وقد قُدر له -بعد ذلك بسنوات- ان يرتكب ذنبا لا ادريه، مما احزنه، فلم يلبث ان قَضَى نحبه. ويالها من خسارة! لقد كان -يقينا- رجلا طيبا، ضئيل الجسم، يبدأ المرء بالضحك منه، ثم ينتهي بان يحبه!.. ومع ان حياته لم تكن مرتبطة بحياتي في شيء إلا انني أخذت عنه بعض دروس نافعة، فرايت -بدافع من العرفان- ان اخصه بحيز من ذكرياتي!

*****

وما إن انصرفت من لدن السيد "سيمون" حتى هرعت إلى الشارع الذي كانت الآنسة "جالي" (٣) تقيم فيه، ممنيا نفسي بان ارى شخصا ما، داخلا او خارجا، او قائما إحدى النوافذ، على الأقل!.. ولكن شيئا ما لم يَلُحْ لي، ولا هِرَّة! بل إن البيت ظل -طيلة مُكثي هناك- مغلقا تماما، وكانه لم يعمر قط بسكان. وكان الشارع صغيرا ومقفرا، فكان وجود إنسان كفيلا بان يستلفت الانظار.. وبين الحين والحين، كان يَعْبُرُه مار، ما بين داخل او خارج من البيوت المجاورة. وقلقت من اجل نفسي، فقد تراءى لي انهم كانوا يحدسون سر وجودي هناك. وأَمْضتني هذه الفكرة.، فقد اعتدت دائما ان اقدم شرف وطمانينة اولئك الأعزاء لدي على مسراتي الخاصة.

واخيرا، مللت لعبة العاشق الإسباني(٤)، ولما لم يكن ثمة "جيتار" معي فقد اعتزمت الكتابة إلى الآنسة "دي جرافينريد". وكنت افضل ان اكتب لصديقتها ولكني لم اكن أجْسُر، فضلا عن انه كان من الاليق ان ابدأ بالتي كنت مدينا لها بمعرفة الاخرى، والتي كنت معها اكثر أُلْفَة ومودة. وما إن اتممت رسالتي حتى حملتها إلى الآنسة "جيرو" (٥) وفقا لما اتفقت عليه مع الآنستين عندما افترقنا،

---

(١) مجموعات الاقوال المأثورة عن بعض الشخصيات، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم. (٢) نعني انه لا يستطيع ان يصل إلى فمها او يدها لقصر قامته! (٣) الآنسة "جالي" والآنسة "دي جرافينريد" هما الفتاتان اللتان قضي روسو معهما يوما بهيجا في الريف. (٤) اعتاد العاشق في "إسبانيا" ان يقف على قارعة الطريق، بالقرب من دار الحبيبة ويمضي في العزف على "الجيتار" عسى ان تفطن إلى وجوده، فتنعم عليه بنظرة.

(٥) "جيرو" هي صديقة لوصيفة مدام "دي فارنز" المدعوة "ميرسيريه"، وكانت "جيرو" قد اعلنت على روسو الحب، برغم نفوره الشديد منها!

وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل. ذلك ان الآنسة "جيرو" كانت تحترف تنجيد الاثاث، وقد عملت حينا في دار السيدة "جالي"؛ ومن ثم فقد كان دخول الدار مُباحا لها. والحق ان اختيار هذه الوسيطة لم يبد لي موفقا ولكنني خَشيتُ الا تُرشح الفتاتان سواها إذا انا اثرت اي اعتراض. كما انني لم اجرؤ على القول: إنها كانت تعمل لحسابها الخاص.. وكنت اشعر بالضعة لمجرد انها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها -في نظري- منتمية إلى نفس جنس الآنستين! على انني ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسائلي؛ نظرا لعدم وجود سواها، فاقدمت عليها برغم كل النذر!

واكتشفت "جيرو" سري منذ الكلمة الاولى، فما كان هذا بالامر العسير. وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تَشي بحقيقة الامر فإن ارتِباكي واضطرابي كانا كفيلين بان يكشفا سري! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث في نفس الفتاة اي سرور. ولكنها في الواقع تكفلت بها، وادتها بامانة.

وفي الصباح التالي هَرَعْتُ إليها، فوجدت الرد المنشود. وما كان اسرعني في الخروج من دارها، لاقراه واقبله دون حرج! وليست بي حاجة إلى أن أفيض في هذا ولكن الذي يحتاج إلى إسهاب هو مسلك الآنسة "جيرو"، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت اتوقع. كانت من الحكمة بحيث رات انها -بسني عمرها السبع والثلاثين، وبعينيها الشبيهتين بعيني الارنب، وبانفها الملوث بالسعوط، وبصوتها الحاد الرفيع وبشرتها السوداء- لا يمكن ان تُبارِي فتاتين شابتين، مليئتين بالحسن، وفي كل ابهة الجمال.. ومن ثمَّ لم تشا أن تغدر بهما، كما لم تشا ان تخدمهما.. بل إنها آثرت ان تفقدني على أن تساعدهما على الظفر بي.. (كما سيبدو فيما بعد).

٧- سنة ١٧٣٢

وكانت "ميرسيريه" قد بدات تفكر -منذ فترة- في العودة إلى "فريبور"؛ إذ إنها لم تتلق اي نبأ من سيدتها، وما لبثت الآنسة "جيرو" ان حملتها على ان تُقرر ذلك، بل إنها ذهبت إلى ابعد من هذا، فادخلت في رَوْعِها ان من المستحسن ان يُرافقها احدٌ إلى دار ابيها، ورشحتني لذلك(١) ورات "ميرسيريه" الصغيرة -التي لم اكن بغيضا إليها- ان الفكرة صالحة، فإذا بهما تحدثاني عنها، في نفس اليوم، وكانها امر مفروغ منه! ولما لم اجد ما يضيرني في البعد بهذه الطريقة فقد وافقت، وانا احسبُ ان الرحلةَ لن تعدو ثمانية ايام على الاكثر ولكن "جيرو" لم تحسب مثل هذا الحساب، وتولت تدبير كل شيء. واضطررتُ إلى ان اكشف حالتي المالية، فسرعان ما دُبرت لي الموارد إذ تكفلت "ميرسيريه" بنفقاتي،، وتعويضا عن الخسارة التي تكبدتها بذلك وافقت الفتاة -تحت إلحاحي- على ان تُرْسِلَ متاعها البسيط مقدما بينما نقطع نحن الرحلة على الاقدام، متمهلين.. وهذا ما حدث!

ولكم يُؤسفني ان اتحدث عن فتيات عديدات كُنَّ يُحْبِبْنَني.. على انني لا اجد مبررا لان ازهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات.. ومن ثم ارى أن بوسعي ان اقول الحقَّ دون تَمْويه، فإن الآنسة "ميرسيريه" -التي كانت اصغر سنا واقل دهاء من "جيرو"- لم تبد قط نشاطا كالذي كانت هذه تبديه لإغرائي، وإنما كانت تقلدُ لهجتي وصوتي وإلقائي، وتردد كلماتي، وتوليني من الاهتمام ما كان ينبغي ان أوليها إياه.. كما كنا نحرص دائما على ان نَنَام في حجرة واحدة؛ إذ كانت شديدةً

---

(١) كانت هذه هي الحيلة التي حلت إليها "جيرو" الماكرة كي تبعد "روسو" عن محبوبته، وعن المدينة كلها!

الخوف..! وهي ألفة نادرا ما تقف عند هذا الحد،في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين!.. ولكن هذا هو عين ما جرى،، في هذه المناسبة. فبالرغم من ان "ميرسيريه" لم تكن دميمة فإن سذاجتي لم تقف عند حد انني لم أعمدْ -خلال الرحلة باسرها- إلى النُطق باتفه مغازلة فحسب، وإنما بلغت بي السذاجة انني لم افكر -مجرد تفكير- في شيء من هذا القبيل على الإطلاق!.. بل إنه لو خطرت لي هذه الفكرة لعجزت لغبائي عن ان افيد منها! فما كنت لا تصور كيف تنام فتاة وشاب في فراش واحد.. وكنت إخَالُ ان الاستعداد لمثل هذا الامر الرهيب يتطلب قرُونًا من الزمن!.. وإذا كانت "ميرسيريه" البائسة قد طمعت -حين تكفلت بنفقاتي- في جزاء من هذا القبيل فقد خاب حَدَسُها؛ لاننا بلغنا "فريبور" بنفس الحال التي غادرنا بها "انيسي" تماما!

وعندما مررنا بـ"جنيف" لم اسع لزيارة احد، ولكني اوشكت ان أصاب بمرض من فرط انفعالي وانا اعبر جسور المدينة. ابدا ما اقبلت على هذه المدينة، ولا وَلجْتُ ابوابها دون ان أحِسَّ بقلبي يغُوص وقد اثقلته الانفعالات الطاغية!.. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحي كان التفكير في المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر في نفسي إلى الدرجة التي تَدْمعُ عندها عيناي، ويبعث في حسرة محتدمة على كوني قد حرمت كل هذه النعم!.. وكم كنت مخطئا! -ولكن، كم كان هذا الشعور طبيعيا، كذلك! -لقد كنت إخال انني ارى كل هذه النعم في وطني؛ لانني كنت احملها في سُوَيْداء قلبي!

واضطررنا إلى ان نمر بمدينة "لُيون".. فهل كنت اجتازها دون ان أرى ابي الشيخ!؟ لو انني فعلت لكنت خليقا بان اموت -بعده- كَمدا!.. ومن ثم تركت "ميرسيريه" في الفندق وذهبت لأراه، برغم كل الاعتبارات، آه، ما كان اشد خطئي إذ اوجست من لقائه!.. فما إن اقتربت منه حتى تفتح قلبه لعاطفة الأبوة العارمة.. وكم بكى عندما تعانقنا!.. ولقد ظن -بادئ الأمر- انني عدت إليه، فانباته بقصتي وبخطتي.. وعارض في وهن، وراح يبصرني بالاخطار التي كنت اعرض نفسي لها، قائلا: إن اقصر النزوات والحماقات هي افضلها!.. وعدا ذلك لم يُداخلُه اي ميل إلى غَصْبي على البقاء، وأرى انه كان في ذلك على حق، ولكن من المؤكد انه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستبقائي، إما لانه كان يرى -في تقديره- ان من واجبي الا اعود إليه، وإما لانه كان في حَيْرة.. ولعله لم يكن يدري ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها!.. ولقد علمت فيما بعد انه كون لنفسه عن زميلتي في الرحلة فكرة كانت جدُّ ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ولكنها -على اية حال- كانت طبيعية!.. وكانت زوجة ابي امراة طيبة، على شيء من الدَّهاء والقول المعْسُول، فقد تظاهرت بالرغبة في استبقائي للعشاء.. ولكنني لم امكث، وإن وعدتهما بان ابقى معهما وقتا اطول عند عودتي، وعهدت إليهما بحُزْمة متاعي الصغيرة، التي كنت قد ارسلتها في مركب، والتي كنت حائرا فيما افعله بها. وفي اليوم التالي رحلت مبكرا، وانا جد مغتبط بانني رايت والدي، وانني وجدت الجراة على ان اؤدي واجبي!

*****

ووصلنا بسلام إلى "فريبور"، وكانت مُغَازلات الآنسة "ميرسيريه" قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة. حتى إذا وصلنا لم تعد تبدي لي سوى الفتور، كما ان اباها -الذي لم يكن غارقا في الرخاء- لم يُولني حفاوة بالغة فاضْطُررتُ إلى ان اقضي ليلتي في احد المشارب.. وزرتهما في اليوم

التالي، فَدَعَواني إلى العشاء، وقبلت الدعوة.. ثم افترقنا دونما دموع، وعدت في المساء إلى المبيت في المشرب. وفي اليوم التالي رحلت، دون أن أدري وجهة أقصدها!

وكانت تلك فرصة أخرى أرادتْ فيها العناية أن تمنحني ما كنت أبتغيه لكي أُنفقَ أيامي في هَناء.. فلقد كانت "ميرميريه" فتاةً جد طيبة، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة، فإنها لم تكن -كذلك- بالدَّميمة، كما أنها كانت على شيء من النشاط وكثير من الرزانة، وكانت تَتَعرَّض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة، تقضيها في بكاء، ولكن هذه النوبات لم تكن تُفْضِي قط إلى عواقب عاصفة. ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوي، فكان بوسعي أن أتزوجها دون عناء، وأن احترف مهنة أبيها(١) -إذ إن ميلي للموسيقى كان كفيلاً بأن يجعلني أحب هذه المهنة- وأن أستقر في "فريبور"، وهي بلدة صغيرة، قليلة الجمال،ولكنها تَضُمُّ قوما طيبين، وكنت بذلك سأحرمُ بلا شك متعا عظيمة، ولكنني كنت خليقا بأن أعيش في سلام إلى آخر لحظة في حياتي. ولقد كنت جديرا بأن أعرف -أكثر من أي امرئ آخر- أنه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة إزاء صفقة كهذه!

وعلى أثر رحيلي من "فريبور" لم أرجع إلى "ليون"، وإنما اتجهت إلى "لوزان"؛ فقد شئت أن أتملّى بمنظر البحيرة الجميلة التي تُشاهَدُ هناك في أكثر أجزائها اتساعا. ولم تكن أغلب البواعث الخفية التي تقرر مسلكي، بواعث جامدة.. فإن المناظر التي تشاهد عن بعد نادرا ما كانت من القوة بحيث تحَفِزُني على العمل، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلني أنظر دائما إلى المشروعات التي يتطلب تنفيذها أجلا طويلا نظرتي إلى حيل خادعة!.. وأنا بطبعي، أنغمس في الآمال كغيري طالما كانت لا تُكَبِّدني شيئا، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فإنني لا أمضي وراءها.. وإن أقل متعة صغيرة تَعْرِضُ لي، وتكون في متناول يدي لأكثر إغراء لي من مباهج الفردوس.. على أنني استثني من ذلك المتعة التي يعقبها ألم، فهي لا تُغْريني قط؛ لأنني لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة، وهذه لا يحظى بها المرء إطلاقا عندما يعرف أنه إنما يهيئ نفسه للندم!

وكنت بُحاجة ماسة إلى بلوغ أي مكان.. فكان أقرب الأماكن هو أفضلها! ولما كنت قد ضَلَلْتُ طريقي فقد ألفيتني -ذات مساء- في "مودون"، حيث أنفقت القليل الذي كان قد تبقى معي ماعدا عشرة "كروتزرات"(٢) لم تلبث أن تبددت في الغداء، في اليوم التالي.. حتى إذا بلغت -في المساء- قرية صغيرة على مقربة من "لوزان"، دخلت أحد المشارب وليس في جيبي دَانِقٌ أدفعه لقاء مبيتي، بل إنني لم أكنْ أدري ما قد يكون من أمري! وكنت جد جائع فتجلدت وطلبت عشاء، كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه!.. ثم أويت إلى مضجعي دون أن أحمل هما، فاستغرقت في نوم هادئ. وبعد أن أفطرت -في الصباح التالي- وحاسبتُ مضيفي ردت أن أترك له صديري رهنا، لقاء السبعة "باتزات"(٣)، التي بلغتها نفقاتي ولكن الرجل الطيب أبى، وقال: إنه -والحمد للسماء- لم يجرد أحدا قط من ثيابه، وإنه ما كان ليشرع في ذلك لقاء سبعة "باتزات"؛ ومن ثم فقد بات في وسعي أن احتفظ بصديري، على أن أدفع له حقه متى استطعت. وقد تأثرت لطيبته، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغي، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك. وقد بَادرْتُ بإرسال المبلغ إليه فيما بعد، شاكرا، مع رجل الثِّمَنتهُ.. على أنني بعد خمس عشرة سنة، مررت بـ"لوزان"، في عودتي من "إيطاليا"، فشعرت بأسف صادق لكوني نسيت اسم المشرب واسم الرجل، وإلا لذهبت لرؤيته، ولحَظيتُ بسرور حقيقي وأنا أذكره بالخير الذي أسْداهُ، وأثبت له أنه لم يضعه في غير موضعه!.. وكم من خدمات أكثر أهمية، بلا شك -ولكنها بذلت بكثير من التفضُّل والمن- سدت لي أقل استحقاقا

---

(١) يفهم من هذه العبارة أن أباها كان موسيقيا. (٢) "الكروتزر" عملة ألمانية ونمسوية قديمة. (٣) "الباتز" عملة ألمانية أخرى.

للعرفان من العمل الإنساني البسيط الذي بذله هذا الرجل الطيب في غير زَهْو!

وفيما كنت اقتربُ من "لوزان" رحت أتأملُ الضيق الذي وجدتني فيه، والوسائل التي استطيع بها ان انتزع نفسي منه دون ان اطلع زوجة ابي على تعاستي!.. واخذت اقيس نفسي -في سفري على الأقدام- بصديقي "فنتور" عندما وصل إلى "أنسي" فإذا بهذه الفكرة تَبُثُّ الدفء في نفسي، حتى إنني اعتزمت ان اكون "فنتور" صغيرا في "لوزان" دون ان يجول بخاطري انني لم أُوتَ لطفه ولا مواهبه.. وقررت ان اقوم بتدريس الموسيقى التي لم اكن على علم بها، وان ازعم انني وفدت من "باريس" -التي لم ازرها قط- وبناء على هذا المشروع البديع شرعت في السؤال عن فندق صغير استطيع ان اجد فيه مقرا مُريحا بابخس النفقات؛ إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة استطيع ان اعرض عليها معونتي، كما انني لم اكن من الغَبَاء بحيث اندس وسط اهل الفن!.. ودلني البعض على شخص يدعى "بيروتيه" كان يؤجر غرفا في داره، وتجلى لي ان هذا الـ"بيروتيه" كان خير رجل في العالم، وقد احسن استقبالي. وإذ رَوَيْتُ له اكاذيبي الصغيرة -كما دبرتها- وعدني بأن يذكرني لدى الناس، وان يسعى ليأتيني ببعض التلاميذ. وقال لي: إنه لن يسألني اجرا إلا بعد ان أكْتَسِبَ نقودا، وكان اجر المنزل خمسة دنانير بيضاء (١)، وهو اجر زهيد بالنسبة للمكان ولكنه كان باهظا بالنسبة لي. ولقد نصحني "بيروتيه" بان اكون في البداية "نصف نزيل"، اي ان استمتع بالإقامة، وبغداء يتألف من حساء دسم -لا اكثر- وبعشاء طيب في المساء.. فوافقت. كان هذا الـ"بيروتيه" المسكين يقدم لي كل هذه الميزات عن طِيبِ خاطر، وعن خير نية في الدنيا. ولم يكن يدخر وسعا كي يُساعدني!

ترى لماذا قُدر لي -وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين في صباي- الا اجد منهم في كبري إلا القليلين؟.. ايكون نَوْعُهم قد انقرض؟.. لا، ولكن الطبقة التي اضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم لم تعد عين الطبقة التي كنت اعثر عليهم فيها من قبل! ذلك لان نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانبعَاثاً لدى الناس الذين لا يسمع التشدق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلا!.. اما بين أبناء الطبقات الراقية فإن المشاعر الفطرية تَخْتَنِقُ تماما، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور!

*****

وكتبت لأبي من "لوزان" فارسل حزمة متاعي، وخصَّني بنصائح رائعة، كان خليقا بي ان أفِيدَ منها.. وكنت قد لاحظت انني اصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم ادر مَأتاها، بل كنت لا اشعر خلالها بنفسي -وهنا ايضا بادرة من البوادر التي تستحق الملاحظة!- ولكي تدركَ إلى أي مدى كنت افقد رأيي، وإلى اي مدى "فنترت" نفسي -اي تشبَّهتُ بـ"فنتور"، إن صح هذا القول- يكفي ان نرى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معا، وفي آن واحد!: فها قد غَدَوْتُ مدرسا للغناء دون ان اعرف كيف أَفُكُّ رموز اي لحن! إذ إن الشهور الستة التي قضيتها مع "لوميتر" لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد افدت منها! -ثم إنني كنت قد تعلمت على يدي استاذ، وكان هذا كافيا لان يجعلني لا اكترث بالدراسة(٢)!

وإذ صِرْتُ باريسيا من "جنيف"، وكاثوليكيا في بلد "بروتستانتي" فقد رايت ان علي ان اغير اسمي كما غيرتُ عقيدتي ووطني، إذ كنت احاول دائما ان أُصْبح اقرب ما اكون إلى المثل العظيم

---

(١) (ECL) عملة قديمة من الفضة. (٢) لعله يقصد ان الفن لم يكن موهبة اصيلة في نفسه.

الذي اتخذته. وقد كان يسمي نفسه "فنتور دي فيلنيف"، لذلك قلبت اسم "روسو" إلى "وومسور"، او "فوسور"، واسميت نفسي "فوسور دي فيلنيف"! ولقد كان "فنتور" على معرفة بالتلحين، وإن لم يقل شيئا عن ذلك.. اما انا فبدون معرفة بالتلحين رحت افتخر ببراعتي امام العالمين.. وبدون ان استطيع تمييز ابسط اغنية دارجة جعلت من نفسي ملحنا.. ولم يكن هذا كل ما في الامر، فقد قُدِّمتُ إلى السيد "دي تريتوران" -وكان استاذا في القانون احب الموسيقى واعتاد ان يقيم حفلات موسيقية في داره- فشئتُ ان اعرض عليه "عينة" من براعتي، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته في جُرأة بالغة، وكانني كنت اعرف كيف اؤدي المهمة!.. وواظبْتُ على العمل خمسة عشر يوما في إعداد هذا اللحن الجميل، وفي نسخ صورته، وفي تقسيم اجزائه، وفي توزيعها باطمئنان بالغ، وكان اللحن تحفة متناسقة. واخيرا -الامر الذي لا يكاد يُصدَّق، ولكنه الحقيقة الخالصة- اردت ان اتوج هذا الإنتاج الراقي بشكل يليق به، فاضفت في النهاية اغنية بديعة كانت تَتَردَّد في الطرقات، ولعل الناس اجمعين لا يزالون يذكرونها، وهذا نصها:

"يا للفجور.. ويا للجحود.. ماذا؟!

هل غدرت حبيبتك "كلاريس" بآملك؟!.. إلخ".

وكان "فنتور" قد لَقَّنني هذا اللحن -الذي يُعْزَفَ على اوتار الطبقة الثانية- مع كلمات اخرى بذيئة، تذكرتهُ بفضلها! ومن ثم اضفت في نهاية لحني هذا المقطع وانغامه الخفيضة، وقدمت للجميع على انها من ابتداعي، في اعتداد، وكانني كنت أُخاطب قوما من سكان القمر!

واجتمعتْ الفرقةُ لعزف لحني فشرحت لكل فرد نوع الحركة، وطريقة الاداء، وعلامات تكرار الأجزاء، وانهمكت في ذلك كل الانهماك.. فقضى العازفون خمسا او ست دقائق -بدت لي كخمسة او ستة قرون!- في تنسيق اصواتهم وآلاتهم، حتى اصبحوا اخيرا على تمام الأهْبَة، فوقعت الضربات الخمس او الست إشارة الانتباه، على منضدة القيادة، بانبوبة بديعة من الورق، فساد الصمت، وبدات اوزع الوقت في عظمة وجد.. وبدا العزف! -لا، فمنذ ظهور "الأوبرا" الفرنسية على قيد الحياة، لم تسمع مثل تلك "الضوضاء"!- ومهما يكن قد خَالَجَ القوم بصدد براعتي المزعومة فإن الاثر كان اسوا من اي شيء توقعوه!.. وكتم الموسيقيون ضحكهم بينما فتح المستمعون عُيونَهُم عن آخرها، وكانوا على استعداد لان يسدوا آذانهم، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة. وعمد العازفون القُساة -رغبة في السخرية- إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة اذن الأصم(١)!

واوتيت من الجلد ما يكفي لان أسْتَمِرَّ في دوري دون توقف، وإن راح عرقي يتصبب غزيرا في الواقع.. فقد منعني الحياء، فلم اجرؤ على الهرب بينما كان الجميع جالسين. وعلى سبيل العزاء، سمعت المساعدين المحيطين بي يتهامسون بعضهم في آذان بعض، او -بالاحرى- في اذني.. فقال احدهم: "ليس في هذا ما يطاق!".. وقال آخر: "يالها من موسيقى جنونية!".. وقال غيره: "يا لَلَّحن الشيطاني!"، مسكين انت يا "جان جاك"، فما طمعت -في تلك اللحظة- في ان تَنْتَزِعَ انغامك هذه يوما، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها، تمتمات الدهشة، وتصفيق الإعجاب.. وان تتهامس النسوة الفاتنات، في المقصورات المحيطة بك: "يالها من نغمات ساحرة!.. اية موسيقى فاتنة!.. كل هذه الانغام تنفذ إلى القلب!".

على ان الذي رَدَّ القوم إلى رضاهم هو ذاك المقطع الذي اضفته في النهاية.. فما إن عزفتُ بضع نغمات

---

(١) في الاصل: تخرق اذن احد الخمسة عشر عشرينا.. كناية عن نزيل المستشفى الذي يحمل هذا الاسم "الخمسة عشر عشرينا" في باريس، والذي انشئ في الاصل لياوي ٣٠٠ اعمى.

منه حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب.. واخذ كل امرئ يُهنِّئني بذوقي الجميل، ويؤكد لي ان هذا المقطع كفيل بان يذيع اسمي، وانني جدير بان تُردَّدَ انغامي في كل مكان، ولست بحاجة إلى ان اصف غمي، ولا إلى ان اعترف بانني كنت استحقه!

وفي اليوم التالي جاء احدُ العازفين -وكان يُدْعى "ليتولد" - ليراني، وكان من الامانة بحيث إنه لم يهنئني بنجاحي.. فإذا شعوري العميق بحماقتي، وبالخجل والندم والياس من جَرَّاء الحال التي انحدرت إليها، واستحالة إبقاء قلبي مُغْلَقاً على هذه الآلام الجسيمة.. إذا شعوري هذا يحملني على ان افتح قلبي له، وان اطلق العنان لدموعي.. وبدلا من ان أكْتفي بان اعترف له بجهلي أفضَيْتُ إليه بكل شيء، وسالته ان يكتمَ سري، فوعدني بذلك، وبر بوعده على النحو الذي يمكن تصوره.. فما إن حل مساء اليوم ذاته حتى كانت "لوزان" باسرها قد عرفت حقيقتي!.. وكان اعجب ما في الامر ان احدا لم يطلعني على انه قد عرفها، ولا "بيروتيه" الطيب، الذي لم يحجم، برغم ذلك كله، عن إيوائي وإطعامي!

وقدر لي ان اعيش ولكن في حزن غامر. وكان من جراء موقف كهذا ان "لوزان" لم تعد بالنسبة لي مقاما مستحبا، فلم يُقْبِلْ التلاميذ زرافات. بل إنني لم اظفر بتلميذة واحدة، ولا باحد من ابناء المدينة.. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين او ثلاثة من الالمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل، وكانوا يُضَايِقُونَني إلى درجة الموت، كما انهم لم يصبحوا -على يدي- ولو عازفين غير منتظمين!.. ولم أُدْعَ إلاَّ إلى بيت واحد، كانت فيه فتاة صغيرة -كانها الحية- اخذت تتلهى بإطلاعي على كثير من القطع الموسيقية التي كنت عاجزا عن قراءة "نوتاتها"، ثم كانت تنطلق في الغناء -بعد ذلك- امام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب ان يُؤَدي اللحن!.. وكنت لا اكاد استطيع ان اقرا اي لحن من اول نظرة، حتى إنني -في الحفلة الباهرة التي تحدثت عنها- كنت عاجزا عن ان اتتبع العزف لحظة لاتبين ما إذا كان العازفون يُحْسِنُونَ توقيع ما كان تحت بصري، وما كنت قد الفته بنفسي!، ام لا!

وفي غمرة هذا الهوان وجدتُ عزاءً في الانباء التي كنت اتلقاها بين وقت وآخر من الصديقتين الفاتنتين.. فلقد اعتدت دائما ان اجد طاقة مرفهة عظيمة في الجنس الآخر، فليس ثمة ما يُواسي احزاني -في المصائب- اكثر من انثى لطيفة تُعْنَى بي!.. على ان هذا التراسل لم يلبث ان انقطع بعد ذلك بقليل، ولم يُقدر له ان يستانف قط.. غير ان ذلك كان في الواقع ذنبي، إذ إنني عندما غيرت محل إقامتي اغفلت ان ابْعثَ إليهما بعنواني، ثم نسيتهما تماما؛ إذ كنت مضطرا -بحكم الضرورة- إلى ان افكر في نفسي باستمرار!

*****

ولقد انقضى وقت طويل دون ان اتحدثَ عن "ماما" (١) المسكينة. على ان المرء يكون جد مخطئ إذا ظن انني نَسِيتُها هي الاخرى فإنني لم اكف عن التفكير فيها، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لما هو اكثر من ذلك.. لحاجتي القلبية!.. كان تَعَلُّقِي بها -برغم ما كان عليه من حرارة وحنان- لا يَحُولُ بيني وبين ان احب غيرها، ولكن على غير شاكلةِ حبي لها! فإن النساء جميعا

---

(١) راينا في الجزء الاول كيف اطلق "روسو" على راعيته الكريمة "مدام دي فاران" لقب "ماما".

كن -على السواء- مَدينات بعاطفتي لمفاتنهن.. اما هي، فكانت لها مكانة فريدة، دونها مكانات الاخريات، فلم تكن مفاتنهن تعدو عليها.. بل لقد كان من المحتمل ان تهرم "ماما" وان تصبح دميمة، وانا مقيم على حبها، دون ان يقل شَغَفي بها!.. كان قلبي قد نقل إلى شخصها كلَّ التمجيد الذي استشعره من قبل نحو جمالها، فما كانت عواطفي نحوها لتتغير قط -مهما يكن التغيُّر الذي يتعرض مظهرها له- طالما ظلت في جوهرها هي بذاتها!.. وكنت ادركُ تماما انني مدين لها بالفضل ولكني لم افكر في ذلك قط، في الواقع.. بل كان ما فعلته ومالم تفعله من اجلي سواء عندي، إذ إنني لم احببها عن شعور بالواجب او بالمصلحة الذاتية، ولا عن خضوع وامتثال، وإنما احببتها لانني خُلِقتُ كي احبَّها!.. وكنت عندما اقع في هوى اية امرأة اخرى اشغل بها -كما ينبغي ان اعترف- فيقل تفكيري في "ماما" ولكني كنت إذا ما عدتُ للتفكير فيها افكر بنفس المتعة. وما شغلت بها قط -سواء كنت على حب او لم آكن- دون ان اشعر بانني لن اجد سعادة حقيقية قط في الحياة طالما كنت بعيدا عنها!

ومع انني لم اسمع عنها منذ امد طويل إلا انني لم اعتقد قط بانني فقدتها تماما، ولا خطر لي أن من الممكن ان تكون قد نسيتني، وكنت اقول لنفسي: "إنها لن تلبث ان تعلم -طال الوقت او قصر- بانني شريد وحيد، فتبعثُ إلي بما يُطَمْئِنُني إلى انها على قيد الحياة. ولسوف القاها ثانية، بكل تاكيد. وفي انتظار ذلك كان من بواعث البهجة ان اعيش في مَسْقَط راسها، وان اجتاز الطرقات التي سارت فيها من قبل، وامر بالبيوت التي كانت تقيم فيها.. كل هذا بالحدْسِ والتخمين، فقد كان من نزواتي الحمقاء أنني كنت عاجزا عن ان احمل نفسي على الاستعلام عنها، بل عن ذكر اسمها، مالم تكن ثمة ضرورة ماسة..

كان يبدو لي انني بذكر اسمها اشي بكل ما كانت تُلهِمُني إياه من مشاعر، وان فمي يفضح سر قلبي، وانني احرجها بطريقة ما! كذلك خُيل إلي ان تحرجي عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحي إليَّ بأن احدا قد يذكرها امامي بسوء! فقد كان الناس يُكثرون من الحديث عن الخطوةالتي اتخذتها، ويَمَسُّونَ سلوكها بعض الشيء؛ لذلك آثرتُ الا اسمع اي شيء يقال عنها -على الإطلاق- خوفا من ان يقال لي ما لا اتوق إلى سماعه!

ولما لم يكن تلاميذي يشغلونني كثيرا، وكان مسقط راسها لا يبعد عن "لوزان" باكثر من اربعة فراسخ، فقد قضيت ثلاثة ايام او اربعة اتمشى هناك، دون ان يفارقني اعذبُ شُعُور عرفته. كان لمنظر بحيرة "جنيف" وضفافها البديعة سحر ياسر عيني دائما، ولا قبل لي بوصفه.. سحر لم يكنْ ينْحَصِرُ في جمال المنظر فحسب بل كان يشتمل ايضا على شيء آكثر جاذبية، واقدر على التاثير علي، والسيطرة على مشاعري. وفي جميع المرات التي كنت اقترب فيها من مقاطعة "فود" كان يُخَامِرُني شعور ينطوي على ذكرى "مدام دي فاران" -التي ولدت هناك- وابي، الذي عاش هناك، والآنسة "دي فيلسون" التي استمتعت باولى ثمار حب صباي، وكثير من الرحلات البهيجة التي قمتُ بها في طفولتي.. وسبب آخر -فيما يبدو لي- كان آكثر إثارة، واشدُّ غموضا، واقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة!.. كانت الرغبة المتأجِّجة في هذه الحياة الهانئة الوادعة -التي كانت تفر مني برغم انني ولدت لها- تتجه دائما إلى مقاطعة "فود"، على مقربة من البحيرة، ووسط الريف الفتَّان.. كنت أصبو إلى أن يكون لي بستان على شاطئ هذه

البحيرة دون سواها، وإلى ان يكون لي صديقٌ امين، وامرأة لطيفة، وبقرة، وزورق صغير.. ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض إلا إذا تَحقَّقَ لي كل هذا! وإني لأضحك من السذاجة التي كانت تحدو بي إلى زيارة هذه البلاد مرارا، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية! وكنت أدْهَش دائما إذ كنت اجد سكانها -لا سيما النساء منهم- على النقيض مما كنت انشد.. لكم كان يهولني هذا التناقض!.. ابدا لم يلح لي ان كلا من المقاطعة واهلها قد خلق من اجل الآخر!

*****

وفي خلال الرحلة إلى "فيفاي"(١)، اطلقت نفسي -وانا اتمشى على شاطئ البحيرة الجميلة- للشجون العذبة، فإذا بقلبي يندفع في شوق إلى آلاف من المفاتن البريئة، وانْزعْتُ نفسي بالانفعالات، فرحت اتنهد وابكي كالطفل!.. كم من مرة توقفت لابكي ماشاء لي البكاء!.. وكنت اجلس على حجر كبير، اتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء!

وفي "فيفاي" اقمتُ في "لاكليه". وفي خلال اليومين اللذين اقمتهما هناك دون ان ارى احدا تملكني نحو هذه المدينة حُبٌ ظَلَّ يلاحقني في كل رحلاتي، وحملني -في النهاية- على ان أقيم فيها معبدا لابطال خيالي القصصي. وإني لأقول -عن طيب خاطر- لأولئك الذين اوتوا ذوقا وحساً مرهفين: "اذهبوا إلى "فيفاي".. وَجُوسُوا خلال ريفها، وتاملوا المواقع، وتمشَّوْا على ضفاف البحيرة، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تَخْلق هذا البلد الجميل لـ"جوليا" و"كلير" و"سان برو"(٢).. ولكن، لا تتوقعوا ان تجدوهم هناك!".. على اني اعود الآن إلى قصتي:

ولما كنت كاثوليكيا، وقد اعترف بي كذلك فقد رحت امارس جهارا، وبدون إحْجَام، العقيدة التي اعتنقتها.. وكنت -في ايام الاحد ذات الجو المعتدل- احضرُ الصلاة في "اسين"، على مبعدة فرسخين من "لوزان"، فكنت اقطع المسافة عادة في صحبة غيري من الكاثوليكيين، اذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسي، وقد غاب عني اسمه. ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتي، وإنما كان باريسيا صميما، من "باريس". وكان تَقِياً مؤمنا، ذا فطرة طيبة كابناء "شامباني"، وقد بلغ من حبه لوطنه انه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياب في انني باريسي مثله خوفا من ان يُضَيِّع على نفسه فرصة الحديث عن "باريس". وكان لدى السيد "دي كروزا" -مساعد الحاكم- بستاني من "باريس" كذلك ولكنه كان اقل طيبة، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده ان يجرؤ اي إنسان على ان يَنْتَمي إليها دون ان يكون له حق في هذا الشرف!.. لذلك راح يمطرني بالاسئلة، وهو يبتسمُ في خبث، بلهجة الواثق بانه لن يلبث ان يَكْتَشِفَ غلطة! ولقد سالني مرة عن ابرز معالم "مارشيه نيف"، فاجبته اعتباطا وتخبطا، كما يستطيع المرء أن يحدس. وجدير بي اليوم -وقد اقمت في "باريس" عشرين عاما- ان اكون على دراية بها، ومع ذلك، فلو ان احدا وجه إلي سؤالا كهذا السؤال لما كان ارتباكي في الإجابة اقل منه يومئذ، ولاستنتج اي امرئ -من هذا الارتباك- انني لم اقْطُنْ "باريس" قط!. إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة، ولو صادف الحقيقة!

---

(١) مسقط راس مدام "دي فارانْ". (٢) هؤلاء الثلاثة من ابطال قصة روسو الطويلة "هيلويز الجديدة".

وليس بوسعي ان اذكر تماما مدة إقامتي بومئذ في "لوزان"، فإنني لم احمل من هذه المدينة ذكريات حيَّة. كل ما ادريه هو انني حين وجدتُ نفسي عاجزا عن كسب عيشي فيها نزحت منها إلى "نيوشاتيل" حيث قضيت الشتاء. ولقد كنت في هذه المدينة اكثر توفيقا؛ إذ كان لدي تلاميذ، كما انني كسبت منها ما مكنني من الوفاء بديني لصديقي الطيب "بيروتيه"، الذي كان من النُبل بحيث ارسل إلي -في الماضي- حزمة متاعي الصغيرة برغم انني كنت مدينا له بمبلغ كبيرا

ولقد تعلمتُ الموسيقى -دون قصد مني- خلال تدريسي إياها، وكانت حياتي على قدر لا بأس به من الدَّعة. كانت حياة تكفي لان يقنع بها اي رجل عاقل ولكن قلبي القلق كان يصبو إلى شيء آخر.. وكنت في ايام الاحد والأيام الأخرى التي اخلو فيها من العمل ارتعُ في الريف والغابات المجاورة، دون ان اكف عن التَّجْوال، والتأمل، والتَّنهُّد. وكنت إذا ما خرجت من المدينة لا اعود إليها قبل المساء. وفي ذات يوم، كنت في "بودري" فولجت فندقا لاتناول الغداء، وإذا بي ارى رجلا طويل اللحية، ذا حُلة بنفسجية على النَّمط اليوناني، وقلنسوة من الفرو، وقد اوتي مظهرا ينم عن نبل. وكان يجد عَنَاءً -في اكثر الاحيان- في ان يجعل القوم يفهمون ما كان يبغي، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية، ولا لغة غيرها. وفهمت كل ما كان يقول تقريبا، وكنت الوحيد الذي فهم. ولم يجد الرجل بوسعه ان يوضح ما يبغي إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع ابناء المنطقة، فوَجَّهْتُ إليه بضع كلمات بالإيطالية، فهمها تماما، فنهض وعانقني في ابتهاج، وسرعان ما تعارفنا، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له. وكان غداؤه شهيا، في حين ان غدائي كان اقل من المتوسط فدعاني إلى ان اشاركه طعامه، فلم ابد تمنعا يذكر. وبينما كنا نَشْرَبُ ونتكلم وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى اصبحنا لا نطيق افتراقا!.. وروى لي انه كان قَسًّا يونانيا، و"ارشيمندريت" لبيت المقدس، وقد اوفد لجمع اكتتابات من اوروبا لتجديد كنيسة المهد المقدس. واطلعني على شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين. وكان جد رَاضٍ عما جمع حتى ذلك الحين ولكنه كان قد صادف في المانيا صعوبات لا تخطر بالبال؛ إذ إنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الالمانية او اللاتينية او الفرنسية، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية، وعلى اللغة التركية، واللغة الفرنجية؟ مما لم يُسْعِفْهُ كثيرا في البلدان التي لم يكن ملما بالسنتها. لذلك عرض علي ان اصحبه فاكون له سكرتيرا ومترجما، وإلى جانب ان حلتي البنفسجية المتواضعة -التي كنت قد ابتعتها حديثا- لم تكن تنسجم مع مركزي الجديد، فإنني لم أوتَ من اناقة المظهر سوى قسط بسيط، مما جعله يعتقد ان الظفر بي امر غير عسير. ولم يكن في ذلك مخطئا، فسرعان ما تم اتفاقنا، إذ إنني لم اطلب شيئا، في حين انه وعد بالكثير.. وبدون احتياط، ولا ضمان، ولا معرفة، اسلمته قيادي.. وهكذا رحلت من الغد في طريقي إلى بيت المقدس!

وبدانا رحلتنا بمقاطعة "فريبور"، فلم يخرج منها بطائل، وبينما كنا نشرب ونتكلم، وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى اصبحنا لا نطيق افتراقا!..

إذ إن كرامته الكنيسية لم تكن لِتَسْمَحْ له بان يقوم بدور المتسول، ولا بجمع الاكتتابات من خاصة

القوم. على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ فمنحه مبلغا صغيرا. ومن هناك يممنا شطر "بيرن"، وهبطنا في فندق "أوفوكون"، وكان في ذلك العهد نُزُلاً طيبا، يؤمه وسط طيب. وكانت المائدة حافلة، ومحفوفة بالعناية. وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة، ومن ثم فقد كان لزاما عليّ أن أهيئ نفسي لتعويض ما فاتني، وكانت الفرصة سَانِحَةً، فاستغللتُها. ولقد كان السيد "الأرشيمندريت" نفسه رجلا طيب المعاشرة، مشغوفا بالمائدة، مرحا، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه. ولم تكن تنقصه المعرفة، وكان يُجيدُ عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة. وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق، بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء، فلما انساب الدم دافقا، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا: "ألا ابدوا إعجابكم يا سادة.. إنه دم "بيلا سجي!" (١).

ولم تكن خدماتي له قليلةَ النفْع في "بيرن" فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى، وإنما كنت أكثر جُرأةً وأبلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسي!.. على أن الأمور لم تجر بالبساطة التي جرت بها في "فريبور"، بل كان لابد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فَحْصَ شهادات "الأرشيمندريت" لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد. وأخيرا، عندما تمت الإجراءات اللازمة، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ. فَذَهَبْتُ مع "الأرشيمندريت" بوصفي مترجما له، فطُلِبَ إليّ أن أتكلم، وكان هذا آخر ما توقعت، فما خطر ببالي أن ثمة ضرورة -بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادى- إلى مخاطبة المجلس مجتمعا، وكأنما لم يدر من قبل أي حديث!.. فتصوروا ارتباكي!.. تصوروا رجلا خجولا مثلي، يُطالَب بأن يتكلمَ لا أمام ملأ من الناس فحسب، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات.. وأن يتكلم ارتجالا، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة.. كان هذا ما أوشك أن يقتلني!.. ومع ذلك فإنني لم أجبن، وإنما عَرضْتُ في وضوح وإيجاز مهمةَ "الأرشيمندريت،" وأطريت تقوى الأمراء الذين ساهموا في الاكتتاب الذي جاء لجمعه، ولكي أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام قلت: إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك.. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيري يَهُمُّ المسيحيين جميعا، دون ما تمييز بين مذاهبهم.. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء!

ولن أقول إن خطابي كان مؤثرا، بيد أنه صادف -بالتأكيد- هوى لدى المستمعين. وعند مغادرة الاجتماع تلقى "الأرشيمندريت" تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء سكرتيره، نَعِمْتُ بمهمة ترجمتها إليه، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنصها! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلمت فيها بلباقة وإجادة. فأي تحول في تصرفات نفس الرجل!.. لقد ذهبت أخيرا -منذ ثلاث سنوات- إلى "ايفردون" لأزور صديقي القديم السيد "روجان"، فاستقبلتُ وفدا جاء يشكرني إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب.. والسويسريون خطباء بارعون؛ ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لي، ووجدتني مضطرا للرد، ولكني ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك، واضطربت أفكاري إلى درجة جعلتني أُوجِزُ كي لا أجعل نفسي موضع

---

(١) نسبة إلى "بيلاسجيو"، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديما على سواحل وفي جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه، ويرتبط بالعنصر الإغريقي.

السخرية!.. وعلى الرغم من انني خجول بطبيعتي، إلا انني كنت جسوراً في بعض الأحيان -في شبابي- ولكني لم اكن كذلك قط في كبري.. فكلما ازددت تعرفا على المجتمع، قلت قدرتي على ان اكيف نفسي وفقا لأساليبه في الحديث!

*****

وإذ غادرنا "بيرن" ذهبنا إلى "سوليير"؛ إذ ارتأى "الأرشيمندريت" ان يجتاز المانيا ثانية، عائدا عن طريق المجر او بولندا، وهي رحلة بالغة الطول ولكنه لم يخش طولها؛ إذ كان كيسُهُ خليقاً بأن يمتلئ خلال الطريق بدلا من أن يفرغ!.. اما انا، فكان سواء لدي أرحلت على جواد او على قدمي، فما كنت لأبتغي افضل من الترحال بهذا الشكل، طيلة العمر.. ولكن كان مكتوبا لي الا امضي في ترحالي بعيدا!

كان اول ما فعلناه عند وصولنا إلى "سوليير" هو الذهاب لتحية السيد سفير "فرنسا"، وكان هذا السفير -لسوء حظ اسقفي- هو "المركيز دي بوناك" الذي كان سفيرا لدى الباب العالي، والذي قدر له ان يكون على معرفة وافية بكل ما يتعلق بكنيسة المهد المقدس. وقضى "الأرشيمندريت" ربع ساعة في المقابلة التي لم يُسمَح لي بحضورها، لان السيد السفير كان يفهمُ لسان الفرنجة ويُعادلني -على الأقل- في إتقان الحديث بالإيطالية. وعندما خرج صاحبي اليوناني، هممتُ بان اتبعه، ولكني استوقفت، إذ حان دوري لمقابلة السفير، فقد تقدمت على انني باريسي، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة! وسألني السفير عمن اكون، وناشدَني ان اقول الحقيقة، فوعدت بذلك، ورجوتُ بان يأذن لي بان اخلو إليه، فأذن لي، وصحبني إلى مكتبه، واغلق الباب.. وإذ ذاك ارتميت على قدمه، وبررت بوعدي.. وما كنت خليقا بان اضن بالكلام، ولو لم اعد بشيء، إذ كانت الرغبة المستمرة في ان افضي بما في صدري تدفع قلبي إلى شفتي في اية لحظة.. وإذا كنت قد كشفتُ حقيقتي دون تحفُّظ للموسيقي "ليتولد" فما كان من المحتمل ان الجأ إلى التكتم امام المركيز "دي بوناك"!

وبدا عليه الاقتناع بقصتي القصيرة، وبالصراحة التي فضفضتُ بها عن صدري، فامسك بيدي وقادني إلى السيدة زوجة السفير، فقدمني إليها، واوجز لها قصتي، فتلقتني السيدة "دي بوناك" في رفق، وقالت: إنني يجب الا أتركَ مع ذلك الراهب اليوناني. ومن ثم تقرر ان ابقى في الدار حتى بريثما ما يُمكِنُ بفعل من اجلي. ووَددتُ ان اذهب فاودع "أرشيمندريتي" المسكين الذي كنت اشعر بميل نحوه، فلم يُؤذن لي، وإنما أوفِد إليه من انباه بانني قد احتجزت.. وإن هي إلا ربع ساعة، حتى كانت حزمة متاعي الصغيرة قد وصلت. وعهد بي إلى السيد "دي لامارتنيير" -سكرتير السفارة- فقال وهو يريني الغرفة التي اعدت لي: "لقد شغل هذه الحجرة -في عهد "كونت دي لوك"- رجل مشهور كان له نفس اسمك(١)، وعليك وحدك ان تملأ مركزه من جميع الاعتبارات، حتى يقال: "روسو" الاول، و"روسو" الثاني!".. وما كان لهذا التشابه -الذي لم اعلق عليه املا إذ ذاك- أن يستهوي مطامعي، لو قدر لي ان اطلع على المستقبل فأرى الثمن الذي كان مقدرا علي أن ادفعه من اجله يوما!

---

(١) كان الشخص المقصود هو "جان باتيست روسو" (١٦٧١-١٧٤١). وكان شاعرا غنائيا فرنسيا.. وهناك "روسو" ثالث، هو "بيير روسو" (١٧٢٠-١٧٨٥) وكان كاتبا مسرحيا. وقد قيل بهذا الصدد: "ثلاثة مؤلفين يدعون باسم "روسو"، فاح صيتهم من باريس إلى روما: "روسو" الباريسي كان عظيما، و"روسو" الجنيفي كان احمق، و"روسو" التولوزي كان هباءا".

ولقد اثار قول السيد "دي لامارتنيير" فُضُولي، فقرات مؤلفات ذلك الذي شغلت غرفته. وإزاء المجاملة التي وجهت إلي، واعتقادا مني بانني أوتيت موهبة الشعر، نظمت اغنية في مدح السيدة "دي بوناك"، كمحاولة أولى، على ان هذه النزوة لم يطل امدها.. ولقد اعتدت ان انظم الشعر جزافا -بين وقت وآخر- فهو مِرَانٌ لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات، ولتحسين الاسلوب النثري، ولكني لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لان تجعلني انفرغ له!

ورغب السيد "دي لامارتنيير" في ان يرى اسلوبي، فسالني ان اكتبَ عين القصة التي رويتها للسيد السفير، فكتبت له رسالة طويلة -سمعت انها الآن في حَوْزَة السيد "دي مارتان"، الذي ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة في عهد المركيز "دي بوناك"، والذي خَلَفَ السيد "دي لامارتنيير" في عهد تولي السيد "دي كورتي" السفارة! -ولقد رجوتُ السيد "دي مالشيرب" ان يَسْعَى للحصول لي على نسخة من هذه الرسالة.. وإذا قدر لي ان اظفر بها بوساطته، او بوساطة سواه فسوف توجد في المجموعة التي ستلحق باعترافاتي.

واخذت الخبرة التي بدات أحْظَى بها تخفف من جموح مشروعاتي الخيالية شيئا فشيئا. فلم اقتصرْ -مثلا- على عدم الوقوع في هوى السيدة "دي بوناك" فحسب، بل إنني رايت لتوي انني لن اجد مجالا كبيرا للرقي في دار زوجها، إذ كان السيد "دي لامارتنيير" راسخا في منصبه، وكان السيد "دي ماريان" متربصا لِيَخْلُفهُ، مما كان لا يدع لي مجالا للامل -مهما يكن الحظ- في اكثر من منصب مساعد السكرتير الذي لم يكن يستهويني كثيرا! ومن ثم فإنني حين استُشرتُ فيما يطلب ان افعل ابديت رغبة شديدة في الذهاب إلى "باريس". واستساغ السيد السفيرُ هذا الراي الذي بدا خليقاً بان يخلصه مني على الأقل!.. وقال السيد "ديمرفييه"، السكرتير المترجم للسفارة إن صديقه السيد "جودار" -وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل، في خدمة فرنسا- كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن اخيه، الذي التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن؛ ومن ثم فقد رأى انني خليق بان اروق له. وبناء على هذه الفكرة، التي قُبِلَت في تَسَرُّع، تقرر سفري.. فطار قلبي فرحا، إذ رايت امامي رحلة تنتهي بي إلى "باريس"!.. ومنحوني بعض خطابات للتوصية، ومائة فرنك للإنفاق على الرحلة، تصحبها نصائح طيبة.. ثم رحلت!

وقضيت في هذه الرحلة خمسة عشر يوما، اعدها بين الايام السعيدة في حياتي. وكنت شابا، موفور الصحة، وكان معي مال كاف، وآمال وافرة، وقد انطلقتُ في الرحلة على قدمي. وكنت اسافر وحيدا، وقد يُعجَبُ المرء -إن لم يكن قد الَمْ بطباعي- إذ يراني اعتبر ذلك ميزة، فقد كانت تصوراتي الناعمة تؤنسني، ولم يكن بوسع الواقع ان يتمخض عن اروع من هذه التصورات التي كان يُوحِي إليّ بها خيالي المتاجج.. وهكذا كنت إذا عرض علي امرؤ مجلسا في عربة، او اقترب مني شخص في الطريق، اعبس خشية ان يهدم الصرح الذي كنت ابنيه في خيالي اثناء سيري!.. على ان افكاري كانت في هذه المرة "عسكرية" صرفة، فقد كنت موشكا ان اكونَ مرافقا لرجل عسكري، وان اصبح عسكريا انا الآخر، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكي التحق بالمدرسة العسكرية. ورحت اتمثل نفسي في زي ضابط، وقد حَمَلْتُ ريشة بيضاء بديعة، فَأَنْعِمَ قلبي بهذه الفكرة الرفيعة. وكانت لدي بعض معلومات باهتة عن هندسة التحصينات، فقد

كان خالي مهندساً؛ ومن ثم فقد اعتبرتُ نفسي -بطريقة ما- عسكرياً بالفطرة!.. وكان قِصَرُ نظري عقبة ولكنها عقبة لم تُزْعِجْني، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة. وكنت قد قرأت أن الماريشال "شومبيرج" كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال "روسو" على شاكلته؟.. وهكذا رحت اندفأ على حرارة هذه الأوهام حتى إنني لم أعد أرى سوى فرق من الجند، ومتاريس، وسلالَ الطُّوابي (١)، والمدفعيات، وشخصي وَسْطَ النار والدخان، أُصدر الأوامر في هدوء، وأنا أمسك بمنظار الميدان في يدي!.. ومع ذلك فإنني عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة كنت أرى الأدغال والجداول؛ فيجعلني هذا المنظر الفتان أتنهد حَسْرَةً، وأشعر في غَمْرةِ ابتهاجي بالمجد أن قلبي لم يُخْلَق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما كنت أتمثل نفسي وسط خرافي الحبيبة -دون أن أدري كيف انتقلت إليها- نابذاً إلى الأبد أعمال مارس(٢)!

كم كَذَّبتْ مَشَارِفُ "باريس" الفكرة التي كانت لديّ عنها!.. كانت المناظر التي رأيتها تزين ظاهرَ مدينة "تورين"، وجمال طرقاتها، وتناسق صفوف بيوتها قد جعلتني أطمعُ في مزيد من ذلك كله في "باريس"، فكنتُ أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع، وقد أوتيت أبهى حسن.. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة، وقصور من مَرْمَر وذهب!.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية "سان مارسو" لم أر سوى شوارع صغيرة قَذِرَة قميئة، وبيوت بشعة سوداء، وجو من الدنس والفقر، ومتسولين، وحوذيين، وتجار للثياب القديمة، ومُنَادِيَن يُعلنون عن العلاج بالبركة وعن القبعات القديمة!.. كل هذا صدمني منذ البداية، إلى درجة أن كُلَّ العظمة الحقيقية التي رأيتها في "باريس" -بعد ذلك- لم تَقْوَ على أن تقضي على هذا الأثر الأول؛ ومن ثم ظللت أكن دائماً نُفُوراً خفياً من الإقامة في هذه العاصمة!.. وأستطيع أن أقول: إن المدة التي عشتها فيها -بعد ذلك- لم تَشْغل بأكملها إلا في السعي وراء موارد تمكنني من العيش بعيداً عنها!

هكذا تكون ثِمَارُ الخيال البالغ النَّشاط، الذي يَتَمَادَى إلى ما وراء مبالغات البشر، والذي يطمع دائماً في أن يرى أكثر مما يقال له!.. فكم امتدحت لي "باريس"، حتى إنني صَوَّرْتُها لنفسي على غرار "بابل" القديمة، التي كان من المحتمل -لو قُدِّر لي أن أزورها- أن أجدَ فيها الكثير الذي لا يتفق مع الصورة التي أكون قد رسمتها لها في خيالي!.. ولقد حدث لي الشيء نفسه عندما زرت دار "الأوبرا"، التي سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذي أعقب وصولي.. ثم وقع لي الشيء ذَاتُه -فيما بعد- عندما زرت "فرساي"، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى. ولسوف يظل الأمر ذاته يراودني كلما رأيت شيئاً أكون قد سمعت عنه إطناباً بالغاً.. ذلك لأنه من المستحيل على البشر، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالي!

وخيل إلي -من الطريقة التي استقبلني بها كل أولئك الذين حملتُ إليهم رسائل التوصية -أن حظي قد اكتمل، وكان الشخص الذي تلقى أكبر قسط من التوصية، والذي استقبلني بأقل قسط من الحفاوة هو السيد "دي سوربك" الذي كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفاً في ضاحية "بانيو"، حيث زُرْتُهُ مراراً، وحيث لم يقدم لي كوب ماء قط!.. ولقد حَظِيتُ باستقبال أوفر من مدام "دي مرفيبه" -زوجة أخ المترجم- ومن ابنهما، وكان ضابطاً في الحرس. فإن الأم وابنها لم يتلقياني في حفاوة فحسب، بل إنهما

---

(١) أداة اسطوانية الشكل، مفتوحة الطرفين، كانت تملأ تراباً ويستعان بها في بناء الحصون، في ذلك العهد. (٢) آلة الحرب

دَعَواني إلى مائدتهما، فاستغللت هذه الدعوة مرارا اثناء إقامتي في "باريس". ولاح لي ان مدام "دي مرفييه" كانت حسناء يوما ما، فقد كان شعرها مايزال ذا سواد بديع، وكانت تنسقه في حلقات على جبينها، وفقا للنمط القديم. وكانت محتفظة بما لا يخبو حين تَخْبُو المفاتن الشخصية.. واعني بذلك: عَقْلاً لا باس به. وقد بدا انها استساغت فكري، واخذت تبذل كل ما في وسعها لمساعدتي، ولكن احدا لم يؤازرها.. ومالبثت ان تبينتُ بجلاء الاهتمام العظيم الذي تولاها نَحْوي. على ان من واجبي إنصاف الفرنسيين، فإنهم لا يغالون في الاحتجاجات -كما يقال- بل إن ما يُبدونه منها يكون صادقاً على الدوام. على ان لهم في التظاهر بالاهتمام بك اسلوبا اكثر خِداعاً من زخرف القول! اما المجاملات الضُخْمَة المأثورة عن السويسريين، فلا تجوزُ إلا على الحمقى! إن طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا انها بالغة البساطة.. وقد يلوح انهم لا يقولون لك كل ما يودون ان يفعلوه، لكي يستطيعوا ان يُقدموا لك مفاجآت مستحبة. بل إنني لاذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين في مظاهرهم، فهم بطبيعتهم بَشُوشُون، عطوفون، محبون للخير.. بل إنهم -مهما يقال- اكثرُ صدقا في عواطفهم من ابناء اية امة اخرى.. بيد انهم نَزِقُونَ، سريعو الملل والتقلب. إنهم يشعرون في الواقع بالعواطف التي يُبدونها لك، ولكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت.. وهم حين يحدثونك يتصرفون إليك بجماع انفسهم، ولكنهم ينسونك بمجرد ان تغيب عن ابصارهم.. فلا دَوَامَ لشيء في قلوبهم، بل ان كل شيء لديهم ابن لحظته!

ومن ثم فقد حَظيتُ بكثير من المجاملات وقليل من النفع.. وظهر ان ذلك الكولونيل "جودار" -الذي أوفدتُ لابن اخيه- كان شيخا وغدا شحيحا، ما إن راى ما كنت فيه من محنة حتى طمع في ان يظفر بخدماتي دون مقابل، برغم انه كان يتقلب في الذهب!.. فلقد ارادني على ان اكون لابن اخيه بمثابة وصيف بدون اجر، اكثر مني رائدا ومربيا حقيقيا! ولما كنت مرافقا إياه باستمرار، ومعفى من الخدمة لذلك، فقد كان لزاما ان اعيش على مرتبي كطالب عسكري - او بالأحرى كجندي - وكاد التُعسُ لا يوافق على منحي حلة عسكرية، إذ كان يريد ان اقنع بحلة الخدَمة التي تقدمها الكتيبة للجندي العادي. ولقد حالت مدام "دي مرفييه" نفسها بيني وبين قبول هذه المقترحات، إذ استنكرتْها.. وكذلك ابدى إبنها عين الشعور. ودار البَحْثُ عن عمل آخر لي، فلم يُسْفِرُ عن شيء. وبدات في تلك الأثناء احس بحاجة ماسة إلى المال، فما كانت الفرنكات المائة التي انفقت منها على رحلتي لتكفيني فترة اطول، على انّني - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيد السفير مِنْحَة صغيرة اخرى. كانت عظيمة النفع لي. واعتقد انّه ما كان ليتخلى عني لو انّني كنت قد أوتيتُ مزيداً من الصبر، ولكن التقاعس، والإنتظار، والإسترحام امور مستحيلة بالنسبة لي.. فانصرفت عن هذه الأسرة ولم اعد اتردد عليها !

ولم اكن قد نسيت "ماما" المسكينة، ولكن كيف كان لي ان اعثر عليها ؟ اين كان لي ان أبحثَ عنها؟... وكانت "مدام دي مرفييه" - التي عرفت قصتي - قد ساعدتني في هذا البحث فترة طويلة، دون جَدْوَىَ... واخيراً، علمت انّ مدام "دي فاران" قد غَادَرتْ "باريس" منذ شهرين، ولكن احداً لم يدر هل ذهبت إلى "سافوي" ام إلى "تورين"، بل إنّ بعض الناس قالوا إنّها عادت إلى "سويسرا". وما كنت بحاجة إلى ان أضيّعَ وقتاً في عقد العزم على الإنطلاق في اثرها، وانا واثق بانّ البحث عنها - اياً كان

مكانها - سيكون في الاقاليم ايسر من كل ما قدر لي ان اقوم به في "باريس" !

وقبل ان ارحل مَارَسْتُ براعتي الشعرية الجديدة في رسالة إلى الكولونيل "جـودار"، نلتُ منه فيها باقصى ما استطعت ! ولقد عرضت هذا الهذيان على مَدام "دي مرفيـيـه"، فبدلاً من ان تلومني - كما كان ينبغي ان تفعل - ضحكت كثيراً من سخرياتي، و كذلك فعل إبنها الذي لم يكن يحب السيد "جـودار"، على ما اعتقد - وخليق بي ان اعترف بانّه لم يكن اهلاً للحب ! - وهكذا الفيتني مَيّالاً إلى إرسال القصيدة إليه، بعد ان وجدتُ تشجيعاً على ذلك، فحَزَمْتُ الصفحات، وكتبت عليها عنوانه. وإذ لم يكن في باريس خدمة داخلية للبريد - يومئذ - فقد وضعت الخطاب في جيبي، وارسلته من "اوكسير" عندما مررت بها. ومازلت اضحك احياناً عندما أفكّرُ في الإمتعاضات التي لا بد ان يكون الكولونيل قد ابداها وهو يقرا هذه القصيدة التي وصفته ادق وصف، والتي بدات هكذا :

"اظننتَ ايها الكَهْلُ الآثم. ان نزوة حمقاء تُوحي إلي بالشوق إلى تربية ابن اخيك ؟" !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة في الواقع، بيد انّها لم تكن تفْتَقِرُ إلى الطلاوة، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن "الهجاء" .. على انّها كانت الهجو الوحيد الذي انساب من قلمي، فإنّ قلبي لم يَخْوِ من الخبث ما يمكنني من استغلال مَوْهبة كهذه، وإن كنت ارى انّ المرء يَستطيع ان يحكم - من بعض المجادلات القلمية التي اكتبها من وقت إلى آخر دفاعاً عن نفسي - انّني لو كنت قد اوتيت رُوْح الصراع لعز على من يهاجمونني ان يضحكوا عَقِبَ النزال !

إنّ أكثَرَ ما آسف عليه من تفصيلات حياتي التي قدر لها ان تضيع من ذاكرتي، هو انّني لم اكتب يوميات عن اسفاري. فما قُدِّرَ لي قط ان اكون اكثر تفكيراً، واكثر استْمْراءاً لوجودي وحياتي، واكثر قرباً من حقيقتي - إذ جاز لي ان اقول هذا - مما كنت في تلك الرحلات التي كنت اقوم بها سَيْراً على قدمي، ففي المشي شيء ينعش نشاطي ويسمو بافكاري. وانا لا اكاد افكر عندما اكون ساكناً، لا بُدَّ لجسمي من ان يكون في حركة حتى يَتَحرَّك عقلي. إنّ رؤية الريف، وتتابع المناظر الممتعة، والخلاء، والشهية المتفتحة والصحة الطيبة اللذين اكتسبهما بالمشي. والحياة الحرة في الفنادق الريفية... وغيابُ كل ما يجعلني أحسُّ بانّني عالة على غيري، وكل ما يذكرني بمركَزي، وكل ما يفكرني بحَالي... كل هذا يطلق روحي من عقَالها، ويمنحني جُرأة بالغة في التفكير، ويلقي بي - كما ينبغي ان يقَال - في بحار الكائنات الشاسعة لكي اجمعها وافرزها وانسقها كما يحلو لي، دون ما حرج او خوف !... كنت اتصرف في الطبيعة باسرها، وكانّني المسيطر عليها.. فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يَتّحدُ مع تلك الاشياء التي تَروقُ له ويميزها عن سواها، ويحيط نفسه برؤىً فاتنة، وينتشي باحاسيس عذبة. وإذا كنت - في سبيل تسجيل هذه الاحاسيس وإثباتها - أسْتعْذِبُ وصفها في نفسي، فاية خُطوط قوية، واية الْوان بهيجة، واية تعبيرَات متالقة اضيفها عليها!.. وقد يقَال : إنّ هذه كلها قد وجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كتبت في سني افولي... آه ! ليت احداً قد راى ما كتبت في صدر شبابي وما أَلّفْتُ في رحلاتي، وما انشات من افكار لم اكتبها إطلاقا!.. وقد تقولون: لماذا لم تكتبها؟.. واجيب انا: ولماذا اكتبها؟.. لماذا احرم نفسي السحر الواقعي للّذةَ، لكي اقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة؟.. وفيم يعنيني القراء، والجمهور،

والأرض باسرها مادمت أحلّق في السماء؟.. ثم، افتراني كنت احمل -في رحلاتي- ورقا وأقلاما؟.. لو انني كنت قد فكرت في كل هذا لما وافاني شيء مما كان جديرا بالتسجيل.. إنني لم اكن اتنبأ بموعد الافكار، وإنما كانت تُوَاتيني عندما تشاء هي وليس حين اشاء انا!.. وكانت تمتنع عن موافاتي، او تاتي زرافات فتطغى علي بقوتها وعددها.. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها! من اين لي الوقت الذي أكتبها فيه؟.. كنت إذا بلغت بلدا لا افكر إلا في غداء شهي. وإذا بارحت بلدا لا افكر إلا في سير سريع، فقد كنت احس بان ثمة نعيما جديدا على الأبواب، فلا افكر إلا في السعي إليه!

وما شَعَرتُ بكل هذا يوما قدر ما شعرت في رحلة العودة التي اتحدثُ عنها.. ففي طريقي إلى "باريس"، كانت خواطري محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك؛ إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت انها كانت تنبسط امامي، والتي كنتُ خَلِيقًا بان اخُوضَهَا بكثير من الفخر ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعاني قلبي إليها، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال.. كان الكولونيل "جودار" وابن اخيه لا يَتَّسِقَان مع بطل مثلي. اما الآن فقد تخلصت من هذه العقبات بفضل السماء، واصبح في مقدوري ان أغوصَ وفق هواي في عالم الأوهام إذ لم يبق امامي سوى هذا العالم!.. ولقد همت فيه تماما حتى إنني ضللت طريقي عدة مرات فعلا، ولكني كنت خليقا بان اغتم لو انني سلكت طريقا اكثر اتجاها إلى مقصدي. ذلك لانني توهمت انني لن البث ان اجد نفسي على الأرض من جديد، لدى وصولي إلى "ليون" فَوَدِدتُ الا ابلغها ابدا!

وفي يوم من الأيام انحرفت عن طريقي عمدا! لاتأمل عن كثب مكانا تراءى لي جديرا بالإعجاب. وبلغ من ابتهاجي به اني اكثرت من الدوران حوله، حتى ضللت تماما في النهاية.. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى، وقد انهكني التعب وبرح الجوع والعطش، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ولكنها كانت الوحيدة التي رايتها فيما حولي. وكنت إِخَالُ ان الأمر كما في "جنيف" او في "سويسرا" عموما، حيث يَخِفُّ جميع السكان الميسوري الحال إلى إظهار كرمهم. وسالت هذا الفلاح أن يمنحني ما اتناوله غداء، عارضا عليه ان ادفع الثمن. فقدم لي لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن، قائلا: إن ذلك كان كل ما لديه. فشربت اللبن جذلا، واكلت الخبز، بقشه و"ردته"! بيد ان هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل انهكه التعب.. وادرك الفلاح -الذي تفرس في عن كثب- صِدْق قصتي بما تجلى له من شهيتي، فصارحني بعد ذلك فورا بانه استطاع ان يتبين انني كنت شابا طيبا وامينا (١)، وانني لم آت كي ابتز منه مالا.. ثم فتح باب مخزن صغير -بالقرب من المطبخ- وهبط منه، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمَّص، وقطعة شهية من لحم مُقَدَّد، وإن توخى التقتير في حجمها، وزجاجة شراب انعش مرآها فؤادي اكثر من كل ما عداها!.. واضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجَّة، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابرُ سبيل!..

وعندما حان وقت الدفع عاود الرجل قلقه وخوفه، فأبى ان ياخذ شيئا من نقودي، ورفضها في انزعاج غير عادي. والطريف في الأمر انني لم استطع ان اتصور ما كان يخيفه. واخيرا، اطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف: "محصلو العوائد" و"جرذان القبو" (٢)!.. وافهمني انه كان يُخَبِّئ شرابه بسبب العوائد، وكان يخفي خبزه بسبب الضرائب "العشور"، وانه يغدو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء في انه لم يكن يَتَضَوَّرُ جوعا!.. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع -الذي لم تكن لدي

---

(١) من الجلي ان ملامحي -في ذلك العهد- لم تكن قد شابهت بعد الملامح التي رسمت في صوري بعد ذلك. (٢) "جرذان القبو" لقب كان يطلق في ذلك العهد على مندوبي الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويقدرون ما ينبغي عليه ان يدفع من مكوس وخراج.

اتفه فكرة عنه- اثرا لن يمحى، كان بمثابة "بذرة" الكراهية التي لا تَخْبُو، والتي راحت تذكو في قلبي -منذ ذلك الحين- ضد المظالم التي كانت تحيق بالشعب التعس، وضد الطُّغاة. كان هذا الرجل لا يجرؤ -برغم يسر حاله- على ان يأكل الخبز الذي كسبه بعرق جبينه، ولم يكن يملك ان يتفادى خرابه إلا بان يبدي نفس الشقاء الذي كان يسيطرُ على من حوله!.. وغادرت داره وانا مُوزعٌ بين السخط والتأثر، ارثي لحظ تلك البلدان الجميلة التي لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لمحصِّلي الضرائب المتوحشين!

هذه هي الذكرى الواضحة الوحيدة التي تبقت لي من كل ما حدث خلال تلك الرحلة. ولست اذكر إلى جوارها سوى انني حين اقتربت من "ليون" شَعَرْتُ بميل إلى ان اطيل طريقي كي اسعى إلى مشاهدة ضفاف "الليـنيون"، فقد كان بين القَصَص التي قرأتها مع ابي، قصة لم انسها، بل كثيرا ما عادَتْ إلى ذاكرتي.. تلك هي "أستريه" (١)!.. فسألتُ عن الطريق إلى "فوريز". وبينما كنت أتجاذبُ أطراف الحديث مع صاحبة احد الفنادق علمت ان تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال، وان فيها كثيرا من المسابك، وان القوم يُجيدُونَ صناعة الحديد. فهدا هذا القول من جموح خيالي في الحال؛ إذ ادركت ان من غير الملائم ان اسعى للبحث عن امثال "ديانا" و"سيلفاندر" (٢) بين قوم من الحدادين!.. ولابد ان المراةَ الطيِّبةَ -التي شجعتني على هذا النحو- ظنَّتني صانع اقفال مرتزق!

ولم يكن ذهابي إلى "ليون" دون ما غرض على الإطلاق، فما إن وصلت إليها حتى سعيْتُ إلى جهة "شاسوت" لزيارة الآنسة "دي شاتيليه"، صديقة مدام "دي فاران" التي كانت قد اعطتني رسالة لها عندما ذَهَبْتُ مع السيد "لوميتر".. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا. وانبأتني الآنسة "دي شاتيليه" بانَ صديقَتها "مدام دي فاران" كانت قد مرت -فعلا- بـ"ليون"، ولكنها تجهَلُ ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى "بيمونت".. بل إنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت سَتُعَرجُ على "سافوا" أم لا.. واضافت الآنسة انها على استعداد لان تكتب في طلب الأنباء، إذا شئت، وان خير ما ينبغي ان افعله هو ان انتظر في "ليون". وتقبَّلتُ الاقتراح، ولكني لم أجرؤ على ان اقول للآنسة "دي شاتيليه" إنني كنت مَلْهُوفا على الجواب المرتقب، وإن كيسي الصغير الناضب لم يكن يتيح لي الانتظار طويلا! ولم يكن ما صدني عن المصارحة انها اساءت استقبالي، فهي -على النقيض- قد ابدت لي كثيرا من المجاملات، وعاملتني في مساواة جردتني من الجراة على ان أخْفِي عنها حالي، وان اهبط من مكانة الزميلِ المقبول، إلى مكانة المستجدي التعس!

ومع انني التزم تسلسل الحوادث التي اوردتها في هذا الكتاب فإنني اعود بالذاكرة إلى رحلة اخرى إلى "ليون" قمت بها في عين تلك الفترة، وإن لم يكن بوسعي ان احدد زمانها بالضبط، وقد وجدت نفسي خلالها في ضَائقة شديدة. وثمة حادث صغير -من العسير ان أرويه- لا يُتيحُ لي قط ان انساه: فقد كنت ذات مساء اجلس في "بيلكور"، بعد عشاء جد خفيف، افكر في وسيلة انتزع بها نفسي من ضيقي، وإذا برجل له مظهر اولئك المشتغلين بالحرير، الذين يدعون في "ليون" باسم "القمَّاشين".

ووجه إلي الخطاب، فرددت عليه. ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة حتى عرض علي -بنفس الهدوء الذي كان يلازمه، وبدون اي تغير في لهجته- ان نَلْهُوَ معا في الريف. وانتظرت ان يبين نوع اللهو، ولكنه شرع -دون ان ينبس بكلمة اخرى- يصور لي مثلا لهذا اللهو (٣). وكنا

---

(١) قصة عن غرام الرعاة للروائي "اونوريه دورفيه" (١٥٦٨-١٦٢٥). (٢) عاشقان من الآلهة يرد ذكرهما في قصة "استريه". (٣) يبدو ان هذه الرذيلة هي الاستمناء، او "العادة السرية".

متلاصقين تقريبا، ولم تَشْتَدْ ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذي تهيأ له. ولم يكن له مطمع في شخصي، فما من شيء نَمَّ -على الأقل- عن هذا القصد، كما ان المكان لم يكن ملائما لذلك.. فهو لم يكن يبغي -كما قال لي- سوى ان يلهو، والهو انا الآخر، كل منا على حدة. وقد بدا له هذا امرا بسيطا، حتى إنه لم يَخْطُرْ بباله انني قد لا انظر إلى الامر نظرته!.. ولقد جزعت لهذه القحَّة، حتى إنني نهضت مسرعا -دون ان ارد عليه- وهربت باقصى ما اسعفتني ساقاي، وانا اتوهم ان ذلك الشقي كان في اثري! وكنت من الاضطراب بحيث إنني بدلا من ان اقصد إلى مأواي عن طريق "سان دومينيك"، انطلقْتُ اعدو بجوار ارصفة الميناء، فلم اقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي، وانا أرْتجفُ وكانني عَائدٌ لتوي بعد ارتكاب جريمة!.. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل، ولكن هذا الحادث ابراني منها زمنا طويلا!

وقد صَادفْتُ -في اثناء الرحلة الثانية- مُغَامرة من نفس النوع تقريبا، ولكنها عرضتني لخطر عظيم. وإليك قصتها: كنت قد احسست بان مواردي اوشكت ان تَنْضُبَ؛ فاخذت اقتصد في إنفاق المبلغ الضئيل المتبقي، بحيث اصبحت لا اتناولُ وجباتي في فندق إلا لماما.. ثم لم اعد اتناول منها شيئا هناك على الإطلاق، إذ كان بوسعي ان احظى في المشرب، لقاء خمسة او ستة "صو"، بشبع يفوق ما كنت احظى به في الفندق لقاء ستة وعشرين!.. وإذ لم اعد اتناول طعامي في الفندق، لم ادر كيف كان لي ان اظل أبيتُ هناك، إذ إنني خجلت من ان اشغل حجرة دون ان اتيح لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح. وكان الفصل بديع الجو، لكن الحر اشتد في إحدى الامسيات، فقررت ان اقْضي الليل في الميدان العام. وما إن استلقيت على مقعد عريض هناك، حتى مر راهب، فرآني نائما على هذا النحو، وإذ ذاك اقترب فسالني عما إذا لم يكن لي ماوى، وافضيت إليه بحالي، فبدا عليه التاثر، وجلس إلى جواري، واخذنا نتجاذب اطراف الحديث. وكان حديثه مناسبا، إذ كان كل ما قاله يُوحي إلي بخير فكرة عن الناس. ولما رآني انِسْتُ إليه قال لي: إنه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا، بل كان مسكنه يتالف من حجرة واحدة، ولكنه ما كان -يقينا- ليدعني انام في الميدان العام. ولما كان الوقت متاخرا، ولا سبيل إلى البحث عن مَأْوىً لي، فقد عرض علي نصف سريره في تلك الليلة. وقبلت العرض، وقد خالجني الامل في ان اكون قد عثرت على صديق قد يستطيع ان يكون ذا نَفْعٍ لي. وذهبنا إلى مسكنه، فاشعل ضوءا تراءت حجرته لي على هديه مناسبة، برغم صغرها، واخذ مضيفي يكرمني في ادب جم، ثم اخرج من وعاء زجاجي بعض الكريز الذي كان منقوعا في الشراب.. فاكل كل منا اثنتين، ثم اوينا إلى السرير.

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودي الذي كان في دار الضيافة بالدير. ولكنه لم يبدها بمثل وحشية ذاك، إما لانه ادرك ان بوسعي ان اصل بصوتي إلى الاسماع، فخشي ان يضطرني إلى الدفاع عن نفسي.. وإما لانه كان في الواقع ضَعيف الثبْت من خططه، فلم يجرؤ على ان يقترح بصراحة تحقيقها، وإنما حاول اسْتثَارةَ انفعالاتي دون ان يستثير شكوكي! ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى، فإنني ادركت سراعا مقصده، فارتجفت.. ولم اكن اعرف في اي منزل ولا بين اي يَدَيْن كنت، فخشيت ان ادفع حياتي ثمنا لاية ضجة احدثها!.. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه مني، ولكني ابديت استياء شديدا من ملاطفاته، وإذ عَقَدْتُ العزم على الا اتقبل اي تماد منه فقد تصرفت بحيث اضطرته إلى ان يكبح نفسه. ثم تحدثت إليه بكل ما أُوتيتُ من لطف وحزم..

وبدون إبداء أي ارتياب في شيء، اعتذرتُ له بتجربتي السابقة عن القلق الذي ابديته نحوه، ورحت ابالغ في رواية تلك التجربة بعبارات مُفْعَمَة بالاستياء والاشمئزاز، بحيث اثرتُ اشمئزازه -على ما اعتقد- ومن ثم عدل عن غايته القذرة تماما.. فقضينا ما تبقى من الليل في هدوء. بل إنه ذكر لي كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة، فما كان -بالتأكيد- خلوا من الميزات، برغم انه كان وغدا كبيرا!

وفي الصباح لم يشأ السيد الراهب ان يَبْدُوَ مستاء، فتحدث عن تناول الإفطار، وسأل إحدى ابنتي صاحبة الدار -وكانت جميلة- ان تُحضِرَ لنا فطورا، فقالت له: ان لا وقت لديها لذلك. ووجه الرجاء إلى اختها، فلم تتفضل عليه بردا.. وظللنا ننتظر، ولا اثر لفطور!.. واخيرا انتقلنا إلى حجرة الآنستين، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لي ان أطْمَعَ في استقبال افضل: فإن كبرى الفتاتين دَاسَتْ -وهي تستدير- طرف قدمي بكعب حذائها المدبب وكانت في قدمي بثرة (كالثلو) شديد الإيلام -اضطرتني من قبل إلى ان اقطع طرف حذائي- اما الفتاة الاخرى فقد جَذَبَتْ من خلفي فجأة مقعدا كنت اهم بالجلوس عليه.. بينما كانت امهما تُلْقِي من النافذة بعض الماء الذي اغرق وجهي!.. وعلاوة على ذلك كن، اينما جلست، يقصينني للبحث عن شيء ما!.. ابدا لم الق في حياتي مثل هذه "الجفاوة"!.. وكنت ارى في نظراتهن المهينة الساخرة سُخْطًا مكتوما، كنت من الغباء بحيث لم افقهه. وفي ذهولي ودهشتي، اوشكت ان إخَالُ ان الشيطان قد استولى عليهن جميعا، فبدأت اشعر بجزع شديد. وفي تلك الاثناء، ادرك الراهب -الذي كان يتظاهر بانه لم يكن يرى او يسمع- ان لا امل في فُطُور، فقرر مبارحة الدار.. واسرعت خلفه وانا مغتبط بالإفلات من الشيطانات الثلاث!

وفي اثناء سَيْرِنا عرض علي ان نَذْهَبَ فنفطر في مقهى. وعلى الرغم من انني كنت شديد الجوع، إلا انني لم اقبل هذه الدعوة التي لم يُصِر عليها بعد ذلك، ومن ثم افترقنا بعد ان اجتزنا ثَلاَثَة شوارع او اربعة. اما انا فقد كنت مبتهجا إذ غاب عني مَنْظَرُ كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة.. واما هو فكان مرتاحا -فيما اعتقد- إذ ابتعد بي عنها حتى لا يسهل علي ان اعرفها.. وإذ لم تكن قد عرضت لي من قبل امثال هاتين المغامرتين، سواء في "باريس" او سواها، فإنهما لم تخلفا في نفسي اثرا طيبا عن اهل "ليون"، بل ظللت دائما اعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوروبية التي يسودها أَفْظَعُ فساد!

ولا تساعد الظروف التي انحدرت إليها في تلك المدينة على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة. ولو كنت قد خُلِقْتُ على غِرَارِ سواي: لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض، او ان اكون مدينا لفندقي لسهل علي ان انتزع نفسي من الحرج ولكن مقدرتي على هذا الامر كانت تعادل نُفُوري منه؛ ولكي تتصوروا إلى اي مدى بلغ عجزي ونفوري يكفي ان تعرفوا انني بعد ان قضيت حياتي كلها -تقريبا- في الفاقة، وكنت اوشك في كثير من الاحيان على الا اجد القُوت،لم اتلق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا اجبتها في اللَّحْظَة عينها. وما عَرَفْتُ الطريق إلى القروض قط بل كنت دائما اوثر العَنَاءَ على الديون المالية!

ولقد كان من العذاب حقا ان اهبط إلى درك قضاء الليل في الشارع، الأمر الذي حدث لي مرارا في "ليون"، فلقد آثرتُ ان استغل الدراهم القليلة التي بقيت لي في دفع ثمن خُبْزِي بدلا من دفع اجرِ ماواي.. فقد كان خطرُ النوم في العراء اقل من خطر الموت جوعا!.. والعجيب في الامر انني لم اكن -في تلك الظروف القاسية- قلقا ولا حزينا! لم يكن لدي ادنى قلق بصدد المستقبل، بل رُحْتُ انتظر -مطمئنا- الرد الذي كان لابد ان تتلقاه الآنسة "دي شاتليه".. وكنت انام في العَرَاءِ،

مستلقيا على الأرض، او على مقعد عريض، مستغرقا في النُعاس وكانني في سرير من الورود!..
واذكر -بوجه خاص- انني انفقت ليلة ممتعة خارج المدينة، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر "الرون" او "الساؤن" -فلست اذكر اي النهرين كان!- وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق اقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض. وكان الحر قائظا في نهار ذلك اليوم، ولكن الليل كان بديعا، وقد روى النُدى الأعشاب الظامئة.. ولم تكن ثمة ريح إذ كانت الليلة ساكنة، وكان النسيم رقيقا، خلوا من الرطوبة.. وقد خلفت الشمس وراءها -بعد الغروب- ابخرة حمراء في السماء، احال أنعكاسُهَا الماء إلى لون الورد!.. وكانت اشجار الحدائق العالية عَامرة بالبلاّبل التي راحت تتجاوَبُ بالشدو، واخذت اتمشى في نشوة مسلما حواسي وفؤادي لهذه المتعة الضُافية، فلم تداخلني سوى حسرة -تمثلت في زفرة- لانني كنت مضطرا إلى استمرار هذه المتعة وحدي.. واصلت السير إلى ساعة متاخرة من الليل، وانا مُستَغرقٌ في تاملاتي الناعمة، دون ان افطن إلى ان التعب قد ادركني.. ولكني انتبهت إلى ذلك اخيرا، فالقيت بنفسي -في اغتباط- على قاعدة "كوة" او باب زائف نحت في جدار سياج الحدائق، وقد تَعانَقَتْ الأفنان مؤلفة شبه "سقف" فوق سريري.. كما جثم بلبل فوق راسي مباشرة، وراح يغرد لي.. حتى نِمتُ.

وكان نُعاسي لطيفا، كما كان استيقاظي الطف.. فقد كان الصباح رائعا، ووقعت عيناي -حين فتحتهما- على الماء والخضرة، وريف بديع!.. ونهضت من مرقدي، فَتمطَّيْتُ، وإذ شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة، وقد عقدت العزم على ان انفق على فطوري القطعتين الفضيتين اللتين بقيتا من نقودي!.. وكم كنت مبتهجا، حتى إنني اخذت اردد إحدى اغاني "باتيستان" التي كنت احفظها عن ظهر قلب، كان عنوانها: "حمام ثوميري".. الا فَلْتُبارِكُ السماء "باتيستان" الطيب واغنيته، فقد اتاحا لي فطورا افضل مما كنت أنتوي، وغداء اكثر إمتاعا -وهما وجبتان لم تكونا في الحسبان قط!- فبينما كنت سائرا اغني -على خير حال- سمعت شخصا خلفي، فالتفت، وإذا باحد "الأنطونيين" يَتبُعني، وقد لاح انه كان ينصت إلى غنائي في طرب. وبادرني بالحديث، فحيُاني، وسالني عما إذا كنت على إلمام بالموسيقى، فاجبت: "بعض الشيء"، بلهجة توحي إليه بانني كنت أعرف الكثير.. وتابع سؤالي، فرويت له شطرا من قصة حياتي، وإذ ذاك سالني عما إذا لم يكن قد سبق لي ان نسخت "نوتات" موسيقية، فقلت له: "كثيرا" -وكان هذا صدقا، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ- فقال: "حسنا! تعال معي، ففي وسعي ان اشغلك بضعة ايام، لن يعوزك خلالها شيء.. على شريطة الا تغادر الحجرة قطا".. ووافقت عن طيب خاطر، فتبعته!

وكان هذا الأنطواني يدعى السيد "رولِيشون"، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغني في الحفلات الصغيرة التي كان يقيمها مع اصدقائه. ولم يكن في هذا سوى كل ما هو بريء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر -كما اتضح لي- إلى تَهَوُس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشيء!.. وقادني إلى حجرة صغيرة نزلت بها، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التي نقلها هو، كما اعطاني سواها لكي انقلها، وكانت من بينها الأغنية التي كنت ارددها، والتي كان مُزْمعا ان يغنيها بعد ايام.. وقضيت وقت الطعام -فما كنت في اي يوم من ايام حياتي اكثر شهية ولا افضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام!- وكان الرجل يحمل الطعام إلي بنفسه من المطبخ، ولابد ان طعام القوم كان طيبا شهيا، إذا صح ان ما كان يقدم لي كان من طعامهم العادي!.. ولقد كنت طِيلةَ عمري لا اجد في الأكل متعة، وجدير بي ان اعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت في الوقت المناسب تماما، إذ

إنني كنت جافا كالخشب. ورحت اعمل بنفس الإقبال الذي كنت آكلُ به، وهو إقبال لم يكن بالقليل!.. على انني، في الواقع، لم اكن دقيقا في عملي بقدر ما كنت سريعا. وقد حدث بعد ذلك ببضعة ايام ان قابلني السيد "روليشون" في الطريق فانباني بان منسوخاتي جعلت العزف الموسيقي مستحيلا، لانها وجدت مليئة بالشُّطب والتكرار والتحريف. ومن الواجب ان اعترف بانني اخترت المهنة الوحيدة التي كنت اقل الناس استعدادا لها، لا لان علاماتي الموسيقية لم تكن جميلة او لانني لم اكن دقيقا في النقل، وإنما لان الملل من عمل جد طويل كان يشتت بالي إلى درجة انني كنت اقضي في المحو وقتا اطول مما كنت اقضي في الكتابة، وإلى درجة ان مَنْسُوخاتي لم تكن صالحة للتنفيذ -بالعزف- مالم أبدِ عناية فائقة بمراجعتها.. وهكذا اسات إنجاز عملي، في الوقت الذي كنت اسعى فيه لادائه على خير وجه.. وبدلا من ان اسرع إذا بي اتخبط! على ان هذا لم يمنع السيد "روليشون" من ان يُحْسِنَ معاملتي إلى النهاية، ومن ان يمنحني كذلك -عند انصرافي- دينارا لم اكن استحقه البتة، وإن كان قد انقذني من ضائقتي.. وإن هي إلا ايام قلائل، حتى تلقيت نبا من "ماما" -التي كانت في "شامبيري"- مصحوبا بنقود، كي الحق بها، الامر الذي اسرعت إلى تحقيقه مسرورا. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم كثيرا ما اوشكت مواردي المالية على النُّفاد، ولكنها لم تذهب في نُضُوبها قط إلى الدرجة التي اضطررت معها إلى الصوم. وإني لاذكر تلك الفترة من حياتي بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية، فلقد كانت تلك آخر مرة في حياتي اشعر فيها بالتعاسة والجوع!

ولقد مكثت في "ليون" سبعة ايام او ثمانية، في انتظار بعض مهام كانت "ماما" قد عهدت بها إلى الآنسة "دي شاتيليه" وفي اثناء هذه الفترة كنت اكثر مثابرة على زيارة الآنسة من ذي قبل، فرحت أنعُم بالحديث إليها عن صديقتها، ولم اعد مثقل البال إلا بتلك الافكار القاسية التي كانت تعاودني عن مركزي، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز. ولم تكن الآنسة "دي شاتيليه" بالشابة، ولا بالجميلة، ولكنها لم تكن تَفْتَقِرُ إلى الملاحة، وكانت رقيقة الاعطاف، ودودا، كما كان ذكاؤها يُضْفي بهاء على هذا الود. ولقد اوتيت ذلك الشغف بالتامل الخلقي الذي يقود إلى دراسة الشخصيات، وإليها ادين باول حافز اصلي دفعني إلى هذا الاتجاه. وكانت مشغوفة بقصص "ليساج"، لا سيما قصة "جيل بلا" التي حَدَّثَتني عنها واعارتنيها، فقراتها في استمتاع، ولكني لم اكن قد نضجت بعد بحيث انقه هذا النوع من القراءة، إذ كنت أنشُدُ القصص الحافلة بالاحاسيس الرفيعة. وهكذا قضيت وقتي إلى جوار مدفاة الآنسة "دي شاتيليه" في استمتاع وانتفاع، ومن المحقق ان الاحاديث الطريفة ذات الطابع الفكري - التي تصدر عن امراة موهوبة- اصلح لتكوين الشاب من كل ما في الكتب من فلسفة مُتَحَذْلقة!.. ولقد تعرفت -بين المقيمين في "شاسوت" واصدقائهم- إلى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، تدعى الآنسة "سير"، لم أبدِ لها إذ ذاك اهتماما عظيما، ولكني شُغِفْتُ بها حبا بعد ذلك بثماني او تسع سنوات.. وكنت على حق في تدلهي بها، فقد كانت فتاة ساحرة(١).

وفي غمرة انشغالي بتوقُّع رؤية "ماما" الطيبة -عما قريب- اهملت اوهامي قليلا، إذ عوضتني الهنامة الحقيقية التي كانت في انتظاري، عن السعي وراء الخيالات.. فإنني لم اعثر على "ماما" مرة اخرى فحسب، وإنما وجدت في قربها، وبوساطتها، ظرفا مواتيا، إذ اشارت في رسالتها إلى انها عثرت لي على عمل كانت تامل ان يرُوقَ لي، كما انه لم يكن ليقصيني عنها. ولقد ارهقت حدسي في التكهن بنوع ذلك العمل، بيد انه كان لابد للمرء من ان يصبح نبيا حتى يُصيبَ الحدس!.. وكان لدي من المال ما يكفي لان اقوم برحلة مريحة. وقد رغبت الآنسة "دي شاتيليه" في ان استاجر

---

(١) سيرد ذكرها في القسم الخامس بسنة ١٧٤١ من الكراسة السابعة

جوادا، ولكني لم آكن املك ان اوافقها، وكنت على حق. ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام في حياتي -فلست استطيع ان أصف النزهات التي كثيرا ما كنت أقوم بها في الضواحي المجاورة اثناء إقامتي في "مونتيبو"، بانها رحلات على الأقدام!

ومن الامور العجيبة ان خيالي لا يُحَلِّقُ قط راضيا إلا عندما تكون حالي غير مرضية، كما أنه -من ناحية أخرى- يغدو اقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولي!.. فإن رأسي النكد لا يستطيع ان يتكيف مع الأشياء، فهو لا يقنع بتجميل الامور، وإنما يَصْبُو إلى الخلق والابتداع.. كما ان الاشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هي في الواقع، فهو إنما يجيدُ تَنْمِيقَ الاشياء الخيالية فحسب. وعلى هذا القياس، لابد لي من ان أكون في الشتاء، إذا شئت ان اصور الربيع! وإذا رغبت في وصف جمال مناظر الطبيعة، وجب ان أكون داخل الجدران.. ولقد قلت مائة مرة: إنه لو كان قد قدر لي يوما ان أُلقَى في غَيَاهب سجن "الباستيل" لكنت قد رسمت ابدع صورة للحرية!

وعندما بارحت "ليون" لم أكن ارى امامي سوى مستقبل باسم.. ولقد كنت سعيدا، وكان لي الحق في ذلك، بعد ان حرمت هذه السعادة وانا اغادر "باريس".. ومع ذلك فإنني لم انعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التي كانت ترافقني في الرحلة الاخرى. كان قلبي جَذْلا، ولكن هذا كان غاية ما في الأمر. ورحت اقترب في اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التي كنت اسعى لرؤيتها من جديد، واتذوق مقدما حلاوة العيش بالقرب منها، ولكن في غير نَشْوة سكري، إذ كنت دواما اتوقع ذلك، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد!..

ولقد خامرني القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله، وكأنما كان في ذلك ما يدعو إلى الإشفاق.. وكانت افكاري ساكنة وادعة، وليست "سماوية"، تُسْلِبُ الروح والعقل. وكانت الأشياء المادية تجتذب نظري، فكنت اولي مناظر الطبيعة اهتمامي.. كنت الاحظ الأشجار والدور والجداول، واحدث نفسي عند مُلتقيات الطرق، فقد كنت في خوف من ان اضل، ولكني لم اضل على الإطلاق.. وبإيجاز: لم اعد أحلق بين السحب، وإنما كنت دائما حيث كنت.. فلم ابعد قط عن الواقع!

وانا في الحديث عن رحلاتي، تماما كما انا في ادائها، لا اتعجل بلوغ غايتي.. وهكذا كان قلبي يخفق طربا وأنا اقترب من "صامبا" العزيزة، ولكني لم اغذ السَّيْرَ إليها، فإنني احب السير كما يروقُ لي، ولا اتوقف إلا حين يحلو لي.. فحياة التَّجْوالِ هي التي تلائمني، والسفر على الأقدام، في وقت بديع، وفي بلد جميل، دون ما تعجل، ونحو غاية مرغوبة، هو اكثر اساليب العيش طُراً ملاءمة لذوقي! وعدا ذلك، فإن ما أعنيه "بالبلد الجميل" اصبح معروفا: فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعيني جميلة، مهما يكن جمالها.. بل لابد لي من سيول، وصخور، واشجار صنوبر، وغابات سوداء، وجبال، وطرق مُنْحَدِرة اتسلقها او اهبطها، ومَهَاوٍ من حولي تثير رعبي! ولقد اتيحت لي هذه المتعة، واستمرأتها في اروع سحرها، وانا اقترب من "شامبيري".. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار -يسمى "با دي لاشيل"- كان ثمة نُهَيرٌ يجري تحت طريق واسعة منحوتة في الصخر، عند البقعة المسماة "شايي". وكان نهيرا قصيرا، يندفع جَامحاً عبر مَهاوٍ سحيقة بدا انه حفرها خلال آلاف السنين.. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادي النكبات، مما مكنني من ان اطل على الاعماق، وان أحظى بالدوار وفق هَوَايَ!.. ذلك لأن من الامور الطريفة في مزاجي انني أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض، التي يدور لها راسي، وانني احب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا إلى

سلامتي.. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت أنفي في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل -بين وقت وآخر- الزبد والماء الأزرق الذي كنت أسمع هديره وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دَغْل إلى دغل على بعد مائة فرسخ تحتي.. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى، رحت اجمع أكبر ما استطعت حَمْلَه من الأحجار، ووضعتها على السِّياج، ثم اخذت اطرح بها واحدة بعد أخرى، مستعذبا رؤيتها وهي تمرق، ثم ترتطم فتتهشم إلى الف قطعة، قبل أن تبلغ قاع الهاوية!

وإذ ازددت قربا من "شامبيري"، رأيت منظرا مشابها ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت ابدع مسقط مائي شهدته في حياتي. وكان الجبل منحدرا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتَلّ أحيانا! ولكن كان من السهل أن يُخْدعَ الإنسان إذا لم يكن حذرا في حسابه. ذلك لأن الماء -عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق- ينشق ويسقط في رشاش.. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخْضَلَّ بالماء في لحظة، دون أن يفطن -في بادئ الأمر- إلى أنه قد ابتل!

ووصلت أخيرا.. ورأيتها من جديد!.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للإقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولتْ يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يَفْتَح لها كل القلوب: "ها هو يا سيدي هذا الشاب المسكين، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله، بقية حياته!".. ثم وجهت إليّ الخطاب قائلة: "إنك الآن يا بني في خدمة الملك.. اشكُر السيد المدير، إذ هيَّأ لك أسباب العيش!".. وفتحت عيني الواسعتين دون أن أقول شيئا، ودون أن أدري فيم ينبغي أن أفكر إذ إن طموحي المطرد النمو أدار رأسي، فتصورت نفسي للتو مديرا صغيرا!.. ومن المؤكد أن حظي لم يَرْقَ إلى التالق الذي أوحَتْ به إلى خيالي هذه البدَايةُ، بيد أنه كان يكفيني إذ ذاك أن أعيش فحسب، وقد كان مادبر لي أكثر مما رجوت.. وهاكم جلية الأمر:

خطر للملك "فيكتور اماديه" -على ضوء الحروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آبائه- أن هذا الميراث لن يلبث أن يَفْلِتَ منه يوما، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرر -قبل ذلك بسنوات قلائل- أن يخضع الأشراف لضريبة العُشُور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض -وكانوا يدعون مهندسين- ومن الكتاب الذين أطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي "ماما" على منصب بين هؤلاء الآخرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد إلا أنه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيئ في الأمر أن هذا التعيين كان مُؤقتا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول عليه. وكان من بصيرة "ماما" أن تعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأول.

ودخلتُ الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل. ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قدر لي للمرة الأولى -بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال والطيش،

والعذاب، منذ بارحت "جنيف" -ان ابدأ في كسب عيشي بعمل مشرف!

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباي، امورا صبيانية.. ولكني غير مُسْتاء لذلك، فعلى الرغم من انني ولدت رجلا -لاعتبارات معينة- إلا انني ظللت طفلا لامد طويل، ولا ازال كذلك لاعتبارات كثيرة اخرى.. وانا لم اعد بان اقدم للراي العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بان اصف تلك الشخصية التي اوتيتها. ولابد -لكي تعرفوني في كبري- من ان تلموا إلماما كافيا بصباي، ذلك لان الاشياء المادية -بوجه عام- اقل انطباعا في نفسي من ذكرياتها، كما ان جميع افكاري تتخذ شكل صور خيالية.. في حين ان الاحداث الاولى التي طبعت نفسها على صفحة ذهني ظلت باقية، ولم تملك الاحداث التي انطبعت بعدها سوى ان تندمج فيها، بدلا من ان تَطْغَى عليها!.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطغى على كل ما يأتي بعدها من عواطف وافكار، ولابد من التعرف على الاولى لكي يتسنى الحكم على الاخيرة. وقد اعتدت -في جميع الاحوال- ان أعْنَى بالاسباب الاولى حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوما.. وإنني لارجو ان استطيع -إلى حدما- ان اعرض نفسي شفافة امام عيني القارئ، ومن اجل هذا اسعى إلى ان اطلعه عليها تحت جميع الاضواء، وان اعرضها من جميع النواحي، وان استيقن من انه لن تغيب عن ملاحظته اية حركة من حركاتها، حتى يكون قادرا في النهاية على ان يحكم بنفسه على المبادئ التي انتهجتها.

وإذا كنتُ أُلقِي على نفسي مسؤولية النتيجة، واقول للقارئ: "هذه هي شخصيتي"، فقد يخيل إليه انني إذا لم اكن اخدعه هو فإنني -على الاقل- اخدع نفسي. اما عندما اكتفي بتفصيل كل ما جرى لي، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالجني من مشاعر فإنني لا استطيع ان أغرِّر به -بمحض رغبتي على الاقل- بل إنني لو اردت لما وجدت الامر سهلا.. ومن ثم فإنني اترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذي تؤلفه، إذ يجبُ ان تكون النتيجة من صُنْعه هو، حتى إذا اخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على انه لا يكفي -من اجل هذه الغاية- ان تكون قصصي صادقة، وإنما يجب كذلك ان تكون دقيقة. وليس لي ان احكم على أهمية الوقائع، وإنما يقتضيني الواجب ان ارويها جميعا، ثم اترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه -حتى الآن- بكل ما اوتيت من شجاعة، ولن احيدَ عنه فيما يلي. غير ان ذكريات اوسط العمر، تكون دائما اقل تألقاً من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه افضل قسط استطعت اقْتِبَاسَه. فإذا واتتني الذكريات الاخرى بنفس الوضوح فإن القراء الذين ملوا الاولى، ربما ازدادوا مللا.. اما انا -بالذات- فلن اكون مستاء من عملي، وليس لدي ما اخشاه في « المشروع سوى امر واحد: وليس هذا الامر هو الإسراف في القول.. او سرد الاكاذيب، وإنما هو الا اقولَ كلَّ شيء، او ان أخفي الحقائق.

سلامتي.. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت انفي في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، اتأمل -بين وقت وآخر- الزبد والماء الأزرق الذي كنت اسمع هَديرهُ وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دَغْل إلى دغل على بعد مائة فرسخ تحتي.. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى، رحت اجمع اكبر ما استطعت حَمْلَه من الاحجار، ووضعتها على السِّياج، ثم أخذت اطوح بها واحدة بعد اخرى، مستعذبا رؤيتها وهي تمرق، ثم ترتطم فتتهشم إلى الف قطعة، قبل ان تبلغ قاع الهاوية!

وإذ ازددت قربا من "شامبيري"، رأيت منظرا مشابها ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند اقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائي شهدته في حياتي. وكان الجبل منحدرا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء ان يمر بين الماء والصخرة دون ان يبْتَل احيانا! ولكن كان من السهل ان يُخْدعَ الإنسان إذا لم يكن حذرا في حسابه. ذلك لأن الماء -عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق- ينشق ويسقط في رشاش.. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخْضَلَّ بالماء في لحظة، دون ان يفطن -في بادئ الامر- إلى انه قد ابتل!

ووصلت أخيرا.. ورأيتها من جديد!.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للإقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولتْ يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يُفَتِّح لها كل القلوب: "ها هو يا سيدي هذا الشاب المسكين، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن اشعر بعد ذلك بقلق من اجله، بقية حياته!".. ثم وجهت إليّ الخطاب قائلة: "إنك الآن يا بني في خدمة الملك.. اشْكُر السيد المدير، إذ هَيَّأ لك اسباب العيش!".. وفتحت عيني الواسعتين دون ان اقول شيئا، ودون أن ادري فيم ينبغي ان افكر إذ إن طموحي المطرد النمو ادار راسي، فتصورت نفسي للتو مديرا صغيرا!.. ومن المؤكد ان حظي لم يَرقَ إلى التألق الذي أوحَتْ به إلى خيالي هذه البدَايةُ، بيد انه كان يكفيني إذ ذاك ان اعيش فحسب، وقد كان مادبر لي اكثر مما رجوت.. وهاكم جلية الأمر:

خطر للملك "فيكتور اماديه" -على ضوء الحروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آبائه- أن هذا الميراث لن يلبث أن يَفْلِتَ منه يوما، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرر -قبل ذلك بسنوات قلائل- انْ يخضع الاشراف لضريبة العُشُور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الاراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الاب، واستؤنف في عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان او ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الارض -وكانوا يدعون مهندسين- ومن الكتاب الذين اطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي "ماما" على منصب بين هؤلاء الآخرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد إلا انه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيئ في الامر ان هذا التعيين كان مُؤقَّتا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب افضل وارتقاب الحصول عليه. وكان من بصيرة "ماما" أن تعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى اتمكن من الانتقال إلى منصب ارسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأول.

ودخلتُ الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل. ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قدر لي للمرة الأولى -بعد اربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال والطيش،

والعذاب، منذ بارحت "جنيف" -ان ابدا في كسب عيشي بعمل مشرف!

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباي، امورا صبيانية.. ولكني غير مُسْتاء لذلك، فعلى الرغم من انني ولدت رجلا -لاعتبارات معينة- إلا انني ظللت طفلا لامد طويل، ولا ازال كذلك لاعتبارات كثيرة اخرى.. وانا لم اعد بان اقدم للراي العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بان اصف تلك الشخصية التي اوتيتها. ولابد -لكي تعرفوني في كبري- من ان تلموا إلماما كافيا بصباي، ذلك لان الاشياء المادية -بوجه عام- اقل انطباعا في نفسي من ذكرياتها، كما ان جميع افكاري تتخذ شكل صور خيالية.. في حين ان الاحداث الاولى التي طبعت نفسها على صفحة ذهني ظلت باقية، ولم تملك الاحداث التي انطبعت بعدها سوى ان تندمج فيها، بدلا من ان تَطْغَى عليها!.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطغى على كل ما ياتي بعدها من عواطف وافكار، ولابد من التعرف على الأولى لكي يتسنى الحكم على الاخيرة. وقد اعتدت -في جميع الأحوال- ان أُعْنَى بالأسباب الاولى حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا.. وإني لارجو ان استطيع -إلى حدما- ان اعرض نفسي شفافة امام عيني القارئ، ومن اجل هذا اسعى إلى ان اطلعه عليها تحت جميع الاضواء، وان اعرضها من جميع النواحي، وان استيقن من انه لن تغيب عن ملاحظته اية حركة من حركاتها، حتى يكون قادرا في النهاية على ان يحكم بنفسه على المبادئ التي انتهجتها.

وإذا كنت ألقي على نفسي مسؤولية النتيجة، واقول للقارئ: "هذه هي شخصيتي"، فقد يخيل إليه انني إذا لم اكن اخدعه هو فإنني -على الاقل- اخدع نفسي. اما عندما اكتفي بتفصيل كل ما جرى لي، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالجني من مشاعر فإنني لا استطيع ان أُغرِّر به -بمحض رغبتي على الأقل- بل إنني لو أردت لما وجدت الامر سهلا.. ومن ثم فإنني اترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذي تؤلفه، إذ يجبُ ان تكون النتيجة من صُنْعه هو، حتى إذا اخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على انه لا يكفي -من اجل هذه الغاية- ان تكون قصصي صادقة، وإنما يجب كذلك ان تكون دقيقة. وليس لي ان احكم على اهمية الوقائع، وإنما يقتضيني الواجب ان ارويها جميعا، ثم اترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه -حتى الآن- بكل ما اوتيت من شجاعة، ولن احيدَ عنه فيما يلي. غير ان ذكريات اوسط العمر، تكون دائما اقل تألقاً من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدات بان اقتبست عن هذه افضل قسط استطعت اقْتِبَاسَه. فإذا واتتني الذكريات الاخرى بنفس الوضوح فإن القراء الذين ملوا الاولى، ربما ازدادوا مللا.. اما انا -بالذات- فلن اكون مستاء من عملي، وليس لدي ما اخشاه في ه المشروع سوى امر واحد: وليس هذا الامر هو الإسراف في القول.. او سرد الاكاذيب، وإنما هو الا اقولَ كلَّ شيء، او ان أخفي الحقائق.

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك في سنة ١٧٣٢ -على ما يَبْدوُ لي- إذ وصلت إلى "**شامبيري**"، كما ذكرت، وبدأت عملي في مَسْح الارض، في خدمة الملك. وكنت قد تجاوزت عامي العشرين، ودنوت من الحادي والعشرين. وكنت -من الناحية العقلية- وافي التكوين بالنسبة لسني، ولكن المقدرة على الحكم على الامور لم تكن متوفرة لي، بل كنت في مسيس الحاجة إلى الايدي التي وَقَعْتُ بينها، لاتعلم كيف اتصرف، ذلك لان سنوات التجارب القليلة لم تَقْوَ على ان تُبْعِنَي تماما من خيالاتي الشاعرية. وعلى الرغم من كل الباساء التي عانيتها فإنني لم اعرف عن الدنيا والناس إلا القليل، وكاني لم ادفع ثمن المعرفة!

واقسمت في داري، -اعني في دار "**ماما**"- ولكني لم استرد قط الغرفة التي كانت لي في "**انيسي**"، فلم تعد ثمة حديقة، ولا جدول، ولا مناظر.. بل كان البيت الذي شَغَلته مُعْتماً كئيبا، وكانت غرفتي اكثر غرف البيت ظُلْمة وكآبة: جدار بدلا من مناظر الطبيعة، وحارة مسدودة بدلا من الشارع، وقليل من الهواء، ونَزْر من ضوء النهار، ومساحة ضئيلة، وصراصير، وفئران، واخشاب بالية تكسو الارض.. كل هذه ما كانت لتجعلَ من الغرفة سكنا بهيجا، ولكني كنت في دارها -دار "**ماما**"- وبالقرب منها!.. ولما كنت بلا انقطاع في مكتبي أو في غرفتها فإني لم اتنبه كثيرا إلى بَشَاعَة غرفتي، إذ لم يكن لدي وقت للتفكير فيها. ولسوف يبدو عجيبا ان تقيم "**ماما**" في "**شامبيري**" خصِّيصاً لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها، ينبغي الا اغفل ذكرها: فلقد واجهتْ فكرة الرحيل إلى "**تورين**" وهي كارهة، إذ كانت تشعر -بعد الثورات التي كانت حديثة العهد، وبعد القلاقل التي كانت لا تزال تَنُمُّ بالبلاط- ان الوقت لم يكن ملائما لوجودها هناك. في حين ان شؤونها كانت تتطلب ظُهورُهَا، إذ كانت تخشى ان تغدو منسية او ضحية للوشَايات، لاسيما انها كانت تعلم ان الكونت "**دي سان لوران**" -المدير العام للمالية- لم يكن يمَيل إليها. وكانت له في "**شامبيري**" دار عتيقة، رديئةَ البنيان، وفي موقع بلغ من سوئه انها كانت تظل خاوية باستمرار، فاستاجرتها "**ماما**" واستقرتْ فيها!.. وكان هذا التصرف اكثر توفيقا من الرحيل إلى "**تورين**"، فلم يُقْطَعْ معاشها قط، بل اصبح الكونت "**دي سان لوران**" -منذ ذلك الحين- من اصدقائها!

والفيْتُ إدارة بيتها تقْرُبُ مما كانت عليه من قبل، كما ظل وصيفها الوفي "**كلود آنيه**" معها دائما.. وهو -كما اظنني ذكرت- فلاح من "**موترو**"، اعتاد في طفولته ان يجمع الاعشاب في منطقة "**جورا**" لصناعة الشاي السويسري. فالحقته "**ماما**" بخدمتها من اجل عقاقيرها، إذ وَجَدتْ من الاصوب والاوفر ان يكون خادمها خبيرا بالاعشاب!.. وكان مشغوفا كل الشَّغف بدراسة النباتات، فَحبَّذتْ هذا الميل إلى درجة ان اصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق، ولولا انه مات في شبابه لكان من المحتمل ان يُذاعَ اسمه في هذا العلم، بقدر ما يستحق ان يُخلَّدَ اسمه بين الشرفاء الامناء. ولما كان جادا، بل ووقورا، كما انني كنت اصغره فإنه غدا مني بمثابة المربِّي، مما عصمني من كثير من

الحماقات، إذ كان ذا اثر على نفسي، فلم اكن أجْسُرُ على ان انسى نفسي في حضرته! وكان له عين الاثر على نفس سيدته التي عرفت حسن إدراكه، واستقامته، وولاءه الذي لا يتزعزع نحوها، فجازته خير الجزاء.. ولقد كان "كلود آنيه" - بلا مراء- رجلا نادرا، بل إنه الوحيد الذي رايته من نوعه على الإطلاق! كان متشددا، متزنا، مفكرا، حكيما في تصرفاته، هادئا في طباعه، موجزا مفيدا في أقواله. وكان في عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة.. عنف كان يَنْهَشُ احشاءه، ولكنه لم يدفعه ابدا إلى ان يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة.. تلك هي انه سَمَّ نفسه!.. وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولي بقليل، وكان خليقا بان يطلعني على مدى المودة الوثيقة التي كانت بين هذا الفتى وسيدته، إذ إنني ما كنت لاحدسها إطلاقا لو لم تُنْبِئني بها هي بنفسها!.. ويقينا انه إذا كان الولاء، والتحمس، والوفاء، جديرا بجزاء من نوع تلك المودة، فقد كان "آنيه" اهلا لذلك، والذي يثبت انه كان خليقا به انه لم يسئ استغلال ثقة سيدته ابدا!.. وكان نادرا ما يتشادان، ودائما تنتهي مشاداتهما على خير، على انه قدر لإحداها أن تنتهي بسوء، فلقد قالت السيدة لـ"آنيه" -في غضبها- كلمة مثيرة لم يَقْوَ على احتمالها، وفي تاثره واساه، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن الافيون، فتجرع محتوياتها، ثم استلقى في هدوء، مطمئنا إلى انه لن يستيقظ قط!.. ولحسن الحظ ان مدام "دي فاران" راحت تجوسُ خلال دارها -وهي قلقة، منفعلة- فعثرت على الزجاجة الفارغة، وحَدَسَتْ الباقي، فاسرعت لنجدته، وهي تطلق صرخات اجتذبتني إليها.. فاعترفت لي بكل شيء وناشدتني المعونة، ونجحنا بعد كثير من العناء في حمله على تَقَيُّؤ الافيون. وإذ شهدتُ هذا المنظر، عجبت لغبائي إذ لم يُسَاورني قط أتْفَه ريب في الصلات التي انباتني هي بها!.. بيد ان "كلود آنيه" كان من التكتم بحيث إن من يفوقونني في جلاء البصيرة كانوا خليقين بان يغتروا بمظهره! وكان الصُّلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلني أتاثر -انا نفسي- اشد التاثر. ومنذ ذلك الحين أضفْتُ إلى التقدير احتراما نحوه، واصبحت تلميذا له، إلى حدما.. الامر الذي لم اجد فيه عيبا!

*****

على انني لم اخ من الالم إذ ادركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع "ماما" في مودة تفوق مودتي كثيرا. بل إنني فكرت يوما في ان اشتهي لنفسي مثل هذه المكانة، غير انه كان من الشاق على نفسي ان اراها تمتلئ بشخص آخر!.. وكان هذا امرا طبيعيا، ومع ذلك فإنني بدلا من ان اشعر بنُفُور من ذاك الذي سلبني إياها، وجدت ان وفائي للسيدة قد امتد -في الواقع- إليه هو الآخر! فقد كنت راغبا -قبل كل شيء- في سعادتها، ومادام هو ضروريا لهذه السعادة، فقد ارتضيت ان يكون هو الآخرُ سعيدا. اما هو، فإنه "غاص" تماما في وِجْهَاتِ نظر مولاته، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذي اصطفته. وبدون أن يفرض عليّ السلطة التي كان مركزه يخوله إياها، فإنه مارس -بطريقة طبيعية- تلك السُّلْطَة التي كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائي، بحيث لم اجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهْجَانا له، كما انه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيئ. وهكذا عشنا في وحدة اسعدتنا جميعا، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت!.. ومن ادلة روعة شخصية تلك المراة الحبيبة، ان كل الذين احبوها كانوا يتحابون فيما بينهم.. فكانت الغيرة، بل والتنافس، يَخْضَعان للشعور المسيطر الذي كانت توحي به السيدة، وهكذا لم ار قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يُضْمِرُ

شرا لآخر! . . فليكف اولئك الذين يقرءون كتابي لحظة عن مطالعتهم، عند هذا المديح، فإذا وجدوا -وهم يتاملونه- امراة اخرى يستطيعون ان يقولوا عنها الشيء ذاته فليتعلقوا بها ليَضْمَنُوا الطمانينة في حياتهم. . ولو كانت -عدا ذلك- آخر الغاويات!

وهنا تبدأ -منذ وصولي إلى "شامبيري"، حتى رحيلي إلى "باريس" في سنة ١٧٤١- فترة مداها ثماني او تسع سنوات، ساروي خلالها من الحوادث التي تستحق الرواية عددا قليلا،! لأن حياتي كانت جد بسيطة وبهيجة. وكانت رَتَابتُها هذه هي عون ما كانت تمس إليه حاجتي لكي استكمل تكوين شخصيتي التي حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها. وفي هذه الفترة الغالية، تماسكت تربيتي- المتنوعة، غير المتتابعة -فجعلت مني الشخص الذي لم اكف بعد ذلك عن ان اكونه في غمار العواصف التي كانت تُتَرَبَّصُ بي، ولقد كان هذا التطور غير محسوس، كما كان بطيئا مصحوبا ببضعة احداث جديرة بالذكر. . بل جديرة بالمراعاة والتنمية!

ففي بداية الامر لم أشْغَلْ بشيء سوى عملي، إذ إن قيود المكتب لم تكن تدعني افكر في شيء آخر. وكان الوقت القليل الذي اتحرر فيه ينقضي إلى جوار "ماما" الطيبة. ولما لم تكن لدي فسحة للقراءة، فإن شغفي بالاطلاع لم يعد يتملكني. حتى إذا اصبحت واجباتي نوعا من العادة المتواترة قل انشغال بالي بها، فعاودني التململ والقلق، واصبحت القراءة ضرورة -من جديد- وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عز إرضاؤه، فكان خليقا بان يغدو ولعا جُنُونيا -كما حدث عندما كنت في كنف معلمي(١)- لو لم تتدخل بعض نوازع اخرى فتحول اهتمامي عنه.

ومع ان عملياتنا لم تكن تتطلب تَعَمُّقا في الحساب إلا انها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيا لان يُزْعِجَني في بعض الاحيان. ولكي اتغلب على هذه العقبة. ابتعت بعض كتب في علم الحساب، واستوعبتها جيدا، إذ كنت استذكرها وحدي. وقد تبينت ان الحساب التطبيقي اوسع نطاقا مما يتصور المرء، إذا ما كانت الدقة منشودة. فثمة عمليات بالغة الطول، كنت ارى المهندسين يخطئون احيانا في سِيَاقِهَا. بيد ان التفكيرَ المقترن بالمران يتيح سَوَانِحَ جلية، فلا يلبث المرء ان يهتدي إلى أساليب مُقْتَضَبَة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه، كما ان دقتها تُرضي العقل، وتضفي سحرا على عمل لا ينطوي على حمد ولا عرفان. ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقا موفقا إلى درجة ان اية معضلة قابلة لان تحل بالأرقام وحدها لم تكن تُعْيِيني!. . حتى إنني الآن، وقد اخذ كل ما عرفته ينمحي من ذاكرتي يوما بعد يوم، أجد أن هذه المعرفة التي اكتسبتها لاتزال باقية -إلى حدما- بعد انصرافي عنها ثلاثين عاما!. . ولقد حدث منذ أيام، وفي خلال رحلة قمت بها إلى "داڤينبورت"، ان عاونت أبناء مضيفي في درس الحساب، فكان سروري يفوق التصور، إذ حللت -دون ما خطأ- مسألة من اشد المسائل تَعَقُّدا. وكان يخيل إلي وانا اسجل الارقام انني في "شامبيري" من جديد، وفي ايام شبابي الهانئة. فلقد ارتدت إلي تلك الأيام، على بعد الشُّقة بيني وبينها!

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم في نفسي، فابتعت بعض الألوان، وشرعت ارسم الزهور والمناظر الطبيعية. ومما يُرْثَى له انني اكتشفت اني لم أوتَ سوى موهبة طفيفة في هذا الفن الذي كنت اميل إليه بكل جوارحي!. . وكنت خَلِيقاً بان اقضي -بين اقلامي وفرشي- أشهرا باكملها، دون ان ابرح داري. وإذ اصبحت هذه الهواية تستاثر باهتمامي إلى درجة كبيرة، فقد رؤي انتزاعي من سيطرتها. وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التي اشرع في الانصراف إليها بكل نفسي، إذ إنها تَتَضَاعفُ وتستحيل إلى شغف، فسرعان ما لا اعود ارى في الدنيا سوى المتعة التي

---

(١) يقصد الحفار الذي قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن.

استشعرها في مزاولتها. ولم تبرئني السن من هذا العيب، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين، حتى إنني لأراني -وأنا أكتب هذا الآن- كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها، ولا يفقه فيها شيئا!.. دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إبان شبابهم، إلى التخلي عنها في مثل السن التي أريد أن أشرع في ممارستها فيها!

*****

ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا في ذلك الوقت(١)، إذ كانت الفرصة سانحةً، وكان ثمة ما يُغريني بانتهازها. فإن الرضا الذي كنت أشهده في عيني "آنيه" وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة، جعلني -مرتين أو ثلاثا- على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه. وأكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قمينة بأن تستولي علي لو أنني خرجت معه مرة، ولعلني كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات!.. فلست أعرفُ في الدنيا دراسة أكثر مُلاءَمَةً لميولي الطبيعية من دراسة النبات، وما الحياة التي أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب، دون ما هَدَف -في الواقع- ودون ما تقدم.. على أنني لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء عن علم النبات،فشعرت بنوع من الازدراء -بل ومن النُفور- لهذه الدراسة. ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير -فإن "ماما"، التي كانت تحبها، لم تكن تفيدُ منها إلا في هذه الصناعة، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية، لتستغلها في عقاقيرها- وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط في ذهني تحت اسم الطب، ولم تكن تصلح إلا لإمدادي بفكاهات ساخرة طيلة يومي، ولتجلب علي الصفعات بين وقت وآخر!

وإلى جانب ذلك أخذ ميل آخر مختلف عن هذا -بل على النقيض منه إلى حد كبير- ينمو في نفسي باطّراد، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه: وأعني بذلك الموسيقى. ولابد أنني خُلقتُ لهذا الفن بالتأكيد، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتي وهو الوحيد الذي ظللت أحبه باستمرار في جميع الأوقات. والعجيب في الأمر أن الفن الذي خلقت من أجله، قد كَبَّدني تعلمه -برغم ذلك- عناء كبيرا، وكان تقدمي فيه من البطء بحيث إنني لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد، بعد كل التدريب الذي مارسته في حياتي!.. أما الذي حبب إلي هذه الدراسة -في ذلك الحين بوجه خاص- فهو أنني كنت أستطيع أن أواصلها مع "ماما". فمع أن أذواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة إلا أن الموسيقى كانت -بالنسبة لنا- رباطا يجمع بيننا، فكنت أحب دائما أن أفيد منه. وما كانت "ماما" لتأبى ذلك بل إنني كنت إذ ذاك أكاد أعادلها تقدما في هذا الفن، فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحلّ رموز أي لحن. وكنت أحيانا إذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد، أقول لها: "ماما"، هاك لحنا ساحرا لاثنين، يبدو لي أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تَنِمُّ عن احتراقها"!.. فكانت تقول لي: "آه!... قسما لأجعلنك تأكلها إذا أنت شغلتني عنها حتى تحترق!".. وبينما يدور الجدل، كنت أجرها إلى معزفها، فننسى نفسينا، حتى تحترق خُلاصَةُ الأبسنت أو العرعر(٢) بالفعل، فتُلطِّخ "ماما" بها وجهي.. وكم كان كل ذلك عذبا!

ومن هذا ترون أنني وإن كنت لم أوتَ من الفراغ إلا وقتا قصيرا فقد كان لدي كثير من الأمور التي أنفق فيها هذا الوقت. على أنه كان ثمة -إلى جانب ذلك- ملهاة خليقة بأن تُعادلَ وحدها كل الملاهي الأخرى! وإليك قصتها: كنا نقيم في شبه سجن معتم خانق، حتى إننا كنا بحاجة إلى الخروج

---

(١) شغف "روسو" -وهو يكتب هذه الكرامة من اعترافاته- بفلاحة البساتين. (٢) الأبسنت عقار مخدر، "والعرعر" نبات!

احيانا لننشد الهواء في الريف. واغرى "آنيه" "ماما" بان تستاجر بستانا في الضواحي لتربية النباتات، وكان يَلْحَقُ بهذا البستان بيت ريفي صغير بديع، جُهِّزَ باثاث متواضع، واقيم فيه سرير. وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك كما كنت انام فيه احيانا.. ولقد اولعتُ -دون ان افطن- بهذا "المعزل" الصغير، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات، وقضيت شطرا من وقتي في تزيينه، وفي إعداد مفاجاة مستحبة لـ"ماما" إذا ما خرجت للنزهة في ذلك المكان. وكنت ابتعدُ عنها احيانا؛ لكي اشغل بها بَالي، ولكي افكر فيها بمزيد من الابتهاج. وكانت هذه نزوة اخرى لا يسعني ان ابررها او اشرحها ولكنني اعترف بها؛ لانها كانت حقيقة. وإني لاذكر ان مدام "دي لوكسمبورج" حدثتني مازحة -ذات مرة- عن رجل اعتاد ان يفارق عشيقته لكي يكتب إليها رسائل!.. وقد قلت لها: إنه كان من المحتمل ان اكون ذلك الرجل -وكان خليقا بي ان أضيفَ انني كنت اتصرفُ احيانا مثله!- على انني لم اكن اشعر قط، وانا مع "ماما" بضرورة الابتعاد عنها كي ازداد حبا لها؛ لانني كنت إذا ما خلوتُ إليها اشعرُ بطمانينة كاملة كما لو كنتُ وحيدا!.. وهي حال لم استشعرها البتة في حضور اي امرئ آخر -رجلا كان او امراة- مهما يكن تعلقي به!.. ولكنها كثيرا ما كانت تُخالطُ بقوم لم اكن انسجم معهم إطلاقا، فكان ينتابني شعور من الضيق والملل، يدفعني إلى ملاذي ذاك (١)، حيث كان بوسعي ان اهنا بها كما كنت ابتغيها، دون ان اخشى ان يَتعقَّبني الزائرون الثُّقلاء!

وعلى هذه الحال -التي كان وقتي فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم- نعمت بحياة مُفْعَمَة باعذبَ دعة! على ان اوروبا لم تكن في مثل طمانينتي، إذ كانت "فرنسا" والإمبراطور قد اعلنا الحرب لتوهما، وساهم ملك "سردينيا" في النزاع، فاخذ الجيش الفرنسي يتقدم عبر "بيمونت" ليغزوُ اراضي "ميلان". ومرت فرقة منه خلال "شامبري"، كان بين كتائبها كتيبة "شامباني"، التي كان قائدها الدوق "دي لاترموي". وقد قدمت إليه، فكان مسرفا في وعوده -وإني لموقن من انه لم يتذكرني البتة بعد ذلك!- وكان بستاننا الصغير يقوم في اقصى طرف الضاحية التي دخلها الجند؛ ومن ثم فقد كان بوسعي ان انعم تماما بمتعة مشاهدتهم وهم يمرون، وكنت من التَّحمسِ لنجاح هذه الحرب كما لو كانت لي مصالح عظيمة مُهَدَّدةٌ بها!.. ولم يكن قد جال بخاطري حتى ذلك الحين ان افكر في المسائل العامة فبدات اقرا الصحف للمرة الاولى، ولكن.. في تحيز لـ"فرنسا" (٢) كان يجعل قلبي يخفق طربا كلما احرزت اقل نجاح بينما كانت إخفاقاتها تحزنني وكانها قد المت بي انا!.. ولو ان هذه الحماقة كانت عابرة لما وجدتها جديرة بان أتحدَّث عنها ولكنها تغلغلتْ في فؤادي دون ما سبب كَاف، حتى إنني حين قمت -في "باريس" - بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته شعرت -رغما عن نفسي- بميل خفي إلى هذه الامة التي وجدتها راسفة في الذلة، وإلى الحكومة التي كنت اتظاهر بالنقمة عليها. والطريف في الامر انني -لخجلي من شعور يناقض مبادئي- لم اجسُر على ان افضي به لاي امرئ، ورحت اسخرُ من الفرنسيين في هزائمهم بينما كان قلبي يدمى من اجلهم، اكثر مما كانت تُدْمَى قلوبهم هم! ومن المؤكد انني الرجل الوحيد الذي يعيش بين قوم احسنوا معاملته وهام بحبهم ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم، وهو بينهم، روح الازدراء! وهذا الميل من ناحيتي مجرد من الهوى، وهو من القوة، والبقاء، والمناعة بحيث إنني لم استطع ان ابرئ نفسي من هذا الضعف، حتى بعد رحيلي عن "فرنسا" عقب العاصفة التي نبارتْ حُكومَتُها وحُكامُها وكتابُها في إثارتها ضدي، ومذ اصبح العرف المالوف هو إغراقي بما لا استحق من سباب!.. نعم، إنني احبهم برغم نفسي، وبرغم سوء معاملتهم إياي!

---

(١) يقصد البيت الريفي الملحق بالبستان. (٢) لم يكن "روسو" يعتبر "فرنسا" وطنه؛ فقد كان من رعايا "جنيف" بـ"سويسرا".

ولقد سعيت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز، فعجزتُ عن العثور عليه اللهم إلا في عين المناسبة التي اوجَدتْهُ: فإن الميلَ المطرد إلى الادب اولاني شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين. وفي الوقت الذي مر فيه الجيش الفرنسي بـ"شامبيري"، كنت اقرا كتاب "برانتوم" المسمّى "القادة العظام"، فكان راسي مليئا بامثال "كليسون" و"بايار"، و"لوتريك"، و"كوليني"، و"مونمورنسي"، و"تريموي"، وكنت احب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم. ورحت إخالُ انني المح في كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة، التي أحْرَزَت تلك البطولات، من قبل، في "بيمونت". وموجز القول: إنني ربطت ماكنت اراه، بالافكار التي كنت اقتبسها عن الكتب. وراحت مطالعاتي الدائبة- وكانت لاتزال مقصورة على مؤلفات الادباء الفرنسيين -تغُذّي حبي لبلادهم، ثم حولت هذا الحب في النهاية إلى شغف اعمى لم يقو شيء على التغلب عليه! ولقد سنحت لي -فيما بعد- الفرصة كي الاحظ في سياق رحلاتي ان هذا الاثر لم يكن قاصرا علي بالذات، وإنما كان يَتَعَدّاني -بدرجة متفاوتة- إلى افراد من جميع البلدان، وهم ذلك القسم من الامة الذي يحب القراءة ويُقْبِلُ على الادب، فكان هذا الشَّغَفُ يرجع على النفور العام الذي توحي به عجرفة اخلاق الفرنسيين!.. والملاحظ في هذا الصدد ان قصص ادبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان.. كما ان تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم، فإن شهرة مسارح "باريس" تجذب إليها زُرافات من الاجانب، الذين يعودون إلى اوطانهم وهم من اشد المعجبين المتحمسين لها!.. وبالاختصار اقول: إن الذوق الرائع الذي يبين في ادب الفرنسيين يسبي عقول كل اولئك الذين اوتوا اي قدر من العقل. ولقد رايت خلال تلك الحرب -التي انتهت اسوا نهاية بالنسبة لهم- ان مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم "فرنسا" الذي لطخه محاربوها!

وقد كنتُ إذ ذاك فرنسيا متحمِّسا، نَهِماً إلى الانباء، فكنت اذهب مع حشد متسقطي الاخبار إلى ساحة السوق لننتظر البريد. وكنت -في غباء يفوق غَباْء الحمار في الاسطورة- أشغل نفسي كثيرا بمحاولة معرفة اي سيد سيكون لي شرفُ حمل سَرْجه وركابه، فلقد قيل في تلك الاثناء: إننا سنتبع "فرنسا"، وان "سافوا" ستبادل باراضي "ميلان". على انه من الواجب الاعتراف بانني كنت على حق في قلقي، فلو ان هذه الحرب انقلبت في غير صالح الحلفاء لتعرض معاش "ماما" لخطر كبير. غير انني كنت مُفْعَماً بالثقة في اصدقائي الطيبين(١)، ولم تخب هذه الثقة -في هذه المرة- بفضل ملك "سردينيا"، الذي لم افكر فيه إذ ذاك!

*****

وبينما كان الصِّراعُ دائرا في "إيطاليا" كان الغناء دائرا في "فرنسا"!.. فقد بدات اوبرات "رامو" تُحدثُ ضجة، وترفع من شان مؤلفاته النظرية التي كان غُمُوضُها قد جعلها في متناول نفر ضئيل من الناس. ولقد سمعت عفوا من مؤلفه "رسالة في التوافق" فلم اَرِمْ حتى حصلتُ على هذا الكتاب. وبمصادفة اخرى، سقطت مريضا. وكان مرضي نوعا من الالتهاب، الذي كان عنيفا وقصيرا، ولكن نقاهتي كانت طويلة، فلم يكن بوسعي الخروج لمدة شهر. وفي خلال هذه الفترة عكفتُ على "رسالة في التوافق" التهمها، ولكنها كانت طويلة، محشوةً بالإسْهَاب، سيئة العرض إلى درجة انني شعرت بان لابد لي من وقت طويل كي ادرسها واستوعبها. وارجات جهودي، ورحت اجلو عيني

---

(١) يقصد الفرنسيين.

بالموسيقى. ولم تفارق ذهني اغاني "بيرنيه"، التي رحت اتدرب عليها. (فقد حفظت منها عن ظهر قلب اربعا أو خمسا، منها تلك التي كانت تُدْعَى "آلهة الحب النائمة"، التي لم اسمعها ثانية منذ ذلك الحين، والتي لا ازال احفظها كلها تقريبا. وكذلك "الحب الذي لدغته نحلة"، وهي اغنية جد بديعة من تاليف "كليرامبو" حفظتها في عين ذلك الوقت تقريبا.

واستكمالا لشغفي، وصل من (فال داوست) عازف أرغن شاب يُدْعىَ الاب "باليه"، كان مُوسيقيا مَجيدا، ورجلا طيبا، وعازفا بجيد مصاحبة من يغني. وتعرفت إليه، فاصبحنا لا نفترق. وكان قد تتلمذ على راهب إيطالي بارع في العزف على الأرغن، فحدثني عن مبادئه في الموسيقى، وقارنتها بمبادئ "رامبو" -الذي كنت أعجَبُ به- وملات راسي بالعزف الذي يصاحب الغناء، وبتناسق الأنغام وتوافقها. وكان لابد من ان اشحذ حساسية اذني لكل هذا، فاقترحت على "ماما" إقامة حفلة موسيقية في كل شهر، فوافقت. وإذا بي استغرق في تلك الحفلات، فلم أعُدْ اشغل بشيء آخر ليلا اونهارا.. والواقع انني شُغِلْتُ شَطْرا كبيرا من وقتي في تنظيم الموسيقى، والحفلات الموسيقية، والأدوات، وتقسيم الأدوار، وما إلى ذلك!.. وكانت "ماما" تغني، كما ان الاب "كاتون" -الذي سبق ان تحدثت عنه، والذي سأتحدث عنه مرة اخرى- كان يغني هو الآخر. وكان استاذ للرقص يدعى "روش" يعزف مع ابنه على "الكمان"، والسيد "كانافا" -وهو موسيقي "بيمونتي" كان موظفا في المساحة، وقد تزوج بعد ذلك واستقر في "باريس"- يعزف على الكمان الكبير بينما كان الاب "باليه" يصاحبهم على "البيانو"، كما كان لي شَرَفُ قيادة الموسيقى، دون ان انسى العصا. وفي وسع المرء ان يتصور مدى جمال كل ذلك!.. ولئن لم تكن هذه الحفلات كتلك التي كانت تقام لدى السيد دي "تريتوران"، إلا انها كانت تَقْرِبُ منها!

واثارت الحفلاتُ الموسيقية الصغيرة التي اخذت تقيمها مدام "دي فاران" -وهي حديثةُ عهد بالإيمان، وكانت تعيشُ على بر الملك، كما كان يقال- تَذَمُّر عصبة الاتقياء ولكنها كانت مَلْهَاةً مستحبة لكثير من الشرفاء. ولكن هل يستطيع احد ان يحدس: من الذي كنت اضعه على راس تلك المناسبات؟.. كان راهبا، ولكنه راهب موهوب، بل ومحبوب، اثرت بلاياه، فيما بعد، على نفسي تاثيرا قويا، ولاتزال ذكراه -التي ارتَبَطَتْ بذكرى أجْمل ايامي- عزيزة لدي. ذلك هو الاب "كاتون" -احد الرهبان الجبليين(١)- الذي عمل بالاشتراك مع الكونت "دورتان" على مصادرة موسيقى "الهربرة" المسكينة في "ليون"، ولم يكن هذا ابْدعَ ما في حياته. فقد تخرج في "السوربون"، وعاش ردحا طويلا في أرقى الأوساط البارسية، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز "دانترمون"، الذي كان سفيرا لـ"سردينيا" في ذلك العهد. وكان حَسَنَ البنيان، ممتلئ الجسم، بارز العينين، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه، وذا أخلاق نبيله وصريحة ومتواضعة، في آن واحد!.. كان مظهره بسيطا وبديعا، دون ما شيء من النفاق أو السَّلاطَةالتي عرفت عن الرهبان، ودون ذلك الصَّلَف المالوف لدى نجوم المجتمع، وإن كان واحدا منهم.. لم يكن يبدي سوى اعتداد الرجل الشريف، الذي يحترم نفسه -دون ان يخجل من لباسه- ويشعر دائما بانه في الوسط المحترم إنما يكون في مكانه الطبيعي. ومع انه لم يكن جد متعلم بالدرجة التي تتفق مع "الدكتوراه" التي كان يحمِلُها إلا انه كان كامل العُدة والاستعداد لان يكون من رجال المجتمع.. ولم يكن يَتلهَّفُ على ان يعرض معرفته، وإنما كان يستغلها في الفرص المناسبة، حتى لقد كان يظن انه أُوتِّي من المعرفة اكثر مما كان يملك!.. ولما كان قد عاش طويلا في المجتمع الراقي فإنه كان يُولي المؤلفات المستحبة من الاهتمام اكثر مما كان يولي العلم

(١) سبق ان شرحنا مذهب الرهبان الجبليين في الجزء الأول، ونضيف انهم من "الفرنسيسكان".

الجاف. وكان حاضر البديهة، يقرض الشعر، ويجيد الكلام، ويحذق الغناء، وقد وهب صوتا جميلا، كما كان يعزف على "الأرغن" و"البيانو". وكان هذا اكثر مما يكفي لان يجعله منشودا ومرغوبا -وهكذا كان بالفعل!- بيد ان ذلك كله لم يحمله على ان يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه، فلم يلبث ان اختير -برغم غيرة مزاحميه- نائبا لرئيس طائفته في إقليمه. وبمعنى آخر، كان من أرفع افراد الطائفة شانا!

ولقد تعَرفَ الاب "كاتون" إلى "ماما" لدى المركيز "دانترمون". وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية في احاديث القوم، فاعرب عن رَغْبَةٍ في المساهمة فيها. وقد فعَل، فاكسبها بهجة! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى، إذ كان هذا الميل -لدى كل منا- ولعا متاججا، وكان كل ما بيننا من فارق هو انه كان موسيقيا موهوبا حقا، في حين انني لم اكن سوى مُتطَفِّلٍ على الفن! وكنا نذهب فنعزف في غرفته، مع "كانافا" والاب "باليه"، كما كنا نعزف على ارغنه احيانا في ايام الأعياد. وكثيرا ما كنا نتناول غداءنا على مائدته الصغيرة، فقد كان -وهذا ايضا من دواعي العجب بالنسبة لراهب- كريما، مِغْدَاقاً، ذواقة للاطعمة في غير نهم. وكان في ايام حفلاتنا يتناول عشاءه في دار "ماما"، فكانت تلك المآدبُ كثيرة المرح والسرور، يقال فيها كل ما يخطر بالبال، وتُلْقَى فيها الأغاني الثنائية.. بينما استرسل انا على سجيتي، فاغدق الملح والطرائف. وكان الاب "كاتون" يبدو لطيفا، و"ماما" تستاثر بالإعجاب بينما يغدوُ الاب "باليه" هدفا للضحك، بصوته الذي يشبه خوار الثور!.. اينها اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب لكم طالَ بك البعاد!..

وبما انني لن اعود إلى الكلام عن هذا الاب "كاتون" المسكين فإني اوجز هنا قصته المحزنة في كلمتين: فإن الرهبان الآخرين الذين كانوا يغارون منه -أو بالاحرى يحقدون عليه- إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة، ليس فيها من فساد الرهبان شيء. أوسعوه كراهية لانه لم يكن بغيضا مثلهم!.. فاجتمع رؤساؤهم عليه، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه، والذين لم يكونوا يَجْرُءوَن من قبل على التطلع إليه، ومناوأته.. فرُمِيَ بالف إهانة، واقصي عن منصبه، وانتزعت منه حجرته التي كان قد اثثها باناقة وبساطة معا، وحبسوه حيث لا ادري.. واخيرا، اغرقه اولئك التعساء بوصمات لم تَقْوَ نفسه الشريفة الابية -بحق- على احتمالها، وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس، مات اسى على فراش حقير "بوش"، في ركن ما من "زنزانة" أو "جب"، ماسوفا عليه ومبكيا من جميع الأشراف الذين عرفوه، والذين لم يجدوا فيه اي عيب سوى انه كان راهبا!

*****

وفي سياق هذه المعيشة، لم البث ان غَدَوْتُ -بعد أمد وجيز- غارقا في الموسيقى.. والفيتني بعيدا عن التفكير في اي شيء آخر، ولم اعد اذهب إلى مكتبي إلا غصْباً، فقد اصبح الإرهاقُ والجهد الدائب يُسبِّبَانِ لي عناء لا يطاق.. وانتهيت اخيرا إلى الرغبة في ترك منصبي، لاكرسَ نفسي باكملها للموسيقى! وفي وسع المرء أن يتصور ان هذه الحماقة لم تقابل بغير معارضة، فإن ترك منصب شريف، ودخل ثابت، للجَرْيِ وراء تلاميذ غير مضمونين (١)، كان نَهْجاً خلوا من الحكمة، بحيث لم يكن يرضي "ماما".. بل إننا إذا افترضنا أن توفيقي المقبل بلغ ما كنت اتصوره من ضخامة فإن ذلك كان يحد من طموحي ويَحْصُرُه في نطاق متواضع، إذ يهبط بي طوال العمر إلى مركز الموسيقي (الموسيقار)!.. واخذت تلك المراة التي لم تكن ترسم سوى ابدع الخطط، والتي لم تعد تحكم علي

(١) كان يعتزم ان يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى.

قط وفقا لراي السيد "دوبسون"، اخذت تَرَمقُني في الم وانا أشغل جديا بموهبة كانت تراها غير مربحة، وكثيرا ما كانت تردد لي ذلك المثل الريفي الذي قل ما يصدق في "باريس": "إن الذي يُتْقِنُ الغناء ويحذق الرقص، يتخذ لنفسه مهنة قل ان ترفع من قدره"!.. على انها -من ناحية أخرى- كانت تراني منساقا لميل لا يقاوم، فإن ولعي بالموسيقى غدا جنونا، ومن ثم فقد حق لها ان تخشى ان يتاثر عملي من جراء انشغالي، فيؤدي إلى ان احرم منصبي، وهو امر كان من الخير ان اقدم عليه بنفسي(١).. ومرة أخرى بينت لها ان هذا المنصب لم يكن مقدرا له ان يدوم طويلا، وانه لابُدَّ لي من مهنة اكْتَسِبُ منها عيشي، وان السعي إلى ان اكتسب بالمران حذْقاً للفن الذي كان ميلي يدفعني إليه -والذي اختارته لي هي- اضمن من ان اضع نفسي تحت رحمة من يولونني حماهم، أو ان احاول عملا جديدا قد يجانبني فيه التوفيق، وقد يدعني -في النهاية- بلا موارد لكسب عيشي، بعد ان اكون قد تجاوزت سن التعليم!.. وانتزعت أخيرا موافقتها، بالغضب واللُّجَاجة والملاينة اكثر مني بالحجج المقنعة!.. فهرعت لفوري مقدما استقالتي إلى السيد "كوتشيللي" -المدير العام للمساحة- في زَهْو وخيلاء، وكانني اقدمت على اكثر الاعمال بطولة.. وهكذا تركت منصبي طواعية، دون ماداع، ولا عذر، ولا مبرر.. بل في اغتباط يفوق اغتباطي يوم ظفرت به قبل عامين!

هذه الخطوة -برغم انها كانت حماقة مطلقة- اكسبتني في البلاد نوعا من الاعتبار الذي افادني. وظن البعض انني استند إلى موارد لم اكن امتلكها في حين ان غيرهم قدروا موهِبَتي على ضوء تضحيتي -وهم يرونني انصرفُ بكل نفسي إلى الموسيقى- واعتقدوا إزاء كل هذا الولع بالفن انني لابد على معرفة فائقة به!.. ولما كان الاعور ملكا في مملكة العميان فقد اخذني القوم على انني استاذ بارع؛ لانه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين!.. وإلى جانب ذلك فإنني لم يكن يعُوزُني حذق الغناء -إلى درجة لا بأس بها- كما كنت مفضلا بسبب سني وشكلي، فسرعان ما اصبح لي من التلميذات اكثر مما كان يلزمني لتعويض مرتبي كموظف كتابي!

ومن المؤكد انه لم يكن بوسع امرئ ان ينتقل -في سبيل الاستمتاع بالحياة- من أمْرٍ إلى نقيضه، باسرع مما انتقلت انا!.. ففي المساحة كنت امارس -ثماني ساعات في اليوم- أشَدُّ الاعمال كآبة، مع اناس كانوا هم الآخرون اشد الناس كآبة، حَبِيساً في مكتب مسمم بانفاس وعرق كل هؤلاء الاجلاف الذين كان معظمهم بالغي القذارة، مشعثين -حتى إنني كنت اشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق احيانا! فإذا بي الآن، بدلا من ذلك، اجدني أغُوصُ فجاة في المجتمع الراقي، واصبح مَرْغُوباً ومنشودا في خير البيوت، احظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام في كل مكان، حيث ترتقب وصولي آنسات لطيفات انيقات، ليستقبلنني في تلهف!.. لا ادري سوى الاشياء الفاتنة، ولا أشُمُّ سوى الورد وزهر البرتقال، ولا احاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو.. ولا اغادر بيتا إلا لاجد كل هذا في بيت آخر!.. ولسوف يقرني القارئ على انه -وقد تساوت الميزات- لم يكن ثمة مجال للتردد في الاختيار. والحق انني رَضِيتُ عن اختياري إلى درجة انني لم استشعر النَّدم قط.. حتى في هذه اللحظة، وانا ازن اعمال حياتي بميزان العقل، بعد ان تحررت من البواعث النزقة التي كانت تحدوني إذ ذاك!

ولقد كانت هذه هي المرة الوحيدة -تقريبا- التي لم أطِعْ فيها سوى ميولي، فلم يَخِبْ رجائي! ولقد ادت الحفاوة السلسة، والروح اللطيفة، والطباع السهلة التي اوتيها اهل تلك البلاد إلى جعل اتصالي بالدنيا امرا مستحبا، وقد كان الميل الذي تملكني إذ ذاك نحو هذا كله، دليلا اثبت لي بجلاء

---

(١) اي إنه كان من الخير ان يستقيل بدلاً من ان يقال!

انه إذا كان قد قدر لي الا احب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذَنْبَهُمْ اكثر مما هو ذنبي!

ومما يؤسف له ان اهل "سافوا" ليسوا اغنياء -أو لعله كان امرا اجدر بالأسف ان يكونوا اغنياء!- ذلك انهم، على ماهم عليه، خير من عرفت من الناس، واحسنهم معاشرة. وإذا كانت في الدنيا مدينة صغيرة نتسنى فيها عذوبة الحياة، في وسط ملائم ومامون فهذه المدينة هي "شامبيري".. فإن الاسرات العريقة في الإقليم، التي تتجمع في هذه المدينة، لم تُؤت إلا ما يكفيها للعيش، دون ما زيادة.. وهم بحكم الضرورة -نظرا لعجزهم عن الإغراق في طموحهم- يتبعون نصيحة "سينياس" (١)، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم في وطنهم بسلام. وبذلك يتقاسم الشرف والحكمة حَيَاتَهُم، اما نساؤهم فجميلات وجميلات بحق، إذ إنهن يمتلكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة، بل وما يُغْني عنه. ومن العجيب انني -وقد قُدِّر لي بحكم مهنتي ان ارى كثيرا من الشابات- لا اذكر انني رايت واحدة في "شامبيري" لم تكن فاتنة!. قد يقال: إنني كنت ميالا لان اراهن فاتنات، وربما كان في هذا بعض الحق ولكنني لم اكن بحاجة إلى ان أضيفَ إليهن سحرا من خيالي. والحقيقة انني لا املك ان افكر في تلميذاتي الشابات دون ان اطرب.. وكيف اذكر هنا أبدعهن حسنا، دون ان اتمثلهن معي في تلك الايام الهانئة التي نعَمْنا بها!.. تلك اللحظات البريئة العذبة التي قضيناها معا؟!.. كانت اولاهن الآنسة "دي ميلاريد"، جارتي واخت التلميذ السيد "جايم". وكانت سمراء طروبا، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين، ومجردة من كل نَزَق، وكانت -كمعظم لداتها- تميل إلى النحافة، ولكن عينيها اللامعتين، وقوامها الاهيف، وخلقها الجذاب، لم تكن في حاجة إلى زينة كي تروق للإبصار. ولقد اعتدت ان اذهب إليها في الصباح فاجدها عادة في ثياب البيت، لا يزين راسها سوى شعرها الذي رفعته في إهمال، وقد ازدان ببضع زهرات كانت تُوضَعُ عند وصولي، ثم ترفع عقب انصرافي ليتسنّى تنسيق الشعر!.. ولست اخشى في الدنيا اكثر من شابة في ثياب البيت! -وتقل خَشْيَتي هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة في كامل ثيابها!- اما الآنسة "مانتون"، التي كنت اذهب إليها بعد الظهيرة، فكانت دائما في كامل ثيابها، وكانت هي الاخرى تُحْدِثُ في نفسي اثرا بالغ الرقة، ولكنه من نوع مختلف. كان شعرها اشقر مغبر اللون، وكانت بالغة الظرف، وبالغة الخجل، ناصعة البياض، ذات صوت صاف، واضح، موسيقي الرنين، ولكنها لم تكن تجسرُ على رفعه. وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشا عن ماء مغلي. ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تماما، فكانت تجتذب انتباهي، الذي لم يعد -بعد زمن قصير- ينحصر في الندبة وحدها!

وهناك الآنسة "دي شال"، التي كانت هي الاخرى من جاراتي. وكانت فتاة ناضجة، وَافِيَة العود، عريضة المنكبين، تميل للبدانة. وكانت طيبة جدا. ومع انها لم تكن جميلة إلا انها جديرة بالذكرى لكرم خلقها، واعتدال طباعها، وطيبة سَجيتها. اما اختها السيدة "دي شارلي" -اجمل امراة في "شامبيري"- فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ولكنها أتاحتْ التعلم لابنتها التي كانت لاتزال صغيرة، والتي كان جمالها الناشئ يوحي بانه سَيُضَارِعُ جمال امها، ولولا انها -لسوء الحظ- كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة. وكانت لي في "دير الزيارة" آنسة فرنسية صغيرة "غاب عني اسمها ولكنها جديرة بان تحتل مكانا بين الاثيرات لدي". وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة مُتَّئِدَة، متراخية.. وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقي ملحا طريفة، لا تبدو ملائمة لوقارها! وعدا ذلك كانت كسولا، لا تحب ان تَتَجشَّمُ عناء إظهار ذكائها -إذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرئ!.. ولم يخطر

---

(١) كان "سينياس" وزير "بروس" ملك "ابيروس" -إحدى جزر اليونان -ولبن "اخيل" الذي قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب الطروادية.

لها ان توليني هذا الصنيع إلا بعد شهر او اثنين من التدريس، فقد شاءت ان تجعلني اكثر مواظبة على موافاتها، إذ إنني ما استطعت قط ان أحْمِلَ نفسي على الدقة في المواعيد، كنت أحب دروسي اثناء قيامي بإلغائها، ولكني لم اكن احب ان أُقسَرَ على حضورها، ولا ان اكون مُقَيَّدا بموعد.. فقد كان التقيد والانصياع امرين لا اطيقهما، بحيث كانا يحملاني على ان اكره السرور ذاته!.. ويقال إن في "تركيا"، لدى "المحمديين"، ينطلق في الطرقات عندما يُشْرِفُ النهار على الطلوع- رجل يدعو الأزواج إلى ان يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم. وإني لخليق بان اكون تركيا غير صالح في هذا الموعد(١).

كذلك كانت لي تلميذات من الطبقة الوسطى، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر في تحولي في علاقاتي، ارى ان اتحدث عنه، مادمت ملزما بان اروي كل شيء. كانت ابنة بدال "بقال"، تُدعى الآنسة "لار". وكانت نموذجا كاملا لتمثال إغريقي، حتى إنني كنت خليقا بان اصفها بانها اجمل فتاة رايتها في حياتي لو قدر للجمال الصادق ان يوجد بلا رُوحٍ ولا حياة!.. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور، تبلغ فيها درجة لا يُصَدِّقُها العقل. وكان من المستحيل إرضاؤُها، كما كان من المستحيل إغضابها، على السواء. وإني لمقتنع بانه لو قُدِّرَ لامرئ ان يحاول العبث بها لتركته يفعل، لا عن ميل، وإنما عن بلادة!.. وهكذا كانت امها -التي لم تشا لها ان تتعرض للخطر- لا تفارقها لحظة. ولقد حاولت بغاية جهدها ان توقظ مشاعرها، إذ اتاحت لها دراسة الغناء، وجاءت لها بمدرس شاب كي يعلمها.. ولكن دون جدوى.. وبينما كان المدرس يَسْعَى لفتنة الابنة كانت الام تسعى لفتنة المدرس، ولكن إحداهما لم تكن اكثر توفيقا من الأخرى!.. كانت السيدة "لار" تجمع إلى نصيبها الطبيعي من الحيوية، ما كان ينبغي لابنتها ان تحرزه! كانت امراة ذات وجه صغير، يقظ، عابس، تناثرت فيه آثار الجدري، وكانت لها عينان صغيرتان، شديدتا التالق، يشوبهما شيء من الاحمرار -لانها كانت منحرفة الصحة باستمرار- وكنت اجد عند وصولي، في كل صباح، قهوتي الممزوجة بالقشدة. ولم يفت الأم قط ان تستقبلني بقبلة تجيد طبعها على الفم، فكنت -بدافع من الفضول- اتمنى لو اردها إلى الابنة، لاتبينَ كيف تتلقاها!.. على ان كلُّ هذا كان يَتمُّ على صورة من البساطة وعدم التكلف، بحيث كانت المغازلات والقبلات تاخذُ مجراها كالمعتاد، إذا ما كان السيد "لار" موجودا!.. وكان رب الأسرة رجلا طيبا، وابا حقيقيا لابنته، فما خدعته زوجته يوما، لانها لم تكن بحاجة إلى ذلك(٢)!

وكنت اتلقى هذه المغازلات بغبائي المعهود، مُفسِّراً إياها على انها امارات للود الصادق!.. على انني كنت اتضايق احيانا، لان السيدة "لار" لم تكن تَغْفُل اداءها قط!.. وكنت إذا مررت خلال النهار بالحانوت دون ان اعرج عليه بخلق ذلك ضجيجا.. فكنت أضْطَرُّ حين اكون في عجلة من امري إلى ان ادور متخذا طريقا اخرى، لفرط يقيني بصعوبة خروجي من لدن السيدة كما دخلت!

وهكذا كانت السيدةُ "لار" شديدةَ الانشغال بي، بالقياس إلى عدم اهتمامي بها. ولقد اثرت في هذه الحفاوات كثيرا، حتى إنني تحدثت عنها إلى "ماما"، وكانها امر غير مستغرب. ولو كان فيها ما يُسْتَغْرَبُ لما كنت اقل حديثا عنها، فقد كان كتمان اي سر عن هذه السيدة امرا غير ممكن. كان قلبي مفتوحا امامها كما هو مفتوح امام الله!.. لكنُّها لم تَتَلَقَّ الامر بمثل ما تلقيته من بساطة، فقد رات ان ما كنت اعتبره "مودة"، إنما كان في حقيقته "مغازلات"!.. وحَدَسَتْ ان السيدة "لار" رات من الكرامة الا تدعني غِرًّا كبيرا كما وجدتني، فسعت -بشتى الطرق- إلى ان تكشفَ لي غايتها!..

---

(١) من المفهوم ان هذه فرية من الفريات التي شاعت في اوروبا في فترة الحروب الصليبية. ولقد كان كل مسلم يسمى تركيا. (٢) يقصد انها لم تكن بحاجة إلى خداعه، إما لانها كانت تمارس التقبيل امامه، وإما لانها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها.

وكان لدى "ماما" من البواعث اللائقة بها، ما جعلها ترغب في أن تعصمني من الشَّراك التي كانت سني وشكلي يُعَرِّضَاني لها، فضلا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها!

ثم نُصِبَ في طريقي شَرَكٌ أخطر من المعتاد! .. وبرغم أنني استطعت أن أنجو منه، فإن هذا الشرك نبه "ماما" إلى أن الأخطار التي كانت تهددني دون انقطاع، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التي رأت أن تتخذها! .. ذلك أن السيدة "كونته مانتون" -أم إحدى تلميذاتي- كانت امرأة واسعة الذكاء، عرفت بأنها أوتيت من الخبث مالا يقل عن ذكائها. وقد تسببت -كما كان يقال- في كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشؤومة على أسرة "دانترمون". وكانت "ماما" على علاقة بها تكفي لأن تُطْلِعَها على أخلاقها، فقد أولعت "ماما" -في براءة- بشخص كانت مدام "دي مانتون" قد بنت عليه آمالا، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان مُوَجَّهاً إليها، برغم أن "ماما" لم تفعل .. بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار، ولم تتقبله! .. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام "مانتون" إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها، لم يُقدر لأية مَكِيدَة منها أن تنجح. وسَأرْوي واحدة من أكثرها إثارة للضحك، على سبيل المثال: فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة -من الجيران- بينهم الشخص المذكور، الذي كانت مدام "دي مانتون" تعلق عليه آمالها. وفي أحد الأيام، قالت هذه لأحد السادة: إن مدام "دي فاران" لم تكن سوى امرأة متحذلقة، وإنها عديمة الذوق، لا تُحْسِنُ ارتداء ثيابها، وتحرص على أن تغطي عنقها كنساء الطبقة الوسطى. فقال السيد، الذي كان مولعا بالمزاح: "أما عن هذه النقطة الأخيرة، فإن لديها عُذْراً، إذ إنني أعرف أن لديها نُدْبَة كبيرة على شكل الفأر البشع، مطبوعة على صدرها، وهي شديدة الشبه بالفأر، حتى ليقال إنها تجري!" .. والحب -كالبغضاء- يُوحِي بالتصديق، لذلك اعتزمت مدام "دي مانتون" أن تستغلُّ هذا الاكتشاف. وفي ذات يوم، بينما كانت "ماما" تلعب الورق مع الشخص الذي جَحَدَ إيثار السيدة، إذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن عنقها .. وبدلا من أن يرى السيد فأرا كبيرا، رأى شيئا على النقيض تماما، لم يكن نِسْيَانُه بأسهل من مشاهدته! .. وهذا مالم يكن في حُسْبَان السيدة!

وبرغم أني لم أكن بالشخصية التي تَشْغَلُ بال مدام "دي مانتون"، التي لم تكن تبغي حولها سوى اللامعين، فإنها أولتني بعض الاهتمام، لا من أجل شكلي -الذي لم يشغلها البتة بالتأكيد- وإنما من أجل ذكائي المزعوم، الذي كان من المحتمل أن يجعلني ذا نفع لها .. فلقد كانت مُحْتَدِمة الميل للهجاء، وكانت تحب نظم الأغاني والأشعار في هَجْوِ الذين لا يروقون لها .. فلو أنها وجدت لدي كفاءة كافية لمعاونتها في نظم أشعارها، واستعدادا كافيا لكتابتها لكان في وسعنا -فيما بيننا- أن نُقيمَ "شامبيري" ونقعدها! .. وكان في الوسع طبعا الاهتداء إلى مصدر هذه الهجائيات، وإذ ذاك كانت السيدة "مانتون" كفيلة بأن تتنصل من المسألة بأن تضحي بي، فَيُلْقَى بي في السجن .. ولعلني كنت أمكث فيه بقية عمري، لأنني قمت بدور "فيبوس" (١) مع السيدات!

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث -لحسن الحظ- فقد استبقتني مدام "دي مانتون" مرتين أو ثلاثا للغداء، لتستدرجني في الحديث، فألفت أنني لم أكن سوى أبله! وكنت -أنا نفسي- أشعر بذلك، وأتحسر له، وأغبط صديقي "فينتور" على مواهبه، في حين أنني كنت جديرا بأن أحمد غبائي إذ أنقذني من المخاطر! وهكذا ظللت -بالنسبة لمدام "مانتون"- المدرس الذي يُلقِّنُ ابنتها الموسيقى، لا

---

(١) فيبوس: من أسماء أبولون إله النبوات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان .. كما أنه كان إله النهار والشمس، ومنهما اشتق اسم "فيبوس". وهو ابن الإله "جوبيتر" رب الأرباب وأبوهم لدى الرومان.

اكثر.. ولكني عشت في امان، وظللت مرغوبا في "شامبيري".. وهذا افضل من ان اكون ذكيا -في نظرها- وافعوانا في نظر بقية القوم!

✽✽✽✽✽

وإذ كان الامر على هذه الشاكلة فقد رات "ماما" -لانتزاعي من مخاطر شبابي- ان الوقت قد حان كي تعاملني كرجل، وهذا ما فعلته.. ولكن، باغرب طريقة فذة خطرت لامراة في ظروف مشابهة: فقد وجدتها اكثر جدية في مسلكها، واكثر ادبا في قولها، مما عهدتها.. واستبدلت -للفور- بالمرح الماجن الذي اعتادت ان تمزجه بتعاليمها، لهجة متحفظة على الدوام، لم تكن مالوفة ولا قاسية، ولكنها كانت تشبه التمهيدَ لشرح ما!.. وبعد ان بحثت عبثا، في اطواء نفسي، عن سبب لهذا التحول، سالتها.. وكان هذا ما تنتظره، فإذا بها تقترحُ ان نخرج للنزهة في البستان الصغير في اليوم التالي، فذهبنا إليه منذ الصباح. وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يَكْفُلُ بقاءنا وحيدين طوال النهار الذي استغلته في إعدادي للنعم التي شاءت ان تُغْدقَها علي.. لا بالمغازلات والإغواء -كما تفعل اية امراة اخرى- وإنما باحاديث مُفْعَمَة بالعاطفة والحكمة، قصدت بها إلى تعليمي اكثر مما قصدت إلى إغوائي، وكانت تنفذ إلى قلبي اكثر مما تنفذ إلى حسي! ومع ما كانت عليه هذه الاحاديث من بَهَاءٍ ونفع، وبالرغم من انها لم تكن سوى احاديث فاترة حزينة إلا انني لم اولها كل ما كانت تستحق من انتباه، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الاوقات الاخرى.. بل إن استهلالها -ذلك المسلك التمهيدي- بلبل فكري، فجعلني احلم واشرد -بالرغم مني- وهي تتكلم.. وغدوت اقل اهتماما بما كانت تقوله، مني بالبحث عما كانت تَبْغي الوصول إليه!.. وما إن فهمت -وهو ما لم يكن بالسهل علي- طرافة الفكرة التي لم تجل ابدا بخاطري، طيلة الوقت الذي عشته معها، حتى تملكتني الفكرة تماما، فلم اعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لي "ماما".. لم اعد افكر إلا فيها هي وحدها، دون ان أُنصتَ إليها!

إن الرغبة في حمل الشباب على الإصغاء لما يراد قوله لهم، بإطلاعهم مُقَدَّماً على غاية جد مشوقة لهم، اسلوب معكوس، وإن كان جد مالوف لدى المعلمين، حتى لقد عجزت -انا نفسي- عن تحاشيه في كتابي "إميل". فإن الشاب إذ يُؤْخَذُ بالغاية التي يُوعَدُ بها، يُشغل بها وحدها، ويتخطى في تسرع احاديثك التمهيدية، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التي تسعى به إليها في بطء بالغ -حسبما يرى هو- اما إذا ارُيد الاستحواذُ على أنتباهه فيجب الا يُمكَّنَ من ان يَنفذ إلى الغاية مقدما، وهذا ما اساءت "ماما" تقديره. فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط، إذ فرضت شروطا. ولكني لم اكد اتبين جزاء هذه الشروط، حتى أنصَرَفْتُ عن سماعها، وبادرت إلى الموافقة على كل شيء.. بل إنني لاشك في وجود رجل في الدنيا يقوى -مهما تكن امانته وجلده- على المساومة في مثل هذه الحال، وفي وجود امراة واحدة تقبل ان تَغْفرَ له ذلك إذا فعله!.. وكنتيجة لطريقتها الفريدة وضعت "ماما" في هذا الاتفاق اشدُ قُيُودٍ ادبية، ومنحتني ثمانية ايام افكر خلالها.. وهي مهلة اكدت لها -كذبا وزورا- انني لم اكن بحاجة إليها.. فالواقع انه مما زاد من غرابة الموضوع، وبلغ بها ذروتها انني كنت جد مُغْتَبِط بتقبل هذا المشروع، بقدر ما اذهلتني طرافته، وبقدر ما شعرت بانقلاب في افكاري، كان يتطلب مني وقتا لتنظيمها!

ولقد يُخَيَّل ان هذه الايام الثمانية بدت لي كثمانية قرون، ولكن الامر كان على النقيض، فلقد

تمنيت لو انها امتدت فعلا إلى هذا الأجل!.. ولست ادري كيف أصِفُ حالي، فقد كانت لونًا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوق إليه، إلى درجة انني فكرت جدِّياً -في بعض الأوقات- في وسيلة مهذبة لتفادي الهناء الموعود!.. وتصور طباعي المتهورة النزقة، ودمي الفائر، وقلبي المنتشي بالحب، وصحتي الموفورة، وسني!.. »وتذكر انني في هذه الحال، وفي ظمئي إلى النساء، لم آكن قد مَسَسْتُ بعد واحدة منهن!.. ومن هنا فإن الخيالَ، والحاجة، والغرور، والفضول، تجمعت كلها لتُذْكي في نفسي رغبة نهمة متاججة في ان اكون رجلا، وفي ان اثبت انني رجل!.. يضاف إلى ذلك -وهذا امر يجب الا يغفل- ان تعلقي الحنون، المحتدم، بـ"ماما" كان بعيدا عن التضاؤل، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم حتى لم اعد أهْنأُ إلا بقربها، وحتى إنني لم اكن أفارقها إلا لافكر فيها، وحتى إن قلبي كان مترعا، لا بطيبتها ولطفها فحسب، وإنما بجنسها، وشكلها، وشخصها.. وبإيجاز: بها، بجميع الاعتبارات التي كانت تجعلها عزيزة علي!.. ولا يخطرن بالبال انها كانت قد اكتهلت، أو بدت لي مكتهلة؛ لانني كنت اصغرها بعشر او اثنتي عشرة سنة، فالواقع انها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط، بل إنها -في نظري- لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التي كنت اغيب فيها في نوبات من النشوة، من سحر النظرة الأولى!.. كانت تَبْدوُ لي فاتنة دائما، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك، في تلك الآونة.. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة، بعض الشيء. عدا ذلك، فإنها احتفظت بنفس العين، ونفس البشرة، ونفس الصدر، ونفس الملامح، ونفس الشَعْر الاشقرِ الجميل، ونفس المرح.. وبكل شيء، حتى صوتها، ذلك الصوت الشاب ذو الجَرْسِ الفضّي، الذي كان له دائما تاثير كبير على نفسي، حتى إنني لا استطيع -إلى اليوم- ان اسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة، دون ان اتاثر به!

ومن الطبيعي أن الأمر الذي كان لي ان اخشاه خلال انتظار الظفر بامراة حبيبة كهذه هو التَعَجُّل وعدم المقدرة على ضبط شهواتي بدرجة كافية، فاصبح خيالي مسيطرا علي. ولسوف ترى أن مجرد التفكير في بعض الافضال الطفيفة التي كانت ترتقبني بالقرب من الحبيبة -في سن متقدمة- كانت تلهب دمي إلى الدرجة التي يستحيل علي عندها ان اجتاز دون عناء الفارق القصير الذي كان يفصل بيني وبينها. فكيف كان يَتَسَنَّى لي -وانا في عنفوان الشباب- ان اشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى؟.. وكيف قدر لي ان أرقُبَ ساعة القرب، بالم اكثر مني بابتهاج؟.. كيف حدث انني شعرت بنفور وخوف تقريبا، بدلا من ان أشْعُرَ بالمباهج التي كانت خليقة بان تسكرني؟ لا شك في أنني لو كنت قد استطعت الفرار من هنائي -بطريقة مهذبة- لفعلتُ بكل قلبي.. ولقد وعدت بان أروي عجائب في تاريخ تعلقي بها، وهذه -بلاشك- عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا!

ولا شك ان القارئ يرى -في استنكار- أنها وقد استسلمت لرجل غيري، قد حطت من قدرها في نظري وهي تشركني مع هذا الرجل، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليق بان يكون قد هدأ من سَوْرَة تلك المشاعر التي الهمتنيها.. ولكن القارئ يخطئ في هذا الظن، فإن هذا الإشراك كان قاسي الإيلام لي حقا.. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعري بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن أنني وجدت الأمر غير لائق بها ولا بي في الواقع. وبوسعي أن اقسم بانني لم اكن مشغوفا بحبها يوما قدر ما شغفت عندما كنت قليل الرغبة في الظفر بها، فلقد كنت اعرف عن قلبها الطاهر، ومزاجها الجليدي ما يعصمني من أن اظن لحظة أن للذة الحسية دخلا في هذا الإقدام منها على أن تمنحني نَفْسَها!.. وإنما كنت مقتنعا -تمام الاقتناع- بأن مجرد الاهتمام بتجنيبي مَخَاطِرَ لم يكن من سبيل سوى هذا

لتفاديها، وبصوني من أجل نفسي وواجباتي فحسب، هو الذي جعلها تأخذ على عاتقها "واجبا" لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء، كما سأبين فيما بعد. ولقد اشفقت عليها، كما أشفقت على نفسي، ووددت لو اقول لها: "لا يا "ماما"، لا ضرورة لهذا، سأردعُ نفسي بدون هذا". . ولكني لم اجسر، اولا: لأن هذا لم يكن بالشيء الذي يقال، وثانيا: لأنني شعرت في قرارتي بأن هذا غير صحيح، وانه ليست ثمة سوى امراة واحدة تملك -في الواقع- أن تصونني عن بقية النساء، وأن تعصمني من الغوايات. وكنتُ -دون ان اشتهي الظفر بها- جد مسرور لأنها كانت تصدني عن اشتهاء الظفر بالأخريات، إلى درجة انني رُحْتُ اعتبرُ كل ما يشغلني عنها لوناً من النحس والشقاء!

ولقد كانت الفتنا الوثيقة، ومعاشرتنا البريئة، ابعد من ان توهن مشاعري نحو "ماما"، بل إنها عززتها، ولكنها -في الوقت ذاته- اتجهت بها اتجاها جديدا، فجعلتها اكثرُ وجْداً، وربما اكثر هُيَاماً، ولكنها كذلك اقل شهوة. وبحكم مناداتي إياها بـ"ماما"، وبحكم معاملتها بالفة الابن اعتدت ان اعتبر نفسي بمثابة ابنها! واعتقد ان هذا كان السبب الحقيقي في قلّة تعجلي للظفر بها، برغم انها كانت جد حبيبة لدي. وإني لأذكر بجلاء ان احاسيسي الأولى كانت اكثر شهوانية، دون ان تكون نشيطة مُحَفّزَة. فكنت في "انيسي" نشوان، ولكني لم اعد كذلك في "شامبيري". ومع انني ظللت احبها دائما بكل وجد ممكن إلا انني ازددت حبا لها لذاتها، كما غدوت اقل حبا لها من اجل نفسي، او انني لم اعد -على الأقل- اسعى إلى هنائي بقدر ما كنت اسعى إلى استِمْتَاعي بقربها. كانت -بالنسبة لي- اكثر من اخت، واكثر من ام، واكثر من صديقة، بل واكثر من عشيقة، ولهذا السبب بالذات، لم تكن عشيقة!.. وبإيجاز: كنت احبها إلى درجة تجعلني لا اشتهيها.. وهذا اوضح مافي آرائي وافكاري!

وحَانَ اخيرا اليوم الذي كان مرهوبا، اكثر منه مرغوبا!... ووعدت بكل شيء، فلم انكث بوعودي. ولقد عزز قلبي عهودي دون أن يطمع في جزاء. ومع ذلك فإنني ظفرت بالجزاء.. ورأيتني للمرة الأولى في احضان امراة، وامراة كنت اعشقها.. افكنت سعيدا؟.. لا!.. لقد تذوقت اللذة، ولكن شعورا بأسى طاغ سَمَّمَ سحرها، فكنتُ وكانني ارتكبت جريمة الزنا مع إحْدَى المحرمات.. ولقد بللت صدْرَهَا بدموعي مرتين او ثلاثا، وانا اضمها بين ذراعي في وجد.. اما هي، فلم تكن حزينة ولا مرحة، وإنما كانت حنونا وساكنة. ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهواني، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط فإنها لم تشعر بالمتعة، ولا عانت الندم إطلاقا!

وإني لأكرر ان كل زلاتها ترتبت على أخْطَائِهَا، وليس عن شهواتها قط.. كانت طيبة المنبت، وكان قلبها طاهرا، وكانت تحب الأمور الشريفة، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة، وذوقها رقيقا.. ولقد نشأت على لُطف الشَمَائل، وهو ما كانت تُحِبُّه دائما، وإن لم تتْبَعهُ قط، لأنها بدلا من ان تنصت إلى قلبها -الذي كانَ يرشدها إلى الصواب- كانت تُصْغِي إلى عقلها الذي كان يخطئ في إرشادها!.. وعندما كانت المبادئ الزائفة تُضللها كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما. ولكن "ماما" كانت -لسوء الحظ- تخدع نفْسَهَا بالفلسفة، وقد ادت المبادئ الخلقية التي استمدتها منها، إلى إفساد المبادئ التي كان قلبها يمليها عليها!

وكان السيد "دي تافيل" -عشيقها الأول- هو أستاذها في الفلسفة، وكانت المبادئ التي لقنها إياها هي تلك التي وجدها ضرورية لإغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، فاترة دائما، مفكرة، منيعة على الأحاسيس الشهوانية، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات. وانتهى إلى

إقناعها بأن واجباتها -التي كانت مُتَشَبِّثَةً بها- لغو من تعاليم الدين التي وضعت خصيصا لتسلية الأطفال، وأن الاتصال الجنسي -في حد ذاته- هو أقل التصرفات أهمية، وأن الوفاء الزوجي محض التزام ظاهري، كل قيمته الخلقية مجرد رأي!.. وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثَمَّ فإن الخيانات المجهولة -التي لا يكون لها أثر لدى من ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها- لا أثر لها على الضمير كذلك!.. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا افتضح، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بطهرها الفاضل لهذا السبب وحده. وهكذا وصل الوغد إلى غايته، فأفسد عقل طفلة، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها!.. ولقد عوقب على ذلك بأعتى ألوان الغيرة، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما علمها أن تعامل زوجها! ولست أدري ما إذا كان على خطأ في ذلك، فإن الراهب "بمبوبه" خلفه في علاقته بها. إنما الذي أدريه هو أن الطَّبْعَ البارد الذي أوتيته هذه المرأة، والذي كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك كان هو عين ما منعها -بعد ذلك- من أن تنبذه!.. فما قدر لها أن تدرك أن الناس تخلع أهمية على الشيء الذي لا قيمة له لديها، وما مجدت قط -باسم الفضيلة- زهدا لا يكبدها سوى جُهْد بسيط!

على أنها لم تسئ قط استغلال هذه المبادئ الزائفة من أجل نفسها، وإنما استغلتها من أجل الغير، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادئ زيفا، وإن تمشت مع ما فطر عليه قلبُ السيدة من طيبة. فلقد كانت تعتقد دائما أن لا شيء يربط أي رجل بامرأة سوى ظَفَرِه بأربه منها. ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة فإن مودتها كانت من اللطف والرقة بحيث إنها كانت تَسْتَخْدِمُ كُلَّ وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها.. والغريب في الأمر أنها كانت توَفَّقُ في بلوغ غايتها باستمرار تقريبا. فقد كانت حبيبة حقا، حتى إن المرء كلما عظمت الألفة التي يعيش عليها معها ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها. وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة، هو أنها بعد ضعفها الأول، لم تكن تخلعُ أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين. وكان اللامعون يفقدون سدى العناء الذي يتكبدونه للوصول إليها، ولكن.. إذا ما بدأت تشعر بالإشفاق يوما على رجل فلابد من أن يكون هذا الرجل قليل الجدارة بالحب، إذا هي لم تَنْتَهِ إلى أن تحبه!.. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها، لا تصدر في اختيارها عن الميول الخسيسة التي لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم، المفرط الرحمة، المفرط الحنان، المفرط الحساسية.. هذا الخلق الذي لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين!

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غَرَّرتْ بها فكم من مبادئ رائعة اعْتَنَقَتْها، فلم تتخل عنها قط!.. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحي ضعفها، إذا جاز للمرء أن يُطْلِقَ هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر!.. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية أحسن تعليمها في ألف ناحية أخرى. ثم إن عواطفها -التي لم تكن متأججة مندفعة- كانت تُتِيحُ لها أن تتبع دائما أضواء العقل، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تُضَلِّلها السفسطة.. كانت دوافعها حميدة، حتى في أغلاطها، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل، ولكنها لم تكن تنوى على الزلل عن رغبة وطواعية.. كانت تكره الرياء والكذب، وكانت منصفة، عادلة، شفُوقا، منكرة لذاتها، وفية لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها -التي كانت تعترف بأنها واجبات- عاجزة عن الانتقام والبغضاء، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصَّفْحِ أية ميزة أو فضيلة!.. وأخيرا، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التي لم يكن لها فيها عُذْر يذكر نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة

التي كانت تخلعها على من يقع عليهم اختيارها، ولا كانت تتخذ منها مادة للاتجار أو المساومة.. كانت سخية في إغداق هذه الأفضال ولكنها أبدا لم تكن تبيعها، بالرغم من انها كانت في شغل دائما بموارد العيش.. وإني لاجرؤ على القول: إنه إذا كان سقراط قد استطاع ان يحترم "أسباسيا" (١) فإنه كان قمينا بان يحترم مدام "**دي فاران**"!

وإني لاعرف مقدما انني إذ أصِفُهَا بالشخصية الحكيمة، والطبيعة الباردة، سوف اتهم بالتناقض كالمعتاد، وبحق. ولكن من الجائز ان الطبيعة قد اخطات، وان اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب ان يوجد. ولكنني لا اعرف سوى انه قد وجد فعلا!.. إن كل الذين عرفوا مدام "**دي فاران**" -ومنهم عدد كبير لايزال على قيد الحياة- يعلمون انها كانت كذلك. بل إنني لاحرؤ على ان اضيف انها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة، وتلك هي "تَيْسِيرُ الاستمتاع بالحياة لاولئك الذين كانت تحبهم. ومن المباح لكل امرئ ان يُنَاقِش ما تقدَّم بحرية تامة، وان يثبت عن علم ودراية انه غير صحيح. إن مهمتي هي ان اقول الحق، ولكن ليس ان احمل الناس على تصديقه!

ولقد المتُ شيئا فشيئا بكل الذي قلته، خلال الأحاديث التي اعقبت اتحادنا(٢)، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل هذا الاتحاد عذبا، ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في ان يكون صنيعها ذا نفع لي، فقد افدتُ منه في تعلمي فوائد كثيرة: فلقد كانت "**ماما**" -حتى ذلك الوقت- تتحدث إلي كما لو كنت طفلا، ولكنها بدات تُعَامِلُني كرجل، فحدثتني عن نفسها. وكان كل ما قالته لي مشوقا ومثيرا لاهتمامي، فتاثرت به إلى درجة انني كنت -إذا ما استعدته لنفسي- اخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها. ونحن عندما نشعر ان مُحَدِّثنا إنما يتحدث من فؤاده، تتفتح قلوبنا لتلقي اعترافاته.. ولن يقدر لكل ما لدى اي مدرس من علم، ان يصل إلى مَرْتَبَة الثرثرة العاطفية الناعمة التي تفيض من امراة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه!

ولقد هيات لها ظُرُوفُ الالفة الوثيقة التي عشت فيها معها، فرصة تكوين راي عني ينطوي على مزيد من التقدير عن ذي قبل.. كانت ترى انني -على الرغم من خجلي وتقاعسي- اهل لان ادرب على الحياة، وانني لو ظهرت يوما في مستوى معين لتسنى ان اصبح في مركز يمكنني من ان اشق طريقي، وبهذه الفكرة، كَرَّسَتْ نفسها لا لتشكيل وعيي فحسب، وإنما لصوغ مظهري وَمَسْلَكِي كذلك، حتى تجعلني جديرا بالحب وبالتقدير معا. وإذا صح ان النجاح في الدنيا يقترن بالفضيلة -وهو مالا اؤمن به من ناحيتي- فإنني مقتنع على الاقل بانه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التي اتخذتها "**ماما**" ورغبت في ان تلقنني إياها!.. فلقد كانت مدام "**دي فاران**" تفهمُ الجنس البشري، وتفهم -إلى درجة عالية- فن التَّعامل مع الناس دون خداع أو تهور، ودون غش اوإساءة ولكنها كانت تُلَقِّنُ هذا الفن بشخصيتها اكثر منها بدروسها، وكانت اكثر معرفة بممارسته منها بشرحه، وكنت انا -دون رجال العالم طرا- اقلهم قابلية لان اتعلمه!.. ومن ثم فقد كانت مُحَاولاتُها -في هذا الاتجاه- جهودا مضيعة، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودني باساتذة للمبارزة والرقص. ومع انني كنت لَدنَ العوُد، حسن القوام إلا انني لم اتعلم قط كيف ارقص، ولو لدقيقة واحدة، فلقد اعتدت -بفضل البثور "**الكاللو**"- ان اسير على عقبي قدمي، وهي عادة لم يستطع "**روش**" ان يشفيني منها. وبالرغم من خفة مظهري فإنني لم اكن قادرا يوما على ان اقفز عبر حفرة عادية. وكانت حالي انكى في مدرسة المبارزة. فقد ظللت- بعد ثلاثة اشهر من الدراسة-

---

(١) "أسباسيا": كانت عشيقة بريكليس السياسي الاثيني، في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد ولقد كان صالونها ملتقى للامعين من مشاهير اثينا. (٢) يقصد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام "دي فاران"

مضطرا إلى ان أقْتَصِرَ على الصَّد والمراوغة، بعيدا عن ان اقوى على الهجوم.. كما أنني لم أوت قط رسْغا لينة أو ذراعا ثابتة، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها. أضف إلى ذلك أنني أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة، ومن المدرس الذي كان يحاول أن يعلمنيها. فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل اي إنسان!.. ولكي يُدْخِلَ المدرس علْمَهُ الواسعُ في ذهني اعتاد الا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى، التي لم يكن يلم بشيء منها، فوجد اوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع(١)، وبين المسافات الموسيقية التي تحمل الاسم ذاته. وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خَادِعَة، دعاني إلى ان انتبه إلىDIESE (٢)، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما FIENTES(٣).. وإذا اراد ان يطوح بشيشي من يدي قال ضاحكا إن هذه "وقفة".. وقصارى القول: إنني لم أر في حياتي متعالما(٤) لا يطاق أكثر من هذا المسكين، بريشه وصدارته الجلدية.

ومن ثم فإن تَقَدُّمي في تدريباتي كان بسيطا، حتى إنني لم البث ان هجرتها لمجرد كراهيتي لها ولكني احرزت تفوقافي فن اكثر نفعا، هو: القناعة بحظي، وعدم الطمع في نصيب اشد بريقا، كنت قد بدأت اشعر انني لم اخلق له!.. وإذ كنتُ منصرفا بكل نفسي إلى الرغبة في إتاحة حياة سعيدة لـ"ماما"، فإنني كنت احس دائما بمزيد من الغِبْطَةِ في قُرْبِها.. ولما كانت دروسي الموسيقية كثيرا ما تضطرني إلى البُعْدِ عنها لاهرع إلى المدينة فإني بدأت -برغم شغفي بالموسيقى- اشعر بضيق من هذه الدروس!

ولست أدري ما إذا كان "كلود آنيه" قد لاحظ تَوَثُّق علاقتنا، وعندي ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا لم يَخْفَ عليه، لقد كان فتى شديد الذكاء، ولكنه كان شديد التكتم، لا يتحدث قط بما يناقض تفكيره، بيد انه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما، ومع انه لم يُبد انفه بادرة عن علمه بالأمر إلا انه اظهر هذا العلم بمسلكه.. وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس، وإنما عن اعتناق لمبادئ سيدته، مما لم يكن يملك معه ان يَسْتَهْجِنَ تصرفها وفقا لهذه المبادئ. ومع انه كان أصغر منها سنا إلا انه كان من النُّضُوج والوقار بحيث إنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح، بينما رُحنا ننظر إليه كرجل محترم، نكن له تقديراً ومراعاة.. وما ادركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها إلا بعد ان خَانَتْهُ. ولما كانت تعلم انني لم اكن افكر إلا بفكرها، ولا أَشْعُرُ إلا بشعورها، ولا اتنفسُ إلا عن طريقها، فقد أطْلَعَتني على مدى حبها له، حتى اكن له نفس المحبة، وكانت اقل إسهاما في بيان ودها، منها في بيان تقديرها له، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع ان اشاركها إياه كل المشاركة. وكم من مرة هفت بقلبينا -انا وهو- وجعلتنا نَتَعَانَقُ باكيين، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معا لإسعاد حياتها!.. الا ليت اللائي يقرأن هذا لا يبتسمن في خبث!.. فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة امرا لا مرية فيه.. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب!

وهكذا قامت بين "ثلاثتنا" زَمَالَةٌ قد لا يكون لها مثيل على الأرض!.. كانت جميع أمانينا، وميولنا، وقلوبنا مشتركة، وما كان اي منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة. وأصبح اعْتِيَادُ العيش معا، والحياة في مَعْزِلٍ عن الدنيا، من القوة بحيث إن كل شيء كان ينقلب في انظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة، أو شاركنا الوجبات رابع!.. وبالرغم من الروابط الخاصة التي كانت بيننا فإن الخلوات بين اي اثنين منا لم تكن في حلاوة اجتماع ثلاثتنا.. وكان الذي حال دون اي توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة، والذي عصمنا من الملل هو اننا كنا جد مَشْغُولِين، إذ كانت "ماما" لا تنفك

---

(١) من مصطلحات ابعاد الخطوات في المبارزة. (٢) علامة من علامات الموسيقى ترفع العلامة التي تليها بنصف مقام. (٣) المعنى اللغوي يخدع أو يخزر.. وفي الموسيقى نغم حاد.. (٤) المتعالم هو الذي يدعي العلم..

تبتكر المشروعات ولا تكفّ عن العمل، ولا تسمح لأي منا بأن يركن إلى الخمول.. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفي لملء أوقاتنا. وفي رأيي أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة!.. وليس أدعى لتضييق الأفق، ولا أكثر مدعاة للتفاهة، واللغو، والأحقاد، والمنغصات، والأكاذيب، من أن تمكث جماعة -إلى الأبد- بين جدران غرفة واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار!.. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء يقال. أما إذا لم يكن لديه عمل فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها!.. بل إني لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول: إنه لابد -لجعل أية صحبة ملائمة حقا- من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أي كان، فحسب، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام. فالحياكة مثلا ليست عملا، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياكة تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين. أما حين تطرز، فإن الأمر يختلف، إذ إن التطريز يشغلها بدرجة تكفي لملء فترات الصمت. والمزعج المضحك، هو أن ترى في مكان ما مثلا اثني عشر أخرق ثقيل الدم، يقومون، ويجلسون، ويغدون، ويروحون، ويدورون على أعقابهم، ويحركون التحف -التي على رف المدفأة- مائتي مرة، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب.. ما أبدعها من مهمة!.. مثل هؤلاء -أيا كانوا- يصبح بعضهم عبئا على بعض، وعلى أنفسهم! ولقد اعتدتُ -حين كنت في "موتييه"- أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة في دور الجيران.. ولو أنني عدت إلى ذلك المجتمع لحملت في جيبي دائما "البيلبوكة" (١)، وللعبت بها طوال النهار، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لدي ما يقال. ولو أن كل امرئ فعل ذلك، لأصبح الناس أقل شرا، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم، وأحب، على ما أعتقد! وقصارى القول: دع الماجنين يضحكون، ولكني أرى أن المذهب الخلقي الوحيد الذي في متناول القرن الحاضر، هو مذهب "البيلبوكية"!

وإلى جانب هذا، لم يكن لدينا وقت كاف للتحوط ضد السأم عندما نكون معا، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض!.. ولم يكن الضيق -الذي اعتادوا أن يوحوا إلي به من قبل- قد تضاءل. وكل ما كان هناك من اختلاف هو أنني لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسي إليه!.. ولم تكن "ماما" المسكينة قد فقدت شيئا من شغفها القديم بالمشروعات والخطط، بل إن الأمر كان على النقيض، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية أخذت تزداد إغراقا في المشروعات لسد هذه الحاجات.. وبقدر ما قلت مواردها الراهنة ازدادت تدبيرا لها في أوهامها بشأن المستقبل. ولم يزدها مرور السنين إلا إغراقا في هذا التهوس، وبقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط. فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين، والصناع، والكيمياويين والمغامرين على اختلاف أنواعهم، الذين كانوا يبعثرون الثروات بالملايين، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار!.. ولم يكن أي واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين، وقد كان من بواعث ذهولي أنها كانت قادرة -لوقت طويل- على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها، أو تستنفد صبر دائنيها!

كان المشروع الذي شغلها أكثر من أي شيء آخر -في الوقت الذي أتحدث عنه- والذي لم يكن أبعد المشروعات التي صاغتها عن المعقول، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات في "شامبيري"، يعين لها مدير! وفي وسع المرء أن يفهم مقدما من الذي كان موعودا بهذا المنصب. فإن موقع هذه المدينة وسط جبال "الألب" كان جد مناسب للتجارب النباتية، ولما كانت "ماما" تحاول دائما أن تساعد كل

---

(١) البيلبوكة: لعبة تتألف من كرة مثقوبة، تتصل بخيط دقيق بعصا صغيرة مدببة في أحد طرفيها، ومجوفة في الآخر. ويمسك المرء بالطرف المدبب، ويطوح الكرة في الهواء محاولا إدخالها في الطرف المجوف. وقد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك.

مشروع بآخر، فإنها قرنت هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة، الامر الذي بدا مفيدا -حقا- لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة ان الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبا!.. وكانت إقامة الطبيب الاول "جروسي" في "شامبيري" -بعد موت الملك "فيكتور"، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة، او لعلها هي التي أوحت بها. ومهما يكن الامر فإنها اقبلت على تملق "جروسي" المذكور الذي لم يكن بالشخص السهل المراس بل كان اكثر من عرفت في حياتي سخرية وقسوة، وسيحكم القارئ على ذلك من حادثين أو ثلاثة اذكرها كنماذج!

فلقد كان "جروسي" يتشاور يوما مع اطباء آخرين، استدعي أحدهم من "انيسي" ليعالج مريضا. وجرؤ هذا الاخير -الذي لم يكن قد استكمل لياقته كطبيب- على ان يعارض راي السيد الطبيب الأول "جروسي"، فكان رد هذا الاخير عليه، ان ساله عن موعد عودته من حيث اتى، وعن الطريق التي اعتزم ان يسلكها، والمركبة التي سوف يستقلها! وإذ اجاب الآخر عن كل هذه الاسئلة، سال "مستجوبه" بدوره عما إذا كان يستطيع ان يؤدي له اية خدمة، فقال "جروسي": "لا، لا خدمة هناك.. وإنما اريد ان اقف في نافذة على طريقك، لاستمتع برؤية حمار يركب جوادا"!

وكان "جروسي" بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس. ولقد اراده احد اصدقائه يوما على ان يقرضه نقودا، بضمانات طيبة، فقال له وهو يمسك بذراعه، وقد كشر عن انيابه: "يا صديقي.. إذا هبط القديس "بطرس" من السماء ليقترض مني عشر "بيستولات" (١)، وقدم لي المهد المقدس ضمانا لما اقرضته!".. وفي ذات يوم، دعي للغداء لدى السيد "الكونت بيكون"، حاكم "سافوا" -الذي كان شديد التدين- فوصل قبل الموعد، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح. وإذ لم يدر الطبيب بماذا يجيب، ابتسم ابتسامة رهيبة، وركع، ولكنه لم يكد يتلو اثنتين من التسبيحات الملائكية، حتى عجز عن الاحتمال، فنهض على حين غرة، وتناول عصاه، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة! فهرع الكونت "بيكون" خلفه، وهو يصيح به: "يا سيد "جروسي"! يا سيد "جروسي"! امكث، فإن على السفود حجلا بديعا" (٢). فالتفت إليه الآخر مجيبا: "يا سيدي الكونت لو انك وهبتني ملاكا مشويا لما بقيت!".. هذا هو السيد الطبيب الأول "جروسي"، الذي تولته "ماما" وانتهت إلى ترويضه. ومع انه كان جم المشاغل إلى اقصى حد، فقد اعتاد ان يتردد كثيرا جدا على دارها، وقد اصطفى "آنيه" فآثره بوده، مبديا تقديره لعلمه، متحدثا عنه باحترام. والامر الذي ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا، انه راح يعامل الوصيف باحترام كبير، ليمحو آثار الماضي! ذلك لانه وإن كان "آنيه" لم يعد في مرتبة الخدم إلا انه كان من المعروف انه كان من قبل خادما، ولم يكن يعوزه شيء قدر مسلك الطبيب الاول، واحترامه، كيما يعامله الناس باسلوب ما كانوا لياخذوه قط عن شخص آخر سوى "جروسي"!.. وكان "كلود آنيه" ببزته السوداء، وشعره المستعار الجيد التنسيق، ومظهره الجاد الوقور، ومسلكه الرصين الحذر، وإلمامه الواسع بعلم النبات والطب، وتاييد رئيس الكلية له، خليقا بان يجعله يامل -بحق- في أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية، لو قدر للمشروع أن يتحقق! والواقع ان "جروسي" حبذ المشروع، واحتضنه، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكي، سوى اللحظة التي يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير في الأشياء المفيدة، وتوفير بعض المال من اجلها.

ولكن هذا المشروع -الذي كان من المحتمل أن يصرفني تحقيقه إلى التفرغ لعلم النبات، إذ كان يخيل إلي انني خلقت له- اخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التي تقلب خير الخطط المتناسقة.

---

(١) عملة ذهبية قديمة، كانت ليملها تنعير بتغير العصر والبلد الذي يصكها. (٢) السفود: السّواء. والحجل: نوع من الطيور.

وكان مقدرا علي ان اصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس. ومن الممكن القول: إن العناية الإلهية -التي كانت تبتليني بتلك الاختبارات الضخمة- كانت تزيحُ بيدها كل ما كان يمنعني من خوض تلك المحن. ففي إحدى الجولات التي كان "آنيه" يقوم بها إلى اعالي الجبال للبحث عن "الجنية" -وهي نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الالب، وكان السيد "جيروسي" بحاجة إليه- تعرض الفتى المسكين لحرارة ادت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء البلوري)، لم تقو "الجنية" على إنقاذه منها، برغم ما كان يقال من انها علاج لهذا الداء بالذات. وبالرغم من كل مهارة "جيروسي"، الذي كان نطاسيًا حاذقا حقا، وبالرغم من العناية التي لا حد لها والتي بذلناها -سيدتهُ الطيبةُ وانا- له، فإنه مات بين ايدينا، في اليوم الخامس، بعد ان عانى آلاما فظيعة في النزع الاخير، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتي التي رحت ابذلها في اسى وحماس بالغين، والتي كانت خليقة بان تسري عنه لو انه فهمها!.. وهكذا فقدت اوفى صديق حظيت به في حياتي.. رجلا جديرا بالتقدير، نادرا، تولَّتْ الطبيعةُ تربيته وتعليمه، وكان -وهو في منصبه كخادم- يغذي قلبه بكل فضائل العظماء، ولعله لم يكن بحاجة- لكي يظهر الدنيا باسرها على انه من هؤلاء- إلا لعمر اطول، ومركز افضل!

وفي اليوم التالي، كنت اتحدث عنه إلى "ماما" باشدّ واصدق الاسى، عندما خطرت لي فجأة -وسط الكلام- ادنأ واخبث فكرة: تلك هي انني خليق بان ارث ثيابه، ولا سيما بزة سوداء انيقة كانت تستهويني!.. فكرت في هذا، فإذا بي افصح عنه، إذ إن التفكير والقول كانا مترادفين عندي حين اكون بالقرب من "ماما". ولم يجعلها شيء اكثر شعورا بالخسارة التي منيت بها، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة، فقد كان إنكارُ الذات ونُبْلِ النفس خصلتَيْن امتاز بهما الراحل. واشاحت عني المراة المسكينة -دون ان تجيب بكلمة- وانخرطت في البكاء.. وما كان اعز دموعها واغلاها! لقد افصحت هذه الدموع عن معانيها، وانسابت إلى فؤادي، فغسلت عنه آخر آثار الاحاسيس الخسيسة، غير الكريمة.. فلم تدخله هذه الاحاسيس بعد ذلك!

ولقد اضرت هذه الخسارة بـ"ماما"، بقدر ما احزنتها، فلم تكف شؤونُها عن الانهيار منذ تلك اللحظة، إذ كان "آنيه" فتى دقيقا، منظما، عني بتنظيم دار سيدته. وكانت يقظته مهابة من الخدم، فإذا الإسراف يتضاءل.. حتى "ماما" نفسها كانت تخشى لومه، وتحد من نفقاتها. ولم تكن تكتفي بحبه، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره، وكانت تخشى اللوم العادل الذي كان يجرؤ احيانا على إبدائه، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب!.. ولقد كنت ارى رايه في هذا، بل واعربت عنه فعلا، ولكني لم اوت ما كان له من نفوذ عليها، فلم يكن لاقوالي ما كان لاقواله من تاثير لديها. ولما لم يعد له وجود اضطررت إلى ان اتخذ مكانه، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه، فلم أُحْسِنْ ملء المركز، إذ إنني كنت قليل العناية، شديد الخجل، فتركت كل شيء يسير على هواه، وانا انحو على نفسي باللائمة، وبجانب هذا، فإنني لم احظ بسلطانه، وإن حظيت بنفس الثقة التي كان ينعم بها. وكنت ارى الفوضى فاتحسر عليها، واشكو منها، ولكن احدا لم يكن يُصْغي إلي. فقد كنت اصغر سنا واكثر مرحا من ان ابدو عاقلا حكيما. وعندما كنت اسعى للتدخل والرقابة كانت "ماما" تقابلني بصَفَعَات بسيطة مُدَلَّلة، وتدعوني بمرشدها الصغير، وتضطرني إلى ان اعود للدور الذي كان يلائمني!

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التي كان إسرافها المطلق كفيلا بان يغرقها فيها -إن عاجلا او آجلا- قد تَرَكَ اثرا في نفسي.. وقد اشتد هذا الاثر كثيرا حين اصبحت -كمشرف على شؤون الدار-

قادرا على أن أتبين بنفسي الفارق بين دخلها ونفقاتها، فقد كانت كَفَّةُ الأخيرة أرجح! - وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذي استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقتير - وأنا لم أكن قط مسرفا في نزق، إلا في نوبات عابرة، ولكني حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نقود كثيرة أو قليلة.. فبدأت اهتم بهذا، وأُعْنَى بكيس نقودي.. وهكذا تحولت إلى البخل، نتيجة باعث رائع جدا، ذلك أن همي الأوحد انحصر - في الحقيقة - في: كيف اقتصد لـ "ماما" شيئا يقيها محنة الانهيار الذي كنت أراه مقبلا!؟ وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها، أو أن ينقطع هذا المعاش نهائيا، فخيل إلي - لضيق عقلي - أن مدخراتي الضئيلة ستكون، إذ ذاك، عظيمة النفع لها! على أنه لادخار شيء ما، ولحفظه - قبل كل شيء - كان لابد من مكان لإخفائه فيه عنها، إذ لم يكن من المجدي لهذه الخطة أن تعرف "ماما" شيئا عن وُجُودِ مدخراتي القليلة، عندما تكون في أشد الحاجة إلى المال!.. ومن ثم رحت أبحث عن عدة مخابئ أودعتها بضع قطع من فئة "اللوي"، معتزما أن أضاعف الرصيد بين وقت وآخر، إلى أن تحين اللحظة التي كنت اعتزم أن أطرحه فيها عند قدميها! ولكني كنت من الارتباك في اختيار مخابئي بحيث إن "ماما" كانت دائما تَعْثُرُ عليها، وإذ ذاك كانت تشعرني بذلك، بأن تأخذ النقود التي أودعتها، وتضع بدلا منها مبلغا أكبر، من عملات أخرى مخالفة!.. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ، فأضع كنزي الصغير في صندوق النفقات العامة، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لي، كسيف ذي مقبض فضي، أو ساعة، أو أي شيء من هذا القبيل)!

وإذ أيقنت من أنني لن أُفْلِحَ في الادخار، وأن ما أدخره لن يكون - بعد ذلك - ذا نفع يذكر لها، شعرت أخيرا بأنه لم يَعُد ثمة ما يُعْمَلُ إزاء النكبة التي كنت أخشاها، اللهم إلا إن أحصل على منصب يمكنني من أن أعولها بنفسي، بمجرد أن تكف عن إمدادي بالمال، وبمجرد أن تجد نفسها في فاقة!.. ووضعت خططي على أساس ميولي الخاصة - لسوء الحظ - فأصررت في غباء على أن أنشد نجاحا في الموسيقى، إذ أحسست بأَنْغَامٍ وألحان تتصاعد في رأسي، فظننت أنني مستطيع - بمجرد أن أصبح في مركز يمكنني من استغلالها - أن أغدو شهيرا، وأن أصبح "أورفيه" (١) حديثا، لا تَخْفَقُ أنغامه في اجتذاب فضة "بيرو" (٢) بأسرها!.. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك أقرأ "النوتة" بإتقان كبير فإن المسألة أصبحت متمثلة في: كيف أستطيع أن أتعلم التلحين؟.. وكانت الصعوبة هي أن أعثر على من يعلمني؛ لأنني لم أكن آمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب "رامو" - الذي كنت أعتز به - فحسب.. ولم يكن في "سافوا" - منذ رحيل "لوميتر" - امرؤ على دراية بأي شيء عن تناسق النغم!

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر التناقض التي تحفل بها حياتي، والتي كثيرا ما أفضت بي إلى أن أحيدَ عن غايتي، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها صادقا: فإن "فنتور" كان قد تحدث إلي كثيرا عن الراهب "بلانشار"، أستاذه في التلحين.. وكان رجلا قديرا، عظيم الموهبة، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى في كاتدرائية "بيزانسون"، وهو يَشْغَلُ اليوم عين المنصب في كنيسة "فرساي". وقلت لنفسي: إنني خليق بالذهاب إلى "بيزانسون" لأتلقى دراسة على الأب "بلانشار"، وقد بدت لي هذه الفكرة معقولة، حتى إنني سعيت إلى أن أحمل "ماما" على أن تراها كذلك. فإذا بها تعمل على

---

(١) "أورفيه" هو "أورفيوس"، الشاعر والموسيقي الإغريقي الذي ورد ذكره في الأساطير على أنه ابن "أبوللو"، ويعزى إليه أنه أنقذ الربة "هاديس" من الموت بموسيقاه العذبة وألحانه الساحرة. وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أمام "هاديس" دون أن يلتفت خلفه لينظر إليها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده، فعادت إلى موتها. وقد نسبت إليه عقيدة دينية تصوفية، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت.

(٢) "بيرو" إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى.

إعداد متاعي البسيط، وقد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء. وهكذا.. بينما كنت أهدف دائما إلى تَفَادي إفلاسها، وإلى ان اصلح في المستقبل نتائج إسرافها، إذا بي ابدأ - في نفس اللحظة- بتكبيدها ثمانمائة فرنك!.. فعجَّلتُ بخرابها لكي اهيئ نفسي لعلاج حالها! ومهما تكن الحماقة التي انطوى عليها هذا التصرف فإن الوهم كان باكمله راجعا إلي، وإليها هي الأخرى. فقد اقنع كل منا الآخر، فكنت من ناحيتي مقتنعا بانني اقوم بعمل نافع من أجلها، وكانت هي مقتنعة بانني اقوم بعمل نافع من أجل نفسي!

وكنت أعَوِّلُ على انني ساجد "فينتور" باقيا في "أنيسي"، فاحصل منه على خطاب إلى الأب "بلانشار". ولكنه لم يكن هناك، وكان علي ان اقنع -من الدراسة كلها- بقداس من اربعة أجزاء، من تلحينه، كان قد تركه لي. وبهذه الشفاعة ذهبت إلى "بيزانسون"، مارا بـ"جنيف" -حيث زُرْتُ اهلي- وبـ"ليون"، حيث زرت ابي الذي تلقاني كالمعتاد، وتكفل بان يرسل في اثري حقيبتي لكنها لم تصل إلا بعدي، لانني كنت مسافرا على جواد.. ووصلت إلى "بيزانسون"، فاحسن الأب "بلانشار" استقبالي، ووعدني بان يزودني بدروسه، وقدَّمَ إلي خدماته. وفيما نحن على اهبة البدء إذا بي اعلم من ابي بأن حقيبتي قد ضبطت وصودرت في "روس"، وهي نقطة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية. وفي غمرة انزعاجي لهذا النبأ، انتفعتُ بالاصدقاء الذين اكتسبتهم في "بيزانسون" لمعرفة السبب الداعي لهذه المصادرة، إذ لم أتصور أيَّ مبرر لها، بحكم اطمئناني إلى انني لم اكن امتلك شيئا من المهربات. واخيرا عرفت السبب، ولابد لي من ذكره لانه امر عجيب! ذلك انني كنت قد التقيت في "شامبيري" بكهل من "ليون" يدعى "ديفيفييه"، كان قد عمل في إدارة الجوازات، في عهد الوصاية، وقد وفد ليعمل في المساحة، لحاجته إلى عمل. وكان قد عاش في المجتمعات الراقية، واوتي مواهب وقدرا من المعرفة، واللطف، والادب، كما كان ملما بالموسيقى. ولما كنت اعمل في حجرة واحدة معه فإن كلا منا مال إلى إيثار الآخر، وسط الدبية المسعورة التي كانت تحيط بنا.. وكان له مراسلون في "باريس" يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة، وتلك المطبوعات اليومية التي تنتشر دون ان يدري احد كيف تنتشر، وتموت دون ان يدري احد كيف تموت، ثم لا يعود احد إلى التفكير فيها بعد ان تغيب عن الذكر. ولما كنت اصطحبه معي احيانا لتناول الغداء لدى "ماما"، فإنه كان يعاملني بقدر كبير من الاحترام. ولكي يجعل نفسه حلو المعشر، كان يحاول ان يحملني على ان أحبَّ هذه الصحفَ التافهة التي كنت انفر منها دائما إلى درجة انني لم اقرأ من تلقاء نفسي شيئا منها في حياتي. ولسوء حظي أن إحدى هذه الوريقات اللعينة، ظلت في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التي لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكي لا يتعرض لها رجال الجمارك.

وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا "يانسينيا" (١) غثا لمشهد جميل لمسرحية راسين "ميثريدات".. ولم اكن قد قرات من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية، ثم تركتها، ونسيتها في جيبي. وكان هذا ما أدى إلى مصادرة أمتعتي، فإن رجال الجمارك الذين اشرفوا على تفتيش حقيبتي بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة، زاعمين انها اجتلبت من "جنيف" لتطبع وتوزع في "فرنسا"، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى، ضد "أعداء الله والكنيسة". ومن المدح والثناء على اولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم ان يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمي!.. ولابد انهم وجدوا ان امتعتي كانت هي الأخرى تَنْضَحُ بالزندقة، إذ إنهم -استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة- صادروا كل

---

(١) اليانسينية مذهب ديني ابتدعه قس هولندي يدعى "كورنيليوس يانسين" في القرن السابع عشر، ونادى فيه بان تعاليم القديس او غسطين بشأن الغفران وحرية الإرادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المعتدلين، لا سيما الجيزويت (اليسوعيين). وقد اشتد الصراع بين أتباع "يانسين" والجيزويت في فرنسا، ومن هنا ندرك الاهمية التي اعطاها موظفو الجمارك على القصيدة التي وجدت لدى "روسو".

شيء، فلم اتلق ابدا اي نبأ أو بيان عن حقيبتي البائسة! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم اوسطهم في الامر، معلومات وبيانات، وشهادات، ومذكرات، بلغ من كثرتها انني بعد ان تخبطت الف مرة في هذا التيه، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء! وإني لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التي وضعها موظفو "روسو"، فقد كانت خليقة بأن تبرز وان تكون موضع امتياز بين الوثائق التي ستصحب هذا المؤلف.

وجعلتني هذه الخَسَارَةُ ابادر بالعودة إلى "شامبيري" دون ان اكون قد ابرمت شيئا مع الاب "بلانشار". وبعد أن وزنت كل الأمور، وتبينت ان النحس يلاحقني في كل مشروعاتي، عقدت العزم على ان انصرف بكل جوارحي إلى "ماما" وحدها، وان اشاركها حظها، والا اعود إلى الاهتمام غير المجدي بمستقبل لم اكن املك إزاءه شيئا. وقد تلقتني "ماما" وكانني جَلَبْتُ إليها كنوزا، وزودت صوان ملابسي الصغير شيئا فشيئا، وسرعان ما تنوسي تقريبا سوء طالعي الذي كان فادحا سواء لي أو لها!

ومع ان هذا النحس قد هَدَّأ من حدة مشروعاتي الموسيقية إلا انني لم اتخل قط عن ان ادرس كتاب "رامو" باستمرار، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى ان استوعبه، وإلى ان اقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين، شَجَّعَني نجاحها. وكان الكونت "دي بيلجارد" -ابن مركيز "دانترمون"- قد عاد من "درسدن" بعد موت الملك "أوجيست". وكان قد اقام ردحا طويلا في "باريس"، واحب الموسيقى حبا جما، وشغف بمؤلفات "رامو" بوجه خاص. وكان اخوه الكونت "دي نالجي" يعزف على الكمان، والسيدة الكونتة "دي لاتور" -شقيقتهما- تجيد الغناء بعض الشيء. فادى كل هذا إلى ان اصبحت الموسيقى هي الهواية الشائعة في "شامبيري"، وأُنْشِئَ نوع من الفرقة الموسيقية العامة. وقد ارادوا في بادئ الأمر منحي إدارة هذه الفرقة، ولكن سُرْعَانَ ما تجلى انها فوق طاقتي، فاتخذت تدبيرات اخرى. ولم اتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحيني، بينها اغنية اصابت رضاء كثيرا. ولم تكن هذه الاغنية قطعة بديعة التلحين ولكنها كانت مليئة بالوان جديدة من الغناء، وبمؤثرات ما كان احد يرتقبها مني. ولم يستطع هَؤُلاءُ السادةُ ان يُصدقُوا انني -وقد كنت اسيء قراءة المقطوعات الموسيقية- كنت في وضع يمكنني من تاليف الحان مقبولة، فلم يرتابوا قط في انني انتحلت لنفسي فخر عمل سواي!.. ولكي يتحروا الأمر اقبل السيد "دي نالجي" ذات صباح ليبحث عني، ومعه إحدى اغاني "كليرامبو"، وقد عدل فيها -كما قال لي- لكي تلائم صوته، غير انه كان من الضروري وضع انغام اخرى للترنيم الثاني، إذ إن التعديل جعل من غير الممكن عَزْفَ الانغام التي وضعها "كليرامبو" على الكمان الكبيرة. واجبته بان هذا عمل ضخم، لا يمكن اداؤه في التو، فظن انني ابحث عن مهرب، والح علي في أن اضع له -على الاقل- انغام ترنيم إلقائي ففعلت. وقد اسات في ذلك بلا شك؛ لانه لابد لي، لكي اجيد اداء اي امر، ان اكون على سجيتي وحريتي.. بيد انني وَضَعْتُ ما طُلِبَ مني وفقًا للقواعد على الاقل، ولما كان السيد حاضرا، فإنه لم يستطع أن يرتاب في انني ملم باصول التلحين. ومن ثم فإنني لم افْقِدْ تلاميذي، ولكنني ازددت فُتُورا -بعض الشيء- نحو الموسيقى، إذ رأيت القوم قد الفوا فرقة موسيقية واهملوني في تاليفها!



وحوالي ذلك الوقت، عقد الصلح وساد السلام، وعبر الجيش الفرنسي الجبال عائدا إلى بلاده..

وجاء عدد من الضباط لزيارة "ماما"، كان بينهم السيد الكونت "لوتريك" -قائد كتيبة "أورليان"، والمندوب المفوض في "جنيف" بعد ذلك، وإذ سَمِعَها تتحدث عني ابدى اهتماما كبيرا بي، ووعدني بامور كثيرة، لم يتذكرها البتة إلا في العام الاخير من حياته، عندما لم أكن بحاجة إليه!.. كما مر بـ"شامبيري" -في الوقت ذاته- مركيز "دي سنيكتير" الشاب، الذي كان ابوه إذ ذاك سفيرا لدى "تورين"، فتناول الغداء في دار السيدة "دي مانتون"، وكنت انا الآخر اتغدى هناك في ذلك اليوم. وبعد الغداء اثار المركيز ذِكْرَ الموسيقى، وكان وَاسِعَ الدِّراية بها. وكانت اوبرا "جيفته" حَدِيثَةَ العهد إذ ذاك، فتكلم عنها، وجيء إليه بها، فإذا به يجعلني ارتجف، إذ اقترح ان نؤديها معا.. وما إن فتح الكتاب، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة، التي يؤديها فريقان من المنشدين "الكورس":

"إن الأرض، والجحيم، بل والسماء ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب"

وسالني: "كم دورًا تريد ان تؤدي؟".. فاجبت: "سآخذ لنفسي هذه الأدوار الستة".. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية، وإذا كنت قد اديت الادوار -مُرْتَبِكاً في بعض الاحيان- إلا انني لم ادر إطلاقا كيف يملك رجل واحد ان يؤدي ستة أدوار -بل دورين- في وقت واحد! وما كبدني شيء من المشقة، في ممارسة الموسيقى، اكثر من القفز ببساطة من دور إلى آخر، موجها عيني إلى فصل باكمله في آن واحد. ولابد أن السيد "دي سنيكتير" انساق -من جراء الطريقة التي اديت بها هذا المشروع- إلى الظن بأنني لم أكن على معرفة بالموسيقى. ولعله اراد ان يَتَحَرَّى صِحَّةَ ارتيابه، فاقترح علي أن اكتب "نوتة" اغنية كان يريد ان يقدمها إلى الآنسة "دي مانتون"، فلم املك ان ارفض.. وراح يترنم بالاغنية وأنا أكتب ودون ان اساله ان يكثر من التكرار. ثم قراها بعد ذلك، فوجدها -كما كانت حقيقة- صحيحة التسجيل. وكان قد لاحظ ارتباكي، فطاب له ان يُطْنِبَ في امتداح توفيقي البسيط. والواقع انني كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى، ولم يكن ينقصني سوى سرعة الاستيعاب، من اول نظرة أُلْقِيهاَ، وهو الامر الذي لم املكه، والذي لا سبيل إلى اكتسابه في الموسيقى إلا بالمران الدائب.. ومهما يكن الأمر، فإنني تقبلت العناية الامينة التي بذلها ليمحو -من اذهان الآخرين، ومن ذهني- الحياء الذي عانيته. ولقد وجدتني مُنْسَاقاً -عدة مرات بعد ذلك- إلى ان اذكره بهذه القصة، عندما كنت التقي به في عدة دور بـ"باريس"، بعد اثني عشر أو خمسة عشر عاما، لاريه أنني كنت احتفظ بالذكرى. ولكنه كان قد فَقَدَ بصره منذ ذلك الحين، فَخَشِيتُ أن أجدد شجونه إذ اذكره بالنفع الذي كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى، وامسكت لساني!

*****

واصل الآن إلى اللحظة التي بدات تربط وجودي الماضي بوجودي الراهن، فإن بعض الصداقات التي امتدت منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر، اصبحت جد غالية لدي. وإنها لتحملني كثيرا على ان اتحسر على ما كنت أَسْعَدُ به من خمول الذكر، حين كان أولئك الذين يعلنون انهم اصدقائي، اصدقاء بالفعل، يحبونني لذاتي، بنية طيبة، لا عن زهو بان يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر، أو عن رغبة خفية في ان يجدوا مزيدا من الفُرص للإساءة إليه!.. وإلى هذه الفترة ارجع معرفتي الأولى

بصديقي القديم "جوفكور" الذي ظل دائما صديقا لي، برغم جهود الآخرين لإبعاده عني.. ظل دائما؟.. لا، مع الأسف! .. فلقد قُدِّرَ لي ان اخسره. ولكنه لم يكف عن حبي إلا حين كف عن الحياة، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره. ولقد كان السيد "دي جوفكور" من ارق وأحَبِّ الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به في ولاء.. أبدا لم ار في حياتي مَلامحَ اكثر صراحة أو رقة.. ولا وجها اكثر وقارا، أو اكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء، أو اكثر إيحاء بالثقة! .. ومهما يكن تحفظ المرء، فقد كان من المستحيل عليه ان يتمالك نفسه -منذ اول نظرة- من ان يصبح على الفة معه، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما! .. حتى انا -الذي كان يجد مشقة في ان يكون على سَجيَّتِه مع الأغراب- اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولى. كان سلوكه، ولهجته، وأقواله، تتمشى مجتمعةً مع ملامحه. وكان رنين صوته جليا، مليئا، واضح الجرس. كان صوتا عذبا، جهوريا، قويا رنانا، يملأ الأذن ويرن في الفؤاد. وما كان في الوسع أن يوجد مرح أكثر اعتدالا، وأكثر لطفا من مرحه.. ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته، ولا مواهب اكثر تأصلا ونموا وإرْهَافاً من مواهبه! .. أضف إلى هذا قلبا ودودا، مسرفا بعض الشيء في حبه للناس جميعا، وشخصية فعالة للخير دون تروٍ! .. وكان ميالا لخدمة الأصدقاء في حمية، أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع ان يَخْدِمَهُمْ، وهو يدرك انه إنما يغدو احذق أداء لشؤونه النزيهة، عندما يخدم بحرارة شؤون الغير!

وكان "جوفكور" ابن ساعاتي بسيط وكان -هو الآخر- ساعاتيا، ولكن شكله وكفاءته قاداه إلى جو آخر لم يتلكأ في ان يَنْفُذَ إليه، فقد تعرف إلى السيد "ديلاكلوسير" -مندوب "فرنسا" المقيم في "جنيف"- الذي أولاه وده، فاحرز له صلات تعارف أخرى في "باريس"، أجدت عليه نفعا، واستطاع بنفوذ أصحابها ان يظفر بحق إمداد "فاليه" بالملح، مما عاد عليه بدخل قَدْرُه عشرون الف ليرة. وقد انتهت به ثروته -وهي جد كافية- إلى هذا الحد في علاقاته بالرجال. أما من ناحية النساء، فقد كان يجد عناء. كان عليه ان يختار، وان يفعل ما يشاء. وكان من أندر وأشرف ما امتاز به أنه في علاقاته بالأشخاص -من كافة الرتب والدرجات- كان مَحْبُوباً من الجميع، مَرْجُوّاً من الناس طرا، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء اي شخص. وإني لأعتقد انه مات دون أن يرى في حياته عدوا واحدا! .. كم كان سعيدا! .. وكان يذهب في كل عام إلى حمامات "ايكس"، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة. وإذ كان على ود مع عليه القوم في "سافوا"، فقد جاء من "ايكس" إلى "شامبيري" لزيارة الكونت "دي بيلجارد" وابيه المركيز "دانترمون".. وفي دارهما عرفته "ماما" وعَرَّفتني به. وقد تجددت هذه المعرفة -التي لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهي إلى شيء. والتي انقطعت عدة سنوات، بعد ذلك- في مناسبة سأرويها، وأصبحت ودا وثيقا صادقا. وهذا كاف لأن يبرر حديثي عن صَديقٍ كنتُ وَثِيقَ الارتباط به. وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية في تذكره، فإنه كان رجلا حبيبا، ولد سعيدا، حتى إنني أعتقد دائما أن ذكراه جديرة بأن تُبْقَى لتكون فخرا للجنس البشري. ومن المحقق أنه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه كغيره من البشر، وكما سيتجلى فيما بعد. ولكن، لعله كان يغدو أقل استئثارا بالمحبة إذا لم تكن له أخطاء. فقد كان من الضروري -لجعله جَديراً بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا- أن يوجد في مسلكه ما يستحق الصفح والغفران!

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد، ولم تفتر بعد، بل إنها لاتزال توعز إلي بالأمل في الهناء الدنيوي الذي يتعذر موته في قلب الإنسان. فلقد شغف السيد "دي كونزييه" -وهو سيد من أبناء

"سافو"، كان إذ ذاك شابا لطيفا- بتعلم الموسيقى، أو -بالاحرى- بالتعرف إلى ذلك الذي يَتَوَلَّى تدريسها. ولقد اوتي السيد "دي كونزييه" ذكاء وميلا إلى الصداقات الجميلة، وكان يقرن هذا بلطف الخلق؛ مما جعله لين الجانب إلى حد كبير، مثلما كنت انا الآخر -إلى حد كبير كذلك- بالنسبة لمن اجدهم على هذه الشاكلة. وسرعان ما توثقت صلتنا (١)، فإن بُذُورَ الادب والفلسفة التي كانت قد بدأت تختمر في راسي، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد "دي كونزابيه"، إذ كان على قَدْرٍ من الميل إلى الموسيقى، فكان في هذا خير كبير لي، لان ساعات الدرس راحت تنقضي في كافة الاشياء عدا التدريب على الالحان. وكنا نتناول الفطور معا، ونتجاذب الحديث، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة، ولا نَفُوهُ بكلمة واحدة في الموسيقى. وكانت الرسائل المتبادلة بين "فولتير" وولي عهد "بروسيا" قد احدَثَتْ ضجة في ذلك الحين، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلينِ الشهيرين، اللذين ارتقى احدهما العرش بعد ذلك بقليل، في حين كان الآخر مَوْضِعَ تشهير -بقدر ما هو الآن موضع تمجيد- مما كان يجعلنا نرثي في إخلاص لسوء الطالع الذي بدا انه كان يلاحقه، والذي كثيرا ما يكون نَصِيبَ ذَوِي المواهب العظيمة. وكان الامير البروسي قد حظي بقسط من السعادة في شبابه، اما "فولتير" فكان يلوح وكانه خلق لكي لا يسعد البتة. وكان الاهتمام الذي تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به، فلم يكن يفوتنا شيء مما كتبه "فولتير". وقد الهمتني المتعة التي حظيت بها من هذه المطالعات، بالرغبة في ان اتعلم الكتابة البليغة، وان احاول ان اقلد ما لهذا المؤلف من اسلوب بديع، كُنْتُ مفتونا به. ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه "الرسائل الفلسفية"، ومع انه لم يكن افضل مؤلفاته إلا انه كان اعظم ما اجتذبني إلى الدرس، ومنذ ولد في هذا الميل لم يقدر له ان يَخْبُو او يَفْتُرا

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كي اتفرغ للادب تفرغا تاما، إذ كانت لاتزال لدي بقية من النَّزَق، والرغبة في الغُدُوِّ والرواح، التي كانت قد هدات وإن لم تكن قد خمدت، والتي وجدت ما يغذيها في سياق العيش في بيت مدام "دي فاران".. فقد كانت الحياة هناك اكثر صَخَبا من أن تلائم مزاجي الانعزالي، إذ إن سيل الاغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الارجاء، واقتناعي بانهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التغرير بها -كل بطريقته- جعلا حياتي في البيت عذابا منتظما!.. فمنذ ان خلفت "كلود آنيه" في الظفر بثقة مولاته، رحت اتعقب عن كَثَبٍ تطور شؤونها، وارى تدهورها الذي كان يزعجني. ولقد أطلعتها، وتوسلت إليها، وضغطت عليها، ورحت انشدها مائة مرة، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق!.. لقد ارتميت على قدميها، وعرضت عليها -باقوى ما وسعني- النكبة التي كانت تتهددها، ورحت انصحها في إلحاح بان تحد من نفقاتها، وان تبدأ بتطبيق ذلك علي انا، وأن تعاني قليلا الحرمان وهي بعد لا تزال شابة بدلا من ان تُضَاعِفَ ديونها ودائنيها باستمرار، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة ايام شيخوختها!.. ومَسَّ صِدْقُ تحمسي عواطفَها، فجارتني في شعوري، ووعدتني باجمل ما في الدنيا من وعود. ولكن كل شيء كان يغدو منسيا، بمجرد أن يصل احد الأفاقين! وبعد الف دليل على عدم جدوى إرشاداتي، ما الذي تراه قد بقي لي -كي افعله- سوى ان اغض بصري عن الشر الذي لم أكن املك دفعه؟ لقد رحت انأى عن البيت الذي عجزت عن حراسة

---

(١) قدر لي ان اراه بعد ذلك، وان اجده قد تغير تغيرا شاملا. فيا للسيد "شوازيل" من ساحر قدير!.. فما قدر لاحد من معارفي القدامى ان ينجو من مقدرته على التبديل!

هذه الإضافة وجدت في الاصول الاولى المكتوبة بخط "روسو"، ولكن لا اثر لها في طبعة "جنيف"

بابه، واخذت اقوم برحلات قصيرة إلى "ليون" و"جنيف"، شغلت بالي عن همي الكظيم، بينما كانت -في الوقت ذاته- تزيد من عبثه، نظرا لنفقاتي!.. وبوسعي ان اقسم بانني كنت خليقاً بان اتحملَ باغتباط كل تضييق، لو ان "ماما" كانت تنتفع حقا من ذلك الاقتصاد.. ولكني كنت مُوقنا من ان ما كنت احرم نفسي منه، كان ينتقل إلى الافاقين، ومن ثم فإنني كنت أسيء استغلال سخائها لكي اقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم.. وكالكلب العائد من المذبح، كنت استولي على قضْمَةٍ من القطعة التي لم استطع ان انقذها من الكلاب الاخرى!

ولم تكن تعوزني الحجج لتبرير كل هذه الرحلات، وكانت "ماما" وحدها تُغَذِّيني بهذه الحجج، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات، والمباحثات، والشؤون، والمهام التي تحتاج إلى شخص مَوْثُوقٍ به. ولم يكن عليها سوى ان توفدني، كما انني لم اكن ارجو سوى ان اذهب.. ولم تُخْفِقْ هذه الحال في تهيئة حياة مليئة بالترحال. ولقد هيات لي هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة، كانت -فيما بعد- مستحبة ونافعة. ومن هذه الصلات التي عقدتها في "ليون" معرفتي بالسيد "بريشون" -وهي المعرفة التي الوم نفسي لانني لم اعمل على تنميتها بدرجة كافية، برغم ما كان السيد قد ابداه لي من طيبة وكرم- ثم تعرفي إلى "باريسو" الطيب، الذي ساتحدث عنه في حينه.. وفي "جرينوبل" تعرفت إلى السيدة "دي ديْبان"، والسيدة حرم رئيس "الباردونانش"(١)، وكانت امراة جَمَّةَ الذكاء، على استعداد لان تؤثرني بودها لو انني اوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها.. وفي "جنيف" تعرفت إلى السيد "ديلا كلوسير" -مندوب "فرنسا" المقيم- الذي حدثني في احيان كثيرة عن امي، التي كانت ماتزال تحتل مكانة في فؤاده، برغم الموت والزمن.. كما تعرفت إلى السيدين "باريو"، وكان الاب منهما -وقد اعتاد ان يناديني بابنه الاصغر- حُلْوَ المَعْشَرِ، ومن اجدر من عرفتهم بالاحترام. وقد قدر لهذين المواطنين ان ينحازا إلى فريقين متعارضين -اثناء اضطرابات الجمهورية- فكان الابن في صُفُوفِ "البورجوازيين"، بينما كان الاب في صفوف الطبقة الحاكمة. وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر -في سنة ١٧٣٧- كنت في "جنيف"، فَقُدِّرَ لي ان ارى الاب والابن يخْرُجُان مسلحين من بيت واحد، احدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته، وهما موقنان من انهما لن يلبثا ان يجدا نفسيهما -بعد ساعتين- وجها لوجه، معرضين لان يقتل كل منهما الآخر!.. ولقد تَرَكَ هذا المنظر الرهيب طابعا عميقا في نفسي، حتى إنني اقسمت الا اشترك قط في اية حرب اهلية، والا اذود بالسلاح عن الحرية -في داخل البلاد- سواء بنفسي او بتحبيذي، إذا ما قدر لي ان امارس حقوقي كمواطن. وإني لاشهد بانني وفيت بهذا العهد في مناسبة عسيرة، ولسوف يتبين -او هكذا اظن، على الاقل- ان هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة.

على اني لم اكن قد بلغت -بعد- هذا الفوران الاول للوطنية، الذي اثارته "جنيف" -بتسلحها- في فؤادي. وللمرء ان يحكم على مدى بعدي من ذلك على ضوء واقعة خطيرة اثرت علي، وقد نسيت ان اذكرها في مكانها، ويجب الا اغفلها: ذلك ان خالي "برنار" كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى "كارولينا"(٢) لإنشاء مدينة "تشارلستون"، التي وضع تصميمها. ومالبث ان مات بعد

---

(١) BARDONANCHE (٢) الظاهر ان "روسو" يقصد "كارولينا الجنوبية"، وهي إحدى ولايات امريكا الشمالية الواقعة على الساحل الجنوبي الاطلسي. وتعتبر "تشارلستون" من اكبر مدنها.

ذلك بقليل. كذلك مات ابن خالي المسكين، في خدمة ملك "بروسيا". وهكذا فقدت عمتي ابنها وزوجها في آن واحد تقريبا، فادى هذان المصابان إلى إذكاء ودها لاقرب قريب بَقِيَ لها، وهو انا.. فكنتُ إذا ما ذهبت إلى "جنيف" أنزلُ لديها، وكنت أتَسَلَّى بان انبش الكتب والاوراق التي تركهَا خالي، واقلب صَفَحَاتِها. وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة، من بينها أوراق ما كان احد ليحدس وجودها يقينا. وكانت عمتي -التي لم تعلق اهمية تذكر على تلك الأوراق- على استعداد لأن تدعني آخذها جميعا، لو انني شئت ذلك. على انني قَنَعْتُ بكتابين او ثلاثة، تحمل تعليقات وشَرْحاً بخط جدي "برنار" القس، ومنها مؤلفات "روهو" اليتيمة (١)، وقد طبعت في مجلد حجم "ربع القطع" (٢)، وملئت هَوَامِشُهَا بملاحظات رائعة، حببت إليّ العلوم الرياضية. ولقد بقي هذا الكتاب بين كتب مدام "دي فساران"، وإني لأشعر بالحزن دائما لأنني لم احتفظ به. وقد أضَفْتُ إلى هذه الكتب خمسا او ستا من المذكرات المخطوطة، وواحدة مطبوعة هي المذكرة الشهيرة التي كتبها "ميشيلي دوكريه"، وكان رجلا عظيم العبقرية، عالما متنورا، ولكنه كثير الشَّطَطِ في آرائه، فلقي معاملة سيئة من حكام "جنيف". وقد مات مؤخرا في قلعة "اربيرج"، حيث ظل سجينا أعواما طويلة، لانه -على ما قيل- اشترك في مؤامرة "بيون"!

وكانت هذه المذكرة نَقْداً رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة، والسخيفة، التي وضعت للتحصينات، والتي حقق جزءا منها في "جنيف"، وقد كانت اضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس(٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل. ولما كان السيد "ميشيلي" قد أُقْصِيَ عن "هيئة التحصينات" لانه عَابَ المشروع، فقد اعْتَقَدَ ان بوسعه كعضو من "المائتين" (٤) -وكمواطن كذلك- ان يعلن رأيه بمزيد من الإسهاب، وهذا ما فعله في مذكرته هذه،، التي أقدم -في غير حكمة- على طبعها، ولكنه لم ينشرها، لانه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ، ارسله إلى "المائتين".. ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد، بامر من المجلس الاستشاري الصغير (٥). ولقد وَجَدْتُ هذه المذكرة بين أوراق خالي، مع الرد الذي عُهِدَ إليه بوضعه، فاخذت كلا منهما. وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن "المساحة" بقليل، ولما ازل على بعض الارتباط بالمستشار "كوتشيللي"، الذي كان رئيسا لها. وقد حدث -بعد وقت قصير- ان رجاني مدير الجمارك ان أقوم بدور الإشبين لطفله. وكانت السيدة "دي كوتشيللي" هي الإشبينة، فادار هذا التكريم راسي، وحاولت -وأنا مزهو بان اغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار- ان اقوم بعمل ذي قيمة، لأبدو جَدِيراً بمثل هذا الشرف العظيم.. وانسياقا وراء هذه الفكرة لم أر أفضل من ان اطلعه على مذكرتي المطبوعة التي الفها السيد "ميشيلي"، والتي كانت -في الحقيقة- تحفة نادرة، كي ابرهن له على انني أنْتَمِيَ إلى علية القوم في "جنيف"، ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة!.. على أنني -بدافع من شيء من الحذر، لم أكن ادري ماتاه -لم اطلعه قط على رد خالي عن المذكرة، ولعل ذلك كان راجعا إلى ان الرد كان بخط اليد، وانه لم يكن ليليق بمقام المستشار

---

(١) اي التي لم تنشر إلا بعد موت مؤلفها. (٢) يكاد يعادل ضعف حجم "كتابي" و"مطبوعات كتابي" او يزيد قليلا في العرض.

(٣) المجلس الذي كان يضم عددا من المستشارين، ويتولى حكم "جنيف". (٤) مجلس المائتين.. يظهر انه كان مجلسا نيابيا يضم ذوي المواهب في "جنيف"، بمثابة مجلس للنواب. (٥) مجلس الشيوخ.

سوى كل مطبوع! .. بيد انه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التي كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها، فلم يقدر لي قط ان استرجعها او ان اراها ثانية .. حتى إذا ايقنت من عدم جدوى جهودي رايت ان استغل الامر، وان احول السرقة إلى هدية! .. ولست أرْتَبُ إطلاقا في انه قد احسن استغلال هذه التحفة في بلاط "تورين" -فقد كانت طريفة اكثر مما كانت نافعة- وانه عني، بطريقة او باخرى، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعي ان يزعم انه انفقه في الحصول عليها! .. ولما كان من اقل احداث المستقبل احتمالا وإمكانا -لحسن الحظ- ان يقدم ملك سردينيا يوما على حصار "جنيف"، وإن لم يكن هذا الامر مستحيلا، فقد ظللت دائما الوم غروري الاحمق الذي جعلني أكْشِفُ مواطن الضعف في استحكامات المدينة لالد اعدائها!

*****

وقضيت عامين او ثلاثة على هذه الحال، بين الموسيقى، والحكام، والمشروعات، والرحلات .. انتقل دائما من امر إلى آخر، وانشُدُ دائما الاستقرار دون ان ادري فيم أستَقِرُّ، ولكني كنت اتجه تدريجيا إلى الدراسة، والتقي برجال الادب، واسمع الاحاديث الادبية، واجرؤ -في بعض الاحيان- على ان أخُوضَها انا الآخر، مقتبسا اساليب الكتب بدلا من ان استوعب محتوياتها! وكنت اقوم بين آن وآخر، اثناء رحلاتي إلى "جنيف"، بزيارات عابرة لصديقي القديم السيد "سيمون"، الذي اذكى كثيرا تحمسي الوليد للادب بتزويدي باحدث الانباء عن "دولته"، وهي انباء كان يأخُذُها عن "بابيه" او عن "كولوميه". كذلك كثيرا ما كنت التقي في "شامبيري" بواحد من "اليعاقبة" كان استاذا لعلوم الطبيعة، وراهبا صالحا. ولقد نسيت اسمه، ولكنه كثيرا ما كان يَقُومُ بتجارب صغيرة اثارت اهتمامي للغاية، فوددت ان أحْذُو حذوه فاصنع المداد العاطفي(١). وللوصول إلى هذه الغاية، ملات زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحي، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء، ثم احكمت سدادها. وبدأ التَّفاعل في الحال -تقريبا- وبعنف شديد، فاسرعت إلى الزجاجة لازيل سدادتها، ولكني لم اصل في الوقت المناسب، فإذا بها تقفز في وجهي وكانها قنبلة .. وأبتلعْتُ الزرنيخ والحديد والجير، فكدت اموت! وقد مكثت اكثر من ستة اسابيع وانا اعمى، وادركت من ذلك انني يجب الا اقحم نفسي في تجارب العلوم الطبيعية، دون إلمام بالعناصر المستخدمة!

وقد الحقت هذه المغامرة ضَرَراً بصحتي، التي كانت في انحدار محسوس منذ فترة من الزمن. ولست ادري من اين جاءني هذا الانهيار، فقد كنتُ حَسَنَ البُنْيَانِ، ولم اكن اقدم على اي إفراط، من اي نوع ومع ذلك فإنني كنت انهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب، عريض الصدر، مما كان يتيح لرئتي فراغا كافيا كي تتحركا بسهولة .. ولكني كنت -برغم ذلك- قصير الانفاس، وكنت اشعر بضيق، وأرسل الزفرات دون إرادة مني. ولقد أصِبْتُ باضطراب في القلب، وأخذت ابصق دما، واستولت علي الحمى البطيئة التي لم تفارقني تماما على الإطلاق .. فكيف يقع المرء في مثل هذه الحال

(١) نوع من المداد يعرف باسم (المداد السري) ولعل "روسو" اسماه المداد العاطفي! لانه كان يستخدم في المراسلات الغرامية، مما لا يجف حتى تبدو الورقة وكانها خالية من الكتابة، إلى ان تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه!

وهو في زهرة العمر، دون أن يكون ثمة أذى داخلي على الإطلاق، ودون أن يكون قد فعل ما يقضي على صحته؟

ويقال أحيانا: إن السَّيْفَ يُبْلِي القراب. وهذه هي قصتي، فإن شهواتي قد أحيتني، وشهواتي قد أماتتني!.. وقد يقال: أية شهوات؟.. كانت توافه.. كانت أكثر أمور الدنيا انطباعا بالطابع الصبياني، ولكنها كانت تثيرني كما كان خليقا أن يثيرني الاستيلاء على "هيلين"(١)، أو على عرش الكون!.. وكانت النساء في مقدمة هذه المثيرات! فكانت حواسي تحتفظ بهدوئها، إذا ما ظفرت بواحدة، ولكن قلبي لم يكن يعرف الهدوء قط! كانت مستلزمات الهوى تنهشني وأنا في غمرة اللذة. وكنت قد أوتيت أما حنونا، وصديقة حبيبة، غير أنه كان لابد لي من عشيقة. وكنت أتمثل العشيقة المنشودة في مكان "ماما"، وأصورها لنفسي في ألْفِ صورة ووضع، لكي أموه على نفسي!.. ولو أنني تذكرت -وأنا أعانقها- أنني إنما كنت أضم "ماما" بين ذراعي، لما فترت حرارة عناقي، ولكن كافة شهواتي كانت خليقة بأن تخبو، وكنت أبكي وجدا، ولا أستمتع بلذة!.. لذة؟.. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان؟.. آه، لو أنه قدر لي يوما -ولو مرة واحدة في حياتي- أن أتذوق كل لذاذات الحب في أوج تدفقها فإني أعتقد أن كياني الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال.. كنت قمينا بأن أموت في مكاني!

وهكذا كنت أكتوي بالحب، دون ما هدف. ولعل هذه الحال هي أشد الحالات إرهاقا!.. وكنت قلقا معذبا لسوء حال شؤون "ماما" المسكينة، ولتصرفاتها غير الحكيمة، التي كان مآلها أن تَقُودَ إلى خرابها تماما، في وقت قصير. وكان خيالي القاسي -الذي يسبق المصائب دائما- يصور لي هذه المصيبة بالذات، دون انقطاع، وبكل مداها، وبكافة نتائجها!.. فرأيت نفسي -مقدما- مضطرا إلى أن افترق -بحكم الفاقة- عن تلك التي كَرَّسْتُ لها حياتي، والتي لم يكن بوسعي أن أستمتع بهذه الحياة، بدونها!.. وهكذا كنت دواما مضطرب النفس.. كانت الشهوات والمخاوف تنهشني بالتناوب!

وكانت الموسيقى -بالنسبة لي- شَهْوَةً أخرى، أقل عتوا ولكنها لم تكن أقل إرهاقا، بفضل التحمس الذي ارتميت به في غَمْرتها، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب "رامو" المبهمة، وبفضل إصراري العنيد على الرغبة في أن أحشو بها ذاكرتي التي كانت ترفضها دائما، وبفضل الجري المستمر(٢)، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التي كنت أراكمها، وكثيرا ما كنت أقضي ليالي بأسرها في نسخها..

ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، في حين أن كل النزوات التي كانت تمر بخاطري دون انقطاع: الأهواء العابرة التي لا تمكث سوى يوم واحد، كرحلة، أو حفلة موسيقية، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها.. كل هذه الأشياء التي كانت أبعدما في الدنيا عن مَسَرَّاتي وعن أعمالي، أصبحت لدي بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة، كانت في جيشانها المستهجن تسبب لي أصدق ألوان العذاب!.. بل إن قِرَآءَةَ مصائب "كليفلاند" الخيالية -وهي القراءة التي كنت أقبل عليها في نهم، والتي كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها- كانت تُثِيرُ أشجاني، فيما أعتقد، أكثر مما كانت تثيرها مصائبي!

---

(١) هيلين الطروادية: كانت أجمل نساء الإغريق، وقد تزوجت من "منيلاوس" ملك أسبرطة.. ولكن باريس -أمير طروادة- اختطفها، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات، وانتهت برد هيلين إلى زوجها. (٢) يقصد التنقل والترحال باستمرار.

وكان ثمة شخص من ابناء "جنيف" يدعى السيد "باجيريه"، عمل فترة في خدمة "بطرس الأكبر" في البلاط الروسي. وقد كان من أعظم الأوغاد، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم في حياتي.. وكان دائما يفكر في مشروعات تماثله حماقة، فقد كان ينثر الملايين كالمطر، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا(١).. وإذ جاء هذا الرجل إلى "شامبيري" من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ، فقد استولى على إرادة "ماما"، كما كان متوقعا. وفي مقابل كنوزه من الأصفار -التي كان يُغْدِقُها بسخاء- اخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة، قطعة بعد قطعة!.. ولم احبه إطلاقا، وقد ادرك هو ذلك -فما كان الأمر يوما بالمهمة العسيرة(٢)- فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كي يتقرب إلي.. وآلى على نفسه ان يغريني بتعلم الشطرنج، برغم انه كان لا يحْذِقُهُ!.. ولقد حاولت ذلك، بالرغم من نفسي تقريبا. وبعد ان تعلمت الحركات في غير ما اكتراث بما إذا كانت صوابا او خطأ، إذا بتقدمي يتزايد سريعا، حتى إنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى ان أرد إليه الهزيمة التي كان قد اذاقنيها في البداية!.. ولم اقنع بذلك، فقد شغفت بالشطرنج، وابتعت طاقما، كما اشتريت "الكالابروا"(٣)، واحْتَبَسْتُ نفسي في غرفتي، ورحت اقضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب، وحشو رأسي بها طوعا أو كراهية، وأنا ألعب وحيدا، دون ما هوادة ولا نهاية!.. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق، والجهود التي تفوق الخيال، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن، شاحب، متلبد الذهن تقريبا. وقُمْتُ بتجربة، فلعبت مرة أخرى مع السيد "باجيريه".. وهزمني مرة، فاثنتين، فعشرين مرة، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة في رأسي، كما كان خيالي بَالِغَ الوهن، حتى إنني لم اعد ارى أمامي سوى سحابة غائمة!.. وفي كل مرة حاولت فيها أن اتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب "فيليدور" أو كتاب "ستاما"، كان يحدث لي عَيْنُ الشيء.. وبعد ان انهك قواي، أجد نفسي اشد ضعفا من ذي قبل. وسواء كنت قد هجرت الشطرنج، أو انني وجدت في لعبه متنفسا لي فإنني لم احرز ابدا اي تقدم منذ تلك الجلسة الأولى، حتى إني لاجد نفسي دائما حيث انتهيت إذ ذاك، ولو انني تدربت آلاف القُرُون لما انتهيت إلا إلى إعطاء "باجيريه" الدور، فحسب!.. وقد تقول: هكذا يستغل الوقت على احسن وجه!.. والحق ان الوقت الذي انفقته في ذلك لم يكن قليلا، وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدي طاقة على الاستمرار.. وعندما ظهرت خارج غرفتي، كُنْتُ أَبْدُو كشخص خارج من قبر. ولو انني استمررت على النهج ذاته، لما ظللت "خارجاً من القبر" طويلا(٤)! وإن المرء ليقر بأن من العَسِيرِ -لاسيما في تحمس الشباب- ان يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في صحة!

ولقد اثر تداعي صحتي على طبعي، كما هدأ من حمية خيالي. فما إن شعرت بضعفي حتى ازددت هُدُوءاً، وفقدت بعض شغفي بالأسفار. وإذ ازددت استقرارا تعرضت لا للملل وإنما للأسى والسوداء، فإذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوبة، وإذا ذبولي ينقلب حزنا واكتئابا، واصبحت أبكي واتنهد دون ما سبب. وشعرت بأن الحياة تَفْلِتُ مني دون أن اكون قد تذوقتها،

(١) يقصد أن الرجل كان يدعي الثراء وهو لا يملك شيئا. (٢) يريد "روسو" بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه، لم يكن بالمهمة العسيرة على اي شخص. (٣) "الكالابروا" رسالة في الشطرنج، وضعها لاعب إيطالي ماهر كان يدعى "جيواكينو جريكو"، عاش في عهد لويس الرابع عشر. (٤) يقصد انه كان خليقا بأن يلازم القبر.. اي يموت.

واخذت اتحسر على الحال التي ساترك "ماما" البائسة فيها، وعلى الحال التي كنت اراها موشكة على التردي فيها.. وبوسعي ان اقول: إن فراقها وتركها في مَشْغَبَةٍ كان مصدر أسايَ الوحيد!.. واخيرا، سقطت مريضا حقا، فراحت تعنى بي كما لم تعن ام بطفلها، وقد كان في هذا خير لها هي الاخرى؛ إذ حَوَّلَهَا عن المشروعات، وصرفها عن اصحاب المشروعات.. ما كان اعذب الموت لو انه جاء إذ ذاك!.. وإذا لم اكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة فإنني لم اشعر إلا بقليل من محنها. وكانت روحي الوادعة خليقة بان ترحل دون الشعور القاسي بظلم الناس.. الشعور الذي يُسَمِّمُ الحياة والموت!.. وكنت اجد العزاء في انني كنت احيا في النصف الافضل من نفسي(١)، وهذا لا يكاد يعتبر موتا! ولولا القلق الذي كنت استشعره إزاء حظها لقضيت نَحْبِي وكانني استسلم للنعاس.. بل إن هواجسي كانت ذات غاية رقيقة لطيفة، خَفَّفَتْ من مرارتها.. ولقد قلت لها يوما: "إن كل كياني بين يديك، فاسعديه!".. وحدث في مرتين او ثلاث -عندما كنت في اسوا حال- ان نهضت في الليل، وجررت نفسي إلى غرفتها؛ لكي اقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها.. نصائح اجرؤ على القول بانها كانت عادلة وحكيمة، ولكن اهتمامي بمصير "ماما" كان يغلب في هذه النصائح على كل شيء آخر.. وكانما كانت الدموع غذائي ودوائي، فقد كنت استمد قوة من تلك الدموع التي كنت اذرفها في قربها، وانا معها، جالسا على سريرها، ممسكا بيديها بين يدي. وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الاحاديث اللَّيلية، ثم اعود إلى غرفتي وانا احسن حالا مما كنت حين بارحتها، وقد اغتبطت واطمانت للوعود التي عَاهَدَتْنِي عليها، والآمال التي بثتها في نفسي.. وإذ ذاك كنت انام بقلب مطمئن، وبثقة في العناية الإلهية. إنني لادعو الله -بعد ان تعرضت لكثير من الاسباب التي تَدْعُو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التي هزت حياتي وجعلتها مجرد عبء- ان يكون الموت الذي قدر له ان يختم هذه الحياة اقل قسوة مما كان في تلك اللحظة!

وبفضل العناية، والسُّهَر، والضَّنَى الذي يفوق التصور استطاعت "ماما" ان تنقذني، ومن المحقق انها الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إِنْقَاذِي. فقد كان إيماني ضعيفا بدواء الاطباء ولكنني اوتيت إيمانا عارما بدواء الاصدقاء الصادقين، ،والاشياء التي يتوقف عليها هناؤنا تفضل كثيرا كافة الاشياء الاخرى!.. وإذا كانت في الحياة عاطفة مستعذبة فإنما هي تلك التي استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر. ولم يزدد شغفنا المتبادل -فما كان من الممكن ان يزداد- ولكنه اتخذ مزيدا من الالفة، لا ادري كيف اشرحه.. وغدا في بساطته الضافية، اشد تاثيرا!.. وهكذا اصبحت بكل كياني صُنْعَ يَدَيْهَا. اصبحت ابنها تماما، بل واكثر مما لو انها كانت امي حقا!.. ودون ما تفكير او قَصْدٍ، لم نَعُدْ نفترق، بل بدانا ندمج كيانَيْنا في وجود مشترك، وداخلنا شعور مشترك بان كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه.. فعودنا نفسينا على الا نفكر في اي شيء غريب عنا، وعلى ان نَقْصِرَ سعادتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك "الاقتناء" المتبادل(٢)، الذي احسبه كان فريدا من نوعه بين البشر، والذي لم يكن -كما قلت- صادرا عن هوى فحسب، وإنما كان اقتناء اكثر واقعية من المالوف.. كان -دون ما استناد إلى الاحاسيس او الجنس او السن او المظهر- يرتبط

---

(١) نصفه الافضل هي مدام "دي فاران"! (٢) يقصد بالاقتناء المتبادل، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام "دي فاران".

بكل مقومات شخصية الفرد!

ترى كيف قدر لهذه المحنة الا تجتلب السعادة إلى حياتنا حتى آخر أيام "ماما" وأيامي؟.. لم يكن هذا ذنبي، ولدي من الدليل ما يعزيني!.. كذلك لم يكن ذنبها هي، أو لم يكن بإرادتها، على الأقل!.. فلقد كُتِبَ للطبيعة التي لا تلين، أن تَفْرِضَ سلطانها(١) سريعا. على أن هذه النكسة المشؤومة لم تكن مفاجئة، بل كانت ثمة مهلة، والحمد للسماء!.. كانت ثمة فترة قصيرة، وغالية، لم تنته نتيجة ذنب مني، ولست الوم نفسي او اتهمها بإساءة استغلالها!

ذلك انني -وإن كنت قد شفيت من مرضي الخطير- إلا انني لم أَسْتَعِدْ قط قواي. فما عادت لصدري عافيته، وإنما لازمتني دائما بقية من الحمى، جعلتني في ذبول وكلل. فلم اعد اصبو إلى شيء سوى ان انفق ايامي إلى جوار تلك التي كانت عزيزة لدي، وان اعضدها في نواياها الطيبة، وان امكنها من ان تحس بما للحياة الهانئة من سحر حقيقي، وان اجعل حياتها على هذه الشَّاكلة فيما يتوقف علي. بيد انني رايت -بل شعرت- ان العزلة المستمرة التي كانت تجمعنا في بيت مُعْتِم كئيب لن تلبث ان تتسم هي الاخرى بطابع حزين. ولاح لنا علاج ذلك، وكانه قفز من تلقاء نفسه، حين اوصتني "ماما" باللبن، ورغبت في ان اذهب إلى الريف لاتناوله هناك. ووافقتها على شريطة ان تذهب معي. وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها، ولم يبق سوى ان نختار المكان. ولم يكن البستان القائم في الضاحية، من الريف تماما.. إذ إنه -لوقوعه بين منازل وبساتين اخرى- لم يؤت فتنة المكان الريفي الملائم للاستجمام.. فضلا عن أننا -عقب موت "آنيه"- تخلينا عن البستان رغبة في الاقتصاد، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلى نباتاته النادرة، كما ان ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على ان نأسف على فقد هذا المنزل!

وانتهزت -إذ ذاك- فُرْصَةَ الشُّعُور بالملل الذي لمسته عندها نحو المدينة، فاقترحت عليها ان نهجرها نهائيا، وان نستقر معا في عزلة مستحبة، في دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين! ولقد كانت على استعداد لان تفعل، وكان هذا الاقتراح -الذي ألهمني إياه ملاكها الحارس وملاكي- كفيلا بأن يضمن لنا -حقا- اياما سعيدة هادئة، حتى اللحظة التي يفرق فيها الموت بيننا، ولكن هذا لم يكن الحظ الذي قُدِّرَ لنا، فقد كُتِبَ على "ماما" ان تَبْتَلِيَ بكل بلايا الفاقة وسوء الحال -بعد ان قضت عمرها في الرخاء- حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها.. اما انا، فقد كتب على ان أعاني التعاسات -من كل نوع- كي اصبح يوما مثالا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة، بحيث يجرؤ -وهو غير مسلح بغير براءته وحدها- على ان يقول الحقيقة للناس جهارا، دون مؤازرة الأنصار، ودون ان يؤلف حزبا لحمايته!

ولقد عمل هاجس نحس على اسْتِبْقَاءِ "ماما"، فلم تجرؤ على ان تهجر بيتها الحقير، خوفا من ان تغضب مالكه. وقالت لي: "إن فكرة العزلة التي تقترحها بديعة، وإنها لتروق لي ولكن لابد من تدبير أسباب العيش، حتى في العزلة. وإني لأتعرض -بمبارحة سجني- لأن افقد مَصْدَرَ عيشي، فإذا لم يَعُدْ

---

(١) يرمي "روسو" بهذا إلى ان حكم الطبيعة -متمثلا في الضعف الذي اصاب صحته- هو الذي فرض عليه وعلى مدام "دي فاران" الا يستمرا في سعادتهما إلى نهاية عمريهما.

لدينا خبز في الغابات أصبح من المحتوم علينا ان نعود إلى المدينة بحثا عنه، ولكي نقلل من حاجتنا إلى العودة، يجب الا نهجر المدينة نهائيا.. فلندفع هذا الإيجارَ البسيط للكونت "دي سان لوران" حتى يَدَعْ لي معاشي(١)، ولنبحث عن مأوى منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش في دعة، وقريب منها بحيث نستطيع ان نعود إليها في الحال، إذا ما دعت الضرورة".. وهذا ما جرى، فبعد بحث قصير، استقر بنا المقام في "شارميت"، وهي ضيعة كان يمتكلها السيد "دي كونزيه"، على مشارف "شامبيري"، ولكنها منعزلة وغير مطروقة، حتى لكأنها تقع على مائة فرسخ منها.. فبين تلين مرتفعين، يمتد -شمالا وجنوبا- واد صغير، يجْرِي في أسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار. وعلى أحد الجانبين -بطول هذا الوادي- بضعة بيوت متناثرة، تُنَاسِبُ كل المناسبة أي امرئ يَهْفُو إلى مأوى خلوي منعزل. وبعد ان تفرجنا على بيتين أو ثلاثة -من هذه البيوت- اخترنا في النهاية ابدعها، وكان ملكا لسيد في خدمة الحكومة يدعى السيد "نواريه". وكان البيت جد ملائم للسكنى، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض، تعلوها كَرْمَةٌ، ويمتد تحتها بستان، وفي مواجهتها غابة من أشجار البلوط، ونبع قريب. وعلى مرتفع من الجبل، مروج لرعي الأنعام. ومجمل القول توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التي كنا نعتزم إيواءها هناك. وبقدر ما أستطيع ان أتذكر الأزمان والتواريخ، تسلمنا البيت حوالي نهاية صيف سنة ١٧٣٦. ولقد طَرِبْتُ في أول ليلة قَضَيْنَاهَا هناك، فقلت لصاحبتي العزيزة وأنا أعانقها واغرقها بدموع الحب والابتهاج: "أواه، يا "ماما"!.. إن هذا المقر لهو وكر الهناء والبراءة.. فإذا لم نجدهما هنا -وكل منا مع الآخر- فليس لنا أن نرجو العُثُورَ عليهما في أي مكان!"(٢).

---

(١) ذكر "روسو" من قبل ان "سان لوران" كان مشرفا على الشؤون المالية لبلاط ملك سردينيا، وان مدام دي فاران لم تطمئن إلى استمرار معاشها إلا بعد ان استأجرت منه ذلك البيت الحقير، فاكتسبت بذلك وده. (٢) في أوائل القرن التاسع عشر آل هذا البيت -الذي أقام فيه "روسو" ومدام "دي فاران"- إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية، وقد أصدر في سنة ١٨١٧ كتيبا عن "شارميت"، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذي اعتاد السياح أن يترددوا عليه. وقد ثبتت إلى جدار المنزل -بقرب مدخله- لوحة حجرية أمر بوضعها "هيرلو سيشيل" في سنة ١٧٩٢ -عندما كان حاكما للمنطقة- وقد نقشت عليها أبيات شعرية للذكرى، هذا معناها:

"أيها المأوى الذي شغله جان جاك.. إنك لتذكرني بعبقريته، وبحبه للعزلة، وبتحمسه وحميته.. وبمصائبه وطيشه.. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة.. وكان دائما مضطهدا، إما بنفسه وإما بالحاسدين"!

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

"هاك كل ما كنت أتمنى: قطعة أرض غير شاسعة،

"وحديقة، ونبع ماء فياض بقرب الدار،

"وإلى جانب هذا.. غابة صغيرة.."

ولم استطع قط أن أضيف إلى هذا:

"لقد حَبَتْنِي الآلهةُ.. بأكثرَ مما اشتهَيْتُ" (١)

ولكن لا باس، فما كنت بحاجة إلى اكثر من ذلك، بل إنني لم اكن بحاجة إلى ان امتلك هذه الاشياء، وإنما كان يكفيني ان استمتع بها!.. ولقد قلت -وشعرت- منذ اجل طويل، ان المالك والمنتفع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين، حتى إذا اقصينا الازواج والعشاق عن المقارنة!

هنا يبدأ هناء حياتي القَصيُر، وهنا اقبلت اللَحَظاتُ الوادعة -وإن كانت وجيزة- التي اباحت لي الحق في ان اقول: "إنني عشت"!.. ايتها اللحظاتُ الغاليةُ، التي آسىَ عليها كل الاسى.. الا ابْدئي من جديد -من اجلي- سريانك الحبيب، وتتابعي في ذاكرتي اكثر بطئا مما كنت في فرارك في الواقع، إذا كان هذا ممكنا!.. كيف لي بان اطيل -كما اشاء- هذا الحديث المؤثر، السّاذَجَ، فاردد نفس الاقوال دائما، دون ان ابْعَثَ في نفوس قرائي -بتكرارها- سَأماً اللهم إلا إذا سئمت انا نفسي العود إلى ترديدها دون انقطاع!.. كذلك، ليت كل هذا يتالف من وقائع، ومن اعمال، ومن اقوال استطيع ان اصفها وان اردها إلى الحياة بطريقة ما، ولكن.. كيف لي ان اقول مالم يقل، ولم يفعل، ولم يطف بخاطر، ولكنه استمرا، بل استشعر -ولست املك ان ابين اي سبب آخر لهنائي سوى هذا الشعور البسيط؟.. كُنْتُ استيقظ مع الشمس، وانا سعيد.. فأتَمشّى، وانا سعيد.. وارى "ماما"، وانا سعيد.. وآفارقها، وانا سعيد.. واهيم في الغابات والربا، وارتاد الوديان، واقرأ، واقعد عن العمل، وأفْلِحُ الحديقة، وأجْنِي الزهور، واساعد في اعمال البيت.. والهناء يَتْبَعُني في كل مكان.. لم يكن ينحصر في شيء معين، وإنما كان يشيع في كل كياني، ولم يكن يُفَارِقُني لحظة واحدة!

ما من شيء جرى لي اثناء تلك الفترة الحبيبة، ولا من شيء فعلته او قلته او فكرت فيه إبانها إلا بَقِيَ فلم يتَسربْ من ذاكرتي. إن الاوقات التي سبقته، والاوقات التي لحقته، لا توافي ذهني إلا بين آن وآخر، فاذكرها دون تمييز، وفي تخبط.. ولكنني اذكر هذه الفترة بأسرها، وكانها ماتزال باقية! إن

---

(١) هذه الابيات من اشعار "هوراس"، وقد اوردها "روسو" باللاتينية، وعلق عليها بالسطر الذي قطع به تتابعها.

خيالي الذي كان يتطلع دائما إلى الامام -في شبابي- والذي اصبح اليوم يلتفت إلى الوراء، يعوضني بهاتين الذكريين الفاتنتين عن الرجاء الذي فقدته إلى الأبد! فإنني لم اعد ارى في المستقبل ما يستهويني، بل إن رجعات الماضي وحدها هي التي تستطيع ان تهفو بعواطفي.. وهذه الذكريات تمتاز -في الفترة التي احدث عنها- بانها بالغةُ الحيوية والصِّدْق، حتى إنها كثيرا ما تجعلني احيا سعيدا برغم بؤسي وسوء حظي!

وإني لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها: ففي أول يوم ذهبنا فيه كي نبيت في "شارميت"، كانت "ماما" في مَحَفَّةٍ محمولة على الأكتاف بينما تبعتها على قدمي. وكان الطريق صاعدا، وهي ثقيلة الوزن -بعض الشيء- فخشيت ان تضاعف من إنهاك قوى الحمالين، ورغبت في ان تهبط في منتصف الطريق تقريبا، لتقطع ما تبقى منه على قدميها. وفيما كانت تسير رايت شيئا ازرق في الحسك(١)، فقالت لي: ها هو القُضَاب(٢) لايزال مُزْهِراً!.. ولم اكن قد رايت القُضَابَ قط، ومع ذلك فإنني لم انحن لفحصه، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكنني من ان اتبين النباتات التي على الأرض، إذا كنت اقف منتصب القامة. واكتفيت بان القيت نظرة على ذلك النبات، وانا امر به.. ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا، قبل ان ارى أيَّ قضاب -مرة أخرى- او القي إليه بالا. وفي سنة ١٧٦٤، كنت في "كريسييه" مع صديقي السيد "دي بيرو"، فتسلقنا جبلا صغيرا تقوم على قمته استراحة "صالون" بديعة، تسمى بحق "بيلفي" -المنظر الجميل- وكنت قد بدات إذ ذاك اهوى دراسة الأعشاب بعض الشيء. وفيما كنا نصعد، ونحن نتامل الأدغال إذا بي اطلق صيحة جذلانة: "آه!.. ها هو ذا القُضَاب!".. وكان ذلك حقا. ولاحظ "دي بيرو" فرحي، ولكنه جهل سببه. ولسوف يعرفه، إذ إنني ارجو ان يقرا يوما ما كتبت هنا. وبوسع القارئ أن يحكم -من الاثر الذي احدثته في نفسي مناسبة تافهة كهذه- على مدى التاثير الذي يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة!

*****

على ان جَوَّ الريف لم يرد إليَّ صِحَّتي السابقة إطلاقا، فلقد كنت ذابلا، وقد ازدادت حالي سوءا، ولم اعد اطيق اللبن، فلم يكن ثمة بد من التحول عنه. وكان الماء هو العلاج الشائع -إذ ذاك- لكل داء، فاقبلت على الماء في غير ماحكمة، حتى إنه كاد يَشْفِيني، لا من عللي، وإنما من حياتي(٣)!.. ففي كل صباح، كنت اذهب -عندما استيقظ- إلى النَّبع، حاملا وِعَاءً كبيرا. وهناك، كنت أشْرَبُ على التعاقب -وانا أتمشى- ما يعادل ملء زجاجتين. وتحولت نهائيا عن تناول الشراب في وجباتي. وكان الماء الذي اعتدت شربه عَسِرَ الهضم قليلا، شان معظم مياه الجبال.. وموجز القول إنني ظللت على نهَجْي، حتى إنني -في اقل من شهرين- اتلفت تماما معدتي التي كنت احتفظ بها حتى ذلك الوقت في خير حال! وإذ لم تعد تهضم، ادركت انني لا ينبغي ان ارجو لها شفاء.. وفي ذلك الحين بالذات وقع لي حادث كان فرَيدا في نوعه وفي عواقبه التي لن تنتهي إلا بانتهاء حياتي!

ففي ذات صباح -لم اكن فيه أسوأ حالا من المعتاد- كنت ارفع مائدة صغيرة على قوائمها، وإذا بي اشعر باضطراب حاد -لايكاد يبدو له سبب- في جميع جسمي. ولست اجد له تشبيها افضل من انه كان مثل نوع من عاصفة هبت في دمي، وانتشرت لتوها في كل أعْضَاء جسمي! واخذت

---

(١) الاعشاب الشوكية التي تحف بالطريق. (٢) نوع من نباتات البري. (٣) هذا هو نص تعبير "روسو". ومن الطريف ان كلمة "يشفي" -في الفرنسية- تعني "يبرئ"، كما تعني "يهلك". وهو عين ما اراده "روسو"!

عروقي تنبض بقوة هائلة حتى إنني لم أشعر بنبضها فحسب، وإنما سمعته، لا سيما نبض الشرايين السباتية. وقد صحب ذلك ضوضاء هائلة في أذني، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أنواع: طنين قوي مكتوم، وخرير واضح كأنه ينبعث من ماء جار، وصفير حاد جدا، ثم النبضات التي ذكرتها، والتي كان بوسعي أن أعد دقاتها دون أن أجس نبضي أو أمس جسمي بيدي! وكان هذا الصخب الداخلي من الضخامة بحيث إنه من إرهاف السمع الذي كان لدي قبل ذلك، وجعلني ثقيل السمع -لا أصم تماما- كما هو شأني منذ ذلك الحين!

وفي الوسع تقدير دهشتي وانزعاجي، فقد خيل إلي أنني أموت، ولزمت سريري، واسْتُدْعِيَ الطبيب فرويت له حالي وأنا أرتجف، إذ كنت أعتبرها بلا علاج! وأعتقد أنه شاركني هذا الرأي، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته، وراح يسرد علي تعليلات طويلة لم أفقه منها شيئا البتة، ثم عمد -تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن- إلى إجراء "تجارب على كائنات حية" (١)، وهو العِلاَجُ التجريبي الذي طَابَ له أن يُجْرِبَهُ معي، وكان جد اليم، ومثيرا، وقليل المفعول، حتى إنني سرعان ما تحولت عنه.. وبعد بضعة أسابيع، رأيت أنني لم أتحسن، ولا ازددت سوءا، فغادرت فراشي، واستأنفت حياتي العادية، مع استمرار نبض عروقي وطنين أذني اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة، منذ ذلك الحين.. أي منذ ثلاثين عاما!

وكنت حتى ذاك الوقت كَثِيَر النوم، فإذا الحرمان التام من النوم -الذي رافق كل هذه الأعراض، والذي ظل يلازمها باستمرار حتى الآن- انتهى إلى إقناعي بأنه لم يَبْقَ أمامي أَجَلٌ طويل في الحياة. وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء، فترة من الزمن. وإذ رأيت أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطرٍ ممكن مما تبقى لي من العمر. وهذا ما تَسَنَّى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة، إذ أعفتني -في مثل هذه الحال المشؤومة- من الآلام التي يبدو أنها كانت قمينة بأن تنتابني. كنت أنضايق من هذه الضوضاء في أذني، ولكني لم أكن أعَاني منها، كما أنها لم تكن مَصْحُوبةً بأية مضايقات مستمرة أخرى، اللهم إلا الأرق في أثناء الليل، وبضيق دائم في التنفس، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجري، أو أرهق نفسي في العمل أكثر مما ينبغي قليلا.

هذا الحادث -الذي كان خليقا بأن يقتل بدني- لم يقتل سوى شهواتي، وإنني لأبارك السماء في كل يوم لهذا الأثر السعيد الذي أحدثه في نفسي. وأستطيع أن أقول: إنني لم أبدأ العيش إلا حين اعتبرت نفسي رجلا ميتا!.. وبينما رحت أقدر الأشياء -التي كنت مُزْمِعا أن أتخلى عنها- بقيمتها الحقيقية، شرعت أشغل بالي بأمور أسمى وأنبل، وكأنما كنت أريد أن أَسْتَبِقَ الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أدائها، والتي كنت قد أهملتها -حتى ذاك الحين- إهمالا شنيعا. كنت كثيرا ما أَمْسَخُ الدين وفقا لهواي، ولكنني لم أكن قط بلا دين على الإطلاق. ولم يكن يكبدني شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لطيف بالنسبة لامرئ ينشد فيه مادة للأمل والعزاء.. وكانت "ماما" -في هذا الصدد- أكثر نفعا لي من كل رجال الدين قاطبة!..

فلم تَغْفُلْ -وهي التي اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا- عن أن تطبق هذا على الدين كذلك. وكان مَنْهَجُهَا يتألف من أفكار جد متباينة ومفككة: بعضها معقول للغاية، والأخرى طائشة جدا.. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها. فالقاعدة أن المؤمنين يَتَمَثَّلُون الله على ضوء أنفسهم، فالطيبون يَتَمَثَّلُونَه طيبا، والخبيثون يتمثلونه خبيثا.. والمؤمنون الحقودون

---

(١) IN ANIMAL VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التي تجرى عادة على الحيوانات.

والمتشائمون، لا يرون سوى الجحيم، لانهم يبغضون النقمة للدنيا باسرها.. اما النفوس المحبة والوادعة، فإنها لا تَخْشَى الجحيم إطلاقا!.. ومن المدهشات التي لم يُقَدَّرْ لي ان اتغلب عليها قط، ان رأيت "فينيلون" الطيب(١) يتحدث عن ذلك في مؤلفه "تيليماك"، وكانه كان يؤمن به حق الإيمان!.. على أنني ارجو ان يكون قد لجا -إذ ذاك- إلى الكذب.. إذ إنه لابد للمرء، بالرغم من كل اعتبار، من ان يكذب احيانا، إذا ما كان اسقفا! -وهذه حقيقة يعرفها الجميع!- اما "ماما"، فلم تَكْذِبْ علي. كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض، لا تقوى على ان تتصور إلها مُنْتَقِمًا دائم السخط، وما كانت لترى في الله سوى الرحمة والشفقة، في حين ان الاتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب. وكثيرا ما كانت تقول لي: إنه ليس من العدالة في شيء ان يَنْشُدَ اللهُ القِصَاصَ منا؛ لانه لم يمنحنا ما يَلْزَم لكي نكون كما يَنْبَغي؛ ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا باكثر مما منحنا!.. والغريب في الامر، انها -برغم عدم إيمانها بالجحيم- لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر(٢)، وقد تَأتَّى هذا عن انها لم تكن تدري ما تفعله بالنفوس الشريرة، فما كانت تملك ان تدمغها بالشر، ولا كانت تملك ان تسلكها في الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلا.. ولابد في الواقع من الاعتراف -سواء في هذه الدنيا او في الآخرة- بان الاشرار مَصْدَرُ حيرة دائما!

وهناك امر غريب آخر، فمن الواضح ان نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير، تَنْهَارُ بفَضْلِ هذا النهج، حتى إن أساس المسيحية الشائعة ليهتز، وحتى إن الكاثوليكية لا تعود قادرة على ان تظل قائمة. ومع ذلك فقد كانت "ماما" كاثوليكية صالحة؛ او كانت تجهر بذلك، ومن المؤكد انها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جد صحيح. وكان يبدو لها ان الناس اعتادوا ان يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت اكثر مما ينبغي.. وكان يلوح لها أن كل ما يقرا عن العذاب الابدي يجب ان يُؤْخَذَ على انه وعيد او مجاز وكناية.. وكان موت المسيح يتراءى لها مثالا للخير القدسي، يرشد الناس إلى ان يُحِبُّوا الله وأن يتحابوا فيما بينهم على غراره!.. وموجز القول، إنها كانت وفية للديانة التي اعتنقتها، وقد تقبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة.. غير انه كان يبدو منها -إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة- ان عقيدتها تَخْتَلِفُ تماما عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائما.. ولقد اوتيت -فوق ذلك- سذاجة قلب، وصراحة اكثر تاثيرا من اي رياء. وكثيرا ما كانت هذه الصُّرَاحَةُ تُحير الناس، حتى الرَّاهِبِ الذي اعْتَادَ ان يتلقى اعترافاتها، والذي لم تكن تخفي عنه شيئا، فقد اعتادت ان تقول له: "إنني كاثوليكية صالحة، واود أن أكون دائما كذلك.. وإني لاعتنق -بكل طاقة نفسي- مقررات أمنا الكنيسة المقدسة، على انني لا اتحكم في إيماني، وإن كنت اتحكم في إرادتي، فاسيطر عليها دون ما تحفظ. وإني لراغبة في ان اؤمن كل الإيمان. فبماذا تطالبني فوق هذا؟".

وإني لاعتقد بانها كانت خَلِيقَةً بان تَتْبعَ القانون الخلقي المسيحي -ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقي مسيحي- لان مبادئه تتمشى تماما مع اخلاقها. وكانت تفعل كل ما يامر به لكنها كانت قمينة بان تفعله ولو لم تؤمر به!.. وكانت تحب ان تبدي طاعتها في الأمور غير المهمة: فمثلا لو كان اكل اللحوم مباحا -بل لو انه كان مفروضا- في ايام الصوم، لَصَامَتْ عنه فيما بينها وبين الله، دون اية حاجة لمراعاة الاعتبارات التي تمليها الحكمة. ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تُتبِعُ دائما مبادئ السيد "دي تافيل"(٣)، او بالاحرى كانت "ماما" تدعي أنها لا ترى تناقضا بينها، فكانت على

---

(١) Fénélon, Télémaque (٢) المطهر في المعتقدات الدينية، هو الطريق الذي يفضي من النار إلى الجنة، ويقضي فيه البشر -عقب الموت مباشرة- مدة للتكفير عن خطاياهم، قبل ان يصبحوا اهلا لدخول الجنة! (٣) سبق لروسو ان ذكر ان المسيو دي "تافيل" قد افسد معتقدات مدام "دي فاران"، في سبيل بلوغ مأربه منها فارسى في نفسها الاعتقاد بان إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير!

استعداد لان تُضَاجِعَ عشرين رجلا -في كل يوم- وهي مطمئنة الضمير، دون ان يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة. وإني لاعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددا في هذه الناحية، ولكن الفارق بينها وبينهن هو انهن يَنْسَقْنَ إلى الغُوَايَة بفضل شَهَواتِهنَّ، في حين انها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية!.. ولقد كانت في اثناء اكثر الاحاديث العاطفية تاثيرا -بل واجرؤ على ان اقول: اكثر الاحاديث التهذيبية عبرة- تنساق إلى هذا الموضوع، فلا تتغير هياتها، ولا تتغير لهجتها، ولا يخطر ببالها انها تُنَاقِضُ نفسها. بل إنها كانت تقطع تلك الاحاديث -إذا دعت الحاجة- لتتكلم في هذا الموضوع، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء السابق.. وهكذا كانت صادقة في اقتناعها إلى درجة ان الامر كله لم يكن يعدو ان يكون -في نظرها- مبدءا اجتماعيا يستطيع كل من اوتي إدراكا ان يؤوله او يطبقه او ينبذه، وفقا لنظرته إلى الموضوع، دون اقل تعرض للإساءة إلى الله!

ومع انني -بالتاكيد- لم اكن ارى رايها في هذا الموضوع إلا انني اعترف بانني لم اجرؤ على معارضتها، خجلا مني من ان ابدي من قلة اللطف والادب ما كانت تتطلبه المعارضة. ولقد كان بوسعي أن اضع قاعدة للآخرين، وان احاول ان اسْتَثْنِي نفسي منها(١). ولكن طباع "ماما" لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من ان تسيء استغلال مبادئها، كما انني كنت اعرف انها امراة لا تميل إلى التقلب والتلون، وان استباحة الاستثناء لنفسي كان معناه ان ادع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها!.. على انني اورد هذا التناقض هنا -بين ما اورد من تناقضات- بمحض المصادفة، برغم انه كان دائما قليل الاثر في سلوكها، بل إنه لم يكن ذا اثر البتة، في ذلك الحين.. غير انني وعدت بان أعْرِضَ مَبَادِئَها في صدق وإخلاص، وإني لراغب في أن افي بوعدي.

ولارجع ثانية إلى الحديث عن نفسي.. فما إن وجدت لدى "ماما" كل المبادئ التي كُنْتُ بحاجة إليها لاعزِّز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه حتى اقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة، واصبحت اكثر تعلقا بها مني في اي وقت آخر، وكانما كنت اود ان انقل إليها الحياة التي كنت احس بأنها توشك ان تهجرني!.. وترتبت على مضاعفة تعلقي بها، وعلى الاقتناع بانه لم يبق امامي في الحياة سوى اجل قصير، وعلى رضائي العميق بما كُتِبَ لي في المستقبل.. تَرَتَّبَتْ على كل هذا، حالة دائمة من الطمانينة -بل ومن اللذة- خمدت فيها كافة الانفعالات التي تَنْأى بالهواجس والآمال عنا، ولكنها -في الوقت ذاته- تركتني انعم في سكينة، ودون َماهَمٍّ، بما تبقى في عمري من ايام!.. وكان ثمة عاملٌ اسهم في جعل هذه الحال اكثر عذوبة، ذلك هو السعي إلى تنمية ميل "ماما" إلى الريف، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان بوسعي توفيرها. وفيما كنت احملها على ان تحب حديقتها، وساحة دَواجنها، وحماماتها، وبَقَرَاتها، اكتسبت انا الآخر ميلا نحو هذه جميعا، وإذا بهذه الشواغل البسيطة -التي كانت تملأ نهاري دون ان تعكر صفائي -تجديني نحما في صحتي يفوق ما اجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كياني البائس، إلى اقصى ما كان ممكنا!

ووجدنا في قطف الثمار وجني الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام، فاخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يُحيطُونَ بنا. وشهدنا اقتراب الشتاء باسف بالغ، فعدنا إلى المدينة وكانما كنا نذهب إلى منفى.. لا سيما انا، إذ كنت في ريب من انني ساشهد الربيع مرة اخرى، فاعتقدت انني ودعت "شارميت" إلى الابد. ولم ابرحها دون ان اقبل الأرض والاشجار، ودون

---

(١) كان "روسو" لا يطير مدام "دي فاران" في فلسفتها السفسطائية التي لقنها إياها المسيو "دي تافيل". ولكن هذه الفلسفة بالذات، هي التي يسرت له أن يصبح عشيقا لمدام "دي فاران"، فلو أنه هدم هذه الفلسفة -ليمنع قيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال- لتحتم عليه ان يبحث عن سبيل ليستثني نفسه، حتى لا يحرم حبها!

ان ارتد إليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها! ولما كنت قد تخليت -منذ زمن طويل- عن تلميذاتي، وفقدت شغفي بملاهي المدينة ومجتمعاتها فإنني لم أعد أغادر البيت، ولم اعد ارى احدا سوى "ماما" والسيد "سالومون" الذي اصبح -منذ قليل- طبيبها وطبيبي.. وكان رجلا امينا، ذكيا، "كارتي" (١) متحمسا. يحسن الحديث عن نظام العالم، وقد عادت علي احاديثهُ العذبة، المفيدة بخير يفوق ما عادت علي به كل وصفاته الطبية. وما كنت لاطيق يوما ذلك الغباء وذاك التخبط الاحمق الذي تحفل به الاحاديث العادية، ولكن الاحاديثَ النافعة الدَّسِمَةَ تبعث دائما في نفسي سرورا عارما، وما اعتدت ان ارفضها قط!.. وقد تولاني ميل شديد إلى احاديث السيد "سالومون"، فقد لاح لي انني كنت أكتسبُ معه -سلفا- تلك المعلومات الرفيعة التي كان مقدرا لروحي ان تكتسبها حين تتخلص من القُيُودِ التي كانت تثقلها. وقد امتد الميل الذي استشعرته نحوه إلى الموضوعات التي كان يعالجها، فشرعت ابحث عن الكتب التي تستطيع ان تُسَاعِدني على ان احسن فهمه. وكانت الكتب التي تمزج التقوى بالعلوم هي أكثرها ملاءمة لي، لا سيما كتب "الخطابة" وكتب "بور-رويال" (٢) التي أخذْتُ اطالعها، أو بالاحرى، التهمها. ووقع بين يدي منها كتاب للاب "لامي" عنوانه "احاديث عن العلوم". وكان عبارة عن مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم. وقد قرأته واعدت قراءته مائة مرة، وعقدت العزم على ان اجعله مرشدي. والفيتني في النهاية انجذب -بالرغم من حالتي الصحية- او بالاحرى بفضلها، إلى الدراسة دون أن أملكَ مقاومة. وبينما كنت انظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي رحت أدرس في تحمس عارم، وكانني ساعيش دوما!.. ولقد قيل لي: إن هذا كان ضارا بي، ولكني اعتقد -من ناحيتي- ان هذا قد افادني، لا ذهْنيًّا فحسب، وإنما جسديا كذلك.. إذ إن هذا الشغل، الذي شغفت به، صار مستعذبا لدي، حتى إنني لم اعد افكر في عللي، ومن ثم اصبحت أقل تاثرا بها. ومن الصحيح يقينا ان شيئا لم يوفر لي شفاء حقيقيا، ولكني -إذ لم اعد اشعر بالم حاد- تعودت الوهن، وعدم النوم، وأن افكر بدلا من ان اعمل، و-اخيرا- ان انظر إلى التداعي التدرجي البطيء، الذي الم بكياني، وكأنه تَطوُّر لا مناص منه، ولا يملك ان يُوقِفَهُ سوى الموت!

ولم تصرفني هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التي لا جدوى منها فحسب وإنما اعفتني ايضا من مضايقات الادوية التي كنت -حتى ذلك الوقت- اضطر إلى تقبلها مرغما. فإن "سالومون" لم يلبث ان اقتنع بان هذه العقاقير لم تكن تملك لي إنقاذا، فاعفاني من غَصَاصَتِهَا، وقنع بان يُهَدِّئَ من شجن "ماما" المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة التي تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته! وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق، فعدت إلى تناول الشراب وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة، بقدر ما كانت قواي تسمح. وكنت أُقْبِلُ على كل شيء في اعتدال ولكني لم احرم نفسي من شيء البتة!.. بل إنني عدت إلى الخروج، واستانفت زيارة معارفي، لا سيما السيد "دي كونزييه"، الذي كانت صحبته تروق لي كثيرا. وقصارى القول: إن ارتقاب الموت لم يعق ميلي للدرس، بل بدا انه اذكاه، سواء كان ذلك راجعا إلى انني رايت أن من الجميل ان ادرس حتى ساعتي الاخيرة، أو كان راجعا إلى ان بقية من الأمل في الحياة كانت تكمن متوارية في قرارة قلبي!.. ورحت أسرع في جمع بعض المعرفة للعالم الآخر، وكأنما كنت أعتقد انني لن امتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذي ساحمله إليه. واصبحت ولوعا بحانوت كتبي يدعى السيد "بوشار"، اعتاد ان يتردد عليه عدد من رجال الأدب.. وعندما اصبح الربيع -الذي كنت اظنني لن اشهده ثانية- على

---

(١) اي من اتباع تعاليم "ديكارت". (٢) من كتب المدرسة اليانسينية. وقد سبق ان اوردنا نبذة عنها في تعليق سابق.

الابواب، جَمَعْتُ لنفسي عددا من الكتب لاحملها معي إلى "شارميت"، إذا كان لي حظ الرجوع إليها!

واتيح لي هذا الحظ فاستغللته لصالحي.. وإن الاغْتِبَاطَ الذي شهدت به البراعم الاولى للربيع ليجل عن الوصف!.. كانت رؤية الربيع مرة اخرى، بمثابة البحث في الفردوس.. فما إن بدات الثلوج في الذوبان حتى هجرنا وكرنا، ووصلنا إلى "شارميت" لنحظى هناك باولى انغام البلبل. ومنذ ذلك الحين لم اعد افكر في الموت! ومن العجيب حقا انني لم اصب قط بامراض شديدة الوطاة في الريف. ولقد عانيت كثيرا من الآلام هناك، ولكنني لم الزم السرير ابدا. وكثيرا ما كنت اقول، -عندما اشعر انني اسوا حالا من المعتاد-: "عندما ترونني موشكا على الموت احملوني إلى ظل بلوطة، واعد كم بان اعود إليكم مُعَافَى"!

ومع انني كنت لاازال ضعيفا إلا انني عاودت اعمالي الريفية، ولكن بقدر يَتَنَاسَبُ مع قُوَايَ. وقد عانيت اسى حقيقيا لعدم استطاعتي أن اعنى بالحديقة وحدي.. بيد انني كنت إذا هويت ست مرات بالمعول شعرت بانني افقد انفاسي، وتَصَبَّبَ العرقُ مني، وشعرت بعجز عن الاستمرار.. وإذا انحنيت، كان خفقان قلبي يتضاعف، والدم يندفع إلى راسي بقوة بالغة تضطرني إلى الاعتدال سريعا. وإذا اضطررت إلى ان اقتصر على اعمال اقل إرهاقا فقد تكفلت -بين ما اضْطَلَعْتُ به من مهام- باعشاش الحمام، فشغفت بها جدا، حتى إنني كثيرا ما كنت اقضي عدة ساعات هناك دون ان اشعر بالملل لحظة.. والحمامة جد هيابة، وصعبة الترويض إلا انني توصلت إلى ان ابث في حماماتي الثقة، حتى إنها راحت تتبعني في كل مكان، وتدعني امسكها متى شئت!.. ولم أكن اظهر في الحديقة او في ساحة الدار، دون ان تحط اثنتان او ثلاث على ذراعي وراسي في الحال!.. وبالرغم من الغِبْطَةِ التي كنت استشعرها، فإن هذا الموكب لم يلبث ان غدا متعبا إلى درجة اضطررت معها إلى ان انبذ هذه الالفة. ولقد اعتدت دائما ان اجد متعة فذة في استئناس الحيوان، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا. وكان يبدو لي من المطرب أن أوحي للحيوان بالثقة، وما خدعته قط، إذ كنت اود ان يحبني بانطلاق ودون قيد!

ولقد ذكرت انني أحْضَرتُ معي كُتُباً.. وقد انتفعت بها، ولكن بطريقة اقل تمكينا لي من التعلم، وادعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر. فإن الفكرة الخاطئة التي كانت لدي عن الامور اغرتني بانه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة، من ان يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التي يرتبط بها موضوع هذا الكتاب، دون ان يخطر ببالي ان المؤلف نفسه كثيرا مالا يكون محيطا بهذه المعلومات.. وانه إنما ياخذها عن كتب اخرى، بقدر ما تدعو الحاجة. وبهذه الفكرة الدالة على غباء، رحت أتوقف عن القراءة في كل لحظة، مضطرا إلى ان الهث باستمرار من كتاب إلى آخر.. وكنت احيانا أضْطَرُّ إلى ان استنفد مكتبات باسرها، قبل ان اصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذي أرجو ان ادرسه!.. ومع ذلك فإنني اتبعت هذا الاسلوبَ المجرد من الإدراك، في إسراف، حتى إنني بددت وقتا لا حد له، وارهقت راسي إلى درجة أنني لم أعد أقْوَى على رؤية أو استيعاب شيء ما.. وفطنت -لحسن الحظ- إلى أنني كنت اسلك طريقا خاطئا، يقودني إلى تِيهٍ هائل، فعدلت عنه قبل ان اضل تماما!

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسانِ من ميل حقيقي للعلوم فإن اول شيء يشعر به حين يُقْبِلَ على دراسة العلوم هو ترابطها الذي يجعلها تتقارب، وتتعاون، ويلقي كل منها الضوء على الآخر، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر. ومع ان الذكاء البشري لا يقوى على أن يسعها جميعا، بل

لابد له دائما من ان يتخذ واحدا منها كاساس إلا ان المرء كثيرا ما يجد نفسه في الظلام -لا سيما في العلم الذي اختاره- إذا هو لم يلُمَّ بفكرة عن العلوم الباقية . . ولقد شعرت بان هذا الذي آليته على نفسي كان -في حد ذاته- شيئا طيبا ونافعا، وانه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الاسلوب . فاقبلت على "دائرة المعارف" اولا . وقسمتها وفقا لفروعها، ثم رايت ان لابد لي من ان افعل العكس تماما فادرس هذه الفروع منفصلة، وامضي في كل منها على حدة، إلى النقطة التي يلتقي عندها بسواه، فتتحد جميعا . وبهذا عدت إلى التقسيم المالوف، ولكنني عدت إليه وقد اصبحت رجلا يعرف ما ينبغي ان يفعل . وفي هذا عوضني التامل عن المعرفة، وساعد التفكير الطبيعي للغاية، على إرشادي للصواب . وسواء كان مقدرا لي ان اعيش او ان اموت، فقد رايت انني لم اوت وقتا أُضَيِّعُهُ . وعدم الإلمام بشيء -في سن تقرب من الخامسة والعشرين- مع الرغبة في التعلم، يتطلبُ الانْهِمَاكَ في الإفادة من الوقت . ومع انني لم اكن ادري عند اية نقطة قد يحلو للحظ او للموت ان يوقف تحمسي؛ إلا انني كنت راغبا -مهما تكن الظروف- في ان الم بفكرة عن كل شيء، لكي اتبين اتجاه كفاءاتي الطبيعية، اكثر مني لكي احكم بنفسي على قيمة الجدارة القائمة على التثقف!

ووجدت في تنفيذ هذا المشروع فائدة اخرى لم اكن قد فكرت فيها، وهي توفير اطول وقت ممكن لاستغلاله في ذلك . ولابد انني لم اخلق للدرس؛ لان العُكُوفَ عليه طويلا يُضْجِرُني إلى درجة انه من المستحيل علي ان اضطر نفسي إلى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة باكمله، لا سيما حين اكون منصرفا إلى متابعة سير تفكير شخص غيري (١)، في حين انني أَقْوَى احيانا على ان استغرق في تفكيري الخاص امدا اطول، بل وبتوفيق كبيرا . . اما حين اتتبع تفكير مؤلف ما، لبضع صفحات اضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب، فإن عقلي يَشْرُد ويَتُوهُ بين السحاب! . . فإذا اصررت فإنني ارهق نفسي عبثا، واصاب بدوار، ولا اعود ارى شيئا . . اما إذا تعاقبت موضوعات متباينة -ولو كان تعاقبها متواصلا دون إمهال- فإن الواحد منها يسري عني عَنَاءَ الذي سبقه، ومن ثم فإني امضي فيها بيسر، دون ان اشعر بحاجة إلى اية مهلة للراحة او التخفف . ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة في الخطة التي أنتهجتُهَا للدرس، فرحت امزج الموضوعات بشكل كان يجعلني اشغل بها طيلة اليوم دون ان اسام البتة! . . ومن الصحيح ان المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا نافعا، ولكنني -في غمرة التحمس المطرد- لم البث ان وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس -إلى جانب اداء هذه المهام- ولان اشغل بامرين في آن واحد، دون ان يخطُرَ لي ان هذا يقلل من إتقاني لكل منهما!

على انني اعمد إلى شيء من التحفظ، بشان هذه التفصيلات الدقيقة التي تفتنني، والتي اثقل بها احيانا على قارئي . . وهو تحفظ لا يحدسه القارئ إطلاقا إذا انا لم اعن بتنبيهه إليه . فهنا -على سبيل المثال- اذكر في اسْتِعْذَاب كافة المحاولات المتباينة التي قمت بها لتقسيم وقتي على نمط اتاح لي ان اجد فيه اكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة، في آن واحد . وبوسعي ان اقول : إن تلك الفترة، التي قضيتها في عزلة، وفي مرض مستمر كانت اقل فترات عمري تعرضا لِلْخُمُول والضيق . وقد انقضى شهران او ثلاثة على هذا النسق، في تعرف اتجاه عقلي، وفي الاستمتاع -في اجمل فصول السنة، وفي البقعة التي احالها هذا الفصل فاتنة- بسحر الحياة الذي احسست بقيمته تماما : كسحر الزمالة العذبة، غير المقيدة -إذا صح ان نطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل- او سحر معرفة رائعة كنت اعتزم ان اكتسبها، ولكنني كنت انتشي بها وكانني حصلتها فعلا . . او لعل نَشْوَتَهَا كانت اشد لان لذة الدرس والتعلم كانت ذاتَ دخل كبير في سعادتي!

---

(١) كما يحدث حين يقرا المرء كتابا للدرس، إذ يحاول ان يتفهم سير تفكير المؤلف، وان يستوعب آراءه .

ومن الواجب التَّجَاوُزُ عن هذه المحاولات التي كانت بالنسبة لي مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت ابسط من ان تشرح. فانا اكرر ان السعادة الحقة لا تُوصَفُ، وإنما هي تحس.. وكلما عَزَّ وصفها كان الشعور بها افضل واجمل؛ إذ إنها ليستْ نتيجة مجموعة من الوقائع، وإنما هي حالة دائمة. إنني كثيرا ما أُكَرِّر نفسي ولكنني خليق بان ازداد تكرارا لو انني رويت الشيء الواحد بعدد المرات التي يخطر فيها ببالي! وعندما اتخذت حياتي -التي كانت كثيرة التغير- مجرى اكثر انتظاما فهاكم اقرب وصف ممكن لتوزيع اوقاتي:

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس في كل صباح، فامرق خلال بستان مجاور، إلى طريق جد بديعة، فوق حقول الكروم التي كانت تمتد بطُولِ سفح الجبل حتى "شامبيري". وهناك -وانا اتمشى- كنت اتلو صلاتيَ التي لم تكن تتالف من مجرد تحريك شفتي بتمتمة فارغة، وإنما كانت تَتَمثَّلُ في سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة، التي كانت آياتُ جمالها تنبسط امام عيني.. فما أحببت قط أداء الصلاة في الحجرة، فقد كانت الجدران وكل تلك الاشياء التي من صنع الإنسان تبدو لي دائما وكانها تحول بيني وبين الله.. وإني لأحب ان افكر فيه وأتامل آياته بينما يكون فؤادي متطلعا إليه. وبوسعي ان اقول: إن صلاتي كانت خالصة، وكانت جديرة -لهذا السبب- بان تستجاب. ولم اكن اسال لنفسي -ولتلك التي كانت دعواتي لا تفرق بيني وبينها إطلاقا- سوى حياة بريئة، مطمئنة، خالية من الرذيلة(١)، ومن الالم، ومن الفاقة المدقعة، ومن موت الاستقامة.. وما إليها، في المستقبل. وعدا ذلك، كانت هذه العبادة تنصرف في معظمها إلى الإعجاب والتامل، اكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال.. إذ إنني ادرك ان خَيْرَ وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا هي في العمل على ان نستحقها، اكثر مما هي في طلبها منه!.. وكنت اعود من نزهتي بعد دورة طويلة، وانا مُنْصرِفُ البال إلى تامل المناظر الريفية المحيطة بي، في سرور واستمتاع، فهي الوحيدة التي لا تملها العين والقلب ابدا. وكنت ارقب من بعدما إذا كان النهار قد بدا عند "ماما"، فإذا ما ابصرت نَافِذَتَها مفتوحة ارتجفت غبطة، وهرعت نحو الدار. اما إذا كانت النافذة مُغْلَقَةً فقد كنت ادلف إلى الحديقة وانتظر حتى تستيقظ، وانا اتسلى باسترجاع ما درست في المساء السابق، او العمل في الحديقة. وإذ يُفْتَحُ مصراعا النافذة، ابادر لاقبل "ماما" في فراشها، وهي مازالت نصف نائمة، في كثير من الاحيان.. وكان هذا التقبيل طاهرا اكثر منه عاطفيا، يستمد من براءته -بالذات- سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس!

وكنا نَفْطِرُ عادة على قهوة باللبن. وكانت هذه اكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا، فكنا نسترسل في الحديث على سجيتنا. ولقد خلفت لي هذه الجلسات -التي كانت طويلة في العادة- ميلا قويا إلى الإفطار، وإني لاوثر الطريقة الإنجليزية او السويسرية التي تعتبر الإفطار وجبة كاملة تَضُمُّ الاسرة باكملها، -على الطريقة الفرنسية التي يفطر بمقتضاها كل امرئ في حجرته بمفرده، او لا يفطر إطلاقا، في الغالب.

وبعد ساعة او اثنتين -تمضيان في الحديث- كنت اخلو إلى كتبي حتى موعد الغداء. وكنت ابدا بكتاب من كتب الفلسفة، مثل كتاب "**المنطق**" لـ"بور-رويال"، و"**المقالة**" لـ"**لوك**"، وكتب "**مالبرانش**"، و"**ليبنيتز**" و"**ديكارت**"، إلخ. وسَرْعَانَ ما كنت الاحظ ان بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما. فخطرت لي فكرة خيالية اوحت بالتقريب بينهم، مما اتعبني كثيرا وجلعني ابدد كثيرا من الوقت.. وكنت اربك ذهني دون ان أُحْرِزَ تقدما ما!.. وإذ طرحت عني -في النهاية- هذا الاسلوب

---

(١) من الغريب ان يصر "روسو" على ان العلاقة المشينة مهما تكن مبرراتها بينه وبين مدام "دي فارنز"، لم تكن من الرذيلة في شيء!

كذلك انتهجت اسلوبا يفضله بدرجة لا حد لها، وإليه اعزو كل التقدم الذي استطعت ان احرزه، بالرغم من نقص استعدادي.. فمن المؤكد انني لم اوت قط استعدادا كبيرا للدرس.. ولقد آليت على نفسي -وانا اقرا لكل مؤلف- ان استوعب كل افكاره واتبعها دون ان اخلطها بآرائي، او بآراء اي مؤلف آخر، ودون ان اجادلها. بل إنني كنت اقول لنفسي: "لنبدأ باختزان الآراء بدقة -صحيحة كانت او خاطئة- ريثما يتوفر لعقلي من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة". وإني لأعلم ان هذا الاسلوب لا يخلو من العيوب ولكنه أفْلحَ في تمكيني من غايتيّ، وهي التعلم. وبعد بضع سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غِرَارِ سواي، -دون ما تامل بل وبدون تمحيص- الفيت نفسي مالكا لمدخر من العلم كاف لإرضائي، ولتمكيني من ان أُفَكِّرَ دون معونة الغير!.. وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتبي -في ذلك الحين- كنت اتسلى باسترجاع ما قرات والمقارنة بين بعضه وبعض، فازن كل شيء بميزان، وأُصْدِرُ -في بعض الاحيان- احكاما على اساتذتي. ومع انني بدات اشحذ مقدرتي على النقد في سِنٍّ متاخرة إلا انني لم اجد انها قد تبددت، وعندما نشرت آرائي الخاصة لم اتهم ابدا بانني عبد لاساتذتي، ولا بانني "احلف بكلمات استاذ ما"(١)!

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة، التي لم اجاوزها كثيرا قط، إذ اصررت على ان اقهر ضعف ذاكرتي، بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بدات، والشروع باستمرار في تتبع خطواتي السابقة. ولم أَسْتَسِغْ تعاليم "يوكليد"(٢)، الذي كان يُعْنَى بتسلسل البراهين اكثر من عنايته بترابط الافكار. وفضلت هندسة الاب "لامي"، الذي اصبح -منذ ذلك الحين- من احب المؤلفين إلي، والذي اعدت قراءة مؤلفاته في اسْتِمْرَاء.. وجاء الجبْر بعد ذلك، فكان الاب "لامي" هو الذي اتخذته مرشدا. حتى إذا تقدمت في دراستي، اقبلت على "علم الحساب" للاب "رينو"، ثم على كتابه "تحاليل تستند إلى بَرَاهِينَ"، الذي لم افعل اكثر من ان مررت به مر الكرام. ولم امض قط إلى الحد الذي افهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة، فما احببت قط هذه الطريقة التي تجعلك تمضي في العملية الرياضية دون ان تدري ما الذي تفعله. وكان حل اية مسالة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لي مثل عَزْفِ لحن بالاكتفاء بإدارة يد(٣)!

وعندما وجدت بالحساب -لاول مرة- ان مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين يتالف من مربع كل حد من حديها، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر(٤)، لم اشا ان أُصَدِّقَ ذلك -برغم صحة عملية الضرب التي اجْرَيْتُهَا- إلا بعد ان سجلت العملية بالارقام. وليس معنى هذا انني لم اوت ميلا عظيما إلى الجبر، لانه لا يعالج سوى كميات مجردة (مبهمة)، ولكنني كنت -عند تطبيقه على المساحات والابعاد- احب ان ارى العملية ممثلة بسطور وخطوط، وبدون ذلك لم اكن افهم منها شيئا!

*****

وجاءت اللغةُ اللاتينية، بعد ذلك. وكانت هذه أشَقَّ دراساتي، فلم أُحْرِزْ فيها ابدا اي تقدم كبير. واتبعت في البداية أسلوب "بور-رويال" اللاتيني، ولكن دون ما ثمرة. فإن هذه الاشعار الاستروقوطية(٥) كانت تقبض قلبي، ولا تستطيع ان تلج اذني!.. ووجدتني اضل وسط اكداس

---

(١) مثل لاتيني شاع عن تلاميذ "فيثاغورس"، الذين كانوا يرددون آراء استاذهم في إيمان اعمى! (٢) عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ووضع اصولا للعلوم الرياضية في ١٣ كتابا، خص الهندسة منها تسعة كتب. (٣) يشبه "روسو" حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك، فإذا بها تردد النغم دون ان يدري من ادارها شيئا من طريقة عملها! (٤) (أ+ب)٢= أ٢+٢أب+ب٢ (٥) كانت قبائل "الاستروقوط" البربرية هي المصدر الاول للغة اللاتينية.

القواعد، وما إن أستوعب قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها! . . فليست دراسة الكلمات بالتي تليق بإنسان بلا ذاكرة، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكي أُغْصِبَ ذاكرتي على ان تقوى، فحسب! . . وكان لابد من ان اهجرها في النهاية، على انني استَوْعَبْتُ التركيب بالدرجة التي تكفي لان استطيع ان اقرا اسلوب كاتب سلس، بمساعدة قاموس. وقد اتبعت هذا النَّهْجَ، فوجدتني اتقدم. واقبلت على الترجمة، لاكتابة، وإنما في الذاكرة، واقتصرت على ذلك. وبفضل الزمن والمران اصبحت اقرا بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين، ولكني لم استطع قط أن أتكلم او اكتب هذه اللغة. . وهذا ما حيرني كثيرا، حين الفيتني -دون ان ادري كيف- مُدْرَجًا في عداد أهل الأدب. ومن العيوب الاخرى التي ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلم انني لم اتعلم قط علم العروض، وكنت اقل إلماما بقواعد نَظْمِ الشعر. ومع انني -في رغبتي ان أتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا- بذلت جهودا كثيرة للإحاطة بها إلا انني اوقن بان تحقيق هذا -دون معونة أستاذ- امر يقرب من المستحيل، وإذ استوعبت تركيب اسهل الاشعار جميعا، وهو السُّداسي الوزن، تلمست صبرا كافيا لان ازن كل شعر "فيرجيل"، مبينا القاعدة والكم، فإذا ما ارتبت فيما إذا كان احد المقاطع طويلا أو قصيرا رجعت إلى كتاب "فيرجيل" لاسترشد به. ومن الواضح ان هذا جعلني ارتكب أخْطاءً كثيرةً بسبب التغير الذي تسمح به قواعد النظم. . على انه إذا كان لتعلم المرء بنفسه فائدة فإن له -كذلك- عيوبا عظيمة، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور. وإني لادرى بهذا من اي شخص، أيا كان!

وكنت أفَارِقُ كتبي قبيل الظهر، فإذا لم يكن الغداء معدا فإنني كنت أسعى إلى زيارة صديقاتي الحمائم، او للعمل في الحديقة، في انتظار موعد الغداء. وعندما أسمع النداء أهرع -وانا جد مغتبط- وقد أُوتِيتُ شهية عظيمة. فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلى عني، مهما اكن مريضا. وكنا نتغدى في انشراح، ونحن نتبادل الحديث في شؤوننا حتى تَفْرُغَ "ماما" من الاكل. وكنا -إذا ما تحسن الجو- نذهب، مرتين او ثلاثا في الاسبوع، إلى ما وراء الدار، لنتناول القهوة في مقصورة عليلة الجو، ظليلة، زينتها بحشيشة الدينار(١)، وكنا نَشْعُرُ بارتياح شديد إليها في القيظ. وهناك، كنا نقضي وقتا -ليس بالطويل-، في تَفَقُّد خضرنا وزهُورنا، وفي أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا، كانت تجعلنا اقدر تذوقا لجمالها. وكانت لي اسرة اخرى، في اقصى الحديقة، تتالف من نحل. ولم يكن يفوتني قط ان ازورها، وكثيرا ما كانت "ماما" تصحبني. وكنت اهتم كثيرا بعملها، وانعم للغاية برؤيتها في عودتها من جَنْي الزُهور، وقد اثقلت سيقانها الدقيقة باحمالها، بحيث كان يتعذر عليها المشي احيانا. ولقد حملني الفضول -في الأيام الأولى- على أن أحاول التثبت مما كنت أرى، فلدغني النحل مرتين او ثلاثا، ولكنا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا حتى إنه كان يَدَعُني وشاني، مهما اقترب منه . . وكان يتجمع حولي -مهما تكن الخلايا مليئة، تاهبا للإفراز- فيحط على يدي ووجهي دون ان يلدغني قط! . . إن كل الحيوانات تُوجِسُ عادة من الإنسان -وهي ليست مخطئة في ذلك- ولكنها ما إن تطمئن مرة إلى انه لا يريد بها اذى حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة انه لا يسيء إلى هذه الثقة إلا إذا كان همجيا بربريا!

وكنت اعود إلى كتبي، بيد ان اعمالي -فيما بعد الظهر- كانت اقل جَدَارَةٍ بان تحمل اسم "العمل والدراسة"، منها باسم "الراحة والتسلية". فما كنت لاطيق قط العمل المكتبي بعد غدائي! لان كل عمل، في الايام الحارة يكبدني عناء، بوجه عام. على أنني كنت أشغل نفسي بالقراءة دون الاستذكار، وبغير إرهاق، بل وبغير ضابط او قاعدة. وكان الشيء الذي اعتدت ان أواظب عليه بدقة،

---

(١) نوع من النباتات.

هو التاريخ والجغرافيا. ولما كان هذان لا يتطلبان اي جُهْدٍ عَقْلي فإنني كنتُ امضي فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتي القاصرة، وحاولت ان ادرس مؤلف الأب "بيتو"، وانغمست في غَيَاهِبِ علم التاريخ، ولكني كنت لا اميل إلى الاجزاء الدقيقة منه التي لا قاع لها ولا شاطئ(١) وكنت افضل عليها الابعاد الدقيقة التوقيت، ومَسْرَى الأجْرامِ السماوية. بل إنني كنت خَليقا بأن أُغْرَمَ بعلم الفلك لو انني أوتيت أدوات له، ولكني كنت مضطرا إلى ان اقنع ببعض مبادئه التي تؤخذ عن الكتب، وببعض مشاهدات غير دقيقة –خلال منظار مقرب– كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب، إذ إن نظري القصير لم يكن يَسْمَحُ لي بتمييز اي شيء بالعين المجردة، فما بالك بالكواكب؟.. واذكر –في هذا الصدد– حادثا كثيرا ما يحملني تَذَكُّرهُ على الضحك: فقد ابتعت خريطة فلكية لادرس عليها الطوالع، وثَبَّتُّها إلى إطار، وكنت في الليالي الصافية اذهب إلى الحديقة فاضع إطاري على اربع قوائم في ارتفاع قامتي تقريبا، بحيث تكون الخريطة مقلوبة. ولكي اضيئها دون ان تطفئ الريح شمعتي، كنت اضع هذه في دَلْوٍ على الأرض، بين القوائم الاربع، ثم انظر –بالتناوب– إلى الخريطة بعيني، وإلى الكواكب بمنظاري، واروح أُضْني نفسي بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع. واظنني قد قلت: إن حديقة السيد "نواريه" كانت مرتفعة عن مستوى الأرض، بحيث كان كل ما يجري يُشاهَدُ من الطريق. وحدث –ذات مساء– أن كان بعض الفلاحين مارين في ساعة متأخرة، فرأوني في هيئة مضحكة، وقد انهمكت في عملي. وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتي –والذي لم يكونوا يرون مصدره، لأنه كان محجوبا عن انظارهم بحواف الدلو– كما كانت هذه القوائم الاربع، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالاشكال والارقام، والإطار، وحركة منظاري، الذي كانوا يرونه وهو يروح ويجئ.. كل هذه أوحت بفكرة السِّحْرِ، مما افزعهم!.. ولم يكن لباسي صالحا لان يُطَمْئِنَهُم، فقد كنت أرتدي قبعة ذات حافة عريضة، تعلو قلنسوتي "طاقيتي"، وقد اجبرتني "ماما" على ارتدائها، مما هيأ لانظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي! ولما كان الوقت يُناهِزُ منتصف الليل فإنهم لم يرتابوا إطلاقا في انهم أمام اجتماع للسحرة! ولما كان فضولهم اقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجري فإنهم فروا وهم في فزع شديد، وأيقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا!.. وانتشرت القصة بسرعة حتى إن كل امرئ في الجيرة كان يعرف –في اليوم التالي– أن اجتماع السحرة عقد في دار السيد "نواريه". ولست ادري ما كانت تؤدي إليه هذه الشائعة في النهاية لو لم يعمد احد الفلاحين الذين شهدوا حركاتي السحرية، إلى ان يرفع شكاته –في اليوم ذاته– إلى اثنين من "الجيزويت"، اعتادا ان يَتَرَدَّدا علينا، فَسَفَّهَا الشَّكْوَى دون ان يعرفا جَلِيَّةَ الامر. ثم ذكرا لنا القصة، فادليت إليهما بالسبب، وضحكنا لذلك كثيرا. على انه تقرر –خشية تكرار ذلك الحادث– ان اقوم بمشاهداتي الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار. والذين قرءوا كتابي: "رسائل الجبل"، عن اعمالي السحرية في "البندقية"، رأوا –كما أرجو– أن السحر كان صنعتي ردحا طويلا!

هكذا كانت حياتي في "شارميت" عندما لم أكن مَشْغُولا بأية مهمة ريفية، فقد كانت هذه تَظْفَرُ بالافضلية دائما، كما انني كنت –في الاعمال التي لا تتجاوز طاقتي– اعمل كأي فلاح!.. على أنه من الصحيح أن ضَعْفِي البالغ لم يدع لي –إذ ذاك– من مقدرة في هذا المجال، اللهم إلا النية الطيبة.. هذا فضلا عن انني كنت أبْغي ان اقوم بعملين في آن واحد؛ ولهذا السبب لم أتقن أيا منهما. إذ كنت قد وضعت نُصْبَ عيني ان اهيئ لنفسي –بالقوة– ذاكرة طيبة، فدابت على محاولة

---

(١) يقصد أنها من العمق بحيث انه كان يتخبط فيها دون ان يهتدي إلى غاية او يقف منها شيئا.

ان احفظ كثيرا من المعرفة عن ظهر قلب. ومن اجل هذا كنت احمل معي دائما كتابا ادرسه واستذكره واردده على نفسي وانا منهمك في العمل، متحملا في ذلك عناء لا يصدقه العقل! ولست ادري كيف ان إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى ان اغدو -في النهاية- غبيّا!.. كان لابد من ان ادرس ديوان الشاعر "فيرجيل" EGLOGUES وان اكرر الدرس عشرين مرة، ومع ذلك فإنني لم افقه منه كلمة واحدة! ولقد فقدت، او فككتُ، عددا كبيرا من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان، سواء كان ذلك في أعشاش الحمام، او في الحديقة، أو في البستان، أو في مزرعة الكروم. وكنت اثناء انشغالي بشيء اضع الكتاب في اسفل إحدى الأشجار، او على السياج العشبي، ثم كنت انسى ان آخذه ثانية.. وكثيرا ما كنت أجده -بعد خمسة عشر يوما- تالفا، أو يكون قرضةً النمل والقواقع. واصبحت هذه اللهفة إلى التعلم تهوّسا دفعني إلى ما يقرب من العَتَهْ والحماقة، حتى إنني -لانشغال بالي- كنت لا أنفك اتمتم واغمغم!

ولقد احالتني مؤلفات "بور-رويال" وكتاب "الخطابة" -اللذين كنت اقرؤهما بكثرة بالغة- إلى شخص نصف "يانسيني". وبالرغم من قوة إيماني، فإن "لاهوت" هذا المذهب القاسي كان يُزعجني احيانا.. واخذت رهبة الجحيم -الذي لم اكن حتى ذلك الوقت اخافه كثيرا- تنقض طمانينتي شيئا فشيئا.. ولو لم ترفه "ماما" عن نفسي لقلب هذا المذهب الرهيب كل كياني!.. وقد بذل الراهبُ الذي اعتدت ان أُفضي إليه باعترافاتي -والذي كان يَتَلقّى اعترافاتها هي الاخرى- قصارى وسعه في ان يجعلني في حال ذهنية طيبة. وكان هذا الراهب من "الجيزويت"، ويدعى الأب "هيميه". وقد كان شيخا طيبا، حكيما، ساظل دائما اوقر ذكراه. ومع انه كان "جيزويتيا" إلا انه كان في سذاجة الطفل، وكانت اخلاقه وادعة اكثر منها متراخية، وهذا عين ما كنت في حاجة إليه، لاعيد إلى نفسي توازنها بعد الانطباعات الكئيبة التي احدثتها "اليانسينية". وكان هذا الرجل الطيب وزميله -الاب "كوبييه"- يَفِدَان كثيرا لزيارتنا في "شارميت"، برغم أن الطريق كانت شديدة الوعورة، واطول مما ينبغي بالنسبة لمن هم في سنهما. ولقد كانت زيارتهما ذات اثر طيب عظيم على نفسي، اسأل الله ان يُسْبِغَ على روحيهما جزاء مثله!.. إذ كانا طاعنَيْنِ في السن -في ذلك الوقت- بحيث إنني لا أظنهما على قيد الحياة اليوم. وكنت -انا الآخر- اذهب لزيارتهما في "شامبيري"، فالفت دارهما تدريجيا، واصبحت مكتبتهما رهن إرادتي. وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا وثيقا بذكرى "الجيزويتيين" حتى إنني احب كلا منهما من اجل الآخر. ومع ان مذهبهما كان يبدو لي -دائما- خطراً إلا انني لم استطع ان اجد قط ميلا إلى ان أوليهما كراهية صادقة!

ولكم اود ان اعرف ما إذا كان يَطُوفُ بقلوب الغير من الأفكار الصبيانية ما يطوف بقلبي احيانا. ففي غمرة دراساتي، وفي سياق حياة بريئة إلى اقصى ما يُسْتَطَاعُ، وبالرغم من كل ما قيل لي فإن الخوف من الجحيم لايزال يزعجني احيانا. وكنت أسائل نفسي: "في اي حال أنا؟،، وهل أدان لو انني مت في هذه اللحظة؟".. وعلى هَدْي اساتذتي "اليانسينيين"، لم يكن ثَمَّةَ رَيْبٍ في الأمر.. ولكنني كنت أرى الحكم يختلف، على هدى ضميري!.. وإذ كنت دائما في خوف، اتخبط في هذا التَّذَبْذُبِ القاسي، فقد اخذت الجأ -وانا ابحث عن مخرج- إلى وسائل من ادعى الأمور للضحك، وكنت من اجلها على استعداد لان احبس اي إنسان اراه ياتيها!.. ففي ذات يوم اخذت -بطريقة آلية، وانا افكر في هذا الموضوع المقبض- ارمي جُذُوعَ الاشجار بالاحجار، بما كان لي من مقدرة على الرماية.. اعني دون ان أصيب أيا منها تقريبا!.. وفيما كنت في غمرة هذا العمل الطريف خطر لي ان

اتخذ منه لونا من الشعوذة كي أطامنَ قلقي. فقلت لنفسي: "سارمي هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لي فإذا اصبت كانت الإصابة بشيرا بالنجاة، وإذا اخفقت فقد حاقت بي اللعنة"!.. وفيما كنت اقول هذا طوحت بالحجر، بيد مرتجفة، وبخفقان عنيف في القلب.. ولكني بتوفيق بالغ، حتى إن الحجر اصاب الشجرة في منتصفها تماما، وهو امر -إن شئتم الحق- لم يكن بالعسير، إذ إنني كنتُ قد عنيت باختيار شجرة غَليظَة الجِذْع جدا، وقريبة جدا. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجني شك في خلاصي!.. ولست أدري -وانا اذكر هذا الحادث- اضحك ام اتحسر على نفسي! إن لكم - ايها الكبار، الذين تضحكون ولا شك- ان تطربوا، ولكن.. لا تسخروا من ضعفي أو عبثي، فإني اقسم لكم إنني اشعر به تمام الشعور!

على ان هذه الاضطرابات، وهذه الدموع التي قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان لم تكن حالا دائمة. فقد كنت -بوجه عام- موفور الهدوء، وكان الاثر الذي خَلَّفَتْهُ فِكْرَةُ الموتِ المبكر في نفسي اقل انتماء إلى الحزن منه إلى الضعف والاستكانة الوادعة، التي كان لها سحرها الخاص.. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسي، اهنئها فيها على موتي في سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت، دون ان اكون قد عانيت عللا قاسية -بدنية كانت او عقلية- خلال حياتي!.. ولكم كنت مُصيبا!.. كان ثمة هَاجِس يُخيفني من الحياة خشية العذاب!.. لكانما كنت ارى مقدما المصير الذي كان في انتظاري في أواخر أيامي!.. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت في تلك الفترة السعيدة!.. ففي بعدي عن الحسرة البالغة على الماضي، وفي تحرري من هواجس المستقبل كان الشعور الغالب على نفسي باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر. إن الاتقياء يؤتون -عادة- قدرا ضئيلا من شهوة متاججة، تجعلهم يتذوقون في استمراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم. ولكن الدنيويين يرون في ذلك جرما من جانب الاتقياء. ولست أدري لذلك سببا.. لا، بل احسبني اعرف تماما.. فهم يحسدون الاتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التي فقدوا هم طعمها!.. ولقد كان هذا الميل لدي، فوجدت من بواعث الغبطة ان ارضيه وانا مطمئن الضمير.. وكان قلبي مايزال غضا، فاسلم نفسه إليه تماما، وفي فرح الطفل، او بالاحرى -إذا كان لي ان اجرؤ على القول- في شبق الملاك!.. فقد كان لهذه المتع الوادعة، ما لمباهج الفردوس من سِحْرٍ جليل!.. كان تناول الغداء على الحشائش في "مونتانيول"، وتناول العشاء تحت الخَمَائِل، وجَني الفواكه، واقتطاف العنب، والامسيات التي كانت تُقْضَى في انتزاع الياف القنب مع رجالنا.. كل هذه كانت اعيادا حافلة وجدت "ماما" فيها عين ما كنت انا أجد من سرور.

وكانت النزهات التي نقوم بها وحيدين، ذات فتنة أشد وأكثر، لان القلب كان ينطلق متحررا. ولقد قمنا -فيما قمنا به منها- بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي: كان ذلك في يوم عيد للقديس "لويس"، الذي سُمِّيتْ "ماما" باسمه، وانطلقنا معا -وحيدين- في البكور، بعد قُدَّاس جاء احد الرهبان "الكرمليين" ليلقيه علينا -في مطلع النهار- في كنيسة صغيرة مُلْحَقَة بالدار. وكنت قد اقترحتُ ان نتمشى في جانب الوادي المقابل للجانب الذي كنا فيه، ولم نكن قد زرناه قط. فارسلنا زَادَنَا مُقَدَّما، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله. ولم تكن "ماما" ثقيلة في سيرها، برغم انها كانت بدينة، ممتلئة الجسم، فاخذنا ننتقل من هضبة إلى هضبة، ومن غابة إلى غابة، في الشمس حينا وفي الظل احيانا، ونحن نستريح من آن إلى آخر، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن. وكنا نتحدث عن نفسينا، وعن رابطتنا الوثيقة، وعن عذوبة نصيبنا في الحياة، رافعين -من أجل دوامه- دَعَوَات لم تستجب!..

وكان كل شيء يبدو وكانه يُدبَّرُ في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئا. وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة، فلا اثر لغبار.. كما كانت ثمة جداول جارية، ونسيم يداعب أوراق الشجر. وكان الهواء نقيا، والافق خلوا من السُّحُب، والسماء -كقلبينا- يسودها الصفاء!.. تناولنا غداءنا في دار احد الفلاحين، وقد تقاسمناه مع اسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة. ما اطيب اولئك الفقراء من اهل "سافوا"!

وبعد الغداء لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة، حيث رحت اتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت "ماما" تَتَلَهَّى بتفقد الاعشاب بين الادغال. ورات الزهور التي كنت قد جمعتها اثناء الطريق، فاخذت تُلفِتُ نظري إلى الف غريبة وعجيبة في تكوينها، مما لذ لي كثيرا، ومما كان خليقا بان يجعلني اميل إلى علم النبات لولا ان اوان هذا الميل لم يكن قد حان، فقد كنت منصرفا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى. وخَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ حولتني عن الزهور والنباتات: فإن الجو الروحي الذي الفيتني فيه، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم، وكل الاشياء التي خَلَبَتْ لُبّي، ذكرتني بذلك الحلم الذي رايته وانا في كامل اليقظة في "أنيسي" قبل سبع أو ثماني سنوات، والذي رَوَيْتهُ في مكانه(١). وكان الشبه من القوة بحيث إنني حين تذكرت الحلم اهتزت مشاعري تاثرا وانساب دمعي.. وفي نوبة من الانفعال العاطفي، عانقت تلك الحبيبة الغالية، وقلت لها في وَجْد: "ماما"، "ماما".. لقد كنت موعودا بهذا اليوم منذ اجل طويل، ولست أرى ما يَفُوقُهُ!.. إن سعادتي -بفضلك- في أوجها، فليتها لا تتناقص بعد ذلك!.. ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمرائها!.. ليتها لا تَنْقَضِي إلا مع انقضاء اجلي"!

وهكذا أخذت تنساب ايامي السعيدة.. بل الايام التي كانت اكثر من سعيدة، حتى إنني -لعجزي عن ان اتبين ما قد يقوى على تَعْكيرِهَا- كنت اتصور انها لن تنتهي -في الواقع- إلا مع نهايتي!.. وليس معنى هذا ان نبع وساوسي كان قد نَضَبَ تماما، وإنما كان معناه انني رايت هذه الوساوس تتخذ طريقا آخر مكنني من ان أوجه احزاني وآلامي إلى أهداف نافعة، جلبت عليها دواء ناجعا!.. ولقد كانت "ماما" تُحِبُ الريفَ بطبيعتها، فوجد هذا الميل مني ما يذكيه. وما لبثت ان انتقلت إليها -تدريجا- عدوى الشغف بالاعمال الريفية.. وكانت تحب تَقْوِيمَ الارض(٢)، كما كانت لديها -فوق هذا- معرفة ومعلومات كانت تستغلها في هذا الصدد باستمتاع. ولم تَقْنَعْ بالأرض التي كانت تابعة للبيت الذي استولت عليه، بل إنها كانت تستاجر تارة حقلا، وتارة مَرْجا. وانتهت إلى ان ركزت روح ابتكار المشروع لديها في الأمور الزراعية، بدلا من ان تبقى عَاطِلَة في الدار. وبدأت تعمل لكي تصير -في القريب العاجل- مزارعة كبيرة!

ولم أكن احب كثيرا ان أراها تتوسع في ذلك، فرحت اعارضها فيه قُصَارىَ ما استطعت، وانا واثق تمام الثقة بانها كانت دائما تغتر فتخطئ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على ان تُنْفِقَ اكثر مما يعود عليها من إنتاج. على أنني وجدت عزاء في التفكير في ان هذا الإنتاج لن يكون معدوما -على الاقل- وأنه قد يساعدها على العيش.. وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن تَرْسِمَهَا بدا لي هذا المشروع اقل إيغالا للخراب بها. ومع أنني لم أر -مثلها- فيه موردا للربح إلا أنني رايت فيه شاغلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة!

وبهذه الفكرة أصبحت ارغب كل الرغبة في ان أسترد قوتي وصحتي معا! حتى يَتَسَنَّى لي أن أَسْهَرَ على أعمالها، وأن أغدو رئيسا لعمالها، أو العامل الأول في خدمتها. ومن الطبيعي ان المران

---

(١) في الكراسة الثالثة. (٢) تقدير قيمتها وميزتها.

والرياضة اللذين حملتني هذه الرغبة على القيام بهما اصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كتبي، ويشغلاني عن حالي الصحية؛ مما كان خليقا بان يسير بها نحو التحسن!

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عـاد "باريسو" من إيطاليا في الشتاء التالي، وقد جلب لي معه بعض الكتب، منها كتابا الأب "بانشيري": "بونتمبي" و"كارتلا بير ميوزيكا"، اللذان حببا إلي دراسة تاريخ الموسيقى، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجميل، وبقي "باريسو" معنا فترة من الزمن. ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر فقد اتفقنا على ان اذهب إلى "جنيف" في الربيع التالي؛ لأطالب بثروة أمي، او لأطالب -على الاقل- بذلك النصيب الذي خصني منها، ريثما نستبين ما الم باخي. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا، فذهبت إلى "جنيف" حيث لحق بي أبي، وكان قد الف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون ان يحتك به احد بالرغم من أن الحكم الذي صدر عليه كان مايزال قائما. ولكن أبي كان مَوْضِعَ التَّقْدِيرِ لبسالته، والاحترام لأمانته، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة. وكان الحكام في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذي بزغ فجره بعد ذلك بقليل؛ ولذلك أبوا أن يُثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان، بأن يذكروهم بتحزبهم السابق في لحظة غير مواتية.

وخَشيتُ أن تقوم في وجهي الصعوبات بسبب ارتدادي عن مذهبي، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث، فقوانين "جنيف" في هذا الشأن ليست في صرامة قوانين "برن"، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا. ولم يكن ثمة نزاع في حقي إلا أن الميراث نفسه -لسبب لا أدركه- تضاءَلَ إلى مبلغ تافه. ومع أن أخي كان -في غالب الظن- قد لقيَ ربَّه إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانوني على هذا. لم يكن عندي من الأسانيد ما يكفي لأن أطالبَ بنصيبه، فتركته عن طيب خاطر لأبي يستعين به على حياته، وقد كان له حق المنفعة مادام على قيد الحياة. وما إن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت مالي حتى انفقت شيئا منه في شراء بعض الكتب، وهرعت إلى "ماما" أضع الباقي تحت قدميها، وكان قلبي يَطْفَحُ بُشْرا اثناء الرحلة. وفي اللحظة التي وضعت فيها هذا المال في يدها كنت اسعد ألف مرة من اللحظة التي تسلمته فيها!.. وتَقَبَّلَتْ هي المال قبول النفس السامية الرفيعة التي لا تجد من العسير عليها أن تاتي مثل هذا الفعل، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة.. وقد انفقت المال كله تقريبا على شخصي، بنفس تلك البساطة التي اتَّسَمَتْ بها. ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لانفقته على نفس هذه الصورة!

ولم أكن في ذلك الوقت قد استعدت صحتي تماما بل -على العكس- كنت أذوي وأذبل بشكل واضح!.. كنت في شُحُوب الموتى وهُزَالِ الهيكل العظمي، وكانت ضربات عروقي فظيعة لا تحتمل، وازدادت نَبَضَاتُ قلبي، وكنت أُعَانِي على الدوام عُسر التنفس.. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك.. كنت لا أستطيع ان اغذ السير إلا وأشعر بالاختناق، ولا انحني دون أن يصيبني الدوار، وتعذر علي رفع أصغر الأثقال، فاكرهت على البقاء ساكنا جامدا، وهو أكبر عذاب يُصيبُ رجلا في مثل قلقي وضَجَرِي. ولا شك في أن مرضي كان مرده "الهستيريا" إلى حد كبير، فكأني قد بليت بذلك المرض الذي لا يُصيبُ إلا السعداء!.. فالدموع التي كثيرا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو إلى البكاء.. وفرحتي وافتتاني بحفيف ورقة من أوراق الشجر، أو تَغْرِيدِ طائر طَرُوب..

ومزاجي المتقلب في حياة بلغت ذروة الهناء، كل هذه كانت دلائل على كَلاًل من تاثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة. ونحن لم نتزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل، مما يقتضي ان يُعاني الروح او الجسم.. إذا لم يعانيا معا.. وسعادة الواحد منهما تؤذي الآخر دائما تقريبا. وبينما كنت مستطيعا ان انعم بحياتي في سعادة تامة فإن انْحِلالَ جِهَازِ جسمي كان يحول بيني وبين ذلك دون ان يستطيع احد أن يدلني على موضع الداء مني. ويبدو ان جسمي قد استعاد فيما بعد قوته بالرغم من التداعي الذي احسه في كبري والآمي المبرحة الحقيقية التي اصبحت في الكبر اشد قوة وتبريحا. واليوم، -وانا اكتب هذه السطور، وقد نال مني الضعف وبلغت الستين من عمري او اكاد، وغلبتني الآلام من كل نوع على امري- اشعر ان في كياني من الحياة والقوة على احتمال الالم اكثر مما كان لدي من الحياة والقوة على الاستمتاع -في مَيْعَةِ الصبا- في غمرة من أصدق آيات السعادة.

ورغبة في إذلال نفسي إذلالا تاما شرعت -بعد ان قرات شيئا من الفلسفة- في دراسة التشريح، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التي يتالف منها جهاز جسمي ووظائفها. وكنت اميل للشعور، عشرين مرة في اليوم، بان الخلل قد دَبَّ في اعضائي جميعا، ولم يكن يُذْهِلُني قط ان اجدني في حالة احْتِضَار، وإنما كان يدهشني انني مازلت قادرا على الحياة! وكنت اعتقد انني مصاب بكل مرض اقرأ اوصافه، وإني لمقتنع بانني لو لم اكن مريضا فقد جعلتني هذه الدراسة القاتلة كذلك.. فلقد كنت أجد في الأعْرَاضِ التي تنتابني اعراض كل علة، فحسبتني مصابا بالعلل جميعا!.. وبذلك انتابني مرض، هو أقسى الامراض جميعا، وكنت اظنني براء منه.. واعني به الرغبة الملحة في ان أشْفَى، وهي رغبة يَتعَذَّرُ على المرء ان يَفْلِتَ منها إذا ما بدأ في قراءة الكتب الطبية!.. وانتهيت بشيء من البحث والتامل والمقارنة إلى ان اساس مرضي هو "ورم ليفي في القلب"!.. وقد لاح على "سالومون" نفسه ان الفكرة اذهلته، ولئن كان من الواجب ان تؤيدني هذه الافتراضات تأييدا معقولا في قراراتي السابقة إلا ان الحال لم تكن كذلك، فقد بذلت كل ما وَسِعَني من جُهْدِ عقلي لاكتشفَ طَرِيقَةَ علاج الورم الليفي الذي يصيب القلب.. وقد صح مني العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع. ولقد قيل للتعس "آنيه" في رحلته إلى "مونبيلييه" لزيارة حدائق النباتات ومسيو "سوفاج" -المعيد- بان مسيو "فيز" قد شَفَى مريضا بهذا الورم الليفي، وكان هذا كافيا لان يوحي إلي برغبة ملحة في ان اقصد مسيو "فيز" للاستشارة.. فقد اعاد الأمل في الشفاء إلى نفسي الشجاعة وزودني بالقوة على تَجَشُّم مَشَاق الرحلة، وكان المال الذي جئت به من "جنيف" عوني على ذلك. وشجعتني "ماما" على الذهاب، وهي ابعدُ الناس عن ان تُحَاول إثنائي عن عزمي.. وهكذا وجدتني في طريقي إلى "مونبيلييه"! وما كانت بي حاجة لان اذهب إلى هذا المكان النائي سعيا وراء الطبيب الذي انا في حاجة إليه!.. واستقللت عربة في "جرينوبل" -إذ كان ركوب الجياد يُتْعِبُني كثيرا- فوصلت إلى "مورانْ" -بعد عربتي- خمس أو ست عربات غيرها، الواحدة في إثر الاخرى.. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زُفَّتْ حديثا اسمها السيدة "دي كولمبيه"، وكانت ترافقها سيدة اخرى هي السيدة "دي لارنـاج"، اصغر منها سنا، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلما هي في ظرفها.. وكانت تنوي ان ترتحل من "رومـانس" -وهي المدينة التي ستتوقفُ فيها السيدة "دي كولومبييه"- إلى مدينة "سانت أنديول" قرب "سان أسبري". ونظرا لما طُبِعْتُ عليه من خَجَل ذاع صِيتُه فلا تحسبن أنني تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة.. ولكنني كنت اسافر في نفس الطريق الذي يسافران فيه، وانزل في الفنادق نفسها التي ينزلان فيها، فَخَشِيتُ ان يُقالَ

عني: إنني ابعث على السأم والملالة، وكنت مكرها ايضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة.. فوجدت من المستحيل علي آخر الامر ان اتجنب التعرف بهما، ففعلت هذا.. تعرفت بالسيدتين باسرع مما كنت اريد!.. وبرغم ان كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا، وخاصة إذا كان في مثل مزاجي إلا ان حُب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية في الإغراء حتى إنهن عندما يردن التعرف برجل يبدان في امتلاك لبه، وهذا ما وقع لي!.. بيد انه كان يُحيط بالسيدة "دي كولومبييه" بعض الشبان المتأنقين، إحاطة السوار بالمعصم، مما لم يُفسح لها الوقت للتعرف بي.. اضف إلى هذا ان الامر لم يكن ليستحق منها التفاتا مادمنا كنا على وشك الافتراق. ولكن السيدة "دي لارناج"، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من المعجبين، كان لابد لها ان تتزوّدَ لرحلتها بما يلزم، وهكذا كانت السيدة "دي لارناج" هي التي اخذت على عاتقها إذن ان تغزو قلبي.. ومنذ ذلك الحين وداعا لـ"جان جاك" المسكين -او على الاصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفي- وداعا لكل شيء وانا في صحبتها، ماعدا بعض نبضات القلب التي بقيت، والتي لم يبد منها اي ميْلٍ لشفائي منها. وكان سوء حالتي الصحية هو اول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه. لقد كانتا تريان انني مريض وتعلمان انني ذاهب إلى "مونبلييه"، ولابد ان مظهري واخلاقي قد جعلت من الواضح انني لست خليعا.. ذلك انه تبين لي، -مما تلا من الحوادث- انهما لم تشتبها في انني ذاهب إلى "مونبلييه" لكي اعالج من نتائج الخلاعة، ومع ان سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا في المرء فقد اثار سقمي اهتمام هاتين السيدتين، فكانتا تُرسلان إليّ في الصباح تسالان عن حالي وتدعُواني إلى تناول الشوكولاتة معهما، وتسالاني كيف قضيت ليلتي.. وذات مرة اجبت بانني لا ادري، على ما أُلفتُ في عادتي الحميدة من الكلام دون تفكير، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بانني مجنون، وشرعتا تفحصاني بدقة اكثر. ولم اصب من ذلك بضرر، وإن سمعت السيدة "دي كولومبييه" تقول مرة لصديقتها: "إنه لا خلاق له ولكنه ظريف"، وقد شجعني هذه الكلمات كثيرا ودعتني إلى العمل بمقتضاها!

وازدادت علاقتنا توثقا، فاضطُررتُ إلى ان اتحدثَ عن نفسي، وان أفصحَ عمن اكون ومن اين اتيت. وقد سبب لي هذا شيئا من الحيرة والارتباك؛ لانني ادركت بوضوح ان كلمة "مرتد" ستقضي على سُمعتي في الطبقة الراقية وبين السيدات المهذّبات، ولست ادري اية نزوة غريبة تلك التي تملكتني وجعلتني اقول إنني إنجليزي، ووصفت نفسي بانني يعقوبي، وسميت نفسي "دودنج"، فاخذتا تدعواني بالمستر "دودنج"، وكان معنا شخص لعين هو "المركيز ده تورنيان"، وكان مريضا مثلي إلا ان كبر سنه وسُوءَ خُلقه كانا ضغثا على إبّالة، وقد استبدّت به رغبة في محادثة مستر "دودنج"، وحدثني عن الملك "جيمس" وعن مدعي العرش وبلاط سان جرمان القديم. وكنت على احر من الجمر فإنني لم اكن اعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذي قراته في كتاب الكونت "هاملتون" وفي الصحف ولكني احسنت استخدام ما كان في جُعبتي من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتي.. ولحسن الحظ لم يسالني احد عن اللغة الإنجليزية التي لم اكن افهم منها كلمة!

وكنا على اطيب ما تكون العلاقاتُ والود، ننظر إلى فراقنا نظرة اسف وحسرة، وكنا نسافر نهارا، وفي صباح يوم احد وجدنا انفسنا في "سان مارسيلان"، وابدت السيدة "دي لارناج" رغبتها في حضور القداس، فصحبتها، مما كاد يفسد خطتي: فقد مارست طقوس القداس كما كنت افعل دائما، واستنتجت هي من سلوكي المتواضع المتحفظ انني من المتعبدين، فساءت فكرتها عني -كما اعترفت لي بعد ذلك بيومين!- وقد اقتضاني الامرُ قدرا كبيرا من الكياسة كي امحو هذه الفكرة

السيئة، أو بالاحرى ان السيدة "دي لارنساج" -وهي المرأة المُحَنَّكَةُ الخبيرة التي لا يدركها الياس بسهولة- كانت على استعداد لان تخاطر بالتودد إلي لترى كيف انقذ نفسي.. وقد اسرفت في التودد حتى إنني، -وانا الذي لا اغالي في تقدير مظهري الشخصي- اعتقدت انها تسخر مني، وتملكتني هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم أرتكبه!.. لقد كنت في ذلك أسْوَأ من المركيز "دي ليجيز" (١)، وكانت السيدة "دي لارناج" ثابتة العزم، فحاولت إغرائي كثيرا، وكانت تحادثني في رقة بالغة، حتى إن رجلا احكمُ مني كان يجد من الصعب عليه ان يأخذ هذا كله مأخذَ الجد! وكلما الحت في سعيها ازداد يقيني بفكرتي، والذي عذبني اكثر فاكثر انني اصبحت جادا في ولعي بها، فقلت لها -ولنفسي- في تأوه: "آه! لو ان كل ما تقولينه كان صحيحا لكنت اسعد مخلوق!". واعتقد ان بساطتي المجردة إنما خيبت ظنها، ولكنها لم تكن مستعدة للإقرار بالهزيمة!

وكنا قد تركنا السيدة دي "كولومبيه" وحاشيتها في "رومانس"، وتابعنا المسير في بطء ونحن في غاية السرور -السيدة دي "لارناج" والمركيز دي "تورنيان" وانا- وكان المركيز -بالرغم من انه رجل مريض كثير التأفف والتذمر- كيسا ظريفا، غير انه لم يكن مما يَغْتَبِطُ له ان يرى غيره من الناس يتمتعون دون ان يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم!.. ولم تعن السيدة دي "لارناج" إلا قليلا بإخفاء ميلها إلي، حتى إنه كان أسرع مني في ملاحظته، وكان يجب ان تزودني تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التي لم اكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلي لولا انني ظننت -في روح من العناد، كنت انا وحدي قادرا عليها- انهما قد اتفقا على ان يَلْهُواْ على حسابي! وادار هذه الفكرة السخيفة راسي تماما آخر الامر، وجعلتني العبُ دور الغرّ الابله في موقف ربما امرني فيه قلبي -وقد تملك الحب شغافه- بان اتصرف تصرفا افضل من هذا التصرف بكثير. ولست ادري كيف ان السيدة "دي لارنساج" لم يتملكها النفور من كآبتي بحيث كانت تنأى عني وهي تزدريني أشد الازدراء، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم مَنْ تُعاملُ مِنَ الناس، فرأت في وضوح أن مسلكي كان يتسم بالغباء اكثر مما يتسم بفتور الهمة!

وافلحت المرأةُ آخر الامر، وبشيء من المشقة، في البَوْحِ بماُ يكنُّهُ صدرها، وكنا قد بلغنا "فالانس" في موعد الغداء وبقينا بها -وفقا لعاداتنا الحميدة- بقية النهار، وحَطَطْنَا رحالنا خارج المدينة، في "سان جاك" -ولن انسى هذا الفندق أو الغرفة التي كانت تنزل فيها السيدة "دي لارناج"!- وقد ارادت ان نقوم بنزهة بعد الغداء،وكانت تعلم ان المركيز ليس مُولَعا بالسير، وكان هدفها من ذلك ان تنفرد بي، وبيت ان تنتفع بخلوتها معي اكبر انتفاع ممكن، ذلك انه لم يبق ثمة وقت نُضَيعه، إن كان قد بقي شيء من الوقت تنتفع به.. وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق، وعدت ألقي على مسامعها قصتي الطويلة عن امراضي، فكانت تجيب عليها في رقة بالغة، وتضغط احيانا بذراعي على قلبها، حتى إنه لم يكن يحول بيني وبين الاقتناع بانها تجد في حديثها إلا غباوة كغباوتي!.. أما الامر الذي لم يُحْسَبْ حِسَابُهُ فهو ان الحب كان قد نال مني منالا عظيما، فلقد سبق لي ان قلت: إن السيدة كانت ظريفة، وقد جعلها الحب فاتنة، واعاد إليها كل بهائها في صدر شبابها، وكانت تصطنع في توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بان يغري رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة.

وكنت قلقا مضطربا، وكثيرا ماهممت بأن اتجاوز معها حد الادب لكن الخوف من إساءتها او إغضابها بل والخوف الاكبر من ان أُصْبِحَ موضعا للسخرية والاستهزاء، وان أزود المائدة بقصة تُرْوىَ عني، وان

---

(١) شخصية في كوميديا "ماريفو"، احب لاول مرة وكان في غاية الخجل من ان يبوح بحبه، في حين ان شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما.

يهنئني المركيز العاتي -الذي لا يرحم- على بسالتي، كل ذلك عاقني وأثار غيظي من خجلي الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه، في حين كنت أنحي على نفسي باللائمة من جرائه.. لقد كنت في عذاب اليم، وكنت قد نبذت كلامي الذي يغلب عليه الحياء، فقد شعرت بسخافته بعد ان قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير. ولكني، وقد انتابتني الحيرة فلم اعرف كيف اتصرف او ماذا اقول، لزمت الصمت وعلت وجهي الكآبة. ومُجْمَلُ القول: إنني فعلت كل ما من شانه ان يصيبني بالمعاملة التي كنت اخشاها!.. على ان السيدة "دي لارناج" كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفا، فقطعت حبل السكون فجاة بوضع ذراعها حول رقبتي، ثم حدثني فمها -وقد اطبق على فمي- في لغة صريحة واضحة لم تدع لي مجالا لاي شك بعد ذلك. وما كانت الأزمة لتقع في لحظة اسعد من تلك اللحظة، فلقد اصبحت ظريفا، ومنحتني ثقتها، وهي التي حال افتقاري إليها دائما دون ان اكون طبيعيا. اما في هذه المرة، فقد كنت على سجيتي، ولم يحدث أن اجادت عيناي ومشاعري وقلبي، في الحديث، مثل هذه الإجادة!.. كما لم يَحدث لي من قبل ان اصلحت اخطائي هكذا تماما.. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كَلَّفَتْ السيدة "دي لارناج" شيئا من الجهد والتعب، فعندي من الاسباب ما يحملني على الاعتقاد بانها لم تندم عليها!

ولو انني عشتُ مائة عام لما استطعت ان افكر قط في هذه المراة الفاتنة دون فيض من السرور يَطْغَى علي! وانا اصفها بالفتنة، لانها وإن لم تكن بالصغيرة او الجميلة فإنها لم تكن ايضا بالعجوز ولا بالدميمة، ولم يكن في وجهها ما يحول دون ان يظهر ذكاؤها وظرفها في ابهى حُلَلِهِمَا. ونحن إذا قارناها مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن اقل ما يتصف بالنضارة وجهها، واعتقد انها افسدته بما كانت تَصْبِغُهُ به من المسحوق الاحمر "الروج".. وقد كانت ثمة اسباب لاستهانتها بفضيلتها، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها. كان من الممكن ان تنظر إليها دون ان تحبها، ولكن ما كنت لتستطيع ان تملكها دون ان تعشقها، ويلوح لي ان هذا من شانه ان يثبت انها لم تكن تسرف دائما في حبها إسرافها فيه معي.. لقد كان توددها إلي مفاجئا حيا، حتى ليتعذر علي أن اجد عذراء تُبرره، سوى ان قلبها كان له في ذلك نصيب كنصيب حواسها. وفي الفترة الوجيزة اللذيذة التي قضيتها معها،، اجتمعت لي اسباب ذلك الاعتدال الذي ارغمتني عليه وفرضته علي فرضا، فإنها -برغم كونها شهوانية جَيَّاشَةَ العاطفة- كانت تفكر في صحتي اكثر مما تفكر في متعتها!

ولم يفت المركيز ما كان بيننا من تفاهم! على انه لم يكف عن المزاح معي، بل إنه على النَّقيض كان يعاملني -اكثر من ذي قبل- معاملة العاشق البالغ الحياء، شهيد قسوة السيدة وصُدُودِهَا! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة او نظرة تدعني اشتبه في انه قد كشف أمرنا.. بحيث كان لي ان اعتقد اننا خدعناه، لولا ان السيدة "دي لارناج"، وكانت اكثر مني فطنة وحِذْقا، اخبرتني بان الحال ليست كما وصفت، بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبل.. والواقع انه ما من احد كان يظهر ما اظهر من أدب، أو يتصرف في كياسة اكثر مما كان يتصرف هو دواما، حتى نحوي انا -عدا تهكمه، وخاصة بعد نجاحي- ولعله كان يَعْزُو الفضل في ذلك إلي، واعتبرني شخصا غير ذلك الاحمق الذي كنت أَبْدُوهُ -وقد كان في ذلك مخطئا، كما مر بنا!- ومهما يكن من امر فقد انتفعت بخطئه. ومن الحق ان اقول: إنني، وقد انقلبتْ كَفَّةُ الميزان، كنت احتمل نكاته بصدر رحب وسماحة، بل كنت اجيبه عليها -والسعادة تغلب علي- فخورا بان اكشف امام السيدة "دي لارناج" تلك الفطنة التي وصفتني بها، بعد ان لم اعد الرجل الذي كُنْتُهُ!

ولقد كنا في الريف، وفي فصل تَشيعُ فيه البهجةُ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المركيز، ولو أني كنت مستطيعا ان استغني عن عنايته بنا، تلك العناية التي امتدت حتى شملت مخادعنا، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما. وكان هذا الوغد -إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركيز- يحجز لسيده دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة "دي لارناج"، في حين يُلقِي بنا في الطرف الآخر من الفندق!.. على ان هذا لم يُسَبِّبْ لي من الحرج إلا القليل، بل اضاف إلى فتنة مقابلاتنا.. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة اربعة او خمسة ايام، ثملتُ خلالها باحلى اللذات! كانت لذة حية لا زيف فيها، ولم تَشُبْهَا اقل شائبة من الالم.. اول وآخر ما نعمت به من هذه المتع!.. ولا يسعني إلا القول بانني مَدِين للسيدة "دي لارناج" بانني لن أرحل عن هذا العالم دون ان اعرف طعم المتعة واللذة!

لم يكن شعوري نحوها هو الحب بمعناه، وإنما كان على الأقل مُجَاوبة رقيقة للحب الذي تُظْهِرُهُ لي.. وكانت هي ملحة في إشفاء غليلها من الصلة الجنسية، حلوة في ممارستها، بحيث جعلت فيها كل ما يكون في الهوى من فتنة وسحر، مجردين من ذلك الهذيان الذي يدير العقل ويفسد المتعة. إنني لم اشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة في حياتي، ولم يكن هذا معها، بل إنني لم احبها كما احببت ومازلت احب مدام دي "فاران"، ولكن امتلاكها كان يُضْفِي علي من المتعة مايَفُوقُ متعتي مع الأخرى مائة مرة!.. لقد كانت متعتي مع "ماما" يشوبها دائما شعور بالحزن.. شعور دفين بالضيق، موضعه القلب. وهو شعور كنت اجد صعوبة في التغلب عليه، بحيث إنني بدلا من تهنئة نفسي على امتلاكها كنتَ أنْحِي على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها!.. اما مع السيدة "دي لارناج" فقد كنت، على العكس، فخورا برجولتي وبسعادتي.. واطلقتُ لنفسي العَنَانَ، في اطمئنان وفرح، لإشباع رغباتي. ولقد شاركتها الشعور الذي بعثته فيها، وكنت امتلك زمام نفسي، وأنظر إلى فوزي نظرة الارتياح النفسي التي انظر بها تماما إلى المتعة، وأستمد منها الوسيلة التي تعينني على مضاعفتها!

ولا اذكر متى تركنا المركيز -الذي كان من اهل المنطقة- غير اننا كنا وحدنا عندما بلغنا "مونتيليمار"، حيث امرت السيدة "دي لارناج" خادمها بان تَسْتَقِلَّ عربتي بينما ركبت انا عربتها، واستطيع ان اؤكد لكم اننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وإني لاجد من الصعب علي ان اصف المنطقة التي اجتزناها، وقد بقيتْ السيدة في "مونتيليمار" ثلاثة ايام، لبعْضِ شؤونها، على انها لم تتركني خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة. ولم تكن ميالة باي حال من الاحوال لقبول هذه الدعوات، فزعمت انها متوعكة المزاج، على ان هذا لم يحل بيننا وبين السير معا وحدنا -كل يوم- في اجمل بقعة من بقاع الريف، وفي ظل اجمل سماء في العالم.. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة! لقد جدّ في حياتي من الأسباب مادعاني للندم عليها احيانا! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك!

*****

والحب اثناء السفر لا يمكن ان يدوم، وهكذا اضْطُرِرْنا للافتراق.. واعترف إن الوقت كان قد حان لذلك لا لانني أُفْعِمْتُ وزَهِدت، أو لسبب من هذا القبيل، بل إني كنت ازداد ولعا بها يوما بعد يوم، غير اني بالرغم من حرصها، لم يبق لي -ما خلا صفاء النية- إلا القليل. وقبل ان نفترق اردت ان

استمتع بذلك القليل، فأذعنتْ هي لرغبتي، على سبيل الاحتياط من غادات "مونبلييه". وتحايلنا على ما كان يعترينا من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى.. وكان قد تقرر أن أستمر في العلاج، الذي أفادني فائدة عُظمَى، وأن أقضي الشتاء في "سانت انديول" تحت رعايتها، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط في "مونبلييه"، حتى أُفسِحَ لها الوقت لكي تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية، منعا للفضيحة. وقد لقنتني التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته، وعما يجب أن أقول والكيفية التي يجب أن أتعرفَ بها عليها، وكان علينا في الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل. وقد حدثتني طويلا في جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتي، ونصحتني بأن أستشير بعض الأطباء الماهرين وأن أُعنَى باتباع ما يشيرون به، وأخذت على عاتقها أن تجعلني أنفذ تعليماتهم، مهما كان من صَرَامَتِهَا، مادمت معها. وأعتقد أنها كانت تتحدث في صدق وإخلاص، إذ إنها كانت تحبني، وقد زودتني بالأدلة الكثيرة على ذلك التي يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لي!..
وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفري بأنني لم أكن أتمرغ في المال، ومع أنها هي أيضا لم تكن بالموسرة بأي حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تُقَاسِمَنِي ما في كيس نقودها، وكانت قد جاءت به مليئا من "جرينوبل".. وقد وجدت مشقة عظيمة في حملها على قبول اعتذاري، وتركتها أخيرا، تاركا في قلبها -فيما أعتقد- حبا صادقا لي!

وانتهت رحلتي بينما كنت أستَعِيدُهَا في ذاكرتي منذ البداية، وكنت قانعا في تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس في عربةمريحة أحلم، في راحة ويسر، بالمتع التي كان من نصيبي أن أنعم بها، وبتلك التي وعدتني بها. لم أكن أفكر إلا في "سانت انديول" والحياة البهيجة التي كانت تنتظرني فيها، ولم أكن أرى إلا السيدة "دي لارناج" وبيئتها.. أما بقيةُ العالم فلم تكن بالنسبة لي شيئا مذكورا، حتى "ماما" نَسِيتُها، واستغرقت في التفكير في كافة التفاصيل التي ذَكَرَتْهَا لي السيدة "دي لارناج" حتى تُوحي إلي مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها وطريقة حياتها. وكانت لها ابنة كثيرا ما حدثتني عنها في عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف، وكانت ابنتها هذه في السادسة عشرة من عمرها، رشيقة فاتنة ودودا. ووعدتني السيدة "دي لارناج" بأنني سأكون ولا شك صاحبَ الحُظْوة الكبرى عندها. ولم أنس هذا الوعد، وقد استبد بي الفضول لكي أرى كيف تتصرف الآنسة "دي لارناج" نحو صديق أمها الحميم! كانت تلك هذ أحلامي من "بون سان أسبري" حتى "ريمولان".. ولقد قيل لي: أن أذهب وأشاهد "بون دوجار" "جسر الجوس". ولم يَفُتْنِي أن أفعل، فلقد كان الجسر هو الأثر الروماني الأول الذي شاهدته. وانتظرت أن أرى نُصُبا جديرا بالأيدي التي أقامته.. وللمرة الأولى والأخيرة في حياتي جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل: لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد!
لقد أثر في نفسي منظر هذا العمل البسيط، النبيل مع ذلك، أعظم تأثير.. ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء، حيث السُّكُون والوَحْدَةُ يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويُثيران شعورا بالإعجاب أقوى وأشد! إذ إن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر، ومن الطبيعي أن يتساءل المرء أية قوة تلك التي نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أي محجر من المحاجر، وتمثلت في أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها!

واجتزتُ الطَّبَقَاتِ الثلاث التي كان يتألفُ منها هذا البناء البديع، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعني من أن أطأها بقدمي! وحملني صَدَى وقع قدمي تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيل أنني

اسمع الأصوات القوية لأولئك الذين اقاموا صرحها! شعرت انني ضائع في وسط هذه العظمة كانني الحشرة، وشعرت بالرغم من إحساسي بضآلتي كان روحي قد سَمَتْ بطريقة ما، وقلت أُحدثُ نفسي وانا اتاوه: "لماذا لم اولد رومانيا؟"، وبقيت في ذلك المكان بضع ساعات في تامل يذهل العقل، وعدت وانا سارح الفكر، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة "دي لارناج"، وهي التي عنيت بان تحذرني من فتيات "مونبلييه"، لا من جسر الحرس.. لكن المرء لا يفكر في كل شيء!

وفي "نيم" ذهبت لاشاهد الملعب المدرج، إنه عمل اكثر روعة بكثير من جسر الحرس، إلا ان تاثيره علي كان اقل بكثير من تاثير الجسر.. فإما ان الجسر قد استَنْفَدَ كل إعجابي، او ان المدرج، وهو يقع في وسط المدينة، كان اقل من ان يثير إعجابي! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء مَنَازِلُ صغيرةٌ قبيحة، وامتلات الحلبة بمنازل اخرى، اصغر واقبح، حتى إن المنظر كله كان يبعث في النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة، وقد رايت منذ ذلك الحين مَلْعَبَ "فيرونا" وهو اصغر بكثير واقل مهابة وجلالا، ولكنهم احتفظوا به في اكبر قدر ممكن من النظافة والاناقة، ولهذا السبب وحده اثر في تاثيرا ابلغ واقوى، ووقع من نفسي موقع القبول.. إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون النصب، وهم تواقون اشد التوق للقيام باي عمل، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه او كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه!

لقد تبدلتْ حالي كثيرا، واستَيْقَظَتْ احاسيسي -وكانت قد تنبهت إلى العمل- حتى بقيت يوما اكمله في فندق "بون دي لونيل" لانعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذي شاع فيه، وكان هذا الفندق -إذ ذاك- اشهر فندق في اوروبا، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت، فقد عرف اصْحَابُهُ كيف يستغلُّون موقعه البديع، فزودوه بوفرة من اطايب الماكولات. لقد كان من الغريب حقا ان تجد في دار نائية منعزلة -وفي وسط الريف- مائدة زودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد البديعة ومجموعة من الأشربة المنتقاة، تقدم لك في ادب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت العظماء والموسرين.. وكل هذا بخمسة وثلاثين "سو" لشخص!.. إلا ان "جسر دي لونيل" لم يبق في هذا المستوى طويلا، إذ إنه تمادى في استغلال سمعته، حتى فقدها باسرها في النهاية!

ولقد نسيت اثناء رحلتي انني كنت مريضا، فلم اتذكر ذلك إلا عندما بلغت "مونبلييه". ولقد كان من المحقق انني شُفيتُ من نوبات الهيستيريا التي كانت تنتابني، إلا ان كل عللي الاخرى بقيت. ومع ان اعتيادي إياها جعلني اقل إحساسا بها، إلا انها كانت تكفي لان تحمل اي إنسان على الاعتقاد -إذا ما تعرض لنوباتها فجاة- بانه على باب القبر.. كانت هذه العلل -في الواقع- أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للالم، وكانت تُسَبِّبُ من عذاب العقل اكثر مما تسبب من عذاب الجسم، وهي التي كانت تعلن عن تَدْمِيرِه فيما يلوح. ومن ثم فإنني كنت -حين أُشْغَلُ بالانفعالات العنيفة- لا افكر في حالتي الصحية. ولكن عللي لم تكن خيالية، فكنت اعود إلى الإحساس بها مرة اخرى عندما يعاودني هدوئي، وبدات عندئذ افكر تفكيرا جديا في نصيحة السيدة "دي لارناج"، وفي هدفي من رحلتي، فاستشرت اشهر الاطباء وعلى الاخص السيد "فيز".

وزيادة في الحَيْطَةِ، نزلت عند طبيب. كان إيرلنديا اسمه "فيتز موريس"، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب. ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم، انه كان يقنع باجر معقول لقاء الماكل والمسكن، ولا يَتَقَاضَى شيئا من نزلائه في مقابل الرعاية الطبية.. وقد اخذ على عاتقه ان ينفذ تعليمات السيد "فيز"، وان يعنى بصحتي. اما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفي ما عليه وفاء يدعو

للإعجاب، فلم يكن بين النزلاء من يُعاني عُسْرَ الهضم. ومع انني لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعام، إلا ان الفرص التي تهيئ لي المقارنة كانت في متناول يدي، حتى إنني لم اتمالك في بعض الاحيان من أن أتبين -فيما بيني وبين نفسي- أن السيد دي "تورنيان" كان موردا للأغذية افضل من السيد "فيتز موريس"، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تماما!.. وكان الطلبة الشبان غاية في المرح، وقد افادني حقا هذا الاسلوب من اساليب الحياة، وحال دون إصابتي بما كان ينتابني قبلا من الاكتئاب. وكنت اقضي الصباح في تناول الادوية، وخاصة بعض المياه -التي اعتقد انها كانت تأتي من "فالس"، وإن لم أكن واثقا بذلك- وفي الكتابة إلى السيدة "دي لارناج". ذلك ان الرسائل ظلَّتْ مستمرة، وقد آلى "روسو" على نفسه ان يأتي بخطابات صديقه "دودنغ".

وكنت انطلقُ -عند الظهر- في جولة إلى "كسانورج" مع احد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا. وقد كانوا جميعا على خلق عظيم. وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء، فإذا ما فرغنا منه، كان معظمنا يُشْغَلُ بمسالة مهمة حتى المساء.. تلك هي اننا كنا ننطلق إلى خارج المدينة، لنلعب دورين او ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان، ولنتناول شاي الاصيل. ولم أكن اشترك في اللعب معهم، إذ لم تتوفر لي القوةُ أو البَرَاعَةُ في اللعب، ولكني كنت اراهن على النتيجة.. وهكذا كنت اتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية، وانا مهتم برهاني، فانعم برياضة صحية ممتعة، كانت تناسبني إلى اقصى حد. وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة، وَغنيٌّ عن البيان ان هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح، ولكني اضيف إلى هذا انها كانت محتشمة، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات!.. وكان رئيس الفريق هو السيد "فيتز موريس" نفسه، فقد كان لاعبا عظيما. وأستطيعُ ان أقرر -بالرغم من سُوء سُمْعَة الطلبة- أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الادب والحِشْمَة مالا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين.. كانوا اميل للضوضاء منهم للفسق، وللمرح منهم للخلاعة. ولما كان من السهل علي أن أعتاد اي سبيل من سبل الحياة -عندما يكون ذلك باختياري- فإنني لم اعد اتمنى اكثر من استمرار هذه الحال.

وكان بين الطلبة عدد من "الأيرلنديين" حاولت ان اتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهبا لذهابي إلى "سانت اندبول"، فقد كانت السيدة "دي لارناج" تَسْتَحِثُني في كل بريد، وكنت على استعداد لكي اذعن إلى رغبتها. وكان من الواضح ان اطبائي -وقد غاب عنهم علتي- اعتبروا الا وُجُود لها إلا في مُخَيِّلَتي. وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجونني بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر.. والاطباء كالفلاسفة، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء اصول الدين، إذ إنهم لا يُقِرُّونَ بأن شيئا ما صحيح إلا إذا كان في استطاعتهم أن يعللوه، كما أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن!.. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علتي، ولذلك لم أك مريضا البتة، في رأيهم!. فإن الاطباء يعرفون كل شيء طبعا!.. وكنت أرى انهم إنما يحاولون خداعي وحملي على إنفاق مالي، ولما كنت أعتقد ان نائبتهم في "سانت اندبول" ستفعل عين ما كانوا يفعلون -ولكن بطريقة أظرف- فقد صَحَّ عَزْمِي على ان أفضِّلَهَا عليهم!.. وما إن قر رأيي على هذا القرار الحكيم حتى رحلت عن "مونبلييه"، فغادرتها في اواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد ان أقمت فيها ستة اسابيع او شهرين، وبعد ان انفقت فيها اثني عشر "لوى"(١)، دون أن يعودَ ذلك بأي نفع على صحتي او على إدراكي، اللهم عدا منهج في التشريح بدأته تحت إرشاد السيد "فيتز موريس"، واضطررت ان اكف عن تلقيه نظرا للرائحة النتنة التي كانت تتصاعد من الجثث المشرحة، فقد وجدت ان من المستحيل علي ان أتحملها!

---

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكاً.

وشعرت انني غير مستريح للقرار الذي اتخذته، فشرعت افكر فيه وانا اواصل رحلتي صَوْبَ "بون سان اسبري" وكان الطريق يؤدي إلى "شامبيري" كما كان يؤدي إلى "سانت انديول"، فاثارت -ذكرى "ماما" ورسائلها -ولو انها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة "دي لارناج" تفعل -لَوَاعِجَ الحسرة في فؤادي من جديد، بعد ان كنت قد اخمدتها في الشطر الاول من رحلتي.. وكانت في عودتها قوية عنيفة، حتى إنها رجَحَتْ على حب المتعة، فلم اجد مناصا من الاستماع إلى صوت العقل وحده. ولعلني كنت في دور الافاق -الذي عدت إلى الشروع في ادائه- اقل توفيقا وحظا مما كنت في المرة الاولى. ذلك لان الامر -في هذه المرة- لم يكن يتطلب سوى ان يوجد في بلدة "سانت انديول" باسرها، شخص واحد، سبق له ان زار "إنجلترا"، وعرف "الإنجليز"، وتمكن من لغتهم، حتى يُفْتَضَحَ أمري!.. وكان من المحتمل الا اروق لاسرة السيدة "دي لارناج"، فتعاملني بقليل من الكياسة. إذ كانت ابنتها -التي كنت افكر فيها، بالرغم مني، اكثر مما كان ينبغي- تسبب لي قلقا لم يفارقني.. وكنت ارتجف لمجرد احتمال انني قد اقع في هواها!.. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوامل التي كانت تحملني على العدول.. وكنت اقول لنفسي: اترانى -في مقابل افضال الام- اسعى لإفساد الابنة وللدخول معها في علاقة بغيضة، تصيب الاسرة بالتَّصَدُّعِ والعار والفضيحة والجحيم معا؟

كانت هذه الفكرة تُوقِعُ الرعبَ في نفسي، ومن ثم فقد صممت تصميما جازما على ان اقاوم هذه النفس واهزمها، إذا انا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة. ولكن.. لماذا اعرِّض نفسي لصراع كهذا؟.. أيَّةُ حال تعسة من العيش تلك التي تدعوني إلى ان احيا مع الام -التي كنت أوقن من انني سَئِمْتُها- بينما يضطرم قلبي بحب الابنة، دون ان اجرؤ على ان اكشف لها قلبي؟.. وأية ضرورة تدعو إلى السعي نحو حال كهذه، اتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم، في سبيل متع حظيت مقدما باعظمها فتنة؟.. ذلك انه كان من المحقق ان اهوائي كانت قد فَقَدَتْ حدتها الاولى.. كان الميل للمتعة مايزال قويا، ولكن العاطفة المتاججة كانت قد ولت. وقد خالطت ذلك افكار تتصل بموقفي، وواجباتي، وتلك الام المفرطة الطيبة والكرم، التي تورطت في ديون -فوق التي كانت تثقل عاتقها- في سبيل نفقاتي الطائشة، والتي أنْفَقَتْ كل ما كانت تملك من اجلي، انا الذي كنت أخْدَعُهَا بخسة.. ولقد اشتد هذا التانيب وثقل على ضميري حتى انقلبت الكفة آخر الامر، فما إن اقتربت من "سان أسبري" حتى قررت ان اسرع باجتياز "سان انديول" دون ان أتوقف فيها. ونفذت هذا القرار ببسالة، وإن كنت لا انكر انني زفرت بعض زفرات. بيد أنني في رضائي عن نفسي كنت اتذوق -للمرة الاولى في حياتي- لذة القدرة على ان اقول: "من حقي ان اشيد بذكر نفسي، فإنني اعرف كيف اقدم واجبي على متعتي"!

وهذا هو الالتزام الحقيقي الاول، الذي خرجت به من دراستي، إذ إنها علمتني ان افكر، وان اقارن.. وبعد مبادئ الطهر والعفة -التي انتهجتها منذ عهد قريب- وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التي ارتضيتها لنفسي، والتي كنت فخورا كل الفخر باتباعها وجدتني اشعر بالخزي من ان اكون متساهلا مع نفسي، ومن ان أخالف قواعدي المقررة بهذه السرعة، وهذه القوة، وطغى هذا الشعور علي، فانتصر على المتعة، وربما كان للاعتزاز بالنفس نصيب -في قراري- يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء. ولكن إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة ان المرء يخطئ في التفريق بينهما!

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة انها تسمو بالروح وتميل بها إلى الإتيان بشيء أفضل، ذلك ان الضَّعْفَ البشريَّ بلغ مبلغا عظيما، حتى لينبغي لنا ان نسلك في عداد الافعال الصالحة الامتناع عن الشر الذي تُغْرِينَا نفوسنا على ارتكابه.. وما إن اتخذت قراري حتى اصبحت رجلا آخر، أو -على الاصح- اصبحت الرجل الذي كنته من قبل.. الرجل الذي حملته نشوة هذه التجربة على ان يختفي. فواصلت رحلتي وقد انطوى صدري على اطيب المشاعر وافضل القرارات، مُنْتَوِيا التكفير عن خطئي، وعدم التفكير إلا في تنظيم سلوكي في المستقبل على اساس من قوانين الفضيلة، مكرسا نفسي دون قيد او شرط لخدمة ابر الامهات، منذرا لها إخلاصا يعادل حبي لها، منصتا لنداء واجبي وحده، ولكن واأسفاه!..

كان إخلاصي في العودة إلى الفضيلة يبدو وكأنه يُخَبِّئُ لي مصيرا آخر. بيد ان مصيري الحقيقي كان قد كتب في لَوْحِ القدر، وبدأ يتحقق فعلا. وفي اللحظة التي لم يكن فيها قلبي -الزاخرُ بحب كل ما هو طاهر وشريف- يرى امامه سوى البراءة والسعادة، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التي قُدِّرَ لها ان تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التي حلت بي!

كان تعجل الوصول قد جعلني اسرع في سفري اكثر مما كنت انتوي، وكنت قد ارسلت خطابا إلى "ماما" من "فالانس" اخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت ان اصل فيهما. ولما كنت قد استبقت موعدي بنصف يوم، فقد قضيت ذلك الوقت في "شاباريان" لكي أصلَ في اللحظة التي عيَّنْتُها بالضبط، وكنت أَتُوقُ إلى ان استمتع غاية الاستمتاع بمرآها ثانية، ففضلت ان أؤجل وصولي قليلا حتى اضيف إلى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره. وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائما، فقد كنت أجدُ القوم يحتفلون بوصولي -في كل مرة- وكأنه يومُ عيد صغير. وهذا ما توقعته في هذه المناسبة، وكانت تلك العناية -التي كانت تهفو بالقلب والمشاعر- جديرة بالتعب الذي كان يبذل في سبيل الظفر بها!

ووصلت في اللحظة التي عينْتُها تماما. ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتي، رحت أُنْعِمُ النظر في الطريق، علني اراها.. "ماما"!.. وراح قلبي يَخْفِقُ في عنف اخذ يُطَّرِد بازدياد اقترابي. ووصلت وانا الهثُ، إذ إنني كنت قد تركت عربتي في المدينة.. ولم ار احدا في الفناء او عند الباب او مطلا من النافذة فبدأ القلق يُسَاوِرُني خشية ان يكون قد وقع حادث.. ودخلت فإذا كل شيء هادئ، وبعض العمال يأكلون في المطبخ، ولم تكن ثمة أمارات تنم عن ان القوم ينتظرونني. وبدت الدهشة على الخادم لرؤياي إذ إنها كانت تجهل امر قدومي. وصعدت الدرج.. واخيرا رأيتها.. تلك الأم العزيزة، التي اجتمع لها في قلبي كل ما في الحب من رقة وقوة وإخلاص. وهرعت إليها، فَأَلْقَيْتُ نفسي عند قدميها. وقالت لي وهي تُعانِقُني: "آه إذن فقد عُدت أيها الصغير!.. أكانت رحلتك ممتعة؟.. كيف حالك؟". واذهلني هذا الاسْتِقْبَالُ بعض الشيء، فسألتها عما إذا كانت قد تلقت خطابي. واجابتني بـ"نعم"، فقلت: "ما كنت أعتقد هذا". وانتهى الحديث عند هذا الحد، فقد كان معها شاب تذكرتُ انني رأيته في المنزل قبل رحيلي، ولكنه بدا -في هذه المرة- وكأن المقام قد اسْتَقَرَّ به هناك، وكان ذلك هو الواقع فعلا. ومجمل القول إنني وجدت من حَلَّ محلي!

وكان الشاب من منطقة "فو"، وكان ابوه -واسمه "فنتزنريد"- امين حصن "شيون"، او كبير ضباطه كما كان يدعو نفسه. اما الابن فقد كان عاملا يصنع الشَّعر المستعار، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته، عندما قدم نفسه إلى السيدة دي "فاران" فأَحْسَنَتْ استقباله، كما كانت تفعل مع

عابري الطريق جميعا، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها. وكان الشابُ ذا شعر أشقر غزير حائل اللون، وجسم بديع التكوين، ووجه سمين، وعقل في ثقل جسمه!.. فقد كان يتحدث كالمغرور المتحذلق، وهو يخلط بين اللهجات، ويمزج الأحاديث التي تتطلبها مهنته بقصة طويلة -عن مغامراته وفتوحاته الغرامية- لم يكن يضمنها، -فيما زعم- سوى نصف من ضاجعهن من المركيزات!.. وكان يدعي انه ما صفف شعر حسناء إلا وَزيّنَ رأس زوجها أيضا!.. كان مغرورا أخْرق جاهلا وقحا، اما ماعدا هذا فقد كان من احسن الشبان في العالم!.. ذلك هو البديل الذي حل محلي أثناء غيابي والرفيق الذي قدموه إلي بعد عودتي! وإذا كانت الأرواح التي تنطلق من القيود الدنيوية تظل ترى -خلال اضواء الأبدية- ما يجري بين أهل الأرض فاغفر لي -إذن- أيها الطيف الحبيب الأثير، انني لا أغضُ الطرف عن اخطائك ولا عن اخطائي، بل إنني اكشف عنها جميعا أمام القارئ، وعلى قدم المساواة!.. لسوف أكون -ولابد لي من ان اكون- صادقا نحوك صدقي نحو نفسي، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبني انا!.. آه! كم يُكَفِّرُ خُلُقُكَ الوديع الرقيق، وطيبة قلبك -التي لا ينضب معينها- وصراحتك، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب.. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك إذا ما ذكرت تلك الهفوات التي يمكن ان توصف بانها من اخطاء عقلك وحده!.. لقد اخطأت ولكنك كنت براء من الرذيلة ولقد استحق مسلكك اللوم، ولكن قلبك ظل نقيا دائما.

ولقد أظهر القادمُ الحديثُ غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشؤون الصغيرة العديدة التي كانت "ماما" تحتاج إليها، ونصبَ نفسه رئيسا على عمالها.. وكان كثيرَ الضَّجيج، بقدر ما كنت شديد الهدوء!.. كان القوم يرونه ويسمعونه في كل مكان في وقت واحد: عند المحراث، وفي مخزن الدريس، وفي مخزن الخشب، وفي الإسطبل، وفي ساحة المزرعة. وكانت فلاحة البساتين هي الشيء الوحيد الذي أهمله، إذ إنها كانت هادئة جدا، لا تهيئ الفرصة لإحداث ضوضاء. كان يفرح أشد الفرح بِوَسْق عربة وقيادتها، ونَشْرِ الخشب او تكسيره.. فما كنت كنت تراه إلا والفاس والبلطة في يده، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة.. ولست أدري كم من عمل الرجال قام به، ولكن الذي أدريه انه كان يُحْدثُ من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال او اثنا عشر. وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع "ماما" المسكينة، فقد حَسِبَتْ انها وجدت في هذا الشاب كنزا يعاونها في شؤونها، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت في ذلك كل السبل التي اعتقدت ان من الممكن ان تأتي بالنتيجة المرجوة.. ولم تنس ذلك السُّبُلَ الذي كانت تُعَوّلُ عليه أكثر من سواه!

ولابد ان القارئ قد استَشَفَّ شيئا عن قلبي، وعن مشاعره الصادقة الثابتة، لا سيما تلك التي حدت بي إلى العودة إلى "ماما" إذ ذاك، ولكن يا للانقلاب المفاجئ الكامل في كياني كله!.. فليضع القارئ نفسه في موضعي ليستطيع الحكم!... لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد -الذي تخيلته لنفسي- يَتَلاشَى في لحظة، وتبددت احلامُ السعادة التي كنتُ اعتز بها اعتزازا.. ووجدتني للمرة الأولى وحيدا، انا الذي ألفت منذ صباي الا أرى لنفسي وجودا إلا في وجود "ماما"!.. كانت تلك اللحظة فظيعة، ولكن اللحظات التي تلتها كانت قاتمة كئيبة.. كنت مازالُ شابا ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل -الذي يبعث الحياة في الشباب- كان قد هَجَرَني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين مات في اعماقي الحسُّ المرهف -نصف ميت- ولم اعد أرى أمامي إلا أطلالا حزينة لحياة تافهة، فإذا ما أذكى شهواتي -بين الحين والحين- طيف من سعادة، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية.. بل إنني

كنت اوقن بأن ظفري بها لن يجعلني سعيدا حقا!

ولقد كنت غاية في السذاجة، كما كانت ثقتي بـ"ماما" جد عارمة، حتى إنني لم أحدس قط السبب الحقيقي للهجة الالفة التي كان القادم الجديد يتحدث بها، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة "ماما" السهلة الهينة التي تجتذبُ الناس جميعا إليها.. وما كنت لاحدس الامر لو لم تُبحْ به هي نفسها، فقد بادرت إلى الاعتراف في صراحة كان من المحتمل ان تُذكي سَخَطي لو ان قلبي كان يتسع لمزيد من السخط.. ذلك انها كانت ترى الأمر بسيطا، فقد عابت علي إهمالي أثناء وجودي في البيت، وتذرعت ضدي بغيابي المتكرر، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن، فقلت لها وقلبي يتمزق حزنا: "واها يا "ماما".. ما هذا الذي تجرئين على ان تحدثيني به؟.. ياله من جزاء على إخلاص كذلك الذي آثرتك به!.. هل انقذْت حياتي هكذا مرارا، لغير ما داع إلا لتحرميني ذلك الذي جعلها عزيزة عندي؟.. إن هذا سيُورِدُني مَوْرِدَ التَّهْلُكَة، ولكنك ستاسفين على فقدي!".

فردت -في هدوء كان خليقا بان يدفعني إلى الجنون- بانني طفل، وان الناس لا يموتون من مثل هذه الامور، وانني لم افقد شيئا، واننا خليقان بان نكون صديقين حميمين -بكل ما للصداقة من معنى- ووَثِيقي الصلة في كل امر من الامور، وان حبها العميق لي لن يقل ولن ينتهي إلا بانتهاء حياتها!...

ومجمل القول: إنها جعلتني ادرك ان جميع مزاياي باقية على ما كانت عليه، وإنني لن اجد اي نقص فيها بالرغم من ان ثمة من اصبح يُشاركُني إياها. ولم يظهر قط حبي لها - في صفائه وصدقه وقوته- ولا ظهرت روحي -في إخلاصها واستقامتها- مثلما ظهرتا على هذه الصورة الواضحة، في تلك اللحظة، فقد ألْقَيْتُ بنفسي عند قدميها، وذرفت الدموع مدرارا، وامسكت بركبتيها، وهتفت بها وانا شارد الفكر: "كلا يا "ماما"!.. إنني احبك حبا أعمق من ان يَسْمَحَ لي بإذلالك، وامتلاكُكِ اغلى عندي من ان استطيع مشاركة آخر فيه.. إن الندم الذي شعرت به عندما وهبتني نفسك -لاول مرة- قد ازداد بازدياد حبي، ولن استطيع ان احتمل هذا الندم بنفس الثمن. لسوف اظل دائما اعشقك. وابقى جديرا بحبك طالما ظلت حاجتي إلى احترامك أكثر من حاجتي إلى امتلاكك. إنني أكِلُ امر نفسك إلى نفسك، واضحي في سبيل اتحاد قلبينا بكل متعي!.. وخير عندي ان أمُوتَ الف مرة من ان اسعى إلى إذلال من احب!".

ولقد ظَلِلْتُ امينا على هذا القرار في ثبات وحزم اجرؤ على القول بانهما جديرانْ بالشعور الذي دفعني إلى هذا القرار. ومنذ تلك اللحظة كنت انظر إلى تلك الام العزيزة بعيني الابن البار!.. ولابد لي من ان اضيف إلى هذا ان قراري، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا -كما تبينَ لي جليا- إلا انها لم تحاول قط ان تُثْنِيني عن عَزْمِي بتلك الاقتراحات المغرية، ولا الملاطفة، ولا بسُبُلِ الغواية التي تجيد النساء استخدامها دون أن تصبن أنفسهن بالجروح، والتي نادرا ما يمنين فيها بالفشل!

❀❀❀❀❀

ووجدتني مكرها على ان اسعى إلى مصير مستقل عن "ماما"..واستعصى علي التفكير فسَرْعَانَ ما ارتميتُ في احضان نقيضه تماما، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود عندها هي نفسها.. واستغرقت في البحث عنه عندها، حتى افلحتُ في نسيان نفسي أو كدت، واستوعبتْ مشاعري الرغبةُ الملحة في ان أراها سعيدة مهما كان الثمن.. ولقد كان من العبث لها ان تُفَضِّلَ سعادتها على سعادتي، فلقد كنت أرى سعادتي في اغوارِ سعادتها بالرغم منها!

وهكذا بدات تنمو مع مصائبي تلك الفضائل التي كانت بذورها قد غُرِسَتْ في أعماق قلبي، والتي هذَّبتْهَا الدراسة، ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتي ثمارها. وكانت النتيجةُ الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض ان زال من قلبي كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي حل محلي، بل إنني -على العكس من ذلك- كنت اريد في إخلاص صادق ان أصْبِحَ وثيق الصلة بهذا الشاب، وان أصُوِّغ خُلُقَهُ، واعلمه واشعره بسعادته، واجعله جديرا بها إذا امكن. وبالاختصار ان افعل له ما سبق لـ"آنيه" ان فعله من اجلي في ظروف مماثلة!.. إلا ان طبيعتينا لم تكونا متماثلتين. ومع انني كنت ارق حاشية واوسع علما من "آنيه" إلا انني لم اوت قلة مُبَالاته او ثباته او قوة خلقه، التي كانت تبعث على الاحترام، والتي كان لابد منها لضمان النجاح، زد على ذلك انني لم اكن اجد في هذا الشاب الصفات التي وجدها "آنيه" في، واعني: دَمَاثَةَ الخُلُقِ والحب والعرفان بالجميل.. واهم من هذا كله، الإدراك بانني احتاج لرعايته، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية.

كانت تُعوزُهُ كل هذه الصفات. وكان هذا الذي اردت ان الفنه العلم لا يعتبرني اكثر من مُتَحَذْلِق يبعث على السأم والضجر، ولا يحسن من الامور سوى الثرثرة. وكان -من ناحيةاخرى- يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شانه في المنزل. فكان يغالي في تقدير الخدمات التي يحسب انه كان يؤديها بالضوضاء التي كان يحدثها. وكان يرى ان فؤوسه ومعاوله انفع كثيرا من كل كتبي القديمة!.. ولقد كان مصيبا بعض الشيء ولكنه -اعتمادا على هذا- كان يزهو ويَسْتَكْبِرُ في صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك. وكان يحاول ان يمثل مع الفلاحين دور سَيِّد من سادة الريف، فما لبث ان اخذ يعاملني نفس المعاملة بل انه راح يُعَامِلُ "ماما" كذلك!.. وإذ بدا له ان الاسم "فتزونريد" لم يكن فيه ما يميزه، هجره واتخذ له اسم السيد دي "كورتيل"، وهو الاسم الذي عُرِفَ به فيما بعد في "شامبيري" وفي "موريين" حيث تزوج!

ومجمل القول إن هذا الشخص البارع لم يلبث ان اصبح كل شيء في المنزل بينما اصبحت انا.. لا شيء!.. ولو ان سوء الطالع ساقني إلى إغضابه فإن "ماما" هي التي كانت تَتَلَقَّى اللوم بدلا مني؛ ولهذا السبب فإن خوفي من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى ان اجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يُقْبِلُ على تكسير الاخشاب -وهو عمل كان يفخر به كل الفخر- كنت اقف متفرجا عاطلا، ومعجبا صامتا بقوته وجلده على العمل! على ان سَجَايَاهُ لم تكن في مجموعها بالسجايا القبيحة.. لقد كان يحب "ماما" لانه ما من احد كان يستطيع ان يمسك نفسه عن حبها. ثم إنه لم يظهر لي شيئا من النُّفُور او الكراهية، وكان في اللحظات التي يستولي فيها السكون عليه ينصت إلينا هادئا، ثم يعترف في صراحة بانه لم يكن إلا أحْمَقَ.. ولا يلبث -بعد ذلك مباشرة- ان يرتكب حماقات جديدة. زد على ذلك ان إدراكه كان محدودا، كما كان ذَوْقُهُ وضيعا، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته، او الشعور بالراحة معه. ولم يقنع بالظفر باشد النساء فتنة وسحرا، بل إنه جمع -على سبيل التَّغْيير- بينها وبين وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا فمها من الاسنان، وكانت "ماما" تحتمل خدماتها -التي تثير في النفس الاشمئزاز- في صَبْرٍ وأناة، وإن كانت تضيق بها كل الضيق! وإذ شاهدت هذا اللؤم الجديد بلغ مني الحقد والغيظ مبلغهما. على انني لاحظت شيئا آخر -في الوقت ذاته- كان اشد تاثيرا في نفسي، ودفعني إلى الياس اكثر من اي امر آخر وقع حتى ذلك اليوم. وكان هذا الشيء هو فُتُورٌ في مسلك "ماما" نحوي، اخذ يزيد رويدا رويدا!

ذلك ان الحِرمَان الذي فرضتُهُ على نفسي والذي تظاهرت هي بالموافقة عليه إنما هو احد تلك

الأمور التي لا تغتفرها النساء قط -وإن تظاهرن بقبولها!- لا بسبب ما حُرِمْنَ هن منه، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذي ينطوي عليه الأمر. ولو انك أخذت -على سبيل المثال- اوفر النساء عقلا، واكثرهن فلسفة واقلهن شبقا لوجدت ان الجريمة الوحيدة التي لا تَغْفِرُهَا هذه المرأة للرجل قط -ولو كان اهتمامها به عدا ذلك أضال ما يكون- هي ان يكون بوسعه ان يستمتع بها ولكنه لا يفعل!.. وليكن مفهوما أن هذه القاعدة بلا استثناء، إذ إن العاطفة -مهما تكن طبيعية وقوية- لا تَلْبَثُ أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذي لا بَاعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير.. ومنذ ذلك الحين لم اعد اجد لدى "ماما" تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين قلبين، والتي كانت تُفْعِمُ قلبي دائما باحلى المتع. ولم تعد تَبُوحُ لي باسرارها اللهم إلا ان تشكو من ذلك الدخيل. اما عندما يكونان معا على صفاء فإنني لم أكن أحظى باسرارها.. ولم تلبث -آخر الأمر- ان انتهجت نحوي مسلكا باعد بيني وبينها تدريجيا، ومع ان حضوري ظل مبعث سرور لها إلا انه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها حتى لقد كنت أقضي اياما بطولها دون ان اراها، فما كانت لتفطن إلى ذلك!

*****

وَوَجَدْتُنِي -دون ان افطن- مَعْزُولا وحيدا في هذا المنزل الذي كنت فيه قبل ذلك بمثابة "الروح"!.. والذي اصبحت احيا فيه حياة مزدوجة كما ينبغي أن يقال.. فالفت تدريجيا ان اغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل، بل إنني اخذت اعتزل اولئك الذين كانوا يقيمون فيه ولكي اجنب نفسي العذاب المتصل رحت أحْتَبِسُ نفسي مع كُتُبِي، او اذهب فابكي واتاوه ما شاء لي الهوى وسط الغابات. وسرعان ما أصْبَحَتْ تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان، وشعرت بأن الوجود الشخصي مع البعد القلبي بالنسبة لامرأة كنت أعزها كل هذا الإعزاز كان يَهِيجُ شُجُوني.. وأن الكف عن رؤيتها أقل قسوة! ولذلك قررت ان اهجر المنزل.. ولقد قلت لها هذا، فإذا بها تُحبذهُ بدلا من ان تعارضه!.. وكانت لها صديقة في "جرينوبل" -تُدْعَى السيدة "دِيبيان"- كان زوجها صديقا للسيد "دي مابلي"، محافظ مدينة "ليون". ولقد اقترح السيد "ديبيان" ان اتولى تعليم أولاد السيد "دي مابلي"، فقبلت، ورحلت إلى "ليون" دون ان أسَبِّبَ لنفسي -بل دون أن اشعر تقريبا- بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير فيه -فيما مضى- يبعث فينا آلاما كنزعات الموت!

وكانت لدي المعرفة الضرورية -تقريبا- لكي أكون مربيا، واعتقد انني أوتيتُ موهبة لذلك. وقد اتسع لي الوقت -في السنة التي قضيتها بمنزل السيدة "دي مابلي"- كي أكشف عن حقيقة نفسي، فإذا ما فُطِرْتُ عليه من سماحة ورقة كفيل بأن يجعلني اهلا لهذه المهنة لولا ما كان يشوبه من حدة الطبع.. فقد كنت كالملاك الكريم، طالما سارت الامور على مايرام، وطالما كنت ارى تعبي وعنايتي -اللذين لم اكن اقتصد فيهما- يُؤتيان ثمارا ولكنني كنت اغدو شيطانا إذا ما انقلبت الأمور. وعندما كان يستعصي على تلميذي فهمي كنت أهْذِي كالمجنون، فإذا بدت منهما امارات تَنِمُّ عن خُبْث وعصْيان فإنني كنت اتمنى لو استطعت ان اقتلهما!... وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم او الادب.. وكانا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف: احدهما في الثامنة او التاسعة من العمر، ويدعى "سانت ماري"، له وجه جميل، وعقل متفتح. وكان نشيطا، طائشا، لعوبا، ماكرا.. إلا ان مكره كان يتسم دائما بالمرح!.. اما الاصغر -واسمه "كوندييلاك"- فقد كان غَبِيا أو يكاد، تافها كسولا، أوتي عناد البغل.. وكان عاجزا عن ان يتعلم شيئا!

ولقد اكرهت على تقسيم عملي بين الاثنين، كما هو واضح للقارئ، ولعلني كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء، ان أوفق في عملي ولكني كنت خلواً منهما، ومن ثم فإنني لم أحرز مع تلميذي اي تقدم، وكانت النتيجة غاية في السوء.. وما كنت لأفتقر إلى المثابرة، وإنما كان يعوزني الأتزانُ والكياسة بوجه خاص.. إذ إنني لم أكن اعرف من الاساليب التي تُسْتَخْدَمُ مع الاطفال إلا ثلاثة، كانت كلها دائما عَقِيمَةً عديمة الجدوى، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بابلغ الضرر.. وهذه السبل الثلاث هي :العاطفة، والمجادلة، والغضب. ولقدُ تأثرت ذات مرة من "سانت ماري" تاثرا ذرفت معه الدموع، وحاولت ان اثير فيه عَاطفة مماثلة، كأنما كان في وسع الطفل ان يتاثر تاثرا صحيحا!.. وفي مناسبة اخرى ارْهَقْتُ نفسي في مجادلته، وكانه كان قادرا على ان يفهمني، ولما كان يلجأ في بعض الاحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء فقد اعتقدت انه لابد ذكي مادام يعرف كيف يجادل!.. اما "كوندييلاك" الصغير، فقد كان أشَدُّ جَلْبًا للضيق والضجر، إذ إنه لم يكن يفهم شيئا، ولا يجيب عن اي سؤال، ولا يتاثر باي مؤثرا.. كان عنيدا لا يتزحزحْ عن موقفه، ولم يكن موفقا في شيء اللهم إلا في إثارة غضبي. وإذ ذاك، كان يَغْدوُ هو العاقل وانا الطفل!

لقد تَبَيَّنْتُ كل اخطائي، وكنت ادركها تمام الإدراك إذ إنني درست اخلاق تلميذي وافلحت في سَبر غَورهما. ولا اعتقد ان حيلهما انطلت علي مرة، ولكن ما جَدوى تبين الشر إذا كنت لا اعرف كيف أُعَالِجُهُ؟.. ومع انني كنت استشف كل شيء إلا انني لم اكن امنع شيئا، ولم افلح في شيء.. كان كل ما افعله هو عين ما كان ينبغي لي الا افعله!

ولم يكتب لي -فيما يتصل بامر نفسي- من النجاح اكثر مما كتب لي فيما يتعلق بتلميذي، وكانت السيدة "ديبهان" قد اوصت بي السيدة "دي مابلي"، وطلبت منها ان تُهَذِّبَ عاداتي وان تَطْبَعَني بطابع يتفق والمجتمع الراقي، فجهدت السيدة في ذلك بعض الجهد، وارادت ان تُعَلِّمَني كيف أُشَرِّفُ البيت الذي انزل فيه بيد انني ابديت من الارتباك والخجل بل والغباء ما أُثْبِط منها ودعاها إلى الياس مني. ولكن هذا لم يمنعني من الوقوع في حبها بطريقتي المعهودة، وقد عَمِلْتُ على ان تلاحظ هذا، وإن لم اجرؤ ابدا على البوح لها بحبي، ولم يكن من طبيعتها ان تتودد قط إلى رجل، ومن ثم فقد ذهبت غَمَزَاتي ونظراتي وتأوهاتي ادراج الرياح، وسرعان ما سئمتها، إذ رايت انها لم تكن تؤدي إلى شيء!

وكنت اثناء إقامتي مع "ماما" قد فقدت تماما الرغبة في السرقات الصغيرة إذ إنني حين رأيت ان كل شيء قد بات ملك يدي، لم أعُدْ أجد ما يَدْعُو إلى السرقة! فضلا عن ان المبادئ السامية التي انتهجتها كانت كفيلة بان تجعل مني في المستقبل شخصا ساميا لا ياتي امثال هذه الصغائر، وهذا ما صرت إليه -يقينا- منذ ذلك الحين.. بيد ان هذا لم يكن راجعا إلى انني استأصلت الداء من جذوره وإنما كان مرده إلى انني تعلمت التغلب على ما كان ينتابني من إغراء. وكان الخوف كثيرا ما يتملكني من ان أوغل في السرقة -كما كنت افعل في طفولتي- إذا عَاوَدتني الرغبة وتَهيَّأت لي الفُرْصَةُ. وقد تبدى لي الدليل على ذلك في دار السيد "دي مابلي". فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التي كانت تُحيطُ بي، والتي كانت في متناول يدي إلا انني لم اولها نظرة واحدة.. غير ان رغبة قوية تملكتني في الحصول على شراب ابيض بسيط المفعول اسمه شراب "اربو"، كان لذيذ الطعم، وقد طاب لي كثيرا بعد ان تناولت منه بضع كؤوس على المائدة.. وكان كشيفا بعض الشيء، وقد زهوت بمهارتي في تنقية الشراب، فعهد إلي بهذا النوع بالذات، فقمت بتنقيته، ولكني افسدته اثناء ذلك. على ان

الفسادَ لم يَلْحَقْ إلا مظهره، فظل لذيذ الطعم، وكنت انتهز الفرصة لآخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين اتجرعها عندما يحلو لي، ولكنني -لسوء الحظ- لم اك اقوى على ان اشرب دون ان اقرن الشراب بالاكل، فما حيلتي في الحصول على الخبز؟.. كان من المستحيل علي ان احتفظ بشيء منه. ولو انني أرسَلْتُ الخدم لشرائه لانفضح امري، ولكان ذلك -في الوقت نفسه- إهانة، أو شبه إهانة، لرب البيت، كذلك كنت أخشى ان اشتريه بنفسي، فكيف يستطيع سيد "مُهَذَّبٌ" -والسيف إلى جانبه- دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز؟.. واخيرا تذكرت الملجا الاخير الذي لجا إليه امير كبير قيل له: إن الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز فاجاب بقوله: "إذن دعوهم ياكلون الفطائر!" .. ولكن، يا لَلْمَشَقَّة التي كابدتها في الحصول على الفطائر!.. كنت اخرج وحدي في طلبها، فاجتاز المدينة باكملها في بعض الأحيان من طرف إلى طرف، وامر بثلاثين محلا من محلات الفطائر، قبل ان أدْخُلَ احدها. وكان من الضروري الا يكون في المحل غير شخص واحد، وان تكون سمات هذا الشخص بشوشا جدا، قبل أن يستقر رايي على المغامرة .. وما إن كنت افوز بكعكتي الصغيرة العزيزة، واحكم غلق باب غرفتي علي حتى كنت آتي بزجاجة شرابي من قاع صوان بغرفتي.. وباللنشوات الصغيرة اللذيذة التي نَعِمْتُ بها وحدي وانا اقرا بضع صفحات من رواية!.. فقد كنت أُحِبُّ دائما ان اقرا وانا اتناول طعامي إذا كنت وحيدا فإن القراءة اثناء الطعام كانت دائما الهواية التي تعوضني عن سمير اخلو إليه. وكنت التهمُ صفحة ثم ازدرد لقمة، وكان كتابي كان يتناول الطعام معي!

وانا لم اكن ابدا فاسقا او سكّيرا بل الواقع انني لم أثْمَلْ في حياتي قط!.. وهكذا توالت سرقاتي الصغيرة، التي لم تك تخلو تماما من الحرص والحذر، بيد انها لم تلبث ان اكْتُشِفَتْ، إذ فَضَحَتْ الزجاجات امري. ولم توجه إلي اية ملاحظة إلا ان القبو لم يعد موكولا إلي، وقد تصرف السيد "دي مابلي" في هذا كله تصرفا كريما معقولا، فقد كان رجلا شهما، يُخْفي تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقا، وطيبة قلب نادرة!.. كان ذكيا عادلا، بل إنه كان لطيفا، وهو امر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب. وقد قدرْت له تسامحه فاصبحت اكثر تعلقا به، وحملني هذا على ان أَمْكُثَ في منزله فَتْرة اطول مما كان ينبغي لي، ولكنني وقد كرهت آخر الامر مهنة لم اكن اصلح لها -بعد ان زَجَجْتُ بنفسي في موقف كله تعب، ولم يكن فيه ما يسر. وبعد سنة من التجربة لم اقتصد فيها شيئا من جَهْدي- قررت ان اترك تلميذيّ وانا مقتنع بانني لن افلح في تنشئتهما تنشئة صحيحة. وكان السيد دي "مابلي" يرى هذا جيدا كما كنت أراه على انني لا اعتقد انه كان يقدم على فصلي -من تلقاء نفسه- لو لم اكفه مؤونة العناء.. ومن المحقق أن هذا التساهل المفرط -في حال كهذه- ليس مما اقره!

ومما زاد في عدم احتمالي لمركزي انني كنت اقارنه على الدوام بذلك المركز الذي خَلَفْتُهُ ورائي: ذكرى "شارميت" الغالية، وذكرى حديقتي واشجاري، ونبعي، وبستاني -وفوق هذا وذاك- ذكرى تلك التي اشعر أنني خلقت من اجلها، والتي كانت حياة كل شيء وروحه. وعندما كانت تُعاودني ذكرى متعنا وحياتنا البريئة كان قلبي يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يَسْلُبُني الشجاعة والقدرة على ان افعل اي شيء! وقد راودتني -مائة مرة- رغبة عنيفة في الانطلاق لفوري على قدمي، والعودة إلى السيدة دي "فاران" .. كنت على استعداد لأن اموت لفوري راضيا لو قُدِّرَ لي ان اراها مرة اخرى!

ولم استطع -آخر الأمر- ان اقاومَ هذه الذكريات الرقيقة -التي كانت تُنَاديني إليها- مهما يكن

الشمن، فقلت لنفسي: إنني لم اتذرعُ بما يكفي من الصبر والكرم والود، وإنني لو كنت قد اجهدت نفسي أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها في علاقة من الصداقة الخالصة، وقد وَضَعْتُ أجمل المشروعات في العالم وتحرقت شوقا إلى تنفيذها!

❀❀❀❀❀

وهكذا تَركتُ ذات يوم كل شيء ونبذتُ كل شيء، ثم شرعت في رحلتي انهب الأرض نهبا، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التي توفَّرت لي في صدر شبابي.. وَوَجَدْتُني عند قدميها مرة أخرى! أواه! لقد كنت أموتُ مغتبطا، لو انني وجدت -عند عودتي- في استقبالها إياي، أو في عينيها، أو في عناقها، أو -أخيرا- في قلبها، رُبْعَ ذلك الذي كنت اجده من قبل، والذي كانت نفسي مفعمة به في عودتي!

واحسرتاه على ما يُصادفُ البشر من خدع قاتلة!.. لقد تلقتني "ماما" بذلك القلب الطيب الذي لا يموتُ إلا بموتها، ولكني بَحَثْتُ عَبَثا عن الماضي الذي ولّى إلى غير عودة. وما إن مَكَثْتُ معها نصف ساعة حتى شعرت بأن سعادتي السابقة قد زالت إلى الأبد، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذي اضطررت إلى الهرب منه دون ان استطيع توجيه اللوم إلى إنسان!.. ذلك ان "كورتيل" لم يكن في قرارة نفسه فتى شريرا، وقد لاح عليه السرور -لاالضيق- لمرآي ولكن كيف استطيع ان احتمل وجودي كشخص زائد عن الحاجة، عند تلك التي كنت لها كل شيء، والتي لن تكف عن ان تكون لي كل شيء؟.. كيف استطيع ان أعيش غريبا في منزل كنت اشعر انني ابنه؟.. بل إن رؤية الأشياء التي شهدت هنائي الماضي كانت تزيد المفارقة إيلاما.. وكنت خليقا بأن اغدو اقل الما في اي جو آخر للمعيشة فإن شعوري بأنني كنت اذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة كان يهيج في صدري الإحساس بفداحة ما فقدت.. وإذ راحت الحسرات -التي لم يكن من ورائها طائل- تنهش قلبي، واستبدت بي أشد الوان الكآبة سوادا اخذت الوذ بالوحدة في غير أوقات الطعام، وانفردت بكتبي، وسعيت إلى ان أجد فيها بعض التسلية النافعة!

وشعرتُ بأن الخطر -الذي كنت اخشاه طويلا- بات وشيك الوقوع، فاخذت أُجهدُ عقلي من جديد محاولا ان اجد من نفسي وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد "ماما".. فلقد كنت أدبر شؤونها المنزلية على اساس الا تزداد الأمورَ سوءا اما بعد ان تركتها فقد تغير كل شيء.. كان مدبرُ ماليتها مسرفا، يريد ان يختال بجواد اصيل وعربة.. وكان مُولعا بتمثيل دور النبيل امام الجيران، كما انه كان -في كل ذلك- يؤدي عملا لا يعرف عنه شيئا. وكان معاش "ماما" مستنفدا مقدما. إذ كانت الدُّفُعَاتُ التي تواتيها منه -كل ثلاثة اشهر- مرهونة، وكانت متاخرة في دفع الإيجار، وقد تراكمت عليها الديونُ، وتوقعت ان يحجزَ على معاشها، أو ان يقطع عنها نهائيا.. ومجمل القول إنني لم ار امامي إلا الخراب والكوارث، وبدت لي تلك اللحظة وشيكة، حتى لقد تجسم امام ناظري كل ما تنطوي عليه من فظائع!

وكانت غرفتي العزيزة الصغيرة هي مَلْهاتي الوحيدة، وبعد أن بحثت طويلا عن ادوية لعلاج قلقي العقلي فكرت في ان أبحث عن علاج للمتاعب التي كنت اتنبا بها، وعدت إلى أفكاري القديمة، وبدات فجاة ابني القصور في "إسبانيا"، محاولا ان انقذ "ماما" المسكينة من النهاية القاسية التي كنت اراها على وشك التردي فيها!.. لكني لم أكن أشعر انني على علم كاف، ولا كنت اعتقد

انني موهوب إلى حد يكفي لان يَلمع نجمي بين رجال الأدب، او ان اجمع ثروة بهذه الوسيلة.. والهمتني فكرة جديدة -خطرت لي- بالثقة التي عجزت عنها مواهبي المتوسطة.. ذلك انني لم اكن قد أقْلعتُ عن دراسة الموسيقى عندما كففت عن تدريسها، بل إنني -على النقيض من ذلك- كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفيني لان اعتبر نفسي عالما في هذه الناحية من الفن. وبينما كنت أسْتَرْجِعُ الصُّعُوبة التي صادفتني في تعلم قراءة "النوتة"، والصعوبة الكبرى التي كنت لاازال الاقيها في الغناء بمجرد النظر إلى "النوتة"، اخذت افكر في ان هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزي وقصوري، لاسيما أنني كنت أعلم انه ليس من السهل على اي إنسان ان يتعلم الموسيقى. وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت انها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار.. وكنت قد فكرت طويلا في التعبير عن السُّلم الموسيقي بالأرقام، وذلك لتفادي رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة في كتابة أبسط النغمات. ولم تكن تَعُوقُني سوى صعوبات تتصل بالطُّبقات والزمن وقيم "النوتة".

وقد عَاوَدتني هذه الفكرة من جديد فلما أَنْعَمْتُ النظر فيها وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه.. وافلحت في تنفيذ فكرتي فاستطعت آخر الأمر أن اكتب أيَّ موسيقى -مهما يكن شانها- باكثر ما يمكن من الدقة.. بل إن بوسعي ان اقول: باكبر قدر من البساطة. واعتبرت نفسي -منذ تلك اللحظة- من اصحاب الثراء!.. ولم اعد افكر -وانا شديد الشوق إلى ان تقتسم معي ثروتي، تلك المرأة التي كنت مدينا لها بكل شيء- إلا في الارتحال إلى "باريس"، موقنا من انني سَأحْدِثُ انقلابا بمجرد عرض مشروعي على المحفل "الأكاديمية"!.. وكنت قد حملت معي -من "ليـون"- قليلا من المال، كما انني بعت كتبي. وهكذا لم يمض اسبوع حتى اصبح قراري معدا للتنفيذ، فرحلت اخيرا عن "سافوا"، حاملا معي مشروعي الموسيقي، وانا مفعم بالافكار الرائعة التي الهمنيها هذا المشروع، كما رحلت من قبل عن "تورين" مصطحبا نافورتي الصغيرة!

تلك كانت أخطاء شبابي وعُيُوبُه، سَرَدْتُ قصتها بإخلاص صادق يرضي قلبي. وإذا قُدِّر لي -فيما بعد- أن امجد السنوات التالية من عمري، -سنوات النضج- باية فضيلة من الفضائل فلن اكون -في ذلك- إلا منتهجا عين الصراحة التي اتبعتها من قبل، فهذه هي نيتي وغايتي!

على انه من الواجب أن أتوقف هنا.. إن الزمن كفيل بأن يدفع كثيرا من الأستار والاحجبة. وإذا قدر لمذكراتي ان تنتقل إلى الأجيال المقبلة فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغي ان اقول!.. وإذ ذاك سيتبين السر في إخلادي إلى الصمت!

الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصمت والصبر أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت. فأمسك أيها القارئ حكمك على الأسباب التي تضطرني إلى ذلك فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل!

لقد تبين أن شبابي الوادع مضى بسلام في حياة معتدلة، كثيرة الرفق، دون ما ضائقات بالغة، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال -إلى حد كبير- نتاج طبيعتي التي جمعت بين التوثب والضعف، ومن ثم فهي أقل اندفاعا إلى الإقدام منها إلى النائر بالمثبطات.. وإنها لتخرج من تقاعدها بفورات ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمراء.. كما أنها تحملني دائما -بعيدا عن الفضائل الكبرى، وأكثر بعداً عن الرذائل الكبرى- إلى حياة الخمول والدعة التي كنت أظنني قد خلقت لها، دون أن تمكنني إطلاقا من تحقيق أي شيء عظيم، سواء كان طيبا أو خبيثا!

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التي سارسمها عاجلا!.. فإن القدر الذي ظل خلال ثلاثين عاما يحابي ميولي، راحُ يعارضها ثلاثين عاما أخرى، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزي وميولي، قد خلق عيوبا جسيمة، وتعاسات لم يسمع لها مثيل، وكل الفضائل -ماعدا القوة- التي تجعل من البلايا أعمالا مجيدة!

لقد كُتب الجزءُ الأولُ بأسره من اعترافاتي، من الذاكرة.. ولابد أنني ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثاني من الذاكرة -كذلك- فمن المحتمل أني سأرتكب مزيدا من الأخطاء!.. فإن الذكريات الناعمة التي تَبَقَّتْ لي عن أعوامي الجميلة التي انقضت في هدوء وبراءة قد تركت ألف أثر فاتن أحبُ أن أسترجعه دون ما توان!.. ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمري. إن استعادة ذكراها لهي لونٌ من المرارة المتجددة. وبدلا من أن أضاعف مرارات حالي الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى فإنني أقصيها إلى أبعد ما أستطيع، وكثيرا ما أنجح في ذلك إلى درجة أنني لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة. وإن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة لعزاء أسبغته السماءُ علي، وسط تلك الهموم التي راق للقدر أن يهيلها يوما على رأسي. فإن ذاكرتي التي تستعيد بمقدرة فَذَّةٍ ما يستحب من الأمور، هي العامل المرجح السعيد الذي يغالب خيالي الفظيع الذي لا يجعلني أرى سوى القاسي من أحداث المستقبل!

إن كل الأوراق التي جمعتها كي تعينني على التذكر، وكي أهتدي بها في هذا المشروع قد انتقلت إلى أيد أخرى ولن يقدر لها أن تعود إلى يدي.. ومن ثم فلست أملك مرشدا أمينا أستطيع أن أعتمد عليه اللهم إلا واحدا يَتمثلُ في سلسلة الأحاسيس التي كانت تنم عن تتابع نمو كياني وعن الأحداث المتعاقبة التي كانت إما سببا وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر.. إنني لا أنسى مصائبي بسهولة، ولكنني لا أستطيع أن أنسى أخطائي، كما أنني أقل نسيانا لمشاعري الطيبة؛ فإن ذكراها أعز لدي من أن تمحى عن صفحة قلبي إلى الأبد. ولقد أستطيعُ أن أحذف شيئا من الوقائع أو أن أحرفها، وقد أرتكب أخطاء في التواريخ، ولكن من المتعذر أن يختلط علي الأمر -أو أن أخطئ- إزاء ما

حَمَلَتْنِي عَوَاطِفِي على فعله. وهذا هو الموضوع الرئيسي هنا. فإن الغرض الحقيقي لاعترافاتي هو أن اكشف بدقة عن دخيلة نفسي في جميع مواقف حياتي.. فإنني إنما وعدت بأن أروي قصة نفسي. ولكي اكتبها بامانة لا اراني بحاجة إلى مذكرات اخرى، إذ يكفيني ان اعود للغوص في اعماقي، كدابي حتى الآن!

على ان ثمة فترة تتالف من ست او سبع سنوات، املك -لحسن الحظ- مَعْلُومات وثيقة عنها، ممثلة في مجموعة منسوخة من خطابات معينة، استقرت النسخ الاصلية لها في حوزة السيد "دي بيـــرو". وهذه المجموعة -التي تنتهي في سنة ١٧٦٠- تشمل جميع الفترة التي مكثتها في "الصومعة" - "الأرميتاج" - ونزاعي الكبير مع من كانوا يزعمون انهم اصدقائي.. وإنها لفترة من حياتي جديرة بالذكر؛ فهي منبع كل البلايا الاخرى. اما بالنسبة للخطابات الاصلية الأقرب عهداً، والتي بقيت في حوزتي -وهي قليلة العدد جداً- فإنني لن انسخها واضيفها إلى هذه المجموعة التي قدر لها ان تكون أضْخَمَ من ان ارجو ان اوفق في إخفائها عن عُيون رُقَبَائي(١)، وإنما سأسلكها في سياق هذا المؤلف نفسه، عندما يبدو لي انها كفيلة بأن تلقي اضواء على الوقائع، سواء لصالحي أو ضدي. ذلك انني لا اخشى قط أن ينسى القارئ أنني اكتب اعترافاتي، وان يظن انني اكتب تَقْرِيظاً أو مبرراً لما تَخَلَّل حياتي.. وإنما يجدر به الا يتوقع ان امسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت في صفي وصالحي.

وعدا ذلك فليس لهذا القسم الثاني من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر اهمية الامور التي يتضمنها. وعدا ذلك فلن يخفق هذا القسم في أن يكون مغايراً لسابقه من كافة الاعتبارات(٢). فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح، في "ووتون" او في قصر "تراي"، وكانت لكل الذكريات التي تَوَارَدت على خاطري مباهج جديدة. ولقد رحت استرجعها دون انقطاع، وباستمتاع متجدد، فاستطعت أن اراجع وانقح ما أوردته من أوصاف -دون ما ملل او ضيق- حتى اصبحت راضياً عنها. اما اليوم، فإن ذاكرتي وعقلي الكَلِيلَيْن يكادان يجعلانني عاجزاً عن كل عمل، ولست أُشْغَل بِهذا القسم إلا مُكرهاً، والأسى يعتصر قلبي.. إنه لا يمثل -بالنسبة إلي- سوى محَن وخيَانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها.. إنني لانزل للدنيا عن كل شيء كي اواري في ليل الزمان ما أنا موشك أن اقوله.. وإني إذ اضطر إلى الكلام -بالرغم مني- اعمد كذلك إلى الاستخفاء، وإلى التحايل، وإلى محاولة الخداع، وانحدر إلى تصرفات انا ابعد الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها!

إن للسقف الذي اوجد تحته عُيُوناً، وللجدران المحيطة بي آذاناً. وإنني -إذ يَحُفُّ بي جواسيس وُرقباءٌ اشرار ويقظون، وإذ يتوزعني القلق والهم- لاسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا اكاد اجد وقتاً لمراجعتها. فما بالكم بتصحيحها!.. إنني ادرك ان اعدائي لايزالون -برغم الحواجز الهائلة التي تُقام حولي دون انقطاع- في خوف دائم من ان تجد الحقيقة منفذاً تتسرب منه. فكيف يتسنى لي أن ادفع بها إلى النور؟.. لسوف أحاول، وأنا قليل الرجاء في النجاح. فمن ذا الذي يقول:

---

(١) العبارة التي ذكرها "روسو" هي: اخفائها عن اعين "ارجوساتي اليقظة".. وارجوساتي هي جمع "ارجوس" وهو تعبير مجازي. فإن "ارجوس" اسم يطلق في اساطير اليونان على عملاق ذي مائة عين، اقامته الربة "هيرا" -عندما نولتها الغيرة- ليراقب "يو" معشوقة الإله "زيوس"، التي كانت قد مسخت على شكل بقرة! (٢) التعبير الذي أورده "روسو" هو: "لن يخفق في ان يكون اقل شاناً".. وهو ما لا احسبه يقصده. فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته -وهو الذي يشمل الكراسات من ٧ إلى ١٢- يضم احداثاً ومعلومات على قدر كبير من الفيمة قد يفوق قدر ما ورد في القسم الأول. وإنما اختار "روسو" هذا الوصف لانه كان -عندما كتب هذا القسم- ضحية لانفعالات نفسية قاسية. اوحت إليه بأن اعز اصدقائه الذين آووه في إنجلترا- حيث كتب الكراسات الست الاولى- قد تآمروا عليه مع ملك بروسيا، ليغادر بلادهم، وظل يتنقل وهو متنكر، لا يكاد يأمن إلى استقرار. ومن هنا ندرك سر التشاؤم والاسى والشك والقنوط التي تطبع حديثه هذا.

إن في هذا مادة لصور مستحبة، ولإضفاء الوان جذابة على هذه الصور؟ . . إنني لهذا انذر المقبلين على قراءة هذا، بأن ليس ثمة شيء -في سياق هذا الحديث- يستطيع ان يقيهم السأم، اللهم سوى الرغبة في استكمال التعرف على إنسان، وسوى الحب الصادق للحق والصدق!

*****

تركتموني -في القسم الاول- وأنا راحل محسور إلى "باريس"، مخلفا قلبي في "شارميت"، حيث اقمتُ آخر قلعة لي في "إسبانيا" (١)، معتزما ان اعود إلى هناك يوما فاطرح عند قدمي "ماما" -إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها- ما اكون قد احرزت من كنوز، ومطمئنا إلى طريقتي الموسيقية بوصفها ثروة محققة اكيدة!

وتخلفت بعض الوقت في "ليون" لازور معارفي، ولاحصل على بعض التوصيات التي أفيدُ منها في "باريس"، ولابيع كُتُبي الهندسية التي كنت قد حملتها معي، ولقد رحب بي الجميع، فاظهر السيد والسيدة "دي مابلي" اغتباطا لرؤيتي، ودعواني للغداء عدة مرات، وتعرفت لديهما بالراهب "دي مابلي"، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب "دي كونديلاك"، وكان الاثنان قد اقبلا لزيارة شقيقهما. ولقد اعطاني الراهب "دي مابلي" خطابات تقدمه إلى اناس في "باريس"، منها واحد للسيد "دي فونتنيل"، وآخر للكونت "دي كايلوس". وقد اتاحت لي الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا، لا سيما السيد الاول الذي لم يكف حتى موته عن ان يُؤثِرُني بوده، وعن ان يمنحني -في الاحاديث التي كانت تدور في خلواتنا- نصائح كان خليقا بي ان احسن الإفادة منها.

وزرت السيد "بورد" الذي كنت قد تعرفت به منذ وقت طويل، والذي كثيرا ما ساعدني بقلب كبير وباعظم سرور صادق. ولقد الفيته في هذه المناسبة على حاله التي عهدتها. فقد كان هو الذي باع كتبي، كما اعطاني من لديه -أو حصل لي من الغير- على خطابات توصية طيبة. وزرت السيد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد "دي بورد"، كما ادين له بالتعرف إلى الدوق "دي ريشيليو"، الذي مر بـ"ليون" في ذلك الوقت، فقدمني السيد "بالو" إليه. وقد احسن السيد "ريشيليو" استقبالي، ودعاني إلى ان ازوره في "باريس" -وهذا ما فعلته عدة مرات- ولكن. . دون ان يكون لهذه الشخصية الرفيعة -التي ساتكلم عنها كثيرا فيما بعد- اي نفع لي!

كذلك زُرْتُ الموسيقي "دافيد" الذي اولاني عونه في ضائقتي في إحدي رحلاتي السابقة، إذ اعارني -أو منحني- قلنسوة وزوجا من الجوارب، لم اردها إليه قط، ولا هو سالني ان اردها ابدا، برغم اننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين. على انني لم البث ان قدمت إليه -فيما بعد- هدية تعادل تلك الأشياء تقريبا. وبوسعي ان اتحدث عن نفسي باشياء افضل من هذا لو انني كنت بصَدَد ما كان ينبغي عمله، لا ما عملته فعلا. . وهما حالان ليستا سواء لسوء الحظ!

كذلك رايت النبيل السخي "بيريشون"، فلم افتقد سخاءه المعهود، فقد مَنَحني عون الهدية التي كان قد قدمها من قبل إلى "برنار" اللطيف إذ دفع اجر مقعدي في عربة البريد السريعة. . وزرت الجراح "باريسو"، احسن وافضل الناس عملا. كما قابلت عزيزته "جودفروا" التي كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات، والتي كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل في لطف الخلق وطيبة القلب، والتي لم يكن في وسع المرء ان يراها لاول مرة دون ان يوليها حسن اهتمامه، ولا ان يفارقها دون ما إشفاق وتاثر، إذ إنها كانت في آخر اطوار السُّلِّ، الذي لم تلبث ان ماتت به بعد ذلك بقليل. وليس

---

(١) اصطلاح يقابل: "بناء القصور في الهواء" عندنا.

اقدر على كشف الميول الحقيقية لأي إنسان، من اخلاق اولئك الذين يتعلق بهم(١) . . وقد كان بوسع اي امرئ رأى "جودفروا" اللطيفة ان يدرك شخصية "باريسو" الطيب.

إنني مدين لكل هؤلاءِ الكرام. ولقد اغفلتهم جميعا -فيما بعد- لا عن جُحُود، وبالتاكيد، وإنما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذي كثيرا ما يُظْهِرُني بمظهر الجاحد! . . بينما الواقع ان ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادي قط، كما ان إظهارهم على عرفاني ما كان ليكبدني ما تكبدنيه المثابرة على ذكره. ولقد كانت المواظبة على التراسل امرا فوق طاقتي دائما، فإني ما إن ابدا في الشعور بتكاسلي فيها حتى يحملني الخجل والحيرة في طريقة إصلاح عيبي على مضاعفة هذا العيب، فإذا بي أكُفُّ عن الكتابة بالمرة! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء حتى بدا انني نسيتهم. ومع ذلك فإن "باريسو" و"بيريشون" لم يُلقيا بالا، فكنت اجدهما دائما كما عهدتهما. اما في حالة السيد "بورد"، فلن يلبث ان يتبدى كيف ان الانتقام للشعور بالإهمال، حل -بعد عشرين عاما- محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغي لي ان انسى -قبل مبارحة "ليون"- شخصية لطيفة زرتها في اغتباط لم اشعر قط بمثله- وقد تركت في فؤادي ذكريات جد رقيقة. تلك هي الآنسة "سير"، التي تحدثت عنها في القسم الأول(٢)، والتي جَدَّدْتُ تعارفي بها عندما كنت في دار السيد "دي مابلي". ولما كان لدي متسع من الوقت، -في هذه الرحلة- فقد رأيتها كثيرا، ومال إليها قلبي في وجد قويّ. ولدي من الاعتبارات ما يحملني على ان اظن ان قلبها لم يكن على النقيض بيد انها اولتني من الثقة ما يبدد كل إغراء بان أسيء استغلالها. ولم تكن تملك شيئا، ولا كنت انا املك اكثر منها، وكان مركزانا جد متشابهين إلى درجة لا تغري بان نتحد، لا سيما وانني كنت -بالآراء التي كانت تَتَمَلَّكني- بعيدا كل البعد عن التفكير في الزواج. ولقد انباتني بأن تاجرا شابا، -يدعى السيد "جنيف"،- كان يبدو راغبا في ان يرتبط بها. وقد التقيت به عندها مرة او اثنتين، فتراءى لي انه شاب أمين شريف، وكان معروفا بذلك. وإذ خُيِّل إلي انها كانت تحبه تمنيت ان يتزوجها -وهو ما فعله فيما بعد- فاسرعت بالرحيل كي لا أعكر صفو عواطفهما البريئة، مُزْجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات لم يقدر لها ان تستجاب على هذه الارض إلا لأجل قصير. . وااسفاه! . . جد قصيرا . . فقد علمت فيما بعد انها ماتت بعد عامين او ثلاثة من زواجها! ولما كنت قد شُغِلْتُ طيلة رحلتي بحسرات عاطفية فقد احسست -ولاأزال احس في كثير من الأحيان، كلما فكرت في ذلك- بأنه إذا كانت التضحيات التي يقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا إلا انه لا يلبث ان يتلقى الجزاء ممثلا في الذكريات الناعمة التي تخلفها له تلك التضحيات في قرارة فؤاده!

وإذا كنت قد رأيت "باريس" -في رحلتي السابقة- من ناحية لا تجعلها اهلا للإعجاب فإنني رأيت -في هذه الرحلة- جانبها اللامع. على ان هذا لم يكن الشأن بالنسبة لِـمُكْنَاي، فقد ذهبت -حسب إرشاد السيد "بورد"- للإقامة في نُزُل "سان كنتان"، بشارع "ديه كوردييه"، على مقربة من "السوربون". . وكان شارعا وضيعا، ونزلا وضيعا، وحجرة وضيعة. . ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل

---

(١) اردف "روسو" -في هامش مؤلفه- معلقا على هذا بقوله: "مالم يكن قد خدع في اختياره من البداية، او مالم تكن شخصية المراة التي تعلق بها قد تغيرت - بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية، فإن من المستحيل ان تكون هذه القاعدة مطلقة. ولو اريد إقرار هذه القاعدة دون تعديل لجاز الحكم على "سقراط" بشخصية زوجته "كسانتيب"، او "ديون" بشخصية صديقه "كاليبوس". . وهذا خليق بان يكون ابعد الاحكام عن الإنصاف، واكثرها خطلا. وفوق هذا لا ينبغي ان تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتي تطبيقا يسيء إليها. فهي بالتاكيد اضيق عقلا واسهل انسياقا للخداع مما كنت اتصور، ولكنها ذات خلق طاهر، رائع، خال من اي خبث، جدير بكل تقديري، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت".

(٢) الكراسة الرابعة. وقد كتب لها "روسو" يوما اروع خطاب غرامي في كل مخلفاته الادبية!

ان ياوي رجالا محترمين، من امثال "جريسيه"، و"بورد"، والراهبين الشقيقين "دي مابلي"، و"كونديلاك"، وكثيرين غيرهم -وإن لم اعثر فيه، لسوء الحظ، علي واحد منهم- غير اني التقيت بشاب يدعى السيد "دي بونفون"، كان ريفيا اعرج، محاميا، يحرص على انتقاء الفاظه. وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد "روجان" الذي اصبح الآن اقدم اصدقائي. وعن طريقه تعرفت إلى الفليسوف "ديدرو"، الذي ساكثر من الحديث عنه فيما بعد.

*****

ولقد وصَلْتُ إلى "باريس" في خريف سنة ١٧٤١، وكل مواردي خمسة عشر "لوي"، ومسرحيتي الهزلية "نارسيس"، ومشروعي الموسيقي. ولما لم يكن لدي وَقْتٌ أُضيعه في محاولة تدبير إنفاقها على خير وجه، فقد اسرعت إلى استغلال خطابات التوصية التي كنت احملها. واي شاب يصل إلى "باريس" مزودا بِشَكْل وسيم، ومعلنا عن نفسه بمواهبه قمينٌ بان يتاكد دائما من انه سيجد تَرْحيبا. وقد كنت كذلك، فمكنني هذا من ان احظى بنعم كثيرة، وإن كانت لم تساعدني ماديا بدرجة تذكر. ومن كافة الاشخاص الذين حملت إليهم التوصيات لم يثبت سوى ثلاثة انهم نافعون لي، وهم :السيد "داميسان" -وكان سيدا من "سافوا"، كان إذ ذاك من الفرسان، واحْسَبُه كان ذا حُظوة لدى الاميرة "دي كارينيان" ثم السيد "دي بوز"، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الاوسمة بديوان الملك.. واخيرا الاب "كاستيل" الجيزويتي، مخترع "الكلافيسان" (١) البصري. وكانت خطابات التوصية للاخرين منهم صادرة من الراهب "دي مابلي".

ولقد تكَفلُ السيد "داميسان" بما كانت تمس إليه حاجتي إذ عرفني إلى اثنين، احدهما: السيد "دي جاسك"، رئيس برلمان "بوردو" (٢)، الذي كان يَحْذِقُ العزف على الكمان حذقا بالغا.. وثانيهما: الراهب "دي ليون"، الذي كان يقيم إذ ذاك في السوربون، وكان راهبا شابا، مَوْفُورَ اللُّطف، مات في زهرة عمره، بعد ان تَألَّقَ في المجتمع لبضع سنوات تحت اسم "الشيفاليه روهان" (٣). وكان كل منهما مشغوفا بتعلم التلحين، فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر، مما انعش مواردي المالية الناضبة. ولقد اولاني الاب "ليون" وده، ورغب في ان يتخذني سكرتيرا له، ولكنه لم يكن غنيا، فلم يكن بوسعه ان يدفع لي مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك.. فرفضت منصبه وانا آسف، إذ لم يكن مرتبه يكفي لنفقات سكناي وتَغْذيَتي ومستلزمات معيشتي.

اما السيد "بوز"، فقد استَقْبَلَني استقبالا طيبا جدا. وكان عالما، ومشغوفا بالمعرفة ولكنه كان متغطرسا بعض الشيء. وكانت السيدة "دي بوز" خَليقة بان تكون ابنته، لا زوجته! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة. وقد تناولت الغداء في دارهما بضع مرات، وما كان احد ليشعر بمثل ما كنت اشعر به من خجل وارتباك في محضرها، فقد كان مَسلكُها غير المتكلف يُحْرِجُني ويجعل مسلكي ادعى إلى الضحك.. فإذا قدمت لي طبقا كنت ادفع "شوكتي" فالتقط -في تواضع- قطعة صغيرة مما

---

(١) الكلافيسان آلة موسيقية، و"الكلافيسان البصري" آلة ذات مفاتيح تتصل -إلى جانب الاوتار- بمكعبات ملونة. فإذا عزف عليها- كما يعزف على الآلة الموسيقية -تتابعت الالوان تتابع الانغام، بحيث تتمشى الالوان الاساسية السبعة الاولى، مع الانغام السبعة الاولى في الموسيقى. وكانت غاية المخترع، ان يحدث المؤثرات النفسية بالالوان! (٢) في الاصل: الرئيس ذو القلنسوة الهمنية السوداء المستديرة! (٣) بحثنا عن سيرة "الشيفاليه دي روهان"، فلم نجد من يحمل لقب "شيفاليه" -اي فارس- وينطبق عليه ما ذكره "روسو" عن التألق وقصر العمر، سوى "الشيفاليه لويس دي روهان"، الذي اشترك في مؤامرة ضد الملك لويس الرابع عشر، واعدم. ولكن هذا عاش بين سنتي ١٦٣٥ و١٦٧٤، اي قبل مولد "روسو". و"روهان" الوحيد الذي عاصره "روسو" هو الامير إدوار دي روهان -الذي عاش بين سنتي ١٧٣٤ و١٨٠٣- وكان كاردينالا، ولكنه لم يكن "شيفاليه". ولعل الامر التبس على "روسو".

تقدمه لي، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذي كانت قد اعدته لي، وهي تدير وجهها لكي لا اراها وهي تضحك!.. ومع ذلك، فما كان يُسَاوِرها اي ريب في صلاحية رأس هذا الريفي الشاب، ولم يَفُتْهَا ان ترى فيه بعض الذكاء. ولقد قدمني السيد "دي بوز" إلى صديقه السيد "دي ريومور"، الذي اعتاد ان يحضر إلى داره لتناول الغداء في ايام الجمعة، وهي ايام انعقاد اجتماعات محفل العلوم. ولقد حدثه السيد "دي بوز" عن مشروعي، وعن الرغبة التي كانت لدي في ان أضَمَّهُ تحت اختبار المحفل، فَتَكَفَّلَ السيد "دي ريومور" بالاقتراح، فلم يَلْبَث ان حظي بالقبول!

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع تولى السيد "دي ريومور" تقديمي والتعريف بي. وفي اليوم ذاته -٢٢ آب (اغسطس) سنة ١٧٤٢- تشرفت بان قرات على المحفل المذكرة التي اعددتها لذلك. ومع ان هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة -يقيناً- فإنني كنت امامه اقل ارتباكا مني امام السيدة "دي بوز"، واستطعت ان اؤدي القراءة وان أجيب عن الأسئلة بنجاح. فاستقبلت الرسالة بتقدير، وجلبت لي التهاني، مما ادهشني اكثر مما سَرَّني.. فما كنت لاتصور ان أي امرئ لا ينتمي إلى المحفل -ايا كان- يبدو لاعضائه ذا إدراك سليم! وكانت اللجنة التي تَوَلَّت مناقشتي تتكون من السادة دي "ميران"، و"هيلو"، و"دي فوشي". وكان ثلاثتهم من الاكفاء دون ما ريب.. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلماما كافيا -على الأقل- لان يجعله في وضع يمكنه من الحكم على مَشْرُوعي!

سنة ١٧٤٢

وفي خلال مناقشاتي مع هؤلاء السادة تبينت -في شك اكثر مني في دهشة- ان العلماء وإن كانوا اقل من سواهم تحاملا، في بعض الاحيان، إلا انهم اكثر تَشَبُّثا بما يكون لديهم من آراء، وكانهم يجدون في ذلك لونا من التعويض. فبقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية، وخاطئة في الغالب، ومع انني كنت أردها بحجج قاطعة -برغم تهيبي، كما ينبغي ان اعترف، وبرغم سوء تعبيري- إلا انني لم اوفق مرة واحدة إلى ان احْمِلَهُمْ على ان يفهموا قولي وان يقتنعوا به. وكنت أَبْهَتُ دائما للسهولة التي كانوا يخطئونني بها -مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة- دون ان يكونوا قد فهموا شيئا.. ولقد أكْتَشَفواْ -حيث لا ادري- ان راهبا يدعى الأب "سوهيتي"، كان قد تَصَوَّرَ فكرة كتابة السلم الموسيقي بالارقام. وكان هذا كافيا لان يَزْعُمُوا ان طريقتي لم تكن جديدة. وقد يكون الأمر كذلك، إذ إنني وإن لم اسمع قط بالاب "سوهيتي"، ومع ان طريقته في كتابة النغمات الرئيسية السبع في التراتيم الكنسية دون اي تفكير في الثمانيات، لا تستحق -في اي اعتبار- ان تقاس بابتكاري البَسيط الملائم لكتابة جميع انواع الموسيقى الممكن تصورها، في غير مشقة، بوساطة الأرقام: من طبقات، ووقفات، وثمانيات، ومسافات وتوقيت، وتقييم.. وكلها اشياء لم تخطر لـ"سوهيتي" ببال إطلاقا.. بالرغم من كل هذا، فقد كان من الصحيح تماما ان يُقال إنه -فيما يتعلق بالتعبير الأولي عن النغمات الرئيسية السبع- كان اول مبتكر في هذا المضمار. ولكنهم (١) لم يَكْتَفُوا بان يُعزوا إلى هذا الابتكار البدائي اهمية أكثر مما كان يستحقها، وإنما ابوا ان يقفوا عند هذا، وبمجرد ان حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة لم يقولوا سوى لغو.

كانت الميزة الكبرى لطريقتي، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات، بحيث يمكن كتابة اية قطعة

---

(١) يقصد "روسو" اعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته.

ونقلها حسب الرغبة، ومهما تكن الطبقة المنشودة، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائي واحد عند بداية اللحن. ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعي الموسيقى في باريس يقولون: إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة. ومن هنا، قلبوا أبرز ميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يَتَعَذَّر التغلب عليه، وانتهوا إلى تقرير ان طريقتي صالحة للاداء الصوتي، وغير صالحة للاداء الآلي، بدلا من ان يقرروا -كما كان ينبغي- انها صالحة للاداء الصوتي، وأكثر صلاحية للاداء الآلي. وبناء على تقريرهم، مَنَحَني المحفَلُ شهادة مليئة بالإطراء البديع للغاية، يتبدى خلال سطورها أنه -في الواقع- لم ير ان طريقتي جَديدة ولا نافعة! .. ولم أشعر قط بأن من الواجب ان ازين بمثل هذه الوثيقة مؤلفي الذي سميته "رسالة في الموسيقى الحديثة"، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأي العام!

ومن حقي -في هذه المناسبة- ان ألفت النظر إلى ان المعرفة الممتازة بالشيء -على شريطة ان تكون شاملة عميقة- افضل من كافة الاضواء التي تُلقيها الثقافةُ والعلومُ، في تمكين المرء من إصابة الحكم، إذا لم تكن هذه الاضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث . وكان الاعتراضُ القويُّ الوحيد الذي وجه إلى طريقتي موجها من "رامو". وما إن شرحت له ردي حتى تبين ضعفه، فقال: "إن علاماتك صالحة جدا، من حيث إنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح، كما انها تعين المسافات بدقة، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم، وهي امور لا تيسرها طريقة النوتة العادية.. ولكنَّ علاماتك غير صالحة من حيث إنها تَتَطَلَّبُ جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الاداء". واستطرد قائلا: "إن وضع علاماتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد الذهني. فإذا ارتبط نغمان -أحدهما مرتفع جدا، والآخر منخفض جدا- بسلسلة من الانغام الوسيطة فإن بوسعي أن ارى -من أول نظرة- التطرق التدريجي من احد النغمين إلى الآخر.. أما حسب طريقتك فلابد لي -للتأكد من هذا التسلسل- من أن أورد كل ارقامك متعاقبة- الواحد بعد الآخر؛ ومن ثم فإن النظرة الشاملة لا تمدك بشيء"!

ولاح لي انه اعتِرَاضٌ مُفحِمٌ فاقرورتُ لتوي بِقُوَّته، في حين أنه بسيط ومدهش! .. فهو اعتراض لا تُوحي به سوى الخبرة الواسعة بالفن؛ ومن ثم فلا عجب في انه لم يخطر ببال أحد من اعضاء المحفل، ولكن هذه هي حَالُ هؤلاء العلماء الكبار جميعا، فهم يعرفون كل الأشياء، بيد ان إلمامهم بكل شيء -على حدة- قليل، بحيث لا ينبغي للواحد منهم ان يقضي برأي إلا فيما يتعلق بالفرع الذي اختصه بدراسته!

وقد اتاحتْ لي زياراتي المتعددةُ لاعضاء لجنة مناقشة رسالتي، ولغيرهم من اعضاء المحفل فرص التَّعرف إلى جميع اولئك الذين كانوا في طَلِيعَة المبرزين في ميدان الادب في "باريس" ومن ثم فإنني كنت على معرفة قائمة بهم عندما وجدتني -فيما بعد- مدرجا بَغْتَة في سِلْكِهم. اما في الفترة التي اتحدث عنها فقد كنت -لفرط استغراقي في طريقتي الموسيقية- مصرا على ان احدث بها انقلابا في هذا الفن، وأن أحرز بهذا شُهرة ترتبط دائما في ميادين الفن الجميل -في "باريس"- بالثراء! .. ولهذا احتَبَستُ نفسي في غرفتي وعكفت على العمل شهرين او ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها، لاشرح -في مؤلف اقدمه للرأي العام- المذكرة التي قرأتها على المحفل. وكانت العَقَبَةُ تتمثل في العثور على ناشر يتكفل بمؤلفي نظرا لان الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات، في حين أن الناشرين لا يُبَعثِرُون دراهمهم على رؤوس المبتدئين، مع أنني كنت أرى أن من الإنصاف أن يَعودُ علي مؤلفي بالخبز الذي التهمته وانا اكتبه!

وعثر لي "بونفون" على "كابو" -الاب- الذي عَقَدَ معي اتفاقا على ان نقتسم الربح، بغض النظر عن "الامتياز" (١) الذي كان علي ان اتكفل بَدفْع نفقاته وحدي. وقد اساء "كابو" -المذكور- تدبير الامر، بحيث إن النقود التي دفعتها لاحصل على الامتياز ذهبت ادراج الرياح، ولم اخرُج بدرهم واحد من هذه الطبعة، التي كانت -في الواقع- ضئيلة الرواج، بالرغم من أن الراهب "ديفونتين" وعد بالعمل على ترويجها، كما ان غَيْرهُ من الصحفيين تَحدَّثُوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبةُ الكُبرى في تجربة طريقتي، هي ان احدا لم يكن لِيَرضى بان يُضَيِّعَ الوقت الذي يتطلبه تعلمها، إذا هي لم تصبح الطَّريقةَ السائدة في الموسيقى. وقد قلت ردا على ذلك: إن المران على اسلوبي في العلاقات الموسيقية يجعل الافكار من الوضوح بحيث إن الذي يشرع في تعلم العلامات الموسيقية العادية، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذي يستغرقه تعلمها، إذا هو بدأ بطريقتي. ولإقامة الدليل العملي، قدمت دروسا فيها -بالمجان- لشابة امريكية تدعى الآنسة "دي رولان"، كان السيد "روجان" قد عرفني بها. فإذا بها تُصْبِحُ -خلال ثلاثة اشهر- قادرة على ان تقرأ على "نوتتي" اي نوع من الموسيقى، وأن تُغني بمجرد النظر إلى "النوتة" -بإتقان يفوق إتقاني انا- كل قطعة غير بالغة الصعوبة. وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا. فقد كان اي امرئ سواي خليقا بان يملأ الصحف به، أما انا، فبالرغم من انني أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة، إلا انني لم اعمد قط إلى إبراز قيمتها!

وهكذا تَحَطَّمَت "نافورتي الصغيرة" مرة اخرى(٢). ولكني في هذه المرة الثانية، كُنت في الثلاثين من عمري، وكنت قد وَجَدْتُ نفسي في طرق "باريس" المُعَبَّدة، حيث لا يستطيع المرء ان يعيش بلا مَوَارِدَ. ولن يدهش القرار الذي انتهى بي إلى هذه النهاية سوى اولئك الذين لم يقرءوا بإمعان الجزء الأول من هذه المذكرات!.. ذلك انني كنت قد بذلت مجهودا كبيرا، وإن لم يكن مثمرا، فكنت بحاجة إلى استجمام. وبدلا من ان استسلم للقنوط أسلمتُ نفسي لخمولي المعهود، وللعناية الإلهية، ولكي ادع لهذه العناية وقتا كي تقوم فيه بدورها، فقد اقبلت على إنفاق بضع قطع مالية من فئة "لوي" -كانت قد بقيت معي- في غير ما تعجل!.. ودَبَّرْتُ نَفَقَات مُتَعي البريئة بحيث لا أتخلى عنها، فلم اعُد اذهب إلى المَقهى سوى مرة في كل يومين، وإلى المسرح مرتين في الأسبوع. أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات فإنني لم اكن بحَاجَة إلى الحدّ منها؛ لانني لم أنفق "سو" واحد على هذه الناحية، في حياتي، اللهم إلا في مناسبة واحدة.

ولقد كانت السكينة، واللذة، والثقة التي استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة - بالرغم من أنني لم أكن امتلك موارد تمكنني من ان استمر فيها ثلاثة أشهر - من الصفات الفذة في حياتي، ومن الظواهر العجيبة في طباعي!.. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بي، هي عين الشيء الذي جردني من الجراة على ان اظهر بين الناس.. كما أن الضرورة التي كانت تدعوني إلى زيارة الناس، جعلت الزيارات امرا لا أطيقه، حتى إنني كففت عن زيارة اعضاء المحفل انفسهم وغيرهم من رجال الأدب، الذين قد تعرفت إليهم. واصبح "ماريفو" والراهب دي "مابلي" و"فونتنيل" هم الوحيدون - تقريبا - الذين ظللت أزور دورهم في بعض الأحايين. كذلك اطلعت أولهم على مسرحيتي الهزلية "نارسيس" فراقت له، وتكرم بان ادخل عليها بعض التنقيح!.. وكان "ديدرو" يصغرهم كثيرا في السن، فقد كان يقاربني عمرا. وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها، ومن ثم فإننا كنا نتحدث

---

(١) نظام يقابل "حق النشر" يقصر حق طبع كتاب معين، على مؤلف أو ناشر معين. (٢) يشبه "روسو" مشروعه الموسيقي، بالنافورة الصغيرة التي بنى عليها آمالا عندما بارح "تورين"، والتي أورد قصتها في الكراسة الثالثة.

عنها، كما أنه كان يحدثني عن مشروعاته الادبية، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوي دامت خمس عشرة سنة، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول، لو أنني لم أدفع دفعا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها.. وكان هو صاحب الذنب في ذلك!

ولن يمكن تصور الطريقة التي استغللت فيها هذه الفترة القصيرة، الثمينة، التي سبقت اضطراري إلى أن اتسول قوتي! .. فلقد حفظت عن ظهر قلب اجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها. واعتدت أن اتمشى كل صباح - في حوالي الساعة العاشرة - في حدائق "لوكسمبورج"، حاملا "فيرجيل" او "روسو" في جيبي (١)، واروح اردد في ذهني - حتى موعد الغداء - احد الأناشيد القدسية، أو احد اناشيد الرعاة، دون أن يثبط من عزيمتي أنني كنت واثقا بانني لن البث - إذ أردد الجزء الذي اخترته ليومي - أن انسى الجزء الذي حفظته بالامس... وتذكرت أن الأسرى الأثينيين - بعد هزيمة "نيسياس" في "سيراكيوز" - (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد اشعار "هوميروس". ولقد كان الدرس الذي استخلصته من هذه، كي أعد نفسي للفاقة، هو أن أروض ذاكرتي البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب!

*****

وكانت لدي طريقة مبتكرة مكينة أخرى في الشطرنج، الذي كنت اكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر - من الايام التي لم أكن اذهب فيها إلى المسرح - في مقهى "موجي".

وقد تعرفت هناك إلى السيد دي "فيليدور"، وإلى جميع لاعبي الشطرنج الكبار في ذلك العهد، دون أن احرز مزيدا من التقدم في اللعب. على انني لم اكن ارتاب في أنني لن البث أن أغدوا في النهاية أقوى منهم جميعا، وكان هذا - في رأيي - كافيا لأن يمدني بمورد للعيش. وكنت كلما استهوتني فكرة طائشة جديدة، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائما.. كنت اقول لنفسي: "إن الذي يبرز في شيء، يطمئن دائما إلى أنه منشود. فلنبرز إذن في اي شيء، وإذ ذاك اغدو مرغوبا.. إن الفرص سانحة، وعلى كفاءتي يتوقف ما بقي من الامر!".. ولم يكن هذا التفكير الصبياني وليد سفسطتي، وإنما كان نتاج كسلي. فقد كنت في جزعي من الجهود الضخمة السريعة التي كانت خليقة بأن ترهقني، اسعى إلى أن أزين كسلي لنفسي، وإلى أن أداري خجلي من نفسي بحجج ملائمة!

وهكذا مكثت ساكنا إلى أن انتهت نقودي. واعتقد انني كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر "سو" لدي، دون اي قلق، لو لم يوقظني الأب "كاستيل" - الذي كنت أذهب لزيارته احيانا، وانا في طريقي إلى المقهى - من سباتي. ولقد كان الاب "كاستيل" مخبولا، ولكنه كان - برغم هذا - رجلا طيبا. وقد غاظه أن رآني ابدد وقتي وإمكانياتي بهذا الشكل، دون أن افعل شيئا. فقال لي: "مادام الموسيقيون، ومادام العلماء، يأبون أن يغنوا بطريقتك، فعدل من أوتارك، وجرب النساء، ولعلك تكون - في هذه الناحية - اكثر توفيقا!...

لقد تحدثت عنك إلى السيدة دي "بوزينفال"، فاذهب لزيارتها، واذكر أنك قادم من لدني!.. إنها امرأة طيبة، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (٣) ولسوف تلتقي في دارها بابنتها السيدة دي "بروجلي"، وهي امرأة ذكية.. وهناك السيدة "دوبان"، وهي الأخرى ممن حدثتهن

---

(١) يقصد ديواني الشاعرين "فيرجيل" و"جان بابتيست روسو". (٢) كان "نيسياس" من أشهر القادة الإغريق الذين برزوا في حروب البلوبونيز، وقد هزم وهلك في حملة "صقلية" في سنة ٤١٣ قبل الميلاد. (٣) كانت البارونة دي "بوزنفال" بولندية متزوجة من فرنسي.

عنك، فاحمل إليها مؤلفك، لأنها تتوق إلى رؤيته، وسوف تحسن استقبالك!.. إن المرء لا يستطيع أن يبرم عملا في "باريس" إلا بوساطة النساء، فهن كالمنحنيات، التي يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها.. فالفريقان يتقاربان باستمرار، ولكنهما لا يتماسان أبداً!" .

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر، استجمعت أخيرا شجاعتي، وذهبت لزيارة السيدة "بوزينفال" ، فأكرمت وفادتي، وإذ دخلت السيدة دي "بروجلي" الغرفة، بادرتها قائلة: "ها هو ذا، يابنتي، السيد "روسو" الذي حدثنا عنه الأب "كاستيل"!" فأطرت السيدة دي "بروجلي" مؤلفي، وقادتني إلى معزفها، لتريني أنها كانت معنية به. ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة، فأردت الانصراف، غير أن السيدة دي "بوزينفال" قالت لي: "إنك على مسافة بعيدة من مسكنك، فامكث، وتناول غداءك هنا" . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح.. وبعد ربع ساعة، أدركت أن المائدة التي دعتني إليها كانت مائدة الخدم!.. فقد كانت السيدة دي "بوزينفال" طيبة، ولكنها كانت ضيقة الأفق، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندي، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام الواجب للمواهب. وقد حكمت علي – في هذه المناسبة – بمسلكي أكثر منها بملبسي الذي كان – برغم بساطته المتناهية – لائقا كل اللياقة، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم..

لاسيما وأنني كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من زمن طويل، ولم أكن راغبا في أن أتعلمها من جديد (٢)..

وقلت للسيدة دي "بوزينفال" – دون أن أبدي غضبي – إنني تذكرت أنه لابد لي من العودة إلى مسكني لمهمة بسيطة. فاقتربت مدام دي "بروجلي" من أمها، وهمست في أذنها ببضع كلمات كان لها تأثير سريع، إذ نهضت مدام دي "بوزينفال" لتستبقيني قائلة: "إنني أقصد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء.. معنا!" . ورأيت أن التشبث بالكرامة عمل أخرق، فمكثت. وإلى جانب ذلك، ، كان لطف السيدة "بروجلي" قد ملك قلبي، وجعلني أرتاح إليها، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها. وداخلني الأمل في أنها لن تندم – إذا ما عرفتني جيدا – على أنها أولتني هذا الكرم. ولقد تناول الغداء هناك أيضا، السيد رئيس "لاموانيون" ، وهو من أعظم أصدقاء الأسرة، وكان – كالسيدة دي "بروجلي" – يألف اللهجة الباريسية الموجزة، التي تتألف من كلمات صغيرة، كلها كنايات بسيطة رفيعة.. ولم يكن لـ"جان جاك" البائس مجال للتألق في هذا المضمار!.. وكنت من حسن الإدراك بحيث إنني لم أشأ أن أتظرف بالرغم من "منيرفا" (٣)، فأمسكت لساني!..

ما كان أسعدني لو أنني كنت دائما بهذه الحكمة؟.. لقد كنت بهذا جديرا بألا أتردى في الدرك الذي أجدني اليوم فيه!

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم، ولعجزي عن أن أبرر – في نظر السيدة دي "بروجلي" – ما فعلته هي من أجلي.

لذلك لجأت – بعد الغداء – إلى موردي المعهود. فقد كانت في جيبي رسالة شعرية، كتبتها إلى "بريسو" أثناء مقامي في "ليون" ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة، فعمدت إلى قراءتها، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء. ولقد خيل إلي – سواء عن غرور، أو عن صدق في تأويلاتي – أنني رأيت عيني السيدة دي "بروجلي" تقولان بنظراتها لأمها: "ما رأيك يا ماما؟!..

---

(١) الخط التقاربي – أو التقريبي – في الهندسة، هو خط مستقيم يطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا.. أي أنهما يتقاربان دائما دون أن يتماسا!

(٢) يعني "روسو" أنه كان قد نسي معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم ولعلنا نذكر – مما جاء في الجزء الأول – أنه عمل خادما فترة من الزمن.

(٣) "منيرفا" ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان. ويشير "روسو" بهذا التعبير إلى أنه لم يشأ أن يدعي ما كان بعيدا عن أن يسعفه فيه ذكاؤه.

افكنت على خطأ إذ قلت لك: إن هذا الرجل كان اكثر جدارة بان يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك؟" .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب، ولكنني شعرت بالرضا بعد ان ثارت لنفسي على هذا النحو. ولقد تمادت السيدة دي "بروجلي" قليلا في الراي الطيب الذي داخلها نحوي، معتقدة انني لن البث ان اثير ضجة في "باريس"، وان اغدو ذا حظوة لدى النساء. ولكي ترشدني في هذا المجال الذي كنت غير خبير به، اعطتني "مذكرات الكونت..."، قائلة: "إن هذا الكتاب مرشد ستحتاج إليه في المجتمع، وستحسن صنعا إذا انت استعنت به بين وقت وآخر".

ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما، بهذه النسخة، معترفا بفضل اليد التي جاءتني عن طريقها، وإن كنت كثيرا ما اضحك للراي الذي لاح ان هذه السيدة قد ارتاته عن مؤهلاتي للظرف والملاطفة.. ومنذ اللحظة التي طالعت فيها هذا الكتاب، رغبت في ان اخطب ود صاحبه. وقد حققت الأحداث هذه الرغبة، فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لي بين رجال الأدب (١).

وجرؤت - منذ ذلك الحين - على ان اطمئن إلى ان السيدة البارونة دي "بوزينفال"، والسيدة المركيزة دي "بروجلي" - وقد اهتمتا بامري - لن تدعاني طويلا بلا مصدر للعيش. ولم اخطئ الحدس!.. فلنتكلم الآن عن دخولي دار السيدة "دوبان"، الذي كانت عواقبه اطول مدى واجلا!

*****

كانت السيدة "دوبان" - كما هو معروف - ابنة "صمويل برنار"، والسيدة "فونتين".. وكن ثلاث اخوات، من الممكن ان يدعين بالحسان الثلاث: السيدة "ديلا توش" - التي فرت إلى "إنجلترا" مع دوق "كينجستون" - والسيدة "دارني"، عشيقة السيد الامير دي "كونتي"، بل - بالأحرى - صديقته، الصديقة الوحيدة المخلصة، وكانت امراة جديرة بان تعشق؛ للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الذي لم يكن يفارق طباعها.. واخيرا، السيدة "دوبان"، اجمل الثلاث، والوحيدة منهن التي لم يكن ثمة عوج يعاب عليها في مسلكها!.. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد "دوبان"، إذ إن امها منحته إياها، مع منصب "الملتزم العام" (٢) وثروة ضخمة، عرفانا لحسن حفاوته بها في إقليمه!

وكانت - عندما رايتها لاول مرة - لا تزال من اجمل نساء "باريس". وقد استقبلتني في غرفة زينتها، وكانت ذراعاها عاريتين، وشعرها مهوشا، وثوبها مهدلا.. وكان مثل هذا الاستقبال الاول جديدا علي، فلم يحتمله راسي البائس، واضطربت، وارتبكت.. وموجز القول انني شغفت هوى بمدام "دوبان"!

ولم يلح ان اضطرابي قد احدث اثرا سيئا، إذا إنها لم تبد ما ينم عن انها لاحظته. وفي استقبالها للكتاب ولمؤلفه، راحت تحدثني عن مشروعي الحديث الملمة به.. وغنت، وصاحبت غناءها بالعزف، واستبقتني للغداء، واجلستني إلى جانبها حول المائدة. وما كان يدير راسي اكثر من هذا، فإذا بي اغدو مجنونا بها!.. وسمحت لي بان اتردد عليها، فاستغللت - بل اسأت استغلال - هذا السماح، إذ اصبحت اذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبا، واتناول الغداء هناك مرتين او ثلاثا في الاسبوع، وكنت اموت شوقا إلى مصارحتها بحبي، ولكنني لم اجسر على ذلك، فقد ضاعفت من خجلي

---

(١) عقب "روسو" - في هامش مذكراته - على هذا بقوله: "هكذا ظللت اعتقد طويلا، وعن اقتناع راسخ، حتى إنني عهدت إليه - منذ عودتي إلى "باريس" باعترافاتي. إذ إن "جان جاك" للحذر المستريب، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع، إلا بعد ان وجد نفسه ضحية لهما". (٢) الملتزم العام: هو الموكل بتحصيل الضرائب.

الطبيعي عدة أسباب.. كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين، بمثابة باب مفتوح للحظ، فلم أشأ – في موقفي إذ ذاك – أن أتعرض لإغلاق هذا الباب. ثم إن السيدة "دوبان" كانت – برغم لطفها – رصينة وباردة، فلم أجد في مسلكها شيئاً مشجعاً يثير جراتي. وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى في "باريس"، في ذلك الحين، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء؛ لكي تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم. فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين: من عظماء، وأدباء، ونساء جميلات.. وما كان ليرى عندها سوى الدوقات، والسفراء، وذوي الأشرطة الزرقاء (١).. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دي "روهان"، والسيدة الكونتة دي "فوركالكييه"، والسيدة دي "ميربوا"، والسيدة دي "بريمنوليه"، والليدي "هيرفي"، بين صديقاتها!..

كما أن السيد دي "فونتنيل"، والراهب دي "سان بيير"، والراهب "ساليه"، والسيد دي "فورمو"، والسيد "دي بيرني"، والسيد دي "بوفون"، والسيد دي "فولتير"، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها. وبما أن مسلكها المتحفظ لم يجذب إليها عدداً كبيراً من الشباب، فقد كانت الجماعة التي اعتادت الاجتماع في دارها، صفوة مختارة وبالتالي أكثر وقاراً!.. وما كان لـ"جان جاك" البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيراً وسط كل هؤلاء؛ لذلك فإنني لم أجسر على أن أفضي للسيدة بعواطفي، ولكني لم أعد أطيق صمتاً، فجرؤت على الكتابة. وقد احتفظت بالخطاب يومين، دون أن تذكر لي شيئاً عنه. وفي اليوم الثالث، ردته مع بضع كلمات تأنيب، ولكن الكلمات ماتت على شفتي، وخبا وجدي الفجائي مع أملي. وبعد هذا الإعلان الكتابي لحبي، واصلت العيش بقربها كذي قبل، دون أن أحدثها عن شيء من عواطفي، ولو بنظرات عيني!

ولقد ظننت أن حماقتي أصبحت منسية، ولكني كنت مخطئاً!.. وكان السيد دي "فرانكويي"، نجل السيد "دوبان"، وابن زوج السيدة "دوبان" (٢)، يقارب السيدة في السن، ويقاربني. وكان لامع الذكاء، مليح الهيئة، يحسن الظهور بمظاهر العظمة. ويقال إنه كان مقرباً إلى السيدة "دوبان"، لا لشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة، ولكنها صافية اللطف، وعاشت معهما في وئام تام، وكان السيد دي "فرانكويي" يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها، ومن ثم فإن الموسيقى – التي كان يلم بها إلماماً عظيماً – كانت وسيلة ورباطاً بيننا؛ ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيراً، فتعلقت به.

وقد أوعز إليّ – فجأة – بأن السيدة "دوبان" أصبحت ترى أن زياراتي أكثر مما كان ينبغي، ورجاني أن أكف عنها..! ولعل هذه الإشارة كانت في محلها، لو أنها صدرت عندما أعادت السيدة الخطاب إليّ. أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام – أو عشرة – ودون أي سبب آخر، فقد لاحت لي غير ذات موضوع. ومما زاد الموقف غرابة، أن هذا لم يضعف الحفاوة – التي كنت أقابل بها في دار السيد والسيدة دي "فرانكويي" – عن ذي قبل! على أنني خففت من ترددي عليهما، وكنت موشكاً أن أقطع زياراتي تماماً، لولا أن السيدة "دوبان" – مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها – سألتني أن أعنى، لثمانية أيام أو عشرة، بابنها الذي كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيداً ريثما يصل المربي الجديد.

ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب، لم يكن ليجعله محتملاً سوى لذة إرضاء السيدة "دوبان"!.. إذ كان "شينونسو" المسكين (٣) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزي على الأسرة،

---

(١) لقب يطلق على فرسان الطيفر المقدس. على أن من المحتمل أن يكون "روسو" قد استعمله هنا بمعنى: المبرزين من القوم. (٢) أي أنه كان ثمرة زواج سابق للسيد "دوبان". ويلاحظ أن "دي" قبل الاسم، معناه أن صاحبه يحمل لقباً، وهذا يبرر عدم حمل "فرانكويي" لاسم "دوبان".
(٣) "شينونسو" هو اسم ابن مدام "دوبان".

وكان سببا في موته بعد ذلك، في جزيرة "بوربون". ولقد كنت - اثناء وجودي بجواره - احول بينه وبين ان يؤذي نفسه أو يؤذي غيره. وما كانت هذه المهمة بالسهلة، كما انني لم اكن لأتولاها ثمانية ايام اخرى، ولو منحتني السيدة "دوبان" نفسها في مقابل ذلك!

❁❁❁❁❁

واولاني السيد دي "فرانكويي" صداقته، فعملت معه، وبدأنا نتلقى سويا منهجا في الكيمياء لدى "رويل". ولكي اكون على مقربة منه، تركت نزلي - بـ"سان كينتان" - وانتقلت للإقامة في "ساحة التنس" بشارع "فرديليه"، الذي كان يفضي إلى شارع "بلاتيير"، حيث يقيم السيد "دوبان". وهناك، نشأ عن إصابتي ببرد اهملته، ان وقعت فريسة التهاب رئوي كدت اموت منه. وكثيرا ما كنت اصاب في شبابي بتلك الأمراض الالتهابية: التهابات البلورة (ذات الجنب)، والتهابات اللوزتين - التي كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص - وغيرها، مما لا اراني بحاجة إلى تسجيله هنا، وكانت جميعها تدفعني إلى حيث ارى الموت عن كثب كاف لان آلف شكله!.. وسنح لي الوقت - اثناء نقاهتي - للتفكير في حالي، وللرثاء لجبني، وضعفي، وكسلي الذي كان - برغم ما كنت اكتوي به من نار - يتركني اذبل في خمول ذهني على ابواب الفاقة!

وكنت في اليوم السابق لوقوعي في المرض، قد ذهبت لمشاهدة "اوبرا" لـ"رويبيه" كانت تمثل إذ ذاك، وقد غاب عني اسمها. وبالرغم من أن تعنتي في الحكم على مواهب سواي جعلني دائما لا اطمئن إلى مواهبي، فإنني لم استطع ان اكبح نفسي عن ملاحظة ان الموسيقى كانت باردة، فاقدة الحرارة، خلوا من الابتكار والتجديد. وكنت اجرؤ - في بعض الاحيان - على ان اقول لنفسي: "يخيل إليّ ان بوسعي ان اصنع خيرا من هذا".. بيد ان الفكرة - الباعثة على التهيب - التي داخلتني عن تلحين "الاوبرا"، والاهمية التي كنت اسمع الإخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل، ثبطت عزيمتي في الحال، وجعلتني اتضرج خجلا لجراتي على التفكير في ذلك!..

ثم، أين لي بمن يرضى بأن يزودني بالاقوال اللازمة لأية "اوبرا"، وان يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواي؟.. ولقد عاودتني هذه الافكار عن الموسيقى والاوبرا، اثناء مرضي، فرحت إبان هذياني انظم الاغاني والثنائيات والاناشيد الجماعية.. واوقن انني نظمت قطعتين او ثلاثا لفوري - وعفو الخاطر - ربما كانت جديرة بإعجاب الاساتذة، لو انهم سمعوها تؤدى.. ولو تسنى تسجيل احلام امرئ محموم، فاية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها احيانا من هذا الهذيان!

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والاوبرا هذه، تشغلني اثناء نقاهتي، ولكن في توارد اكثر هدوءا. وبدافع من التفكير في ذلك - بل وبالرغم من نفسي - اعتزمت ان ارضي نفسي، وان احاول وضع "اوبرا"، بكلامها وموسيقاها، دون معونة من احد. ولم تكن هذه اول محاولة لي، إذ كنت قد الفت في "شامبيري" اوبرا ومأساة - اوبرا تراجيدي - بعنوان "ايفيس وأنا كساريت"، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها في النار!.. كما نظمت في "ليون" أخرى بعنوان "اكتشاف الدنيا الجديدة"، لم البث بعد أن قرأتها على السيد "بورد"، والراهب دي "مابلي"، والراهب "تروبليه" وغيرهم، أن انتهيت بها إلى عين المصير، بالرغم من انني كنت قد كتبت موسيقى المطلع والفصل الأول، وعندما اطلع "دافيد" على الموسيقى، انباني بانها كانت تحتوي على مقاطع تليق

"بونونتشيني" . (١)

وفي هذه المرة، أتحت لنفسي وقتا للتفكير في مشروعي، قبل أن أمد يدي إلى العمل. ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة "بالية" ثلاثة موضوعات مختلفة، في ثلاثة فصول مستقلة، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين.

ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء، ثم أسميتها "عرائس الشعر اللطاف" (٢) . . وكان الفصل الأول يدور حول "تـاس" (٣)، وقد صبغت موسيقاه في أسلوب قوي، أما الفصل الثاني، فكان عن "أوفيد"، وكانت موسيقاه رقيقة، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم "أنا كريون"، وقد روعي فيه أن يفوح بأنفاس الإطراء والمديح! . . وجربت براعتي - في البداية - في الفصل الأول، فعكفت عليه بحماس مكنني - للمرة الأولى - من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة في التلحين! . .

وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار "الأوبرا"، وإذ بي أجدني نهبا للأفكار، وإذا بها تطغى عليّ فرددت نقودي إلى جيبي، وأسرعت إلى غرفتي وأغلقتها على نفسي، وارتميت على السرير، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضوء النهار . . وهناك، أسلمت نفسي تماما للإلهامات الشعرية والموسيقية، فوضعت بسرعة، وفي سبع ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل! . . وبوسعي أن أقول إن حبي للأميرة دي "فيراري" - إذ إنني كنت "تاس" إذ ذاك - ومشاعري النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم، أتاحت لي - لليلة واحدة - من المتع ما كان يفوق مائة مرة، كل ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعي الأميرة نفسها (٤) . . ولم يبق في رأسي - في الصباح - سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته، ولكن هذا الجزء - الذي شوهه الإجهاد والنعاس تقريبا - لم يخفق في أن يكشف عن قوة المقطوعات التي تبقت كالأطلال!

وفي هذه المرة، لم أمض بعيدا في هذا المشروع كثيرا! نظرا لانصرافي إلى الشؤون الأخرى. ولم تكن السيدة دي "بوزينفال"، والسيدة دي "بروجلي" - اللتان ظللت أزورهما من وقت لآخر - قد نسيتاني تماما في غمرة تعلقي بأسرة "دوبان". فقد حدث أن عين السيد الكونت دي "مونتيجي" - الذي كان ضابطا في الحرس - سفيرا في "فينا". وكان مدينا بسفارته إلى "بارجاك" (٥) الذي كان قد ثابر على مصاحبته. كما أن أخاه - الشيفالييه دي "مونتيجي" - كان "فارس الكم" للسيد ولي العهد (٦). وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٧)، وبالراهب "آلاري" - عضو المحفل الفرنسي - الذي كنت أزوره، في بعض الأحيان، كذلك. وإذ علمت السيدة دي "بروجلي" بأن السفير كان يبحث عن سكرتير، رشحتني لديه. وشرعنا نبحث الأمر، فطلبت خمسين "لوي" كمرتب، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر. ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة "بيستول" (٨) كما كان علي أن أتكفل بنفقات سفري، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق، وفاز السيد دي "فرانكويي" - الذي بذل قصارى وسعه ليحول بيني وبين

---

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الإيطاليين، كانوا أبا وابنيه، وقد أقام أصغر الابنين ردحا في "إنجلترا"، وكان أكثر الثلاثة شهرة.
(٢) Les Muses Galantes (٣) "تاس": هو الشاعر الإيطالي "توركاتو تاسو"، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة. وقد عاش في القرن السادس عشر. ولهذا اختار "روسو" طابع القوة للفصل الذي تسجه حوله. أما "أوفيد"، فكان شاعرا "لاتينيا"، اقترن اسمه بالحب والهوى، برغم ما قاساه في حياته من شجون ومتاعب، حتى إنه مات منفيا. أما "أنا كريون"، فكان شاعرا غنائيا تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة.
(٤) كانت الأميرة أجمل نساء عصرها، وقد تصور "روسو" أنه "تاس" الذي تدله في هواها، وثار على مظالم أخيها (٥) كان "بارجاك" هو الخادم الخاص "للكردينال دي فلوري"، الذي كان واسع النفوذ لدى الملك. (٦) فرسان الكم: طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين الشدين والبطولة، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتموا تعليمهم. (٧) السيدة دي "بوزينفال" وابنتها. (٨) كان "اللوي" إذ ذاك ٢٤ فرنكا، و"البيستول" ١٠ فقط .

الرحيل – بمآربه، فمكثت بينما رحل السيد دي "**مونتيجي**" مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد "**فولو**"، كانت وزارة الخارجية هي التي رشحته له. ولكنهما لم يكادا يبلغان "**فينا**"، حتى اختلفا وتشاجرا. وإذ رأى "**فولو**" انه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون، هجره هناك، ولم يعد لدى السيد دي "**مونتيجي**" سوى راهب شاب يدعى دي "**بيني**"، كان كاتبا تحت إرشاد السكرتير، ولم يكن في مركز يؤهله لان يملأ المنصب؛ ومن ثم اضطر السفير إلى ان يلجأ إلي مرة اخرى.

وقد افهمني اخوه "**الشيفالييه**" – الذي كان موفور الذكاء – ان ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير، وبهذا افلح في ان يغريني بقبول الالف فرنك (١).. كما تسلمت عشرين "لوي" لنفقات رحلتي.. فبادرت إلى السفر!

من سنة ١٧٤٣

إلى سنة ١٧٤٤

وعند "**ليون**"، تمنيت ان اتخذ طريق "**مون سيني**" ؛ لأزور "**ماما**" المسكينة، زيارة عابرة. بيد انني انحدرت مع نهر "**الرون**"، ثم انتقلت بالبحر إلى "**طولون**". وكان ذلك بسبب الحرب، وبداعي الاقتصاد؛ وللحصول – كذلك – على جواز للسفر من السيد دي "**ميربوا**"، الذي كان يشرف على الإقليم إذ ذاك، والذي كنت موفدا إليه بتوصية. وإذ لم يكن بوسع السيد دي "**مونتيجي**" أن يستغني عني، فقد راح يكتب لي الرسائل تلو الرسائل، متعجلا سفري. ولكن حادثا عاقني.

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك في "**مسينا**". وكان الأسطول البريطاني يرسو هناك، فزار المركب التي كنت عليها، وقد عرضنا ذلك عند وصولنا إلى "**جنوا**" – بعد رحلة طويلة شاقة – إلى ان نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما.

وترك لنا الخيار بين البقاء على سطح المركب، او في المعزل الصحي، الذي انذرنا باننا لن نجد فيه شيئا، اللهم إلا الجدران الاربعة، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتاثيثه. واختار الجميع البقاء في السفينة، ولكن الحر المرهق، وضيق المكان، وتعذر التربض على القدمين، والحشرات، جعلتني افضل المعزل. فاقتدت إلى مبنى كبير ذي طابقين. وكان عاريا تماما، فلم اعثر فيه على نافذة، ولا منضدة ولا سرير، ولا مقعد.. بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لاجلس عليه، ولا حزمة من القش ارقد عليها.. وأحضروا إليّ معطفي، والحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب النوم، وحقيبتي الكبيرتين، ثم اغلقت دوني أبواب، ذات أقفال هائلة.. وبقيت هناك، حرا في ان أتجول وفق هواي، من حجرة إلى اخرى، ومن طابق إلى آخر، دون ان القى في كل مكان بغير العزلة، والتجرد من الأثاث!

ولم يحملني كل هذا على ان اندم لاختياري المعزل دون المركب، بل رحت ادبر اموري – كما لو كنت "**روبنصن**" (٢) جديدا – للأيام الثمانية والعشرين، وكانني كنت مقبلا على الإقامة طيلة العمر، وكنت أتسلى – في البداية – باصطياد القمل الذي التقطته على المركب. فلما أصبحت نظيفا في النهاية، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية، تحولت إلى تاثيث الحجرة التي اخترتها، فصنعت حشية بديعة من سترات وأقمصتي، وملاءات من عدة مناشف، خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزاري المنزلي "الروب دي شامبر"، ووسادة من معطفي الذي لففته، واتخذت مقعدا من إحدى

---

(١) يبدو انه يقصد قيمة المرتب السنوي. (٢) يقصد "روبنصن كروزو".

حقيبتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن اقمتها على أحد جانبيها الضيقين، وأخرجت ورقا ومحبرة، ونسقت حوالي اثني عشر كتابا كنت أمتلكها، لتكون مكتبة. وقصارى القول إنني هيأت مقامي تهييئاً طيبا حتى إنني كنت في ذلك المعزل العاري انعم بإقامة تعدل إقامتي في مسكني بساحة التنس في شارع "ديلا فيرديليه"، فيما عدا الستائر والنوافذ!.. وكانت وجباتي تقدم في كثير من مظاهر الأبهة، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما في طرفي بندقيتيهما. وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتي، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة، فإذا ما أعد الغداء، دق الذين احضروه ناقوسا - أثناء انسحابهم - لتنبيهي إلى أنه قد آن لي أن أجلس إلى المائدة.

وعندما كنت انصرف عن القراءة أو لكتابة، او استكمال تاثيث حجرتي - بين الوجبات - كنت أتمشى في مقبرة البروتستانت، التي كانت بمثابة ساحة لمسكني، أو أصعد إلى برج يطل على الميناء، حيث يتسنى لي رؤية السفن في دخولها وخروجها. وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما، وكنت قمينا بأن أقضي الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر لحظة، لولا السيد دي "جونفي" - المبعوث الفرنسي - الذي كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل، ومعطرا، وشبه محترق.. فقد أنقص مدة احتجازي ثمانية أيام، قضيتها في داره، حيث أعترف بأنني وجدت من راحة المقام ما لم أجده في معزلي.. وقد أبدى لي عطفا قويا، كما أن سكرتيره "ديبون" كان شابا طيبا، اصطحبني إلى بيوت عديدة - سواء في "جنوا" أو في الريف - حيث كانت التسرية موفورة. وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل، التي ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن. وما لبثت أن استأنفت رحيلي - راضيا مرتاحا - مخترقا سهل "لمباردي". وزرت "ميلان"، و"فيرونا"، و"بريسيا"، و"بادو"، ثم وصلت في النهاية إلى "البندقية"، حيث كان السفير في انتظاري، وهو نافد الصبر!

*****

ووجدت أكداسا من الرسائل - سواء من البلاط الملكي أو من السفراء الآخرين - لم يكن في وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك. ولما لم أكن قد عملت قط في منصب من هذا النوع، ولا رأيت في حياتي شفرة حكومية، فقد خشيت - في البداية - أن ارتبك، ولكنني تبينت انه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك.. وفي اقل من اسبوع، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا، إذ إنها لم تكن - في الواقع - تستحق عناء. فقد كانت السفارة القائمة في البندقية قليلة العمل دائما، فضلا عن أن مثل هذا الرجل - السيد دي "مونتيجي" - لم يكن ممن يعهد إليهم بأية مفاوضات. ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعرف كيف يملي رسائله، ولا كيف يكتب بخط مقروء. ومن ثم فإنني كنت عظيم النفع له، وقد شعر بذلك، فأحسن معاملتي. وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك، فقد تولى اعمال السفارة - بعد رحيل سلفه السيد "دي "فوولاي"، الذي اختبل عقله - القنصل الفرنسي، الذي كان يدعى السيد "لوبلون"، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي "مونتيجي" ريثما يدربه على نظام العمل. ولقد جنح السيد دي "مونتيجي" - في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله، برغم أنه كان عاجزا عن ادائه بنفسه - إلى كراهية القنصل، فما إن قدر لي إن أصل، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة،

ليكلها إليّ. ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب "سكرتير السفارة". فقد دعاني إلى أن أحمل هذا اللقب. وما أوفد - طيلة بقائي معه - أحدا سواي بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه (١). والواقع أنه كان من الطبيعي أن يفضل أن يكون في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له، عن أن يكل هذا المنصب إلى القنصل، أو موظف كتابي معين بمعرفة البلاط.

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزي جد ملائم، ومنع أفراد بطانته، الذين كانوا من الإيطاليين - كما كان أتباعه ومعظم خدمه - من أن ينازعوني الأولوية في داره. وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان، في صون حقوقه الدبلوماسية، وأعني بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بذلت مرارا عديدة لانتهاكها، والتي كان موظفوه - من أبناء البندقية - لا يحفلون بمقاومتها. ومن ثم فإنني لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر، بالرغم من أنني كنت خليقا بأن أجني من وراء ذلك نفعا كبيرا، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتي إياه!.. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتارية التي يطلق عليها اسم "أعمال الديوان". ومع أن الحرب كانت قائمة، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر، وكان يدفع عن كل جواز منها، "سيكان" (٢) للسكرتير الذي ينجزه ويصدق عليه. وقد اعتاد كل من سبقوني أن يتقاضوا هذا "السيكان" من الفرنسيين، ومن الأجانب على السواء. بيد أنني وجدت هذا الإجراء غير عادل، ومع أنني لم أكن فرنسيا، فإنني ألغيته بالنسبة للفرنسيين، وإن رحت أتقاضى حقي - في غير تساهل - من كل من عداهم. فلما أرسل لي المركيز "سكوتي" - شقيق الشخص الذي كانت له الحظوة لدى ملكة "إسبانيا" - يطلب يوما جوازا، دون أن يرسل لي "السيكان"، فطالبته به، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالي المفطور على الانتقام. ومنذ أن أصبح هذا الإصلاح الذي أدخلته على رسوم الجوازات معروفا، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلي الجنسية الفرنسية، الذين يزعمون - في رطانة محتملة - أن هذا من إقليم "بروفانس"، والآخر من "بيكار"، والثالث من "بيرجندي". ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا، فإنني لم أكن أخدع قط، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبني "سيكاني"، أو أن فرنسيا واحدا دفعه لي. وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دي "مونتيجي" - الذي لم يكن يعلم شيئا عن أي شيء! - بما فعلت. فإذا كلمة "سيكان" تجعله يفتح أذنيه، وبدون أن يبدي لي رأيا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين، طلب أن أسوي معه الحساب بشأن الآخرين، واعدا إياي بمنافع في مقابل ذلك!..

ورفضت اقتراحه عن احتقار؛ لضعته أكثر مني عن تأثر من أجل مصلحتي، وألح عليّ، فإذا بغضبي يحتدم، وقلت في تحمس شديد: "لا يا سيدي.. إن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك، ودع لي ما هو حقي، فلن أنزل عن "صو" واحد منه!". وإذ رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة، عمد إلى وسيلة أخرى، ولم يخجل من أن يقول إنني ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان. ولم أشأ أن أجادل في هذا الأمر، ومن ذلك الحين أخذت أبتاع من مالي المداد، والورق، وشمع الأختام، وشمع الإضاءة، والأشرطة، وما إلى ذلك.. حتى خاتم الدولة الذي أصلحته، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا..! ولم يحل دون أن أعين جزءا صغيرا من إيراد عملية الجوازات للراهب دي "بيني"، الذي كان شابا طيبا، والذي كان أبعد من أن يطلب لنفسه

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية - في ذلك الحين - أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية، عن طريق مندوبين يوفدهم إليهم، ويبعثون بوفدهم السفراء إليه. وقد كان مجلس الشيوخ - في بعض نظم الحكم - ذا سلطة تنفيذية. وهكذا كان في البندقية. (٢) السيكان: عملة تتراوح قيمتها ٩ و ١٢ فرنكا.

شيئا من هذا القبيل. وإذا كان قد تلطف نحوي، فإنني لم أكن أقل كرما نحوه، ومن ثم فقد عشنا معا في وئام على الدوام.

*****

ولقد وجدت عملي - إذ مارسته - أقل إرهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه في شيء، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل - وكأنما كان يسر بهذه العرقلة - كل ما كان يلهمنيه الإدراك السليم وبعض أضواء المعرفة لاتقن خدمته وخدمة الملك!..
وكان أكثر أعماله انطواء على إدراكي، هو ارتباطه بالمركيز دي "ماري"، سفير "إسبانيا"، الذي كان بارعا، أريبا، وكان بوسعه أن يقوده من أنفه إلى حيث شاء، لولا أنه - نظرا لارتباط مصالح التاجين - كان يمحضه عادة خير النصح، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصح، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ!.. وكان الشيء الوحيد الذي لمشتركا في عمله، هو إغراء البندقيين بالتزام الحياد.
وكان هؤلاء لا يكفون عن ادعاء الأمانة في صون الحياد، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمسويين - علانية - بالذخائر، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم.. أما السيد دي "مونتيجي" - الذي اعتقد أنه كان يبغي إرضاء الجمهورية (١) - فلم يكن يتوانى، بالرغم من بياناتي عن أن يحملني على أن أؤكد في كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقا. وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرانني إلى أن أكتب وارتكب - في كل لحظة - سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيها، مادامت هذه رغبته، ولكنها كانت - في بعض الأحيان - تجعل أداء واجباتي أمرا لا يطاق.. بل أمرا غير ميسور عمليا!.. مثال ذلك: أنه كان يصر إصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك، ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة!.. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة - الذي كانت رسائل البلاط تصل فيه - ويوم السبت - الذي كانت رسائلنا تصدر فيه - لكتابة هذه بالشفرة، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التي كان عليّ أن أعدها ليحملها البريد في اليوم ذاته. فابتكر لذلك خطة بديعة، تلك هي أن أعد - في يوم الخميس - ردود الرسائل التي يكون مقدرا لها أن تصل في اليوم التالي!.. ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة - بالرغم مما وسعني أن أقوله عن استحالة، بل وسخف، تنفيذها - حتى إنه حتم اتباعها، فلم أكن أخفق قط، طيلة المدة التي مكثتها معه بعد ذلك - في أن أحمل إليه في صباح يوم الخميس، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التي كان يلقيها في مناسبات عابرة خلال الأسبوع، والتي كنت أسجلها في مفكرتي، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التي كنت التقطها من هنا وهناك؛ لأتزود بها في هذه المهمة العجيبة!.. أقول إنني لم أخفق قط في أن أتقدم إليه في صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التي ينبغي تصديرها في يوم السبت، فيما عدا بعض إضافات، أو تعديلات كنت أؤديها في عجلة، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة، والتي كانت رسائلنا تعتبر ردا لها!

وكانت له نزوة أخرى، غاية في الطرافة، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها: تلك هي إرسال كل نبأ إلى مصدره، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادي.. فكان يرسل الأنباء الواردة عن البلاط إلى السيد "أميلو" (٢)، وتلك الواردة عن "باريس" إلى السيد دي "موريبا"،

---

(١) حكومة جمهورية البندقية. (٢) كان السيد "أميلو" وزيرا للخارجية، وكان البلاط هو مقر منصبه.

وتلك المتعلقة بـ"السويد" إلى السيد "دافرينكور"، وتلك الخاصة بـ"بطرسبورج" إلى السيد "ديلاشيتاردي".. بل إنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الورادة منه هو بالذات، والتي كنت اجري تعديلات طفيفة عليها!.. ولما كان قد أعتاد ان يلقي نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها - دون بقية ما كنت احمله إليه ليوقعه - فإنه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون ان يقرأها مما جعلني أكثر مقدرة على ان اصوغ هذه الاخيرة وفقا لمزاجي، أو - على الاقل - ان ابدل من الأنباء، فلا اوجه لكل منهم عين الأنباء التي سبق أن أرسلها!

.. بيد انه كان من المستحيل علي ان اصوغ الرسائل الهامة في اسلوب معقول، بل إنني كنت اعتبر نفسي سعيدا، إذا لم يخطر بباله ان يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحي افكاره. فقد كان هذا يضطرني إلى العودة إلى نسخ الرسالة التي زانها بهذه السخافة الجديدة. السخافة التي كان لابد من تكريمها بنسخها - بسرعة - بالشفرة، إذ إنه لم يكن يوقع الرسالة بدونها!.. ولقد راودني الإغراء عشرين مرة - مراعاة لسمعته - بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذي قاله، ولكني كنت ادرك انه ليس ثمة ما يبيح لي إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الامانة، فكنت ادعه يهذي على مسؤوليته، قانعا بان اصارحه برايي، وبان أؤدي الواجب المفروض علي نحوه!

*****

وهذا ما حرصت على ان افعله دائما بامانة، وجلد، وحمية كانت تستحق جزاء غير ذلك الذي تلقيته في النهاية.. كان قد حان لكي أكون - ولو لمرة واحدة - كما هياتني السماء التي انعمت عليّ بفطرة طيبة، وكما اهلتني التربية التي تلقيتها على ايدي افضل النساء تلك التي اتخذتها لنفسي.. وهذا ما حدث فعلا!. فقد كنت وحيدا، بلا اصدقاء ولا ناصحين، وبلا تجربة، في بلد أجنبي، وفي خدمة امة اجنبية، وفي وسط ثلة من الانذال الذين كانوا يستحثونني على ان احذو حذوهم في سبيل مصلحتهم، ومن اجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم.. على انني بدلا من ان افعل اي شيء من هذا القبيل، اخلصت الخدمة لـ"فرنسا" - التي لم اكن مدينا لها باي واجب - وكنت اكثر إخلاصا في خدمة السفير في كل مكان موكولا إليّ، كما ينبغي ان يقال بحق!.. وإذ لم يكن ما يؤخذ عليّ في منصب كهذا، جد مكشوف للانظار المتطلعة، فقد استحققت وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١)، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل، وحب كل الفرنسيين المقيمين في "البندقية". ولم يشذ عن ذلك القنصل الذي خلفته - للأسف - في المهام التي كنت ادرك انها من حقه، والتي جلبت عليّ من المتاعب اكثر مما جلبت من السرور!

وإذ انصاع السيد دي "مونتيجي" دون تحفظ للمركيز دي "ماري" - الذي لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسي - اهمل هذه الواجبات إلى درجة انه لم يكن من المحتمل ان يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في "البندقية" - ان لـ"فرنسا" سفيرا مقيما في المدينة، لولاي أنا!.. ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فإنهم اصبحوا يزدرونه، ولم ير واحد منهم قط في معيته، او على مائدته، التي لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها إطلاقا.

وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقي اداء ما كان ينبغي على رئيسي أن يؤديه، وأؤدي للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه او إليّ أنا - كل ما كان في طوقي من خدمات. ولقد كنت خليقا بان افعل

---

(١) حكومة جمهورية البندقية.

فوق ما كنت أفعل، لو أنني كنت في أي بلد آخر.. ولكنني لم أكن أملك - بحكم منصبي - أن أقابل أي شخص من ذوي النفوذ، فكنت كثيرا ما أضطر إلى أن ألجأ إلى القنصل.. وكان لدى القنصل من دواعي الحذر - نظرا لاستقراره مع أسرته في البلد - ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى.. على أنني كنت أجسر أحيانا - عندما أراه صامتا لا يجرؤ على الكلام - على الإقدام على تصرفات خطرة، قدر لي التوفيق في كثير منها. وإني لأذكر مغامرة منها، لا تزال ذكراها تحملني على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد، أن رواد المسرح بـ"**باريس**" مدينون لي بـ"**كورالين**" وأختها "**كاميي**"، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا. فلقد تعاقد "**فيرونيز**" - أبوهما - على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية. وبعد أن تسلم ألفي فرنك لنفقات الرحلة، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح "**سان لوك**" (١) بـ"**البندقية**"، حيث اجتذبت "**كورالين**" - برغم أنها كانت لاتزال طفلة - كثيرا من الناس. فكتب السيد الدوق دي "**جيفر**" الأمين الأول للديوان الملكي - إلى السفير مطالبا بالأب وابنتيه، وسلمني السيد دي "**مونتيجي**" الخطاب، وكانت كل التعليمات التي زودني بها، هي: "انظر هذا الأمر".

فذهبت إلى السيد "**لوبلون**"، ورجوته أن يخاطب السيد الذي كان يمتلك مسرح "**سان لوك**"، والذي كان من أعضاء مجلس الشيوخ - ويدعى، على ما أظن، "**جستنياني**" - فيقنعه بأن يسرح "**فيرونيز**"، الذي كان متعاقدا لخدمة الملك. ولم يكون "**لوبلون**" متحمسا للمهمة، فأساء أداءها، وتعلل "**جستنياني**" بمختلف الحجج، فلم يسرح "**فيرونيز**". واغتظت.. وكنا في "**الكرنفال**"، فاستقللت زورقا وقد تقنعت، وذهبت إلى قصر "**جستنياني**". وبهت كل من رآني في جندولي وأنا في ثيابي الرسمية، إذ إن "**البندقية**" لم تر شبيها لهذا العمل من قبل. ودخلت القصر، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على أنني "السيدة ذات القناع"، وما إن دخلت عليه، حتى أزحت قناعي، وأعلنت اسمي، فامتقع وجه عضو الشيوخ، وجمد مشدوها. وإذ ذاك قلت له في لهجة أبناء **البندقية**: "سيدي، يؤسفني أن أزعج سعادتك بزيارتي، ولكن في مسرح "**سان لوك**" - التابع لك - رجلا يدعى "**فيرونيز**"، تعاقد على خدمة الملك، وقد طالبت به دون جدوى؛ لذلك جئت أطالب به باسم صاحب الجلالة!". وأحدث هذا القول - على إيجازه - أثرا. فلم أكد أنصرف، حتى هرع صاحبنا إلى محققي الدولة القضائيين، الذين أوضحوا الموقف، ففصل "**فيرونيز**" في اليوم ذاته. وكان أن أوفدت إلى هذا من أنذروه بأنه إذا لم يرحل في خلال أسبوع، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه.. ومن ثم رحل!

*****

وفي مناسبة أخرى، أنقذت ربان سفينة تجارية من مأزق، بجهودي وحدها، ودون معونة أي شخص تقريبا.

وكان الربان من أبناء "**مارسيليا**"، ويدعى "**أوليفييه**"، وقد نسيت اسم السفينة، فقد تشاجر ملاحوه مع "**الاسكلافونيين**" (٢) الذين كانوا في خدمة الجمهورية. وكان من جراء الشغب الذي ارتكب أن احتجزت السفينة، وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا - سوى الربان - لم يكن يملك أن يصعد إليها أو يغادرها دون إذن.

---

(١) أضاف روسو إلى هذا قوله: "لست واثقا من أنه لم يكن مسرح "سان صمويل"، فإن الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتي تماما". (٢) أبناء بلاد الكرواتيين.

ولجأ الربان إلى السفير، الذي صرفه في جفاء، فلجأ إلى القنصل، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية، وأنه لا يملك التدخل. وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك، جاءني فأوضحت للسيد دي **"مونتيجي"** أن عليه أن يسمح لي بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ. ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لي، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة، وإنما أذكر تماما أن المساعي التي بذلتها لم تنته إلى شيء، وظل التحفظ قائما، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة في رسالة إلى السيد دي **"موريبا"**، وإن لقيت عناء كبيرا في إقناع السيد دي **"مونتيجي"** بأن يجيز هذا البيان. وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح في **"البندقية"** - برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء - إذ كنت أملك الدليل على ذلك، فمثلا في الفقرات التي اعتدت أن أجدها منقولة بالنص في الصحيفة الرسمية.. وهو لون من عدم الأمانة، حاولت عبثا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه. وكانت غايتي من الحديث عن هذا الحادث المكدر في الرسالة، هي أن أستغل فضول سلطات البندقية، لكي أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة.. فإن الربان كان مسوقا إلى الإفلاس قبل أن يصدر رد البلاط على هذه المسألة، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد. بل إنني أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لاستجوب الملاحين، واصطحبت الراهب **"باتيزيل"** - كاتم أسرار القنصل - الذي لم يأت إلا كارها.

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ. ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة؛ بسبب الحظر المفروض، فقد بقيت في جندولي، وقمت بالتحقيق من هناك، موجها أسئلتي بصوت مرتفع، وإلى كل الملاحين تباعا، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعي إجابات في صالحهم. ولقد حاولت أن أحمل **"باتيزيل"** على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه، وهو أمر كان من مهامه - في الواقع - أكثر مما كان من مهامي، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا، ولم ينبس بكلمة واحدة، بل إنه كاد يأبى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا.. على أن هذه الخطة - المنطوية على شيء من الجراءة - كانت موفقة للغاية، فأفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل. وأراد الربان أن يقدم لي هدية، فقلت له وأنا أدق كتفه، دون أن أبدي أسياء: كابتن **"أوليفيه"**، أتظن أن رجلا لا يتقاضى من الفرنسيين رسم الجوازات - وهو حق مقرر له - يرضى أن يتقاضى ثمن حماية الملك؟".. ورغب الربان في أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة - على الأقل - فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة **"الإسبانية"**، المدعو **"كاريو"** - وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة **"الإسبانية"** في **"باريس"**، وقائما بالأعمال فيها.. وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود، تماثل تلك التي كانت بين سفيرينا!

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا، لو أنني عرفت - إذ رحت أفعل كل ما وسعني من خير، في أتم تجرد من المصلحة الذاتية - كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة؛ حتى لا أغدو مستغفلا، فأخدم الغير على حساب مصالحي!.. ولكن أتفه الأخطاء في منصب - كذاك الذي كنت أشغله - لا تمر دون تبعات، ومن ثم فقد كنت أستنزف كل انتباهي في الجهد لتفادي أية أخطاء مضادة لعملي.

******

ولقد كنت - في كل ما يتعلق بواجبي الرئيسي منظما إلى أقصى درجات النظام، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقة.

وفيما عدا بضعة اخطاء اضطرني التعجل المفرط إلى ارتكابها في صوغ الشفرة - وقد اشتكى منها معاونو السيد "اميلو" ذات مرة - لم يأخذ علي السفير، او اي امرىء سواه، إهمالا في اداء اي واجب من واجباتي، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال، وشديد التهور مثلي.. بيد انني كنت اغفل واهمل في تصرفي في المسائل الخاصة التي كنت آخذها على عاتقي - احيانا - فكان حب الإنصاف يجعلني أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسي، قبل ان يفكر اي امرئ في ان يشكو منه!.. ولن اذكر - في هذا المجال - سوى حادث واحد، كان له اثر في رحيلي عن "البندقية"، وقدر لي ان اشعر بآثاره - بعد ذلك - في "باريس"!

ذلك ان طاهينا - وكان يدعى "روسيلو" - احضر من "فرنسا" سندا قديما بمائتي فرنك، كان أحد صناع الشعر المستعار - من اصدقائه - قد تسلمه من نبيل بندقي يدعى "جانيتو ناني"، في مقابل قلنسوات من الشعر المستعار.

واحضر لي "روسيلو" هذا السند، ورجاني ان احاول عمل اي شيء بصدده، بالإجراءات السليمة. وكنت اعرف - كما كان يعرف هو الآخر - ان العادة التي كانت متبعة لدى نبلاء "البندقية"، هي الا يدفعوا قط اية ديون تحملوهافي الخارج ماداموا قد عادوا إلى وطنهم. فإذا بذل اي سعي لقسرهم على الدفع، ارهقوا الدائن التعس بالإرجاء الطويل المتكرر، وبالنفقات، حتى تثبط عزيمته، ولا يلبث أن يعدل - في النهاية - عن المطالبة، او يقبل اية تسوية ضئيلة!. ورجوت السيد "لوبلون" ان يتحدث إلى "جانيتو" فاعترف هذا بالورقة، ولكنه ابى ان يدفع قيمتها. وبعد كفاح طويل، وعده بان يدفع ثلاثة "سيكانات". فلما حمل إليه "لوبلون" السند، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة، فلم يكن ثمة بد من الانتظار.. وفي خلال هذه المهلة، دب الخلاف بيني وبين السفير، فخرجت من خدمته. وقد تركت اوراق السفارة في اتم نظام، ولكن سند "روسيلو" لم يوجد بينها قط. واكد لي السيد "لوبلون" انه كان قد رده إليّ، وكنت اعرف انه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك، ولكنني عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند.

ولما كان "جانيتو" قد اقر بالدين، فقد رجوت السيد "لوبلون" ان يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة في مقابل إيصال، او ان يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة اخرى منه، ولكن "جانيتو" رفض الأمرين، إذ علم بضياع السند.. فعرضت على "روسيلو" السيكانات الثلاثة - من جيبي الخاص - كسداد للسند، ولكنه أبى أن يأخذها، واخبرني بان اسوي الأمر مع الدائن الباريسي، الذي أعطاني عنوانه. ولكن صانع الشعر المستعار، طالب بسنده او بدينه كاملا، إذ علم بما حدث. فما الذي كنت اضن به - في سورة غيظي - في مقابل العثور على هذا السند اللعين؟!.. ودفعت المائتي فرنك من مالي، في وقت كنت فيه في اشد الضيق المالي. وهكذا كان ضياع الوثيقة سببا في حصول الدائن على دينه كاملا، في حين أنه لو كان قد تسنى - لسوء حظه - العثور على السند، لوجد عناء في انتزاع العشرة "ايكو" (١) الموعودة من صاحب السعادة "جانيتو ناني"!

ولقد جعلتني المقدرة - التي استشعرتها في نفسي - على اداء عملي، مفعما بالميل إليه.. وفيما عدا صحبتي لصديقي "كاريو"، وللفاضل "التونا" - الذي لن البث ان اتحدث عنه - وفيما عدا بعض الوان الترويح البريئة - التي تمثلت في التردد على ساحة "سان مارك"، وعلى المسرح - وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا في اغلب الأحيان.. فيما عدا ذلك، كانت واجباتي هي الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة. ومع ان عملي لم يكن شاقا اكثر مما ينبغي، لا سيما إزاء العون الذي كنت ألقاه من الراهب دي "بيني"، إلا ان

---

(١) العشرة ايكو تعادل في قيمتها السيكانات الثلاثة.

مراسلاتنا كانت كثيرة جدا، كما اننا في فترة حرب! ومن ثم فلم تكن تعوزني الشواغل، بل كنت اقضي شطرا كبيرا من النهار في العمل - في كافة الأيام - كما انني كنت أعمل، في أيام البريد، إلى منتصف الليل أحيانا. وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التي شرعت في ممارستها، والتي كنت - على ضوء البداية الناجحة - أعول كثيرا على ان ابلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد.. والواقع انه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عني لدى الجميع، ابتداء من السفير الذي كان راضيا عن خدماتي رضاء تاما، فلم يشك منها قط.. وما جاء كل الغضب - الذي ثار فيما بعد - إلا عن انني حين وجدت شكاياتي لا تلقى اذنا سامعة، طلبت إعفائي من العمل. وكان كل سفراء الملك ووزرائه - الذين كنا على تراسل معهم - يهنئونه على كفاءة سكرتيره، وهو ما كان يجب ان يثير اعتزازه، ولكنه أحدث اثرا عكسيا في راسه سيئ التفكير. وكانت بين هذه التهاني واحدة بالذات، تلقاها في ظرف حرج، فلم يغتفرها لي قط. وهي جديرة بان اتكبد عناء شرحها.

وذلك انه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه، حتى إنه في يوم السبت ذاته - وهو يوم إرسال كل الرسائل تقريبا - لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهي العمل، وإنما كان يطلب - باستمرار متعجلا - رسائل الملك والوزراء، ليوقعها في عجلة، ثم يهرع إلى حيث لم اكن ادري، تاركا معظم الرسائل الاخرى بدون توقيع، مما كان يضطرني - عندما لا تكون هناك سوى اخبار عادية - إلى ان اصوغها في قالب نشرات الأخبار.. اما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل، فكنت اتولى توقيعها بنفسي. وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد "**فانسان**"، القائم باعمال الملك في "**فيينا**". وكان ذلك في الوقت الذي سار فيه الأمير "**لوبكوفيتش**"، زاحفا على "**نابولي**"، والذي قام فيه الكونت دي "**جاج**" بتقهقره الذي لا ينسى، والذي كان اروع عمل عسكري في القرن كله، وكان حديث "**أوروبا**". وكان النبا الذي بلغنا، هو ان رجلا - ارسل إلينا السيد "**فانسان**" اوصافه - كان قد غادر "**فيينا**"، معتزما المرور بـ"**البندقية**"، قاصدا - متخفيا - "**بروتسي**"؛ ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب "**النمسويين**". ونظرا لغياب السيد دي "**مونتيجي**" - الذي لم يكن ليهتم بشيء - فإنني ارسلت إلى السيد المركيز "**ديلوبيتال**" هذا النبا الذي كان في وقته المناسب، حتى ليحتمل ان يكون آل "**بوربون**" مدينين إلى "**جان جاك**" المغبون بفضل الإبقاء على مملكة "**نابولي**"!

وإذ شكر المركيز "**ديلوبيتال**" زميله - كما كان ينبغي - امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التي اداها للقضية المشتركة، فإذا الكونت دي "**مونتيجي**" - الذي كان جديرا بان يلوم نفسه على إهماله في هذه المسالة - يخال انه يلمح لوما خلال هذه التهنئة، فحدثني عنها في استياء. وكنت قد اقدمت على ان افعل مع الكونت دي "**كاستيلان**" - السفير الفرنسي في "**القسطنطينية**" - ما فعلته مع المركيز "**ديلوبيتال**"، وإن كان النبا اقل اهمية. وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى "**القسطنطينية**" سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من وقت إلى آخر إلى "**بايله**" (٢)، فقد كان السفير الفرنسي ينبا بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا راى داعيا لذلك. وكان هذا الإخطار يصدر قبل الرحيل بيوم او اثنين، ولكن السيد دي "**مونتيجي**" لم يكن يلقى اعتبارا كافيا، ومن ثم فقد كانوا يكتفون بإخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين، لمجرد مراعاة الشكليات!..

وكان هذا يضطرني - في كثير من المرات - إلى ان اعد الرسالة في غياب السفير. وكان السيد

---

(١) "جان جاك روسو" نفسه. (٢) "البايل": لقب سفير "البندقية" في "القسطنطينية".

"كاستيلان" يذكرني – في رده – بعبارة التكريم، وكذلك كان السيد دي "جونفيي" – في "جنوا" – يفعل، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما في شخصي، سببا لخلافات جديدة..

*****

واعترف بانني لم احاول ان اتحاشى فرصة التعريف بنفسي ولكنني لم اكن أسعى إلى ذلك في غير المناسبات اللائقة.

وكان يبدو لي ان الإنصاف يبيح لي – إذ أحسن الخدمة – ان اطمع في الجزاء الطبيعي للخدمات الطيبة، الا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها، ومنح الجزاء عنها.

ولست أملك ان اقول ما إذا كانت دقتي في أداء مهامي كانت – في نظر السفير – سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج، ولكن الذي املك ان اقوله هو ان هذه الشكوى كانت هي الشكوى الوحيدة التي اعتاد ان يرددها إلى يوم فراقنا!

وكانت داره – التي لم يكن يحسن إدارتها إطلاقا – مليئة بالسفلة: كان الفرنسيون يلقون هناك أسوا معاملة، بينما كانت "للإيطاليين" المكانة العليا.. وحتى فيما بين هؤلاء، كان الموظفون الصالحون الذين ألحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة يطردون في غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الاول للسفير، الذي شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دي "فرولاي"، والذي كان يدعى – على ما أعتقد – الكونت "بياتي"، أو ما يقرب من هذا الاسم.. اما المستشار الثاني – وكان السيد دي "مونتيجي" هو الذي اختاره بنفسه – فكان شقيا من "مانتوي"، يدعى "دومينيك فيتالي"، وقد عهد إليه السفير بشؤون داره، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس ان يكتسب ثقته، ويغدو أثيرا له، مما اضر بمن كان قد ظل بالدار من امناء قلائل، وبالسكرتير الذي كان على راسهم.. وعين الرجل الشريف امينا له وكان يثير دائما قلق اللئام. وقد كان هذا وحده كافيا لان يجعل هذا الرجل يكرهني، بيد ان كراهيته كانت ترجع – كذلك – إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير. ولابد لي من ان اعلن هذا السبب، ولكم ان تدينوني إذا كنت مخطئا!

ذلك انه كان للسفير – وفقا لتقليد راسخ منذ امد طويل – مقصورة في كل من المسارح الخمسة. وكان يعين – على مائدة الغداء، في كل يوم – المسرح الذي يعتزم الذهاب إليه، فكنت انا الذي يليه في الاختيار، على ان ياخذ المستشارون المقصورات الاخرى. وكنت آخذ – عند انصرافي – مفتاح المقصورة التي اخترتها. ففي ذات يوم، لم يكن "فيتالي" – الذي كان يحتفظ بالمفاتيح – موجودا، فعهدت إلى ساع كان في خدمتي، بان يحضر لي مفتاحي في دار عينتها له. ولكن "فيتالي" لم يرسل المفتاح، بل قال إنه قد تصرف في شانه. ومما زاد من غيظي، ان الساعي ادلى بهذا النبا امام الملا. فلما كان المساء حاول "فيتالي" ان يتقدم ببضع كلمات يعتذر بها، ولكنني لم انصت إليه، بل قلت له: "تعال غدا ايها السيد، فقلها في نفس الساعة، وفي نفس الدار التي تلقيت انا الإهانة فيها، وأمام الناس الذين شهدوها.. وإلا، فسوف اطالب بعد غد – ومهما يكن ما يحدث – بان يغادر احدنا هذه السفارة!". وافحمته لهجتي الحاسمة، فجاء إلى الدار في الساعة المحددة، واعتذر علانية، في صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل.

وبينما كان يبدي لي احتراما بالغا، راح يعمل على شاكلة "الإيطاليين" (١) ومع انه لم يستطع

---

(١) يقصد الدس في الخفاء، والنميمة وما إليهما من اساليب.

أن يحمل السفير على فصلي، إلا أنه اضطرني إلى أن أستقيل من تلقاء نفسي!

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفني، ولكنه عرف ما كان يخدم أغراضه.. عرف أنني كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة، وأنني من الكبرياء بحيث لا أحتمل الإهانات المتعمدة، وأنني أحب التواضع والوقار في المناسبات الملائمة، وأنني لم أكن أقل حرصا على ما ينبغي لي من تكريم، مني على أداء ما هو واجب عليّ منه للغير.. وهذا ما استغله ووفق بفضله إلى مضايقتي. فقد قلب السفارة رأسا على عقب، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول، وترتيب المراكز، والدقة، والنظام. والبيت إذا خلا من امرأة، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار. أما هذا الرجل، فإنه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور، ووكرا للأنذال والفاسقين. وخلع منصب المستشار الثاني (١) على قواد (٢) مثله، كان يمتلك دارا للدعارة في **"كروادي مالت"** - صليب **"مالطة"** - فكان هذان اللئيمان في وئام تام، وعلى وقاحة تعادل فجورهما!.. فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف، فيما عدا غرفة السفير وحدها.. بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغي!

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألا يتناول عشاء قط، فقد كانت تمد لنا - المستشارين وأنا - مائدة خاصة في المساء، يجلس إليها الراهب دي "بيني" والسعاة كذلك. وكان المرء حريا بأن يلقى في أحقر المطاعم خدمة أكرم، وأدوات للمائدة أنظف، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك!.. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء، وصحاف من القصدير، وشوكات من الحديد. ولقد كنت خليقا بأن أتحمل ما كان يدور في السر، لولا أنني حرمت من جندولي، فأصبحت الوحيد - بين سكرتيري السفراء - الذي يضطر إلى أن يستأجر جندولا، أو أن يسير على قدميه. ولم يكن يرافقني - إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ - سوى خدم صاحب السعادة السفير (٣). وإلى جانب هذا، كان كل ما يحدث في السفارة لا يخفى على أهل المدينة، فقد كان كل موظفي السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء. وكان **"دومينيك"** - السبب الأوحد في كل هذا - هو أكثرهم إمعانا في رفع صوته!..

فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التي كنا نلقاها، إنما كانت تمسني أكثر مما تمس سواي. وكنت الوحيد - من موظفي الدار - الذي يتورع عن الكلام خارجها، ولكنني كنت أرفع صوتي بالشكوى للسفير.. لا مما كان يجري فحسب، بل منه هو نفسه كذلك، إذ كان - بفضل التحريض الخفي من مستشاره الخبيث - يوجه إليّ في كل يوم إهانة جديدة. ولما كنت مضطرا إلى الإنفاق عن سعة لكي أظهر في مستوى أقراني، وفي مظهر يليق بمنصبي، فإنني لم أستطع أن أدخر "سو" واحدا من مخصصاتي، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودا، راح يحدثني عن تقديره وثقته، وكان هذا كافيا لأن يملأ جيبي، ولأن يمدني بكل حاجاتي!

*****

وانتهى هذان الشقيان (٤) إلى أن عبثا برأس سيدهما الذي لم يكن سليم التفكير أصلا، فقاداه إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بأنها تحف أثرية. كما

---

(١) إذ إنه خلف الكونت "بيالي" في منصب الأمين الأول. (٢) في الأصل الفرنسي... Maq . (٣) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائبا عن السفير، حاجب رفيع الدرجة ومستشار. (٤) المستشاران الإيطاليان.

حملاه على ان يستاجر قصرا - في "بوينتا" - باجر يعادل ضعف قيمته، واقتسما الفرق مع المالك. وكانت الغرف مبطنة بالقيشاني، ومزدانة باعمدة واركان من اجمل أنواع الرخام، وفقا للطراز الذي كان شائعا في البلاد. ولقد عمد السيد "مونتيجي" إلى تغطية كل هذه الزخارف، بالواح من خشب الصنوبر، متعللا بحجة عجيبة، هي ان هذا هو الذي كان متبعا في الدور الباريسية!.. ولحجة أخرى كهذه، كان هو السفير الوحيد - في "البندقية" - الذي جرد سعاة سفارته من السيوف، وخدمه الخصوصيين من العصي.. هكذا كان الرجل الذي راح يكرهني، لمجرد أنني كنت اخدمه بامانة. ولعله كان صادرا في ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذي حمله على التصرفات السالفة الذكر!

ولقد كنت احتمل صابرا تصرفاته المهينة، وقسوته، وسوء معاملته، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التي جبل عليها، دون أن احسبها صادرة عن كراهية. ولكنني لم أكد اتبين ان الخطة كانت مرسومة لحرماني من الاعتبار الذي كنت استحقه بفضل خدماتي الصادقة، حتى عقدت العزم على ان استقيل من منصبي. وكان اول دليل تلقيته على سوء نيته، هو ذاك الذي حدث بمناسبة مادبة كان عليه ان يقيمها للسيد الدوق دي "موديني" واسرته، عندما حلوا بـ"البندقية".

فقد انباني بانه لن يكون لي محل في تلك المادبة. فاجبته مستاء - ولكن في غير غضب - بانني قد اعتدت ان احظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا، فإذا ابدى السيد الدوق دي "موديني" - عند مجيئه - أنني يجب ان اغيب عن المائدة، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة "السفير"، ومن الواجب عليّ، الا انصاع لهذه الرغبة. فقال في حدة: "ماذا؟!.. ايطالب سكرتيري - وهو لم يبلغ مرتبة المستشار - ان يتناول الغداء مع عاهل، في حين ان مستشاري لن يحضرا المادبة؟!". فاجبت: "اجل ياسيدي، فإن المنصب الذي شرفتني سعادتك به، يرفع مقامي - طالما كنت اشغله - إلى درجة تجعل لي الأولوية حتى على مستشاريك، او اولئك الذين يقال عنهم إنهم مستشاروك، ومن ثم فإن لي حق الحضور في مناسبات ليس لهم ان يحضروها. وانت لا تجهل ان التقاليد الرسمية، والعرف المتبع من زمن ابعد من ان يذكر، تحتم علي - في اليوم الذي تحضر فيه التشريفات الرسمية - ان أتبعك في ثياب التشريفة، وان احظى بحضور مآدب قصر "سان مارك" معك. ولست ادري كيف لا يجوز للشخص الذي يجلس في مادبة عامة مع "الدوج" (١) ومجلس شيوخ "البندقية"، ان يجلس مع السيد الدوق "موديني" بالذات، إلى مائدة واحدة؟!". ومع ان حجتي كانت فوق كل رد، إلا ان السفير لم يسلم بها. غير اننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع. إذ إن السيد الدوق دي "موديني" لم يات للغداء على مائدته قط!

*****

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتي، وعن امتهان حقوقي، مغتصبا الامتيازات البسيطة التي تتعلق بمنصبي، فكان يجردني منها ليخلعها على عزيزه "فيتالي".

وإني لواثق بانه لو استطاع ان يجرؤ على إيفاده - بدلا مني - إلى مجلس الشيوخ، لفعل. وكان يستخدم الراهب دي "بيني" عادة، لكتابة خطاباته الخاصة في حجرة مكتبه، فعهد إليه بان يكتب إلى السيد دي "موريبا" تقريرا عن مسالة الربان "أوليفييه"، لم يذكرني فيه البتة، مع انني كنت الوحيد الذي تدخل في المسالة.. بل إنه أنكر علي شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به - والذي

(١) لقد كان يطلق على رئيس الدولة في البندقية.

أرسل إلى السيد دي "موريبا" نسخة منه - وعزاه إلى "باتيزيل"، الذي لم ينبس ببنت شفة، فلقد أراد ان يغيظني وأن يرضي صاحب الحظوة لديه، دون أن يستغني عني برغم ذلك، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لي، بنفس السهولة التي عثر بها على خليفة للسيد دي "فولو" - سلفي - الذي كان قد أشاع في الخارج فكرة صحيحة عنا!.. ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظرا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ.. لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله، ويدير كل أموره، دون تدخل منه.. سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة، والهوان الذي يجعله يروق للسيدين المستشارين المدللين!.. ومن ثم فقد أراد أن يستبقيني وأن يكيدني في آن واحد، بأن يمسكني بعيدا عن وطني، وعن وطنه، دون ما نقود تمكنني من العودة. ولعله كان جديرا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة. ولكن "فيتالي" كان يرى آراء أخرى، وكان يبغي حملي على الرحيل، وقد وفق في غايته. فما إن تبينت أنني كنت أبدد جهودي، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم، بدلاً من أن يحمدها لي.. وأنني لم يعد لي أن أطمع - طالما ظللت معه - في غير المضايقات في الداخل، وعدم الإنصاف في الخارج.. وأن الأذى الذي كان يحاول أن يلحقه بي قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام.. ما إن تبينت كل هذا، حتى قررت أن استأذنه في أن يعفيني من العمل، مفسحا له الوقت كي يحصل لنفسه على سكرتير. على أنه ظل سادرا في مسلكه، دون أن يجيب بنعم أو لا. فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر، كتبت إلى أخيه، مفصلا كافة البواعث، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحي، مضيفا إلى ذلك أنني لن أمكث في منصبي على أية حال!..

وانتظرت طويلا، دون أن أتلقى جوابا. وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة، عندما تسلم السفير - أخيرا - رسالة من أخيه.

ولابد أنها كانت شديدة اللهجة، إذ إنني لم أره - برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب - في مثل الهياج الذي رأيته فيه إذ ذاك. وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدري ما يقول، فاتهمني بأنني بعت أسرار الشفرة. وأخذت أضحك، ثم سألته في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في "البندقية" بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع "ايكو" واحدا من أجلها. وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا، فهم بأن يدعو أتباعه لكي يلقوا بي من النافذة، كما قال. وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئي، ولكني إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدوري، فاندفعت إلى الباب، وبعد أن دفعت المزلاج الذي يوصده من الداخل، عدت إليه وقلت في لهجة رهيبة: "لا ياسيدي الكونت، لن يتدخل أتباعك في هذه المسألة، فتكرم بتسويتها فيما بيننا!". وهدأ تصرفي ومظهري من سورته في الحال، وتجلت الدهشة والروع على أساريره. فلما رأيته قد تخلى عن هياجه، ودعته بكلمات موجزة، ثم ذهبت - دون أن أنتظر منه جوابا - ففتحت الباب، وخرجت، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه في ثبات، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم، والذين أعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتي منهم لمناصرته. وبدون أن أعود إلى غرفتي. هبطت السلم، وغادرت القصر، فلم أدخله بعد ذلك قط!



وذهبت لفوري إلى السيد "لوبلون"، لانبئه بما حدث، فلم يبد دهشة كثيرة، إذ كان يعرف الرجل، وإنما استبقاني للغداء. وكان هذا الغداء - برغم التعجل في إعداده - بهيجا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوي المكانة، الذين كانوا في "البندقية".

ولم يكن بينهم فرد واحد في صف السفير، فقد روى القنصل حكايتي على الجماعة، وما إن الموا بها حتى صاحوا جميعا في وقت واحد، ولكن في غير صالح صاحب السعادة. ولم يكن هذا قد سوى حسابي، ولا اعطاني "صو" واحدا. ولما كانت كل مواردي لا تتجاوز بضع قطع من فئة "اللوي"، فقد وجدتني في حيرة من امر سفري. وإذا بكل الجيوب تتفتح لي، فاخذت عشرين "سيكان" من السيد "لوبلون"، ومثلها من السيد دي "سان سير"، الذي كنت وثيق الصلة به، وكان يلي القنصل في المكانة من قلبي. ثم شكرت الباقين، وبقيت - إلى ان قدر لي الرحيل - مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية؛ لكي اثبت للرأي العام ان الأمة لم تكن مشتركة في مظالم السفير. ولقد اهاج هذا ان رآني موضع تكريم في محنتي، بينما كان هو - برغم مركزه كسفير - منبوذا، ففقد عقله تماما، واخذ يتصرف كالمخبول. وبلغ من غفلته ان قدم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالي. فلما انبأني بذلك الراهب دي "بيني"، قررت ان ابقى اسبوعين آخرين، بدلا من ان ابادر إلى الرحيل في اليوم التالي، كما كنت اعتزم. وقد درس تصرفي فلقي إقرارا، كما غدوت موضع تقدير عام. ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء، كما انبأتني - عن طريق القنصل - بان لي ان ابقى في "البندقية" ما شئت، دون ان ازعج نفسي بتصرفات رجل احمق! ومن ثم واصلت زياراتي لاصدقائي، وذهبت لاودع السفير "الإسباني" -الذي احسن استقبالي - والكونت دي "فينوكييتي"، وزير "نابلي"، الذي لم اجده، فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من الطف الخطابات. وما لبثت ان رحلت - في النهاية - غير مخلف ورائي اية ديون، برغم ضائقتي، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل، وسوى خمسين "ايكو" كنت مدينا بها لتاجر يدعى "موراندي"، وقد تكفل "كاريو" بدفعها إليه، وإن لم اردها إليه قط، بالرغم من اننا تقابلنا كثيرا بعد ذلك الحين. اما القرضان اللذان تحدثت عنهما، فقد سددتهما كاملين بمجرد ان تيسر لي ذلك.

*****

ولا يجوز ان نترك "البندقية" دون كلمة عن ملاهي هذه المدينة الشهيرة، او على الاقل - عن القسط الضئيل منها، الذي قدر لي ان انعم به اثناء مقامي هناك. ولقد رويت كيف انني - في شبابي - كنت مقلا في السعي إلى ملذات هذه المرحلة من السن، او - على الاقل - المتع التي توصف بانها ملذات.

ولم اغير من مسلكي هذا في "البندقية"، ولكن مشاغلي - التي كانت كفيلة بان تمنعني من اي تغير - جعلت اسباب التسلية البسيطة، التي كنت استبيحها، اكثر إمتاعا. وكانت اولى هذه الاسباب والطفها هي مصاحبة الاكفاء من الناس: السادة "لوبلون"، ودي "سان سير"، و"كاريو"، و"آلتونا"، وسيد "فورلاني" (١) نسيت - لشدة اسفي - اسمه، ولكني لا استطيع ان اذكر لطفه دون ان تتاثر نفسي. ولقد اوتي - دون كل من عرفت من الرجال - اقرب القلوب شبها بقلبي. ولقد ارتبطنا كذلك باثنين او ثلاثة من الإنجليز، واسعي الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى. وكانت

(١) الفورلان اسم يطلق على ابناء منطقة "فريول"، التي يقع جزء منها - الآن - في "النمسا"، وجزء آخر في "إيطاليا". وهناك رقصة باسم "فورلان".

لهؤلاء السادة جميعا زوجات، او صديقات، أو عشيقات. وكن جميعا - تقريبا - نساء موهوبات، تعزف الموسيقى ويجدن الرقص في بيوتهن. وكان لعب الميسر يدور هناك ايضا، ولكن في القليل النادر، إذ إن ميولنا النزاعة، ومواهبنا، وشغفنا بالمسرح، جعلت هذه التسلية - الميسر - عقيمة، فالمقامرة ليست تسلية إلا لاولئك الذين يستبد بهم الضجر!.. وكنت قد حملت معي من "باريس"، التحامل الذي خلقه الشعور القومي ضد الموسيقى الإيطالية، ولكنني كنت قد اوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذي لا يمكن لمثل هذا التحامل ان يصمد امامها. فسرعان ما سرى إلى نفسي ذلك الشغف الذي توحيه الموسيقى الإيطالية إلى اولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها. وإذ سمعت "الباركارول" (١) تبينت انني لم اسمع قبل ذلك غناء!..

وسرعان ما اولعت بالاوبرا ولعا جنونيا، حتى إنني كنت حين اضيق بالثرثرة، والاكل واللعب في المقصورات - في الوقت الذي لم اكن اهفو فيه إلا إلى الإنصات - اتسلل في كثير من الاحيان من رفاقي؛ لاذهب إلى ناحية اخرى من الدار. وهناك كنت اجلس وحيدا في مقصورة مغلقة، واسلم نفسي للذة الاستمتاع بالاداء، برغم طوله، دون أن يزعجني شيء، حتى نهاية السهرة. وفي ذات يوم، استسلمت للنوم - في مسرح "سان كريزوستوم" - فاستغرقت فيه بدرجة لم انعم بها قط في فراشي، ولم تقو الالحان الصاخبة، الرائعة، على إيقاظي، ولكن.. من لي بمن يصف الشعور العذب الذي احدثه في نفسي النغم الناعم والغناء الملائكي اللذان ايقظاني!.. واية يقظة، واي استغراق، واية نشوة تلك التي استشعرتها حين فتحت اذني وعيني في آن واحد!.. كانت اول فكرة واتتني هي انني كنت في الفردوس!.. كانت تلك المقطوعة الرائعة، التي لا ازال اذكرها، والتي لن انساها ما حييت، تبدأ هكذا:

"استحوذت علي الجميلة.. التي اثارت اعماقي (٢). ورغبت في ان احصل على لحن هذه القطعة، وقد ظفرت به، واحتفظت به زمنا طويلا، ولكنه لم يكن على الورق في روعته التي كان بها في ذاكرتي.. كانت الانغام واحدة، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا.. لم يكن من سبيل إلى اداء اللحن بالروعة السماوية التي كان يتردد بها في راسي، والتي كان يؤدى بها في الواقع عندما ايقظني!

اما الموسيقى التي تعتبر - في رأيي - أسمى من موسيقى الاوبرا، والتي لا مثيل لها في "إيطاليا" او في بقية العالم، فهي موسيقى "الأسكوله".. و"الأسكوله" بيوت خيرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائي لا موارد لهن، واللائي تعهدهن الجمهورية بعد ذلك، إما للزواج، وإما للالتحاق بالاديرة.

وللموسيقى المكانة الاولى بين المواهب التي تنمى في هؤلاء الفتيات الصغيرات. ففي يوم الاحد من كل اسبوع، وفي كنيسة كل من هذه "الأسكولات" الاربع، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (٣) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات، ويقوم بتاليفها وتلحينها وإدارة ادائها اكبر الموسيقيين الإيطاليين.. وهي تؤدى في المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المنابر). ويقتصر اداؤها على الفتيات اللائي لا تبلغ اكبر واحدة منهن العشرين من عمرها.. وليس بوسعي أن اتصور شيئا الذ، واعذب، واكثر تاثيرا في النفس من هذه الموسيقى. فإن دسامة الفن، وعذوبة الغناء، وجمال الاصوات، ودقة الاداء.. كل ما في هذه الحفلات الموسيقية البهيجة، يساهم في خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى "جودة الاسلوب"،

---

(١) اغاني نوتية الجندول. (٢) Conservami la bella che si m'accende il cor. (٣) المقطوعات المقصودة "MOtets" وهي مقطوعات موسيقية غنائية دينية، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية.

ولكنني ارتاب في أن ثمة قلبا بشريا في مناعة منه! .. ولم يتخل "كاريو" وإياي قط عن حضور هذه القداسات في كنيسة "المنديكنتي"، ولم نكن الوحيدين في ذلك، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة .. بل إن ممثلي الاوبرا انفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائي مسترشدين بهذه النماذج الرائعة. وكان الشيء الذي يدفعني إلى القنوط، يتمثل في تلك الجدران الخشبية اللعينة، التي لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات، والتي كانت تحجب عني الملائكة اللائي قد أوتين – ولابد – جمالا يليق بهذه الاصوات! .. ولم يكن لي من حديث إلا عن هذا الموضوع، وقد تحدثت فيه يوما، في دار السيد "لوبلون"، فقال: ": إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات، فمن السهل إرضاء شوقك. فإنني من المشرفين على المؤسسة، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة (١) معهن! ".

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده. وإذ دخلت القاعة التي ضمت هؤلاء الجميلات اللائي طال شوقي إليهن. استشعرت رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل. وقدم السيد "لوبلون" إلي هؤلاء المغنيات الشهيرات، اللائي كانت أسماؤهن وأصواتهن هي كل ما عرفته عنهن: "تعالي يا "صوفي" ! " .. إنها بشعة الخلقة! .. "تعالي يا "كاتينا" ! " .. إنها ذات عين واحدة! .. "تعالي يا "بتينا! " .. كان الجدري يشوه وجهها! .. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضحك القاسي من المفاجأة العنيفة التي صادفتني .. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل! .. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات "في كورس"، فتولاني الاسى. وفي أثناء الوجبة الخفيفة، رحنا نداعبهن فإذا المرح يفيض بهن، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التي تبينت وجودها فيهن.

فقلت لنفسي: ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع، ما لم يكن قد أوتين أرواحا سامية .. وكن كذلك فعلا. وأخيرا، تغير رأيي فيهن إلى درجة أنني انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات! .. وجرؤت – في عناء – على العودة إلى حضور قداسهن، وقد تبينت ما طمأنني. وقد ظللت أجد غناءهن عذبا، وأرى أن أصواتهن كانت تضفي على وجوههن بهاء، حتى إنني كنت أصر – ما دمت أسمع غناءهن – على أن أتصورهن جميلات، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناي!

والموسيقى – في "إيطاليا" – لا تكاد تتكلف شيئا يذكر، ومن ثم فإن حرمان النفس منها – إذا كان لدى المرء ميل إليها – لا يكاد يستحق العناء الذي يبذل في سبيل ذلك. وقد استأجرت معزفا، وكنت في مقابل "إيكو" واحد، أستقدم إلى داري أربعة أو خمسة من عازفي الموسيقى الغنائية، أتدرب معهم – مرة في الأسبوع – على عزف القطع التي تكون قد استأثرت بأعظم قدر من إعجابي في "الأوبرا". وكنت أجرب كذلك عزف بعض الألحان الغنائية التي ضمتها "عرائس الشعر الملطاف" (٢) ولقد سألني أستاذ الموسيقى الإيقاعية في "سان جان كريسوستوم" قطعتين منهما – إما لأنه أعجب بهما حقا، وإما لأنه أراد أن يتملقني – فسرني أن أسمعهما تؤديان على أيدي فرقته الرائعة، وأن تؤدي رقصاتهما الصغيرة "بتينا" .. وهي فتاة جميلة، لطيفة كان يرعاها "إسباني" من أصدقائها، يدعى "فاجواجا"، كثيرا ما قضينا السهرات في داره.

*****

أما عن النساء، فليس لرجل أن يعرض عنهن في مدينة كـ "البندقية" ! .. وقد يقال لي: "أليس لديك ما تعترف به في هذا الصدد؟" .. بلى فإن لدي ما يقال فعلا، وإني لمقدم على هذا الاعتراف

---

(١) Gouter "تصبيرة" أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء. (٢) "الأوبرا" التي كان "روسو" قد ألفها في "باريس".

بنفس الصراحة التي فإن لدي اتبعتها في كل اعترافاتي الاخرى.. ولقد كنت دائما انفر من البغايا، بيد انه لم يكن لدي سواهن في "البندقية"؛ إذ كان محرما عليّ و"لوج" معظم البيوت في المدينة، من جراء منصبي. ولقد كانت فتيات السيد "لوبلون" جد لطيفات، ولكن التقرب إليهن كان امرا عسيرا، كما ان احترامي لابيهن وامهن كان اعظم من ان يسول لي مجرد التفكير في اشتهائهن!

ولقد كنت خليقا بان اميل كل الميل إلى شابة تدعى الآنسة دي "كاتاليو"، كانت ابنة مندوب ملك "بروسيا". ولكن "كاريو" كان يهواها، حتى إنه كان يسعى إلى الزواج منها.. ولقد كان ميسور الحال، في حين انني لم اكن املك شيئا.. كان مرتبه مائة "لوي"، اما انا فلم اكن انقاضى سوى مائة "بيستول". وبغض النظر عن انني ما كنت لاستبيح ان اسطو على صيد صديقي، فإنني كنت ادرك ان ليس لرجل خالي الوفاض ان يقدم على التقرب إلى الحسان، اينما يكن.. ولو كن في "البندقية"!.. ولم اكن قد فقدت عادتي المشؤومة، واعني بها استبدال الحاجات التي اصبو إليها. ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لي سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التي يخلقها الجو المحيط بي، فإنني عشت في هذه المدينة عاما تقريبا، وانا محتفظ بما كان لي - في "باريس" - من طهر وحكمة.. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا، دون ان اقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين ساذكرهما فيما يلي:

ولقد اتاح لي اولهما السيد الشريف "فيتالي" (١)، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذي اجبرته على ان يقدمه لي في اكمل صيغة رسمية. فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهي "البندقية"، فاخذ السادة يعتبون علي عدم اكتراثي باشد هذه الملاهي حرارة، ويطنبون في إطراء رقة الغواني البندقيات، قائلين ان ليس في العالم من يضارعهن. وقال "دومينيك" إنني خليق بان اتعرف إلى ابدعهن طرا، وانه يرجو ان يقدمني إليها، وانني ساطرب لمعرفتها. وانطلقت اضحك لهذا الاقتراح المحرج، فإذا بالكونت "بياتي" - وكان كهلا وقورا - يقول في صراحة لم اكن اتوقعها من إيطالي، إنه يؤمن بانني اعقل من ان ادع عدوي يقودني إلى دار غانية. والواقع انني لم استشعر ميلا، ولا تاثرت بإغراء، ولكنني انتهيت بالرغم من ذلك - وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التي لم اكن املك ان افهمها - إلى ان تركت عدوي يقودني، على النقيض من إملاء ميولي، وقلبي، وعقلي، بل وإرادتي.. كنت منساقا لمجرد الضعف والخجل من إبداء عدم الثقة به، ولقد كانت "البادوانا" (٢) التي ذهبا إليها ذات وجه لا باس بحسنه، بل إنه كان جميلا، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذي يروق لي.

وتركني "دومينيك" في دارها، فارسلت في طلب بعض المثلجات "آيس كريم"، وسالتها ان تغني لي، ثم تهيات - بعد نصف ساعة - للانصراف، تاركا على المنضدة "دوكا" (٣)، ولكنها في عزة نفس غريبة - ابت إطلاقا ان تقبل المبلغ دون ان تكون قد ادت ما يقابله.. وفي غباء - لا يقل غرابة - ارضيت عزة نفسها!.. وعدت إلى القصر وانا موقن من انني اصبت بمرض خبيث، حتى إن اول ما فعلت هو ان ارسلت في طلب طبيب، لاطلب منه بعض الادوية. وليس ثمة ما يعادل الغم الذي عانيته طوال ثلاثة اشهر، دون ما علة حقيقية، ودون ظهور اية علامة تبرزه. فما كنت لاتصور ان من الممكن مغادرة احضان غانية دون ما ضرر!.. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره، لكي يطمئنني، فلم يوفق إلا إلى إقناعي بانني كنت مخلوقا على نمط خاص، لا يجعلني اصاب بالعدوى بسهولة. ومع انني قد اكون اقل من اي رجل آخر تعرضا لهذا الخطر، إلا ان عدم تاثر صحتي البتة من هذه الناحية بالذات، يبدو لي دليلا على ان الطبيب كان مصيبا!.. على ان هذا الراي لم يجعلني

---

(١) واضح ان "روسو" يسخر من "فيتالي" إذ يصفه بانه شريف. (٢) الغانية. (٣) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و١٢ فرنكا.

متهورا قط، وإذا كنت قد اوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية، فإن في وسعي ان اقول: إنني لم اسيء استغلالها!

*****

اما مغامرتي الاخرى، فمع انها كانت مع غانية كذلك، إلا انها كانت من نوع جد مختلف، سواء في اصلها او في نتائجها.

فلقد ذكرت ان الكابتن "أوليفييه" - الربان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة، وانني اصطحبت سكرتير السفارة "الإسبانية". وكنت اتوقع ان تحيينا المدافع، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تطلق، مما غاظني كثيرا، بسبب "كاريو"، الذي رأيته مستاء. والواقع ان التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدى لاناس لا يعادلوننا مقاما بالتاكيد، كما انني كنت إخالني جديرا بشيء من التمييز من الربان. ولم استطع ان اخفي ما كان بنفسي، فقد كان ذلك امرا مستحيلا دائما. ومع ان الغداء كان بديعا، وقد ادار "أوليفييه" الانخاب في إكرام رائع، فإنني بدات المادبة وانا منحرف المزاج؛ ومن ثم فقد اكلت قليلا وتكلمت اقل!

وعند احتساء النخب الاول، توقعت تصفيقا على الاقل، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.. وضحك "كاريو" - الذي قرا ما في خاطري - إذ رآني اغمغم كالطفل. وفي ثلث الغداء، رأيت جندولا يقترب، وإذا الربان يقول لي: "لعمري!.. خذ حذرك ياسيدي فها هو ذا العدو!" فسالته عم كان يعني، وإذ ذاك اجاب بدعابة. ورسا الجندول بجوار السفينة، فرايت فتاة باهرة الجمال، بالغة الرشاقة، في ثياب مغربية، تغادره.. وفي ثلاث قفزات كانت في الغرفة. ورايتها تستقر إلى جواري، قبل ان افطن إلى ان ثمة مكانا قد اعد لها!.. وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة.. سمراء في العشرين من عمرها، على الاكثر!.. ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية، وكانت لهجتها وحدها كافية لان تدير راسي. وفيما كانت تاكل وتتكلم، اخذت ترمقني، ثم تفرست في لحظة، وما لبثت ان صاحت: "ياللعذراء الطيبة!.. آه! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزي "بريمون" دون ان اراك!".. وارتمت في احضاني، والصقت فمها بفمي، واحتضنتني حتى كادت تزهق انفاسي!..

وراحت عيناها الواسعتان السوداوان - على غرار العيون الشرقية - ترميان قلبي بشواظ من لهب. ومع ان المفاجاة احدثت شيئا من الاضطراب في البداية، إلا ان غريزتي الشهوية سرعان ما تملكتني - بالرغم من الحضور - إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى ان تكبح جماحي، إذ إنني ثملت، او بالاحرى جننت!.. فلما راتني قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها، خففت من عناقها، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها.. حتى إذا راق لها ان تبدي لنا السبب الحقيقي او الزائف لهذا النزق قالت: لنا إنني كنت اشبه السيد دي "بريمون"، مدير جمرك "توسكاني"، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا.. وإنها كانت - ولا تزال - متيمة بهذا السيد دي "بريمون"، وإنها كانت قد هجرته لحماقتها.. وانها قد اختارتني بديلا عنه، فشاءت ان تهواني؛ لان هذا كان يروق لها، وان من الواجب - للسبب ذاته! - ان احبها، طالما ظل هذا يلائمها، فإذا ما هجرتني فجاة، وجب ان احتملها صابرا، كما كان يفعل عزيزها "بريمون"!.. واستولت علي كما لو انني كنت ملك يمينها، فعهدت إلي بقفازيها، ومروحتها، وحزامها، وقلنسوتها.. وراحت تامرني بان اذهب إلى وادت هذه العلاقة إلى ان اصبحت

كل الملاهي الاخرى نفايات عقيمة، فلم اعد اغادر مسكني إلا لاذهب إلى "تيريز"، وبات مسكنها مقري تقريبا. ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملي، حتى إن "الاوبرا" التي كنت عاكفا على تاليفها، اكتملت - كلاما وموسيقى - في اقل من ثلاثة اشهر.

ولم تبق سوى بعض الحان تكميلية، وبعض الحان لتصحب المناظر. وقد ضايقني هذا كثيرا، فعرضت على "فيليدور" ان يتولاه في مقابل نصيب من الربح، فجاء مرتين، واضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر "اوفيد"، ولكنه لم يستطع ان ينصرف إلى هذا العمل - الذي كان يتطلب مثابرة - في مقابل ربح بعيد وغير مضمون؛ ومن ثم فإنه لم يعد، واكملت عملي بنفسي.

وإذا اكتملت "أوبراي"، آن لي أن احصل من ورائها على بعض الدخل، وكان هذا - في حد ذاته - "اوبرا" اخرى، اشد عناء!.. فليس من سبيل إلى بلوغ غاية في "باريس" إذا كان المرء يعيش في عزلة. ولقد فكرت في ان استعين بالسيد "ديلابوبلينيير"، الذي قدمني إليه "جوفكور" في داره، عند عودتي من "جنيف". وكان السيد "ديلابوبلينيير" هو نصير (١) "رامو"، إذ كانت السيدة "ديلا بوبلينيير" تلميذته هذا المتواضعة، المتفانية في الطاعة؛ ومن ثم فقد كان "رامو" هو المطر والصحو (٢) في هذا المنزل، كما ينبغي ان يقال!.. ولقد ظننت انه قد يغتبط بان يساند عملا من ابتكار احد تلاميذه، فرغبت في أن اريه مؤلفي، ولكنه ابى أن يراه، قائلا إنه لم يكن يستطيع ان يقرا مقطوعات، إذ إن هذا كان يتعبه كل التعب. وعقب "لابوبلينيير" على ذلك بان في الوسع حمله على الإصغاء، وعرض ان يجمع موسيقيين لاداء بعض القطع، ولم اكن ارجو افضل من هذا.. ووافق "رامو" وهو يزمجر، ودون أن يكف عن ان يردد أن الالحان التي يضعها رجل لم ينشا في جو موسيقي، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون، لابد وان تكون شيئا بديعا!...

واسرعت انسخ ادوار خمس او ست من احسن المقطوعات، وتهيا لي اثنا عشر من العازفين، بينما تولى الغناء "البرت"، و"بيرا"، والآنسة "بوردونيه". وما إن بدا لحن الافتتاح، حتى رمى "رامو" - بإطنابه في المديح - إلى الإيحاء بان اللحن ما كان ليمكن ان يكون من تاليفي. ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدي أمارات التبرم، ونفاد الصبر. ولكنه لم يلبث ان عجز عن تمالك نفسه عند سماع اغنية بصوت "كونترتينور" - كان اداؤها قويا محكما، والموسيقى المصاحبة لها رائعة - فخاطبني في خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين، واعلن ان جزءا مما سمع كان من عمل رجل افنى في الفن عمره، في حين أن الباقي من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها!.. ومن الصحيح ان مؤلفي كان غير متناسق، وعلى غير قاعدة؛؛ ومن ثم فقد كان رفيع القيمة في بعض أجزائه، وعقيما في بعض آخر، شان العمل الذي يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية، دون ما سند من العلم. وزعم "رامو" انه لم يكن يرى في شخصي سوى سارق صغير، لم يؤت اية موهبة ولا اي ذوق!.. ولكن العازفين، ورب الدار - بوجه خاص - لم يشاركوه رايه. ولقد سمع السيد دي "رشيليو" - الذي كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار، والسيدة دي "بوبلينيير"، كما هو معروف - بحديث مؤلفي، فرغب في ان يسمع "الاوبرا" باكملها، معتزما ان يعمل على عرضها في البلاط إذا راقت له. ومن ثم مثلت "الاوبرا" - بكامل ما كانت تتطلب من مغنين وموسيقيين - على نفقة الملك، في دار السيد "بونيفال"، الموكل بالحفلات الملكية. وقام "فرانكير" بالإخراج.. ولقد كانت النتيجة مدهشة، حتى إن السيد الدوق دي "ريشيليو" لم يكف عن الصياح والتصفيق. وفي نهاية

---

(١) التعبير المقصود هنا، هو الرجل ذو الجاه والمال، الذي يرعى اديبا او فنانا ويبذل له يد العون. (٢) تعبير فرنسي معناه ان يكون الشخص ذا حظوة ومكانة، بحيث يغضب اهل البيت لغضبه ويسرون لسروره. ويقابله في التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو "الكل في الكل".

أغنية جماعية – في الفصل الخاص بـ "تاس" – نهض وجاءني فصافحني قائلا: "هذا هو اللحن الذي يشجي، ياسيد "روسو"!.. ما سمعت قط أجمل منه، وإني لاود ان اقدم هذه التحفة في "فرساي!" . ولم تنبس السيدة دي "بوبلينير" – التي كانت حاضرة – بكلمة واحدة. اما "رامو"، فبالرغم من أنه دعي، إلا انه لم يشأ ان يحضر.

وفي اليوم التالي، استقبلتني السيدة "بوبلينير" – في غرفة زينتها – استقبالا شديد الجفوة، وتعمدت ان تحط امامي من شأن مؤلفي، وقالت لي: إنه بالرغم من ان بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دي "ريشيليو"، إلا انه قد ثاب إلى نفسه، ونصحتني بألا اعول كثيرا على اوبراي!.. وأقبل السيد الدوق بعد قليل، فتحدث إلي بلهجة تخالف ذلك تماما، إذ أطرى مواهبي، وبدا مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفي على مشهد من الملك. وقال: ليس هناك ما لا يمكن إجازته في البلاط، سوى الفصل الخاص بـ "تاس"، فعليك ان تكتب فصلا غيره!" . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعني إلى ان اذهب إلى داري، فاحتبس نفسي. وفي غضون ثلاثة اسابيع، استطعت ان اضع فصلا يحل محل فصل "تاس"، وكان موضوعه "هيسيود (١) يتلقى الإلهام من إحدى عرائس خياله" .

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من ان ادس في هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبي وقصة الغيرة التي راق لـ "رامو" ان يكرم بها هذه المواهب. ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو اقل جبروتا، واكثر تمسكا وإحكاما مما كان في الفصل الذي كان يدور حول "تاس" . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا، لقدر للاوبرا أن تعرض بنجاح. بيد أن مشروعا آخر عرض لي – فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه – فارجأت اداء هذه المسرحية!

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

اقيمت في "فرساي" – في الشتاء الذي اعقب معركة "دي فونتينو" – حفلات كثيرة، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح الـ "بيتيت إيكوري" . وكان بين هذه مسرحية "فولتير"، التي كانت تحمل اسم "اميرة نافار"، والتي نظم "رامو" موسيقاها. وقد عدلت وبدل اسمها إلى "أعياد راميرو" . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الأغاني والرقصات التي كانت في "الدراما" السابقة، سواء من حيث التركيب الشعري، أو التركيب الموسيقي. واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدي هذه الغاية المزدوجة، إذ إن "فولتير" كان – إذ ذاك – في "اللورين"، وكذلك كان "رامو"، وكانا منهمكين معا في اوبرا "معبد المجد" (٢)، فلم يكن في وسعهما ان يعنيا بالتحويرات المنشودة. ومن ثم فإن السيد دي "ريشيليو" تذكرني، وعرض علي ان اقوم بالمهمة.. ولكي احسن تبين ما ينبغي عمله، أرسل إلي كلا من الشعر والموسيقى على حدة. ولم اشأ – قبل كل شيء – أن امس الفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف، فكتبت إليه في هذا الصدد، رسالة جد أمينة ومحترمة – في الوقت ذاته – وفقا لما كان يتطلبه الظرف. وها هو ذا رده، الذي يوجد الأصل الخطي له، في ملف الأوراق "أ"، رقم (١):

"١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٤٥

"إنك لتجمع ياسيدي بين موهبتين كانتا – حتى اليوم – منفصلتين دائما. وهما سببان كافيان

---

(١) "هيسود": كان شاعرا إغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل، محاولا ان يضع دستورا اخلاقيا يكمل المحبة والسلام. وقد قدم "كتابي" – في العدد ٥٥ – سيرته وملخصا لاعظم رسالاته: "الأيام والأعمال". (٢) Temple de Gloire.

لحملي على أن أقدرك وأن أسعى إلى أن أحبك. وإنني لفي هم من أجلك، إذ تستخدم هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الجدارة. فمنذ بضعة أشهر، طلب إلي السيد الدوق دي "ريشيليو" - طلبا جازما - أن أعد، في لمح البصر، مسودة صغيرة غير دقيقة، لبضعة مناظر تافهة وناقصة، تتمشى مع أغان ورقصات لا تلائمها إطلاقا. وقد صدعت برغبته بحذافيرها، ورحت أعمل في سرعة فائقة، ودون ما إجادة. ثم أرسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دي "ريشيليو"، وأنا موقن من أنه لن يستخدمها، ومن أنني لن أضطر إلى تصحيحها. ولحسن الحظ أنها بين يديك، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء، إذ إنني قد أقصيتها تماما عن ذهني. ولست أشك في أنك ستفتح كل الأخطاء، التي لابد من أن تكون قد أفلتت مني في تعجل تأليف التصميم البسيط، وأنك قد ملأت كل نقص!

"وإني لأذكر أن من السهوات التي تنم عن طيش، أنني نسيت أن أوضح في هذه المناظر - التي تربط بين الأغاني والرقصات - كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر. وإذ لم يكن الشخص الذي أقام الحفلات لتكريمها ساحرا، وإنما كان سيدا إسبانيا، لذلك يبدو لي أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا. فأرجو أن تتكرم ياسيدي بإعادة النظر في هذا الجزء، الذي لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة. وانظر ما إذا كان من الضروري أن تفتح أبواب السجن، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول، يعد من أجلها.. إنني لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله مجاب للغاية، وأنه ليس مما يليق بأي كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على محمل الجد، ولكن.. بما أن علينا ألا نسبب من الأشياء إلا أقل ما يستطاع، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك في أوبرا غنائية راقصة رديئة.

"إنني أدع لك وللسيد "بالو" كل شيء، وأعتقد أنني لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكري عما قريب، وبأن أؤكد لك ياسيدي، إلى أي مدى يشرفني أن أكون... إلخ".

ولا يعجبن المرء لما في هذا الخطاب من أدب جم - إذا قيس بخطابات "فولتير" نصف المهذبة التي كتبها لي بعد ذلك الحين - فقد كان يظنني ذا مكانة كبيرة لدى السيد "دي ريشيليو"، فحمله الرياء المرن على أن يبدي كثيرا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته!

*****

وإذ حصلت من السيد دي "فولتير" هذا السلطان، وأعفيت من كل اعتبار لـ"راموا" - الذي لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلي - فإنني عكفت على العمل - ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتي قد أنجزت. ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة، إذ كان همي الأوحد هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا، ومن حقي أن أعتقد أنني قد وفقت. أما مهمتي - في الناحية الموسيقية - فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد، فضلا عن أنني اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات، منها اللحن الافتتاحي، وكل ألحان الإلقاء الغنائي (١) التي تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات، بقليل من السطور - في كثير من الأحيان - وبواسطة أنغام سريعة جدا، ذلك لأنني عقدت عزمي على ألا أغير أو أعدل لحنا واحدا، حتى لا يتهمني "رامو" بإفساد ألحانه الأصلية. ولقد وفقت في هذا الإلقاء الغنائي. فكانت النبرات واضحة، مليئة بالقوة، رائعة في تناسق نغماتها، بوجه خاص. ولقد أدى التفكير في هذين العملين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما - على هذا النحو - إلى رفع روحي المعنوية،

---

(١) العبارات التي تلقى بالغناء، دون أن تكون شعر موزونا.

وبوسعي ان أقول إنني في هذا العمل الذي لم يكن لي من ورائه حمد ولا مجد، والذي لم يكن مقدورا للرأي العام ذاته ان يعلم بفضلي فيه - حافظت دائما على مثلي ومستواي!

ولقد اجريت التجارب على المسرحية - بالشكل الذي نقحتها إليه - في مسرح "الاوبرا" الكبير. ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة. فقد كان "فولتير" متغيبا، في حين ان "رامو" لم يحضر، او لعله تعمد ان يتوارى. وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها:

"الا ايها الموت تعال، فاختم تعاسات حياتي!".

وكنت مضطرا إلى ان أضع موسيقى تتمشى معها، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هي التي خصتها السيدة "ديلا بوبلينيير" بنقدها، إذ اتهمتني - في تحامل - بانني وضعت لحنا جنائزيا. وبدأ السيد "دي ريشيليو" بان يسأل - في إنصاف - عمن كتب كلمات المناجاة، فاطلعته على المخطوط الذي كان قد ارسله إلي، والذي اثبت انها من وضع "فولتير". فقال: "إن المخطئ - في هذه الحال - هو "فولتير" وحده". وظل كل ما فعلت معرضا - خلال التجربة - لاستهجان السيدة "ديلا بوبلينيير"، ولإنصاف السيد "دي ريشيليو". على انني ما لبثت ان تبينت ان التحامل كان شديد الوطأة، فقد اشير علي بتنقيح عدة أشياء في مؤلفي، كان لابد من استشارة السيد "رامو" بشأنها. واكربني ان تكون هذه هي النتيجة، بدلا من الإطراء الذي كنت أرتقبه، والذي كنت جديرا به يقينا. فعدت إلى بيتي بقلب مثقل.. وسقطت مريضا، وقد هدني الإعياء، وراح الأسى ينهشني.. وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج!

وارسل "رامو" - الذي وكلت إليه التعديلات التي أشارت إليها السيدة "ديلا بوبلينيير" - يطلب إلي افتتاحية "اوبراي" الكبرى، ليضعها في مكان تلك التي وضعتها. وفطنت - لحسن الحظ - إلى الحيلة، فرفضت. ولم يكن قد بقي على موعد تقديم المسرحية الأخرى اكثر من خمسة أيام أو ستة، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية، واضطر إلى ان يترك تلك التي كنت قد وضعتها من قبل.. وكانت على النسق الإيطالي، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على "فرنسا"، في ذلك الوقت. ومع ذلك فإنه لقي استساغة، وسمعت من السيد "دي فالماليت" - رئيس ديوان الملك، وزوج ابنة السيد "موسار"، وكان قريبا وصديقا لي - أن هواة الفن ابدوا كل الرضا عن مؤلفي، وان الرأي العام لم يستطع ان يفرق بينه وبين إنتاج "رامو". غير ان هذا اتخذ من الإجراءات - بالتواطؤ مع السيدة "ديلا بوبلينيير" - ما يحول دون معرفته أنني قد ساهمت في تلك القطعة. فعلى الكتب (٢) التي توزع على النظارة، والتي تثبت فيها دائما أسماء المؤلفين، ولم يذكر سوى اسم "فولتير". وآثر "رامو" إغفال اسمه على ان يرى اسمي مقترنا به!

وما إن تمكنت من مغادرة داري، حتى رغبت في زيارة السيد "دي ريشيليو". ولكن الفرصة كانت قد فاتتني، إذ إنه كان قد رحل إلى "دنكرك"، حيث كان عليه ان يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى "ايقوسيا" "أسكتلندا". ولما عاد، قلت لنفسي - لابرر كسلي - إن المناسبة قد انقضت. وبما أنني لم اعد أراه منذ ذلك الحين، فقد اضعت على نفسي التكريم الذي كان مؤلفي يستحقه.. التكريم الذي كان جديرا بأن يدره علي. ومن ثم فإن وقتي، وعملي، وحزني، ومرضي،

---

(١) المونولوج: وهو الحديث الفردي الذي يلقيه المرء لنفسه. (٢) يقصد الكتاب الذي يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية. ومما يذكر ان هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار، ولا مؤلف الموسيقى.

وإنما اورد فقط اسم "لافال" مؤلف "الباليه". وقد عرضت التمثيلية في "فرساي" في ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥، اي بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذي كتب فيه "فولتير" رسالته. وقد ذكر "روسو" - في الفقرة السابقة - ان "رامو" طلب الافتتاحية "عرش احلام الشعراء" قبل هذا العرض بخمسة ايام، فكأنه انجز التعديلات في حوالي يومين!

والنقود التي كلفنيها.. كل هذا تكبدته دون ان يعود علي بـ "سو" واحد، بل ودون اي تعويض. ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد "دي ريشيليو" كان ميالا بطبعه نحوي، وكان يحسن الظن بمواهبي، ولكن نحسي والسيدة "ديلا بوبلينيير" حالا دون كل نتيجة لحسن طويته!

وما استطعت قط ان افهم سر كراهية هذه المرأة التي كنت اغصب نفسي على إرضائها، والتي اعتدت ان اثابر على ان ابدي لها مجاملتي. ولقد شرح لي "جوفكور" الاسباب، فقال: "هناك - أولا - صداقتها لـ"رامو"، الذي كان يحظى علنا برعايتها، والذي لم يكن يحتمل أية منافسة.. وفوق ذلك، كان ثمة ذنب جوهري يعيبك في نظرها، ولن تغتفره لك ابدا.. ذلك هو انك "جنيفي!".. وهنا بين لي ان الراهب "هوبير" - الذي وفد هو الآخر من "جنيف"، والذي كان صديقا صدوقا للسيد "ديلا بوبلينيير" - كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة، التي كان يعرفها تمام المعرفة، والتي حرصت - بعد الزواج - على ان تولي كل جنيفي كراهية لا سبيل إلى مغالبتها. واردف "جوفكور" قائلا:

"ومع ان "لابلوبلينيير" يكن لك ودا - انا موقن منه - إلا انه ليس لك ان تعتمد على مؤازرته، فهو مدله في هوى زوجته، وهي تكرهك.. وإنها لخبيثة ماكرة.. ولن يكون لك شان في هذا المنزل".
وادركت ما كان يرمي إليه!

*****

ولقد ادى لي "جوفكور" هذا خدمة اخرى - حوالي ذلك الوقت - كنت في حاجة ماسة إليها. فلقد فقدت ابي الفاضل، وقد قارب الستين من عمره. ولم اشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بان احس بها في الماضي، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالي بمثل ما كانت تشغله في هذه الآونة. إذ إنني لم أحاول قط - خلال حياته - أن اطالب ببقية تركة امي التي كان يحصل دخلها البسيط. اما بعد موته، فلم يداخلني تردد بهذا الشان، ولكن عدم توفر دليل قضائي على وفاة اخي، كان عقبة اخذ "جوفكور" على عاتقه عبء إزاحتها، وقد ازاحها فعلا بفضل مساعي المحامي "دي لولم". ولما كنت في حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل، وكانت المسالة محوطة بالريب، فقد رحت انتظر نبأ حاسما في صبر نافد وتلهف. وفي ذات مساء، وجدت، إذ عدت إلى مسكني - الرسالة التي كان منتظرا ان تشتمل على هذا النبا، فتناولتها لافضها، وانا ارتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي، وقلت لنفسي في ازدراء:

"وبعد ؟!.. ايسناق "جان جاك" لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة؟".. ووضعت لفوري الرسالة على رف المدفاة، ثم خلعت ثيابي، واويت إلى فراشي في هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت.. ثم صحوت في اليوم التالي متاخرا، دون ان اعود إلى التفكير في الرسالة. وفيما كنت ارتدي ثيابي، لمحتها ففضضتها في غير تعجل، ووجدت فيها حوالة مالية - ولكن بوسعي أن أقسم إن أقواها جميعا كانت تلك التي نبهتني إلى انتصاري على نفسي. واستطيع ان اذكر عشرين من امثال هذه المناسبة في حياتي، ولكنني لا اجد وقتا لكي اروي كل شيء. ولقد ارسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى "ماما" وانا ابكي حسرة على الأوقات السعيدة، التي كانت كل رسائلها توحي بضيقها. ولقد ارسلت لي أكواما من الوصفات والأسرار التي كانت تزعم ان بوسعي أن أجمع بها ثروة لي ولها.

ولقد كان مجرد التفكير في فاقتها يعصر قلبي، ويضيق افق عقلي. وكان القليل - الذي اعتدت ان ارسله إليها - يقع في ايدي الانذال الذين كانوا يحيطون بها، دون ان تنتفع بشيء منه. فجعلني هذا اكره ان اشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتي، لاسيما بعد المحاولات غير المجدية التي بذلتها لانتزاع "ماما" من قبضاتهم، مما سيرد ذكره فيما بعد.

وانساب الوقت، وانسابت النقود معه. وكنا اثنين، بل اربعة.. بل إننا كنا سبعة او ثمانية، كما يحسن ان يقال.

ذلك لانه بالرغم من ان "تيريز" كانت زاهدة في اية مصلحة شخصية، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل، إلا ان امها لم تكن على شاكلتها. فما إن رات احوالها تتحسن قليلا - بفضل رعايتي - حتى استدعت كل اسرتها لتشاطرها الغنيمة. فإذا بالاخوات، والابناء، والبنات، والاحفاد يفدون جميعا، ماعدا ابنتها الكبرى، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في "انجير".. واصبح كل ما افعله من اجل "تيريز"، يتحول بفضل امها إلى هؤلاء النهمين. ولما لم اكن جشعا، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة، فإنني لم ارتكب اية حماقات. بل إنني في اغتباطي بان اعول "تيريز" - في حياة لا باس بها، خالية من الترف، ولكنها في وقاء من الحاجة - اقررتها على ان تسلم امها كل ما كان بوسعها ان تكسبه من عملها. ولم اكن اقتصر على ذلك.. ولكنني استسلمت للقدر الذي كان يتعقبني.. ففي الوقت الذي كانت فيه "ماما" ضحية لانذالها، كانت "تيريز" ضحية لاسرتها، ولم يكن بوسعي ان اقدم اي عون يعود بالنفع على تلك التي كانت اقصد نفعها في الحالتين. ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة "لوفاسير" - وهي الوحيدة التي لم تحظ بصداق من اهلها - هي الوحيدة التي راحت تعول اباها وامها.. وأن هذه المسكينة -، بعد ان ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها واخواتها، بل ومن ابناء هؤلاء - اصبحت فريسة لنهبهم، دون ان تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل. ولم يكن بين ابناء اخوتها سوى واحدة فقط، تدعى "جوتون ليدوك"، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم.

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين، فقد اصبحت اطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب، فانا انادي ابنة الاخ بـ يا ابنة اخي، والعمة بـ يا عمتي. واصبح الفريقان ينادياني بـ يا عمي.. ومن هنا نشا اسم "العمة" الذي انادي به "تيريز" باستمرار، والذي يردده أصدقائي في بعض الاحيان، على سبيل المداعبة!

*****

ومن المعقول انني لم اضيع لحظة واحدة - في مثل هذا الموقف - دون ان احاول ان انتزع نفسي منه، وإذ حدست أن السيد دي "ريشيليو" قد نسيني، ولم اعد آمل في شيء من ناحية البلاط، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم اوبراي في "باريس". ولكنني صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا، في حين ان حاجتي كانت تزداد شدة يوما بعد يوم. ولقد أشير علي بأن اقدم تمثيليتي الهزلية الصغيرة "نارسيس" على مسرح الإيطاليين "أوزيتاليان". فقبلت التمثيلية، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل، مما سرني كثيرا. ولكن هذا كان غاية ما في الامر إذ إنني لم أوفق قط إلى ان احملهم على إخراج المسرحية. حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم. ولجات

في النهاية إلى الحيلة الأخيرة التي بقيت لي، والتي كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع. ففيما كنت أتردد على دار السيد "ديلا بونليفيير"، ظللت بعيدا عن دار السيد "دوبان". ومع أن ربتي الدارين كانتا على بعض صلات القربى، إلا أنهما لم تكونا على وئام، ولم تتزاورا قط.

بل لم تكن بين الدارين أية صلة، وإنما كان "ثييريو" هو الوحيد الذي اعتاد أن يتردد على هذه وتلك. وقد وكل إليه أمر السعي إلى حملي على العودة إلى دار السيد "دوبان".

وكان السيد "فرانكويي" ماضيا - في تلك الأثناء - في دراسة التاريخ الطبيعي، والكيمياء، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة. وأظنه كان يطمع في عضوية محفل العلوم، وكان يرغب - في سبيل ذلك - في أن يضع كتابا، وقد خطر له أنني أستطيع أن أكون ذا نفع في هذا الصدد. وكان للسيدة "دوبان" - من ناحيتها - رأي مشابه في شخصي، كما أنها كانت تفكر في أن تؤلف كتابا. ومن ثم فقد ودا أن يستأجراني لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمانه. وكان هذا هو الهدف من مساعي "ثييريو".

فطلبت - كعربون - أن يستخدم السيد "دي فرانكويي" نفوذه ونفوذ "جيليو" من أجل تجربة إخراج تمثيليتي في الأوبرا، فوافق. وأجريت عدة تجارب لإخراج "عرائس الشعر اللطاف" في "المخزن" (١) في بادىء الأمر، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير. وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد. على أنني شعرت أثناء الأداء الموسيقي - الذي أساء "ريبيل" الإشراف عليه - بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة، وعلى هذا فإنني سحبتها دون ما إيضاح، ودون أن أعرض نفسي لسماع رفضها. ولكنني رأيت بجلاء، ومن عدة بوادر، أن التمثيلية ما كانت ستجاز، ولو كانت في أكمل حال. ذلك لأن السيد "دي فرانكويي" كان قد وعد حقا بأن يهيئ السبيل لتجربتها، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها. وقد بر بوعده تماما. ولقد كان يخيل إليّ دائما - في هذه المناسبة وفي كثير غيرها - بأنه ومدام "دوبان" لم يكونا حريصين على أن يدعاني أكتسب شهرة محققة في المجتمع؛ ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن - عندما تظهر مؤلفاتهما - أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبي. ومع ذلك، فإن السيدة "دوبان" كانت دائما مقتصدة في رأيها عن كفاءتي؛ ومن ثم فإنها لم تستخدمني قط إلا لأكتب ما كانت تمليه عليّ، أو لأقوم لها بأبحاث بحتة، ومن ثم فإن هذا الظن - فيما يتعلق بها - قد يكون جائرا!

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتي تماما، فهجرت كل أمل في الرقي والمجد، ولم أعد أفكر في مواهبي الحقيقية أو الموهومة، التي لم تعد عليّ بطائل، بل كرست وقتي وجهدي لكسب قوتي وقوت "تيريزي"، بالشكل الذي راق لهذين اللذين تكفلا بتمكيني من ذلك. ومن ثم فإنني تفرغت تماما للسيدة "دوبان" والسيد "دي فرانكويي". ولم يدفعني هذا إلى سعة من العيش موفورة.. فإن المرتب الذي تقاضيته في العامين الأولين - وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا - كان لا يكاد يوفر لي حاجاتي الأولية. إذ إنني كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منهما، في حجرة مؤثثة، بحي من الأحياء التي تتطلب نفقات كثيرة، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر، في الطرف الأقصى لـ"باريس"، عند نهاية شارع "سان جاك"، حيث كنت أذهب لتناول العشاء في كل مساء تقريبا، مهما تكن حال الطقس.

---

(١) القسم الذي كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل.

وسرعان ما ألفت عملي الجديد، بل إنني بدأت أميل إليه فاهتممت بالكيمياء، وتلقيت دروسا عدة مع السيد "**دي فرانكويي**"، لدى السيد "**رويل**". ورحنا نسود أكداسا من الورق بما كنا نكتبه في هذا العلم، سواء عن صواب أو عن خطأ، برغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية! . ولقد ذهبنا - في سنة ١٧٤٧ - لقضاء الخريف في "**تورين**"، في "**شاتو دي شينونسو**"، القصر الملكي القائم على نهر "**الشير**"، والذي شيده "**هنري الثاني**" من أجل "**ديانا دي بواتيير**".. التي لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك. وكان هذا القصر قد آل إلى السيد "**دوبان**"، بوصفه المشرف العام على الأراضي الزراعية للملك.

ولقد استمتعنا كثيرا بالإقامة في هذا المكان البديع، وازددنا سمنة، حتى إنني أصبحت بدينا كالرهبان! . ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى، كما أنني ألفت عدة ثلاثيات غنائية (١)، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمي، وسوف أتحدث عنها في "الملحق" إذا قدر لي أن أكتبه. كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكهة، واستطعت - في خمسة عشر يوما - أن أؤلف واحدة، من ثلاثة فصول، أسميتها "الخطبة المتهورة" (٢)، وهي موجودة بين أوراقي، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط. ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى، منها قصيدة بعنوان "**درب سيلفيا**" (٣)، عن درب في المتنزه الذي كان يمتد على ضفاف نهر "**الشير**". على أن هذا لم يصرفني عن دراساتي الكيمياوية، ولا عن العمل الذي كنت أؤديه للسيدة "**دوبان**".

وبينما كنت أزداد سمنة في "**شينونسو**"، كانت "**تيريزي**" المسكينة تتضخم في "**باريس**" بشكل آخر، حتى إذا عدت، وجدت "المؤلف" الذي كنت بدأته، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها (٤). وقد دفع بي هذا - نظرا لموقفي - إلى حيرة بالغة، لولا أن زملاء المائدة أمدوني بالحيلة الوحيدة التي كان بوسعها أن تخرجني من المأزق. وهي من البيانات الدقيقة التي لا أملك أن أبوح بها في بساطة، لأني قد أضطر - إذا أقدمت على أي إيضاح - إلى أن التمس لنفسي المعاذير، أو إلى أن أدين نفسي، وما أراني راغبا في أن أفعل هذا أو ذاك!

ففي أثناء إقامة "**التونا**" في "**باريس**"، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا، بدلا من أن نأكل في أحد المطاعم. فكنا نتردد على السيدة "**لاسيل**"، بالقرب من ممر "الأوبرا".. وكانت زوجة حائك، تقدم أطعمة غير شهية، ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم. فما كان لأي مجهول أن يلج المكان، بل كان لابد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك. وكان "**الكوماندور دي جرافيل**" ممن استقروا هناك. وهو شيخ ماجن، موفور الظرف والذكاء، ولكنه بذيء اللسان.. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي، تألفت من ضباط من فرق الحرس، والفرسان.. وكان "**الكوماندور دي تونان**" حامي كل فتيات الأوبرا، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان - في كل يوم - كافة أنباء هذا الوسط العابث.. أما السيدان "**دوبليسي**" - وكان "**بكباشي**" محالا إلى الاستيداع، وشيخا طيبا حكيما - و"**أنسيليه**" (٥) - وكان من ضباط الفرسان - فقد فرضا قدرا من النظام على هؤلاء الشبان. كذلك كان يتردد على

---

(١) قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص. (٢) l'Engagement Téméraire. (٣) لم يبق للقصر أن آل إلى مالك هدم هذا الدرب الذي أذاع "روسو" شهرته، والذي كان يجتذب زوار "فرنسا" من الأجانب. (٤) من المفهوم أنه يعني أن علاقته بـ"تيريز" أثمرت جنينا. (٥) عقب "روسو" على هذا بقوله: "إلى هذا الأنسيليه أهديت تمثيلية مكهة صغيرة من تأليفي، بعنوان "أسرى الحرب"، وضعتها بعد النكبات التي نزلت بالفرنسيين في "بافاريا" و"بوهيميا"، ولم أجرؤ إطلاقا على أن أعترف بها، أو أن أعرضها. وكان ذلك لسبب واحد، هو أن الملك، و"فرنسا"، والفرنسيين، لم يحظوا - فيما أحسب - بأفضل ولا أصدق من الإطراء الذي اشتملت عليه هذه التمثيلية. ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة، فإنني لم أجسر على أن أعترف بأنني مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئي. وإذ كنت أشد أسى لمصائب "فرنسا" من الفرنسيين أنفسهم، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن، أمارات الحب الصادق، الذي ذكرت - في الجزء الأول من اعترافاتي - عهده وسببه، والذي كنت أستحيي من إبدائه!" ولقد ورد ذكر ذلك في الكراسة الخامسة".

المكان تجار، وماليون، ومتعهدون بتوريد الاغذية. ولكنهم كانوا مؤدبين، امناء، من المبرزين في حرفهم ومهنهم. وكان السيد "دي بيس" والسيد "دي فوركاد" بين هؤلاء الذين نسيت اسماءهم. وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك اناسا محترمين من جميع الانواع فيما عدا الرهبان وذوي الأوشحة (١) الذين لم يقع عليهم بصري هناك إطلاقا، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم احد منهم. وكانت هذه المائدة، على ازدحامها، جد مرحة في غير صخب، كثيرة الثرثرة في غير بذاءات. فما كان القائد "الكوماندور" الشيخ لينسي البتة - بكل قصصه الماجنة - الادب الذي الفه في البلاط، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا اية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء. وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها، فكان كل اولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة. ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب، فقد كان الممر الذي يفضي إلى دار السيدة "لاسيل"، يؤدي كذلك إلى حانوت السيدة "دوشات"، وهي تاجرة ازياء ذائعة الصيت، كانت تستخدم - إذ ذاك - فتيات موفورات الجمال، اعتاد السادة اصحابنا ان يسعوا إلى مجاذبتهن الحديث، بعد الغداء. وكان بوسعي ان اتسلى كما كان يفعل الآخرون، لو انني كنت اكثر جراة مما انا. إذ إنني لم اكن بحاجة إلى اكثر من ان الج الحانوت، كما كانوا يفعلون، ولكنني لم اجسر. اما السيدة "لاسيل"، فقد ظللت اذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الاحيان، عقب رحيل "التونا". وهناك، سمعت فيضا من الحكايات المسلية - كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي الفيتها مستتبة هناك - دون المقاييس الخلقية، والحمد للسماء!.. فمن اشراف اوذوا، إلى ازواج خدعوا، إلى نساء استخفتهن الغواية، إلى اطفال ولدوا في الخفاء.. كل هذه كانت موضوعات عادية مالوفة هناك. وكان ذلك الذي يساهم اكثر من سواه، في زيادة عدد سكان ملجا اللقطاء، هو اكثر الناس نصيبا من الإعجاب. ولقد اصابتني عدوى هذا كله، فصغت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رايتها سائدة بين قوم ظرفاء، ومفرطي الادب بوجه عام!.. وقلت لنفسي: "مادام هذا هو العرف السائد في البلاد، فللمرء ان يتبعه إذا ما اقام فيها"!.. وهذه هي الحيلة التي كنت انشدها. فاعتزمت - في اغتباط - ان انتهجها، دون اية هواجس من ناحيتي او تردد.. وكل ما كان علي ان اتغلب عليه، هو مخاوف "تيريز"، التي كابدت - في حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شرفها - كل ما في الدنيا من عناء!..

ولقد انضمت لي امها، التي كانت تخشى التورط في طفل جديد. وانصاعت "تيريز" في النهاية، فاختيرت مولدة "داية" حكيمة، مامونة، تدعى الآنسة "جوان" - كانت تقيم عند "راس سان اوستاش" - لنعهد إليها بهذه الوديعة. فلما آن الاوان، نقلت "تيريز" - بمعرفة امها - إلى دار الآنسة "جوان"، لتضع حملها، وذهبت إلى هناك عدة مرات لازورها، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين، لتوضع إحداهما في ثياب الطفل، على ان تودعه القابلة "الداية" إدارة ملجا اللقطاء، بالطريقة المعهودة.. وفي العام التالي، تكررت المضايقة، وتكرر العلاج، فيما عدا الرمز الذي اغفل!.. ولم يعد ثمة تفكير في الامر - من ناحيتي - لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الام، التي اطاعت وهي تتنهد. ولسوف تبدو تباعا كل التغيرات التي ادت هذه الطريقة إلى فرضها على اسلوبي في التفكير، وعلى مصيري كذلك. اما الآن، فلنلزم هذه المرحلة الاولى، إذ إن معقباتها - التي كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة - لن تلبث ان تضطرني إلى العودة إليها كثيرا.

---

(١) يقصد المحامين.

ولسوف اذكر هنا واقعة اول تعارف بيني وبين السيدة "**ديبيناي**"، التي كثيرا ما سيتردد اسمها في هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة "**ديسكلافيل**"، ثم تزوجت من السيد "**ديبيناي**"، نجل السيد "**دي لاليف دي بيلجراد**"، الذي كان مديرا عاما للاراضي الزراعية.. ولقد كان الزوج موسيقيا، على شاكلة السيد "**دي فرانكويي**". كذلك كانت هي الاخرى موسيقية، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الاشخاص الثلاثة. وقدمني السيد "**دي فرانكويي**" إلى السيدة "**ديبيناي**"، فكنت اتناول العشاء معها في بعض الاحيان. وكانت لطيفة، ذكية، موهوبة، خليقة بان ينشد المرء ودها حقا.

على انها اوتيت صديقة - تدعى الآنسة "**ديت**" - كانت تعتبر خبيثة، وكانت تعاشر "**الشيفالييه دي فالوري**"، الذي لم يكن حسن السمعة، واعتقد ان صحبة هذين الشخصين قد اساءت إلى السيدة "**ديبيناي**"، التي حبتها الطبيعة بسجية غلابة، وصفات رائعة، تخفف من ان تتوازن مع نزواتها.

ولقد اوحى إليها السيد "**دي فرانكويي**" قسطا من الود الذي كان يكنه نحوي، وصارحني بصلاته بها، ولهذا السبب فإنني ما كنت لاتحدث عن هذه الصلات هنا، لولا انها اصبحت معروفة إلى درجة انها لم تعد خافية على السيد "**ديبيناي**"!..

كذلك آثرني السيد "**دي فرانكويي**" باعترافات عجيبة من هذه السيدة، لم تذكرها لي بنفسها إطلاقا، ولم يخطر ببالها البتة انني كنت على علم بها. فإنني لم افتح فمي - ولن افتحه - بالحديث في هذا الموضوع، إليها أو إلى أي امرئ آخر (١).

ولقد ادت كل هذه الاعترافات - من كل من الطرفين - إلى الزج بي في موقف جد حرج، لاسيما إزاء السيدة دي "**فرانكويي**"، التي كانت تعرفني خير معرفة، فلم تفقد ثقتها بي، بالرغم من توثق صلاتي بغريمتها. ولقد عمدت - بقدر ما كان بوسعي - إلى مواساة هذه السيدة البائسة، التي لم يبادلها زوجها - دون ما شك - ما كانت توليه من حب. وكنت أصغي إلى هؤلاء الثلاثة، كل على حدة، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء، دون ان يقدر قط لاي من ثلاثتهم ان ينتزع مني شيئا من أسرار الاثنين الأخرين، ودون ان أخفي عن كل من المرأتين ودي لغريمتها!..

ولقد حاولت السيدة "**دي فرانكويي**" ان تفيد مني في امور كثيرة، فقوبلت برفض بات.. كما ان السيدة "**ديبيناي**" أرادت ان تحملني - ذات مرة - رسالة إلى "**فرانكويي**"، فلم تقابل برفض مشابه فحسب، بل إنني صارحتها بجلاء تام، بانها لم تكن بحاجة إلى اكثر من ان تعرض علي مثل هذا الامر - مرة ثانية - إذا شاءت ان تقصيني عن دارها إلى الأبد!.. ومن الواجب ان انصف السيدة "**ديبيناي**"، فإنها كانت ابعد من ان تبدي استياء من مسلكي، بل إنها تحدثت عنه إلى "**فرانكويي**" بأبلغ تقدير، ولم يقل ترحيبها بي بعده، عما اعتادت أن تستقبلني به قبله. وهكذا استطعت ان امضي موفقا وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت اعتمد عليهم في معاشي - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم صادق الميل.. واستطعت أن احتفظ - إلى النهاية - بودهم، وتقديرهم، وثقتهم، إذ رحت أتصرف في رفق ومجاملة، يرافقهما - دائما - استقامة وحزم. وبالرغم من غبائي وحماقتي، فإن السيدة "**ديبيناي**" كانت تميل إلى ان تصطحبني إلى الحفلات اللاهية التي كانت تقام في "**لاشيفريت**"، في قصر على نهر "سان دنيس"، من أملاك السيد "**دي**

---

(١) لم تعد اعترافات السيد دي "فرانكويي" لـ "روسو" سرا خافيا على احد.

فإن المذكرات التي نشرت باسم "ديبيناي" تبين لنا انها اصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها.. وانها نقلت هذا المرض إلى عشيقها، الذي قدر له ان يموت به!

بيلجراد. وكان ثمة مسرح هناك، كثيرا ما اخرجت عليه مسرحيات. وقد عهد إلي باحد الأدوار، فظللت استذكره ستة اشهر - دون انقطاع - ومع ذلك فإنني لم استغن عمن راح يهمس إلي بعباراته من البداية إلى النهاية، أثناء التمثيل!.. وبعد هذه التجربة، لم يعرض علي اي دورا

وفي تعرفي بالسيدة "**ديبناي**"، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة "**دي بيلجراد**"، التي لم تلبث ان اصبحت كونتة "**هوديتو**". وكانت أول مرة رايتها فيها، في اليوم السابق على زواجها. وقد حدثتني طويلا (١)، بتلك الألفة الساحرة التي فطرت عليها. والفيتها مفرطة في اللطف، ولكنني كنت ابعد من أن أرى انه كان مقدرا لهذه الشابة ان تشكل هدف حياتي يوما، وان تجرني - عن براءة ودون إدراك او قصد - إلى الحضيض الذي أعيش فيه اليوم!

ومع أنني لم الحدث عن "**ديدرو**" منذ عودتي من "**البندقية**"، ولا عن صديقي السيد "**روجان**"، إلا أنني لم اهمل ايا منهما، بل إن روابط الود اخذت تزداد توثقا بيني وبين الأول - بوجه خاص - يوما بعد يوم. وكما انني أرتبت "**تيريز**"، فقد أوتي هو "**نانيت**"، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا. ولكن الفارق كان في ان "**تيريزي**"، وإن ماثلت "**نانيته**" في حسن الشكل، إلا انها كانت أرق مزاجا، والطف شخصية منها، وقد خلقت لترتبط برجل محترم.. اما فتاته فكانت سليطة، "زفرة" اللسان، لا تبدي امام انظار الغير ما يخفي سوء التربية. ولقد تزوجها - ومع ذلك - وكان هذا عملا طيبا منه، إذ كان قد وعدها بالزواج. اما انا، فلم اكن بحاجة إلى أن احذو حذوه، إذ إنني لم ابذل مثل هذا الوعد إطلاقا!

ولقد اتصلت كذلك بالراهب "**دي كونديلاك**"، الذي لم يكن افضل مني حالا في الادب، ولكنه كان مهيئا لان يصير إلى ما اصبح اليوم عليه، ولعلني كنت اول من ابصر كفاءته، وقدره حق قدره. ولاح انه كذلك ارتاح إلي، وعندما احتبست نفسي في غرفتي بشارع "**جان سان دنيس**" - على مقربة من "الأوبرا" - لاضع الفصل الذي ضمنته اوابري عن "**هيسيود**"، اعتاد أن يفد في بعض الأحيان، فيتناول الغداء معي، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات. ولقد كان يعمل - في ذاك - في كتابه: "رسالة في اصل المعرفة البشرية"، الذي كان أول مؤلفاته.

فلما فرغ منه، تمثلت الحيرة في العثور على ناشر يتكفل بنشره. إذ إن اصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدئ في صلف وجفاء. وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع - إذ ذاك - ومن ثم فإنه لم يكن موردا لموضوع جذاب. ولقد تحدثت إلى "**ديدرو**" عن "**كونديلاك**" ومؤلفه، وحملته على ان يتعرف إليه. ولقد خلقا لكي يتوافقا، فسرعان ما تآلفا. واغرى "**ديدرو**" الناشر "**دوران**" على ان يقبل مخطوط الراهب، فنسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة، في مقابل كتابه الأول، مائة "**ايكو**"، وكان في هذا إيثار له وتكريم ما كان من المحتمل ان يلقاهما لولاي!.. ولما كنا نحن الثلاثة (٢) نقيم في احياء متباعدة جدا! فإننا كنا نجتمع مرة في الأسبوع، في "**الباليه رويال**". فنذهب لتناول الغداء معا في فندق "**البانييه فلوري**". لابد ان هذه المادبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلى "**ديدرو**" كثيرا، إذ إنه لم يتخلف عنها قط، وهو الذي كان يخفق دائما في ان يذكر مواعيده الأخرى. ولقد رسمت - في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تسمى "الساخر" (٣)، على ان نكتبها بالتعاقب، "**ديدرو**" وانا. ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأول، فادى هذا إلى ان اتعرف إلى "**دالمبير**"، الذي حدثه "**ديدرو**" عن النشرة. غير أن احداثا - لم تكن منظورة - اعترضت

---

(١) استعمل "روسو" هذا تعبيرا غير شائع في الفرنسية، لذلك استعملنا في الترجمة "حدثتني" بدلا من "تحدثت إلي او معي"! (٢) الراهب و"ديدرو" و"روسو". (٣) Le Persi Fleur.

طريقنا، فظل المشروع عند هذا الحد. وكان هذان المؤلفان (١) قد اضطلعا بوضع "قاموس محيط"، قصد به – في البداية – ان يكون نظيرا مترجما لموسوعة "تشامبرز"، وقريب الشبه من "قاموس جيمس الطبي" الذي كان "ديدرو" قد فرغ من ترجمته. ولقد رغب "ديدرو" في ان يشركني في بعض اجزاء مشروعه الثاني، فاقترح علي ان اضطلع بالقسم الموسيقي. وقد قبلت، وأديت مهمتي في عجلة، وفي غير إجادة، خلال الأشهر الثلاثة التي حددها لي، كما حددها لكافة المؤلفين، الذين قدر لهم ان يشتركوا في هذا المشروع. على أنني كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في الموعد المعين، فاسلمته مخطوطي، الذي كنت قد عهدت بنسخه إلى احد وصفاء السيد دي "فرانكويي"، ويدعى "ديبون"، فكتبه بخط حسن، ودفعت له في مقابل ذلك – من جيبي الخاص – عشر قطع من فئة "الايكو"، لم يقدر لي قط ان استردها. إذ إن "ديدرو" كان قد وعدني – باسم الناشرين – بقسط من الأرباح، ولم يعد إلى محادثتي بشأنه مرة أخرى، ولا فاتحته انا بصدده!

ولقد تعطل مشروع "الموسوعة" بسبب سجنه. واجتلب عليه كتابه "أفكار فلسفية" بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما. ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه "رسالة عن العميان"، الذي لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رات السيدة "دوبريه دي سان مارو" والسيد "ريومير" ان فيها ما يمسهما، ومن ثم فقد سجن "ديدرو" – من اجلها – في سجن "فانسين".. ولن يصف شيء مدى الشدائد التي احدثتها في نفسي محنة صديقي. فإذا بخيالي المكتئب – الذي اعتاد دائما ان يضخم المحن – يجمح في انزعاجه، إذ خيل إلي ان "ديدرو" قد يمكث هناك طيلة عمره، فكدت اجن لذلك، وكتبت إلى السيدة "دي بومبادور"، اناشدها إطلاق سراحه، او العمل على ان احبس معه. ولم اتلق ردا ما عن خطابي، إذ إنه كان جد بعيد عن المعقول، فلم يحدث اثرا. ولست أدعي لنفسي فخر ان يكون خطابي قد ساهم فيما حدث بعد ذلك، من تخفيف متاعب السجن على "ديدرو" المسكين. على انه لو كان قد قدر لهذا الحبس ان يستمر فترة أخرى بنفس القسوة، فلست اشك في انني كنت اموت كمدا وقنوطا، تحت اسوار ذلك السجن اللعين.. وحتى إذا كان خطابي قد احدث مفعولا يسيرا، فإنني لم اوله اهمية تذكر، حتى إنني لم اتحدث عنه إلا لنفر قليل من الناس.. ولم اتحدث عنه إلى "ديدرو" نفسه البتة!

الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بي ان اقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة. فمع الكراسة، تبدا اصول السلسلة الطويلة من المحن، التي المت بي.

لم يفتني - أثناء ترددي على دارين من الم دور "باريس" - ان اعقد بعض صلات التعارف، برغم قلة لياقتي. فتعرفت - فيمن تعرفت إليهم لدى السيدة "دوبان" - إلى الأمير الشاب وريث إمارة "ساكس جوتا"، وإلى مربية البارون "دي تون"، كما تعرفت لدى السيد "ديلا بوبلمنيير" إلى السيد "دي سيجاي"، صديق البارون "دي تون"، وكان معروفا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التي كانت لديه من ديوان "روسو" (١). ولقد دعانا البارون - اقصد دعا السيد "سيجاي" وإياي - إلى قضاء يوم او اثنين في "فونتناي - سو - بو"، حيث كان الأمير يمتلك دارا، فذهبنا.. وفيما كنا نمر بـ"فانسين"، شعرت بقلبي يتمزق، إذ رايت السجن. ولمح البارون آثار ذلك على وجهي. وعند العشاء، تحدث الأمير عن سجن "ديدرو"، فعمد البارون - ليحملني على الكلام - إلى اتهام السجين بالنزق.. وهو عين ما بدر مني في غلطتي إذ انبريت للدفاع عنه!..

ولقد اغتفر لي هذا الاندفاع، باعتباري رجلا انساق لعاطفته نحو صديق تعس، واتخذ الحديث وجهة أخرى. وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير، أحدهما يدعى "كلبفيل"، وهو رجل جم الذكاء، كان في ذلك الحين قسا، راعيا للأمير، وغدا فيما بعد مربيا له، خلفا للبارون.. اما الآخر، فكان شابا يدعى السيد "جريم"، كان يتكفل بالقراءة للأمير، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر. وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك.

ومنذ تلك الليلة، بدأت بيني وبين "كلبفيل" رابطة. لم تلبث ان تطورت إلى صداقة. اما صلتي بالسيد "جريم"، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة، إذ إنه لم يكن يحاول ان يظهر، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور، الذي خلعه عليه الثراء فيما بعد.. ولقد دار الحديث عند الغداء - في اليوم التالي - عن الموسيقى، فأجاد الخوض فيه. وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف، فقضينا اليوم في موسيقى، على معزف الأمير، ومنذ ذلك الحين بدات تلك الصداقة التي كانت جد لطيفة في اولها، وجد نكدة في آخرها، والتي ساكثر من الحديث عنها فيما بعد.

وإذ عدنا إلى "باريس"، علمت بالنبا المفرح.. بان "ديدرو" قد غادر "الزنزانة"، وانه منح قلعة ومتنزه "فانسين" كسجن له - اعتمادا على وعد شرف منه - وسمح له بان يستقبل اصدقاءه. ولكم شق علي الا استطيع ان اهرع إليه في التو!.. فلقد تاخرت يومين او ثلاثة، لدى السيدة "دوبان"، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها.. وبعد ثلاثة او اربعة قرون من التلهف، طرت لارتمي بين ذراعي صديقي!.. ويالها من لحظة جلت عن الوصف!.. ولم اجده وحيدا، بل كان معه "دالمبير" وأمين صندوق كنيسة "سانت شابيل".. وإذ دخلت، لم ار في المكان سواه، ولم افعل سوى ان قفزت، وصرخت.. والصقت وجهي بوجهه، وضممته بشدة دون كلام، سوى كلام دموعي وعبراتي.. كنت اختنق شوقا وطربا!.. وكانت اولى حركاته ان تخلص من عناقي، واستدار نحو

---

(١) الشاعر "جان باتيست روسو".

رجل الكنيسة قائلا: "اترى ياسيدي كيف يحبني اصدقائي؟" .. وإذ كنت غارقا في انفعالاتي، فإنني لم ار من هذا المسلك سوى جانبه الطيب، ولكنني إذ افكر فيه احيانا - بعد ذلك - ارى ان هذا لم يكن خليقا بان يكون اول ما يخطر ببالي لو انني كنت في موقف "ديدرو"!

ووجدته متأثرا بسجنه اشد التأثر، فلقد تركت "الزنزانة" طابعا فظيعا على نفسه، ومع أنه ارتاح إلى المقام في القلعة، وغدا حرا في التجول في متنزه لم تكن تحيط به اسوار، إلا انه كان محتاجا إلى صحبة اصدقائه؛ كي لا يستسلم للافكار السوداء. ولما كنت الشخص الذي يعطف اشد العطف على آلامه - يقينا - فقد رايت أنني ولابد - كذلك - الشخص الذي تسري عنه رؤيته، اكثر من اي شيء آخر. وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة، فقد رحت أتردد عليه بعد ذلك - مرة كل يومين - وحيدا، أو مع زوجته، لاقضي معه فترة الأصيل.

*****

وجاء الصيف في ذلك العام - ١٧٤٩ - شديد الحر. وكان ثمة فرسخان بين "باريس" و"فانسين". ولما لم اكن في سعة تمكنني من استئجار عربة، فقد اعتدت أن انطلق في الساعة الثانية - من بعد الظهر - على قدمي، إذا ما كنت وحيدا.. وكنت أغذ السير لأصل في اقرب وقت.. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق، غير وارفة الأفنان، على ما هو مألوف في تلك المنطقة، فلم تكن تضفي علي شيئا من الظل تقريبا، وكثيرا ما كنت ارتمي على الأرض، وقد ارهقني الحر والتعب، وعجزت عن المضي.. ولكي اخفف من سرعة انطلاقي، عمدت إلى اصطحاب احد الكتب خلال الرحلة. وفي ذات يوم، اصطحبت كتاب "تقويم فرنسا". وفيما كنت أقرأ إبان سيري، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لـ"ديجون"، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالي: "هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الاخلاق او على تطهيرها؟".

وما إن قرأت هذه الكلمات، حتى تمثلت كونا آخر، وغدوت إنسانا آخر. ومع انني احتفظ بذكرى حية للاثر الذي احدثه السؤال في نفسي، إلا ان تفصيلات الواقعة غابت عن بالي منذ أودعتها إحدى رسائلي الأربع إلى السيد "دي مالزيرب". وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي، والتي تستحق الذكر. فهي حين تسعفني لا تمضي في ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها. وما إن اسكب ما استودعتها إياه على الورق، حتى تتخلى عني.. وإذا ما كتبت شيئا مرة، فإني لا اعود اذكره إطلاقا!.. وترافقني هذه الظاهرة، حتى في الموسيقى. فقد كنت أعرف كثيرا من الأغاني عن ظهر قلب، قبل ان ادرسها. ولكني لم اكد احذق الغناء من "النوتة"، حتى عجزت عن استبقاء اية أغنية في ذاكرتي، وما اراني استطيع اليوم أن اردد أغنية واحدة باكملها، من كل الأغاني التي كنت احبها!

والذي اذكره بجلاء - في هذه المناسبة - هو انني عندما بلغت "فانسين" كنت في حال من الانفعال تشبه بحرا من الحمى. ولاحظ "ديدرو" ذلك، فافضيت إليه بالسبب، وقرأت عليه "مناجاة فابريشيوس" (٢)، التي كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى اشجار البلوط. فشجعني على أن انشر آرائي، وان أشترك في المباراة. وقد كان هذا!.. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين. فلقد كان ما بقي من عمري ومن تعاساتي نتيجة لامناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (٣)!

---

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمي بـ"ديجون"، لاحسن رسالة تكتب في الموضوع الذي يطرحه للمسابقة. (٢) Prosopopée de Fabricius .. وكان "فابريشيوس" قنصلا من حكام الرومان، وقد عرف بانتهاج البساطة في مباذله الخلقية، وبالوفاء، والنزاهة، والتجرد من المصلحة الذاتية. واتخذ اسمه رمزا للرجل الذي يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع في مناصب الحكم. (٣) اضاف "روسو" - في رسالة إلى "مالزيرب" تفصيلات بديعة لهذه المناسبة، إذ قال: وشعرت بدوار طاغ يستولي على راسي، يشبه نشوة السكران.. وبخفقان عنيف.. فلم اعد امالك انفاسي وانا اسير، ومن ثم ارتميت على إحدى اشجار الطريق، وقضيت نصف ساعة في هذا الانفعال، فلما افقت تبينت ان صدر صداري كان مخضلا بالدموع، دون ان أكون قد شعرت بانني ذرفتها".

وتسامت مشاعري إلى مستوى افكاري، بسرعة تفوق التصور. فإذا بكل اهوائي التافهة تختنق في فورة الحقيقة، والحرية، والفضيلة.. وأدعى من هذا إلى الدهشة، ان هذه الفورة ظلت محتدمة في فؤادي طيلة اربع او خمس سنوات اخرى، بدرجة لعلها لم تساور قلب اي بشر آخر!

واقبلت على العمل في إعداد هذا المقال، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجها في كل مؤلفاتي الاخرى تقريبا. فقد خصصتها بالساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل.

وكنت استغرق في التفكير، وأنا في فراشي مغمض العينين، واروح أقلب عباراتي في رأسي، واعاود تقليبها في عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها، أودعتها ذاكرتي إلى ان استطيع تسطيرها على الورق. ولكن الوقت الذي كان يستغرقه نهوضي وارتداء ثيابي، كان يضيعها عليّ.. فإذا ما عكفت على ورقي، لم يوافني شيء مما نظمته في بالي تقريبا.

ورأيت أن استخدم السيدة "لوفاسير" كسكرتيرة، فاسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة مني، وكانت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد ناري. وتؤدي الخدمات البسيطة التي احتاج إليها، اقتصادا لاجر الخادم، وعند وصولها، كنت أملي عليها من سريري ما اعددته في الليل. وقد أدى هذا النظام – الذي اتبعته زمنا طويلا – إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان!.. حتى إذا فرغت من المقال، عرضته على "ديدرو"، الذي ابدى ارتياحا إليه، واشار إلى بعض تعديلات. على ان هذا العمل الادبي المليء بالحرارة والقوة، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما، فهو – دون كل ما انساب من قلبي – أضعفها في الحجة، وأفقرها إلى التناسب والتناسق. على ان فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة، مهما تكن المواهب التي فطر المرء عليها!

وارسلت هذا المقال، دون ان اتحدث عنه إلى احد، اللهم إلا "جريم" – فيما أظن – إذ كنت قد بدات ارتبط وإياه باعظم ود، منذ التحق بخدمة الكونت دي "فريز". وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا، فكنت اقضي مع "جريم" حوله كل لحظات فراغي، نغني الالحان الإيطالية، واغاني ملاحي الجندول، دون انقطاع او ملل من الصباح حتى المساء، او – بالاحرى – من المساء إلى الصباح. وعندما كنت لا أوجد في دار السيدة "دوبان"، فقد كان من المحقق ان أوجد لدى السيد "جريم"، أو معه – على الاقل – سواء في نزهة او في مسرح. وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح "الكوميدي ايتاليين" – الذي كنت استمتع بحق دخوله بالمجان، والذي لم يكن "جريم" يحبه – واصبحت أتردد معه على "الكوميدي فرانسيز"، الذي كان مولعا به. وقصارى القول أن جاذبية قوية ربطتني بهذا الشاب، حتى إنني اصبحت لا اطيق بعدا عنه، وحتى إن العمة المسكينة (١) غدت موضع إهمال مني!.. اقصد انني أقللت من زيارتي إياها، إذ إن عاطفتي لم تهن لحظة واحدة خلال حياتي!

ولقد ادت استحالة تقسيم وقت فراغي الضئيل بين ميوني، إلى ان تجددت لدي، بقوة لا قبل لي بها، الرغبة – التي ساورتني منذ وقت طويل – في ان يكون لي ولـ"تيريز" مسكن واحد. ولكن العقبة التي تمثلت في عدد أفراد أسرتها، وفي الحاجة إلى المال لشراء الاثاث – بوجه خاص – جعلتني اعدل حتى ذلك الحين. ثم سنحت لي فرصة المحاولة، فانتهزتها.. ذلك ان السيد "دي فرانكويي" والسيدة "دوبان" شعرا تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك في العام، مبلغ غير كاف، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبي السنوي إلى خمسين "لوي". وفضلا عن هذا، فإن السيدة "دوبان" لم تكد تسمع بانني كنت أسعى إلى تأثيث مسكن خاص لي، حتى ساعدتني ببعض نفحات من

---

(١) ذكر "روسو" ان هذا اللقب اطلقه اصدقاؤه على "تيريز".

اجل هذا الغرض. وبالإضافة إلى الأثاث الذي كان لدى "تيريز" من قبل، لممنا شملنا، واستاجرنا مسكنا صغيرا في مبنى "اللامحدوك"، بشارع "جرينيل سانت أونوريه"، لدى قوم طيبي السمعة جدا، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع، واقمنا هناك في أمان وارتياح سبع سنوات.. إلى ان نزحت إلى "الأرميتاج".

*****

كان والد "تيريز" كهلا طيبا، مفرط الدعة، يخاف من زوجته كل الخوف؛ من ثم فقد اطلق عليها لقب "الملازم كريمينيل" (١) الذي خلعه "جريم" بعد ذلك - على سبيل الدعابة - على ابنتها. ولم تكن السيدة "لوفاسير" تفتقر إلى حضور البديهة، واقصد في ادب الخطاب، بل إنها كانت تفخر بادبها، وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقي، بيد انها كانت ذات رياء غريب لم اكن اطيقه. وكانت تقدم لابنتها من النصح اسواه، وقد حاولت ان تحملها على ان تخدعني وتمكر بي!.. وكانت تداهن أصدقائي - كلا على حدة - وتحاول ان تتقرب إلى الواحد منهم على حساب الآخر، او على حسابي أنا!.. وفيما عدا ذلك فإنها كانت اما طيبة؛ لأنها وجدت ان مصلحتها في ان تكون كذلك. وكانت تتستر على اخطاء ابنتها، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك.. هذه المراة التي اغرقتها بعنايتي ورعايتي، وبالهدايا الصغيرة، والتي كنت اتوق من قلبي إلى أن احمل نفسي على حبها، كانت - بسبب استحالة نجاحي في هذا الصدد - السبب الاول للتعب الذي كنت اعانيه في مسكني الصغير. وفيما عدا هذا، فإن بوسعي أن اقول: إنني تذوقت - خلال هذه السنوات الست أو السبع - اكمل هناءعائلي يسمح به الضعف البشري!

كان قلب "تيريزي" قلب ملاك، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا، فاخذنا نزداد إحساسا - يوما بعد يوم - بأن كلا منا خلق للآخر. ولو قدر لمتعنا ان توصف، لكانت بساطتها داعية للضحك، سواء في ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين، حيث كنت انفق - بعظمة - ثمانية او عشرة "صو" في إحدى الحانات.. أو عشاؤنا البسيط في النافذة، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة.. فكانت هذه تستخدم - بهذا الوضع - كمائدة، وكنا نستنشق الهواء الطلق، ونشاهد ما حولنا، والمارة.. ومع اننا كنا في الطابق الرابع. إلا أنه كان في وسعنا أن نطل على الطريق، ونحن نتناول الطعام، ترى من ذا الذي يستطيع ان يصف، بل من ذا الذي يستطيع أن يشعر بمفاتن هذه الوجبات التي كانت تتالف - في مجموعها - من ربع رغيف من الخبز الخشن، وبعض الكريز، وقطعة صغيرة من الجبن، ونصف "سيتييه" (٢) من الشراب كنا نشربه معا؟.. أينها الصداقة، والثقة، والألفة، وراحة البال.. ما الذ مذاقك!. لقد كنا نمكث احيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل، دون ان نفكر في شيء ودون ان نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه!

.. ولكن لندع هذه التفصيلات التي قد تبدو عقيمة، او مضحكة، فلقد اعتدت ان اشعر - وأن اصرح - دائما بأن الهناءة الحقة لا توصف!

ولقد حظيت - في نفس تلك الفترة تقريبا - بمتعة اخرى، كانت اكثر خشونة من هذه.. وكانت آخر متعة من نوعها اندم عليها. فلقد ذكرت ان "كلبفيل" - القس - كان لطيفا، ولم تكن علاقاتي

---

(١) لقد Lieutenant Criminl كان لقبا في "الشاتيل"، وهو الاسم الذي يطلق على دار للقضاء في "باريس"، تضم اثنتين من اقدم المحاكم، إحداهما مدنية والأخرى جنائية. (٢) نصف "السيتييه" يعادل جزءا على ١٦ من الجالون.

به تقل توثقا عن علاقتي بـ"جريم"، حتى اصبحنا متآلفين. وكانا يتناولان الطعام احيانا على مائدتي. وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات "كلبفيل"، ونكاته المهذبة، والمداعبات الجرمانية من "جريم"، الذي لم يكن بعد قد طلق العبث.. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة، بل كان المرح يملأ مكانها. وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا، فلم نعد نطيق افتراقا. وكان "كلبفيل" قد اثث مسكنا لفتاة صغيرة، لم تكف عن ان تهب نفسها لكل الناس؛ لانه لم يكن قادرا على ان يكفلها وحده!.. وفي ذات مساء، كنا نلج أحد المقاهي، وإذا بنا نجد "كلبفيل" خارجا منه، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها. فداعبناه ببعض الفكاهات، التي انتقم لنفسه منها بلباقة، إذ اضطرنا إلى ان نشاركه نفس العشاء، ثم راح يسخر منا بدوره. وبدت لي الفتاة المسكينة حلوة السجايا، مفرطة الدعة، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها - بقدر الإمكان - عجوز ماكرة كانت برفقتها. واستخفنا الحديث والشراب إلى درجة نسينا معها انفسنا. ولم يشأ "كلبفيل" الطيب ان ينتقص من كرمه، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة، التي لم تدر اكان لها ان تضحك ام ان تبكي!.. ولقد اعتاد "جريم" دائما أن يؤكد انه لم يمسها، وانه ما طال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا، ونفاد صبرنا. وإذا كان قد تعفف عنها، فمن غير المحتمل ان ذلك كان عن توجس من الفتاة، إذ إنه - قبل التحاقه بخدمة الكونت "دي فيريز"، وإقامته في داره - اقام لدى فتيات من غانيات حي "سان روش" بالذات.

وخرجت من شارع "ديه موانو" - حيث كانت الفتاة تقيم - وانا اشد استحياء من القديس "بريو"، حين بارح المنزل الذي اسكر فيه. ولقد كنت اتمثل قصتي بجلاء، وانا اكتب قصته!.. ولاحظت "تيريز" ان في الامر شيئا، لاسيما وانني كنت مرتبكا، وكنت ابدو ساخطا على نفسي. وقد تخففت من العبء، بان اعترفت لها بصراحة وإيجاز. وكم احسنت صنعا، إذ إن "جريم" جاءها - في الصباح التالي - متشفيا، وروى لها ذنبي في مبالغة. ومنذ ذلك الحين، لم يكف قط عن ان يذكرها به في خبث وإغاظة. وكان هذا أشنع ذنوبه، فقد كان من حقي - إذ ائتمنته على سري طواعية، وفي غير تحفظ - ان اتوقع منه الا يحملني على ان اندم يوما على هذه الثقة.

ابدا لم اشعر بطيبة قلب "تيريزي"، كما شعرت بها في هذه المناسبة، فقد ابدت من الذهول والاستنكار لتصرف "جريم"، اكثر مما ابدت من الاستياء لعدم وفائي، فلم اتجشم اكثر من ان تقبلت منها عتابا رقيقا، مؤثرا، لم المح خلاله اي اثر لسخط او ضغينة!.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة، تعادل طيبة قلبها، وهذا جل ما يقال!.. على ان ثمة مثالا لذلك، جديرا بالذكر، يحضرني الآن.. فلقد ذكرت لها ان "كلبفيل" كان قسا، وراعيا لامير "ساكس - جوتا". وكان القس - في رأيها - رجلا ممتازا، حتى إنها في تخبطها بين الأفكار المتباينة، اخذت "كلبفيل" على انه "البابا". ومن ثم فقد ظننتها اختبلت، حين انبأتني - ذات مرة - عند عودتي إلى المنزل، بان "البابا" قد حضر لزيارتي. واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت باسرع ما وسعني لاروي هذه القصة لـ"جريم" و"كلبفيل"، الذي لصق به اسم "البابا".. كما اطلقنا على غانية شارع "ديه موانو"، اسم "الماما جان" (١)!.. وكان هذا مثار ضحك عز علينا ان نخمده، حتى كدنا نختنق!.. إن أولئك الذين جعلوني اقول - في خطاب حلا لهم أن ينسبوه إليّ - إنني لم أضحك في حياتي سوى مرتين، لم يعرفوا شيئا عني في هذه الفترة، او في ايام صباي، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا!

---

(١) Papesse.. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من "الماما"!

من سنة ١٧٥٠

إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العام التالي – سنة ١٧٥٠ – أن مقالي فاز بالجائزة في "ديجون"، وكنت قد كففت عن التفكير فيه. فأيقظ هذا النبأ – من جديد – كل الأفكار التي كانت قد أوحت إلي به، وبث فيها قوة جديدة، وأدى إلى أن تحركت – للمرة الأولى – رواسب البطولة والفضيلة التي كان أبي، ووطني، و"بلورتارخ" قد أودعوها قلبي في طفولتي. فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرا وفاضلا، وأن أرتفع بنفسي فوق اعتبارات الحظ والرأي العام، وأن أكون مستقلا بذاتي. ومع أن الحياء الزائف، والخوف من الرأي العام منعاني – بادئ الأمر – من أن أمضي وفقا لهذه المبادئ، ومن أن أخرج فجأة، وعلانية، على عادات وعرف القرن الذي أعيش فيه.. إلا أنني منذ ذاك الحين عقدت عزمي، ولم أرجئ تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كي يغدو موفقا.

وفيما كنت أرسم فلسفتي عن واجبات الإنسان، وقع حادث جعلني أفضل التفكير في واجباتي الشخصية. فقد كانت "تيريز" حبلى للمرة الثالثة.. وفي أمانة تامة بيني وبين نفسي، وفي اعتزاز مفرط، صدف بي عن الرغبة في أن تكون أعمالي مكذبة لمبادئي، شرعت أدرس مصير أولادي وعلاقتي بأمهم، على ضوء قوانين الطبيعة، والعدالة، والعقل، والدين.. الدين القدسي، الأزلي، كما أراده خالقه، لا كما شوهه البشر في تظاهرهم بالرغبة في تطهيره، ولا كما حوله الناس – بقوانينهم الموضوعة – إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات.. فإن فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه!

ولو أنني كنت مخطئا في استنتاجاتي، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة، التي أقبلت بها عليها.. ولو أنني كنت من أولئك الناس ذوي المنبت الوضيع، وذوي الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوي النفوس التي لا ينبت فيها أي إحساس صادق بالعدالة والإنسانية، لكان جمود قلبي ميسور الإدراك. ولكن ما أوتيت من حرارة القلب، وإرهاف الحس، وسهولة التعلق بالناس، وهذا السلطان الذي كانت تفرضه علي علاقاتي بهم، وهذه اللوعات القاسية التي كنت أعانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات.. وهذه النية الطيبة التي فطرت عليها نحو أقراني، وحبي المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق، وما هو جميل، وما هو عدل.. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه، وهذا العجز عن الكراهية والحقد، بل وعن تمنيهما.. وهذا الحنان، وهذا الشعور الناعم الوثاب الذي أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف.. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتآلف في قلب واحد، مع الحرمان الذي يدوس – في غير ما تورع – أعذب الالتزامات وأحلاها؟.. لا!.. إنني لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل، فإن "جان جاك" لم يكن قط عديم الشعور، ناكرا لصلات الرحم، ولا كان أبا جاحدا، لحظة واحدة في حياته!.. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت، ولكني لم أكن قط قاسي القلب.. ولو أنني شئت أن أفضي بحججي، لتكلمت أكثر مما ينبغي. وبما أنها كانت من القوة بحيث أغوتني، فإنني أخشى أن تغوي كثيرين غيري، ولست أبغي أن أعرض الشبان – الذين قد يقرأون حديثي – لأن ينساقوا إلى الإساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ. ومن ثم فسأكتفي بأن أقول إن غلطتي كانت على هذا النسق: إنني إذ أسلمت أولادي إلى الدولة لتربيهم! لعجزي عن تنشئتهم بنفسي، وإذ قضيت عليهم أن يصبحوا عمالا أو مزارعين، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة، كنت أظنني أؤدي تصرفا يليق بأب مواطن صالح،

وكنت اتمثل نفسي عضوا في جمهورية "أفلاطون". ولقد اشعرتني حسرات قلبي - في اكثر من مرة، فيما بعد - انني كنت مخطئا، ولكن عقلي كان ابعد من ان يوحي إليّ بنفس الراي، ومن ثم فإنني كثيرا ما باركت السماء لانها صانتهم مما لقيه ابوهم في حياته، ومن الحظ الذي كان يتهددهم إذا ما اضطررت إلى التخلي عنهم. ولو انني اسلمتهم إلى السيدة "ديبيناي". او السيدة "دي لوكسمبورج"، اللتين رغبتا - فيما بعد - في ان تكفلاهم، سواء بدافع من الصداقة، أو من الكرم، او من اي حافز آخر.. لو انني فعلت ذلك، فهل تراهم كانوا يغدون اكثر سعادة، او ينشئون رجالا امناء محترمين، على الاقل؟..

لست ادري، ولكنني واثق بانهم كانوا خليقين بان ينشئوا على كراهية ابويهم، وربما على الغدر بهما!.. ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة، انهم لم يعرفوا ابويهم!

وهكذا اسلم ابني الثالث إلى ملجأ اللقطاء، كما كان شان الطفلين السابقين.. وكذلك كان شان الطفلين التاليين، إذ إنني اوتيت خمسة. ولقد بدا لي هذا الإجراء ملائما، حكيما، مشروعا، إلى درجة انني إذا كنت لم افخر به علانية، فإنما كنت اصدر في ذلك عن شيء من مراعاة خاطر امهم.. على انني انبات به كل اولئك الذين كنت قد اطلعتهم على علاقتي بها.. قلته لـ"ديدرو"، ولـ"جريم"، كما ذكرته - فيما بعد - للسيدة "ديبيناي"، ثم للسيدة "دي لوكسمبورج" بعد ذلك.. ولقد فعلت ذلك صراحة، وبمطلق الحرية، دون اي اضطرار، وكان بوسعي ان اخفي الامر بسهولة عن الناس اجمعين.. إذ إن الآنسة "جوان" (١) كانت امينة، كتومة جدا، وكان بوسعي ان اطمئن إليها كل الاطمئنان. وكان الوحيد من اصدقائي، الذي كنت اجد مصلحة في أن اكشف له سري، هو الطبيب "تيري"، الذي عني بعمتي المسكينة، في إحدى مرات الوضع، عندما ساءت حالها. ومجمل القول إنني لم احط تصرفي بشيء من الغموض، لا لانني لم اتعلم قط أن اكتم شيئا عن اصدقائي فحسب، وإنما لانني لم اكن ارى - في الواقع - اي ضير في ذلك. إذ إنني - إذا قدرنا كافة الاعتبارات - قد اخترت لأولادي الخير، او ما آمنت بانه الخير. بل إنني كنت اتمنى - ولا ازال - لو انني نشات وتربيت على شاكلتهم!

*****

وفي الوقت الذي كنت اسجل فيه اعترافاتي هذه، كانت السيدة "لوفاسير" تحذو حذوي - من ناحيتها - بيد انها كانت تعرض آراء اقل تشويقا. وكنت قد قدمتها - هي وابنتها - إلى السيدة "دوبان" التي اولتهما الف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لي. ولقد اطلعتها الأم على سر ابنتها. فما كان من السيدة "دوبان" الطيبة، السخية، التي لم تطلع قط على مدى حرصي على ان اوفر لهما كل اسباب العيش - برغم تواضع مواردي - إلا كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عني هذه سره، بأمر من امها، طيلة مقامي في "باريس"، فلم تعترف لي به إلا في "الأرميتاج"، وبعد ان كشفت لي عن عدة امور اخرى كانت تخفيها في صدرها. ولقد كنت اجهل ان للسيدة "دوبان" علما بشيء، إذ إنها لم تبد إطلاقا اية إشارة.. كما انني اجهل ما إذا كانت السيدة "دي شينونسو" - زوجة ابنها - على علم بالامر هي الأخرى. على ان السيدة "دي فرانكويي" - زوجة ابن زوجها - احاطت به، ولم تستطع ان تمسك لسانها، فتحدثت إلي عنه في العام التالي، بعد ان كنت قد تركت دار الأسرة. وقد حملني هذا على ان اكتب لها - عن هذا الموضوع - رسالة توجد في أوراقي، وقد عرضت فيها من حججي، ما كان بوسعي ان اذكره دون ان اقحم السيدة "لوفاسير" واسرتها، إذ إن

---

(١) الآنسة "جوان" هي القابلة او المولدة التي كانت تعنى بـ"تيريز" عند الوضع، وتتكفل بتسليم الاطفال إلى ملجأ اللقطاء.

معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم، وقد تكتمتها (١).

إنني لأطمئن إلى كتمان السيدة "دوبان" للأمر، وإلى مودة السيدة "دي شينونسو"، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة "دي فرانكويي"، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سري مدويا، بوقت طويل. ومن ثم فإنه ما كان ليتفشى إلا على ألسنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات!..

والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بيني وبينهم الصلات. وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم في الواقع، دون رغبة مني في أن أعفي نفسي من اللوم الذي استحقه، بل إنني لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقي، على أن أقضي عليهم بما يستحقه خبثهم. إن ذنبي لعظيم، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ.. فلقد أهملت واجباتي، بيد أن الرغبة في الإيذاء لم تداخل فؤادي أبدا، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث بإقناع عن أطفال لم يرهم إطلاقا.. ولكن خيانة ثقة الصداقة، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات، ونشر الأسرار التي سكبت في صدورنا، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذي ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا.. هذه كلها ليست أخطاء، ولكنها خسة نفس وسخيمة!

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتي، لا تبريرات تصرفاتي؛ ومن ثم فإنني أقف - في هذا الموضوع - عند هذا الحد. ومن واجبي أن أكون صادقا، وللقارئ أن يكون عادلا. ولن أطالبه قط بأكثر من هذا.

*****

وأدى زواج السيد "دي شينونسو" إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها. فقد كانت شابة مفرطة اللطف، بدا أنها آثرتني من بين الكتبة الذين كانوا في خدمة السيد "دوبان".. وكانت الابنة الوحيدة للسيدة "فيكونتة دي بروشيشوار"، الصديقة الحميمة للكونت "دي فريبز"، وبالتالي لـ"جريم" الذي كان ملحقا بخدمته. على أنني كنت الشخص الذي قدمه إلى ابنته وأدخله دارها! (٢) ولكن طباعهما لم تتفق، ومن ثم فإن هذه الصلة لم تدم طويلا. أما "جريم" - الذي لم يكن يضع عينيه، منذ ذلك الحين، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد آثر الأم، التي كانت من نجوم المجتمع الراقي، على الابنة التي كانت تنشد أصدقاء تثق بهم، وترتاح إليهم، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء!.. وإذ لم تجد السيدة "دوبان" في السيدة "دي شينونسو" كل ما كانت ترجوه من لين، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة. فآثرت السيدة "دي شينونسو" - التي كانت معتزة بميزاتها، وربما بمنبتها أيضا - أن تنبذ ملاهي المجتمع، وأن تبقى وحيدة - تقريبا - في مخدعها، على أن تحتمل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها!

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقي بها، مدفوعا بذلك الميل الطبيعي الذي كان يجتذبني إلى التعساء. ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة. وكان حديثها جد جذاب لي. إذ إنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب، ومع عمقه هذا، فإنها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها!.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو أنها أقامت عودها مستويا. أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة، في جمال نادر. مما كان يذكرني بـ"ماما" البائسة في أوج شبابها، فكان يهيج فؤادي. بيد أن المبادئ القويمة التي كنت قد رسمتها لنفسي - من عهد قريب - وآليت أن أتبعها مهما تكبدت، جعلتني في أمان منها، ومن مفاتنها!..

(١) سترد هذه "الأسباب الحاسمة" في الكراسة التاسعة. (٢) يقصد "روسو" أن العروس كانت ابنة الكونت "دي فريبز" من علاقته "بالفيكونتة دي روشيشوار"، ولكنها تنسب "للفيكونت"، ومن ثم فإنها كانت تجهل أباها الحقيقي، الذي قدم إليها كصديق!

ولقد اعتدت – طيلة فصل الصيف باكمله – ان اقضي معها ثلاث او اربع ساعات في عزلة، القنها الحساب في درس جدي، واضايقها بارقامي التي لا تنتهي، دون ان اقول لها كلمة غزل واحدة، ودون أن أرمقها بنظرة!.. ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة، لما كنت قمينا بان اكون عاقلا او غبيا إلى هذا الحد.. ولكن القدر كان قد كتب علي الا احب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة في حياتي، وان تكون اول وآخر زفرات قلبي على امرأة غير هذه!

ولقد كنت دائما – منذ اقمت في دار السيدة **"دوبان"** – راضيا بنصيبي، لا ابدي اية رغبة في ان يتحسن. ولقد جاءت الزيادة التي اضافتها السيدة إلى مرتبي – بالاشتراك مع السيد **"دي فرانكويي"** – صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب.. وفي هذا العام، فكر السيد **"فرانكويي"** – الذي كانت صداقته لي تزداد يوما بعد يوم – في أن يضعني في مركز أعلى قدرا، وأكثر ثباتا. ولقد كان محصلا عاما لمالية **"فرنسا"**، وإذا كان السيد **"دودوييه"** – أمين خزانته – مكتهلا وغنيا، وراغبا في ان يعتزل العمل، فقد عرض علي السيد دي **"فرانكويي"** هذا المنصب.. ولكي اعد نفسي لتوليه، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد **"دودوييه"** لاتلقى عنه الإرشادات الضرورية. وسواء كنت لم اوت موهبة لهذا العمل، أو ان **"دودوييه"** – الذي بدا لي راغبا في ان يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر – لم يكن يلقنني اصول المهنة عن طيب خاطر، فإنني رحت الم بالمعلومات التي كنت محتاجا إليها، في بطء وسوء استيعاب.. ولم ينفذ إلى راسي قط نظام الحسابات التي كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة. على انني وإن لم أستوعب دقائق المهنة، لم اتوان قط عن أن امضي مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة. بل إنني شرعت فيها، فتوليت السجلات والخزانة، وصرفت وتسلمت نقودا، واصدرت إيصالات. ومع ان ما لدي من ميل اقل من ان يؤهلني لهذه المهنة، إلا ان تقدم سني جعلني حكيما، فعقدت العزم على ان اتغلب على نفوري من ان انصرف بكل نفسي إلى وظيفتي. ولكن سوء الحظ شاء – في الوقت الذي بدات آلف عملي فيه – ان يقوم السيد **"دي فرانكويي"** برحلة قصيرة، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته، التي لم يكن يودعها – في ذلك الوقت – سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين الفا وثلاثين الفا من الفرنكات. فإذا القلق وانشغال البال، اللذان سببتهما هذه الأمانة، يقنعانني بانني لم أخلق لأكون صرافا.

ولست أرتاب في ان اللهفة التي رحت أرتقب بها عودة السيد **"دي فرانكويي"** قد ساهمت في المرض الذي وقعت فريسته عقب هذه العودة.

ولقد قلت في الجزء الأول من اعترافاتي إنني كنت موشكا على الموت عندما ولدت. وكان ثمة عيب في تكوين المثانة، ادى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة، خلال سني عمري الأولى، فكانت عمتي **"سوزان"** – التي تولت العناية بي – تلقى عناء لا يمكن تصوره، كي تصون حياتي. على أنها افلحت في ذلك، واستطاعت بنيتي القوية أن تتغلب في النهاية، فتحسنت صحتي كثيرا خلال صباي.. وماعدا نوبة الضعف والهزال التي ذكرتها من قبل، وماعدا كثرة احتياجي إلى التبول، الأمر الذي كان أقل ارتفاع في الحرارة يجعله عملية متعبة.. فيما عدا ذلك فإنني بلغت الثلاثين من عمري، دون ان أحس بما كان في جسمي من عيب سابق.

واصابتني اولى العلل عند وصولي إلى **"البندقية"**. فإن عناء الرحلة، والحر الشديد الذي عانيته، جلبا علي رغبة مستمرة في التبول، واوجاعا في الكليتين، لازمتني حتى مقدم الشتاء.

ولقد ايقنت بعد زيارتي للغانية أنني ميت، ولكنني – مع ذلك – لم اعان اقل تعب.. وبعد ان ارهقت نفسي بالوهم – اكثر مني بآلام جسدية – بسبب **"جوليتا"**، إذا بصحتي خير مما كانت في

أي يوم. وظللت هكذا إلى ما بعد سجن "ديدرو"، إذ إن اشتداد سخونة دمي - خلال رحلاتي إلى "فانسين" في الحر القائظ الذي كان سائدا إذ ذاك - أدى إلى ألم عنيف في الكليتين، لم استعد - مذ واتاني - صحتي الأولى!

وفي الفترة التي أتحدث عنها، أدى إسرافي في إرهاق نفسي بالعمل البغيض في تلك الخزانة اللعينة، إلى أن اضمحلت صحتي أكثر من ذي قبل، ومكثت في فراشي خمسة أسابيع أو ستة، في أشد اغتمام يمكن تصوره. وأوفدت السيدة "دوبان" لعيادتي "موران"، الذي كان ذائع الصيت، والذي سبب لي - برغم مهارته ورقة لمساته - أوجاعا لا تخطر ببال، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتي، فنصحني بأن ألجأ إلى "داران"، الذي استطاع بمجساته - وكانت أكثر مرونة - أن يخفف عني بعض الأوجاع. على أن "موران" - حين أنبأ السيدة "دوبان" بحالي - صارحها بأنني لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر. وحملني هذا الحديث - الذي نمى إلي - على أن أفكر جديا في حالي، وفي حماقة التضحية براحة جسمي وبالي في الأيام القلائل التي تبقت لي في الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأي ميل!.. ومن ناحية أخرى، كيف كان لي أن أوفق بين المبادىء القاسية التي اتخذتها لنفسي،، وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا؟.. ألم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو - وأنا المحصل العام للمالية - إلى التجرد من المصلحة الذاتية، وإلى الفقر؟

واشتد تخمر هذه الآراء في رأسي باشتداد الحمى، وراحت تتماسك بقوة، حتى إن شيئا لم يقو - منذ ذاك الحين - على تبديدها، فوطدت عزمي - خلال فترة نقاهتي - على تنفيذ ما استقر عليه رأيي خلال اشتداد الحمى!.. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة، معتزما أن أقضي في الاستقلال والفقر، الفترة القصيرة التي تبقت لي في الحياة، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا، دون أن أحفل البتة برأي الناس.

وكانت العقبات التي اضطررت لمغالبتها، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها، فوق كل تصور. وقد وفقت بقدر المستطاع، بل وأكثر مما كنت أرجو، ولو أنني نجحت في أن أدفع عني ربقة الصداقة، بقدر توفيقي في التحرر من ربقة الرأي العام، لبلغت غاية مأربي، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوق فان، وأدعاها - على الأقل - للفضيلة.. على أنني - إذا رحت أتخبط تحت أقدام الأحكام الخرقاء التي تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء - أسلم نفسي وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، والذين كانوا يغارون من أن يروني أشق وحدي طريقا جديدة. وأنا أبدو جد منهمك في إسعاد نفسي، فلم يعودوا يفكرون - في الواقع - إلا في أن يجعلوني مثارا للضحك، وشرعوا في العمل على تحقيري؛ لكي يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتي!.. كان تغير شخصيتي، الذي بدأ في هذه الفترة - وليست شهرتي الأدبية - هو الذي أثار غيرتهم مني.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لي أن ضربت بمسلكي مثالا بدا أنه ضايقهم!.. لقد فطرت على الود، فكانت طباعي السلسة الوديعة تغذي هذا الود دون عناء. ولقد كنت محبوبا من كل أولئك الذين عرفوني، طالما كنت أعيش مجهولا لدى الرأي العام، فلم يكن لي عدو واحد.. على أن اسمي لم يكد يلمع، حتى أصبحت بلا أصدقاء!.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أنني كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، في حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التي يتيحها هذا الاسم، إلا لكي يجروني إلى الهلاك!.. ولسوف تتكشف في سياق هذه المذكرات، تلك المؤامرة البشعة. على أنني سأكتفي - في الوقت الحاضر - بأن أشير إلى أصلها، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها!

كان لابد لي، في الاستقلال الذي اردت ان احيا فيه، من ان احصل على القوت. وصور لي خيالي وسيلة جد سهلة، هي نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة. ولو ان عملا أكثر ثباتا من هذا كان يؤدي إلى الغاية ذاتها، لاقدمت عليه.

ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولي، كما انها كانت الوحيدة الكفيلة بان تهيئ لي قوتي من يوم إلى آخر، دون ان تقتضيني خضوعا او تبعية لأحد. ومن ثم قنعت بها.. واعتقادا مني بانني لم اعد بحاجة إلى ان اعول هم المستقبل، خنقت صوت غروري، وانقلبت من صراف لاحد رجال المال، إلى ناسخ موسيقي!.. وظننت انني قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلني ندم يذكر، حتى إنني لم اتخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لاعود فاحترفها بمجرد ان وسعني ذلك.

ولقد ادى نجاح مقالي الاول، إلى زيادة تيسير تحقيق هذا القرار. وقد تكفل "ديدرو" بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة. وقد كتب لي - وانا طريح الفراش - رسالة اعلنني فيها بنشر المقال ونتيجة ذلك. فقال: "لقد حظي بكل إطراء.. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل". ولقد منحني هذا التحبيذ - الذي أولاه الراي العام عن رضا لكاتب مغمور - أول اطمئنان حقيقي إلى كفاءتي التي كنت في ريب منها قبل ذلك، برغم مشاعري الداخلية. وتبينت النفع العظيم الذي كان بوسعي ان اظفر به من هذه الكفاءة، بالنسبة إلى القرار الذي كنت اهم بتنفيذه، وقدرت ان ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية، لن يعاني الحاجة إلى العمل إطلاقا!

وما إن استقر رايي وتوطد عزمي، حتى كتبت إلى السيد "دي فرانكويي" انبئه بذلك، واشكر له - وللسيدة "دوبان" كذلك - كل انعمهما، سائلا إياهما ان يعهدا إلي بما يرغبان في نسخه. ولم يفقه "فرانكويي" من هذه الرسالة شيئا، بل ظن انني مازلت في فترة اشتداد الحمى، فهرع إلى داري، ولكنه لم يستطع ان يزعزعني عنه.. وذهب فانبأ السيدة "دوبان" والناس كلهم بانني قد اختبلت، فتركته يقول ما شاء، ومضيت في طريقي. وبدات إصلاح ملابسي بنفسي، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب، وعن الجوارب البيضاء، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر المستعار، وطرحت عني سيفي، وبعت ساعتي، وهتفت لنفسي في غبطة تفوق التصور: "الحمد للسماء، فلن تعود بي حاجة إلى تعرف كم الساعة!". وتكرم السيد "فرانكويي" بالتريث فترة طويلة، قبل ان يتصرف بشأن خزانته، حتى إذا راى - في النهاية - انني مصر على قراري، عين السيد "دالبيار"، الذي كان قبل ذلك مربيا ومعلما لـ "شينونسو" في صغره، والذي كان معروفا في ميدان فلاحة البساتين بكتابه عن "الزهور الباريسية" (١).

ومما خفف من عنت انقلابي التقشفي، أنني لم اطبق الزهد - في البداية - على ملابسي الداخلية المتبقية مما كان لدي في "البندقية" فقد كانت جميلة ووفيرة، وكنت مولعا بها بوجه خاص. وبفضل اضطراري إلى ان اتخذها مظهرا للنظافة، إذا بي اجعلها موضع بذخ وترف، الامر الذي لم يلبث ان ابهظني.

ولقد تكرم علي شخص ما فخلصني من هذه الربقة. ففي امسية عيد الميلاد، وبينما كانت الخادمات في قداس الغروب، بينما كنت في "حفلة موسيقية روحية" (٢) اغتصب باب غرفة في اعلى الدار، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله.. وسرقت الثياب جميعها، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لي من ابدع الاقمشة، كانت تؤلف الشطر الاكبر من ثيابي الداخلية. ومما ذكره

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذا قوله: "لست اشك إطلاقا في ان "فرانكويي" وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه، ولكني استشهد بما قاله "فرانكويي" - إذ ذاك - وما ظل يردده للملأ وقتا طويلا بعد ذلك، إلى ان تكونت المؤامرة. ولابد ان ذوي الإدراك السليم والام الطيبة، لا يزالون يذكرون قوله". (٢) وهي حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية، كنوع من الرياضة الروحية.

الجيران شوهد رجل يغادر الدار – في تلك الفترة – حاملا بعض اللفائف. ولقد ارتابت "تيريز" وإياي في اخيها، الذي عرف بانه امرؤ سوء.. وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية، ولكنه تأكد بادلة كثيرة عززته لدينا، بالرغم من استنكارها إياه. ولم اجسر على القيام بتحقيق دقيق، خشية ان اكتشف اكثر مما كنت احب. على ان الأخ لم يظهر بعد ذلك في داري، وما لبث أن اختفى تماما. ولقد رثيت لسوء طالع "تيريز" وطالعي، لارتباطنا باسرة على هذه الشاكلة، ورحت اناشدها اكثر من ذي قبل، ان تطرح عنها عبئا خطيرا كهذا. ولقد ابرائي هذا الحادث من ولعي بالثياب الداخلية الجميلة، ولم اعد أقتني بعد ذلك سوى ثياب من اقمشة عادية، تتمشى مع بقية ملابسي.

وإذ استكملت انقلابي الإصلاحي بهذا الشكل، لم يعد لي من هم سوى ان ادعمه واعززه، بالعمل على ان اجتث من قلبي كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس.. وكل ما كان بوسعه ان يحولني – بدافع من الخوف أو من اللوم – عن كل ما كان في حد ذاته طيبا ومعقولا. وإلى جانب الضجة التي احدثها مقالي، أثار قراري ضجة هو الآخر، وجلب علي عملا مكنني من ان ابدأ مهنتي الجديدة بتوفيق لا بأس به. على ان عدة أسباب عاقتني عن ان انجح في هذه المهنة بالقدر الذي كنت قمينا بان احصل عليه في ظروف اخرى. وكان أول هذه الاسباب صحتي السيئة. فإن مرضي الاخير خلف معقبات منعتني من أن استعيد حالتي الصحية السابقة، وإني لاعتقد بان الاطباء الذين أسلمت نفسي إلى رعايتهم، الحقوا بي من الضرر فوق ما الحقه المرض. فلقد سعيت بالتوالي إلى "موران"، فـ"داران"، فـ"**هيلفيتيوس**"، فـ"**مالوان**"، فـ"**تييري**".. وكانوا جميعا من الاساتذة، وكلهم من أصدقائي، وقد عالجني كل منهم على طريقته دون ان يخفف عني شيئا، بل إنهم اضعفوني كثيرا. وكنت كلما حملت نفسي على اتباع إرشاداتهم، ازددت شحوبا، وهزالا، وضعفا. واخذ خيالي – الذي أزعجوه – يقيس حالي بمدى مفعول عقاقيرهم، فلم يعد يصور لي سوى سلسلة متتابعة من الآلام، التي تسبق الموت، ومن احتباس البول، والحصاء، واحجار القيرا.. كانت كل الوان العلاج التي تخفف عن الغير – من مياه طبية، وحمامات، وحجامة – لا تزيد أوجاعي إلا استفحالا. وإذ وجدت أن مجسات "داران" – وهي الوحيدة التي أدت إلى بعض النتائج، وجعلتني اعتقد ان لا سبيل لي إلى الحياة بدونها – لم تكن تهيئ لي، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم في اقتناء كمية هائلة من المجسات، تكفيني طيلة العمر، ولو فارق "داران" الحياة!.. ولابد انني انفقت خمسين "لوي" على الاقل، خلال السنوات الثماني او العشر التي استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع!.. ومن اليسير تبين ان علاجا باهظ النفقات، مؤلما مزعجا كهذا، كان يشغلني عن العمل، وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت، لا يشعر برغبة ملهوفة في كسب خبزه اليومي!

*****

وكانت الشواغل الادبية ملهاة اخرى، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملي اليومي. فما هو ان نشر مقالي، حتى انقض علي حماة الادب، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها. وغاظني أن اجد مثل هذا العدد من "السادة جس" الصغار (١)، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالامر، فقد امتشقت قلمي، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات في صفوفهم!.. وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلمي، سيد من "نانسي" يدعى السيد "جوتييه"، فقد اهين بغلظة في رسالة

---

(١) السيد "جس" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" "طبيب الغرام" وقد استعار "روسو" هذا الاسم ليرمز إلى المتحامل الذي تعميه المصلحة الشخصية عن الحق".

إلى "جريم". أما الثاني، فكان الملك "ستانيسلاس" (١) نفسه، الذي لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدي. وقد اضطرني الشرف الذي أضفاه عليّ، إلى أن أبدل لهجتي في الرد عليه، فاتخذت لهجة أكثر وقارا، وإن لم تكن أقل شدة.

ففندت رسالته تماما، دون أن أغض من احترام المؤلف. ولقد عرفت أن "جيزويتيا" يدعى الأب "مينو" كان ذا يد في الموضوع، فاعتمدت على فطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية، فكشفت - في طريقي - عن خطأ تاريخي كنت أعتقد أنه لا يصدر إلا عن قلم قداسته. وهذا المقال - الذي كان أقل من سواه إثارة للضجيج لسبب ما - يعتبر في حد ذاته فريدا في نوعه. فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأي العام كيف أن في وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق، ضد عاهل ذي سلطان. وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبية ومحترمة - في الوقت ذاته - تفوق تلك التي اتخذتها في ردي عليه. وكنت محدودا إذ قدر لي أن أنازل غريما كان قلبي مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق. ولقد ظن أصدقائي - الذين انزعجوا من أجلي - أنهم لن يلبثوا أن يروني في "الباستيل"، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلني لحظة واحدة... وكنت محقا. فقد قال هذا الأمير الطيب، بعد أن اطلع على ردي: "لقد تلقيت جزائي، ولن أزج بنفسي في الأمر بعد ذلك". ومن ذلك الحين، تلقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم - التي سأضطر إلى ذكر بعضها - وانتشر مقالي في "فرنسا" وأوربا في هدوء، دون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم!

وصادفت - بعد ذلك بقليل - غريما آخر لم أكن أتوقعه هو السيد "بورد" الذي كنت أعرفه في "ليون"، والذي أولاني - قبل عشر سنوات - كثيرا من الود، وأدى لي عدة خدمات، ولم أكن قد نسيته، ولكني كنت قد تغافلت عنه تكاسلا، كما أنني لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتي، إذ أعوزتني الفرصة المواتية لأبعث بها إليه - وكنت في ذلك مخطئا. ولقد هاجمني - ولكن في أدب وأمانة - فرددت عليه بنفس اللهجة. وعاد إلى الهجوم بإصرار، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم، لم ينبس بعده بكلمة (٢)، ولكنه صار أشد أعدائي، وانتهز وقت محنتي ليوجه إلي شتائم مقذعة، كما رحل إلى "لندن" خصيصا لكي يسعى إلى إيذائي!

ولقد شغلتني هذه المجادلات القلمية كل الشغل، إذ بددت كثيرا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ، وعاقت تقدمي في طلب الحقيقة، وحدت من الكسب الذي كان يدخل جيبي. وكان "بيسو" - ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين - لا يمنحني دائما سوى مبالغ زهيدة جدا في مقابل كتيباتي، وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة. ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحدا عن رسالتي الأولى، إذ أعطاه "ديدرو" إياها دون مقابل. وكان لابد من أن أنتظر طويلا. وأن أنتزع منه القليل - الذي كان يجود به - "سو" إثر "سو". وفي الوقت ذاته، لم تكن سوقي في النسخ رائجة، فقد كنت مشغولا بمهنتين، وهذه هي الوسيلة لكي أسيء أداء كل منهما!.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى، وقد تمثل هذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه.. ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى، جعلني قبلة الأنظار. إذ أثارت المكانة التي احتللتها فضول الناس، وولد الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار، الذي لم يكن يخطب ود أحد، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا، سعيدا.. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التي كنت

---

(١) للملك "ستانيسلاس" الأول"، ملك "بولندا" وقد عاش سنة ١٦٧٧ إلى سنة ١٧٦٦، وخلفه "ستانيسلاس" الثاني، آخر ملوك "بولندا"، وقد عاش بين سنتي ١٧٣٢ و ١٧٩٨، والغالب أن "روسو" قصد أولهما. (٢) يبدو أن الذاكرة خانت "روسو" هنا، إذ إنه لم يوجه إلى "بورد" سوى رد واحد، بشأن مقاله: "في فوائد العلوم" لم يرد إطلاقا على مقال كان لنفس الكاتب في الموضوع ذاته.

أنشدها مستحيلة، إذ لم تعد حجرتي تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبوني وقتي بمختلف الحجج. وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجي إلى موائدهن.. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتي.. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا، ففي الوقت الذي جلبت فيه على نفسي ألف عدو - بسبب الرفض - كانت رغبتي في مجاملة الغير تستعبدني، ولم أعد أحظى من يومي بساعة واحدة لنفسي، مهما أحاول!

*****

وأدركت إذ ذاك أن العيش في فقر وحرية، ليس دائما بالسهولة التي يتصورها المرء. فلقد شئت أن أعيش على مهنتي، ولكن الجمهور لم يشأ!.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة، لتعويضي عن الوقت الذي كان يضيع عليّ، فإذا الهدايا - من بشخصه (١). ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا، كبيرها وصغيرها، دون ما استثناء لإرضاء أحد!.. ولم يؤد كل هذا إلا إلى اجتذاب واهبي الهدايا، الذين كانوا يطمعون في أن يحظوا بفخر التغلب على صدودي، وأن يدينوني بفضلهم بالرغم مني. وكم من امرىء كان يضن عليّ بـ "ايكو" واحد - لو أنني طلبته - ولكنه راح يضايقني بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمني بالغطرسة والكبر، ليثأر لنفسه من رفضي!

ولابد أن القارىء قد حدس أن القرار الذي كنت قد اتخذته، والنهج الذي رغبت في انتهاجه، لم يصادفا هوى لدى السيدة "لوفاسير". ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتي، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها؛ ومن ثم فإن "السادتين" (٢) - كما اعتاد "جوفكور" أن يسميهما - لم تكونا حازمتين دائما مثلي في رفض الهدايا، من ناحيتهما، ومع أن كثيرا من الأشياء توارى عني، إلا أنني رأيت ما كان كافيا لأن يقنعني بأنني لم أر كل شيء!.. وقد عذبني هذا، لا خشية أن أتهم بالتواطؤ معهما - وهو ما تنبأت بأنني ملاقيه عما قريب - وإنما بسبب الفكرة القاسية التي أوحى بها عجزي من أن أكون صاحب السلطان في بيتي، وعلى نفسي!

ولقد رجوت، وتوسلت، وغضبت.. دون جدوى!.. ولقد صورتني الأم في صورة المتذمر، الأبدي التأنيب والتوبيخ، ورمتني بأنني مشاكس شرس.. وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائي.. كان كل شيء في بيتي محوطا بالغموض والأسرار، ولكني - اتقاء للتعرض للمواصف دون انقطاع - لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجري. ولقد كان التخلص من هذا الإزعاج يتطلب حزما لم أكن أملكه، إذ إنني كنت أعرف كيف أصيح، ولكنني كنت لا أدري كيف أقرن الصياح بالعمل.. فتركت أصيح، وظل كل شيء ماضيا في مجراه؟

هذه المزعجات المستمرة، وهذه المضايقات اليومية التي كنت فريسة لها، جعلت - في النهاية - مسكني ومقامي في "باريس" من أبغض الأمور. وكنت إذا ما سمحت لي صحتي بالخروج، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفي، أتمشى وحيدا، وأنا أحلم بخطتي العظيمة في الحياة.

وكنت أسطر بعض الخواطر، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما في جيبي. وهكذا دفعت بي المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسي، إلى مهنة الأدب نهائيا، فقد رحت

---

(١) بوليشنيل: شخصية وردت في خرافات "نابولي" القديمة، يرتدي صاحبها قبعة ذات قرنين، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف، وله أنف كمنقار الدجاجة، وصوت أجش حاد ينطلق في خفة (أخف).. وهو رجل شرس، صاخب، عربيد، مشاكس. (٢) الموقع أن التعبير الدارج "عامة" أدق من مربية في أداء المعنى.

ألوذ بها فرارا من تلك المضايقات. وهذا هو السر في أنني بثثت كل مؤلفاتي الأولى، المرارة والضيق اللذين دفعاني إلى ان اشغل نفسي بكتابتها.

وهناك عامل آخر ساهم في ذلك.. فإنني حين اقحمت - بالرغم مني - في المجتمع، دون أن أوتى طباعه. او أن أكون على استعداد لأن أكتسبها، قررت أن اتخذ لنفسي طباعا خاصة تغنيني. وإذ كانت حماقتي وحيائي الممض - اللذين عجزت عن مغالبتهما - صادرين أصلا عن الخوف من ان تعوزني آداب اللياقة، فقد رأيت - لكي اشجع نفسي - أن ادوس تلك الآداب تحت قدمي. واحالني الحياء إلى هجاء مقذع لاذع، وحرصت على أن ازدري آداب اللياقة التي لم أتعلم كيف أمارسها. ومن الصحيح ان هذه الغلطة تمشت مع مبادئي الجديدة، فإذا بها تكتسب سموا في عقلي، وتتخذ مظهر الجرأة المنبثقة عن الفضيلة.. واستطيع أن اذهب إلى القول بانها بهذا الشكل الجليل، استطاعت أن تصمد خيرا - ولأمد أطول - مما كان مرتقبا، بطبيعة الحال، لجهد مناقض لسجيتي إلى هذا الحد، ومع ذلك فإنني كنت اسيء دائما الاحتفاظ بشخصيتي، فيما بيني وبين نفسي - بوجه خاص - بالرغم مما ذاع عني في المجتمع من نفور من البشر، أوحى به مظهري الخارجي وبعض الكلمات التي تنم عن ذلك!.. وإذ راح اصدقائي ومعارفي يقدرون هذا الدب الوحشي وكأنه حمل، وإذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية، العامة، فإنني لم أكن أملك قط ان اقول كلمة واحدة، لأي امرئ كان!

*****

وادت قصة "خراف القرية" إلى تألقي في المجتمع، فلم يعد في "باريس" رجل مرموق فوق ما كنت أنا. ويرتبط تاريخ هذه القصة - التي تمثل فترة من حياتي - بعلاقات كنت قد انشأتها في ذلك الحين. وهذه تفصيلات ارى واجبا عليّ أن اتناولها، لكي نفهم القصة حق الفهم.

كان لدي عدد كبير جدا من المعارف، بيد انني لم اصطف منهم سوى صديقين، هما "ديدرو" و"جريم". ونظرا لما أوتيت من رغبة في ان اجمع كل اولئك الاعزاء لدي، فإن صداقتي الوثيقة لكل منهما، لم تدع مناصا من ان يصبح كل منهما صديقا حميما للآخر، إذ إنني جمعتهما معا، فإذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بي أنا. وكان لـ"ديدرو" معارف لا حصر لهم، أما "جريم"، فقد كان يشتهي المعارف، إذ كان اجنبيا وحديث عهد بالبلاد. ولم أكن أطمع في أكثر من ان اوفر له هؤلاء المعارف. فاتحت له صداقة "ديدرو"، وصداقة "جوفكور".. واصطحبته إلى دار السيدة دي "شينونسو"، ودار السيدة "ديبيناي"، ودار البارون "دولباخ، الذي وجدتني مرتبطا به على الرغم مني تقريبا!.. وغدا كل اصدقائي اصدقاء له. وكان هذا الأمر غاية في السهولة، ولكن احدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لي!.. وإليكم ما كان يحول دون ذلك:

لما كان "جريم" يقيم في بيت الكونت دي "فرييز"، فإنه كان يدعونا إلى الغداء هناك أحيانا. ولكنني لم اتلق قط أي دليل على الود او اللطف من الكونت دي "فريبز"، او الكونت دي "شومبرج" - قريبه الذي كان وثيق الألفة بـ"جريم" - او من اي شخص آخر، ذكرا كان أو أنثى، ممن كانت لـ"جريم" بهم علاقة، عن طريق هذين السيدتين. وكان الوحيد المستثنى منهم، هو الراهب "راينال" الذي اثبت انه صديق لي، وإن كان صديقا له، والذي اعتاد ان يقدم كيس نقوده لي - إذا

دعت الحاجة - في كرم مالوف. على انني كنت اعرف الراهب "رايتال" قبل ان يعرفه "جريم" نفسه بوقت طويل، وكنت أميل إليه دائما، عقب تصرف مفعم بالرقة واللباقة اسداه إليّ في مناسبة طفيفة القيمة، ولكني لم انسها البتة.

كان هذا الاب "رايتال" صديقا حميما بالتاكيد. ولقد تسنى لي الدليل على ذلك، حوالي الوقت الذي انا بصدده تقريبا، وفي امر يتعلق بـ"جريم" ذاته، إذ كان على علاقة وثيقة به. فلقد ظل "جريم" بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة "فيل"، ثم إذا به فجاة يغدو عاشقا مدلها في هواها، وان ينتزعها من "كاهوساك". ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد، وهي تفخر بوفائها، فحمل الشاب الأمر محملا اليما، حتى إنه فكر في الموت. وما لبث ان وقع بغتة فريسة لاغرب مرض سمع به امرؤ. فقد راح يقضي نهاره وليله في غيبوبة، تظل خلالها عيناه مفتوحتين، ونبضه منتظما، ولكن.. بلا كلام، ولا طعام، ولا حركة.. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع، بيد انه لم يكن يجيب إطلاقا، ولو بالإشارة!

وكان - إلى جانب ذلك - غير منفعل، ولا متالم، ولا محموم.. وكان يبقى على هذه الحال، وكانه ميت! وتشاطرت والراهب "رايتال" رعايته، فكان الراهب - نظرا لتفوقه علي في متانة البنيان وقوة البدن - يسهر الليالي، بينما كنت اعني به في النهار. وكنا لا نفارقه إطلاقا، فلا يبرحه اي منا حتى يصل الآخر. وجزع الكونت دي "فريز"، فاحضر له "سيناك" الذي قال - بعد ان فحصه فحصا دقيقا - الا علة هناك، ولم يصف له دواء. وكان إشفاقي على صديقي قد حملني على ان اراقب بإمعان محيا الطبيب، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان.

ومع ذلك فإن المريض ظل اياما عديدة دون حراك، ودون ان يتناول حساء، او اي شيء، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ، الذي كنت اضعه على لسانه بين آن وآخر، والذي كان يزدرده في لهفة. وفي ذات صباح بديع، استيقظ "جريم"، وارتدى ثيابه، واستانف حياته العادية، دون ان يحدثني قط، او يحدث الراهب - فيما علمت - او يحدث اي مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة، ولا عن العناية التي اوليناه إياها طيلة استمرارها!

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا، ان تؤدي قسوة إحدى غانيات الاوبرا، إلى ان يموت رجل لفرط الياس!.. واذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت "جريم" في المجتمع، حتى لقد اشتهر بانه معجزة الحب، والصداقة، والوفاء، في كافة الاعتبارات. وجعلته هذه الفكرة مرموقا، ومكرما لدى المجتمع الراقي. وبهذا تباعد عني، انا الذي لم اكن بالنسبة له اكثر من تكاة او اداة!..

ورايت انه على وشك ان يغدو غريبا عني، فاحزنني ذلك، إذ إن كل المشاعر المضطرمة التي كان يتظاهر بها، كانت عين المشاعر التي خالجتني نحوه، دون ان اتظاهر بها. ولقد كنت مغتبطا لنجاحه في المجتمع، ولكنني لم اكن احب له ان ينسى اصدقاءه في غمرة النجاح. ولقد قلت له يوما: "إنك لتهملني يا"جريم"، وإني لاغفر لك ذلك. فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوي، وشرعت تتبين انه فارغ، فإني آمل ان تعود إليّ، ولسوف تجدني دواما كما عهدتني. اما في الآونة الحاضرة، فلا تضايق نفسك، فسوف ادعك تفعل ما يحلو لك، وسوف انتظرك". وقال لي إنني كنت على حق ودبر خطته على هذا النسق، وانطلق في طريقه إلى نهاية الشوط، حتى إنني لم اعد اراه إلا مع الاصدقاء المشتركين لكلينا!

وكانت دار البارون "دولباخ" هي ملتقانا الرئيسي. قبل ان يرتبط بمدام "ديبيناي" ارتباطا وثيقا. وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامي وقد اوتي ثروة عظيمة جدا، فاستغلها استغلالا نبيلا، وفتح داره لأهل الادب والفضل، واستطاع بتنوره ومعرفته ان يملأ مكانه بينهم. وإذ كان على علاقة بـ "ديدرو" منذ امد طويل، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بي، قبل ان يغدو اسمي معروفا. وصدني نفور طبيعي عن ان استجيب لتقربه فترة طويلة. وقد سألني عن السبب ذات يوم، فقلت له: "إنك واسع الثراء". ولكنه الح في طلب ودي، واستطاع ان يتغلب على توجسي في النهاية. لقد كانت نكبتي الكبرى دائما، هي عجزي عن مقاومة الإطراء واللطف، وما وجدتني يوما اتخلى عن هذه الشيمة!

*****

ومن حالات التعارف التي تحولت إلى صداقة بمجرد ان وجدت من حقي ان انشدها، معرفتي بالسيد "ديكلو". ولقد انقضت عدة سنوات مذ رايته - للمرة الأولى - في "لاشيفريت"، لدى السيدة "ديبيناي"، التي كان على صلات طيبة بها. ولم نحظ بأكثر من ان تناولنا الغداء معا، ثم رحل في اليوم ذاته.

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء. وكانت السيدة "ديبيناي" قد حدثته عني وعن اوبراي "عرائس الشعر اللطاف". وكان "ديكلو" ذا مواهب عظيمة، اسمى من ان تحمله بصدف عن حب الموهوبين، ومن ثم فقد مال إليّ، ودعاني إلى زيارته. وبالرغم من ميلي القديم (١)، الذي عززته المعرفة، فإن حيائي وكسلي ظلا يعوقانني، حتى لم يبق ثمة ما يقربني إليه سوى لطفه، وحفاوته. على انني تشجعت بنجاحي الأول (٢) وبما بلغني من إطرائه هذا النجاح، فقمت بزيارته، وجاء لزيارتي، وهكذا بدات بيننا روابط ستظل تجعلني اعتز به دائما، وإليها - وإلى شهادة قلبي الصادق - ادين بمعرفة ان الاستقامة والوفاء، قد تقترن أحيانا بالثقافة الأدبية!

ولقد كانت كثير من علاقاتي - التي تقل متانة عما ذكرت، والتي اتجاوز عن ذكراها هنا - نتيجة مرات نجاحي الأولى، وقد دامت إلى ان قدر لفضول اصحابها ان يرتوي. فلقد كانت نفسي تتكشف على حقيقتها سريعا، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف!.. على ان من النساء اللائي سعين إلى التعرف بي في تلك الآونة، امراة صارت اقوى صلة بي من سواها. تلك هي السيدة المركيزة دي "كريكي"، ابنة أخ السيد "لوبايي دي فرولاي"، الذي كان سفيرا لـ"فرنسا" في "مالطة" وكان اخوها سلفا للسيد دي "مونتيجي" في السفارة الفرنسية في "البندقية:"، وزرته عقب عودتي من تلك المدينة.. ولقد كتبت السيدة دي "كريكي" إلي، فذهبت لزيارتها.. واستقبلتني في مودة، وتناولت الغداء لديها بضع مرات، وقابلت لديها كثيرا من الادباء.. منهم السيد "سوران" - مؤلف "سبارتاكوس" و"بارنيفلت" وغيرهما - الذي اصبح من ذلك الحين الد اعدائي، لغير ما سبب استطيع ان اتصوره، سوى انني احمل اسم رجل كان ابوه قد اضطهده بخسة وظلم.

ويرى من هذا، انني - كناسخ كان ينبغي ان يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء - كنت اصادف كثيرا من الشواغل التي كانت تعوق عملي اليومي عن ان يكون جد مربح، وكانت تمنعني من ان اعني العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقي. وكنت اضيع اكثر من نصف الوقت المتبقي لي، في محو او كشط الأخطاء التي كنت ارتكبها فيما انسخ، او في إعادة كتابته من جديد. وقد ادى هذه

(١) ميله إلى كل من يبدي له اللطف والإطراء. (٢) نجاح "رسالة في فوائد العلوم الحديثة".

الانزعاج إلى ان اصبحت لا اطيق "باريس" يوما بعد يوم، وإلى حملي على ان انشد الريف برغبة قوية. فذهبت عدة مرات لاقضي اياما في "ماركوسي"، التي كانت مدام "لوفاسير" على معرفة باسقفها.. وقد استطعنا أن ندبر الامر بحيث إنه لم يجد اي ضير في مقامنا في داره.. ولقد ذهب معنا "جويم" مرة إلى هناك (١). وكان الاسقف ذا صوت رخيم، كما كان يجيد الغناء، ومع أنه لم يكن ملما بالموسيقى، إلا انه كان يستطيع ان يحفظ دوره بدقة!.ومن ثم فقد قضينا الوقت في ترديد الأغاني الثلاثة التي كنت قد وضعتها في "شينونسو"، كما لحنت اغنيتين او ثلاثا جديدة، وضع "جويم" والاسقف كلماتها بقدر ما وسعهما. ولست املك ان امنع نفسي عن التحسر على تلك الأغاني الثلاثية التي وضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة، والتي تركتها في "فوتون" ومعها جميع قطعي الموسيقية. ولعل الآنسة "دافنبورت" قد اتخذت منها اشرطة ورقية، للف شعرها.. على انها كانت جديرة بأن تصان، فقد كانت – في الغالب – دقيقة الوزن.

وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة – وقد اغتبطت لرؤية "العمة" منشرحة مسرورة، كما كنت انا الآخر مبتهجا – ان كتبت إلى الاسقف خطابا شعريا، نظمته في عجلة وفي غير عناية.. وسيوجد بين أوراقي.

*****

وكان لي – في مكان أكثر قربا من "باريس" – ملاذ آخر يلائم مزاجي.. تلك هي دار السيد "موسار"، مواطني، وقريبي، وصديقي، الذي اعد لنفسه ماوى فاتنا في "باسي"، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة. وكان السيد "موسار" تاجر مجوهرات، وكان رجلا سليم الذوق، جمع من حرفته ثروة طيبة، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دي "فالماليت" – ابن صراف ومدير فندق الملك – ثم استقر رايه الحكيم على ان يهجر في ايام شيخوخته التجارة والعمل، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن، بين هموم الحياة ونهاية الأجل.

وكان "موسار" الطيب فيلسوفا عمليا حقا، فكان يعيش بلا هموم، في دار بديعة ابتناها لنفسه، وفي حديقة غناء زرعها بيديه. وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة، عثر على قواقع متحجرة، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة ان خياله المتوثب لم يعد يرى في الطبيعة سوى قواقع، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع!.. واصبح لا يفكر دائما إلا في هذا الأمر، وفي اكتشافه الفذ، حتى اهاجته هذه الافكار، واوشكت – في النهاية – ان تتخذ في راسه شكل نظرية – اعني خبلا – لولا ان الموت تدخل في الأمر – لحسن حظ عقله، ولسوء حظ اصدقائه الذين كانوا يعتزون به، ويجدون في داره ابدع ماوى – فانتزعه من بينهم، متوسلا باغرب واقسى مرض.. ذلك هو تورم في معدته، كان دائم التضخم، وكان يحرمه من الاكل، دون ان يتبدى سببه برغم طول العهد به، ثم انتهى بموته جوعا، بعد سنوات عديدة من العذاب!.. ولست املك ان استرجع نهاية عمر هذا الرجل، دون ان ينقبض فؤادي. فقد ظل يستقبلنا – "ليتيب" وانا – بسرور عارم.. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التي كان يعانيها، على ان ينايا عنه إلى آخر ساعة في حياته.. وإني لاذكر انه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام – الذي اعتاد ان يامر بتقديمه إلينا – إلا بعينيه، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاي الخفيف، إلا ليلفظها في اللحظة التالية!.. ولكن كم من أوقات – قبل تلك الآلام

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذا، الاستدراك التالي: "لما كنت قد اغفلت هنا ذكر حادث تافه، ولكنه جدير بالذكر، وقع لي مع "جويم" المذكور ذات صباح، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين "سان فاندريل"، فإنني لن اعود إلى هذا الحادث. ولكنني حين فكرت فيه – فيما بعد – استنتجت ان "جويم" كان يبيت النية في قرارة قلبه – منذ ذلك الحين – على المؤامرة التي نفذها فيما بعد بنجاح رائع"!

- قضيتها في داره مسرورا، مع النخبة التي اصطفاها من الاصدقاء!.. وإني لأضع على رأس هؤلاء الراهب "**بريفو**" (١)، وكان شخصا لطيفا، سلسا، يسليهم قبله ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود، ولا يبدي - سواء في مظهره، أو في معشره - شيئا من ذلك الجو القاتم الذي فرضه على مؤلفاته.. والطبيب "**بروكوب**"، وكان "**يعسوب**" صغيرا (٢)، ذا حظوة لدى النساء، و"**بولانجيه**" المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية "الاستبداد الشرقي"، وقد عمد فيما أعتقد - إلى التوسع في نظريات "**موسار**" عن مدى عمر الدنيا.. أما بين النساء، فاذكر السيدة "**دنيس**" ابنة أخت "**فولتير**"، التي كانت - إذ ذاك - طيبة ساذجة، ولم تكن قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر.. والسيدة "**فانلو**" التي لم تكن جميلة حقا، ولكنها كانت فاتنة، وكانت في غنائها كالملاك.. والسيدة "**فالمليت**" التي كانت تحذق الغناء هي الاخرى، والتي كانت - برغم هزالها - بالغة اللطف لو انها خففت من تظاهرها باللطف!!.. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد "**موسار**" - تقريبا - وقد كانت صحبتهم خليقة بان تلذ لي، لولا ان نظرياته عن القواقع كانت ألذ، حتى لأذهب إلى القول بانني عكفت لستة اشهر على العمل في مكتبه، في دراسة هذه النظرية، باغتباط لم يكن يقل عن اغتباطه!

وكان يلح - من زمن طويل قبل ذلك - بأن مياه "**باسي**" كانت كفيلة بأن تصلح حالي الصحية، وكان يصر على أن اتردد على داره لكي أتناولها. وقد انصعت اخيرا له؛ لكي أنتزع نفسي - بعض الوقت - من ضجيج المدينة، فقضيت في "**باسي**" ثمانية ايام او عشرة، افدت منها كل الفائدة، بفضل إقامتي في الريف، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه. وكان "**موسار**" يهوى العزف على الكمان الكبيرة، ويشغف بالموسيقى الإيطالية. وفي ذات مساء، اطلنا الحديث - قبل ان ناوي إلى مخادعنا - في هذا المجال، وتكلمنا بوجه خاص عن "اوبرا بوفا"، التي رآها كل منا على حدة - في "**إيطاليا**" - والتي اعجب بها كل منا إعجابا بالغا.. ولم انم في تلك الليلة، فشرعت افكر في وسيلة تمكنني من ان اتيح مثل هذا النوع من "الدراما" لـ"**فرنسا**"، إذا لم يكن شبه بين "غراميات راجوند" وهذا النوع (٣). وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر، تتمشى مع هذه الفكرة - اثناء ما كنت اتريض واتناول المياه - ونسقتها مع الالحان التي توافدت على راسي خلال ذلك. وسطرت جميع هذه الاغاني، في "صالون" ذي قبة، فوق الحديقة. ثم لم اتورع عن ان أعرضها - اثناء تناول الشاي - على "**موسار**" والآنسة "**دوفيرنوا**" مديرة داره، التي كانت بالغة الطيبة واللطف حقا. وكانت القطع الثلاث التي نظمتها في عجلة، تؤلف الاغنية الفردية الأولى، وهي: "فقدت خادمي" و"عراف القرية"، و"الحب يخشى على نفسه".. ثم الثنائي الاخير: "أبدا لن اخطبك، يا "**كولان**"، إلخ! ولم اكن اعول كثيرا على ان هذه المحاولة تستحق عناء المضي فيها. ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما، لكنت خليقا بان القي قصاصتي إلى النار، ولا أعود إلى التفكير فيها، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه، على الأقل!.. ومن ثم فقد وجدتني متحمسا، حتى إن "الدراما" اكتملت خلال ستة ايام، فيما عدا بضعة سطور.. كما انني وضعت افكار الموسيقى كلها، فلم يعد امامي ما افعله في "**باريس**"، سوى أن اضيف بعض مقطوعات إلقائية، وان املأ بعض الحواشي. وقد فرغت بسرعة من كل هذه، فلم تنقض ثلاثة أسابيع، حتى كانت المناظر قد نسجت، واصبحت مهياة للعرض. ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخر، وقد قدر لها الا توضع إلا بعد ذلك بوقت طويل.

---

(١) اشتهر باسم "الاب بريفو" واسمه الاصلي "بريفو ديكسيل" وهو مؤلف قصة "مانون ليسكو" الخالدة ولد ولد في سنة ١٦٩٧ ومات في سنة ١٨٦٣ . (٢) يعسوب: شخصية اسطورية إغريقية، وإن كان "هيرودوت" يقول إنه شخصية حقيقية، ولد عاش في "مصر" واشتهر بالرحلات والأدب. (٣) كوميدية موسيقية عرضت في "الاوبرا" الباريسية في سنة ١٧٤٢ .

سنة ١٧٥٢

أثارني وضع هذا العمل الأدبي الفني، حتى لقد تملكني شوق عارم إلى سماعه، وحتى إنني كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شيء، في سبيل أن أراه معروضا أمامي - بالشكل الذي كنت أتمثله في خيالي - في غرفة موصدة، كما فعلت "لولي" - فيما يقال - إذ شهدت يوما مسرحية "أرميد" تمثل أمامها وحدها. ولما لم يكن من الميسور لي أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور، فقد كان من الضروري، لكي تمثل هذه الأوبرا، من أن تلقى قبولا في دار "الأوبرا". ولكنها - لسوء الحظ - كانت من نمط جديد كل الجدة، لم تألفه آذان الجمهور، كما أن فشل "عرائس الشعر اللطاف" جعلني أتوقع المصير ذاته للعراف (١)، إذا أنا قدمتها باسمي. وقد ساعدني "ديكلو" على الخروج من هذا المأزق. إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية، دون أن يكشف عن اسم المؤلف. ولكي لا أنم عن نفسي، فإنني لم أحضر التجربة، وظل كل امرئ - حتى "الكمانان الصغيران" (٢)، اللذان توليا الإخراج - يجهلان اسم المؤلف، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية. ولقد فتن كل من سمعها حتى إن جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي. ولقد شهد السيد "كوري" - مدير حفلات البلاط - التجربة، فطلب المسرحية لتعرض في البلاط، ولكن "ديكلو" - الذي كان يعرف نواياه فخشي أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقل منه في "باريس" - رفض أن يسلمه إياها، فعاد "كوري" يطلبها بحكم منصبه. واحتدم الجدال بينهما، حتى لقد تطور ذات يوم - وهما في "الأوبرا" - فأوشكا أن يخرجا ليتبارزا، لولا أن حيل بينهما.

ورؤي الاتصال بي بشأنها، ولكني تركت البت في ذلك إلى السيد "ديكلو"، فكان لابد من الرجوع إليه. وتوسط السيد الدوق "دومون" في الأمر، فرأى "ديكلو" - في النهاية - أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة، وقدمت المسرحية لتمثل في "فونتينبلو". وكان الجزء الذي أوليته أعظم اهتمام، والذي نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف، هو الإلقاء الغنائي.

فقد نسق الإلقاء - في أوبراي - بطريقة جديدة تماما، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات. ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد، إذ خيف من أن يصدم الآذان التي ألفت الرتابة. ومن ثم فإنني وافقت على أن يضع "فرانكويي" و "جيليوت" ألحانا جديدة للإلقاء، ولكنني رفضت أن تكون لي يد في ذلك.

وإذ تم إعداد كل شيء، وحدد يوم العرض، اقترح علي أن أرحل إلى "فونتينبلو" لأحضر التجربة الأخيرة، على الأقل. فذهبت مع الآنسة "فيل"، و "جريم"، والراهب "راينال" - على ما أظن - في إحدى العربات الملكية. ولم يكن ثمة بأس بالتجربة، بل إنني كنت أكثر رضا عنها مما توقعت. وكانت الفرقة الموسيقية قوية، كثيرة النفر، مؤلفة من موسيقيي "الأوبرا" والفرقة الملكية. وقام "جيليوت" بدور "كولان". والآنسة "فيل" بدور "كوليت"، و "كوفيتييه" بدور العراف. وكان المنشدون من "الأوبرا". ولم أدل بغير ملاحظات قليلة، فقد تولى "جيليوت" الإخراج، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل. وبالرغم من مظهري الروماني، فإنني كنت في حياء التلميذ إذا ألفي نفسه وسط كل هؤلاء القوم!

وفي اليوم التالي - وهو يوم العرض - ذهبت لأتناول الفطور في مقهى "الجران كومون"، فإذا به

---

(١) أطلق "روسو" على هذه "الأوبرا" اسم عراف القرية". (٢) لقد اشتهر به "ريبل" و "فرانكور" اللذان كانا يتوليان الإخراج الموسيقي، وقيادة الفرقة الموسيقية في "الأوبرا". وقد سميا بذلك، لأنهما اعتادا في صباهما أن يطوفا بالبيوت، وهما يعزفان على "الكمان".

زاخر بالناس، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة، وتعذر الدخول إلى المسرح. وقال ضابط من الحضور، إنه دخل بلا عناء، واسهب في وصف ما حدث داخل المسرح، كما وصف المؤلف، وروى ما قاله وما فعله. والذي اذهلني في حديثه الطويل - الذي القاه في بساطة واعتداد - انه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة!

.. بل لقد تجلى لي تماما، ان هذا الذي تكلم عن التجربة بلهجة العالم، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف - الذي قال إنه رآه كما صوره - حاضرا امام عينيه، فلم يتعرف عليه!..

وكان اغرب ما في هذه الواقعة، هو الاثر الذي احدثته في نفسي. فلقد كان ذلك الرجل كبير السن، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء، ولا الزهو، سواء في مظهره، أو لهجته. بل إن سيماه كانت تنم عن انه رجل فاضل، كما كان وسام "صليب سان لوي" - على صدره - يوحي بانه ضابط قديم. ولقد استأثر باهتمامي بالرغم مني، وبرغم قحته في الكذب. وفيما كان يمضي في اكاذيبه، راح وجهي يتضرج خجلا، واخذت اغض بصري واتململ في مجلسي. وكنت اسأل نفسي احيانا: أليس من الجائز ان يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة؟!..

واخيرا، اسرعت بإفراغ قدح "الشيكولاتة" دون ان انبس ببنت شفة، وانا ارتجف خشية ان يتعرف علي احد فيخجله، ومررت بمجلسه وانا منكس راسي، وغادرت المقهى باسرع ما استطعت، بينما كان القوم ماضين في الحديث عما كان يصفه. ونفذت إلى الطريق وانا اسبح في العرق. ولو ان احدا عرفني وذكر اسمي قبل خروجي، فإني اوقن بانني كنت خليقا بان ابدي من الخجل والارتباك ما يبديه اي مذنب، لمجرد الشعور بالصغار الذي كان الرجل جديرا بان يشعر به إذا ما افتضحت اكاذيبه!

*****

وهانذا اصل إلى تلك اللحظات الحرجة في حياتي، فإن من العسير ان اقتصر على مجرد الرواية، لانه من المستحيل تقريبا الا تتأثر الرواية بشيء من النقد او التبرير. على انني ساحاول ان اروي كيف تصرفت، وعن اية بواعث صدرت تصرفاتي، دون ان اضيف ما ينم عن إطراء او عن لوم.

ففي ذلك اليوم المقصود، بدوت في نفس الزي المهمل الذي الفته، وقد نمت لحيتي، وبدا شعري المستعار غير منسق. وبهذا المظهر الذي نبا عن اللباقة، والذي كنت اعتبره دليلا على الشجاعة، دخلت القاعة التي كان من المنتظر ان يفد عليها الملك، والملكة والأسرة الملكية والحاشية باسرها، بعد قليل.

وتقدمت لاحتل مكاني في المقصورة التي قادني إليها السيد دي "كيوري".. وكانت هي مقصورته، مقصورة واسعة.. في مواجهة مقصورة اخرى، اصغر منها حجما، واكثر ارتفاعا، جلس فيها الملك والسيدة دي "بومبادور". ولم يداخلني شك في انني اجلست كذلك؛ لكي ابدو واضحا، إذ كنت الرجل الوحيد امام مقصورة الملك، وقد احاطت بي السيدات. وعندما اوقدت اضواء المسرح، وجدتني - في ملابسي تلك - وسط قوم في اوج الاناقة، فبدأت اشعر بضيق وحرج. وسألت نفسي عما إذا كنت في المكان اللائق، وعما إذا كنت في الثياب اللائقة.

وبعد لحظات من الحرج، اجبت نفسي عن هذا التساؤل في جرأة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع، اكثر مما انبعثت عن قوة حججي: "اجل"!.. وقلت لنفسي: "إنني في المكان اللائق بي، مادمت قد جئت لاشهد تمثيل مسرحيتي.. وإذا كنت في ثيابي المعتادة، ولست افضل او اقل مما

الفت، فما ذلك إلا لأنني دعيت، ولأنني الفت هذه الاوبرا لهذا الغرض فحسب، ولانه - فوق كل شيء - ليس هناك من يفوقني جدارة باستمراء ثمار جهدي ومواهبي، ولو أنني عدت إلى الخضوع للرأي العام في امر واحد، فسرعان ما ساصبح عبدا للرأي العام - في كل شيء - من جديد. أما إذا شئت ان اثبت على نهجي، فمن الواجب الا اخجل - اينما اكون - من ان ارتدي ما يتلاءم مع ظروف الحياة التي اخترتها لنفسي. إن مظهري الخارجي بسيط وغير متانق، ولكنه ليس قذرا، ولا مستهجنا. وكذلك اللحية - في حد ذاتها - ما دامت الطبيعة هي التي تخلعها علينا.. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة احيانا، كما تتم تطورات مستحدثات الاناقة. وقد يراني الناس مضحكا، او سفيها.. حسنا، وفيم يهمني هذا؟.. يجب ان أتعلم كيف اعرض عن ضحك الناس او عن نقدهم، ما دمت لا استحقهما"!

*****

"وشعرت بعد هذه المناجاة القصيرة بالثقة تعاودني، إلى درجة كانت كافية لان تجعلني جريئا.. وهو ما كنت بحاجة إليه. على أنني لم أر في الفضول الذي تعرضت له، سوى مظهر للادب والحفاوة، سواء كان مرد ذلك الرأي إلى تاثير وجود العاهل، أو إلى التصرف الطبيعي الذي ابداه اولئك الذين احاطت بي قلوبهم.. وشعرت بالتاثر، حتى إنني بدأت أحس بالقلق - من جديد - على نفسي وعلى مصير مسرحيتي، خشية ان اقضي على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة - في صالحي - كان يبدو لي انه لم يكن ينقصها سوى التصفيق.

وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم، ولكن عطفهم - الذي لم اكن اتوقعه - طغى عليّ كل الطغيان، حتى إنني رحت ارتجف كالطفل، عندما ابتدأ التمثيل!

وسرعان ما تبينت ان ليس ثمة مبرر للقلق.. كان اداء المسرحية جد سيئ من ناحية الممثلين، ولكن الغناء كان جيدا، والموسيقى حسنة الأداء. ومنذ المشهد الاول - الذي كان مؤثرا في بساطته حقا - سمعت في المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانا لم يسمع من قبل في مثل هذا النوع من التمثيليات.

وما لبث التحمس المطرد ان بلغ ذروته، حتى إنه تفشى في جميع النظارة، وإن ضوعف اثره بفضل هذا الاثر ذاته، كما ينبغي ان يقال باسلوب "مونتسكيو". وقد بلغ هذا الاثر اوجه في المشهد الذي دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين. ومن المعتاد الا يصفق احد قط، في حضور الملك، وقد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح، مما افاد التمثيلية والمؤلف.

وسمعت حولي همسات نساء كن يلحن لي في جمال الملائكة، وهن يقلن بعضهن لبعض: "هذا فاتن.. هذا خلاب!.. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب!". وهزتني لذة التاثير على كل هؤلاء القوم الراقين، حتى انطلقت دموعي، فلم استطع أن اكبحها في الأغنية الثنائية الأولى، إذ لاحظت انني لم أكن الوحيد الذي بكى!.. ومرت بي لحظة، رجعت فيها إلى نفسي، إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التي اقيمت بدار السيد دي "تريتوران". واحدثت هذه الذكرى في نفسي شعورا كشعور العبد الرقيق الذي كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١)، ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل، إذ إنني سرعان ما استسلمت تماما - ودون اي تحفظ - لنشوة مذاق مجدي. ومع ذلك فإنني اوقن بان الشهوة الجنسية كانت - في تلك اللحظة - اكثر اثرا من غرور المؤلف في هذه النشوة!.. فمن المؤكد

---

(١) عادة كانت متبعة في مواكب النصر لدى الرومان.

انه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور، لما تاججت في نفسي الرغبة الملحة في ان اتلقى بشفتي الدموع العذبة التي تسببت في انسيابها!.. ولقد شهدت تمثيليات اثارت من نوبات الإعجاب ما كان اشد مما رايت في هذه الليلة، ولكني لم اشهد قط نشوة في مثل تدفق، وفي مثل بهاء، وفي مثل تاثير هذه التي استولت تماما على النظارة، لا سيما وقد كانت هذه اولى المرات التي تعرض فيها المسرحية، ولا سيما وانها كانت تعرض في البلاط الملكي. ولابد ان الذين شهدوها إذ ذاك، لا يزالون يذكرونها، فقد كان تاثيرها فذا!

وفي الليلة ذاتها، اوفد السيد الدوق "دومون"، من انباني بان اكون موجودا في القصر، في الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي، وبانه سيقدمني إلى الملك. واضاف السيد دي "كوري" - الذي حمل إلي الرسالة - انه من المعتقد ان ثمة اقتراحا بمنحي معاشا، وان الملك اراد ان يعلنني بذلك بنفسه!

فهل مما يصدق ان الليلة، التي اعقبت يوما بهذا الإشراق، كانت ليلة هم وحيرة؟.. كانت اولى افكاري، بعد هذه الخواطر السالفة، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١)، كبدتني في المساء ذاته عناء كبيرا اثناء التمثيل، وكان من الممكن ان تعذبني في اليوم التالي، عندما اكون في بهو الملك او في جناحه، انتظر بين كل اولئك العظماء مرور الملك! كان هذا الداء هو السبب الرئيسي الذي حملني على تجنب الاجتماعات، والذي منعني من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات. وكان مجرد التفكير في الموقف الذي قد تقحمني فيه هذه الضرورة، كافيا لان يحرجني، إلى درجة تسلمني إلى الإغماء، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بان اوثر عليها الموت. ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا، سوى اولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال!

ورحت - بعد ذلك - اتصور نفسي ماثلا امام الملك، وانا اقدم إليه، فينزل ويقف ليحدثني.. وهنا لابد من سرعة الخاطر، وحضور البديهة للإجابة. افكان حيائي اللعين - الذي اعتاد ان يضايقني امام اقل المغمورين - ليهجرني امام ملك "فرنسا"؟.. وهل يدعني احسن اختيار ما ينبغي ان يقال، في التو؟.. ووددت لو استطيع - دون ان اتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما - ان ابدي إدراكي للشرف المتاح لي من مثل هذا العاهل؟.. كان لابد لي من ان الف بعض الحقائق الجليلة والنافعة، في غلالة من الثناء الجميل البارع!.. ولكي اتمكن من ان اعد - مقدما - جوابا موفقا، كان لابد لي من ان اعرف بالدقة، ما يمكن ان يقوله لي الملك.. وكنت واثقا - بعد ذلك - بانني لن استطيع ان استحضر في وجوده ما اكون قد اعددته!.. فماذا يكون شاني، في هذه اللحظة امام اعين الحاشية كلها، إذا افلتت مني، في غمرة اضطرابي، بعض سخافاتي العادية؟.. لقد روعني هذا الخطر، وازعجني، وجعلني ارتجف وانا اعقد العزم على الا اعرض نفسي له، مهما تكن العواقب؟

ومن الصحيح انني نقدت المعاش الذي عرض عليّ بصفة غير رسمية، ولكني - في الوقت ذاته - نجوت من الجور الذي كان مقدرا ان يفرضه عليّ.. الا وداعا للحقيقة، وللحرية، وللشجاعة!.. كيف كنت اجرؤ - بعد ذلك - على ان اتكلم بحرية ونزاهة؟.. لم يكن لدي سوى ان اتملق، او ان اصمت، لو انني قبلت هذا المعاش، ثم، من ذا الذي كان يضمن دفعه إليّ؟.. واية خطوات كان عليّ ان اتخذها، واي اناس كنت مضطرا إلى ان اداهن؟.. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بان يكبدني اكثر مما يكبدني الاستغناء عنه من حرص، واكثر من الكثير من المضايقات! ومن ثم فقد اقتنعت بانني

---

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة. ولعلنا نذكر انه كان يتعرض لنوبات يكثر فيها من التبول.

إذ ارفضه إنما اتخذ قرارا ينطبق اشد الانطباق على مبادئي، واضحي بالمظهر في مقابل الواقع. ولقد افضيت إلى "جريم" بعزمي، فلم يعارضني. اما بالنسبة للآخرين، فقد تعللت بصحتي، ورحلت في نفس الصباح!

*****

واثار رحيلي ضجة، وعيب علي بوجه عام. فما كانت حججي لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا، وسرعان ما اتهمت بالصلف، مما ارضى - للتو - غيرة أولئك الذين شعروا بانهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت!.. وفي اليوم التالي، كتب إلي "جيلوت" خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتي، والشغف الذي ابداه الملك نفسه بها. وقال: إن جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء، بانكر صوت في مملكته، مرددا: "لقد فقدت خادمي، لقد اضعت كل هنائي!".. واردف ان "العراف" ستعرض مرة ثانية بعد اسبوعين، مما سيعزز امام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذي كلل العرض الأول!

وفيما كنت الج دار السيدة "ديبيناي" - في الساعة التاسعة مساء، بعد يومين - حيث كنت مزمعا ان اتناول العشاء، رايت مركبة تعترض طريقي إلى الباب. واشار إليّ شخص في المركبة بان اصعد إليها، فصعدت، وإذا بهذا الشخص هو "ديدرو". وحدثني عن المعاش في حرارة ما كنت اتوقعها من فيلسوف في مثل هذا الموضوع. ولم ير جريمة في الا اكون راغبا في ان اقدم إلى الملك، ولكنه راى ان عدم اكتراثي للمعاش جريمة منكرة.. وقال لي إنني إذا كنت لا اهتم بالمعاش من اجل نفسي، فليس من حقي ان اكون كذلك من اجل السيدة "لوفاسير" وابنتها، فإن من واجبي الا احرمهما من اية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير اسباب العيش لهما.. وبما انه لم يكن من الممكن ان يقال - برغم كل شيء - إنني رفضت هذا المعاش، فقد اصر على ان من الجدير بي ان اطلبه، وان احصل عليه باي ثمن، ما دامت ثمة نية لمنحي إياه.. ومع انني تاثرت لتحمسه، إلا انني لم استطع ان اقر مبادئه. فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع، كان أول جدال دار بيننا. ولقد كانت كل خلافاتنا - التي اعقبت ذلك - من نفس النوع، إذ كان يملي عليّ ما كان يزعم أن من الجدير بي ان افعله، في حين أنني كنت أرفض في حزم، لانني لم اكن أؤمن بانه واجب عليّ!

وكان الوقت متاخرا عندما افترقنا، فرغبت في أن اصطحبه للعشاء لدى السيدة "ديبيناي"، ولكنه لم يكن راغبا البتة.. فبالرغم من أن الجهود التي كانت الرغبة في الجمع بين أولئك الذين احبهم، تدفعني إلى بذلها من وقت إلى آخر، فإنني لم افلح في إغرائه على زيارتها.. بل إنني ذهبت إلى ابعد من هذا، إذ صحبت السيدة إلى بابه، فرفض أن يفتحه لنا!.. كان يعزف دائما عن لقائها، ولم يكن يتكلم عنها قط، إلا في ازدراء بالغ.. وما تآلف الاثنان إلا بعد خلافي مع كل منهما، وإذ ذاك، بدأ يتكلم عنها باحترام!

ومنذ ذلك الحين، لاح أن "ديدرو" و"جريم" كانا يحاولان ان يؤلبا "الدادتين" عليّ وان يفهماهما انهما إذا لم تكونا في رخاء، فإنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي، وانهما لن تصيبا مني أي خير قط!.. ولقد حاولا ان يحملاهما على هجري، ووعداهما بان يحصلا لهما بفضل السيدة "ديبيناي" على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ، وما لست أدريه كذلك!.. بل إنهما رغبا في ان يستدرجا "ديكلو"، كما استدرجا "دولباخ"، إلى محالفتهما، ولكن الأول راح يرفض باستمرار. وكانت لدي إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير، ولكنني لم احط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمن طويل. وكثيرا ما

اكون على حق إذ ارثي لذلك التحمس الأعمى المشهور من جانب اصدقائي الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأني – وانا معلول، وفي أشد حالات العزلة الكئيبة – ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادي، بالوسائل التي كانت خير ما يؤدي إلى إتعاسي، في الواقع.

سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية "العراف" في "باريس"، في عهد المرافع "الكرنفال" التالي، اي في سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا – في تلك الأثناء – لوضع لحن الافتتاح، والالحان التي تتخلل المشاهد. وكان لابد لهذه الالحان – كما وضعت وكتبت – من ان تشيع حركة في التمثيلية، من اولها لآخرها، وان تجعل منها في مجموعها – في رأيي – لوحات جد مستحبة، ولكنني حين عرضت الفكرة على "الاوبرا" لم الق مستمعا واحدا، فاضطررت إلى ان انسج سلسلة من الاغاني والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الالحان وإن لم تظفر بتاثير المشاهد، إلا انها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم انها كانت زاخرة بالافكار البديعة. ولقد حذفت الالحان الإلقائية التي وضعها "جيليوت"، واحللت محلها الحانا من وضعي، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل. فإذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية – كما اعترف – واقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون – إلا انها لم تؤذ سمع احد، بل إنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية، كما اعتبرت كذلك – من ناحية النظم – حتى لدى الجمهور.

واهديت التمثيلية إلى السيد "ديكلو" الذي رعاها، واعلنت ان هذا سيظل الإهداء الوحيد. على انني كنت إهداء لشخص آخر – بموافقة السيد "ديكلو" – ومع ذلك فإنه ولابد قد وجد ان هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما!

ولدي عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة، ولكن ثمة امورا أكثر اهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا انفقه في تلك. على انني قد اعود إليها يوما، في "الملحق". وإن كنت – مع ذلك – لن اغفل واقعة معينة قد يكون لها اثر في كل ما اعقب ذلك من احداث. فلقد اطلعت ذات يوم، في مكتب البارون "دولباخ"، على موسيقاه. وبعد أن شهدت كثيرا من القطع، قال لي وهو يريني مجموعة من الالحان، على المعزف: "هاك قطع لحنت من اجلي خصيصا، وهي مليئة بالذوق، صالحة، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواي. فخليق بك ان تختار واحدة منها تدسها في الالحان التي تتخلل مشاهدك!".. ولما كان ذهني زاخرا بموضوعات الالحان و"سيمفونيات" تفوق ما كان بوسعي ان افيد منه، فإنني لم ابد كثير احتفال بالحانه. على انه راح يلح علي بحرارة اضطررت معها إلى أن انتقي إحدى اغاني الرعاة، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذي يلج فيه رفاق "كوليت" (١) المسرح. وحدث بعد بضعة اشهر – و"العراف" ماتزال تعرض – ان ولجت يوما غرفة "جريم"، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه، وإذا به هو ينهض عن المعزف في تعجل، بمجرد وصولي.

واتجه بصري – بحركة آلية – حامل "النوتة" الموسيقية، فرايت مجموعة البارون "دولباخ" بالذات مفتوحة عند القطعة التي الح علي في ان آخذها، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط!

وبعد ذلك ببعض الوقت، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة، على معزف السيد "ديبناي"، في يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية في دارها، وما كنت انا لاقول عنه شيئا، لو لم يشع بعد

---

(١) بطلة أوبرا "عراف القرية".

قليل، انني لم اكن مؤلف "عراف القرية" . ونظرا لأنني لم اكن يوما عازفا ماهرا، فإني اوقن انه كان من المحتمل ان يقال إنني لم اكن أعرف شيئا عن الموسيقى، لولا "قاموس الموسيقى" الذي كنت قد وضعته (١).

*****

ولقد حدث قبل إخراج "عراف القرية" بفترة من الزمن، ان وصل إلى "باريس" بعض الممثلين الهزليين "**الإيطاليين**" ، فدعوا إلى التمثيل في "الأوبرا" دون ان يخطر ببال ما كان مقدرا ان يترتب على ذلك. وإذ كانوا سيئي التمثيل، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث فضت – غير حافلة – على لذة القطع التي كانت تعزفها، فإنهم الحقوا بفن الأوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه. ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢)، اللذين كانا يسمعان في الدار ذاتها، في يوم واحد، فتح الآذان الفرنسية، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى التي اعتادتها، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية. فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف.

فرؤي ان من الضروري تغيير نظام العرض، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية. فعرضت "**ايجليه**" ، و"**بيجماليون**" و"**الجن**" (٣)، ولكن ايا منها لم تستطع ان تستوي على ساقيها. ولم تصمد للمقارنة سوى "عراف القرية" ، إذ قوبلت باستحسان فاق "الوصيفة" (٤) "**الإيطالية**" ذاتها. وكان ذهني مليئا – عندما وضعت المشهد الذي بين فصلي تمثيليتي – بالحان المسرحية الإيطالية، فاستعرت بعض افكار منها. غير أنني كنت أبعد من ان اتوقع ان انتقد في هذه الناحية. ولو أنني كنت ممن يسطون على إنتاج الغير، فكم من سرقات كان يجب ان تتكشف، وكم كان هناك من المشوقين إلى ان يعنوا بإبرازها! ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التي بذلت للعثور في إنتاجي الموسيقي على اتفه اثر من موسيقى سواي. كما ان كل الأغاني كانت تبدو – إذا ما قورنت بالأغاني الأصلية التي كان يزعم أنني اخذتها عنها – جديدة، جدة الطابع الموسيقي الذي ابتدعته. ولو ان "**موندوفيل**" او "**رامو**" تعرض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا!

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى "**الإيطالية**" مستمعين جد متحمسين، فإذا "**باريس**" بأسرها تنقسم إلى فريقين، راحا يتجادلان في عنف، وكانهما بصدد مسالة متعلقة بالدولة أو بالدين.

وكان اقواهما نفوذا، واكثرهما عددا، يتالف من العظماء، والأغنياء، والنساء، ويتشبث بالموسيقى "**الفرنسية**" .. اما الآخر – وهو اكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا – فكان يتالف من فنانين حقيقيين، ومن أكفاء ونوابغ. وكانت عصبة تجتمع في دار "الاوبرا" ، تحت مقصورة الملكة، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي، تحت مقصورة الملك. ومن هنا جاء اسما الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين: "ركن الملك" ، و"ركن الملكة" .

وأدى الخلاف – إذ احتدم – إلى إصدار منشورات. فإذا شاء "ركن الملك" أن يهزأ، سخر منه "النبي الصغير" ، وإذا اقحم نفسه في جدال، افحمته "رسالة في الموسيقى **الفرنسية**" .. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة، اما النشرات الباقية فقد ماتت.. وكان "**جريم**" يحرر الاولى، وأنا احرر الأخرى!

---

(١) ما كنت لاحدس على الإطلاق، ان هذا سيقال عنها بعد، برغم وجود "القاموس" ! (٢) موسيقى الاوبرا الفرنسية، وموسيقى الأوبرا الإيطالية. (٣) Egé, pymalion, Lesylphe. (٤) Serva Padrona. وهي إحدى التمثيليات التي كانت الفرقة الإيطالية تعرضها.

بيد ان "النبي الصغير" ظلت تنسب إلي طويلا – في إصرار – برغم إنكاري، وكانت تحرر باسلوب فكه، ولا تجشم محررها اقل عناء.. في حين ان "رسالة في الموسيقى" كانت تميل إلى الجد، وقد اثارت ضدي الامة باسرها، إذ خيل إليها انها – ممثلة في موسيقاها – قد اهينت!.. وان وصف الاثر الذي احدثته هذه النشرة – والذي يفوق ما يصدقه العقل – لجدير بقلم "تاسيتوس" (١).. وكانت تلك فترة الصراع الاكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت.. وكان البرلمان قد اوقف عن الاجتماع، وبلغت فورة السخط ذروتها، واخذ كل شيء ينذر بانفجار وشيك!.. وما إن ظهرت النشرة، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الاخرى ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدق بالموسيقى "الفرنسية"، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدي انا.. بل إنه كان من الشدة بدرجة ان الامة لم تفق منه ابدا. ففي البلاط، لم تعد ثمة موازنة إلا بين "الباستيل" والنفي، وكان من المحتمل التعجيل بامر القبض علي، لو لم يفلح السيد "دي فوييه" في إيضاح ما في هذا من تصرف اخرق . وقد يظن القارئ انني اهرف، حين يقرا ان من المحتمل ان هذه النشرة حالت دون قيام ثورة في الدولة. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة واقعة، لعل "باريس" باسرها تشهد بها حتى اليوم، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (٢).

❁❁❁❁❁

وإذا كانت حريتي لم تصادر، فإنني لم اعف من ادنى الإهانات، بل إن حياتي اصبحت في خطر. فاعدت فرقة موسيقى "الاوبرا" مؤامرة شريفةلاغتيالي اثناء مغادرتي المسرح. وقد نمت إلي، فلم تزدني إلا ترددا على الاوبرا"، ولم اعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل، ان السيد "انسيلو" – الضابط في فرقة الفرسان – الذي كان يكن لي مودة، قد افسد مفعول هذه المؤامرة، إذ دبر حمايتي – عند مبارحتي الاوبرا – دون ان اشعر. وكان اول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الاوبرا، هو حرماني من الدخول، وان يحدث ذلك باشد الاساليب المهينة.. اي بمنعي علنا من الدخول بدون "تذكرة"، بطريقة اضطرتني إلى ابتياع "تذكرة" في الشرفة العليا للدار (٣)؛ لكي اتفادى عار الرجوع دون دخول، في ذلك اليوم. وكان الظلم صارخا جدا، إذ إن الثمن الوحيد الذي تقاضيته عن اوبراي، عندما نزلت لهم عنها، هو حق الدخول – دون مقابل – طيلة العمر. ذلك لان هذا وإن كان حقا اعتاد ان يحظى به كل المؤلفين – ومن ثم فقد كان استحقاقي إياه مضاعفا – إلا انني حرصت على اشتراطه، بحضور السيد "ديكلو". ومن الصحيح انني تلقيت – عن طريق خزانة الاوبرا – خمسين "لوي" كمكافاة شرفية لم اطلبها.. وفضلا عن ان هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت استحقه وفقا للوائح، فإن دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل، الذي طالبت به رسميا، والذي كان امرا مستقلا تماما عن الموضوع!

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى إن الجمهور – الذي كان في أوج عداوته لي – لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا بالإجماع، وصاح كثيرون – ممن كانوا يسبونني في الليلة السالفة – باعلى اصواتهم في دار "الاوبرا"، بان من العار ان يحرم من حق الدخول – وبهذا الاسلوب – مؤلف يستحقه عن جدارة، بل وله ان يصحب معه شخصين بالمجان، وهكذا المثل الإيطالي القائل: "يعرف الصديق في المحنة".

ولم يكن لدي إزاء هذا سوى قرار واحد، هو ان استرد تمثيليتي؛ مادمت قد حرمت الجزاء المتفق

---

(١) "كورنيليوس تاسيتوس"، كاتب ومحام ذاع صيته في التاريخ الروماني وقد عاش فيما بين سنتي ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة. (٢) كتب "روسو" هذا الجزء حوالي سنة ١٧٦٨ . (٣) ادنى الدرجات في المسرح.. "اعلى التياترو".

عليه. ومن ثم كتبت إلى السيد "دارجنسون"، الذي كان يتولى إدارة "الاوبرا"، وارفقت رسالتي بمذكرة لم اكن قد تلقيت عنها ردا، فظلت المذكرة - وكذلك الرسالة - دون جواب، ودون رسالة. ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا في فؤادي، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذي كنت دائما احسه نحو شخصيته ونحو مواهبه. وهكذا احتفظت "الاوبرا" بتمثيليتي وسلبتني الجزاء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقي فيها. وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوي، فإنه يعتبر سرقة.. إما إذا حدث من القوي نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب!

اما الكسب المالي الذي دره هذا العمل الفني، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على اي مؤلف سواي، إلا انه كان - بالنسبة إليّ - من الضخامة بحيث إنه كان كافيا لان يمكنني من العيش عليه سنوات عدة، وان يعوضني عن عملي في النسخ، إذ إن هذا العمل كان كاسدا على الدوام. فلقد نلت مائة "لوي" من الملك، وخمسين من السيدة دي "بومبادور" - عن عرض التمثيلية في "البيل في"، حيث قامت هي نفسها بدور "كولان" وخمسين من "الاوبرا"، وخمسمائة من "بيسو" مقابل نشرها.. اي أن هذا العمل الثانوي، الذي لم يكلفني سوى عمل خمسة اسابيع او ستة، در علي من النقود - برغم سوء حظي وبرغم غبائي - ما يعادل مادره علي كتابي "إميل"، الذي استغرق مني عشرين عاما في التفكير، وثلاثة في التاليف!.. على هذه التمثيلية.. وقد تمثل هذا الثمن في المضايقات التي لا نهاية لها، والتي ترتبت عليها. إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة، والتي لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل!.. ولم اعد - منذ نجاحها - اجد من "جريم" و"ديدرو"، او من اي من الادباء الذين كنت اعرفهم - ماعدا القليل - الحفاوة، والصراحة، وحسن المعاشرة التي كنت إخالني قد عثرت عليها لديهم من قبل. واصبحت لا أكاد اظهر في دار البارون، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاما.. ويتجمع القوم في فرق صغيرة، وبدور التهامس، بينما أظل وحيدا لا اجد من ابادله الحديث.. ولقد تحملت طويلا هذا الانفضاض عني، ولما كنت أرى ان السيدة "دولباخ" - التي كانت لطيفة وحفية - قد ظلت تكرم وفادتي باستمرار، فإنني رحت أتقبل جفوة زوجها، بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة. ولكنه في احد الايام تحرش بي دون داع، ودون مبرر، وفي غلظة بالغة، في حضور "ديدرو"، الذي لم ينبس بكلمة.. وفي حضور "مارجنسي"، الذي كثيرا ما اعرب لي - منذ ذلك الحين - عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتي.. وانتهى الأمر إلى ان طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا اعود إليه إطلاقا. على أن هذا لم يمنعني من أن اتحدث بامانة واحترام عنه وعن منزله، في حين انه لم يذكرني دائما إلا بعبارات حاقدة، جارحة، فما وصفني مرة إلا بـ"خادم المدرسة" الصغير، دون أن يملك - برغم ذلك - ان يعين إساءة واحدة، ايا كان نوعها، بدرت مني نحوه، أو نحو اي امرئ كان يهتم بامره. وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتي وهواجسي!.. اما انا، فاعتقد ان اصدقائي المذكورين كانوا على استعداد لان يغفروا لي تاليف الكتب - وإن تكن كتبا رائعة - لان هذا المجد لم يكن غريبا عنهم. بيد انهم لم يكونوا يغتفرون لي ان وضعت اوبرا، ولا ان لقي هذا العمل الادبي الفني نجاحا باهرا؛ لان احدا منهم لم يكن في وضع يمكنه من ان ينهج عين هذا النهج، ولا ان يطمع في عين ما نلت من تقدير وتكريم!.. كان "ديكلو" وحده هو الذي سما فوق الغيرة، بل إنه بدا أكثر مودة لي، واصطحبني إلى دار الآنسة "كينول"، حيث لقيت رعاية، وأنسا، وملاطفة، بقدر ما

انعقدت في دار السيد "دولباخ"!

*****

وبينما كانت "العراف" تمثل في "الأوبرا" كان مؤلفها موضوع مناقشة في "الكوميدي فرانسيز"، ولكنه كان اقل حظا من تمثيليته.. ذلك انني إذ عجزت - خلال سبع أو ثماني سنوات - عن عرض "نارسيس" في مسرح "الإيطاليين" "أوزيتاليان"، بغضت هذا المسرح الذي كان ممثلوه يسيئون اداء المسرحيات "الفرنسية". ومن ثم فقد كان حريا بي ان اكون اشد رغبة في ان تعرض تمثيليتي في المسرح "الفرنسي" - الكوميدي "فرانسيز" - مني في ان تعرض لدى "الإيطاليين." وافضيت برغبتي إلى "لانو" الممثل الفكاهي، الذي كنت قد تعرفت إليه، والذي كان معروفا - كذلك - بانه رجل فاضل ذو نفوذ.

ولقد اعجب بتمثيليتي الفكهة "نارسيس"، واخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها. وحصل لي - في الوقت ذاته - على ترخيص بالدخول، دون مقابل، سررت به كل السرور، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسي على المسرحين الآخرين "الأوبرا، والإيطالي". واستقبلت التمثيلية باستحسان، برغم انها قدمت دون ذكر المؤلف.. بيد أن لدي ما يحملني على ان اعتقد ان الممثلين، وكثيرين غيرهم، لم يكونوا يجهلونه. ولقد قامت الآنستان "جوسان" و"جرانفال" بدوري العاشقتين. ومع ان الأداء اسفر عن نقص في البراعة، إلا انه - بوجه عام - لا يمكن ان يوصف بانه سيئ تماما. على انني دهشت - وتاثرت - لما تبدى من استغراق الجمهور، إذ راح يصغي في صبر وهدوء، من اول التمثيلية إلى آخرها، بل وسمع بعرضها مرة ثانية، دون ان يبدي اية بادرة تنم عن ملل!

اما انا، فقد بلغ من ضجري - في العرض الأول - انني لم استطع المكث إلى النهاية. فتركت المسرح، وذهبت إلى مقهى "دي بروكوب"، حيث وجدت "بواسي" وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلي. وهناك، اعلنت فشلي بصوت عال، معترفا في شجاعة وتواضع بأنني مؤلف التمثيلية، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها. ولقد لقي هذا الاعتراف العلني من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة، إعجابا قويا، حتى إنه بدا لي اقل ما يكون إيلاما!.. كذلك وجدت جزاء لعواطفي الصادقة في الجراة التي اقدمت بها على اعترافي. واعتقد انني - في هذه المناسبة - لقيت في الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بان اجده من حياء زائف لو انني لذت بالصمت!.. على انني - إذ تبينت أن لا شك هناك في ان التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة، وإن كان التمثيل قد شوهها - عملت على طبعها، وبدات في المقدمة - التي كانت من خير ما كتبت - اكشف عن مبادئي في صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل.

وسرعان ما سنحت لي فرصة الإقدام - في غير ما تحفظ - على عرض هذه المبادئ في مؤلف أدبي عظيم الاهمية. فقد حدث ذلك العام "١٧٥٣" - على ما اظن - أن اتخذ محفل "ديجون" من موضوع "منشا عدم المساواة بين البشر" مادة لبرنامج مسابقته. وهزني هذا الموضوع العظيم، واذهلني أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة. على انه إذا كان قد اوتى هذه الشجاعة، فقد رايت ان بوسعي ان أوتى الشجاعة على الخوض فيه.. وشرعت في ذلك..



ولكي افكر في هذا الموضوع العظيم، وانا مرتاح الخاطر، قمت برحلة إلى "سان جيرمين"، حيث قضيت سبعة ايام او ثمانية، مع "تيريز" ومضيفتنا - التي كانت امرأة طيبة - وإحدى صديقاتها. وإني لأحسب هذه النزهة بين احب ما قمت به من نزهات في حياتي.. وكان الجو جميلا، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات. وراحت "تيريز" تتسلى بصحبتهما. أما انا، فقد خلوت من الشواغل، ورحت اشاطرهن ابتهاجهن في أوقات الوجبات، متخففا من كل هم. وكنت أقضي بقية النهار موغلا في الغابة، حيث اخذت ابحث، وحيث وجدت صورة العصور الأولى، فرحت أتعقب التاريخ خلالها في جرأة، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة.. وتجاسرت على أن أكتشف طبيعتهم، وأتعقب سير الزمن، والأشياء التي شوهت هذه الطبيعة.. وبالمقارنة بين الإنسان - كما صنعه الإنسان - والإنسان كما صنعته الطبيعة، كشفت له - في كماله المزعوم - عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقائه.

وارتفعت روحي - وقد انتشت بهذه التأملات السامية - إلى مقربة من مقام الربوبية، فأطللت من هناك على أقراني من أبناء البشر، وهم يسيرون عميانا في طريق الأباطيل والأوهام، وطريق أخطائهم، ومحنهم، وجرائمهم.. ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعوا أن يسمعوه: "أيها الحمقى، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة، ألا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم!".

وكانت نتيجة هذه التأملات: "حديث في عدم المساواة"، وهو مقال صادف هوى من نفس "ديدرو"، فاق كل ما صادفته كتاباتي الأخرى، وقد أولاني نصيحة بشأنه، كانت أنفع النصائح (١)، ولكنها لم تجد في "أوروبا" كلها من القراء من أدركها سوى قليلين، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها!..

وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة، فأرسلته وأنا واثق - سلفا - بأنه لن يفوز بنجاح، إذ كنت أعرف عن يقين أن جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع!

وأدت هذه النزهة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي وصحتي. إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول، وقد استسلمت نهائيا للأطباء، فاستنزفوا قواي - دون أن يخففوا علتي - وهدموا بنيتي. ولكنني عندما عدت من "سان جيرمين" وجدت مزيدا من القوى، وشعرت بكثير من التحسن.

وتبعت هذه البادرة، فعقدت العزم على أن أشفى، أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير. وودعتهم إلى الأبد. وشرعت أعيش ليومي، أستريح عندما أعجز عن المشي، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير. وكانت الحياة في "باريس"، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر، لا تروق لي.. كان تعصب الأدباء وتحزبهم، ومنازعاتهم المخزية، وافتقارهم إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم، والمظهر المترفع الذي يخدعون به المجتمع.. كل هذه كانت بغيضة إلى نفسي!.. وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس، ولا سيما أصدقائي!

حتى لقد عافت نفسي هذه الحياة الصاخبة، وأخذت أتوق - في رغبة صادقة - إلى الإقامة في

---

(١) علق "روسو" على هذا، بقوله: "لم يكن لدي - في الوقت الذي كتبت فيه هذا - أي حدس عن مؤامرة "ديدرو" و"جرم" الكبرى، وإلا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استغل الأول ثقتي؛ لكي يخلع على كتاباتي هذا الأسلوب الجاف، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد أن توقف عن توجيهي.. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذي سد أذنيه - خلال إحدى نقاط الجدل - حتى يكتسب صلابة دون أنات رجل في محنة، من أسلوب "ديدرو". وقد أمدني بكثير غير هذا الجزء، وبقوله شدة، حتى إنني لم ألو على حمل نفسي على استئصاله. على أنني عزوت تلك الروح القاتمة إلى ما جرى له في "زنزانة" "فنسين". وثمة هذه الروح تتبدى مرة أخرى، وبنسبة كبيرة، في مؤلفه "كليرفال". بيد أنه لم يخطر ببالي إطلاقا أن أرتاب في أن هذا؛ كان ينطوي على أدنى نية خبيثة"!

الريف. ولما لم أجد أي أمل في أن تمكنني مهنتي من الاستقرار هناك، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات - التي كنت أستطيع أن أفرغ فيها من العمل - هناك. واعتدت، لعدة أشهر، أن أخرج للرياضة وحيداً - عقب الغداء في بداية الأمر - في غابة "بولونيا"؛ لأدير في فكري موضوعات لمؤلفاتي المقبلة. ولم أكن أعود قبل هبوط الليل!

من سنة ١٧٥٤

إلى سنة ١٧٥٦

رأى - "جوفكور" - الذي كانت علاقاتي به في أوج توثقها إذ ذاك - أن لابد له من الرحيل إلى "جنيف" بحكم عمله، فعرض عليّ أن أرافقه في هذه الرحلة. ووافقت على ذلك.

وإذ لم أكن بصحة جيدة استغني معها عن عناية "السدادة" (١)، فقد قرر أن تكون معنا في الرحلة، وأن تتولى أمها حراسة البيت. وأعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معاً، في أول حزيران (يونيو) سنة ١٧٥٤ .

وجدير بي أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التي صادفتني خلال سني عمري الاثنتين والأربعين - إذ ذاك - والتي نبهتني إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التي فطرت عليها، والتي اعتدت دائماً أن أسلم نفسي إليها دون ما تحفظ ولا حرج. وكانت لدينا مركبة متوسطة، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديها. وكنت كثيراً ما أهبط وأسير على قدمي. ولم نكد نقطع نصف طريقنا، حتى أبدت "تيريز" أعظم نفور من أن تبقى وحيدة في العربة مع "جوفكور"، فما إن رغبت في الهبوط - بالرغم من رجائها - حتى هبطت هي الأخرى وسارت. وظللت ألومها وقتاً طويلاً على هذه النزوة، بل ورحت أعارضها بشدة، حتى رأت نفسها مضطرة - في النهاية - إلى أن تصارحني بالسبب.. وخيل إليّ أنني أحلم.. وهويت من حالق، عندما سمعت أن صديقي السيد دي "جوفكور"، المسن الذي جاوز الستين، والمصاب بالنقرس، والمنهار البنيان، والذي هدته حياة اللهو والعبث.. صديقي هذا كان يبذل غاية جهده، مذ بدأنا الرحلة؛ ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة، امرأة كانت لصديقه.. وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل، وبادعاها إلى الخجل، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده.. وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتاباً فاحشاً، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التي امتلأ بها الكتاب!.. ولقد ألقت "تيريز" بالكتاب الخبيث - مرة - من العربة، وهي في غمرة السخط. وقالت إن الرجل في أول يوم في الرحلة، انتهز فرصة إيوائي إلى الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعاني صداعاً شديداً - واستنفد الوقت كله - وقد كان خلاله وحيداً معها - في محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج، أو بالجندي، منها برجل محترم، ائتمنته على نفسي وعلى رفيقتي!

يا للمفاجأة!.. ويا له من ألم في الفؤاد جديد عليّ!.. أيقدر لي، أنا الذي كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التي تكسبها بهاءها - أن أجد نفسي لأول مرة في حياتي، أقرن هذه الصداقة بالازدراء، وأسحب ثقتي وتقديري من رجل كنت أحبه،

---

(١) يقصد "تيريز".

وكنت اعتقد انني محبوب منه؟!.. لقد اخفى فلتعس مسلكه المعيب عني، ولكي اتجنب إحراج "تيريز"، الفيتني مضطرا إلى ان اخفي عنه استيائي، وإلى ان أدفن في قرارة فؤادي مشاعر ما كان له ان يعلم بها إطلاقا!.. فيا وهم الصداقة الوادع القدسي، لقد كان "جوفكور" اول من رفع نقابك لعيني، وكم من ابد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية!

وتركت "جوفكور" في "ليون"؛ لاتخذ طريقي خلال إقليم "سافوا"، إذ لم اقو على ان امر - من جديد - على مقربة من "ماما" دون ان اراها. ولقد رايتها.. ولكن، يا إلهي!.. في اية حال؟ بل في اي هوان؟!.. ما الذي تبقى لها من صفاتها الاولى؟.. افهذه هي السيدة دي "فاران" بعينها، التي كانت متالقة، والتي اوفدني إليها اسقف "بونفير"؟.. لشد ما حزن قلبي!.. ولم ار لها من مخرج سوى ان تترك إقليمها.

ورحت الحف عليها في حرارة، ودون جدوى، مرددا ما الححت عليها به عدة مرات في خطاباتي، ضارعا إليها ان تاتي فتعيش معي في سكينة، وتسمح لي بان اكرس ايامي وايام "تيريز" من اجل ان نحيل ايامها سعيدة. ولكنها ابت أن تصغي إليّ متشبثة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئا، منذ امد طويل، برغم انه كان يدفع بانتظام. ووهبتها - مرة اخرى - قسطا طفيفا من نقودي، يقل عما كان ينبغي ان اعطيها، واقل مما كان يجب ان اقدم، لو لم اكن موقنا تمام اليقين من انها لن تفيد منه بـ"صو" واحد!

ولقد قامت - اثناء مكثي بـ"جنيف" - برحلة في "شابليه"، فجاءت لزيارتي في "جراتج كانال". وكان يعوزها المال كي تواصل الرحلة، ولم اكن احمل معي ما كان لازما لها، فارسلته إليها بعد ساعة، بوساطة "تيريز". باللمسكينة "ماما"!.. فلاذكر دليلا واحدا جديدا، على طيبة قلبها: ذلك انه لم يكن قد تبقى لها من حليها، سوى خاتم صغير، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول اصبع "تيريز"، التي نقلته في التو إلى أصبع "ماما" من جديد، وهي تقبل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها!

.. آه! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد ديني!.. كان خليقا بي ان اهجر الكل لاتبعها، وان الازمها حتى ساعتها الاخيرة، وان أقاسمها حظها، مهما يكن!.. ولكني لم افعل شيئا من هذا القبيل، فقد شعرت - وقد شغلت عنها بغيرها - ان الرابطة التي كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت، إذ كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع ان احيل علاقتي بـ"ماما" إلى شيء نافع لها!.. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم اتبعها.. وليس بين بواعث تانيب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو اشد ولا أبقى من هذا الباعث!.. وإنني لاستحق الوان العقاب الفظيعة التي لم تكف عن تعذيبي منذ ذلك الحين.. فليتها تكفر عن جحودي!.. الجحود الذي تبدى في مسلكي فعلا، ولكنه مزق قلبي في عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما!

*****

كنت قبل رحيلي من "باريس" قد شرعت في صوغ إهداء "حديث في عدم المساواة"، وقد فرغت منها في "شامبيري"، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان، إذ رايت ان من الافضل الا اقرن التاريخ باسم "باريس" او "جنيف"، كي اتفادى كل المضايقات. وإذ وصلت إلى "جنيف"، أسلمت نفسي لتحمسي، وهيامي بالنظام الجمهوري.. هذا التحمس المستهام الذي قادني إلى هناك، والذي

ازداد بالاستقبال الذي حظيت به . وفي غمرة المآدب والمجاملات التي احاطتني بها كل الأوساط، استسلمت بكل كياني إلى الغيرة الوطنية، وقد أخجلني أن أحرم من حقوقي كمواطن! بسبب اعتناقي دينا يخالف دين آبائي (١)، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورأيت أن الإنجيل واحد لجميع المسيحيين، وأن لب العقيدة، ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين أقحموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد – في كل بلد – أن يعين أسلوب العبادة، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة . . ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقروا العقيدة، وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطي بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعزع إيماني، بل إنه عززه، لاسيما وإنني كنت أنفر من المنازعات والتعصب . ولقد أدت دراسة الإنسان والكون – في كل مكان – إلى اطلاعي على القضايا الرئيسية والعقلية التي توجهها . ولقد علمتني قراءة التوراة – لاسيما الإنجيل الذي انصرفت إليه عدة سنوات – كيف أزدري التفسيرات الجوفاء الحمقاء، التي خلعها على تعاليم "عيسى" المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق! . . ومجمل القول إن الفلسفة إذ قربتني من جوهر الدين، صرفتني عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة، التي حجبت عن الناس هذا الجوهر!

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك، ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما في الوصول إلى المسيحية، فإنني كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام – في كل دولة – إنما يدخل في نطاق التشريع والقانون . ومن هذا المبدأ المعقول، الاجتماعي، السلمي – الذي جر علي ما جر من اضطهادات قاسية – انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن أصبح مواطنا، فإن من واجبي أن أكون بروتستانتيا، وأن أعود إلى دين وطني . وعقدت عزمي على ذلك، بل إنني استشرت في ذلك راعي الأبرشية التي كنت أقيم فيها، والتي كانت خارج المدينة . . ولم أكن أرجو سوى ألا أضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد، إلا أنه رؤي التجاوز عنها إكراما لي، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء، لتتلقى إقراري بعقيدتي، في جلسة خاصة . ولسوء الطالع، شاء القس "بردريو" – وكان شخصا لطيفا، لينا، ربطتني به روابط من الود – أن يلح عليّ بأن من دواعي الغبطة أن ألقي كلمة في هذا الاجتماع الصغير . وأزعجني توقع هذه الكلمة، إلى درجة أنني – بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة أسابيع – أعددت خطابا قصيرا . . وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى إنني عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . . وتصرفت كأغبى تلاميذ المدارس! . . وتولى أعضاء اللجنة عني الحديث، ورحت أجيب في عي بـ "لا" و "نعم"، ثم قبلت في الطائفة، ورددت إلي حقوقي كمواطن . . وكذلك أدرج اسمي في قائمة "الحرس الوطني" الذي كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (٢)، ودعيت إلى اجتماع غير عادي للمجلس العام، لتلقي اليمين من "السنديك" "موسار" (٣).

ولقد تأثرت للعواطف الطيبة التي أبداها لي المجلس ومجمع الكرادلة – في هذه المناسبة – وللإجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين، والقساوسة، والمواطنين، حتى إنني – بدافع من الرجاوات الملحة من "ديلوك" الطيب، ومن "ميلي" الصادق بوجه خاص – لم أعد أفكر في العودة إلى "باريس" إلا لكي أتخلص من مسكني، وأسوي أعمالي البسيطة، وأجد عملا للسيدة "لوفاسير" وزوجها – يقيهما العوز – ثم أعود مع "تيريز" فنستقر في "جنيف" بقية حياتي .

---

(١) كان "روسو" قد تحول من الكاثوليكية إلى البروتستانتية في صباه . (٢) ذكر "روسو" أنه كان يقيم خارج المدينة، فكان ضمه إلى الحرس نوعا من التكريم له . (٣) "السنديك" هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

وإذ استقر رأيي على هذا القرار، أرجأت كل الشواغل الهامة، لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى "باريس". وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لي، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع "ديلوك" الأب، وزوجة ابنه، و"تيريزي". وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة، في أبدع طقس عرفته. وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني - عند الطرف الأقصى للبحيرة - وأوردت بعض أوصافها في "هيلويز الجديدة" عندما كتبتها بعد سنوات!

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في "جنيف" - عدا صلتي بـ"ديلوك" الذي تحدثت عنه - هي صداقتي للقس "فيرن"، الذي كنت قد عرفته في "باريس" من قبل، والذي كانت لدي عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد.. وصداقتي للسيد "بيرديريو"، الذي كان - في ذلك الحين - راعي "أبرشية" ريفية، وأصبح اليوم أستاذا للأدب، والذي سأظل دائما أتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة، وإن كان هو قد رأى أن فصم هذه المعرفة، كان عملا سليما.. وهناك السيد "جالابير"، الذي كان أستاذا لعلم الطبيعة - إذ ذاك - ثم أصبح مستشارا و"سنديك"، وقد قرأت عليه رسالتي عن عدم المساواة - بعد أن تجاوزت عن المقدمة والإهداء - فبدا عليه أنه طرب لها.. والأستاذ "لولان"، الذي ظللت على تراسل معه حتى وفاته، والذي ذهب في ثقته بي إلى درجة أن عهد إلي بأن ابتاع بعض الكتب للمكتبة العامة.. والأستاذ "فيرنيه"، الذي أدار لي ظهره - ككل الناس - بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء!.. و"شابوي"، الكاتب الذي خلف "جوفكور" في العمل، والذي رغب في أن يخلفه في الصداقة، وسرعان ما خلفه فعلا.. و"ميرسيه دي ميزيير"، وقد كان صديقا قديما لأبي، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لي، ولكنه - بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا، ومرشحا لمجلس المائتين - تحول عن آرائه، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته.. على أن التعارف الذي وضعت فيه أكبر أملي، هو تعارفي مع "مولتو".. وكان شابا توحي مواهبه وذكاؤه المتاجج بمستقبل عظيم له. وقد اعتدت دائما أن أشعر بعطف عليه، برغم أن مسلكه نحوي كثيرا ما يثير الريب، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بألد أعدائي.. على أنني - برغم كل هذا - لا أستطيع أن أصد نفسي عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائد عن مذكراتي، والمنتقم لي، بوصفي صديقه!

*****

وفي غمرة هذه المتع والمرفهات، لم أفقد ميلي إلى النزهات، التي كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمي، فلم أكف عن ممارستها.. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة، لم يكن يمكث خلالها في رأسي - الذي اعتاد العمل - شيء من الهواجس. وكنت أقلب في ذهني أثناءها المشروع الذي كنت قد رسمته من قبل، لكتابي: "المذاهب السياسية"، الذي لن ألبث أن أتحدث عنه.. كذلك كنت أفكر في كتابة "تاريخ فاليه" (١).. ومأساة شعرية لم يجردني موضوعها - الذي لم يكن سوى حياة "لو كريس" (٢) - من الأمل في خنق الضحكات، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة أخرى، وفي وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسي. كذلك حاولت أن أعالج موضوع "تاسيتوس" (٣)، وترجمت الكتاب

(١) إقليم "الفالية" في الأراضي "السويسرية"، في الوادي الأعلى لنهر الرون. (٢) امرأة رومانية، قتلت نفسها يأسا وكمدا عندما اغتصبها ابن حاكم "روما" المستبد، فأدت مأساتها إلى قيام النظام الجمهوري في "روما" سنة ٥١٠ قبل الميلاد. (٣) "تاسيتوس" كاتب روماني أوردنا سيرته في صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و"التواريخ" من أشهر مؤلفاته.

الأول من "التواريخ".. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقي.

وبعد اربعة اشهر من الإقامة في "جنيف"، عدت إلى "باريس" في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، متحاشيا المرور بـ"ليون"؛ حتى لا التقي في طريقي بـ"جوفكور". ولما كنت قد قررت - في تدبيراتي - الا اعود إلى "جنيف" إلا في الربيع التالي، فقد عاودت في الشتاء عاداتي واعمالي، التي كان اهمها مراجعة النسخ التجريبية "البروفات" لرسالتي "حديث في عدم المساواة"، التي كانت تطبع في "هولندا"، لدى الناشر "ريي" الذي كنت قد تعرفت إليه في "جنيف". ذلك لانه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهوري، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس (١)، فقد انتظرت حتى ارى وقعه في "جنيف" قبل أن اعود إليها. ولم يكن هذا الوقع في صالحي، بل إن ذاك الإهداء - الذي لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية - خلق لي في المجلس اعداء، كما جلب علي غيرة بعض المواطنين. فقد كتب لي السيد "شويه" - "السنديك" الأكبر، في ذلك الحين - رسالة مهذبة ولكنها فاترة، ستوجد في أوراقي، في الملف "أ" رقم "٣". وتلقيت من بعض الخاصة - وبينهم "ديلوك" و"جالابير" - تهاني قليلة، كانت هي غاية ما جوزيت به، فلم أجد واحدا من ابناء "جنيف" يشكر لي صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب، والتي تبدو ملموسة في الكتاب. ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه. واذكر انني كنت أتناول الغداء - ذات يوم - في دار السيدة "دوبان"، في "كليشي"، بصحبة "كروميلان" - وزير الجمهورية (٢) - والسيد دي "ميران"، فقال هذا في صراحة مسموعة، إن المجلس كان مدينا لي بمكافاة وبتكريم عام، من اجل هذا الكتاب، وإنه إنما يخزي نفسه إذا قصر في هذا. ولم يجرؤ "كروميلان" - الذي كان ضئيل الجسم، أسود القلب، دنيء المكر - أن يرد على ذلك في حضوري، ولكنه لوى فمه في حركة بشعة اضحكت السيد "دوبان"!.. وكانت الفائدة الوحيدة التي عادت علي من هذا المؤلف - إلى جانب أنني أرضيت به فؤادي - هي لقب "المواطن" الذي خلعه علي أصدقائي، ثم حذا الجمهور حذوهم، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك؛ لفرط استحقاقي إياه! على أن هذا النجاح الخابي ما كان ليحولني عن تحقيق أوبتي إلى "جنيف"، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوي على فؤادي. فإن السيد "ديبيناي" كان راغبا في أن يضيف إلى قصر "لاشيفريت" جناحا كان ينقصه، فانفق في سبيل إنجاز ذلك، مبالغ جسيمة. وفيما كنت ذاهبا - ذات يوم - مع السيدة "ديبيناي"، لمشاهدة عملية البناء، مضينا في سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالي ربع فرسخ، اي إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة غابة "مونمورنسي"، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق، اقيم ليكون مطبخا خلويا، وقد ألحق به كوخ مهدم، يدعى "ليرميتاج" (٣).

وكان هذا الموقع المنعزل، الملائم بي، قد ملك عليّ حواسي عندما رأيته للمرة الأولى، قبل رحلتي إلى "جنيف". وفي إعجابي به، انبعثت مني هذه الكلمات: "آه!.. يا له من مقام بهيج ياسيدتي!.. ها هو ذا ملاذ كانما خلق لي!".. ولم تكترث السيدة "ديبيناي" لقولي كثيرا، في ذلك الحين. ولكنني - في زيارتي الثانية - دهشت عندما وجدت في مكان الطلل القديم، منزلا صغيرا، يكاد يكون جديدا باكمله، وقد قسم تقسيما بديعا، واصبح جد مهيأ ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفرادا.. ذلك أن السيدة "ديبيناي" عملت على إنشاء هذا المبنى في صمت، وبنفقات جد ضئيلة، مستخدمة في ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون في القصر، وبعض المواد التي كانت متوفرة

---

(١) مجلس المالكين، الذي بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية "جنيف". (٢) الوزير المفوض لجمهورية "جنيف" في "باريس". (٣) L'Ermitage. أي صومعة الناسك.

هناك!

وعندما رأت دهشتي، قالت: "ها هوذا ملجؤك يادبي، فقد اخترته بنفسك، وقد أنالتك إياه الصداقة، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر في البعد عني!". وما أعتقد أنني شعرت يوما بتأثر أشد، ولا اعذب مما شعرت به. إذ ذاك!.. وغسلت بدموعي يد صديقتي الكريمة. وإذا لم أكن قد تخليت تماما عن عزمي في تلك اللحظة، فإن هذا العزم قد تصدع على الأقل!.. وأصبحت السيدة "ديبيناي" - التي ابت أن تنهزم أمام رغبتي في الاستقرار في "جنيف" - شديدة الإلحاح، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة، وبكثير من الأشخاص! لكي تتغلب علي.. بل إنها ذهبت في ذلك إلى حد أن عينت السيدة "لوفاسير" وابنتها في خدمتها.. وبهذا انتصرت في النهاية على إصراري. وإذ تنحيت عن فكرة الاستقرار في وطني، قررت، ووعدت بأن أقيم في "ليرميتاج". وبينما كان المبنى يجف (١)، تكفلت السيدة "ديبيناي" بأمر الأثاث. ومن ثم فإن المكان كان معدا تماما للسكنى في الربيع التالي.

❁❁❁❁❁

وكان من الأشياء التي ساعدت كثيرا على أن ابت في الأمر، استقرار المقام بـ"فولتير"، على مقربة من "جنيف". فقد ادركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك، وإنني خليق بأن أجد في وطني عين النقائص، والمظاهر، والأخلاق التي كانت تنفرني من "باريس"، ومن ثم فلابد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لي من خيار في مسلكي سوى أن أكون أحد اثنين: إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق، أو مواطنا رديئا جبانا!.. ولقد أدى الخطاب الذي كتبه لي "فولتير" عن كتابي الأخير، إلى أن أشير إلى هواجسي في ردي، فكان الأثر الذي أحدثته إشارتي معززا لرأيي. ومنذ ذلك الحين، اعتبرت "جنيف" في حكم الضائعة، ولم أكن مخطئا في حدسي. ولعله كان من الخليق بي أن أتحدى العاصفة، لو أنني شعرت بمقدرة على ذلك، ولكن.. ما الذي كنت أملك أن أفعله - وأنا وحيد، خجول، عيي - ضد رجل متكبر، غني، يستند إلى مؤازرة الكبار، ويجيد الكلام البراق، وقد صار معبود النساء والشباب؟.. لقد خشيت أن أعرض شجاعتي للخطر، دون جدوى، فلم أنصت إلا إلى فطرتي المسالمة، وإلى حبي للطمأنينة والخمول.. فهو إذا كان قد خدعني إذ ذاك، فإنه لايزال يخدعني اليوم، في هذا المضمار، عينه!.. ولو أنني آثرت المقام في "جنيف"، لجنبت نفسي كثيرا من المحن والتعاسات، ولكني - بكل ما أوتيت من حمية، ومن غيرة وطنية - أشك في أنني كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم، أو نافع، لبلادي.

وكان "ترونشان" قد استقر في "جنيف" حوالي ذلك الوقت، فما لبث أن جاء إلى "باريس" بعد قليل، ليقوم بدور الدجال (٢)، وليتسلل إلى بعض كنوزها. وما إن وصل، حتى قام بزيارة "الشيفالييه جوكور".. وكانت السيدة "ديبيناي" تواقة إلى أن تستشيره شخصيا، ولكن الوصول إليه - خلال صفوف الجماهير - لم يكن ميسورا. وهرعت إليّ، فاقنعت "ترونشان" بأن يذهب لزيارتها، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها - فيما بعد - على حسابي أنا!.. هكذا كان نصيبي دائما، فما جمعت بين صديقين - كنت أعرف كلا منهما على حدة - إلا واتحدا، دون توان، ضدي. ومع أنهم في المؤامرة - التي دخلها آل "ترونشان" من ذلك الحين، لكي ينحطا ببلادهما إلى درك

---

(١) كانت العادة - في تلك العهد - أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان في إنشائه. (٢) تيودور ترونشان: الطبيب "السويسري"، الذي ولد في "جنيف" سنة ١٧٠٩، ومات سنة ١٧٨١.

العبودية - كانوا يشعرون بمقت نحوي، إلا ان الطبيب ظل طويلا يبدي لي آيات حسن النية. بل إنه ذهب إلى درجة ان كتب لي، بعد عودته إلى "جنيف" عارضا علي منصبا فخريا يضعني على رأس المكتبة العامة هناك. ولكن رأيي كان قد استقر، فلم يزعزع هذا العرض عزمي.

وعدت - في هذه الفترة - اتردد على دار السيد "دولباخ".. وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته - كما عدا على السيدة "فرانكويي" - إبان إقامتي في "جنيف". وقد حدثني "ديدرو" - إذ اشار إلى ذلك في خطاباته - عن الحزن العميق الذي نزل بالزوج، فحرك الأسى فؤادي، وتحسرت - في نفسي - على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد "دولباخ".

إذ إن هذا الحادث المحزن جعلني انسى كل اخطائه، وما إن عدت من "جنيف"، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها في "فرنسا" ليسري عنه الأسى، حتى ذهبت لزيارته مع "جريم" واصدقاء آخرين، وواصلت زيارته - بعد ذلك - إلى ان رحلت إلى "ليرميتاج". وعندما شاع في الوسط المحيط به، ان السيدة "ديبيناي" - التي لم يكن قد نعرف إليها بعد - كانت تعد لي مسكنا، انهالت علي السخريات كالمطر، وقيل إنني عاجز عن ان اعيش بدون تملق وإطراء المدينة، وبدون متعها وملاهيها، وإنني لن أطيق البقاء في عزلة، ولو لخمسة عشر يوما!.. ولما كنت ادرك حقيقة مشاعري، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم، ومضيت في طريقي. ومع ذلك، فإن "دولباخ" ساعدني على ان اعثر على مأوى للشيخ "الطيب لوفاسير" (١) الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذي كانت زوجته تشعر بانه عبء ثقيل يبهظها، فكانت لا تكف عن ان ترجوني ان اريحها منه!..

وقد وضع في ملجأ للفقراء، حيث عجل كبر سنه، وحزنه لبعده عن اسرته، بإرساله إلى القبر، بمجرد ان حل بالمكان تقريبا!.. ولم تأس زوجته واطفاله عليه كثيرا، ولكن "تيريز" - التي كانت مشغوفة بحبه - لم تجد قط عزاء لمصابها فيه، ولم تصفح عن نفسها قط إذ تركته - وهو على شفا نهاية اجله - يقضي ايامه الاخيرة بعيدا عنها!

*****

وتلقيت في هذه الفترة تقريبا، زيارة لم أكن ارتقبها قط، وإن كان صاحبها من اقدم المعارف. واعني به صديقي "فينتور"، الذي فاجاني ذات صباح لطيف، عندما كان آخر شخص يخطر ببالي. وكان معه زميل.. وكم لاح لي انه تغيرا.. فبدلا من اخلاقه الكريمة السالفة، لم اجد فيه سوى مظهر مفسود منحل، منعني من ان اكاشفه بدخيلتي.. او لعل عيني لم تعودا كما عهدتهما، او ان الإفراط في العبث قد اطفا ذكاءه، او ان كل تالقه السابق كان يعتمد على إشراقة الصبا، التي لم يعد محتفظا بها!.. ولقد عاملته في غير اكتراث تقريبا، وافترقنا في فتور. ولكنه لم يكد ينصرف، حتى أهاجت ذكرى الفتنا القديمة.. ذكريات صباي، تلك الذكريات التي كانت في رونقها، وفي بهائها، وفي كمالها، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التي لم تكن - اليوم - اقل تغيرا منه.. وطرائف واقاصيص تلك الأوقات الهانئة.. وذلك اليوم الشاعري الذي قضيته في "تون"، في براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما انعمتا به عليّ، مجرد قبلة على اليد، ولكنها خلفت - مع ذلك -

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "هذه إحدى الحيل التي تخدعني بها ذاكرتي. فقد علمت لتوي - وبعد كتابة هذا بأمد طويل - خلال حديث مع زوجتي عن ابيها الطيب، ان الذي ساعد على إنزاله بالملجأ، لم يكن السيد "دولباخ"، وإنما كان السيد دي "شينونسو"، الذي كان إذ ذاك من اعضاء لجنة "فندق الله". وقد نسيته تماما، وذكرت السيد "دولباخ" في مكانه، إلى درجة انني كنت على استعداد لان اقسم انه الذي قام بالخدمة".. والفندق الذي يعنيه "روسو" هنا من اقدم ملاجيء "باريس".

حسرة ناعمة دائمة! . .

وإذا كل النشوات البهيجة التي اسكرت قلبي الشاب، والتي شعرت بها إذ ذاك في اقوى صورها، والتي كنت اظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة، جعلتني ابكي شبابي الذي ادبر بمباهجه، والذي ضاع عليّ! . . آه! كم كنت جديرا بان ابكي عودة هذه الذكريات - العودة المتاخرة، الحزينة - لو انني تنبأت بالأسى الذي كان مرتقبا ان تكبدنيه!

وقبل ان اغادر "باريس"، وفي اثناء الشتاء الذي سبق اعتكافي، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبي، واقبلت على تذوقها بكل نفاثها. ذلك ان "باليسو" - وكان عضوا في محفل "نانسي"، اذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها - كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيليات في "لونيفيل". على مشهد من ملك "بولندا". وكان من الجلي انه اراد ان ينشد الحظوة، إذ دس في تمثيليته شخصية رجل جرؤ على ان يناجز الملك بقلمه. ولكن "ستانيسلاس" كان رجلا كريما، لا يميل إلى الهجو، وقد استنكر ان يجرؤ احد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل في محضره. فكتب السيد الكونت دي "تريسان" - بامر من الملك - إلى "دالمبير" وإلي انا، فانبأني بان نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق إقصاء السيد "باليسو"، عن المحفل. على انني رجوت السيد "تريسان" مخلصا - في ردي - بان يشفع لدى ملك "بولندا" للحصول على عفو عن "باليسو". وصدر العفو فعلا. وإذ كتب لي السيد دي "تريسان" ليخبرني - باسم الملك - بذلك، اضاف ان هذا الحادث سيثبت في سجلات المحفل، فرددت بان هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، اكثر مما هو عفو. واخيرا، حصلت - بعد عناء ورجاء - على وعد بان تظل المسالة كلها بعيدة عن السجلات، والا يبقى اي اثر منها بصفة رسمية. وقد صحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك، ومن جانب السيد دي "تريسان"، مما اثار زهوي إلى حد كبير. وشعرت في هذه المناسبة بان تقدير اولئك الذين هم جديرون بالتقدير، يبعث في النفس شعورا اعذب واسمى من شعور الخيلاء والغرور! . . . وقد ضممت خطابات السيد دي "تريسان" وردودي إلى أوراقي، وستوجد اصولها في ملف "أ"، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١ .

إنني لأشعر كل الشعور، بانه إذا قدر لهذه المذكرات ان ترى الضوء يوما، انني أخلد بنفسي هنا ذكرى واقعة كنت ارغب في ان امحو آثارها، ولكنني اثبت كثيرا غيرها، على الرغم مني. فإن الهدف الأكبر لمشروعي هذا، يتمثل دائما امام عيني. فإن الواجب الذي لا محيص عنه، والذي يتطلب ان احقق هذا الهدف باكمل صورة، لا تدع لي سبيلا للنكوص، من اجل اعتبارات واهية تعمل على ان تعوقني عن غايتي. إنني في موقفي الفذ الفريد، ادين للحقيقة بما لا ادين لسواها باكثر منه. فلكي اعرف القراء بنفسي، لابد لي ان اعرف كل نواحي هذه النفس، طيبها ورديعها. إن اعترافاتي مرتبطة - بالضرورة - باعترافات كثير من الناس، وإني لأبوح بهذه وتلك لنفس الصراحة، في كل ما يتعلق بي، دون ان اجد ما يقتضي ان اعامل اي امرئ غيري بما لا اعامل به نفسي، ولست اتمنى سوى ان أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبديت.

إنني أصبو إلى ان أكون دائما منصفا وصادقا، فاقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولا اذكر من الشر إلا ما يتعلق بي، وبقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره.

فمن ذا الذي يجد من حقه ان يطالبني - وانا في هذا الموقف الذي اقحمت فيه - بمزيد؟ . . إن اعترافاتي لم تكتب إطلاقا لكي تظهر في حياتي، ولا في حياة الأشخاص الذين تتناولهم. ولو كان لي السلطان على مصيري، ومصير هذا المخطوط، لما رأى النور إلا بعد موتي وموت هؤلاء الأشخاص بوقت

طويل ولكن الجهود التي يبذلها الشانئون ذوو النفوذ - مدفوعين بجزعهم منها - لكي يمحوا كل اثر لهذا المخطوط، يضطرني إلى ان ابذل كل ما يسمح لي به أشد القوانين، واقسى الوان العدالة، في سبيل صون هذه الآثار. ولو كان مقدرا لذكرياتي ان تموت معي، حتى لا امس اي احد، لتحملت أي ظلم جائر وعابر، يترتب على ذلك. أما وقد قدر لاسمي ان يعيش - اخيرا - فإن من واجبي أن أحاول ان أسلم الاجيال معه ذكريات الرجل التعس الذي كان يحمله.. كي ابديه على ما كان عليه في الواقع والحقيقة، وليس كما عمل اعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه!

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لي التلهف على سكنى "ليرميتاج" بأن انتظر حتى يعود فصل الطقس البديع، فما إن تم إعداد مسكني حتى اسرعت إلى الإقامة فيه، وسط السخريات المدوية من ثلة "دولباخ"، الذين راحوا يتنباون علانية بانني لن استطيع ان احتمل العزلة ثلاثة اشهر، وانهم لن يلبثوا ان يروني عائدا لاعترف بإخفاقي، ولاعيش مثلهم في "باريس". اما انا - وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيئتي - فإنني إذ رايت نفسي وشيك العودة إليها، لم ابد اي اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر. فإنني منذ ان القيت - على الرغم مني - في المجتمع، لم اكف عن التحسر على "شارميت"، وعلى الحياة الناعمة التي حظيت بها هناك.. كنت احس انني خلقت للإقامة في الريف، فكان من المستحيل ان اهنا بالعيش في غيره.. في "البندقية": في غمرة الشؤون العامة، وفي منصب خاص بنوع من التمثيل الدبلوماسي، وفي آمالي الطامحة ومشروعاتي للرقي.. في "باريس": في دوامة المجتمع الراقي، وفي الملاذ الحسية التي تكتنف حفلات العشاء، وفي حفلات المسرح اللامعة، وفي سحب المجد الزائف الذي حف بي.. في كل هذه وتلك، كانت ذكريات ادغالي، وجداولي، وتجوالي على القدمين، حاضرة ابدا لتشغل بالي وتبعث الاسى في نفسي، وتنتزع مني التنهدات والحنين والحسرة!

كل الاعمال التي كان في طوقي ان اجعل نفسي في ربقتها، وكل المشروعات الطامحة التي راحت تنمي حميتي باطراد، ولم يكن لها من غاية سوى ان ابلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهانئة، التي رحت اهنئ نفسي - في تلك اللحظة - على انني احرزتها.. فإنني وإن لم احظ بالاستقلال الكريم - الذي كنت اعتبره وحده الكفيل بان يقودني إلى هذه الهناءة - إلا انني رايت ان بوسعي، نظرا لوضعي الخاص، ان استغني عنه، وان اصل إلى نفس النهاية بطريق اخرى جد مختلفة. على انني لم اكن املك دخلا ما، وإن كنت امتلك اسما ومواهب.. وكنت معتدلا، وقد حرمت نفسي من معظم الحاجات الباهظة النفقات.. تلك التي كانت منشودة لدى الناس عامة. وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلي، إلا انني كنت مجدا عندما اشاء، ولم يكن كسلي راجعا إلى انني عاطل خمول، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذي لا يحب ان يعمل إلا عندما يروق له العمل. ولم يكن احترافي نسخ القطع الموسيقية رائجا، ولا مربحا، ولكنه كان مصدر رزق مضمون، وقد حبذ المجتمع شجاعتي إذ اقدمت على اختياره. فقد كان لي دائما ان اطمئن إلى عمل، وان اطمئن إلى رزق كاف لعيشي إذا انا عملت جادا. وكانت الفرنكات الالفان التي تبقت من ارباحي من "عراف القرية" ومن مؤلفاتي الاخرى، بمثابة رصيد يقيني الضيق. كما ان المؤلفات العديدة التي كانت تحت الإعداد، كانت تبشر - دو ن ما تطفل على الناشرين - بموارد كافية لان تمكنني من العمل على سجيتي، دون ما إرهاق لنفسي، بل ودون ان اجور على اوقات الفراغ المخصصة للتريض والتجوال. وكانت اسرتي الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة اشخاص شغل كل منهم بما هو نافع، ولم تكن إعالتها مبهظة. وقصارى القول إن مواردي - بالنسبة لحاجاتي ورغباتي - كانت قادرة بحق على ان تتيح لي السعادة الدائمة في الحياة التي اختارتها ميولي.

ولقد كان بوسعي ان ارتمي تماما في احضان الجانب الاكثر إدرارا للربح، وبدلا من ان اذل قلمي للنسخ، كان بوسعي ان اكرسه تكريسا تاما للكتابة التي كانت - في الاعتكاف الذي اخترته، والذي شعرت بانني قادر على مواصلته - كفيلة بان تمكنني من ان اعيش في سعة، بل في بذخ، لو انني وافقت على ان اجمع بين حيل المؤلف، والعناية بنشر كتب جيدة. بيد انني كنت اشعر بان الكتابة من اجل كسب العيش، لن تلبث ان تخنق نبوغي، وان تقتل موهبتي التي كانت في قلبي اكثر مما كانت في قلمي، والتي لم تنبعث إلا من اسلوب في التفكير راق، اشم، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة.. فما من شيء قوي، ولا من شيء عظيم يمكن ان ينساب من قلم اجير مرتش!

إن الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بان تدفعني إلى ان اتعجل اكثر من ان اتقن. ولولا ان الرغبة في النجاح زجت بي إلى الدسائس، لكان من المحتمل ان تجعلني اناضل لاقول ما قد يطيب للناس، وليس ما هو صادق ونافع!.. وبدلا من المؤلف المبرز، الذي كان بوسعي ان اغدوه، فإنني ما كنت لاصبح سوى مسود للورق!.. لا، لا!.. لقد كنت اشعر دائما ان مكانة المؤلف لا يمكن ان تصبح مرموقة ومحترمة، إلا إذا كان التاليف بعيدا عن ان يكون حرفة.. إذ إنه من الصعب، كل الصعب، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلا ساميا. إذا ما كان مضطرا إلى الا يفكر إلا طلبا للرزق!..

ولكي يكون الكاتب قادرا، ولكي يجسر على ان ينطلق بالحقائق الجليلة، ينبغي الا يعول على النجاح ويركن إليه. ولقد دفعت بكتبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى انني إنما تكلمت من اجل الصالح العام، غير حافل باي شيء آخر. فإذا رفض الكتاب، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا ان يفيدوا منه. اما انا، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي اعيش، فإن مهنتي كانت كفيلة بان تعولني، إذا لم تلق كتبي مشتريا.. وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتروج!

*****

وفي التاسع من نيسان (ابريل) سنة ١٧٥٦، غادرت المدينة فلم اعد إلى سكنى المدن قط، إذ إنني لا اعتبر من السكنى في شيء، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها - فيما بعد - سواء في "باريس" او في "لندن" او غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد إقامة عابرة، او إقامة بالرغم مني دائما!.. ولقد اقلت السيدة "ديبيناي" ثلاثتنا في عربتها، وتولى خادمها الريفي امر متاعي البسيط، واستقر بي المقام في بيتي الجديد، في اليوم ذاته. ووجدت معزلي الصغير مهيأ ذا اثاث بسيط، ولكنه كاف وينم عن ذوق!.. كانت اليد التي عنيت بإعداد هذا الاثاث قد اضفت عليه - في نظري - قيمة تفوق كل تقدير، وقد لذ لي ان اكون ضيف صديقتي، في بيت من اختياري، شيدته هي خصيصا لي!

ومع ان الطقس كان باردا، بل كان ثمة جليد، فإن الارض كانت قد بدات تخضوضر، وكانت زهور النرجس، وورود الربيع قد ظهرت، وشرعت البراعم تتفتح على الاشجار.. وقد امتازت ليلة وصولي باول شدو للبلبل في اعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت، فكانما كان البلبل ذاته عند نافذتي!.. وبعد نعاس خفيف، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني، فخلت انني لا ازال في شارع "جرينيل"، لولا ان شدو البلبل نبهني، فهتفت في نشوتي: "ها قد تحققت كل اماني اخيرا!"..

وكان اول ما فكرت فيه هو ان أسلم نفسي لمفعول الاشياء الريفية التي كانت تحيط بي. وبدلا من ان أشرع في تنسيق مسكني، فإنني شرعت في إعداد نفسي لنزهاتي، فلم يبق ثمة درب، ولا شجرة ضخمة، ولا غيضة (مجموعة من الشجر)، ولا بقعة منعزلة حول مسكني، إلا وتفقدتها في اليوم

التالي.. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لي!.. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران - وإن لم تكن موحشة - تنقلني في الخيال إلى آخر أطراف المعمورة.. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التي تملك القلوب، والتي لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن.

وما قدر لامرئ انتقل إلى هناك فجأة، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن "باريس" بأكثر من أربعة فراسخ!

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لشئوني الريفية، فكرت في تنسيق أوراقي، وتنظيم مهامي، فخصصت فترة الصباح للنسخ - كما اعتدت أن أفعل دائما - وفترة ما بعد الغداء للتريض والتجوال، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص، إذ إنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجيتي إطلاقا، إلا في الهواء الطلق والفضاء، ولم أجد بنفسي ميلا إلى أن أغير أسلوبي، بل إنني قدرت أن غابة "مونمورنسي" - التي كانت تكاد تصل إلى بابي - لن تلبث أن تغدو مكتبي، ومكان عملي!..

وكانت لدي عدة مؤلفات بدأتها من قبل، فعمدت إلى مراجعتها.. كنت مبدعا كل الإبداع في مشروعاتي، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء، في ضوضاء المدينة. وقد توقعت أن أمضي فيها بمزيد من العجلة، إذا ما تحققت من كل ما اعتاد أن يشغلني عن العمل.. وأعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماما.. وبالنسبة لرجل كثير المرض، كثير التردد على قصر "لاشيفريت" و"ابيناي" و"اوبون" وقصر "مونمورنسي"، كثير التشاغل عن عمله في داره؛ بفضل الفضوليين المتعطلين، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره.. إذا قدر كل هذا، وأحصيت المؤلفات التي أنجزتها خلال السنوات الست - التي قضيتها في "ليرميتاج" و"مونمورنسي" - لتجلى، فيما أوقن، أنني إذا كنت قد بددت وقتي خلال هذه الحقبة من الزمن، فإن تبديده لم يكن في خمول، على الأقل!

وبين الأعمال الأدبية المتباينة - التي كانت على الرف - كان المؤلف الذي أطلت التفكير فيه، والذي أقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف، والذي وددت أن أعمل فيه طول عمري، والذي أعتقد أنه ختم شهرتي.. ذلك هو كتابي في "المذاهب السياسية".

إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة - أو أربع عشرة - سنة، مذ خطرت لي فكرته، عندما كنت مقيما في "البندقية"، حيث أتيحت لي الفرصة كي أشهد عيوب نظام الحكم فيها، برغم ما كان له من صيت. ومن ذلك الحين، اتسعت آرائي بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق، فقدر لي أن أرى أن كل شيء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية، وأنه ما من شعب يملك - مهما يكن تقدمه - أن يصبح في حال غير التي تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه. ومن ثم فإن المسألة الكبرى - مسألة خير نظام ممكن للحكم - انكمشت في نظري إلى ما يأتي: ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذي يكون أفضل صفاتا، وأكثر تنورا، وأوسع حكمة.. وبالإيجاز الشعب الذي يكون "أحسن" شعب، بأوسع معاني كلمة "أحسن"؟.. ولاح لي أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر، قريب الشبه منه، وإن لم يكن مثله تماما. ذلك هو: ما هي الحكومة التي تحرص - بطبيعتها - دائما، على أن تكون وثيقة القرب من القانون؟.. ومن هنا خطر لي سؤال آخر: ما هو القانون؟... وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة. ورأيت أن هذا كله يفضي إلى حقائق عظيمة، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشري، ولا سيما رفاهية وطني، حيث لم أجد - خلال الرحلة التي قمت بها إلى هناك - دراية بالقانون وبالحرية صحيحة، ولا واضحة بالقدر الذي كان يرضيني. ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية - بطريق غير مباشر - هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم، وخير شفيع لي كي يغفروا لي أن استطعت أن أمد بصري إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم!

ومع انني كنت قد عكفت - خمس سنوات او ست - على وضع هذا المؤلف، إلا انني لم اكن قد قطعت فيه شوطا يذكر، فإن الكتب التي من هذا القبيل، تتطلب تأملا، وفراغا، وطمانينة. فضلا عن انني كنت اعمل فيه في الخفاء - كما يقال - دون ان افاتح احدا - ولا "ديدرو" نفسه - بما اعتزمت. فقد كنت اخشى الا يبدو ملائما كل الملاءمة لروح العصر، وللبلد الذي كنت اكتبه فيه، وان جزع اصدقائي قد يعرقل جهودي في تنفيذه (١). ولم اكن بعد واثقا بانه سيتم في وقت مناسب، وبحيث يتسنى ظهوره إبان حياتي.. وكنت راغبا في ان اتمكن دون اي تقييد - من ان اهب موضوعي كل ما كان يتطلبه. ولما كنت خلوا من التحامل المغرض، وغير راغب قط في الجنوح إليهما - فإنني كنت مطمئنا إلى انني ساظل دائما بمناى عن اللوم.. لقد وددت ان استخدم - اكمل استخدام، دون ريب - حق التفكير، هذا الحق الذي اوتيته بحكم وجودي.. ولكني في حرصي دائما على احترام نظام الحكم الذي كنت اعيش في ظلاله. وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقا، وعلى التزام الحذر حتى لا انتهك حق الغير.. في كل حرصي هذا، لم اكن راغبا - في الوقت ذاته - في ان افرط، بدافع من الخوف، في إماتة هذا الحق.. حقي في التفكير! بل إنني لاذهب إلى الاعتراف بانني وجدت وضعي في "فرنسا" - كاجنبي يعيش فيها - مواتيا لكي اقول الحق في جراة.. فقد كنت ادرك تماما انني ما دمت لا اطبع شيئا في الدولة، دون ما إذن - وهو ما كنت اعتزمه - فلن اكون مسؤولا امام اي احد في "فرنسا" عن مبادئي - وعن الترويج لها في اي مكان آخر!.. ولقد كان من المحتمل ان اكون اقل حرية في "جنيف"، او في اي مكان آخر طبعت فيه كتبي، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها. ولقد كان لهذا الاعتبار اثر كبير في حملي على ان انصاع لإلحاح السيدة "ديبيناي"، فاهجر ما كنت قد انتويته من الإقامة في "جنيف". فقد شعرت - كما ذكرت في "إميل" - بان المرء إذا اراد ان يؤلف كتبا في الصالح الحقيقي لوطنه، فليس له ان يؤلفها في هذا الوطن، اللهم إلا ان يكون موهوبا في التآمر والدس والخداع!

ومما زادني سعادة، انني اقتنعت بان حكومة "فرنسا"، ستعتبر ان من الكرامة ان تدعني في سلام، إن لم تحمني، ولو انها لم تكن تنظر إلي بعين راضية!.. ولقد كان هذا - فيما بدا لي - نهجا سياسيا بسيطا، وصريحا إذ إنه يرمي إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه.. فلو انني حملت على مغادرة "فرنسا" - وهو ما لكل الحكومات الحق في ان تقدم عليه - لظلت كتبي ماضية في الصدور، ولكن بتحفظ اقل.. اما إذا تركت دون إزعاج فإنني - كمؤلف - ساعتبر رهينة وضمانا لكتبي، كما ان هذا كفيل بان يمحو الآراء الخاطئة التي كانت متغلغلة في بقية اوروبا، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الامم عن سعة افق، ورقي تفكير!

والذين يحكمون - على ضوء النتيجة - بان ثقتي قد غررت بي، ربما كانوا هم المخدوعون. ففي العاصفة التي هبت عليّ، كانت كتبي خير حجة في جانبي، لولا ان شخصي هو الذي كان مقصودا.. فإن احدا لم يول المؤلف كثير اهتمام، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على "جان جاك" نفسه.. وكان اسوا ما جرته كتاباتي، هو التكريم الذي كان من المحتمل ان يولوني إياه. ولكن.. يجب الا نقفز إلى المستقبل، ولندعه إلى حينه!.. ولست ادري ما إذا كان هذا اللغز - فهو لا يزال لغزا في

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت حكمة "ديكلو" المتزنة هي التي اوحت إلي بهذا الخوف. اما "ديدرو"، فلست ادري كيف كانت اجتماعاتي به تتجه دائما إلى جعلي اكثر سخرية وهجوا وإقذاعا مما كنت بطبيعتي.

وهذا بالذات هو الذي ردني عن ان استشيره في مشروع كنت راغبا في الا استخدم فيه سوى قوة المنطق والمحاجة فقط، دون اتفه اثر لتعنت او تعصب.

ومن الممكن الحكم على الاسلوب الذي انتهجته في هذا المؤلف، على ضوء اسلوبي في "العقد الاجتماعي" الذي احدثه عنه".

نظري إلى اليوم – سيلقي ما يوضحه في نظر قرائي، فيما بعد.

وإنما الذي أدريه هو انه إذا كانت آرائي التي جاهرت بها، جديرة بان تجلب عليّ المعاملة التي قاسيتها، لما توانيت عن التعجيل بان أصبح فريسة لها، ذلك لان ما ظهر من كتبي – التي بسطت فيها هذه المبادئ بكل جراة، إن لم اقل بكل شجاعة (١) – كان قد احدث اثره، على ما بدا، قبل ان آوي إلى "ليرميتاج"، دون ان يخطر ببال احد ان يناجزني الحرب، او – على الاقل – ان يعوق نشر المؤلف في "فرنسا"، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في "هولندا". ولقد ظهرت "هيلويز الجديدة" – بعد ذلك – بنفس السهولة، وبنفس التحبيذ، كما ينبغي ان يقال. ومن الامور التي تبدو أبعد من ان تصدق، ان العقيدة التي بشرت بها في "هيلويز" هذه، كانت عين تلك التي بشرت بها في "اسقف سافوا"... وكل ما اقدمت على قوله في "العقد الاجتماعي"، كان قد قيل في "حديث في عدم المساواة".. وكل ما جاهرت به في "إميل"، ظهر قبل ذلك في "جولي".. ولكن هذه العبارات المدوية، لم تثر سخطا قبل ذلك ضد الكتابين الأولين (٢)، ومن ثم فما كان من المعقول ان تكون هي التي اثارت سخطا ضد الكتاب الاخير(٣).

*****

وهناك مشروع كتاب آخر، من نفس النوع تقريبا، ولكن فكرته واتتني متاخرة عن افكار تلك الكتب، وقد شغلت بالي في ذلك الحين.. "مختارات من اعمال الاب دي سان بيير"، الذي لم املك الحديث عنه من قبل، إذ شغلني عن ذلك سياق السرد. فلقد أوحى إلي بالفكرة الراهب دي "مابلي" – عقب عودتي من "جنيف".. ولم يعرضها عليّ مباشرة، وإنما وسط في الأمر السيدة "دوبان"، التي كانت مهتمة – إلى حد ما – بإقناعي بالاضطلاع بالمشروع!.. فقد كانت إحدى ثلاث او اربع من حسان "باريس"، تهافتن على الراهب الشيخ "سان بيير". وإذا لم تكن قد ظفرت بالإيثار منه، فإنها – على الأقل – قد تقاسمته مع السيدة "ديجويون". ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بان تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحي، تبعث على يدي سكرتيرها. ومع ان هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة، إلا انها كانت معروضة باسوا تعبير، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ ان يحتمل قراءتها. ومما كان يبعث على الدهشة، ان الراهب كان يعتبر قراءه مجرد "اطفال كبار"، ولكنه – مع ذلك – كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا.. فضلا عن انه لم يتجشم اي عناء في حملهم على الإنصات إليه.

من اجل هذا عرض علي الاضطلاع بهذه المهمة التي كانت نافعة – في حد ذاتها – كما كانت مناسبة لرجل مجد في النسخ والتعديل، ولكنه كسول في التاليف، الفى ان المجهود الذي يبذل في التفكير مرهق، فكان يؤثر – فيما يوافق هواه – ان ينقح ويحسن افكار سواه، على ان يبتدع افكارا جديدة من لدنه!.. وإلى جانب ذلك، فإنني لم اقصر دوري على مجرد تفكيري في بعض الأحيان، وكنت مطلق اليد في أن أصرغ عملي بالشكل الذي يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من ان تظهر في مسوح الراهب "سان بيير"، دون ما تعرض للخطر الذي قد يحدق بها إذا ما ظهرت في ثيابي انا. وفضلا عن كل هذا، فإن المهمة لم تكن باليسيرة.. لم تكن تتطلب اقل من القراءة، ثم الاستيعاب

---

(١) يقصد كتابه: "حديث في عدم المساواة في الظروف والاحوال". (٢) يقصد كتابيه: "اميل" "حديث في عدم المساواة". (٣) قصد "العقد الاجتماعي".

والتفكير، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة، مضطربة التنسق، مليئة بالحشو، والإطناب، والتكرار، والآراء الضحلة او الخاطئة.. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة، التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة!.. بل إنني كنت موشكا - في كثير من الاحيان - على ان انفض يدي منها، لو انني استطعت ان انسحب في تصرف كريم.. ولكني عندما تقبلت مخطوطات الراهب - التي اعطانيها ابن اخيه الكونت دي "سان بيير"، بإيعاز من "سان لامبير" - اصبحت مرتبطا بشكل ما، بان استعملها.. واصبح الواجب يقتضيني إما ان اردها، وإما ان اجعل لها قيمة. وبهذه النية الاخيرة حملتها إلى "ليرميتاج"، فكانت اول عمل اعتزمت ان اكرس له وقت فراغي!

ورحت افكر - إذ ذاك ايضا - في مشروع كتاب ثالث، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات اخذتها على نفسي، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه، انني وجدت من الأسباب ما جعلني اصبو إلى ان انتج كتابا ذا نفع حقيقي للجنس البشري، بل كتابا يكون انفع ما قدم إلى البشر، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة ناجحة. فلقد لوحظ ان الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون - في سياق حياتهم - على غير ما هم عليه اصلا، وكانهم يتحولون إلى اناس مختلفين تمام الاختلاف. ولم اكن ابغي بإصدار كتاب في ذلك، ان اقر شيئا معروفا كل المعرفة، بل كان لدي غرض جديد تمام الجدة، وذو اهمية بالغة.. ذلك هو ان ابحث عن اسباب هذه التطورات والتغيرات - التي تطرأ على الناس في حياتهم - وان اقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن انفسنا، وان ابين كيف يتسنى ان نتحكم فيها بانفسنا، لكي نصبح افضل واكثر ثقة بانفسنا، واطمئنانا إليها!.. ذلك لانه لا جدال في ان الرجل الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها - والتي ينبغي عليه أن يقاومها - عناء أشد مما لو انه كبح او غير او عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها، لو قدر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع. فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوي، ولكنه - في مرة اخرى - يستسلم لانه ضعيف.. ولو انه كان على ما كان عليه من قبل، لما استسلم.

وفيما كنت افحص نفسي، وابحث في النفوس الاخرى عما يمكن لهذا التباين من الحدوث، تبينت انه إنما يعتمد - إلى حد كبير - على ما تكون اشياء خارجية قد احدثته - من قبل - من انطباعات داخلية، واننا في تغيرنا المستمر - بفعل حواسنا، واجهزتنا البدنية - إنما نكتشف، دون ان نفطن عن اثر ذلك التغير في انفسنا،وفي آرائنا، وفي مشاعرنا، وفي اعمالنا ذاتها!.. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة - التي جمعتها - تعلو على كل طعن.. وقد بدت لي في اصولها الطبيعية صالحة لان تؤلف نظاما خارجيا للسلوك، يتغير بتغير الظروف، ويمكن من وضع العقل او صونه في حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة!.. فكم من اخطاء يمكن إنقاذ العقل منها، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني، بحيث يتلاءم مع النظام الخلقي الذي كثيرا ما يتعرض للاضطراب!.. إن احوال الجو، والفصول، والأصوات، والالوان، والظلام، والنور، والعناصر، والمواد، والضجة، والصمت، والحركة والسكون.. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالي.. كلها تمدنا بألف فرصة، تكاد تكون مضمونة، للتحكم - منذ البداية - في المشاعر التي نتركها تتحكم فينا!

هكذا كانت الفكرة الاصلية، التي كنت قد سطرتها على الورق، والتي توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوي المنبت السليم، الذين يتحدون ضعفهم، في سبيل حبهم الصادق للفضيلة.. حتى لقد

بدا لي أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة، كما هو من حيث الكتابة!.. ومع ذلك، فإنني لم أحرز سوى تقدم ضئيل في هذا المؤلف - الذي جعلت له عنوانا: "المبادىء الخلقية الحسية، أو مادية الحكيم" (١) - فقد حالت شواغل، لن تلبث أن تتكشف، دون أن اعكف عليه.. ولن يلبث أن يتضح كذلك، أن هذه كانت خاتمة مشروعي، الذي كان أقرب إلى نفسي من كل ما يبدو!

❁❁❁❁❁

وكنت - إلى جانب كل هذا - قد فكرت منذ زمن، في نظام للتربية كانت السيدة دي "شينونسو" قد رجتني أن أشتغل به، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذي وضعه زوجها لتربيته!.. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن أنصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه، برغم أنه لم يكن - في حد ذاته - مما يصادف هوى من نفسي. ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد - بين كل المشروعات - التي ذكرتها من قبل - الذي أنجزته. ولقد كانت الغاية التي وضعتها نصب عيني - وأنا أعمل فيه - جديرة كما يتراءى لي، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذي أتاحه. ولكن.. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن، قبل أن يحين أوانه.. فسوف أضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد!

ولقد أمدتني هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير في نزهاتي اليومية. إذ إنني - واعتقد أنني ذكرت هذا من قبل - لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى، فما إن أقف، حتى أكف عن التفكير، فليس في وسع عقلي أن يتحرك إلا مع قدمي. على أنني اتخذت الحيطة، فوفرت لنفسي عملا أؤديه داخل البيت في الأيام المطيرة. ذلك هو "قاموس الموسيقى"، الذي كانت مواده وأصوله مبعثرة، ناقصة، مشتتة بحال تجعل من الضروري إعادة كتابة السفر كله، من أوله إلى آخره تقريبا. ولقد ابتعت بعض الكتب التي كنت بحاجة إليها من أجل ذلك، وقضيت شهرين في السعي إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى، التي استعيرت لي من "مكتبة الملك"، والتي أبيح لي أن أصحب بعضها معي إلى "ليرميتاج". هذه كانت المواد التي تهيئ لي العمل في البيت، عندما لا يسمح الطقس لي بالخروج، أو عندما أسام النسخ والنقل. ولقد وافقني هذا التدبير إلى درجة أنني واظبت عليه في "ليرميتاج"، وفي قصر "مونمورنسي" على السواء، ثم في "موتييه" بعد ذلك، حيث أكملت هذا المؤلف، بينما كنت ماضيا في مؤلفات غيره. وقد اعتدت دائما أن أجد في تغيير الأعمال مادة للترويح حقاً

وتبعت في دقة بالغة - ولفترة من الزمن - النظام الذي ذكرته، فوجدته صالحا للغاية، ولكن الفصل الجميل "الربيع" لم يلبث أن زاد من تردد السيدة "ديبيناي" على ضيعة "ايبيناي" أو ضيعة "لاشيفريت"، فوجدت من الشواغل - التي لم تكن تكبدني من قبل شيئا، ولكني لم أحسب لها في تدبيري حسابا - ما عطل كثيرا من مشروعاتي الأخرى. فلقد قلت - من قبل - إن للسيدة "ديبيناي" خصالا بالغة اللطف، إذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا، وتخدمهم بكثير من الشهامة، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال، ومن ثم فإنها كانت تستحق - عن جدارة - أن تجازى عن ذلك برعاية خاصة. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - أؤدي هذا الواجب، دون أن أفكر في أنه واجب، ولكنني لم ألبث أن فهمت - في النهاية - أنني مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعوري بوطأتها

---

(١) LaMorale Sensitive, ou le Materialisme du Sage

سوى الصداقة وحدها!.. ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفوري من المجتمعات الحافلة، إذ تكرمت السيدة "ديبيناي" فعرضت اقتراحا بدا ملائما بالنسبة لي، واكثر ملاءمة بالنسبة لها، ذلك هو ان تحيطني علما بالاوقات التي تكون فيها على انفراد، او على وشك الانفراد. ولقد وافقت على ذلك، دون ان افطن إلى ما كنت اقيد به نفسي. وترتب على ذلك أنني لم اعد اؤدي لها زيارات في الوقت المناسب لي، ولكن في الوقت المناسب لها هي، وانني لم اطمئن يوما إلى ان نهاري رهن رغبتي. ولقد افسد هذا القيد - إلى حد كبير - ما كانت توفره لي زياراتي لها - فيما مضى - من متعة.. وتبينت ان الحرية - التي طالما وعدتني بها - لم تمنح لي إلا بشرط الا احظى بها إطلاقا!.. ولقد رغبت - في مرة أو مرتين - في ان أجربها، فإذا بكثير من الرسائل، وكثير من المذكرات، وكثير من امارات الخوف تنهال من السيدة "ديبيناي" معربة عن قلقها على صحتي.. حتى تبينت تماما الا شفيع لي في عدم الإسراع إليها لدى أول بادرة تنم عن رغباتها، إلا بان الزم فراشي تماما!

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الربقة، فانصعت في تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من الحرية.. وقد ساعد الوفاء الصادق - الذي كنت اكنه للسيدة - على الحيلولة، إلى حد كبير، دون ان أشعر بالاغلال التي كانت ترتبط بهذا الموقف. ولقد استطاعت السيدة "ديبيناي" ان تملأ بهذه الطريقة الفراغ - الذي خلفه غياب الشلة التي كانت تحيط بها - إلى حد ما. ولقد كانت التسلية التي ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرا، ولكنها كانت افضل من العزلة التامة، التي لم تكن تطيقها. على انها اصبحت اقدر على ملء الفراغ بسهولة، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص، ورسائل، وفكاهيات، وحكايات، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها!.. على أن الكتابة لم تكن اعظم ما لذ لها بل إن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب.. فإذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا، كان من الضروري لها ان تطمئن إلى وجود اثنين او ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم، ويحبذونه. ونادرا ما كنت احظى بشرف ان اكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة، اللهم إلا إذا اشفع لي مستمع آخر!..

ذلك لانني - كنت وحدي - لا أكاد أساوي شيئا يذكر، لا في ندوة السيدة "ديبيناي" فحسب، وإنما في ندوة السيد "دولباخ"، وحيثما كان "جريم" نجما متألقا.. وكان هذا التجاهل التام لقدري يلائمني تمام الملاءمة، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة وحيدين، إذ إنني لم أكن اعرف اي مسلك اتخذ.. ذلك لانني لم أكن اجرؤ على الحديث في الأدب إذ لم اكن اعتبر كفئا لإبداء الراي فيه - ولا في آداب السلوك، والمجاملة، والإيناس، لأنني كنت مفرط الخجل، وكنت اخشى الظهور بمظهر مضحك امام غانية عجوز، اكثر من خشيتي الموت!.. فضلا عن ان هذه الفكرة لم تخطر ببالي إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة "ديبيناي"، ولا كان من الممكن ان تخطر مرة واحدة في حياتي، ولو قدر ان اعيش طيلة عمري بصحبتها.. وما كان ذلك لأنني كنت أضمر نفورا شخصيا منها، بل لعلني - على النقيض - كنت أحبها كل الحب كصديقة، وكنت قادرا على ان احبها كعشيقة!.. كان يروق لي ان أراها، وان أجاذبها الحديث. ومع ان حديثها كان طليا - إذا ما كانت في جماعة - إلا أنه كان ممضا في الجلسات الخاصة.. اما حديثي أنا، فلم يكن لبقا سيالا، ولم يكن ذا عون كبير في إيناسها.. وكنت حين اخجل من الصمت فترة طويلة، ارهق نفسي في سبيل بعث الحياة في الجلسة. ومع ان هذا كثيرا ما كان يتعبني، إلا انه ابدا ما ضايقني!.. كنت أبدي لها آيات الغزل عن طيب خاطر، وامنحها بعض قبلات اخوية صغيرة، لم يكن يلوح لي أنها ذات إثارة حسية لها.. وكان هذا غاية ما

في الأمر ! . .

فلقد كانت مفرطة النحول، شديدة البياض، ذات صدر مبسوط كراحتي ! . . وكان هذا العيب وحده، كافيا لأن يطفئ كل حرارة في كياني، فما قدر لقلبي ولا لحسي يوما أن يريا اية أنوثة في امرأة بلا نهدين . . وقد كانت ثمة اسباب اخرى – لا جدوى من ذكرها – تجعلني انسى الناحية الجنسية دائما، إذا ما كنت بالقرب من السيدة "ديبنياي" !!

*****

اما وقد رضت عقلي على قبول تبعية لا غنى عنها، فإنني اسلمت نفسي لها، دون ما مقاومة فالفيتها – في العام الاول، على الأقل – أقل عبثا مما كنت أتوقع. وكانت من عادة السيدة "ديبيناي" ان تقضي الصيف باسره – تقريبا – في الريف. ولكنها لم تقض هناك، في هذا العام، سوى شطر منه . . إما لان اعمالها، كانت تتطلب وجودها في "باريس"، وإما لان غياب "جريم"، جعل الإقامة في "لاشفريت" اقل ملاءمة لها عن ذي قبل. ولقد كنت أستغل الفترات التي لم تكن تقضيها هناك، او التي كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس؛ لانعم بعزلتي مع "تيريزي" الطيبة وامها، على نمط يجعلني اعرف لهذه الفترات قدرها. ومع انني كنت قد اعتدت – لبضع سنوات – ان اتردد على الريف كثيرا، إلا انني لم اكن أستمتع بهذه الرحلات، إذ إنها كانت دائما في صحبة اشخاص محبين للمظاهر، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتاثير الشعور بالتقيد والحرج، وإن كانت قد اذكت في نفسي الميل إلى المتع الريفية . . وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب، ازددت شعورا بحرماني منها. كنت قد سئمت – كل السام – "صالونات" باريس، ونافورات الماء، والبساتين، وحدائق الزهور. وكان اصحابها اشد بعثا للملل . . كنت ضجرا من التطريز، والمعزف، وحبك الصوف، والانحناءات، والمجاملات الحمقاء، والعواطف الضحلة، ورواة القصص التافهين، ومآدب العشاء الكبيرة، حتى اصبحت إذا ما لمحت – بنظرة من ركن عيني – شجرة من اشجار الصنوبر، أو عشبا من الاعشاب الشوكية، أو سياج مزرعة، أو مخزنا للغلال، أو مرجا . . وحتى اصبحت إذا ما شممت – وانا امر بمزرعة – عبير "العجة" المتوبلة بالأعشاب الشذية . . وحتى اصبحت إذا ما سمعت عن بعد اصوات الماعز الرفيعة . . اصبحت اتمنى إزاء هذا كله، ان يذهب كل الطلاء الاحمر، والمساحيق ، والعطور، إلى الشيطان! . . وكنت اتحسر على الغداء الذي تعده الزوجة المتفرغة لبيتها في الريف، والنبيذ المحلي . . وكنت أود – من قلبي – ان الكم السيد الطاهي، والسيد رئيس السقاة، اللذين كانا يضطراني إلى أن اتناول الغداء في موعد عشائي المعتاد، وان اتناول العشاء في الساعة التي اعتدت أن أنام فيها . . وكنت اود – فوق كل شيء – ان اصفع السادة خدم الموائد، الذين كانوا يلتهمون باعينهم اللقم التي آكلها، ويبيعوني – إذا لم اشا ان اموت ظما – نبيذ مخدومهم المعتق، بما يفوق عشرة امثال ما أدفعه من اجله في أرقى حانة!

ولكن . . هانذا اخيرا في داري، في ماوى منعزل مستحب، حر في أن اقضي ايامي في حياة مستقلة، متشابهة، آمنة، كنت اشعر انني إنما خلقت لانعم بها! . . وقبل ان اذكر الاثر الذي أحدثه هذا الوضع – الجديد عليّ – في فؤادي، يروق لي أن الخص الميول الخفية لهذا القلب، حتى يتسنى الإلمام بجلاء باسباب هذه التطورات الجديدة.

لقد اعتدت دائما ان اعتبر يوم اتحادي مع "تيـريز" هو التاريخ الذي اصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق. فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق، مذ انفصم في قسوة ذلك الود الذي كنت مكتفيا به.. إن الظمأ إلى الهناء لا يمكن ان يرتوي في قلب الإنسان!.. ولقد كانت "ماما" تسعى إلى الشيخوخة، وتنحدر إلى الهوان، وكان من الواضح لي أنها لن تسعد ثانية على الأرض، فلم يبق لي سوى ان ابحث عن سعادة لنفسي، ما دمت قد فقدت كل امل في ان اقاسمها سعادتها!.. رحت اطفو من فكرة إلى فكرة، ومن خطة إلى خطة، بعض الوقت. وكانت رحلتي إلى "البندقية" خليقة بان تزج بي في الشؤون العامة، لو ان الرجل الذي قدر لي ان ارتبط به، كان على شيء من الإدراك السليم. وانا ممن يسهل هبوط عزيمتهم، لا سيما في المشروعات الشاقة، البطيئة. لذلك فإن ضعف نجاح هذا العمل "الشؤون العامة" نفرني من امثاله. ولما كنت – وفقا لمبدئي القديم – انظر إلى الأهداف البعيدة، على انها أحابيل للحمقى، فقد وطنت العزم على ان اعيش – بعد ذلك – دون اية خطة مرسومة، إذ إنني لم اعد ارى شيئا في الحياة كان قادرا على ان يغريني على ان اتعب نفسي!

وفي هذه الفترة بالذات، بدا تعارفنا، فلاح لي ان لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة، يتمشى مع طبيعة شخصيتي، حتى إنني ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن، ولا الزلات على إضعافها، ولم يؤد اي شيء – كان يحتمل ان يفصمها – إلا إلى توثيقها. ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلي، عندما اكشف عن الجراح والآلام التي خلفتها في قلبي – في اوج تعاستي – دون ان تبدر مني شكوى واحدة، حتى الوقت الذي اكتب فيه هذه السطور!

وعندما يعرف انني – بعد ان فعلت كل شيء، وبعد ان جابهت كل عناء لاتفادى فراقها، وبعد ان عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر – اقدمت في النهاية على الزواج منها في شيخوختي، دون ان يكون لديها اي توقع، او اي رجاء، ودون ان ارتبط معها بخطوبة او بوعد.. عندما يعرف هذا، يسهل على المرء ان يصدق ان الحب الجامح، الذي عبث براسي منذ اليوم الاول، قد قادني تدريجا إلى آخر حماقاتي.. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا، إذا ما عرف الأسباب الخاصة، والقوية، والتي كانت خليقة بان تمنعني من ان اقدم على شيء كهذا.. فماذا يظن إذن، إذا انا اعلنت – بكل ما لابد ان يكون قد عرف في خلقي من صدق – انني منذ اللحظة الاولى التي رايتها فيها، حتى يومنا هذا، لم اشعر نحوها باضأل قبس من الحب، وانني لم اعد اكثر اشتهاء لمضاجعتها، مني لمضاجعة السيدة دي "فاران"، وان الرغبات الحسية التي كنت اشبعها لديها، لم تكن – في نظري – سوى استجابة للنوزاع الجنسية، دون ان يكون لها اية علاقة بالفرد؟

.. قد يعتقد القارئ انني إذ اوتيت بنية تختلف عن بنية سواي من الرجال، كنت عاجزا عن ان اشعر بالحب، لا سيما وانه لم يدخل قط بين المشاعر التي ربطتني بتلكما المراتين، اللتين كانتا اعز النساء لدي. ولكن، صبرا ياقارئي!.. إن اللحظة المشؤومة تقترب، وستجد انك مخدوع اكثر مما تخال!

❀❀❀❀❀

إنني اكرر حديثي، وإني لادرك ذلك، ولكنه امر لابد منه. لقد كانت اولى، واعظم، واقوى، واعتى حاجاتي جميعا، تنحصر باكملها في فؤادي.. تلك هي الحاجة إلى زمالة اشد ما تكون الفة وقربى وتوثقا.. ومن اجل هذا الغرض – بوجه خاص – كنت محتاجا إلى امراة اكثر مني إلى رجل..

إلى صديقة، أكثر مني إلى صديق. وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث إن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها.. كنت أتوق إلى روحين في جسد واحد، وقد ظللت - بدون ذلك - اشعر بالفراغ دائما!

ولقد ظننت ان اللحظة التي لا اعود اشعر فيها بذلك، قد حانت.. فإن هذه الشابة اللطيفة، كانت كفيلة - بفضل الف من الصفات الرائعة، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من اي افتعال، او إغواء - بأن تستوعب كل كياني في كيانها، لو انني استطعت ان استوعب كيانها في كياني، كما كنت آمل!

ولم يكن لدي ما اخشاه من ناحية الرجال - فقد كنت موقنا من انني الرجل الوحيد الذي احبته "تيريز" حبا صادقا - وكانت شهواتها من الفتور بدرجة انها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيري، حتى عندما كففت عن ان اكون رجلها في هذا المجال!.. ولم تكن لي اسرة، في حين انها كانت ذات اسرة، ولم تكن هذه الأسرة - التي كان افرادها جميعا من صنف يخالف في الخلق صنفها - بالتي استطيع ان أعتبرها كأسرتي.. وكان هذا أول اسباب شقائي!.. ما الذي كنت أتردد في ان اجود به، لكي اضع نفسي من امها موضع الابن؟..

لقد حاولت ما وسعتني الحيلة، دون ان أوفق إطلاقا!..

كان من العبث ان احاول ان أوحد كل مصالحنا، فقد كان هذا مستحيلا.. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحي، ثم تضعها في وجه هذه، بل وضد مصالح ابنتها برغم ان الصنفين لم يكونا مختلفين!.. ولقد اصبحت، وأولادها الآخرون، واحفادها ديدانا ظامئة إلى الدماء، وكان ابسط ضرر الحقوه بـ"تيريز"، هو انهم راحوا يسرقونها. إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت ان تنصاع - حتى لبنات اخواتها - فتركت نفسها نهبا ومطية، دون ان تنبس ببنت شفة.. ولقد آلمني ان ارى انه لم يكن بوسعي أن افعل شيئا لمساعدتها، برغم انني كنت اعتصر مواردي ونصائحي في هذا السبيل!.. ولقد حاولت ان أقصيها عن امها، ولكنها كانت تعارض هذا دائما، فاحترمت معارضتها، وازددت تقديرا لها، بيد ان هذا لم يحل دون ان يكون رفضها ضارا بمصالحها ومصالحي. كانت مطبوعة على الوفاء لأمها ولبقية اسرتها، ومن ثم فقد كانت ملكا لهم، اكثر مما كانت ملكا لي، بل واكثر ما كانت ملكا لنفسها!

والآن.. تعال نعيش مع "روسو:" في العالم

الذي كان يعيش فيه

منذ قرنين كاملين:

ولم يكن جشعهم مؤديا إلى إفلاسها، بقدر ما كان نصحهم مؤذيا لها!.. وقصارى القول إنها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة - والفضل في ذلك لحبها لي ولنفسها المفطورة على الطيبة - فإنها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع - إلى حد كبير - اثر المبادئ الطيبة التي سعيت إلى ان ابثها فيها.

هذا هو السر في أن فراغ قلبي لم يلق في علاقة خانصة متبادلة كهذه - اودعتها كل ما في هذا من عاطفة - ما يملؤه تماما، وكان الاطفال كفيلين بملء هذا الخواء.. وقد رزقنا بهم، ولكن إنجابهم زاد الأمر سوءا. فلقد كنت ارتجف لمجرد التفكير في تسليمهم إلى هذه الاسرة سيئة النشأة؛ لتكفل لهم نشأة اسوأ!.. كان ما لتربية اللقطاء - في الملجأ - من احتمالات سيئة، اهون من ذلك بكثير!.. وهذا التبرير للقرار الذي اتخذته، كان الوحيد الذي لم أجرؤ على ذكره للسيدة "دي فرانكويي"، برغم انه اقوى بكثير من تلك التي سقتها في خطابي إليها. فقد آثرت ان ابقى في غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة؛ لكي اعول اسرة امراة كنت احبها. ولكن من الممكن - على ضوء اخلاق اخيها التعس، إن لم نقل على اضواء اخرى - الحكم بما إذا كان واجبي إذ ذاك ان اعرض ابنائي لان يتلقوا تربية كتربيته!

وإذا لم استطع ان استمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التي كنت اشعر بحاجة إليها، فقد سعيت إلى معززات وإن لم تملأ فراغ قلبي، إلا انها جعلتني اقل شعورا به؛ وإذ كنت افتقد صديقا يؤثرني بكل وده ونفسه فقد وجدتني بحاجة إلى اصدقاء اوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخي وكسلي؛ ومن ثم فقد رحت انمي واعزز علاقاتي بـ"ديدرو" والراهب "دي كونديلاك"، واقبلت على علاقات جديدة - ولكنها اكثر توثقا.. بـ"جريم"، وما لبثت ان وجدتني في النهاية - بفضل تلك "الرسالة" التعسة التي رويت قصتها من قبل - مرتميا، دون ما تفكير، بين احضان الأدب، الذي كنت اظنني قد هجرته إلى الأبد!

ولقد افضى بي ارتيادي الأول للأدب - خلال طريق جديدة - إلى عالم فكري آخر، لم اكن املك ان اتأمل بساطته وإيجازه السامي، دونما تحمس!.. وسرعان ما اصبحت بفضل انهماكي لا ارى في معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة، ولا ارى في نظامنا الاجتماعي سوى ظلم وتعاسة، وفي انسياقي لضلال الغرور الأرعن خيل إليّ انني إنما خلقت لكي ابدد جميع هذه الاباطيل؛ وإذ رايت انه لابد لي من ان اجعل تصرفي يتمشى مع مبادئي - إذا شئت ان يكون رايي مسموعا - فإنني انتهجت المسلك الأوحد الذي لم يتح لي ان استمر فيه، والذي لم يغتفر لي اصدقائي المزعومون ان جعلت نفسي مثالا وقدوة فيه، والذي جعلني في البداية - اضحوكة، وكان خليقا بان يجعلني - في النهاية - موضع الاحترام لو انه تسنى لي ان اثابر عليه!



ولقد كنت حتى ذلك الحين طيبا؛ فاصبحت من تلك اللحظة فاضلا، أو نشوان بالفضيلة على الأقل!.. وقد بدأت هذه النشوة في راسي ولكنها سرت إلى قلبي، وعلى أطلال الغرور المقوض نبتت أنبل كبرياء.. ولم أكن متظاهرا بشيء بل إنني غدوت كما كنت ابدو حقا، وفي خلال السنوات الأربع – على الأقل – التي دامها هذا الفوران في أقصى قوته – لم أعجز عن أن أعتنق – بيني وبين السماء – كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر، ومن هنا نبعت بلاغتي المفاجئة.. ومن هنا تولد ذلك اللهب السماوي الصادق الذي ألهبني وانتشر في كتبي الأولى، والذي لم يكن – إبان أربعين عاما – قد فقد شرارة واحدة؛ لأنه لم يكن قد استعر بعد خلالها!

ولقد تغيرت تغيرا حقيقيا، حتى إن أصدقائي ومعارفي لم يعودوا يعرفونني. لم أعد ذلك الرجل الخجول، الذي كان حييا أكثر منه متواضعا، والذي لم يكن يجرؤ على أن يظهر نفسه، ولا على أن يتكلم، والذي كانت الكلمة الماجنة تربكه، والنظرة الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل في وجهه!.. وفي جرأة، وفخر، وإقدام، رحت أحمل في كل مكان اعتدادا كان وطيدا بقدر ما كان بسيطا، وكان مقره في أعماقي، وليس في مظهري... وكان من جراء الازدراء التي ألهمتنيه تأملاتي العميقة – نحو أخلاق ومبادئ وأوهام عصري – أن أصبحت أبعد من أن أتأثر بسخريات أصحاب الأخلاق والمبادىء. فكنت أسحق ملحهم ونكاتهم الصغيرة بحكمي وأمثالي، كما أسحق حشرة بين أصابعي. فيا له من انقلاب!.. لقد راحت "باريس" بأسرها تردد السخريات الوخازة اللاذعة التي أخذت تنبعث من رجل لم يكن قبل عامين – ولا بعد عشرة أعوام – يعرف كيف يهتدي إلى ما ينبغي عليه أن يقوله، ولا الكلمة التي يجدر به أن يستعملها!.. إن أي فرد يسعى إلى العثور على أشد الحالات مناقضة لطبيعتي لن يعثر إلا على حالي هذه، وإذا هو رغب في أن يذكر فترة واحدة من الفترات القصار التي تخللت حياتي – وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتي – فلن يعثر على بغيته إلا في هذا الزمن الذي أتحدث عنه.. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام، أو ستة أسابيع، وإنما دامت ست سنوات، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن لولا الظروف الخاصة التي أدت إلى انتهائها، والتي ردتني إلى فطرتي التي حاولت أن أنتشل نفسي منها!

وبدا هذا التغيير بمجرد أن بارحت "باريس"، ولم تعد مناظر الرذائل، في هذه المدينة الكبيرة، تغذي الاستنكار الذي كانت تبعثه في نفسي. ذلك أنني؛ إذ أصبحت لا أرى الناس كففت عن ازدرائهم، وإذ لم أعد أرى أهل الخبث كففت عن بغضهم. فإن قلبي المفطور على العزوف عن الكراهية، لم يعد يملك سوى الرثاء لتعسهم؛ إذ إنه لم يكن قادرا على أن يتبين فيه مكرهم، وسرعان ما أخمد هذا الاتجاه – الأكثر لطفا.. ولكنه أقل سموا من اتجاهي السابق – حدة الاندفاع الذي ظل يجتاحني طويلا.. وعدت – دون أن يفطن أحد، بل ودون أن أفطن أنا نفسي تقريبا – خجولا، مجاملا، هيابا.. عدت – بإيجاز – "جان جاك" الذي كنته من قبل تماما!

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلا إلى ردي إلى حالي الطبيعية – فلم يتجاوز ذلك – لكان الأمر خيرا.. ولكنه – لسوء الحظ – ذهب إلى أبعد من ذلك، وحملني مسرعا إلى النقيض، ومنذ ذلك الحين لم تعد نفسي – في اضطرابها – تستقر في نطاق الطمأنينة، ولأمكنها التذبذب المتجدد باستمراره من أن تربض هناك وتبقى. فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثاني..

فقد كانت فترة رهيبة، مشؤومة، في مصير لا مثيل له بين البشر!



لما كنا مجرد ثلاثة افراد في مأوانا المنعزل (١)، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي الفراغ والوحدة إلى توثيق تآلفنا. وهذا ما حدث بيني وبين "تيـريز"؛ فرحنا نقضي - تحت الاشجار الوارفة الظلال - ساعات عذبة، ننعم خلالها بعزلة لم اتذوق من قبل مثل حلاوتها! ولاح لي ان "تيريز" هي الاخرى كانت اكثر استمتاعا بخلواتنا منها في اي وقت مضى، ففتحت لي قلبها دونما تحفظ، واطلعتني على أمور - عن امها واسرتها - اوتيت المقدرة على ان تكتمها عني زمنا طويلا. فقد اعتادت وأمها ان يتلقيا من السيدة "دوبان" هدايا كثيرة كنت انا المقصود بها، لكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وابناءها الآخرين - لتفادي غضبي - دون ان تدع شيئا لـ "تيريز"، ومع تحذيرها - اشد تحذير - من ان تقول لي شيئا عنها.. وهو امر كانت الفتاة المسكينة تنفذه في طاعة تفوق التصور!

ومما ادهشني - اكثر من اي شيء آخر - ان تبينت انه إلى جانب الاحاديث المتكتمة - التي اكثر "ديدرو" و "جريم" من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عني، والتي لم تفلح بفضل مقاومة "تيريز" - فإن الاثنين راحا يعقدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم، دون ان تدري الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم.. كان كل ما علمته هو أن الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا في الموضوع، وانه كانت ثمة جيئات وروحات، كانوا يحاولون التستر عليها، وكانت هي تجهل الباعث عليها جهلا تاما!..

وعندما رحلنا عن "باريس"، كان قد انقضى وقت طويل، اعتادت خلاله السيدة "لوفاسير" زيارة "جريم" مرتين او ثلاثا في الشهر، حيث كانت تقضي بضع ساعات في احاديث كان الحرص على تكتمها يدعو إلى إقصاء خادم "جريم" عن المعسكر في كل مرة!

وقدرت ان الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذي حاول "ديدرو" و "جريم" ان يستدرجا الابنة إليه، حين وعدا بان يحصلا لها ولأمها - بمعونة السيدة "ديبيناي" - على تصريح بالاتجار بالملح، او حانوت لبيع التبغ.. وبإيجاز عندما لوحا لهما بفرص الكسب. ولقد أوحت إليّ هاتان المرأتان بانني لم اكن في وضع يمكنني من ان افعل من اجلهما شيئا، بل ولم اكن املك - بسببهما - ان افعل شيئا لنفسي، ولما كنت لم ار في كل هذا سوى نوايا حسنة فإنني لم احمل لاحد ضغينة، على الإطلاق، ولم يثرني سوى الغموض، لا سيما من جانب العجوز التي راحت - فوق كل هذا - تزداد رياء ودهاء نحوي، يوما بعد يوم، دون ان يمنعها ذلك من ان تلوم ابنتها باستمرار - وفي الخفاء - على انها كانت مسرفة في حبها إياي، وانها كانت تصارحني بكل شيء، وانها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تتبين انها كانت ضحية غفلتها!

لقد اوتيت هذه المرأة اعلى درجات البراعة في اصطياد عصفورين بحجر واحد، وفي أن تخفي عن احد المتواطئين معها ما تلقته من الآخر، وأن تخفي عني أنا ما تسلمته من الجميع!.. وكان بوسعي ان اغفر لها جشعها ولكني لا استطيع ان اغفر لها رياءها. اي شيء كان يجوز لها إخفاؤه عني.. عني أنا، الذي كانت تدرك تماما ان سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هي؟..

إن ما بذلته لابنتها، إنما كنت ابذله لنفسي.. أما ما فعلته من أجلها هي، فقد كان جديرا بالعرفان منها.. كان حريا بها أن تعترف بالفضل لابنتها، على الأقل، وأن تحبني إكراما لحبها لابنتها التي كانت تحبني!.. لقد انتشلتها من البؤس الكامل وكانت تستمد قوتها مني، وكانت مدينة لي بكل تلك المعارف التي عرفت كل المعرفة كيف تفيد منها!.. ولقد ظلت "تيريز" وقتا طويلا تعولها بما كانت تكسبه من عملها، واصبحت تغذيها من خبزي!.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها دون ان تفعل لهذه الابنة شيئا!.. وكانت بناتها الاخريات - اللائي منحتهن "تيريز" مهورا "دوطات"

---

(١) "ليرميتاج".. الكوخ الناتي الذي افردته له السيدة "ديبيناي".

استنفدت كل ما لها - ابعد من ان يساعدنها بل إنهن رحن يلتهمن مواردها ومواردي.. وتبينت انه كان حريا بالسيدة "لوفاسير" - في مثل هذا الموقف - ان تتطلع إليّ كصديقها الأوحد، وكاصدق من يذود عنها ويكفلها، وبدلا من ان تكتم عني الأمور التي كانت من ذات شؤوني، وبدلا من ان تتآمر ضدي في عقر داري، كان عليها ان تطلعني - في إخلاص - على كل ما كان خليقا بان يهمني، إذا ما علمت به قبلي. فبأية عين كان بوسعي - إذن - ان ارى مسلكها الغادر، الغامض؟.. وما الذي كان ينبغي ان اظنه - فوق كل شيء - عن المشاعر التي تذرعت بها لدى ابنتها؟.. اي جحود هائل كان جحودها عندما سعت إلى ان توسوس إليها؟

كل هذه الخواطر البت فؤادي - في النهاية - ضد هذه المراة، حتى إنني لم اعد انظر إليها دون احتقار.. على انني لم اكف قط عن ان اعامل ام شريكة حياتي باحترام، وان ابدي لها - في كل شيء - ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير.. بيد انني لم اكن - في الحق - لاحب ان امكث معها وقتا طويلا، ولم يكن بوسعي ان اغصب نفسي على ما لا تحب!

وهنا ايضا كانت إحدى تلك اللحظات القصيرة التي مرت بحياتي، والتي رايت فيها السعادة جد دانية، دون أن اقوى على نيلها، ودون ان يكون لي ذنب في فواتها!.. ولو ان هذه المراة كانت طيبة الشخصية لظل ثلاثتنا سعداء حتى نهاية اعمارنا.. ولكان آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيدا جديرا بالرثاء. ولكنكم سترون - بدلا من ذلك - تطور الأمور، وستحكمون بانفسكم: اكان بوسعي ان اغير حال هذه المراة؟

ذلك ان السيدة "لوفاسير" - حين رات انني وطدت مكانتي في فؤاد ابنتها، وانها فقدت الفتاة - راحت تناضل لاستعادتها، وبدلا من ان تتقرب مني عن طريقها اخذت تسعى إلى إيغار صدري عليها، وكان من الوسائل التي استخدمتها ان استدعت اسرتها إلى معاونتها، وكنت قد رجوت "تيريز" بالا تستقدم احدا إلى "ليرميتاج"، فوعدتني بذلك.. غير انهم كانوا يستدعون في غيابي، ودون استشارتي، وكانت "تيريز" تحمل على ان تعد بالا تقول لي شيئا، وما إن تمت الخطوة الاولى حتى غدا كل شيء سهلا. فإن المرء إذا اخفى - مرة - عمن يحب امرا، فإنه لا يلبث ان يكتم عنه كل شيء، دون تورع. فما كنت اذهب إلى "لاشيفريت" (١)، حتى كان "ليرميتاج" يزخر بالناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك في استمراء، والأم دائما ما تكون قوية السلطان على الابنة التي فطرت على الطيبة.. ومع ذلك فإن العجوز لم تستطع - برغم كل جهودها - ان تغري "تيريز" على ان تاخذ بآرائها، او ان تستدرجها إلى التآمر ضدي، اما عن نفسها فإنها كانت قد وطنت عزمها - دون انتكاس - على وضع خاص: فكانت تنظر - من ناحية - إلى ابنتها وإليّ انا كشخصين تستطيع ان تقيم في دارهما فحسب.. وكانت تنظر - من ناحية أخرى - إلى "ديدرو"، و"جريم"، و"دلباخ"، والسيدة "ديبيناي" كاشخاص يعدون بامور كثيرة، ويمنحون بعض اشياء.. وما خطر لها قط انها كانت تخطئ إذ تسير في ركاب زوجة ناظر عام للزراعة، و"بارون". ولو انني كنت دقيق النظر لرايت - منذ ذلك الحين - انى إنما كنت اغذي افعى في احضاني. بيد أن ثقتي العمياء - التي لم يغيرها شيء حتى الآن - كانت لا تدع لي سبيلا إلى ان احدس ان هناك من يبغي الشر بمن هو جدير منه بالحب!.. وفي الوقت الذي كنت ارى فيه الف دسيسة تحيط بي فلم اكن املك ان اشكو إلا من جور اولئك الذين كنت ادعوهم اصدقاء لي، والذين كانوا يسعون إلى ان يجعلوني - بالرغم مني - سعيدا على نسقهم. لا على النسق الذي كان يحلو لي!

---

(١) "لاشيفريت" الضيعة التي كان بها قصر آل "ديبيناي"، والتي كان "ليرميتاج" في اقصى الغابات الملحقة بها.

ومع ان "تبريز" ابت ان تنحاز إلى امها في تآمرها إلا انها ابقت على سرها، وكان باعثها على ذلك خليقا بالتقدير، ولن اقطع بما إذا كانت قد احسنت او انها اساءت!.. وعندما يكون بين امراتين سر فإنهما تشغفان بالثرثرة معا، وقد قرب هذا بين "تبريز" وامها، واصبح مسلك "تبريز" - إذ وزعت ولاءها - يشعرني - في بعض الاحيان - بالوحدة؛ لانني لم اعد اعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة، وفي تلك الفترة، اشتد شعوري بالخطأ الذي ارتكبته، في بداية رابطتنا، إذ إنني لم استغل اللون الذي كان حبها يوحي به إليها لكي ازينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بان تقرب بيننا في معتكفنا، وبان تملأ وقتها ووقتي على خير وجه، دون ان تدعنا نشعر بفوات الوقت في عزلتنا، وليس معنى هذا ان الحديث بيننا كان مجديا، ولا انها ابدت بادرة تمت عن ملل خلال نزهاتنا، وإنما معناه انه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكفي لكي يكون موردا مدخرا.. ولم يكن بوسعنا ان نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا، التي انحصرت - منذ ذلك الحين - على لهونا، وكانت الاشياء المحيطة بنا توحي إلينا بخواطر كانت فوق إدراك "تبريز".

ولم تكن علاقة كعلاقتنا - دامت اثنتي عشرة سنة - بحاجة إلى كلام؛ إذ اصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلا إلى مزيد؛ ومن ثم فإن المورد الوحيد الذي تبقى للحديث بيننا، تمثل في الثرثرة غير المجدية، والنصائح، والنكات الركيكة!.. ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر، قدر ما يشعر في العزلة، بوجه خاص. اما انا، فلم اكن بحاجة إلى هذه الميزة كي اهنأ بصحبة "تبريز". بيد ان "تبريز" كانت بحاجة إليها، كي تجد دائما ما يسرها في صحبتي.

وكان اسوأ ما في الامر اننا كنا مضطرين إلى ان نعقد لقاءاتنا الخاصة في الخفاء؛ إذ إن امها اصبحت تضايقني وتضطرني إلى ان اتحين الفرص لتلك الخلوات.. كنت مقيد الحرية في داري، باوجز تعبير، وكان جو الحب يفسد جو الصداقة؛ ومن ثم فإننا كنا نمارس علاقة بدنية، دون ان نعيش في محبة قلبية!

وما إن خيل لي انني لاحظت على "تبريز" انها كانت تتعلل احيانا للتهرب من النزهات التي كنت اعرض عليها ان تشاركنيها على الاقدام حتى كففت عن ان اقترحها عليها، دون ان اطلعها على اي استياء من انها لم تكن تلقى فيها من المسرة ما كنت القى؛ ذلك لان السرور شيء لا يتوقف على الإرادة، ولقد كنت واثقا من ولاء قلبها، فكان في هذا الكفاية لي.. وطالما كانت مسراتي هي عين مسراتها فإنني كنت اقبل على الاستمتاع بها معها.. اما حين لا يكون الامر كذلك فكنت اوثر رضاها على رضائي!

وهكذا قدر لي، وانا نصف مخدوع بآمالي، وقد رحت امارس حياة تتفق ومزاجي، في بقعة منعزلة اخترتها لنفسي، ومع شخص كنت اعزه.. وهكذا قدر لي ان اشعر - برغم كل هذا - بانني وحيد!.. كان ما ينقصني يحول دون تذوقي لما اوتيت، فقد اعتدت - فيما يتعلق بالسعادة والسرور - ان انال كل شيء، او لا انال شيئا على الإطلاق!.. ولسوف يتجلى - فيما بعد - السر في ان هذا الإيضاح بدا لي لازما. اما الآن. فإنني امضي في رواية قصتي.



كنت أؤمن بأنني امتلك كنزا حقيقيا: تمثل في المخطوطات التي دفع بها إليّ الكونت "دي سان بيير". فلما فحصتها، تبينت أنها لم تكن أكثر من مجموعة من مؤلفات عمه - التي نشرت من قبل - وقد نقحت وصححت بيده، وأضيفت إليها بضع قطع صغيرة أخرى لم تر الضوء من قبل، ومما كتبه في الموضوعات الخلقية تأكدت لي فكرة كانت قد أوحت لي بها بعض رسائل منه أطلعتني عليها السيدة "دي كريكي"، ومؤداها أنه أوتي من العقل فوق ما كنت أتصور. بيد أنني حين تعمقت في فحص مؤلفاته السياسية وجدت أنها لم تكشف لي إلا عن آراء سطحية، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الرأي الذي لم يقدر للمؤلف أن يتخلص منه.. الرأي القائل بأن البشر يهتدون في أعمالهم بمعارفهم وليس بعواطفهم!.. كانت الفكرة العظيمة التي داخلته بصدد ألوان المعرفة الحديثة، جعلته يعتنق هذا المبدأ الزائف عن إمكان وصول العقل إلى درجة الكمال.. المبدأ الذي قامت عليه كل النظريات التي اقترحها، والمنبع الذي فاضت منه كل سفسطاته السياسية. إن هذا الرجل الفذ - الذي كان مفخرة عصره وجنسه - قد يكون الأوحد - منذ وجود العنصر البشري - الذي لم يشغف في حياته بغير العقل. ولكنه - مع ذلك - كان يتخبط من خطأ إلى آخر في آرائه ونظرياته؛ رغبة منه في أن يجعل كل الناس على نسقه، بدلا من أن يأخذهم على علاتهم، وعلى ما هم عليه، وما سيظلون عليه!. ومن ثم فهو لم يكن يشقى إلا من أجل كائنات وهمية، وهو يخال أنه يعمل من أجل معاصريه!

وإذ تبينت كل هذا الفيتني في حيرة من أمر القالب الذي أصوغ فيه عملي. فلو أنني أبقيت على آراء المؤلف لما أديت شيئا نافعا، ولو أنني عدلتها كما كان ينبغي لجاء عملي منافيا للأمانة؛ إذ إن تسلمي المخطوطات كان إلزاما لي بأن أكون أمينا إزاء مؤلفها، وانتهيت أخيرا إلى الرأي الذي بدا لي أكثر ملاءمة ولياقة، وأعظم حكمة ونفعا.. وذلك بأن أعرض آراء المؤلف وآرائي كلا على حدة؛ وبذلك أخوض نظرياته، وأوضحها، وأوسع نطاقها دون أن أضن بشيء لكي تنال حظها من التقدير!

ومن ثم فقد كان لابد لعملي من أن يتألف من جزءين منفصلين تمام الانفصال: أحدهما: يخصص لشرح مختلف غايات المؤلف على النسق الذي ذكرته.. أما الثاني: - الذي لم يكن ليظهر إلا بعد أن يحدث الأول مفعوله - فكان عليّ أن أعرض فيه حكمي على تلك الغايات ذاتها.. مما كان خليقا بأن يبينها - في بعض الأوقات - كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية!..

وكان لابد من أن يتوج هذا الكتاب كله بإيراد حياة المؤلف، وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد التي رحت أزين لنفسي أنني لن أشوهها إذ استخدمها، وكنت قد التقيت بالأب "دي سان - بيير" مرتين أو ثلاثا - في شيخوخته - فكان التبجيل الذي أكنه لذكراه ضمانا يطمئنني إلى أن السيد الكونت لن يستاء من الطريقة التي عاملت بها قريبه في مجموعها!

وأجريت محاولتي الأولى على "السلام الدائم"، وهي الأبحاث التي تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبا من العناية. وقبل أن استغرق في أفكاري تجلت فقرات كل ما كتبه الراهب - في هذا الموضوع البديع - بحذافيره، دون أن أضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار، ولقد اطلع الرأي العام على هذه الرسالة المستخلصة؛ ومن ثم فليس لدي ما أقوله عنها. أما الحكم الذي ارتأيته بصددها فلم يطبع قط، ولست أدري إن كان سيطبع يوما ولكنه كتب في ذات الوقت الذي أعدت فيه كتابة الرسالة، وانتقلت من ذلك إلى نظرية "البوليسينودي"، أو تعدد المجالس.. وهي الرسالة التي وضعها في عهد الوصاية على العرش؛ ليروج للنظام الحكومي الذي اختاره الوصي، والذي أدى إلى إقصاء

الراهب "سان - بيير" عن المحفل الفرنسي "الأكاديمي فرانسيز" - من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومي السالف الذكر الذي احنق الدوقة "دو مين"، والكاردينال "دي بولينياك"، وقد اتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه، سواء الرسالة او الحكم ولكنني توقفت عند هذا الحد، دونما رغبة في مواصلة هذا المشروع، الذي ما كان ينبغي ان ابداه!

وكان الخاطر الذي اوحى إليّ بنبذه قد وافاني من تلقاء ذاته، وكان من المدهش انه لم يخطر لي قبل ذلك. فإن معظم كتابات الراهب كانت في مجموعها - أو كانت تشتمل على - ملاحظات نافذة لبعض نواحي نظام الحكم في "فرنسا"، وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجدودا لانه افلت من العقاب الذي كانت خليقة بان تجره عليه، على انه كان يعتبر في الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين، اكثر منه كسياسي حقيقي؛ ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له؛ لانه كان من الجلي ان احدا لم يكن يصغي إليه. غير ان الأمر كان يختلف إذا ما حملت انا انتقاداته إلى الأسماع.. ولقد كان فرنسيا، ولم اكن انا كذلك، فإذا كررت انتقاداته - ولو باسمه - لتعرضت لان اسال عنها سؤالا عسيرا صارما - ولكن دونما ظلم - عما كنت اقحم نفسي فيه.

وقبل ان أوغل في ذلك فطنت - لحسن الحظ - إلى المأخذ الذي كنت اتيحه ضد نفسي، وتراجعت مسرعا؛ فلقد كنت ادرك انني - إذ اعيش وحيدا وسط رجال، ورجال كلهم اقوى مني - لن أقوى قط، ومهما تكن وسائلي على ان اقي نفسي اي اذى يحلو لهم ان يوقعوه بي، ولم يكن ثمة في وسعي - إزاء ذلك - سوى امر واحد: هو ان أجعل من المستحيل عليهم - إذا هم راموا إيذائي - ان يفعلوا ذلك ظلما، وهذا المبدأ - الذي جعلني اهجر الأب "سان بيير" - كثيرا ما حملني على ان اطرح عني كثيرا من المشروعات التي اعتز بها، والذين يبادرون دائما إلى ان يجعلوا من المحنة جريمة كانوا خليقين بان يدهشوا، إذا عرفوا كل ما تجشمت في حياتي؛ لكي لا يقال لي - عن صدق - في اوقات محنتي: "لقد استحققتها تماما!".

وتركني نبذ هذا العمل حائرا - بعض الوقت - بشأن ما اتولاه بعد، وكانت هذه الفترة من البطالة مضيعة لي؛ إذ جعلتني احول افكاري إلى نفسي، نظرا لعدم وجود ما يشغلني. فلم تعد لدي مشروعات للمستقبل تروق لخيالي، كما انه لم يكن من الميسور ان ادبر شيئا من هذه المشروعات؛ لان وضعي الراهن كان هو عين الوضع الذي جمع كل رغباتي.. ومن ثم فإنني لم اذكر في مشروعات جديدة، ومع ذلك فقد ظللت اشعر بفراغ، ومما زاد هذه الحال قسوة انني لم اكن أجد ما يفضلها؛ إذ كنت قد أوقفت أرق عواطفي على امرأة راقت لفؤادي، وقد بادلتني هذه العواطف؛ فعشت معها على سجيتي، وفق ما حلا لي، كما ينبغي ان يقال، ومع ذلك فإن ضيقا خفيا ظل يستولي على فؤادي لا يبرحه في قربها ولا في بعدها، وكنت اشعر - وانا ضجيعها - انها مازالت غير خالصة لي.. وكان مجرد التفكير في أنني لم اكن لها كل من لها يجعلها تبدو لي شيئا لا يذكر تقريبا!

وكان لي أصدقاء من الجنسين، ارتبطت بهم باخلص الود، وباكمل التقدير، وكنت مطمئنا إلى انهم يكنون لي - مقابلها - أصدق المشاعر، فلم يخطر ببالي قط - ولو مرة واحدة - أن ارتاب في إخلاصهم ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب - لا نعيم لي - نظرا لعنادهم، بل ولإلحاحهم في معارضة كل ميولي واهوائي وطريقة حياتي، إلى درجة انه كان يكفيني أن أبدي رغبة في شيء لا يهم سواي وحدي، ولا يتوقف عليهم، حتى اراهم يتآزرون - في الحال - لإقناعي

بالتخلي عنه. هذا الإصرارعلى السيطرة على كل اهوائي الذي كان يزيده جورا انني لم اكن بمناى عن محاولة للسيطرة على اهوائهم – فحسب بل إنني لم اعن قط بتعرف هذه الأهواء – لم يلبث ان اصبح مرهقا لي إلى درجة قاسية، حتى إنني لم اعد – في النهاية – اتسلم رسالة منهم إلا وشعرت وانا افضها – بشيء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تلبث ان تبرره!.. ولقد تبينت – بالنظر إلى انهم كانوا يصغرونني سنا، وكانوا في اشد الحاجة إلى الدروس التي يخصونني بها – إن معاملتهم لي كانت اقرب ما تكون إلى معاملة الكبار لطفل صغير، وكنت اقول لهم: "احبوني كما احبكم، وماعدا ذلك، فلا تتدخلوا في شؤوني مادمت لا اتدخل في شؤونكم، وهذا جل ما اسالكم إياه!". وإذا كانوا قد اولوني احد المطلبين فمن المؤكد انه لم يكن للمطلب الاخير!

ولقد كان لي مسكن ناء، في عزلة فاتنة، وكنت سيد داري وربها، وكان بوسعي ان اعيش هناك على هواي، دون ان يفرض عليّ مخلوق سيطرته. ولكن هذه السكنى فرضت عليّ واجبا كان اداؤه يحلو لي لولا انه كان محتوما عليّ. فلم تكن حريتي باسرها سوى امر موقوت بل إنها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرد الاوامر.. وكنت مضطرا إلى قبول هذا الوضع باختياري.. لم اكن املك صباحا واحدا استطيع ان اقول فيه لنفسي، وانا استيقظ: "ساستغل هذا اليوم كما يحلو لي". فإلى جانب انني كنت رهنا لتدبيرات السيدة "ديبيناي" كنت رهنا كذلك لإزعاج اكبر.. إزعاج الجمهور والوافدين؛ إذ إن المسافة التي كانت تفصلني عن "باريس"، لم تحل دون ان ياتي إليّ يوميا زرافات من المتبطلين، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم، اللهم إلا ان يبددوا وقتي دون اي اكتراث!.. وكنت افاجا بهجومهم دون رحمة، وانا ابعد ما اكون عن توقعهم.. ونادرا ما رسمت خطة بديعة لنهاري دون ان اراها راسا على عقب؛ من جراء وصول وافد!

وقصارى القول إنني – كنت في غمرة النعم التي كنت أشد ما أكون شوقا إليها – لم أحظ قط بالسرور الخالص.. فرحت ارتد وثبا إلى أيام صباي الصافية، وكنت اهتف لنفسي احيانا، وأنا أتنهد: "آه!.. لست هنا في "شارميت"!" (١).

*****

وافضت بي ذكريات المراحل المتباينة من حياتي إلى التفكير فيما انتهيت إليه، ورايتني وقد بلغت أعتاب الشيخوخة، فريسة لشرور اليمة، واعتقدت أنني كنت اقترب من نهاية حياتي العملية، دون ان اكون قد نعمت في اوجها بشيء من تلك المتع التي كان القلب يصبو إليها، ودون ان اكون قد افسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة التي كنت اشعر بان قلبي كان يدخرها.. ودون ان اكون قد استمرات، بل دون ان أكون قد تذوقت – على الأقل – تلك اللذة المسكرة التي كنت احس بها في اعماقي، في عنفوانها، والتي كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحة، عاجزة عن ان تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زفراتي!

فكيف قدر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الآفاق، وكانت الحياة لديه هي الحب.. كيف قدر لي ان اعجز – حتى ذلك الحين – عن العثور على صديق يكون لي كل نفسه.. صديق صادق، وأنا الذي كنت اشعر انني خلقت لكي اكون كذلك!..

كيف قدر لي، وقد أوتيت مشاعر متاججة، وقلبا مفعما بالحب، الا اكتوي مرة واحدة – على الأقل – بلهيب هذا الحب، من أجل شخص معين؟.. ورأيت نفسي اقترب من اعتاب الشيخوخة،

---

(١) "شارميت": بقعة في الريف السويسري، قضى فيها "روسو" فترة النقاهة التي قدر له بعدها ان يفترق عن السيدة "دي فاران".

والحاجة إلى الحب تفري فؤادي، دون أن أملك قط لها إرضاء أو إشباعا.. رأيتني أوشك أن أموت دون أن أكون قد نعمت بالحياة!

هذه الخواطر الحزينة - وإن كانت ناعمة مفعمة بالحنان - حملتني على أن أرتد بأفكاري إلى نفسي في حسرة لم تخل من لذة!.. قد لاح لي أن القدر كان مدينا لي بشيء لم يستطع أن يمنحنيه. فلماذا خلقت إذن بميزات ومواهب طيبة إذا كان قد قدر لي أن أتركها إلى النهاية دون أن استغلها؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة في نفسي يوحي إليّ بالشعور بالغبن، ولكنه كان - في الوقت ذاته - يعوضني بما يخفف من وطأته، يحملني على أن أذرف الدمع الذي كنت أرتاح إلى أن أتركه ينساب!

*****

وافتني هذه الخواطر في أجمل فصول السنة.. في شهر حزيران (يونيو)، وفي البساتين الرطبة، بين شدو البلابل وخرير الجداول.. لقد تكالبت جميعا على دفعي إلى أحضان هذا النعيم المغري الذي خلقت له.. ولكنها دفعتني في حالة ذهنية قاسية، صعبة، تولدت عن المشاعر التي ظلت تتفاعل طويلا في نفسي، فكانت كفيلة بأن تسلمني إلى هذا الوضع إلى الأبد!.. ووجدتني - لشقوتي - أميل إلى تذكر مائدة العشاء في قصر "تون" (١)، والتقائي بتلكما الفتاتين الساحرتين (٢)، في فصل من العام كهذا الذي كنت فيه - في هذه المرحلة - وفي بقعة قريبة الشبه من هذه التي كنت فيها في الآونة التي أتحدث عنها.. ولقد اجتلبت لي هذه الذكرى - التي زادها فتنة ما كان فيها من ريح البراءة - ذكريات أخرى من نوعها، وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التي أيقظت مشاعري في صباي تتجمع حولي: الآنسة "جالي"، والآنسة "دي جرافينريد"، والآنسة "دي بريي"، والسيدة "بازيل"، والسيدة "دي لارناج"، وتلميذاتي الحسان.. حتى "جوليتا" اللاذعة، التي لم يستطع قلبي أن يسلوها!.. وألفيتني محوطا بسرب من الحوريات - من معارفي القديمات - اللائي لم يكن الشوق المتأجج نحوهن بالشعور الجديد لديّ.. وفار دمي وسخن، ودار رأسي بالرغم من شعري الذي دب إليه الشيب، وإذا بالمواطن الجنيفي الجاد الوقور، وإذا بـ"جان جاك" المتقشف الذي أشرف على الخامسة والأربعين من عمره يرتد فجأة هائما وراء الحب.. ومع أن النشوة التي تملكتني كانت مباغتة وجامحة إلا أنها كانت قوية وثابتة، فلم يكن من سبيل إلى شفائي منها إلا عن طريق نوبة الشفاء الفظيعة - غير المرتقبة - التي أسلمتني إليها هذه النشوة ذاتها!

بيد أن هذه النشوة لم تصل - برغم ما ذهبت إليه - إلى الحد الذي يجعلني أنسى سني ومركزي، فأخدع نفسي بأن لدي القدرة على أن أوحي الحب إلى الحسان، مرة أخرى.. أو إلى الدرجة التي تجعلني أحاول أن أفرج عن هذا اللهب المتأجج، وإن كان غير مثمر، اللهب الذي كنت أشعر - منذ طفولتي - بقلبي يحترق فيه عبثا!.. بل إنني ما كنت آمل في ذلك، ولا كنت أشتهيه، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى، وكنت من الشعور بالسخرية التي تنهال على العشاق إذا ما غووا في كبرهم بحيث إنني كنت أربأ بنفسي أن أتعرض لها.. وما كنت بالرجل الذي ينقلب مغرورا معتدا بنفسه في سني التداعي، بعد أن كنت مقسطا في سني ازدهاري!.. ثم إنني - كمحب للسلام - كنت أخشى العواصف المنزلية، وكنت أحب "تيريز" في إخلاص بالغ يجعلني أربأ بأن أعرضها للوعة رؤيتي منساقا إلى سواها بمشاعر أشد احتداما من تلك التي كانت تثيرها في نفسي؟

---

(١) ورد ذكر هذه المناسبة في الجزء الأول صفحة ١٥٤ . (٢) روى "روسو" قصة هذا اللقاء في الصفحات من ٢١٦ إلى ٢٢١ من الجزء الأول.

فما الذي تراني فعلت في هذه المناسبة؟

لابد أن يكون قارئي قد حدس تصرفي لو انه قد تتبعني - حتى الآن - في شيء من الانتباه!

ذلك ان استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية طوحت بي إلى عالم الأوهام والخيالات.. وعندما عز عليّ أن أرى في الوجود من هم أهل لصبابتي، وحتى اغذي هذه الصبابة من عالم مثالي، سرعان ما عمره خيالي الخصب بأناس ممن يميل إليهم فؤادي!.. ابدا ما لقي هذا المنبع مني مثل هذا الترحيب، وأبدا ما كان يوما متفجرا إلى هذا الحد!.. ورحت في نوبات الهيام أسكر بجرعات دسمة من أبهج المشاعر التي دبت يوما في قلب إنسان!

وتناسيت العنصر البشري تماما؛ فجعلت لنفسي مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال.. مخلوقات سماوية في فضائلها وجمالها.. أصدقاء أمناء، موفوري الحنان والوفاء، لا سبيل إلى مثلهم في العالم الدنيوي، وشغفت بالتحليق في هذه الآفاق بين الأطياف الفاتنة التي كانت تحف بي، حتى إنني أصبحت انفق الساعات بل الأيام في ذلك - دون حساب - وأنسى كل شيء آخر؛ فما إن التهم لقمة من طعام في عجلة حتى أتحرق لهفة إلى الفرار، لكي أهرع إلى الأحراش ثانية. فإذا قدر لي - وقد تأهبت للانتقال إلى عالمي السحري - أن أرى تعسا من أهل الأرض يفيد فإنني كنت أعجز عن أن اتلطف أو أن أكتم غيظي، وكنت - إذ أفقد سيطرتي على نفسي - أستقبلهم في جفاء يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذب، ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشتهاري بأنني مبغض للبشر، في حين أنه كان خليقا بأن يكسبني شهرة مناقضة لذلك لو أتيح للناس ان يقرءوا قلبي حق القراءة!

*****

وفي أوج نشوتي الكبرى، وجدتني أجذب كما تشد الطائرة الورقية بالخيط؛ لأرد إلى مكاني الطبيعي بفضل نوبة حادة من نوبات دائي. فاستخدمت العلاج الأوحد الذي كان يسري عني ألا وهو المجسات (١)، الأمر الذي أوقف غرامياتي الملائكية!.. ذلك لأنه إلى جانب أن المرء لا يميل إلى الهوى وهو يعاني الألم فإن خيالي - الذي اعتاد أن يذكو في الريف وتحت الأشجار - يذوي ويحتضر داخل الحجرات، وتحت ألواح السقوف الخشبية، ولكم كنت أتحسر إذ أذكر أن ليس لجنيات الغاب (٢) وجود، فلا مراء في أنني كنت خليقا بأن أوقف عليها عواطفي!

وضاعف من أساي أن حدثت في تلك الفترة ذاتها متاعب منزلية أخرى: فلقد كانت السيدة "لوفاسير" ماضية في بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها عليّ في الوقت الذي كانت تؤثرني فيه بأبدع المجاملات.. ولقد تلقيت رسائل من جيراني القدامى أنبئت فيها بأن العجوز الداهية كانت قد تورطت - دون علمي - في ديون عديدة باسم "تيريز" وبعلمها.. ولكن هذه لم تذكر لي شيئا عنها ولم أستأ لاضطراري إلى دفع هذه الديون بقدر ما استأت لأنها ظلت مكتومة عني!.. كيف تسنى لمن لم أكتم عنها سرا أن تخفي عني مثل هذا السر؟.. وهل للمرء أن يخفي أمرا عن أولئك الذين يحبهم؟.

وكانت عصبة "دولباخ" قد بدأت تخشى جديا - إذ رأتني لا أزور "باريس" - أن أكون قد استطبت الإقامة في الريف، وأنني قد أكون من الحماقة - في رأيهم - بحيث أبقى هناك؛ ومن ثم بدأت المشاغبات التي أريد بها حملي - بأسلوب غير مباشر - على العودة إلى المدينة، وبدأ "ديدرو" - الذي لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعا - بأن صرف عني "ديليير" الذي كنت قد عرفته به،

---

(١) روى "روسو" حديث مرضه وعلاجه (٢) "الدرياد".. جنيات الغاب، فقد ورد في أساطير الاغريق ذكر غابة كانت تتقمص كل شجرة فيها حورية، أو جنية فاتنة.

والذي تلقى ما شاء "ديدرو" ان يوحي به إليه من إيعازات، فنقلها إليَّ دون أن يدري الغرض الحقيقي الذي كان مقصودا بها!

ولاح كأنما اجمع كل شيء على انتزاعي من أوهامي الناعمة، الطائشة!.. وقبل ان افيق من نوبة المرض تلقيت نسخة من قصيدة خراب "برشلونة" التي ظننت أنها ارسلت إليَّ من لدن المؤلف (١)، فالزمني هذا بان اكتب إليه، وبان اتحدث عن قصيدته.. وهذا ما فعلته في خطاب طبع بعد ذلك دون ان استشار في امر نشره، كما سيرد فيما يلي:

فلقد ذهلت؛ إذ رايت هذا المسكين يتخبط في حيرته - كما ينبغي ان يقال - إزاء الثروة والمجد، فيحمل في مرارة على محن الحياة وتعاساتها ويخلص إلى أن كل ما في الحياة شر وسوء! فتولتني رغبة رعناء في ان ارده إلى رشده، وان اثبت له أن كل ما في الحياة خير وطيب. فالواقع ان "فولتير" - وإن بدا دائما مؤمنا بالله - لم يؤمن قط بغير الشيطان!.. إذ إن إلهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير، لا يجد لذة - في راي "فولتير" - إلا في الأذى، وإذا كان سخف هذا الرأي واضحا إلا انه مثير لصدوره - بوجه خاص - من رجل اثقل بالخيرات من كل نوع، فإذا به يسعى - من احضان هنائه - لبث القنوط في نفوس اقرانه، بان يصور لهم كل النكبات - التي كان هو بمنجى عنها - في صورة بشعة قاسية!.. ولما كنت احق منه بان اعدد مساوي الحياة الإنسانية وان أزنها فقد استعرضتها في غير تحيز، واثبت له ان الحكمة الإلهية براء من كل هذه المساوي، وان هذه إنما تدين باصولها إلى سوء استخدام الإنسان لمواهبه، أكثر منها إلى الطبيعة ذاتها، ولقد عاملته في هذا الخطاب بكل اعتبار، وكل مراعاة، وكل تلطف.. بل إني لاذهب إلى القول بانني عاملته بكل احترام ممكن، ولما كنت اعرف مدى سهولة اهتياج حبه لنفسه فإنني لم ابعث بهذه الرسالة إليه شخصيا، وإنما ارسلتها إلى الدكتور "ترونشان" - طبيبه وصديقه - وخولته مطلق السلطان في ان يسلمها إليه أو ان يكتمها عنه، وفقا لما يراه مناسبا.. وقدم "ترونشان" الرسالة، فرد عليَّ "فولتير" ببضعة سطور ابدى فيها انه كان مريضا، وساهرا على مريض؛ ومن ثم فإنه راى ان يرجئ رده إلى وقت آخر.. ولم يقل شيئا في الموضوع؛ وإذ ارسل لي "ترونشان" هذا الخطاب ارفقه بآخر منه، اعرب فيه عن قلة تقدير للشخص الذي عهد به إليه!

ولم أقدم على نشر هذين الخطابين بل ولا على إطلاع احد عليهما، فما احببت قط عرض مثل هذه الأنواع من الانتصارات الصغيرة، بيد ان أصولها موجودة في اضابيري (الملف "أ" رقما ٢٠ و ٢١)، ولقد نشر "فولتير" - بعد ذلك - الرد الذي وعدني به، والذي لم يرسله إليَّ قط.

وما هذا الرد سوى قصة "كانديد"، التي لا املك ان اتحدث عنها؛ لانني لم اقراها!

*****

كانت كل هذه الشواغل خليقة بان تبرئني تماما من غرامياتي.. ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء إليَّ لتحول دون معقباتها المشؤومة. ولكن نجمي المنحوس كان في صعود، فما إن شرعت في الخروج ثانية - بعد شفائي - حتى عاد راسي وقلبي وقدمي إلى عين الدروب السالفة واقول "عين" في نطاق ضيق، وإذ إن آرائي كانت - في هذه المرة - اقل سموا وجموحا، فظلت على الأرض. ولكنها احسنت اختيار نخبة من كل ما امكنها العثور عليه من الأشياء المستحبة، فلم تكد هذه النخبة تقل في وهميتها عن العالم الوهمي الذي هجرته!

---

(١) كانت من قصائد "فولتير".

فلقد رسمت لنفسي الحب، والصداقة - وهما معبودا قلبي - في أبدع الأشكال الخلابة، وطاب لي أن أزينهما بكل ما كنت أعجب به دائما من مفاتن الجنس، ولقد ملت إلى تصورهما صديقتين، وليسا صديقين؛ لأن مثل هذا المثال من الصداقة - وإن كان نادرا - إلا أنه أكثر ملاءمة ولطفا في الوقت ذاته!..

وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وإن كانتا مختلفتين، ووجهين ليسا بالغي الكمال ولكنهما يلائمان مزاجي، يشعان رحمة وإحساسا، وجعلت إحداهما سمراء، والأخرى ناصعة البياض.. إحداهما كثيرة الحركة والمرح، والأخرى رقيقة هادئة.. إحداهما عاقلة حكيمة، والأخرى ضعيفة ولكنه ضعف يهفو بالأفئدة إلى الدرجة التي تمكن الفضيلة من الكسب بفضله!.. ووهبت إحداهما حبيبا كانت الأخرى صديقته الحنون.. بل وأكثر من ذلك. ولكنني لم أدع مجالا لتزاحم، أو خصام، أو غيرة؛ لأنه من العسير عليّ أن أتصور المشاعر المؤلمة، ولم أشأ أن أشوه الصورة الفاتنة بشيء يحط من قدر الطبيعة؛ وإذ شغفت بالنموذجين الفاتنين تمثلتني - قدر الإمكان - العاشق والصديق.. بيد أنني جعلته مليحا وشابا، وخلعت عليه - فوق ذلك ما كنت أراه في نفسي من فضائل وعيوب.

ولكي أضع هاتين الشخصيتين في وسط يلائمهما رحت أستعرض - تباعا - أجمل البقاع التي رأيتها خلال أسفاري. ولكنني لم أهتد إلى أحراش ذات بهجة كافية، ولا بلد كاف لتحريك العواطف، وفق ما كان يروق لي، ولقد كانت وديان "تيسالي" خليقة بأن ترضيني لو أنني كنت قد رأيتها. ولكن خيالي كان قد تعب من الابتكار، فرغب في بقعة حقيقية تصلح لأن تكون أساسا، ولأن توحي إليّ بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان، ولقد فكرت طويلا في جزر "بوروما" (١) التي كان منظرها الساحر قد أطربني ولكنني وجدت فيها من الوشي والزينة المصطنعة أكثر مما كنت أبغي لشخصياتي، ومع ذلك فقد كان لابد من بحيرة؛ فانتهيت إلى اختيار تلك التي لم يكن قلبي يكف عن التحويم حولها، واستقررت على ذلك الجزء من الشاطئ الذي كانت أمانيّ قد أقامت عليه مقامي منذ أمد بعيد، في السعادة الوهمية التي جعلني حظي أقتصر عليها.. فلقد ظل مسقط رأس "ماما" المسكينة ينطوي على سحر خاص بالنسبة لي، وأدى تباين المواقع، وتنوعها، وروعة، وجلال المنظر في مجموعها.. هذه الصفات التي تبهر الحواس، وتهز القلب، وتسمو بالروح، أدت إلى أن أقر الرأي، وأن أوطد مقام شخصياتي الشابة الحبيبة في "فيفاي".. كان هذا جماع ما تصورته إذ ذاك، أما الباقي فلم يضف إليه إلا فيما بعد.

ولقد قصرت نفسي على هذا المشروع المبهم المعالم زمنا طويلا؛ لأنه كان كافيا لأن يملأ خيالي بأطياف مستحبة، وفؤادي بعواطف كان يحب أن يتغذى عليها، ولم تلبث هذه التصورات أن اكتسبت - بحكم تكرر ترددها عليّ - قدرا كبيرا من الثبات؛ فوطدت نفسها في عقلي تحت شكل محدد؛ وإذ ذاك خطر لي أن أعبر على الورق عن بعض المواقف التي كانت توحي إليّ بها، فاسترجعت كل مشاعر شبابي؛ لأتيح المجال - إلى مدى معين - للرغبة في الحب.. تلك الرغبة التي لم أستطع قط أن أشبعها، والتي كنت أشعر بأنها تلتهمني!

وألقيت على الورق - في البداية - بضعة حروف متناثرة دون تسلسل أو ترابط، وكنت كلما حاولت أن أضم بعضها إلى بعض أجد نفسي في حيرة شديدة، الأمر الذي لا يكاد أن يبدو معقولا، وإن كان هو الحقيقة عينها - برغم ذلك - هو أن الجزءين الأولين كتبا بأسرهما - تقريبا - بهذه الطريقة دون أن يكون لدي خطة مكتملة التكوين بل ودون أن أتوقع أن أنساق يوما إلى أن أجمل

---

(١) في بحيرة "ماجيوري".

منهما عملا ادبيا منسقا؛ ومن ثم فسوف يرى ان هذين الجزءين المؤلفين - بعد وقت طويل - من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذي وضعه فيه، مليئان بحشو من كلام مسهب ولكنه مقل في معناه، مما لا يوجد في الأجزاء الأخرى.

*****

وفي عنفوان تخيلاتي زارتني السيدة "**دوديتو**"، فكانت هذه اول زيارة تؤديها لي في حياتها، ولكنها - لسوء الطالع - لم تكن الأخيرة، كما سيبدو فيما بعد.. وكانت الكونتة "**دوديتو**" ابنة المرحوم السيد "**دي بليجارد**"، الناظر العام للزراعة، واخت السيدة "**ديبيناي**" والسيدين "**دي لاليف**" و"**ديلا بريس**"، اللذين صارا من مقدمي السفراء (١)، ولقد ذكرت من قبل كيف تعرفت إليها قبل زواجها. ولكنني لم ارها بعده إلا في الحفلات التي كانت تقام في "**لاشيفريت**"، وفي ضيافة اخت زوجها، السيدة "**ديبيناي**"؛ وإذ قدر لي ان اقضي عدة ايام معها، سواء في "**لاشيفريت**" او في "**ايبيناي**"، فإنني لم اجدها مفرطة اللطف فحسب بل إنني خلت أنني رأيت منها ميلا نحوي، وكانت جد مشغوفة بالتريض معي على الأقدام، وقد كان كل منا قديرا على المشي، ولم يكن الحديث يفتر بيننا. بيد أنني لم ازرها قط في "**باريس**" بالرغم من انها دعتني بل والحفت عليّ في ذلك، ولقد زاد من اهتمامي بها علاقاتها مع السيد "**دي سان - لامبير**"، الذي كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بيني وبينه.. ومن اجل إبلاغي أنباء هذا الصديق كان مجيئها إلى "**ليرميتاج**".

ولقد بدت هذه الزيارة - إلى حد ما - كفاتحة قصة غرامية؛ ذلك لأنها ضلت الطريق - أثناء قدومها - إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عن منحنى فيها، وأراد ان يقتضب المسافة بأن يسعى في خط مستقيم بين الطاحون القائمة في "**كليرفو**" و "**ليرميتاج**". ولكن العربة غاصت في الوحل في قاع الوادي الصغير؛ فقررت السيدة أن تبرحها وان تقطع ما بقي من الرحلة على قدميها. ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا أن ابتلا، ثم غاصت هي في الوحل، ولقي خدمها اشد العناء في تخليصها.. وقدر لها ان تصل اخيرا إلى "**ليرميتاج**"، وقد ارتدت حذاءي رجل، وسط رنين الضحكات التي مزجت بها ضحكاتي حين شهدت منظر الوصول!.. وكانت السيدة مضطرة إلى ان تغير جميع ثيابها. وقد تولت "**تيريز**" هذه المهمة بينما اقنعتها انا بأن تطرح عنها كبرياءها، وأن تشاركنا وجبة "تصبيرة" ريفية، لم تلبث ان استمرأتها.

وكان الوقت قد فات، فلم تمكث سوى برهة وجيزة. بيد ان اللقاء كان مرحا، وقد راق لها، وبدا عليها الميل إلى ان تأتي مرة اخرى. ومع ذلك فإنها لم تحقق ذلك إلا في العام التالي. ولكن، وااسفاه.. إن هذا الإرجاء لم يعصمني في شيء!

*****

وقضيت خريف تلك السنة في عمل لا يخطر ببال أحد.. ذلك هو حراسة فواكه السيد "**ديبيناي**". فلقد كان خزان المياه التي تروي بساتين "**لاشيفريت**" يقوم عند مبنى "**ليرميتاج**"، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية، وقد زرعت فيها أشجار متباينة، كانت تمد السيد "**ديبيناي**" بفواكه تفوق في كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ "**لاشيفريت**" برغم ان ثلاثة ارباعها

---

(١) مقدمو السفراء، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والامراء الاجانب عند زيارتهم الملك أو رئيس الدولة.

كان يسرق؛ ولكي لا اكون ضيفا عديم النفع، فإنني تكفلت بشؤون الحديقة، وبالإشراف على البستاني، وسار كل شيء على ما يرام، حتى حان موسم الفاكهة، فإذا بها تختفي تباعا - كلما نضجت - دون أن ادري ما كان يحل بها، واكد لي البستاني ان جرذان الحقل التهمتها جميعا؛ ومن ثم فقد اعلنت الحرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها. ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة في اختفاء، واحكمت الرقابة حتى اكتشفت اخيرا أن البستاني نفسه كان الجرذ الاكبر. فلقد كان يقيم في "مونمورنسي"، وكان يفد مع زوجته واولاده في جنح الليل، فيحملون الكميات التي يكون قد اعدها - في النهار - من الفاكهة؛ ليعرضها الرجل للبيع في سوق "باريس" جهارا، وكأنه أوتي بستانا ملك يمينه!.. وكان هذا التعس الذي اغرقته بخيراتي، والذي كست "تيريز" اولاده، والذي اصبحت اعول اباه تقريبا، بعد أن كان يتسول.. هذا التعس كان يسرقنا نحن ايضا، بسهولة وقحة؛ وإذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة من أوتي يقظة كافية لأن توقفه عند حده.. ولقد استطاع - في ليلة واحدة - ان يفرغ قبو مسكني؛ فإذا بي لا اعثر فيه على شيء في الصباح التالي!

ولقد كنت احتمل اعماله، عندما كان يبدو انه يقصر نشاطه عليّ وحدي.. اما وقد رغبت في تحمل مسؤولية الفاكهة فإنني اضطررت إلى ان افضح السارق، ورجتني السيدة "ديبيناي" ان انقده اجره، واسرحه من الخدمة، وأبحث عن سواه. ففعلت.. ولما راح هذا الشقي يحوم حول "ليرميتاج" كل ليلة، متسلحا بقضيب حديدي ضخم، كان يبدو كالهراوة، ومتبوعا بانذال آخرين من صنفه فقد رايت لكي اطمئن "الدادتين" (١) اللتين افزعهما هذا الرجل إلى اقصى حد ان ادعو خليفته لان ينام في "ليرميتاج" كل ليلة. ولكن هذا لم يهدئ من روعهما؛ فطلبت من السيدة "ديبيناي" بندقية احتفظت بها في غرفة البستاني، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها إلا عند الحاجة - عندما تبدر محاولة لاقتحام الباب او تسور الحديقة - والا يطلق في هذه الحال سوى البارود لمجرد إرهاب اللصوص، ولا مراء في ان هذا كان اقل احتياط يتخذ من اجل السلامة العامة لرجل معلول، يقضي الشتاء وسط الغابات وحيدا مع امراتين رعديدتين، وحصلت اخيرا على كلب صغير ليستخدم في الحراسة.

وإذ جاء "دیلییر" لزيارتي في تلك الفترة، فقد رويت له قصتي، وضحكت معه من استعدادي العسكري. فلما عاد إلى "باريس" رغب في ان يضحك "ديدرو" بدوره.. ومن هنا علمت عصبة "دولباخ" انني كنت اعتزم جادا أن اقضي الشتاء في "ليرميتاج"، فاسخطهم هذا الإصرار على عزمي؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوروه وعملوا ، ريثما يرسمون بعض الحيل لكي يعكروا إقامتي (٢) - إلي الوقيعة، عن طريق "ديدرو"، بيني وبين "دیلییر"، الذي اعتبر احتياطيا - في البداية - مجرد أمر طبيعي، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى انه امر مناقض لمبادئي، واسوا من ان يستحق السخرية فحسب.. وصارحني بذلك في خطابات اغرقني فيها بنكات لاذعة، بلغ من لذعها انها كانت تمس كرامتي لو ان مزاجي كان ميالا إلى هذا الاتجاه، ولكنني كنت مغرقا - إذ ذاك - في المشاعر الرقيقة، اللطيفة، فلم اشك في اي شيء آخر، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للإضحاك، كما اعتبرت "ديلبير" مجرد ماجن، في حين أن اي امرىء غيري كان خليقا بأن يعتبره مخبولا! (٣).

---

(١) "الدادتان" هو الاسم الذي اطلقه اصدقاء "روسو" على "تيريز" وامها. (٢) عقب "روسو" على هذه النقطة - بعد الفراغ من كتابة اعترافاته - بقوله: "إنني - في لحظتي هذه - اعجب من غبائي إذ لم ابصر - عندما كنت اكتب هذه السطور - أن الاستياء الذي استشعرته عصبة "دولباخ" - حين تبينت انني كنت مزمع الإقامة في الريف - لم يكن راجعا إلا إلى انهم لن يعودوا يجدون السيدة "لوفاسير" في متناول يدهم؛ لترشدهم في خططهم بان تحدد لهم الاماكن والمواعيد، وهذه الفكرة - التي لم تراودني إلا اخيرا جدا - توضح تماما غرابة مسلكهم الذي يبدو غير واضح تحت أية افتراضات اخرى".. ولم يوجد هذا التعقيب في اية طبعة سابقة على سنة ١٨٠١ مما ينم عن ان هذه الفكرة وافته عندما لم تعد النسخة الثانية من المخطوطات في حوزته. (٣) اضاف "روسو" إلى هذه العبارة: "ومن ثم فإن الذين حرضوه، اضاعوا جهدهم سدى في هذه المنحة. فقضيت الشتاء في هدوء بالغ!".

وبفضل اليقظة والعناية، افلحت تماما في حماية الحديقة التي درت ثلاثة امثال ما درته من الفاكهة في العام السابق، برغم أن المحصول كان فاشلا - تقريبا - في هذه السنة. بل إنني رافقت الشحنات التي أرسلتها إلى "لاشيفريت" و"ايبيناي"، وحملت بنفسي بعض السلال، وإني لاذكر انني و"العمة" (١) حملنا في إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها اننا اضطررنا - لكي نتفادى التداعي تحت وطاة الحمل - إلى ان نستريح كل اثنتي عشرة خطوة.. ووصلنا - في النهاية - مبللين بالعرق!

سنة ١٧٥٧

عندما شرع فصل الطقس السيئ في إلزامي مسكني وددت أن اعاود مهامي التي تؤدى في البيت، ولكنني لم اجد إلى ذلك سبيلا؛ لانني لم أعد ارى في كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين (٢)، وصديقهما، وما يحيط بهما، والبلد الذي يقيمان فيه، والاشياء التي خلقها خيالي او هذبها من اجلهما، ولم أعد ملك نفسي لحظة واحدة، فإن هذا الحلم لم يعد يفارقني، وبعد جهود كثيرة - غير مجدية - لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عني وجدتني انساق لغوايتها، فلا اشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شيء من النظام وشيء من التتابع فيها - لكي اجعل منها نوعا من القصص الخيالي.

وكان اعظم ما حيرني هو ذلك الخجل الذي ساورني؛ إذ شعرت بانني اناقض نفسي صراحة وفي جراة. افبعد المبادىء الصارمة التي ارسيتها بكل هذا الضجيج، وبعد الآراء التقشفية التي رحت ابشر بها بكل هذه القوة، وبعد الحملات اللاذعة التي حملتها على الكتب الناعمة التي كانت تفوح بالحب والميوعة.. افبعد كل هذا يكون ثمة ما هو ابعد عن الارتقاب، وادعى للدهشة والاستنكار من ان ارى فجاة وقد انضويت - بمحض إرادتي - بين مؤلفي تلك الكتب التي انتقدتها بكل هذه القسوة؟!.. لقد أحسست بهذا التذبذب في عنفوان قوته، فرحت الوم نفسي، واستحيي منها، واسخط عليها.. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لان يردني إلى حجاي.

وكان عليّ - في انصياعي التام - ان اخوض كل المخاطر، وان اتهيا لمواجهة ما يقال.. وان أعد ذهني لكل شيء اللهم إلا ان اتعرض لان اقرر - فيما بعد - ما إذا كنت انشر كتابي على الناس او لا انشره؛ إذ إنني لم أكن أعتقد انني قد انشره!

وإذ انتهيت إلى هذا الراي؛ القيت بكل نفسي في غمرة تصوراتي، وبفضل تقليبها في ذهني مرارا رسمت في النهاية مشروع الخطة التي شاهد الراي العام الكتاب يخرجه بمقتضاها، ومن المحقق ان هذا كان خير ما يستمد من نزواتي.. فإن حب الخير - الذي لم يغادر قلبي البتة - حول هذه النزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة، كان من الممكن ان تغدو مثمرة وذات نفع خلقي. لقد كانت مناظري المستوحاة من الحب خليقة بان تفقد بهاءها لو اعوزتها صبغة البراءة اللطيفة. إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق، قد يجعله الحب مادة مشوقة لا تفتر متعتها في كثير من الاحيان. ولكن من ذا الذي يطيق - دون استنكار - منظر الآداب والاخلاق في إطار حديث؟.. اي شيء ادعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة، التي تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا، ثم تزعم - برغم ذلك - أن زوجها خليق بان يتقبل في عرفان عميق ما تمنحه من صنيع؛ إذ تتكرم فلا تدع نفسها تباغت وهي تمارس الخيانة؟!.. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود؛ ومن ثم فإن الدروس التي توحي بها جد بعيدة عن أن نستسيغها. اما إذا قدر لشابة، منحتها الطبيعة قلبا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم

---

(١) العمة: لقب اعتاد "روسو" ان يطلقه على "تيريز". (٢) يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله.

بالحنان، أن تدع الحب يغلبها وهي فتاة عذراء، ثم تجد من نفسها القوة على أن تهزمه بدورها – وقد غدت امرأة ثيبا – لتغدو عفيفة من جديد..! إن الذي يقول لك إن هذه الصورة في مجموعها فاضحة، وغير مفيدة لكاذب ومنافق، فلا تصغ إليه، مهما يكن!

وكان لديّ إلى جانب الأخلاق والأمانة الزوجية – اللذين يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعي – هدف أعمق وأكثر تواريا.. ذلك هو التوافق، والوئام العام.. وهو هدف أعظم من سابقه، وربما كان – في حد ذاته – أكثر قيمة وأهمية.. بل إنه كان كذلك في تلك الآونة حقا.. ولم تكن العاصفة التي أثارتها "الموسوعة" (١) قد خمدت بل إنها كانت – في هذه الفترة – في أوج احتدامها. فقد انطلق كل من الفريقين (٢) يهاجم الآخر في سعار جامح، وكأنهما قطيعان من ذئاب مسعورة، تأهب كل منهما لأن يمزق الآخر في هياجه.. لا فريقان من مسيحيين (٣) وفلاسفة تواقين لتبادل المعرفة والإقناع، كي يهدي كل منهما الآخر إلى طريق الحقيقة!.. بل إنه لمن الجائز أن يقال: إن كلا من الفريقين لم يكن ينقصه سوى قادة عاملين ذوي شهرة؛ كي ينقلب النزاع إلى حرب أهلية!.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دينية، كانت أقسى ألوان التعصب تكمن في قرارة كل من الجانبين!

*****

ولما كنت بفطرتي عدوا لكل تحزب؛ فإنني أفضيت إلى كل من الجانبين بالحقائق المريرة التي أبوا أن ينصتوا إليها، وانطت بنفسي مهمة أخرى تراءت لي – في سذاجتي – جديرة بالإعجاب. تلك هي أن أخفف من العداء المتبادل بين الفريقين، وأن أقوض أباطيلهما ونعراتهما، وأبين لكل كفاءة – الآخر وفضائله وجدارته بالتقدير العام وباحترام الجنس البشري بأسره (٤) ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول – الذي قادني إلى عين الخطأ الذي أخذته على الأب "سان بيير" – بالنجاح الذي كان يستحقه.. إذ إنه لم يقرب بين الفريقين، وإنما ألبهما معا ضدي!.. وإلى أن تكشفت لي حماقتي أقبلت عليها بكل حماس جدير بالحافز الذي ألهمنيها، كما ينبغي أن يقال، فرسمت شخصيتي "فولمار" و"جولي"، وأنا في نشوة حملتني على أن آمل في أن أجعلهما معا خليقين بالحب، وأن يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر!

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائي لمشروعي؛ عدت إلى المواقف التي كنت قد عينتها للتوسع والتفصيل؛ فأدى النظام الذي رتبتها بمقتضاه إلى الجزءين الأولين من كتاب "جولي" الذي كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء – في غبطة لا سبيل إلى وصفها – مستعملا أبدع ورق مذهب الحواف، ومستخدما مسحوقا أزرق وفضيا لتجفيف مداد الكتابة، وشريطا أزرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتي، وموجز القول إنني لم أضن بكل شيء أنيق وبديع على فتاتي الفاتنتين اللتين عشقتهما وكأنني "بيجماليون" آخر (٥). فكنت في كل مساء، أقرأ – إلى جانب مدفأتي – هذين الجزءين وأرددهما على سمع "الدادتين". فكانت الابنة تذرف معي الدمع حنانا، دون أن تنبس ببنت شفة أما الأم التي لم تجد فيما كنت أقرأ أية مجاملات – فإنها لم تفقه شيئا، فكانت تمكث ساكنة، مكتفية بأن تردد لي دائما في لحظات الصمت: "هذا بديع جدا ياسيدي"!

---

(١) أورد "روسو" ذكر "دائرة المعارف" أو "الموسوعة". (٢) يقصد أنصار المشروع ومعارضيه. (٣) يستعمل "روسو" كلمة "المسيحيين" هنا بمعنى المتدينين، المتورعين. (٤) كان تنفيذ هذه المهمة يتمثل في إنتاج كتاب هو محور حديثه في هذه الفقرات.. وهو كتاب "جولي". (٥) "بيجماليون": ملك زعمت الأساطير الإغريقية أنه صنع تمثالا من عاج للمرأة – كما كان يراها – فإذا به يتدله في هوى التمثال، حتى بثت "أفروديت" الحياة في العاج؛ فانقلب التمثال أنثى تزوجها الملك الفنان.

واقلق السيدة "ديبيناي" ان تعلم انني كنت وحيدا - في الشتاء - وسط الغابات، وفي منزل منعزل، فراحت تكثر من إيفاد من يتسقطون انبائي، وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لي، كما ان مشاعري لم تكن يوما اكثر حرارة مما كانت في مقابلة ودها، وإني لأذنب إذا اغفلت ان اذكر من هذه الشواهد انها ارسلت إليّ صورتها، وسألتني أن آذن لها بالحصول على صورتي - بريشة "لاتور" - ثم عرضتها في قاعة جلوسها "صالونها". كذلك ينبغي الا اغفل لفتة اخرى من لفتاتها قد تبدو مضحكة ولكنها من معالم تاريخ شخصيتي، وذلك بفضل الاثر الذي احدثه في نفسي. ففي ذات يوم، وقد اشتد تكاثف الصقيع، فضضت حزمة ارسلتها هي لي، وضمنتها عدة اشياء تكفلت بإعدادها لي، فوجدت بينها "جونلة" داخلية قصيرة، من "الفانيلا" الإنجليزية، ذكرت انها اعتادت ان ترتديها، واعربت عن رغبتها في ان اصنع منها صدارة، وكان اسلوب رسالتها ساحرا مليئا بالحنان والسذاجة، وبدا لي هذا الدليل على العناية - الذي كان يفوق كل ما تمليه الصداقة - بالغ الحنان، حتى لكانها قد تعرت لكي تكسوني، وحتى إنني - في جيشان عواطفي - قبلت الرسالة و"الجونلة" عشرين مرة، وانا ابكي! وظنت "تيريز" انني قد اختبلت!..
ومن العجيب حقا ان شيئا من دلائل الود - التي اسبغتها عليّ السيدة "ديبيناي" - لم يؤثر في نفسي قدر ما اثر هذا الدليل الذي ما اعتدت ان اتذكره دون ان تخفق مشاعري، حتى بعد القطيعة التي ضربت بيننا، وقد احتفظت برسالتها القصيرة امدا طويلا، وكنت خليقا بان اظل محتفظا بها لولا انها لقيت مصيرها مع رسائلي الاخرى التي تمت إلى هذه الفترة (١).

ومع ان احتباس البول لم يدع لي نصيبا يذكر من الراحة في ذلك الشتاء، ومن انني كنت اضطر - لفترة من الزمن - إلى استخدام المجسات.. مع ذلك فإن هذا الفصل كان امتع الفصول التي قضيتها - منذ وصولي إلى "فرنسا" - واكثرها هدوءا!.. ففي خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التي ساعد سوء الطقس على زيادة اعتكافي وعزلتي عن الزائرين، استمرت هذه الحياة المستقلة، المسترسلة، البسيطة، كما لم استمرئها من قبل.. ولم يزدها الاستمراء - في نظري - إلا قيمة.. ولم يكن لي من اي انيس سوى "الدادتين" - في عالم الحقيقة - وابنتي جنسهما، في عالم الفكر، وفي القرار الذي أوتيت من حسن الإدراك ما مكنني من اتخاذه، دون أن احفل بصيحات اصدقائي.. الذين اغضبهم أن رأوني افلت من تسلطهم (٢).. ولكم حمدت السماء عندما سمعت عن محاولة معتوه (٣) وحين حدثني "ديلير" والسيدة "ديبيناي" - في خطاباتهما - عن الاضطرابات والقلاقل التي سادت "باريس"؛ إذ كنت بمنأى عن مناظر الإرهاب والجريمة التي لم يكن لها من اثر سوى تغذية وشحذ المزاج الصفراوي الذي كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره في نفسي.. في حين أنني لم أكن ارى نفسي - في هذه الفترة - محوطا بغير اطياف باسمة، وادعة، فكان فؤادي غير منساق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة. إنني لأسجل هنا - في انتشاء - سير تلك اللحظات الوادعة التي كانت آخر ما أتيح لي أن انعم به. فإن الربيع الذي اعقب هذا الشتاء الهادئ شهد تفتح بذور المصائب التي بقي عليّ أن اصفها، والتي لن يقدر لامرئ ان يرى - خلال نسيجها - فترة تشبه هذه التي كنت

---

(١) نشرت هذه الرسالة في مذكرات السيدة "ديبيناي" وقد جاء بها: "ارسل إلى ناسكي هذه الاشياء للسيدتين "لوفاسير"، ولما كان الرسول الذي استخدمه جديدا، فهاك بيان ما ارسلت معه".. وفي نهاية الاشياء قالت:

"وقطعة من "الفانيلا" الحريرية جد صالحة لها "اي السيدة "لوفاسير" لتصنع منها صدارة مناسبة لها، او لك انت، وعم صباحا يامالك الدببة"!

.. ومن الواضح ان هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الإسهاب الذي ذكرها به "روسو"، ولكن إيرادها في سياق ذكرياته - على هذا النحو - يدل على مدى تقديره لما كان اصدقاؤه يؤثرونه به من كرم وعطف، وعلى ان ما لقيه من بعض هؤلاء الاصدقاء ثم يحمله على ان يجحد افضالهم في لوثات الصفا! (٢) بقصد قرر التروح من "باريس" والاعتكاف في الريف. (٣) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر، في ٤ يناير سنة ١٧٥٧.

استطيع أن أجد فيها متنفسا!

✿✿✿✿✿

ومع ذلك أراني أتذكر أنني – خلال هذه الفترة المطمئنة بل وفي أعماق عزلتي – لم أبق بمنجى تام من عصبة "دولباخ". فقد أثار "ديدرو" بعض مضايقات لي، وما لم أكن موغلا في الخطأ فإنني أظن أن "أبناء السفاح" – وهي القضية التي سأتحدث عنها توا – ظهرت في هذا الشتاء.

ولست بحاجة إلى أن أذكر عددا جد ضئيل من الوثائق التي يمكن الاستناد إليها فيما يتعلق بهذه الفترة.. بل إن الوثائق التي تركت لي منها، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير. فإن "ديدرو" لم يكن يثبت التاريخ على رسالة قط، وكذلك لم تكن السيدة "ديبيناي" والسيدة "دوديتو" تؤرخان خطاباتهما بغير ذكر اسم اليوم، وكان "ديليير" يحذو حذوهما في أكثر الأحيان. فلما أردت أن أرتب هذه الرسائل كان عليَّ أن أتحسس طريقي في الظلام لأحدس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها، ولا أملك أن أركن إليها؛ ومن ثم فإنني – إذ أعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة – أوثر أن أروي فيما بعد – في قسم منفصل – كل ما أستطيع أن أذكره عنها.

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتي العاطفية؛ فإذا بي في نوباتي الولهانة أصوغ – للجزءين الأخيرين من "جولي" – عدة خطابات تطفح بالنشوة التي كنت فيها وأنا أكتبها، وأستطيع أن أذكر الرسالة التي دارت حول جنة الوثنيين، والرسالة التي وصفت النزهة على ضفاف البحيرة، وهما اللتان – إذا صح ما أذكر – تختمان الجزء الرابع. فإذا قدر لأحد أن يقرأ هاتين الرسالتين دون أن يشعر بقلبه يلين ويذوب في نفس المشاعر التي أملتها عليَّ فخير له أن يغلق الكتاب؛ لأنه غير قدير على أن يعرف للأشياء العاطفية قيمتها!

وفي تلك الآونة بالذات، تلقيت زيارة ثانية – لم تكن مرتقبة – من السيدة "دوديتو". فلقد وفدت على "أوبون" – في وسط وادي "مونمورنسي" – في غياب زوجها الذي كان ضابطا في الشرطة، وعشيقها الذي كان كذلك في السلك العسكري.

وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك بيتا بديعا للغاية، ومن هذا البيت جاءت في نزهة ثانية إلى "ليرميتاج"، وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد، وفي زي الرجال، ومع أنني لا أميل إلى مثل هذا الخلط في الأزياء إلا أنني أعجبت بما كان في تنكرها هذا من جو شاعري، خيالي، وكان شعوري في هذه المرة هو.. الحب! وإذ كانت هذه هي المرة الأولى – والوحيدة – في حياتي بأسرها، وقد تركت معقباتها أثرا على ذاكرتي طبع بقوة لا تجعله ينمحي، فلابد من أن أخوض هذه المسألة بشيء من التفصيل.

كانت السيدة الكونتيسة "دوديتو" تقترب من عامها الثلاثين، ولم تكن جميلة على الإطلاق؛ فقد ترك الجدري آثاره على وجهها، وكانت بشرتها تفتقد النعومة، كما أنها كانت قصيرة النظر، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي.. بيد أنها أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب، وكانت قسماتها – التي جمعت بين الحيوية والرقة – جذابة، وكانت تمتلك فيضا من شعر أسود رائع، مجعد بطبيعته، ومنسدل حتى ركبتيها.. أما قوامها فكان صغيرا لطيفا، وكانت تودع كل حركاتها خفرا وبهاء في وقت واحد، وكان ذكاؤها عاديا ومقبولا للغاية، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة أهنأ اقتران. فكانت تنساب في سيل من الدعابات الفاتنة التي لم تكن تتكلفها البتة، والتي كانت تنطلق بالرغم

منها احيانا، وكانت على كثير من المواهب المستحبة، فكانت تتقن العزف على "البيانو"، وتجيد الرقص، وتقرض أشعارا بديعة للغاية. أما أخلاقها فكانت ملائكية، باطنها رقة النفس، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل.. وكانت - فوق كل هذا - اهلا للثقة في المعاشرة، وذات وفاء في الصحبة، إلى درجة ان اعداءها انفسهم لم يكونوا بحاجة إلى ان يشتروا منها، واقصد باعدائها أولئك الذين، أو بالاحرى أولئك اللائي كن يكرهنها. أما من ناحيتها هي، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على ان يكره احدا، واعتقد ان هذا التشابه في الطباع، قد ساعد كثيرا على إذكاء وجدي نحوها!

وما سمعتها قط - في الخلوات التي كانت تمتاز باوثق مظاهر الود - تتحدث بسوء عن الغائبين بل ولا عن اخت زوجها!..

وما كانت تملك ان تخفي ما بفكرها عن اي مخلوق، ولا ان تكبح شيئا من مشاعرها، حتى إنني لأميل إلى الاعتقاد بانها كانت تتحدث عن عشيقها إلى زوجها بنفس الصراحة التي كانت تتحدث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء!.. وأخيرا، فإن الذي يثبت - دون مراء - نقاء وإخلاص فطرتها الرائعة هو: انها كانت تتعرض لاعجب نوبات شرود الذهن، ولاكثر نوبات السهو مدعاة للضحك، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة - بالنسبة لها هي بالذات - ولكنها لم تكن لتمس قط اي إنسان بما يجرح كرامته!

وكانت قد زفت - وهي بعد صغيرة، وبالرغم عنها - إلى الكونت "دوديتو" الذي كان ذا جاه، وكان عسكريا شهما ولكنه كان مقامرا، شرسا، يعوزه اللطف؛ فلم تحبه هي قط.. وإنما وجدت في السيد "**دي سان لامبير**" كل ما كان لدى زوجها من خصال طيبة، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملاءمة.. فمن ذكاء، إلى فضائل، إلى مواهب، ولو جاز للمرء أن يغفر شيئا من طباع ذلك العهد فإنما الجدير بالغفران حقا هي العلاقة التي لا تزداد مع الزمن إلا صفاء، ولا تزيدها آثارها إلا تكريما وتمجيدا، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين (١)!

وعلى قدر ما يخيل إليّ كانت قد صدرت في زيارتها لي عن قليل من ميلها الخاص، وكثير من الرغبة في إرضاء "**سان - لامبير**". فقد كان يستحثها على ذلك، وكان على صواب؛ إذ اعتقد ان الصداقة التي بدات تقوم بيننا كانت خليقة بان تجعل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا، وكانت تعلم انني مطلع على علاقتهما؛ ومن ثم فإن في استطاعتها ان تتحدث إليّ عنه دون حرج كانت كفيلة بان تجعلها ترتاح إلى صحبتي؛ ومن ثم جاءت.. واستقبلتها.. وكنت نشوان بحب غير ذي هدف منظور، فإذا النشوة تسحر عيني، وإذا الهدف يتركز عليها هي. فرأيت "**جولي**" - التي ابتدعتها - في السيدة "**دوديتو**".. ولم اعد - بعد قليل - ارى سوى السيدة **دوديتو** فقط، وقد اكتست بكل اسباب الكمال التي كنت أزين بها معبودة قلبي!.. ولكي تسكرني تماما، راحت تحدثني عن "**سان - لامبير**" في وجد مشبوب.. فبالسلطان الهوى المضيع!.. لقد استولت عليّ - إذ كنت اسمعها، وإذ كنت اشعر بالقرب منها - قشعريرة عذبة لم اعهدها قط في قرب اي شخص!..

---

(١) توفيت هذه السيدة وهي في الثالثة والسبعين من عمرها، وقد ظلت إلى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها، واحترام عواطفها وخيالها، وميلها إلى اللهو والمسرات الذهنية، وكانت ذات براعة في قرض الشعر، وقد قالت في قصيدة ودعت بها عشيقها "سان - لامبير"، قبل رحيله للخدمة العسكرية:

"الحبيب الذي اعبده.. وقد تاهب لفرقتي

بقيت له لحظة.. فاراد ان يستغلها".

"يالها من متعة باطلة.. يشتهي اقتناصها.

"وما اشد الضنى.. ليصبح المرء لذة!".

وراحت تتكلم، وانا نهب للانفعالات.. ووهمت انني لم اكن مهتما بغير مشاعرها، فإذا بي احس بمشاعر على شاكلتها.. ورحت أجرع - في دفعات كبيرة - الكاس المسمومة التي لم اعد اتذوق فيها سوى الحلاوة المذبة!.. وفي النهاية، بعثت في نفسي نحوها - دون ان افطن، ودون ان تفطن هي - كل ما عبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها. واحسرتاه!.. كان الوقت المناسب قد فات، وكان من القسوة أن احترق بوجد مشبوب - لم يكن في عنفه باقل منه في تعاسته وشقوته - نحو امراة كان قلبها مليئا بحب آخر!

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التي خامرتني في قربها فإنني لم افطن - في البداية - إلى ما اصابني.. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها، وعندما اردت ان افكر في "جولي" فإذا بي ابهت؛ إذ وجدت انني لم اعد اقوى على التفكير في غير السيدة "دوديتو"؛ وإذ ذاك انجابت الحجب عن عيني، واحسست بسوء حظي؛ فرحت ائن واتأوه.. ولكنني لم احدس ما كان هناك من نتائج!

ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التي انتهجها في تصرفي نحوها، وكأنما كان الحب الحقيقي قد خلف من العقل ما يكفي لكي اتخير لنفسي المسلك!.. ولم أكن قد انتهيت إلى قرار عندما جاءت مرة أخرى؛ ففاجاتني على غير استعداد.

وفي هذه المرة أيقنت من موقفي، فإذا الحياء - قرين السوء - يعقل لساني! فرحت أرتجف أمامها، دون ان أجرؤ على ان افتح فمي، أو ان ارفع عيني.. كنت في اضطراب لا سبيل إلى وصفه، حتى لقد كان من المستحيل الا تكون قد ابصرته، واعتزمت ان اصارحها، وان ادعها تحدس السبب.. فقد كنت بهذا كأنني ابوح لها بصراحة تامة!

ولو انني كنت شابا ومليحا، وكانت السيدة "دوديتو" قد ابدت ضعفا- من جراء هذا - لأقدمت هنا على لوم مسلكها.

ولكن شيئا من هذا لم يكن، ولم اكن املك سوى ان اطري مسلكها واعجب به!.. وكان الراي الذي اتخذته يجمع بين الكرم والحكمة. فما كان بوسعها ان تناى عني فجاة، دون ان تذكر السبب لـ"سان لامبير"، الذي اوصاها - بنفسه - بأن تزورني.. ومعنى هذا، تعريض صديقين للقطيعة، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة في تفاديها!. وكانت تكن لي كل تقدير، وكل خير. ولقد رثت لخبلي، وراحت تلتمس له المعاذير - في غير تملق ولا رياء - وحاولت أن تبرئني منه.. ولقد كان يسرها - كل السرور - أن تتمكن من الإبقاء - لنفسها ولحبيبها - على صديق كانت تقدره حق قدره، ولم تحدثني عن شيء بمثل الاغتباط الذي راحت تحدثني به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا، نحن الثلاثة، عندما أعود إلى رشدي.. على أنها لم تقتصر تماما على هذه المواساة الودية، ولم تعفني - عند الحاجة - من تأنيبات كانت اقسى مما كنت استحق!

*****

ولم اكن اقل منها قسوة في تأنيب نفسي!.. فما إن اصبحت وحيدا حتى عدت إلى نفسي، وإذا بي اكثر هدوءا، بعد أن بحت بما كنت اكتم.. فإن الحب إذا ما عرف لتلك التي اوحت به يغدو اكثر احتمالا!.. ولابد ان الشدة التي رحت الوم بها نفسي على الحب الذي استشعرته كانت كفيلة بان تبرئني منه، لو ان هذا كان ميسورا!.. اية حوافز قوية لم استنجد بها لخنق هذا الحب؟!.. إن قوانيني الخلقية، واحاسيسي، ومبادئي، وحيائي، وخيانة العهد، والإجرام، وإساءة استغلال الوديعة التي

اشمئزت عليها بحكم الصداقة، والسخرية التي كان يستوجبها تحرقي - في مثل هذه السن - بأشد الصبابات جموحا، نحو هدف لم يردعني انشغال قلبه، ولا سمح لي بأي رجاء.. صبابة كانت - فوق كل هذا - بعيدة عن ان تمتاز بما يكفل لها الدوام، بل إنها راحت تتجاوز حد الاحتمال يوما بعد يوم.. كل هذه الامور والاعتبارات فكرت فيها!

من ذا الذي يصدق ان الاعتبار الاخير الذي كان كفيلا بأن يرجح كفة الاعتبارات الاخرى، كان هو الذي اوهن قوتها جميعا؟!.. فلقد قلت لنفسي: "أية هواجس أحفل بها إزاء نزوة حمقاء، لا يتعذب بها سواي؟".. أفأنا مغازل شاب يحق للسيدة "دوديتو" ان تخشاني؟.. ألن يقال - على ضوء ما كانت توحيه إليَّ نزعات الغرور - ان تظرفي، ومسلكي، ومظهري قد اغويتها؟.. إذن، فاحبب ما شاء لك الهوى، يا "جان جاك" البائس.. احبب وانت مرتاح الضمير، ولا تخش ان يزعج زفراتك "سان - لامبير"!

ولقد اصبح من الواضح انني لم اكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتي، واستغلال الفرص حتى في صباي، وكان هذا المذهب في التفكير يتسق مع اتجاه ذهني؛ فكان يمتدح صبابتي ويزينها! مما سهل عليَّ الاستسلام لها في غير تحفظ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التي خلت - عن غرور، وليس عن تعقل - انني أوحيت بها!.. فياله من درس جليل للنفوس الشريفة، التي لا تهاجمها الرذيلة جهارا قط ولكنها تتحايل على مباغتتها، وهي تتوارى دائما وراء ستار من الزهد.. أو من الفضيلة غالبا!

كنت مذنبا دون ندم ولكنني سرعان ما اصبحت مذنبا دون حد.. واناشدكم ان تروا كيف سارت صبابتي في اعقاب طبيعتي، لتجرني في النهاية إلى الهاوية!.. لقد اتخذت هذه الصبابة - في البداية - مظهر التواضع؛ لكي تطمئنني.. ثم دفعت هذا التواضع إلى ان انقلب تحديا؛ لكي تحفزني!.. ومع ان السيدة "دوديتو" لم تكف عن تذكيري بواجبي، وعن محاولة ردي إلى حجاي.. ومع أنها لم ترض لحظة عن حماقتي إلا انها - ظلت عدا ذلك - تعاملني بأعظم قدر من اللطف، وراحت تبدي نحوي ارق مظاهر الود، وإني لاعترف بان هذا الود ما كان ليكفيني لو انني آمنت بانه كان صادقا، غير أنني الفيته اشد تحمسا من أن يكون صادقا؛ فمضيت قدما في الإيعاز إلى نفسي بأن الحب - الذي لم يعد منذ ذلك الحين ملائما لسني ولا لشكلي - قد حقرني في نظر السيدة "دوديتو"، وان هذه الشابة النزقة لم تكن تبغي سوى أن تتخذ مني ومن عواطفي - التي لم تكن تلائم سني - مادة للتسلية، وانها قد صارحت "سان - لامبير" بذلك، فإذا استنكاره لعدم وفائي يحمله على ان يرى فيَّ ما كانت تراه حبيبته، وإذا بينهما اتفاق للعبث بي والضحك مني!.. هذا الوهم الذي حملني - عندما كنت في السادسة والعشرين من عمري - على ان اتمادى مع السيدة "دي لارناج" - دون ان اكون على تعارف بها - لم يكن مما يغتفر في سن الخامسة والاربعين، ومع السيدة "دوديتو" لو انني تجاهلت انها وحبيبها كانا اكرم من ان ينغمسا في مثل هذه الملهاة القاسية!

وواصلت السيدة "دوديتو" اداء زيارات لي لم اكن لاتوانى عن ردها! فلقد كانت مثلي، تحب التريض على الاقدام؛ فكنا نقوم بنزهات طويلة في منطقة من الريف فاتنة، وبما أنني قنعت بان أحب، وبان أجرؤ على الإفضاء بحبي فقد كان خليقا بي ان اغتبط بانني في اهنأ وضع لو لم يفسد تهوري كل فتنة. ذلك أنها لم تفهم - في البداية - شيئا من النزق الذي كنت أتقبل به ملاطفاتها، ولكن قلبي العاجز دواما عن ان يتعلم كيف يخفي ما بداخله لم يدعها طويلا في جهل بما كان يساورني،

ولقد حاولت ان تحمل شكوكي ومخاوفي على محمل الدعابة ولكنها اخفقت في هذه المحاولة التي لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتدم؛ ومن ثم فإنها غيرت مسلكها، ومع أن رقتها الناعمة لم تتزعزع إلا انها راحت توجه إليّ من التأنيب ما كان يخترم قلبي.. واطلعتني – في مقابل مخاوفي الظالمة – على قلق رحت اعيبه.. وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بي فلم تجد من وسيلة – لكي تطمئنني – سوى عين الشيء الذي كنت انشده!.. ورحت الح!.. وكان الموضوع دقيقا، شائكا!..
ومن العجيب – بل لعله من المصادفات الفذة – ان تتمكن امرأة جرؤت على التمادي إلى حد المساومة من أن تخرج من المأزق بسلام.. فإنها لم تأب عليّ شيئا مما يستطيع ارق الود ان يكفله.. ولكنها لم تمنحني شيئا مما كان يحتمل أن يرديها في حمأة الخيانة!.. وقدر لي ان أرى– في ذلة وهوان – ان النيران التي كان أتفه صنيع من ناحيتها يؤججها في فؤادي لم تشعل في قلبها أضأل شرارة!

ولقد قلت – في مكان ما (١) –: إن على المرء الا يتيح للشهوات شيئا على الإطلاق إذا هو رغب في أن ينكر عليها بعض الأشياء!.. ولتبين مدى إخفاق هذا الرأي في قصتي مع السيدة "**دوديتو**"، ومدى حكمتها هي وسداد رأيها في الاعتماد على نفسها يجب ان اصف بإسهاب خلواتنا الطويلة، العديدة، وان ابين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التي قضيناها معا في ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البتة. آه!.. إذا كنت قد تأخرت طويلا قبل ان أشعر بالحب الحقيقي، فما أفدح الثمن الذي دفعه قلبي وحواسي!.. ويا للانفعالات التي لابد للمرء من ان يستشعرها بالقرب من شخص حبيب، يحبنا، إذا قدر للهوى الذي لا يلقى جزاء ان يوحي بنظير له!

ولكنني اخطىء إذ اقول "حبا بدون جزاء"؛ فإن حبي كان يحظى بمقابل إلى حد ما.. كان حبا متعادلا لدى الطرفين وإن لم يكن متبادلا بينهما.. كان كلانا نشوان بالهوى: هواها لحبيبها، وهواي لها!.. وكانت زفراتنا ودموعنا المشربة تختلط معا، وكانت نجوانا، واعترافاتنا، ومشاعرنا مترابطة أوثق ترابط حتى لقد كان من المستحيل الا تتحد عند أمر من الأمور!.. ومع ذلك فإن السيدة "**دوديتو**" لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة، في غمرة النشوة الخطرة.. أما أنا فاعترف – بل اقسم – إنني إذا كنت قد حاولت في بعض الأحيان، ان احملها على الخيانة، مدفوعا بمشاعري الشهوية إلا انني لم اكن اصدر في ذلك عن شهوة حقيقية قط!.. كان استعار وجدي يبقي هذا الوجد في نطاقه، من تلقاء ذاته!.. ذلك؛ لأن واجب إنكار الذات بهر روحي، كما أن رواء الفضائل جميعها زاد معبود قلبي بهاء في عيني، فكان في تدنيس طيفه القدسي قضاء مبرما عليه، ولقد كنت خليقا بان ارتكب هذا الجرم؛ إذ إنه ارتكب في فؤادي مائة مرة، ولكن.. كيف كنت أجرؤ على أن اهين حبيبتي "**صوفي**"؟!.. افكان هذا من المحتمل يوما؟!.. لا، لا! هكذا رحت أؤكد لها – في نفسي وفؤادي – مائة مرة.. ولو أنني ملكت يوما أن أرضي نفسي، ولو ان الحبيبة اسلمتني نفسها طواعية، وعن طيب خاطر لكان جديرا بي ان ارفض السعادة بهذا الثمن. لقد كنت أحبها حبا اقوى من ان أطمع في وصالها!

*****

إن المسافة بين "**ليرميتاج**" و"**أوبون**" تقرب من فرسخ، وقد قدر لي احيانا – في رحلاتي العديدة

---

(١) ورد هذا القول في الجزء الثالث من كتابه "هيلويز الجديدة" في سياق الرسالة الثامنة عشرة..

إلى "أوبون" - أن أقضي ليلي هناك، وفي إحدى الليالي - بعد أن تناولنا العشاء على انفراد - شرعنا في التريض في الحديقة، في غمرة ضوء كان ثمة حرش واسع النطاق، سمينا فيه إلى روضة جميلة يزينها مسقط مائي - كنت أنا صاحب الفكرة في إقامته - وكانت السيدة "دوديتو" هي التي تولت إنشاءه.. يا له من تذكار خالد للبراءة والغبطة!.. وفي هذه الروضة جلست وإياها على أريكة من الحشائش، تحت خميلة محملة بالزهور.. وبحثت - في سبيل التعبير عن مشاعر قلبي - عن لغة تليق بهذه المشاعر، وكانت هذه أول مرة - بل المرة الوحيدة في حياتي - التي سموت فيها عاليا بمشاعري إذا جاز إطلاق هذا الوصف على الفتنة الوادعة، المغرية، التي يوحي بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وأقواها. يا للدموع النشوى التي سكبتها على ركبتيها!.. ويا للدموع التي استدرتها إياها على الرغم منها!.. وأخيرا صاحت في انفعال لا إرادي: "لا!.. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط.. وأبدا لم يحب عاشق بهذا الوجد!.. ولكن صديقك "سان - لامبير" يسمع إلينا، وما كان لقلبي أن يحب مرتين!" .. ولم أخرج عن الصوت إلا بالزفرات، واحتضنتها.. وأي عناق!

ولكن هذا كان جل ما في الأمر!.. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة، أعني بمنأى عن عشيقها وعن زوجها.. وكنت قد ظللت - لثلاثة أشهر - أراها في كل يوم تقريبا، وكان الحب ثالثنا على الدوام!. ولقد تعيشنا على انفراد.. وكنا وحيدين في خميلة، تحت ضوء القمر الزاهي.. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث، غادرت - في منتصف الليل - هذه الخميلة، وأحضان صديقها(١).. وهي لم تمس بدنس، لاتزال طاهرة الجسد والقلب، كما أقبلت في البداية..

ألا تدبر كل هذه الظروف يا قارئي فلن أضيف مزيدا قط!

ومن ذا الذي لا يستطيع أن يتصور أن أحاسيسي تركتني دون إزعاج - في هذه المناسبة - كما اعتادت أن تفعل من قبل إزاء "تيريز" و"ماما". ولقد قلت من قبل إن ما خامرني في هذه المرة، هو الحب.. الحب في جماع قواه وفي عنفوان جيشانه!.. ولن أصف هياجي، ولا ارتجافي، ولا خفقان فؤادي، ولا اختلاجاتي المتشنجة، ولا ضعف القلب الذي كنت أستشعره باستمرار، فمن الميسور إدراكها من التأثر الذي كان طيفها وحده يحدثه في نفسي!

فقد ذكرت أن "ليرمتاج" كان بعيدا عن "أوبون"، وكنت أمر في طريقي بتلال "أنديللي" البديعة، وفيما كنت أسير إلى "أوبون" رحت أحلم بتلك التي كنت أسعى إلى زيارتها، وباللقاء الناعم، وبالقبلة التي تنتظرني عند وصولي. هذه القبلة الوحيدة، هذه القبلة الخطرة، ألهبت دمي - حتى قبل أن أتلقاها - بدرجة جعلتني أشعر بالدوار، وبأن ستارا قد هبط على بصري فأعماني.. واهتزت ركبتاي فلم تعودا تقويان على حملي.. ووجدتني مضطرا إلى التوقف عن السير، بل وإلى الجلوس.. فإن كل كياني اضطرب، دونما مبرر واضح.. وكدت أروح في إغماءة!.. وإذ فطنت إلى الخطر؛ رحت أحاول - حين عاودت السير ثانية - أن أشغل بالي بتفكير آخر.. على أنني لم أكد أقطع عشرين خطوة حتى عاودتني نفس الرؤى وما ترتب عليها في هجوم لم أجد في هدفي دونما ضرر لو لم أجاهد كي أطيقها!

ووصلت إلى "أوبون" واهن القوى، مرهقا، منهوكا، لا أكاد أستوي معتدل القامة، وما إن رأيتها - أي السيدة "دوديتو" - حتى ارتدت إليّ قواي، ولم أعد أشعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب، ولا نفع لها أبدا!.. وكان في طريقي، وعلى مشرف من "أوبون" طريق مرصوفة لا بأس بها يطلق عليها اسم "مونت أوليمب" اعتدنا أن نلتقي عندها أحيانا، وقد أقبل كل من ناحيته، وكنت

---

(١) يقصد نفسه طبعا.. ولا تزال الروضة، والخميلة، والمسقط المائي وقدار دائنها باقية في "أوبون"..

الأسبق إلى الوصول؛ فكان عليَّ أن انتظر ولكن ما أغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه!.. ولكي أشغل بالي؛ حاولت أن أكتب بقلمي الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب بأطهر ما لدي من دم.. وما قدر لي قط أن أتم واحدة تكون مقروءة، وعندما كانت هي تجد إحداها في الكوة التي اتفقنا على إيداع الرسائل فيها لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنية المتداعية التي كنت فيه عند كتابتها.. ولقد أدت هذه الحال - لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكبت - إلى إرهاقي، حتى إنني لم أبل منها لعدة سنوات، وانتهت بأن خلفت لي هبوطا سأحمله معي، أو يحملني معه إلى القبر، وكانت هذه هي الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذي أوتي أشد الأمزجة - التي أنجبتها الطبيعة - تأججا، وأعظمها تهيبا وخجلا، في آن واحد.. كما كانت هذه آخر الأيام الجميلة التي احتسبتها على الأرض.. فمنذ ذلك الحين بدأ نسيج محن حياتي ومصائبها... النسيج الطويل الذي سيرى أنه غير منقطع!

*****

ولقد تبدى - خلال مجرى حياتي بأسره - أن قلبي شفاف كالبلور، فلم يتعلم أن يكتم قط - لدقيقة واحدة - أية عاطفة على شيء من الاحتدام لاذت به؛ ومن ثم ففي الوسع إدراك المدى الذي كان في طاقتي أن أذهب إليه في كتمان حبي للسيدة "دوديتو".. كان ودنا جليا لكل عين، فلم نحطه بشيء من الكتمان ولا الغموض؛ إذ إن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك.. وكما كانت السيدة "دوديتو" تكن لي أرق ود - دون أن تجد أي حرج أو تثريب - فإنني كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سواي ليدرك - مدى عدالته وصحته؛ ومن ثم فإننا كنا في طمأنينتنا الغرور نتيح فرصا للنيل منا أكثر مما كنا نفعل لو أننا كنا مذنبين. هي بصراحتها، وتشتت بالها، وعدم اكتراثها بالتفكير. وأنا بصدق عاطفتي، وتهيبي وخجلي، وغروري، ونفاد صبري، وفوراتي العاطفية.. فكنا نذهب معا إلى "لاشيفريت"، أو نلتقي هناك على موعد - في كثير من الأحيان - أو دون موعد - في بعض الأحيان - وكنا نواصل هناك ما ألفنا من حياة، فنتمشى معا وحيدين يوميا - ونحن نتبادل الحديث عن هوانا، وواجباتنا، وصديقنا، وخططنا البريئة - في المتنزه المواجه لجناح السيدة "ديبيناي"، وتحت نوافذها التي كانت ترقبنا منها، وترانا بعيني قلبها بغل دافق من نبع الغضب للكرامة؛ إذ كانت تخال في ألفتنا إهمالا لها وازدراء بها!

ولقد أوتيت النساء براعة في إخفاء غضبهن، لا سيما إذا كان هذا الغضب عارما، قويا.. وقد أحرزت السيدة "ديبيناي" - التي كانت واسعة العقل والحيلة - برغم عنفها، قدرا كبيرا من هذه البراعة؛ لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب في شيء، وبينما أخذت تضاعف اهتمامها بي ورعايتها إياي - إلى حد المضايقة - راحت تحبر أخت زوجها بخشونة مسلكها، وجفاء معاملتها، وتعريضاتها المهينة التي بدا أنها كانت تحاول أن توحي بها إليَّ، وتبثها في نفسي أنا الآخر، ومن السهل إدراك أنها لم توفق ولكنني كنت حائرا معذبا. كنت نهبا لمشاعر متعارضة، ففي الوقت الذي كان فيه عطف السيدة "ديبيناي" ولطفها يؤثران في نفسي كنت أجد عناء في كبح سخطي؛ إذ أرى تضاؤل احترامها للسيدة "دوديتو"، ولقد استطاعت الأخيرة أن تحتمل ذلك دون تذمر - بل ودون ضغينة - بفضل ما أوتيته من طباع ملائكية. كما أنها كثيرا ما كانت شاردة البال، لا تكاد تحس ما حولها حتى إنها لم تكن تلاحظ ما كان يجري!

وكنت مستغرقا في وجدي حتى إنني لم اكن ابصر سوى "صوفي" - وقد كان هذا من اسماء "دوديتو" - فلم افطن إلى شيء، بل ولا إلى انني اصبحت حديث اهل القصر جميعا والزائرين!.. وقد كان البارون "دولباخ" - الذي لم يزر "لاشيفريت" من قبل على ما اعلم - بين هؤلاء الاخيرين.

ولو انني كنت من التريث بالدرجة التي صرت إليها فيما بعد لشككت كل الشك في ان السيدة "ديبيناي" دبرت عمدا هذه الزيارة؛ لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية مناظر المواطن العاشق!

على انني كنت من الغباء بحيث لم ار ما كان واضحا متالقا لكل مخلوق، ومع ذلك فإن غبائي كله لم يحل بيني وبين ان ارى ان "البارون" كان اكثر اغتباطا وانشراحا من عادته، وبدلا من ان يتجهم في وجهي اغرقني بسيل من الدعابات التي لم افقه منها شيئا، وحملقت إليه - دون ان اجيب - واضطرت السيدة "ديبيناي" إلى ان تمسك جنبيها لتحد من ضحكها، ولكني لم استطع ان ادري شيئا من حقيقة امرهما!.. ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود؛ لذلك فقد كان خير ما افعله - لو انني فهمت كنهه - هو ان ادلي فيه بدلوي ولكن الواقع هو انه كان من السهل ان يلمح المرء في عيني "البارون" - خلال مرحه الساخر - وميضا من طرب مغيظ، كان من المحتمل ان يثير قلقي لو انني انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد، حين استرجعته في ذهني.

وحدث ان ذهبت لزيارة السيدة "دوديتو" في "أوبون" - يوما - عقب عودتها من إحدى رحلاتها إلى "باريس"؛ فوجدتها واجمة، ولاحظت انها كانت تبكي قبل وصولي، واضطررت إلى ان اتمالك نفسي؛ إذ كانت السيدة "دوبلينفي" - "اخت زوجها" - حاضرة ولكنني ما كدت اخلو إليها لحظة حتى افضيت إليها بقلقي؛ فقالت وهي تتنهد: "آه!.. لشد ما اخشى ان تجردني نزواتك من كل طمانينة وراحة بال، طيلة ما تبقى من حياتي!.. لقد نقل إلى "سان - لامبير" امرنا، باسلوب محرف، وإنه لينصفني ولكنه مستاء.. والانكى من هذا انه لا يصارحني بكل شيء.. على انني - لحسن الحظ - لم اتكتم امر صداقتنا التي نشات تحت رعايته.. فقد كانت خطاباتي - كقلبي - مليئة به، ولم اخف عنه شيئا سوى حبك الارعن الذي كنت آمل ان ابرئك منه، والذي استطيع ان اتبين انه يراه جرما من ناحيتي، وإن لم يذكر لي ذلك. لقد اساء إلينا شخص ما، وظلمني، ولكن.. لا باس، وعلينا ان نفصم تعارفنا، او ليكن مسلكك كما ينبغي ويليق؛ فلست راغبة في ان اكتم شيئا - بعد الآن - عن حبيبي!".

وكانت هذه هي اول لحظة ادركت فيها عار رؤية نفسي مهينا؛ إذ فطنت إلى إساءتي إزاء شابة احسست بانها كانت محقة في لومها، وكان خليقا بي ان اكون راعيا لها وناصحا، وكان السخط الذي بعثه هذا في نفسي كفيلا بان يجعلني من القوة بحيث استطيع ان اغالب ضعفي، لولا ان الإشفاق الحنون - الذي اثارته في نفسي ضحية هذا الضعف - طغى على قلبي. فوااسفاه!.. افكانت هذه لحظة املك فيها ان ابث في قلبي صلابة، وهو زاخر بالدموع التي كانت تنساب إليه من كل ناحية؟!.. وما لبث هذا الحنان ان انقلب إلى غضب على وشاة السوء الذين لم يروا من شعور خاطىء، - ولكنه غير إرادي - سوى جانبه الآثم.. دون ان يعتقدوا - بل دون ان يحدسوا - ما كان لهذا القلب الذي نبض به من إخلاص شريف!



ولم نبق طويلا في ريب من اليد التي وجهت هذه الصفعة! كنا نعرف- معا - ان السيدة "ديبيناي" كانت تكاتب "سان - لامبير". ولم تكن هذه هي العاصفة الأولى التي اثارتها ضد السيدة "دوديتو" فلقد بذلت محاولات لا عداد لها، لتنتزع "سان - لامبير" منها، وكان ما احرزته بعض هذه المحاولات - في الماضي - يحمل السيدة "دوديتو" على ان ترتجف فرقا مما يخبئه لها المستقبل!.. وإلى جانب ذلك، كان "جريم" - الذي اعتقد انه تبع السيد "دي كاستري" في رحيله مع الجيش - في "ويستفاليا"، وكذلك كان "سان - لامبير" وكانا يتزاوران احيانا!.. وكان "جريم" قد حاول التقرب إلى السيدة "دوديتو" ولكن محاولاته اخفقت، وقد اغضبه هذا إلى الدرجة التي جعلته يكف عن زيارتها؛ ومن هنا يمكن للمرء ان يتصور - على ضوء ما اشتهر به من اتضاع - مدى "برود الدم" الذي تلقى به ما زعم من ان السيدة "دوديتو" آثرت عليه رجلا يكبره سنا، لا سيما وانه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل - من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية - إلا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه"!

وغدت وساوسي من ناحية السيدة "ديبيناي" امورا مؤكدة عندما سمعت ما حدث في بيتي. فقد اعتادت "تيريز" ان تتردد على "لاشيفريت" - في الفترات التي كنت اقضيها هناك - لتحمل لي خطاباتي، أو لتؤدي لي بعض اشياء كانت صحتي المعتلة تتطلبها، ولقد حدث ان سالتها السيدة "ديبيناي" عم إذا كانت السيدة "دوديتو" تكاتبني فلما انباتها باننا نتبادل الرسائل راحت تلح عليها لتسلمها رسائل السيدة "دوديتو"، مؤكدة لها أنها ستحكم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا تنم عن انها فضت!.. ولقد عمدت "تيريز" - دون ان تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب، ودون ان تنبئني به - إلى اتخاذ اقصى اسباب الحيطة؛ لتخفي ما كانت تحمله إليَّ من رسائل.. وكان إجراء حكيما؛ إذ إن السيدة "ديبيناي" قد اقامت عليها رقابة كلما جاءت، وكانت تتربص بها حتى تمر بها، وقد ذهبت في جراتها إلى حد تفتيش مريلتها!

بل إنها فعلت ما هو اكثر من هذا: فقد دعت نفسها والسيد "دي مارجنسي" يوما إلى الغداء في "ليرميتاج"، وكانت هذه اول مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته، واستغلت اللحظة التي كنت اتمشى فيها مع "مارجنسي" فذهبت مع الأم والابنة إلى غرفة مكتبي، وسالتهما ان تطلعاها على رسائل السيدة "دوديتو"، ولو ان الام كانت تعرف مكان هذه الرسائل لكان من المحقق أن تسلمها إليها ولكن الابنة وحدها - لحسن الحظ - هي التي كانت تعرف المكان، وقد زعمت انني لا احتفظ بشيء منها!.. وكانت في هذا كاذبة، دون نزاع.. ولكنه اشرف، واخلص، واكرم خداع!.. وإذ رات السيدة "ديبيناي" انها لن تستطيع ان تغريها راحت تحاول ان تستنهض غيرتها بان اخذت تلومها على طيبة قلبها، وعدم بصيرتها، ومضت تقول لها: "كيف تغفلين عن تبين ان علاقتهما آثمة؟.. إذا كنت - برغم كل الذي تستطيعين أن تبصريه بعينيك - لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الادلة فعاوني فيما كان يجب ان تفعليه انت للحصول على ذلك.. إنك تقولين إنه يمزق رسائل السيدة "دوديتو" بمجرد ان يطلع عليها، حسنا!.. إذن فاجمعي القصاصات بعناية، واسلمينيها، وسوف الصقها بعضها إلى بعض!".

هكذا كانت الدروس التي لقنتها صديقتي لرفيقتي!



ولقد كانت "تيريز" من الحكمة بحيث إنها لم تذكر لي شيئا عن هذه المحاولات زمنا طويلا ولكنها حين رات ورطتي – في النهاية – شعرت أن من واجبها أن تفضي إليَّ بكل شيء! حتى أصبح على بصيرة باولئك الذين كان عليَّ ان انازلهم، فاتخذ من الخطوات ما يكفل حمايتي من الغدر الذي كان مدبرا لي!

وكان سخطي وغضبي يفوقان كل وصف. بدلا من ان اخفي ما بنفسي عن السيدة "ديبنياي" – كما كانت هي تفعل معي – واقابل دسائسها بمثلها فإنني انسقت للتهور، دون ان اكبح نفسي، واقدمت – بتسرعي المعهود – على القطيعة علانية، ومن الممكن قياس اندفاعي وعدم فطنتي بالرسائل التالية التي تبين بوضوح كاف كيف تصرف كل منا في هذه المناسبة:

رسالة من السيدة "ديبيناي" (الملف ١ - رقم ٤٤)

"ما السبب في انني لا اراك، يا صديقي العزيز؟.. إنني قلقة بصددك. لقد وعدتني مخلصا بأن تعكف على المجيء والذهاب، بين هنا و"ليرميتاج"؛ وعلى هذا فقد تركتك تفعل ما يحلو لك. ولكن، لا.. لقد تركت اسبوعا ينقضي دون ان تبر بوعدك، ولولا انني نبئت بانك بخير لظننتك مريضا!

"لقد ارتقبتك بالأمس، أو في اليوم السابق عليه ولكني لم ار لك أثرا. فيالله!.. ما شأنك، وماذا جرى لك؟.. ليس ثمة ما يشغلك، وليس ثمة ما يزعجك. فإنني اطمئن نفسي إلى انك ما كنت لتتوانى عن المجيء لتفضي إليَّ بما يهمك لو كان الأمر كذلك!.. إذن، فلابد انك مريض!.. إنني أرجوك أن تسري عني قلقي فورا!.. وداعا ياصديقي العزيز، ولعل هذه الـ"وداعا"، تواتيني بـ"صباح الخير" منك!".

الرد

"صباح الأربعاء

"ليس بوسعي ان اقول لك شيئا، بل إنني اتريث ريثما استكمل معلوماتي، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا، أو آجلا، وإلى أن يتم ذلك ثقي من ان البراءة المتهمة، ستلقى مدافعا اوتي من الحماس ما يكفي لان يتيح للواشين – أيا كانوا – ما يدعوهم للندم والحسرة!".

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ – رقم ٤٥).

"اتعرف ان خطابك يثير ذعري؟.. ما الذي يرمي إليه؟.. لقد اعدت قراءته خمسا وعشرين مرة، والحق انني لم افقه منه شيئا. كل ما اراه هو انك قلق معذب، وانك تنتظر إلى ان يزول عنك ذلك، قبل ان تكلمني في الأمر. افهذا ما تعاهدنا عليه ياصديقي العزيز؟.. فما الذي جرى – إذن – لهذه الصداقة، ولهذه الثقة؟ وكيف تراني فقدتها؟ هل غضبتك ضدي، أو هي من اجلي؟.. مهما يكن الأمر، فإني أناشدك أن تاتي الليلة، وتذكر انك وعدتني – ولم تنقض بعد ثمانية ايام – بالا تكتم في قلبك شيئا، وبان تفاتحني في التو. إنني اتشبث بهذه الثقة، ياصديقي العزيز...

"مهلا! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى فلم أكن افضل حظا في فهمه من ذي قبل، ولكنه يجعلني ارتجف. لكم يبدو لي أنك مهتاج بدرجة قاسية، فارجو ان تهدأ. اما وانا اجهل موضوع همومك، فإنني لا ادري ماذا اقول، اللهم إلا انني ساظل اضارعك شقاء، إلى ان يقدر لي ان اراك!..

فإذا لم تكن هنا في الساعة السادسة من هذا المساء فسانطلق غدا إلى "ليرميتاج"، مهما تكن حال الطقس، ومهما تكن حالي انا؛ إذ إنني لن استطيع مضيا في تحمل هذا القلق!

"فعم صباحا، ياصديقي العزيز الطيب.. وكيفما يكن الامر، فإنني اجازف بان ادعوك - دون ان ادري ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصح او إنك لست بحاجة - إلى ان تحاول الحيطة وإيقاف التقدم الذي يحرزه الانزعاج والقلق، في العزلة. فإن الذبابة لا تلبث ان تصبح وحشا هائلا.. وقد جربت هذا، كثيرا!".

الرد

"مساء هذا الاربعاء

"ليس بوسعي ان ازورك، ولا ان اتقبل زيارتك، طالما ظل القلق الذي استشعره. إن الثقة التي تتكلمين عنها لم تعد قائمة، ولن يسهل عليك ان تستردبها!.. إنني لا ارى تلهفك الراهن، سوى الرغبة في ان تستخلصي من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك ولكن قلبي - الذي يبادر إلى الارتماء في احضان اي قلب ينفتح له - يغلق ابوابه في وجه المكر والحيلة. إنني اعرف ما وراء الصعوبة التي تلقينها في تفهم رسالتي. افتعتقدينني من الغفلة بحيث اظن انك لم تفهميها؟ لا ولكنني ساعرف كيف اقهر دهاءك بالصراحة!.. وسافصح عن نفسي بمزيد من الجلاء؛ لكي يتسنى لك ان تصبحي اكثر فهما لي.

"هناك عاشقان وثيقا الترابط، واهل لان يتحابا، يحتلان من نفسي مكانة عزيزة، واحسبك لن تدركي من اعني إلا إذا ذكرت لك اسميهما، وارى ان هناك من حاول التفرقة بينهما وانني الشخص الذي استخدم لإثارة غيرة احدهما، ولم يكن الاختيار جد بارع بيد انه لاح ملائما للغرض الخبيث.. وانت التي ارتاب في انها مدبرة هذا الخبث، وارجو ان يزداد هذا اتضاحا!

"وهكذا - على ما عرف - تتعرض المراة - التي اجلها فوق كل من عداها - لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين، كما اتعرض انا لعار ان اكون احد هذين الشخصين الضعيفي النفس!.. لو انني عرفت انك كنت تقدمين على مثل هذا الظن بها وبي - للحظة واحدة من العمر - لابغضتك حتى الموت. ولكني لا اتهمك إلا بانك قلت، وليس بانك ظننت وفكرت!.. ولست افهم - في مثل هذه الحال - من من الثلاثة كنت تشتهين إيذاءه. ولكنك خليقة - إذا كنت تحبين طمانينة النفس - بان تخشي النحس الذي يجلبه عليك النجاح!..

إنني لم اكتم عنك - ولا عنها - وكل ما اراه من سوء في بعض روابط معينة، ولكني ارجو ان تنتهي هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التي تالفت منها في الاصل، وان ينقلب حب غير مشروع، إلى صداقة ابدية، افانا الذي لم اوقع يوما بمخلوق اذى استخدم كوسيلة بريئة لإيذاء اصدقائي؟.. لا، لن اصفح عنك ابدا. بل إنني لخليق بأن اصبح عدوك الذي لا سبيل إلى استرضائه،

ولن احترم في ذلك سوى اسرارك وحدك؛ لانني لن اكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء!

"إنني لا اتصور ان تدوم الحيرة - التي اعانيها - طويلا، ولن البث ان اتبين ما إذا كنت مخطئا؛ وإذ ذاك فقد يكون من واجبي ان اصلح غلطة كبرى، ولن يكون في حياتي ما اقدم عليه بطيب خاطر يفوق ما سافعل به ذلك!.. ولكن، اتعرفين كيف ساكفر عن اخطائي في الفترة القصيرة التي ساظل اقضيها على مقربة منك؟.. لسوف يكون ذلك بان افعل ما لا قبل لغيري بفعله.. بان اقول لك بصراحة ما يراه الناس فيك، وبان اطلعك على الثغرات التي يحتم عليك رتقها في نسيج سمعتك، وبالرغم من كل من يحيطون بك من مدعي الصداقة فإنك عندما ترينني ارحل ستودعين الصدق؛ إذ إنك لن تجدي بعدي من يقوله لك".

الرسالة الثالثة من السيدة "ديبيناي" (الملف ١ رقم ٢٦)

"لم افهم رسالتك التي تلقيتها في هذا الصباح، ولست اقول هذا إلا انه كذلك، وإني لانتظر رسالة هذا المساء، فلا تخش الا اجيب عنها قط، وإنما انا جد تواقة إلى ان انساها، ومع انك تثير إشفاقي إلا انني لا املك دفعا للمرارة التي ملات بها نفسي. ان استخدم المكر والدهاء معك؟!.. اانا اتهم باسود الشناعات؟!

"وداعا، وإني لاندم على انك كنت هنا.. وداعا، فلست ادري ماذا اقول.. وداعا، ولن اتوق إلا إلى ان اصفح عنك. ولك ان تاتي عندما يحلو لك، وسوف تستقبل بافضل ما لا تؤهلك له شكوكك، وليس عليك سوى ان تريح نفسك من عناء الانشغال بسمعتي، فليس في الامر ما يهمني. إن مسلكي طيب، وهذا يكفيني..

"عدا هذا فإنني اجهل تماما ما جرى للشخصين اللذين يحتلان من نفسي انا الاخرى، المكانة العزيزة التي يحتلانها من نفسك (١).

*****

ولقد خلصتني هذه الرسالة الاخيرة من حيرة اليمة، ولكنها القت بي إلى اخرى لم تكن تقل عنها، ومع ان هذه الرسائل وردودها تبودلت بسرعة بالغة في بحر يوم واحد، إلا ان هذه الفترة كانت كافية؛ لكي اقطع استرسال نوبات غضبي، ولكي افكر في ضخامة اندفاعي غير الحكيم، ولم تكن السيدة "دودويتو" قد اوصتني بشيء قدر ما اوصتني بان التزم الهدوء، وان اترك لها عبء تخليص نفسها بنفسها من هذه المسالة، وبان اتفادى كل قطيعة وكل ضجة، لا سيما في تلك الفترة بالذات، ومع ذلك فهانذا اذكيت - بإهاناتي البالغة الصراحة والمقذعة الفظاعة - نار السخط في قلب امراة لم تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك، وما كان لي - بطبيعة الحال - ان انتظر من ناحيتها سوى رد بالغ الكبرياء، والازدراء، والإهانة، إلى درجة لا املك معها - إلا باقصى ذلة مهينة - ان احجم عن مغادرة بيتها في الحال. على ان دهاءها كان - لحسن الحظ - يفوق غضبي؛ فتفادت بلهجة جوابها ان تسف في تحقيري إلى هذا الحد. غير انه لم يكن ثمة بد من ان اغادر البيت، او ان اذهب لزيارتها على

---

(١) في النص الذي ورد في "مذكرات مدام "ديبيناي" ذكرت للمرة الاخيرة، على النسق التالي: "انني احلك - متى شئت - مما ذكرت بشان اسراري، حتى لا اجشمك عناء صيانتها، فإنك لتعرف - اكثر من اي شخص آخر - ان ليس لدي إلا كل ما يشرفني الإفضاء به". وقد ارسلت نسخة من هذا النص إلى "جريم".

الفور.. لم يكن ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين! وقد استقر رأيي على الأخير منهما، وأنا في حيرة شديدة من المسلك الذي كان ينبغي أن أنتهجه في الإيضاح الذي توقعت أن أطالب به. فكيف كان بوسعي أن أخلص نفسي بدون أن أقحم السيدة "دوديتو" أو "ليريز"؟.. إذ ويل لتلك التي ساضطر إلى أن أفضي باسمها!.. ما من شيء في انتقام امرأة حقود، بارعة في المكائد إلا أثار مخاوفي على تلك التي قد تقع النقمة على رأسها، وما قصرت رسائلي على مجرد "شكوك" إلا لتفادي هذه النقمة، إذ إنني بذلك تلافيت أن أضطر إلى تقديم أدلة، ومن الصحيح أن هذا جعل فوراتي أبعد من أن تغتفر! إذ ما كان أي شك مجرد ليبيح لي أن أعامل امرأة صديقة، كما عاملت السيدة "ديبيناي".
ولكن.. هنا بالذات، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة، التي حققتها بجدارة؛ إذ كفرت عن أخطائي ومواطن ضعفي المستترة بأن تحملت ذنوبا أشد وأقسى، لم أكن مرتكبها، ولا كنت يوما جديرا بوزرها.

على أنني لم أضطر إلى تحمل الهجوم الذي كنت أخشاه بل كان كل نصيبي منه هو الخوف الذي راودني. فما إن اقتربت من السيدة "ديبيناي" حتى ألقت بذراعيها حول عنقي، وانفجرت باكية، ومس قلبي هذا الاستقبال غير المرتقب، من صديقة قديمة؛ فتأثرت كل التأثر، وبكيت كثيرا أنا الآخر!..

وقلت لها بضع كلمات، لم يكن لها من معنى.. وقالت لي بضع كلمات مثلها، كانت أبعد من أن تكون ذات معنى.. وكان هذا غاية الأمر! ثم أعدت المائدة، فجلسنا إليها معا. وهناك، وفي انتظار أن أدعى للإيضاح - الذي ظننت أنه لم يرجأ إلا ريثما نفرغ من العشاء - كنت في أسوأ حال؛ إذ إنني أنصاع دائما لأقل اضطراب يتملكني، حتى إنني لأعجز عن أن أخفيه عن أقل الناس ملاحظة وفطنة، ولقد كان ارتباكي كفيلا بأن يلهمها الشجاعة بيد أنها لم تجرؤ على الإقدام؛ ومن ثم لم يكن هناك إيضاح بعد العشاء يفوق ما كان قبله!.. لا ولا كان ثمة في غد.. بل إن خلواتنا الصامتة، لم تملأ إلا بأمور غير ذات بال، أو ببضع محاولات مؤدبة من جانبي، حاولت بها أن أشرح موقفي، وأن أوعز بأنني لم أكن أملك أن أقول شيئا عن الأساس الذي قامت عليه شكوكي، وأن أؤكد - بكل إخلاص وصدق - أن حياتي بأسرها ستنفق في إصلاح ما كان في هذه الشكوك من غبن، لو أنني تثبت من أنها لم تقم على أساس ما!

ولم تبد السيدة "ديبيناي" أقل فضولا إلى معرفة كنه هذه الشكوك تماما، ولا كيف واتتني. بل اقتصر الصلح بيننا - سواء من ناحيتها أو من ناحيتي - على العناق الذي ضمنا حين التقينا، ولما كانت هي الوحيدة التي مستها الإساءة - من الناحية الشكلية على الأقل - فقد لاح أن لا داعي يدعوني إلى أن أسعى إلى إيضاح لم تكن تنشده هي نفسها؛ ومن ثم عدت إلى بيتي كما بارحته!..
عدا ذلك، ظلت علاقتي بها على ما كانت عليه من قبل، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانا شبه تام، واعتقدت - في غباء - أنها قد نسيته هي الأخرى؛ لأنها لم تعد تبدي ما يدل على أنها ظلت تتذكره!

*****

ولم يكن هذا - كما سيبدو سراعا - هو الكرب الوحيد الذي جره عليّ ضعفي، ولكنني تعرضت لكروب غيره لم تكن أقل إزعاجا، ولكنني لم أكن مجتلبها حقا، وما كان لها من داع سوى الرغبة في

انتزاعي من عزلتي (١)، ولقد واتتني هذه المضايقات من "ديدرو" وعصبة "دولباخ". فإن "ديدرو" لم يكف يوما - منذ استقراري في "ليرميتاج" - عن التحرش بي، سواء بنفسه، أو عن طريق "ديليير"، وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزهاتي في الغابة، مدى الغبطة التي خلعوا بها عليّ الناسك ثوب الراعي العاشق ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التي آخذت بها "ديدرو" بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم!

ذلك أنه عقب نشر "ابن السفاح"، أرسل لي نسخة من الكتاب قرأتها بالاهتمام والشوق اللذين يوليهما المرء عادة مؤلفا من إنتاج صديق له، وإذ طالعت الحوار الشعري الذي ألحق به دهشت، بل وحزنت؛ إذ وجدت فيه - إلى جانب عدة تلميحات كريمة، ولكنها تحتمل، وقد وجهها ضد أولئك الذين يعيشون في عزلة - هذه العبارة الخشنة، المريرة، التي لم يكن لها مجال في السياق: "لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث"!

وهذه العبارة مبهمة، وتحتمل تأويلين، كما يبدو لي. أحدهما صادق كل الصدق، والآخر زائف كل الزيف؛ إذ إن من المستحيل على إنسان يعيش - ويرغب في أن يعيش - في عزلة أن يبغي إيذاء أحد؛ وبالتالي فمن المستحيل أن يكون خبيثا. ومن ثم فقد كانت العبارة - في حد ذاتها - تتطلب إيضاحا.. وهي أكثر تطلبا له، لصدورها من مؤلف كان له - عندما طبعت هذه العبارة - صديق يلوذ بالعزلة، وبدا لي أنه من المستنكر، ومن المجافاة للأمانة أن يكون "ديدرو" قد نسي - عند نشرها - هذا الصديق المعتكف.. أو - إذا كان قد تذكره - ألا يكون قد أردف - في تعميمه الرأي، على الأقل - ما كان ينبغي عليه من استثناء كريم وعادل، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب، وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوي المكانة، الذين كانوا ينشدون في العزلة - في جميع الأزمان - الهدوء والسلام، والذين سمح مؤلف لنفسه - لأول مرة منذ خلق الدنيا - بأن يجعل منهم - على كثرتهم - أشرارا بلا استثناء، وبجرة قلم!

كنت أحب "ديدرو" من قلبي، وكنت أقدره صادقا، وكنت مطمئنا تمامَ الطمأنينة إلى عين العواطف من ناحيته. ولكني ضقت بعناده - الذي لم يكن يلين - في معارضتي في أذواقي، وميولي، وأسلوب معيشتي وفي كل ما كان يعنيني وحدي، بوجه خاص.. وأثارني مرأى رجل يصغرني ويسعى بكل حيلة إلى أن يسيطر عليّ كما لو كنت طفلا.. ونفرني منه سهولة إزجائه الوعود، وإهماله الوفاء بها.. وغاظني منه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكي ينكث بها مرة أخرى.. ومللت انتظاره عبثا ثلاث أو أربع مرات في الشهر في أيام كان يحددها هو، لكي أنتهي إلى تناول العشاء وحيدا في المساء، بعد أن أكون قد سرت إلى "سان دنيس" عسى أن ألتقي به في الطريق، وبعد أن أكون قد ارتقبته طوال النهار.. كان قلبي متخما بمثل هذه العيوب المتراكمة، وكان العيب الأخير منها يبدو لي أشدها، كما أنه كان أكثرها جرحا لكرامتي، ولقد كتبت إليه شاكيا ولكن.. في حنان ولطف جعلاني أغرق ورقتي بالدموع، وكان خطابي مؤثرا إلى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه. ولكن أحدا ما كان ليحدس رده على ذلك الخطاب.. وها هو بنصه (الملف ١ - رقم ٣٣):

"إنني لجد مغتبط؛ لأن كتابي راق لك.. إنك لا تقرني على رأيي بشأن النساك المعتزلين، فحدث عنهم ولا حرج، ما شاء لك الحديث، فلسوف تظل الوحيد في العالم، الذي أفكر فيه في هذا المجال..

---

(١) أردف "روسو" معقبا بقوله: "وأعني بذلك، الرغبة في انتزاع المرأة العجوز من هذه العزلة، إذ كانت لحاجة ماسة إليها في تدبير المؤامرة. ومن المدهش أن تقضي الحمقاء في القصر، قلت - إبان هذه العاصفة الطويلة الأجل - تحول بيني وبين أن أفهم أنها هي - وليست أنا - التي كانت مرتحلة العودة إلى باريس".. ويقصد بالمرأة العجوز هنا، السيدة "لوفاسير"، أم "تيريز".

ومع ذلك فلا يزال لدي الكثير مما استطيع ان اقوله بهذا الصدد، لو كان في الوسع الكلام دون إغضابك.

إن امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ. لقد انباني بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة "ديبناي"، ولابد انه آلمك كثيرا، وإلا فإنني لم الم كل الإلمام بدخيلة نفسك".

ولابد لي من ان اوضح العبارتين الاخيرتين من هذا الخطاب: ففي بداية مكثي في "ليرميتاج" لم تبد السيدة "لوفاسير" ارتياحا، ووجدت ان المكان كان منعزلا اكثر مما ينبغي، وقد رددت ملاحظاتها في هذا الصدد على مسمعي، فعرضت ان اردها إلى "باريس"، إذا كانت تفضل ذلك، وان ادفع لها اجر سكناها هناك، وان اعنى بحاجاتها كما انها كانت ماضية في الإقامة معي.. بيد انها رفضت اقتراحي، واعلنت انها جد راضية عن "ليرميتاج"، وان جو الريف كان مفيدا لها، وقد تبدى ان هذا كان صحيحا؛ إذ إنها ارتدت إلى الشباب، كما ينبغي ان يقال، واصبحت افضل حالا مما كانت في "باريس". بل إن ابنتها اكدت لي انها كانت – في قرارة نفسها – مستاءة لمبارحتنا "ليرميتاج"، الذي كان مقاما فاتنا حقا، وانها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه الحديقة وفواكهها، وانها إنما قالت ما قالت بإيعاز من الغير؛ لتحاول إغرائي على العودة إلى "باريس"!

وإذ اخفقت تلك المحاولة، سعوا إلى ان يحصلوا بإثارة الريب على ما لم تؤد إليه المجاملة، فراحوا يعلنون ان من الجرم ان استبقي العجوز هناك بعيدا عن الخدمات التي قد تحتاج إليها في مثل سنها، دون ان يفطنوا إلى انها وكثيراً من المكتهلين، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتها – كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات في "مونمورنسي"، التي كانت جد قريبة من مسكني.. وكأنما لم يكن ثمة كهول إلا في "باريس"، ولم يكن في وسع الطاعنين في السن ان يعيشوا في اي مكان آخر.. ولقد كانت السيدة "لوفاسير" – التي كانت اكولا، عظيمة النهم – عرضة لالتهابات المرارة، ولنوبات قاسية من الإسهال، كانت تلازمها اياما، ولا تلبث ان تشفى من تلقاء ذاتها، ولم تكن العجوز تتناول شيئا حين كانت في "باريس" – وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها. وكذلك كانت تفعل في "ليرميتاج"؛ إذ ادركت انها لا تملك سبيلا خيرا من هذه!

ولكن الراغبين في إثارة المتاعب، لم يعبئوا بهذا، فما دام لم يكن ثمة اطباء ولا صيادلية في الريف فإن استبقاء العجوز هناك، كان يعني الرغبة في موتها. برغم انها كانت هناك في صحة طيبة!.. وكان خليقا بـ"ديدرو" ان يحدد السن التي لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدا عن "باريس"، والتي يكون استبقاؤهم بعدها قتلا مع الإصرار!.. ولقد كان هذا احد الذنبين الشنيعين اللذين لم يشأ من اجلهما ان يستثنيني من رأيه!.. "لا يلزم العزلة سوى اهل الخبث"!

وكان هذا نفسير تعجبه المؤثر، والـ"إلى آخره" التي تكرم بإضافتها، حين قال: "ان امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ!

*****

وخطر لي انني لن اجد ردا على هذا اللوم افضل من ان ارجع إلى السيدة "لوفاسير" نفسها. فسألتها ان تكتب إلى السيدة "ديبناي" معبرة عن شعورها الطبيعي إزاء الأمر؛ ولكي اتركها تسترسل على سجيتها، لم اسألها ان تطلعني على خطابها.. بل إنني اطلعتها على الخطاب التالي،

الذي كنت قد كتبته إلى السيدة "**ديبيناي**"، بشأن رد - كنت قد اعتزمت ان اجيب به عن خطاب اعنف من السابق، ورد من "**ديدرو**" - ولكنها منعتني من إرسال هذا الرد.

"يوم الخميس

"إن السيدة "**لوفاسير**" تعتزم ان تكتب إليك، ابنها الصديقة الطيبة.. فلقد رجوتها ان تروي لك بصراحة ما يدور بخلدها؛ ولكي تكون على سجيتها تماما، فقد اخبرتها بانني لا اريد ان ارى خطابها، كما انني اناشدك الا تذكري لي شيئا عن محتوياته.

"إنني لم ارسل خطابي (١) ما دمت تعارضين في ذلك، ولكن شعوري بانني طعنت طعنة بالغة، يجعل من الصغار، بل ومن الغش الذي لا اسمح به لنفسي انني ارضى بان اكون مخطئا.. ولا مراء في ان "**الإنجيل**" يدعو المرء الذي يصفع على أحد خديه، ان يدير الخد الآخر، ولكنه لا يدعوه إلى ان يطلب الصفح. افتذكرين ذلك الرجل الذي يهتف - في المسرحية الفكهة - وهو ينهال بعصاه ضربا:

"ها هو ذا دور الفيلسوف"؟!

"لا تخدعي نفسك إذ ترين ان بوسعك ان تمنعيه من المجيء متعللة بسوء الطقس هنا، في الآونة الحاضرة.. فإن حنقه سيهبه ما تاباه عليه الصداقة من وقت وقوة.. وستكون هذه هي اول مرة في حياته، يفد فيها في ذات اليوم الذي يضربه موعدا! ولسوف يبذل قصارى جهده، لكي يأتي فيردد بلسانه ما كاله لي في خطاباته من إهانات، ولسوف احتملها بالغ الصبر، ولسوف يعود إلى "**باريس**"، وهو مريض؛ ومن ثم اغدو انا - كالمعتاد - شخصا بغيضا كل البغض. فماذا افعل؟.. لا مفر من الاحتمال!

"ولكن.. السـت تعجبين بحكمة شخص رغب في ان يجيء فيصحبني إلى "**سان دنيس**" في مركبة؛ لنتناول الغداء هناك، ثم يقلني - في العودة - في مركبة.. ثم لا تلبث ثروته ان تعجز - بعد ثمانية ايام - (الملف ا - الرسالة رقم ٣٤) - عن ان تمكنه من ان يفد على "**ليرميتاج**" إلا سائرا على قدميه؟.. ليس من المستحيل في شيء - إذا تكلمنا باسلوبه - ان تكون هذه هي سمة الإخلاص وحسن النية، ولكن لابد له - في هذه الحال - من ان يطرا على موارده تغير خارجي خلال ثمانية ايام!

"إنني اشاطرك اساك من اجل مرض السيدة والدتك، ولكنك ترين ان آلامك تعادل آلامي. فإن رؤية الأشخاص الذين نحبهم مرضى، اقل إيلاما للنفس من الغبن والقسوة.

"فوداعا ياصديقتي الطيبة، وستكون هذه آخر مرة اتحدث فيها إليك عن هذه المسالة التعسة.. إنك تحدثينني عن الذهاب إلى "**باريس**" في هدوء اعصاب كفيل بان يطربني، لو انه حدث في ظروف اخرى!".

وانبات "**ديدرو**" بما فعلت مع السيدة "**لوفاسير**"، نزولا عند راي السيدة "**ديبيناي**" نفسها، وقد اختارت السيدة "**لوفاسير**" البقاء في "**ليرميتاج**" - وهو ما كان في وسع أي امرىء ان يحدسه - لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيه، حيث كانت تجد دائما انيسا، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها؛ ومن ثم فإن "**ديدرو**" لم يعد يدري باي ذنب يتهمني، فجعل من هذا الاحتياط الذي اتخذته (٢) ذنبا، كما اتخذ من استمرار بقاء السيدة "**لوفاسير**" في "**ليرميتاج**" ذنبا آخر، بالرغم من ان هذا البقاء كان بمحض اختيارها وقد ظلت حرة في ان تعود إلى "**باريس**" لتقيم متمتعة بنفس ما كانت تتمتع به في بيتي من مساعدة.

---

(١) يقصد الرد على الخطاب القاسي الذي تلقاه من "ديدرو". (٢) الاحتياط الذي تمثل في انه ترك مدام "لوفاسير" تكتب ما تشاء، دون ان يطلع على خطابها.

هذا هو بيان اللوم الأول، الذي ورد في رسالة "ديدرو" رقم ٣ . أما إيضاح اللوم الثاني، ففي سياق خطابه رقم ٣٤ :

"لابد ان "الأديب" (١) قد كتب إليك عن ان ثمة عشرين شريدا تعسا على الأسوار، يموتون بردا وجوعا، ويرتقبون المليم الذي اعتدت أن تمنحهم إياه. هذه عينة من ثرثرتنا البسيطة.. ولو أنك استمعت إلى بقيتها لوجدت فيها ما يروقك، كهذا!" .

وها هو ذا ردي على هذا الجدل البغيض، الذي بدا وكان "ديدرو" كان مزهوا به: "اعتقد انني رددت على "الأديب" - اقصد ابن ناظر الزراعة العام - بانني لا اشفق على الفقراء الذين رآهم على الاسوار يرتقبون مليمي، وأن من الواضح انه قد عوضهم عما فقدوا، وانني قد عينته بديلا عني، وانه ليس لفقراء "باريس" ان يشكوا من هذا التغيير، وانني لا اجد من السهل العثور على بديل آخر يصلح لفقراء "مونمورنسي"، الذين هم اشد حاجة!.. فهنا شيخ طيب، ومحترم، قضى حياته في العمل، ولم يعد اليوم يقوم عليه، فهو يموت جوعا إبان شيخوخته، وإن ضميري ليشعر بارتياح إزاء قطعتي "السو" اللتين امنحه إياهما في يوم الاثنين من كل اسبوع، يفوق ذاك الارتياح الذي يستشعره إذا أنا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار. إنكم لتلهون - يامعشر الفلاسفة - حين تنظرون إلى جميع سكان المدن، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بان تشغلوا بامرهم.. إنما يتعلم المرء حب الإنسانية وخدمتها في الريف، ولا يتعلم في المدن سوى ازدرائها!" .

*****

هكذا كانت الوساوس العجيبة، التي استند إليها رجل ذكي، منساقا لنزوة حمقاء حملته على ان يجعل - جادا - من بعادي عن "باريس" ذنبا وجرما، وعلى ان يحاول ان يبرهن لي بحالي إن لا سبيل إلى الإقامة خارج العاصمة إلا إذا كان المرء خبيثا، ولست ادري اليوم كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه، واستات منه، بدلا من ان يكون جوابي الأوحد، هو ان اضحك ساخرا؟!.. على ان قرارات السيدة "ديبيناي" والضجة التي اثارتها عصبة "دولباخ"، استولت على اذهان الناس وغرتهم، حتى لقد اعتبرت - بوجه عام - مخطئا في هذه المسالة.. وحتى إن السيدة "دوديتو" نفسها - وهي من اشد المعجبات بـ"ديدرو" - رغبت في ان اذهب إلى زيارته في "باريس"، وان اؤدي - كل المقدمات لصلح لم يدم طويلا بالرغم من انه كان مخلصا وكان من ناحيتي..

وكانت الحجة الموفقة التي استغلتها السيدة "دوديتو" للتاثير على قلبي هي ان "ديدرو" كان - في هذه اللحظة - تعسا شقيا. فإلى جانب العاصفة التي ثارت ضد "الموسوعة"، كان عليه ان يحتمل عاصفة أخرى اشد عنفا، أثارها الكتاب. فبالرغم من المقدمة الصغيرة التي مهد لها به، اتهم "ديدرو" بانه قد نقله باكمله عن "جولدوني"، ولقد كان "ديدرو" اكثر تاثرا وارتباكا بالنقد من "فولتير" ولقد ذهبت السيدة "دي جرافيني" في دهائها إلى حد أنها اذاعت شائعة بانني انتهزت هذه الفرصة لكي اقطع ما كان بيني وبينه؛ لذلك فقد رايت ان من الإنصات والكرم ان اظهر نقيض ذلك على الملأ؛ فذهبت لأقضي يومين في داره، وإن لم اقضهما في صحبته وحده!.. وكانت هذه هي رحلتي الثانية إلى "باريس"، منذ استقر بي المقام في "ليرميتاج". فقد قمت بالرحلة الأولى؛ لأبادر بان أكون إلى جوار "جوفكور" الذي اصيب بنوبة فالج، لم يقدر له ان يشفى منها تماما، وقد ظللت طيلة مرضه ملازما فراشه حتى تجاوز الخطر!

---

(١) لقب اطلقه "جريم" على ابن السيدة "ديبيناي"، من قبيل الدعابة.

واحسن "ديدرو" استقبالي.. فما اقدر عناق الاصدقاء على محو الاخطاء!.. واية سخيمة يمكن ان تظل في القلب بعد ذلك؟.. وتبادلنا بعض الإيضاحات، كما كان ثمة داع لها، ما دامت الإساءات متبادلة. ففي مثل هذه الحال، لا يكون ثمة ما ينبغي فعله سوى.. النسيان، لا خصوصا انه لم تكن ثمة دسائس خفية - فيما كنت اعلم على الأقل - كما كانت الحال مع السيدة "ديبيناي"، ولقد اطلعني على مشروع كتابه. "أب الأسرة"، فقلت له: "هذا خير دفاع عن "ابن السفاح"!.. فالزم الصمت، وامض في هذا المؤلف بعناية، ثم طوح به فجأة في وجوه أعدائك، فإنه الرد الوحيد". ولقد فعل ذلك، ووجد أنها خطة موفقة!

ولقد ارسلت إليه الجزءين الأولين من "جولي" - قبل ذلك بستة اشهر - اساله رأيه فيهما، ولم يكن قد قراهما بعد؛ فطالعنا شطرا منهما معا، وقد وجد انهما "قرطسة" (١)، وكان هذا هو التعبير الذي استخدمه، قاصدا ان الجزءين كانا مليئين بالكلام المنمق، وبالتكرار والإطالة، وكنت قد شعرت بذلك، من تلقاء نفسي، ولكن ما أوردته فيهما كان هذيان الحمى (٢) ولم اكن راجعته او صححته. على ان الأجزاء الأخيرة ليست على هذا الغرار، لاسيما الرابع والسادس، فإنهما تحفة في البلاغة.

وفي اليوم التالي لوصولي رغب - في إصرار - في ان يصطحبني لتناول العشاء لدى السيد "دولباخ" راغبا في ان افسخ الاتفاق الخاص باصول كتاب "الكيمياء"؛ لانني كنت اربا بنفسي ان اكون على التزام نحو هذا الرجل (٣). ولقد انتصر "ديدرو" على طول الخط، واقسم على أن السيد "دولباخ" كان يكن لي اخلص الود، وأن الواجب يقتضيني ان اغفر له مسلكه الذي يتخذه مع الناس كافة، والذي يعاني منه أصدقاؤه اكثر مما يعاني سواهم، وصور لي ان رفض إنتاج هذا الكتاب، بعد ان قبلته منذ عامين، إهانة لصاحب العرض، لا يستحق أن يجازى بها. بل إن هذا الرفض قد يساء تاويله؛ فيحمل على محمل اللوم لانه مكث هذا الأمد الطويل دون أن يحقق الاتفاق، واستطرد قائلا: "إنني أرى "دولباخ" في كل يوم، واعرف حال نفسه اكثر مما تعرفها انت، وإذا لم يكن ثمة مجال لك كي ترضى عن هذا العمل، افتظن ان صديقك يقدم على نصحك بان تحط من قدر نفسك؟". وفي إيجاز، سمحت لنفسي بان اسلم له - بكل ما عرف عني من ضعف - وذهبنا معا لتناول العشاء مع "البارون"، الذي استقبلني على مالوف عادته. ولكن زوجته تلقتني بفتور بل وبجفاء غير كريم (٤) حتى كنت انكر فيها "كارولين" اللطيفة، التي اظهرت لي - قبل زواجها - كثيرا من آيات النية الطيبة. وكنت قد لاحظت - قبل ذلك بزمن طويل - انني لم اعد زائرا مرموقا مذ اصبح "جريم" ضيفا مستمرا في قصر "اين".

*****

وبينما كنت في "باريس" وفد "سان - لامبير" في إجازة من الجيش، ولما لم اكن قد علمت بذلك؛ فإنني لم اره إلا بعد عودتي إلى الريف، في "لاشفريت" اولا، ثم في "ليرميتاج"، حيث

---

(١) قرطسة: مشتقة من قرطاس، هو الورق.. وهو يقصد هنا، ان المادة كانت حشوا، او مجرد تسويد ورق. (٢) كتب "روسو" الجزءين الأولين من "جولي"، وقد انتابه الحنين إلى الحب، فراح يوحي إليه باحلام محسوسة، على ما اورد من قبل. (٣) يقصد "دولباخ". ويلاحظ ان "روسو" لم يذكر شيئا من قبل عن "اصول كتاب في الكيمياء، ولا عن "الاتفاق" الذي لم يشأ ذلك؛ ومن ثم فإن إيراد الامر على هذه الصورة، يبدو محوطا بالغموض، ولسنا نجد فيما كتب شيئا يلقي مزيدا من الضوء على المسألة. (٤) ذكر "روسو" في الكراسة الثامنة نبأ موت السيدة "دولباخ". ومن ثم يحسن أن نذكر هنا ان البارون "دولباخ" كان ما يزال في مقتبل الشباب عندما ترمل؛ فتزوج ثانية، وكانت زوجته الجديدة هي "كارولين - سوزان د - اين"، وهي اخت زوجته المتوفاة، وقد حصل على إذن بذلك من "روما"، ومن هنا نفهم ان قصر "اين" - الذي ذكر بعد ذلك - كان من املاك الزوجة.

اقبل مع السيدة "دودينو"، واستضافا نفسيهما للغداء، ومن الميسور تصور مدى الاغتباط الذي استقبلتهما به!.. ولكني كنت أكثر اغتباطا بمشاهدة انسجامهما البديع، وسعدت بدوري، إذ اطمأننت إلى انني لم اعكر صفو هنائهما، وبوسعي ان اقسم على انني ما كنت - طيلة وجدي الطائش بل وفي تلك الآونة بالذات - لأتمنى ان آخذ السيدة "دودينو" من "سان - لامبير"، ولو استطعت إلى ذلك سبيلا.. بل إنني ما كنت لأشعر بمجرد الرغبة في ذلك!.. فلقد وجدتها جديرة بحب "سان لامبير"، مدلهة في هواه، حتى إنني لم أكد أتصور أنها تستطيع ان تهيم بي بهذا القدر، وكان كل ما طمعت فيه - في بُحْران الوجد - هو ان تدعني احبها من ناحيتي، دونما رغبة مني في ان أعكر صفو رابطتهما!.. وقصارى القول إنني - برغم عنف الصبابة التي كانت تلتهمني بنيرانها - وجدت متعة في ان أكون موضع ثقة هذه السيدة، لا تقل عن المتعة التي كنت خليقا بان استشعرها إذا كنت هدف حبها، ولم أنظر إلى عاشقها لحظة على انه غريم او مزاحم، وإنما ظللت - على الدوام - أنظر إليه كصديق، ولقد يقال إن هذا لم يكن بعد غراما حقيقيا فليكن!.. لقد كان أكثر من الغرام!

اما "سان - لامبير"، فقد كان تصرفه تصرف الرجل الكريم، الرزين، ولما كنت المذنب الوحيد، فإنني كذلك كنت الجدير بالعقاب، وكان عقابي مشوبا بالتسامح. فقد عاملني "سان - لامبير" في خشونة، ولكن في ود، واستطعت ان المح انني قد فقدت بعض تقديره، ولكني لم افقد شيئا البتة من صداقته؛ فتعزيت بذلك موقنا من ان استعادة الأولى أسهل بكثير من استعادة الثانية.. ومدركا أنه كان اعقل واحكم من ان ينقم على ضعف لا إرادي، وطارىء، ومنبعث عن عيب طبيعي، وإذا كانت ثمة اخطاء من ناحيتي - في كل ما جرى - فإنها كانت طفيفة. أفأنا الذي سعى إلى عشيقته؟.. الم يكن هو الذي ارسلها إليّ؟.. الم تكن هي التي جاءتني؟ فهل كان بوسعي ان امتنع عن استقبالها؟.. ما الذي كنت أملك ان افعله؟.. إنهما هما سر البلوى، ولم يكن من معذب سواي!

ولو ان "سان - لامبير" كان في مكاني لفعل عين ما فعلت بل ربما أسوأ مما فعلت!.. ذلك لأن السيدة "دودينو" - برغم وفائها، وبرغم جدارتها بالاحترام - كانت امرأة!.. ولقد كان هو كثير التغيب؛ فكانت الفرص موفورة، والمغريات شديدة، وكان من الشاق حقا ان تذود دائما عن نفسها ضد أي عاشق أكثر جراة، بعين التوفيق الذي صدتني به، ويقينا أنه كان من الكثير - الذي ينبغي ان يذكر لنا، هي وأنا - أن استطعنا في ظروف كهذه أن نضع حدودا؛ لم نسمح لنفسينا قط بتخطيها!

ومع أنني من استطيع ان استخلص من اعماق قلبي شهادة كريمة في صالحي إلا ان المظاهر كانت ضدي، حتى إن الشعور بالخجل الطاغي - الذي كان يتسلط عليّ دواما - خلع عليّ، في حضور "سان - لامبير" مظهر المذنب، فأكثر هو من استغلاله لإذلالي، وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل. فلقد قرات عليه - عقب الغداء - الرسالة التي كنت قد كتبتها لـ "فولتير"، قبل عام، والذي سمع بأمرها، وإذا به يستسلم للنعاس بينما كنت اقرؤها، وبعد ان كنت فخورا، إذا بي أغدو غبيا، فلا أجرؤ على ان اقطع القراءة؛ ومن ثم فقد استرسلت فيها بينما استرسل هو في الغطيط!.. وهكذا اذللت نفسي.. وهكذا كان ثاره لنفسه.. غير ان كرم نفسه لم يكن يخوله ان يمارس هذه الاساليب إلا فيما بيننا نحن الثلاثة!



وبعد أن رحل "سان - لامبير" ثانية، ألفيت السيدة "دوديتو" قد تغيرت إزائي تغيرا شديدا، وقد ذهلت لهذا وكأنه لم يكن خليقا بي أن أتوقعه، وتأثرت به أكثر مما كان ينبغي؛ مما سبب لي كثيرا من الآلام والتباريح. وكأنما كل شيء مما توقعت أن يبرئني، كان يزيد من تغلغل السهم في قلبي.. ذلك السهم الذي أصبحت - في النهاية - أوثر أن أكسره عن أن أنزعه!

وعقدت العزم على أن أقهر نفسي تماما، وألا أدع شيئا إلا فعلته لكي أحول صبابتي الرعناء إلى صداقة طاهرة، باقية؛ وعلى ضوء هذه الغاية رسمت أروع الخطط في الحياة، ولم يكن يعوزني في تنفيذها سوى معونة السيدة "دوديتو". فلما حاولت أن أحدثها عنها وجدتها شاردة البال، مضطربة الخاطر؛ فشعرت بأنها لم تعد تحس بأية لذة في صحبتي! وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى، وأنها لم تكن راغبة في أن تنبئني به، وما قدر لي قط أن أعرفه، ولقد عذبني أقسى العذاب هذا التغير الذي عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له، وسألتني أن أرد إليها خطاباتها؛ فرددتها جميعا بأمانة جرح كرامتي أن السيدة ارتابت فيها لحظة!.. وكان هذا الارتياب طعنة أخرى أصابتني، كما لابد أن تكون قد أدركت، وقد أنصفتني وعوضتني ولكنها لم تفعل ذلك فورا. فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التي أسلمتها إياها، جعلها تفطن إلى ظلمها. بل إنني استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك؛ فوجدت في ذلك شيئا من التعويض.

وما كان لها أن تأخذ رسائلها دون أن تعيد إليّ رسائلي.. وقالت لي إنها أحرقتها، فجرؤت بدوري على أن أرتاب في ذلك، كما ينبغي أن أعترف. لا. إن المرء لا يلقي بمثل هذه الخطابات إلى النار. لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة في قصة "جولي"، فيا لله!.. ما الذي قيل عن ذلك؟.. لا، لا.. إن المرأة التي أوتيت القدرة على توقد كل هذا الوجد، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة وجوده. ولكنني مع ذلك لم أكن أخشى أن تسيء استغلالها، فما كنت لأومن بأنها قادرة على ذلك. كما أنني كنت قد اتخذت التدابير للحيلولة دون ذلك!.. ذلك أن الخوف الأحمق - والمحتدم في الوقت ذاته - من أن أتعرض للسخرية حملني على أن أبدأ هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلي في مأمن من أن تذاع، ولقد ذهبت في ذلك إلى حد الإسراف في الألفة التي كنت قد انتهجتها في نشوتي، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد، ولكني حرصت في ذلك على ألا تجرح هذه الألفة كرامتها. ومع أنها شكت مرارا من ذلك، إلا أنها لم توفق إلى حملي على العدول.. ولم تؤد شكاواها إلا إلى إيقاظ هواجسي، فضلا عن أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على التراجع، ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة، وقدر لها يوما أن ترى الضوء لعرف الناس كيف أحببت! (١).

ولقد أدى الألم الذي أحدثه فتور السيدة "دوديتو"، واليقين من أنني كنت أستحقه إلى أن أنهج منهجا عجيبا؛ إذ شكوت منه إلى "سان - لامبير" نفسه!.. وفي انتظار نتيجة خطابي بهذا الصدد، أغرقت نفسي في الشواغل التي لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها. فلقد أقيمت في "لاشيفريت" بعض حفلات، وضعت الموسيقى التي عزفت فيها، وحفز نشاطي على ذلك، تلك المتعة التي تمثلتها؛ إذ أرفع من قدر نفسي في عيني السيدة "دوديتو"، بعرض الموهبة التي كانت تغرم بها، وساعد ظرف آخر على إذكاء نشاطي وهو: رغبتي في أن أظهر للملأ أن مؤلف "عراف القرية" كان على دراية بالموسيقى؛ إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة أن ثمة من كان يعمل في الخفاء على ذر

---

(١) رغبت السيدة "بروتال" التي كانت تقيم على مقربة من "أوبون" في أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل؛ فسألت السيدة "دوديتو" يوما عن الأمر فأجابتها هذه بأنها قد أحرقتها فعلا ما عدا رسالة واحدة، لم تؤت الشجاعة على حرقها؛ لأنها كانت قطعة من البلاغة والغرام المشبوب.. وقد أسلمتها إلى السيد دي "سان - لامبير". هذا ما ذكره السيد "دي موسيه" - في كتيب له بعنوان: "حكايات للتعقيب على مذكرات السيدة "ديبناي" - عن شهادة السيدة الفيكونتة "دالالا"، التي عاشت في ود وثيق مع السيدة "دوديتو" زهاء ثلاثة عشر عاما.

الريب حول ذلك، فيما يختص بالتاليف الموسيقي على الاقل!.. ولقد كان أول ظهوري في "باريس"، والاختبارات التي تعرضت لها في مناسبات مختلفة في داري السيدة "دوبان" والسيدة "ديلابوبلينير"، والقدر الذي الفته من الموسيقى خلال اربع عشرة سنة - وسط اعظم اهل الفن شهرة، وتحت ابصارهم - ثم اوبرا "عرائس الشعر اللطاف"، بل واوبرا "العراف"، واغنية كتبتها للآنسة "فيل" وغنتها بنفسها في حفلات "الموسيقى الروحية"، والمناقشات العديدة التي دارت بيني وبين كبار الاساتذة عن هذا الفن الجميل... كل هذه البراهين كانت جديرة بان تمنع، او بان تبدد اية شكوك من هذا القبيل. ولكنها - مع ذلك - كانت موجودة، حتى في "لاشيفريت"، فقد رايت ان السيد "ديبيناي" لم يكن بمنجى منها!.. وبدون ان اظهر انني كنت افطن إلى ذلك عكفت على تلحين انشودة من أجله؛ لتدشين كنيسة "لاشيفريت"، وسالته ان يمدني بالكلمات التي ينتقيها لها بنفسه. فعهد إلى "دي ليناك" - مربي ابنه - بان يكتبها، وقد الف "دي ليناك" بضعة ابيات تناسب المقام، وبعد ثمانية أيام من موافاتي بها، كانت الانشودة معدة.

وفي هذه المرة، كان الغيظ هو ملهمي، فلم تخرج من بين يدي يوما موسيقى أجزل من هذه!.. وقد بدات ابياتها بهذه الكلمات اللاتينية: Ecce sedes hic Tonantis (١).

وكانت روعة المقدمة الموسيقية، تتمثل في مجاراة الكلمات، فكانت الانشودة باسرها من البهاء بحيث بُهِتَ كل امرئ إعجابا!.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة، وقد حشد "ديبيناي" خير العازفين، وتولت السيدة "برونا" - وهي مغنية إيطاليا - إلقاء الانشودة، وكان العزف رائعا في مصاحبتها. وقد نجحت الانشودة نجاحا باهرا، حتى إنها القيت بعد ذلك في حفلات "الموسيقى الروحية"، حيث لقيت نفس الإعجاب مرتين، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء الإخراج!.. كذلك اقترحت - بمناسبة عيد ميلاد السيد "ديبيناي" - قطعة غنائية نصفها تمثيل عادي، ونصفها تمثيل صامت بالإيماء، وقد تولت السيدة "ديبيناي" تاليف الكلام، وتوليت انا تاليف الموسيقى، ولقد سمع "جريم" - عند وصوله - بانتصاراتي الموسيقية، ولم تنقض ساعة حتى لم يعد ثمة حديث عنها، ولكن لم يعد ثمة ريب - على الأقل - في انني كنت أعرف التلحين واحذقه!

*****

وما إن استقر "جريم" في "لاشيفريت" - حيث كنت لا اشعر بكثير من الانشراح - حتى افلح في أن يجعل بقائي هناك امرا لا يطاق، وذلك بتصرفات لم ارها تبدو من احد قط قبل ذلك، ولا كانت تخطر لي على بال. ففي اليوم السابق على وصوله، نقلت من افضل غرف الضيوف - وهي التي كانت تجاور مخدع السيد "ديبيناي" - ليحتلها "جريم" بينما افردت لي غرفة أخرى، في اقصى اطراف الدار، وقد قلت للسيدة "ديبيناي" ضاحكا: "ألا انظري كيف يطرد الوافدون الجدد النزلاء القدامى!" فبدا عليها الارتباك!.. وقد فهمت السر في ذلك بجلاء، في ذلك المساء حين علمت أن ثمة بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذي فارقته، وانها لم تكن قد رات جدوى من إطلاعي عليها ولم تكن علاقاتها بـ"جريم" سرا على احد، سواء في قصرها، او في المجتمع بل ولا على زوجها نفسه!..

ومع ذلك فإنها بدلا من ان تاتمنني عليها أصرت على إنكارها، برغم انني كنت الامين على اسرار تفوقها قيمة، وكانت هي تدرك ان هذه الاسرار بمامن لدي، ولقد ادركت ان التحفظ كان راجعا إلى

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذا تعقيبا فيه: علمت فيما بعد ان هذه الكلمات كانت من نظم "دي سانتويي"، وان السيد "دي ليناك" نسبها إلى نفسه!

"جـريم" الذي لـم يكن راغبـا في ان تكون في حوزتي اية اسرار تمسه برغم انه كان مستودع اسراري جميعا!

وشفعت له عواطفي القديمة – التي لم تكن قد خمدت – وكفاءته الحقة، بيد انها لم تستطع ان تصمد امام العناية التي راح يبذلها لكي يهدمها!.. فقد كان سلوكه إزائي، شبيها بسلوك الكونت "دي توفيير" (١)، حتى إنه لم يكد يتكرم برد تحيتي حينما استقبلني، لا ولم يوجه إليّ كلمة واحدة، وسرعان ما اعفاني من ان اخاطبه؛ إذ لم يحاول ان يوجه إليّ ما اجيب عنه البتة، وكان يتقدمني في اي مكان، دون ان يحاول قط ان يحفل بي، ولقد كان بوسعي ان اتجاوز عن هذا لولا انه ابدى حرصا على جرح كرامتي، ويكفي ان اسوق واقعة واحدة من الف؛ ليتسنى الحكم على ذلك: ففي ذات مساء، شعرت السيدة "ديبيناي" بتوعك بسيط؛ فطلبت إلى الخدم ان يحملوا إليها بعض الطعام في مخدعها بالطابق العلوي، حيث اعتزمت ان تتناول العشاء إلى جانب المدفاة، ودعتني إلى الصعود معها إلى المخدع؛ فلبيت. وما لبث "جريم" ان اقبل بعد ذلك.

وكانت المائدة الصغيرة قد اعدت، بحيث لا تضم سوى شخصين، واحضر الطعام؛ فاتخذت السيدة "ديبيناي" مجلسها إلى احد جانبي المدفاة، واستولى السيد "جريم" على مقعد وثير، فاستقر فيه، إلى الجانب الآخر، وجر المائدة فجعلها بينهما، ونشر المنشفة، وشرع في الاكل دون ان ينبس ببنت شفة لي!.. وتضرج وجه السيدة "ديبيناي" خجلا؛ ولكي تحمله على ان يعتذر عن تصرفه النابي عرضت عليّ مكانها، ولم يقل "جريم" شيئا ولا هو تطلع نحوي، ولما لم يكن لي من سبيل كي اقترب من المدفاة؛ فقد قررت ان اذرع الحجرة ريثما يحضرون لي ادوات للمائدة.. وتركني اتناول عشائي في طرف المائدة بعيدا عن النار، دون ان يبدي اتفه اعتذار لي وقد كنت اكبره سنا، وكنت معلولا، وكنت صديقا قديما للاسرة وقد قدمته بنفسي إليها؛ فكان خليقا به ان يكرمني لذلك، لاسيما وهو الاثير لدى السيدة!.. وكانت كل تصرفاته معي تشبه كثيرا هذا النموذج. فقد كان يعاملني وكانني اقل منه شانا حقا، وكان يعتبرني كما لو انني لم اكن شيئا يذكر؛ وكان من العسير عليّ ان اعرف فيه "خادم المدرسة" الذي التحق بخدمة الامير "ماكس – جوتا"، والذي كان يرى في احتفائي به شرفا وتكريما!.. ووجدت عناء اشد في أن أوفق بين هذا الصمت العميق، وهذا الترفع المهين، وبين تلك الصداقة اللطيفة التي كان يتظاهر بانه يكنها لي، امام اولئك الذين كان يعرف انهم إياها فعلا!.. ومن الصحيح انه لم يكن يبدي شيء اللهم إلا ليرثي خالي – التي لم اكن اشكو منها على الإطلاق!– ويشفق على حظي المحزن – الذي كنت قريرا به! – ولينعى عليّ انني كنت ارفض في فظاظة اللفتات الكريمة، التي كان يعلن انه مشوق إلى إظهارها نحوي!.. وبفضل هذا الدهاء استطاع ان يحمل القوم على ان يعجبوا بعطفه الكريم، وعلى أن يحنوا على نفوري الجاحد.. كما استطاع ان يوهم الناس اجمعين دون أن يفطنوا – بالا يتصوروا ان تقوم بين راع شهم مثله، وتعس شقي مثلي روابط الإحسان من أحد الطرفين، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر.. دون ان يخطر ببالهم – ولو على قبيل الاحتمال – ان هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين!

وعبثا حاولت – من ناحيتي – ان اتبين اي اعتبار يخضعني لاي التزام إزاء هذا الراعي الجديد. فلقد اقرضته نقودا، ولكنه لم يقرضني شيئا البتة.. ولقد سهرت عليه في مرضه، ولم يكد هو يعودني في مرات سقامي.. ولقد عرفته بكل اصدقائي ولكنه لم يعرفني يوما بواحد من اصدقائه.. ولقد اطريته بكل جهدي اما هو.. إذا كان قد أطراني يوما، فإنما فعل في أضيق نطاق من العلانية،

---

(١) شخصية في إحدى المسرحيات الفكهة، هي مسرحية "المغرور" من تاليف "ديتوش". وقد ظهرت في سنة ١٧٣٢.

وبطريقة أخرى!.. وما أدى لي يوما - بل ولم يعرض استعداده لأداء - خدمة من أي نوع. فكيف إذن كان الراعي الذي غمرني بعطفه؟.. وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته؟.. لقد كان هذا - وما يزال - فوق إدراكي!

ومن الصحيح - إلى حد ما، كثر أو قل هذا الحد - انه كان شرسا مع كل الناس، ولكنه لم يذهب في شراسته إلى درجة الضراوة مع سواي.. وإني لأذكر ان "سان - لاميير" اوشك - ذات مرة - ان يطوح بطبق الطعام إلى رأس "جريم"، إذ تجرأ عني ان يكذبه جهارا على المائدة، قائلا في قحة: "هذا غير صحيح!". وكان يقرن لهجته الساخرة - بطبيعتها - بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة.. بل إنه أصبح موضع استهجان، بفضل سفاهته!.. فقد أغراه اختلاطه بكبار القوم على ان يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على انها معقولة، حتى بين هؤلاء القوم!

ولم يكن ينادي خادمه إلا بكلمة "أيها!"، وكان السيد الجليل الشان قد أوتي عددا كبيرا من الخدم فهو لا يدري أيهم المنوب بخدمته!.. وإذا منحه عطاء، كان يلقي به على الأرض بدلا من ان يدسه في يده، وقصارى القول إنه كان ينسى ان الخادم إنسان، فكان يوسعه ازدراء وقسوة - في كل مناسبة - بدرجة تثير النفس، حتى إن الفتى - وكان من خيرة الخدم، وقد نزلت له عنه السيدة "ديبيناي" - لم يلبث ان ترك خدمته دونما شكوى، سوى عدم احتماله هذه المعاملة!.. فكان على شاكلة "لافلير" في مسرحية "المظفرون" الفكهة!

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورا، وكان يخال انه - بعينيه الكبيرتين، ووجهه المترهل - ذو حظوة عظيمة لدى السيدات، فإن عددا من أفراد الجنس اللطيف اعتبرنه - بعد تمثيلية الآنسة "فيل" الخرافية (١) - رجلا ذا عواطف مشبوبة.

وقد أذاع ذلك صيته في المجتمع، واكسبه ميلا إلى أناقة النساء، فراح يتجمل، وأصبحت زينته عملية خطيرة، وكان الناس جميعا يعرفون أنه يستخدم المساحيق والمعاجين.. أما أنا فلم أكن أعتقد ذلك، ولكنني لم ألبث ان بدأت أصدقه، لا لجمال بشرته، ولا لمجرد أنني كنت أجد أواني المعاجين على مائدة زينته، وإنما لأنني وجدته - إذ ولجت مخدعه ذات صباح - منهمك في تنظيف أظفاره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية!.. وهي عملية واصل أداءها أمامي مزهوا، وحدست ان الرجل الذي يقضي ساعتين من كل صباح في تنظيف أظفاره، لا يضن ببضع دقائق لكي يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين!.. لقد أطلق عليه "جوفكور" الطيب - الذي لم يكن غبيا - اسم "تيران الأبيض"، على سبيل الدعابة والهزء!

*****

ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ولكنها كانت تخالف أخلاقي، وقد انتهت بأن حملتني على الشك في أخلاقه، فإنني لا أكاد أصدق ان رجلا استولت على رأسه النزوات، يملك لقلبه قيادا في الطريق السوي، ولقد كان يفخر بحساسية روحه وعنفوان مشاعره أكثر مما يفخر بأي شيء آخر. فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التي لا تلصق بغير ذوي العقول الصغيرة؟.. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة، التي تحلق بها مشاعر القلب الحساس - خارج نطاق هذا القلب - أن يشغل باله بأمور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل؟.. آه، يا إلهي!.. إن الذي يشعر أن فؤاده يكتوي بهذه النار السماوية يسعى عادة إلى أن ينفثها خارجه، وإلى أن يكشف دخيلة نفسه.. إنه

---

(١) كان "جريم" قد أحب الآنسة "فيل" - دون أن تبادله هي الحب - فانتابته غيبوبة عجيبة..

يتلهف إلى ان يعرض قلبه على أسارير وجهه، ولا يفكر قط في اية معاجين، أو اية زينة لهذا الوجه!

ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية، كما انبأتني بها السيدة "**ديبيناي**" التي كانت قد انتهجتها، وهذه الخلاصة تضم مبدأ واحدا: ذلك هو ان الواجب الأوحد للإنسان هو أن يسير وراء نوازع قلبه، في كل شيء!.. ولقد امدني هذا القانون الخلقي - حين سمعت به - بمادة بغيضة للتفكير، برغم أنني لم اعتبره - في ذلك الوقت - أكثر من فكاهة.. على انني سرعان ما تبينت ان هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلا، ولم ازد - فيما بعد - إلا تثبتا من ذلك، وإن جاء الدليل على حسابي انا!.. كان ذلك هو المذهب الباطني، الذي كثيرا ما حدثني عنه "**ديدرو**"، وإن لم يعمد قط إلى الإيضاح والشرح.

وتذكرت كذلك الإنذارات العديدة التي تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبيهي إلى ان ذاك الرجل كان غشاشا، وانه كان يعبث بالمشاعر دون ان تكون لديه عواطف ما، بوجه خاص. واستعرضت عدة وقائع صغيرة، كان السيد "**دي فرانكويي**" والسيدة "**دي شينونسو**" قد ذكراها لي بهذا الصدد.. فما كان اي منهما ليوليه اعتبارا، ولابد انهما كانا على دراية طيبة به؛ إذ إن السيدة "**دي شينونسو**"، كانت ابنة السيد "**دي روشيشوار**" الصديقة الحميمة للراحل الكونت "**دي فريز**".. كما ان السيد "**دي فرانكويي**" - الذي كان وثيق الصلة بالفيكونت "**دي بولينياك**" في تلك الفترة - كان كثير التردد على القصر الملكي، في عين الوقت الذي سمح لـ"**جريم**" فيه بدخوله، ولقد عرفت "**باريس**" بأسرها نبأ اليأس الذي استولى عليه عقب وفاة الكونت "**دي فريز**"، وكان همه الاكبر هو الاحتفاظ بالصيت الذي اكتسبه، بعد المعاملة القاسية التي لقيها من الآنسة "**فيل**"، والتي كان من الخليق بي ان اكون اقدر الناس على كشف زيف الضجة التي ترتبت عليها لو انني كنت اقل عمى وغفلة!.. كان لابد من جره إلى قصر "**دي كاستري**"، حيث ادى دوره بمهارة مصطنعا اقوى وجد فتاك، وكان في كل صباح يسعى إلى الحديقة؛ ليبكي ما شاء له البكاء، ممسكا أمام عينيه بمنديل مبتل بالدموع، طالما كان على مشهد من القصر، وما إن يعرج مع انحناءة الطريق - إلى شارع ضيق - حتى يدس المنديل في جيبه بعد أن يخرج من هذا كتابا، على ما رآه اشخاص لم يكن لديه اي ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه!

لقد رُئِي - وهو يفعل ذلك - اكثر من مرة، سرعان ما أصبح النبأ مشاعا في "**باريس**" ولكنه لم يلبث أن راح منسيا.. حتى انا نسيته، ولكن مسألة تخصني عادت تذكرني به.

فلقد كنت طريح الفراش، على اعتاب الموت، في المسكن الذي كنت اتخذه في شارع "**دي جرينيل**" بينما كان هو في الريف، وفي ذات يوم، اقبل ليعودني، وهو لاهث الأنفاس، وقال إنه قد وصل لتوه من ريفه، وإن هي إلا دقيقة، حتى علمت انه وصل في اليوم السابق، وأنه شوهد في المسرح، في اليوم ذاته!

ولقد عاودتني الف من هذه الوقائع الصغيرة، ولكن اشد ما اذهلني، تمثل في شيء دهشت لانني لم افطن إليه من قبل. ذلك انني كنت قد قدمت "**جريم**" إلى جميع اصدقائي، دون استثناء، فلم يلبثوا ان اصبحوا جميعا اصدقاء له، وكنت لا اكاد انفصل عنه حتى لقد بات من المتعذر ان اواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله، ولم يرفض زيارته سوى السيدة "**دي كريكي**"، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعا يكاد يكون تاما.. ولقد تعرف "**جريم**" - من ناحيته - على اصدقاء آخرين، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه، او عن طريق الكونت "**دي فريز**"، ولم يقدر لأحد

من أصدقائه جميعا أن يغدو صديقا لي. كما أنه لم يفه بكلمة واحدة لحملي على التعرف بهم، على الأقل.. وما أظهر لي واحد من كل أولئك الذين كنت ألتقي بهم في مسكنه أحيانا أية نية حسنة.. ولا الكونت "دي فريز" الذي كان "جريم" يقيم لديه - والذي كان يسرني أن أوثق الصلات معه - ولا الكونت "دي شومبرج"، قريبه الذي كانت العلاقة بينه وبين "جريم" تفوق الود الوثيق!

وهناك ما يفوق ذلك.. فإن أصدقائي الأصليين، الذين جعلت منهم أصدقاء له - والذين كانوا على صلات وثيقة معي قبل هذا التعارف - لم يلبثوا أن تغيروا نحوي بعده.. أبدا لم يقدم لي أحدا من أصدقائه، وإن كنت قد قدمت إليه كل أصدقائي.. ومع ذلك فإنه انتهى إلى أن حرمني منهم جميعا. فإذا كانت هذه هي نتائج الصداقة فما هي نتائج البغضاء؟

ولقد حذرني "ديدرو" مرات عدة - منذ البداية - من أن "جريم" الذي أوليته كل هذه الثقة، لم يكن صديقا لي، وما لبث أن بدل لهجته عندما كف عن أن يكون صديقا لي، هو الآخر!

*****

ولم تتطلب الطريقة التي تصرفت في أولادي بمقتضاها، معونة من أحد، ومع ذلك فقد أطلعت عليها أصدقائي لمجرد إطلاعهم؛ حتى لا أبدو في أعينهم أفضل مما كنت، وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة فحسب: "ديدرو"، و"جريم"، والسيدة "ديبيناي"، ولقد كان "ديكلو" - وهو أجدر أصدقائي بثقتي - الوحيد الذي لم أنبئه، ومع ذلك فإنه عرف بالأمر.. ممن؟.. لست أدري. ومن المتعذر احتمال أن تكون السيدة "ديبيناي" هي المذنبة بخيانة الثقة - في هذه المرة - لأنها كانت تعلم خير العلم أنني إذا حذوت حذوها - لو أنني كنت قادرا على مثل هذا العمل - لثأرت لنفسي بقسوة!.. ويبقى بعد ذلك "جريم" و"ديدرو" اللذان كانا - في ذلك الوقت - وثيقي الارتباط في كثير من الأمور، لا سيما ما يكون منها ضدي.. ومن ثم فهناك أكثر من مجرد الاحتمال بأنهما المذنبان معا!..

وأراهن على أن "ديكلو" - الذي لم أكاشفه بسري، والذي لم يكن مضطرا لذلك إلى الصمت - كان هو الوحيد الذي لم يشي بهذا السر!

ولقد بذل "جريم" و"ديدرو" - في محاولتهما لإقصاء "المربيتين" عني - جهدا لاستدراج "ديكلو" إلى المساهمة في خططهما ولكنه كان يرفض دائما في ازدراء، ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت من "تيريز" ما كان كافيا لأن أبصر في المسألة كلها غاية خفية، وأنهما كانا مشوقين إلى أن يتخلصا مني، دون أفطن - على الأقل - إن لم يكن بالرغم مني.. أو أنهما - على الأرجح - كانا يبغيان أن يستغلا هاتين المرأتين كأداتين في خطة سرية، ولقد كان في كل ذلك شيء غير شريف، حقا، وهذا ما تدل عليه معارضة "ديكلو"، دون نزاع، فلير من يشاء في هذا صداقة أو ودا!

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حياتي الداخلية، كما كان شأنها على حياتي الخارجية. فإن الأحاديث الطويلة، والعديدة، مع السيدة "لوفاسير" - لعدة سنوات قبل ذلك - قد بدلت من مشاعر هذه المرأة نحوي بدرجة ملموسة.. ومن المحقق أن هذا التبدل لم يكن في صالحي.

فماذا كان موضوع الحديث - إذن - خلال هذه الخطوات العجيبة؟.. وما السر في هذا الغموض العميق؟.. وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبا إلى درجة اعتباره نعمة، أو مهما إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الغموض حوله؟..

لقد بدت لي هذه الاجتماعات مضحكة، خلال السنوات الثلاث أو الأربع التي دامتها، ولكني عندما تدبرتها بدأت أعجب منها، وكان هذا الشعور بالعجب كفيلا بان ينتهي إلى عدم الارتياح، لو انني عرفت – إذ ذاك – ما كانت هذه المراة تتآمر عليه ضدي.

وعلى قدر ما كان "جريم" يتظاهر به من تحمس من اجلي – كان يطنطن به المجتمع، وكان من العسير ان يتفق مع المسلك الذي راح يسلكه نحوي بالذات – فإنني لم اكسب شيئا من هذا التحمس، من اية ناحية.. بل إن الإشفاق الذي كان يتظاهر به نحوي ادى إلى الحط من قدري اكثر مما ادى إلى نفعي، بل إنه – بقدر ما كان يملك – قد جردني من أرباح المهنة التي اخترتها لنفسي؛ إذ راح يعلن أنني لم اكن اتقن النسخ، واقر انه كان صادقا في قوله غير انه لم يكن مما يليق به ان يقوله، وقد ايقنت انه لم يكن مازحا؛ إذ إنه استخدم ناسخا غيري، ولم يدع لي عميلا كان يستطيع إليه وصولا، حتى ليجوز أن يقال إن غايته كانت تتمثل في ان يجعلني عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلني وذلك بان يستنفد مواردي؛ حتى انحدر إلى مثل هذه الحال!

اما وقد المت بكل هذا فقد بادر عقلي إلى فرض الصمت على آرائي السابقة في "جريم"، وهي الآراء التي كنت قد ظللت ارددها – لصالحه – حتى ذاك الحين، ورايت ان اخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات، على الاقل. اما وده وصداقته، فقد قطعت بانهما زائفتان؛ وإذ عقدت العزم – بناء على ذلك – الا اراه ثانية، فقد بادرت إلى إنباء السيدة "ديبيناي" بذلك، وعززت قراري بعدة مبررات لا سبيل إلى ردها، وإن كنت قد نسيتها الآن!

ولقد عارضت السيدة "ديبيناي" هذا العزم بشدة، دون ان تدري تماما ما ترد به على الحجج التي اقرت رأيي، ولم تكن قد شاورته في الامر بعد، ولكنها بدلا من ان تفصح عن موقفها شفويا إليّ ارسلت – في اليوم التالي – خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا، وقد التمست لـ"جريم" فيه العذر – دون خوض في تفصيلات اي شيء – استنادا إلى طباعه المنطوية، واعتبرته جرما أن اتهمه بخيانة صديقه، وحضتني على أن اصلح ما بيننا، ولقد زعزع خطابها عزمي!.. وفي حديث دار بيننا بعد ذلك – وجدتها خلاله احسن استعدادا منها في المرة الأولى – ارتضيت ان انهزم، وملت إلى الاعتقاد بانني ربما كنت قد اسات الحكم، وأنني – في هذه الحال – قد أخطأت فعلا في حق صديق، اشنع خطأ، مما كان يلزمني بإصلاح ذات البين. وبالإيجاز، فعلت في هذه المرة، ما فعلته عدة مرات من قبل إزاء "ديدرو" والبارون "دولباخ".. واقدمت طواعية – من ناحية – وبدافع من ضعفي، من ناحية اخرى، على كل هذه المساعي، التي كان عليّ ان افعلها: فذهبت – "كجورج داندان" آخر (١) – لزيارة "جريم"؛ كي اعتذر له عن الإهانات التي ارتكبها هو ضدي؛ إذ كنت منساقا دائما للاعتقاد الخاطىء، الذي عرضني طيلة عمري لالف صغار وضعة امام اصدقائي المزعومين.. الاعتقاد بانه ما من بغضاء تصل في قوتها إلى درجة يستعصي معها على اللطف وحسن التصرف ان يغلباها.. في حين ان الامر على النقيض، فإن كراهية الخبثاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها، كما ان شعورهم بذنوبهم لا يؤدي إلا إلى زيادة حقدهم على ضحيتهم!

وعندي – بدون خروج عن سياق قصتي – دليل جد قوي على هذه النظرية، يتمثل في تصرف "جريم" و"ترونشان" اللذين صارا الد عدوين لي، عن ميل، وعن لذة، وعن نزوة، دون أن يملكا قط أن يذكرا واقعة واحدة – من اي نوع كانت – اكون قد آذيت بها ايا منهما.. وكان هياجهما –

(١) "جورج داندان" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" الفكهة "الزواج المخجول"، ولقد كان "داندان" فلاحا تزوج من امراة من بنات الاسرات العريقة ذات الجاه.

كهياج النمر - يزداد يوما بعد يوم؛ نظرا للسهولة التي كانا يستمرئانه بها!

*****

ولقد توقعت أن يستحي "جريم" من تنازلي، ومن مساعي للصلح؛ فيتلقاني بذراعين مفتوحتين، وبارق العواطف. ولكنه - في الواقع - استقبلني وكأنه إمبراطور روماني.. في ترفع لا مثيل له، ولم أكن على استعداد إطلاقا لهذا الاستقبال؛ وإذ ارتبكت لاضطراري إلى أن أؤدي دورا كهذا لا يلائمني، أوضحت غرض زيارتي في بضع كلمات مترددة، وقبل أن يتقبلني في جنة رضاه، راح يلقي - في كثير من التعاظم - حديثا طويلا، كان قد أعده من قبل وضمنه عددا من سجاياه النادرة، لا سيما في مضمار الصداقة، وأسهب فترة في ذكر أمر أثر في نفسي كثيرا في البداية: ذلك هو أن الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه، وفيما كان يتكلم رحت أقول لنفسي: إن من القسوة - من ناحيتي - أن أكون المستثنى الوحيد من هذه القاعدة، ولقد أكثر من العودة إلى هذا الأمر، في تكلف بالغ، حتى إنه جعلني - في النهاية - أرى أنه إذا لم يكن منساقا في هذا لغير أحاسيس قلبه لكان أقل تأثرا بهذا الأمر الذي انطلق في شرحه مسهبا.. وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها إلى الغاية التي يقصدها من آرائه هذه!.. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - على مثل هذه الحال: فلقد اعتدت دائما أن أحتفظ بأصدقائي، وما فقدت - منذ طفولتي - واحدا منهم اللهم إلا بالموت، ومع ذلك فإنني لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلا أطيل التفكير فيه.. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسي.

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده، اللهم إلا إذا كان قد فكر فعلا في أن يجردني منها؟.. ولقد عمد - بعد ذلك إلى الحط من قدري، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه عليّ أنا!.. وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل، ولكن المهم في الأمر، هو: بأي ثمن ظفر به؟.. أفكان ذلك لأنه أوتي مواهب أو براعة تفوق مواهبي أو براعتي.. أو لأنه كان يرقى بنفسه، أو لأنه كان يسعى إلى الحط من قدري؟.. وأخيرا، وبعد أن أرضى نفسه بأن أقام بيني وبينه من الفوارق ما يكفي لأن يجعل للعفو الذي كان يوشك أن يمنحه قيمة منحني قبلة صلح، في عناق واهن، كذلك الذي يتكرم به الملك على من ينصبهم فرسانا.. وهويت من المكان العالي.. ووجدتني مشدوها، لا أدري ما ينبغي أن أقول، بل إنني لم أعثر على كلمة واحدة.. لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه أستاذ إلى تلميذ وهو يعفيه من عقوبة الضرب!.. وما فكرت في ذلك قط إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذي يقوم على المظاهر - والذي يضفي عليه السوقة أهمية وقيمة - وبكثرة ما تكون الجرأة والكبرياء من حظ المذنب.. والحياء والارتباك من حظ البريء.

واصطلحنا!.. كان هذا عزاء - على الأقل - لقلبي الذي كان كل خلاف يدفع به إلى اللواعج القاتلة!.. ومن الصواب أن يحدس المرء أن مثل هذا الصلح لم يبدل من أخلاق "جريم" وتصرفاته.. وكل ما أدى إليه هو تجريدي من حق الشكوى من هذه التصرفات!.. ومن ثم فقد عولت على أن أتحمل كل شيء، دون أن أخفض بشيء ما!



هذه الهموم الكثيرة التي تعاقبت ضرباتها، واحدة بعد أخرى، طوحت بي إلى حال من الضنى لم تدع في كياني جهدا ليمكنني من ان استعيد السيطرة على نفسي.. وإذ لم أكن قد تلقيت أي رد من "سان - لامبير"، وقد أصبحت موضع إهمال لدى السيدة "دوديتو"، ولم أعد اجرؤ على ان ابوح بما في قلبي لإنسان ما؛ فقد بدأ الخوف يراودني من ان أكون قد ضيعت حياتي ضحية للأوهام؛ إذ جعلت من الصداقة معبودا لقلبي!.. وكان الدليل على هذا قائما؛ إذ لم يكن قد بقي لي - من كل اصدقائي - سوى رجلين، ظلا محتفظين بتقديري، وكان قلبي يركن إليهما ويأمنهما: "ديدرو" - الذي حرمت من رؤيته منذ اعتكافي في "ليرميتاج" - و"سان لامبير"

ووقر في نفسي انني لن استطيع ان اصلح من أخطائي نحو هذا الأخير، إلا بأن افتح له مغاليق قلبي دون تحفظ.. فعزمت على أن اعترف له اعترافا كاملا، بكل ما لا يحرج عشيقته، ولم يخطر لي ببال، ان هذا الاختيار، كان احبولة أخرى نصبها لي هواي؛ ليقربني من السيدة.. ولكن من المحقق انني كنت على استعداد لان القي بنفسي بين ذراعي عشيقها دونما تحفظ، وان انصاع لإرشاده انصياعا تاما، وان امضي في صراحتي إلى أبعد مدى استطيع الوصول إليه!

وكنت على استعداد لان اكتب إليه رسالة ثانية، وأنا موقن من انه سيجيب عنها عندما علمت بالسبب المحزن الذي دعاه إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى: ذلك انه لم يتحمل إرهاق الحملة، وقد اخبرتني السيدة "ديبيناي" بانه اصيب بنوبة فالج، كما ان السيدة "دوديتو" - التي انتهى بها الغم إلى ان مرضت هي الأخرى، والتي لم تكن في حال تمكنها من الكتابة إليّ في الحال - ارسلت إليّ كلمة، بعد يومين او ثلاثة، من "باريس" - حيث كانت في ذلك الحين - وقالت إن "سان - لامبير" رغب في ان ينقل إلى "آكس لاشابيل"؛ ليستشفي بمياهها، ولن اقول إن هذا النبأ المحزن أسقمني كما اسقمها، ولكني ارتاب في ان الأسى الذي بعثه في نفسي كان اقل إيلاما من لوعتها ودموعها!.. فإن الاغتمام الذي نشأ عن معرفة انه كان في حال كهذه تضاعف من جراء الخوف من ان يكون القلق النفسي (١) قد ساهم في ذلك، مما كان له في نفسي أثر قلق كل ما جرى لي شخصيا، وتولاني شعور قاس بأنني - في تقديري الخاص لنفسي - كنت أفتقد القوة المنشودة لكي احتمل مثل هذا الأسى!

على أن هذا الصديق الكريم، لم يدعني طويلا، في مثل هذا الهم - لحسن الحظ - إذ إنه لم ينسني، بالرغم من مرضه، وما لبثت ان علمت منه شخصيا انني كنت قد أسأت الحكم على مشاعره وحاله!

ولكن الوقت قد حان؛ لكي انتقل إلى الانقلاب الكبير - والمفاجئ - الذي طرأ على مصيري.. إلى النكبة التي شطرت حياتي شطرين متباينين، والتي أدت - من جراء سبب جد تافه - إلى عواقب فظيعة!

*****

ذلك ان السيدة "ديبيناي" ارسلت - ذات يوم - تستدعيني، على غير توقع البتة. فلما ولجت مخدعها لمحت في عينيها، وفي أساريرها كلها ما يوحي بأنها كانت مضطربة، الأمر الذي زاد من دهشتي؛ إذ إنه لم يكن مألوفا، فما كان في الدنيا من يحذق السيطرة على أساريره وحركاته مثلها!..

(١) القلق النفسي الذي نشأ عن غضب "سان - لامبير" من علاقة "روسو" بعشيقته.

وقالت لي: "إنني راحلة إلى "جنيف" ياصديقي، فإن صدري في حالة سيئة، وصحتي في انهيار يجعلني اهمل كل شيء؛ إذ لابد لي من الذهاب كي ازور "ترونشان" واستشيره".. ولقد ادى هذا القرار – الذي اتخذ بغتة، وفي بداية الفصل السيئ (١) – إلى مضاعفة دهشتي.. فهي لم تشر بكلمة واحدة إلى هذا الأمر، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين ساعة!.. وسالتها عمن تعتزم اصطحابه، فقالت: إنها كانت راغبة في ان تصطحب ابنها والسيد "دي ليـنان"، ثم اضافت في غير اكتراث: "وانت يا "ديي".. الا تاتي انت الآخر؟". ولما كنت موقنا من انها لم تكن جادة في حديثها – إذ كانت تعلم انني في مثل تلك الآونة من السنة، التي كنا مقبلين عليها، اكون في حال لا تكاد تسمح لي بمبارحة مخدعي – فقد رحت اتفكه ساخرا من رفقة معلول لمعلول آخر!.. وما كانت هي نفسها تعني ما عرضت؛ ومن ثم فإن الامر انتهى عند هذا الحد، ولم نعد نتحدث إلا عن الاستعداد للرحلة، وهو الأمر الذي انهمكت فيه بكل همة، وعقدت العزم على ان تسافر بعد خمسة عشر يوما.

ولم اكن بحاجة إلى كثير من بعد النظر؛ لكي ادرك أن ثمة دافعا خفيا على هذه الرحلة، كتم عني. وهذا السر – الذي لم يكن سرا على احد سواي في البيت كله – لم يلبث ان تكشف في اليوم ذاته بوساطة "تيريز". فقد انباها به كبير الخدم؛ إذ سمعه من وصيفة السيدة!.. ومع انني بعيد عن اي التزام – نحو السيدة "ديبيناي" – يضطرني إلى كتمان هذا السر؛ لانني لم اعرفه منها إلا انه وثيق الارتباط باولئك الذين نمي إليّ عن طريقهم؛ ومن ثم فليس في وسعي أن ابوح به. على ان هذه الأسرار – التي لم تخرج، ولن تخرج، من فمي، او على قلمي – لم تلبث ان غدت معروفة لدى كثير من الناس فلم يكن في الوسع ان تظل مجهولة لدى احد من المحيطين بالسيدة "ديبيناي" (٢).

ولقد كان خليقا بي – عندما الممت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة – ان اتبين ان ثمة إيعازا خفيا من عدو لي حاول ان يجعل مني مرافقا للسيدة "ديبيناي". ولكنها لم تلح عليّ البتة كي أرافقها؛ ومن ثم فإنني ظللت اعتبر المحاولة امرا غير جدّي.. ولم افعل أكثر من ان ضحكت من الشكل الذي كنت أوشك ان اظهر فيه، لو أنني كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة. وبجانب هذا، فإنها كسبت برفضي كثيرا؛ إذ مكنها هذا من أن تغري زوجها بمصاحبتها!

وبعد أيام قلائل، تسلمت الرسالة التالية من "ديدرو". وكانت هذه الرسالة مطوية طيتين، بحيث يستطيع اي امرىء أن يقرأ محتوياتها، وكان العنوان يحمل اسمي مردفا بهذه العبارة: "عن طريق السيدة "ديبيناي"، وعهد بها إلى السيد "دي ليـنان"، استاذ الابن ومستودع الام!

رسالة من "ديدرو"

(الملف ١ – رقم ٢٥)

"لقد خلقت لكي احبك ولكي اؤلمك. لقد علمت أن السيدة "ديبيناي" راحلة إلى "جنيف"،

---

(١) يقصد فصل الشتاء. (٢) كان الدافع السري للرحلة – كما غدا معروفا – هو ان السيدة "ديبيناي" حملت؛ نتيجة علاقتها بالسيد "جريم". ولقد كان من العجيب حقا ان تصحب معها – في رحلة كهذه – ابنها والمربي الذي كان يعني به. بل الانكى من هذا، ان زوجها نفسه رافقها حتى "جنيف"!.. وكان الاعجب انها اختارت "جنيف" بالذات لتضع حملها الأثيم؛ ذلك لانها ما كانت لتجد الستر المنشود هناك؛ إذ كان مجرد وجودها يجتذب الأنظار إليها.. على ان هذه المتناقضات جميعها، كانت في حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة!

بقي دور "روسو" في هذه الواقعة. فلقد كانت الدعوة التي وجهت إليه – دون اكتراث – حيلة اخرى، قصد بها إرضاء غرور السيدة "ديبيناي"، بظهور فيلسوف مثله في ركابها.. كما ان "جريم" وعشيقته استغلاها في إظهاره بمظهر الجاحد بفضل السيدة التي منحته مسكنا واولته ودها!

ولم اسمع بانك مرافق إياها. فإذا كنت راضيا عن السيدة "ديبيناي"، يا صديقي، فمن الواجب ان ترحل معها.. اما إذا كنت مستاء منها فمن الواجب ان تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل. افأنت ترزح - اكثر مما ينبغي - باثقل التزامات ابهظتك بها؟.. إذن، فهناك فرصة لكي تؤدي بعضا منها، ولكي تخفف من اعبائك. فهل ستجد فرصة اخرى في حياتك لإظهار عرفانك بجمائلها؟.. إنها ذاهبة إلى بلدة ستكون فيها كمن هبطت من اطواء السحاب. وإنها لمريضة، وستكون بحاجة إلى تسرية وترويح.. اتقول الشتاء ؟!.. الا انظر ياصديقي!.. إن حجة صحتك قد تكون اقوى مما يخطر ببالي، ولكن، هل نراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهور.. ومما ستكون في مطلع الربيع؟.. هل ستكون الرحلة مريحة لك - بعد ثلاثة أشهر - اكثر مما هي اليوم؟.. إنني اصارحك - فيما يتعلق بي - بانني إذا لم احتمل العربة، لاعتمدت على عصاي، وتبعتها!

"ثم، الا تخشى ان يسيء الناس تاويل مسلكك؟.. لسوف تتهم بالجحود، او بان لديك حافزا خفيا، وإني لادرك تماما انك ستجد قلبك يشهد دائما لضميرك، مهما يكن ما تفعل.. ولكن، هل تكفيك هذه الشهادة في حد ذاتها، وهل من المباح أن تهمل شهادة الغير، إلى حد ما؟

"وعدا ذلك، ياصديقي، اكتب هذا الخطاب وفاء لواجب التزم به نحوك ونحو نفسي. فإذا لم يرق لك، فطوح به إلى النار، ولا تفكر فيه بعد ذلك، وكانني لم اكتبه قط.

"وإني لاحييك، واحبك، واقبلك".

وتولتني انتفاضة الغضب، واستبد بي الذهول؛ إذ قرات هذه الرسالة التي وجدت عناء في ان اتمها. ولكن ذلك لم يلهني عن ان الاحظ اللهجة التي اصطنعها "ديدرو" ليبدو مسرفا في اللطف، وفي الترفق، وفي الإخلاص، عما اعتاد في رسائله الأخرى، دون ان يضن عليَّ بلقب "الصديق"، وتبينت الطريق غير المباشرة التي جاءتني هذه الرسالة خلالها.. فقد كان العنوان، والأسلوب، والطريقة التي وصلت بها تنم عن مداورة سيئة الغرض؛ ذلك لأننا اعتدنا ان نتكاتب عادة، عن طريق البريد، أو عن طريق حامل الرسائل في "مورنمورنسي". وقد كانت هذه هي المرة الاولى، والوحيدة، التي نهج فيها هذا النهج!

❀❀❀❀❀

وعندما سمحت أولى نوبات الغضب للكرامة بالكتابة بادرت إلى تحرير الجواب التالي، الذي حملته لفوري، من "ليرمبتاج" - حيث كنت إذ ذاك - إلى "لاشيفريت"؛ لاطلع عليه السيدة "ديبيناي"؛ إذ رغبت - في غضبي الأعمى - ان اقراه عليها بنفسي، كما اطلعها على رسالة "ديدرو":

"يا صديقي العزيز، إنك لا تستطيع ان تعرف مدى التزاماتي نحو السيدة "ديبيناي"، ولا المدى الذي تذهب إليه هذه الالتزامات في ربطي إليها، ولا ما إذا كانت السيدة بحاجة حقا إلى شخصي - في رحلتها - ولا ما إذا كانت راغبة في ان ارافقها، ولا ما إذا كان هذا في إمكاني، ولا الأسباب التي قد تكون لديَّ لامتنع عن مرافقتها.. ولست آبى ان اناقش هذه النقاط معك. وإلى ان يتم ذلك احب ان تقر معي أن إملاءك عليَّ - بهذا الاعتداد - ما ينبغي عليَّ عمله، دون أن تكون في وضع يمكنك من الجزم، لهو - يافيلسوفي العزيز - عين اللغو!

"واسوا ما في الامر أنني أرى أن هذا ليس رايك، ولا هو صادر عنك. هذا، بغض النظر عن أنني

غير مستعد لان ادع نفسي منساقا لطرف ثالث او رابع تحت اسمك.. وإني لأجد في هذه التصرفات غير المباشرة مداورة لا تتمشى مع صراحتك، ويحسن بك ان تتجنبها في المستقبل، لصالح كل منا!
"اراك تخشى ان يساء تاويل مسلكي، ولكني اتحدى قلبا كقلبك ان يجرؤ على إساءة الظن بي.
اما الآخرون فلعلهم يتحدثون عني بخير، لو انني شابهتهم. فلعل الله يصونني من ان اكسب رضاهم!.. ودع اللئام يتجسسون عليَّ، ويؤولون مسلكي كما يحلو لهم. فإن "روسو"، ليس بالذي يخشاهم، كما ان "ديدرو" ليس بالذي ينصت إليهم!
"إنك تريدني ان اطوح برسالتك إلى النار، إذا لم ترق لي، وألا فكر فيها بعد الآن. افتظن ان من السهل نسيان ما يفد منك؟.. إنك تسترخص دموعي، ياصديقي العزيز، بالآلام التي تسببها لي، كما تسترخص حياتي وصحتي، بالهموم التي تثيرها. فإذا استطعت ان تصحح هذا فستظل صداقتك دائما من اعذب ما انعم به، ولسوف يقل ما اعانيه من رسالتك!".

وإذ ولجت مخدع السيدة "ديبيناي"؛ وجدت "جريم" معها مما اطربني. فقرات عليهما - بصوت عال، واضح - الرسالتين، في هدوء نفس ما كنت لأؤمن بانني قادر عليه حتى إذا فرغت اضفت بضع ملاحظات لم تنم عما وراء ذلك الهدوء، ورايت ان هذه الجراة غير المتوقعة، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة، قد ادهشتهما واذهلتهما معا. فلم يجيبا بكلمة واحدة، ورايت - فوق ذلك - ان الرجل المتعجرف قد غض بصره، ولم يقو على ان يصمد امام شرر نظراتي ولكنه في اللحظة ذاتها، عاهد نفسه - في اعماق قلبه - على القضاء عليَّ، وإني لموقن من انه والسيد "ديبيناي" قد اجمعا على ذلك قبل أن يفترقا!

وحدث في حوالي تلك الآونة ان تلقيت - عن طريق السيدة "دودويتو" - رسالة من "سان - لامبير" (الملف ١ - رقم ٥٧).

وكان قد ارسلها من "ولفينبوتيل" قبيل مصابه بايام قلائل، ردا على رسالتي، ولكنها تاخرت طويلا في الطريق، وقد اتاح لي هذا الجواب شيئا من العزاء كنت في اشد الحاجة إليه في تلك الاونة؛ لما زخر به من دلائل التقدير والصداقة، مما بث في نفسي القوة والجراة لكي اكون اهلا لذلك، ولقد رحت - منذ تلك اللحظة - اؤدي واجبي ولكن من المحقق انني كنت موشكا على ان اضل، دون رجعة، لو ان "سان - لامبير" ظهر بمظهر اقل حكمة وكرما وإخلاصا!

*****

واصبح الجو رديئا، وشرع الناس في مغادرة الريف، وانباتني السيدة "دوديتو" باليوم الذي اعتزمت فيه ان تاتي لتودع وادينا، وضربت لي موعدا للقاء في "اوبون"، وشاءت المصادفة ان يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي حدد لرحيل السيدة "ديبيناي" عن "لاشيفريت" إلى "باريس"؛ لكي تستكمل استعدادها النهائي لرحلتها، ولقد سافرت في الصباح - لحسن الحظ - فانفسح امامي الوقت بعد رحيلها؛ كي اذهب فاتناول الغداء مع اخت زوجها، وكنت احمل رسالة "سان - لامبير" في جيبي، فرحت اقرؤها مرارا اثناء سيري، وإذا بها بمثابة درع وقائي من ضعفي، وعاهدت نفسي - وصنت عهدي هذا - على الا ارى في السيدة "دوديتو" سوى صديقة لي، وعشيقة صديق لي!

وقضيت معها اربع ساعات او خمسا، في خلوة ناعمة، وادعة، مستحبة للغاية.. حتى بالنسبة لنوبات الحمى اللاهبة التي كنت اكتوي بها في قربها حتى ذاك الحين!.. ولما كانت تعلم عن يقين ان

قلبي لم يتحول فقد ادركت الجهود التي رحت ابذلها لاسيطر على نفسي، فازدادت تقديرا لي، وسرني ان رايت ان صداقتها لي لم تخب او تفتر، ولقد انبائتني بقرب عودة "سان - لامبير" الذي لم يعد في صحة تمكنه من احتمال عناء الحرب برغم انه كان قد شفي تقريبا من مرضه؛ ومن ثم فقد راى ان يترك الخدمة العسكرية؛ لكي يعيش معها في سلام، ورحنا نرسم خطة بديعة، لصحبة وثيقة تضم ثلاثتنا، وقد كان لنا امل ان يؤدي تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية؛ إذ راينا انها كانت تقوم على اساس من جميع المشاعر التي تربط بين القلوب المستقيمة، الصالحة، الحساسة.. وكنا نجمع في نفوسنا الثلاث من المواهب والمعرفة، ما لا يدع لنا حاجة إلى اي غريب عنا.. فواحسرتاه!.. لم اكن - وانا استسلم للرجاء في حياة بمثل هذه العذوبة.. لافكر قط فيما كان يخبئه لي المستقبل!

وما لبثنا ان تحدثنا في موقفي الراهن إزاء السيدة "ديبيناي"؛ فاطلعتها على رسالة "ديدرو"، وعلى ردي، وفصلت لها كل ما جرى في هذا الشان، وافضيت إليها بعزمي على ان افارق "ليرميتاج"؛ فعارضته بشدة، وبحجج ذات اثر غلاب على قلبي، واوضحت لي كم انها كانت تتمنى لو انني قمت بالرحلة إلى "جنيف"، فقد تنبات بانها لن تلبث ان تقحم في هذا الرفض الذي صدر مني، وان رسالة "ديدرو" تكاد تعلن هذا مقدما. بيد انها لم تتشبث بهذه المسالة؛ إذ كانت تعلم قوة الدواعي والاسباب التي حملتني على الرفض، كما كنت اعلمها تماما ولكنها استحلفتني ان اتفادى كل ضجة، مهما يكن الثمن الذي يكبدنيه ذلك، وان الطف من آثار رفضي بحجج مقبولة تبدد اي شك ظالم بان لها يدا في الامر، وقلت لها إن المهمة التي تفرضها عليَّ لم تكن بالبسيطة الهينة، غير انني قد آليت على نفسي ان اكفر عن اخطائي، وان اقدم سمعتها على سمعتي، في كل ما يسمح لي الشرف باحتماله، وان يلبث ان يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعهد.

وبوسعي ان اقسم بان هواي التعس وإن لم يفقد شيئا من عنفوانه، إلا انني لم اشغف يوما بـ "صوفي" الحبيبة كما كنت مشغوفا في ذلك اليوم بيد ان رسالة "سان - لامبير"، وشعوري بالواجب، ونفوري من الخيانة تركت اثرا طاغياعلى نفسي طيلة هذا اللقاء، حتى إن شهواتي فارقتني وخلفتني معها في سلام، بل حتى إنني لم اجد ما يغريني على ان اقبل يدها!.. فلما حان الفراق قبلتني بمرآى من خدامها، وكانت هذه القبلة - التي خالفت ما كنت استرقه منها احيانا، تحت الاشجار - برهاناً اكد لي انني قد غدوت مسيطرا على نفسي، واكاد اوقن بانه لو اتيح لقلبي الوقت لكي يعزز نفسه في هدوء لكانت ثلاثة اشهر اكثر من الكفاية لشفائه تماما!

*****

وهنا انتهت علاقاتي الشخصية بالسيدة "دوديتو".. العلاقات التي يستطيع اي امرئ ان يحكم عليها من المظاهر، وفقا لطبيعة فؤاده، وإن كان من المحتمل ان الوجد الذي اذكته في قلبي هذه المراة الرقيقة، هو اقوى وجد شعر به اي رجل على الإطلاق، وسيبقى دائما مجدا مكرما لدى السماء ولدينا بفضل التضحيات الفذة، والاليمة، التي قدمناها - كلانا - في سبيل الواجب، والشرف، والحب، والصداقة!.. لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارا اسمى من ان يسمح لنا بان نخزي نفسينا او نستذلهما!.. وكان لابد لنا من ان نغدو غير جديرين باي تقدير او احترام البتة، إذا شئنا ان ننزل عن اي من هذه القيم العليا.. بل إن احتدام مشاعرنا - الذي كان كفيلا بان يجعلنا آثمين - كان هو الذي حال بيننا وبين ان نغدو كذلك!

وهكذا ودعت هاتين المراتين معا، في يوم واحد، بعد صداقة طويلة لإحداهما، وحب عميق للأخرى.. ودعتهما، وقد قدر لي الا ارى واحدة منهما بعد ذلك قط، بقية حياتي.. والا ارى الثانية إلا مرتين فحسب، وفي مناسبتين سأوردهما فيما بعد.

ووجدتني بعد رحيلهما في حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة، الملحة، المتناقضة، التي ترتبت على حماقتي وعدم حكمتي، ولو انني كنت في وضعي العادي، بعد اقتراح تلك الرحلة إلى "جنيف" ورفضي إياها لما كان عليّ سوى ان امكث قريرا مطمئنا، ولما كان ثمة ما يقال، بعد الذي قيل بهذا الصدد ولكنني بغبائي جعلت منه مسالة لم يكن من الميسور ان تبقى على وضعها، ولم اكن املك ان اتفادى اي اضطرار إلى تفسير مسلكي بشانها، إلا بمبارحة "لميرميتاج".. وهو الامر الذي وعدت السيدة "دوديتو" بالا افعله.. ولو لفترة من الزمن، على الأقل. فضلا عن انها كانت قد استحلفتني ان ابرز رفضي لدى اصدقائي المزعومين، بحيث لا تقحم هي في هذا الرفض، ومع ذلك فإنني لم اكن املك ان اعلن السبب الحقيقي دون مساس بالسيدة "ديبيناي"، التي كنت مدينا لها ببعض العرفان – دون ادنى شك – بعد كل الذي فعلته من أجلي.

وإذ تدبرت كل هذا مليا وجدتني اواجه اختيارا عسيرا، ولكنه لازم، لا مفر منه: ذلك هو ان اغض من قدر السيدة "ديبيناي"، او قدر السيدة "دوديتو"، او قدر نفسي، واخترت الوضع الأخير.. واخترته بشمم، وعن طيب خاطر، ودون تذمر بل وفي كرم كفيل بان يمحو الذنوب التي انحدرت بي إلى هذا الدرك، ولقد ادت هذه التضحية – التي يحتمل ان يكون اعدائي قد توقعوها، والتي عرفوا كيف يستغلونها – إلى القضاء على سمعتي، وجردتني – بفضل جهودهم – من تقدير الجمهور إياي، ولكنها ردت إليّ تقديري نفسي، وسرت عني في محنتي وضائقاتي! وليست هذه هي المرة الأخيرة، التي اقدم فيها على تضحيات مماثلة – كما سيتجلى فيما بعد – ولا هي آخر مرة يستغلون فيها التضحية للنيل مني!

وكان "جريم" هو الوحيد الذي بدا انه لم يشترك في هذه المسالة، وقد رايت ان اتوجه إليه؛ فكتبت إليه رسالة طويلة اوضحت فيها سخف الرغبة في النظر إلى اشتراكي في رحلة "جنيف" كواجب مفروض عليّ، وعدم جدواها، وكيف انني كنت خليقا بان اكون مصدر متاعب للسيدة "ديبيناي" خلالها، والمضايقات التي كان من المحتمل ان تترتب عليها؛ ولم استطع ان اقاوم الإغراء الذي راودني نحو إطلاعه – في هذه الرسالة – على انني كنت على علم بسبب الرحلة، وذكرت انه كان من بواعث عجبي ان يزعم احد ان الواجب كان يدعوني إلى القيام بهذه الرحلة في الوقت الذي اعفي هو فيه منها بل ولم يذكر اسمه بصددها.

هذا الخطاب الذي عجزت فيه عن ان اذكر حججي بجلاء؛ ومن ثم فقد اضطررت إلى المداورة والمراوغة.. هذا الخطاب كان كفيلا بان يظهرني للراي العام بمظهر الموغل في الذنوب، بيد انه كان نموذجا للرزانة والحكمة لاولئك الذين كانوا على شاكلة "جريم" ملمين بالحقائق التي لم اذكرها، والتي كانت تبرر مسلكي اكمل تبرير. بل إنني لم احجم عن ان اورد زعما كان في غير صالحي اكثر مما كان في صالحي، وذلك بان نسبت راي "ديدرو" إلى اصدقائي الآخرين؛ لاوحي بان السيدة "دوديتو" كانت تعتنق نفس الراي – وهو الواقع فعلا – وإن تحاشيت ان اذكر انها قد عدلت عن رايها هذا امام حججي، وما كنت لاستطيع ان ادفع عنها شبهة التواطؤ معي بافضل من ان ابدو – في تلك المناسبة – على استياء منها.

واختتم هذا الخطاب بعرض للشقة كان كفيلا بأن يحرك عواطف اي إنسان آخر.. فبينما ناشدت "جسريم" ان يتأمل حججي جيدا، وأن ينبئني – بعد ذلك – برايه، اوحيت إليه انني ساخذ بهذا الراي، مهما يكن، وقد كان هذا عين ما انتويت – في الواقع – حتى لو انه اشار بوجوب سفري. ذلك؛ لانه لما كان السيد "ديبيناي" قد اضطلع بعبء مرافقة زوجته فإن مرافقتي إياها كانت خليقة بان تتخذ مظهرا مخالفا لما كانت ستتخذه من قبل؛ إذ كنت إذ ذاك قد سئلت ان اقوم بهذا الواجب، ولم يكن للسيد "ديبيناي" اي ذكر إلا بعد ان رفضت!

*****

وتاخر رد "جريم" بعض الوقت، فلما جاء إذا به رد غريب، انقله هنا (الملف أ – رقم ٥٩):

"لقد أرجئ رحيل السيدة "ديبيناي"؛ فإن ابنها مريض، وقد اضطرت إلى الانتظار إلى ان يعافى. سافكر في خطابك، فامكث هادئا في "ليرميتاج"، وساطلعك على رايي في حينه، ولما كان من المحقق انها لن ترحل قبل بضعة ايام فليس ثمة داع للعجلة، وفي هذه الاثناء في وسعك ان تعرض عليها مرافقتك إياها، إذا رايت ذلك مناسبا، وإن كان يلوح لي ان هذا لن يغير من الامر؛ ذلك لانني لا ارى اي شك – وانا لا اقل عنك علما بوضعك – في انها ستقابل عرضك بما ينبغي، ويبدو لي ان كل ما يمكن كسبه بذلك هو انك ستستطيع ان تقول لأولئك الذين يهيبون بك ان ترحل انك إذا لم ترحل فلن يكون ذلك راجعا إلى تقصير منك في عرض خدماتك.

"وما عدا هذا لا استطيع ان افهم السر في انك ترى ان من الضرورة اللازمة ان يكون الفيلسوف هو البوق الذي ينقل إليك صوت الناس اجمعين، ولا السر في انك تتصور ان كل اصدقائك يرون ضرورة سفرك، لمجرد انه نصحك بالسفر!.. ولو انك كتبت إلى السيدة "ديبيناي" فإن ردها قد ينفعك في الرد على هؤلاء الاصدقاء، مادمت تقيم كل هذا الوزن للإجابة عليهم!

"وداعا.. تحياتي للسيدة "لوفاسير" ولـ"كريمنيل" (١).

وبهت دهشة اذ قرات هذا الخطاب، ورحت أبحث في قلق عما قد يكون وراء معناه الظاهري، ولكن بحثي ذهب سدى. فيا للعجب!.. ابدلا من ان يرد عليّ رسالتي ببساطة، يستمهلني كي يفكر فيها، وكأنما الوقت الذي استغرقه لم يكن كافيا؟!.. بل إنه ليطلعني على الموقف المعلق الذي يرغب في ان يستبقيني فيه وكانه يفكر في مشكلة عويصة مستعصية الحل، او كانه يرى ان يحرمني كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه، إلى ان تحين اللحظة التي يراها للكشف عن هذا الإحساس. فما الذي يعنيه هذا الاحتياط، وهذا الإرجاء، وهذا التكتم، إذن؟.. افعلى هذا المنوال يرد المرء على الثقة؟.. افيبدو هذا تصرفا مستقيما، شريفا؟.. عبثا بحثت عن تأويل مواتٍ يبرر هذا التصرف فإنني لم اجد!

ومهما تكن نيته فإن مركزه كان يجعل تحقيقها سهلا عليه، إذا كانت موجهة ضدي.. في حين انه كان من المستحيل عليّ ان اضع اية عقبة في طريقه؛ فلقد كان ذا حظوة في دار امير كبير، وكان كثير الاصدقاء في المجتمع، وكان بوسعه – كنجم لامع، مسموع الكلمة في الاوساط التي كنا معروفين لديها معا – ان ينفذ غاياته وفق هواه، بدهائه المألوف.. في حين انني – وحيدا في "ليرميتاج"، بعيدا عن الجميع. بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجي – لم اكن املك ان افعل شيئا، اللهم إلا

(١) اطلق "جريم" هذا اللقب على "تيريز"

ان انتظر، وامكث صامتا، وكان كل ما فعلته هو ان كتبت إلى السيدة "ديبيناي" - بصدد مرض ابنها - خطابا مهذبا بقدر ما استطعت، دون ان انساق فيه إلى شرك عرض استعدادي لمرافقتها في رحلتها.

وبعد انتظار طويل في القلق الشديد الوطأة الذي القاني فيه هذا الرجل الفظيع سمعت - بعد ثمانية ايام او عشرة - ان السيدة "ديبيناي" قد سافرت، وتلقيت منه خطابا ثانيا لم يشتمل على اكثر من سبعة اسطر او ثمانية، ولم اتم قراءتها حتى آخرها؛ إذ إنها اعلنت قطيعة بيننا، ولكن في عبارات بدت سخيفة حمقاء؛ لفرط تلهفه على ان يجعلها جارحة. فلقد حرم عليَّ أن أظهر في محضره، وكأنه يحرم علي دخول إقطاعياته. ولم يكن ينقص خطابه - لكي يبدو مضحكا - سوى ان يقرا في هدوء وباعصاب باردة، وبدون ان انقل صورة منه (١)، بل وبدون أن أقراه حتى نهايته، رددته إليه في الحال، مع التعقيب التالي:

"إنني آبى عادة ان انساق لشكوكي الصائبة؛ ولهذا تأخرت كثيرا في ان اعرفك على حقيقتك.

"هاك إذن الخطاب الذي استبحت الوقت للتفكير فيه، فإنني أرده إليك؛ لانه ليس لي، وفي وسعك ان تعرض خطابي على الملأ كله، وان تحقد عليَّ علانية وجهارا، فهذا بهتان في غير صالحك!".

وكان السماح له بعرض خطابي السابق تعقيبا على فقرة وردت في رسالته، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذي لجا إليه في هذه القضية باسرها.

فلقد ذكرت أن خطابي كان كفيلا بان يلقي عليَّ بعض التثريب في انظار اولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور. وقد تبين "جريم" هذا باغتباط، ولكن كيف كان بوسعه ان يستغله دون ان يكشف موقفه"؟.. ذلك لانه كان معرضا - إذا ما عرض خطابي على احد - لان يتهم بإساءة استغلال ثقة صديقه.

ولكي يخرج من هذا الحرج؛ خطر له أن يقطع الصلة معي باشد الطرق استثارة لشعوري، وإيحاء لي بانه قد اولاني صنيعا؛ إذ لم يطلع احدا على خطابي، وكان من المؤكد أنني - في سورة الغضب - خليق بان ارفض امانته هذه، فاسمح له بأن يعرض خطابي على الدنيا باسرها.. وهذا عين ما كان يبتغيه تماما، وقد سار كل شيء وفقا لما دبر، ولقد اذاع الخطاب في "باريس" كلها، مع تعليقات من عنده، لم تكن - مع ذلك - موفقة بالدرجة التي كان يرجوها. فقد رؤي أن سماحي له بأن يعرض خطابي - الذي عرف كيف ينتزعه مني - لم يكن ليعفيه من اللوم لما أظهره من تسرع في استغلال كلمتي للعمل على إيذائي، واخذ الناس يتساءلون باستمرار عن اية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيا تبرر كل هذا الحقد الاهوج. ثم انتهوا - اخيرا - إلى أنه إذا كانت لي اخطاء تضطره إلى القطيعة فإن للصداقة - ولو فصمت - حقوقا كان لزاما عليه ان يحترمها!

على ان "باريس" متقلبة، لسوء الحظ، فلا تلبث هذه الملاحظات - وليدة وقتها - ان تتوارى في زوايا النسيان".. إذ إن المنكوب يلقى إهمالاً مادام غائبا، والمجدود يتغلب مادام حاضرا.. وتستمر لعبة الدس والكيد الخبيث، وتتجدد، ولا تلبث نتائجها التي تبعث حية - كلما ماتت - أن تمحو كل ما سبقها!

---

(١) ورد هذا الخطاب في مذكرات السيدة "ديبيناي"، ولم يكن مؤلفا من سبعة اسطر او ثمانية بل إنه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب ويلاحظ ان ذكر القطيعة لم يرد إلا في آخره، في حين ان "روسو" ذكر انه لم يقراه حتى نهايته. على انه ذكر للسيدة "مودبتو" - في رسالة بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٧٥٧ - أنه تلقى من "جريم" خطابا آثار اشمئزازه، حتى إنه رده إليه "خشية قراءته مرة ثانية".. وهناك احد احتمالين: إنه إما يكون "روسو" قد بالغ في وصفه للخطاب، وإما ان ما نشر في مذكرات السيدة "ديبيناي" كان خطابا اعد؛ لتبرير مسلك "جريم"، وليس الخطاب الأصلي.

على هذا النحو أماط هذا الرجل – الذي ظل يخدعني طويلا – لثامه، وقد اطمأن إلى أنه لم يعد بحاجة إليه، في الوضع الذي ساق إليه الأمور. على أنني كففت عن التفكير في هذا التعس بعد أن تخلصت من الخوف من أن أكون ظالما نحوه، وتركته لضميره. وبعد ثمانية أيام من تسلم ذلك الخطاب تلقيت من السيدة "ديبيناي" ردها على خطابي السابق، محررا في "جنيف" (الملف ب – رقم ١٠)، وتبينت من اللهجة التي لجأت إليها – للمرة الأولى في حياتها – أن كلا منهما كان يعول على نجاح تدابيرهما، وأنهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين، وأنهما كانا ينظران إليّ كرجل ضائع، لا معين له ولا نصير؛ ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ألا يدخرا جهدا في سبيل الاستمتاع بسحقي نهائيا!

والواقع أن ظروفي كانت في أسوأ حال: فلقد رأيت أصدقائي يهجرونني دون أن أعرف كيف، ولا لماذا.. فـ"ديدرو"، الذي كان يفخر بأنه باق لي، وباق وحده، والذي وعدني منذ ثلاثة أشهر بأن يزورني لم يأت قط، وكان الشتاء قد بدأ يفرض أثره محسوسا؛ فبدأت معه عللي المألوفة، وكان كياني – برغم متانة تكوينه – قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة. كنت في حالة إعياء لم تذر لي طاقة ولا جلدا على الاحتمال. ولو أن معاملاتي، بل لو أن تأييدات "ديدرو" والسيدة "دوديتو" سمحت لي بمبارحة "ليرميتاج" فورا فإنني لم أكن أدري إلى أين أذهب، ولا كيف أجر نفسي إلى هناك؛ ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن، خامد الحراك، دون أن أقوى على التفكير أو العمل. كان مجرد التفكير في أن أتخذ خطوة، أو أكتب رسالة، أو أفوه بكلمة، كفيلا بأن يجعلني أرتجف!

ومع ذلك فإنني لم أقو على أن أدع رسالة السيدة "ديبيناي" بلا جواب، وإلا كان ذلك اعترافا بأنني كنت أستحق المعاملة التي أثقلتني وصديقها بها، وقررت أن أصارحها بمشاعري ونواياي، دون أن أرتاب لحظة في أنها ستبادر إلى إقراري على هذه المشاعر والنوايا، بفضل الشعور الإنساني، والكرم، والطيبة، والأحاسيس الطيبة التي خيل إليّ أنني أراها لديها!.. وهاك خطابي:

"ليرميتاج": ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٥٧.

"لو قدر لامرئ أن يموت حزنا لما كنت أنا الآن على قيد الحياة. ولكنني عقدت عزمي أخيرا. لقد انفصمت عرى الصداقة بيننا ياسيدتي، ولكن لهذه التي لم يعد لها بقاء حقوقا أعرف كيف أحترمها. فإني لم أنس قط أفضالك عليّ، وبوسعك أن تطمئني من ناحيتي إلى كل عرفان يستطيع أن يدين به امرؤ إلى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه وأي تفسير آخر لن يكون مجديا، وإني لأركن إلى ضميري، ولك أن ترجعي إلى ضميرك.

"لقد كنت أعتزم مغادرة "ليرميتاج"، وكان من الواجب أن أفعل. ولكن رؤي أن أبقى حتى يحين الربيع، وما دامت هذه هي رغبة أصدقائي فسوف أبقى إلى الربيع، لو أنك وافقت على ذلك".

وبعد أن كتبت هذا الخطاب وأرسلته لم أعد أفكر إلا في البقاء هادئا في "ليرميتاج"، وفي العناية بصحتي، ومحاولة استرداد عافيتي، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار في الربيع، دونما ضجة، ودونما إعلان للقطيعة، ولكن هذا لم يكن عين ما أعده السيد "جريم"، والسيدة "ديبيناي"، كما سيظهر بعد لحظة.



وحظيت بعد ايام بالزيارة التي اسرف "ديدرو" في وعوده بان يؤديها لي، بقدر ما اسرف في ان يبر بتلك الوعود، وما كان اداؤها ليجد وقتا اكثر ملاءمة من تلك الآونة. فقد كان "ديدرو" اقدم اصدقائي، وكان الوحيد الذي بقي لي منهم! ومن ثم ففي الوسع إدراك مدى السرور الذي تولاني إذ رايته في هذه الظروف. فلقد كان قلبي مترعا، فافرغته في قلبه، واوضحت له كثيرا من الوقائع التي كتمت عنه، او التي موهت عليه، او زيفت له، وانبأته بما كان يحق لي ان اطلعه عليه، من كل ما جرى، ولم احاول ان اكتم عنه ما كان هو على علم واف به.. لم احاول ان اكتم عنه ان حبا غير موفق - بقدر ما كان ارعن - استغل كاداة للقضاء عليُ، ولكنني لم ابح قط بان السيدة "دوديتو" كانت على علم بهذا الحب، او انني كاشفتها به يوما، على الأقل!

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التي قامت بها السيدة "ديبيناي" للاستيلاء على الخطابات البريئة التي كانت اخت زوجها قد كتبتها لي. فلقد رغبت في أن يعرف كل هذه التفصيلات، من شفاه المراتين اللتين حاولت السيدة أن تغريهما بذلك، وقد ادلت إليه "تيريز" بوصف دقيق لكل شيء. ولكن.. ما الذي اصابني، فعندما حان دور الام، وسمعتها تعلن وتتشبث بانها لم تكن على علم بشيء من هذا إطلاقا؟!. هكذا كان قولها الذي لم تتحول عنه البتة، ولم يكن قد انقضى بعد اربعة أيام، مذ رددت على سمعي كل التفصيلات، التي راحت تناقضها في وجود صديقي!

ولاح لي مسلكها حاسما! فشعرت إذ ذاك شعورا قويا، بمدى غفلتي إذ بقيت امراة كهذه على مقربة مني، ولم انطلق اكيل لها السباب بل إنني لم اكد اقوى على ان اقول لها بضع كلمات اعبر بها عن استهجاني، واحسست بمدى ما كنت أدين به للابنة التي كانت باستقامتها المنيعة ترسم صورة قوية، تناقض تماما مع ما ابدت الأم من خسة مهينة. على ان رايي استقر - منذ تلك اللحظة - بشان العجوز، ولم أنتظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه.

ولقد جاءت هذه اللحظة باسرع مما كنت اتوقع. ففي العاشر من كانون الأول (ديسمبر)، تسلمت ردا من السيدة "ديبيناي"، هذه محتوياته (الملف "ب" - رقم ١١):

"جنيف": أول كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧ .

"لم اعد املك - بعد ان اتحت لك كل دليل ممكن على الصداقة والعطف، خلال عدة سنوات- سوى أن ارثي لك، إنك شقي، وإني لأرجو ان يكون ضميرك في طمانينة ضميري، فقد يكون هذا ضروريا لطمانينة حياتك!

"وما دمت قد رغبت في مبارحة "ليرميتاج"، وكان خليقا بك ان تفعل فإنني اعجب من اصدقائك إذ منعوك. اما انا، فلست استشير اصدقائي فيما يتعلق بواجباتي، وليس لديّ مزيد اقوله فيما يتعلق بواجباتك"!

كان إنذارا - غير متوقع، ولكنه واضح - بالطرد، فلم يدع لي لحظة واحدة كي افكر او ازن.. كان لابد لي من ان ابرح "ليرميتاج": فورا، ومهما تكن حال الطقس، او حالي الصحية - حتى لو اضطرني ذلك إلى ان ابيت في الغابات، وعلى الصقيع الذي كان يكسو الأرض - ومهما يكن في وسع السيدة "دوديتو" أن تقوله او تفعله إزاء ذلك! إذ إنني لم أكن على استعداد لأن اهين نفسي بالرغم من انني كنت على استعداد لأن أرضي هذه السيدة!



ووجدتني في أشد حيرة عرضت لي في عمري كله ولكنني كنت قد عقدت العزم،، واقسمت على الا ابيت في "ليرميتاج" في اليوم الثامن، مهما يكن الامر. وعكفت على نقل امتعتي الخاصة، وقد فضلت ان ادعها في العراء، على الا ارد المفاتيح في اليوم الثامن، فقد كنت توافا - قبل كل شيء - إلى أن افرغ من الأمر، قبل ان يستطيع احد ان يكتب إلى "جنيف".

وأن يتلقى ردا منها.. واوتيت إقداما ما شعرت به من قبل يوما، فإذا كل قواي ارتدت إليّ.. ردها إليّ الشمم والإباء اللذان لم تحسب لهما السيدة "ديبناي" حسابا!

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة، فإذا السيد "متى" - المندوب انقضائي (١) للسيد الأمير "دي كونديه" - يسمع بورطتي، فيعرض عليّ بيتا صغيرا كان يقتنيه في حديقة داره في "مون لوي" بـ"مونمورنسي"، وقبلت العرض في تأثر وعرفان.. وتمت الصفقة، فاسرعت إلى شراء بعض آثاث اضمه إلى ما كان عندي؛ لآوي إليه مع "تيريز".. ونقلت متاعي على عربة، في كثير من العناء، وبنفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع، فقد تم انتقالي في يومين.. حتى إذا كان الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) رددت مفاتيح "ليرميتاج"، بعد ان دفعت اجر البستاني؛ إذ لم استطع ان ادفع اجر المسكن!

اما السيدة "لوفاسير"، فقد صارحتها بان عليها أن تفارقنا، وحاولت ابنتها ان تثنيني ولكني ابيت ان الين، وعملت على سفرها إلى "باريس"، في عربة البريد، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها في امتلاكه من أثاث. كما انني منحتها بعض المال، وتعهدت بان ادفع لها نفقات إقامتها لدى ابنائها او سواهم، وان اتكفل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعني، والا ادعها قط في عوز طالما كنت اجد قوتي!

واخيرا، كتبت إلى السيدة "ديبيناي" الرسالة التالية، في اليوم الذي اعقب غداة وصولي إلى "مون لوي":

"مونمورسي": ١٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧ .

ما كان ثمة ما هو ابسط، ولا ما هو الزم من ان اخلي منزلك، ياسيدتي، ما دمت لا تقرين بقائي فيه؛ وبناء على رفضك الإذن لي بان امكث في "ليرميتاج" بقية الشتاء، بادرت إلى مبارحته في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر). لقد كان مقدرا لي ان ادخله بالرغم مني، وأن اخرج منه كذلك!.. وإني لاشكر لك الإقامة التي اتحتها لي هناك، وقد كنت خليقا بأن اكون اكثر شكرا لك، لو ان الثمن الذي دفعته كان اقل فداحة.

"هذا، وإنك لعلى صواب إذ ترينني شقيا؛ فليس في الدنيا من يعلم خير منك إلى أي مدى يجب أن اكون كذلك!.. وإذا كان من سوء الحظ ان يعثر المرء في اختيار أصدقائه، فليس اقل قسوة من ذلك، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا!" (٢).

هذه هي القصة الأمينة لإقامتي في "ليرميتاج"، وللاسباب التي اضطرتني إلى مغادرته، وما كنت أملك أن اقتضب هذه القصة بل كان من المهم ان اعرضها باعظم قدر من الدقة، إذ إن حياتي في هذه الفترة كانت ذات اثر - على ما بعدها - سيبقى إلى آخر يوم في حياتي!

---

(١) المحامي الذي يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات الإدارية. (٢) ورد نص هذا الخطاب في مذكرات السيدة "ديبناي"، متضمنا - في نهايته - هذه العبارة: "لقد تقاضى البستاني اجره حتى اول يناير".

ولم ترد هذه العبارة في اية طبعة من "الاعترافات"، والظاهر ان "روسو" اغفلها خطا، في حين ان رد السيدة "ديبناي" لا يفهم بدونها.

الكرامة العاشرة

سنة ١٧٥٨

لم تلبث الطاقة غير العادية - التي امدتني بها هياج عابر، كي ابرح "ليرميتاج" - ان فارقتني بمجرد ان صرت خارج هذا البيت. فما إن استقر بي المقام في المسكن الجديد حتى عاودتني نوبات شديدة، متتابعة، من احتباس البول، امتزجت بالمضايقات الجديدة التي ترتبت على هبوط في القلب، كان يعذبني منذ امد، دون ان اعلم انه كان هبوطا!..

وسرعان ما غدوت فريسة لنوبات أشد قسوة، فجاء الطبيب "تييري" - صديقي القديم - ليعودني، وبصرني بحالي، وتجمعت حولي المسابر، والمجسات، والضمادات، وكافة المعدات التي تستلزمها علل الشيخوخة، ما جعلني اشعر شعورا قاسيا، بان المرء لا يستطيع ان يحتفظ بشباب القلب - دونما عناء - إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!

ولم يردني الفصل الجميل (الربيع) إلى عافيتي، فقضيت عام ١٧٥٨ في حال من الوهن، اوحت إليّ بانني كنت مشرفا على نهاية حياتي العملية. بل إنني ابصرت النهاية تقترب في شيء من التعجل؛ وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة، وافترقت عن كل من كانوا يحببون الحياة إليّ فإنني لم اعد ارى في هذه الحياة ما يجعلها مستحبة، ولم اعد ابصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بيني وبين كل المتع الذاتية. ولكم كنت اتوق إلى اللحظة التي انطلق فيها متحررا، بعيدا عن منال اعدائي!

ولكن.. لنعد إلى سياق الحوادث ثانية.

*****

بدا ان مقامي في "مونمورنسي" قد ساء السيدة "ديبيناي"، ولعلها لم تكن تتوقعه. فإن اساي، وقسوة ذلك الفصل من السنة، والوحدة المنبوذة التي الفيتني فيها.. كل هذه جعلتها و"جريم" يعتقدان أن بوسعهما - إذا واصلا دفعي إلى أقصى حد - ان يضطراني إلى أن اصرخ طالبا النجدة، وان يهويا بي إلى آخر درك في الهوان، بغية أن ابقي في المأوى الذي كانت الكرامة تتطلب مني ان افارقه، ولقد بدلت مسكني فجاة، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفي لان يتوقعا هذه الضربة؛ ومن ثم فلم يبق لهما من خيار سوى ان يضاعفا الاندفاع في المغامرة، او ينفضا ايديهما منها.. وبالتالي، ان يقضيا عليّ قضاء مبرما، او ان يسترداني!

واتخذ "جريم" الراي الاول، ولكني اعتقد أن السيدة "ديبيناي" كانت تفضل الثاني، او ان هذا هو ما ملت إلى الاخذ به، على ضوء ردها على خطابي؛ إذ خففت كثيرا من اللهجة التي اتخذتها في رسائلها السابقة، ولاحت كانها تفتح الباب للصلح، ولقد كان تاخر هذا الخطاب - الذي اضطررت إلى انتظاره شهرا كاملا - دليلا كافيا على الحيرة التي الفت نفسها فيها - وهي تحاول أن تسبغ عليه أسلوبا ملائما - وعلى الخواطر والهواجس التي سبقته. فما كان في وسعها ان تمضي فيه إلى ابعد مما مضت، دون أن تكشف نفسها. ولكن المرء لا يجد - بعد خطاباتها السابقة، وبعد خروجي المباغت من دارها - مدعاة للعجب من العناية التي بذلتها في ذلك الخطاب، ومن حرصها على الا تدع كلمة

جافية واحدة تتسلل إليه. وإني لأنقله بأكمله؛ ليتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب – رقم ٢٣):
"جنيف": ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٥٨.

"لم أتسلم خطابك المؤرخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر)، سوى بالأمس يا سيدي. فقد أرسل إليّ في حقيبة ملأى بأشياء مختلفة، ظلت طيلة هذه المدة في الطريق، ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة أما الخطاب فلست أفهمه تماما.. وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح، فإني أوثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم!

"وأعود إلى العبارة الأخيرة.. فلعلك تذكر ياسيدي أننا اتفقنا على أن يتلقى بستاني "ليرميتاج" أجره عن طريقك؛ رغبة في إشعاره بأنه موكول إليك، ولتفادي مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة، الوقحة، والتي صدرت من سلفه.

والدليل على ذلك أن أجره الربع الأول من السنة أسلم إليك، وأنني اتفقت وإياك – قبيل رحيلي بضعة أيام – على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له، وإني لأدرك أنك أثرت خلافا بشأن هذا – في البداية – ولكني كنت قد رجوتك أن تؤدى تلك المدفوعات سلفا، فكان من أبسط الأمور أن أردها إليك، وقد اتفقنا على ذلك. ولكن "كاهوية" أنبأني بأنك رفضت قبول هذه النقود، ولابد أن ثمة لبسا في الأمر، ولقد أمرت بأن تؤدى إليك، من جديد، ولست أرى مبررا لرغبتك في أن تدفع أجر بستاني في خدمتي، بالرغم من اتفاقنا، وبالرغم من أن هذا الأجر يرجع إلى فترة سبقت سكناك "ليرميتاج"؟

"لذلك فإني واثقة يا سيدي بأنك تتذكر كل هذا الذي تشرفت بقوله لك، لن تأبى أن تسترد النقود التي تكرمت بدفعها عني".

ولم أشأ – بعد كل الذي جرى – أن أطمئن إلى السيدة "ديبيناي" أو أثق بها، ولا رغبت البتة في أن أجدد صلاتي بها؛ ومن ثم فإنني لم أرد على الخطاب إطلاقا، فانتهت مكاتباتنا عند هذا الحد(١)؛ وإذ تبينت عزمي، حذت حذوي، وانغمست في خطط "جريم" وعصبة "دولباخ"، وضمت جهودها إلى جهودهم للقضاء عليّ، وبينما كان هؤلاء يعملون في "باريس"، راحت هي تعمل في "جنيف"، وقد انضم إليها "جريم" هناك، بعد ذلك، فأتم ما كانت قد بدأته، ولقد ساعدهما "ترونشان" – الذي استطاعا أن يكسباه في صفهما – بكل قواه، وصار أعنف من راحوا يضطهدونني، دون أن يكون لديه – ولا لدى "جريم" ما يؤاخذوني عليه، وراح ثلاثتهم يعملون معا، فبذروا في "جنيف" ما شوهد نباته يترعرع في "باريس" بعد ذلك بأربع سنوات

*****

وكان الأمر أكثر مشقة عليهم في "باريس"؛ حيث كنت معروفا، وحيث كانت القلوب أقل ميلا للبغضاء، فهي لذلك لا تتلقى الإيحاءات بسهولة؛ ولكي يوجهوا ضرباتهم بمزيد من المهارة والحيلة شرعوا في ترويج زعمهم بأنني كنت الأسبق إلى التحول عنهم. (انظر خطاب ديليير – الملف ب، رقم ٣). ومن هنا راحوا – وهم يتظاهرون بأنهم لا يزالون أصدقاء لي – يبذرون بذور الاتهامات

(١) تكذب مذكرات السيدة "ديبيناي" هذا القول، فقد ورد فيها رد من "روسو" وصفته السيدة بأنه "أكثر فحة من جميع خطاباته الأخرى". ويبدو أن "روسو" نسي ذلك، إذ إنه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة.

الخبيثة، على شكل شكايات من الأخطاء والمظالم التي حاقت بهم على يدي صديقهم، ولقد أدى هذا إلى أن مستمعيهم تخلوا عن حذرهم، فأصبحوا أكثر ميلا إلى الإصغاء إلى لومهم، وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود في تكتم وحذر، وقد كانت - لنفسي هذا السبب - أشد فعلا بالنفوس، وكنت أعلم أنهم وصموني بأبشع الفظائع، دون أن يستطيعوا قط أن يعرفوا - فيما بينهم - لم كانت هذه الفظائع تتألف!.. كل الذي استطعت أن أخرج به من الشائعات العامة، هو أن هذه الفظائع انحصرت في أربعة ذنوب جوهرية: "أولا" اعتكافي في الريف، و"ثانيا" حبي السيدة "**دوديتو**"، و"ثالثا" رفضي مرافقة السيدة "**ديبيناي**" إلى "**جنيف**"، و"رابعا" نزوحي عن "**ليرميتاج**"، وإذا كانوا قد أضافوا سخافات أخرى فلابد أنهم اتخذوا أبلغ حيطة، حتى إنه غدا من المستحيل عليّ تماما أن أعلم موضوعها.

وإلى هذه الفترة بالذات، أعتقد أن بوسعي أن أرجع تاريخ تكوين حملة منظمة، لم يلبث أن انضوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عني بنجاح وتقدم سريعين، إلى درجة أنها كانت خليقة بأن تبدو رائعة في نظر من لا يدري مدى السهولة التي يستطيع بها كل ما هو يساعد شرور البشر أن يحظى بالتأييد، ولا بد لي الآن من أن أشرح - في أوجز ما يسعني - ما هو واضح لنظري من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول.

ذلك أنني احتفظت ببساطة ميولي الأصلية، حتى بعد أن طبق اسمي آفاق "**أوروبا**"، وغدوت مشهورا، ولقد أدى مقتي القتال لكل ما يسمى حزبا، وعصبة، وشيعة، إلى بقائي حرا، مستقلا، دونما قيود سوى ميول فؤادي، وكنت وحيدا، غريبا، منطويا، بلا نصير ولا أسرة فلم أعتمد إلا على مبادئي وواجباتي، وسلكت في جلد طرق الاستقامة، فما تملقت ولا تزلفت إنسانا على حساب العدالة والحقيقة، وفضلا عن ذلك فإنني لذت - منذ عامين - بالعزلة، دون أن أتسقط الأنباء، وبدون أي اتصال بشؤون العالم. فما كنت أحاط بأي شيء، ولا كنت أهفو إلى أنباء شيء ما.. وكنت أعيش على أربعة فراسخ من "**باريس**"، وكأنني - بفضل عدم اكتراثي - أعيش في جزيرة "**تينيان**"، تفصلني عن هذه العاصمة بحار!

أما "**جريم**" و"**ديدرو**"، و"**دولباخ**" فكانوا - على النقيض - في وسط الدوامة، يعيشون في مجتمع أرقى الطبقات، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفكر تقريبا، فكان العظماء، وذوو العقول النابهة، وأهل الأدب، والمحامون، والنساء ينصتون جميعا إليهم، إذا ما اجتمعوا على حديث، ومن السهل تبين النفع الذي يضفيه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعي!.. ومن الصحيح أن "**ديدرو**" و"**دولباخ**" لم يكونا - أو أنني لا أعتقد، على الأقل، أنهما كانا - ممن يدبرون الدسائس البالغة الخبث والشر؛ إذ إن واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر، في حين أن الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر"(١).. على أن هذا السبب بالذات، هو الذي جعل العصبة وثيقة الترابط. فكان "جريم" يرسم وحده الخطة في رأسه، فلا يُطلع الاثنين الآخرين على أكثر مما يراه ضروريا لتمكينهما من المساهمة في تحقيق تلك الخطة، وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورا، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة!



---

(١) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة تعقيبا جاء فيه: "وأصبحت الآن مَلكا لهم، وفقا لاتفاق جديد، عقد بيننا أخيرا".

وبهذه المواهب الفائقة عمد "جريم" - وقد ادرك النفع الذي يستطيع ان يستمده من وضع كل منا - إلى وضع مشروع لقلب سمعتي راسا على عقب، ولإضفاء سمعة مناقضة لها تماما على اسمي، دون ان يقحم نفسه.. وذلك بان يبدا بإحاطتي بصرح من الغموض والإبهام، تعذر عليّ ان اخترق حجبه لالقي النور على مناوراته، ولاكشف امره!

ولقد كان هذا المشروع شاقا؛ إذ كان على "جريم" ان يموه ما فيه من ظلم، في أنظار اولئك الذين كان عليه ان يستعين بهم.. كان عليه ان يغرر بالامناء، وكان عليه ان يقصي عني كل الناس، فلا يدع لي صديقا واحدا، صغيرا كان ذلك الصديق او كبيرا! فماذا عساي اقول؟.. كان لابد له من الا يدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إليّ.. ولو ان رجلا كريما واحدا جاءني، وقال لي: "إنك تؤدي دور الرجل الفاضل، ومع ذلك، فانظر كيف تعامل، وكيف يحكم القوم على اعمالك. فماذا لديك من قول؟".. كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بان تنتصر، فيبوء "جريم" بالخذلان!.. ولقد كان يدرك هذا، ولكنه دنس قلبه، ولم يقدر الناس حق قدرهم.. إنني لحزين من اجل الكرامة الإنسانية، التي قدرها بمثل هذه الدقة!

وإذ سار في هذه الدروب المتوارية تحت الارض، كان لابد له من ان يبطيء؛ كي يطمئن إلى مواقع قدميه؛ ومن ثم ظل اثني عشر عاما وهو يتابع خطته، ومع ذلك فما يزال لديه اشق ما يجب ان يفعله.. ذلك هو ان يغرر بالرأي العام باسره!.. إن هناك عيونا ظلت تراقبه عن كثب اقرب مما يظن.. وإنه لخائف من هذا، فهو لا يجرؤ بعد على أن يكشف مؤامرته في وضح النهار (١). ولكنه اهتدى إلى اقل الطرق صعوبة، لكي يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة، فيقضي هذا السلطان عليّ. وإذ استند على هذه الدعامة راح يتقدم وهو اكثر طمانينة، واذناب السلطان لا يولون الاستقامة والعدل كثير تفكير، في العادة.. وهم اقل اكتراثا بالصراحة؛ ومن ثم فإنه لم يعد يخشى فطنة وأمانة بعض الخيرين إطلاقا!.. على انه كان من الضروري له - بوجه خاص - ان اكون محاطا بظلمات دامسة، وأن تظل مؤامرته متوارية عن بصري على الدوام، وكانت حيلته الكبرى هي أن يبدو للأنظار أنه كان يحابيني ويعطف عليّ - في الوقت الذي كان يحط من من قدري، في الواقع - وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة!

*****

ولقد شعرت باولى نتائج هذه الحملة عن طريق الاتهامات المستترة التي راحت عصبة "دولباخ" تشيعها، دون ان يتسنى لي ان اعلم - بل ولا ان اخمن - ما كانت تتالف منه هذه الاتهامات، ولقد ذكر لي "ديلهير" في رسائله انني رميت بعض الشناعات.. وذكر لي "ديدرو" الشيء ذاته، في غموض وإبهام، فلما حاولت استيضاح كل منهما؛ إذا بكل شيء ينحصر في الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر.

وشعرت بفتور يسرى تدريجا في رسائل السيدة "دوديتو"، فلم استطع ان اعزو هذا الفتور إلى "سان - لامبير" الذي ظل يكتب لي بعين الود المعهود، والذي اخذ يزورني بعد عودته. كذلك لم استطع ان القي اللوم على نفسي؛ إذ إننا كنا قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر، ولم يحدث - منذ ذلك الحين - شيء من ناحيتي، اللهم إلا رحيلي عن "ليرميتاج"، وهو امر شعرت هي نفسها

---

(١) وهنا اضاف "روسو" التعقيب التالي: "ولقد اتخذ - منذ كتابه هذا - خطوته الكبرى، باكمل نجاح، وباكبر توفيق مجل على الافهام، وإني لاعتقد ان "ترونشان" هو الذي امده بالتشجيع والوسيلة".

بضرورته، ومن ثم فإنني لم اعرف كيف أؤول هذا الفتور - الذي لم تجهر به وإن احسه قلبي - فشعرت بقلق شامل، وكنت أدرك أنها اعتادت ان تداهن زوجة أخيها و "جسريم"، نظرا لعلاقتهما بـ "سان - لامبير"، فخشيت مناوراتهما والاعيبهما. ونكأ هذا القلق الملتاع جراحي، وأحال رسائلي عاصفة، حتى إنها لم تلبث ان اصبحت تعافها! . . كنت المح الف شيء قاس، دون أن اميز شيئا بوضوح. كنت في وضع هو ابعد الأوضاع عن ان يطيقه رجل كان من اليسير ان يتقد خياله . . ولو انني كنت في عزلة تامة، ولو إنني كنت لا اعرف شيئا على الإطلاق لكنت خليقا بان اكون اكثر هدوءا، ولكن فؤادي كان ما يزال متشبثا بالعواطف التي اتاحت لاعدائي الف ماخذ ضدي، ولم تؤد الاشعة الواهنة التي كانت تنفذ إلى عزلتي إلا إلى ان ارى المعميات التي كان القوم يخفونها عني، اشد حلكة وسوادا من ذي قبل!

وكنت خليقا - دونما شك - بان أتداعى تحت هذا العذاب الذي كان أقسى وأثقل من أن تحتمله فطرتي الصريحة، التي كانت تجعل من المستحيل تماما ان اخفي مشاعري، وكانت - في الوقت ذاته - تجعلني خائفا كل الخوف من تلك الاشياء التي كانت تخفى عني. على أن امورا اخرى، لم تلبث - لحسن الحظ - ان عرضت لي، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية لكي تولد تحولا سليما، نأى به من تلك الامور التي كانت تشغله، على الرغم منه!

*****

وكان "ديدرو" قد حدثني - اثناء زيارته الاخيرة لـ "لهرميتاج" - عن مقال كتبه "دالمبير" عن "جنيف" في "الموسوعة"، وقال لي: إن هذا المقال - الذي أقره بعض ذوي المكانة العليا من أهل "جنيف" - كان يرمي إلى إنشاء مسرح في "جنيف"، وان الخطوات اللازمة قد اتخذت، وان الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تم، ولما كان "ديدرو" قد حبذ المشروع، ولم يداخله شك في نجاحه، كما كان لديَّ كثير من الأمور التي أردت أن ابحثها معه فإنني لم اشأ ان امضي في جدل حول هذا الموضوع، ولم أقل شيئا، ولكنني شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التي كانت تحاك لإفساد موطني، فانتظرت بصبر نافد ظهور الجزء الذي ضم المقال - من "الموسوعة" - لكي أتبين ما إذا كانت ثمة وسيلة للرد عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشؤومة!

وتلقيت الجزء عقب استقراري في "مون - لوي" بوقت قصير، فوجدت أن المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحذق، وأنه كان اهلا للقلم الذي سطره. على ان ذلك لم يصرفني عن الاهتمام بالرد عليه، وبالرغم من الخور الذي كان يعتريني، وبالرغم من شجني وآلامي، ومن قسوة الطقس، وما اتسم به مسكني الجديد - الذي لم يكن مقامي فيه قد استقر تماما - من عدم توفر اسباب الراحة، فقد عكفت على العمل بتحمس قهر كل شيء.

وفي شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة، وفي شهر شباط (فبراير)، وفي الظروف التي وصفتها آنفا، رحت اقضي ساعتين من الصباح، ومثلهما من المساء، في شرفة مكشوفة، عند طرف الحديقة التي كان بيتي يقوم فيها، وكانت هذه الشرفة - التي كانت تقع في نهاية درب محاط بسياج - تطل على وادي "مونمورنسي" وبركة الاسماك، وتكشف لي على البعد، بقدر ما كان يسمح لي البصر، قصر "سان جراسيان" الجليل المنظر، برغم بساطة بنيانه . . القصر الذي اعتكف فيه "كاتينا" الفاضل . . وفي هذه البقعة - التي كانت في تلك الفترة قارسة البرد، والتي كانت بلا وقاء من الريح

والصقيع، وبلا أية نار سوى قلبي – نظمت، في ثلاثة أسابيع، خطابي إلى "دالمبير" حول المسارح!

وكان ذلك أول موضوع أكمله – إذ لم أكن أتممت سوى النصف من "جولي" فوجدت فيه سحر العمل. كانت الغيرة على الفضيلة هي معبودي حتى ذلك الحين، ولكن الحنان والرقة حلا محلها في روحي، في هذه المناسبة!

كانت المظالم التي لم أكن – بالنسبة لها – أكثر من متفرج، قد أهاجتني، أما التي كنت هدفها فقد أحزنتني، ولم يكن ذلك الحزن – المجرد من كل حزن ومرارة – سوى شجن قلب مفرط الحب والحنان.. قلب اغتر فيمن كان يؤمن بأنهم على شاكلته؛ فاضطر إلى أن ينطوي على نفسه!.. كان قلبي قد أفعم بما حدث لي أخيرا، وكان ما يزال يهتز بانفعالات عديدة عنيفة، فراح يمزج إحساسه بآلامه، بالأفكار التي تولدت عن تفكيري في الموضوع، فإذا آثار هذا المزج تنعكس على ما كتبت، وإذا بي – دون أن أفطن – أصف فيه حقيقة موقفي الواقعي.. رسمت فيه "جريم"، والسيدة "ديبيناي"، والسيدة "دوديتو"، و"سان – لامبير"، ونفسي. وكنت أذرف – وأنا أكتب كل هذا – دموعا عذبة!.. فو الهفتاه!.. إن المرء ليلمس في المقال أن الحب – هذا الحب الجبار الذي كنت أحاول أن أشفى منه – لم يكن قد فارق قلبي بعد!.. ولقد كان يمتزج بكل هذا؛ شعور بالإشفاق على نفسي؛ إذ شعرت بأنني أموت، وكنت أؤمن بأنني أودع الرأي العام للمرة الأخيرة!.. وبدلا من أخاف الموت رحت أرقب اقترابه بغبطة، ولكنني كنت أحس بالحسرة؛ لأنني كنت أفارق أبناء جلدتي دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتي وقدري.. دون أن يدروا كم كنت جديرا بأن أحظى بالحب منهم، لو أنهم كانوا أكثر معرفة بي مما هم!.. وهذه هي الأسباب الدفينة للهجة الغريبة التي سادت هذا المقال، والتي تبدو جد مناقضة للهجة مؤلفي الذي سبقه (١).

ونقحت المقال وأعدت نسخه، وأوشكت أن أدفعه إلى الطباعة، وإذا بي أتلقى رسالة من السيدة "دوديتو" – بعد طول صمت – وإذا بهذه الرسالة تغرقني في هم جديد، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هموم، حتى ذاك الحين. فلقد أنبأتني السيدة في هذه الرسالة (الملف ب – رقم ٣٤) بأن هيامي بها بات معروفا في "باريس" بأسرها، وإنني قد أفضيت به إلى قوم أذاعوه، وأن هذه الضجة قد ترامت إلى أذني عشيقها، وكادت تكلفه حياته، وأنه في النهاية – قد أنصفها، فعاد الوئام بينهما.. ولكنها كانت مضطرة – من أجله، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك – إلى أن تقطع كل علاقة بي!.. وأكدت لي أن كلا منهما لن يكف – بعد ذلك – عن أن يهتم بأمري، وأن يدافع عني أمام الملأ.. وأنها ستبعث – بين الحين والحين – في طلب إخباري!

*****

وهتفت في نفسي: "حتى أنت يا "ديدرو"!.. أيها الصديق غير الجدير بالود!". ومع ذلك فإنني لم أكن أملك – بعد – أن أبت في أمره؛ إذ كان ضعفي معروفا لدى أناس آخرين، وكان من المحتمل أن يكونوا قد وشوا به، ولقد طاب لي أن أستسلم للشك.. ولكنني لم ألبث أن وجدتني عاجزا عن ذلك؛ إذ إن "سان – لامبير" أقدم – بعد ذلك بقليل – على تصرف يليق بكرم نفسه. فقدر – وهو العارف بحقيقة نفسي – الحال التي كنت فيها، وقد غدر بي فريق من أصدقائي، وهجرني الباقون، فأقبل يزورني بنفسه!.. ولم يكن لديه متسع من الوقت في المرة الأولى، فأقبل مرة ثانية. ولكنني لم

---

(١) حديث في عدم المساواة.

اكن - لسوء الحظ - في البيت؛ إذ إنني لم اكن اتوقع مجيئه، ودار بينه وبين "تيريز" - التي كانت في البيت - حديث استغرق حوالي ساعتين، قال كل منهما للآخر - في سياقه - كثيرا من الامور، التي كان من الضروري لكل منا ان يعلم بها.. ولقد كانت دهشتي حين علمت ان احدا لم يكن يرتاب في انني عاشرت السيدة "ديبيناي"، كما كان "جويم" يعاشرها في ذلك الحين، تعادل دهشته حين عرف ان هذا النبأ كاذب!.. فلقد كان "سان - لامبير" يحظى من نقمة السيدة بمثل ما كنت احظى!.. وكانت جميع الاضواء التي انبثقت عن هذا الحديث كافية لان تخنق في نفسي كل اسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيدة، إلى غير رجعة!

ولقد اوضح "سان - لامبير" لـ"تيريز" - فيما يتعلق بالسيدة "دوديتو" - كثيرا من الظروف التي لم تكن معروفة لدى "تيريز" بل ولا لدى السيدة "دوديتو" نفسها!.. فما كان يعرفها سواي انا وحدي، وما افضيت بها إلا إلى "ديدرو" وحده، وتحت اسم الصداقة، فإذا به يختار "سان لامبير" - بالذات؛ ليبوح له بها!.. وكان هذا الأمر الأخير هو العامل الحاسم لديَّ؛ فعقدت العزم على ان اقاطع "ديدرو" إلى الأبد، ولم يعد يشغلني بصدد ذلك سوى تخير الأسلوب الذي احقق به القطيعة. فلقد تبينت أن المقاطعة المتكتمة، كانت لا تلبث ان تنقلب ضدي؛ إذ إنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه افظع اعدائي!

إن قواعد السلوك الطيب التي قامت في الدنيا على هذا الأساس تبدو كما لو كانت من إملاء روح الخداع والغدر. فإن التظاهر بصداقة امرئ ما - عندما تكون هذه الصداقة قد انتهت - لا يعني سوى الاحتفاظ بوسائل إيذاء ذلك المرء، بالتمويه على ذوي النفوس الشريفة!.. واسترجعت في ذهني ان "مونتسكيو" الجليل، بادر - حين قاطع الاب "دي تورنمين" - إلى إعلان القطيعة مدوية، إذ قال للناس اجمعين: "لا تنصتوا إلى الاب "تورنمين"، ولا لي، إذا تكلم كل منا على الآخر؛ فإننا لم نعد صديقين!". ولقد قوبل هذا المسلك بإعجاب بالغ، واكبر الناس جميعا صراحته وكرم نفسه، واعتزمت ان انتهج هذا المسلك مع "ديدرو"، ولكن، كيف كان يتسنى لي أن اعلن من معزلي هذه القطيعة المشروعة، لاسيما إذا شئت أن اتجنب الفضائح؟.. وقررت ان اضمن مقالي فقرة من "الكتاب المقدس" من "سفر ابن سيراخ" تعبر عن هذه القطيعة - بل وعن موضوعها - بوضوح كاف، لكل من كان يعنيه الأمر، دون ان تعني شيئا لبقية الناس، وفوق ذلك فإنني عنيت بالا اشير - في المقال - إلى ذلك الصديق الذي نبذته، إلا بالاسلوب الكريم الذي ينبغي على المرء دائما نحو اية صداقة باقية، وفي الوسع تبين ذلك في المقال ذاته.

*****

ليس في هذه الدنيا سوى حظ، وسوء حظ، ولا وسط بينهما، ويبدو ان كل عمل ينطوي على شجاعة وجراة، لابد وان ينقلب - عند الخصومة - إلى ذنب وجريمة؛ ذلك لان المسلك الذي اجتلب لـ"مونتسكيو" الإعجاب، لم يجلب عليَّ انا سوى اللوم والتقريع!.. فما إن طبع مقالي وحصلت على نسخ منه حتى ارسلت واحدة إلى "سان - لامبير"، الذي كان قد كتب إليَّ - في اليوم السابق مباشرة - رسالة باسم السيدة "دوديتو" واسمه، زخرت بارق آيات الود (الملف "ب" - رقم ٣٧)، وهاكم الخطاب الذي كتبه لي، وهو يرد النسخة التي ارسلتها إليه (الملف "ب" - رقم ٣٨):

"أوبون": ١٠ تشرين الاول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"لم استطع حقا - يا سيدي - ان أتقبل الهدية التي ارسلتها إليّ. فعندما بلغت من مقدمتك الفقرة التي ذكرت فيها "ديدرو"، وأوردت فقرة من "سفر الجامعة" - (وقد اخطأ هنا، فهي من "سفر ابن سيراخ" - وقع الكتاب من يدي؛ فلقد بدا لي - بعد الحديث الذي دار بيننا إبان هذا الصيف - انك كنت مقتنعا ببراءة "ديدرو" من المخالفات المزعومة التي رميته بها.

"ومن الجائز ان يكون قد اخطأ في حقك، فلست ادري.. ولكن الذي ادريه هو ان هذه الاخطاء لا تعطيك الحق في ان توجه إليه إهانة علنية. فانت لا تجهل الاضطهادات التي يعانيها، وهاتتذا تضم صوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين!.. ولست اكتمك ياسيدي، مدى ما تثيرني هذه القسوة الفظيعة!... إنني لا اعاشر "ديدرو"، ولكنني اجله واكرمه، واشعر بحدة الالم الذي تسببه لرجل لم تأخذ عليه - فيما بيننا، على الاقل - ما يستحق اللوم، اللهم إلا قدرا ضئيلا من الضعف.

"إننا لنختلف كثيرا يا سيدي - من ناحية المبدأ - بحيث لن يتسنى لنا ان نكون على اتفاق يوما. فانس وجودي، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك؛ فإنني لم افعل قط من الخير - او الشر - للرجال ما يظل في الاذهان امدا طويلا، واعاهدك ياسيدي - من ناحيتي - على ان انسى شخصك، والا اذكر في نفسي سوى مواهبك".

ولم يكن شعوري بالالم، اقل من شعوري بالشمم والغضب للكرامة من جراء هذا الخطاب، وفي فورة شقائي، وقد استرددت عزة نفسي، رددت عليه بالرسالة التالية:

"مونمورنسي": ١١ تشرين الاول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"سيدي: ما إن قرات خطابك حتى شرفتك بالدهشة منه، ولقد كنت من الحماقة بحيث تاثرت به، ولكنني وجدته غير جدير بالرد!

"إنني غير راغب في مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة "دوديتو"، وإذا لم يرق لها ان تحتفظ بما لديها منها ففي وسعها أن تردها إليّ، وسأعيد لها نقودها. اما إذا استبقتها فلها ان ترسل - في اي وقت شاءت - في طلب ما بقي من أوراقها ونقودها، وإني لأرجوها - في الوقت ذاته - أن ترد إليّ ما يكون لديها من أوراقي.

"وداعا يا سيدي..".

والشجاعة في المحن، تلقي الروع في القلوب الهيابة، ولكنها تشرح القلوب الكريمة، ويبدو ان هذه الرسالة قد ردت "سان - لامبير" إلى حجاه فندم على ما فعل. ولكنه كان من الإسراف في الكبرياء بحيث تعذر عليه ان يقر بذلك صراحة؛ فلاذ بالصمت، ولعله كان يعد العدة ليجعل الضربة - التي وجهها إليّ - مميتة!.. وإن هي إلا خمسة عشر يوما حتى تلقيت من السيد "دبيناي" الرسالة التالية (الملف "ب" الرسالة رقم ١٠):

"هذا الخميس: ٢٦ .

"تلقيت ياسيدي، الكتاب الذي تكرمت بإرساله، وإني لأقرؤه بغبطة بالغة، وهذا هو الإحساس الذي اعتاد ان يداخلني دائما، وانا اقرأ كل المؤلفات التي نفثها قلمك. فتقبل جزيل شكري، ولقد كنت أود أن اقدمه لك شخصيا، لو ان شؤوني سمحت لي بان اقيم وقتا على مقربة من مقامك،

ولكنني قل ان نزلت بـ "لاشيفوريت" في هذا العام.

"إن السيد والسيدة "دوبان" قادمان لتناول الغداء عندي، يوم الاحد القادم. كما أتوقع ان يكون بين الحضور السيدان "دي سان - لامبير"، و "دي فرانكوبي"، والسيدة "دوديتو"، ولسوف يكون من دواعي غبطتي حقا ان تكون بيننا ياسيدي.

إن كل الذين سيكونون في داري، يرغبون في وجودك، وسوف يغتبطون بان يشاطروني متعة قضاء بعض اليوم معك.

"وإنه ليشرفني ان أكون، مع اكمل التقدير.. إلخ".

واخذ قلبي يدق بعنف مروع، من جراء هذا الخطاب؛ ذلك لان فكرة الظهور امام السيدة "دوديتو" - بعد ان كنا حديث "باريس" عاما باكمله - جعلتني ارتجف، ولا اكاد اجد الجراة الكافية على ان اواجه هذا الاختبار. ومع ذلك فقد كان "سان - لامبير" راغبا في ذلك، وقد تكلم "ديبيناي" نيابة عن كل ضيوفه، ولم يكن بينهم من اغتبط بلقائه؛ ومن ثم فإنني انتهيت إلى اني لن اكون - من كافة الاعتبارات - متطفلا، إذا قبلت دعوة إلى الغداء، كنت مدعوا إليها من كافة الضيوف، ولهذا فإنني وعدت بالحضور، وكان يوم الاحد سيئ الطقس فارسل السيد "ديبيناي" عربته لتقلني. فذهبت!

*****

واثار وصولي عاصفة من المشاعر الطيبة، فما قدر لي يوما ان أحظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة.. حتى ليمكن القول بان القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتي إلى ما يشرح صدري، ولا تدري سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الالوان من العواطف. على انني وجدت اناسا اكثر مما كنت اتوقع، بينهم الكونت "دي دوديتو" - الذي لم اكن قد تعرفت عليه قط - واخته السيدة "دي بلينفيي" التي كنت ارجو ان أعفى من مقابلتها، وكانت قد وفدت على "أوبون" مرات عديدة في العام السابق، وكانت زوجة اخيها تتركها تحرق الإرم غيظا عندما كنا ننطلق في نزهاتنا الخلوية وحيدين؛ ومن ثم فقد تولاها نحوي نفور راحت ترضيه - اثناء المادبة - على هوادة.. فمن الممكن حدسه، إن وجود الكونت "دوديتو" و "سان - لامبير" لم يكن مبعث طرب لي، وإن الرجل الذي تتولاه الحيرة والحرج - في مثل هذه المناسبات - لا يستطيع ان يتالق فيها بسهولة.. ابدا ما عانيت مثل ما عانيت إذ ذاك، ولا اكفهر محياي كما اكفهر في هذه المناسبة، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك التي تعرضت إليها من هذه السيدة.

وعندما غادرنا المائدة اخيرا ابتعدت عن هذه المراة السليطة وسرني ان رايت "سان - لامبير" والسيدة "دوديتو" يسعيان نحوي فظللنا شطرا من فترة ما بعد الظهر، نتجاذب الحديث في مسائل لم تكن ذات بال، في الواقع، ولكنها اتاحت لنا عين الالفة التي كانت بيننا قبل طيشي، ولم يغفل قلبي قط هذا الود، ولو ان "سان - لامبير" استطاع ان يطلع على دخيلتي لاطمان إلى ذلك يقينا، وبوسعي ان اقسم انه بالرغم من ان مراى السيدة "دوديتو" - عند وصولي - قد اثار ضربات قلبي في عنف بالغ، حتى اوشكت ان افقد وعيي، إلا انني لم اكن افكر فيها - عندما انصرفت - إذ شغلت عنها بـ "سان - لامبير"!

وبالرغم من السخريات الخبيثة – التي صدرت عن السيدة "دي بلينفي" – إلا ان هذه المادبة شرحت صدري، فرحت أهنيء نفسي بحرارة على انني لم ارفض الدعوة. فلقد تبينت هناك ان دسائس "جريم" وعصبة "دولباخ" لم تشتت اصدقائي القدامى عني (١)، وليس هذا جل ما تبينت بل إن مشاعر السيدة "دوديتو" و"سان - لامبير" لم تتحول كما كنت اتوقع.. واستطعت ان افهم – اخيرا ان البعاد الذي حجب السيدة "دوديتو" عني، كان مرده إلى الغيرة، أكثر مما كان إلى نقص في تقديرها إياي، ولقد وجدت في هذا عزاء وتسرية!.. ذلك لان اطمئناني إلى أنني لم أكن موضع احتقار لدى اولئك الذين كنت أعتز بهم كان يمكنني من ان افرض سيطرتي على قلبي بكثير من القوة والتوفيق، وإذا كنت لم اوفق إلى ان اخمد تماما – في هذا القلب – هوى آثما ومنحوسا، فإنني استطعت ان اسيطر على هذا الهوى وأن ارمضه، على الأقل، فلم يدفعني – منذ ذلك الحين – إلى ان ارتكب خطأ واحدا. وما تزال اعمال النسخ – التي اغرتني السيدة "دوديتو" باستئنافها لحسابها – ومؤلفاتي، التي واصلت إرسالها إليها عند ظهورها.. ما تزال هذه وتلك، تاتيني منها – بين الحين والحين – برسائل ومذكرات، قد لا تكون ذات قيمة، ولكنها باعثة على الرضا.. بل إنها ذهبت إلى ابعد من ذلك – كما سيتبين فيما بعد – وأن المسلك المتبادل بين ثلاثتنا – بعد أن انقطع اتصالنا – ليقوم مثالا على الطريقة التي يفترق بها أهل الشرف عندما يصبح من المستحب الا يلتقوا!

وهناك نفع آخر افدته من هذه المادبة: ذلك هو انها صارت حديث "باريس"، واتخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة التي كان أعدائي قد روجوا لها في كل مكان، عن أنني كنت على أشد الخصام مع اولئك الذين حضروها جميعا، لا سيما السيد "ديبيناي" بالذات!.. وكنت قد كتبت له – عند مبارحة "ليرميتاج" – رسالة شكر مهذبة، اجاب عنها بادب مماثل، ولم تنقطع المجاملات المتبادلة، سواء بيني وبينه، أو بيني وبين السيد "دي لاليف" – شقيقه – الذي كان يفد إلى "مونمورنسي" لزيارتي، وبعث إليّ بصوره، وما عدا زوجتي شقيقي السيدة "دوديتو" لم اكن يوما على علاقة سيئة باحد من الأسرة.

*****

ولقد حظي مقالي الموجه إلى "دالمبير" بنجاح عظيم، ولقد كان هذا شان مؤلفاتي جميعا، ولكن هذا المقال بالذات، كان احبها إلي في نفسي؛ إذ إنه نبه الراي العام إلى عدم الثقة بتخرصات عصبة "دولباخ". فعندما انتقلت إلى "ليرميتاج"، تنبئوا – باعتدادهم المأثور- بأنني لن استطيع البقاء هناك لأكثر من ثلاثة اشهر. حتى إذا راوني أمكث هناك عشرين شهرا، ثم اظل – بعد ان اضطررت إلى مبارحته – في الريف، راحوا يتشدقون بان هذا لم يكن سوى مجرد عناد محض، وانني قد ضقت – إلى حد الموت بعزلتي، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبي، ويجعلانني اوثر الموت هناك – ضحية العناد – على ان ارجع عن رايي واعود إلى "باريس". ولكن رسالتي إلى "دالمبير" جاءت عبقة بانفاس روح وادعة، في غير اصطناع، ولو انني كنت اعاني النكد في عزلتي لبدا هذا ملموسا في لهجتي، كما كان يبدو جليا في جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتي في "باريس".. ولكن هذه الروح اختفت في أول مؤلف وضعته في الريف، وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعا لدى القادرين على الملاحظة؛ إذ راوا – في مقالي – انني عدت إلى طبيعتي.

ومع ذلك، فإن هذا المقال – المفعم باللطف – قد جلب لي عدوا جديدا في عالم الأدب، من جراء

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "ولقد كان هذا ما ظللت أؤمن به – بسذاجة قلبي – حتى كتابة الاعترافات".

غفلتي وسوء طالعي المعهودا. ذلك انني كنت قد تعرفت - لدى السيد "**ديلا بوبلينيير**" على "**مارمونتيل**"، ثم توثق هذا التعارف لدى "**البارون**"، وكان "**مارمونتيل**" يتولى - إذ ذاك - تحرير صحيفة "**ميركور دي فرانس**"، ولما كنت اربأ بنفسي ان ارسل مؤلفاتي إلى اولئك الذين يكتبون للصحف، ومع ذلك فقد كنت راغبا في ان ارسل هذا المؤلف بالذات إلى "**مارمونتيل**" دون ان اشعره بانه موجه إليه كمحرر، او لكي يتحدث عنه في صحيفته، فقد كتبت على النسخة التي ارسلتها إليه انها غير موجهة إلى "**محرر الميركور**"، وإنما إلى "**السيد مارمونتيل**"، وظننت انني بذلك كنت اقدم له مجاملة لطيفة، ولكنه - كما بدا - راى فيها إهانة بالغة، فاصبح عدوا لا تهدأ لخصامه سورة، وكتب ضد مقالي مقالا مؤدبا، ولكن اسلوبه لم يخل من غل ملموس، ومن ذلك الحين لم يدع فرصة تمر دون أن يطعنني في المجتمع، او يسيء إليّ - في مؤلفاتي - إساءة غير مباشرة.. إلى هذا الحد يتعذر ترويض انانية اهل الادب، وإلى هذا الحد يجب ان يكون المرء على حذر فيما يوجهه إليهم من مجاملات، فلا يدع اي شيء يمكن ان يؤول على غير معناه!

سنة ١٧٥٩

اما وقد غدوت مطمئنا، من كل جانب، فقد رحت استغل فراغي وحريتي في استئناف اعمالي الادبية بمزيد من الانتظام. فاتممت - في ذلك الشتاء - "**جولي**"، وارسلتها إلى "**ريه**" الذي اتم طباعتها في العام التالي. غير ان انصرافي إلى العمل، لم يلبث ان اضطرب من جراء حادث تافه، ولكنه مكدر. فقد علمت ان الاستعداد كان يجري في "الاوبرا" لعرض "**عراف القرية**" من جديد، وغاظني ان وجدت اولئك القوم يتصرفون في إنتاجي دون اكتراث بي، فعدت إلى المذكرة التي كنت قد ارسلتها - يوما - إلى السيد "**دارجنسون**" ولم اتلق عنها جوابا، فنقحتها، وارسلتها عن طريق السيد "**سيلون**"، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمه إلى السيد الكونت "**دي سان - فلورنتان**"، الذي كان قد خلف السيد "**دارجنسون**" في إدارة "الاوبرا"، ولقد تحدث "**ديكلو**" - إذ انباته بما فعلت - إلى "الكمانين الصغيرين" بهذا الشان، فعرضا عليه ان يعيدا إليّ، لا اوبراي، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل، وهو ما لم يكن ذا نفع لي؛ وإذ رايت انه لا امل لي في اي إنصاف، فقد تخليت عن المسألة كلها، وواصل المشرفون على إدارة "الاوبرا" استغلال "**عراف القرية**" وفق هواهم - وكأنها ملك خاص لهم - ويجنون منها الأرباح، دون ان يعنوا بالرد على احتجاجاتي، او ينصتوا إليها، مع ان هذه "الاوبرا" ملك لي وحدي، دون منازع (١).

ومنذ نفضت عن نفسي ربقة الطغاة الذين اوسعوني جورا، رحت اعيش حياة سهلة، مسترسلة، وادعة وقد حرمت من فتنة علاقتين من اقوى العلاقات العاطفية، وتحررت من اغلالهما الثقيلة، ولفرط مقتي للاصدقاء "الحماة" الذين كانوا يظهرون رعايتهم لي، لمجرد الرغبة في أن يوجهوا مصيري وفق هواهم، وان يجعلوني - على الرغم مني - اسير افضالهم المزعومة، عقدت العزم، على ان اقصر علاقاتي - في المستقبل - على مجرد حسن النية والود الخالص، الذي يضفي على الحياة بهجة - دون ان يفرض اية قيود على الحرية التامة - والذي يقوم على اساس المساواة الكاملة!.. ولقد كان لديّ من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لان يمكنني من ان اتذوق متع الجماعة والإيناس، دون ان اكون

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذه الفقرة التعقيب التالي: "اعترف بان كل ما استطعت - منذ كتابة هذا المؤلف - ان انتبه خلال للعميات الغامضة. التي تحيط بي، يجعلني اخشى الا اكون قد عرفت "ديدرو" حق المعرفة"!

مضطرا إلى ان اعتمد عليها اعتمادا يحد من استقلالي، وما إن جربت هذا الأسلوب من أساليب الحياة حتى شعرت بأنه انسبها لسني، ولأقضي الأيام الباقية من عمري في سلام، بعيدا عن الأنواء، والخلافات، والمضايقات، التي كدت اغرق في حمأتها، في الفترة الأخيرة.

*****

وكنت خلال إقامتي في "ليرميتاج"، ومنذ ان استقر بي المقام في "مونمورنسي" قد عقدت صلات تعارف مستحبة، في المنطقة لم تكن تفرض عليّ أية التزامات، وعلى راس هؤلاء المعارف "لويزو دي موليون" الشاب، الذي كان ما يزال في بداية عمله كمحام، وعلى جهل بالمركز الذي كان موشكا ان يشغله، ولم تكن لديّ من الهواجس مثل ما تولاه، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة، التي ينعم بها اليوم، وتنبأت له بأنه إذا حرص اشد الحرص على تخير قضاياه، وإذا هو تشبث دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة فإن هذه المشاعر السامية لن تلبث ان تصقل نبوغه، وتجعله في مصاف كبار المحامين والخطباء، ولقد تبع نصحي، وإنه ليحظى اليوم بالنتيجة، ولقد كان دفاعه عن السيد "دي بورت"، خليقا بان يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الإغريقي "ديموستين"!.. وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام، في "سان - بريس" - على اربعة فراسخ من "ليرميتاج" - في ضيعة آل "موليون" التي كانت تمتلكها امه، والتي عاش فيها من قبل "بوسويه" العظيم، وهي ضيعة ادى تعاقب امثال هؤلاء الملاك عليها إلى تعذر بقاء أسرة إقطاعية على ارضها!

وكان لي في القرية ذاتها - "سان - بريس" - صديق آخر هو الكتبي "جيران".. وكان رجلا موهوبا، مطلعا، لطيفا، وفي أرقى مصاف أبناء مهنته، ولقد تعرفت بفضله إلى "جان نياولم"، وكان صديقا له من باعة الكتب، على تراسل مستمر معه، وهو الذي نشر كتابي "إميل"، فيما بعد.

وعلى مسافة ادنى من "سان - بريس"، تعرفت إلى راعي كنيسة "جورسلي" - السيد "مالتور" - الذي كان يصلح لان يكون وزيرا ومن رجال الحكم منه لان يكون "خوريا" لكنيسة إحدى القرى.. او كان جديرا - على الأقل - بأبرشية يديرها، إذا قدر للمواهب ان تحدد مراكز الرجال!.. ولقد كان يوما سكرتيرا للكونت "دولوك"، وعرف "جان بابتيست روسو" معرفة وثيقة، وكان مفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل - الذي قدر له ان يقصى عن موطنه - بقدر ما كان مليء القلب بالمقت لذلك الوغد "سوراني" الذي كان سببا في القضاء على ذلك الشاعر.. وكان "الخوري" يعرف عددا من النوادر الطريفة عن كل منهما، لم يذكرها "سيجاي" في سيرة الشاعر، التي لم تنشر بعد، ولقد اكد لي السيد "مالتور" ان الكونت "دولوك" لم يجد يوما سبيلا إلى الشكوى منه، بل إنه ظل يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته، ولقد منح السيد "دي فانتميل" الخوري منصبه المريح - بعد وفاة مخدومه السابق - ليعيش في عزلة هادئة. وقد روي لي انه استخدم - قبل ذلك - في كثير من الأعمال، ظل - رغم تقدم سنه - يحتفظ بذكريات واضحة لها، وكان يحدثني عنها بلهجة تنم عن حكمة وحصافة، وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا، لا يوحي إلى المرء قط بعقلية "خوري" القرية، وكان يجمع بين دراية الرجل الخبير بالدنيا، وشوق الطالب الراغب في التعليم، ولقد كانت صحبته هي احب صحبة إلى بعض المقيمين في المنطقة من جيراني، ولقد فارقته وفي نفسي أبلغ الأسف لذلك.

وتعرفت في "مونمورنسي" إلى أعضاء هيئة الوعظ، ومنهم الأب "بيرتيه" الذي كان أستاذاً في العلوم الطبيعية، والذي توثقت صلتي به - برغم لمحة من الاختيال بعلمه في خلقه - لما لمسته فيه من طيبة. على أنني وجدت عناء في محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة، وبين تحايله على أن يزج بنفسه في كل مكان.. في دور العظماء، وبين النساء، ولدى الأتقياء، وفي أوساط الفلاسفة. كان يعرف كيف يرضي أهواء جميع الناس!.. ولقد وجدت متعة بالغة في صحبته، ورحت أتحدث عنه إلى كل إنسان، ومن الجلي أن كل ما كنت أقوله عنه، قد نمى إليه! فقد شكرني ذات يوم، مبتسماً، لأنني كنت أعتبره رجلاً طيباً، ولمحت في ابتسامته لوناً من اللؤم بدل سحنته - في نظري - تبديلاً تاماً، ولا تزال هذه الابتسامة تتمثل في ذاكرتي أحياناً، منذ ذاك الحين، ولست أملك أن أصورها بأكثر من أنها ابتسامة "بانورج" وهو يبتاع الغنم "داندينو". ولقد بدأ تعارفنا عقب وصولي إلى "ليرميتاج" بوقت قصير، ثم أخذ يكثر من التردد على الدار لزيارتي بعد ذلك.

وكنت قد استقررت في مقامي في "مونمورنسي"، عندما رحل الأب "بيرتيه" إلى "باريس"، ليقيم فيها، وهناك أخذ يلتقي بالسيدة "لوفاسير" في كثير من الأحيان وقد كتب لي ذات يوم - كان فيه أبعد الناس عن ذهني - يطلعني، على لسان هذه المرأة، على أن "جريم" عرض عليها أن يعولها، ويستأذنني باسمها في قبول هذا العرض، وعلمت أن "جريم" عرض عليها معاشاً قدره ثلاثمائة ليرة، على شريطة أن تذهب لتقيم في "دويي"، بين "لاشيفريت" و"مونمورنسي"، ولست بحاجة إلى أن أذكر وقع هذا النبأ على نفسي.. لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن "جريم" أوتي دخلاً قدره مائة ألف ليرة، أو أنه أنشأ علاقة غير شريفة مع هذه المرأة!.. وكأنه لم يعتبره إجراماً مني أن أصطحب هذه المرأة إلى ذات الريف الذي يميل الآن إلى إعادتها إليه.. أو كأن السن رجعت بها القهقرى منذ أثار هذا الاتهام!

وأدركت أن العجوز الماكرة ما كتبت تسألني الإذن - وهي التي لم تكن تتورع عن أن تغض البصر عنه إذا ما رفضت - إلا لكي تتفادى أن تفقد ما كنت أمنحها إياه من ناحيتي، ومع أن هذا التطوع للخير - من جانب "جريم" - بدا غير عادي في عيني إلا أنه لم يشغلني إذ ذاك، بقدر ما شغلني فيما بعد. على أنه لو قدر لي حينذاك أن أعرف كل ما عرفت بعده لما أحجمت عن أن أعلنها بموافقتي - كما فعلت إذ ذاك - ما لم أكن على استعداد لأن أعوضها عما عرضه عليها "جريم"!

ومنذ ذلك الحين أبراني الأب "بيرتيه" من الاغترار بطبيعة الأمر الذي بدا له عجباً، حين صارحته به في غباء!

*****

كان هذا الأب "بيرتيه" بالذات، على معرفة برجلين، كانا بدوريهما ينشدان التعرف إليّ، دون أن أدري لذلك داعياً؛ إذ لم يكن ثمة تقارب يذكر - في الواقع - بين ميولهما وميولي. ذانك هما ابنا "ميلشيديك" اللذان لم يقدر لأحد أن يعرف وطنهما، ولا أسرتهما، بل - وربما - لقبهما الحقيقي، وكانا من "اليانسنيين" (١) وقد أخذهما القوم على أنهما راهبان مستخفيان، ولعل ذلك كان راجعاً إلى عادتهما التي كانت تعرضهما للسخرية.. عادة حمل سيفين طويلين، كانا يتشبثان بهما، وكانت السرية الصافية التي راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما، تكسبهما مظهر زعماء

(١) "اليانسنيين" أتباع مذهب ديني، ورد شرحه في الجزء الأول من "الاعترافات".

الاحزاب أو الشيع، ولم اشك قط في انهما هما اللذان كانا يصدران "الجازيت اكليسيا ستيك"، الصحيفة الدينية.

وكان احدهما فارع القامة، بشوشا، متملقا، يدعى السيد "فيرو".. اما الآخر، فكان قلة في الجسم، ربعة القوام، ساخرا، كثير الجدل فيما لا طائل منه، ويدعى السيد "ميثار"، وكان كل منهما ينادي الآخر بيا "ابن العم"، وكانا يقيمان في "باريس" مع "دالمبير"، في بيت مربيته، وقد اتخذا في "مومورنسي" بيتا صغيرا، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام، وكانا يدبران شؤون بيتهما بنفسيهما، دون خدم ولا حشم، وكانا يتناوبان اسبوعيا الذهاب إلى السوق، والطهو، وكنس البيت. وفيما ذلك، كانا يعيشان ناعمين، وكنت اتناول الطعام على مائدتهما، ويتناولانه على مائدتي، في بعض الاحيان، ولست ادري السر في انهما كانا يشغلان بي، في حين أنني لم اكن احفل بهما إلا لانهما كانا يهويان الشطرنج.. ولكي اظفر بعبارة صغيرة، متواضعة، كنت احتمل اربع ساعات مضجرة، ولما كانا يسعيان إلى ان يدسا انفيهما في كل شيء فإن "تهريز" اطلقت عليهما اسم "الثرثارين"، وقد لصق بهما هذا الاسم في "مونمورنسي".

هؤلاء مع السيد "متى" - صاحب بيتي، الذي كان رجلا وقورا - كانوا اهم معارفي في الريف، وكنت ما ازال احتفظ بعدد كاف في "باريس"؛ لكي انسى الحياة هناك - كلما طاب لي ذلك - خارج نطاق وسط الادباء، حيث لم اكن اعول على صديق سوى "ديكلو" وحده!.. فقد كان "ديليير" ما يزال جد صغير السن بالنسبة لي، ومع انه لم يلبث إذ عرفت عن كثب الدسائس ضدي من العصبة الفلسفية - ان نأى بنفسه تماما عن هذا الوسط، او هكذا ظننته، على الاقل.. ولم اكن قد استطعت بعد ان انسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقا لكل اولئك المتآمرين!

وكنت ما ازال احتفظ - في المكانة الأولى - بصديقي القديم المحترم السيد "روجان"، وهو من اصدقاء الأيام الطيبة، الذين لا ادين بمعرفتهم لكتاباتي، وإنما لشخصي؛ ولهذا السبب استطعت ان احتفظ به دواما، وكان من اصدقائي ايضا، مواطني الشيخ الطيب "لينييب"، وابنته السيدة "لامبير"، التي كانت إذ ذاك ارملة، وهناك - كذلك - شاب من "جنيف" يدعى "كواندیه"، كان فتى طيبا - كما بدا لي - مجتهدا، خدوما، ذا حمية.. بيد أنه كان جاهلا، متواكلا، شرها، نفعيا، وقد جاء - منذ البداية - لزيارتي في "ليرميتاج"، وبدون دعوة - اللهم إلا من نفسه - استقر في بيتي، بالرغم مني، وكان على ميل للرسم، وعلى معرفة بأهل الفن، وقد افدت منه في رسوم "جولي"، فآلى على نفسه ان يشرف على الرسوم واللوحات "الكليشيهات"، وقد ادى هذه المهمة خير اداء.

وكان لديَّ - فوق ذلك - بيت السيد "دوبان" الذي غدا اقل بهاء، مما كان في انضر ايام السيدة "دوبان" (ايام شبابها) والذي ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم، وبفضل الصفوة التي كانت تتردد عليه، ولما كنت قد اعتدت ان افضلهم على من عداهم طرا، ولم اهجرهم إلا لكي أعيش طليقا فإنهم لم يكفوا قط عن ان يرمقوني بعين الود، وكنت واثقا من حفاوة السيدة "دوبان" بي في جميع الأوقات. بل إنني استطيع اعتبارها من جاراتي في الريف - كذلك - منذ اقاموا دارا في "كليشي"، اعتدت أن أقضي فيهما يوما او يومين - في بعض الاحيان - وكنت خليقا بأن أكثر من التردد عليها، لو ان السيدة "دوبان" والسيدة "شينونسو" كانتا تعيشان على مزيد من الوئام. ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امراتين لا تنسجمان معا، جعلني اضيق كثيرا بـ"كليشي".

ولما كنت مرتبطا بالسيدة "شينونسو" بود أكثر يسرا وأشد الفة فإنني كنت احظى بمتعة رؤيتها - وأنا اكثر ارتياحا - في "دوبي"، التي كانت جد قريبة من مسكني، حيث كانت قد استاجرت دارا صغيرة.. كما كنت أسعد برؤيتها في داري، حيث اعتادت أن تاتي لزيارتي في كثير من الأحيان.

كذلك كان بين معارفي في "باريس" السيدة "دي كريكي"، التي أوغلت في التعبد والتدين، وكفت عن لقاء "دالمبير" و"مار مونتيل" ومن على شاكلتهما، ومعظم اهل الادب، اللهم إلا الأب "تروبليه" - على ما أعتقد - الذي كان في ذلك الحين شبه مراء متملق، حتى إنها لم تلبث ان ضاقت به. اما أنا، فكانت تنشد صحبتي، ولم نفقد ودها نحوي، بل ظلت دائما على تراسل معي، وقد ارسلت لي بعض دجاج "لومان" السمين كهدية في راس السنة. كما كانت تعتزم ان تفد لزيارتي في العام التالي عندما افسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدة "دي لوكسمبورج" في الوقت ذاته، وإنني لاحتفظ لها في نفسي بمكانة خاصة، ولسوف تظل ذات مقام في ذاكرتي على الدوام.

*****

وكان لديّ صديق، جدير بان اجعله في مقدمة الجميع اللهم إلا "روجان". ذلك هو زميلي وصديقي القديم "كاريو"، الذي اصبح السكرتير الأسمى للسفارة الإسبانية في "البندقية"، ثم في "السويد"، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالاعمال، ثم عين سكرتير اصليا لسفارة بلاده في "باريس". ففاجاني بزيارة في "مونمورنسي"، في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن أن أتوقعه، وكان يتقلد وساما إسبانيا - نسيت اسمه - ذا صليب بديع مرصع بالاحجار الكريمة، وكان مضطرا إلى ان يضيف إلى اسمه - في وثائق النسب - حرفا آخر، فاصبح يحمل اسم "الشيفاليه دي كاريون". ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما: عين القلب الرائع، والعقل الذي يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم.. وكنت خليقا بان اعاود الفتى معه، كما كنا من قبل، لو لم يدخل "كواندبه" بيننا - كعهده - فينتهز بعدي عن "باريس"؛ ليتسلل - باسمي - إلى مكاني منه، ويغدو موضع ثقته، ويسلبني رده في تحمسه لخدمتي!

وتعيد ذكرى - "كاريون" إلى ذهني ذكر احد جيراني في الريف، كنت خليقا بان اذنب اشنع ذنب لو انني اغفلت الحديث عنه لاسيما أنني مسوق إلى أن اعترف بخطا لا يغتفر نحوه. ذلك هو السيد الكريم "لوبلون"، الذي ادى لي كثيرا من الخدمات في "البندقية"، والذي جاء في رحلة إلى "فرنسا" - مع اسرته - فاستاجر دارا ريفية في "لابريش"، التي لم تكن تبعد كثيرا عن "مونمورنسي"، وما إن عرفت انه جاري حتى خفق قلبي طربا، ورأيت أن أزوره بدافع من سروري، اكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب، وذهبت لذلك في اليوم التالي مباشرة، وإذا بي التقي باناس كانوا قادمين لزيارتي. فاضطررت إلى العودة معهم. وبعد يومين، سعيت إليه مرة ثانية، فوجدته يتناول غداءه في "باريس" مع أسرته (١). وذهبت مرة ثالثة، فإذا به في داره، وسمعت اصوات نساء، ورأيت لدى الباب عربة أزعجتني؛ إذ كنت أود ان اقابله - دون دخيل ولو في المرة الاولى، على الأقل، لاتكلم معه عن علاقاتنا القديمة. وموجز القول، إنني رحت أرجيء زيارتي يوما بعد آخر، حتى منعني حيائي من التقصير - طيلة هذه المدة - في تحقيق هذا الواجب، من ان أؤديه إطلاقا. فكان

---

(١) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة، التعقيب التالي: "كنت عند كتابة هذا، مفعما بتفتي القديمة العمياء، أبعد ما أكون عن أن ارتاب في السبب الحقيقي لهذه الرحلة إلى "باريس"، وفي نتائجها".

إقدامي على الانتظار طويلا، سببا في الا اجرؤ - في النهاية - على ان اظهر نفسي، ولقد ادى هذا الإهمال - الذي لم يكن السيد "لوبلون" يملك سوى ان يستنكره، عن حق - إلى ان جعل تخاذلي يبدو جحودا، ومع ذلك فإنني لم اشعر في قرارة فؤادي - باي تثريب.. ذلك لانني لو كنت قادرا على ان اتيح للسيد "لوبلون" اي سرور حقيقي - وإن لم يكن على علم به - فإنه ما كان ليجدني في يقيني، متكاسلا. ولكن الخمول، والإهمال، والتهاون في اداء الواجبات التافهة، كثيرا ما كانت ابلغ إساءة إليّ، بل من اعظم الرذائل. كانت ابشع اخطائي تتمثل في التغاضي، فنادرا ما كنت افعل ما لم يكن ينبغي ان افعله، وأندر من ذلك - لسوء الحظ - انني لم اكن افعل ما يجب فعله!

*****

وما دمت قد عدت إلى المعارف الذين ظفرت بهم في "البندقية"، فخليق بي الا انسى علاقة تتصل بهم، وقد دامت امدا اطول من بقية العلاقات، واقصد علاقتي بالسيد "دي جونفيي"، الذي ظل - منذ عودته من "جنوا" - يواصل إبداء كثير من الود نحوي، وكان شديد الشغف بلقائي، وبالحديث عن المسائل والشؤون الإيطالية، وعن حماقات السيد "دي مونتيجي"، التي عرف - من ناحيته - بعض نوادرها، عن طريق وزارة الخارجية، التي كانت له بها كثير من الصلات. ولكم سررت؛ إذ التقيت في داره بزميلي القديم "دوبون"، الذي كان قد حصل على منصب في إقليمه، وكانت شؤونه تحمله إلى "باريس" من آن إلى آخر.

ولقد اخذ السيد "جونفيي" يزداد إلحاحا في لقائي، شيئا فشيئا، حتى اصبح مصدر إزعاج لي.. ولما كنا نقيم في حيين متباعدين، فقد بات يثير ضجة بيننا، إذا انقضى اسبوع كامل دون ان اذهب فاتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة "جونفيي"، يسعى دواما إلى اصطحابي، ولكنني بعد ان قضيت هناك ثمانية ايام - ذات مرة - شعرت بانها لا تكاد تنصرم، لم اعد اجد رغبة في العودة إليها، ولقد كان السيد "جونفيي" رجلا كريما، شهما - بكل تاكيد - كما كان لطيفا في نواح خاصة، ولكنه كان محدود الذكاء... وكان جميلا، مزهوا بشكله إلى حد ما، وباعثا على الضجر.. وكانت لديه مجموعة جد فريدة في نوعها، بل لعلها كانت وحيدة في العالم، فكان جد مشغول بها، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها - احيانا - اقل تشويقا مما كان يجدها هو تلك كانت مجموعة كاملة من اغاني البلاط الملكي، والاغاني الباريسية - منذ اكثر من خمسين عاما - توجد بينها كثير من الطرائف، التي كان من المستحيل على الباحث ان يعثر عليها في اي مكان آخر.. وإنها لذكريات في تاريخ "فرنسا"، نادرا ما تخطر بالبال لدى كافة الامم الاخرى!

وفي ذات يوم - وقد كنا في اوج وئامنا - استقبلني استقبالا باردا، جليديا، لا يماثل مسلكه العادي، حتى إنني بعد ان اتحت له فرصة ليشرح هذا المسلك - بل وسالته إيضاحا - فلم يفعل،، خرجت من داره وقد قر عزمي على الا اضع قدمي فيها مرة اخرى؛ إذ إنني لا اشاهد ثانية - على الإطلاق - حيث اكون قد حظيت باستقبال سيئ مرة.. ولم يكن هنا "ديدرو" يشفع للسيد "دي جونفيي"، ولقد ارهقت عقلي عبثا. كي اتبين اي ذنب يحتمل ان اكون قد ارتكبته نحوه؛ إذ إنني لم استطع ان اتذكر شيئا، وكنت موقنا من انني لم اتحدث قط عنه او عمن يمت إليه، إلا باحترام كبير؛ إذ إنني كنت صادقا في ودي له، وبجانب انني لم اكن املك ما اقوله عنه سوى كل خير، فقد كان من اكثر مبادئي صلابة، الا اتحدث عن البيوت التي أزورها، إلا في إجلال وامانة.

واخيرا، وبعد تخبط، انتهيت إلى الحدس التالي : ففي آخر مرة التقينا فيها، دعاني إلى العشاء في مسكن فتيات من معارفه، مع اثنين أو ثلاثة من موظفي وزارة الخارجية، وكانوا رجالا متزنين، لا يبدو عليهم قط اي فجور او خلاعة.. وبوسعي ان اقسم على انني - من ناحيتي - قضيت الامسية في خواطر حزينة من اجل النصيب التعس الذي اوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات، ولم اساهم في نفقات العشاء؛ لان السيد "دي "جونفيي" كان صاحب الدعوة.. كما انني لم اهب الفتيات شيئا؛ لانني لم اتح لهن فرصة التكسب مني، كما فعلت في واقعة "البادوانا". وبعد ثلاثة ايام او اربعة - لم ازر فيها الفتيات مرة اخرى - ذهبت لتناول الغداء في دار السيد "دي جونفيي"، الذي لم اكن قد رايته منذ تلك المناسبة، فإذا به يستقبلني على النحو الذي ذكرته، ولما لم استطع ان اتصور سببا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لامر ما يتصل بذلك العشاء؛ وإذ تبينت أنه غير راغب في ان يشرح مسلكه، فقد انقطعت عن زيارته، ولكني ظللت ارسل إليه مؤلفاتي، فكان يبعث إليّ - احيانا - بتحياته.

وفي ذات مساء، قابلته في غرفة الاستراحة بمسرح "الكوميدي"، فإذا به يعتب عليّ في لطف أنني لم اعد ازوره، ولكن هذا لم يحملني على العودة إليه، وهكذا، بدا الامر - في هذه الحالة - مجرد إحجام اكثر منه قطيعة!.. على انني لم اره قط بعد ذلك، ولا سمعت عنه مزيدا بعد ذلك الوقت. وقد تكون الفرصة جد متاخرة - بعد ان انفصمت صلتنا لعدة سنوات - لكي نجدد صداقتنا، وهذا هو السبب في انني لم اذكر هنا السيد "دي جونفيي"، بين الاصدقاء الذين ظللت احتفظ بهم في "باريس"، برغم انني ترددت على داره فترة طويلة.

*****

على انني لن اضخم القائمة باسماء معارف آخرين اقل الفة، او اسماء اولئك الذين قل توثق ألفتي بهم تدريجيا، لتغيبي عنهم، ولو انني ما ازال اراهم في الريف احيانا، سواء في داري او في دور جيراني، ومنهم - على سبيل المثال - الراهبان "دي كونديلاك" و"دي مابلي"، والسادة "دي ميران"، و"دي لاليف"، و"دي بواجيلو"، و"واتيليه"، و"أنسيليه" وغيرهم ممن يطول سرد اسمائهم. كذلك اورد في ذكر عابر، السيد "دي مارجينسي"، الامين الخاص للملك، والعضو القديم في ندوة "دولباخ"، والذي لم يلبث ان هجرها كما هجرتها انا، وقد كان صديقا حميما للسيدة "ديبيناي"، ولم يلبث ان انفصل عنها كما انفصلت انا.. ثم اذكر صديقه "ديماهي"، مؤلف المسرحية الفكهة: "السفيه"، الذي اكتسب شهرة، ولكنه لم يلبث ان غاب عن الاذهان والاسماع. ولقد كان الاول - "دي مارجينسي" - جارا لي في الريف؛ إذ كانت ضيعة "دي مارجينسي" قريبة من "مونمورنسي"، وكنا على تعارف قديم، ولكن الجوار، وبعض التشابه في تجاربنا في الحياة، قربا بيننا!.. اما الثاني، فلم يلبث ان مات بعد تعرفنا بقليل، وكان ذا كفاءة وذكاء، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة، في بعض النواحي، إذ كان ماجنا - بعض الشيء - مع النساء، ولم يحظ بكثير من الاسف او الحزن عند موته!

على انني لا استطيع ان اغفل علاقة جديدة بالمراسلة - في تلك الآونة - كان لها من الاثر عليّ ما تبقى من حياتي، ما لا يدعني اتجاوز ذكر منشئها، واقصد بهذا السيد "دي لاموانيون دي ماليزيرب" أول رئيس لمجلس المعونة، الذي كان - إذ ذاك - رقيبا على الكتب المطبوعة، وقد ادى مهمته بكثير من الحصافة وسعة الافق واللين، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الادب، ولم اكن قد

زرته قط في "باريس"، ولكنني كنت ألقى منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير، فيما يتعلق بالرقابة.. وقد علمت انه في أكثر من مناسبة، كان يؤنب - في قسوة - أولئك الذين اعتادوا ان يكتبوا ضدي، ولقد وقعت على ادلة جديدة على كرمه وافضاله، بالنسبة لنشر "جولي". فإن إرسال "بروفات" مؤلف ضخم كهذا من "امستردام" - حيث كان يطبع - كانت باهظة؛ ومن ثم فإنه سمح بأن ترد باسمه هو؛ إذ كانت المراسلات الموجهة إليه معفاة من رسوم البريد. فكانت "البروفات" ترسل باسمه، فيبعث بها إليّ دون نفقات كذلك، بفضل والده السيد حامل الأختام، وعندما تم طبع الكتاب رفض بيعه في المملكة إلا بعد طبعة دبر امرها، بحيث يؤول ربحها إليّ وحدي، بالرغم مني.. ولما كان هذا الربح يعتبر - من جانبي - سرقة وجورا على حقوق الناشر "ريه"، الذي كنت قد بعثته أصول كتابي، فإنني لم ارفض فحسب قبول هذه الهدية - التي دبرت لي بدون إذنه، وإن كان قد اقرها في كرم النفس - بل إنني رغبت في ان اقتسم معه المائة "بيستول" التي تجمعت منها، والتي ابى ان يقبل منها شيئا، ولقد ضايقتني هذه المائة "بيستول"؛ إذ لم يكن السيد "دي ماليزيرب" قد شاورني في امرها، ولم يمهد لديّ حتى اكون على علم إذ أرى مؤلفي يستغل استغلالا بغيضا، فيمنع بيع الطبعة الجيدة، ريثما تستنفد نسخ الطبعة الرديئة! (١)

ولقد اعتدت ان انظر دائما إلى السيد "دي ماليزيرب" كرجل اجمعت الشواهد على استقامته. فما حملني شيء مما حدث على أن ارتاب في امانته لحظة واحدة، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفا؛ ومن ثم فإنه كان يسبب المضايقات احيانا، لاولئك الذين كان يشغل بامورهم، رغبة منه في حمايتهم، وفي سبيل هذا لم يكتف بأن امر بحذف اكثر من مائة صفحة من طبعة "باريس"، بل إنه عدا على النسخة التي ارسلها إلى السيدة "دي بومبادور" - من الطبعة الجيدة - بطريقة جديرة بأن تسمى انتهاكا للأمانة. فلقد قيل في سياق ذلك الكتاب، إن زوجة الفحام اجدر بالاحترام من عشيقة أمير، وإني لأقسم على ان هذه العبارة قد عرضت لي في سياق التاليف، دون ان يقصد بها احد، وقد تبينت - عندما اعدت قراءة الكتاب - أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات.

غير انني لم اشأ ان احذف هذه العبارة، جريا على مبدئي الصلب المتعنت، من عدم حذف اي شيء، مراعاة لاي تأويل قد يحمل على محمله، مادام ضميري شاهدا على انني لم اكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبته!.. واكتفيت بأن ابدلت كلمة "ملك" - التي كنت قد كتبتها في باديء الأمر - بكلمة "أمير"!

ولم يرض هذا التعديل السيد "دي ماليزيرب" - على ما بدا - فحذف العبارة تماما في طبعة جديدة للصفحة في ورقة مستقلة، الصقها في عناية تامة على الصفحة الأصلية، في النسخة الموجهة إلى السيدة "دي بومبادور". على انها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية، فقد وجدت بعض نفوس "طيبة!" اطلعتها عليها. اما انا، فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل، عندما شرعت أحس آثارها!

او ليس هذا - بدوره - أصل كراهية مستترة، ولكنها مريرة، من سيدة أخرى كانت في وضع مشابه (٢)، وإن لم أعرف عنه شيئا، بل ولا كنت قد عرفتها هي عندما كتبت هذه الفقرة؟.. ولقد تم تعارفي بها عندما نشر الكتاب؛ فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتياح، واعربت عن ذلك لـ"الشيفالييه دي لورنزي"، الذي ضحك ساخرا، وأكد لي ان هذه السيدة لم تمس بما يجرح كرامتها في شيء، بل إنها لم تنتبه إلى الأمر. ولقد صدقت قوله، ولعلني كنت متلهفا بعض الشيء عليه،

---

(١) الطبعة الجيدة هي التي طبعت في "امستردام"، اما الرديئة فهي التي دبر "دي ماليزيرب" إصدارها في "باريس" لمصلحة "روبير". (٢) يقصد الكونتيسة "دي بوفلير"، التي كانت عشيقة الأمير "دي كونتي"!

فاستبعدت طمأنينتي في وقت لم يكن من الملائم لي ان اطمئن فيه!

وتلقيت مع مقدم الشتاء، دليلا، جديدا على كرم السيد **"دي مالزيرب"**، قدرته كل التقدير، وإن لم ار من الحكمة ان انتفع به. فلقد كان ثمة منصب خال في صحيفة العلماء **"جورنال ديه سافان"**، وقد كتب لي **"مارجيني"** يعرض هذا المنصب عليّ وكانه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه، بيد انه كان من اليسير عليّ ان ارى من أسلوب خطابه (الملف "ج" - رقم ٣٣) يعمل بأوامر من سلطة فوقه.. بل إنه اوحى إليّ بنفسه في خطاب تال (الملف "ج" - رقم ٤٧) انه كان مكلفا بان يعرض عليّ المنصب، وكان العمل بسيطا، يتالف من قطعتين تستخلصان شهريا من كتب ترسل إليّ؛ ومن ثم فلن أكون بحاجة قط إلى ان اذهب إلى **"باريس"** ولو في زيارة للمسؤول، أقدم فيها شكري. ولقد مهد لي هذا المنصب سبيل دخول مجتمع ادباء الطبقة الأولى، السادة: **"ميران"**، و**"كليرو"**، و**"دي جيني"**، والراهب **"بارثليمي"**، وقد كنت على تعارف سابق بالاولين، فتطلعت في غبطة إلى التعرف بالآخيرين.

وفوق كل ذلك، كان لي ان أتقاضى عن هذا العمل غير المرهق - الذي كان من السهل عليّ اداؤه - مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك، مخصصة لهذا المنصب.. وفكرت بضع ساعات، قبل ان انتهي إلى قرار، وبوسعي ان أقسم بان ترددي ما كان راجعا إلا إلى الخوف من إغضاب **"مارجيني"**، وعدم إرضاء السيد **"دي مالزيرب"**. على ان الضيق - الذي لم اقو على مقاومته - من عدم تمكني من العمل في الوقت الذي يحلو لي، واضطراري إلى ان اكون مقيدا بمواعيد معينة، ثم تاكدي من عدم إجادتي للاعمال التي اكون مجبرا على ادائها.. كل هذه تحالفت وتغلبت - في النهاية - على كل اعتبار آخر، وحملتني على أن أقرر رفض منصب لم اكن مهيأ له!.. فلقد كنت اعرف ان نبوغي لم يكن يأتي إلا عن نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التي ارى علاجها، وانه لم يكن ثمة ما هو اقوى - على إذكاء عبقريتي - من حب كل ما هو عظيم، وكل ما هو صادق وحقيقي، وكل ما هو جميل! فما قيمة الموضوعات التي كان عليّ أن استخلصها من اغلب الكتب.. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لديّ؟.. كان عدم اكتراثي بكل هذا كفيلا بان يجمد قلمي، وان يبلد ذهني!.. لقد ظنوا ان بوسعي ان أكتب بحكم المهنة فحسب - ككل الأدباء الآخرين - في حين انني لم أكن قط املك ان أكتب إلا عن إيحاء وإلهام؛ ويقينا ان هذا لم يكن بالمادة اللازمة لصحيفة العلماء؛ ومن ثم فإنني كتبت إلى **"مارجيني"** رسالة شكرته فيها، وشرحت له - في اكثر ما وسعني من ادب - أسباب رفضي بالتفصيل؛ حتى لا يكون له - او للسيد **"دي مالزرب"** - ان يظن أن لسوء الطبع، أو للغرور اثرا في هذا الرفض، ولقد اقرني كلاهما على ما ذهبت إليه، دون أن يؤثر ذلك على ودهما لي.. وظل الأمر سرا مصونا، فلم يتح للرأي العام أن يعرف أتفه شيء عنه!

❀❀❀❀❀

والواقع أن هذا العرض لم يأتني في لحظة مناسبة لكي أوافق عليه؛ إذ إنني كنت قد اعتزمت - منذ فترة - أن اهجر الادب هجرانا تاما بل اهجر مهنة التاليف؛ فإن كل الذي جرى جعلني اشمئز تماما من اهل الادب، وقد ثبت لديّ انه كان من المستحيل ان امضي في هذه المهنة بالذات، دون ان اتصل بهم، ولم يكن اشمئزازي من اهل المجتمع باقل من ذلك.. بل إنني كنت قد برمت بالاختلاط الذي أقدمت عليه في الحياة عامة، سواء من ناحيتي أو من ناحية المجتمع.. فإنني لم أكن مهيأ لذلك، وعلى

ضوء التجارب المتواصلة شعرت أكثر من ذي قبل بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ أو مساواة، تكون مضرة دائما بالجانب الضعيف فيها، ولقد كانت معيشتي مع قوم ذوي ثراء، يمتون إلى طبقة أخرى غير التي اخترتها، دون أن أعيش على نمطهم، ومع ذلك فإنني كنت مضطرا إلى أن أقلدهم في كثير من الأمور.. وكانت النفقات النثرية - التي لا تعد شيئا مذكورا لديهم - عبئا مرهقا، بقدر ما كانت ضرورة لازمة!.. فإذا ما ذهب رجل لزيارة بيت في الريف، اضطلع بخدمته - سواء على المائدة، أو في مخدعه- خادمه الخاص.. فهو يرسله وراء حاجاته، دون أن يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت، بل وربما دون أن يقع عليهم بصره، فلا شيء بينه وبينهم اللهم إلا أنه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك.. أما أنا، فقد كنت وحيدا، بلا خادم خاص! ومن ثم فإنني كنت تحت رحمة خدم البيت الذي أزوره، وكان من الضرورات الماسة لي أن أكسب ودهم، إذا شئت ألا أعاني كثيرا من المضايقات.. ولما كنت أعامل كسيدهم، على قدم المساواة، فقد كان لزاما عليَّ أن أعامل الخدم كما يعاملهم السيد، بل وأن أبدي لهم أكثر مما يبدي أي امرئ آخر! لأنني كنت - في الواقع - أكثر من سواي حاجة إلى خدماتهم!

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة، في الدور التي لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم.. ولكن الدور التي كنت أزورها، كانت تضم أعدادا كبيرة. منهم، كلهم أنذال مسعورون، شديدو اليقظة.. لمصالحهم الخاصة!. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبرون خططهم، بحيث أحتاج إلى خدمات كل واحد منهم بدوره!

وكل نساء "باريس" - اللائي أوتين ذكاء فائقا - لا يصبن إطلاقا في آرائهن بهذا الصدد، ومن ثم فقد استنزفن مواردي، في رغبتهن في الإبقاء على هذه الموارد، فإذا كنت ذاهبا لتناول العشاء في دار لإحداهن - على مسافة قليلة من بيتي - أمرت السيدة بإعداد جيادها لتقلني مركبتها في عودتي، بدلا من أن تدعني أطلب مركبة بالأجر.. وكانت تغبط! لأنها توفر علي بذلك الاربعة والعشرين "سو"، أجر العربة. دون أن يخطر ببالها شيء من "الإيكو" الذي كنت أهبه خادم العربة والحوذي. ولو أن سيدة كتبت إليَّ من "باريس"، وشاءت أن تبعث برسالتها إلى "ليرميتاج" أو "مونمورنسي"، فإنها إشفاقا عليَّ من أن أدفع الأربعة "سو" - التي كان يكلفنيها خطابها (١) - كانت ترسله مع واحد من خدمها، فيأتي به سيرا على قدميه، وهو مبلل بعرقه.. وكنت أضطر إلى أن أمنحه غداء، وأهبه "أيكو" لاشك أنه كان أهلا لاكتسابه!.. أما إذا هي دعتني لقضاء ثمانية أيام - أو خمسة عشر - معها، في الريف، فإنها كانت تقول لنفسها: "لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين، على أية حال!.. فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته، أثناء مقامه هنا"!.. وكانت تنسى أنني لم أكن أقوم بأي عمل - في تلك الفترة - وإنني أظل مسؤولا عن دفع إيجار مسكني، ونفقات من فيه، والغسيل، والكساء.. وإنني كنت أدفع - في سبيل قص شعري وإزالة لحيتي - ضعف ما اعتدت أن أدفع.. وأن إقامتي في دارها، كانت تكبدني فوق ما اعتدت أن أنفق في داري!

ومع أنني اقتضبت المنح البسيطة التي كنت أهبها لخدم البيوت التي اعتدت أن أترك عليها كثيرا إلا أنها ظلت ترهق مواردي، وأعتقد أنني أنفقت ما يزيد على خمسة وعشرين "إيكو"، في دار السيدة "دوديتو" - في "أوبون" - حيث لم أنم أكثر من أربع أو خمس مرات.. وأكثر من مائة "بيستول" في "ابيناي" و"لاشيفريت"، خلال السنوات الخمس أو الست التي اعتدت فيها أن أكون ضيفا مترددا على القصرين..

---

(١) كان المرسل إليه هو المسؤول عن نفقات البريد إذ ذاك.

ذلك ان النفقات من الامور التي لا مفر منها لرجل في مثل حالي، لا يعرف كيف يؤدي لنفسه شيئا، ولا كيف يستعمل ذكاءه في إنجاز شيء، ولا يستطيع - كذلك ان يطيق رؤية وصيف يزمجر ويؤدي مهامه وهو ساخط.. بل إنني في دار السيدة "دوبان" - حيث كنت في مكانة اي فرد من افراد الاسرة، وحيث اديت الف خدمة للخدم - لم احظ منهم يوما بشيء، ما لم تكن نقودي واسطة بيننا! ومن ثم فإنني لم البث ان اضطررت إلى ان اتخلى نهائيا عن هذه المنح الضئيلة، التي لم يعد مركزي يسمح لي بإنفاقها.. وإذ ذاك فقط، شعرت - اكثر من ذي قبل - بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المرء!

اضف إلى هذا انني لو استمرات هذه الحياة لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة، إذ إنها تكون - إذ ذاك - ثمنا لمسراتي. ولكن الإفلاس الذي لا ياتي بغير المضايقة، امر يفوق كل احتمال، ولقد اشتد شعوري بوطاة هذا المسلك من مسالك الحياة، حتى إنني انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر، التي كنت احظى بها - إذ ذاك - فعقدت العزم على ان اجعلها دائمة، بان انبذ - نبذا تاما - المجتمع الراقي، وتاليف الكتب، وكل صلة بالادب، وان اعتكف - ما بقي لي من ايام في الحياة - في ذلك النطاق الضيق، الوادع، الهادئ، الذي كنت اشعر بانني خلقت من اجله!

ولقد ادت ارباح الكتاب الذي ضمنته مقالي "رسالة إلى "داليمبير"، وكتاب "هيلويز" الجديدة" إلى زيادة لا باس بها، في مواردي التي كانت قد اعتصرت في "ليرميتاج". فقد رايت امامي حوالي الف "إيكو"، وكنت قد تقدمت كثيرا في تاليف كتاب "إميل"، الذي قصرت عليه اهتمامي بعد ان فرغت من "هيلويز"، وكان دخله جديرا بان يضاعف هذا المبلغ على الاقل؛ ومن ثم فقد فكرت في مشروع لاستثمار هذا الرصيد بطريقة تجلب عليَّ إيرادا صغيرا يكفي - إذا ضم إلى ما تدره عليَّ اعمال النسخ - لان يوفر معاشي دونما حاجة إلى المضي في الكتابة. كذلك كان لدي كتابان مؤجلان، اولهما "المذاهب السياسية".. ولقد درست حال هذا الكتاب، فوجدت انه ما يزال يتطلب عدة سنوات من العمل، ولم تكن لدي جراة على المضي فيه، وان انتظر إلى ان يتم، قبل ان انفذ ما اعتزمت. ومن ثم فإنني عدلت عنه، وقررت ان استخلص منه ما يسعني استخلاصه، ثم احرق ما يزيد.. وإذ انهمكت في هذا العمل بكل قوة، دون ان اقطع استرسالي في "إميل"، قدر لي ان اضع - في اقل من عامين - العبارات الاخيرة لكتاب "العقد الاجتماعي"! (١).

وبقي "قاموس الموسيقى" - او "الموسوعة الموسيقية" - وكان العمل فيها مجرد جهد آلي، يمكن القيام به في اي وقت، ولم اقدم عليه إلا طلبا للنقود فحسب، وقد احتفظت لنفسي بحق نبذه، او إتمامه متى شئت، وفقا لما إذا كانت مواردي الاخرى توحي بان دخله ضروري، او انه فائض عن الحاجة. اما كتاب "الأخلاق في الشؤون الحسية" - الذي كنت قد وضعت خطوطه الأولى - فقد نبذته نهائيا!

واخيرا وكنت اعول على مشروع، إذا ما قدر لي ان استغني عن اعمال النسخ.. ذلك هو ان اوغل في الابتعاد عن "باريس"، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتي فادحة، ويحرمني من الوقت لزيارتها.. ولكي ادفع عني في عزلتي شعور الملل - الذي يقال إنه يعدو على المؤلف، إذا هو القى قلما جانبا - احتفظت لنفسي بعمل كفيل بان يملأ الفراغ في وحدتي، دون ان يستدرجني إلى الانسياق لإغراء نشر اي جديد، خلال ما تبقى من عمري. فما كنت ادري اية نزوة تملكت "ريه"، فراح - منذ زمن طويل - يستحثني على كتابة ذكريات حياتي، ومع ان هذه الذكريات لم تكن -

(١) قدم "كتابي" ملخصا لكتاب "إميل" في عدده الرابع، وملخصا لكتاب "العقد الاجتماعي" في العدد ٣٢.

حتى ذاك الحين - مشوقة - من حديث الاحداث - إلا انني شعرت بأن من الممكن ان اجعلها مشوقة، بفضل الروح التي اتناول بها الموضوع؛ ومن ثم صممت على ان اجعلها عملا فريدا في نوعه بان اكتبها بصدق لا مثيل له، حتى يتسنى - ولو مرة واحدة - ان يرى الناس رجلا على حقيقته، كما يرى هو دخيلة نفسه!

ولقد اعتدت دائما ان اسخر من سذاجة "مونتاني" التي غررت به، فجعلته يعنى عناية فائقة بالا ينسب إلى نفسه إلا كل مستحب، في حين انه كان يتظاهر بالاعتراف بعيوبه.. اما انا - الذي اعتدت ان اعتقد دائما انني، من كافة الاعتبارات، خير الرجال - فقد شعرت بانه ما من قلب بشري - مهما يكن نقيا - إلا ويطوي بين جوانحه عيبا ذميما، ولقد كنت ادرك انني صورت للناس في صورة تخالف تماما صورتي الحقيقية، بل وتبدو في بعض الأحيان مشوهة، حتى إنني - برغم السوء الذي لا ابتغي إخفاءه قط - لن ابوء إلا بالكسب، إذا اطلعت الناس على حقيقة نفسي!.. وإلى جانب هذا، فما كان من الميسور ان اكشف نفسي، دون ان اكشف الآخرين على حقيقتهم! ومن ثم فإنه لم يكن في الوسع نشر هذا المؤلف إلا بعد وفاتي، ووفاة كثيرين غيري، ولقد زادني هذا قوة على الإقدام على تسجيل اعترافاتي، التي لن يقدر لي أن اخجل منها امام إنسان؛ ولهذا فقد عولت على ان اخصص اوقات فراغي للمضي في تنفيذ هذا المشروع، وبدأت اجمع الرسائل والاوراق التي قد ترشد ذاكرتي او تعينها، والأسف يملأ نفسي حسرة على كل ما كنت قد مزقته، او احرقته، أو اضعته حتى ذلك الوقت!

*****

ولقد كان لمشروع الاعتكاف التام - وهو من أحكم المشروعات التي خطرت لي - أثر قوي على ذهني ، وكنت قد شرعت في تنفيذه عندما القت بي السماء - التي كانت تعد لي مصيرا آخر - في دوامة جديدة!

ذلك ان إقليم "مونمورنسي"، الميراث العريق الفخم - الذي كانت تتوارثه الأسرة، صاحبة هذا الاسم - لم يعد ملكا لهذه الأسرة، مذ صودر، وكان قد آل - بزواج أخت الدوق "هنري" - إلى اسرة "كونديه"، التي ابدلت اسم "مونمورنسي" باسم "انجيان"، ولم يكن لهذه الدوقية من قصر سوى حصن قديم، تحفظ فيه الوثائق، ويتلقى فيه السادة امارات الولاء. على ان ثمة بيتا معينا يرى في "مونمورنسي" - او "انجيان" - شيده "كروازيه" - الملقب بالفقير - ويضارع في فخامته اعظم القصور، حتى ليستحق أن يسمى قصرا.. إن المنظر المهيب لهذا المبنى البديع، والمرتفع الذي يقوم عليه، والمنظر الذي يشرف عليه، والذي قد لا يكون له شبيه في العالم، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه، التي ازدانت برسوم يد حاذقة، وحدائقه التي غرسها "لونوستر" الذائع الصيت.. كل هذه تؤلف وحدة شاملة، ذات جلال باهر، يمثل - في الوقت ذاته - بساطة لا ادري مبعثها، ولكنها توحي بإعجاب باق!

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق "دي لوكسمبورج" - الذي كان يشغل هذا البيت في ذلك الحين - أن يفد في كل عام مرتين إلى هذا الإقليم الذي كان آباؤه واجداده سادة له فيما مضى، فيقضي خمسة اسابيع او ستة، كأي ساكن عادي، ولكن في ابهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقة!..

وفي أول رحلة جاء فيها، بعد ان استقر بي المقام في "**مونمورنسي**"، اوفد إليّ وصيفا يحمل تحيات السيد المارشال والسيدة زوجته، ودعوة إلى تناول العشاء معهما، عندما يروق لي ذلك!

وما من مرة جاءا فيها واهملا إرسال التحيات ذاتها، والدعوة عينها، وقد ذكرني هذا بالسيدة "**دي بوزينفال**" حين همت ان ترسلني لتناول الغداء مع الخدم. ولقد تغير الزمن، ولكنني بقيت على حالي، ولم أكن راغبا البتة في أن أرسل لتناول الغداء في قاعة الخدم، كما أنني لم أكن احفل كثيرا بموائد العظماء، وقد كنت اوثر لو انهم تركوني في حالي، دون أن يكرموني، ودون ان يحقروني؛ ومن ثم فقد رددت في ادب واحترام على مجاملات السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، غير انني لم اقبل قط دعوتهما. فإن صحتي المعتلة- فضلا عن خجلي وتهيبي الطبيعيين - كانت تجعلني أقشعر لمجرد التفكير في ان اظهر في جمع من اعضاء البلاط الملكي.. بل إنني لم اذهب إلى القصر في زيارة للشكر والتحية، برغم انني ادركت كل الإدراك، ان هذا ما كان ينبغي مني، وان كل هذا الإلحاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف بقدر ما كان صادرا عن فضول!

على انهما واصلا مجاملاتهما، بل وراحا يضاعفانها، وكانت السيدة كونتة "**دي بوفلير**" - التي كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة - قد جاءت إلى "**مونمورنسي**"، فارسلت تسأل عني، وعما إذا كان لها ان تزورني، وأجبت كما كان ينبغي من ان اجيب، ولكني لم احرك ساكنا، وفي خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية - ١٧٥٩ - زارني مرارا الشيفالييه "**دي لورنزي**" الذي كان ينتمي إلى حاشية السيد الامير "**دي كونتي**"، وإلى ندوة السيدة "**دي لوكسمبورج**"، ولقد توثقت المعرفة بيننا، فراح يلح عليّ بالذهاب إلى القصر. ولكني أبيت!

وأخيرا، وفي اصيل ذات يوم، رايت السيد المارشال "**دي لوكسمبورج**"، وكان آخر من توقعت رؤيته.. وكان يقترب وفي معيته خمسة أشخاص او ستة، ولم يبق لي من وسيلة للتهرب، وما كنت املك أن اتحاشاه. كما انني لم اكن املك ان اتفادى رد زيارته، وتقديم آيات احترامي للسيدة المارشالة - التي اغرقتني بما حمله إليّ من مظاهر تفضلها - وإلا اعتبرت متغطرسا سيئ التربية.

وهكذا بدأت - تحت انحس الطوالع - علاقة لم يكن بوسعي ان اتهرب منها اطول مما فعلت.. وإن كانت شعورا عميق الجذور، قد اوحى إليّ بالتوجس مما اقحمت عليه!

✽✽✽✽✽

كنت في خوف بالغ من السيدة "**دي لوكسمبورج**"؛ فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة، وقد رأيتها مرارا في المسرح، وفي دار السيدة "**دوبان**"، قبل عشر او اثنتي عشرة سنة، حين كانت تلقب بدوقة "**دي بوفلير**"، وهي بعد تتلألا في طلائع اضواء جمالها. ولكنها عرفت بالخبث وسوء السيرة، وكانت هذه السمعة لسيدة - في مثل مكانتها العظيمة - تثير ارتعادي!

وما إن رايتها حتى وقعت اسيرها؛ فقد ألفيتها ساحرة.. أوتيت ذلك السحر الذي لا يعدو عليه الزمن، والذي خلق لكي يفتك بفؤادي!.. وكنت اتوقع ان اجد حديثها ساخرا، مليئا بالتوريات ولكنه لم يكن كذلك، بل كان افضل من ذلك بكثير. ذلك لان حديث السيدة "**دي لوكسمبورج**" لا يتألق بالذكاء، ولا يكشف عن سمو الروح، كما انه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة، ولكنه مفعم بالفكاهة التي لا تؤذي إطلاقا، ولكنها تبهج السامع دائما!.. وكانت مجاملاتها وعباراتها المنطلقة تعبث بالنفوس، بقدر ما هي بسيطة، توحي بانها إنما كانت تتساقط من بين شفتيها دون

تفكيري منها، وكأنها فورات قلب متسرع! .. وخيل إليّ انني لمحت - خلال زيارتي الأولى - أنها استطابت مجلسي، برغم انطوائي، وثقل عباراتي .. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن إحداث هذا الأثر - سواء كن في ذلك صادقات، أو مصطنعات - عندما يحلو لهن ولكنهن جميعا لم يكن يحذقن إحداثه بالطريقة الفاتنة التي كانت تجيدها السيدة "دي لوكسمبورج"، فلا يقوى المرء على أن يرتاب في صدقه!

ولقد كان من المحتمل أن تصل ثقتي بها إلى الكمال منذ اليوم الأول - كما صارت بعد ذلك بوقت قصير - لولا أن السيدة الدوقة "دي موغورنسي"، زوجة ابنها، كانت على شيء من الحقد، وكانت - فيما اعتقد - شابة رعناء، مشاكسة، عقدت عزمها على أن تهاجمني، حتى تجعلني - وسط مجاملات حماتها ومغازلاتها - اعتقد أنهما إنما كانتا تسخران مني!

ولعلني كنت خليقا بان أجد ارتياحها، نظرا لهذا التوجس الذي داخلني نحو السيدتين لولا أن الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال أقنعني بأن ودهما كان صادقا، ولم يكن ثمة ما هو ادعى للعجب - إذا ما نظرنا إلى طبيعتي الخجول - من مبادرتي إلى أخذ السيد المارشال بكلمته، من حيث المساواة التي ارادني على أن أكون عليها معه .. ليس اعجب من هذا سوى مبادرته إلى احترام رغبتي في الاستقلال التام الذي أردت أن اعيش فيه! ومن ثم فإنه والسيدة "دي لوكسمبورج" لم يبديا اي قلق - ولو للحظة واحدة - بصدد مواردي وأسباب عيشي، اقتناعا منهما بأنني كنت على صواب في أن أكون قانعا بمركزي، غير راغب في اي تغيير! .. نعم انني لم اكن أملك أن ارتاب في الاهتمام العطوف الذي كانا يبديانه نحوي إلا أنهما لم يعرضا قط أن يسعيا لإيجاد منصب لي، أو أن يساعداني بنفوذهما، اللهم إلا مرة واحدة، عندما ابدت السيدة "دي لوكسمبورج" رغبة في أن ادخل المحفل الفرنسي، "الاكاديمية فرانسيز" .. ولقد أشرت إلى أن عقيدتي الدينية تقوم دون ذلك، فقالت إن هذه لم تكن عقبة تذكر، وإلا فإنها تتكفل بإزاحتها، إذا كانت كذلك! .. واجبت بأنه برغم الشرف الذي يضفيه عليّ انتمائي إلى مثل هذه الهيئة الموقرة فإنني - بعد رفضي دعوة السيدة "دي تريستان"، وملك "بولندا"، بطريقة ما، أن انضم إلى محفل "نانسي" - لا استطيع أن اقبل عضوية اي محفل آخر، وأنا مرتاح الضمير. ولم تحاول السيدة "دي لوكسمبورج" أن تمضي في الإلحاح، ولا دار اي حديث في هذا الصدد، بعد ذلك!

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظماء، الذين كان في وسعهم أن يضفوا عليّ المآثر - إذ كان السيد "دي لوكسمبورج" صديقا شخصيا للملك عن جدارة - تتناقض تماما، وبشكل عجيب، مع الاهتمام المستمر - الذي لم يكن اقل مضايقة مما هو اصطناعيا ورياء - الذي كان يبديه اولئك الأصدقاء الذين هجرتهم، والذين كانوا يتظاهرون برعايتي، ويسعون إلى استذلالي، اكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتي!

وعندما زارني السيد المارشال في "مون - لوي" استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة، وأنا محرج .. لا لانني كنت مضطرا إلى أن ادعوه إلى الجلوس وسط صحافيّ القذرة واوانيّ المهشمة، وإنما لأن أرض الحجرة كانت متداعية، متساقطة، وقد خشيت أن يؤدي ثقل مرافقيه إلى انهيارها. وما خشيت على نفسي من الخطر، وإنما خشيت على هذا السيد الجليل مما كان تواضعه يعرضه له، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجرة، إذ اقتدته - برغم الجو الذي كان شديد البرد - إلى شرفتي التي كانت في مهب الرياح، ولم تكن بها مدفأة ما! .. وما إن صرنا هناك حتى اطلعته على السبب

الذي اقتدته من اجله إلى المكان، فرواه بدوره إلى السيدة المارشالة، وألحفا معا في حملي على الإقامة في القصر - ريثما يتم إصلاح أرض الحجرة - أو في مبنى ملحق بالقصر، وسط المتنزه، يطلق عليه اسم "**القصر الصغير**"، إن شئت.

*****

وهذا المسكن الفاتن جدير بالحديث.. ذلك أن متنزه، أو حديقة "**مونمورنسي**" لم تكن في مستوى واحد، كحديقة "**لاشيفريت**"، فهي تل غير مستو، تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات، التي استغلها الفنان الماهر؛ ليخلق سلسلة من المتنوعات: من أحراش، ومياه، وزخارف، ومناظر متباينة، وليضاعف - كما ينبغي أن يقال - المساحة المحدودة، في نظر الرائي، ويتوج هذا المتنزه شرفة يعلوها القصر.. أما في طرفه الأدنى، فإنه يؤلف مضيقا لا يلبث أن ينفتح ويتسع، في اتجاه الوادي، وتمتد في زاويته صفحة شاسعة من الماء. وبين بساتين البرتقال - التي ملأت المساحة التي يتسع عندها المضيق - والماء، وفي وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار، يقوم "**القصر الصغير**" الذي أشرت إليه!

ولقد كان هذا المبنى، والأراضي المحيطة به، ملك لـ"**لوبرون**" الشهير (١)، من قبل، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاة له، وأقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما، ولقد أعيد بناء هذا القصر فيما بعد، ولكن التصميمات التي وضعها صاحبه الأول، روعيت عند التجديد، وهو قصر صغير، وبسيط، ولكنه أنيق، ولما كان يقوم بين خزان ري بستان البرتقال، وبين المساحة المائية الشاسعة، فقد كان معرضا للرطوبة؛ ومن ثم فقد كان يخترقه في وسط، رواق مكشوف (منور)، بين طبقتين من الأعمدة، فكان الهواء الجاري في المبنى كله، يتخفف من رطوبته في ذلك الرواق، وعندما ينظر المرء إلى المبنى من عل - من زاوية الجانب المقابل - يراه محوطا تماما بالماء، فكأنه جزيرة مسحورة، أو كأنه أبدع جزر "بورومية" الثلاث - جزيرة "**إيسو لابيلا**" - في بحيرة "**ماجيوري**".

في هذا المبنى المنعزل، ترك لي حق اختيار أحد الأجنحة الأربعة الكاملة، التي كان يضمها، فضلا عن الطابق الأرضي، الذي كان يتألف من قاعة للرقص، وأخرى للبلياردو، ومطبخ. وقد اخترت أصغر الأجنحة وأبسطها، وهو الذي كان يعلو المطبخ، الذي سمح لي باستخدامه، وكان الجناح بديعا، نظيفا ذا أثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض، وفي هذه العزلة العميقة، البهيجة - وسط الغابات والمياه، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع، محوطا بعبير زهور البرتقال - وضعت الجزء الخامس من "**إميل**"، وأنا شبه ثمل.. ومن ثم فإن اللون الجديد الذي يبدو فيه الشطر الأكبر منه، يرجع في الواقع إلى الأثر الفعال الذي عكسه الوسط الذي كنت أكتبه فيه!

لكم كنت أهرع ملهوفا - عند بزوغ الشمس، في الصباح - كي أتنسم الهواء العبق في الرواق!.. وما أحلى القهوة الممزوجة باللبن، التي كنت أتناولها مع "تيريز" هناك!.. وكانت قطتي وكلبي يؤنساننا، وكانت هذه الصحبة وحدها كافية لإيناسي طيلة حياتي، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل!.. كنت في جنة أرضية، وقد عشت هناك في حال من السذاجة والبراءة، ورحت أنعم بالسعادة!

ولقد أبدى لي السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، خلال الزيارة التي قاما بها في شهر تموز (يوليو)، كثيرا من ألوان الرعاية، وعاملاني في كرم بالغ، حتى إنني - وقد كنت أعيش في رحابهما،

---

(١) رسام فرنسي مشهور، ولد سنة ١٦١٩، ومات في ١٦٩٠.

مغمورا بمجاملاتهما - لم أكن أملك ما أجازيهما به، سوى أن أكثر من ترددي عليهما؛ فأصبحت لا أكاد افارقهما إطلاقا: إذ كنت أذهب في الصباح؛ لأقدم تحياتي إلى السيدة المارشالة.. وبعد أن أتناول غدائي هناك كنت أتمشى، إبان الأصيل، مع السيد المارشال.. ولكني لم أكن امكث للعشاء؛ إذ كانا يدعوان إلى مائدتهما دائما عددا من علية القوم، فضلا عن أنهما كانا يتناولان العشاء في ساعة متأخرة بالنسبة لي.. وإلى ذلك الوقت، كان كل شيء يمضي مواتيا، وما كان ليقع شيء من الضر، وإنني عرفت كيف ادع الأمور تجري في اعنتها. ولكني لم أكن يوما بقادر على ان انهج منهجا وسطا في علاقاتي الودية، ولا استطعت يوما ان أكتفي بان أؤدي واجباتي نحو المجتمع، وإنما كنت دائما انشد احد امرين : إما كل شيء، او لاشيء!.. وما إن اظفر بكل شيء، وارى نفسي مكرما مدللا لدى قوم من ذوي الجاه حتى أتجاوز الحدود، فتتملكني نحوهم صداقة لا تباح عادة إلا بين الأنداد المتعادلين، وكنت أكشف عنها بالالفة المتحررة من الكلفة، في حين أنهم لم يكونوا - من ناحيتهم - يتخلون عن آداب اللياقة التي نشئوا عليها وتعودوها، ومع ذلك فإنني لم أشعر يوما بانني متحرر على سجيتي، مع السيدة المارشالة! ومع انني لم اكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى شخصيتها، إلا انني لم اكن اخشاها بقدر ما كنت اخشى عقلها.. وهذا وحده ما كان يكبح جماحي.

فلقد كنت اعرف أن إرضاءها في الحديث صعب، وكان من حقها أن تكون كذلك؛ إذ كنت ادرك أن النساء - وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص - كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال!..

وقد حدست - من ملاحظات السيدة "دي لوكسمبورج" على أحاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها - ما كان قد خامرها ولابد بصدد احاديثي السخيفة؛ ومن ثم فإنني فكرت في حيلة لأعفي نفسي من حرج الحديث إليها.. تلك هي ان اقرا عليها!.. وكانت قد سمعت عن "جولي"، وعرفت انها طبعت، فأبدت شوقا إلى رؤية هذا الكتاب؛ وإذ ذاك عرضت عليها ان اقراه لها فوافقت.

واصبحت اذهب إليها في الساعة العاشرة من كل صباح، ولا يلبث ان يأتي السيد "لوكسمبورج"، ويغلق الباب. واروح اقرا إلى جوار فراشها. وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما دقيقا، بحيث تدوم طيلة بقائها، لو انها لم تقطع حبل إقامتها؛ إذ أدى خسران معركة كبرى إلى استياء الملك فاضطر السيد "دي لوكسمبورج" إلى المبادرة بالعودة إلى البلاط، ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت؛ إذ استولى على السيدة "دي لوكسمبورج" شغف طاغ بـ"جولي" وبمؤلفها. فاصبحت لا تتكلم إلا عني، ولا تفكر إلا فيّ طيلة اليوم، وتعانقني عشر مرات في النهار، واصرت على ان اجلس باستمرار إلى مائدتها، وكانت - إذا حاول واحد من كبار السادة ان يحتل مكاني - تخبرهم ان ذاك مقعدي، وتحملهم على الجلوس في اماكن أخرى!

ومن السهل تصور الأثر الذي خلفته هذه التصرفات الساحرة، في نفسي، انا الذي كانت تستعبدني أبسط مظاهر العاطفة؛ فإذا بي اغدو شديد التعلق بها، بقدر ما كانت هي تبدي لي من ميل، وكان المصدر الأوحد لخوفي - حين فطنت إلى هذا الهيام - هو شعوري بانني لم اكن مستملحا إلى الدرجة التي تستبقيه حيا؛ ومن ثم فإنه قد ينقلب إلى كراهية.. ولقد كان هذا الخوف - لسوء حظي - قائما على أسس سليمة جدا!



ولابد ان ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلي.. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الاحمق الذي كان يفلت مني في كل لحظة من لحظات احاديثنا، بل وبغض النظر عن خطاباتي.. كانت ثمة اشياء تكدرها، حتى في خير اوقات صفائي معها، دون ان يقدر لي ان احدس سببها، ولن اذكر هنا سوى مثال واحد، وإن كنت استطيع ان اذكر عشرين!.. فلقد عرفت انني كنت أعد للسيدة "دوديتو" نسخة من "هيلويز" تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا؛ فرغبت في ان أعد لها نسخة على الأسس ذاتها، ووعدتها بأن افعل؛ ومن ثم وضعتها في قائمة عملائي، وكتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة، او هكذا كانت نيتي، على الأقل، وإذا بي أتلقى الرد التالي، الذي ادهشني كل الدهشة (الملف "جـ" رقم ٤٣):

"فرساي": هذا الثلاثاء.

"إني لمغتبطة، وإني لراضية.. ولقد ادخل خطابك على نفسي سرورا لا حد له، وإني لأبادر إلى ان اعلنك بذلك، وإلى ان اشكرك من اجله.

"هاك نص تعبيرك في خطابك: "بالرغم من انك عميلة جد طيبة حقا فإنني اجد بعض صعوبة في قبول نقودك، والأحرى ان يكون عليّ ان ادفع ثمن المتعة التي ساحظى بها إذ اعمل من اجلك". ولن اذكر هذا الموضوع مرة اخرى!

"يؤسفني ويقلقني انك لا تحدثني قط عن صحتك، فليس ثمة ما يهمني اكثر منها. إنني احبك من كل قلبي.. وإنه - كما أؤكد لك - لأمر محزن حقا ان اطلعك على هذا؛ إذ إنني كنت أؤثر ان احظى بغبطة قوله لك بلساني!

"إن السيد "دي لوكسمبورج" يحبك، ويقبلك من كل فؤاده!".

وما إن استلمت هذا الخطاب حتى سارعت إلى الإجابة عنه - قبل ان افحصه فحصا مليا - لأحتج ضد التاويل غير اللائق، وبعد ان عكفت عدة أيام على هذا الفحص، في قلق يسهل تصور مداه، ودون أن افقه شيئا من الامر، وجدتني في النهاية اكتب ردي النهائي بهذا الصدد:

"مونمورنسي": ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٥٩.

"فحصت الفقرة التي ترجمت إليها خطابي، مائة مرة ومرة، منذ رسالتي الأخيرة، ولقد تاملتها من حيث معناها الطبيعي الصحيح، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن ان تحمله، وإني لأعترف - ياسيدتي المارشالة - بأنني لم أعد ادري ما إذا كنت أنا الذي يدين لك بالاعتذارات، او انه يجدر بك ان تكوني انت المدينة بها لي".

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل. وكم من مرة فكرت فيها، منذ ذلك الحين.. وما ازال - حتى في يومي هذا - في غباء من هذا الموضوع، حتى إنني لم استطع ان افهم ما الذي يحتمل ان تكون قد وجدته في الفقرة.. ولن أقول إنها وجدت شيئا ماسا، ولكنه من المحتمل ان يكون مكدرا.

اما عن النسخة المخطوطة من "هيلويز"، التي رغبت السيدة "دي لوكسمبورج" في ان تقتنيها فخليق بي ان اذكر هنا ما كنت قد عزمت على ان افعله؛ لكي اضفي عليها امتيازا خاصا، دون بقية النسخ جميعا. ذلك أنني كنت قد كتبت مغامرات اللورد "إدوارد" مستقلة، وكنت قد ظللت طويلا مترددا، لا اقطع بما إذا كنت اضمها - سواء كاملة، او بعض فقرات منها - إلى هذا الكتاب، الذي

كانت تلوح انها غير متمشية معها، ولقد قررت في النهاية أن أحذفها كلها؛ لان عدم اتساقها مع اسلوب بقية الكتاب كان كفيلا بان يفسد بساطته المؤثرة. ثم وجدت سببا اقوى، عندما تعرفت إلى السيدة "دي لوكسمبورج". فلقد كانت في تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك، وكان من الممكن ان يحاول بعض من كانوا لا يعبرون السيدة المارشالة إلا بسمعتها ان يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركيزة، بالرغم من أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنتين؛ لذلك غبطت نفسي على القدر الذي اتخذته، وآليت ان اتشبث به. ولكنني في رغبتي العارمة في ان أزيد من قيمة نسخة السيدة "دي لوكسمبورج" بشيء لم تتضمنه النسخ الاخرى.. الم يكن يحسن بي أن اتذكر هذه المغامرات المشؤومة، وان ارسم خطة لكي استخلص شيئا منها أضيفه إلى النسخة؟.. كان مشروعا اخرق، لا يمكن للمرء ان يعزو الاندفاع إليه إلا إلى القدر الذي كان يجرني إلى هلاكي.

Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat (١)

ولقد كنت من الحماقة بحيث اعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية، وبكثير من الجهد، وارسلتها إليها وكانها اجمل شيء في الدنيا. واخبرتها - في الوقت ذاته بانني قد احرقت النسخة الاصلية، وهو ما كنت قد فعلته حقا؛ ومن ثم فإنها الوحيدة التي كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لإنسان سواها أن يراها إلا إذا اطلعته هي عليها، ولكن هذا العمل كان ابعد من ان يثبت لها حكمتي وحصافتي - كما كنت اتوقع - إذ إنه لم يوح إليها بالفكرة التي كانت قد خطرت لي، عن الشبه بين بطلة المؤلف وبينها، وهو ما لابد قد آذى شعورها. على أن غبائي كان من الإفراط بحيث إني لم استشعر اي شك في انها خليقة بان تبهر بما فعلت.. ولم تمتدح لي عملي بالتحمس الذي كنت اتوقعه، بل إنها - لدهشتي البالغة - لم تتحدث إليّ قط عن المخطوط الذي ارسلته إليها، وما حدست الأمر - لفرط ما كنت مغتبطا بتصرفي - إلا بعد أمد طويل، وبسبب ظواهر اخرى، كانت مترتبة على ذلك!

*****

اما نسختها المخطوطة من الكتاب الاصلي - "هليويز" - فقد واتتني فكرة اخرى بصددها، كانت اكثر حكمة من سابقتها، ولكنها كانت - في اثرها البعيد - تكاد تعادلها إساءة إليّ. فلكم يساهم كل شيء في مساعدة القدر، عندما يدفع بإنسان إلى الشقاء!.. فلقد كانت فكرتي هي أن أزين هذه النسخة المخطوطة بصورة من لوحات "جسولي"، التي تصادف ان كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط. فطلبت هذه الرسوم من "كوانديه"؛ إذ إنها كانت ملكا لي بكل حق مشروع فضلا عن أنني كنت قد تركت له ما درته هذه الرسوم من ربح؛ إذ إنها كانت قد لقيت رواجا عظيما. على ان "كوانديه" كان اكثر خبثا، مما كنت أنا عكس الخبث!.. وقد أدى إلحاحي في طلب هذه الرسوم إلى ان يحدس الغرض الذي كنت أريدها من أجله. ثم اغراني بان ادعها معه، زاعما انه سينقحها وما لبث - في النهاية - أن قدمها إلى السيدة بنفسه!

Eg, Versicuios Feci. Tulit Alter Honores (٢)

ولقد ادى هذا إلى دخوله قصر "دي لوكسمبورج"، وحظوته بمكانة معينة، وكان - منذ استقراري في القصر الصغير - يكثر من زيارتي، ويختار الصباح دائما موعدا لهذه الزيارة، لاسيما

---

(١) بيت من الشعر القديم، اعتاد كتاب القرن السادس عشر - في "فرنسا" - ان يدسوه في كتاباتهم، ومعناه ان الإله "جوبتير" يطيش - أو يمحو - عقل اولئك الذين يقضي عليهم بالهلاك. (٢) من شعر "فيرجيل": "أنا أنظم الشعور وغيري يجتني المجد"!

عندما كان يتصادف وجود السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" في "مونمورنسي"، وكان هذا يؤدي إلى الا اذهب إلى القصر إطلاقا لكني اقضي معه سحابة الصباح، وكنت الام على هذا التغيب، فاذكر السبب، فاقابل بإلحاح في دعوة السيد "كوانديه" إلى القصر.. وقد فعلت، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد!.. وهكذا كان للافضال الكريمة العارمة، التي كانت تغدق عليّ، اثرها الكبير في ان الكاتب الاجير لدى السيد "ثيلوسون" والذي كان يدعى احيانا إلى مائدة مخدومه- عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيد – وجد نفسه فجاة على مائدة احد قادة "فرنسا" العظام، مع الأمراء، والسيدات الدوقات، وكل اصحاب المكانة العليا في البلاط الملكي!

ولن انسى البتة انه كان مضطرا إلى العودة إلى "باريس" مبكرا – ذات يوم – فقال السيد المارشال للحضور، عقب الغداء: "تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى "سان – دنيس"، لنرافق السيد "كوانديه"، ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال فدار راسه لهذا الكرم. اما انا، فقد اهتز قلبي، حتى إنني لم اقو على ان انبس بكلمة واحدة، وسرت وراء القوم، وانا ابكي كالطفل، واموت لهفة على ان اقبل مواقع قدمي هذا المارشال الطيب.. على ان استئناف قصة ذلك الكتاب المنسوخ، جعلني اسبق الزمن إلى هذه الواقعة، فلنعد إلى الأحداث وفقا لنظام ورودها، بقدر ما تسمح لي ذاكرتي.

*****

لم يكد العمل في البيت الصغير في "مون – لوي" يفرغ، حتى فرشته باثاث مناسب وبسيط، وعدت إلى الإقامة فيه، غير قادر على ان انبذ ذلك القانون الذي وضعته لنفسي إذ غادرت "ليرميتاج"، واعني به ان يكون مقامي دائما في مسكن امتلكه. على انني – مع ذلك – لم استطع ان اقطع بالتخلي عن مسكني في "القصر الصغير"! ومن ثم فقد ظللت محتفظا بمفتاحه، وكنت كثيرا ما انام هناك – لفرط ولعي بالفطور البديع في الرواق – كما كنت اقضي فيه يومين او ثلاثة، في بعض الاحيان، وكانه بيت خلوي للترويح عن النفس، ولعلني كنت احظى – في تلك الفترة – بمسكن اكثر راحة ولياقة مما كان يحظى به اي فرد عادي في "اوروبا". ذلك لان صاحب الدار التي كنت اسكنها – السيد "متى"، الذي كان خير رجل في الدنيا – ترك لي الإشراف الكلي على عمليات الإصلاح في "مون- لوي"، واصر على ان استخدم عماله وفق ما كنت اهوى دون اي تدخل فيه، وقد وجدت ما مكنني من ان اجعل من غرفة واحدة في الطابق الاول جناحا كاملا مؤلفا من حجرة للنوم، وحجرة اخرى ملحقة بها، وخزانة كبيرة للثياب، وفي الطابق الأرضي، كان ثمة المطبخ وحجرة "تيريز". اما الشرفة فقد تحولت إلى حجرة للمكتب، بعد إقامة حاجز زجاجي، وإدخال مدفاة عليها. ولقد رحت اتسلى – كلما كنت هناك – بزخرفة الشرفة الخارجية، التي كانت تقبع تحت ظلال صفين من اشجار الزيزفون الصغير. فغرست صفين آخرين! لاقيم ايكة دائمة، وعملت على إقامة بضع ارائك حجرية هناك، واحطتها بالشجيرات ذات الزهر الابيض، وباللبلاب، وزهر الجبل، واقمت سياجا بديعا من الزهور موازيا لصفي الاشجار.. ولما كانت هذه الايكة اكثر ارتفاعا من شرفة القصر – وكان المنظر الذي تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذي تشرف عليه الاخرى، وقد عمرها عدد من الطيور التي استالفتها واستانستها – فإنني جعلت منها حجرة استقبال إذا ما وفد عليّ ضيوف،

كالسيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، والسيد الدوق **دي فيلروي**"، والسيد الامير "**دي تينجري**"، والسيد المركيز "دار منتيير"، والسيدة الدوقة "**دي مونمورنسي**"، والسيدة الدوقة "**دي بوفلير**"، والسيدة الكونتة "**دي فالينتينوا**"، والسيدة الكونتة "**بوفلير**" وغيرهم ممن كانوا في مكانتهم، والذين كانوا يتفضلون بتجشمون عناء صعود طريق متعبة، من القصر إلى "**مون - لوي**"، وقد كنت مدينا بالحظوة بكل هذه الزيارات إلى السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**" وقد كنت المس هذا، فكان قلبي يطفر بالعرفان بافضالهما، ولقد حدث في إحدى نوبات التأثر العاطفي، ان قلت للسيد "**دي لوكسمبورج**": "آه، يا سيدي المارشال!.. لقد كنت أكره العظماء قبل ان اعرفك، وانا الآن اكثر كراهية لهم، منذ جعلتني اشعر كم يسهل عليهم ان يجعلوا أنفسهم موضع حب وإعجاب!".

وعدا ذلك فإنني أسائل كل أولئك الذين عرفوني اثناء هذه المدة هل كانوا قد لاحظوا ان هذه اللمحة من الذكاء قد بهرتني لحظة، وهل كان دخان هذا البخور قد صعد في راسي، وعم إذا كانوا قد راوني اقل تمشيا مع طباعي، واقل بساطة في مسلكي، واقل تلطفا مع الناس، واقل الفة مع جيراني، واقل استعدادا لمعونة كل امرئ عندما يكون ذلك في مكنتي، دون ان اتعرض للضمر الذي يترتب على السخافات والسفاهات التي لا حصر لها، والتي كثيرا ما تنطلق في غير حكمة فتورثني الحرج دون انقطاع؟..

وإذا كان قلبي قد اعتاد أن يجتذبني نحو قصر "**مونمورنسي**"؛ نظرا لصادق تعلقي بصاحبيه فإنه كان لا يلبث ان يردني بنفس الطريقة التي امكنتني؛ لاتذوق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة التي لم يكن لي من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها، ولقد اتصلت روابط الصداقة بين "**تيريز**" وابنة واحد من جيراني، كان يعمل في البناء - ويدعى "**بيلو**" - فحذوت حذوها مع الأب.. وكنت أتناول الغداء في القصر، في الظهيرة - وانا كاره بعض الشيء - رغبة في إرضاء السيدة المارشالة، وكنت اعود في المساء؛ لأتناول العشاء مع "**بيلو**" الجليل وأسرته، في بيته أحيانا، وفي بيتي أحيانا أخرى.

وإلى جانب هذين البيتين، سرعان ما وجدت ثالثا في قصر "**دي لوكسمبورج**" بـ"**باريس**"؛ إذ راح صاحباه يلحان عليَّ في إخلاص كي أزورهما في بعض الأحيان، حتى إنني استجبت لهما، برغم نفوري من "**باريس**"، التي لم اذهب إليها - عقب اعتكافي في "**ليرميتاج**" - إلا في المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل.. وحتى إذ ذاك، ما كنت اذهب إلا في أيام محدودة من قبل، لمجرد تناول العشاء، ثم اعود في الصباح التالي، وكنت ادخل القصر واغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف، بشكل أستطيع معه ان اقول - بكل صدق - إنني لم اضع قدما على ارض "**باريس**" المرصوفة!

*****

وفي غمرة هذا الرخاء العابر، راحت النكبة - التي حددت نهايته - تتجمع على البعد. فلقد عقدت - عقب عودتي للإقامة في "**مون - لوي**" تعارفا جديدا، بالرغم مني، كالمعهود.. تعارفا يعتبر بداية مرحلة في تاريخي، ولسوف يبدو - فيما يلي - ما إذا كان هذا التعارف طيبا أو سيئا.

أما الطرف الآخر فيه فكانت السيدة المركيزة "**دي فيردلان**"، جارتي التي كان زوجها قد ابتاع

منزلا ريفيا في "سواسي"، على مقربة من "مونمورنسي" ولقد كانت الآنسة "دارس" ابنة للكونت "دارس" الذي كان رجلا ذا مكانة، ولكنه كان فقيرا.. ثم تزوجت من السيد "دي فيرديلان"، وكان كهلا، قبيح الشكل، أصم، جاف الخلق، قاسي الطبع، غيورا، مشوه الخلقة بالندوب، أعور.. ولكنه كان - عدا ذلك - رجلا طيبا، إذا ما عرف المرء كيف يفهمه.. وكان يمتلك ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا من الليبرات دخلا سنويا، من أجله زفت الفتاة إليه!.. وكان هذا الرجل العجيب يتوعد، ويصرخ، ويزمجر، ويغري، يُبكي امرأته طيلة النهار، ولكنه ينتهي دائما بأن ينفذ ما ابتغت هي، بعد أن يكون قد أحنقها.. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد أنه هو - وليس هي - الذي كان يبتغي ذلك الشيء المنشود!

ولقد كان السيد "دي مارجينسي" - الذي تحدثت عنه من قبل - صديقا للسيدة، وأصبح صديقا لزوجها كذلك، وقد أسكنهما - منذ بضع سنوات - بالأجر، في قصره القائم في "مارجنيسي"، على مقربة من "أوبون" و"أوديبي" وهناك، كانا يقيمان في فترة هيامي بالسيدة "دوديتو"، ولقد تعرفت كل من السيدة "دي فيرديلان" وهذه الأخيرة عن طريق صديقتهما المشتركة، السيدة "دوبيتير"، ولما كانت حديقة قصر "مارجينسي" تقع على الطريق التي اعتادت السيدة "دوديتو" أن تسلكها - في رياضتها المحببة إليها - إلى "مونت أوليمب" فإن السيدة "دي فيرديلان" أسلمتها مفتاحها؛ لتستطيع أن تمر خلال الحديقة، وبفضل هذا المفتاح كنت أسعى إليها في كثير من الأحيان، ولكنني لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة، وكنت إذا قابلتنا السيدة "دي فيرديلان" مصادفة أتركهما دون أن أنبس بكلمة، وأمضي في سيري، وما كان هذا المسلك غير اللبق ليعطيها فكرة طيبة عني. ومع ذلك فإنها سعت إلى صحبتي عندما كانت في "سواسي"!

ولقد وفدت على "مون - لوي" عدة مرات لتقابلني، دون أن تجدني في البيت. فلما لم أرد زياراتها رأت أن ترسل إليّ بعض أصص الزهور؛ لأزين بها أيكتي لكي تضطرني إلى أن أزورها، ووجدتني مسوقا إلى الذهاب إليها وشكرها، وكان في هذا ما يكفي لأن يتم التعارف!

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة في بدايتها، شأن كل علاقة كنت أعقدها بالرغم مني.. بل إنها لم تكن يوما هادئة، في الواقع. فإن اتجاه عقل السيدة "فيرديلان" كان مخالفا أكثر مما ينبغي لاتجاه عقلي، وكانت تطلق ألفاظ السوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة حتى إنها كانت تتطلب من المرء انتباها مستمرا - ومرهقا بالنسبة لي - لكي يدرك متى كان يحلو لها أن تهزأ به!.. وتحضرني إحدى نوادر عبثها وسفاهتها، التي تكفي للحكم عليها. فلقد حدث أن عين أخوها قائدا لسفينة حربية "فرقاطة" كانت في طريقها ضد "الإنجليز"، وقدر لي أن أتحدث عن طريقة تسليح هذه "الفرقاطة"، دون أن أمس سرعتها بنقد، وإذا بها تقول، بدون أن تغير لهجتها: "أجل.. إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته"!..

ونادرا ما سمعتها تقول خيرا عن أي من أصدقائها الغائبين، اللهم إلا إذا دست خلاله شيئا ضدهم، وكانت تسخر ممن لا تجد فيه سوءا، ولم تستثن من ذلك صديقها "مارجينسي"!

ومن الأمور التي وجدت أنها لا تطاق منها ذلك الإزعاج المستمر الذي كان يتمثل في رسائلها الصغيرة، وهداياها البسيطة، وقصاصاتها التي كنت أضطر إلى أن أعتصر مخي لكي أجيب عنها، والتي كانت تسبب لي حرجا متجددا، سواء لكي أشكر، أو لكي أرفض!.. ومع ذلك فإنني لم ألبث أن تعلقت بها، بحكم رؤيتي إياها باستمرار. فقد كانت - مثلي - لها شجونها، وكان تبادلنا

الفضفضة، يتيح لنا خلوات طريفة. فليس اقوى على ربط القلوب من لذة المشاركة في إراقة الدموع!.. فكان كل منا ينشد الآخر؛ لكي نتبادل التسرية والتعزية، وهذه الحاجة بالذات، كثيرا ما جعلتني اغفل عن امور كثيرة، وكنت قد خشنت كثيرا في صراحتي معها فكان لزاما عليَّ - بعد ان ابديت اضال الاحترام لشخصيتها، في بعض الأحيان - ان اخشى عن حق، الا يكون بوسعها ان تصفح عني، وهاكم مثالا للخطابات التي كنت اكتبها احيانا إليها، والتي يجدر - ونحن بصددها - ان اذكر انها لم تكن تبدي في ردودها عنها اية بادرة من بوادر الغضب:

"**مونمورنسي**": ٥ تشرن الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٦٠ .

"تقولين لي، ياسيدتي، إنك لم تحسني الإفصاح عن نفسك، حتى تجعليني المس انني اسأت الإفصاح عن نفسي، وتحدثينني عن غبائك المزعوم؛ لتنبهيني إلى غبائي، وتتشدقين بانك طيبة وكانك تخشين ان تؤخذي بكلمتك، كما انك تبدين الأعذار؛ لتشعريني بانني مدين بشيء منها إليك.

"أجل، ياسيدتي، إني لادرك هذا تماما، فانا الذي كنت غبيا، ساذجا، واسوأ من هذا، إن امكن!.. انا الذي اسات اختيار عباراتي، دون ان أرعى رضاء سيدة فرنسية، تبدي كثيرا من الاهتمام إلى الأقوال، وتحسن الحديث، مثلك. ولكن.. لاحظي انني اخذت هذه العبارات على محملها العادي في اللغة، دون ان اعرف او احدس شيئا من التاويلات التي تعلق بها احيانا، في الأوساط الباريسية الفاضلة. فإذا كانت ثمة تعبيرات تحتمل تاويلات - في بعض الأحيان - فإنني احاول بمسلكي ان احدد معناها.. إلخ".

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته. فتامل ردها (الملف "د" - رقم ٤١)، واحكم على مدى الهدوء، الذي يكاد يفوق التصور، والذي اوتيه قلب امراة، لم تجد ما يستثير سخطا من خطاب كهذا سوى ما اوردته في ردها، وما ابدته بمسلكها!.. ولم يبطئ "**كواندية**" - بما عرف عنه من انتهاز للفرص، وجراة تذهب إلى درجة الفحة، وتربص باصدقائي - في ان يتقدم إلى السيدة "**دي فيرديلان**" باسمي، وسرعان ما اصبح اوثق صلة مني بها، دون ان ادري.. لقد كان هذا "**الكواندية**" مخلوقا عجيبا، لا مثيل له!.. كان يتقدم باسمي إلى جميع معارفي، فيوطد مكانه في دورهم، وياكل على موائدهم دون كلفة! وكان في وفائه المتحمس لي لا يتحدث عني إليهم إلا والدموع في عينيه، ولكنه إذا ما زارني، تمسك باشد الوان التكتم عن هذه العلاقات، وعن كل شيء كان يشعرني انه يثير اهتمامي.. وبدلا من ان يذكر لي ما سمعه، او قاله، او رآه - مما يهمني - كان يلزم الإصغاء إليَّ بل ويوجه إليَّ الأسئلة! وما عرف يوما شيئا عن "**باريس**" إلا ما كنت انبئه به.. وقصارى القول إنه لم يكن ليحدثني عن اي امرئ، في حين كان كل امرئ يحدثني عنه، وما كان مغلقا، غامضا، إلا مع صديقه.. انا!.

ولكن، لندع "**كوندايه**" والسيدة "**دي فيرديلان**" في الوقت الحاضر، فلن نلبث ان نعود إليهما فيما بعد!

*****

حدث بعد عودتي إلى سكني "**مون - لوي**" بوقت قصير، ان اقبل الرسام "**لاتور**" لزيارتي،

وحمل إليّ صورة رسمها لي بالطباشير "الباستيل"، وكان قد عرضها بضع سنوات – قبل ذلك – في صالة العرض وكان يرغب في أن يقدمها هدية لي، ولكني أبيت أن أقبلها. غير أن السيدة "ديبيناي" – التي اهدتني صورتها، وودت أن تأخذ هذا الرسم – قد حملتني على أن أعدها بأن اطلبه، فإذا "لاتور" يستغرق بعض الوقت في تنقيحه، وفي تلك الأثناء حدثت القطيعة بيني وبين السيدة "ديبيناي"، فرددت إليها صورتها، ولم أعد أفكر في أن أهديها صورتي؛ ومن ثم فإنني علقت هذه في غرفتي في "القصر الصغير". ولقد رآها السيد "دي لوكسمبورج" هناك، فاعجب بها؛ ومن ثم فإنني عرضتها عليه، فتقبلها.. وأرسلتها إليه!

ولقد أدرك والسيدة "دي لوكسمبورج" أنني خليق بأن أسر إذا ما حصلت على صورتيهما، فعهدا إلى فنان ماهر بأن يرسمهما في صورتين دقيقتين، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من البللور الصخري، على قاعدة من الذهب، وقدماه إليّ بطريقة لبقة، طربت لها، وما رضيت السيدة "دي لوكسمبورج" قط عن حرصي على أن أجعل صورتها في الجانب الأعلى من الصندوق.. وكانت كثيرا ما تعتب علي، أنني كنت أكثر حبا للسيد "دي لوكسمبورج" مني لها، وما دفعت هذا عن نفسي يوما لأنه كان حقيقة؛ ومن ثم فقد شاءت أن تريني في لباقة – ولكن في وضوح كاف – بإصرارها على مكان صورتها، أنها لم تنس هذا الإيثار مني لزوجها!

ولقد ارتكبت – حوالي هذه الآونة بالذات – حماقة لم تساعد على احتفاظي بودها ومجاملاتها. فمع أنني لم أكن على تعارف بالسيد "دي سيلويت" – المراقب العام للمالية – وكنت غير ميال إليه إلا أنني كنت أعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الإدارية. فلما بدأت قبضته تشتد على رجال المال، رأيت أنه لم يشرع في هذه الخطة، في لحظة مواتية. ومع ذلك فإنني رجوت له كل توفيق؛ لذلك فقد بادرت دون ترو – حين بلغني أنه أقيل من منصبه – إلى كتابة الرسالة التالية إليه.. وهي رسالة لا أحاول – في الواقع – أن أبررها:

"مونمورنسي": ٢ كانون الول (ديسمبر) سنة ١٧٥٩.

"تكرم يا سيدي فتقبل احترام رجل معتزل، غير معروف لديك، ولكنه يقدر فيك مواهبك، ويحترمك لكفاءتك الإدارية، وقد كرمك بأن أيقن بأن هذه الإدارة لن تبقى في يديك طويلا. إنك جرؤت على أن تواجه صيحات جامعي المال؛ إذ رأيت أن ليس في وسعك إنقاذ الدولة إلا على حساب رأس المال الذي أودى بها إلى الدمار، ولقد غبطتك على منصبك؛ إذ رأيتك تسحق هؤلاء الأنذال.. وإني اليوم لأكبرك؛ إذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك..! فاهنأ بنفسك ياسيدي، فقد أجداك موقفك شرفا ستظل تنعم به، دون منازع، أمدا طويلا.. إن ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم"!

سنة ١٧٦٠

ولقد حدثتني السيدة "دي لوكسمبورج" عن هذا الخطاب – وكانت تعلم أنني كتبته عندما أقبلت في عطلة عيد الفصح، فأطلعتها عليه.. ورغبت في الحصول على نسخة منه، فأعطيتها بغيتها، ولكني كنت أجهل – إذ قدمتها إليها – أنها كانت من "جامعي المال" الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج "البورصة"، والذين عملوا على إقالة "سيلويت".

ومن الجدير ان يقال: إنني بدوت وكانني كنت استنهض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ، كنت - في الواقع - ازداد تعلقا بها يوما بعد يوم، وكنت بعيدا كل البعد عن ان ارغب في ان اجر على نفسي سخطها، بالرغم من انني كنت - بتصرفاتي الرعناء المتكررة - افعل كل ما يتطلبه ذلك، واعتقد ان لا حاجة بي إلى ان اذكر ان إلى هذه السيدة بالذات، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذي وصفه السيد "ترونشان"، والذي تحدثت عنه في الجزء الاول من اعترافاتي (١).. اما السيدة الاخرى، التي كانت معها، فهي السيدة "دي ميربوا"، وما ذكرت لي اي منهما هذا الموضوع مرة اخرى، ولا ابدت اية بادرة توحي بانها تذكره، ولكن افتراض ان تكون السيدة "دي لوكسمبورج" قد نسيته حقا، امر عسير، وإن لم يقدر للمرء ان يعرف الحوادث التي اعقبته. اما انا، فقد كنت احاول ان اطمئن نفسي من امر حماقاتي متوسلا لذلك بانني لم اكن اصدر في اي من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء، وكانما كان من المحتمل ان تغفر امراة امورا من هذا القبيل، ولو كانت على اتم يقين من انها لم تكن متعمدة!

ومع ذلك، فالبرغم مما كان يلوح عليها من انها لم تكن ترى شيئا، او تحس بشيء، وبالرغم من انني لم استشعر اي تضاؤل في شعورها، ولا تغير في تصرفاتها إلا ان هاجسا خفيا - لم يكن منبعثا إلا عن اساس مكين - راح يوحي إليّ دون انقطاع، بان النفور لن يلبث ان يعقب هذا الهيام. افكان لي ان اتوقع من سيدة عظيمة القدر - إلى هذا الحد - ثباتا ووفاء يكون بمامن من غبائي وضعف حيلتي؟.. إنني لم اكن اعرف ان اخفي عنها شيئا، حتى هذا الهاجس الذي راح يقض راحة بالي، ولم يزدني إلا جفاء وانطواء، وهذا ما يمكن رؤيته في الخطاب التالي الذي انطوى على نبوءة عجيبة.

تنبيه: هذا الخطاب الذي لم تحمل مسودته تاريخا، كتب في شهرتشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٧٦٠، على اكثر تقدير.

"ما اقسى افضالك!.. لماذا تعكرين طمانينة شخص وحيد معتزل، نبذ ملاذ الحياة لكي يستشعر مزيدا من الملل منها؟..

لقد قضيت ايامي ابحث عبثا عن علاقات ودية ثابتة، ولقد عجزت عن ان اوطد شيئا منها، في الاوساط التي كنت املك إليها وصولا.. افكان عليّ ان ابحث عنها في اوساطك انت؟

"ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية إغراء لديّ، فانا مغرور بعض الشيء، هياب بعض الشيء، وبوسعي ان اقاوم كل شيء، في العواطف!.. فلماذا تهاجمانني معا في ضعف يجب ان اتغلب عليه، مادام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على ان يقربني منكما، نظرا للبون الذي يفصل بيننا؟

"افيكون العرفان كافيا لقلب لا يعرف رياء، ولا يشعر بانه قادر إلا على الصداقة؟.. الصداقة يا سيدتي المارشالة!.. آه.. هنا مصدر تعاستي!.. من الجميل منك، ومن السيد المارشال، ان تستخدما هذه الكلمة، ولكني احمق إذ اصدق انكما تعنيانها!.. إنكما تلهوان تسريا عن نفسيكما، اما انا فمتعلق بوفاء، فإذا نهاية اللهو تعدني لحسرات جديدة!.. لكم اكره كل القابكما، ولكم ارثى لكما إذ تحملانها!.. إنكما لتبدوان - في نظري - جديرين بان تتذوقا كل مفاتن الحياة الخاصة، المغمورة!.. لم لا تقيمان في "كلاران"؟.. إنني لاتوق إلى ان انشد هناك هناء حياتي، إما قصر "مونمورنسي"، وإما قصر "لوكسمبورج"!؟.. افهناك تنبغي رؤية "جان جاك"؟.. افهناك ينبغي لواحد من اصدقاء المساواة ان يروي عواطف قلب حساس، يخشى - إذ يدفع بهذا الشكل ثمن

---

(١) ذكرت القصة في الكراسة الثالثة.

التقدير الذي أبدي إليه - ان يعطي أكثر مما يتسلم؟

"إنكما طيبان وحكيمان كذلك، وإني لأدري ذلك، وقد رأيته. وإني لآسف على أنني لم أستطع ان أصدقه قبل الآن. على أنني إذ أقدر الطبقة التي تنتميان إليها، والأسلوب الذي تعيشان عليه، أرى ان لا شيء يستطيع ان يترك طابعا باقيا في نفسيكما! ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما، فيمحو كل منهما الآخر، ولا يقدر لأحد ان يبقى دائما".

"لسوف تنسينني ياسيدتي، بعد أن جعلتني أعجز ما أكون عن ان أحذو حذوك فأنسى أنا الآخر. لقد خلقت لكي تجعلي مني إنسانا شقيا، دون أن يكون لك العذر".

*****

وما قرنت اسم السيد "دي لوكسمبورج" باسمها إلا لأخفف من جفوة الرسالة، وما عدا ذلك، فقد كنت واثقا به، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته، وما قدر لشيء من الهواجس التي راودتني بشأن زوجته، أن يمتد إليه!.. أبدا ما شعرت بأقل تزعزع في ثقتي بشخصيته، التي كنت أعرف أنها ضعيفة، ولكنها أهل للثقة، فما كنت أخشى فتورا من ناحيته، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقداما بطوليا!.. كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا يركن إلى الآخر، وقد كنا معا على صفاء، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هذا السيد الفاضل وأعتز بها.. مهما تكن المحاولات التي بذلت كي تباعد بينه وبيني فسأبقى مطمئنا إلى أنه مات وهو صديق لي.. كما لو كنت قد تلقيت آخر أنفاسه!

ولقد انتهت مطالعات "جولي" في زيارتها الثانية لـ"مونمورنسي"، في سنة ١٧٦٠. وكان عليّ ان انتقل إلى "إميل" لكي أبقى مع السيدة "دي لوكسمبورج"، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا؛ إما لأن الموضوع لم يرق لها، وإما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات. ومع ذلك فإنها رغبت - وهي تلومني على ان تركت نفسي لتغرير الناشرين بي - في ان أترك لها طبع الكتاب ونشره؛ حتى تستطيع ان تعقد صفقة أفضل. ووافقت على اقتراحها، مشترطا ألا يطبع الكتاب في "فرنسا".

وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله. فقد كنت أرى أن من المستحيل الحصول عليّ إذن بطبعه في المملكة، وأن ليس من الحكمة طلب هذا الإذن.. وما كنت - في الوقت ذاته - لأقبل أن يطبع في "فرنسا" بغير ذلك. أما هي، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير - من ناحية الرقابة - تحت النظام الذي انتهجته الحكومة، وقد وجدت الوسيلة التي جعلت بها السيد "دي ماليزيرب" يقرها على آرائها، فكتب إليّ رسالة طويلة؛ لكي أقر بأن كتاب "عودة أسقف سافوا إلى الإيمان" هو عين ما يجب ان يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشري في كافة الأرجاء، بل وفي البلاط الملكي في تلك الظروف!.. وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسؤول الذي كان بطبيعته رعديدا، قد تساهل في هذه المسألة إلى هذا الحد!

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانونا، فإنني لم أعد أملك أي اعتراض. على أنني - بسبب نذر خفي غريب هجس في نفسي - ظللت أصر على أن يطبع الكتاب في "هولندا"، وبوساطة المكتبي "نيولم"، الذي لم أكتف بأن أرشدت إليه، بل إنني كتبت إليه أستشيره، ووافقت على ان تكون الطبعة لحساب ناشر "فرنسي"، أي أن يتم إعدادها في "هولندا"،

وتباع في "باريس"، او في اي مكان آخر، فما كان البيع ليعنيني في شيء وهذه هي عين النقاط التي اتفقت عليها مع السيدة "دي لوكسمبورج"، والتي اسلمتها المخطوط بعد إبرامه.

*****

وكانت قد احضرت معها – في هذه الرحلة – ابنة اختها، الآنسة "دي بوفليير"، وهي الآن السيدة دوقة "دي لوزون"، وكان اسمها "إميلي"، ولقد كانت فتاة فتانة، وكان وجهها، ورقتها، وخفرها، تحمل براءة العذارى الحقيقية. فما كان ثمة ما هو الطف ولا ادعى للاهتمام من وجهها، ولا كان هناك ما هو اكثر طهرا من المشاعر التي كانت تثيرها في النفس!.. ولا غرو، فقد كانت طفلة، لم تتجاوز العام الحادي عشر من عمرها؛ وإذ وجدتها السيدة المارشالة بالغة الحياء راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل؛ فسمحت لي مرارا بان اقبلها، الامر الذي اقدمت عليه بحيائي المعهود، وبدلا من المداعبات اللطيفة التي كان اي امرىء آخر خليقا بان يقولها – إذا ما كان في موضعي – ظللت صامتا، عييا.. فلم ادر من كان اكثرنا حياء: الصغيرة المسكينة ام انا؟..

وفي ذات يوم صادفتها وحيدة على سلم "القصر الصغير"، وكانت قد اقبلت لتزور "تيريز"، حيث كانت مربيتها في زيارتها؛ وإذا لم ادر ما ينبغي ان اقوله لها سالتها ان تمنحني قبلة، فلم تابها عليّ، بكل ما في قلبها من براءة وطهر، لاسيما انها كانت قد منحتني قبلة اخرى في صباح اليوم ذاته، بامر من خالة امها، وفي حضورها.

وفي اليوم التالي، صادفت – وانا اقر "إميلي" على السيدة المارشالة – فقرة حرمت فيها، بحجة قوية، عين الشيء الذي كنت قد فعلته – انا نفسي – في اليوم السابق، ووجدت السيدة ان ما ذهبت إليه – في تلك الفترة – كان صوابا، وابدت بعض ملاحظات معقولة، جعلتني اتضرج خجلا. لكم العن غبائي الذي يفوق التصور، والذي كثيرا ما جعلني ابدو خبيثا، آثما، في حين انني لم اكن اكثر من احمق، سريع الارتباك!.. ولقد كانت حماقتي من ذلك النوع الذي يؤخذ على انه عذر زائف، من رجل عرف عنه انه ذكي!.. إن بوسعي ان اقسم على ان تلك القبلة كانت خالية من كل ما يستحق اللوم، وان قلب الآنسة "إميلي" وعواطفها، لم تكن – في هذه الناحية – اطهر من قلبي وعواطفي انا!.. بل إن بوسعي كذلك ان اقسم إنني لو كنت قد استطعت – في تلك اللحظة – ان اتحاشى لقاء الصبية لفعلت؛ إذ إنني – بالرغم من سروري لمرآها – كنت في حيرة بالغة، لا اكاد اجد شيئا مناسبا اقوله لها وانا امر بها.

ترى كيف يتسنى لطفلة ان تبعث الارتباك لدى رجل لم يستطع سلطان الملوك ان يرهبه؟.. اي قرار يتخذ؟.. وكيف يتصرف إذا هو تجرد فجاة من حضور ذهنه؟.. إنني إذا غصبت نفسي على الحديث إلى من اقابلهم من الناس فلست اقول سوى هذيان لا يفهم.. وإذا انا لم اقل شيئا اتهمت بانني انفر من البشر، وبانني حيوان وحشي، وباني دب!.. لقد كان الغباء الكامل احب إليّ من هذه الحال، ولكن المواهب التي كانت تعوزني في صحبة الناس، هي التي جعلت تلك التي املك، اداة لدماري!

وفي نهاية مقام السيدة "دي لوكسمبورج" – في هذه الزيارة – قامت بعمل طيب، كان لي فيه نصيب. فقد حدث ان اهان "ديدرو" – في تهور بالغ – السيدة الاميرة "دي روبيك"، وكانت من

بنات السيد **"دي لوكسمبورج"**، ولقد انتقم لها الأديب الذي يتمتع برعايتها، **"باليسو"**، بمسرحيته الهزلية **"الفلاسفة"** التي تعرضت أنا فيها للسخرية، كما عومل فيها **"ديدرو"** بقسوة عنيفة، وما كان المؤلف أكثر إشفاقا عليّ منه على **"ديدرو"**، مراعاة لالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوي، بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيدة التي كانت ترعاه، فقد كان يعرف أن السيد **"دي لوكسمبورج"** كان حفيا بي، ودودا نحوي!..

ولقد أرسل إليّ **"دوشين"** الكتبي - الذي لم أكن قد تعرفت إليه إذ ذاك - نسخة من المسرحية عندما طبعت فحدست أنه ما فعل ذلك إلا بإيعاز من **"باليسو"**، الذي ربما خال أنني قد ابتهج لمرآى رجل- فصمت عرى الصلات معه - يمرغ في التراب. ولكنه أخطأ في هذا خطأ مفرطا، فمع أنني كنت قد قطعت ما بيني وبين **"ديدرو"** - الذي كنت أؤمن بأنه ضعيف، وغير أمين على الأسرار - أكثر منه خبيثا - إلا أنني احتفظت له في قلبي بشعور من الولاء، بل ومن الإكبار والاحترام، نظرا لصداقتنا القديمة، من ناحيته، كما كانت من ناحيتي.

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى **"جريم"** الذي كان غشاشا خادعا، والذي لم يحبني إطلاقا، بل وما كان بقادر على الحب، والذي تحول في الخفاء فأصبح أقذع الشانئين لي، دون أي مبرر اللهم إلا الرغبة في إرضاء غيرته الحاقدة!.. وما كان هذا بالشخص ذي القيمة لديّ، أما الآخر، فسيظل دائما صديقي القديم، ومن ثم فقد تحركت في فؤادي أرق المشاعر، عندما رأيت تلك المسرحية البغيضة، ولم أقو على المضي في قراءتها، بل إنني رددتها إلى **"دوشين"** ولما أتمها، وأرفقت بها الرسالة التالية:

"مونمورنسي": ٢١ مايو سنة ١٧٦٠

"ما إن تصفحت المسرحية التي أرسلتها إليّ، يا سيدي حتى اشمأززت إذ وجدتني موضع إطراء، وإني لأرفض هذه الهدية البشعة، وإني لأعتقد أنك بإرسالها إليّ، لم تكن تبغي الإساءة، ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت أنني قد تشرفت بأن أكون صديق رجل جدير بكل احترام، ولم يكن يستحق أن يذم وأن يفترى عليه، في هذه المسبة المطبوعة".

*****

ولقد اطلع **"دوشين"** **"ديدرو"** على هذه الرسالة فبدلا من أن يتأثر بها، إذا هو يستاء منها. فما كان لأنانيته أن تغتفر لي التصرف الكريم الذي يكسبني تفوقا عليه، وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل عليّ في كل مكان، في حقد لم يحزني إلا قليلا! إذ كنت أعرف أن الناس جميعا كانوا يعرفون أنها سليطة!

ولقد وجد **"ديدرو"** بدوره، منتقما له في شخص الراهب **"موريليه"** الذي وضع كتيبا ضد **"باليسو"**، ولقد قلد فيه **"النبي الصغير"** وأسماه **"الرؤيا"**، ولقد أقدم - في تهور- على إهانة السيدة **"دي روبيك"** في كتيبه هذا، فعمل أصدقاؤها على إلقائه في سجن **"الباستيل"**.. أما هي، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد، كما أنها كانت على شفا الموت إذ ذاك! ومن ثم فلست أعتقد أنها كانت ذات يد في هذا الانتقام.

ولقد كتب إليّ **"داليمبير"** - الذي كان وثيق الصلة بالراهب **"موريليه"** - وسألني أن أرجو

السيدة "دي لوكسمبورج" بأن تشفع له كي يسترد حريته، واعداً بأن يطريها في "الموسوعة"، كرمز لامتنانه. وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات، في قصر "دي لوكسمبورج" عندما كانت أوراقي مودعة هناك. وها هو ذا ردي:

"لم أكن ارتقب خطابك ياسيدي، حتى أشهد السيدة، المارشالة "دي لوكسمبورج" على الألم الذي يكبدنيه سجن الراهب "موريليه". فهي تعرف الاهتمام الذي لديَّ نحو هذه المسألة، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذي تبديه نحوها وسيكفيها ذلك لكي تهتم بالأمر بنفسها، وتعرف أنه رجل كفء.

"وفوق ذلك، فبالرغم من أنها والسيد المارشال يشرفاني بكرم هو عزاء حياتي، وبالرغم من أن اسم صديقك (١) يعتبر - لديها - توصية في صالح الراهب "موريليه" إلا أنني اجهل إلى أي مدى يلائمها أن يستغلا، في هذه المناسبة، ما لمكانتهما من نفوذ، وما لشخصيهما من اعتبار، ولست أميل إلى الاعتقاد بأن العمل الانتقامي - في هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيدة الأميرة "دي روبيك" بالقدر الذي يلوح في ظنك. بل لو أن الأمر كان كذلك حقا فخليق الا نفترض أن لذة الانتقام للنفس، وقف على الفلاسفة وحدهم، وأنهم إذا اختاروا أن يكونوا نساء كان على النساء أن يصبحن فلاسفة!

"ولسوف أوفيك بما ستقوله لي السيدة "دي لوكسمبورج" عندما اطلعها على رسالتك. وفي الانتظار اعتقد أنني من المعرفة بها بالدرجة التي تمكنني من أن اطمئنك مقدما بأنها إذا استطاعت أن تساهم في إطلاق سراح الراهب "موريليه" فإنها - يقينا - تأبى أن تقبل رمز الامتنان الذي تعد بأن تؤثرها به في "الموسوعة"، بالرغم من أنها قد تشعر بأن في هذا العمل تكريما لها.. لأنها لا تبذل الخير طمعا في الثناء، وإنما لترضي قلبها الطيب فحسب".

ولم أدخر شيئا في استثارة حماسة السيدة "دي لوكسمبورج" وعطفها في سبيل السجين البائس، واستطعت أن أوفق في ذلك فقد قامت برحلة إلى "فرساي"، خصيصا لتقابل السيد الكونت "دي سان - فلورنتان"، وقد أدت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها في "مونمورنسي"، التي اضطر السيدة المارشال إلى مبارحتها - في الوقت ذاته - ليذهب إلى "روان"، حيث أوفده الملك كحاكم لـ"نورماندي"، من جراء بعض حركات من البرلمان أُريدَ إحباطها، وها هو ذا الخطاب الذي كتبته لي السيدة "دي لوكسمبورج"، غداة اليوم التالي لرحيلها:

(الملف "د" - رقم ٢٣).

"فرساي": يوم الأربعاء.

"سافر السيد "دي لوكسمبورج" في الساعة السادسة من صباح أمس، ولست أدري ما إذا كنت سألحق به. إنني في انتظار أنبائه؛ لأنه هو نفسه لا يدري كم من الوقت سيقضيه هناك.

"لقد قابلت السيد "دي سان - فلورنتان" الذي وجدت عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب "موريليه"، بيد أنه يلقى - في ذلك - عقبات، يرجو أن يذللها وينتصر عليها في أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك، وسيكون ذلك في الأسبوع المقبل.

ولقد سألته صنيعا آخر ذلك هو ألا ينفي الراهب؛ لأن هذا كان موضع دراسة، وكان من المراد إقصاؤه إلى "نانسي".

---

(١) يقصد "روسو" - بهذا التعبير - نفسه.

"هذا هو، يا سيدي، ما استطعت ان اصل إليه، ولكني اعدك بالا ادع للسيد "دي سان - فلورنتان" سبيلا إلى الراحة إلا بعد ان تنتهي المسألة وفق ما تشتهي.

"والآن، تعال أقل لك اي حزن اعانيه لفراقك بهذه العجلة، ولكني أعلل نفسي بانك لا ترتاب في ذلك!

"إنني احبك من كل قلبي، وطيلة حياتي".

وبعد بضعة ايام تلقيت هذه الرسالة القصيرة من "دالمبير"، فبعثت في نفسي فرحة صادقة:

"غادر الراهب "الباستيل" بفضل عنايتك، يافيلسوفي العزيز، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك. ولقد سافر إلى الريف، وهو يبعث - كما ابعث انا ايضا - إليك الف شكر وتحية. ولك تقديري وودي".

كذلك كتب لي الراهب - بعد بضعة ايام - رسالة شكر (الملف "د" رقم ٢٩)، لم يبد لي فيها اثر من شعور قلبي، بل لقد لاح فيها انه كان يهون - إلى حد ما - من قيمة الخدمة التي اديتها له، وبعد زمن قصير تبينت انه و"دالمبير" قد جفياني - ولن اقول قد اقتلعاني ليحلا محلي - في الحظوة لدى السيدة "دي لوكسمبورج"، وانني فقدت من تقديرها، بقدر ما كسبها. على انني جد بعيد عن ان ارتاب في ان الراهب "موريليه" قد ساهم في الحط من قدري، فإني اجله عن ذلك. اما السيد "دالمبير"، فليس لدي ما اقوله عنه هنا، وساتكلم عنه فيما بعد.

*****

وكانت لديَّ - في ذلك الوقت بالذات - مسألة اخرى. ادت إلى آخر خطاب كتبته إلى السيد "فولتير".. وكان خطابا اطلق من جرائه الصرخات مدوية، معلنا انه إهانة له منكرة، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط. ولسوف اورده هنا.

ذلك ان الراهب "تروبليه" - الذي كنت على معرفة بسيطة به، والذي لم اره إلا نادرا - كتب إليَّ في ١٣ يونيه سنة ١٧٦٠، (الملف "د" - رقم ١١)، لينبئني بان السيد "فورمي" - صديقه ومراسله - قد طبع في يومياته رسالتي إلى السيد "دي فولتير"، عن نكبة "لشبونة". وقد اراد الراهب "تروبليه" ان يعرف كيف تسنى هذا النشر، وسألني - بدهائه الجيزويتي - رايي في إعادة نشر هذه الرسالة، دون ان يريد مصارحتي برأيه هو!

ولما كنت اكره اصحاب المكر كراهية تامة، فإنني شكرته - بقدر ما كان يستحق - ولكن في شيء من الجفاء، ولقد لاحظ ذلك، ولكنه لم يردعه عن ان يحاول استدراجي من جديد، في رسالتين او ثلاث، حتى تبين كل ما كان يريد ان يعرفه. ولقد ادركت تماما - مهما يكن ما يقوله "تروبليه" - ان "فورمي" لم يكن قد وجد رسالتي إلى السيد "دي فولتير" منشورة، وإنه إنما نشرها بنفسه لاول مرة، وعرفت انه كاذب لا يخجل، اعتاد - بصراحة - ان يكسب دخلا من وراء مؤلفات غيره، وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة، وأعني بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره؛ ليضع هو اسمه عليه، ويبيعه لمنفعته الخاصة (١).

ولكن، كيف تسنى لذلك الخطاب ان يصل إلى يديه؟.. هذه هي المسألة، التي لم تكن

---

(١) اضاف "روسو": "وبهذه الطريقة سطا على "إميل" فيما بعد".

مستعصية الحل، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت في امرها. فبالرغم من ان "**فولتير**" كان قد نال تكريما ضافيا في هذا الخطاب إلا انه كان على حق في أن يشكو - بالرغم من مسلكه النابي - لو انني كنت قد نشرت الخطاب بدون موافقته؛ ومن ثم فقد رايت ان اكتب إليه بهذا الشان، وهاكم هذا الخطاب الثاني الذي لم يرد عليه إطلاقا، والذي تظاهر بالهياج - حتى الجنون- من جرائه، كي ينطلق في فظاعته بكثير من التحرر.

"**مونمورنسي**": ١٧ يونيه سنة ١٧٦٠.

"ما ظننت قط ياسيدي، اني ساجد نفسي على تكاتب معك ثانية. ولكني - إذ علمت ان الخطاب الذي كتبته إليك في سنة ١٧٥٦ - قد طبع في "**برلين**" وجدت من الواجب ان اطلعك على تصرفي في هذا الصدد، واني لأؤدي هذا الواجب بصدق وبساطة.

"إن هذا الخطاب؛ إذ وجه إليك حقا لم يكن مقدرا له ان يطبع، وما افضيت بمحتوياته - بقيود اشترطتها - إلا لثلاثة اشخاص، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لي أو عليهم شيئا من هذا القبيل، كما ان حقوق الصداقة هذه بالذات، لا تسمح لهم ان يسيئوا استغلال الأمانة، بان ينتهكوا عهودهم..

هؤلاء الاشخاص الثلاثة هم: السيدة "**دي شينونسو**" - زوجة ابن السيدة "**دوبان**" - والسيدة الكونتة "**دودويتو**"، والماني يدعى "**جريم**" ولقد كانت السيدة "**دي شينونسي**" تواقة إلى ان يطبع هذا الخطاب، وسالتني ان اوافق على ذلك، وقد قلت لها: إن هذا يتوقف على موافقتك انت، وقد سالتك ذلك بنفسها فاجبت انت بالرفض، ولم تثر المسالة بعد ذلك.

"على أن السيد الراهب "**تروبليه**"، الذي لا تربطني به صلة ما كتب إليّ بدافع من عناية مفعمة بالكرم، فذكر أنه تلقى صفحات من يوميات السيد "**فورمي**" وإذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات، مع كلمة قال فيها المحرر - تحت تاريخ ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٩ -: إنه وجد الخطاب قبل بضعة اسابيع، في مكتبات "**برلين**"، وإنه لما كان من النشرات التي سرعان ما تختفي دون اي رجاء في عودتها فقد راى أن من واجبه ان يفرد له مكانا من يومياته!

"هذا ياسيدي، كل ما عرفته عن الامر، ومن المحقق جدا، ان هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع احد - في "**باريس**" - أو لسانه حتى الآن، ومن المؤكد كذلك ان النسخة التي وقعت في يدي السيد "**فورمي**" - سواء كانت مخطوطة او مطبوعة - لا يمكن ان تصل إليه إلا من طريقك انت، وهو الأمر غير المحتمل. أو من طريق واحد من الاشخاص الثلاثة الذين ذكرت اسماءهم.. واخيرا، من المؤكد جدا، ان ايا من السيدتين لا يمكن ان تقدم على مثل هذه الخيانة للامانة، وليس بوسعي - من معزلي - ان اصل إلى مزيد من المعرفة في هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقهم وبمعونتهم - ان تتعقب المسالة حتى مصدرها الأصلي، إذا رايت انها تستحق العناء، وان تعرف حقيقة الواقعة.

"ولقد ذكر لي السيد الراهب "**تروبليه**" - في رسالته هذه - انه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات، وانه لن يعيرها لأحد بدون رضائي قط، وهذا ما لن يصدر مني قط!.. غير ان هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة في "**باريس**" ورجائي هو الا يطبع هذا الخطاب هناك، وسابذل قصارى وسعي من اجل ذلك. على انني إذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه، ونمى إليّ النبأ - في الوقت المناسب - فقد استطيع ان اتمسك بحق الاسبقية؛ وإذ ذاك فلن اتردد في نشره بنفسي، وهذا - كما يبدو لي - مجرد تصرف طبيعي عادل.

"اما ردك عن الخطاب ذاته، فإنني لم ابح به لمخلوق، ولك ان تطمئن إلى انه لن ينشر إطلاقا دون إذنك، وهو ما لن اكون من الاستهانة بالسر بحيث اسالك إياه؛ لانني اعلم تمام العلم ان ما يكتبه إنسان لإنسان اخر، ليس مما ينشر على الملأ. اما إذا شئت ان تكتب ردا موجها إليّ، بغرض النشر، فإني اعدك بان الحقه بامانة برسالتي، دون ان اعقب عليه بكلمة واحدة.

"إنني لا احبك إطلاقا يا سيدي، ولكنك وجهت إليّ من الإساءات، ما لا املك سوى ان اشعر بابلغ الملام بسببها.. انا تلميذك، واشد المعجبين تحمسا لك!.. لقد اضعت "جنيف" جزاء لها ما لقيته منها من إيواء.. ولقد نفرت مني ابناء وطني، في مقابل الثناء الذي اضفيته عليك لديهم انك انت الذي جعلت حياتي في وطني ومسقط راسي امرا لا اطيقه!.. إنك انت الذي ستضطرني إلى ان اموت على ارض اجنبية - محروما من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة - والا القى من التكريم اكثر من ان القى في حماة.. بينما ترافقك في وطني كل آيات التكريم التي يحق لإنسان ان يطمع فيها!.. إنني - بإيجاز - اكرهك، وما دمت رغبت في هذا!.. ولكني اكرهك كرجل لا يزال خليقا بان يحبك، إذا كنت ترغب في ذلك. إن العاطفة الوحيدة التي تبقى - من كل الاحاسيس التي يزخر بها قلبي نحوك - لهي عاطفة الإعجاب الذي لا يمكن للمرء ان يأباه على عبقريتك البديعة، والحب لما تكتب، وإذا كنت لا اقوى على ان اكرم فيك سوى مواهبك فليس هذا ذنبي، ولن يعوزني قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذي تتطلبه.

"وداعا يا سيدي"

تنبيه: يلاحظ ان هذا الخطاب وإن كتب منذ حوالي سبع سنوات إلا انني لم اتحدث عنه إلى نفس حية، ولا اطلعت عليه احدا، وكذلك كان شان الخطابين اللذين اضطرني السيد "**هيوم**" إلى ان اكتبهما له في الصيف الماضي، حتى اثار الضجة - التي يعرفها كل امرىء - بشانهما. إن السوء الذي اضطر إلى ان اقوله لاعدائي، إنما اوجهه إليهم فيما بيننا. اما الخير - إذا وجد شيء منه - فإني اقوله علانية وبقلب سليم.

وفي غمرة هذه المشاحنات الادبية الطفيفة، التي لم تزدني إلا إصرارا على عزمي، قدر لي ان اتلقى اعظم تكريم اسدته إليّ مهنة الادب.. التكريم الذي كنت اشد اعتزازا به مني باي شيء آخر. وقد تمثل هذا التكريم في تنازل السيد الامير "**دي كونتي**" بزيارتي مرتين، إحداهما في "**القصر الصغير**"، والاخرى في "**مون - لوي**"، ولقد اختار في كل من المرتين - على السواء - للفترة التي لم تكن فيها السيدة "**دي لوكسمبورج**". في "**مونمورنسي**"؛ حتى يكون اكثر إظهارا؛ لانه إنما كان قادما من اجلي، وما ارتبت يوما في انني إنما كنت مدينا باولى مكارم هذا الامير، إلى السيدة "**دي لوكسمبورج**"، وإلى السيدة "**دي بوفلير**". غير أنني لا ارتاب كذلك في انني مدين بالعطف الذي لم يكف قط - منذ ذلك الحين - عن ان يشرفني به، إلى مشاعري الخاصة، وإلى نفسي.

تنبيه: لاحظوا إصرار هذه الثقة العمياء، الغبية على البقاء في غمرة كل الإساءات التي كانت كفيلة بان تجعلني اسيء الظن بها. ولكنها لم تختف إلا بعد عودتي إلى "باريس" في سنة ١٧٧٠.

ولما كان مسكني في "**مون - لوي**" جد صغير، وموقع الايكة جميل: فقد اخذت الامير إليها؛ إذا به - لكي يتوج افضاله - يرغب في ان يشرفني بان يلعب دورا في الشطرنج معي، وكنت اعرف ان بوسعه ان يهزم الشيفالييه "**لورينزي**" الذي كان امهر مني لعبا. على أنني كسبت الدورين اللذين

لعبتهما، بالرغم من إشارات وغمزات الشيفاليه وأولئك الذين كانوا حضورا، فقد تظاهرت بأنني لم اكن اراها، وعندما انتهينا قلت له في لهجة جادة، مفعمة بالاحترام: "مولاي، إنني أوقر سمعك في خشوع يفوق اي تورع عن كسبك في الشطرنج دائما" .. فشعر هذا الامير العظيم - النابه، المطلع، الذي كان اهلا لان يابي التملق، او هكذا ظننت، على الأقل - انني الوحيد بين الحضور، الذي عامله كإنسان، ولديّ كل ما يجعلني اعتقد انه شعر بامتنان حقيقي نحوي لذلك!

ولو انني علمت عنه انه اساء مني لما انبت نفسي على انني لم ارض بان اخدعه في شيء، ولست اجد - يقينا - ما يحملني على ان الوم نفسي على أنني أسات - في قلبي - تقبل افضاله، وإن كنت قد فعلت ذلك احيانا حقا، في حين انه كان يبدي رقة لا حد لها في مسلكه نحوي، ولقد ارسل إليّ بعد أيام قلائل سلة مليئة بطيور القنص؛ فتقبلتها بقبول سليم، وما لبث - بعد ذلك بفترة - أن أرسل إليّ سلة اخرى، مصحوبة برقعة من احد حراس صيده، كتبت بإملاء منه؛ ليخبرني بأن محتويات السلة من الطيور التي اصيبت بيد صاحب السمو نفسه، ولقد تقبلتها ولكنني كتبت إلى السيدة "دي بوفليير"، انبئها بانني لن أتقبل مزيدا من هذه الهدايا، وقد جلب عليّ هذا الخطاب لوما عاما، كنت أستحقه؛ فإن رفض هدايا الصيد من أمير من الأسرة المالكة، يبدي - إلى جانب ذلك - في إهدائها كل لطف، إنما ينم عن فظاظة من شخص سيئ النشأة، ينسى نفسه، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذي كرامة وكبرياء، يرغب في أن يحتفظ باستقلاله. وما قرات قط هذا الخطاب إلا تضرج وجهي خجلا منه، وإلا انبت نفسي على كتابته.

على انني لم أقدم على كتابة اعترافاتي؛ لكي اسكت متكتما حماقاتي، وإن الواقعة الراهنة لتملؤني اشمئزازا من نفسي، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغريني على تكتمها!

وإذا كنت لم اضف إلى ذلك حماقة جديدة بان اغدو منافسا له فإنني كنت جد قريب من ان افعل هذا؛ إذ إن السيدة "دي بوفليير"، كانت - في ذلك الوقت - ماتزال عشيقته، ولم أكن اعرف شيئا عن ذلك، وكانت تفد لزيارتي كثيرا، في صحبة الشيفاليه "دي لورينزي"، وكانت جميلة ، ما تزال في شبابها، وكانت تعجب بالفكر الروماني، في حين انني كنت دائما مولعا بالخيال الشاعري، وكان في هذا تشابه كاف. ولقد كدت افصح نفسي، واعتقد انها لحت ذلك، وكذلك لاحظه الشيفاليه"، فقد حدثني بصدده - على الأقل - بطريقة لم ترم إلى تثبيط عاطفتي!

ولكني كنت في هذه المرة حكيما، وكان الزمن يستدعي ذلك؛ إذ إنني كنت في الخمسين من عمري، ولما كنت مفعم النفس بالنصيحة التي أسداها إليّ الشيب في رسالتي إلى "دالمبير" فقد خجلت من الا افيد منها، وإلى جانب ذلك فإنني - بعد ان علمت كل ما لم اكن اعلم من قبل - كنت خليقا بان اكون قد فقدت صوابي تماما، لو انني جرؤت على ان اصبو إلى منافسة غريم في مثل تلك المكانة الرفيعة.

واخيرا فإنني على ما يبدو لم اكن قد شفيت تماما من هوى السيدة "دوديتو"، فكنت احس بانه ما من شيء بعد هذا الهوى يمكن ان يحتل محله من قلبي، وودعت الحب ما بقي من عمري.

لقد تلقيت - قبيل اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور - ملاطفات خطرة، من شابة لها أغراض لديّ، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظرات زاخرة بالمعاني، ولكن.. إذا كانت تتظاهر بنسيان سني عمري الخمسين فإن من واجبي ان اذكرها!.. وبعد ان انتزعت نفسي من فخها، لم يعد يساورني اي خوف من الوقوع، بل إنني لاشعر بان في وسعي أن أثق بنفسي - في هذا الصدد - بقية عمري!

ولقد لاحظت السيدة "دي بوفليير" الانفعال الذي بعثه وجودها في نفسي، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أنني قد انتصرت عليه. إنني لست من الطيش، ولا من الغرور، بحيث أعتقد أنني - في هذه السن - أثير في نفسها أي ميل نحوي، ولكني - على ضوء بعض عبارات استخدمتها في حديثها إلى "تيريز" - أعتقد أنني أثرت نوعا من الشعور الفضولي في نفسها. فإذا صح هذا، وإذا لم تكن قد صفحت عني لأنني لم أرض هذا الفضول فجدير بي أن أقر بأنني خلقت لأكون ضحية عيوبي وضعفي مادام الحب المظفر مصدر تعاسة لي، والحب المهزوم مصدر تعاسة أكبر!

*****

هنا تنتهي مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لي في هذين الجزءين، ومنذ الآن، لن يكون لي سوى أن أقفو آثار ذكرياتي لكنها - في هذه المرحلة قاسية - ماتزال باقية، كما أن طابعها ما يزال قويا، حتى إنني أراني عاجزا - رغم ضياعها في بحر التعاسات البالغة - عن أن أنسى دقائق أول غرق منيت به سفينتي، بالرغم من أن ما بعده، لا يوفر لي سوى ذكريات مرتبكة، غير واضحة المعالم.

وهكذا أستطيع السير في كراستي التالية وأنا مازلت كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمي..

فإذا اشتط بي النأي فلن يكون هذا مدعاة لأي عجب!

الكراسة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

ومع ان قصة "**جولي**" -التي استغرقت طباعتها امدا طويلا- لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠، إلا انها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى. فإن السيدة "**دي لوكسمبورج**" راحت تتحدث عنها في البلاط، كما ان السيدة "**دوديتو**" كانت تتحدث عنها في "**باريس**". بل إن هذه الاخيرة استاذنتني، باسم "**سان-لامبير**" -في قراءة القصة- من النسخة المخطوطة -على ملك "**بولندا**"، الذي فتن بها. وعمد "**ديكلو**" - الذي كنت قد سمحت بقراءاتها عليه - إلى الحديث عنها في المجمع "الاكاديمية". فكانت "**باريس**" باسرها تتحرق شوقا في انتظار هذه القصة، وحوصرت متاجر الكتب في شارع "**سان جاك**" و"**باليه رويال**" بالناس الذين كانوا يتساءلون عن انبائها!

وظهرت اخيرا، فكان نجاحها الخارق متمشيا مع الشوق الذي كانت ترتقب به!(١).

وتحدثت السيدة زوجة ولي العهد -التي كانت من اوائل من اطلعوا عليها- إلى السيدة "**دي لوكسمبورج**" عنها، فوصفتها بانها مؤلف يسلب الالباب. ولقد انقسمت الآراء بين اهل الادب. اما لدى الجمهور، فلم يكن ثمة سوى راي واحد..

وافتتنت النساء -بوجه خاص- بالكتاب وبالمؤلف، إلى حد انه لم يكن بينهن من لم يكن في وسعي ان اغزو قلوبهن، لو انني شئت، سوى القليلات.. حتى في الاوساط الراقية!.. ولدي على ذلك ادلة لا ابغي نشرها ولكنها تؤيد قولي، دون ما حاجة إلى ذلك. ومن العجيب ان هذا الكتاب كان اكثر نجاحا في "**فرنسا**" منه في بقية "**أوروبا**"، بالرغم من ان الفرنسيين -رجالا ونساء- لم يجدوا مني معاملة طيبة جدا فيه. ولقد كانت ضآلة نجاحه في "**سويسرا**"، وعظم نجاحه في "**باريس**"، مناقضين لكل ما توقعت. فهل كانت الصداقة، والحب، والفضيلة، اكثر سلطانا في "**باريس**" منها في اي مكان آخر؟!.. لا، بلا شك، وإنما كان لايزال يغلب عليها ذلك الشعور العارم، الذي ينتشي به القلب، عندما تصور له الاحاسيس النقية، الناعمة، الفاضلة.. والذي يحدونا إلى ان نعتز بما لدى الغير من هذه الاحاسيس التي لم يعد لدينا منها شيء!.. إن الفساد يشيع اليوم في كل مكان، فلا وجود لاخلاق، ولا لفضيلة في "**أوروبا**". فإذا قدر ان يكون ثمة حب باق لها، فإن "**باريس**" هي المكان الذي يجب ان نبحث عنه فيه(٢).

وفي غمرة هذه الاباطيل والنزهات العاطفية، كان لابد من الإلمام بتحليل القلب البشري تحليلا صحيحا، حتى لا يخلط المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها. كان لابد -للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التي اشتمل عليها هذا الكتاب- من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقي، إذا جاز لي ان اقول هذا. وإني لاشبه الجزء الرابع من هذا المؤلف بكتاب "**أميرة كليف**"، دون ما تورع.. وأؤكد أن هذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتنجلي، لو ان قراءتهما اقتصرت على الأقاليم وحدها. لذلك فلا عجب من ان اعظم نجاح ظفرت به "**جولي**" كان في البلاط الملكي. فقد اثارت هناك اهواء عارمة -ولكنها مستترة- كانت خليقة بان تحظى بالإعجاب، لان افراد الحاشية كانوا على دراسة ومران

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت النسخة تؤجر للقراءة باثني عشر "سو" في الساعة، في الايام الاولى لظهور الكتاب. (٢) اضاف "روسو" في هامش كتابه: "كتبت هذا في سنة ١٧٦٩".

بأن يستشفوا ما وراءها. على أنه لابد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة: تلك هي أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات، لا يلائم -يقينا- أولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم إلا إلى المكر، والذين لم يؤتوا من الألمعية إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا السوء.. والذين لا يبصرون شيئا على الإطلاق، حيث لا يتبدى للأبصار سوى كل ما هو طيب وحسن!.. فلو أن "جولي" نشرت في بلد معين يخطر ببالي -مثلا- لما أقبل أحد على قراءتها حتى نهايتها، ولماتت في يوم مولدها!

ولقد جمعت معظم الرسائل التي كتبت إلي عن هذا المؤلف، في حزمة عهدت بها إلى السيدة "**دي نادياك**" (١). فإذا قدر لهذه المجموعة أن ترى النور، فإنها ستكشف عن كثير من الغرائب، وعن تناقض في الرأي، يبين ما يلقاه المرء إذا ما تعرض لمسألة تهم الرأي العام. على أن أقل ما فطن إليه القوم، هو عين الميزة التي ستجعل هذا المؤلف فريدا في نوعه دائما، ميزة بساطة الموضوع، وتسلسل السياق، الذي اقتصر على ثلاثة أشخاص، وتتابع في ستة مجلدات دون ما استعانة بأحداث، أو مغامرات خيالية، أو شوائب من أي نوع، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة أو بتصرفاتهم!.. وكان "**ديدرو**" قد أطرى "**ريتشاردسن**" (٢) كثيرا، للتنوع الهائل الذي تجلى في مواقف قصته، ولتعدد الشخصيات التي قدمها وليس من شك في أن "ريتشاردسن" كان موفقا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة. على أنه عمد -فيما يتعلق بعددها- إلى ما هو شائع لدى القصصيين غير الناضجين، الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع. إذ إن من السهل استثارة الاهتمام، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة، التي تتوالى وكأنها أطياف مصباح سحري.. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام، بنفس الأشياء، ودون ما وقائع غريبة مدهشة، أمر بالغ المشقة!.. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب.. ومن هنا نرى أن قصص "**ريتشاردسن**"، وإن تفوقت في كثير من الاعتبارات، إلا أنها لا تقاس، من هذه الناحية، بقصتي. وإذا كانت هذه قد ماتت -وإني لأدرك هذا، وأعرف السبب- إلا أنها لن تلبث أن تبعث من جديد!

وما كنت أخشى سوى أن يكون تطور القصة مملا، بحكم بساطته، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام، يظل مستمرا حتى نهايتها، ولكني لم ألبث أن اطمأننت، بفضل واقعة هزت مشاعري، أكثر مما هزتها جميع التهاني والمديح التي اجتلبها علي هذا الكتاب:

ذلك أن القصة ظهرت في بداية أعياد المراقع "**الكرنفال**". فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيدة الأميرة "**دي تالمون**" (٣)، في أحد الأيام التي أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار "**الأوبرا**". وبعد أن تناولت السيدة العشاء، ارتدت ثيابها تأهبا للذهاب إلى الحفلة. حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة، وعند منتصف الليل، أمرت بأن تشد الجياد إلى عربتها، ثم واصلت القراءة. وأقبل من أعلنها بأن العربة معدة، ولكنها لم تجب. وإذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحا. فقالت وهي مسترسلة في القراءة: "لا داعي بعد للعجلة!". وبعد فترة، تبينت أن ساعتها كانت قد توقفت عن العمل، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت، فقيل لها: إن الساعة كانت الرابعة. فقالت: "إذن فالوقت جد متأخر، ولا سبيل إلى الذهاب

---

(١) كانت السيدة "دي نادياك" رئيسة لدير "جومير فونتان"، الذي كان يضم بخصائص مدينة "روان"، والذي كان يقع على مقربة من قصر "شاتو دي نير" -قلعة مدينة صور- حيث نزل "روسو" فترة من الزمن. ومما يذكر أن روسو كتب قطعة من الموسيقى الدينية. بوحي من هذه السيدة، ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة في المكتبة الملكية. بالمتحف الفرنسي. (٢) "ريتشاردسن" مؤلف "أميرة كليف" التي يفضلها روسو بقصته "جولي". (٣) استدرك "روسو" في هامش كتابه قائلا: "لم تكن هي، وإنما كانت سيدة أخرى، لا أعرف اسمها. بيد أني تأكدت من الواقعة ذاتها".

إلى المرقص، فاطلقوا الجياد! ". وخلعت ثيابها، ثم قضت بقية الليل في القراءة!

ومذ رويت لي هذه الواقعة، اصبحت مشوقا دائما إلى رؤية السيدة "دي تالمون"، لا لكي اعرف منها -بالذات- ان الواقعة صحيحة، فحسب، وإنما لانني لم اكن اظن قط ان من الممكن ان يشعر اي شخص بمثل هذا الاهتمام المحتدم نحو "جولي"، دون ان يكون قد أوتي الحاسة السادسة.. حاسة الإدراك الخلقي والأدبي التي لم تحظ بها سوى قلوب قلائل، والتي لا سبيل بدونها إلى فهم قلبي!

ولقد كان الامر الذي جعل النساء يؤثرنني بهذه الدرجة، هو الاعتقاد الذي داخلهن بأنني أودعت الكتاب سيرتي الحقيقية، وانني بالذات، كنت بطل هذه القصة. ولقد طغى من تغلغل هذا الاعتقاد، ان كتبت السيدة "دي بولينياك" إلى السيدة "دي فرديلان"، لترجوني ان اسمح لها بان ترى صورة "جولي". فلقد اقتنع الناس جميعا بان من المستحيل التعبير عن الاحاسيس بهذا الإبداع، دون ان اكون قد شعرت بها.. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتاجج، مالم تكن منبعثة من الفؤاد مباشرة. ولقد كان الناس على حق في ذلك، فمن المحقق انني كتبت هذه القصة وانا في اشد حالات الجوى استعارا.. على ان من الخطأ الظن بأنه لابد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهيب.. كما ان من ابعد الامور عن الإدراك، تصور مدى الوجد الذي كانت تذكيه في فؤادي مخلوقات خيالية موهومة، ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا، ومن السيدة "دوديتو"، لم يكن الشوق -الذي كابدته ووصفته- قائما إلا نحو أطياف الخيال السابحة في الهواء.

ولم أشا ان اعزز أو ان اهدم خطأ كان في صالحي. ومن الميسور للمرء ان يتبين من المقدمة التي صغتها على شكل حوار، والتي طبعتها على حدة، كيف تركت الراي العام في شك إزاء هذه النقطة. وقد يقول المتزمتون: إن الواجب كان يقتضيني ان اعلن الحقيقة بجلاء تام. على انني -من ناحيتي- لا ارى التزاما كان يحدوني إلى ان افعل ذلك، واعتقد انني كنت خليقا بان أبدو غبيا، اكثر مني صريحا، لو أنني اقدمت على هذا البيان، دون ما ضرورة تدعو إليه!

❁❁❁❁❁

وظهر في ذلك الوقت -تقريبا- "السلام الدائم"، الذي كنت قد عهدت، في العام السابق، بمخطوطه إلى شخص -يدعى السيد "دي باستيد"- كان رئيس تحرير صحيفة تدعى "لوموند"، اي العالم، وقد رغب في ان ينشر كل مخطوطاتي في هذه الصحيفة، رضيت أم لم أرض!.. ولقد كان من معارف السيد "ديكلو"، فراح يلح علي باسمه في ان أساعده على ملء صفحات "لوموند". وكان قد سمع عن "جولي"، فاراد ان انشرها في صحيفته، كما ود لو انشر فيها "أميل". وكان خليقا بان يرغب في ان انشر فيها "العقد الاجتماعي" لو انه حدس وجوده. فلما ضقت بإلحاحه -في النهاية- قررت ان انزل له عما خرجت به من "السلام الدائم" في مقابل اثني عشر "لوي". وكان الاتفاق بيننا على ان ينشره في صحيفته، ولكنه لم يكد يستولي على المخطوط، حتى رأى ان يطبعه في كتاب مستقل، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب. ترى ما الذي كان خليقا بان يحدث، لو انني كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائي وتعليقاتي على الكتاب الأصلي؟ إنني لحسن الحظ لم اتحدث عنها إلى السيد "دي باستيد"، ومن ثم فإنها لم تدخل ضمن صفقتنا!.. ولا تزال هذه الآراء بين أوراقي، مسجلة بخط اليد. وإذا قدر لها ان تظهر، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات "فولتير" وآراؤه المعتدة، في هذا الموضوع، خليقة بان تضحكني.. انا الذي ادرك تمام الإدراك مدى ذكاء هذا

المسكين، فيما يتعلق بالأمور السياسية التي جرؤ على أن يقحم نفسه فيها!

وفي غمرة نجاحي لدى الرأي العام، والحظوة التي نلتها لدى السيدات، رحت أشعر بأنني كنت افقد مكانتي في قصر "دي لوكسمبورج"، لا لدى السيد المارشال -الذي كان يبدو انه راح يضاعف بره بي، وصداقته لي، يوما بعد يوم- وإنما لدى السيدة المارشالة.. فإن مخدعها لم يعد يفتح كثيرا في وجهي، بعد ان لم يعد لدي ما اقرؤه عليها. ومع أنني كنت اتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زياراتهما "لمونمورنسي" -إلا أنني أصبحت نادرا ما أراها، في غير أوقات اجتماعنا حول المائدة. بل إن المقعد المجاور لها، لم يعد قاصرا علي وحدي، كما كان العهد من قبل!.. وإذ لم تعد السيدة تعرضه علي، واصبحت تقسط في الحديث إلي، ولم يعد لدي -انا الآخر- الكثير مما يقال لها، فإنني ارغمت كثيرا إلى اتخاذ مكان آخر حول المائدة، كنت أشعر فيه بالحرية، لا سيما في المساء، إذ وجدتني اتعود -دون أن افطن- الجلوس على مقربة من السيد المارشال.

وبمناسبة "المساء"، أتذكر أنني قلت: إنني لم أكن أتناول العشاء في القصر. وقد كان هذا صحيحا، في بداية التعارف. على انه لما كان السيد "دي لوكسمبورج" قد اعتاد الا يتناول غداء قط، بل ولا حتى أن يظهر حول مائدة الغداء، فقد ترتب على ذلك أنني لم أتناول الطعام معه قط، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا، كنت فيها قد ألفت التردد على الدار. وكان من الكرم بحيث اشار إلى ذلك، مما دعاني إلى أن اقرر الذهاب لتناول العشاء هناك، في بعض الاحيان التي لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون. وكنت استمتع بذلك كثيرا، إذ إننا كنا قد اعتدنا -تقريبا- تناول الغداء في الهواء الطلق، و"دون ما كلفة" -كما يقال- في حين أن العشاء كان يستغرق وقتا طويلا، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام.. وكان الطعام جد شهي، لأن السيد "دي لوكسمبورج" كان اكولا.. كما كانت المائدة مستحبة، لأن السيدة "دي لوكسمبورج" كانت تقترح الانتخاب، في كثير من الجلال واللطف الساحرين. وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التي وردت في ختام إحدى رسائل السيد "دي لوكسمبورج" (الملف "جـ" -رقم ٣٦)، إذ قال السيد: إنه كان يتذكر نزهاتنا بكثير من السرور، لاسيما حين كنا نعود إلى القصر في المساء، فلا نجد أثرا لعجلات العربات في ساحة القصر. ذلك لأنه لما كانت الرمال -التي يكتسي بها الفناء- لا تسوى إلا في الصباح، فإنني كنت استطيع أن أحدس من عدد الخطوط التي تخلفها عليها العجلات، عدد الضيوف الذين وصلوا في فترة الأصيل!

*****

ولقد أترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التي حاقت بهذا السيد الكريم مذ كان لي شرف التعرف إليه، وكأنما كانت الشرور التي راح القدر يعدها لي، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذي شعرت نحوه بأصدق الود، والذي كان جديرا بكل ولاء.. ففي العام الأول لتعارفنا، فقد أخته: السيدة الدوقة "دي فيلروي". وفي العام الثاني، فقد أخته السيدة الأميرة "دي روبيك".. وفي الثالث، فجع في ابنه الأوحد -الدوق "دي مونمورنسي"- وفي حفيده الكونت "دي لوكسمبورج"، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها. ولقد تحمل السيد المارشال كل هذه النكبات بجلد باد -في الظاهر- ولكن قلبه ظل -في الخفاء- داميا، ما تبقى من حياته، وراحت صحته تضمحل، وكانت ميتة ابنه -المفجعة، غير المتوقعة- جديرة بأن تكون أشد تأثيرا عليه من كل شيء، إذ إنها حدثت في عين

اللحظة التي كان الملك قد منح فيها ابنه –ووعد بأن يمنح حفيده– الحق في أن يخلفه في قيادة الحرس الخاص. وقدر عليه أن يتعذب برؤية حياة هذا الطفل –حفيده– الذي تركزت فيه كل هذه الآمال، تذوي رويدا أمام عينيه؛ من جراء ما كان لأمه من ثقة عمياء بالطبيب الذي تسبب في وفاته.. فقد مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء، إذ إنه لم يكن يتغذى على غير العقاقير!

واحسرتاه!.. ليتهم أخذوا برأيي، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة!.. فكم قلت وكم كتبت للسيد المارشال.. وكم جلوت الرأي للسيدة "دي مونمورنسي"، بصدد نظام التغذية، الذي كان يتجاوز حدود التقشف، والذي كانت تتبعه نحو ابنها، بسبب ثقتها بالطبيب!.. ومع أن السيدة "دي لوكسمبورج" كانت تشاطرني الرأي، إلا أنها لم تشأ أن تتدخل في سلطة الأم، كما أن السيد "دي لوكسمبورج" كان لطيفا، لينا، فلم يشأ أن يعارضها!.. وكانت السيدة "دي مونمورنسي" تكن للطبيب "بوردو" ثقة انتهت بأن راح ابنها ضحية لها!.. لشد ما كان الصغير المسكين يغتبط كلما استطاع أن يحصل على إذن بالحضور إلى "مون-لوي" مع السيدة "دي بوفليير"، إذ كان يطلب إلى "تيريز" بعض الطعام فيودع أمعاءه الخاوية شيئا من الغذاء!.. لكم كنت أرثي –في دخيلتي– لتعاسات العظمة، كلما رأيت هذا الوريث الأوحد لمثل هذه الثروة الواسعة، ومثل هذا الاسم الرفيع، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة، –يلتهم في نهم المتسول كسرة صغيرة، متواضعة، من الخبز!.. على أن الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت.. ومات الصغير جوعا!

وهذه الثقة في الدجالين وأدعياء الطب –التي أهلكت الحفيد– هي ذاتها التي حفرت قبر الجد، فضلا عن أنه كان من ضعف العقل، بحيث راح يحاول أن يخفي على نفسه علل الشيخوخة. فلقد كان السيد "دي لوكسمبورج" يعاني –بين آن وآخر– آلاما في الأصبع الكبرى لقدمه. وقد تعرض –أثناء وجوده في "مونمورنسي"– لنوبة حرمته النوم، وجعلته شبه محموم. وإذ جرؤت على أن ألفظ كلمة "النقرس"، انهالت السيدة "دي لوكسمبورج" علي تأنيبا، فقد أعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من "النقرس" في شيء، وراحا يسيفان على العضو الموجوع بلسما، وهدأ الألم –لسوء الحظ– فلما أخذ يعود بعد ذلك، كانوا يلجئون، دون ما تردد، إلى عين الدواء الذي أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل.. وباضمحلال صحة السيد المارشال، أخذت آلامه تزداد، فكانت العقاقير تزداد معها!.. وعندما تبينت السيدة "دي لوكسمبورج" –في النهاية– أن "النقرس" هو الذي كان مصدر الآلام، عارضت هذا العلاج الأخرق. فراحوا يكتمون عنها –بعد ذلك– حاله، حتى مات السيد "دي لوكسمبورج" بعد سنوات قلائل، بفضل خطئه، ومن جراء إصراره على أن يعالج نفسه بنفسه، وفق هواه. ولكن.. ليس لنا أن نمعن في استباق المصائب، فكم لدي من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك!

*****

ولقد كان من النحس العجيب حقا، أن كل شيء كنت أقوله أو أفعله، بدا وكأنه مسوق إلى أن يسوء السيدة "دي لوكسمبورج"، ولو كنت في أشد الشوق إلى أن أحتفظ برضاها!.. ولم تكن الآلام التي احتملها السيد "دي لوكسمبورج" –من الصدمات التي تعاقبت عليه– تزيدني إلا تعلقا

به، وبالتالي، بالسيدة "دي لوكسمبورج"، إذ كانا يبدوان دواما صادقي الاتحاد إلى درجة أن العواطف التي تخالج المرء نحو أحدهما، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر!.. ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيد المارشال. كان حضوره المتواصل في البلاط الملكي، والواجبات التي يتطلبها ذلك، ورحلات الصيد المتتابعة، والإرهاق الذي كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التي يتطلبها منصبه وإذا لم يكن ثمة بد من أن توزع رتبه على الغير، وأن ينطفئ بريق اسمه بعد موته -لعدم وجود وريث له- فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يستمر في حياة عملية مرهقة، كانت الغاية الرئيسية منها هي أن يستبقي لأبنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل!

وفي أحد الأيام، كنا نحن الثلاثة معا، ولا غريب بيننا، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب واجباته في البلاط، بروح الرجل الذي ثبطت المصائب عزيمته. فجرؤت على أن أحدثه عن التقاعد، وأزجيت إليه النصيحة التي قدمها "سينياس" إلى "بيروس"(١). فتنهد ولم يجب برأي قاطع. ولكن السيدة "دي لوكسمبورج" راحت -في أول لحظة رأتني فيها على حدة- تلومني في عنف على نصيحتي التي أزعجتها.. على ما بدا لي. وأضافت إلى ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بعدالتها، ولم تلبث أن حولتني عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع.. تلك هي أن اعتياد العيش في البلاط الملكي طويلا، أصبح ضرورة لا غنى عنها. بل إنه كان -حتى في تلك الظروف- ملهاة تصرف بال السيد "دي لوكسمبورج" عن همومه، وأن اعتزال البلاط -الذي نصحته به- لن يكون مبعث راحة واستجمام له، بقدر ما يكون إقصاء ونفيا!.. ولن يلبث الخمول، والملل، والحزن أن يضعا لحياته نهاية!.. ومع أنها رأت ولابد أنها قد أقنعتني، ومع أنها كانت تستطيع أن تركن إلى الوعد الذي قطعته لها، والذي ظللت أصونه، فقد لاح لي أنها لم تطمئن يوما من هذه الناحية. وإني لأذكر أن اختلائي بالسيد المارشال أصبح -منذ ذلك الحين- نادرا، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلها!

وفي الوقت الذي تعاونت فيه بلاهاتي ونحسي على الإساءة إلي لدى السيدة- لم يكن هناك من يشفع لي لديها، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها.. لا سيما الراهب "دي بوفلير" الذي أوتي أكثر قسط من الذكاء يتاح لشاب في سنه، والذي لم يكن يميل إلي البتة!.. ولم يقتصر أمره على أنه كان الوحيد -في حاشية السيدة المارشالة- الذي لم يكن يبدي أنفه احتفاء بي، على الإطلاق، بل إنني لاحظت -في كل زيارة يؤديها إلى "مونمورنسي"- أنني كنت أفقد شيئا من حظوتي لدى السيدة. على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدي إلى ذلك، دون أي تعمد من ناحيته.. فإن سخافاتي كانت تبدو معتمة، ثقيلة، إلى جانب لمحاته المتسمة بالجلال، وبسمو الروح. ولقد كانت زياراته لـ"مونمورنسي" نادرة، خلال العامين الأولين، وكنت بفضل تسامح السيدة المارشالة، قادرا على أن أحتفظ بمكانتي، ولكنه لم يكد يزداد انتظاما في زياراته، حتى وجدتني مقصيا عن هذه المكانة، دون ما أمل في استعادتها!

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوي تحت جناحه، وأن أتخذ الوضع الذي يحمله على مصادقتي، لولا أن حرج موقفي -الذي جعل من رضاه عني ضرورة لازمة لي- كان هو عين السبب الذي منعني من أن أكسب هذا الرضا وإذا كل ما رحت أبذل في هذا الصدد، يطيش فيؤدي إلى القضاء على ما

---

(١) كان "بيروس" ملكا على "ابيروس" بين سنتي ٣١٨ و٢٧٢ قبل الميلاد، وقد غزا "إيطاليا" قبل وفاته بثماني سنوات. ومع أنه هزم الرومان مرتين، إلا أنه تكبد خسائر جسيمة، وكتب عليه أن ينكسر في النهاية وأن يعود إلى بلاده اليونانية، أما "سينياس" فكان وزيره ومستشاره، وكان الملك يقول إنه بحكمته اكتسب من المدن مالم تكسبه إياها الجيوش. على أن الوزير كان يعارض جموح الملك في مطامعه، ولقد حاول أن يثنيه عن غزو "إيطاليا" بحديث سجله التاريخ مثالا للنصح البليغ. وهو الذي أشار إليه "روسو".

كان لي من حظوة لدى السيدة "المارشالة"، دون ان يجديني اي نفع في التقرب إليها!.. وكان في وسعه ان يوفق في كل شيء، بفضل ذكائه، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار في الداب، وميله إلى النزق واللهو، لم يمكناه من ان يكتسب سوى حذق غير مكتمل في كل عمل. ولقد أتيح له -على سبيل التعويض- أن يؤدي كثيرا من هذه الاعمال، فكان هذا -في حد ذاته- هو كل ما يلزمه لكي يلمع في المجتمع الراقي، الذي كان يصبو إلى التألق فيه!.. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة. وقد أبدى رغبة في أن يرسم لوحة للسيدة "دي لوكسمبورج"، فجاءت اللوحة بشعة، وقالت السيدة إنها لم تكن تشبهها في شيء، وقد كانت محقة تماما في ذلك. ولقد سألني الراهب الغادر رأيي، فإذا بي -كأي غبي كذاب- أزعم أن اللوحة كانت تشبهها. وكنت بذلك ارجو أن أتملق الراهب، ولكنني لم أتملق السيدة المارشالة، فسجلتها ضدي في قائمة الأخطاء، بينما راح الراهب يضحك مني، بعد أن نجحت خدعته!.. ولقد تعلمت -بفضل نتيجة هذه المحاولة، التي جاءت متأخرة، في الملق والمداهنة- الا اقدم مختارا على الرياء والتملق، بالرغم من منيرفا(١)!

❀❀❀❀❀

لقد كانت ميزتي التي فطرت عليها، هي أن اقول للناس حقائق مفيدة، -ولكنها جافة قاسية- في كثير من التحمس والشجاعة. وكان خليقا بي ان اظل على ذلك.. إنني لم اخلق قط لكي اطري -ولن اقول: اتملق- الغير. ولقد كان سوء توجيه الإطراء الذي حاولت أن أزجيه، اكثر إيذاء لي من اقسى لوم قدر لي أن أصدره. وإني لاذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته ان عواقبه لم تغير مجرى حياتي فحسب، بل إنها ربما أثرت على سمعتي كذلك، عبر الأجيال!

فلقد اعتاد السيد "دي شوازيل"(٢) أن يفد إلى القصر لتناول العشاء، في بعض الاحيان، خلال فترات إقامة السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" في "مونمورنسي". واقبل ذات يوم، وانا اغادر القصر. فدار الحديث عني، وروى له السيد "دي لوكسمبورج" قصتي في "البندقية" مع السيد "دي مونتيجي". فقال السيد "دي شوازيل": إنه كان من الخسارة حقا ان هجرت العمل الدبلوماسي، وإنني إذا رغبت في العودة إلى هذا العمل، فلن يجد ما يسره أكثر من ان يستخدمني. وابلغني السيد "دي لوكسمبورج" بالأمر، فتأثرت به أكثر مما ينبغي، إذ إنني لم اعتد أن القى من الوزراء أية مجاملة. وليس بوسعي ان أجزم بانني لم أكن على استعداد لان اجعل من نفسي احمق، مرة أخرى -بالرغم من قراراتي السابقة- لو ان صحتي كانت تتيح لي ان افكر في الأمر.

إن الطموح لم يعتد أن يتملكني، إلا في الفترات الموجزة التي كانت كل الشهوات الاخرى تفارقني خلالها. ولكن فترة واحدة من هذه الفترات، كانت كفيلة بان تذكي عواطفي مرة أخرى. ومن ثم فإن هذه النية الكريمة من السيد "دي شوازيل"، ملكت علي شعوري، ودعمت التقدير الذي كانت بعض اعماله الوزارية قد حملتني على ان اكنه له. فقد كان "حلف الأسرة" بالذات، يبدو -في نظري- دليلا على أن الرجل كان سياسيا من ساسة الصف الأول(٣).

---

(١) بالرغم من منيرفا": مثل اصطلح عليه، في الحديث عمن يصر على عمل لم يؤت موهبة تمكنه من إتقانه، وكان يطلق اصلا على الشاعر الذي يمارس النظم وإن لم يؤت ملكة الشعر. (٢) الدوق "اتيين فرانسوا دي شوازيل"، كان وزيرا للخارجية في عهد "لويس الخامس عشر"، وأبدى براعة في إصلاح النتائج السيئة التي ترتبت على حرب السنوات السبع. وتدين له فرنسا بكثير من الافضال العسكرية، والدبلوماسية. وقد عاش بين عامي ١٧١٩ و١٧٨٥. (٣) حلف الأسرة: معاهدة تحالف عسكري، ابرمت في سنة ١٧٦١، بين الاسرتين المالكتين في فرنسا وإسبانيا، وكانتا تنتسبان معا إلى آل بوربون.

وقد ازددت تقديرا له عندما قارنت اعماله باعمال من سبقوه في المنصب، دون ان استثني منهم السيدة "**دي بومبادور**" التي كنت أعتبرها بمثابة "رئيس للوزراء"!.. وعندما كان يشاع ان واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء، فاعتقد انني كنت ادعو بالنصر لفرنسا، عندما كنت ادعو بالنصر للسيد "**دي شوازيل**".

ذلك لانني كنت استشعر دائما نفورا من السيدة "**دي بومبادور**"، حتى عندما رايتها -قبل ان يرتفع نجمها- لدى السيدة "**ديلابوليبير**"، وكانت إذ ذاك ماتزال تحمل اسم السيدة "**ديتوال**". ومنذ ذلك الحين، احنقني منها صمتها إزاء موضوع "**ديدرو**" (١)، ومسلكها نحوي، سواء فيما يتعلق بتمثيليتي "**أعياد رامير**" (٢) أو "**عرائس الشعر اللطاف**" (٣) او اوبرا "**عراف القرية**" (٤) التي لم تعد علي باي دخل او نفع يتناسب مع نجاحها. ففي كل هذه المناسبات، كنت اجد السيدة "**دي بومبادور**" قليلة الحرص على ان ترضيني. على ان هذا لم يمنع الشيفالييه "**دي لورنزي**" من ان يقترح علي ان اؤلف شيئا في مديح هذه السيدة، في تلك الآونة، موحيا إلي بان هذا قد يجديني نفعا. ولقد اثار هذا الاقتراح استنكاري، لاسيما إذ رايت بجلاء انه لم يكن صادرا عنه شخصيا.. وقد ادركت تماما ان هذا الرجل، الذي لم يكن ذا قيمة -في حد ذاته- لم يكن ليفكر او يعمل قط، إلا بإيعاز من سواه. ولم اوت قط من القدرة ما يمكنني من كبح نفسي لكي اخفي عنه ازدرائي لاقتراحه.. او لكي اخفي عن اي امرئ آخر عدم ميلي إلى الحظوة الموعودة. ولقد ادركت هي ذلك، وإني لموقن من ذلك.. كل هذه الاعتبارات وحدت بين مصلحتي الذاتية، وميولي الطبيعية، في الادعيات التي كنت ارجو فيها النجاح للسيد "**دي شوازيل**".. وكنت قد شعرت -قبل ذلك- بتحبيذ لمقدراته ومواهبه، التي كانت كل ما اعرفه عنه.. كما إنني كنت مفعما بالعرفان لما ابداه نحوي من نوايا طيبة، جاهلا -في عزلتي- باذواقه ومسالكه في الحياة، ومن ثم فقد رحت انطلع إليه كأنه المنتقم للجمهور ولي!.. ولما كنت -في ذلك الحين- منصرفا إلى وضع الخطوط النهائية في مؤلفي "العقد الاجتماعي"، فإنني وضعت في فقرة واحدة رايي في الوزارات السابقة، وفي هذه الوزارة اوشكت ان تطغى عليها. ولقد اغفلت -في هذه المناسبة- اكثر مبادئي رسوخا في نفسي، ولم يخطر ببالي ان المرء إذا اراد ان يتحمس في المديح، وفي اللوم، في مقال واحد -دون ان يورد اسماء ما- فمن الواجب ان يقصر المديح على اولئك الذين يقصدهم به، باسلوب لا يجعل مجالا لاشد النفوس انانية، لان تسيء فهمه. ولقد كنت من الحماقة بحيث ظننتني في مامن من هذا، فلم يخطر ببالي قط ان من الممكن تاويل ما قصدت إليه. ولسوف يتجلى فيما بعد ما إذا كنت قد اصبت!

ومن مظاهر سوء طالعي، انني كنت دائما على اتصال ببعض الكاتبات من النساء. وقد خلت انني لن البث ان اتفادى ذلك، بعلاقاتي بسيدات الطبقة الراقية على الاقل. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن حظي ظل يلاحقني. ومع ان السيدة "**دي لوكسمبورج**" لم تتعرض قط لهذه النزوة -فيما كنت أعرف- إلا ان السيدة الكونتة "**دي بوفليير**" كانت مصابة بها. فقد كتبت مأساة -تمثيلية نثرية- قرئت في البداية، ثم اديرت على حاشية السيد الامير "**دي كونتي**" فقوبلت بإطراء. ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الإطراء، فشاءت ان تستشيرني انا الآخر، لتحظى بالثناء مني. وقد

---

(١) كان "ديدرو" قد سجن، وكتب "روسو" إلى السيدة: "دي بومبادور" كي تعمل على إطلاق سراحه. (٢) اوبرا كان "فولتير" قد وضع كلماتها، كما وضع "رامو" الحانها، ثم عهد الدوق "ريشيلو" إلى "روسو" بان يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما. (٣) اوبرا كان قد شرع في تاليفها في اول عهده بالإقامة في "باريس"، وعرضت في حفلة حضرها ريشيليو. (٤) اوبرا من تاليف "روسو"، عرضت على مسرح القصر الملكي بحضور الملك.

منحتها هذا الثناء، ولكن في عبارات معتدلة، بقدر ما كان المؤلف يستحق. وفوق ذلك، فقد رأيت أن من واجبي أن أطلعها على أن تمثيليتها -التي كانت بعنوان "العبد الكريم" - شديدة الشبه جدا بمسرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع، ولكنها ترجمت إلى الفرنسية، وكانت تحمل اسم "أوورونوكو". ولقد شكرت لي السيدة "دي بوفلير" رأيي، وأكدت لي لفورها أن لا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى. ولم أبح قط بهذه السرقة الأدبية لمخلوق من البشر سواها، وما صارحتها -هي- إلا أداء لواجب ألقيته على عاتقي. بيد أن هذا لم يصدني عن أن أكثر من التفكير -منذ ذلك الحين- في الطريقةالتي أدى بها "جيل بلا" واجبه نحو الأسقف الواعظ، وما ترتب على ذلك.(١).

*****

وإلى جانب الراهب "دي بوفلير" -الذي لم يحبني قط- والسيدة "دي بوفلير"، التي ارتكبت نحوها أخطاء لا تغتفرها امرأة، ولا كاتبة، فإن بقية أصدقاء السيدة "المارشالة" كانوا دائما قليلي الميل إلى أن يكونوا أصدقاء لي. وكان منهم السيد دي "هينو" رئيس البرلمان، الذي لم يعفه انضمامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم.. والسيدة "دوديفان"، والآنسة "دي ليسبيناس"، اللتان كانتا على صلة وثيقة بـ "فولتير"، وعلى صداقة حميمة بـ "دالمبير"، الذي انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه.. بكل شرف وصلاح طبعا، فيجب ألا يؤول هذا على أي محمل آخر!.. ولقد بدأت بشعور قوي نحو السيدة "دوديفان"، التي أثار ضياع بصرها إشفاقي. ولكن منهجها في المعيشة كان يناقض منهجي تماما، حتى إن ساعة استيقاظ أحدنا من النوم، كانت هي ساعة هجوع الآخر تقريبا.. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة، والأهمية التي كانت تضفيها -سواء بالحق أو بالباطل- على كل خلاف كان يظهر، والعنف الغاشم الذي كانت تطلق به تعليقاتها في لهجة خطابية، ومغالاتها في التعصب لكل شيء، أو ضد كل شيء -مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم في موضوع إلا بانفعال- وتحيزها الذي كان يفوق المعقول، وعنادها الذي لا يلين، وتحمسها غير الحكيم الذي كان يحملها عليه التعنت لآرائها المستوحاة من العاطفة.. كل هذه لم تلبث أن حولتني عن الاهتمام الذي كنت على استعداد لأن أوليها إياه!.. فأهملتها. ولقد لاحظت ذلك، فكان هذا كافيا لأن يثير سخطها، ومع أنني شعرت بمدى ما ينبغي أن يخشاه المرء من امرأة لها هذه الشخصية، إلا أنني كنت أوثر أن أعرض نفسي لسعار حقدها، على أن أعرضها لودها!

وكأنما لم يكف أن يكون لي أصدقاء قليلون في حاشية السيدة "دي لوكسمبورج"، فإذا لي أعداء في أسرتها.. ومع أن هؤلاء الأعداء انحصروا في واحد، إلا أنه كان -في الموقف الذي أصبحت أجد نفسي فيه- يعادل مائة. ومن المحقق أن هذا الشخص لم يكن أخاها، السيد الدوق "دي فيلروي"، الذي لم يكتف بأن زارني في داري، بل دعاني عدة مرات إلى ضيعة "فيلروي".. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب، فإنه أخذ هذا الجواب على محمل القبول، ودبر مع السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" رحلة تستغرق حوالي خمسة عشر يوما، كان علي أن أرافقهم فيها. وكانت التدابير التي تتطلبها صحتي، لا تسمح لي بأن أنتقل من داري دون ما تعرض للضرر، فرجوت السيد "دي لوكسمبورج" بأن يتكرم بالاعتذار عني. ويرى من جوابه "الملف "د" - رقم ٣" أنه أدى

---

(١) قصة "جيل بلا" من أكمل المؤلفات الخلقية، وقد وضعها "لوساج" في سنة ١٧١٥، وجعل بطلها يعيش مثالا للأخلاق، برغم ما كانت الحياة تطوح به إليه من الحدثان. والحادث الذي أشار إليه "روسو" دار بين "جيل بلا" و"أسقف غرناطة"، وقد رسم فيه "لوساج" صورة رائعة للكتاب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة، ولكنهم لا يقرون لها فيما بينهم وبين أنفسهم!

ذلك ابدع أداء ممكن، ولم يبد لي السيد الدوق "دي فيلروي" عطفا يقل عما عهدت منه. ولكن ابن أخيه، ووريثه -المركيز "دي فيلروي" الشاب- لم يشاطر ما شرفني به من عواطف كريمة.. واعترف انني -بدوري- لم أوله ما كنت أولي عمه من احترام. وكانت مظاهره المتعجرفة الفاسدة تجعله -في نظري- لا يطاق فإذا فتوري نحوه لا يجلب علي سوى بغضائه.

وفي ذات مساء، ذهب إلى درجة أن سبني على المائدة، فاسأت تلقي الإهانة، لانني غبي، ولست حاضر البديهة، بل إن الغضب يسلبني القدر الذي أوتيته من الذكاء، بدلا من أن يرهفه ويشحذه. وكان لدي كلب تلقيته هدية -وهو بعد صغير- عقب وصولي إلى "ليرميتاج" مباشرة، واطلقت عليه اسم "دوق". ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلا، إلا أنه كان من سلالة نادرة، وقد جعلته صديقي وصاحبي، وكان -يقينا- أكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين استحلوه لانفسهم، فلم يلبث أن غدا محبوبا في قصر "مونمورنسي" بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة، وبفضل تعلق كل منا بالآخر، بيد أنني في لحظة من لحظات الضعف الأحمق، غيرت اسمه إلى "تركي"، وكأنما لم تكن هناك مئات من الكلاب تدعى "مركيز"، دون أن يشعر أي "مركيز" بإهانة في ذلك. ولقد راح المركيز "دي فيلروي" -الذي علم بهذا التغيير في الاسم- يلح علي، حتى اضطرني إلى أن أروي ما فعلت، في حضور القوم.. ولم تكن الإهانة التي نشأت عن اسم "دوق" -في القصة- ممثلة في إطلاقه على كلب، وإنما في انني لم ألبث أن حرمته منه. وكان أسوأ ما في الأمر، هو أن كثيرا من الادواق(١) كانوا حضورا، وكان السيد "دي لوكسمبورج" دوقا، وكذلك كان ابنه. وكان المركيز "دي فيلروي" مرشحا لأن يصبح دوقا -وإنه لكذلك الآن- فراح يلهو في قسوة بالحرج الذي دفعني إليه، وبالأثر الذي أحدثه. ولقد تأكدت -في اليوم التالي- بأن عمته قد أنبته في عنف على ذلك. ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التقريع كفيلا بأن يصلح علاقاتي به كثيرا، لو أننا افترضناه صادقا!

ولم يكن لي من مدافع ضد هذا كله -سواء في قصر "لوكسمبورج" أو في القلعة- سوى الشيفالييه "دي لورنزي". الذي كان يجاهر بأنه صديقي. ولكنه كان مايزال صديقا لـ"دالمبير"، أكثر مما كان لي، فقد راح -تحت رعايته- يلقى حظوة لدى النساء، بزعم أنه عالم هندسي كبير. وكان إلى جانب ذلك، المدلل صاحب الحظوة -أو بالأحرى القط الوادع- للسيدة الكونتة "دي بوفلير" التي كانت هي الأخرى صديقة حميمة لـ"دالمبير".. فما كان للشيفالييه "دي لورنزي" من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر، إلا بقربهما. وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة "دي لوكسمبورج" يبدون وكأنهم يعملون معا على إيذائي في رأيها، في الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقي، وتستبقي لي رضاء السيدة. ومع ذلك فإنها -إلى جانب تكرمها بأن تتعهد كتاب "إميل"- أبدت لي دليلا جديدا على كرمها وعطفها، مما حملني على أن أعتقد بأنها كانت ماتزال تحتفظ لي -بل وستظل دائما تحتفظ لي- بالصداقة التي كثيرا ما وعدتني بأن تؤثرني بها إلى نهاية عمري، حتى وإن كانت قد بدأت تسأمني!

وما إن خطر لي أن بوسعي أن أطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها، حتى شرعت أسري عن فؤادي، بأن أعترف لها بكل أخطائي نحوها. إذ كان مبدئي الوطيد، يحملني على أن أبين نفسي لأصدقائي على حقيقتها، لا أسوأ ولا أطيب. فاطلعتها على علاقاتي بـ"تيريز"، وبنتائجها جميعا، دون أن أغفل الطريقة التي تخلصت بها من أطفالي. وتلقت اعترافاتي في تلطف، بل في تلطف بالغ،

(١) يفضل المترجم أن يجمع "دوق" على "أدواق"، تمييزا له عن "دوقات"، وهي جمع "دوقة".

واعفتني من اللوم الذي كنت استحقه.. وكان أكثر ما اثر في نفسي -بوجه خاص- ذلك الكرم الذي اغدقته على "تيريز"، فكانت تمنحها هدايا صغيرة، وتستدعيها، وتشجعها على ان تزورها، وتتلقاها بكثير من الحنان واللطف.. وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع. ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت اشاطرها إياهما يقينا.. بل إن الكرم الذي كان السيد والسيدة دي "لوكسمبورج" يغمراني به خلالها، أكثر تأثيرا في نفسي من ذلك الذي كانا يظهرانه نحوي مباشرة.

❁❁❁❁❁

ظلت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة، ولكن السيدة "المارشالة" لم تلبث -في النهاية- ان امعنت في تفضلها، فأعربت عن رغبتها في ان تسترد أطفالي وتكفلهم(١). وكانت قد عرفت أنني قد وضعت رمزا في ثياب الطفل الأكبر، فسألتني النسخة الثانية لهذا الرمز، فقدمتها إليها. واستخدمت في هذا البحث وصيفها الخاص وموضع ثقتها "لاروش"، الذي قام بتحريات لم تؤد إلى طائل، فلم يتمكن من العثور على شيء، بالرغم من أنه لم يكن قد انقضى على إيداع الطفل أكثر من اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة، ولو ان سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة، أو لو ان التحريات كانت دقيقة، لما عز العثور على الرمز. ومهما يكن من الأمر، فإنني كنت أقل استياء لهذا الفشل، مما كان ينبغي علي لو انني كنت قد تتبعت آثار الطفل منذ مولده. ولو ان طفلا قدم إلي -على هدي البيانات التي قدمتها- على أنه ابني، لكان الشك فيما إذا كان هو ابني حقا، أو انه ابدل بطفل آخر، خليقا بان يبعث هواجس تضني فؤادي، ولما نعمت بالإحساس الطبيعي الصادق، في أكمل آيات سحره.. فلابد -لاستبقاء هذا الشعور وسحره- من توفر الألفة والاعتياد منذ مولد الطفل، على الأقل، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد، يوهن شعور الأبوة والأمومة، ولا يلبث ان يقضي عليه تماما في النهاية. فلا سبيل هناك البتة إلى ان يحظى طفل كفلته مربية، بحب يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء.. وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التي ترتبت على أخطائي، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها!

وقد يكون من المفيد أن نلاحظ أن "لاروش" هذا، بالذات، قد تعرف -عن طريق "تيريز"- بالسيدة "لوفاسير"، التي ظل "جريم" يكفلها في "دويي"، على مقربة من "لاشيفريت"، وعلى مسافة جد قصيرة من "مونمورنسي". فلما غادرت هذه المنطقة، استعنت بـ"لاروش" في مواصلة إرسال النقود التي لم أكف يوما عن إمدادها بها. واعتقد أنه كثيرا ما كان يحمل إليها هدايا من السيدة "المارشالة"، ومن ثم فإنها لم تكن تستحق أي عطف أو رثاء، برغم انها ظلت دائمة الشكوى. أما "جريم"، فإنني طبعت على الا احب الكلام عمن أرى أن من واجبي أن أكرههم، ومن ثم فإنني لم أتحدث عنه إطلاقا إلى السيدة دي "لوكسمبورج"، اللهم إلا في الحالات التي كنت اضطر فيها إلى ذلك اضطرارا. على انها ذكرت اسمه مرارا، دون ان تنبئني بما كان من رأيها فيه، بل ودون أن تدعني أستشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها، أو لم يكن. ولما كان التحفظ من أولئك الذين احبهم، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معي، أمرا لا يلائم مزاجي -لا سيما حين يكون في أمور تخصهم- لذلك فإنني كثيرا ما فكرت، منذ ذلك الحين، في امر هذا التحفظ الذي ابدته السيدة لي.. على أن هذا التفكير لم يكن يراودني، إلا عندما تجعله الأحداث امرا طبيعيا!

---

(١) كان "روسو" قد أنجب خمسة من "تيريز" سفاحا: وأودعهم مع اللقطاء.

وإذ مكثت فترة طويلة، دون ان اسمع اي حديث عن "إميل" -بعد ان وكلت امر الكتاب إلى السيدة دي "لوكسمبورج" - علمت في النهاية، ان الصفقة قد ابرمت في "باريس"، مع الناشر "دوشين"، ثم ابرمت بوساطته مع "نياولم" في "امستردام". وقد ارسلت السيدة دي "لوكسمبورج" إلي نسختي العقدين -مع "دوشين"- كي أوقعهما. وتبينت انهما كتبتا بنفس الخط الذي كانت تكتب به رسائل السيد دي "ماليزيرب"، إذ إنه لم يكن يكتبها بيده.

وحملني تاكدي من ان الاتفاق قد عقد تحت بصر هذا السيد وبموافقته، إلى ان اوقع وانا مطمئن. وإذ ذاك اعطاني "دوشين" عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك -هي نصف الحساب- ومائة او مائتي نسخة من الكتاب المطبوع، على ما اظن. وما إن وقعت نسختي العقد حتى ارسلتهما إلى السيدة دي "لوكسمبورج" -وفقا لرغبتها- فاعطت إحداهما إلى "دوشين"، واستبقت الاخرى، بدلا من ان ترسلها لي، فلم ارها بعد ذلك!

ومع ان تعرفي إلى السيد والسيدة دي "لوكسمبورج" ادخل شيئا من التعديل على شروعي في الاعتزال، إلا انه لم يصرفني تماما عن هذه الخطة، بل إنني ظللت اشعر -حتى في اوج حظوتي لدى السيدة "المارشالة"- بانني ما كنت لاحتمل، او اطيق الاشخاص المحيطين بالسيد "المارشال" وبها، لولا صدق تعلقي بهما. وكانت كل حيرتي تتمثل في محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين، نوع الحياة الاكثر ملاءمة لذوقي واقل إيذاء لصحتي. فقد كان الإرهاق المستمر، والعشاء المتاخر يجعلان صحتي غير مستقرة على حال، برغم كل العناية التي كانت تبذل لتجنب تعريضي لاي ضرر. إذ كان السيد "المارشـــال" وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية، شانهما باية ناحية اخرى. ففي كل مساء -مثلا- لم يكن السيد "المارشال" ليغفل ان يصحبني بعد العشاء، شئت او لم اشا، لاحذو حذوه في الإيواء إلى الفراش مبكرا. ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكبتي بامد وجيز، ولسبب لم ادر به!

بل إنني قبل ان المح فتور السيدة "المارشالة"، رغبت في ان احقق مشروعي القديم، حتى لا اعرض نفسي لهذا الفتور، ولكن الوسائل اعوزتني لهذا التحقيق، فكنت مضطرا إلى ان انتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب "إميل".. وفي خلال هذا الانتظار، وضعت الخطوط الاخيرة في كتاب "العقد الاجتماعي"، ثم ارسلته إلى "ريي"، محددا ثمن المخطوط بالف فرنك، فاعطاني هذا المبلغ. وربما كان من المستحسن الا اغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور. فلقد ارسلته في غلاف محكم الاختام إلى "ديفوازان"، وكان كاهنا من بلاد "الفود"(١)، وقسا تابعا لسفارة "هولندا"، وقد اعتاد ان يفد احيانا لزيارتي. فتكفل بحمل المخطوط إلى "ريي" الذي كان على اتصال به. ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق، فكان من الصغر بحيث إنه لم يملا جيبه. ومع ذلك، فقد حدث -بينما كان يجتاز الحدود- ان وقعت الحزمة، بطريقة لا ادريها، في ايدي موظفي الجمارك، الذين فضوها وفحصوها، ثم ردوها إليه في الحال، عندما طالب بها باسم السفير. وقد اتاح له هذا الحادث فرصة الاطلاع على المخطوط، كما انباني في سذاجة!.. ولقد اطنب -في الوقت ذاته- في إطراء المؤلف، دون ما كلمة لوم او انتقاد، محتفظا لنفسه -بلا ريب- بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قدر للكتاب ان يظهر!.. ولقد استخلص المخطوط وارسله إلى "ريي". هذه -في الواقع- هي القصة التي اوردها في الرسالة التي انباني فيها بالامر، وهذا كل ما قدر لي ان اعرفه عن الواقعة.

وإلى جانب هذين الكتابين - "إميل" و"العقد الاجتماعي"، -وكذلك "الموسوعة الموسيقية"

---

(١) بلاد "الفود": المقاطعات السويسرية التي يتكلم اهلها الفرنسية.

التي كنت اعمل فيها من وقت إلى آخر، كانت لدي مؤلفات اخرى اقل اهمية، وكلها معدة للنشر، فاعتزمت ان انشرها متفرقة، او مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتي، إذا قدر لي ان اصدر واحدة. وكان اهم هذه المؤلفات– التي لايزال اغلبها مخطوطات كتبها "روبيرو" – "رسالة في منشأ اللغات"، كنت قد قرأتها على السيد "دي ماليزيرب" و"الشيفالييه" "لورنزي" الذي استحسنها. ولقد حسبت ما تدره علي هذه المؤلفات جميعا –بعد تغطية كافة النفقات– بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنكات، على الأقل.. وهو مبلغ قررت ان استثمره ليدر ريعا مدى الحياة، لصالحي ولصالح "تيريز". على ان نذهب بعد ذلك –كما ذكرت لها– لنقيم معا في اعماق احد الأقاليم الريفية، حيث لا ازعج الراي العام بنفسي، ولا اشغل نفسي بشيء اللهم إلا ان اختم ايامي في سلام، مواصلا عمل الخير قدر وسعي، في الوسط المحيط بي.. ومستأنفا كتابة الذكريات التي كنت افكر فيها، على مهل!

هكذا كان المشروع الذي يسر لي تحقيقه كرم "ريبي".. هذا الكرم الذي ينبغي الا امر به مر الصامتين. فإن هذا الناشر، الذي سمعت عنه الكثير من السوء، في "باريس"، كان الوحيد –بين كل اولئك الذين كانت لي بهم علاقات– الذي كنت اجد منه ما يرضيني دائما(١). ومن المحقق اننا كنا نختلف احيانا بشأن نشر كتبي، إذ إنه كان متلكئا، بينما كنت انا متعجلا. ولكنني كنت اجده جد امين، ودقيق في المسائل المادية والإجراءات التي تتعلق بها، بالرغم من انني لم اعقد معه قط اتفاقا رسميا. وهو –كذلك– الوحيد الذي اقر صراحة بانه افاد من معاملاته معي، وكثيرا، ما انبأني بانه مدين لي بثروته، وعرض علي أن يشركني فيها. ولما كان عاجزا عن ان يطلعني مباشرة على عرفانه، فقد رغب في أن يشهدني عليه بما يبديه لخليلتي، فرصد لها معاشا سنويا قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها، واثبت في عقد التسجيل أن هذا المبلغ كان عرفانا منه بالفوائد التي اتحتها له. لقد سوى هذه المسألة معي في غير ضجة، ولا إعلان، ولا من، ولو لم اكن انا أول من تحدث عنها إلى الناس اجمعين، لما علم احد عنها شيئا!.. فلقد تاثرت بهذا الإجراء، إلى درجة أنني منذ ذاك الحين اصبحت مرتبطا بـ"ريبي" بود صادق. ولقد رغب –بعد ذلك بوقت وجيز– في أن أكون ابا روحيا – "أشبينا" – لاحد اطفاله، فوافقت. وكان من دواعي أساي، أنني –في الحال التي انحدرت إليها– كنت محروما من كل فرصة تمكنني من ان اجعل وفائي ذا نفع لابنتي الروحية ولأهلها. ترى كيف تسنى لي –وأنا الممتن إلى هذه الدرجة لما أبداه هذا الناشر من كرم متواضع– ان اكون اقل امتنانا للعواطف الصارخة، التي كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملئون الكون بالطنطنة بالخير الذي يقولون: إنهم رغبوا في إسدائه إلي، والذي لم أشعر به البتة؟.. افكان الذنب في ذلك ذنبهم، أم تراه كان ذنبي؟.. افكان الأمر مجرد زهو باطل منهم، أم انه كان جحودا مني؟.. الا زن الأمر –أيها القارئ العاقل– واحكم.. اما انا، فسوف الوذ بالصمت!

ولقد كان هذا المعاش موردا كبيرا لـ"تيريز"، وعزاء عظيما لي. وفيما عدا هذا العزاء، كنت أبعد من ان اطمع في ان احصل منه –ولا من جميع الهدايا التي كانت تقدم إليها– اي نفع مباشر لي شخصيا. فكانت هي المتصرفة الوحيدة في الجميع، على الدوام، وعندما كنت احتفظ لها بمالها، كنت اقدم لها عنه حسابا أمينا، دون ان اضع فلسا واحدا منه في نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدر لها ان تكون اكثر مني ثروة. وكنت اقول لها: "إن مالي لنا معا، أما مالك فإنه لك وحدك!". وما

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "عندما كتبت هذا، كنت بعيدا عن ان اتصوره، او اتبين او احدس اعمال الغش التي اكتشفت بعد حدوثها في طبع مؤلفاتي والتي اضطر إلى الاعتراف بها".

كففت قط عن ان اتبع معها هذا المبدأ الذي كثيرا ما كنت اردده على مسمعها. اما أولئك الذين اوتوا من الخسة ما اباح لهم أن يتهموني بانني كنت أتقبل بيديها، ما كنت ارفضه بيدي، فليسوا يحكمون على قلبي إلا بما كانت عليه قلوبهم -دون شك- وإنهم ليسيؤون فهمي كل الإساءة. ولقد كنت على استعداد لان اشاطرها -عن طيب نفس- الخبز الذي تكسبه بعرقها، ولكني ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه إحسانا!.. وإني لا لجأ إلى شهادتها في هذه المسألة، سواء الآن ام فيما بعد، عندما يقدر لها ان تعيش بعدي، وفقا لسنن الطبيعة! على انها -لسوء الحظ- قليلة الإلمام بالشؤون الاقتصادية، من كافة الاعتبارات، قليلة الحرص على المال، مسرفة.. لا عن غرور أو نهم، وإنما عن إهمال فذ، عجيب!.. وليس في هذه الدنيا من أوتي الكمال، فإذا لم يكن ثمة بد من ان يكون لصفاتها الرائعة، ما يقابلها في كفة النقص، فإنني اوثر أن تكون لها عيوب، على ان تكون لها رذائل.. وإن كانت هذه العيوب أكثر إساءة إلينا معا من الرذائل، في بعض الأحيان!.. إن الجهود التي بذلتها من اجلها -كما فعلت من قبل، من أجل "ماما" -كي أجمع لها بعض المدخرات التي تصبح يوما موردا لعيشها، تفوق كل تصور.. بيد انها كانت دائما جهودا مضيعة. فإن ايا منهما -سواء هي او "ماما"- لم تحاول يوما أن تعمل لمصلحتها، فكان كل شيء لا يلبث -برغم كل جهودي- ان يضيع بمجرد أن يأتي!.. ومع البساطة التي كانت "تيريز" تنتهجها، فإن المعاش الذي رصده لها "ريي" لم يكن قط كافيا لحاجاتها، كما أنني لم أكن أستبقي شيئا من دخلي في كل عام. فكلانا لم يخلق ليصبح غنيا، في اي يوم من الأيام، ولست أعتبر هذا من مساوئ حظنا، إطلاقا!

*****

وطبع "العقد الاجتماعي" دون ما كثير إرجاء، فكان على النقيض من "إميل" الذي كنت مضطرا إلى انتظار نشره، قبل ان أنفذ مشروع اعتكافي. وكان "دوشين" يبعث إلي -من وقت إلى آخر- بنماذج من الحروف لاختار منها.. وكلما اخترت، أرسل لي نماذج اخرى غيرها، بدلا من ان يشرع في الطبع، فلما استقر رأينا في النهاية على الشكل وحجم الحروف، وبعد أن أرسل لي عدة صفحات مطبوعة، ادخلت عليها بعض تعديلات طفيفة، أعاد الطبع من جديد.. فوجدنا أننا -بعد ستة أشهر- أقل تقدما مما كنا في أول يوم. وبينما كانت هذه التجارب تجري، اكتشفت ان الكتاب كان يطبع في "فرنسا"، كما كان يطبع في "هولندا"، طبعتين مستقلتين!.. فما الذي كنت أملك ان افعله؟.. إنني لم أعد مالك مخطوط كتابي. وكنت بعيدا كل البعد عن ان تكون لي اية يد في الطبعة الفرنسية، بل إنني كنت دائما اعارض في إصدارها، ولكن.. لما كان طبعها جاريا على قدم وساق، بالرغم مني، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى، فإنني وجدت من المستحسن أن ألقي نظرة على التجارب "البروفات"، حتى لا يحرف كتابي أو يشوه. ثم إن المؤلف كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات، فهو الذي كان يوجه المشروع -بطريقة ما- وكثيرا ما كتب إلي، بل إنه جاء لزيارتي بصددها في مناسبة معينة، سأتكلم عنها حالا!

وبينما كان "دوشين" يتقدم بخطى سلحفائية، كان "نياولم" -الذي تعمد أن يعرفه- يتقدم بخطى أكثر بطئا، إذ إن الصفحات لم تكن ترسل إليه بالانتظام الذي كانت تطبع به. وقد خامره الظن في انه لاحظ سوء نية من جانب "دوشين"، أعني "دي جاي" الذي كان يمثله. وإذ رأى أن الاتفاق لم يكن ينفذ، كتب إلي خطابات إثر خطابات، مليئة بالشكايات والتظلمات، التي كنت اقل مقدرة

على علاجها مني على علاج المشكلات التي كانت تتعلق بمصلحتي. ولقد كان صديقه "جيران" ـالذي يكثر جدا من زياراتي في ذلك الحين- لا يفتأ يتحدث إلي عن هذا الكتاب، ولكن في كثير من التحفظ المسرف.. كان يعرف، ولا يعرف، ان الكتاب كان يطبع في "فرنسا".. وكان يعرف، ولا يعرف، ان الرقيب كان مهتما به بنفسه.. وكان يشفق علي من الحرج الذي سببه لي هذا الكتاب، بينما كان -في الوقت ذاته- يتهمني بالخرق، دون ان ينبئني قط بما هناك من خرق.. وكان يراوغ ويداور ويماري دون انقطاع.. كان يبدو وكانه يتكلم ليستدرجني إلى الكلام. وكانت طمانينتي -خلال تلك الفترة- مكتملة إلى درجة انني كنت اضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التي كان ينتهجها في هذه المسالة، واعتبرها عادة نشات عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية. وكنت متاكدا من ان كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كما ينبغي لها ان تكون، ومقتنعا كل الاقتناع بان الكتاب لم يحز رضاء ورعاية الرقيب فحسب، وإنما كان يستحق رضاء الوزير نفسه، وقد ظفر به، ومن ثم فقد رحت اهنئ نفسي على حسن تصرفي، واضحك من ضعف قلوب اصدقائي، الذين كانوا يبدون القلق من اجلي. ولقد كان "ديكلو" من هؤلاء القلقين، واعترف ان ثقتي باستقامته وحصافته كانت خليقة بان تنذرني بالخطر، لو انني كنت اقل اطمئنانا إلى فائدة مؤلفي، وإلى شرف من كانوا يرعونه. وقد زارني، موفدا من السيد "بساي"، اثناء طبع "إميل"، فحدثني عنه. وقرات عليه إعلان اسقف "سافوا" لإيمانه، فانصت في إعجاب بالغ، وفي اغتباط عظيم، على مالاح لي. فلما فرغت من القراءة، قال لي: "عجبا، ايها المواطن!.. افهذا جزء من كتاب يطبع في "باريس"؟". فقلت له: "اجل.. وقد تقرر طبعه في "اللوفر" بامر من الملك". فقال لي: "إنني مقتنع بذلك، ولكن.. هل لك في ان ترضيني بالا تذكر لاي امرئ انك قرات علي هذا الجزء؟!".. وكان هذا الاسلوب الشاذ في التعبير عما بنفسه، خليقا بان يدهشني، ولكنه لم يرهبني. فقد كنت اعرف ان "ديكلو" كان كثير الالتقاء بالسيد "دي ماليزيرب"، ومن ثم فقد شق علي ان ادرك كيف كان رايه يختلف كثيرا عن راي ذاك السيد، في موضوع واحد.

*****

ولقد اقمت في "مونمورنسي" فوق اربع سنوات، دون ان استمتع بصحة طيبة ليوم واحد. فبالرغم من ان الهواء كان بديعا، إلا ان المياه كانت رديئة، ومن المحتمل كل الاحتمال ان يكون هذا من الاسباب التي ساهمت في استفحال عللي المعهودة. وفي أواخر خريف سنة ١٧٦١، سقطت مريضا، وقضيت الشتاء كله في أوجاع لم تكن تهن تقريبا. وكان سقمي البدني يزداد وطاة بالف هم وقلق، مما يضاعف إحساسي به وتوجعي له. فلقد ظللت تراودني -فترة من الزمن- وساوس خفية، كئيبة، لم أكن أدري لها ماتي. وكنت اتلقى رسائل جد عجيبة، خالية مما ينم عن مرسليها.. بل ورسائل كانت تحمل توقيعات كاتبيها، ولا تقل عنها غرابة. وكانت منها رسالة من مستشار بالبرلمان، في "باريس"، لم يكن راضيا عن الوضع الراهن، ولا مطمئنا إلى نتائجه، فشاء ان يستشيرني في ان اختار ملاذا في "جنيف" او في "سويسرا" يستطيع أن ياوي إليه مع أسرته.. ورسالة أخرى من السيد دي "...."، رئيس الدورة النيابية في برلمان "..." الذي سالني ان اوجه مذكرة أستنهض بها اعضاء هذا البرلمان، الذي كان -في ذلك الوقت- على غير وئام مع البلاط الملكي وعرض -في الوقت ذاته- ان يمدني بكل الوثائق والمواد التي احتاج إليها في هذا الصدد.

وعندما أكون معذبا بالألم، أغدو فريسة سهلة للانفعال. وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات، وقد أظهرت حالي في إجاباتي، إذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ما سئلته، ويقينا أنني لا ألوم نفسي على هذا الرفض، إذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فخاخ أعدها أعدائي(١)، وقد كان ما سئلته مخالفا للمبادئ التي كنت ماأزال أقل ميلا إلى التحول عنها، مني في أي وقت آخر. ولكني رفضت بفظاظة، في حين أنني كنت أملك أن أرفض في أدب. وقد كنت في هذا مخطئا.

ولسوف توجد الرسالتان اللتان ذكرتهما، بين أوراقي. ولم يدهشني خطاب المستشار البتة، لأنني كنت أرى -مثله ومثل كثيرين غيره- أن تداعي الدستور كان ينذر "فرنسا" بخراب قريب. كانت الخسائر التي خلفتها حرب منكودة، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة(٢).. وكان الارتباك المالي الذي يجل على التصور.. والخلافات المستمرة في الهيئة التنفيذية التي كانت موزعة -حتى ذلك الحين- بين وزيرين أو ثلاثة، كل منهم في حرب مكشوفة مع الآخر، وثلاثتهم يسعون إلى توريط المملكة في مآزق، ليكيد كل منهم للآخر(٣).. والتذمر العام الذي ساد الشعب وكافة طبقات الدولة.. وتشبث امرأة عنيدة، درجت دائما على أن تضحي بمواهبها الذهنية -إذا كانت قد أوتيت مواهب ما- في سبيل ميولها ونزواتها، وكانت دائما ما تقصي القادرين عن مناصب الدولة، لكي تملأها بالمقربين إليها.. كانت كل هذه العوامل، تساهم في تبرير مخاوف المستشار، والجمهور، وأنا!

ولقد حملتني هذه الوساوس مرارا على أن أتساءل، عما إذا كان من الجدير بي أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لي خارج المملكة، قبل قيام الاضطرابات التي كان يبدو أنها تتهددها، ولكنني كنت -اطمئنانا إلى تفاهة شأني، وإلى مسلكي الوادع- أعتقد أن شيئا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلي، في العزلة التي اعتزمت أن أعيش فيها. ولم يكن يحزنني سوى أن السيد "دي لوكسمبورج"، انصرف -في هذه الظروف- إلى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بألا تجعله موضع رضا من حكومته ذاتها. وكنت أود لو أنه أعد لنفسه -في مثل هذه الحال- مخرجا، وتأهب لكل الطوارئ، إذا ما قدر للجهاز الضخم أن يتهدم.. الأمر الذي كان ثمة ما يبرر الخوف من حدوثه، تحت الظروف القائمة، وما يزال يبدو لي -في الوقت الحاضر- أنه لا مجال للشك في أنه لو لم تقع جميع أزمّة الحكم -في النهاية- في يد واحدة(٤)، لكانت الملكية الفرنسية الآن في النزع الأخير!

وبينما كانت حالي تزداد سوءا، أخذ طبع "إميل" يزداد بطئا، ثم أوقف تماما، في النهاية، دون أن أتمكن من معرفة السبب، ودون أن يتنازل "دي جاي" فيكتب لي، أو يرد على رسائلي. ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد، ولا عرفت شيئا مما كان يجري، إذ إن السيد "دي ماليزيرب" كان في الريف، في تلك الآونة. وما قدر لأية محنة -مهما تكن- أن تزعجني أو أن تربكني ما دمت أعرف كنهها ومبناها، ولكنني فطرت على التخوف من الظلمات، فأنا أكره وأرهب مظهرها الأسود.. إن الغموض يقلقني دائما، فهو شديد التناقض مع طبيعتي، التي تتسم بصراحة تكاد تبلغ التهور ومجافاة الحكمة. إن مرأى أفظع الهوام لا يفزعني إلا قليلا -فيما أحسب- ولكنني أذعر إذا ما لمحت في الليل شبحا تحت كساء أبيض!.. ومن ثم فقد شغل خيالي -إذ أذكاه هذا الصمت الطويل- برسم أشباح مرعبة لي. وكنت كلما تحمست لنشر آخر مؤلفاتي وأفضلها، وأمعنت في إضناء نفسي بحثا عما قد يكون السبب في تأخره. ولما كنت أمعن في التطرف -في كل شيء- فقد خيل إلي أنني ألمح

---

(١) أضاف "روسو" إلى هذا: "كنت أعرف -على سبيل المثال- أن رئيس برلمان "..."، كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف، وبعصبة دولباخ".

(٢) حرب السنوات السبع.(٣) كان وزير المالية ووزير الحربية في صراع مستمر، على نسق الصراع الذي كان دائرا بين البرلمان ورجال الدين.. وكان البلاط الملكي ذاته منقسما إلى فريقين، أحدهما يتزعمه دوق "دمحيون"، ويلتف حول ولي العهد، والآخر يتزعمه الكونت "دي سانفلي" الذي أصبح دوق "شوازيل" - ويلتف حول محظية الملك، مدام "دي بومبادور"! (٤) الدوق دي شوازيل.

وراء إيقاف طبع الكتاب، بوادر مصادرته!

على أنني لعجزي عن تصور السبب أو الطريقة، لهذه المصادرة، ظللت في أقسى ألوان الشك في الدنيا. ورحت أكتب الخطابات إثر الخطابات، إلى "جاي"، وإلى السيد "دي مالهزيرب"، وإلى السيدة "دي لوكسمبورج" دون أن تصلني الإجابات قط، أو أنها لم تكن تفد في الأوقات التي كنت أتوقعها، فاشتد اضطرابي، حتى لقد رحت أهذي. وسمعت -لسوء الحظ- في تلك الآونة، أن الأب "جريفيه" -وكان من الجيزويت- قد تحدث عن "إميل"، بل وسرد فقرات منه، فإذا خيالي يفض -كالبرق الخاطف- هذا الغموض المحير بأسره. ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور، كما لو أنها كانت قد كشفت لي.. فتمثلت أن "الجيزويت" قد هاجتهم لهجة الازدراء، التي تحدثت بها عن مدارسهم، فاستولوا على مؤلفي، وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره.. وأنهم قد علموا من صديقهم "جيران" بحالي الراهنة، فتوقعوا قرب موتي -الأمر الذي لم أكن، أنا نفسي، أرتاب فيه- ومن ثم فقد كانت غايتهم هي تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكي يخدم أغراضهم هم، بأن يعزوا إلي آراء تخالف آرائي تماما!

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التي توافدت على عقلي، والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء فأكسبتها مظهر الحقيقة.. بل راحت تثبت صدقها! وكنت أعرف أن "جيران" كان على ولاء تام للجيزويت، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التي عرضها علي من قبل، وأقنعت نفسي بأنه ما ألح علي بالاتفاق مع "نياولم" إلا بوازع منهم، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلفي، إلا عن طريق هذا الناشر، وأنهم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى طريقة لحمل "دوشين" على أن يوقف الطباعة، ولعلهم استطاعوا أيضا أن يستولوا على الأصل الخطي للكتاب، كي يعملوا على مهل في تحريفه، حتى يطلق موتي أخرية لهم في أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم. ولقد كنت أشعر دائما -وبالرغم من ملق الأب "بيرتييه"- أن "الجيزويت" لم يكنوا لي شيئا من الحب، على الإطلاق، لا لاشتراكي في جماعة الموسوعة أو "القاموس المحيط" فحسب، وإنما لأن آرائي -أيضا- كانت أشد عداء لمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائي، إذ إن من الممكن للتطرف الزندقي والتطرف الديني أن يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك، بل إن من الممكن أن يتحدا، كما فعلا في الصين، وكما يفعلان الآن في عدائهما لي. أما العقيدة القائمة على العقل والمبادئ الخلقية، والتي تلغي كل سلطان إنساني على الضمائر، فإنها لا تدع موردا يستغله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان!

ولقد كنت أعرف -كذلك- أن السيد المستشار(١) كان صديقا حميما للـ"جيزويت"، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلمهم المخطوط الذي تكفل بحمايته، تحت الشعور بالحرج أمام أبيه!.. بل لقد زين لي الوهم أن أرى أثر هذا التخلي منه عن المخطوط، في تلك التحرشات التي بدئ في توجيهها إلي، بصدد الجزءين الأولين من الكتاب، اللذين احتجزا، دون تجليد لبعض أمور تافهة.. في حين أن الجزءين الباقيين، كانا -كما هو غير مجهول- مفعمين بآراء عنيفة، مما كان يستدعي إعادة صوغهما بأكملهما، إذا كان الرقيب قد انتقدهما، كما فعل بسابقيهما. ثم إنني كنت أعرف -فوق هذا، كما أنباني به السيد "دي مالهزيرب" نفسه- أن الراهب "دي جراف"، الذي وكل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة، كان هو الآخر من أتباع "الجيزويت". وهكذا لم أكن أرى سوى "الجيزويت" في كل مكان، دون أن أفكر في أنهم كانوا على أعتاب إبادتهم، وأنهم كانوا جد منهمكين في الدفاع عن أنفسهم، فكان لديهم ما يشغلهم عن التآمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به

---

(١) المستشار "دي مالهزيرب"، والد رقيب المطبوعات.

أي شأن.

بل إنني لا أخطئ إذ أقول: "دون أن أفكر"، فالواقع أنني فكرت جيدا، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التي عني السيد "دي ماليزيرب" بأن يبديها لي، بمجرد أن فطن إلى الفكرة الواهمة التي تملكتني.

ولكنني بنزوة من تلك النزوات التي تتملك رجلا يحاول -من أعماق معزله- أن يجلو أسرار جسام الأمور، وهو لا يعرف عنها شيئا، لم أشأ قط أن أصدق أن "الجيزويت" كانوا في خطر، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم، لتخدير أعصاب خصومهم.

وكانت انتصاراتهم الماضية -التي لا سبيل إلى إنكارها- توحي إلي بفكرة رهيبة عن نفوذهم، حتى إنني رحت أنعى على البرلمان هوانه إزاءهم. وكنت أعرف أن السيد "دي شوازيل" قد درس على أيدي "الجيزويت"، وأن السيدة "دي بومبادور" لم تكن على علاقات سيئة معهم، وأن تحالفهم مع ذوي الحظوة والوزراء، كان يعتبر دائما ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك. وكان البلاط الملكي يبدو متباعدا عن الزج بنفسه في هذه الأمور.. ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع إذا تعرض يوما لأية هزة عنيفة، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه الهزة، فقد اتخذت من هذا الإعراض عن العمل من جانب البلاط، أساسا لثقة "الجيزويت" واطمئنانهم إلى الفوز.

وقصارى القول: إنني لم أكن أرى في كل شائعات تلك الفترة، سوى تعمية وشباك من جانب "الجيزويت"، ولما كنت مؤمنا بأنهم -في موقفهم الأمين- قد أوتوا الوقت الكافي لكي يعدوا عدتهم لكل شيء، فإنني لم أكن أرتاب قط في أنهم لن يلبثوا أن يسحقوا "الهانسيين"، والبرلمان. وأصحاب الموسوعة، وكل من لم ينصاعوا لربقتهم... وإنهم إذا أتاحوا لكتابي أن يظهر -في النهاية- فلن يكون ذلك إلا بعد أن يحولوه إلى سلاح، وأن يستغلوا اسمي في التغرير بقرائي.

ولقد كنت أشعر بأنني موشك على الموت، ومن ثم فإنني لا أكاد أدري، كيف أن هذا التهوس لم يقض علي!.. فشد ما جزعت لفكرة أن ذكراي قد تشوه بعد موتي، في أفضل كتبي وأجدرها بالمجد!.. أبدا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذي تولاني إذ ذاك، وأعتقد أنه لو كان مقدرا لي أن أموت إذ ذاك، لقضيت نحبي وأنا في يأس قاتل. بل إنني اليوم، وأنا أرى أسود وأبشع مؤامرة دبرت ضد ذكرى امرئ، تسير قدما نحو غايتها، أشعر بأنني سأموت أكثر طمأنينة، إذ أترك خلفي -في كتاباتي- شاهدا لن يلبث أن ينتصر -إن عاجلا أو آجلا- على مؤامرات البشر!

سنة ١٧٦٢

وكان السيد "دي ماليزيرب" هو شاهد انفعالي، ومستودع سري بشأنه، فبذل في سبيل التسرية عني جهودا تمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين. ولقد ساهمت السيدة دي "لوكسمبورج" في هذا العمل الطيب، وزارت "دوشين" عدة مرات، لكي تتبين مدى تقدم سير الطبعة. وأخيرا، استؤنفت الطباعة، وراحت تتقدم أسرع من ذي قبل، وما قدر لي قط أن أعرف سر توقفها من قبل.

ولقد تجشم السيد "دي ماليزيرب" عناء الحضور إلى "مونمورنسي" كي يهدئ من هواجسي، ووفق في ذلك، إذ إن ثقتي التامة باستقامته، تغلبت على تخبط فكري، فجعلت كل مجهود منه -ليعيد إلى ذهني اتزانه- مجهودا مثمرا. وكان من الطبيعي أن يجدني جد جدير بالرثاء، بعد كل

الذي شهده من شجوني وآلامي. ولقد عاودته فكرة التعنت الفلسفي التي كانت تحيط به، وتردد على سمعه باستمرار. فلقد قيل للملأ، عندما ذهبت للإقامة في "ليرميتاج" -كما ذكرت من قبل- إنني لن أطيق البقاء طويلا، فلما رأى المتقولون انني بقيت هناك، زعموا ان بقائي إنما كان بدافع من عنادي، وكبريائي، واستحيائي من ان أتراجع.... وإنني كنت في الحقيقة أعاني ضيقا قاتلا، وشقاء بالغا. ولقد صدق السيد "ماليزيرب" ذلك، وكتب إلي. فكان شعوري مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت اكن له كثيرا من التقدير، ومن ثم كتبت له اربع رسائل تباعا، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكي، ووصفت له بإخلاص ميولي، ونزعاتي، وشخصيتي، وكل ما يخالج فؤادي.. هذه الرسائل الاربع، التي كتبت دون تحضير ولا مسودات، وإنما بسرعة، وبجرة قلم، ودون ما مراجعة، قد تكون المؤلفات الوحيدة -في حياتي- التي كتبتها بسهولة.. والاعجب من هذا انني كتبتها وسط آلامي والتداعي المفرط الذي كنت اعانيه. وإذ كنت اشعر بان قواي كانت في اضمحلال، فقد تنهدت حسرة إذ فكرت في انني سأخلف ورائي -في اذهان الرجال الأشراف- مثل ذاك الراي الظالم عن نفسي، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التي رسمتها في الرسائل الاربع، ان اسد الفراغ الذي كان يجب ان تملاه المذكرات التي اعتزمت من قبل ان اكتبها!.. إن هذه الرسائل التي اعجب بها السيد "دي ماليزيرب"، والتي اطلع عليها اهل "باريس"، تعتبر -إلى حدما- ملخصا لهذا الذي اعرضه هنا بالتفصيل، ومن ثم فهي جديرة بان تصان. ولسوف توجد منها -بين أوراقي- نسخة نقلها برجاء مني، وارسلها إلي بعد ذلك بسنوات.

واصبح الشيء الوحيد الذي يكربني -منذ ذلك الحين- كلما فكرت، انني كنت موشكا على الموت، هو انني كنت محروما من اي أديب اركن إليه، واستطيع ان اضع بين يديه اوراقي، لكي يراجعها ويفرزها بعد وفاتي!.. وكنت منذ رحلتي إلى "جنيف"، قد اتصلت بـ"مولتو" برباط من المودة، فقد شغفت بهذا الشاب، وكنت اتمنى لو انه جاء ليغمض عيني عندما اموت. ولقد اطلعته على هذه الرغبة، واعتقد انه كان على استعداد لان يؤدي هذا الواجب الإنساني، وهو راض، لو ان شؤونه واسرته سمحت له بذلك. اما وقد حرمت من هذا العزاء، فقد رغبت في ان اهبه دليلا على ثقتي به -على الاقل- بان ارسلت إليه "إعلان اسقف سافوا إيمانه"، قبل النشر. ولقد سر بها، ولكنني لم اشتم في لهجة رده ما ينم عن انه كان يشاطرني الاطمئنان إلى الثقة التي اردت بعملي ان اشعره بها. فقد رغب في الحصول على بضع قطع ادبية لم يقدر لسواه أن يحرزها. ومن ثم ارسلت إليه: "رثاء الدوق دورليان عند وفاته"، وكنت قد كتبت هذا الرثاء للراهب "دارتي"، بيد انه لم يقدر له ان يلقيه، إذ عهد بمهمة رثاء الفقيد إلى سواه، على غير ما كان يتوقع!

وما إن استؤنف طبع "إميل"، حتى مضت العملية قدما وانتهت في هدوء، وقد لاحظت في هذه المرة ظاهرة عجيبة، فبعد الصفحات التي حذفت في قسوة من الجزءين الاولين، اجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض، ودون ان يتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر. وكنت ما ازال احتفظ ببعض التوجس الذي ينبغي الا اغفله هنا. فبعد ان كنت في خوف من "الجيزويت"، إذا بي في خوف من "اليانسيين" ومن الفلاسفة. إذ إنني كعدو لكل ما يسمى تحزبا، او تعصبا، او تعنتا، لم أكن أتوقع قط اي خير من أولئك الذين أتوا شيئا من ذلك.

وكان "الشرثاران" قد خلفا -قبل ذلك بزمن- مقرهما القديم، واستقر بهما المقام جد قريب مني، حتى لقد كان من الممكن ان يسمع في غرفتهما كل ما يقال في غرفتي او شرفتي، كما كان من

السهل جدا تسلق السياج القصير الذي كان يفصل حديقتهما عن شرفتي المغلقة الجوانب، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب، فاقمت فيها منضدة تكدست عليها "بروفات" وصفحات "إميل" و"العقد الاجتماعي". ولقد اعتدت ان اخيط هذه الأوراق بعضها إلى بعض، عندما ترسل إلي، وبهذا كنت احصل على نسخ من كتبي قبل ظهورها بوقت طويل. وكان غبائي وإهمالي وثقتي بالسيد "متي" (١) واطمئناني إلى الحديقة التي كانت تحيط بمسكني.. كل هذه كثيرا ما كانت تجعلني انسى إغلاق الشرفة في الليل، فكنت اجدها في الصباح مفتوحة.. وما كان هذا ليسبب لي اتفه شاغل، لولا ان خيل إلي انني لاحظت ان اوراقي لم تكن كما رتبتها. وإذ لاحظت هذا عدة مرات، اصبحت اكثر عناية بإغلاق شرفتي. وكان القفل رديئا، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة. وإذ ازددت انتباها، وجدت أن العبث باوراقي اصبح اكثر مما كان عندما كنت اترك الباب مفتوحا.

واخيرا، اختفى احد كتبي يوما وليلتين، وعجزت تماما عن أن اتبين ما جرى له، إلى أن كان صباح اليوم الثالث، إذ وجدته ثانية على المنضدة!.. ولم اشعر إذ ذاك -ولا شعرت يوما- باي ارتياب في السيد "متي"، ولا في ابن اخيه السيد "دومولان"، إذ كنت اعرف ان كلا منهما كان يحبني، ومن ثم فقد كنت اوليهما كل ثقة. وبدات اشعر باطمئناني إلى "الشرثارين" يتضاءل. وكنت اعرف ان لهما علاقة بـ"دالمبير" -برغم انهما كانا من "اليانسيين"- كما انهما كانا يقيمان معه في مسكن واحد في "باريس". وقد سبب لي هذا شيئا من عدم الارتياح، وجعلني اكثر حذرا. فنقلت أوراقي إلى مخدعي، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين، لا سيما وانني سمعت كذلك انهما عرضا -في عدة بيوت- الجزء الأول من "إميل"، الذي كنت من عدم الحكمة بحيث إنني أعرتهما إياه. ومع انهما ظلا يجاورانني في السكنى إلى أن غادرت المكان، إلا انني لم أتصل بهما قط منذ ذلك الحين!

*****

وسبق "العقد الاجتماعي" كتاب "إميل" إلى الظهور، بشهر او شهرين. وكان "ريي" -الذي اعتدت دائما ان احرم عليه تحريما باتا إدخال اي كتاب من كتبي إلى "فرنسا"- قد ارسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بان يدخل "العقد الاجتماعي" إلى "فرنسا"، عن طريق "روان"، حيث كان قد أرسله بحرا. ولم يتلق "ريي" ردا، فظلت طروده في "روان" عدة أشهر، ثم ردت إليه، بعد ان بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرت اصحاب المحاولة إلى ردها له. على ان الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من "امستردام"، تدوولت في غير ضجة تذكر. ولقد حدثني "موليون" -الذي كان قد سمع، بل وراى بعض هذه النسخ- عن الامر، في شيء من الغموض الذي ادهشني، وكان خليقا بان يثير قلقي -كذلك- لولا انني في تاكدي من انني اتبعت القانون في كافة الاعتبارات، ولم آت ما أؤاخذ نفسي عليه، رحت اطمئن نفسي مستندا إلى مبدئي العظيم. ولم يخالجني شك في ان السيد دي "شوازيل" -الذي كان قد ابدى ميلا طيبا نحوي، ورضاء عن المديح الذي دفعني تقديري إياه إلى ان أورده في هذا الكتاب- لن يتردد عن مؤازرتي، في هذه المناسبة، ضد النوايا السيئة التي تصدر عن السيدة "دي بومبادور"!

وكان من المؤكد أن بوسعي إذ ذاك ان اركن إلى افضال السيد دي "لوكسمبورج"، أكثر من ذي قبل، وأن اطمئن إلى تعضيده لي عند الضرورة. إذ إنه لم يبد لي يوما ما يفوق ما كان يبديه لي إذ ذاك من دلائل الود والصداقة. ومع أن حالتي الصحية المحزنة لم تكن تتيح لي ان اسعى إلى القصر

---

(١) صاحب "مون لوي"، الدار التي سكنها "روسو" في "مونمورنسي" بعد ان غادر "ليرميتاج".

-عندما قدم في رحلة عيد الفصح- إلا انه لم يكن يدع يوما يمر دون ان يزورني. وإذ راى ان آلامي لا تنقطع، اقنعني -في النهاية- بان اعرض نفسي على الاخ "كوم" (١). وارسل يبحث عنه، ثم احضره بنفسه، وأوتي الجلد على ان يبقى معي اثناء العملية التي كانت مؤلمة وطويلة، وهو امر نادر -وجدير بالتقدير- لدى نبيل عظيم الجاه مثله. على ان العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد انني لم اكن يوما قادرا على تحملها، حتى على يدي "موران" الذي حاولها عدة مرات، ولكنه باء بالفشل باستمرار. على ان الاخ "كوم" -الذي اوتي مهارة وخفة يد لاتضارعان- وفق في النهاية، إلى إنفاذ مسبر جد صغير، بعد ان سبب لي الما عظيما لاكثر من ساعتين، كنت خلالهما ابذل قصارى جهدي لاكتم صرخاتي، حتى لا امس الفؤاد الحساس الذي اوتيه المارشال الطيب!..
وخيل إلى الاخ "كوم" -بعد الفحص الاول- انه قد اهتدى إلى "حصوة كبيرة"، وانباني بذلك. بيد انه لم يستطع العثور عليها في الفحص الثاني. وبعد ان اجرى فحصا ثانيا، وثالثا، في عناية ودقة جعلتاني اشعر بالوقت يستطيل كل الطول، اعلن ان لا "حصوة" هناك البتة، ولكن "البروستاتا" كانت متحجرة، ومتضخمة إلى درجة غير عادية. ووجد ان المثانة كبيرة وفي حال جيدة، وانتهى بان ابدى لي انني ساعاني كثيرا، ولكنني ساعيش طويلا. وإذا كان قد قدر للنبوءة الثانية أن تكتمل، كما اكتملت الأولى، فإن آلامي لم تقترب بعد من نهايتها!

وهكذا انتهى بي الامر، بعد ان عولجت طيلة هذه السنين المتتابعة من علل لم تكن بي، إلى ان اعرف ان دائي لم يكن منه شفاء، وإن لم يكن مميتا، وانه خليق بان يظل ما ظللت انا على قيد الحياة.
ولم يعد خيالي -بعد ان كبحته هذه المعرفة- يصور لي وفاة اليمة قاسية، تتم وسط الاوجاع الناشئة عن "الحصوة". ومن ثم فقد كففت عن الخوف من ان تكون نهاية مسبر كسرت -منذ أمد طويل- في القناة البولية، قد غدت نواة تكونت حولها "حصوة". وإذ تحررت من شرور الوهم -التي كانت اقسى من اوجاع الحقيقة- رحت اتحمل هذه الحقيقة في جلد وصبر. وليس من شك في انني منذ ذلك الحين، اصبحت اقل توجعا من مرضي، من ذي قبل. وما تذكرت مرة انني كنت مدينا بهذه الراحة إلى السيد دي "لوكسمبورج"، دون ان تهتز مشاعري من جديد، تاثرا لذكراه!
وإذ عدت -بهذا- إلى الحياة، كما ينبغي ان يقال، اصبحت اكثر من ذي قبل انشغالا بإنجاز ما تبقى من مشروعي(٢). ولم اكن أنتظر -لهذا الإنجاز- سوى ظهور "إميل". وفكرت في "تورين" التي كنت قد زرتها من قبل، والتي راقت لي، نظرا للطف جوها واهلها.

"فالأرض الحنون، الخصبة، البهيجة
وأهلها يشبهونها في كل شيء"(٣)!

وكنت قد تحدثت عن مشروعي إلى السيد دي "لوكسمبورج"، فحاول أن يثنيني عنه. وعدت إلى ان اكلمه بصدده كامر استقر الراي عليه. وإذ ذاك اقترح عليّ قصر "ميرلو" -الذي كان يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من "باريس"- كملجا قد يناسبني، واعرب عن اغتباطه وزوجته بان يرياني

---

(١) الاخ "كوم"، هو "جان باسيلاك"، الذي عاش بين سنتي ١٧٠٣ و١٧٨١، وكان حجة في "الحصوة" وعلل المثانة والكلى. وكان راهبا.
(٢) مشروع اعتزال الادب والناس. (٣) بيت من الشعر اللاتيني للشاعر "تاسو".

استقر فيه. ولقد صادف الاقتراح هوى من نفسي، فلم أر فيه ما يضير. وكان لابد من رؤية المكان، قبل كل شيء، فاتفقنا على أن يرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلني إلى هناك في يوم محدد. ولكني شعرت -في ذلك اليوم- بوعكة شديدة، ومن ثم ارجأت الرحلة. ثم تكاثفت عدة عوائق بعد ذلك، على ان تحول بيني وبين القيام بها. وإذ قدر لي -فيما بعد- ان اسمع ان ضيعة "ميرلو" لم تكن من املاك السيد دي "لوكسمبورج"، وإنما كانت من املاك زوجته، فإنني لم اجد كثير عناء في ان اعزي نفسي لعدم ذهابي إلى هناك!

*****

وظهر "إميل" اخيرا، دون ان اسمع اي نبأ جديد عن حذف شيء آخر، او عن اية عقبات. وكان السيد دي "لوكسمبورج" قد طلب إلي، قبل ظهور الكتاب، كل رسائل السيد "دي مالبزيرب" التي تتعلق بهذا المؤلف. ولقد حالت ثقتي بكل منهما، وشعوري بالطمأنينة التامة، دون ان ارى في هذا الطلب اية غرابة او شبهة. ومن ثم فإنني أعدت الخطابات، عدا واحد أو اثنين، تخلفا عفوا بين صفحات بعض الكتب. وكان السيد "دي مالبزيرب" قد اشار -قبل ذلك بفترة من الزمن- إلى انه قد يسحب الرسائل التي كتبتها إلى "دوشين"، عندما كنت في جزع بشان "الجيزويت". ومن الواجب ان اعترف بان هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلي وتفكيري. ولكني انباته بانني لم اكن تواقا إلى ان اظهر بمظهر يفضل حقيقتي باية حال، وان من الخليق به ان يدع الرسائل لـ"دوشين". . ولست ادري ما إذا كان قد فعل.

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا ان يحفا بظهور كل مؤلفاتي. بل إن كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة، ومن استحسان واهن من العامة. فإن كل ما كتبه وقاله لي اقدر الناس على الحكم، عزز رايي في انه افضل مؤلفاتي واهمها قيمة. ولكن كل الذي قيل لي قيل في اغرب مظاهر التحوط والحذر، وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان، واعتباره سرا!.. فالسيدة "دي بوفلير"، التي ذكرت لي أن مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بان تقام له تماثيل، وان يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة، رجتني في نهاية رسالتها -في غير مواراة- بان أرد إليها الرسالة!.. اما "دالمبير" -الذي كتب لي ما معناه ان الكتاب قد اقر تفوقي وسمو شاني، وانه خليق بان يجعلني على رأس كافة الأدباء -فقد اغفل توقيع الرسالة، مع انه اعتاد توقيع كل الرسائل التي ارسلها إلي قبل ذلك. ولقد كان "ديكلو" صديقا جديرا بكل ثقة، وكان رجلا صادقا، ولكنه كان حذرا حريصا. ومع انه قدر هذا الكتاب تقديرا عاليا، إلا انه تجنب إبداء اي رأي فيه كتابة!.. ولقد حمل "لاكوندمين" على "إعلان الإيمان"، رراح يتخبط في اقواله. وكذلك اقتصر "كليرو" على عين هذا الجزء من الكتاب -في رسالته- ولكنه لم يخش ان يجاهر بمدى تاثره بقراءته، فاطلعني بعبارات صريحة على ان هذه القراءة قد بعثت الدفء في نفسه العجوز. وكان -دون جميع من ارسلت إليهم كتابي- الوحيد الذي اعلن على الملأ جهرا وبصوت مدو، مدى إكباره هذا الكتاب.

اما "متى" -الذي كنت قد اعطيته إحدى النسخ الأول، قبل ان يعرض الكتاب للبيع- فقد أعار السيد "دي بلير" المستشار البرلماني، ووالد ممثل الحكومة في "ستراسبورج"، هذه النسخة.. إذ كان للسيد "دي بلير" بيت ريفي في "سان جراسيان" وقد اعتاد "متى" -الذي كان من معارفه القدامى-

ان يزوره من آن إلى آخر، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن ثم فقد مكنه من ان يقرأ "إميل" قبل صدوره، فلما رد السيد "دي بلهير" إليه الكتاب، أفضى بهذه الملاحظة، التي رددت على سمعي في اليوم ذاته: "هذا كتاب جديد بديع يا سيد "صتي"، ولكنه لن يلبث ان يثير احاديث تتجاوز ما قد يوده المؤلف!". ولقد اكتفيت، حين ردد لي هذا القول، بان اضحك، ولم ار في هذه الملاحظة اكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين، الذين يحبون ان يضفوا جوا من الغموض على كل شيء. وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق، والتي نميت إلي، سوى أثر ضئيل في نفسي. فقد كنت ابعد من ان ابصر الكارثة التي كانت موشكة أن تحيق بي، مقتنعا بجمال مؤلفي ونفعه، واثقا بانه في حدود القانون من كل ناحية، مرتكنا -كما خيل إلي- إلى كل ما للسيدة "دي لوكسمبورج" من نفوذ، بل وإلى رضاء الوزراء كذلك. فرحت أحبذ لنفسي القرار الذي اتخذته باعتزال الأدب وأنا في غمرة انتصاراتي، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لي.

ولم يزعجني من نشر هذا الكتاب سوى شيء واحد، ولم يكن إزعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتي، بقدر ما كان منبعثا عن رغبة في ان اطمئن ضميري. ذلك انني كنت قد شهدت عن كثب، وباستنكار -اثناء وجودي في "ليرميتاج" و"مونمورنسي"- المنغصات التي كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين، فيضطرهم إلى تحمل الخسائر، التي كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقنص، دون ان يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا بإحداث الضجة، ويضطرهم إلى ان يقضوا الليالي بين فولهم وبازلائهم، وهم يدقون على الأواني والطبول والأجراس، لينفروا الوعول البرية. ولقد شهدت الوحشية القاسية التي كان السيد "الكونت دي شارلروا" يعامل بها هؤلاء المساكين، فحملت -عندما اوشكت على نهاية "إميل"- حملة شعواء على هذا التصرف القاسي. وكان هذا العمل مني، خرقا آخر لمبادئي، ولم يقدر له ان يمضي دون ما عقاب. فقد سمعت ان رجال السيد الأمير "دي كونتي"، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحي أراضيه. ورحت ارتجف خشية ان يكون هذا الأمير -الذي كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان- قد حمل على محمل الإساءة إليه، ما دفعني الشمم الإنساني إلى ان أوجهه إلى عمه "الكونت دي شارلروا"، على أنني رحت أطمئن نفسي، فقد كان ضميري يبرر كل التبرير حملتي هذه، وقد كنت مصيبا في ذلك. إذ إنني لم أسمع قط ان هذا الأمير العظيم قد أبدى أنفه اهتمام لهذه الفقرة التي كتبتها قبل ان أحظى بشرف التعرف إليه، بوقت طويل.

*****

ولقد ظهر قبل نشر كتابي بأيام قلائل، أو بعده -إذ إنني لا أذكر الوقت تماما- كتاب آخر في الموضوع ذاته، نقل بنصه عن الجزء الأول من مؤلفي -كلمة بكلمة- فيما عدا بعض تعديلات نثرت خلاله. وكان هذا الكتاب يحمل اسم شخص من "جنيف" كان يدعى "باليكسير"، قيل -على ما جاء في عنوانه- أنه كان قد فاز بجائزة مجمع "هارليم". وادركت دون عناء ان هذا المحفل، وهذه الجائزة ابتدعا حديثا، لتعمية الرأي العام عن السرقة. بيد انني رأيت -كذلك- ان في هذا مؤامرة داخلية، لم أستطع ان أدري أكانت تتمثل في نقل مخطوطي إلى الناشر -الأمر الذي لم يكن من سبيل إلى السرقة بدونه- أم في إنشاء قصة الجائزة المزعومة، التي كانت تستدعي ضرورة إنشاء الهيئة التي منحتها!.. ولم أستطع ان ابدد هذا الغموض إلا بعد سنوات عديدة، وبناء على كلمة أفلتت من

"ديفيرنوا" فمكنتني من ان أتبين خلال الاحداث أولئك الذين رسموا دور السيد "باليكسير"!

وبدات الغمغمة المكتومة التي تسبق العاصفة، تتناهى إلى السمع، ورأى كل من أوتي بصيرة ثاقبة، ان ثمة مكيدة كانت تتفاعل، لتحيق بكتابي وبي، وانها لن تلبث ان تنفجر. اما انا، فإن اطمئناني وغبائي كانا من الضخامة بحيث إنني لم ابصر محنتي.. بل إنني لم احدس شيئا عن سببها، بالرغم من انني بدات اشعر بأثرها. فقد تمثلت بدايتها في دهاء بارع، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها ان المعاملة القاسية التي كان "الجيزيويت" يلقونها، ما كان ينبغي ان توحي بأي سبيل إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين. ولقد وجه إلي اللوم لانني وضعت اسمي على "إميل"، وكانني لم أكن قد وضعته على كتاباتي الاخرى دون ان يقال لي شيء عن ذلك، وبدا كأنما كان ثمة خوف من ان يضطر القوم إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية، وكانت رعونتي قد مهدت السبيل إليها!

ولقد بلغتني هذه الأقاويل، ولكنها لم تسبب لي أقل قلق بل إنه لم يخطر لي إطلاقا ان في المسالة كلها ما يمسني شخصيا.. انا الذي كنت اشعر بأنني فوق كل لوم، وانني مؤيد اشد تأييد، وانني بخير من كافة النواحي، وانه لم يكن لي ان اخشى ان تتركني السيدة دي "لوكسمبورج" وسط المآزق، من اجل ذنب إذا كان قد ارتكب حقا، فقد كانت هي منشاه الاوحد!.. على انني لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة -في مثل هذه القضايا- ان السخط كان ينصب على الناشرين، دون المؤلفين، فقد داخلني القلق من أجل "دوشين" المسكين، لو ان السيد "دي ماليزيرب" تخلى عنه!

وظللت ساكنا.. وتضاعفت الشائعات، وسرعان ما تغيرت لهجتها، وبدا ان الرأي العام، والبرلمان بوجه خاص، قد اهاجهما صمتي. وبعد أيام قلائل، اصبح الانفعال فظيعا، وتبدل هدف التهديدات واصبحت موجهة إلي -انا بالذات- مباشرة، وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة ان لا نفع يرجى من إحراق الكتب، وإنما يجب إحراق المؤلفين، أما الناشرون، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم!.. وفي المرة الأولى التي رددت فيها امامي هذه الآراء -التي كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض، وليس عن عضو في الشيوخ- لم يداخلني اي شك في انها كانت ابتكارا من عصبة "دولباخ"، اريد به إثارة ذعري، ودفعي إلى الفرار. وضحكت لهذه الحيلة الصبيانية، وقلت لنفسي وانا اسخر منهم، إنه لو أتيح لهم ان يعرفوا حقيقة الأمور، لبحثوا عن وسيلة اخرى لإرهابي، بيد ان الشائعة لم تلبث ان بلغت من الوضوح ما أوحى بانها جدية. وكان السيد والسيدة دي "لوكسمبورج" قد بكرا في زيارتهما الثانية لـ"مونمورنسي"، بحيث إنهما كانا هناك في بداية شهر حزيران (يونيو). ولم اسمع في دارهما حديثا يذكر عن كتابي الجديدين، برغم الضجة التي أحدثاها في "باريس"، كما ان ربي الدار لم يحدثاني إطلاقا في هذا الصدد.

ومع ذلك، فقد تصادف ان كنت على انفراد مع السيد دي "لوكسمبورج" -ذات صباح- فسالني: "هل تحدثت بسوء عن السيد "دي شوازيل" في كتاب: "العقد الاجتماعي"؟". فاجفلت دهشة، وقلت: "انا؟.. يقينا: لا! اقسم لك. على انني قدمت له عكس هذا.. فبقلم لم يكن يوما متملقا، كتبت فيه أبدع إطراء حظي به وزير، في اي يوم من الايام!". واردفت بان تلوت عليه الفقرة كلها فعاد يتساءل: "وفي "إميل"؟". فاجبت: "ولا كلمة.. ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد".

فهتف في حرارة لم تكن من عادته: "آه!.. كان خليقا بك ان تفعل الشيء ذاته في الكتاب الآخر، او

ان تكون اكثر وضوحا فيما كتبت!". فاجبت: "لقد خلت انني فعلت.. ولقد قدرته تقديرا كافيا". وكان على وشك ان يرد إلي القول، ولمحت انه كان يتاهب لان يصارحني بما كان يخفي، ولكنه كبح نفسه، ولاذ بالصمت. فما اتعس سياسة عضو حاشية الملك، إذ إنها تطغى على الصداقة ذاتها، في احسن القلوب!

ولقد اثار هذا الحديث -على قصره- بصيرتي، بشان موقفي -او بشان ناحية معينة، على الأقل- وجعلني ادرك انني كنت هدف المهاجمين. ورحت انعى هذا النحس -الذي لا نظير له- والذي قلب إلى غير صالحي كل طيب قلته او فعلته. ومع ذلك، فقد ظللت اشعر بانه كان لي ان اعتمد في هذه المسالة على السيدة "دي لوكسمبورج"، والسيد "مالهزيرب"، فلم ار كيف كان في الوسع إزاحتهما للوصول إلي. إذ إنني -منذ تلك اللحظة- شعرت بجلاء ان المسالة لم تعد مسالة إنصاف او عدالة، وانه لن يكون ثمة اكتراث بتبين ما إذا كنت مخطئا حقا، او لم اكن. على ان هدير العاصفة اخذ يزداد شيئا فشيئا. بل إن "نياولم" نفسه، لم يلبث ان اطلعني خلال ثرثرته المسهبة، على اسفه لانه اقحم نفسه في هذا المؤلف، وعلى يقينه من سوء الطالع الذي كان يتهدد الكتاب وكاتبه. ومع ذلك، فقد بقي امر واحد ظل يطمئنني دائما: فلقد كنت ارى السيدة "دي لوكسمبورج" جد هادئة النفس، مطمئنة، بل وضاحكة، مما اوحى بانها كانت واثقة بنفسها، إذ إنها لم تبد اي قلق من ناحيتي، ولم تنبس بكلمة إشفاق او اعتذار، وانها كانت ترمق تطور هذه المسالة في هدوء، وكانما لم تكن لها يد فيها، او كانها لم تكن تشعر باتفه اهتمام بامري!.. ولم يكن يدهشني سوى انها لم تقل لي شيئا البتة، إذ لاح لي انه كان خليقا بها ان تقول لي شيئا ما. اما السيدة "دي بوفلير"، فقد تراءت اقل طمانينة، وكانت تروح وتغدو، والاضطراب يلازمها، وتسرف في الحركة، وتؤكد لي ان السيد الأمير "دي كونتي" كان يبذل الكثير لصد الضربة التي كانت تعد لي، والتي كانت تعزوها دائما إلى الأحوال الراهنة، التي كان على البرلمان فيها الا يتيح لـ"جيزويت" فرصة اتهامه بالتهاون إزاء الدين. على انها كانت تبدو قليلة الثقة في نجاح خطوات الأمير وخطواتها. وكانت احاديثها ادعى إلى الجزع، منها إلى التسرية، فقد مالت دائما إلى حملي على مغادرة البلاد. وكانت لا تني تنصحني بالنزوح إلى "إنجلترا"، حيث كان بوسعها ان تتيح لي كثيرا من الأصدقاء بينهم "هيوم" الشهير، الذي كان صديقا لها منذ امد طويل. وإذ راتني سادرا في سكينتي، اتخذت نهجا آخر كان اقدر على زحزحتي من جمودي. فقد اوحت إلي بانني قد اضطر -إذا قبض علي، واستجوبت- إلى ان اذكر اسم السيدة "دي لوكسمبورج"، وبان صداقتها لي كانت تستحق ما هو افضل من ان اعرض نفسي للاضطرار لإحراجها!.. ولقد اجبتها بان بوسعها ان تطمئن إلى انني لن اقحمها في مثل هذه الحال. فردت بان هذا العزم ايسر قولا منه تنفيذا، وقد كانت على صواب في ذلك، لا سيما معي انا بالذات، إذ كنت مصرا كل الإصرار على الا احلف كذبا، او اقول زورا امام القضاء، مهما يكن الخطر الذي قد يترتب على قول الحق!

وإذ رات ان هذه الفكرة قد اثرت في نفسي، وإن لم يكن بوسعي بعد ان احمل نفسي على الفرار، راحت تتحدث إلي عن "الباستيل" -بضعة أسابيع- كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية، إذ لم يكن للبرلمان اي شان بسجوني الحكومة. ولم ابد اعتراضا على هذا الكرم العجيب، على شريطة الا يلتمس باسمي. ولما لم تعد إلى الحديث عن هذا الاقتراح مرة اخرى، ادركت انها إنما ابدته لتبلوني، وان حيلة كهذه -تضع نهاية لكل شيء- لم تكن مرغوبة!

بعد ذلك بأيام قلائل، تلقى السيد "المارشال" من أسقف "دوبي" -صديق "جريم" والسيدة "ديبيناي"- رسالة ضمنها نبأ قال: إنه من مصدر موثوق به، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ إجراءات غاية في القسوة ضدي، وأن مرسوما بإلقاء القبض علي سيصدر في يوم حدده. ورأيت أن هذا النبأ فرية من عصبة "دولباخ"، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن يبدأ -في هذه المناسبة- بمرسوم بالاعتقال، قبل أن يتثبت بالطرق المشروعة مما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأنني كنت مؤلفه حقا. وقلت للسيدة "دي بوفلير": "إن أمر الاعتقال -المبني على مجرد البلاغ العادي- لا يصدر إلا في حالة تلك الجرائم التي تمس الأمن العام، وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار أما إذا أريد عقاب ذنب كذنبي، لا يستحق سوى التكريم والمكافأة، فإن العرف يقضي باتخاذ الإجراءات القضائية ضد الكتاب، مع تفادي المساس بالمؤلف قدر الإمكان!".
وعند ذلك نبهتني إلى فارق دقيق، كنت قد نسيته، لتبين لي أنه كان من التكريم لي أن يصدر قرار بالقبض علي، بدلا من استدعائي لسماع أقوالي!

وتلقيت في اليوم التالي رسالة من "جاي" الذي أنبأني بأنه كان -في عين اليوم الذي كتب فيه الرسالة- في زيارة للسيد المدعي العام، فلمح على مكتبه مسودة "دعوى" ضد كتاب "إميل" ومؤلفه. ولاحظوا أن "جاي" كان شريكا لـ"دوشين" الذي طبع الكتاب، وأنه كان مطمئنا إلى حسابه الخاص، فتطوع لإزجاء هذا النبأ إلى المؤلف من قبيل الإحسان!.. وكان من البسيط، بل من الطبيعي، أن يتاح لتاجر كتب قدر له أن يزور السيد المدعي العام، أن يقرأ -في هدوء- المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه!!.. ولقد أكدت لي السيدة "دي بوفلير" وغيرها أن الأمر كان صحيحا. ومن جراء السخافات التي كانت تلقى في أذني دون انقطاع، أصبحت ميالا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا!!

وشعرت بيقين بأن ثمة سرا وراء كل هذا، سرا كان يحجب عني، فرحت أرقب في هدوء مجرى الأحداث، وأنا وطيد الثقة باستقامة مسلكي، وبراءتي في المسألة بأسرها. بل إنني كنت جد سعيد بأن أساق إلى شرف المعاناة في سبيل الحقيقة، مهما يكن الجور الذي يرتقبني. وبدلا من أن أخاف وأستتر، واظبت على زيارة القصر يوميا، وعلى التريض على قدمي -كعادتي- في أصيل كل يوم.
وفي اليوم الثامن من شهر حزيران (يونيو) -وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم- قمت برياضتي في صحبة أستاذين من الوعاظ، هما الأب "الماني" والأب "ماندار". وحملنا معنا بعض القوت، إلى "شامبو"، حيث استمتعنا بوجبة شهية. وكنا قد نسينا أن نحمل معنا أكوابا، فاستعضنا عنها بأعواد من القش، رحنا نمتص خلالها الشراب من الزجاجات، متلهفين على اختيار أسمك الأعواد، لكي نرى أيها أكثر قدرة على الامتصاص. وما كنت يوما أكثر مني طربا في ذلك اليوم!

ولقد ذكرت كيف أنني كنت أعاني الأرق في صباي. ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرأ في السرير -في كل ليلة- حتى أشعر بعيني تغفوان، فأطفئ الشمعة، وأحاول أن أنام لبضع دقائق، لم تكن تدوم طويلا. وكانت مطالعاتي الليلية المعتادة هي "التوراة"، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأها خمس مرات أو ستا، على الأقل. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، وجدت نفسي أكثر يقظة من المعتاد، فواصلت القراءة فترة أطول، حتى أتيت على السفر الذي ينتهي بقصة "اللاويين" و"الحرايم"، وهو "سفر القضاة" إذا لم تخني الذاكرة، إذ إنني لم أنظر إليه قط منذ ذلك الحين. ولقد تأثرت كل التأثر بهذه القصة. وكنت مستغرقا في التفكير فيها، بين النوم واليقظة، عندما انتبهت فجأة إلى ضجة

وضوء. وكانت "تيريز" هي التي حملت الضوء، وتقدمت تقود السيد "لاروش"، الذي قال: إذ رآني اجفل مذعورا: "لا تنزعج!.. لقد اقبلت من لدن السيدة "المارشالة"، التي كتبت لك، كما ارسلت إليك خطابا من السيد الأمير "دي كونتي". وفعلا وجدت داخل رسالة السيدة "دي لوكسمبورج"، رسالة من الأمير حملها إليها احد رسله، وقد ضمنها انه قد تقرر -برغم كل جهوده- اتخاذ اقسى الإجراءات ضدي. ومما ذكره: "إن الانفعال بالغ الشدة، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة، فالبلاط يطالب بها، والبرلمان راغب فيها. وفي الساعة السابعة صباحا، سيصدر المرسوم بإلقاء القبض، وسيجري تنفيذه في الحال. وقد توصلت إلى انه لن يطارد إذا بادر إلى الابتعاد، اما إذا اصر على رغبته في ان يسلمهم نفسه، فسيلقى القبض عليه"!.. وراح "لاروش" يستحلفني -باسم السيدة "المارشالة"- ان ابادر فاذهب للتشاور معها. وكانت الساعة الثانية صباحا، وقد اوت إلى مخدعها، ولكنه اضاف: "إنها في انتظارك، ولن تنام حتى تراك". فبادرت إلى ارتداء ثيابي، واسرعت إليها!

وبدت لي مضطربة، لأول مرة. ومس قلقها مشاعري. وما كنت بمنجى من الانفعال -انا الآخر- في هذه اللحظة المفاجئة -في جوف الليل- ولكنني نسيت نفسي حين رايتها، فلم اعد افكر إلا فيها، وفي الدور المحزن الذي كان عليها ان تؤديه، إذا اسلمت نفسي. ذلك لأنني في شعوري بانني اوتيت الشجاعة على الا اقول سوى الحق -ولو ادى ذلك إلى الإضرار بي وإلى إهلاكي- لم اتوقع ان يكون لدي من حضور الذهن، او الدهاء، بل ولا ان يكون لدي الجلد الكافي على ان اتحاشى إقحامها، إذا ما اشتد الضغط علي. ودفعني هذا إلى ان اقرر ان اضحي بسمعتي في سبيل راحة بالها، وان افعل من اجلها -في هذه المناسبة- مالم يكن في وسع اية قوة ان تغريني على ان افعله من اجل نفسي. وما إن استقر رايي، حتى اعلنته لها، غير راغب في ان احط من قيمة تضحيتي بان امكنها من ان تشتريها! وإني لواثق بانها ما كانت لتخطئ فهم الحافز الذي دفعني إلى ذلك. بيد انها لم تفه لي بكلمة توحي بانها قدرت هذا الحافز. ولقد بهت لهذا التغافل، حتى لقد وجدتني اوازن بين المضي والتراجع. ولكن السيد "المارشال" اقبل، كما وصلت السيدة "دي بوفلير" من "باريس" بعد لحظات، ففعلا ما كان خليقا بالسيدة "دي لوكسمبورج" ان تفعله. واستسلمت لإطراءاتهما، فقد استحييت من ان اتراجع، ولم تعد ثمة مسالة سوى اختيار المكان الذي الوذ به، وموعد رحيلي. وعرض السيد "دي لوكسمبورج" ان ابقى اياما مستخفيا في داره، لان هذا يتيح لي وقتا للتدبير والبت في بحبوحة من الوقت. ولم اقبل هذا إطلاقا، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا إلى قلعة الأسرة، بل اصررت على رغبتي في الرحيل في اليوم ذاته، مفضلا هذا على البقاء مستخفيا في اي مكان!

❁❁❁❁❁

ولما كنت قد شعرت بان لي اعداء مستترين واقوياء في المملكة، فقد رايت ان لابد لي من ان اغادر "فرنسا" -برغم حبي إياها- لاضمن راحة بالي. وكانت رغبتي الأولى هي ان الجأ إلى "جنيف"، ولكن لحظة تفكير واحدة، كانت كافية لان تحولني عن ارتكاب هذه الحماقة. فقد كنت اعرف ان الحكومة الفرنسية -التي كان لها في "جنيف" نفوذ يفوق مالها في "باريس"- لن تدعني في سلام في اي من هاتين المدينتين، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادي. وكنت اعرف ان كتابي: "حديث في عدم المساواة" قد اثار ضدي -في المجلس- كراهية كان يزيد من خطورتها ان هذه الهيئة لم تكن تجسر على ان تكشفها علانية. ثم إنني كنت اعرف ان المجلس كان شديد

التحمس لتحريم تداول كتابي "هيلويز الجديدة"، عند ظهوره سبناء على تحريض الدكتور "ترونشان"- ولكنه حين تبين ان اية هيئة اخرى لم تحذ حذوه -ولا في "باريس" ذاتها- خجل من خسته، ورجع عن التحريم. لذلك لم يخالجني شك في ان المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعا في استغلالها. وكنت أدرك ان ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل "جنيف" ضدي -برغم كل المظاهر الجميلة- وان هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشبع نهمها. ومع ذلك فإن الشعور الوطني كان يدعوني إلى العودة إلى وطني، ولو انني استطعت أن أقنع نفسي بأنه كان في وسعي أن اعيش في سلام هناك، لما ترددت لحظة. أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران ان الوذ بوطني كلاجئ، فقد عزمت، على ان اقيم على مقربة منه فحسب، فامكث في "سويسرا" في انتظار ما قد يجري في "جنيف" بشأني. ولسوف يتجلى ان هذا التردد لم يدم طويلا!

وعارضت السيدة "دي بوفلير" هذا القرار طويلا، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملي على ان انتقل إلى "إنجلترا". ولكنها لم تزعزع عزيمتي، فما احببت قط "إنجلترا" ولا الإنجليز. وبدلا من ان تتغلب لباقة السيدة "دي بوفلير" على نفوري، بدا أنها راحت تضاعفه، دون ان أدري السر في ذلك.

وإذ اعتزمت الرحيل في اليوم ذاته، فقد شرعت في ذلك منذ الصباح، واعتبرتني مسافرا بالنسبة للجميع، ومن ثم فإن "لاروش" -الذي كنت قد ارسلته ليحضر إلي اوراقي- لم يشأ ان يقول لـ"تيريز" نفسها ما إذا كنت قد رحلت او لم ارحل. وكنت منذ اعتزمت يوما أن اكتب ذكريات حياتي، فقد جمعت عددا من الرسائل والأوراق، ومن ثم فقد اضطر إلى ان يذهب إلى داري عدة مرات لنقلها. وكانت هذه الأوراق -التي فحصتها من قبل- قد جمعت على حدة، لذلك قضيت بقية الصباح في فحص الأوراق الاخرى، معتزما الا آخذ معي إلا ما يكون ذا نفع لي، وأن احرق الباقي. ولقد رغب السيد "دي لوكسمبورج" في ان يساعدني في هذا العمل، الذي استغرق وقتا طويلا، حتى إننا لم نستطع أن نفرغ منه في فترة الصباح، ولم أجد متسعا من الوقت كي أحرق شيئا. فعرض السيد "المارشال" ان يتكفل بفحص الأوراق المتبقية، وان يحرق بنفسه الفضلات -دون ان يدع هذه المهمة لأحد سواه- وان يرسل إلي كل ما يستبقيه. ولقد قبلت هذا العرض وانا جد مغتبط بأن اتحرر من هذا الشاغل، حتى اتمكن من ان اقضي الساعات القلائل التي مازالت باقية لدي، مع أولئك الذين كانوا جد اعزاء علي، والذين كنت مزمعا فراقهم إلى الابد!.. واخذ السيد "المارشال" مفتاح الحجرة التي تركت فيها هذه الأوراق، وارسل -تحت إلحاحي الدائب- في استدعاء "عمتي" المسكينة، التي كانت تكتوي بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى لي، وما هو موشك ان يجري. والتي كانت ترتقب الجنود -في كل لحظة- دون ان تدري كيف تعاملهم، ولا ما ينبغي أن تجيبهم به!

واحضرها "لاروش" إلى القصر، دون ان يذكر لها شيئا. وكانت تظنني قد اصبحت على بعد شاسع. فما إن رأتني، حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة، وارتمت بين ذراعي. فيا للمودة، ويا لتجاوب القلوب، ويا للمعاشرة، ويا للالفة!.. لقد تجمعت في تلك اللحظة -العذبة والقاسية- كل الأيام الهنيئة، الناعمة، الوادعة، التي قضيناها معا، لتزيدني شعورا بوطأة أول فراق لنا، بعد ان كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يوما واحدا، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عاما!.. ولم يقو "المارشال" -الذي كان يشهد هذا العناق- على كبح دموعه، فتركنا!.. ولم تشأ "تيريز" ان تفارقني، فأوضحت لها ما في مرافقتها إياي -في تلك الظروف- من صعاب، وضرورة بقائها لكي

تسوي شؤوني، وتحصل اموالي. ولقد كان من المعتاد -عند إصدار مرسوم بالقبض على امرئ- ان يستولى على اوراقه، او ان توضع الاختام على مقتنياته، او ان يوقع الحجز عليها ويعين وصي لحراستها. ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هي؛ لكي تراقب ما يجري. وتبذل قصارى وسعها. ووعدتها بأنها لن تلبث ان تلحق بي في القريب. وقد عزز السيد "المارشال" وعدي، ولكني لم اشأ قط ان انبئها بالمكان الذي كنت اعتزم الذهاب إليه، حتى إذا سألها أولئك القادمون للقبض علي، كان بوسعها ان تعرب عن جهلها بذلك صادقة. وعندما احتضنتها في لحظة الفراق، شعرت بانفعال عاطفي غير عادي. فقلت لها في حرارة، وكأنما كنت -واأسفاه!- أتنبأ بما يضمره المستقبل: "عليك ان تتذرعي بالشجاعة يا بنيتي!.. لقد قاسمتني نعيم الأيام الحلوة، وبقي عليك -مادامت هذه رغبتك- ان تشاطريني محني. فلا تتوقعي سوى الإهانات والنكبات إذا تبعتني. إذ إن الحظ الذي يبدأ معي اليوم، سيتعقبني إلى آخر ساعة في حياتي!".

ولم يبق لي ما افعله سوى أن أدبر أمر رحيلي.. كان من المتوقع ان يكون رجال الأمن قد وصلوا في الساعة العاشرة، ولكن الساعة كانت الرابعة -بعد الظهر- عندما انطلقت، دون ان يكونوا قد وصلوا بعد. وكان الراي قد استقر على أن اسافر بعربة البريد، ولكني لم اجد محفة تقلني إلى هناك، فأهداني السيد "المارشال" عربة خفيفة ذات عجلتين، وأعارني جوادين وحوذيا، ريثما ابلغ المحط التالي، حيث لم اجد عناء في الحصول على جياد، بفضل التدبيرات التي كان قد اتخذها.

ولم اكن قد تناولت غدائي على المائدة، ولا اظهرت نفسي في القصر، فجاءت السيدات لوداعي، في الطابق القائم بين الطابقين الأرضي والاول "الأنترسول"، حيث قضيت اليوم كله. وعانقتني السيدة "المارشالة" عدة مرات في حزن باد، ولكنني لم المس في عناقها الحرارة التي كانت قد غمرتني بها قبل سنتين او ثلاث. كذلك عانقتني السيدة "دي بوفلير" ووجهت إلي اعذب القول. وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع.. ذلك هو عناق السيدة "دي ميربوا"، التي كانت هناك، هي الأخرى! فإن السيدة حرم "المارشال" "دي ميربوا"، سيدة فاترة العواطف إلى ابعد مدى، شديدة التكلف والتحفظ، ولا تخلو -كما يبدو لي- من الكبرياء والترفع اللذين يفطر عليهما ابناء أسرة "لورين". ولم تكن قد اعارتني -من قبل- اي انتباه. وسواء كنت إذ ذاك ميالا إلى ان اضاعف من قيمة هذا الشرف غير المرتقب -وقد استخفني أن أحظى به- أو أنها مزجت حقا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة، فإنني لمست في حركاتها ونظراتها قدرا من الصدق، مما احدث في نفسي أبلغ الأثر. وكثيرا ما خيل إلي -عندما كنت افكر في ذلك، فيما بعد- انها كانت على دراية بالحظ الذي قدر لي، فلم تقو على مقاومة إشفاق عابر، إزاء المصير الذي كان يرتقبني.

اما السيد "المارشال"، فلم ينبس ببنت شفة.. وكان في شحوب الموتى. ورغب -في إصرار- في ان يرافقني حتى المركبة التي كانت تنتظرني عند حوض المياه. فقطعنا الحديقة باسرها معا، دون أن نتبادل كلمة واحدة. وكان لدي مفتاح للمتنزه، استخدمته في فتح الباب، وبدلا من ان اضعه في جيبي بعد ذلك، رددته إلى السيد "المارشال"، دون ان اتفوه بشيء. فتناوله في لهفة مدهشة، لا أستطيع ان أمنع نفسي عن التفكير فيها كثيرا، منذ ذلك الحين. ونادرا ما عانيت في حياتي لحظة أمر من لحظة هذا الفراق. وكان عناقنا طويلا، صامتا.. فقد كان كل منا يشعر بانه الوداع الاخير!

وصادفت في الطريق بين "لابار" و"مونمورنسي"، عربة مستأجرة، كانت تقل اربعة رجال في ثياب سوداء، حيوني مبتسمين. ومما انبأتني به "تيريز" -فيما بعد- عن مظهر الضباط، وساعة

وصولهم، ومسلكهم، لم يداخلني اي شك في انهم كانوا نفس ركاب العربة، لا سيما انني علمت -بعد ذلك- ان مرسوم إلقاء القبض علي، لم يصدر في الساعة السابعة صباحا، كما قيل لي من قبل، وإنما اصدر في منتصف النهار. وكان لابد لي من ان امر خلال "باريس" باسرها، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار في مركبة صغيرة مكشوفة. ورأيت في الطرقات اشخاصا كثيرين، حيوني شان من كانوا يعرفونني، وإن كنت لم اتعرف على واحد منهم!.. وفي مساء اليوم ذاته، انحرفت عن طريقي في دورة، لاعرج على "فيلروي".. ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات، ان يسموا إلى "حكمدار" المدينة، في "ليون". وكان هذا امرا محرجا بالنسبة لمسافر كان غير راغب في ان يكذب، ولا في ان يغير اسمه، ومن ثم فإنني ذهبت بخطاب من السيدة "دي لوكسمبورج" لارجو السيد "دي فيلروي" ان يعمل على إعفائي من هذا الالتزام. فأعطاني السيد "فيلروي" رسالة لم افد منها؛ لانني لم امر بمدينة "ليون". ولا يزال هذا الخطاب -باختامه- بين اوراقي. ولقد الح السيد الدوق كثيرا، كي انام ليلتي في "فيلروي"، ولكنني استحسنت ان اواصل السفر، وبذلك قطعت مرحلتين اخريين، في اليوم ذاته.

وكانت مركبتي خشنة، كما انني لم احظ بقدر من الراحة يمكنني من المضي في الرحيل اياما بطولها. وإلى جانب ذلك، لم يكن لي من فخامة المظهر ما يمكنني من ان احظى بالخدمات. ومن المعروف في فرنسا ان خيل البريد لا تشعر بالسوط إلا عبر كتفي الحوذي، ومن ثم فقد خيل إلي انني كنت استطيع ان استعيض بالسخاء في عطاء الادلاء والمرشدين، عن كلمات وإرشادات الوعيد. ولكن هذا زاد الامر سوءا، فقد ظنوا انني افاق، موفد في مهمة، وانني لم اعتد سوى السير على القدمين، وإنني كنت اسافر مستخدما خيل البريد، للمرة الاولى في حياتي. ومن ذلك الحين لم اعد احصل إلا على ضعاف الخيل، كما اصبحت العوبة الحوذية. وانتهى بي الامر إلى ما كان يجب ان اتبعه من البداية، فآثرت الصبر والصمت، وتركتهم يتصرفون وفق هواهم!

وكان لدي ما يصونني من السام خلال الرحلة، إذ اسلمت نفسي إلى الخواطر التي راحت تصور كل ما جرى لي. غير ان هذه لم تكن محور فكري، ولا ملتقى ميول فؤادي. فإن السهولة التي انسى بها كل سوء انقضى -مهما يكن حديث العهد- تدعو إلى العجب!.. وبقدر ما يزعجني ترقب المحن التي اتمثلها في المستقبل، فإنها لا تعاود ذهني -بمجرد وقوعها- إلا في وهن، ثم تتلاشى دون عناء!.. ذلك لان خيالي القاسي، الذي يضني نفسه -بلا انقطاع- في ارتقاب النوائب قبل ان تحين، لا يلبث ان يشتت ذاكرتي، ويحول دون ان استرجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب. فلا حيلة هناك إزاء ماولى، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به. والواقع انني استنفد محني مقدما، بطريقة ما، فكلما اشتد عنائي في ارتقابها، سهل عليّ نسيانها.. في حين انني -على العكس من ذلك- لا انفك اشغل بالتفكير في ماضي هنائي، فاتذكره واجتره -كما ينبغي ان يقال- إلى درجة انني استطيع ان استمتع به من جديد عندما يحلو لي!.. واعتقد انني مدين لهذا الطبع السعيد بانني لم اعرف قط ذلك المزاج الناقم الذي يتخمر في قلب حقود -من جراء التفكير المستمر في الإساءة التي حاقت- والذي يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد ان يوقعه بعدوه!.. وإذ كنت بطبيعتي حاد المزاج، فإنني اشعر بالغضب، بل وبالهياج، في عنفوان اللحظة، ولكن الرغبة في الانتقام لم تتغلغل قط في فؤادي. فما اقل ما افكر في الإهانة، وما اكثر ما افكر في صاحبها، ولست افكر في الضرر الذي تلقيته منه، إلا تقديرا لما قد اتلقاه من ضرر جديد منه، فإذا ما وثقت بأنه لن يلحق بي مزيدا من الضرر، فإن

الضرر الذي الحقه بي من قبل، لا يلبث ان يروح في أدراج النسيان!.. إننا كثيرا ما نوعظ بالصفح عن الإساءات، وهي فضيلة جد بديعة ولا ريب، بيد انها لا تصلح لي. فانا اجهل ما إذا كان قلبي قادرا على إيواء البغضاء، لأنه لم يحس بشيء منها قط.. كما انني اقل تفكيرا في إعفائي من ان اكتسب فضيلة الصفح عنهم!.. ولن اقول إلى اي مدى يعذب اعدائي انفسهم لكي يعذبوني. فانا تحت رحمتهم، ولديهم كل السلطان، وإنهم ليستخدمونه!.. على ان ثمة شيئا واحدا فوق سلطانهم، وإني لأتحداهم ان يفعلوه.. ذلك هو انهم لا يملكون -مهما يعذبوا انفسهم بسببي- ان يضطروني إلى ان اعذب نفسي من اجلهم!

ومن ثم فإنني -في غداة رحيلي- نسيت كل ما جرى، والبرلمان، والسيدة "دي بومبادور"، و السيد "دي شوازيل"، و"جريم"، و"دالمبير"، والمتآمرين معهم والمتآمرات، حتى إنني ما كنت لافكر ثانية فيهم، لولا الاحتياطات التي كنت مضطرا إلى ان اتخذها.. وواتتني -بدلا من كل هذا- ذكرى اخرى هي مطالعاتي في عشية اليوم السابق على رحيلي. كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر "جيسنر" التي ترجمها "هوبير" وأرسل إلي نسخة منها منذ زمن. ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكري، وتمتزجان بشتى الأشكال في عقلي، حتى اعتزمت ان احاول الجمع بينهما، بان اعالج موضوع قصة "اللاويين وأفرايم"، على طريقة "جيسنر". على ان اسلوب قصائد الرعاة بدا -في بساطته- قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة، كما ان من العسير تصور ان حالي الراهنة كانت كفيلة بان تمدني بأفكار جديدة تخفف من قتامة الموضوع. ومع ذلك فقد اقدمت على التجربة، لمجرد التسلية في مركبتي، ودون ما أمل في التوفيق. فما إن بدات، حتى ذهلت لسلاسة افكاري، والسهولة التي اخذت اعبر بها عنها. وفي ثلاثة أيام، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى في هذه القصيدة التي لم البث أن اتممتها في "موتيير". واعتقد انني لم اؤلف في حياتي شيئا يفوقها فيما سادها من رقة مؤثرة، ومن نضارة اللون، وطرافة التصوير وبساطته، ودقة الوصف، والسذاجة العريقة التي شاعت في كل شيء.. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة، التي كانت في جوهرها منفرة. ومن ثم فقد كان لي الفضل في التغلب على هذه العقبة، إلى جانب الصفات الاخرى. وإذا لم يكن ديوان "لاويو أفرايم" هو افضل مؤلفاتي، فإنه سيظل دائما احبها إلي!.. فما قراتها ثانية، ولن يقدر لي ان أقراها مرة اخرى، دون ان المس فيها إشراقة قلب خال من السخط، لا يوغره النحس، بل إنه يجد العزاء في نفسه، ويستمد العوض والجزاء من دخيلته، ولو ان جميع أولئك الفلاسفة الذين يتعالون على الشدائد ولما يعرفوها، حشدوا، ووضعوا في موقف كموقفي، وقدم إليهم -في أولى فورات الكرامة والشرف الجريح- مهمة مشابهة لهذه التي انجزتها، وسئلوا ان يعكفوا عليها، لتبدى كيف انهم سيبادرون إلى التهرب!

*****

وكنت -عند مغادرتي "مونمورنسي" إلى "سويسرا" -قد عزمت على ان اذهب للإقامة في "أيفردون"، مع صديقي القديم الطيب، السيد "روجان"، الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات، والذي كان قد دعاني إلى زيارته. وسمعت في طريقي ان "ليون" ستكون بمناى عن خط سيري، الأمر الذي حال دون أن امر خلالها. ولكنني من ناحية أخرى - اضطررت إلى ان امر

"بيزانسون"، وهي بلدة محصنة، ومن ثم فإنها عرضتني لعين المضايقة التي كنت اخشاها في "ليون". لذلك قررت ان انحرف إلى اليسار، وأن اواصل سفري عن طريق "سالان"، بحجة زيارة السيد "دي ميران" -ابن أخ السيد "دوبان"- الذي كان يعمل في مصانع الملح، والذي كثيرا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن ازوره. ووفقت حيلتي، إذ إنني لم اجد السيد "دي ميران"، فاغتبطت لان هذا جنبني التاخر، فاستانفت رحلتي دون ان يقول لي اي امرئ كلمة واحدة. وإذ اجتزت حدود "بيرن" استوقفت، فهبطت من المركبة، وارتميت على الأرض، ورحت أحتضنها واقبلها. وهتفت في فرحتي: "احمدك أيتها السماء، يا حامية الفضيلة.. إنني لأطأ الآن موئلا للحرية!". وهكذا اعتدت -في ثقتي العمياء باماني- ان اتحمس لما قد يجلب لي الشقاء. ولقد ظن الحوذي المشدوه انني جننت!.. وعدت استقل المركبة، فإن هي إلا سويعات قليلة، حتى كنت احظى بالغبطة النقية العارمة، التي غمرتني إذ وجدت نفسي في احضان "روجان" الوفي. آه!.. لنتنفس الصعداء لبضع لحظات، لدى مضيفي الكريم. فلابد لي ان استرد شجاعتي وقوتي، إذ إنني لن البث ان احتاج إليهما معا!

وما اسهبت -دون داع- في ذكر تفصيلات كل الظروف التي قدر لي ان اتذكرها، في رواية الأحداث السالفة. ومع ان هذه الظروف قد لا تبدو جد براقة، إلا انها قد تلقي ضوءا على مجرى الأحداث، إذا ما امسك المرء مرة بخيط المؤامرة. مثال ذلك، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التي نشات عنها المشكلة التي سأعرضها، إلا انها تساعد كثيرا على حلها!

فلو اننا افترضنا، ان إقصائي كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التي كانت مدبرة لي، لكان كل شيء مسوقا إلى ان يحدث بنفس الشكل الذي حدث به -تقريبا- لكي يتسنى للمؤامرة ان تتم.. اما لو انني كنت قد واصلت صمودي -كما فعلت في بادئ الأمر- بدلا من ان اسمح للذعر بأن يستولي علي، من جراء الرسالة الليلية التي بعثت بها السيدة "دي لوكسمبورج"، وبدلا من ان اضطرب لاضطرابها.. ولو انني -بدلا من البقاء في القصر- عدت إلى سريري، واستغرقت في النوم حتى الصباح.. فهل كان سيقدر لأمر القبض ان يصدر بالطريقة التي صدر بها؟.. إنه سؤال عظيم، يتوقف عليه حل اسئلة أخرى كثيرة.. ولن يكون من غير المجدي -في دراسته وبحثه- ان نلاحظ الساعة التي أنذرت بأن مرسوم القبض علي سيصدر فيها، والساعة التي صدر فيها فعلا. هذا مثال غير مصقول -ولكنه معقول- لاهمية اتفه التفصيلات في عرض الوقائع التي نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة، حتى يتسنى لنا ان نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء والاستنتاج!

الكراسة الثانية عشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير، التي أتخبط فيها منذ ثماني سنوات، دون أن يتسنى لي -مهما تكن حيلتي وجهدي- أن أنفذ خلال الظلام الرهيب.. إنني لأحس -في غياهب التعاسات التي اكتنفتني- بإيذاء الصفعات التي توجه إلي، وإني لألمح الأداة المباشرة التي توجهها، ولكنني لا أقوى على أن أرى اليد التي تصدرها، ولا الوسائل التي تحركها وتستخدمها، إن العار والمحن لتهوي علي، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها، دون أن يفطن إليها أحد. وعندما يفلت قلبي الممزق شيئاً من الأنين، أبدو في مظهر الرجل الذي يشكو دون ما مبرر لشكوى، فإن مبتدعي دماري، وفقوا إلى الفن الذي يفوق كل إدراك.. الفن الذي استطاعوا به أن يحولوا الرأي العام إلى شريك في مؤامرتهم، دون أن يحدس الرأي العام ذلك، أو يفطن إلى نتائجه!.. ومن ثم فإنني إذ أروي الأحداث المتعلقة بي، وألوان المعاملة التي عانيتها، وكل ما جرى لي، أراني في حال لا تمكنني من أن أكشف عن اليد المحركة، ولا من أن أعين الأسباب وأنا أذكر الأفعال.. فإن هذه الأسباب الأولية تلمس جميعاً في الكراسات الثلاث السابقة، حيث تكشفت كل الالتفاتات التي وجهت نحوي، والميول المتعلقة بي، وكل البواعث المستترة. أما أن أذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتباينة، لتخلق الأحداث العجيبة في حياتي، فهذا ما لا سبيل لي إلى شرحه وتعليله، ولو بالحدس والتكهن!.. وإذا كان بين قرائي من أوتوا من كرم النفس، ما يحفزهم على الرغبة في الغوص إلى أعماق هذه المعميات للكشف عن الحقيقة، فليعودوا إلى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية، وليفيدوا من كل واقعة يقرءونها، ومن المعرفة التي يستخلصونها منها، في متابعة الوقائع التي تليها.. وليرجعوا القهقرى من مكيدة إلى مكيدة، ومن عميل إلى عميل، حتى يصلوا إلى المحركين الأوائل لكل شيء.. وإني لأعرف موقناً ما سوف تنتهي إليه أبحاثهم، ولكني تائه أتخبط في الطرق المظلمة المتعرجة الضاربة في أعماق الأرض، حيث قادوني!

*****

تعرفت -خلال إقامتي في "ايفردون"- على جميع أفراد أسرة السيد "روجان"، ومنهم ابنة أخيه السيدة "بوي ديلاتور"، وبناتها اللائي تعرفت أباهن في "ليون"، كما أحسبني قد ذكرت من قبل. وكانت السيدة قد جاءت إلى "ايفردون" لتزور عمها وشقيقاتها. ولقد أطربتني ابنتها الكبرى -التي كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها- بمداركها الواسعة وشخصيتها الرائعة. وسرعان ما ارتبطت بالأم والابنة، بأرق روابط الود. وكان السيد "روجان" قد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن أخت له "كولونيل"، كان قد تجاوز السن المعقولة، وكان يوليني -هو الآخر- أعظم الود. ولكن.. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج، ومن أن ابن الأخ كان راغباً فيه، ومن إنني اهتممت -في حرارة- بأن أرضي كلا منهما، إلا أن الفارق الكبير في السن، والنفور المسف من ناحية الفتاة، حملاني على أن أعاون الأم في عرقلة هذا الزواج، فلم يقدر له أن يتم. وما لبث "الكولونيل" أن تزوج من الآنسة "ديلان"، وهي من قريباته، وكانت سيدة ذات جمال وخلق بروقان لفؤادي، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء. ومع ذلك فإن السيد "روجان" لم ينس لي قط أنني عارضت رغباته، في هذه

المناسـبة. ويعزيني في ذلك يقيني من انني اديت –سواء نحوه او نحو اسرته– اقدس واجبات الصداقة، وهو ما لا يتطلب من المرء ان يجعل نفسه مرغوبا على الدوام، ولكنه يتطلب منه ان يكون ناصحا فلا يشير دائما إلا بما فيه الخير!

ولم يطل بي الشك فيما قد ينتظرني من استقبال في "جنيف"، إذا انا ملت إلى العودة إليها، إذ إن كتابي أحرق هناك، كما اصدر مرسوم بالقبض علي في ١٨ حزيران (يونيو)، اي بعد تسعة أيام من ذاك الذي اصدر في "باريس". ولقد حشدت في المرسوم الجنيفي كثير من السخافات التي لا يصدقها العقل، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح، حتى إنني لم اشأ ان اصدق الانباء الأولى، التي تناهت لي عنه، فلما ابدت فعلا، رحت ارتجف فرقا من ان يؤدي مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين، إلى إثارة الرأي العام، وإلى قلب "جنيف" راسا على عقب!.. وما كان لي ان انزعج، فإن كل شيء ظل هادئا!.. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس، فإنها كانت موجهة ضدي.. فقد عوملت –في جميع الشائعات والتقولات التي انتشرت بين الرأي العام في المدينة– كما يعامل التلميذ الذي ينذر بالضرب بالسياط، لانه لم يحسن تلاوة درسه الديني!

ولقد كان هذان المرسومان، إيذانا بانطلاق صرخة اللعنة التي تعالت ضدي في "أوروبا" باسرها، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثيل. فإذا جميع النشرات الرسمية، والصحف، والكتيبات تردد افظع إشارات التنبيه إلى الخطر. وإذا الفرنسيون بوجه خاص، ذلك الشعب اللطيف، المؤدب، الكريم، الذي يفخر بقوة ميله إلى الخير، ورعايته للمنكوبين.. إذا بهذا الشعب ينسى فجاة فضائله المحببة إليه، ويمتاز على ما عداه بعدد وقذاعة الإهانات التي تبارى في قذفي بها!.. فرميت بانني كافر، زنديق، معتوه، مهووس، وحش كاسر، ذئب.. وشن المعلق في "جورنال دي تريفو" –صحيفة "الجيزويت"– على سعاري الوحشي المزعوم حملة إضافية لم تشن إلا بسعاره هو. وفي وسعك –بإيجاز– ان تقول: إن كل كاتب في باريس، اصبح يخشى ان يصطدم بالبوليس –عندما ينشر شيئا في أي موضوع– إذا هو اغفل ان يحشوه ببعض الإهانات ضدي!.. واوشكت –في بحثي عبثا عن سبب هذا العداء الشامل– ان اعتقد ان العالم باسره قد اختبل. يا للعجب!.. أيبث منقح "السلام الدائم" الفرقة والشقاق؟.. أيكون مؤلف "اسقف من سافوا" كافرا؟.. ايكون كاتب "هيلويز الجديدة"، ذئبا، وكاتب "إميل" ملتاثا؟.. أواه يا إلهي!.. فماذا كنت اصبح إذن، لو انني نشرت كتاب "العقل" الذي وضعه "مونتسكيو"، ودعا فيه إلى الإيمان بالعقل وحده" او اي مؤلف آخر على شاكلته؟..

ومع ذلك، ففي عنفوان العاصفة التي انفجرت على راس مؤلف هذا الكتاب، لم يضم الرأي العام صوته إلى صوت ظالميه، وإنما انتقم للمؤلف بما اهاله عليه من مديح!.. فمن لي بمن يقارن بين كتابه وكتابي، والاستقبالين المختلفين اللذين استقبلا بهما، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلفان في مختلف دول اوروبا، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على اسباب لها تقنع اي امرئ سليم الإدراك؟! هذا جل ما اطلب، ولن أزيد!

*****

ووجدت من الراحة في "ايفردون" ما جعلني اقرر المقام هناك، مستجيبا للإلحاح الحار، الذي انهال علي من السيد "روجان" واسرته. كذلك شجعني السيد "دي موراي دي جالجان" –القائم على الأمن والعدالة في هذه المدينة– على ان ابقى في ظلال سلطانه، بما ابداه لي من افضال. واصر

"**الكولونيل**" كل الإصرار على ان اسكن مبنى صغيرا مستقلا، بين فناء داره وحديقتها. وما إن قبلت، حتى انصرف إلى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريا لحاجاتي المتواضعة. وكان "**روجان**" صاحب الراية(١) -شديد الحرص على ملازمتي، حتى إنه لم يكن يفارقني طيلة النهار. ولقد كنت اقدر مكرماته كل التقدير، ولكنني كنت اضيق بها احيانا!

وكان موعد استقراري في المسكن الجديد قد حدد، وكتبت إلى "**تيريز**" كي تلحق بي، عندما نُمي إلي ان زوبعة قامت في "**بيرن**" ضدي، وعزيت إلى غلاة المتدينين، ولم يقدر لي قط أن اكتشف منشأها. فلقد هب مجلس الشيوخ -دون أن يعرف من الذي استنهضه- وبدا أنه غير راغب في أن يدعني في سلام، في عزلتي. وما إن سمع حاكم المدينة بهذا الهياج، حتى كتب في صالحي إلى عدد من اعضاء الحكومة، ولامهم على تعصبهم الاعمى، وعاب عليهم الرغبة في أن يأبوا على رجل قدير، مظلوم، المأوى الذي يجده كثير من الأشرار في ولاياتهم!.. ولقد حدس ذوو العقول الحصيفة، ان تكون حرارة لومه قد اهاجت الافكار، بدلا من أن تهدئها. ومهما يكن الأمر، فإن مكانته وبلاغته لم تستطيعا دفع الصدمة. وما إن تناهت إليه بادرة عن الأمر الذي كان عليه أن يعاملني بمقتضاه، حتى اوعز إلي به مقدما، فقررت الا انتظر هذا الأمر، وأن أرحل في اليوم التالي. وكانت الصعوبة تتمثل في معرفة المكان الذي اذهب إليه. فقد كانت "**جنيف**" و"**فرنسا**" مغلقتين في وجهي، وقد رأيت -مقدما- أن كل حكومة تقلد جارتها، في مثل هذه المسألة!

واقترحت السيدة "**بوي ديلاتور**" أن اقيم في بيت خال، ولكنه مكتمل الاثاث، كان ابنها يمتلكه في قرية "**موتييه**"، في "**فال دي ترافير**" بمقاطعة "**نيوشاتيل**". ولم يكن علي سوى أن أجتاز احد الجبال، كي اصل إلى هناك. ولقد كان الاقتراح جد مناسب؛ إذ إنني خليق بأن أجد ملجأ من الاضطهاد -بطبيعة الحال- في أراضي ملك "**بروسيا**"، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك. بيد ان عقبة خفية -لم يكن من اللائق بي أن اذكرها- حملتني على التردد. ذلك أن حب العدالة، الذي يتغلغل في قلبي ويعصره دائما، اتحد مع حبي الخفي لـ"**فرنسا**"، وأوحيا إلي بنفور من ملك "**بروسيا**"، الذي لاح لي أنه -من حيث المبادئ والسلوك- كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعي، والالتزامات الإنسانية، وقد كان بين اللوحات ذات الإطارات، التي كانت تزين جدران شرفتي في "**مونمورنسي**"، صورة لهذا الأمير، كتبت تحتها بيتين من الشعر، هذا ختامها:

"إنه يفكر بعقل فيلسوف، ويتصرف كملك"!

هذه الشطرة التي كانت خليقة بأن تكون مديحا بديعا -إذا كتبها أي قلم آخر- كانت من قلمي توحي بمعنى غير مبهم ولا غامض، لا يتضح إلا بالشطرة التي كانت تسبقها(٢). وكان "**الشيفالييه دي لورنزي**" قد نقل هذا البيت الشعري وكتبه لـ"**دالمبير**". وما كان لدي أي شك في أن "**دالمبير**" قد عني بأن يستغله، وبأن يرسله قبلي إلى هذا الأمير!.. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة في "**إميل**" تبدي بجلاء شخصية الملك الذي كنت أمثله تحت اسم "**أدراستي**"، ملك "**داونيان**". ولم تفت هذه التورية النقاد، إذ رددتها السيدة "**دي بوفلير**" أمامي مرارا. ومن ثم فقد كنت واثقا بأن اسمي قد سجل بمداد أحمر في سجلات ملك "**بروسيا**"، وإذ كنت أرى -إلى جانب ذلك- أن هذا الأمير قد أوتي ما جرؤت على أن أعزوه إليه من مبادئ، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتي، ولا لصاحبها، بأن ينالها منه رضا.. فمن المعروف أن أهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكنوا لي دائما أشد

---

(١)لقب كان يطلق على أي اقطاعي أوتي عددا معينا من رقيق الأرض يبيح له أن يرفع على قصره علما خاصا. (٢) تلك هي: "الشهرة والمنفعة.. هذان هما ربه وقانونه". ولم يكن "روسو" قد كتب هذه الشطرة فوق أختها تحت الصورة- وإنما كتبها خلفها!

الكراهية القاتلة، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتي، ولو لم يعرفوني معرفة شخصية!

ومع ذلك فإنني لم البث ان اقدمت على وضع نفسي تحت رحمته، وقد خيل إلي انني لن اتعرض لكبير خطر، فقد كنت اعرف ان المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال، ولكنها لا تظفر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوي، كتلك التي طالما لمستها في شخصية هذا الأمير. وقدرت أن من سياسته في الحكم، ان يظهر نفسه -في مناسبة كهذه- بمظهر الشهم العالي النفس.. وحكمت -لنفسي- بأن الانتقام الخسيس السهل، لا يمكن ان يعدل في نفسه -ولو للحظة واحدة- حب المجد والشهرة. ووضعت نفسي في مكانه، فلم أر من المستحيل عليه ان ينتهز الظرف، لكي يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على ان يسيء الظن به. ومن ثم فقد سعيت إلى الإقامة في "موتييه"، وانا مليء النفس بثقة خيل إلي انه قمين بان يدرك قيمتها. ورحت اقول لنفسي: "إذا رفع "جان جاك" نفسه إلى مرتبة "كوريولانوس"، فهل يرضى "فردريك" لنفسه بان يكون ادنى من قائد الفولك؟(١).

ولقد رغب الكولونيل "روجان" -في إصرار- في ان يجتاز الجبل معي، ويطمئن إلى استقراري في "موتييه". ولم تبتهج لوصولي اخت الزوج السيدة "بوي دي لاتور" -وتدعى السيدة "جيراردييه"- إذ كانت تجد البيت، الذي كنت موشكا ان اشغله، اكثر ملاءمة لها هي. ومع ذلك فإنها تركتني استولي عليه في أدب وتلطف، واصبحت اتناول وجباتي لديها، إلى ان وصلت "تيريز" وانتظمت في سكناي الصغيرة وحياتي.

❁❁❁❁❁

وكنت -منذ رحيلي عن "مونمورنسي"- قد احسست بيقين انني ساغدو، من ذلك الحين، جواب آفاق، هائما في الارض. ومن ثم فإنني كنت مترددا في السماح لـ"تيريز" بان تلحق بي، وان تشاركني حياة التجوال التي رايت انه قد قضي علي بها!.. وشعرت بان الروابط بيننا خليقة بان تتبدل من جراء هذه الكارثة، وان ما كان كرما وفضلا -من ناحيتي- من قبل، يجب ان يصبح كرما وفضلا من ناحيتها، بعد اليوم. وإذا كان ولاؤها قد ظل في حصانة ضد محني وتعاساتي، فإنها ولابد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات. وما كان أساها ليزيدني إلا هموما. أما إذا كانت مصائبي قد خففت من عواطفها نحوي، فلابد انها مسوقة إلى ان ترى في بقائها على ولاء مستمر لي، تضحية من ناحيتها. وبدلا من ان تشعر بالمتعة التي كنت احس بها إذ اشركها معي آخر كسرة من الخبز لدي، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورا بقيمة تضحيتها إذا قدر لها ان تتبعني إلى حيثما كان القدر يسوقني!

ومن الواجب أن اقول: إنني لم اتستر قط على اخطاء "ماما" ولا على اخطائي. ومن ثم فلا يجدر بي ان أبدي كثير محاباة لـ"تيريز" بدورها. وبقدر ما يسرني ان اكرم شخصا مثلها، جد عزيز على نفسي، فإنني ما كنت لابغي التستر على عيوبها، إذا اعتبر تحول عواطف القلب -التحول غير الإرادي- عيبا. ذلك انني كنت قد لاحظت من امد طويل، أن ودها لي قد فتر. وشعرت بانها لم تعد لي كما كانت في ايامنا الهنيئة. وقد زادني إحساسا بذلك، انني ظللت دائما على حالي نحوها.

---

(١) كان "كوريولانوس" قائدا رومانيا ادى لوطنه اجل الخدمات في القرن الخامس، ولكن مزاحميه اوغروا صدور الشعب ضده، فهرب لاجئا بمقاتل "الفولك"، المعادية للرومان، والتي كان قد هزمها من قبل. وقاد جيشا منها فحاصر "روما" وكاد يدمرها لولا ضراعات الشعب التي حملتها إليه امه وزوجته.

وفطنت -مرة أخرى- إلى شعور بالاستياء، كذلك الذي سبق أن فطنت إليه عندما كنت مع "ماما"، وكان له عين النتائج. وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذي لا وجود له في الطبيعة، فإن هذا هو عين الشعور الذي كان من المحتمل أن يراود أية امرأة أخرى، مهما تكن.

وما قدر للتصرف الذي اتخذته نحو أولادي -مهما يكن قد لاح لي متمشيا مع العقل والمنطق- أن يدع قلبي في سلام. فبينما كنت أفكر في كتابي: "**رسالة في التربية**"، شعرت بأنني قد أهملت واجبات لا حجة لي في إهمالها ولا عذر. ومالبث ندمي أن اشتد، حتى إنه انتزع مني -تقريبا- اعترافا علنيا بذنبي، في بداية كتاب "**إميل**". وقد ظل هذا الندم ملحوظا بعد ذلك، حتى ليغدو من المدهش حقا، أن ينحى أحد باللائمة علي، بعد مثل تلك الفقرة. على أن مركزي ظل -في ذلك الوقت- على حاله.. بل إنه تفاقم بسبب بغضاء أعدائي، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لي على ذنب. ومن ثم فإنني خشيت أن أكرر الذنب.. ولكي لا أتعرض لارتكابه، آثرت أن أقضي على نفسي بانتهاج زهد شديد، حتى لا أعرض "**تيريز**" إلى أن تجد نفسها -مرة أخرى- في نفس الوضع(١).

وإلى جانب هذا، كنت قد لاحظت أن معاشرة النساء كانت تؤثر على صحتي تأثيرا محسوسا.. ولقد أدت كل هذه الأسباب إلى أن عقدت عزمي على أمور لم أكن أواظب على اتباعها في بعض الأحيان، إلا أنني ازددت اطرادا في الدأب عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع. وفي هذه الفترة بالذات، شعرت بالبرود يدب في عواطف "**تيريز**" ولقد ظلت على وفاء لي، عن واجب وليس عن حب. وكان لابد من أن يلقي هذا ظلا على بهجة تعاشرنا، فخيل إلي أنها في وثوقها بأنني سأواصل رعايتها أينما كانت، تؤثر أن تظل في "**باريس**"، على أن تهيم معي في أرجاء الدنيا!.. ومع ذلك، فإنها أبدت كثيرا من الألم عند فراقنا، وانتزعت مني وعودا مغلظة بأن نصل شملنا من جديد، وقد عبرت عن هذه الرغبة -منذ رحيلي- للسيد الأمير "**دي كونتي**"، وللسيد "**دي لوكمبورج**"، بحرارة لم تجعل من العسير علي أن أجد الجرأة على أن أحدثها عن الانفصال فحسب، بل إنني لم أكد أقوى على أن أفكر في ذلك. ومن ثم فما إن شعرت في قرارة فؤادي بمدى استحالة استغنائي عنها، حتى أصبحت لا أفكر إلا في أن أدعوها، دون ما إرجاء. ولهذا فقد كتبت إليها كي تأتي!

وجاءت.. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقي إياها، ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة. وكم اهتز قلبانا عندما تعانقنا!... ويا لعذوبة دموع الفرح والحنان!.. لكم ارتوى منها فؤادي!.. فلماذا لم يتح لي أن أذرف منها بحورا؟!

*****

وكنت -عند وصولي إلى "**موتييه**"- قد كتبت إلى اللورد "**كيث**" مارشال "**ايقوسيا**" (اسكتلندا)، وحاكم "**نيوشاتيل**"، أنبهه بأنني قد لذت لاجئا بالأرض التي تخضع لسلطانه، وأساله أن يبسط علي حمايته. وقد أجاب بالكرم المعروف عنه، والذي كنت أتوقعه منه. ودعاني إلى أن أزوره. فذهبت في صحبة السيد "**مارتينيه**" -سيد ضيعة "**فال-دي ترافير**"- الذي كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته. وكان لوقار مظهر هذا السيد "**الأيقوسي**" الجليل الصالح، ومهابته، أثر في قلبي، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات، بداية ود حار بيننا، ظل دائما على قوته -بالنسبة لي- وكان جديرا بأن يظل كذلك، بالنسبة له، لولا أن الغادرين الذين حرموني كل عزاء في

(١) أي أنه لم يعد يعاشر "تيريز" معاشرة الأزواج، حتى لا تحمل ثمرة تضعه في موضع المذنب مرة أخرى!

الحياة، استغلوا غيابي وكهولته، فشوهوا من أمري لديه!

وكان "جورج كيث" -مارشال "ايقوسيا" بالوراثة، وشقيق الجنرال "كيث الشهير"، الذي مات ميتة مشرفة، في أعقاب حياة مجيدة -قد هجر بلاده في شبابه، إذ قضي عليه، دون محاكمة، لولائه لآل "ستيوارت"، الذين لم يلبث ان عافهم لما الفاه لديهم من روح ظالمة طاغية، كانت دائما طابع حكمهم. ولقد اقام زمنا طويلا في "إسبانيا"، ولكن جوها لم يطب له، وانتهى الأمر إلى ما انتهى باخيه من قبل، فارتبط بملك "بروسيا"، الذي كان خبيرا بالرجال، والذي كان يتلقاهم بما هم به جديرون. ولقد تلقى الجزاء وافيا على هذا الاستقبال، بما اداه له المارشال "كيث" من خدمات جليلة، وبما هو اثمن من هذا.. واعني بذلك ود السيد "اللورد المارشال". فما كان هذا الرجل الجليل، المفعم بالحرية والكرامة، والذي أوتي نفسا كبيرة، لينحني إلا لربقة الصداقة والود. على أنه في انحنائه للصداقة كان بسف، إلى درجة انه لم يعد يتطلع إلى غير "فردريك"، منذ تعلق به. ولقد عهد إليه الملك بشؤون مهمة، واوفده إلى "باريس" وإلى "إسبانيا"، حتى إذا رآه -في النهاية- قد طعن في السن، واصبح في حاجة إلى الراحة، انعم عليه بحكم "نيوشاتيل"، حيث راح يقضي ما تبقى له من عمر في عزلة، وقد وجد في إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة! اما اهالي "نيوشاتيل" -الذين لم يكونوا يغرمون بغير المظاهر والسفاسف، والذين لم يؤتوا القدرة على ان يحكموا على حقائق الاشياء والرجال، والذين كانوا يولعون بالإطالة في الحديث- فإنهم حين رأوا الرجل هادئ النفس، بعيدا عن التظاهر، اخذوا بساطته على انها ترفع، وصراحته على أنها غلظة، وإيجازه في الكلام على أنه غباء، وثاروا على تدابيره وجهوده الرامية إلى الخير، لانه -في رغبته في أن يكون نافعا، دونما تشدق او من- لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدروه حق قدره. ففي قضية القس- "بيتيبيير"- الذي اضطهده زملاؤه من رجال الدين، لأنه ابى أن يؤمن انهم ملعونون إلى الأبد، وقف اللورد في وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال، فإذا بهم يؤلبون عليه كل البلاد التي كان يعمل من اجلها. ولم يكن هذا الهياج الأخرق قد سكن تماما، في آونة وصولي إلى هناك. إذ كان اللورد معتبرا كرجل متشبث برأيه، ومعتد به -على الأقل- وكانت هذه ادنى الاتهامات التي كان يرمي بها إلى المظلم!

ولقد كان أول شعور خالجني -إذ ابصرت هذا الشيخ الوقور- هو الإشفاق على هذا الجسد النحيل، الذي انهكته الشيخوخة. ولكنني لم اكد ارفع عيني إلى تلك الأسارير القوية، الصريحة، النبيلة، حتى شعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولي علي، ويطغى على كل إحساس آخر. ولقد رد علي التحية الموجزة التي رفعتها إليه -حين قدمت نفسي- بان تحدث عن امر آخر، وكانني كنت معه منذ أيام ثمانية. بل إنه لم يأمرنا بالجلوس، فظل سيد الضيعة -ذو الشباب المنشاة- واقفا. أما انا، فقد رأيت في نظرة اللورد الحادة، واللطيفة -في آن واحد- عطفا لم ادر كنهه، اشعرني بارتياح وطمأنينة، فإذا بي اشاطره اريكته -في غير ما كلفة- فاجلس إلى جانبه. وادركت من اللهجة الاليفة -التي التزمها فورا- أن هذا التحرر مني، صادف قبولا لديه، وأنه قال لنفسه: "هذا ليس على شاكلة ابناء "نيوشاتيل"!".

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذة!.. وفي السن التي يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوي دفئا، بدرجة ادهشت كل امرئ. ولقد جاء لزيارتي في "موتيير"، بحجة صيد السماني فقضى يومين، دون أن يمس بندقية!

وتوطدت بين الأمير وبيني صداقة -فهذه الكلمة الصحيحة- حتى لم يعد بوسع أحدنا أن يستغني عن الآخر. وكان قصر "كولومبييه" -الذي اعتاد أن يقيم فيه، في الصيف- على ستة فراسخ من "موتييه"، فكنت أذهب في كل خمسة عشر يوما -على الأكثر- لأقضي هناك أربعا وعشرين ساعة، ثم أعود بقلب مليء بالأمير دائما، وكأنني كنت في حج. ومن المحقق أن الأحاسيس التي كنت أعهدها في طريقي من "ليرميتاج" إلى "أوبون" -من قبل- كانت تختلف عن هذه التي كنت أستشعرها في عودتي من "كولومبييه" إلى "موتييه"، بيد أنها لم تكن تفوق هذه لطفا وعذوبة. فكم من دموع كنت كثيرا ما أنفقها -في طريقي- حنانا، إذ أفكر في المكرمات الأبوية، والفضائل الحبيبة، والفلسفة الرقيقة التي أوتيها هذا الشيخ الجليل!.. واعتدت أن أدعوه أبي، فكان يدعوني ابنه. وإن هذين النداءين المستعذبين ليوحيان -إلى حد ما- بفكرة عن المودة التي وحدت بيننا، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر، والرغبة في أن يظل قربنا مستمرا. وراح يصر على الرغبة في أن أقيم بقصر "كولومبييه"، وأخذ يستحثني طويلا على أن أتخذ الجناح الذي كنت أنزل به مسكنا لي، ولكنني -في النهاية- أنبأته بأنني كنت أنعم بمزيد من الحرية في مسكني الخاص، وأنني كنت أوثر أن أنفق عمري في السعي لزيارته. فارتاح إلى صراحتي، ولم يعد إلى إثارة الموضوع.

أواه! يا مولاي الطيب!.. أواه، يا أبي الكريم!.. لكم يهتز قلبي -حتى اليوم- كلما تذكرتك!.. آه، يا للقساة الغلاظ!.. أية ضربة أنزلوها بي إذ فرقوا بيننا! ولكن، كلا، ثم كلا، أيها العظيم.. إنك اليوم -وستظل دائما- كما كنت من نفسي! وإذا كانوا قد غرروا بك، إلا أنهم لم يحولوك قط(١)!

ولم يكن اللورد "المارشال" مبرءا من العيوب، فهو إنسان، وإن كان حكيما!.. ومع أنه أوتي أشد العقول قدرة على الغوص في أعماق الأمور، وأرق أسلوب يؤتاه بشر، وأعمق معارف الإنسان، إلا أنه كان يستسلم لتغرير الغير به، ولم يكن خداعه ليستعصي عليهم.. كان ذا مزاج فذ، فقد كان يشوب سير عقله شيء من الغرابة والطرافة. كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان بصره يقع عليهم في جميع الأيام، ثم يذكرهم في اللحظات التي لا يكاد يفكر فيهم خلالها. وكانت التفاتاته تبدو في غير مواضعها، وهداياه تمنح جزافا، دونما مراعاة لمناسبتها. فهو يبعث أو يمنح ما يخطر له عفو اللحظة، غير حافل بعظم قدر الهدية، أو ببخس قيمتها. ولقد قدم إليه يوما شاب من "جنيف"، كان راغبا في العمل في خدمة ملك "بروسيا"، فبدلا من أن يزوده اللورد بخطاب، دفع إليه بكيس صغير مليء بالبازلاء، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذي لم يكد يتسلم هذه التوصية العجيبة، حتى أنعم على حاملها بمنصب!.. إن لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة، لن يقدر للعقول العادية أن تفهمها!

وما كانت هذه التصرفات الطريفة، التي تشبه نزوات الحسناء، لتزيد "اللورد المارشال" إلا مكانة، ولقد كنت متأكدا -ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية- على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثر أي تأثير على أحاسيسه، أو على الاهتمام الذي تفرضه عليه الصداقة في جلائل الأمور. ولكن من الصحيح أنه في تفضله، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التي تخالط مسلكه. ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تافهة القيمة كهذه: ذلك أنه لما كانت الرحلة من "موتييه" إلى "كولومبييه" أشق من أن أقطعها في يوم، فإنني اعتدت أن أقسمها إلى شطرين. فكنت أشرع فيها بعد الغداء، وأقضي الليل في "برو"، القائمة في منتصف الطريق. وكانت لصاحب النزل -ويدعى "ساندوز"- حاجة في برلين، يعلق عليها أهمية كبرى. فرجاني أن أسأل صاحب السعادة أن يطلبها له باسمه. ووافقت عن

---

(١) من الصحيح أن اللورد "المارشال". كان وثيق الصلة بـ"هيوم"، ومن ثم فإنه تأثر للأخطاء التي ارتكبها "روسو" نحو الأخير. ولكنه ظل صادق الود لـ"روسو" برغم ذلك. حتى إنه أهداه قبيل موته -وقد توفي في "مايو" سنة ١٧٧٨. سابقا "روسو" بستة أسابيع- ساعة لم يكن يفارقها.

طيب خاطر، فاصطحبته، وتركته في الحجرة الخارجية، ثم ذكرت مسالته للورد، الذي لم يرد بشيء! . . وانقضى الصباح. وفيما كنت اقطع البهو، في طريقي إلى الغداء، رايت "ساندوز" المسكين، وقد انهكه الانتظار. وخطر لي ان اللورد قد نسي امره، فعدت إلى الحديث عنه قبل ان يجلس إلى المائدة. ولكنه لم ينبس بكلمة، كما فعل من قبل. . واشتممت من مسلكه انه كان يوحي بانني قد تجاوزت حدي في مضايقته، فلذت بالصمت، وانا ارثي لـ"ساندوز" المسكين في سريرتي! . . وشد ما كانت دهشتي حين قابلني في عودتي -في اليوم التالي- بشكر دافق لما اتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة، وشهي الطعام، فضلا عن تكفله باوراقه. وبعد ثلاثة اسابيع، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التي كان يسعى وراءها، وقد اعدها الوزير ووقعها الملك. . كل هذا دون ان يبدي اقل رغبة في الحديث إلي، ودون ان يرد علي او عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الامر الذي خيل إلي انه كان غير راغب في ان يتكفل به!

وبودي الا اكف عن الكلام عن "جورج كيث"، فمنه تواتيني آخر ذكرياتي السعيدة، اما بقية عمري فلم يكن سوى هموم وشجون تعتصر القلب. ولشد ما تبعث ذكراها الأسى في نفسي، فهي تواتيني مضطربة مهوشة، حتى ليعز علي ان احتفظ بانتظام سياق قصتي، ومن ثم فساضطر -منذ الآن- إلى ان اسوقها عفوا، وحسب ما تخطر لي، لا حسب ما وقعت!

*****

لم يطل بي أمد القلق بشان المكان الذي لجات إليه، بفضل رد الملك على اللورد "المارشال" الذي وجدت فيه -كما يسهل الحدس- محاميا بارعا. فإن جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب، بل إنه كلفه -كما ينبغي ان يقال- بان يمنحني اثني عشر "لوي". وإذ شعر اللورد الطيب بالحرج من مهمة كهذه، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه في تلطف، سعى إلى تخفيف ما في تنفيذها من جرح لشعوري، بان حول النقود إلى حاجيات مادية، فاشار إلي، انه تلقى امرا بان يزودني بالخشب والفحم اللازمين لي في بداية استقراري في المسكن الصغير. بل إنه اضاف إلى هذا -وربما صدر في ذلك عن إيعاز من نفسه- بان الملك سيسر بان يعمل على بناء منزل صغير لي، وفق هواي، إذا انا اخترت الموقع. ولقد اثر هذا العرض الاخير في نفسي ابلغ تاثير، وانساني رذالات الآخرين. وبدون ان اقبل ايا من الهبتين، رحت انطلع إلى "فردريك" كراع لي وحام. فملت إليه بولاء صادق، حتى إنني اهتممت بسمعته، فوجدت -منذ ذلك الحين- كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته. وعندما عقد الصلح -بعد ذلك بقليل- اعلنت اغتباطي بزينات مفرطة الجمال، تمثلت في حبل من زهور الغار زينت به الدار التي كنت اقيم فيها، وانفقت عليه -بدافع من الانتقام لكرامتي، في الواقع- مبلغا يوازي ذاك الذي أراد ان يمنحنيه.

وخيل إلي، وقد استتب السلام، وأصبح صيت الملك الحربي والسياسي في أوجه، انه لن يلبث ان يسعى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر، وذلك بإنعاش ولاياته، فيمكن للتجارة والزراعة من ان تتسعا، ويستصلح الاراضي ويعمرها بخلق جديد، ويحافظ على السلم مع جيرانه، ويغدو داعية الوئام في "أوروبا"، بعد ان كان مصدر الذعر. كان بوسعه أن يغمد السيف دون ان يتعرض لخطر، وهو مطمئن إلى انه لن يضطر إلى ان يشهره من جديد. فلما رايت انه لم يخفض من تسلحه، خشيت ان يسيء استغلال ميزاته، والا يمضي في طريق العظمة إلا إلى منتصفه. فجرؤت على ان

أكتب إليه بهذا الصدد، متخذا أسلوب الألفة -وهو خير ما ينتهج لإرضاء الرجال الذين من نوعه- حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس، الذي لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك!.. وما استبحت هذا لنفسي إلا في الخفاء، وفيما بيننا فقط، فلم أشرك أحدا، ولا سيدي المارشال، الذي أرسلت إليه الخطاب الموجه إلى الملك مغلقا، فأرسله بدوره إلى هذا، دون أن يطلع على ما حواه، ولم يجب الملك بشيء. وبعد ذلك بوقت قصير، ذهب سيدي المارشال إلى "برلين" فاكتفى بأن قال له: إنني عنفت في تأنيبه!.. وأدركت من ذلك أن خطابي لم يلق استحسانا، وأن تحمسي الصريح أخذ على محمل التطفل الخشن، وقد يكون الأمر كذلك، في جوهره. ولعلني لم أقل ما كان ينبغي أن يقال، ولا اتخذت اللهجة التي كان ينبغي أن أتخذها. ولكني لا أحاسب نفسي إلا عن الشعور الذي دفع بالقلم إلى يدي!

وبعد استقراري في "موتييه-ترافير" بوقت قصير، واطمئناني إلى كل الضمانات التي تكفل لي العيش في سكينة، اتخذت الزي الأرمني. ولم تكن الفكرة بالجديدة علي، فقد خطرت لي مرارا في سياق حياتي، ثم عاودتني كثيرا في "مونمورنسي"، حيث كان استخدامي المستمر للمجسات "لعلاج احتباس البول"، يضطرني إلى أن ألزم مخدعي في كثير من الأحيان، مما جعلني أكثر شعورا بفوائد الثوب الطويل. ولقد ساقت المصادفة حائكا أرمنيا، كان يكثر من التردد على قريب له في "مونمورنسي"، فأغراني ذلك بأن أنتهز الفرصة لأتخذ الزي الجديد، برغم ما قد يتقوله الناس، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم. على أنني شئت -قبل أن أرتدي هذه الحلة الجديدة- أن أتعرف رأي السيدة "دي لوكسمبورج"، فحبذت كل التحبيذ رأيي. ومن ثم فإنني أعددت "طاقما" صغيرا من الملابس الأرمنية، بيد أن الضجة التي أثيرت ضدي، جعلتني أرجئ استخدامه إلى وقت يكون أكثر هدوءا. ولم يتسن ذلك إلا بعد بضعة أشهر، عندما اضطررت إلى العودة إلى استخدام المجسات، مدفوعا بنوبات جديدة لعلتي.. فخيل إلي أن بوسعي أن أتخذ هذا الزي في "موتييه"، دون أن أتعرض لشيء، لا سيما بعد أن استشرت راعي كنيسة المنطقة، فأنبأني بأن بوسعي ارتداءه -حتى في الكنيسة- دون ما استحياء أو إنكار. ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان، والقلنسوة المصنوعة من الفرو، والحزام. وبعد أن اشتركت في أداء الفروض الدينية بهذا الزي، لم أر أي ضير في أن أرتديه في زيارتي لسيدي "المارشال". وما إن رآني سعادته في هذا اللباس، حتى قال، على سبيل الملاطفة: "السلام عليكم"، فكان في هذا حسم الأمر، ولم أعد بعد ذلك أرتدي زيا آخر!

*****

ولما كنت قد هجرت الأدب تماما، فإنني لم أعد أفكر إلا في ممارسة حياة هادئة، وادعة، في نطاق إمكاني. فما عرفت يوما -حين أخلو إلى نفسي- معنى الملل، حتى عندما أكون متعطلا تماما.. إذ إن خيالي كفيل بأن يملأ كل فراغ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه. ولكن الذي أعجز عن احتماله دائما، هو الثرثرة الخاملة، بين جدران أربعة، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض، دون أن يحركوا شيئا سوى ألسنتهم!.. كذلك المشي والتريض من الأمور التي أحتملها، إذ إنهما يمكنان القدمين والعينين من أن تعمل، على الأقل!.. أما الجلوس بذراعين معقودتين، والحديث عن الجو، والذباب يحلق في المكان، أو تبادل المجاملات -وهو أسوأ مما سبق- فهذا عبء لا يطاق بالنسبة لي.

ولقد راق لي -حتى لا أعيش في عزلة وحشية- أن أشغل نفسي بالتطريز "اللاسيه"، فكنت أحمل وسادة الشغل في زياراتي، أو أنهمك في التطريز لدى بابي، وأنا أجاذب المارة الحديث، كما تفعل النساء!

ولقد ساعدني هذا على احتمال اللغو الفارغ، وعلى قضاء الوقت -دونما ضجر- في دور الجيران، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف، ولا ينقصهم الذكاء. وقد كانت من هؤلاء امرأة تدعى "ايزابيل دانفرنوا"، ابنة المدعي العام في "نيوشاتيل"، وقد لاح لي أنها جديرة بأن أرتبط معها برباط خاص من الود، لم تجد فيه ما يضيرها، بفضل النصائح النافعة التي كنت أزجيها إليها، وبفضل الخدمات التي كنت أؤديها لها في المناسبات الماسة.. فأصبحت اليوم أما محترمة، وربة أسرة فاضلة.. ولعلها مدينة لي بحكمتها، وزوجها، وحياتها، وسعادتها!.. أما أنا، فأدين إليها بكثير من التسرية الرقيقة، لا سيما خلال الشتاء الكئيب، عندما كانت عللي وأوجاعي ترقى إلى ذروتها. فكانت تأتي لتقضي مع "تيريز" وإياي السهرات الطويلة، التي تحذق تقصيرها بروحها المرحة، وبالثقة التي كانت متبادلة بيننا. وقد اعتادت أن تدعوني "بابا" وأناديها بـ"ابنتي". ولا نزال نستخدم هذين اللقبين، وإني لآمل أن أظل عزيزا عليها -دون انقطاع- كما هي عزيزة علي!

ولكي أجعل لأشغال "اللاسيه" نفعا، اعتدت أن أهديها إلى صديقاتي الشابات عند زواجهن، على شريطة أن يغذين أطفالهن بلبانهن. وعلى هذا، حصلت الأخت الكبرى لـ"إيزابيل" على مفرش من "اللاسيه"، وكانت جديرة به حقا.. ولكنها لم تسعد بحمل الأطفال، ولم يقدر لها أن تكون أما. ولقد حرصت -عند إرسال "اللاسيه" إلى "ايزابيل" وأختها- على أن أكتب لكل منهما رسالة. وقد طافت أولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم. أما الثانية، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة.. فإن الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج!

*****

ومن الصلات التي عقدتها في الجيرة -والتي لن أخوض في تفصيلاتها- علاقتي بالكولونيل "بوري"، الذي كان يمتلك دارا فوق الجبل، اعتاد أن يقضي فيها فصل الصيف. ولم أكن مشوقا إلى معرفته، إذ كنت قد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكي، ومع السيد المارشال، الذي لم يزره قط. ومع ذلك، فقد اضطررت إلى أن أزوره، إذ زارني وأبدى لي كثيرا من التكريم والحفاوة. وقد استمر تزاورنا، وكنا نتناول الطعام أحيانا، على مائدته أو مائدتي. ولقد تعرفت في داره بالسيد "دوبيرو"، الذي لم يلبث أن غدا صديقا حميما، حتى إنني لا أستطيع أن أتحاشى الحديث عنه.

كان السيد "دوبيرو" أمريكيا، ابن قائد "سورينام" الذي تزوجت أرملته من خليفته السيد "لوشامبريه" -من أبناء "نيوشاتيل"- حتى إذا ترملت مرة أخرى، وفدت مع ابنها ليقيما في بلاد زوجها الثاني. وكان "دوبيير" ابنا لا مثيل له، واسع الثراء، مشغوفا بحب أمه، وقد نشأ في رعاية وعناية، وأفاد من تربيته، إذ كان قد حصل قدرا كبيرا من المعرفة العامة، وكان على ميل إلى الفن، كما كان يفخر بأنه أنمى بنفسه مداركه وعقله، وكان مسلكه فاترا، فيلسوفيا، على نسق الهولنديين.. وكانت بشرته السمراء، وخلقه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد. وكان أصم، ومصابا بالنقرس، بالرغم من أنه كان شابا. وقد جعل هذا حركاته جد متزنة، ومفرطة في التثاقل. ومع أنه كان يحب النقاش -ويطيله في بعض الأحيان- إلا أنه كان قليل الكلام، بوجه عام، لأنه لم يكن يسمع!

ولقد غرني كل هذا المظهر، فقلت لنفسي: "ها هو ذا رجل مفكر، عاقل، من الصنف الذي يسعد المرء بصداقته". ومما زادني اغترارا فيه، انه كان كثيرا ما يوجه إلي الحديث، دون اي إطراء. وكان قليل الحديث عني وعن كتبي، واقل من ذلك عن نفسه. ولم يكن خلوا من الآراء، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا إلى درجة كبيرة. وقد اجتذبتني إليه هذه الدقة، وهذا الصواب. ولم يؤت عقله شيئا من السمو ولا من الإرهاب اللذين اوتيهما السيد "المارشال"، ولكنه اوتي البساطة.. فكانت تتمثل دائما في كل شيء.

ولم اشغف به، ولكنني انجذبت إليه بشعور من التقدير، وقد افضى هذا التقدير -تدريجا- إلى الصداقة. ولقد نسيت تماما -في صداقتي معه- الاعتراض الذي كنت ابديته إزاء صداقتي مع البارون "دولباخ"، وذلك انه كان واسع الثراء.. واعتقد انني كنت في ذلك على خطأ. فلقد تعلمت ان ارتاب في ان اي رجل اوتي ثروة طائلة، يستطيع أن يحب مبادئي بإخلاص، وان يحب صاحبها!

ولقد ظللت فترة طويلة، لم اكن ارى "دو بيرو" فيها إلا لماما، إذ إنني نادرا ما كنت اذهب إلى "نيوشاتيل"، كما انه لم يكن يزور الكولونيل "بوري" -في بيته الجبلي- إلا مرة في العام. فلماذا لم اكن اذهب إلى "نيوشاتيل"؟.. لسبب صبياني، لا ارى ان اغفله.

ذلك انني وإن كنت -في حماية ملك "بروسيا" والسيد "اللورد"- قد نجوت، في البداية، من الاضطهاد في البلد الذي لذت به، إلا انني لم انج قط من تمتمات الجمهور، ومستشاري البلدية، والقساوسة. وبعد المثل الذي ضربته "فرنسا"، لم يكن من المستحسن الا توجه إلي بعض الإهانات، على الاقل. فلقد خشي القوم ان يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدي، إذا هم لم يقلدوهم. وكانت الطبقة الممتازة في "نيوشاتيل" -واعني جماعة القساوسة في تلك المدينة- هي البادئة، إذ حاولت ان تؤلب مجلس الدولة ضدي. فلما لم يقدر لهذه المحاولة النجاح، اتجه القساوسة إلى اعضاء المجلس البلدي، الذين بادروا بتحريم كتبي، وراحوا في كل مناسبة يعاملونني في ازورار، ليوحوا إلي -بالقول وليس بالإشارة فحسب- بانني إذا كنت ابغي الاستقرار في مدينتهم، فإنهم لن يطيقوا مقامي. وملئوا اعمدة صحيفتهم "ميركور" بالسفاسف المضحكة، والانتقادات السطحية، التي اضحكت ذوي الإدراك، ولكنها لم تخفق في إثارة الجمهور وتحفيزه ضدي. وما كان سماعي بكل هذا ليمنعني من ان اكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ، إذ سمحوا لي بان اقيم في "موتيير"، حيث لم يكن لهم اي سلطان.. فقد كانوا خليقين بان يقيسوا الهواء بالشبر، ليتقاضوا مني -في مقابله- ثمنا باهظا! فلقد كانوا تواقين إلى ان يشعروني بانني اسير فضل كبير لهم، من جراء الحماية التي اضفاها الملك علي بالرغم منهم، والتي كانوا دائبين على العمل لحرماني منها، وإذ تبينوا -اخيرا- انهم لن يوفقوا في ذلك، وبعد ان الحقوا بي كل ما كان بوسعهم من إيذاء، واساءوا إلي بكل ما في طاقتهم، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة، بان راحوا يمنون علي بفضلهم إذ تحملوا بقائي في بلادهم. وكان الجواب الوحيد الذي يخلق بي ان اوجهه إليهم هو: ان اضحك منهم ساخرا. لكنني -بدلا من ذلك- كنت من الغباء بدرجة انني غضبت، وكنت من الحماقة بدرجة ان عقدت العزم على الا اذهب إلى "نيوشاتيل".. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا، وكانني لم اكن أبدي لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الإكبار، بما كنت ابديه من احتفال بمسلكهم الذي ما كانوا ليعتبروا مسؤولين عنه -سواء كان طيبا او خبيثا- لانهم ما كانوا ليتصرفوا قط، دون تحريض! وإلى جانب ذلك، فإن العقول الخالية من الثقافة والنور، لا تعرف هدفا تقدره سوى الصيت، والنفوذ، والمال.. وهي بعيدة كل البعد عن أن تحدس ان

المواهب جديرة بشيء من الاحترام، وأن في إهانتها عارا يحط من أقدارهم!

ولقد قال مرة أحد عمداء القرى -وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته- لرئيس بولي "فال-دي-ترافير"، الذي كان زوجا لصديقتي "ايزابيل": "يقال: إن هذا الـ"روسو" رجل واسع العقل، فهاته لي، كي أتبين مدى صدق هذا!". ومن المؤكد أن عدم رضاء رجل يتحدث بهذه اللهجة، لا يستحق أن يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم!

*****

وعلى ضوء الطريقة التي عوملت بها في "باريس"، و"جنيف"، و"بيرن"، و"نيوشاتيل" ذاتها، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار، من الراعي الديني للمنطقة. ومع ذلك فإن السيدة "بوي ديلاتور" كانت قد أوصته بي خيرا، وكان قد استقبلني في حفاوة بالغة. ولكن المجاملات لم تكن تعني شيئا، في هذا البلد الذي كان النفاق يسوده. على أنني بعد عودتي الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية، وإقامتي في بلاد بروتستانتية، لم أعد أملك إهمال إبداء إيماني للملأ بالدين الذي عدت إليه، وإلا كنت ناكثا بعهودي، مغفلا واجباتي كمواطن. ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية. ولكني من ناحية أخرى، كنت أخشى أن يؤدي حضوري المادبة الربانية، إلى أن أتعرض للإهانة بأن يرفض القس السماح لي بتناول القربان. فما كان من المحتمل إطلاقا -بعد الضجة التي أقامها المجلس ضدي في "جنيف"، وتلك التي أثارها رجال الدين في "نيوشاتيل" -أن يقوم القس بطقوس المناولة لي، في هدوء، في كنيسته. ولما كان موعد المناولة يقترب، فقد قررت أن أكتب إلى السيد "دي مونمولان" -وهذا اسم القس- معربا عن حسن نواياي، ومعلنا له أنني كنت مرتبطا بقلبي بالكنيسة البروتستانتية دائما. وقلت له في الوقت ذاته -تفاديا لكل خلاف على نصوص العقيدة-: إنني لم أكن راغبا في أي شرح خاص لأسس العقيدة.. وإذ أوضحت موقفي -بهذا الشكل- لزمت الهدوء، والشك لا يخامرني في أن السيد "دي مونمولان" لن يأبى أن يعفيني من المناقشات الأولية -التي تسبق المناولة عادة، والتي كنت مصرا على ألا أخوضها إطلاقا- وأن المسألة ستسوى على هذا الوضع، دونما لوم ينصب علي.

ولكن شيئا من هذا لم يحدث! ففي اللحظة التي لم أكن أتوقع فيها هذه المفاجأة، إذا بالسيد "دي مونمولان" يقبل.. لا لينبئني بأنه كان راضيا عن مناولتي القربان -بالشرط الذي ذكرته- فحسب، وإنما ليخبرني فوق هذا، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن في وجودي عضوا بين رعاياهم شرفا لهم!.. أبدا لم أفاجأ في حياتي كما فوجئت بذلك، وأبدا لم أجد في شيء ما وجدت في هذا النبأ من عزاء.

كان اضطراري إلى العيش في عزلة على الدوام، يبدو لي مصيرا جد كئيب، لا سيما في أوقات المحنة. ففي وسط كل هذه الأحكام التي كنت أدمغ بها -دونما إنصاف- وكل هذه الاضطهادات، كنت أجد ترفيها بالغا في أن أستطيع أن أقول لنفسي: "هأنذا بين أخوة، على الأقل!". ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلب يفيض بالانفعالات، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله، ويستطيع امرؤ أن يحملها إلى المائدة الربانية!

وأرسل لي السيد "اللورد" -بعد ذلك بزمن- رسالة من السيدة "دي بوفلير"، جاءت -كما خيل إلي- عن طريق "دالمبير" الذي كان يعرف السيد "المارشال". وكانت هذه هي الرسالة الأولى التي

كتبتها إلي هذه السيدة، منذ رحيلي عن "مونمورنسي"، وقد لامتني فيها -أشد اللوم- على أنني كتبت إلى السيد "دي مونمولان"، وعلى انني تناولت القربان، بوجه خاص. ولم أكد افهم داعيا للومها هذا، إذ إنني -منذ رحلتي الاولى إلى "جنيف"- كنت اعلن جهارا انني بروتستانتي، وقد ترددت علانية على كاتدرائية "هولندا"، فلم ير أحد في هذا اي سوء. وبدا لي من المضحك ان ترغب السيدة الكونتة "دي بوفلير" في ان تقحم نفسها في توجيه ضميري، من الناحية الدينية. على انني كنت لا ارتاب في ان نواياها -لا سيما هذه التي لم استطع ان افهمها- هي خير النوايا، ومن ثم فإنني لم استأ من هذا العتاب العجيب، بل اجبت في غير غضب، واوضحت لها الأسباب.

وفي تلك الاثناء، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة، كشأنها من قبل، وكان مؤلفوها "الكرام!" يؤنبون السلطات لانها تعاملني في لين فوق ما ينبغي. ولقد كان هذا النباح -الذي ظل قادته يعملون في الخفاء- نذير شؤم وفزع. على انني -من ناحيتي- تركتهم يقولون ما شاءوا، دون ان اتأثر. ولقد اكد لي البعض ان ثمة قرارا بلومي على كتبي، قد صدر عن "السوربون"، فأبيت ان اصدق ذلك(١).

إذ كيف للسوربون ان يتدخل في هذه المسألة؟ فهل اريد بذلك تاكيد انني لم اكن كاثوليكيا؟ لقد كان كل امرئ يعرف هذا بالفعل!.. أم أريد به إثبات انني لم اكن من اتباع "كالفن" الصالحين(٢)؟ فاي شأن للسوربون في هذا؟.. كان معنى هذا ان "السوربون" اخذ على عاتقه مهمة نافذة، واناب نفسه عن قساوستنا. وأيقنت -قبل ان ارى الوثيقة- انها كانت تروج باسم "السوربون"، للسخرية منه، وقد ازددت اقتناعا بذلك عندما قرأتها.

وعندما عجزت عن ان اشك في صحة صدورها عن "السوربون" -في النهاية- لم يبق لي ما افكر فيه سوى انه كان من الواجب تحويل "السوربون" إلى مصحة للأمراض العقلية!

سنة ١٧٦٣

وهناك وثيقة اخرى اثرت في نفسي فوق تاثير هذه، لانها صدرت عن رجل كنت اقدره -على الدوام- وكنت اعجب بجلده وانا ارثي لضياع بصره. واقصد بهذا القول الرسالة الاسقفية التي كتبها كبير أساقفة باريس ضدي. ولقد خيل إلي أن ليس ثمة داع لان ارد عليها. وكان بوسعي ان افعل، دون ان انزل من قدر نفسي. فقد كانت مسألة قريبة الشبه من مسألة ملك "بولندا". وما كنت يوما مولعا بالمشاحنات الوحشية، "على طريقة فولتير"!.. فلست اجيد سوى النزال الذي يحفظ للمرء كرامته، ولابد -قبل أن أتنازل بالدفاع عن نفسي- من ان استوثق بأن الذي يهاجمني لن يشوه ضرباتي!

ولم يداخلني شك في ان هذه الرسالة الاسقفية كانت من عمل "الجيزويت"، ومع انهم كانوا إذ ذاك منكوبين، إلا انني رايت في هذا العمل مصداقا لمبدئهم القديم.. "مبدأ سحق المنكوبين" ومن ثم فقد كان بوسعي ان اتبع -انا الآخر- مبدئي القديم، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب. وهذا ما اعتقد انني وفقت في ادائه.

---

(١) كان "السوربون" معهدا لعلوم اللاهوت، في ذلك الحين. (٢) "جون كالفن" مصلح ديني سويسري، قام بنشر بإصلاح الكنيسة منذ سنة ١٥٣٢، ويسمى المذهب الذي قام على تعاليمه بالمذهب البريسبيتيري. وهو قريب من المذهب البروتستانتي.

ولقد وجدت إقامتي في "مونتيمور" جد مستحبة، فلم يكن يعوزني سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش، كي أقرر قضاء آخر أيام عمري هناك. بيد أن الحياة كانت باهظة التكاليف، وكانت كل مشروعاتي القديمة قد انقلبت رأسا على عقب، بسبب نزوحي عن مكان إقامتي القديم، والعمل على إنشاء مقر جديد لي، وبسبب بيع أمتعتي أو تبديدها، وبسبب النفقات التي كنت مضطرا إلي تكبدها منذ رحيلي عن "مونمورنسي". ورحت أرى رأس مالي الصغير يتضاءل يوما بعد يوم، حتى بات في وسع عامين آخرين أو ثلاثة، أن تأتي على ما تبقى منه، دون أن أرى موردا آخر لتعويضه، اللهم إلا إذا شرعت في تأليف الكتب من جديد.. وممارسة المهنة المشؤومة التي كنت قد نبذتها!

*****

وإذ كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث أن تتطور عما قريب، وأن الرأي العام لن يلبث أن يثوب من تهوسه، وأن يحمل السلطات على أن تخجل من تصرفها، فكان همي الأوحد، هو أن أجعل مواردي تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد، الذي سيتيح لي وضعا، أكون أكثر مقدرة فيه على أن أختار موردا من الموارد التي تعرض لي. وفي سبيل ذلك، عدت إلى استئناف موسوعتي الموسيقية التي كنت -بعد جهد استغرق عشر سنوات- قد قطعت شوطا بعيدا فيها، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة، وأن تنسخ نسخا نظيفا. ولقد وفرت لي كتبي -التي كانت قد أرسلت إلي منذ وقت قصير- وسائل إتمام هذا المؤلف.. كما أن أوراقي -التي أرسلت إلي في الوقت ذاته- مكنتني من البدء في مشروع مذكراتي، التي اعتزمت أن أجعلها شاغلي الوحيد، من ذلك الحين. وقد شرعت في نسخ الرسائل في مجموعة تهدي ذاكرتي إلى نظام الوقائع والتواريخ. وكنت قد اخترت تلك الرسائل التي رأيت أن أعدها لهذا الغرض، وقد نسقت في تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا. غير أنني تبينت -وأنا أراجعها لأنسخها- ثغرة خلالها أدهشتني. وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر، من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٦ إلى آذار (مارس) التالي!

وكنت أذكر تمام التذكر أنني ضمنت مجموعتي عددا من الرسائل التي تلقيتها من "ديدرو"، و"دي ديليير"، والسيدة "ديبيناي"، والسيدة "دي شينونسو" وغيرهم، والتي كانت تملأ هذه الثغرة، ولم يعد لها وجود. فما الذي جرى لها؟.. هل عبثت يد بأوراقي أثناء بضعة الأشهر التي مكثتها في قصر "لوكسمبورج"؟.. كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول، إذ إنني رأيت السيد "المارشال" يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التي أودعت فيها هذه الأوراق. ولما كان كثير من رسائل السيدات، وكل رسائل "ديدرو"، لا تحمل تاريخا، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة، وكنت كمن يتلمس طريقه في الظلام لتنسيق ترتيبها، فقد ظننت -في بادئ الأمر- أنني ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ.. ورحت أراجع كل الخطابات التي لم تكن تحمل تواريخ، أو التي كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسي، لأتبين ما إذا لم يكن بوسعي العثور على تلك التي كانت لازمة لملء الثغرة.

ولم تفلح هذه المحاولة، فتبينت أن الفراغ كان قائما حقا، وأن الخطابات كانت قد رفعت من مكانها يقينا. فمن الذي رفعها، ولماذا؟ هذا ما لم أستطع إدراكه!.. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتي الكبرى، وتمت إلى فترة نشوتي الأولى بـ"جولي". ومن ثم فإنها لم تكن ذات أهمية

لاحد. كانت تضم -في الغالب- بعض مشاكسات من "ديدرو"، وبعض سخريات من "ديليير"، وبعض تاكيدات للود من السيدة "دي شينونسو"، بل ومن السيدة "ديناي" التي كنت معها إذ ذاك على خير وئام. فمن الذي تهمه هذه الخطابات؟.. وماذا يراد بها.. ولكني لم أحدس الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات!

وحملني تاكدي من هذا النقص، على ان افحص مسوداتي لاتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر، فوجدت عددا منها مفقودا، ونظرا لقصور ذاكرتي، جعلني هذا افترض ضياع أوراق أخرى من أكداس اوراقي. وكانت المسودات التي لاحظت غيابها، هي تلك المتعلقة بكتاب "المبادئ الخلقية الحسية"، والفقرات المستخلصة من "مغامرات اللورد إدوار". واعترف ان غياب هذه الأخيرة، أوحى إلي بالشك في السيدة "دي لوكسمبورج". فلقد كان وصيفها الخاص "لاروش"، هو الذي نقل أوراقي، وما كنت لاتصور سواها -دون الناس اجمعين- من يهتم بمثل هذه القطعة. ولكن، اي اهتمام كان يدفعها إلى اخذ الثانية، وإلى اخذ الرسائل الغائبة، التي ما كان بوسع امرئ ان يفيد منها في مضايقتي -مهما تكن نياته خبيثة- اللهم إلا إذا زيفها؟.. أما السيد "المارشال"، الذي عهدت فيه استقامة لا تتذبذب، وصدقا في وده لي، فإنني لم املك ان ارتاب فيه لحظة واحدة. بل إنني لم املك ان اثبت هذا الشك على السيدة "المارشالة"!

وكان اكثر الافتراضات التي خطرت لي، تمشيا مع المعقول -بعد ان اضنيت نفسي وقتا طويلا في البحث عن مرتكب هذه السرقة- هو ان القي بالوزر على "دالمبير"، الذي كان قد وفق إلى اكتساب مكانة لدى السيدة "دي لوكسمبورج"، فكان من المحتمل ان يكون قد وفق إلى وسيلة للنبش في أوراقي، والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطوطات، أو من الرسائل، وسواء جريا منه وراء إثارة بعض الفتن، او لكي ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعا منها. وافترضت ان يكون قد أساء فهم عنوان "المبادئ الخلقية الحسية"، فخيل إليه انه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن "المادية"، يستطيع ان يستغلها ضدي بالقدر الذي صوره له خياله. وإذ كنت واثقا بانه لن يلبث ان يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على ان اهجر الأدب نهائيا، فإنني لم اهتم كثيرا بهذه السرقات، التي لم تكن اول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها، والتي احتملتها دون ما شكوى. فلقد وجدت في كتاب "دالمبير": "مبادئ الموسيقى" كثيرا من الاشياء الماخوذة عما كنت قد كتبته في هذا الفن لدائرة المعارف، والتي كانت قد ارسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة. وإني لاجهل ما قد يكون له من نصيب في كتاب بعنوان "موسوعة الفنون الجميلة"، ولكني وجدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالاتي.. قبل ان تنشر هذه في دائرة المعارف!

وسرعان ما كففت عن التفكير في هذه الخيانة، وكأنما لم يرتكب ضدي قط عمل كهذا، وشرعت انسق المواد التي تبقت لي، لكي اتوفر على "اعترافاتي".

❀❀❀❀❀

وكنت قد ظللت طويلا اعتقد ان جماعة القساوسة في "جنيف"، او ان المدنيين وسكان المدن -على الأقل- لن يلبثوا ان يحتجوا على انتهاك القانون، في المرسوم الذي كان قد اصدر ضدي، بيد ان كل شيء ظل ساكنا.. في الظاهر على الأقل، إذ إنه كان ثمة تذكر عام، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده. وكان اصدقائي -أو من يسمون انفسهم كذلك- قد كتبوا لي الرسائل

تلو الرسائل، يستحثونني على ان اذهب فاضع نفسي على راسهم، مؤكدين لي ان المجلس لن يلبث ان يصدر اعتذارا علنيا، إذ ذاك. على ان الخوف من القلاقل والاضطرابات، التي قد يثيرها وجودي، منعني من قبول إلحاحهم.

وفي وفائي للعهد الذي كنت قد اخذته على نفسي في الماضي، بالا اقحم نفسي في اي شقاق اهلي في بلادي؛ ولذلك آثرت ان يبقى انتهاك العدالة قائما على حاله، وان احرم وطني على نفسي إلى الأبد، على ان الجه بوسائل عنيفة وخطرة. ومن الصحيح انني كنت ارتقب من ابناء المدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التي كانت تهمهم إلى اقصى حد، إلا ان شيئا من هذا لم يحدث. فإن اولئك الذين كانوا يقودونهم، لم يكونوا يسعون إلى علاج الاخطاء والمساوئ، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من انفسهم قادة لا غنى عنهم. وكانوا يسعون بالتحريض، ولكنهم لزموا الصمت، واطلقوا الزمام للشائعات والاكاذيب التي كان المجلس يروجها ليشوه من سمعتي امام الاهالي، وليعزو إساءاته إلى الحماس الديني!

وبعد أن انتظرت -دون جدوى- اكثر من عام، على امل ان يحتج احد على الإجراء غير القانوني، استقر رأيي -في النهاية- على قراره وإذ وجدت نفسي مهجورا من مواطني، صممت على ان انبذ وطني الجاحد، الذي لم اقم فيه قط، والذي لم أتلق منه خيرا ولا عونا، والذي جازاني على الشرف الذي سعيت لإضفائه عليه، بان وافق بالإجماع على معاملة مهينة. وإذ لم ينبس بكلمة اولئك الذين كان ينبغي عليهم ان يتكلموا، كتبت إلى "السنديك الاول" (١) لذلك العام -وكان السيد "فافر"، على ما اظن -رسالة نزلت فيها بشمم عن حقي في ان اكون مواطنا، وراعيت فيها- إلى جانب ذلك- الادب والاعتدال اللذين كنت احرص عليهما في التصرفات المتعلقة بكرامتي، والتي كثيرا ما كانت قسوة أعدائي تدفعني إليها في اوبقات محنتي.

وفتحت هذه الخطوة اعين المواطنين، فاحسوا بانهم قد اذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلوا عن الدفاع عني، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان. وكانت لهم مظالم اخرى ضموها إلى هذه، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة، جد معقولة، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها، نتيجة للرفض الجاف المثبط الذي اخذ المجلس يقابلها به، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسي، مما جعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطة التي كانت موضوعة لاستبعادهم. ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة، لم تبت بشيء، إلى ان ظهر فجاة "رسائل كتبت من الريف". وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له، وقد افحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن. وهذا الكتاب اثر باق على ما أوتي مؤلفه من مواهب نادرة، وهو من إنتاج المدعي العام "ترونشان" (٢)، وقد كان رجلا ذكيا، مستنيرا، متبحرا في القوانين وفي نظم الحكم الجمهوري.

سنة ١٧٦٤

وأفاق المتذمرون من هزيمتهم الاولى، فتولوا الرد، وخرجوا من مأزقهم على خير حال. ولكن الجميع راحوا يوجهون انظارهم نحوي، وكانني الوحيد الذي كان يقوى على مقارعة خصم كهذا يامل التغلب عليه. واعترف اني كنت ارى الراي ذاته، فلما اخذ مواطني القدامى يستحثونني

(١) رئيس المجلس الذي كان يتولى إدارة شؤون جمهورية "جنيف". (٢) جان روبير ترونشان، وهو غير "تيو دور ترونشان": الطبيب المشهور الذي ورد ذكره في الكراستين الثامنة والعاشرة. وكلاهما ابنا عمومة.

ويبينون ان من واجبي ان اساعدهم بقلمي في مازق كنت انا سببه. فعكفت على دحض "**رسائل من الريف**"، وقلبت العنوان إلى "**رسائل من الجهل**"، وهو الذي اتخذته لردي. وقد فكرت في هذا المشروع ونفذته في تكتم شديد، حتى إنني -في اجتماع مع رؤساء المتذمرين في "**تانون**"، لنتشاور في امورهم، وليطلعوني على مشروع ردهم- لم اشر بكلمة إلى ردي الذي كان قد اكتمل، خشية الا يتغلبوا على بعض العقبات في سبيل طباعته، لو ان اعضاء المجلس او اعدائي الشخصيين سمعوا أتفه همسة عنه. ومع ذلك فإنني لم استطع ان احول دون ان يذاع امر هذا المؤلف في "**فرنسا**" قبل نشره، على انه رؤي تركه يظهر، بدلاً من إطلاعي بجلاء على الوسيلة التي اكتشف بها سري. ولسوف ابين -فيما بعد- ما علمته، وإن لم يكن بالكثير، ولن اذكر شيئا عن هواجسي وتخميناتي.

كان الزائرون يتوافدون على داري في "**موتييه**"، بعين كثرتهم في "**ليرميتاج**" و"**مونمورنسي**" تقريبا. ولكنهم كانوا -في الغالب- من نوع آخر. فقد كان الساعون إلى لقائي -قبل ذلك الحين- من أولئك الذين تربطهم بي روابط المواهب، والميول، والمبادئ. فكانت هذه مبررات لزياراتهم. وكانوا يطلعونني على موضوعات استطيع ان اناقشها معهم، قبل نشرها. ولكن هذه لم تكن الحال في "**موتييه**"، لا سيما في الجانب الفرنسي. فقد كان زائري من الضباط، او الموظفين، او سواهم ممن لم يؤتوا اي ميل للادب، وممن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتي.. ومع ذلك، فإنهم كانوا -على قولهم- يقطعون ثلاثين، او اربعين، او ستين، او مائة فرسخ ليزوروني، وليرضوا إعجابهم برجل لامع، شهير، شهير جدا، بل الرجل العظيم...، إلخ ذلك لان الناس لم يكونوا قد كفوا -إذ ذاك- عن ان يقذفوني في وجهي باغلظ الفاظ الملق واوقحها، فلم يكن يحميني منها -منذ ذلك الحين- سوى تقدير أولئك الذين كانوا يفدون لزيارتي. ولم اكن ادري فيم اتحدث إلى هؤلاء؟ إذ كان اغلبهم لا يتفضلون بذكر اسمائهم، ولا يطلعوني على مراكزهم. وكانت معرفتهم ومعرفتي لا تتسقان حول محور مشترك.. وكنت اصمت مرتقبا ان يفتحوا هم الحديث، إذ كان عليهم ان يذكروا لي سبب زيارتهم، لانهم كانوا ادرى به مني. ومن السهل إدراك ان هذا المسلك لم يكن يؤدي إلى حديث مشوق لي بوجه خاص، وإن كان من المحتمل انه مشوق لهم، تبعا لما جاءوا ينشدون معرفته. إذ إنني لبعدي عن ان ارتاب في شيء، كنت اسهب في الحديث -دون تحفظ- في كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه علي من موضوعات. وكانوا يخرجون من هذا -في العادة- وهم لا يقلون عني إلماما بكل تفصيلات موقفي.

ومن أمثلة هذا الصنف، السيد "**دي فيان**"، حامل سلاح الملكة، وقائد الفرسان في لواء الملكة، الذي داب على ان يقضي عدة ايام في "**موتييه**" وكان يرافقني في نزهاتي على القدمين، حتى "**لافيريير**"، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه، دون ان يكون ثمة ما يجمعنا، اللهم إلا ان كلينا كان يعرف الآنسة "**فيل**" (١)، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب. ولقد حظيت -قبل السيد "**دي فيان**" وبعده- بزيارة أخرى، اكثر غرابة. إذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما، وقد راح كل منهما يقود بغلا محملا بمتاعه القليل، فهبطا في نزل البلدة، وبعد ان نظفا بغليهما بنفسيهما، طلبا زيارتي. وكان مظهر راكبي البغلين، يوحي بانهما من مهربي السلع عبر الحدود، فسرعان ما ذاع النبأ بان المهربين يفدون لزيارتي. بيد ان الطريقة التي خاطباني بها، أشعرتني بانهما من صنف آخر. على انهما إذا لم يكونا مهربين، فقد كان من المحتمل ان يكونا من طلاب المغامرة، مما جعلني على حذر منهما فترة. ولم يطل بي القلق، فإذا احدهما السيد "**مونتوبان**"، الذي كان يعرف بالكونت

---

(١) الآنسة "فيل" كانت ممثلة في "الاوبرا" الفرنسية، ورد ذكرها في مواقع متفرقة من الاجزاء السابقة.

"ديلاتور-دو-بان"، الذي كان من سادة "دولفينيه". اما الآخر، فكان السيد "داستييه"، وهو جندي قديم من "كاربنترا"، دس وسام "صليب القديس لوي" في جيبه، عزوفا عن المظهر. ولقد كان هذان السيدان اللطيفان، رقيقين، واسعي العقل، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا. وقد جعلتني طريقتهما في الأسفار -وكانت تروق لي كثيرا، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين- اشعر بميل نحوهما، ما كانت الخلطة لتزيده إلا توثقا. ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد، بل إنه لا يزال قائما، وقد زاراني مرارا -منذ ذلك الحين- ولكنهما لم يعودا يأتيان على الأقدام؛ فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب. على انني كلما ازددت تلاقيا بهما، قل ما القاه من تجاوب بين ميولهما وميولي، وقل شعوري بان مبادئهما هي مبادئي وبانهما على دراية بمؤلفاتي وبان كلا منا يكن للآخر ميلا حقيقيا! فماذا كانا يبغيان مني، إذن؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر؟ ولماذا بقيا عدة ايام؟ ولماذا تكررت زياراتهما عدة مرات؟ ولماذا كانا شديدي الرغبة في ان استضيفهما؟.. لم يخطر ببالي إذ ذاك، ان أوجه هذه الأسئلة إلى نفسي، ولكني وجهتها بضع مرات، منذ ذاك الحين!

وإزاء تقربهما ومجاملاتهما الودية، مال قلبي -دون روية- إليهما، لاسيما إلى السيد "داستييه"، الذي سرني منه ان كانت اخلاقه صريحة، وواضحة.. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل معه، وعندما اردت ان انشر كتابي "رسائل من الجبل"، فكرت في ان ارسل المخطوط باسمه، لاموه على اولئك الذين كانوا يتربصون للكتاب وهو في طريقه إلى "هولندا". وكان قد حدثني كثيرا -وربما عن قصد- عن حرية النشر في "أفنيون"، وعرض علي خدماته إذا شئت ان اطبع شيئا هناك. فتقبلت هذا العرض، وأرسلت إليه الأوراق الأولى تباعا بالبريد. وبعد ان استبقاها فترة ليست بالقصيرة، ردها ثانية، وأنبأني -في الوقت ذاته- بان احدا من الناشرين لم يجد من نفسه جراة على ان يتكفل بطبعه.. واضطررت إلى ان اعود إلى "ريي"، متخذا الحذر، بحيث إنني كنت ارسل أوراقي واحدة بعد اخرى، على الا ارسل واحدة، حتى أتسلم ما ينبئ بوصول سابقتها.

وقبل ان يطبع الكتاب، علمت انه روجع في دوائر القساوسة، وحدثني "ديشيروني" -من "نيوشاتيل"- عن كتاب اسمه "رجل من الجبل"، قال له "دولباخ": إنني كاتبه. فاكدت له انني لم اكتب قط كتابا بهذا العنوان، وكنت في ذلك صادقا. لذلك فإنه اهتاج عندما ظهرت الرسائل، واتهمني بالغش، بالرغم من انني انباته بمجرد الحقيقة.

وهكذا اقتنعت بان المخطوط كان معروفا. ولما كنت موقنا من امانة "ريي" فقد اضطررت إلى ان انقل شكوكي إلى اتجاه آخر، وكان اقرب التخمين إلى المنطق، بل كان الحدس الذي فضلته على سواه، هو ان رسائلي كانت تفتح اثناء ذهابها بالبريد!

*****

وممن تعرفت بهم -حوالي هذه الفترة بالذات، ولكن تعارفنا اقتصر في البداية على تبادل الرسائل- السيد "لالياود"، من ابناء "نيم". فقد كتب إلي من "باريس" يسالني ان أرسل إليه صورة جانبية لوجهي لانه -كما قال- كان بحاجة إليها في نحت تمثال نصفي من المرمر لي، كان قد عهد إلى "لوموان" بعمله، رغبة منه في ان يقيمه في مكتبته الخاصة. وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتي، فالحق انها افلحت تماما. فلقد خلت ان رجلا يرغب في إقامة تمثال لي في مكتبته، لابد ان يكون مليء الراس بمؤلفاتي، وبالتالي بمبادئي، وانه لابد يحبني، لان روحه كانت على شاكلة

روحي. وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهويني. ولقد رأيت السيد "لاليـاود" بعد ذلك، فوجدته تواقا إلى أن يؤدي إلي بعض الخدمات الطفيفة، لكي يوغل في التدخل في شؤوني البسيطة!.. وفيما عدا ذلك، أظن كتابا واحدا من مؤلفاتي كان بين الكتب القليلة التي قرأها في حياته. وإني لأجهل، إذا كانت لديه مكتبة، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرد أثاث يحلو له أن يستخدمه!.. أما التمثال النصفي، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين، صنعه "لوموان"، وحفر عليه قسمات بشمة، حملت برغم ذلك اسمي، وكأنما فيها شيء من الشبه بي!

وكان الفرنسي الوحيد، الذي بدا أنه جاء يزورني عن ميل إلى مشاعري وكتاباتي، ضابطا شابا من كتيبة "ليمزان" يدعى "سيجوييه دي سان- بريسون"، كان -ومايزال- من المتوقع أن يتألق نجمه في "باريس" والعالم، بفضل ما أوتي من مواهب مستحبة، وما كان يبديه من جمال الفكر. وكان قد وفد على "مونمورنسي" لزيارتي، في الشتاء الذي سبق كارثتي. ثم كتب لي بعد ذلك، في "موتييه".. وسواء كان راغبا في تملقي، أو أن شخصية "إميل" كانت قد استهوته حقا، فإنه أنبأني باعتزامه ترك الخدمة، ليعيش حرا.. وأنه لذلك أخذ يتعلم حرفة النجارة. ولقد كان له أخ يكبره -"كابتن" في الكتيبة ذاتها- كان أثيرا بحب أمه، التي كانت متطرفة في التقوى، وكانت -في خضوعها لسلطان راهب دجال- تسيء معاملة ابنها الأصغر، وتتهمه بالمروق على الدين، بل وبالعيب الذي لا يغتفر.. وهو توثق العلاقة بينه وبيني. وكانت هذه هي المظالم التي أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه، وأن ينتهج الرأي الذي ذكرته من قبل.. أن يكون "إميل" الصغير، في كل شيء!

وجزعت لهذا الطيش، فبادرت إلى الكتابة إليه، محاولا أن أثنيه عن عزمه، مزجيا إليه أقوى المواعظ تأثيرا. ولقد أخذ بنصحي، وعاد إلى واجبه كاهن، كما سحب من يدي قائده الاستقالة التي كان قدمها، والتي كانت حكمة القائد قد أبت عليه أن يقبلها، ليوسع له الوقت كي يعيد التفكير في الأمر. وما إن شفي "سان بريسون" من هذه الحماقات، حتى أقدم على حماقة جديدة، لم تكن مثيرة للسخط كتلك، ولكنها لم تصادف هوى من نفسي.. إذ جعل من نفسه مؤلفا. فأصدر كتيبين أو ثلاثة، تباعا، كشف فيها عن قدر من الاستعداد.. ولكني لا أحمل وزر إطرائها بما كان كفيلا بأن يشجعه على المضي في هذه الحرفة!

ولقد جاء لزيارتي -بعد ذلك بزمن- وقمنا بنزهة معا إلى جزيرة "سان بيير". ووجدته خلال هذه الرحلة، على غير ما رأيته في "مونمورنسي". كان ثمة تغير قد ألم به، لم يصدمني في البداية، ولكنه كثيرا ما تمثل لخاطري، منذ ذلك الحين. ولقد زارني مرة أخرى، في فندق "سان سيمون"، أثناء مروري بـ"باريس"، في طريقي إلى "إنجلترا". وإذ ذاك سمعت مالم يقله لي هو، من أنه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية، وأنه كثير التردد على السيدة "دي لوكسمبورج". ولم يبد -أثناء وجودي في قلعة "تير"- ما ينم عن وجوده على قيد الحياة، ولا أبلغني شيئا عن الآنسة "سيجوييه"، قريبته التي كانت جارة لي. وقصارى القول، إن شغف السيد "دي سان-بريسون" انتهى فجأة، كما انتهت علاقة السيد "دي فيان"، ولكن إذا لم يكن الأخير مدينا لي بشيء، فإن الأول كان مدينا لي ببعض الشيء، مالم تكن النزوات الطائشة التي صددته عن ارتكابها، مجرد حيلة من جانبه، وهو أمر جد محتمل!



وتردد علي كذلك، مثل هذا العدد -أو أكثر- من الزائرين الوافدين من "جنيف". فاختارني "ديلوك" وابنه -على التعاقب- مرضا أسهر عليهما. فقد مرض الأب أثناء الطريق، وكان ابنه قد مرض -هو الآخر- منذ غادر "جنيف"، فحلا للاثنين المقام في داري. وتوافد من "جنيف" ومن "سويسرا" الزائرون، من قساوسة، إلى أقارب، إلى مرائين، إلى نكرات، لا لإبداء إعجابهم بي، أو للسخرية مني -كما كان يفعل القادمون من "فرنسا"- وإنما ليؤنبوني، ويعظوني!.. وكان الوحيد الذي يروق لي منهم، هو "مولتو" الذي أقبل لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام معي، والذي كنت أرجو أن أستضيفه فترة أطول. على أن أكثرهم مثابرة، وأشدهم صلابة، كان رجلا يدعى السيد "دانفيرنوا"، استطاع أن يقهرني بمضايقاته. وكان تاجرا من "جنيف"، من المهاجرين الفرنسيين، كما كان قريبا للمدعي العام في "نيوشاتيل". وكان هذا السيد "دانفيرنوا" الجنيفي، يمر بـ"موتييه" مرتين في العام، وكله شوق إلى أن يزورني، ويمكث في داري من الصباح إلى المساء، لمدة أيام بعد ذلك، فيفرض صحبته علي في نزهاتي، ويجلب إلي ألف نوع من الهدايا الصغيرة، ويقحم نفسه على أسراري بالرغم مني، ويتدخل في جميع شؤوني.. دون أن يجمع أحدنا بالآخر أي تشابه في الآراء، أو الميول، أو الأحاسيس، أو المدارك. وإنني لأشك في أنه قرأ كتابا واحدا في حياته، من أوله إلى آخره، وفي أنه كان يعرف ما تناولته كتبي بالذات. وعندما شرعت في هواية النباتات، أخذ يرافقني في جولاتي لتفقد أنواع النبات، دونما ميل إلى هذه الهواية، ودون أن يملك ما يقوله لي، كما أنني لم أكن أملك ما أقوله له. بل لقد أوتي الجلد على أن يقضي معي ثلاثة أيام كاملة، وحيدين لا ثالث لنا، في مكان عام في "جوموان"، كنت أرجو أن أتخلص منه عنده، بفضل الملل على إملاله، وإشعاره بمدى ما كان يسببه لي من ملل. بيد أنني لم أقو قط على أن أثبط دأبه الذي لا يصدقه عقل، ولا على اكتشاف الباعث إليه!

وبين كل هذه العلاقات، التي لم أصلها ولم أرعها إلا غصبا، أرى من الواجب ألا أغفل العلاقة الوحيدة التي كانت تروق لي، والتي أثارت اهتماما حقيقيا في فؤادي.. تلك هي صلتي بشاب مجري، جاء ليقيم في "نيوشاتيل"، ثم في "موتييه" -بعد ذلك- عقب استقراري هناك ببضعة أشهر، وقد عرف في المنطقة باسم "البارون دي سوتيرن"، وهو الاسم الذي ورد في التوصيات التي حملها من "زيورخ". وكان شابا طويلا عريضا، متناسق القوام، مليح القسمات، رقيق الطباع دمثها. ولقد أنبأ الجميع -وأوقع في روعي أنا الآخر- بأنه لم يأت إلى "نيوشاتيل" إلا ليراني، وليروض شبابه على الفضيلة بالاتصال بي. وكانت أساريره، ومسلكه، وأخلاقه، تبدو لي مصداقة لكلماته. فكنت خليقا بأن ألوم نفسي على تخليها عن واجب من أهم الواجبات، لو أنني أبيت أن أقابل شابا لم أر فيه إلا كل مستحب، وكان الباعث الذي حفزه على السعي للتعرف إلي، جديرا بكل اعتبار، ولا يحذق قلبي الاستسلام الناقص، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتي الكاملة، وثقتي الشاملة، وأصبحنا لا نفترق.. فكان يرافقني في كل نزهاتي على الأقدام، ويستمتع بها كل الاستمتاع. ولقد صحبته إلى السيد اللورد "المارشال"، الذي أبدى له ألف مجاملة!

وإذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية، فقد كان يخاطبني ويكتب إلي باللاتينية، وكنت أجيبه بالفرنسية بيد أن هذا الخلط بين اللغتين، لم يقلل من تدفق محادثاتنا، ولا من حيويتها، بأي حال!

ولقد حدثني عن أسرته، وشؤونه، ومغامراته، والبلاط الملكي في "فيينا"، الذي بدا على إلمام تام

بدقائق الحياة فيه. وموجز القول: إنني لم أجد فيه -خلال السنتين اللتين قضيناهما في أشد الود- سوى لطف الشخصية في كل الأحوال، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب، وإنما كانت مهذبة.. وسوى نظافة تامة في شخصه، وعفة مفرطة في قوله.. كانت له -بإيجاز- كل صفات الرجل الطيب المنبت، مما جعلني -بغض النظر عن إعزازي إياه- أجله أسمى إجلال!

*****

وفي عنفوان علاقاتي به كتب لي "دانفيرنوا" الجنيفي بأن أحذر شابا مجربا وفد للإقامة على مقربة مني، فقد قيل له -في تأكيد- إنه جاسوس من الوزير الفرنسي، ليكون عينا علي!.. ولقد دبرت هذه النصيحة لكي تسبب لي مزيدا من القلق، ففي تلك البلاد، كان كل الناس ينصحونني بأن أكون على حذر، لأنني مراقب. وكان الهدف من ذلك استدراجي إلى الأراضي الفرنسية، ثم الانقضاض علي!

ولكي أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائيا، اقترحت على "سوتيرن" أن يصحبني إلى نزهة على الأقدام، إلى "بونتارلييه" -دون أن أنبئه بشيء- فقبل. عندما وصلنا إلى "بونتارلييه"، أعطيته خطاب "دانفيرنوا" ليقرأه، ثم عانقته في حرارة، وقلت: "ليس "سوتيرن" بحاجة إلى أن أبرهن له على ثقتي، ولكن الجمهور بحاجة إلى دليل يبين من هو جدير بها"!.. وكان هذا العناق عذبا جدا.. كان من تلك المتع الروحية التي لا يعرف الظالمون مذاقها، والتي لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين!

ولن أصدق قط أن "سوتيرن" كان جاسوسا، أو أنه خانني، بيد أنه غرر بي. فعندما فتحت له قلبي في غير تحفظ، إذا به يؤتى الجلد على أن يغلق قلبه، ويخدعني بأكاذيبه. فقد ابتكر لي قصة لا أدري ماتاها، جعلني أحدس أن وجوده في بلاده كان أمرا ضروريا، فحضضته على الرحيل إليها دون إرجاء، وقد فعل، وعندما خيل إلي أنه قد وصل إلى "المجر" سمعت أنه كان في "ستراسبورج". ولم تكن هذه أول مرة يوجد فيها هناك. فلقد أوقع الفرقة في أسرة بالمدينة، فكتب لي الزوج إذ عرف أنني اعتدت أن أقابله. ولم أدخر وسعا في رد الزوجة إلى طريق الفضيلة، ورد "سوتيرن" إلى نطاق الواجب. وما إن ظننت أنهما قد افترقا تماما، حتى عادا إلى اتصالهما، وأوتي الزوج من اللين واللطف ما جعله يؤوي الشاب في داره. ولم يبق لي بعد ذلك مجال لقول.

على أنني تبينت أن البارون المزعوم، قد تقرب إلي بطائفة من الأكاذيب ولم يكن اسمه "سوتيرن" -على الإطلاق- وإنما "سوتير شايم". أما لقب "بارون" -الذي أطلق عليه في "سويسرا"- فلست أملك أن ألومه عليه، لأنه لم ينتحله لنفسه قط!.. على أنني لا أرتاب في أنه كان سيدا مهذبا، راقيا حقا، وقد اعتاد اللورد "المارشال" -الذي كان خبيرا بالرجال، والذي عرف بلاده من قبل- أن ينظر إليه وأن يعامله كسيد! وما إن رحل "سوتيرن"، حتى أعلنت خادم الفندق الذي اعتاد تناول الوجبات فيه -في "موتيير"- أنها حامل عن طريقه. وكانت عاهرة قذرة، في حين أن "سوتيرن" كان محترما لدى الجميع، وكان معروفا في كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين، وبأنه كان جد فخور بنظافته وعفته. ومن ثم أذهلت هذه الوقاحة جميع الناس. وهاج سخط أبدع حسان البلد، اللائي كن يؤثرنه بعفاتهن دون جدوى. كذلك ثرت أنا استنكارا، ورحت أبذل كل جهد في

سبيل الزج بهذه الفاجرة في السجن، عارضا أن أتكفل بجميع النفقات، وأن أكون ضامنا لـ "سوتيرشايم". وكتبت إليه وأنا أشد ما أكون اقتناعا، لا بأن هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب، وإنما بأنه حمل مزعوم، وأن كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها أعداؤه وأعدائي. ورغبت إليه في أن يعود إلى البلد، ليخزي هذه المجرمة، وأولئك الذين كانوا يحرضونها. وكم بهت لميوعة رده. فقد كتب إلي راعي الأبرشية التي كانت الفاجرة تتبعها، وحاول أن يخمد المسألة. ومن ثم فقد كففت عن التدخل في الأمر، وأنا في أشد الدهشة من أن يستطيع رجل انحط إلى هذا الدرك، أن يسيطر على نفسه بالشكل الذي مكنه من أن يخدعني بتحفظه طيلة الفترة التي كنا فيها على أوثق ائتلاف!

ومن "ستراسبورج" انتقل "سوتيرشايم" إلى "باريس" سعيا وراء الحظ، فلم يفز إلا بالشقاء. لقد كتب إلي معترفا بذنوبه، فهفت عواطفي لذكرى صداقتنا القديمة، وأرسلت إليه بعض المال. وعندما مررت بـ "باريس"، في العام التالي، رأيته -مرة أخرى- في عين الحال تقريبا، ولكنه كان قد أصبح صديقا حميما للسيد "لاليماود". ولم يقدر لي إطلاقا أن أعرف كيف تعرف إليه، وما إذا كان هذا التعارف حديث عهد أو قديما. وما لبث "سوتيرشايم" أن عاد إلى "ستراسبورج"، بعد عامين، وكتب إلي من هذا المكان.. وفيه مات!

هذه -بإيجاز- قصة علاقتي به، ومغامراته. ولكني -في الوقت الذي أنعى فيه حظ هذا التعس- سأظل أؤمن بأنه كان طيب المنبت، وأن كل ما تبدى في سلوكه من اضطراب، لم يكن سوى نتيجة المواقف التي تردى فيها!

*****

وهكذا كانت المكاسب التي فزت بها من "موتييه" في مجال العلاقات والصداقات. وما أكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات، لأعوض الخسائر القاسية التي منيت بها في تلك الفترة ذاتها.. فلقد منيت أولا بفقد السيد "دي لوكسمبورج"، الذي تعذب طويلا على أيدي الأطباء، ثم راح -في النهاية- ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على أنه مرض يسهل عليهم إبراؤه، دون أن يعترفوا بحقيقته!.. ولو أننا أخذنا بالرواية التي كتبها لي "لاروش" -موضوع ثقة السيدة "دي لوكسمبورج"- بهذا الصدد، لوجدنا في قصته مثالا قاسيا وأليم الذكرى، لمدى مصائب العظمة!

ولقد كان نفقد هذا السيد العظيم الطيب، وقع شديد على نفسي، إذ إنه كان الصديق الوحيد الذي بقي لي في "فرنسا".. ولقد كانت رقة شخصيته بالغة، حتى إنها أنستني مكانته ومرتبته، فارتبطت به وكأنني ند له. ولم تنته وشائجنا برحيلي عن البلاد، بل إنه واصل الكتابة إلي، كما كان شأنه من قبل. ومع ذلك، فإنني خلت أن غيابي أو نحس طالعي قد أخفى عواطفه نحوي. فمن العسير على عضو في حاشية الملك، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه. كذلك انتهى بي التفكير إلى أن التأثير الكبير الذي كان للسيدة "دي لوكسمبورج" عليه، لم يكن مواتيا لي في شيء، وأنها قد انتهزت فرصة غيابي لكي تسيء إلي في نظره. بل إنها -بالرغم من مظاهر الود الحارة، التي أخذت في التضاؤل- لم تعد تجشم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عني. ولقد كتبت لي أربع مرات أو خمسا، على فترات متباعدة -وأنا في "سويسرا"- ثم كفت عن الكتابة نهائيا. وكان لابد لي من كل التكهنات، وكل الثقة، وكل الغباء الأعمى -الذي كنت أتخبط فيه مرة أخرى- حتى لا أبصر البرود الذي شاب عواطفها إزائي!

ولقد كتب لي الناشر "جـاي" -شـريك "دوشـين"، الذي اصبح كثير التردد على قصر "لوكسمبورج" بعد رحيلي- ينبئني بان اسمي ورد في وصية السيد "المارشال". ولم يكن في هذا ما يدعو إلى العجب، او ما يجل على التصور، ومن ثم فإنني لم ارتب فيه. وقد حملني هذا على ان اتدبر -بيني وبين نفسي- ما ينبغي ان يكون عليه موقفي من الوصية. وبعد روية وتفكير، عزمت على قبولها، مهما تكن، وان اعبر بهذا عن تكريمي لرجل امين، حمل لي ودا صادقا، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر ابنائها قط. على انني اعفيت من هذا الواجب، إذ إنني لم اسمع إطلاقا عن الوصية مرة اخرى، سواء كانت القصة صحيحة او كاذبة. ولقد كان من الشاق على نفسي -في الحقيقة- ان اهدرمبدا من مبادئي الخلقية الكبرى، إذ افيد من موت امرئ كان جد عزيز لدي. ولقد حدث اثناء المرض الاخير لصديقنا "موسار"، ان عرض "لينييب" على ان نستغل امتنانه لودنا، وعرفانه لعنايتنا به، فنقترح عليه ان يترك لنا في وصيته شيئا. فما كان مني إلا ان قلت له: "آه، يا عزيزي "لينييب"!.. ما ينبغي ان ندنس -بافكار عن المصلحة الذاتية- الواجبات المحزنة، ولكنها مقدسة- التي يجب علينا ان نؤديها لصديقنا المحتضر!".

وإني لآمل الا اذكر قط في وصية اي امرئ، لا سيما إذا كان صديقا. ولقد تحدث إلي سيدي "المارشال" -حوالي هذه الفترة- عن وصيته، وما كان يعتزم ان يفعله من اجلي، فابديت في هذه المناسبة الرد الذي ذكرته في الجزء الاول من اعترافاتي.

❋❋❋❋❋

وكانت الخسارة الثانية التي حاقت بي، اكثر إيلاما واعز من ان تعوض.. تلك هي فقدان خير النساء والامهات، التي كانت السنون قد اثقلت كاهلها، ثم اعياها حمل العلل والمحن، فهجرت هذه الحياة -وادي الدموع- لتنتقل إلى ملاذ الطيبين والصالحين، حيث تكون ذكرى الخير الذي اسديناه في هذه الدنيا، هو خير جزاء نكافا به عنه. فاذهبي ايتها الروح الوادعة المحسنة، إلى جوار "فينولون"، و"برنيكس"، و"كاتينا"، وكل اولئك الذين حذوا حذوهم، ففتحوا قلوبهم للخير والإحسان الحقيقيين، برغم تواضع ظروفهم!.. اذهبي فتذوقي ثمرة إحسانك، ومهدي لتلميذك المكان الذي يامل ان يشغله يوما، إلى جوارك!.. وما اسعدك وسط كل مصائبك، فإن السماء -حين وضعت لها نهاية- قد جنبتك قسوة مرأى مصائبي!.. ذلك لانني لم اكتب إليها إطلاقا، عقب وصولي إلى "سويسرا"، خشية ان ادخل الاسى على فؤادها بذكر مصائبي الاولى. بيد انني كتبت إلى السيد "دي كونزييه"، انشد انباءها. ومنه علمت انها قد كفت عن ان تواسي آلام الغير، وان آلامها هي قد انقضت!.. ولسوف اكف انا الآخر عن التالم، عما قريب. ولو لم اكن اؤمن بانني سأراها ثانية، في العالم الآخر، لابى خيالي الواهن على نفسه ان يفكر في الهناء الكامل الذي اتطلع إليه هناك!

اما المصاب الثالث والأخير -إذ لم يعد لي بعده اصدقاء امني فيهم- فهو فقدان سيدي اللورد "المارشال". وما فقدته بالموت، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين، هجر "نيوشاتيل"، فلم يقدر لي ان اراه بعد ذلك. وهو مايزال على قيد الحياة، وآمل ان يعيش بعدي.. إنه مايزال على قيد الحياة، ومن ثم فإن الروابط التي تربطني بالارض، لم تنقطع عن آخرها، بفضله.. فمايزال باقيا على الارض رجل جدير بصداقتي.. الصداقة التي تتمثل قيمتها الحقيقية في الود الذي يحس به المرء، اكثر منها في الود الذي يوحيه للغير. غير أنني فقدت البهجة التي كانت صداقتي تملأ بها نفسي، ولم اعد اليوم

املك اكثر من ان اعده بين أولئك الذين مازال على حبهم، وإن كانوا لم يعودوا على اتصال بي. فلقد ذهب إلى "إنجلترا" ؛ ليتلقى العفو من الملك، وليسترد ثروته التي كانت قد صودرت. ولم نفترق دون ان ندبر للقاء جديد، بدا ان توقعه كان يوحي إليه بقدر ما كان يوحي إلي من سرور.

وكان قد اعتزم الإقامة في قصر "**كيث هول**" -على مقربة من "**ابردين**"- فتم الاتفاق على ان أزوره هناك. ولكن هذا الاحتمال كان اكثر بهجة من ان اطمع في تحققه يوما. ولم يطل مكث السيد "**المارشال**" في "**اسكتلندا**"، فإن الإلحاح الرقيق الذي لاحقه به ملك "**بروسيا**"، لم يلبث ان رده إلى "**برلين**". وسيتبدى -فيما يلي- كيف حيل بيني وبين ان انضم إليه.

فعندما راى -قبيل رحيله- ان العاصفة كانت توشك ان تهب علي مرة اخرى، ارسل إلي -من تلقاء نفسه- وثائق إثبات تجنسي بالجنسية البروسية. وقد بدا هذا احتياطا جد مأمون، حتى يصبح من المستحيل طردي من البلاد. ولقد حذا اتحاد مدينة "**كوفيه**" -في "**فال دي ترافير**"- حذو الحاكم، وكفل لي حقوق المواطن، دونما مقابل، كما حدث إزاء الوثائق الأولى. وإذ اصبحت مواطنا كاملا -من جميع الاعتبارات- غدوت في حمى من أي إقصاء قانوني عن البلاد، ولو صدر هذا الإقصاء عن العاهل ذاته. ولكن أعدائي لم يتبعوا يوما الوسائل المشروعة في اضطهاد رجل كان دائما يفوق سواه احتراما للقوانين!

ولست ارى من الواجب أن احصي بين الخسائر التي منيت بها -في تلك الفترة بالذات- وفاة الراهب "**دي مابلي**". فإن إقامتي في دار اخيه، مكنتني من ان اكون على تعارف بسيط معه، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة. ولدي من الأسباب ما يحملني على ان اعتقد ان مشاعره نحوي قد تبدلت مذ ظفرت بصيت ذائع، يفوق صيته. على انني لم أفطن إلى أولى بوادر سوء نيته، إلا بعد نشر "**رسائل من الجبل**". فلقد روج في "**جنيف**" خطابا إلى السيدة "**سالاداان**"، عزى إليه انه كاتبه، وقد وصف فيه مؤلفي بانه ضجيج، مضلل، صادر عن تعصب شعبي جامح. ولم يمكني الاحترام -الذي كنت اكنه للراهب "**دي مابلي**"، وما كان لدي من راي في تنوره وسعة ذهنه- من ان اصدق لحظة انه كاتب ذلك الخطاب المتحامل.

ورأيت ان أتصرف وفق ما أملته علي صراحتي، فارسلت إليه نسخة من الخطاب، وانبأته بأنه كان معزوا إليه. ولكنه لم يجب. وقد اذهلني هذا الصمت منه، ولكن في الوسع تصور دهشتي عندما انبأتني السيدة "**دي شينونسو**" بانه هو الذي كتب الخطاب حقا، وأن رسالتي قد احرجته اشد الإحراج.. ذلك لأنه إذا كان على صواب، فكيف كان يستطيع ان يبرر خطوة رنانة علنية، صدرت عن طيب خاطر وطواعية، دونما غضب او إلزام، ودونما ضرورة، ودون ان يكون لها اية غاية، سوى الإساءة إلى رجل في اشد محنة.. رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة، ولم يقصر يوما في تقديره؟

ولقد ظهرت -بعد ذلك بقليل- "**محاورات فوسيون**"(١)، التي لم ار فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتي، أعدت في جراة، ودون استحياء. وشعرت وأنا اقرا هذا الكتاب، بان المؤلف كان قد بت في امري، وانني لم يعد لي من هو الد منه عداء، منذ ذلك الحين. واعتقد انه ما كان ليملك ان يغفر لي يوما ان كتبت "**العقد الاجتماعي**" -الذي كان فوق طاقة مواهبه- ولا "**السلام الدائم**".. وانه لم يكن يرجو -على ما بدا لي- سوى ان اعد مختارات من مؤلفات الراهب "**سان بيير**"، لأنه ظن انني لن أوفق فيها(٢).

---

(١) كان "فوسيون" قائدا وخطيبا اثينيا في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان داعية للسلام، بقدر ما كان جنديا باسلا. وقد عرف بإنكار الذات ونبالة الحولر، والمقدرة على الإقحام. (٢) كان الراهب "دي مابلي" قد عرض على "روسو" مراجعة مؤلفات الاب "دي سان بيير". واختيار اصلحها للنشر. ولكن "روسو" عمد -إلى جانب الاختيار- إلى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بصدد كتابات الاب "دي سان بيير"، ضمنها كتابيه "العقد الاجتماعي" و"السلام الدائم".

كلما اوغلت في قصتي، قلت قدرتي على تنسيقها، وترتيب سياقها، فإن الاضطراب الذي ساد بقية حياتي، لم يدع للأحداث وقتا لتنظم ذاتها في راسي. إذ إنها كانت من الكثرة، ومن الامتزاج، ومن الإزعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب. ولقد كان الطابع القوي الوحيد الذي خلفته هذه الأحداث في ذهني، هو ذلك الغموض الرهيب الذي أحاط بسببها، والحال الداعية للرثاء، التي هوت بي إليها!.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وفقا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتي. واذكر أنني -في الفترة التي أتحدث عنها، واثناء استغراقي في "الاعترافات" -كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها إلى كل امرئ، دون ان أتصور مرة واحدة ان لا أحد له مصلحة، أو رغبة، او قدرة على ان يلقي العراقيل في طريق هذا المشروع.. وحتى لو ان هذا خطر لي لما كان بوسعي ان ابدي مزيدا من التكتم، إذ إن طبيعتي تجعل من المستحيل تماما علي ان اخفي شيئا من افكاري ومشاعري. ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع -بقدر ما بوسعي ان أحكم- هو السبب الحقيقي للعاصفة التي أثيرت لإقصائي عن "سويسرا"، وللإلقاء بي بين الأيدي التي كانت خليقة بأن تمنعني من تنفيذه!

وكان لدي مشروع آخر، لم يكن يحظى -من اولئك الذين كانوا يخشون المشروع الاول،- بمزيد من الرضا. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتي. فقد تراءى لي ان مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت إلي حقا من تلك الكتب التي كانت تحمل اسمي، ولجعل الجمهور في وضع يمكنهم من ان يميزوها، ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التي كانت تحمل اسماء مستعارة، وكان أعدائي يعزونها إلي، لكي يشوهوا سمعتي ويحطوا من قدري. وفضلا عن ذلك، فإن هذه الطبعة كانت كفيلة بان تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للعيش. بل إنها -في الواقع- كانت الطريقة الوحيدة، إذ إنني كنت قد هجرت تاليف الكتب، وما كان في الوسع نشر مذكراتي اثناء حياتي، ولم اكن اكسب "سو" واحدا بأية طريقة اخرى، في حين أنني كنت أنفق باستمرار.. ومن ثم فقد ايقنت من انتهاء مواردي بمجرد استنفاد إيراد مؤلفاتي الأخيرة. ولقد حملني هذا السبب على ان اتعجل ظهور كتابي: "الموسوعة الموسيقية"، وإن لم يكن قد اكتمل. وقد در علي مائة "لوي" نقدا، ومائة "إيكو" سنويا ما حييت. ومع ذلك، فقد ظل من الواجب توقع نفاد المائة "لوي" سريعا، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويا.. كما ان المائة "أيكو" كانت بمثابة لا شيء، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله -دون انقطاع- كالعصافير!

وعرضت شركة من تجار "نيوشاتيل" ان تتعهد مشروع مجموعة المؤلفات، واستطاع صاحب مطبعة -او تاجر كتب- من "ليون"، يدعى "ريجيا" ان يندس بينهم، بطريقة لا ادريها، ليتولى توجيههم، وعقدت اتفاقية وفقا لشروط معقولة ومرضية، لتحقيق بغيتي خير تحقيق. وكانت مؤلفاتي المطبوعة، وتلك التي ظلت بخط اليد، تكفي لان تملأ ستة مجلدات من حجم "ربع القطع" أو "الكوارتو". وقد تعهدت -فوق ذلك- بان أشرف على الطبعة، في مقابل ان يؤدوا لي معاشا لمدى حياتي -قدره ألف وستمائة ليرة فرنسية- ومبلغا يدفع نقدا، لمرة واحدة، قدره الف "ايكو".

سنة ١٧٦٥

كانت الاتفاقية قد عقدت، ولكنها لم تكن قد وقعت، عندما ظهر كتاب "رسائل كتبت من الجبل"، فإذا السخط الفظيع -الذي انصب على هذا الكتاب الجهنمي وعلى مؤلفه المقيت- يفزع

الشركة، ومن ثم انفض المشروع. وبوسعي ان اشبه أثر هذا المؤلف الأخير، بأثر "رسالة عن الموسيقى الفرنسية"، لولا ان هذه الرسالة وإن جلبت علي السخط وعرضتني للخطر، إلا انها تركت لي الاعتبار والاحترام، على الاقل. اما بعد هذا المؤلف الاخير، فقد تبدت الدهشة في "جنيف" وفي "فرساي"، من ترك وحش مثلي، يتنفس ويعيش. وإذا المجلس الصغير -بتحريض من الوزير الفرنسي المقيم، وبتوجيه من المدعي العام -يصدر بيانا عن الكتاب، اعلن فيه، بعد وصفه بأقذع النعوت، أنه غير جدير بان يحرق بيدي منفذ الاحكام.. واضاف إلى هذا -في دهاء، يكاد يثير الضحك- أن لا سبيل لامرئ إلى الرد على هذا الكتاب، بل إلى مجرد ذكره، دون ان يشين نفسه!

ولكم أتمنى لو استطعت ان انقل هنا هذا البيان العجيب، ولكني -لسوء الحظ- لا أملك نسخة، ولا اذكر كلمة واحدة منه. وشد ما ارجو ان يتفضل احد من قرائي -بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة- على إعادة قراءة "رسائل من الجبل" بأكمله. واستطيع ان اقول إنه سيلمس الاعتدال الشديد الذي ساد هذا الكتاب، بعد الإهانات العنيفة القاسية، التي تبارى الناس في صبها على المؤلف. ولكن اعدائي -إذ عجزوا عن الرد على السباب؛ لان الكتاب لم يحو شيئا منه.. ولا على الحجج، لأنها كانت مفحمة -عمدوا إلى التظاهر بأنهم اكثر ترفعا من ان يجيبوا.. ومن الصحيح حقا، انهم إذا حملوا الحجج المفحمة على انها إهانات، لحق عليهم ان يشعروا بانهم أوذوا أشد الإيذاء!

اما فريق المتذمرين، فإنهم بدلا من ان يثيروا اية شكوى من هذا البيان البشع، سلكوا الطريق التي رسمها لهم.. وبدلا من ان يمجدوا "رسائل من الجبل" كغنيمة ظفروا بها، إذا بهم يستترون خلفها كدرع.. فكانوا من الجبن بحيث إنهم لم يؤدوا اي تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلف الذي وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم.. بل إنهم لم يذكروه، ولا نقلوا عنه، وإن كانوا قد اقتبسوا عنه -في الخفاء- كل حججهم.. وكانت الدقة التي اتبعوا بها النصيحة التي اختتم بها هذا المؤلف، هي السبب الوحيد في خلاصهم وانتصارهم!.. لقد فرضوا علي هذا الواجب، وقد أديته.. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم إلى النهاية. ولقد توسلت إليهم أن يتخلوا عن قضيتي ولا يفكروا إلا في انفسهم، وفي مشاحناتهم. وقد اخذوني بكلمتي،فلم اتدخل في شؤونهم بأكثر من ان رحت استحثهم على السلام، دون انقطاع. وما من ريب لدي في انهم لو كانوا قد مضوا في عنادهم لانفسهم، لسحقتهم "فرنسا". وهذا ما لم يحدث.. وإني لادرك السبب، ولكن هذا ليس مجال الإفضاء به!

ولقد كان الاثر الذي احدثه كتاب "رسائل من الجبل" في "نيوشاتيل"، يتسم بالهدوء في البداية. ولقد أرسلت نسخة منه إلى السيد "دي موغولان"، فسره ان حصل عليها، وقرأها دون ان يجد فيها مأخذا. وكان مريضا -مثلي- فلما استرد صحته، قام بزيارة ودية لي، ولم يقل شيئا عن الكتاب. ومع ذلك، فإن الهياج كان قد دب، واحرق الكتاب حيث لا أدري(١). ومن "جنيف"، ومن "بيرن"، وربما من "فرساي"، لم يلبث مركز الفوران ان انتقل إلى "نيوشاتيل"، وإلى "فال دي ترافير" -بوجه خاص- حيث بدئ، حتى قبل ان تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة، في تحريض الجمهور بالاساليب المستخفية. ومن حقي ان اقول: إنني كنت خليقا بان أكون محبوبا من اهل هذه البلاد، كما كنت من جميع أولئك الذين عشت بينهم. وكنت اغدق الصدقات بسخاء، ولا ادع محتاجا ممن يحيطون بي دون معونة، ولا ارفض ان أؤدي اية خدمة في نطاق مقدرتي، مادامت تتمشى مع العدالة.. بل لعلني كنت أسرف في التآلف مع كل الناس، أكثر مما ينبغي.. كما انني

---

(١) في "باريس" مع الموسوعة الفلسفية لـ"فولتير"، وبنفس القرار المؤرخ في ١٩ مارس سنة ١٧٦٥.

اعتمدت -بقدر ما وسعني- ان ارفض كل تمييز في المعاملة، قد يثير الغيرة! .. ومع ذلك، فإن كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا، دون ان ادري محرضهم، ومن ان يوغروا تدريجيا ضدي، حتى بلغوا درجة الهياج، فراحوا يسبونني علنا في رائعة النهار، لا في الريف، او في الطرق الخلوية فحسب، بل وفي الشوارع الرئيسية..

وكان اشدهم تحرشا بي، هم أولئك الذين اسديت إليهم أكبر قسط من الخير.. بل إن من الناس -الذين واصلت إسداء المعروف إليهم- من لم يجرؤوا على التحرش علنا، فراحوا يثيرون الباقين، وكأنما كانوا بهذه الطريقة يثارون لانفسهم من هوان ان يكونوا مدينين بالفضل لي!

ولم يبد على "مونمولان" انه راى شيئا مما كان يجري، لا ولم يعد يزورني. على انه لم يلبث ان زارني -إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان- لينصحني بان اتفادى حضورها، مؤكدا لي انه لن يعارضني في غير ذلك، وانه سيدعني في سكينتي. والفيت هذه المجاملة منه غريبة في نوعها. وذكرني بخطاب السيدة "دي بوفلير"، فلم استطع ان افقه ان من الممكن ان يكون لاي احد شان بما إذا كنت اتناول القربان او لا اتناوله. وإذ وجدت ان قبول اقتراحه يعد جبنا من ناحيتي، فضلا عن انني لم اكن راغبا في ان أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كي يصيحوا في وجهي: "ها هو ذا الكافر!"، فإنني رفضت رجاء القس رفضا باتا، وإذا به يستاء ويوحي إلي بانني لن البث أن اندم. على انه لم يكن يملك ان يمنعني من التناول بامر منه وحده، بل كان لابد من قرار من المجمع الديني الذي سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة. وما دام المجمع لم يقل شيئا، فقد كان من حقي ان اتقدم في جراة، دون أن اخشى رفضا. ومن ثم فقد عمد "مونمولان" إلى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتي للمثول امام المجمع، لاقدم حسابا عن إيماني، على ان اجازى بالحرمان، إذا انا ابيت ان البي الدعوة.

على ان الحرمان بدوره لم يكن ميسورا مالم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء. ولكن الفلاحين الذين الفوا هذه الهيئة -تحت اسم الشيوخ الحكماء- كانوا تحت رئاسة القس، وبالتالي تحت نفوذه، كما هو مفهوم. فلم يكن لهم -بطبيعة الأمر- راي سوى رايه، لا سيما في المسائل اللاهوتية، التي كانوا اقل إدراكا لها منه. ومن ثم فقد قررت ان البي الدعوة، عندما أعلنت بها!

❊❊❊❊❊

اي ظرف سعيد، واي نصر لي، لو انني عرفت كيف اتكلم -في هذه المناسبة- عن نفسي، وان اضع قلمي في فمي، كما ينبغي ان يقال! .. باي تفوق جائح، وباي يسر كان في وسعي ان اهزم القس البائس، وسط فلاحيه الستة، اعضاء المجمع! .. كان الطمع في السلطان قد انسى رجال الدين البروتستانت مبادئ الإصلاح الديني، وكان كل ما يعوزني لتذكيره بهذا، ولإفحامه، هو ان اشرح "الرسائل الجبلية الأولى"، التي كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيبونها علي. وهكذا كان موضوعي معدا، ولم يكن ينقصني سوى المثول امام المجمع، فإذا بغريمي يفحم! .. وما كنت من الغباء بحيث اقتصر على الدفاع بل كان الجو ممهدا لان انقلب مهاجما، دون ان يفطن هو، ودون ان يقوى على صد الهجوم؛ ذلك لان الحمقى التافهين من رجال الدين، كانوا عاطلي العقول بقدر ما كانوا جهلة، وقد وضعوا انفسهم -بالنظام الذي ابتدعوه- في انسب وضع كنت اشتهيه، لكي ادهمهم كما يحلو لي! ولكن مهلا! .. كان لابد لي من ان اتكلم، ومن ان اتكلم في الموضوع، ومن ان اعثر على الافكار،

وان اقلبها على كل جانب، وان اجد الكلمات في لحظة الحاجة إليها، وان احتفظ دائما بحضور بديهتي، وان اكون هادئ الاعصاب باستمرار، فلا اضطرب لحظة واحدة.. فما الذي كنت أملك ان ارجوه من نفسي، وانا الذي كنت المس تماما عجزي عن ان اعبر عن نفسي للفور؟.. لقد اضطررت إلى ان الزم ازرى حالات الصمت، في "جنيف"، امام لجنة كانت محابية لي كل المحاباة، وكانت قد عقدت العزم مقدما على ان تحبذ كل ما اقول. اما هنا، فقد كان الامر على النقيض.. كان علي ان انازل شخصا مشاكسا، وضع الدهاء في موضع المعرفة، وفي وسعه ان ينصب لي مائة شرك، قبل ان المح واحدا منها، وقد عقد عزمه على ان يظهرني مخطئا، مهما يكبده هذا من ثمن!.. وكنت كلما فحصت موقفي هذا، ازددت شعورا بخطره. فلما اقتنعت بان من المستحيل ان انتزع نفسي من هذا الموقف بنجاح، فكرت في حيلة اخرى. ورحت افكر في خطاب اعتزمت ان القيه امام المجمع، لكي اطعن في اختصاصه، فاحل نفسي من ضرورة الإجابة. وكان الامر غاية في السهولة، فكتبت الخطاب، وشرعت استذكره عن ظهر قلب في تحمس لا مثيل له. وإذ سمعتني "تيريز" وانا اتمتم لنفسي -بلا انقطاع- مكررا نفس العبارات، محاولا ان احشرها في راسي، راحت تضحك مني. وكنت آمل ان استوعب الخطاب في النهاية.

فقد كنت اعرف ان حاكم المقاطعة -كمندوب من العاهل- سيحضر جلسة المجمع، وان معظم الشيوخ كانوا -بالرغم من مناورات "مونمولان" وزجاجات الخمر التي وزعها- طيبي الشعور نحوي. وكان يناصرني المنطق، والحق، والعدالة، وحماية الملك، وسلطان مجلس الدولة، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تاثروا بتقرير هذا التحقيق.. كان كل شيء يساهم في تشجيعي، في الواقع!

و ما إن حان اليوم السابق على الموعد المحدد، حتى كنت قد حفظت خطابي عن ظهر قلب، ورحت اردده دونما خطأ. ورحت استرجعه ثانية، في ذهني، طيلة الليل. ولكنني في الصباح.. نسيته! ورحت اتردد عند كل كلمة.. وتمثلت نفسي امام المجلس الموقر فإذا بي ارتبك، واتلعثم. وإذا بفكري يتشتت!.. واخيرا، خذلتني شجاعتي تماما، في لحظة الانطلاق، فبقيت في البيت، وعزمت على ان اكتب إلى المجمع ساردا -في عجلة- اسبابي، ناسبا عدم ذهابي إلى توعك صحتي التي كانت -في حالتي تلك- تجعل من المستحيل علي حقا، ان امكث طيلة الجلسة!

واحرج خطابي الوزير، فارجا القضية إلى جلسة اخرى. وفي تلك الاثناء، راح يبذل -هو واذنابه- الف حيلة وجهد، لإغراء اولئك الذين لم يتبعوا سوى إيعازات ضمائرهم دون إيعازاته، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين. وبالرغم مما كان للحجج -المستمدة من قبو الخمور في داره- من تاثير على اناس من هذا القبيل، إلا انه لم يستطع ان يكسب احدا سوى الاثنين او الثلاثة الذين كانوا اوفياء له من قبل، والذين عرفوا باسم "شياطينه اللعينة"!.. واستطاع مندوب الملك والكولونيل "دي بوري" -الذي ابدى كثيرا من الهمة في هذه المسالة- ان يحملا بقية الاعضاء على ان يلزموا نطاق الواجب. فلما اراد "مونمولان" ان يدفع قرار حرماني من الكنيسة قدما، رفض اقتراحه رفضا باتا باغلبية الاصوات. ولم يبق امامه سوى إثارة الناس -كحيلة اخيرة- فشرع يعمل جهارا، بمساعدة زملائه وغيرهم، واستطاع ان يوفق إلى درجة انني اضطررت في النهاية -بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك، وبالرغم من جميع اوامر مجلس الدولة- إلى مغادرة البلاد، حتى لا اعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفاع عني.

ولست احتفظ لهذه القضية كلها، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل علي معها ان ابث اي

ترتيب او روابط بين الافكار التي تعاودني عنها. ولست أملك سوى ان اعرضها متفرقة، متباعدة، كما تتوارد على ذهني. وإني لاذكر ان شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين، وكان **"مونمولان"** وسيطا في ذلك؛ ذلك لانه كان قد تظاهر بالخشية من ان تؤدي كتاباتي إلى قلقلة هدوء البلاد، الامر الذي كان يعتبر نفسه مسؤولا عنه إذا ظل يبيح لي حرية الكتابة! . . ومن ثم فقد عمد إلى الإيعاز إلي بان من الممكن التجاوز عن الماضي، إذا انا القيت القلم من يدي. وكنت قد انتهيت إلى هذا -فيما بيني وبين نفسي- من قبل، فلم اتردد على ان انتهي إليه مع فريق رجال الدين، ولكن بشرط، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب. وتعمد **"مونمولان"** ان يعد صيغتين من الاتفاق، بسبب تعديلات ادخلها على الصيغة الاولى. وحدث أن قوبل الشرط بالرفض من حزب رجال الدين، فطلبت رد الاتفاق المكتوب، وإذا **"مونمولان"** يرد إلي إحدى النسختين ويحتفظ بالاخرى، زاعما انه اتلفها!

وعمد الجمهور -بعد ذلك، وبتحريض من رجال الدين- إلى السخرية من تعليمات الملك، ومن اوامر مجلس الدولة، ولم يعودوا يقفون عند حد في جموحهم. وكانت الهجمات تشن علي من خلال المواعظ، من فوق المنابر، فلقبت بـ **"عدو المسيح"**، وطوردت في الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا. وكانت ثيابي الأرمنية سمة كافية كي يعرفني الناس بها. فاحسست اقسى الإحساس بعدم ملاءمتها، ولكن نبذها -في مثل هذه الظروف- كان في رأيي، بمثابة الجبن. فلم استطع ان احل هذه المشكلة، وظللت اتمشى في كل مكان بهدوء، وانا في القفطان، وقد ارتديت القلنسوة الفرو، تتبعني سخريات الغوغاء وصياحهم. . وقطع الحصى التي كانوا يقذفونني بها احيانا! . . وكم من مرة سمعت -وانا أمر بالمنازل- اصوات ساكنيها وهم يصيحون: "ناولوني بندقيتي، حتى ارديه في مكانه!". ولم اكن اوسع الخطى، فكان هذا يضاعف من حنقهم، ولكنهم اقتصروا دائما على التهديد والوعيد . . فيما يتعلق بالأسلحة النارية، على الأقل!

❁❁❁❁❁

على انني -خلال هذا الهياج كله- لم اعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمراته كل الاستمراء. وكانت اولاهما التي استطعت ان اعرب عن عرفاني بالصنيع، بفضل سيدي اللورد **"المارشال"**. ذلك ان جميع ذوي المكانة من اهالي **"نيوشاتيل"**، استنكروا المعاملة التي كنت القاها، والمكائد التي كنت ضحية لها، مما اوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين، إذ فطنوا إلى انه كان منصاعا لنفوذ اجنبي، وانه لم يكن سوى أداة للغير، ممن كانوا يتوارون في المؤخرة وهم يستحثونه على التصرف. ومن ثم فقد بدءوا يخشون الا تؤدي حالي إلا إلى إنشاء محكمة للتفتيش حقا(١)! . . وبذل رجال الحكومة -لاسيما السيد **"مورون"** الذي خلف السيد **"دانفيرنوا"** في منصب المدعي العام- كل ما في وسعهم لحمايتي. ومع ان الكولونيل **"بوري"** لم يكن سوى فرد عادي، إلا انه فاقهم جهدا. وكان اكثر منهم توفيقا. فهو الذي ابتكر الوسيلة لخذلان **"مونمولان"** في المجمع، بإلزام الشيوخ حدود الواجب. وإذ كان واسع السمعة، فقد استخدم مكانته في القضاء على الفتنة. ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون، والعدالة، والمنطق، في مواجهة نفوذ المال والشراب! . . وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين، فاحرز **"مونمولان"** نصرا عليه، في هذه الناحية. ومع ذلك فإنني كنت مقدرا جهوده وتحمسه من اجلي، وكنت تواقا إلى ان اقدم له جميلا، في مقابل

---

(١) كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة، انشئت لاول مرة في "تولوز" في سنة ١٢٢٩، ثم انتشرت في القرون الوسطى في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا -بوجه خاص- واستفحل نفوذها فكثر جورها، وغدت اداة سياسية اكثر منها دينية. وكانت محاكماتها تجرى سرية، وتستخدم فيها ابشع طرق التعذيب لحمل السجين على ان يقر بالذنب الذي يتهم به!

جميله، ما استطعت.. وان ارد له الفضل بطريقة ما. وكنت اعرف انه كان يصبو إلى ان يصبح مستشارا في مجلس الدولة، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكي -في قضية القس "بيتيبير" - باء بعدم رضا العاهل والحاكم. فجرؤت على ان اكتب في صالحه -بالرغم من ذلك- إلى السيد "المارشال".. بل وتجاسرت على ان اذكر المنصب الذي كان يشتهيه، وكنت موفقا كل التوفيق -بالرغم مما توقعه كل الناس- حتى إن المنصب خلع عليه فورا بامر الملك.

وهكذا ظل القدر -الذي اعتاد دائما ان يرفعني عاليا، وان يخفضني إلى الحضيض، في آن واحد- يتقاذفني بين هذين النقيضين. وفي الوقت الذي كان الناس يلطخونني فيه بالوحل، استطعت ان اعين مستشارا للدولة!

وكانت ثانية المناسبات التي حظيت فيها باعظم سرور، هي زيارة تلقيتها من السيدة "دي فيرديلان" وابنتها، التي كانت تصطحبها إلى حمامات "بوربون"، التي اقبلتا منها، فقضيتا يومين أو ثلاثة معي. ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة، وما تجشمته من اجلي، ان تتغلب على نفوري الطويل منها، فإذا قلبي -وقد غزته مجاملاتها- يبادلها كل الود الذي ظلت طويلا توليني إياه. ولقد تاثرت بهذه الزيارة، لا سيما في الظروف التي كنت اعانيها، وعندما كنت في أشد الحاجة إلى مواساة الصداقة، كي احتفظ بشجاعتي. ولقد خشيت ان تتاثر ابلغ التاثر بالإهانات التي كنت اعانيها من الأهالي، وكم وددت ان اجنبها المنظر، حتى لا يملأ فؤادها اسى. ولكن هذا لم يكن في طوقي، ومع ان وجودها كبح قليلا البذاءات -اثناء نزهاتنا- إلا انها رات ما يكفي لان تحدس ما كان يجري في الأوقات الأخرى.

والواقع انني بدات أتعرض لأول مرة لحملات ليلية، في عقر داري، اثناء وجودها. ففي صباح احد الأيام، وجدت وصيفتها نافذتي محجوبة باحجار قذفت عليها في المساء. وكان ثمة مقعد عريض، ثقيل، مثبت تثبيتا قويا في الطريق، إلى جوار بابي. فإذا به قد نزع من مكانه، ونقل، واقيم على احد اطرافه مستندا إلى الباب، بحيث كان من المقصود -لولا ان اكتشف- ان يهوي على راس اول شخص يفتح الباب ليخرج. ولقد المت السيدة "دي فيرديلان" إلماما تاما بكل ما كان يجري. فإلى جانب ما كان بوسعها ان تراه بنفسها، اخذ خادمها الخاص يتعرف على اهل القرية، ويستدرجهم إلى الحديث. بل إنه رؤي وهو يجاذب "مونمولان" الحديث. ومع ذلك، فإنها لم تبد انها انتبهت إلى شيء مما كان يجري لي، ولم تحدثني عن "مونمولان"، ولا عن اي شخص، ولم تجب بغير كلمات موجزة على ما كنت -احيانا- ارويه لها عن نفسي. على انها لاحت مقتنعة بان إقامتي في "إنجلترا"، اكثر ملاءمة لي من اية إقامة اخرى. واسهبت في الحديث إلي عن السيد "هيوم" -الذي كان، إذ ذاك، في "باريس"- وعن وده لي، ورغبته في ان يكون ذا نفع لي في بلاده. وقد آن لي ان اذكر شيئا عن السيد "هيوم".

كان هذا السيد قد اكتسب في "فرنسا" صيتا ذائعا، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف، بفضل الرسائل التي الفها في الشؤون التجارية والسياسية، ثم -اخيرا- بفضل كتابه في: "تاريخ آل ستيوارت"، وهو الوحيد من مؤلفاته، الذي اطلعت على قسط منه، مترجما بقلم الراهب "بريفو". ومع انني لم اكن قد قرات مؤلفاته الاخرى،، إلا انني اقتنعت -على ضوء ما قيل لي عنه- بان السيد "هيوم" كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية، تميل -بفضل الاهواء الإنجليزية- إلى تحبيذ الترف. وعلى ضوء هذا الراي، اعتبرت كل المعاذير التي ساقها -لتبرير تصرفات "تشارلس الأول"- اعجوبة في

الراي المحايد، ومن ثم فإنني أكبرت فيه صدقه ونزاهته، اكثر مما أكبرت عبقريته. وكثيرا ما ضاعفت الرغبة في التعرف إلى هذا الرجل النادر واكتساب وده، من المغريات التي اثارها في نفسي بإلحاح السيدة "دي بوفلير" -صديقته الحميمة- والتي كانت تدفعني إلى الانتقال إلى "إنجلترا".

ولقد تلقيت منه -عن طريقها- عند وصولي إلى "سويسرا"، خطابا مطيبا للخاطر إلى اقصى حد. وبعد ان قدم اعظم آيات الإطراء لعبقريتي -في هذا الخطاب- وجه دعوة ملحة كي انتقل إلى "إنجلترا"، وتطوع بكل ماله من مكانة، وبكل اصدقائه لجعل إقامتي هناك مستحبة ومريحة. وقد سعيت لفوري إلى استشارة السيد "المارشال" -الذي كان مواطنا وصديقا للسيد "هيوم"- فاكد لي حسن ظني بهذا السيد. وروى لي نادرة ادبية عنه، ادهشتني بقدر ما ادهشته. تلك هي ان "ولاس" -الذي وضع كتابا يعارض فيه آراء "هيوم" بشأن سكان العالم القديم- كان متغيبا عندما طبع كتابه، فتطوع "هيوم" بمراجعة "البروفات"، وبالإشراف على إصدار الكتاب. وكان هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسي، إذ إنني كنت -بنفس الروح- قد توليت بيع نسخ من اغنية كانت قد نظمت ضدي، في مقابل ستة "صو" للنسخة!... ومن ثم فقد كنت محقا في ان اكون لنفسي كل فكرة طيبة عن "هيوم"، قبل ان تاتي السيدة "دي فيرديلان"، وتحدثني في حرارة عن الود الذي قال: إنه يكنه نحوي، وعن تشوقه إلى ان يؤدي لي كل تكريم في "إنجلترا".. فهذا عين ما ذكرته لي!

ولقد الحت كثيرا لحملي على الإفادة من هذه الشهامة، وعلى الكتابة إلى "هيوم". ولما لم اكن بطبعي ميالا إلى "إنجلترا"، ولم اكن راغبا في اتخاذ هذا القرار -اللهم إلا عند الضرورة القصوى- فقد رفضت ان اكتب، او ان اعد بالكتابة، بيد انني تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذي تراه صالحا، لاستبقاء ميل "هيوم" نحوي. وعندما غادرت "موتيير"، خلفتني وانا مقتنع تماما -بكل ما قالته لي عن هذا الرجل الجليل- بانه كان في عداد اصدقائي، وبانها كانت من اقرب أصدقائه إليه!

*****

ولقد مضى "مونمولان" قدما في مكائده -بعد رحيلها- واصبح القوم لا يقفون عند حد في جموحهم، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتي على القدمين في هدوء وسط صخبهم. واضفت هواية النباتات -التي كنت قد شرعت في ممارستها بفضل الدكتور "دانفيرنوا"- طرافة جديدة على رياضتي، وحملتني على ان اهيم في الريف، اجمع النباتات، دون أن اتاثر بصيحات الغوغاء، الذين لم يكن هدوء اعصابي ليزيدهم إلا هياجا! ولقد كان من الاشياء التي حزت في نفسي، ان رأيت أسرات اصدقائي(١)، او من كانوا يسمون انفسهم كذلك، ينضمون جهارا إلى صفوف مضطهدي.. كآل "دانفيرنوا"... ولم يشذ عنهم حتى والد واخ صديقتي "ايزابيل".. و"بوي ديلاتور" قريب الصديقة التي اقمت في دارها، والسيدة "جيراردييه" زوجة اخيها. ولقد كان هذا الـ"بيير بوي" شديد الغباء، وبليد الذهن، وكان عنيفا في طباعه، حتى إنني ابحث لنفسي ان اضحكه، لكي اتفادى هياجه. ووضعت -بالاسلوب الذي انتهجته في "النبي الصغير"- كتيبا من

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "بدات هذه الظاهرة المشؤومة، منذ إقامتي في "ايفردون". إذ إن السيد الاقطاعي "روجان" توفي بعد رحيلي عن هذه المدينة بعام او اثنين، فإذا ابوه الشيخ يجد من الامانة ما يحمله على ان يخبرني -وهو آسف- انه قد ثبت من أوراق ابنه انه قد اشترك في مؤامرة إقصائي عن "ايفردون" وولاية "بيرن". وقد دل هذا بجلاء، على ان المؤامرة لم تكن فرية -كما رغب الناس في ان يصدقوا- وإنما كانت مجرد مظاهرة كافية. إذ إن الاقطاعي "روجان"، لم يكن بعيدا عن التقوى فحسب، وإنما كان يمعن في مادينه وكفره إلى درجة التعصب والتهوس. وإلى جانب ذلك. لم يكن في "ايفردون" من استولى على ودي، وغمرني بالمجاملات المفرطة، وبالملق والرياء، كما فعل الإقطاعي "روجان" المذكور. فكان وفيا في اتباع الخطة الحبية لدى مضطهدي".

بضع صفحات، اسميته "رؤيا بيير الجبلي، الملقب بالبصير"!.. ولقد وجدت في هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات، اتخذ -في ذلك الحين- حجة رئيسية لاضطهادي. ولقد عمد "دوبيرو" إلى طبع هذا الكتيب في "جنيف"، فلم يظفر -في تلك البلاد- باكثر من نجاح متوسط، إذ إن اهالي "نيوشاتيل" لا يميلون كثيرا إلى تقدير السخرية اللاذعة او الدعابات الضاحكة، برغم ما اوتوا من المعية!

ولقد بذلت قدرا اكبر من الجهد، في كتاب آخر، في عين تلك الفترة. وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقي، فجدير بي ان اذكر شيئا بصدده:

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات في عنفوانها، بز اهل "جنيف" سواهم، بان راحوا يطلقون صيحاتهم باعلى مافي طاقتهم من صوت. واختار صديقي "فيرن" تلك الفترة بالذات -في كرم جدير برجال الدين حقا!- لينشر بعض رسائل ضدي، حاول فيها ان يبرهن زورا على انني لم اكن مسيحيا.. على ان هذه الرسائل -التي صيغت في اسلوب مقنع- لم تجد نفعا، بالرغم مما قيل من ان الطبيعي "المؤمن بالطبيعة دون الله" "بونيه"، قد ساهم فيها. ذلك لان "بونيه" هذا، كان ماديا، ولكنه لم يكن ليتوانى عن ان ينقلب إلى متعصب ديني متعنت، إذا ما كان الامر يتعلق بي. ومن المحقق انني لم اشعر بميل إلى ان ارد على هذا الكتيب، ولكن الفرصة عرضت لاقول كلمة فيه، في "رسائل من الجبل"، فاوردت في سياقه إشارة مترفعة، اهاجت حنق "فيرن"، فراح يملا "جنيف" بصيحات غيظه، وقال لي "دانفيرنوا": إنه فقد حجاه. وبعد فترة، ظهرت وريقة لا تحمل اسم كاتبها، وكانما كتبت بمياه "فليجيتون" -احد انهار الجحيم- لا بمداد. واتهمت في هذه الوريقة بانني القيت بابنائي إلى عرض الطريق، وانني كنت اجر ورائي إحدى مومسات جنود الحرس، وان الإفراط في الملاذ قد انهك قواي، وانني موبوء بالزهري.. وما إلى ذلك من اوصاف "مهذبة"!

ولم يشق علي ان اعرف كاتب هذا المنشور. وكان اول ما خطر لي، عند قراءة هذا التشهير، هو ان اقدر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة، فقد رايت رجلا يتهم بانه ربيب العواهر وهو الذي لم يرتد يوما دار فسق، وكان اعظم عيوبه دائما، هو انه في حياء العذراء وخجلها.. رأيتني اوصف بان "الزهري" كان يفري كياني، وانا الذي لم اصب يوما بانفه الامراض التناسلية، بل إن اهل الاختصاص انفسهم اكدوا انني اوتيت حصانة فطرية ضد هذه الامراض!

وبعد ان قلبت الرأي، انتهيت إلى ان خير طريقة لدحض هذا الافتراء، هي أن انشرها في المدينة التي اقمت فيها اكثر من سواها. لذلك أرسلت المنشور إلى "دوشين" ليقوم بطبعه بنصه، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيد "فيرن"، وبعض سطور موجزة لإيضاح الوقائع. على انني لم اقنع بنشر هذا المنشور، فارسلته بنفسي إلى عدة اشخاص، بينهم الامير لويس "دي فيرتمبيرج"، الذي كان قد اظهر لي مجاملات غاية في الكرم، والذي كنت أبادله الرسائل، في ذلك الحين.. ولاح ان الامير، و"دوبيرو"، وغيرهما، كانوا في شك من ان "دي فيرن" هو مؤلف هذا التشهير، وعتبوا علي ان ذكرت اسمه دون تحر كاف. وبناء على ملاحظاتهم، ندمت على ما فعلت، وكتبت إلى "دوشين" كي يوقف نشر هذه الوريقة، فكتب إلي "جاي" بانها اوقفت. ولست ادري ما إذا كان هذا حقا، فقد عهدت "جاي" كثير الكذب، في مناسبات كثيرة، حتى إن صدور اكذوبة جديدة منه، ليس بالامر المستغرب!.. ولقد كنت -إذ ذاك- محوطا بهذه الظلمات الدامسة، التي كان من المستحيل علي ان انفذ خلالها إلى اي شيء من الحقيقة!

ولقد احتمل السيد "ديفرن" هذا الاتهام في رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذي ابداه من قبل، لا سيما إذا صح انه لم يكن يستحق هذا الاتهام!.. ولقد كتب لي رسالتين او ثلاثا، في اسلوب جد حذر، بدا لي أنه كان يرمي بها إلى محاولة الوصول -خلال ردودي- إلى مدى ما كنت اعرفه، وما إذا كان لدي دليل ضده. على انني اجبت بخطابين قصيرين جافين، خشني المعنى دون نبو في العبارة، فلم يغضب منهما إطلاقا. ولكنني لم اجب عن خطابه الثالث قط، إذ تبينت انه كان يستدرجني إلى مراسلته.. وقد أرسل "دانفيرنوا" ليحدثني بهذا الصدد. وكتبت السيدة "كراميه" إلى "دوبيرو" انها كانت واثقة بان التشهير لم يصدر عن "فيرن". ولم يزحزحني هذا كله عن اقتناعي. على أنه لما كان من المحتمل ان اكون مخطئا -فاكون مدينا لـ"فيرن" باعتذار علني، في هذه الحال- فقد قلت له، عن طريق "دانفيرنوا": "إنني على استعداد لأن اقدم له اعتذارا يرضيه، إذا هو استطاع ان يبين لي الكاتب الحقيقي لهذا التشهير، او ان يبرهن لي -على الأقل- على انه لم يكن هذا الكاتب. بل إنني ذهبت إلى ابعد من ذلك، إذ شعرت بانه -على اية حال- ليس من حقي ان اطالبه بأن يثبت لي اي شيء، إذا لم يكن مذنبا. فعزمت على ان اكتب -في مذكرة مسهبة- الأسباب التي حملتني على اعتقادي، وان اعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع "فيرن" ان يطعن في ذمته. وما كان أحد ليحدس هذا الفيصل الذي اخترته، فقد وقع اختياري على: مجلس "جنيف"!

ولقد اعلنت في نهاية المذكرة، انه إذا قضى المجلس -بعد فحصها وإجراء التحريات التي يراها لازمة، والتي كان من السهل إجراؤها بنجاح- ان السيد "فيرن" لم يكن كاتب التشهير، فإنني على استعداد لأن أكف صادقا، منذ تلك اللحظة، عن اعتقادي بانه الكاتب، ولأن اذهب فارتمي على قدميه، واظل اناشده الصفح، حتى اظفر به!.. وبوسعي ان اقول إن تاجج غيرتي من اجل العدالة، واستقامتي وكرم نفسي، وثقتي بهذا الحب -الدفين في قلبي- نحو العدالة.. استطيع ان اقول: إن هذه لم يقدر لها يوما ان تتكشف اكثر وضوحا وكمالا مما تكشفت في هذه المذكرة.. ولا اكثر حكمة ونفاذا إلى القلوب مما تمثل في انني لم اتردد في قبول الد اعدائي ليفصلوا بيني وبين من ذمني!.. ولقد قرات هذه المذكرة على "دوبيرو" فنصحني بان أعدمها، وقد فعلت. واشار علي بان ارتقب ما قد يظهره "فيرن" من ادلة. فانتظرت، ولا ازال انتظر!.. كذلك نصحني بان التزم الصمت اثناء الانتظار، فلزمت الصمت، وساظل صامتا بقية عمري، ملوما على انني وجهت إلى "فيرن" اتهاما خطيرا، زائفا لم يقم عليه دليل.. وإن كنت مازال موقنا، ومقتنعا -في دخيلتي- بانه كاتب ذلك الهجاء، يقيني واقتناعي بوجودي!.. إن مذكرتي في حوزة السيد "دوبيرو"، فإذا قدر لها يوما ان ترى النور، فستبدى فيها حججي واسبابي.. وآمل ان تجد روح "جان جاك" -التي ابى معاصري ان يفهموها-، من يفهمها إذ ذاك!

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الاخيرة في "موتيير"، ورحيلي عن "فال -دي ترافير"، بعد إقامة دامت سنتين ونصف السنة.. وبعد ثمانية اشهر من جلد لم يهن، في احتمال ازرى المعاملات!.. إن من المستحيل ان اذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة، من حياتي. ولكنها ستوجد في السيرة التي نشرها "دوبيرو"، والتي سانكلم عنها فيما بعد.



اشتد الهياج عنفا، منذ رحيل السيدة "دي فيرديلان". وبالرغم من الإنذارات المتكررة –من الملك– وبالرغم من الاوامر المتتابعة من مجلس الدولة، وبالرغم من الجهود التي بذلها سيد المقاطعة، ورجال الحكومة في المنطقة، فقد ظل الناس يعتبرونني –في جد واعتقاد حازم– عدوا للمسيح!.. وإذ راوا ان كل صخبهم لم يؤد إلى جدوى، بدا انهم تهيئوا اخيرا للإقدام على تصرفات عنيفة!.. فبدات الاحجار تتطاير خلفي في الطرق، وهي تلقى من بعد لم يكن يمكنها من ان تصيبني.

واخيرا.. وفي ليلة سوق "موتيير"، التي تقام في بداية شهر ايلول (سبتمبر)، هوجمت في عقر داري، التي كنت اقيم فيها، بطريقة عرضت حياة ساكني الدار للخطر!

ففي منتصف الليل، سمعت جلبة في البهو الذي كان يمتد بطول الجزء الخلفي للدار. وانهال سيل من الأحجار –التي صوبت إلى النافذة والباب المفضي إلى البهو– فراحت تهوي في ضجيج قوي، حتى إن كلبي، الذي اعتاد النوم في البهو، بدأ يعوي، ثم أخرسه الذعر، وهرع إلى أحد الأركان، وراح ينبش الأرض الخشبية ويقرضها، بحثا عن مفر!.. واستيقظت على الضجة، وفيما كنت أهم بمغادرة مخدعي؛ لانتقل إلى المطبخ، إذا بحجر –طوحت به يد قوية– يهشم نافذة المطبخ، ويطير في جوه ثم يصدم باب غرفتي فيفتحه، ويقع عند مؤخر فراشي. ولو انني تعجلت الخروج لحظة، لكان قد اصاب بطني!.. وحدست ان هذه الضجة كانت تهدف إلى استدراجي، وان الحجر القي لكي يستقبلني وأنا اغادر غرفتي.

واندفعت إلى المطبخ، فوجدت "تيريز"، التي كانت قد استيقظت –هي الأخرى– التي جرت إلي، وهي ترتجف ووقفنا ملتصقين بالجدار، بعيدين عن مستوى النافذة، لنتجنب الإصابة بالطوب، ولنتدبر ما في وسعنا ان نفعله.. فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا. ولحسن الحظ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا، فجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة، الذي كان بابه مجاورا لبابنا. فقفز من فراشه، والقى عباءته "الروب دي شامبر" على كتفيه في عجلة، واقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين –في تلك الليلة– بسبب السوق، ومن ثم فقد كانوا على استعداد. وكان جزع حاكم المنطقة بالغا، حين رأى الخسائر، حتى إن وجهه شحب.. وعند مرأى الحصى الذي امتلأ به البهو، صاح: "يا إلهي!.. كأنني في محجر!". وإذ هبطنا إلى الطابق الأسفل، وجدنا ان باب فناء صغير قد اقتحم، وان محاولة بذلت للنفاذ إلى داخل البيت، عن طريق البهو. وعند التحري عن سبب عدم انتباه الحراس إلى هذا الشغب، وعدم حيلولتهم دون حدوثه، فظهر ان حراس "موتيير" الحوا في القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة، برغم انها لم تكن نوبتهم، إذ كان الدور على حراس من قرية أخرى!

وفي اليوم التالي، أرسل حاكم المنطقة تقريرا إلى مجلس الدولة، الذي انتدبه –بعد يومين– للقيام بتحقيق في الأمر، وبأن يعد بمكافأة، وبكتمان سر أولئك الذين يشون بالجناة، وكان عليه في الوقت ذاته، أن يقيم حارسا –على نفقة الحكومة– ليحرس داري وداره، التي كانت ملاصقة لها. وفي اليوم التالي، اقبل لزيارتي الكولونيل "دي بوري"، و"موررون" المدعي العام، و"مارتينيه" حاكم المنطقة، و"جوينيه" محصل الضرائب، و"دانفيرنوا" امين خزانة المنطقة، وابوه... وقصارى القول: إن كل ذوي المكانة في المنطقة، جاءوا لزيارتي، واجمعوا على الإلحاح علي لإغرائي على ان انحني للعاصفة، وان ارحل –ولو إلى فترة من الزمن– عن ابرشية لم يعد بوسعي ان اعيش فيها آمنا او مكرما. بل إنني لاحظت أن حاكم الإقليم– في ذعره من فورة الأهالي الساخطين، وفي جزعه من ان تمتد إليه– كان

على استعداد لان يبدي اغتباطه إذا رآني ارحل فورا؛ حتى يتخفف من مسؤولية حمايتي، وحتى يستطيع ان يبرح المنطقة هو الآخر.. وهذا ما حدث فعلا، بعد رحيلي.

ورضخت لهم.. بل إنني انصعت دون عناء تقريبا، لان منظر حقد الجمهور مزق قلبي بدرجة لم اعد اقوى معها على احتمال الالم!

وكان ثمة عدة اماكن اتخير منها ملاذي. فلقد ذكرت لي السيدة "ديفيرديلان"، في عدة خطابات -منذ عودتها إلى "باريس"- سيدا يدعى "ولبول"، كانت تلقبه باللورد، وكان شديد الاهتمام بامري، فعرض علي مقاما في إحدى ضياعه، التي صورتها لي السيدة ابدع تصوير، وتناولت التفصيلات الخاصة بإقامتي، وسكناي.. مما اوحى لي بمدى اهتمام اللورد "ولبول" معها بهذا المشروع. ولقد كان "اللورد مارشال" يوصيني باستمرار بان الجا إلى "إنجلترا" او "ابقوسيا"، حيث عرض علي -هو الآخر- ان اقيم في إحدى ضياعه. ولكنه عرض علي كذلك ملجا آخر في "بوتسدام"، كان اكثر إغراء لي، لانه كان مجاورا لمقره. وكان قد اطلعني -من عهد قريب- على اقتراح ابداه الملك له بشاني، كان بمثابة دعوة موجهة إلي، وقد ابدت السيدة دوقة "ساكس-جوتا" ارتياحها البالغ إلى هذا، حتى إنها كتبت إلي ملحة في ان ازورها، في طريقي، وان اقيم اياما معها.

ولكنني احسست بميل شديد إلى "سويسرا"، حتى إنني لم اكن اقوى على ان احزم امري على مغادرتها، طالما كان من الممكن ان اعيش فيها. ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالي منذ عدة اشهر، ولم استطع -قبل الآن- ان اتحدث عنها، حتى لا اقطع استطراد القصة.

كانت هذه الخطة هي ان اذهب فاقيم في جزيرة "سان بيير"، وهي من املاك مستشفى "بيرن". وكنت قد زرت مع "دوبيرو" هذه الجزيرة، اثناء إحدى جولاتنا، ففتنت بها حتى إنني -من ذلك الحين- لم اكف عن التفكير في وسيلة للإقامة بها. وكانت اعظم عقبة هي ان الجزيرة كانت ملكا لاهل "بيرن" الذين طردوني من اراضيهم -قبل ثلاث سنوات- في ظلم مهين. وفضلا عن ان كرامتي كانت خليقة بان تتاذى من العودة إلى الإقامة بين قوم اساءوا وفادتي، فقد كان لدي ما يبرر الخوف من انهم لن يدعوني اعيش في هذه الجزيرة، في هدوء يفوق ذاك الذي كنت فيه في "ايفردون". ولقد استشرت السيد "المارشال" في هذا الامر، فراى -كما رايت- ان اهل "بيرن" خليقون بان يشيروا بنفيي إلى هذه الجزيرة، وبان يستبقوني رهينة إزاء اية مؤلفات جديدة قد اصبوا إلى وضعها، فقد اشتم منهم هذه الرغبة، عن طريق سيد يدعى "ستيولر"، كان جارا قديما له في "كولومبيه".

ولقد خاطب السيد "ستيولر" في هذا الشان- كبار رجال الدولة، واكد للسيد "المارشال" -استنادا إلى الإجابة التي تلقاها- ان اهل "بيرن" لم يكونوا يرجون، في خجلهم من مسلكهم السابق، افضل من ان آوي إلى جزيرة "سان بيير"، وان يدعوني اعيش هناك في سلام. وإمعانا في الحيطة، سعيت -قبل ان اجرؤ على الذهاب للإقامة هناك- إلى الحصول على مزيد من المعلومات، بوساطة الكولونيل "شاييه"، الذي اكد لي هذه الامور بالذات. وإذ ظفر محصل الضرائب في الجزيرة، بإذن من رؤسائه بان يستضيفني في داره، فقد خيل إلي ان لا مخاطرة في الذهاب إلى هناك، بعد هذا القبول الضمني من الحكام والملاك "الشعب"، فما كنت لاطمع ان يعترف سادة "بيرن" جهارا بالظلم الذي اوقعوه علي، فيخرجوا على اشد المبادئ مناعة لدى كل اصحاب السلطان.



وتقع جزيرة "سان بيير" -وتسمى في "نيوشاتيل" بجزيرة "لاموت"- وسط بحيرة "بيين". ويبلغ محيطها حوالي نصف فرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة. ففيها حقول، ومروج، ومراع، وبساتين، وغابات، وكروم. وهذه جميعا موزعة - بفضل الأرض المتباينة والجبلية- بشكل مستحب جدا إذ إن مناظرها المختلفة، لا تتكشف جميعا في وقت واحد، وإنما تتعاقب في توالٍ متبادل، فتوحي بان الجزيرة اكبر مما هي في الواقع. ويتألف الجانب الغربي منها -المواجه لـ"جليريس وبونفيل"- من مرتفع شاهق، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب، كأنه قاعة، يجتمع فيه الوافدون من كل الشطآن المجاورة -في أيام الآحاد من موسم حصاد العنب- ليرقصوا ويلهوا. وليس في الجزيرة سوى دار واحدة، يقيم فيها محصل الضرائب. ولكنها كبيرة، رحبة، تقع في منخفض يحميها من الرياح.

وعلى خمسمائة أو ستمائة ياردة من "سان بيير" -من الناحية الجنوبية- جزيرة أخرى، أصغر منها مساحة بكثير، غير مزروعة ولا ماهولة، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى -في زمن ما- بفعل العواصف العاتية... وهي لا تنبت بين حصبائها سوى الصفصاف، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوة بالحشائش، وذات حسن بديع. ويكاد شكل البحيرة ان يكون بيضاويا مكتمل التكوين. ومع ان شطآنها ليست خصبة كشواطئ بحيرتي "جنيف" و"نيوشاتيل"، إلا انها ذات منظر زخرفي بديع للغاية، لا سيما في الجانب الغربي الكثير السكان، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة من الكروم كتلك التي تحف بـ"كوت-روتي" -في منطقة "الرون"- وإن لم تشبهها في جودة النبيذ الذي تدره. وتوجد في الطريق من الجنوب إلى الشمال، المناطق التابعة لقضاء "سان جان" و"بونفيل" و"بيين" و"نيداو" عند طرف البحيرة، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر.

هكذا كان الملجأ الذي دبرته لنفسي، والذي قررت ان استقر فيه إذ ابارح "فال-دي-ترافير". ولعله ليس من اللغو غير المجدي، ان اذكر انني خلفت هناك عدوا الد، تمثل في السيد "دوتيرو" -عمدة "فيربير"- الذي لم يكن يحظى بكثير احترام في المنطقة، ولكنه أوتي شقيقا قيل إنه رجل امين، كريم، كان يعمل في مكتب السيد "دي سان فلورنتان". ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذي جرى لي بوقت قصير.. مثل هذه الملاحظات البسيطة -التي لا قيمة لها في حد ذاتها- قد تساعد فيما بعد، في الكشف عن كثير من الحوادث المستترة.

ولقد كان اختياري هذا الملجأ متمشيا تماما مع أهوائي وطباعي الميالة إلى العزلة والخمول، حتى إنني اعده بين الأحلام العذبة التي كنت مشغوفا بها كل الشغف. ولاح لي انني ساغدو -في هذه الجزيرة- اكثر بعدا عن مجتمع البشر، وفي مزيد من الأمان من إهاناتهم، واشد ما اكون بعدا عن ذاكرتهم.. وقصارى القول: إنني ساكون اكثر تحررا في الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل. ولقد كنت اتمنى ان أعزل تماما -في هذه الجزيرة- فلا يعود لي اي اتصال بأي إنسان حي. ولقد اتخذت -بلا شك- كل التدابير الممكن تصورها، لاعفي نفسي من ضرورة الإبقاء على هذه الحال.



على انه لم يكن ثمة بد من القوت، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدا، من

جراء ارتفاع اسعار المؤن، وصعوبة المواصلات. فضلا عن ان المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب.
ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد "دوبيرو" بإجرائه معي، حل بمقتضاه محل الشركة التي كانت قد تعهدت بإنتاج طبعة شاملة لمؤلفاتي، ثم تخلت عن المشروع. فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة، وتعهدت بتنسيقها وتوزيعها. كذلك ارتبطت بان اسلمه ذكريات حياتي، وجعلته الوصي العام على كل اوراقي، مع اشتراط خاص بالا يشغلها إلا بعد وفاتي، إذ كنت قد آليت على نفسي ان اختتم حياتي العملية في سكينة، دون ان اذكر الراي العام بوجودي على قيد الحياة. وكان المعاش السنوي -الذي تعهد بدفعه في مقابل ذلك -كافيا لحاجاتي. كذلك عرض علي السيد "المارشال" - الذي كان قد استرد كل ثروته- معاشا سنويا قدره الف ومائتا فرنك، لم اتقبل سوى نصفه. ولقد رغب في ان يرسل إلي مجموع المبلغ دفعة واحدة، فرفضت، إذ حرت في امر استثماره؛ ومن ثم فإنه ارسله إلى "دوبيرو"، فظل بين يديه، وقد تعهد ان يسلمني الفائدة السنوية، على اساس الفئة المتفق عليها. ومن ثم فبضم اتفاقي مع "دوبيرو"، إلى المعاش الذي وهبنيه السيد "المارشال" -على ان يؤول ثلثاه إلى "تيريز" عقب وفاتي- إلى الثلاثمائة فرنك التي كنت اتسلمها سنويا من "دوشين"، اصبح في وسعي ان ارتكن إلى دخل محترم لنفسي، ولـ"تيريز" بعد مماتي. إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويا، من معاش "ريي" ومن معاش السيد "المارشال".

وهكذا لم يعد خوف لدي من ان تفتقد "تيريز" خبزها يوما، او من ان اشعر انا الآخر بحاجة!..
بيد انه كان قد كتب لي ان اضطر إلى ان انبذ كل الموارد التي ساقها إلي يدي الحظ او جهدي، وان اموت -كما عشت- فقيرا!.. وسيكون في الوسع تبين ما إذا كان في وسعي -دون ان اتردى في ادنى مهاوي الهوان- ان اتشبث بتدابير حرص الغير دائما على ان يجعلوها مذلة لي، إذ عمدوا -في عناية- إلى تجريدي من اية موارد أخرى، لكي يقسروني على ان ارضى بالهوان. فكيف خالجهم الشك في القرار الذي كنت خليقا بان اتخذه، إذا ما خيرت بين الفقر، وبين الرخاء مع الهوان؟.. لقد كانوا دائما يحكمون على قلبي، بالقياس إلى قلوبهم.

*****

وإذ ارتاح بالي إلى موارد عيشي، لم يعد لدي اي شاغل آخر. ومع انني كنت قد تركت الميدان -في الدنيا- خاليا لاعدائي، إلا انني خلفت -في الحماس النبيل الذي أملى علي مؤلفاتي، وفي استمرار صمود مبادئي وتماسكها- شاهدا على روحي التي كانت مسؤولة عن كل النهج الذي اتخذته شخصيتي في مسلكها. ولم اكن في حاجة إلى دفاع فوق هذا، ضد من سعوا إلى مذمتي وتشويه سمعتي. إنهم قد يصورون -تحت اسمي- رجلا آخر يختلف عني تماما، ولكنهم لا يملكون ان يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون في ان يكونوا مخدوعين!.. لقد كان بوسعي ان اترك لهم حياتي لينتقدوها، من اولها إلى آخرها. فلقد كنت مطمئنا إلى انهم خليقون دائما بان يجدوا -وراء كل اغلاطي ومواطن ضعفي، وعدم طاقتي على احتمال اي نير- رجلا كان عدلا، وصالحا، وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة، على استعداد دوما لان يعترف باغلاطه الظالمة، واكثر استعدادا لان ينسى مظالم الآخرين.. رجلا كان ينشد كل سعادته في عواطف الحب واللطف، وكان يكشف في كل شيء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجرد من الذاتية!

وعلى هذا، فإنني -بشكل ما- ودعت القرن الذي كنت اعيش فيه، وودعت معاصري، وودعت

مجتمع البشر، وأويت إلى هذه الجزيرة لأقضي ما تبقى لي من أيام.. فهكذا كان عزمي، وهناك كنت أعول على أن أنفذ -أخيرا- مشروعي الكبير.. مشروع الحياة الخاملة، التي كرست لها عبثا -حتى ذلك الحين- كل الطاقة المتواضعة التي أودعتها السماء في. لقد كانت هذه الجزيرة جديرة بأن تغدو لي كجزيرة "بابيماني" (١)، تلك البلاد السعيدة، التي ينام فيها المرء:

"فهناك عمل جديد.. إتيان لا شيء البتة" (٢)!

هذا "العمل الجديد" كان هو كل شيء لدي، لأنني لم أتحسر كثيرا على النوم، بل كانت البطالة تكفيني. فإذا ما قدر لي ألا أعمل شيئا، فإنني أوثر أحلام اليقظة على النعاس. وإذ كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت، وبخور المجد الباطل قد أغشى نفسي أكثر مما استهوى غروري، فلم يبق لي -كأمل أخير- سوى حياة طلقة من كل قيد، تقضى في فراغ دائم. فهذه هي حياة المرضى عنهم في العالم الآخر.. ومنذ ذلك الحين، قصرت سعادتي في عالمي الراهن، على هذا اللون من الحياة!

إن الذين يلومونني على كثرة متناقضاتي، لن يغفلوا أن يعثروا علي -هنا- تناقضا جديدا. فلقد قلت -من قبل- إن البطالة في المجتمعات، كانت عبئا لا أطيقه. ومع ذلك، فهأنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد، هو أن أسلم نفسي للبطالة. ومع ذلك، فهكذا هي طبيعتي. وإذا كان ثمة تناقض في هذا، فهو من عمل الطبيعة، وليس من صنعي. ولكن هنا فارق جد صغير.. وبهذا الفارق الصغير تمتاز شخصيتي الحقيقية. إن بطالة المجتمعات ممضة، لأنها مفروضة بحكم الضرورة، أما بطالة الوحدة، فبهيجة لأنها طليقة، وصادرة عن رضا ورغبة.. إن التعطل عن عمل شيء -إذا كنت بين الناس- مهمة شاقة، لأنني أكون في ذلك مضطرا. فأنا مضطر إلى أن أبقى بينهم. مسمرا إلى مقعدي، أو واقفا منتصب القامة كالعسكري في الحراسة، دون أن أحرك يدا أو قدما.. لا أجرؤ على أن أجري أو أن أقفز، أو أن أغني، أو أن أصرخ، أو أن أشير، إذا ما خطر لي أن أفعل.. بل إنني لا أجرؤ على أن أحلم!.. فأشعر لفوري بالسأم من البطالة وبكل عذاب الضيق وضبط النفس؛ ذلك لأنني مضطر إلى أن أصيخ السمع لكل السخافات التي تقال، وكل المجاملات التي تتبادل، وأن أعتصر قريحتي باستمرار، حتى لا أخفق في أن أقدم -بدوري- سخافتي أو أكذوبتي. وهذا ما يسمى بالتبطل. إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد!

أما البطالة التي أحبها، فليست بطالة المتعطل الذي يبقى مكتوف الذراعين في حالة توقف تام عن النشاط، فلا تفكير ولا حركة.. البطالة التي أحبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذي لا يكف عن الحراك دون ما عمل، وبطالة الخرف الذي يهيم من موضوع إلى آخر، وذراعاه ساكنتان!.. إنني أحب أن أشغل نفسي بالتوافه، وأن أشرع في مائة شيء، ولا أتم شيئا، وأن أجيء وأروح كما يحملني هواي، وأن أبدل خططي في كل دقيقة، وأن أتتبع ذبابة في كل حركاتها، وأن أحاول أن أقلقل صخرة لأتبين ما تحتها، وأن أضطلع في تحمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات، ثم أهجره -دون ما ندم- بعد عشر دقائق.. وقصارى القول، إنني أحب أن أقضي نهاري كله على غير نظام، ودونما تبعة، وألا أتبع -في كل شيء- سوى هوى لحظته، ونزوة دقيقته!

لقد كان علم النبات -كما عهدته دائما، وكما وجدته إذ بدأ يتملكني الشغف به- هو الدراسة الملائمة حقا للبطالة، والصالحة لملء فراغ أوقاتي، دون أن تدع مجالا لشطحات الخيال، أو لسآمة التعطل الكامل.. فالضرب في الغابات والريف على غير مقصد، والإقبال الآلي على اقتطاف زهرة من هنا، أو فرع من هناك، والتهام الطعام دون موعد تقريبا. وتأمل الأشياء ألف وألف مرة -وهي هي لم

---

(١) اسم تنكره "رابليه" للأرض التي أوت إليها حاشية البلاط. (٢) من شعر "لافونتين". ويقصد بالعمل الجديد.. عدم العمل.

تتغير- بنفس الاهتمام، لانني كنت انساها جميعا اولا باول.. كل هذه تؤلف الطريقة لإنفاق الزمن السرمدي، دون لحظة واحدة من السأم. إن تركيب النباتات -مهما يكن دقيقا، ومهما يكن بديعا، ومهما يكن متباينا- قل ان يسترعي العين الجاهلة إلى الدرجة التي تحملها على الاهتمام به.. إن التجانس الشامل المستطرد، مع -وفي ذات الوقت- التباين الواسع النطاق، الذي يميز اعضاء النباتات، لا يبهجان سوى اولئك الذين اوتو فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات. اما غير هؤلاء، فإنهم لا يشعرون -حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية- بغير إعجاب جامد، متواتر على نسق واحد.. إنهم لا يرون شيئا -بتفصيله او دقائقه- لانهم لا يكادون يعرفون اين يجب ان تتجه نظرتهم.. ثم إنهم لا يرونه في مجموعه كذلك- لانهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التي تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتامل. ولقد كنت -وكانت ذاكرتي الكليلة خليقة بان تستبقيني دائما- في تلك الحال المريحة، الحال التي لم اكن اعرف فيها عن الشيء سوى القدر الضئيل الذي لا يبدو في عيني جديدا.. ولكن هذا القدر كان كافيا لان يحملني على التفكير!.. وكان تباين انواع التربة الموزعة في ارجاء الجزيرة، بالرغم من صغر مساحتها، يتيح لي تباينا في نباتاتها، كافيا للدراسة والتامل بقية عمري.. فعزمت على الا ادع عرقا واحدا من عشب، دون ان افحصه. وبدات -بالفعل- اتخاذ التدابير لاكتب عن مملكة النبات، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة!

*****

وارسلت في طلب "تيريز"، وكتبي، وامتعتي، فاقمنا في دار محصل الضرائب. وكانت شقيقات زوجته -اللاتي كن يقمن في "نيداو"- يفدن لزيارتها، كل بدورها، فكان في هذا إيناس لـ"تيريز". وهناك احسست بحياة ناعمة كنت اتمنى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتي، ولكن الشغف الذي تولاني بها، لم يؤد إلا إلى زيادة إحساسي بمرارة تلك الحياة التي كانت موشكة على ان تعقبها.

لقد اعتدت دائما ان احب الماء حب المشغوف، حتى إن مرآه يلقي بي إلى احلام عذبة، برغم انها كثيرا ما تفتقد الغاية المحددة. فلم اغفل يوما عند يقظتي، ان اهرع إلى الشرفة -عندما يكون الطقس معتدلا- لاعب من هواء الصباح الصحي العليل؛ ولاطلق نظراتي إلى افق البحيرة الجميلة، التي كانت الجبال تحيط شطآنها، فتؤلف منظرا فاتنا. ولم اكن اجد تحية جديرة بالذات الإلهية اكثر من الإعجاب الصامت، الذي ينبع من تامل خلقها، والذي يعجز عن أن يعبر عن ذاته بتصرفات ظاهرة.

إن بوسعي ان ادرك السر في ان سكان المدن -الذين لا يرون سوى الجدران، والطرقات، والجرائم- لا يؤتون سوى القليل من الإيمان. ولكني لا استطيع ان افهم السر في ان اولئك الذين يعيشون في الريف -لاسيما في الاماكن المنعزلة- يستطيعون ان يضلوا الطريق إلى الإيمان!.. كيف يتسنى لارواحهم الا تسمو في غيبوبة نشوانة، مائة مرة في اليوم، نحو مبدع العجائب التي تذهلهم؟.. اما انا، فقد اعتدت من امد طويل ان انساق عقب اليقظة بوجه خاص -وانا بعد كليل الجسم لحرماني من النوم طيلة ليلي- إلى تلك النوبات التي يسمو فيها قلبي محلقا، والتي لا تفرض علي عناء التفكير. على أنه لابد -لحدوث ذلك- من ان يصافح عيني سحر منظر الطبيعة!.. اما في حجرتي، فإن صلواتي لا تنبعث بمثل هذه الكثرة أو الحرارة، ولكني اشعر -إذا ما رأيت منظرا طبيعيا جميلا- بتاثر عاطفي لا ادري مأتاه. واذكر انني قرات عن اسقف حكيم، صادف اثناء زيارته لابرشيته، عجوزا لم تكن تملك في صلاتها ان تقول اكثر من: "آواه!". فقال لها الاسقف: "واصلي صلاتك

على هذا النحو، أيتها الأم الصالحة، فإن صلاتك هذه خير من صلواتنا" .. وهذه الصلاة –التي هي خير من سواها– هي صلاتي أنا الآخر!

وكنت أسرع –بعد الفطور– إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة، وأنا متجهم، ضيق الصدر، متلهف إلى اللحظة السعيدة التي لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة. وكنت أقلب كتبي وأوراقي لبضع لحظات، رغبة في فرزها وترتيبها، أكثر مني في قراءتها. وكانت هذه المهمة تتيح لي متعة التأمل الفكري للحظات قلائل، أمل بعدها العمل، فأقضي الساعات الثلاث أو الأربع المتبقية من فترة الصباح، في دراسة علم النبات، لاسيما منهج "لينايوس"، الذي تملكني الشغف به، حتى إنني لم أقو على التحول عنه تماما، حتى بعد أن تبينت عيوبه فإن هذا المدقق العظيم، هو في رأيي، الوحيد بعد "لودفيج" –حتى يومنا هذا– الذي نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف. ولكنه أفرط –أكثر مما ينبغي– في الاعتماد في دراسته على مجموعات الأعشاب المجففة وعلى الحدائق، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل. أما أنا، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لي، وما إن احتاج إلى أن أتأمل أو أتحرى شيئا، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج، متأبطا كتابا.. وهناك، كنت أنطرح على الأرض بجانب النبات الذي أقصده، فأفحصه في مكانه، على مهل. ولقد أعانتني هذه الطريقة أكبر العون، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهي في وضعها الطبيعي، قبل أن تستنبتها يد الإنسان، وتنأى بها عن طبيعتها!.. ويقال: إن "فاجون" –الطبيب الأول للملك "لويس الرابع عشر"– كان ملما بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية، وعلى معرفة تامة بها. ولكنه بقدر علمه هذا، كان جاهلا بنفس النباتات، في الريف، حتى إنه كان يعجز عن معرفة شيء منها. وهذا على النقيض مني تماما، فإني أعرف شيئا عن نتاج الطبيعة، ولكن لا أعرف البتة عن نتاج البستاني!

أما الأوقات التي كانت تعقب الغداء، فقد اعتدت أن استسلم فيها تماما لميلي للبطالة وعدم الاكتراث بشيء، و كنت أتبع وحي لحظتي، دونما قاعدة أو نظام. وفي كثير من الأحيان كنت أبادر فور مغادرتي المائدة –عندما يكون الهواء ساكنا– إلى القفز وحيدا إلى قارب صغير، علمني محصل الضرائب كيف أسيطر عليه بمجداف واحد، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة. وكانت لحظة انطلاقي تبعث في نفسي فرحة يختلج لها قلبي. ومن المستحيل علي أن أصف هذا الشعور، أو أن أعلله.. اللهم إلا أن يكون اغتباطا مستترا بأنني –في هذه الحال– بمنأى عن الأشرار!

وكنت أجدف في البحيرة وحيدا، أقترب من الشاطئ أحيانا، ولكني لم أكن أرسو عليه قط. وكثيرا ما تركت قاربي لرحمة الماء والهواء، وأسلمت نفسي لخواطر شاردة، قد تكون منطوية على غباء، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها. وكنت أهتف أحيانا، في انفعال: "أواه، أيتها الطبيعة!.. أواه، يا أمي! هأنذا في حمايتك وحدك!.. ما من إنسان لئيم خبيث هنا، ليحول بيني وبينك!". وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ، وأنا أتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطا!.. على أنني –رغبة في إرضاء كلبي المسكين، الذي لم يكن شديد الحب مثلي لهذه النزهات المائية الطويلة– اعتدت أن أجعل لنزهتي غاية. تلك هي أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة، فأتمشى على أرضها ساعة أو ساعتين، أو أستلقي على الحشائش، على قمة البقعة المرتفعة فيها، لأستمرئ لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها، ولأعكف على فحص وتشريح كل النباتات التي تقع عليها يدي، ولأبني لنفسي مسكنا خياليا، على هذه الجزيرة الصغيرة، وكأنني "روبنسن كروزو" جديد!.. ولقد تعلق قلبي بهذه البقعة المرتفعة!. وعندما كنت أصحب "تيريز" وزوجة محصل الضرائب

وشقيقاتها للنزهة، كان الزهو يستخفني بأن أكون دليلهن ومرشدهن!.. ولقد نقلنا -في موكب بهيج- بعض الارانب لنعمر بها هذه البقعة، فكان هذا عيدا من اعياد "**جان جاك**"!.. ولقد اضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدا من الرواء والقيمة، في نظري. فاصبحت اكثر من التردد عليها في مزيد من السرور؛ لاتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد!

*****

ولقد اضفت إلي هذه الملاهي، ملهاة اخرى ذكرتني بالحياة البهيجة في "**ليه شارميت**"، وحفزني إليها، ذلك الفصل من السنة. تلك هي ممارسة اعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر، التي كنت و"**تيريز**" نسر ان نتقاسمها مع محصل الضرائب واسرته. واذكر ان شخصا من ابناء "**بيرن**" -يدعى السيد "**كيرشبيرجر**"- جاء يوما لزيارتي، فوجدني محشورا فوق فروع شجرة عالية، وقد ربطت إلى خاصرتي كيسا امتلأ بالتفاح إلى درجة تعذرت علي معها الحركة!.. ولم اسفا لهذا اللقاء، ولا للقاءات اخرى على شاكلته، بل إنني رجوت ان يكف اهل "**بيرن**" عن ان يعكروا صفو فراغي -بعد ان رأوا كيف كنت استغله- وان يدعوني في عزلتي آمنا. ولقد كنت اوثر ان اكون حبيس هذه الجزيرة بإرادتهم، وليس بإرادتي. لانني كنت خليقا بان اكون -في هذه الحال- اكثر اطمئنانا إلى عدم تعكير صفو راحتي!

إن في هذا اعترافا من تلك الاعترافات، التي اشعر -مقدما- بانها لن تلقى تصديقا من اولئك القراء الذين يصرون دائما على ان يحكموا علي بالقياس إلى انفسهم، بالرغم من انهم قد رأوا مرغمين -في سياق حياتي باسرها- الف إحساس داخلي لا يشبه البتة احاسيسهم في شيء!.. واغرب ما في الامر، انهم في الوقت الذي ينكرون علي فيه كل شعور طيب او مبرأ لم يؤتوه هم، إذا بهم على اتم الاستعداد لان يخلعوا علي من خبيث المشاعر مالا قبل لهم بان يبثوه -لو شاءوا- في اي قلب بشري!.. فهم يجدون من البساطة ان يصوروني على نقيض الطبيعة، وان يرسموني كوحش هائل لا يمكن ان يكون له وجود. ذلك لانهم يرون ان ليس ثمة سخافة تجل على التصديق، ما دامت موجهة إلى تشويه سمعتي.. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتملا، طالما كان فيه تمجيد لي.

ولكنني سامضي بنفس الإخلاص الصادق -بالرغم مما قد يقولون او يعتقدون- في عرض ما كان عليه "**جان جاك روسو**"، وما كان يفعله، وما كان يطوف بخاطره، دونما إيضاح أو تبرير لغرابة مشاعره وآرائه، ودون ان اتحرى عما إذا كان سواه قد فكر على نسقه. ولقد استهوتني جزيرة "**سان بيير**"، وكنت جد مرتاح إليها، حتى إنني لفرط تركيز رغباتي على هذه الجزيرة، عزمت على الا ابرحها إطلاقا. فلقد ضقت -بيني وبين نفسي- بالزيارات التي كنت مضطرا إلى ادائها في المناطق المحيطة، والرحلات التي كنت مجبرا على القيام بها إلي "**نيوشاتيل**" و"**بيين**"، و"**ايفردون**"، "**نيداو**".. كان اليوم الذي اقضيه خارج الجزيرة، يبدو لي بمثابة انتقاص من سعادتي. كما ان تجاوز نطاق البحيرة، غدا بالنسبة لي بمثابة تحول عن طبيعتي الفطرية. وفضلا عن ذلك، فإن تجاربي الماضية جعلتني هيابا فما إن كنت اصادف شيئا يرتاح إليه قلبي، حتى اتوقع ان افقده، وغدت رغبتي الحارة في ان اختتم عمري في هذه الجزيرة، مرتبطة -ارتباطا لا انفصام له- بالخوف من ان اقسر على مغادرتها!

واعتدت ان اذهب كل مساء، فاجلس على الشاطئ، لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة

الامواج.. كنت احس بلذة فذة إذ أرى الامواج تتكسر عند قدمي، فقد كانت تمثل لي اصطخاب الدنيا، وسكينة معقلي. وكانت هذه الفكرة تهفو بعواطفي احيانا، حتى اشعر بالدموع تتساقط من عيني!.. ولم يكن يعكر هذه السكينة -التي اعتدت ان استمتع بها بكل عواطفي- سوى توجس فقدانها، على ان هذا التوجس بالذات، كان يفسد سحرها علي!

كنت اشعر بوضعي متأرجحا إلى درجة لا تمكنني من ان اجرؤ على ان اعول عليه، او اطمئن إليه. وكنت اقول لنفسي: "آه!.. كم اتمنى راضيا ان استبدل حريتي في مغادرة الجزيرة -الامر الذي لا احفل به إطلاقا- بضمان تمكني من البقاء فيها دائما!.. لماذا لا استبقى هنا قسرا، بدلا من ان ابقى تفضلا؟.. إن اولئك الذين يدعونني هنا -من قبيل التفضل- يستطيعون ان يطردوني في اية لحظة، فكيف لي ان اجرؤ على الأمل في أن يدعني مضطهدي اواصل هناءتي -التي يرونني عليها- هنا؟.. آه! إن السماح لي بالعيش هنا، اقل مما اصبو إليه. إنما اتمنى ان يقضى علي بالبقاء، وان اقسر على البقاء في هذه الجزيرة، حتى لا اغصب على مبارحتها!".. وكنت ارمق بحسد ذلك السعيد "ميكيلي دوكريه"، الذي كان يعيش آمنا في قلعة "داربورج"، دون ان ينقصه -لكي يكون سعيدا- سوى ان يرغب في السعادة!!

وأخيرا، انتهيت -لفرط استسلامي لهذه الخواطر، وللهواجس المزعجة التي كانت تجعلني دائما في خوف من انقضاض عواصف جديدة على راسي- إلى ان اتمنى، في لهفة تفوق كل تصور، ان يعدل ظالمي عن مجرد التساهل معي إزاء مقامي في الجزيرة، وان يجعلوها سجنا يقسرونني على ملازمته طيلة حياتي.. وبوسعي ان اقسم إنني لو كنت املك السلطة على ان أحصل على حكم بهذا الصدد، لفعلت باقصى اغتباط إذ كنت أوثر -الف مرة- ان اضطر اضطرارا إلى قضاء بقية عمري هناك، على ان اتعرض لخطر الطرد منها!

*****

ولم تبق هواجسي طويلا، دون تحقيق.. فقد تلقيت -وانا اقل ما اكون توقعا لذلك- خطابا من حاكم "نيداو"، الذي كانت جزيرة "سان بيير" في نطاق سلطانه.. وفي هذا الخطاب، ابلغني -نيابة عن حكومته- الأمر بمغادرة الجزيرة والأراضي التابعة لهذه الحكومة!

وخيل إلي، عندما قرات الخطاب، انني كنت احلم، فما كان ثمة ما هو ابعد عن الطبيعي، ولا ما هو ابعد عن المنطق، ولا ما هو ابعد عن التوقع، من مثل هذا الامر؛ ذلك لانني كنت قد نظرت إلى هواجسي على انها قلق رجل ازعجته مصائبه، اكثر منها توقعات تستند إلى اتفه أساس. وكانت الخطوات التي اتخذتها لاطمئن نفسي إلى القبول الضمني الذي صدر من السلطات، وإلى الأسلوب الوادع الذي ابيح لي بمقتضاه ان استقر في الجزيرة، وإلى الزيارات التي تلقيتها من عديد من أهل "بيرن" ومن الحاكم نفسه -الذي أذهلني بما ابداه نحوي من ود ورعاية- وإلى قسوة الطقس، التي كانت تجعل من العنف الوحشي طرد رجل معلول من ماواه.. كل هذه الاعتبارات، جعلتني -وجعلت كثيرين غيري- يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الامر، وان ذوي النوايا السيئة نحوي، قد تعمدوا اختيار وقت جني العنب، وتغيب اعضاء مجلس الشيوخ، كي يوقعوا بي هذه الضربة فجأة، وبحدة!

ولو انني اصغيت لاول إيعاز من كرامتي، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فورا. ولكن، إلى اين

كنت اذهب؟.. وماذا بجري والشتاء قد اقبل، وليس لي من مقصد، ولا اتخذت عدة، وليس ثمة مرشد، ولا عربات للنقل؟.. وما لم اترك ورائي كل شيء -اوراقي، وامتعتي، وكل شؤوني- فقد كنت بحاجة إلى وقت كي اعدها للنقل.. ثم إن الامر لم يذكر ما إذا كان يسمح لي باخذها أو لا يسمح!

وبدات ملاحقة المصائب توهن جلدي.. ولاول مرة في حياتي، شعرت بكبريائي الفطرية تنحني تحت وطاة الضرورة. وبالرغم من تذمر قلبي، لم يكن ثمة بد من ان اتنزل فاطلب إمهالا. وإلى السيد "**دي جرافنريه**" -الذي ارسل إلي الامر- وجهت مسعاي. وكان في خطابه قد عبر عن استهجانه الشديد لهذا الامر، وانه ما ابلغني إياه إلا في اسف بالغ. فلاح لي مما ملا الخطاب من مظاهر الالم والتقدير، ان هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مترفقة، متلطفة، إلى ان افاتحه بما في صدري.. وهذا ما فعلته. ولم اشك في ان خطابي خليق بان يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرد من الإنسانية، وانهم -ولو لم يلغوا مثل هذا الامر القاسي- سيمنحونني مهلة معقولة، قد تشمل الشتاء كله، لكي استعد للرحيل، ولكي اختار مكانا الجا إليه.

واخذت -في انتظار جوابه- افكر في موقفي، واتدبر القرار الذي كان علي ان اتخذه. ورايت كثيرا من الصعاب في كل ناحية. وكان الحزن قد اثر علي اشد تاثير، كما كانت صحتي -في تلك الآونة- في اسوا حال، فاسلمت نفسي للتداعي، وإذا ثبوط همتي يجردني مما تبقى لي من قوى عقلية متواضعة، كان من الممكن ان تساعدني على ان ابت في موقفي الحزن.. كان من الواضح انني لم اكن املك ان اتفادى -في اي مكان قد الوذ به- ان اتعرض للاسلوبين اللذين استخدما، حتى ذلك الحين، في طردي، واولهما: إثارة الناس ضدي، بالدسائس المتوارية.. في حين ان الثاني، هو: نفيي بالقوة الصريحة، دون إبداء اي سبب او مبرر لذلك!

ومن ثم فإنني لم اكن املك ان اعول على اي ملجا، واطمئن إلى انه مامون اللهم إلا إذا ذهبت إلى ابعد مما كانت قواي، وموسم الشتاء، تسمح به، على ما تراءى لي!.. ولقد عادت بي كل هذه الاعتبارات، إلى عين الافكار التي كانت تشغل بالي منذ البداية. ورحت اشتهي لو انني سجنت طيلة العمر، بدلا من أن أساق إلى ان اضرب في الارض، بلا انقطاع! وان اطرد من كل مكان الوذ به، على التعاقب.

وبعد رسالتي الاولى بيومين، كتبت رسالة ثانية إلى السيد "**دي جرافنريه**"، اساله ان يعرض الاقتراح على المجلس.. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من "**بيرن**". وكان امرا صيغ في اخشن عبارات رسمية، بان اغادر الجزيرة، وكل الاراضي التي تتبع الجمهورية -مباشرة او غير مباشرة- في اربع وعشرين ساعة، والا اعود إلى دخولها قط، وإلا تعرضت لاقسى صنوف العقاب!

❁❁❁❁❁

وكانت تلك اللحظة رهيبة، ووجدت نفسي بعدها في اقسى الهموم، وليس في اعظم حيرة!.. على ان اشد ما آلمني هو ان اضطر إلى التخلي عن المشروع الذي كان يجعلني اشتهي قضاء الشتاء في الجزيرة. وقد حان الوقت كي أروي القصة الاليمة التي توجت مصائبي، والتي استدرجت -إلى القضاء علي- شعبا تعسا، كانت فضائله المتزايدة تبشر بانه سيعادل يوما شعبي "**اسبرطة**" و"**روما**".

فلقد تحدثت في **"العقد الاجتماعي"** عن الكورسيكيين كشعب جديد، كان هو الشعب الوحيد في **"أوروبا"** - الذي لم يستغله التشريع او يفسده. وقد أوضحت ان ثمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم، لو انهم وجدوا مرشدا حكيما!

ولقد اطلع على كتابي بعض **"الكورسيكيين"**، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذي تحدثت به عن شعبهم، وإذ ألفوا أنفسهم مضطرين إلى ان يكرسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم، فقد رأى بعض زعمائهم ان يستشيروني في هذا العمل الجليل. وكتب إلي -بهذا الصدد- سيد يدعى **"بوتافوكو"**، كان ينتمي إلى إحدى الأسرات الكبرى في الجزيرة، وكان **"كابتن"** في اللواء الملكي الإيطالي بـ**"فرنسا"**، وقد أمدني بعدد من الوثائق التي كنت قد طلبتها منه؛ لكي ازداد تعرفا على تاريخ الأمة، وعلى احوال البلد. كذلك كتب لي السيد **"باولي"** عدة مرات، ومع انني شعرت بان مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواي، إلا انني رايت الا سبيل إلى ان اضن بمعونتي في مثل هذه المهمة الجليلة السامية، بعد ان حصلت على كل البيانات التي طلبتها. وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيدين، وقد استمر تبادل الرسائل إلى ان غادرت **"سان بيير"**.

وفي تلك الفترة بالذات، سمعت ان **"فرنسا"** كانت توفد جنودها إلى **"كورسيكا"**، وانها عقدت معاهدة مع اهل **"جنوا"**. ولقد اثارت هذه المعاهدة، وإيفاد الجنود، قلقي. ودون ان أتصور ان تكون لي اية علاقة بذلك، قدرت ان من المستحيل -بل ومن العبث- ان اكرس اهتمامي لعمل يتطلب هدوءا وسكينة كاملين.. واعني به تنظيم شعب، في اللحظة التي كان يحتمل ان يكون فيها على شفا إخضاعه لنير الطغيان.

ولم اخف قلقي عن السيد **"بوتافوكو"**، الذي طمانني بان اكد لي انه -كمواطن صالح- ما كان ليبقى في خدمة **"فرنسا"** كما كان فعلا؛ لو ان هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده. والواقع ان تحمسه للتبريرات التشريعية لـ**"كورسيكا"**، وعلاقته الوثيقة بالسيد **"باولي"**، حالتا دون ان يخالجني اي شك من ناحيته. وعندما سمعت انه كان يكثر من التردد على **"فرساي"** و**"فونتينبلو"**، وانه كان يقابل السيد **"دي شوازيل"**، لم املك سوى ان استنتج انه حصل على ضمانات بشان النوايا الحقيقية للبلاط الفرنسي. وهو الأمر الذي تركني احدسه، ولكنه لم يبد رغبة في ان يشرح ما لديه بشانه بجلاء، في خطاب!

ولقد طمانني كل هذا، إلى حد ما. على انني لم اقو على ان افهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين، ولم استطع ان ارى اي إغراء يوحي بتصديق انهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين، فقد كان هؤلاء جد قادرين على ان يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد اهل **"جنوا"**.. كذلك لم اكن املك ان اشعر بارتياح تام، إلى أن أوقف اهتمامي في إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح، مالم يكن لدي الدليل المقنع بانه لم يكن مجرد دعابة للضحك مني!.. ولكم كنت ارجو ان اتحدث إلى السيد **"بوتافوكو"**،

فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي احصل منه على الإيضاحات التي كنت انشدها. ولقد ابدى أمله في ان يتاح لنا لقاء، فرحت انتظر هذا اللقاء بصبر جد نافد. ولست ادري ما إذا كان قد اعتزم حقا ان يتيح لي لقاء، ولكن لو ان هذه كانت نيته حقا، لكانت محني خليقة بان تمنعني من ان أفيد من هذا اللقاء!



وكنت كلما اطلت التفكير في المشروع المقترح، وكلما امعنت في فحص الوثائق التي كانت بين يدي، ازددت شعورا بالحاجة الملحة إلى ان ادرس -عن كثب- البلاد، والشعب الذي كان التشريع بعد له، والأرض التي يقيم عليها، وكافة الوجوه التي كان عليه ان يطبق هذا التشريع فيها. وكنت أزداد إدراكا -يوما بعد يوم- بانه من المستحيل ان اظفر -وانا بعيد- بكافة الاضواء اللازمة لإرشادي.

ولقد كتبت عن هذه الامور إلى "بوتافوكو"، فإذا به كان يشعر بها. وإذا كنت لم استقر تماما على قرار الانتقال إلى "كورسيكا"، إلا انني شغلت كل الشغل بوسائل اداء هذه الرحلة. فتكلمت إلى السيد "داستيه" الذي كان خليقا بان يلم بها، إذ كان قد عمل حينا -فيما مضى- تحت رئاسة السيد "دي مايبوا". ولكنه لم يدخر وسعا، في سبيل إثنائي عن نيتي، واعترف ان الصورة البشعة التي رسمها للكورسيكيين وبلادهم، اخبت كثيرا من جذوة رغبتي في الذهاب إليهم والإقامة بينهم!

على أن هذه الرغبة عادت إلى التاجج -عندما ادى الاضطهاد الذي تعرضت له في "موتيير" إلى ان افكر في مغادرة "سويسرا"- بفضل الأمل في ان أجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذي حرمت منه في كل مكان آخر. ولم يكن يزعجني -بصدد هذه الرحلة- سوى امر واحد.. عدم قدرتي الصحية عليها، والنفور الذي طالما تملكني نحو الحياة النشيطة التي قد اضطر إلى ممارستها. ذلك لأن الطبيعة هياتني لكي اتامل وافكر في الوحدة، وحسب هواي، ومن ثم فإنني لم اكن مهيا البتة للكلام والعمل، وتوجيه الشؤون والمسائل وسط الناس.

إن الطبيعة حين منحتني الموهبة للحالة الاولى، ابت علي الموهبة للثانية!.. ومع ذلك فقد شعرت انني خليق بان اضطر بمجرد وصولي إلى "كورسيكا"، بان القي بنفسي في غمار تلهف الشعب، وان اعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التي تتولى الزعامة في الجزيرة، ولو لم اساهم بدور مباشر في المسائل العامة.

وكانت غاية رحلتي ذاتها، تفرض علي السعي -وسط هذه الأمة- إلى العثور على المعلومات التي كنت انشدها، بدلا من السعي إلى الراحة والعزلة.. كان من الواضح انني لن استطيع ان اظل بحريتي واستقلالي، إذ إنني سادفع -على الرغم مني- إلى دوامة من النشاط، لم اكن بفطرتي مهيئا لها، وانني سامارس حياة تتعارض تماما مع اهوائي، ولا توحي بنفع لي.

وتكهنت بانني لن أحقق بوجودي، الفكرة التي ربما كانت قد تكونت عن مقدرتي خلال كتبي.. وكان معنى ذلك، ان افقد مكانتي لدى "الكورسيكيين"، بعد الثقة التي اضفوها علي، والتي ما كنت لأملك بدونها ان احقق العمل الذي كانوا يتوقعونه مني. ولقد شعرت بيقين من انني إذ أخرج -بهذا- من الجو الذي خلقت به، لن اغدو ذا نفع لهم، وإنما ساعمل على إشقاء نفسي!

*****

وكنت مكروبا، معذبا، حطمتني العواصف من كل نوع، واضنتني التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة، واصبحت اشعر شعورا طاغيا بالحاجة إلى الراحة التي اتخذ اعدائي -الغلاظ القلوب- ملهاة من حرماني منها!.. ورحت أتنهد حسرة -كما لم اتنهد من قبل- على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسي، وعلى تلك الدعة الناعمة التي تشمل عقلي وجسمي، والتي طالما صبوت إليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبي الذي شفي من اوهام الحب والصداقة!

لذلك تطلعت في جزع إلى المهمة التي كنت أوشك أن اقدم عليها، إلى الحياة الصاخبة التي كنت

اوشك أن انغمس فيها.

وإذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد اذكت عزيمتي، فإن استحالة إرضاء نفسي بالنجاح، وتعويضها عما كانت فيه، ثبط تلك العزيمة تماما!.. إن عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل -في وحدة- كانت أقل عناء في نظري من ستة أشهر اقضيها في حياة حافلة بالنشاط، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها!

وفكرت في حيلة لاحت لي جد مناسبة لتسوية كل شيء.. ذلك لأنني -وقد كانت تتعقبني في كل مكان، المؤامرات الخفية التي كان يبذلها ظالمي المستترون -لم ار سوى "كورسيكا" مكانا استطيع ان أتطلع إليه في شيخوختي، للحصول على الراحة التي ابوها علي في كل مكان، فقررت ان اذهب إلى هناك، وفقا لتعليمات "بوتافوكو"، بمجرد ان يتسنى لي ذلك.

ولكنني عقدت عزمي -لكي اعيش في هدوء هناك- على أن اطرح عني مهمة التشريع، ولو في الظاهر، على الأقل. ولكي ارد إلى مضيفي كرمهم، بطريقة ما، قررت ان اعكف على كتابة تاريخهم، في مسرحه.

على أن اجمع -في هدوء- المعلومات اللازمة التي تجعلني ذا نفع كبير لهم، إذا ما لاح لي اي أمل في النجاح. وداخلني الأمل بان استطيع -إذا لم اقيد نفسي بشيء، على هذا النسق- ان افكر فيما بيني وبين نفسي، وانا مطلق الحرية، في مشروع مناسب، دون ان انبذ آمالي المشتهاة في العزلة، ودون ان انتهج اي اسلوب للحياة لا اقوى على احتماله، ولا انا مهيأ له!

غير ان هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق، في وضعي الراهن. فعلى ما انباني به السيد "داستيه" عن "كورسيكا"، لم اتوقع ان اجد هناك ابسط اسباب الراحة في الحياة، ما لم أصحب هذه الأسباب معي: من اقمشة، إلى ملابس، إلى اطباق وصحاف، إلى آنية المطبخ، إلى الورق والكتب. كان لابد للمرء من ان يحمل كل هذه معه. ولكي انتقل إلى هناك مع "تيريز"، كان من الضروري اجتياز جبال الألب، وان اجر خلفي متاعي مائتي فرسخ.. وكان لابد من اجتياز اراضي عدة حكومات، وعلى ضوء المعاملة التي لقيتها من "أوروبا" كلها، كان من الجدير ان استعد -بطبيعة الوضع، وبعد المحن والنكبات- لأن اصادف عقبات في كل مكان، ولان اجد كل امرئ فخورا بأن يعذبني بمحنة جديدة، وبأن يمتهن -في شخصي- كل حقوق الشعوب والإنسانية. ولقد اضطرتني فداحة نفقات رحلة كهذه، ومتاعبها، وأخطارها، إلى ان أتدبر مقدما كل صعابها، وان أزنها واقدرها في عناية.

وفيما كنت مترددا -بهذا الشكل- حدثت اضطهادات "موتييه" التي اضطرتني إلى الانسحاب. ولم أكن مستعدا لرحلة طويلة، لا سيما إلى "كورسيكا"، فقد كنت ارتقب ردا من "بوتافوكو"، ومن ثم فقد لذت بجزيرة "سان بيير"، التي طردت منها في بداية الشتاء، على ما ذكرت من قبل. وكان الجليد الذي اكتست به "الألب" يجعل من المستحيل علي ان ابرح البلاد -عن ذلك الطريق- لا سيما بعد إنذار قصير الأمد. والواقع ان تطرف امر كهذا، جعل الصدوع به مستحيلا فلقد كان من العسير ان اطيعه وانا في مقامي المنعزل المحوط بالماء، وليس امامي سوى أربع وعشرين ساعة -بدأت منذ إخطاري بالأمر- لأقوم باستعداداتي للرحيل، ولاستاجر القوارب ووسائل النقل التي اغادر بها الجزيرة والمنطقة.. كان من العسير ان انفذ الأمر، ولو اوتيت اجنحة!

ولقد انبأت حاكم "نيداو" بذلك في ردي على خطابه، ثم رحت انعجل ما استطعت، فراق هذه البلاد، التي لم الق بها سوى الاضطرابات.. وهكذا اضطررت إلى العدول عن مشروعي الغالي..

وهكذا ايضا قررت -إذ عجزت، في قنوطي وثبوط عزيمتي، عن ان احمل اعدائي على ان يترفقوا بي- ان ارحل إلى "برلين"، بدعوة من السيد "المارشال"، تاركا "تيريز" لتقضي الشتاء في جزيرة "سان-بيير" مع متاعي وكتبي، بعد ان اودعت اوراقي بين يدي "دوبيرو". ولقد بذلت كل تعجل، حتى إنني غادرت الجزيرة في الصباح التالي لوصول الامر، فبلغت "بيين" قبيل الظهر. وقد كادت رحلتي تنتهي هناك تقريبا، بحادث يجب عدم إغفال ذكره.

فما إن تردد انني تلقيت امرا بمغادرة مقري، حتى تدفق علي الزائرون من المناطق المجاورة، لا سيما من ابناء "بيرن" الذين جاءوا ليراءوني ويطيبوا خاطري، في ابشع آيات النفاق، وليؤكدوا لي ان فرصة العطلات وغياب كثير من اعضاء مجلس الشيوخ، قد استغلت لإصدار هذا الامر -الذي استنكره كل "المائتين"، على ما قالوا- وإنذاري به. وكان بين هذا الحشد من المواسين، بضعة اشخاص من مدينة "بيين"، وهي ولاية صغيرة حرة، تحيط بها اراضي جمهورية "بيرن".

وكان بين هؤلاء شاب يدعى "فيلدرميه"، كانت اسرته تحتل الصدارة، وتستمتع بارفع سمعة في هذه المدينة الصغيرة. ولقد الح علي "فيلدرميه" في حرارة -باسم مواطنيه- كي اتخذ ملجئي بينهم، مؤكدا لي انهم كانوا تواقين ومتحمسين لاستقبالي... وانهم يعتبرون مساعدتي على ان انسى المظالم التي عانيتها، شرفا وواجبا، وانني لن اجد ما اخشاه من نفوذ اهل "بيرن" بينهم، فإن "بيين" كانت مدينة حرة، لا تخضع لسلطان احد، وقد اجمع مواطنوها -عن بكرة ابيهم- على الا يصغوا إلى اي طلب يسيء إلي!

وعندما راى "فيلدرميه" ان ليس بوسعه ان يزعزع إصراري، اهاب بعدة اشخاص آخرين من "بيين" والمناطق المجاورة -بل ومن "بيرن" ذاتها- ان ينضموا إليه ويؤيدوه، وكان بين هؤلاء "كيرشبرجر" -الذي سبق لي ان تحدثت عنه- الذي زارني مع "فيلدرميه"، وراح يستحثني في إلحاف على ان يجتذب اهتمامي إليه بفضل مواهبه ومبادئه. ولقد كانت ابعد الرجاوات عن توقعي، واشدها إلحاحا، هي تلك التي راح يبذلها السيد "بارثيه" -سكرتير السفارة الفرنسية- الذي زارني مع "فيلدرميه"، وراح يستحثني في إلحاف على ان اقبل دعوته.

وقد ادهشني بما ابداه لي من اهتمام كريم وحار. ولم اكن اعرف السيد "بارثيه" إطلاقا، ولكني -مع ذلك- لمست في كلماته حرارة وحمية الصداقة، ورايت انه كان تواقا حقا إلى إقناعي بالإقامة في "بيين". ولقد امتدح -في اسلوب رفيع طلق- تلك المدينة واهلها، الذين بدا انه كان على وئام بالغ معهم، حتى إنه كان يدعوهم -في كثير من المناسبات في حضوري- رعاته واهله!

ولقد قوضت هذه الخطوة -من "بارثيه"- كل تكهناتي. فلقد اعتدت دائما ان ارتاب في ان السيد "دي شوازيل"، كان المصدر السري لكل الاضطهادات والمظالم التي تعرضت لها في "سويسرا"، ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسي المقيم في "جنيف"، والسفير الفرنسي في "سلور"، إلا إلى تعزيز هذه الشكوك بقوة. كنت ارى النفوذ الخفي لـ"فرنسا" في كل ما حدث لي في "بيرن" و"جنيف" و"نيوشاتيل"، وقد خيل إلي ان عدوي القوي الوحيد في "فرنسا": هو الدوق "دي شوازيل". فكيف كان خليقا بي ان ارى زيارة "بارثيه" والاهتمام الكريم الذي بدا منه نحو مصيري؟.

لم تكن مصائبي قد قوضت ما كان يعمر قلبي من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية، ولم تكن التجربة قد علمتني كيف اتبين في كل مظهر للود والعطف فخا للإيقاع بي!.. واخذت ابحث في دهشة عن

سبب هذا الكرم من "بارثيه"، فما كنت من الغفلة بحيث اصدق انه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه.

ولمحت في مسلكه دعاية، بل وتظاهرا، ينمان عن مقصد مستتر، وكنت بعيد البال عن ان ابصر في كل هذه العناصر الثانوية البسيطة، تلك الشهامة الكريمة التي كانت كفيلة بان تجعل قلبي يغلي غليانا، لو انني كنت في مركز مشابه لمركز محدثي!

وكنت قد تعرفت -في الماضي- بـ"الشفاليه دي بوتفيل"، معرفة بسيطة، في قصر "لوكسمبورج"، حيث ابدى لي بعض الكرم. ولقد حرص -منذ تعيينه سفيرا- على أن يظهر انه لم ينسني، حتى لقد دعاني إلى ان ازوره في "سلور". ومع انني لم البِّ الدعوى، إلا انني تاثرت بها، إذ إنني لم اعتد ان اعامل بمثل هذا الكرم، من اصحاب هذه المراكز الرفيعة. ومن ثم فقد حدست - من مسلك "بارثيه" - ان السيد "دي بوتفيل"، وإن كان مضطرا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشؤون "جنيف". إلا انه اشفق علي في محنتي، واعد لي -بما له من نفوذ شخصي- هذا الملجا في "بيين"، حتى استطيع ان اعيش هناك في سلام، تحت رعايته.

ولقد شعرت بامتنان لهذه اللفتة، وإن لم ار ان افيد منها. ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى "برلين"، فإنني رحت اتطلع في لهفة إلى اللحظة التي انضم فيها إلى السيد "المارشال"، وانا موقن من انني لن احظى بالراحة الحقيقية، والسعادة الباقية، إلا معه.

*****

ورافقني "كيرشبيرجر" -عند رحيلي عن الجزيرة- حتى "بيين"، حيث الفيت "فيلدرميه"، وبعض البيينيين الآخرين، في انتظاري. وتناولنا الغداء معا في فندق البلدة، وكان اول ما فعلته -عند الوصول- هو البحث عن محفة، إذ كنت معتزما الرحيل في الصباح التالي. ولقد عاد اولئك السادة -اثناء الغداء- إلى تجديد إلحاحهم علي بالبقاء بينهم، في حرارة، وفي تاكيدات مؤثرة، حتى إن عواطفي لانت لهم بالرغم من كل إصراري، ومن قلبي. وما إن راوا انني بدات اتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم، ووفقوا في ذلك، حتى إنني ارتضيت في النهاية- ان اغلب على امري، ووافقت على البقاء في "بيين".. حتى الربيع المقبل، على الاقل.

وبادر "فيلدرميه" -لفوره- إلى البحث لي عن مسكن، وراح يطري لي في تحمس غرفة صغيرة تعسة، في مؤخرة طابق ثالث من مبنى، تطل على فناء استطيع ان امتع بصري فيه، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة، في مدبغة للجلود. وكان صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم، وغدا وضيعا، لا ضرر منه. وقد سمعت عنه -في اليوم التالي- انه كان سكيرا، مقامرا، سيئ السمعة جدا في المنطقة. ولم تكن له زوجة ولا اطفال ولا خدم. وإذ احتبست نفسي -في غرفتي المنعزلة- في وحدة كئيبة، شعرت انني -في ابهج بلد في العالم- قد انسقت في سكناي، لافضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابا وغما، في بضعة ايام قلائل. وكان اشد ما احزنني انني -بالرغم من كل ما قيل لي عن تلهف الاهالي على ان اقيم بينهم -لم اكن الاحظ، عندما اسير في الطرقات، اي كرم في السلوك، او اي ود في النظرات!.. ومع ذلك فإنني كنت قد عقدت عزمي تماما على ان امكث هناك، عندما علمت -في اليوم التالي بالذات- ورايت، ولاحظت بنفسي، ان المدينة كانت في اضطراب فظيع من اجلي. وبلغ الكرم بعدد من الناس، ان اسرعوا إلى إنبائي بانني ساخطر -في اليوم التالي، وباخشن

الأساليب- بأن أغادر لفوري البلاد، أعني البلدة!

ولم أجد من أستطيع ان اعتمد عليه، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد ألحوا علي في البقاء.. فاختفى "فيليدرميه"، ولم اعد اسمع شيئا عن "بارليه"، ولم يلح لي ما ينم عن ان توصياته قد اكسبتني رضا "رعاته واهله"، الذين كان يفخر بهم. على ان سيدا من ابناء "بيرن"، يدعى السيد "دي فو-ترافير"، كان يملك بيتا بديعا بالقرب من المدينة، فعرض علي أن يأويني، أملا في ان انجو -كما قال- من الرجم بالطوب. ولم يبد هذا العرض كافيا لإغرائي على ان اطيل مقامي بين هؤلاء القوم المضيافين.

وإذ كنت قد بددت بهذا التاخير ثلاثة أيام، فإنني كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة -التي امهلتنيها سلطات "بيرن" لاغادر اراضيها- بأمد كبير. ولما كنت اعرف غلظة القوم، فإنني لم اخل من قلق بشأن الطريقة التي قد يعاملونني بها في مروري باراضيهم. واعفاني من هذه الحيرة حاكم "نيداو"، بتصرف كان ابعد ما يخطر بالبال. فقد اعرب جهرا عن عدم رضائه عن الاساليب العنيفة التي انتهجها اعضاء مجلس الشيوخ، وذكر -بكرامة نفس- انه يرى ان واجبه يقتضيه ان يشهد الملأ على انه لم يكن ذا علاقة بالأمر. ولم يتورع عن ان يغادر منطقته؛ ليفد لزيارتي في "بيين"!

ووصل في اليوم السابق على رحيلي، غير مستخف، بل في كثير من المظاهر، فقد جاء في زيه الرسمي وعربته، مصطحبا سكرتيره. وحمل إلي جواز سفر صادر منه، يمكنني من عبور أراضي حكومة "بيرن"، دونما خوف من اعتداء.، ولقد أثرت الزيارة في نفسي، اكثر مما اثر جواز السفر. وما كان شعوري بهذا التأثر ليقل، لو ان هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيري، فلست اعرف شيئا اعظم نفوذا على القلب من الشهامة التي تؤدى في لحظتها المناسبة، من اجل شخص مستضعف، اضطهد ظلما!

واستطعت -أخيرا- أن استاجر محفة، بعد عناء، فانطلقت في الصباح التالي، مغادرا هذه الأرض القاتلة، قبل وصول الوفد الذي اريد به تكريمي.. بل قبل ان اتمكن من رؤية "تيريز" مرة اخرى. إذ إنني -حين ظننت انني سامكث في "بيين"- كنت قد كتبت إليها لتلحق بي، بل إنني كدت لا اجد وقتا كافيا لاكتب لها بضعة سطور، انبئها فيها بسوء طالعي الجديد، ولسوف يتبدى في الجزء الثالث من "اعترافاتي" -إذا قدر لي ان اوتى القوة كي اكتبه- كيف انني كنت في الواقع منطلقا إلى "إنجلترا"، وأنا اظنني منطلقا إلى "برلين".. وكيف ان السيدتين اللتين كانتا تواقتين إلى ان تتحكما في حركاتي -بعد ان طاردتاني بمؤامراتهما من "سويسرا"، حيث كنت في قبضة نفوذهما تماما- افلحتا، في النهاية، في ان تسوقاني إلى ايدي اصدقائهما!

*****

ولقد اضفت ما يلي، عند قراءتي هذه "الاعترافات" على السيد والسيدة "كونته ديجمون"، والسيد الأمير "بيجناتيللي"، والسيدة المركيزة "دي ميم"، والسيد المركيز "دي جيينيه":

"إنما قلت الحق، فإن عرف احد اشياء تناقض ما عرضت، فإنما يعرف اكاذيب وافتراءات، ولو قام عليها الف دليل.. وإذا هو ابى ان يتحرى صحتها، وأن يمحصها معي، وانا بعد على قيد الحياة.، فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة، اما انا، فإنني أعلن بصوت عال، ودونما خوف: ان اي امرئ، يستطيع

-ولو لم يقرأ مؤلفاتي- ان يصدق بعد ان يتبين بعينيه طباعي، وخلقي، ومسلكي، وميولي، ومسراتي وعاداتي، انني رجل عديم الشرف والاستقامة.. فإنما هو رجل جدير بأن يخنق" !

بهذا اختتمت قراءة "اعترافاتي"، والجميع سكوت.. وكانت السيدة "ديجمون" هي الوحيدة التي بدا عليها التأثر، فراحت ترتجف بوضوح، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ولاذت بالصمت، كبقية الجماعة.

وهكذا كانت النتيجة التي خرجت بها من هذه القراءة ومن بياني.

تمّت بعون الله

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط)

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت – لبنان.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة اجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوفاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	الكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيمو جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك



"جان جاك روسو"

١٧١٢-١٧٧٨

ولد "جان جاك روسو" في سنة ١٧١٢ وهو نجل ساعاتي من "جنيف" كان في طفولته وشبابه مثالا للنشاط والتوثب، ولم يكد يبلغ السابعة والثلاثين من عمره حتى نشر كتابه "خطب في العلوم والفنون".

وأشهر مؤلفاته هي "رسالة في عدم المساواة"، و"العقد الاجتماعي"، و"هيلواز الجديدة"، و"الاعترافات".

وكان في نقده شديد القسوة على معاصريه، وكان من رسل الطبيعة الداعين إلى البساطة لأنه يرى أن الناس جديرون أن يحبوا- إذا تركوا التصنع -حياة وادعة سعيدة.

وقد كان "روسو" من أكبر الكتاب الثائرين الذين تفخر بهم "فرنسا"، وقد وهبه الله خيالا رائعا وقلبا جياشا بأسمى الأحاسيس. وقد أبدع في وصف الطبيعة وروائعها أيما إبداع فأعاد بذلك عهود "برناردن دي سان بيير" و"شاتو بريان" و"جورج ساند".

وقد مات في سنة ١٧٧٨ عن عمر يناهز ٦٦ سنة.

الاعترافات:

وهي مجموعة قصص للسيرة الذاتية كتبت في الأعوام بين (١٧٦٤-١٧٧٠) ويحكي فيها الكاتب أحداث حياته ولم يكن "روسو" ينوي إضافة صفتي الكمال والحياة المثالية على هذه المجموعة من الكتب، وإنما كان يحكي جميع أحداث حياته ويعترف بكل أخطائه ومنها اتهامه الكاذب بالسرقة وهو طفل.

وتحولت هذه المجموعة القصصية إلى مسرحية وكان الراوي هو الحاكم وكانت تنقسم إلى جزئين كل جزء يتضمن ١٠ كتب.

وكانت الإعترافات تحكي حياة الكاتب وروحه الحساسة وقال "روسو" عن كتابه الشهير "الاعترافات": "لكي يعرفني قرائي جيدا يجب أن يعرفوا طفولتي وشبابي و"الاعترافات" مليئة بالانفعالات والأفكار المتتابعة التي تجعل القارئ يحكم جيدا على الكاتب ويعطيه الأسباب والأعذار ويشعر بتسلسل الأحداث".

وكتب "روسو" "الاعترافات" بطريقة تجعل القارئ يشعر بنبض الكاتب ومدى معاناته الصادقة في ميلاده وطفولته البائسة وحياته بجانب مدام "ورنس" والسنوات الباريسية ونجاحاته وصداقاته وتنقسم حياة "روسو" إلى فترتين: الفترة الأولى سعيدة وبريئة، والفترة الثانية حزينة وسوداء.


ISBN 9953-443-29-7
9 789953 443294